المفصَّل في تاريخ العَرب قبل الإسلام

الجُزءُ السَّادس

The Comprehensive History of Arabs prior to Islam

The Sixth Volume

www.muhammadanism.org
May 20, 2007
Arabic

[أديان العرب قبل الإسلام]

[Religions of Arabs prior to Islam]

الدَّكتُور جَوّاد عَلي

Dr. Jawād ʻAlī

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

٦

المفصّل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جوَاد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء السّادس

بيروت
○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٣ م

© Muhammadanism.org — All Rights Reserved.

الفصل الحادي والستون

أَديان العرب

وللعرب قبل الإسلام مثل سائرالشعوب الأخرى تعبدوا الآلهة، وفكّروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق، ووضعوا لها أسماء وصفات، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم، سلكوا في ذلك جملة مسالك، هي ما نسميها في لغاتنا بالأديان.

وتقابل كلمة (دين) العربية لفظة Religion في الإنكليزية من أصل لاتيني هو Religere أو Religare. وآراء العلماء المعنين بتاريخ الأديان وفلسفتها على اختلاف كبير جداً في وضع حد علمي مقبول بين الجميع لموضوع الدين، وربما لا يوجد موضوع في العالم اُختلفت في تحديده الآراء كهذا الموضوع: موضوع ماهية الدين وتعريفه، حتى صار من المستحيل وضع إطار يتفق عليه لصورة يحمع على أنها تمثل الدين. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله كاتب، هو أن يكتب رأيه بوضوح فيما يعنيه من (الدين)، فلذا فعل ذلك، صار من المعروف ما قصد صاحبه منه[١].

وقد عرّف بعض العلماء الدين أنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر، يكون لها أثر في حياة هذا الكون[٢]. وعرفه آخرون أنه استمالة واسترضاء

---

[1] Sir James G. Fraser, The Golden Bough, A Study in Magig and Religion, Vol., I, p. 50, Arbriged Edtion, London, 1947.

[2] K.B. Tyior, Primitive Culture, I, p. 424, Ency. Brita. Vol., 19, p. 103.

لقوى هي فوق البشر، يؤمن أنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان[1]. وهو عند بعض آخر شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائن أو كائنات إلهية، والصلة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة وبين الكائن أو الكائنات الإلهية[2]. وهو يُطلق بهذا الاعتبار على الإسلام كما يُطلق على اليهودية والنصرانية وعلى المجوسية وعلى غيرها من أديان سواء أكانت سماوية أم غير سماوية كما يصطلح على ذلك بعض العلماء.

وهناك تعريفات وحدود كثيرة أخرى للدين، نشأت من اختلاف أنظار الباحثين بالقياس إلى مفهوم الدين. فهناك مسائل كثيرة مختلف فيها: هل تدخل في نطاق حدود الدين أو لا كما أن مفهومه قد تغير عند الغربيين باختلاف العصور[3].

وليس من السهل وضع حدود معينة لمعنى الدين، فإن وجهات نظر الأديان نفسها تختلف في هذا الباب. وللدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الدين عند غيرهم، ومفهومه في نظر الأقوام المتقدمة يختلف باختلاف دينها وباختلاف وجهة نظرها إلى الحياة. وهناك أمور تدخل في حدود الدين عند بعض أهل الأديان، على حين أنها من الأمور الأخلاقية أو من أمور الدولة في نظر بعض آخر، ومن هنا تظهر الصعوبات في تعيين المسائل التي تعدّ من صلب الدين في نظر الجميع[4].

وللدين مهما قيل في تعريفه، شعائر تظهر على أهله، فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى، كما في العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك[5]، ولهذه الأمور أثر بالطبع في النواحي الاجتماعية والثقافية، إذ تطبع أتباع الدين بطابع مميز خاص.

وقد زعم بعض المستشرقين ان لفظة (الدين) من أصل أعجمي، وأنها من

---

[1] The Golden Bough, Vol., I, p. 222, Arbriged Edtion, p. 50.
[2] H. Schimdt, Philosophische Wörterbuch, S. 551.
[3] Hastings, Encyclopedia of Religion and Ethics, Vol. 10, p. 662, Art. Religion, Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 13-14, p. 228, Ency. Brita., Vol., 19, p. 103, Friess and Schneider, Religion in Varios Cultures, New York, 1932.
[4] Ency. Relig., Vol., 10, p. 263, Ency. of Social., Vol., 13-14, p. 228.
[5] Ency. Relig., Vol., 10, p. 663.

الألفاظ المعربة، أصلها فارسي هو (دَينا) Daena [1]. وقد دخلت في العربية قبل الإسلام بمدة طويلة. وترد لفظة (دين) بمعنى الحشر في الإرمية والعبرانية كذلك. وهي (دينو) في الإرمية. وتقابل لفظة Daino الإرمية لفظة الديان في العربية. وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة. وتعني لفظة (دين) القضاء في اللغة البابلية. و(ديان) (ديونو) Dayono، الحاكم والمجازي والقاضي في لغة بني ارم[2]. وهي بهذا المعنى في العربيه أيضاً[3].

والدين في تعريف علماء اللغة: العادة والشأن. تقول العرب: ما زال ذلك ديني وديدني، أي عادتي. والدين بمعنى الطاعة والتعبد. قد ورد في الحديث: (كان على دين قومه)، أي كان على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم، من الحج والنكاح والميراث، وغير ذلك من أحكام الايمان. وجاء: (كانت قريش ومن دان بدينهم، أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه، واتخذ دينهم له ديناً وعبادة)[4].

ومن (دين) الديّان، بمعنى الحكم القاضي والقهار. ومن ذلك مخاطبة (الأعشى الحرمازي) الرسول بقوله:

يا سيد الناس وديّان العرب.
والديان: الله، ومن أسماء الله[5].

وقد وردت هذه اللفظة في المعنى المفهوم منها في الإسلام في بيت شعر ينسب الى أميّة بن أبي الصلت. هو:

كلّ دين يوم القيامة عند اللـ   ـه إلاّ دين إلحنيفة زور[6].

---

[1] Handwörterbuch des Islam, S. 98, Grundiss, der Iran. Philoso. I, 1, S. 107, 270, I, 2, S. 26. 170, II, S. 644. Juynboll, Handbuch des Islamischen Gesetzes, S. 40, 58, Shorter Ency. of Islam, p. 78, Ency. I., p. 975, Zeitscher.für Assyr., Bd. XIV, S. 351.

[2] برصوم (ص ٦٠)، غرائب اللغة (١٨٢).

[3] اللسان (١٣/ ١٦٦ وما بعدها)، (دين).

[4] اللسان (١٣/ ١٦٦ وما بعدها)، (دين)، تاج العروس (٩/ ٢٠٨ وما بعدها)، (دين).

[5] اللسان (١٣/ ١٦٦ وما بعدها)، (دين)، تاج العروس (٩/ ٢٠٨ وما بعدها)، (دين).

[6] الأغاني (٤/ ١٢٢)، (دار الكتب المصرية).

غير أننا لا نستطيع أن نحكم بورودها في شعر أمية ما لم نثبت أن ذلك الشعر هو من شعره حقاً، وأنه ليس بشعر إسلامي صُنع ووُضع على لسانه، فقد وضعت أشعار وقصائد على لسانه وعلى لسان غيره من للشعراء.

ووردت بهذا المعنى أيضاً في النصوص الثمودية. وردت في نص سجله رجل من قوم ثمود، توسل فيه إلى الإلَه (ودّ)، أن يحفظ له دينه، (ا ل هـ د ي ن ي ق. ي د)[1]، ووردت في نص آخر جاء فيه: (بدين ود امت)[2]، أي (بدين ودّ أموت)، أو (على دين ود أموت) فاللفظة إذن من الألفاظ العربية الواردة في النصوص الثمودية، وقد يعثر عليها في نصوص جاهلية مدوّنة بلهجات عربية أخرى.

ويصنّف بعض العلماء، الأديان، إلى صنفيْن: أديان بدائية Primitive Religions، وأديان عليا The Higher Religions، غير أنّ هذا التقسيم لا يستند إلى التسلسل الزماني، وإنما يقوم على أساس دراسة أحكام الدين وعقائده وعمق أفكاره. فالأديان التي تقوم على أفكار بدائية وعلى السحر Magic وعلى المبالغة في التقديس وتقديم القرابين Sacred، والتي تنحصر عبادتها بأفراد قرية أو قبيلة واحدة، وأمثال ذلك مما يشرحه علماء تأريخ الأديان وعلماء فلسفة الأديان، هي من أديان الصنف الأول. فإذا توسع مجال الدين وشمل قبائل عديدة، وتعمق في أحكامه وفي تشريعه وفلسفته، وصار الإله أو الآلهة إلهاً ذا سلطان واسع أو آلهة ذات سلطان واسع عُدّ الدين من الأديان العليا[3].

وأما تقسيم الأديان إلى أديان قبيلية Tribal Religions و(أديان قومية National Religions وأديان مطلقة عامة (Absolute Religions, Universal Religions) فإنه، وإنْ كان تقسيماً واضحاً ظاهراً بالقياس الى الطرق الاخرى لتقسيم الأديان، يرد عليه أنه تقسيم بُني على أسس وحدود ليست لها أرض صلبة فى جوهر الدين وأركانه، فهو بعيد عن المبادىء الأساسية التي تجب مراعاتها في تقسيم كل علم أو موضوع[4]. كذلك تجابه للتقسيم الثلاثي للأديان إلى (أديان

[1] Grimme, S. 34, 40.
[2] Mu 646/17, Grimme, 40.
[3] Ency. Brita., Vol., 19, p. 107.
[4] Ency. Brita., Vol., 19, p. 111.

الطبيعة) Nature Religion. و(ديانة الشريعة) Geztzes Religio، و(ديانة الخلاص) Erlosungs Religion عند بعض العلماء الألمان صعوبات كبيرة تجعل السير على أساسه في دراسة تطور الدين أمرأ عسيرا شاقاً[1].

وتستند دراسات علماء تاريخ الأديان لتطور الأديان والأدوار التي مرت بها إلى دراسة أمور كثيرة تاريخية ونفسية واجتماعية واقتصادية، ولهم في ذلك جملة طرق، منها طريقة الدراسات المقارنة The Comparative Method، وهي تعتمد كما يتبين من أسمها على المقارنات بين الأديان، فتتناول جميع النواحي بالبحث، لتجد ما بينها من مطابقات وّمفارقات. ومنها طرق البحث التأريخي والاجتماعي Historical and Sociological Methods وتستند إلى الدراسات التأريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والعوامل الأخرى، للناس وللمنطقة التي عاشوا فيها، وأثر كل هذه العوامل في نمو الأفكار الدينية وظهورها، وطرق عديدة أخرى تذكر في كتب تواريخ الأديان[2].

وقد تقدمت دراسة تأريخ الأديان تقدماً كبيراً، ولا سيما بعد اتباع أساليب الطرق التجريبية والبحوث المقارنة والتحليل النفسي في هذه الدراسة. وظهر بحث جديد شائق طريف، هو (فلسفةّ الدين) The Philosophy of Religion أفاد كثيراً في معرفة دراسة تطور الأديان ومبادئها الأساسية، كما ظهرت فروع أخرى كهذا الفرع لها صلة بدراسة الدين وتقدمه، كالفرع النفسي الذي يعتمد على الدراسات النفسية للدين، وهو فرع نستطيع أن نسميه بـ (علم النفس الديني) The Psychology of Religion في الإنكليزية و Religionspsycologic في الألمانية[3]. وكالفرع الذي يعتمد على أساليب بحث الاجتماع وطرقه لدراسة الدين باعتبار أن الدين نفسه ظاهرة من ظواهر الحياةّ الاجتماعية[4].

وهناك عوامل عديدة لها أثرها في تطور الأديان، وفي (تكييفها)، منها أثر العوامل (الطبغرافية) Topographic Factors. وأثر (المحيط) Climatic Factor

---

[1] Philosophische Wörterbuch, S. 552.
[2] Ency. Relig., 10, p. 964.
[3] Strattons, Psychology of the Religions Life, 1911, Ency. Brita., 19, p. 111, Schmidt, S. 554.
[4] Schmidt, S. 554, J. Wach, Einfuhrung in die Religion, 1941.

وأثر الحالات النفسية في تكييف الدين، وفي تصور الناس لآلهتهم. ولهذا تصور اليونان مثلاً آلهتهم على شاكلتهم، تصوروها ذات أخلاق وصفات تشبه أخلاق البشر وصفاتهم، تتخاصم وتتصادق وتتباغض ويحسد بعضها بعضاً، تشرب الخمر وتحزن وتفرح، وتسرق أيضاً. ونجد في الـ (ايدا) Edda نفسية الشعوب الشمالية الأوروبية ممثلة في الأساطير التي تتحدث عن الآلهة والأبطال[١].

ويظهر أثر العوامل المذكورة في الديانة الهندية القديمة، وهي من الديانات الآرية، وفي الديانة المجوسية، وهي من أهل السهول وديانات أهل الجبال، وبين ديانات الساميين الشماليين وديانات الساميين الجنوبيين، يظهر في الأساطير (Mythology) وفي تصور الآلهة وتقديمها وتأخيرها وما شابه ذلك من أمور[٢].

ولشكل المجتمع أثره كذلك في تطوير الدين وفي أحكامه. فمجتمع يقوم على الزراعة يختلف في تفكيره عن مجتمع يعيش على الصناعة أو على الرعي في بوادٍ واسعة، كذلك للسياسة ولأشكال المجتمعات السياسية دخل في تطور الأديان. وقد كان التعاون وثيقاً جداً في الأيام الماضية خاصة بين السلطات الزمنية وبين السلطات الدينية حتى كان الحكام الزمنيون كهاناً في كثير من الأوقات، كما حدث أن وقع اختلاف بين السلطتيْن أدى إلى حدوث تغيير في عقيدة الحكومة أو أكثرية الشعب.

وطالما أدى قهر مدينة أو قبيلة أو شعب إلى قهر آلهتها معها وموتها، وإلى عبادة آلهة القاهرين المتغلبين باعتبار أنها أقوى وأعظم شأناً من آلهة المغلوبن التي لم تتمكن من حمايتهم من تعديات الغالبين. وقد تبقى تلك الآلهة فتندمج في آلهة المغيرين، فيزداد بذلك العدد، وتتعدد الآلهة، وتختلط الأساطير بعضها ببعض وتتداخل. ولهذه الناحية أهمية كبيرة في تحليل عناصر هذه الأساطير، ورَجْعها إلى منابعها الأولى. كذلك يكون للجوار وللصلات التأريخية والروابط الثقافية أثر في ديانات الشعوب وفي (تكييفها) ويكون للثقافة خاصة أثر بارز في هذا التوجيه.

غير أن للأديان كذلك أثرها في توجيه الأفراد والقبائل والشعوب، وفيما ينتج عن عمل الإنسان من مجتمعات وسياسة وثقافة واقتصاد[٣]. فهذه نواحٍ يجب أن

---

[1] Ency. Social., 13-14, p. 232.
[2] Ency. Social., 13-14, p. 232.
[3] Ency. Social., 13-15, p. 234.

تلاحظ كلّها في دراستنا لتأريخ الأديان. هذا ويجب ألاّ نتصور أن أديان العرب قبل الإسلام لم تتأثر بمؤثرات خارجية. فلم تأخذ من الأمم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً، جرياً على نظرية القائلين بعزلة العرب وبعدم اتصالهم بالخارج، وبأنهم بدو، لا علم لهم ولا رأي ولا دين. وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الإسلام. وإذا وافق أولئك على أن اليهودية والنصرانية كانتا في جزيرة العرب قبل الإسلام كما نص على ذلك القرآن الكريم، وأن من العرب من كان على دين يهود، وأن منهم من كان على دين النصارى، فلن يستطيعوا إنكار ورود اليهودية والنصرانية إلى العرب من الخارج بعمل الهجرة والتبشير والاتصال بفلسطين والعراق. وسيوافقون أيضاً على أن الوثنيين قد تأثروا كذلك بوثنية غيرهم، كما نص على ذلك الاخباريون وأنهم أثروا في غيرهم أيضاً.

إن معارفنا عن أديان العرب قبل الإسلام مستمدة في الدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتها المتعددة من معينية وسبئية وحضرمية وأوسانية وقتبانية وثمودية ولحيانية وصفوية، وهي نصوص ليس من بينها نص واحد ويا للأسف في أمور دينية مباشرة، مثل نصوص صلوات أو أدعية دينية أو بحوث في العقائد وما شابه ذلك. غير أن هذه النصوص المذكورة، ومعظمها كما قلت سابقاً في أمور شخصية، حوت مع ذلك أسماء آلهة ذكرت بالمناسبة، وبفضلها عرفنا أسماء آلهة لم يصل خبرها إلى علم الأخباريين؛ لأن ذكرها كان قد انطمس وزال قبل الإسلام. ومن هذه النصوص استطعنا أن نستخرج آلهة القبائل العربية القديمة، وأن نرجعها إلى المواضع التي كانت تتعبد بها لها، وأن نعيّن العصور التي كان الناس فيها يتعبدون لها على وجه التقريب.

كذلك تعدّ الكتابات والنقوش المدونة ببعض اللغات الأعجمية كالآشورية والعبرانية واليونانية واللاتينية ولغة بني إرم، مورداً مفيداً لمعرفة أديان العرب قبل الإسلام بعد النصوص العربية. فقد وعت أسماء أصنام قديمة نصت عليها، وبذلك ساعدتنا في الوقوف على عبادتها وعلى من تعبّد لها من قبائل.

وأما أديان العرب قبيل الإسلام وعند ظهوره، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في هذا الباب. فنيه ذكر لما كان عليه الناس ولا سيما أهل مكة ويثرب والحجاز من عبادات وآراء، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل.

وفي تفسير القرآن الكريم تفصيل وشرح لما جاء موجزاً في الآيات البينات، ويضاف إلى ذلك ما ورد عن هذا الباب في الحديث.

وفي الشعر المنسوب إلى الشعراء الجاهليين اشارات إلى بعض عقائد الجاهليين، والى بعض الأصنام، تعرض لها شّراح الدواوين بالمناسبات، وترد هذه الإشارات في القصص المروي عن أخبار الجاهلية وعن أنساب قبائلها وأيامها وامثال ذلك وفي كتب الأدب واللغة والمعجمات، وهي تعيننا بالطبع على زيادة مادتنا في هذا الوضوع.

ويضاف إلى ذلك ما ورد في كتب السير والمغازي وفي كتب التواريخ من كتب خاصة مثل تأريخ مكة، ومن كتب عامة عن عبادات القوم قبل الوحي وفي أثناء الوحي وعن أمر الرسول بتحطيم الأصنام والأوثان. وقد ورد بهذه المناسبة أوصاف بعضها، وذكرت بعض المواضع التي كانت قائمة فيها، والقبائل التي كانت تتعبد لها، وما أدير حول بعضها من قصص، أو ما قيل عنها في الجاهلية وفي تحطيمها من أقوال.

ومما يجب علينا ملاحظته، إن الشعر الجاهلي الذي أمدنا بفيض من معارف قيمة عن الجاهلية القريبة من الإسلام، لم بمدنا بشيء مهم عن الحياة الدينية عند الجاهلين، فكأنه أراد مجاراة من دخل في الإسلام في التنصل من أيام الجاهلية ومن التبرؤ منها، ومن غض النظر عن ذكر أصنام حرمها الإسلام. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن رواة الشعر في الإسلام، قد أغفلوا أمر الشعر الجاهلي الذي مجد الأصنام والوثنية، وأهملوه، فلم يرووه، فمات، وأن بعضاً منهم قد هذب ذلك الشعر وشذبه، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية، ورفع منه أسماء الأصنام، وأحل محلها اسم الله، حيث يرد اسم الصنم. فما فيه اسم الله في الشعر الجاهلي، كان اسم صنم في الأصل.

وقد ألف بعض العلماء مؤلفات خاصة في الأصنام، وصل إلينا منها كتاب (الأصنام) لابن الكلبي[1]. أما المؤلفات الأخرى، فلم يصل إلينا منها إلا الاسم.

---

[1] «كتاب الأصنام» بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٥م الطبعة الثانية، «مطبعة دار الكتب المصرية»، وسيكون رمزه: الأصنام. وقد طُبع الكتاب مراراً، وتُرجم إلى الإنكليزية والألمانية وإلى لغات أخرى.

وممن ألف في هذا الموضوع أبو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان[١]، والجاحظ[٢]. وقد استفاد ياقوتّ الحموي في كتابه (معجم البلدان) من كتاب (الأصنام) لابن الكلبي، وأورد ما أخذه منه في الكتاب، أما النسخة التي اعتمد الحموي عليها، فكانت بخط عالم مشهور وبروايته هو الجوالقي[٣].

وقد تعرض ابن الكلي لذكر الوثنية والأصنام فى مؤلفاته الأخرى عرضاً، وأشار (ياقوت الحموي) في بعض المواضع إلى روايات أخرى لابن الكلبي عن الأصنام، ذاكراً أنها ليست من كتاب (الأصنام). كما استقى من منبع آخر، هو محمد بن حبيب[٤].

وقد ألّف أبو عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع كتاباً في أديان العرب وآرائهم، اسمه (آراء العرب وأديانها)، وقف عليه ابن أبي الحديد، وأشار إلى بعض هفوات رآها فيه[٥]. وللجاحظ مؤلف اسمه (أديان العرب) استفاد منه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[٦].

وبالرغم من فضل من تقدم ممن ذكرت وممن لم أذكر، على دارس التأريخ الديني للجاهليين فإنهم عفا الله عنهم، لم يتعمقوا تعمقاً كافياً في بحوثهم عن الوثنية، ولم يتحرشوا بها في الغالب، إلاّ بسبب اتصالها بالإسلام، ثم إن في كثير مما ذكروه عن الوثنية طابع السذاجة وأسلوب الصنعة. وهو في أحوال الوثنية في الحجاز وعند القبائل التي ورد لها ذكر في حوادث الإسلام في أيام الرسول، في مثل قدوم وفود سادات القبائل على النبي، وأمر الرسول بتحطيم الأصنام. ولهذا لا نجد للوثنية في بقية مواضع جزيرة العرب، مكاناً فيما كتبه أولئك العلماء

---

1 «كتاب الأصنام وما كانت العرب والعجم تعبده من دون الله تبارك اسمه»، الفهرست (ص ١٢٥)، الأصنام (٢٣)، «الرد على عبدة الأوثان»، معجم الأدباء (١/ ١٣٢).

2 الأصنام (٢٣) وقد نقل منه (النويري) في كتاب نهاية الإرب (١٦/ ١٥)، (فهو ما نقله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ رحمه الله ــ في كتاب له سمّاه: كتاب الأصنام، قال فيه...).

3 الأصنام (٢٤).

4 J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, S. 12.

وسيكون رمزه: Reste.

5 بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٨).

6 Brockelmann, Suppl. I, S. 946.

عن الأصنام والأوثان أو الزندقة. ثم إن في الذي ذكروه وكتبوه تناقض محير، وتنافر عجيب، يجعلك تشعر، أن رواة تلك الأخبار، لم يكونوا يملكون يومئذ أدوات النقد لصقل ما سمعوه من أفواه الرواة، وما نقلوه عمن أدرك الجاهلية من أقول، أو إنهم كانوا يعمدون إلى الوضع أحياناً: لصنع أجوبة عن أسئلة وجُهت اليهم في أمور لم يأتهم علم بها من قبل.

خذ ما ذكره (الطبري) في تفسيره عن اللات والعزى ومناة، تجده يروي أقوالاً ذكر سندها تتناقض فيما بينها بشأن هذه الأصنام، وبشأن بيوتها ومواضعها، مما يدل على أن رواة تلك الأخبار لم يكونوا على علم بأخبارها ولا وقوف على حقيقتها، بدليل أن كل واحد منهم ناقض غيره فيما قاله، وأن أحدهم يذكر خبراً ثم يعود فيذكر ما يناقضه[1]. حدث كل ذلك في أمور كانت باقية إلى ما بعد فتح مكة، فكيف حالهم إذن في الأمور البعيدة نوعاً ما عن الإسلام.

ولا تتناول الموارد الإسلامية بعد، إلاّ الوثنية القريبة من الإسلام والوثنية التي كانت متفشية بين قبائل الحجاز في الغالب، وبين القبائل التي اعتمد عليها رواة الأخبار في جمع اللغة والأخبار. لذلك لا نجد فيها ذكراً للوثنية البعيدة عن الإسلام، فلم يرد فيها مثلاً أي شيء عن (المقه) إله سبأ الأكبر ولا عن بقية الآلهة العربية الجنوبية الكبيرة مثل (عثتر)، وعن دين العرب الجنوبيين وشعائرهم، ولاعن معبودات قبائل العربية الشرقية: أو قبائل العراق أو بلاد الشأم في الأزمنة البعيدة أو القريبة من الإسلام.

وأما أخبارها عن اليهودية والنصرانية، فقليلة جداً، قصتها وروتها لما لها من تماس وصلة بما جاء في القرآن الكريم، أو لما لها من علاقة بأيام الرسول. ولهذا صارت خرساء صامتة بالنسبة إلى أحوال أهل الكتاب في بقية أنحاء جزيرة العرب أو في العراق وفي بلاد الشام. فلم تتحرش بهم إلاّ بقدر. وبسبب ذلك صارت معارفنا عنهم قليلة جداً. وقد كان في إمكان أهل الأخبار جمع معلومات واسعة عن النصرانية في العراق قبل الإسلام، برجوعهم إلى رجال الدين النصارى الذين كانوا في الحيرة وفي مواضع أخرى من العراق، وهم رجال لهم علم واسع بهذه الأمور، لكن اختلافهم عنهم في الدين على ما يظهر، وانصرافهم إذ ذاك

---

[1] تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥ وما بعدها)، تاج العروس (٤/ ٥٥)، (عزز).

عن رواية كلّ ما يتعلق بالأمور الجاهلية خلا ما يتعلق بالنواحي القبلية وبالنواحي الأدبية واللغوية، كانا من العوامل التي أدت إلى غض نظرهم عن البحث في هذه الأمور.

وبفضل إقرار الإسلام لبعض أحكام وشعائر الجاهليين، استطعنا الوقوف على جانب من أحكامهم وشرائعهم. فعرفنا بذلك بعض شعائر الحج من حجّ مكة، وبعض أحكامهم وآرائهم في الدين ووجهة نظرهم إلى الحلال والحرام، والتقرب إلى بيوت الأرباب وغير ذلك. وما كان في وسعنا الوقوف عليها لولا تعرض الإسلام لها بالإقرار والتثبيت. أو بالتحريم والنهي، فأشير إلى كلّ ذلك في القرآن الكريم وفي كتب التفسير وأسباب النزول والحديث.

وقد عُني المستشرقون بهذا الموضوع، فكتبوا بحوثاً فيه. ومن هؤلاء (ولهوزن) J. Wellhausen صاحب كتاب (بقايا الوثنية العربية) Arabischen Heidentums [١] و(دتلف نيلسن) Ditlef Nielsion [٢] و(لودولف كريل) Ludolf Krehl وَغيرهم[٣].

وقد اعتمد (ولهوزن) على ما نقله (ياقوت الحموي) من كتاب الأصنام ومن غيره، ذلك لأن كتاب الأصنام لم يكن مطبوعاً ولا معروفاً أيام ألف (ولهوزن) كتابه عن الوثنية العربية.

ويعدّ كتاب (ولهوزن) أوسع مؤلف في موضوعه كتبه المستشرقون عن الوثنية العربية. وقد كتب المستشرقون حديثاً جملة بحوث عن الأصنام العربية التي عثر عليها في الكتابات فات ذكرها في كتاب (ولهوزن)، لأن أكثر النصوص الجاهلية لم تكن قد نشرت يومئذ، ولأن كثيراً منها قد نشر حديثاً، فلم يكن في استطاعة (ولهوزن) بالطبع أن يبحث في شيء من التفصيل في الوثنية ببلاد العرب الجنوبية. لذلك كان أكثر ما جاء في كتاب (ولهوزن) مستمداً من روايات

---

[1] استعملت الطبعة الثانية، وقد طُبعت ببرلين سنة ١٩٢٧.

[2] Ditlef Nielsen, Die Altarabische Mondreligeon und die Mosaische Meberlieferung, Strassburg, 1904.

[3] Ludolf Krehl, über die Religion der Varislamischen Araber, Leipzig, 1863.
إذا أردت أسماء بعض المراجع عن هذا الموضوع، فارجع إلى:
D. G. Pfannmüller, Handbuch der Islam—Literatur, 1923.

الأخباريين. فمن الضروري إضافة هذه البحوث الجديدة إلى ما كتبه هو وأمثاله، لنحصل على صورة شاملة عن أديان العرب قبل الإسلام.

وتفيد الأعلام الجاهلية المركبة Theophorus Names المدونة في النصوص الجاهلية وفي الموارد الإسلامية فائدة كبيرة في معرفة الأصنام، وفي تكوين فكرة عنها. ففيها أسماء آلهة، وفيها بعض الصفات الإلهية التي كان يطلقها الناس على آلهتهم. ونجد هذه الأسماء المركبة عند بقية الشعوب السامية كذلك. ومن مقارنة هذه الأسماء بعضها ببعض، استخرج العلماء آلهة اشترك في عبادتها جميع الساميين[١].

ونعني بـ Theophorus Names الأعلامَ المركبة من أسماء آلهة ومن كلمات أخرى مثل (عبد) و(عطية) و(امرئ) و(أوس) و(عائذ) و(جار) و(عوذ) و(وهب). ترد قبل اسم الإلَه أو بعده، فيتألف منها ومن أسماء الآلهة أسماء أعلام، مثل عبد الأسد، وعبد الله، وعبد سعد، وعبد العزّى، وعبد محرق، وعبد ذي الشرى، وعبد يغوث، وعبد ودّ، وعبد قيس، وعبد شمس، وامرىء القيس، وأمثال ذلك من أعلام.

ومعظم هذه الأعلام المدونة في مؤلفات الإسلاميين، أسماء أشخاص عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام، حفظتها ووعتها ذاكرة الرواة، ومنهم تناقلها أهل الأخبار. والغالب عليها الابتداء بكلمة (عبد) للرجال و(أمت) أي أمة للنساء، ترد قبل اسم الصنم. أما الأسماء المبتدأة بكلمات أخرى غير (عبد)، فمثل (أحمس الله) و(امرئ مناة)، و(امرئ القيس)، و(أنس الله) و(أوس الله)، و(تيم اللات)، و(خيليل)، و(زيد اللات)؛ و(زيد مناة)، و(سعد اللات)، و(سعد مناة)، و(سعد ودّ) و(سعد العشيرة)، و(سكن اللات)، و(سلم اللات)، و(شراحيل) و(شرحيل)، و(شرحبيل)، و(شكم اللات)، و(شهميل)، و(شيع القوم)، و(عائذ الله)، و(عمرو اللات)، و(عوذ مناة) و(عينيل)، و(قسميل)، و(مطرويل)، و(وهب اللات). وهي قليلة من حيث الاستعمال بالقياس إلى الأعلام المبتدأة بـ (عبد)[٢].

---

[1] Dr. H. Brau, Die Altnordarbischen Kultischen Personennamen, in WZKM, Bd., 32, 1925, S. 31 ff. 85 ff., Reste, I. ff., Ency., Religi. I p. 659.

[2] Reste, S. I.

ويلاحظ على بعض الأعلام المركبة، مثل عمرو اللات، وعوف إيل، وجد اللات، وسعد مناة، وودّ ايل، أن الكلمات الأولى من هذه الأسماء تتأخر في أعلام أخرى؛ فتسبق بكلمة توضع قبلها فيتكون منها علم مركب جديد كما في الأسماء الآتية: عبد عمرو، وعبد عوف، وعبد جدّ، وعبد سعد، وعبد ودّ، وقد كانت متقدمة في الأعلام الأولى. أما في هذه الأعلام فصارت في المنزلة الثانية.

وهذه الأسماء التي حفظتها ذاكرة أهل الأخبار، تخالف أكثر الأعلام العربية والسامية القديمة المدوّنة في النصوص وفي مؤلفات اليونان والرومان والسريان وغيرهم من حيث الصيغ والتراكيب. فقد ابتدأت هذه الأعلام كما رأينا بكلمات تلتها أسماء الآلهة. أما الأعلام القديمة، فقد كانت على العكس تبدأ باسم الصنم، وبعده الألفاظ الأخرى، مثل: (الشرح) (ايل شرح) و(اليفع) (ايل يفع) و(الذرح) (ايل ذرح) و(الكرب) (ايل كرب) و(السمع) (ايل سمع) و(اليثع) و(ايل يثع) وأمثال ذلك. أو تبدأ بكلمات ثم تليها أسماء الأصنام، إلاّ أنها ليست في حالة الإضافة، بل على صورة الإخبار والفاعلية، مثل (يذكر ايل) و(يثع ايل) و(يدع ايل) و(يشرح ايل) و(يسمع ايل)، و(ايل) (ال) هنا هو اسم الإله (ال) (ايلو) المعروف عند جميع الساميين[1].

وقد يوضع حرف الجر، وهو (اللام) (لامد) في الاسم، ليدل على تعلق الاسم بالإلَه، مثل (لحي عثت) في النصوص العربية الجنوبية، وقد عثر على طائفة من هذه الأعلام في الكتابات الفينيقية والعبرانية[2].

وقد تهمل الكلمة الثانية من الاسم المركب، ويقتصر على اللفظة الأولى، كما في: أوس، وزيد، ووهب، وتيم، وسعد، ونصر، وعائذ، وعبد، وأمثال ذلك من أعلام. فإنها اختصار لـ(أوس الله)، و(زيد اللات)، و(زيد مناة)، و(وهب اللات)، و(تيم اللات)، و(سعد مناة)

---

[1] Reste, S. 1, Nöldeke, über den Gottesnamen El, in Monatsberichte der Köni., Akademie der Wissenschaft zu Berlin, 1880, S. 761, 1887, S. 1175.
[2] Reste, S. 7, Nöldeke, in Wiener Zeitshrift für die Kunde des Morgenlandes, Bd., VI, S. 313.

و(سعد ودّ)، و(سعد اللات)، و(نصر اللات)، و(عائذ الله) و(عبد ود)، وغير ذلك. وقد يحدث العكس، فتسقط الكلمة الأولى، وتبقى الكلمة الثانية التي هي اسم الإلَه، ويصير هذا الاسم اسماً لشخص أو لأسرة أو لقبيلة، مثل: مناف، وغنم، وشمس، وإساف، ونائلة، وزهرة، وقيس، وعُطارد، وهبل، وجدّ، وأمثال ذلك. فإن هذه هي أسماء آلهة في الأصل، سُبقت بكلمات مثل (عبد)، ثم أُهملت هذه الكلمات الأولى، وبقيت أسماء الآلهة حية، ولكنها صارت أسماء لأشخاص وأسر وقبائل، تسبقها لفظة (بنو) في بعض الأحيان، لتدل على الانتماء إلى ذلك الاسم[1]. ولهذا الانتماء أهمية كبيرة في نظر الباحثين في فلسفة الأديان وتأريخها.

ويلاحظ أن بعض الأعلام المركبة المبتدأة بـ (عبد) مثلاَ، لا تتكون كلمتها الثانية من اسم إلَه، إنما تكون اسم موضع أو اسم شخص أو اسم جماد، مثل: عبد حارثة، وعبد المطلب، وعبد أمية، وعبد الدار، وعبد الحارث، وعبد الحجر، وما شاكل ذلك. ولبعض العلماء تفاسير وتعليلات في العوامل التي أدّت الى هذه التسميات: منها أن بعض هذه الأسماء هو لآلهة قديمة، نسيت فظن أنها أسماء أشخاص: وأن بعضاً آخر منها هو أسماء أشخاص كانت لهم قدسية أو منزلة خاصة، فتبرك الناس بتسمية أولادهم عبيداً لهم، وهو شيء يحدث حتى الآن، إذ نقول عبد المسيح، وعبد الرسول وعبد علي، وعبد الأمير، وعبد الزهرة. وعبد محمد، أان بعضاً آخر هو مسمّيات لمجتمعات، مثل عبد أهله، وعبد العشيرة، وسعد العشيرة، أو أنه نسبة الى طوطم أو جماد مقدس في نظر الناس[2].

وقد قضى الإسلام على الأسماء الوثنية، كما قضى على كثير من معالم الجاهلية، فأستبدل من أسلم اسمه الجاهلي الذي له صلة بصنم أو بشرك باسم إسلامي، وبذلك زالت تلك التسميات. كما زالت أكثر التسميات اليهودية والنصرانية بدخول أصحابها في الإسلام. وهذا شيء مألوف في تأريخ الإنسان. فقد قضت اليهودية على الأسماء الوثنية القديمة، وعوضت عنها بأسماء يهودية ذات صلة بالتوراة، وقضت النصرانية على الأعلام الوثنية أو طورتها لتكون ملائمة مع النصرانية، وهكذا

---

[1] Reste, S. 7. ff.
[2] Robertson, p. 42, Reste, S. 4.

حدث في الأديان الأخرى، بل وهذا ما يحدث اليوم في كثير من أنحاء العالم القلقة عند وقوع انقلابات سياسية، جث تتناول الأسماء أيضاً بالتغيير والتبديل، لتناسب الوضع الجديد.

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الصحابة، كانت أسماؤهم ذات صلة بالأصنام، فلما أسلموا أبدلها الرسول بأسماء إسلاميه. فقد كان اسم كاتب النبي (عبد الله بن الأرقم بن أبي الأرقم) (عبد يغوث) فلما أسلم دُعي (عبد الله)[١]. وكان اسم (عبد الله بن أصرم بن عمرو بن شعيثة) الهلالي (عبد عوف بن أصرم)، فلما قدم على النبي، فقال، من أنت؟ قال عبد عوف. قال النبي: أنت عبد الله، فأسلم[٢]. ونجد غيرهما وقد أبدل الرسول أسماءهم، حتى صار من يسلم يبدل اسمه إن كان له صلة بصنم، حتى ماتت الأسماء الجاهلية التي هي من هذا القبيل.

والأساطير Myth = Mythos، ونعني بها هنا الخرافات والأقاصيص، المتعلقة بالآلهة Legand، هي مصدر مهم لمعرفة تطور الأديان وتطور فكرة الألوهية عند الشعوب. وهي قد تكون شعراً، وقد تكون نثراً، وفي كلتا الحالتين تكون مادة خصبة للباحثين.

ومعارفنا عن الأساطير العربية الدينية قليلة جداً. وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن العرب لم تكن لهم أساطير دينية عن آلهتهم، كما كان عند غيرهم من الأمم كاليونان والرومان والفرس وعند بقية الآريين، بل حتى عند بعض الشعوب السامية الأخرى مثل البابليين[٣]. وفي رأيي أننا لا نستطيع أن نجزم في مثل هذه الأمور، لأن أحكامنا عن اليونان والرومان والبابليين إنما استنبطناها من نصوص ومؤلفات وصلت إلينا. أما العرب الجاهليون، فلم يصل إلينا منهم حتى الآن نصٌ ما في هذا الموضوع، يمكننا من الحكم بعدم وجود الأساطير الدينية عند العرب الوثنيين.

ومشكلتنا أننا لا نملك كما قلت نصوصاً دينية جاهلية، ولا كتباً كتبها يونان أو لاتين أو سريان أو غيرهم عن أساطير العرب في الجاهلية نستطيع استخراج

---

[1] الإصابة (٢/ ٢٦٥)، (رقم ٤٥٢٥).
[2] الإصابة (٢/ ٢٦٧)، (رقم ٤٥٣٤).

[3] Ency. Religi. I. p. 660.

حكم منها عن أساطير العرب. ولكن هذا الوضع لا يخولنا نفي وجود الأساطير عند العرب، بحجة بداوتهم وضيق أفقهم وبساطة تفكيرهم، كما أنه لا يخولنا أيضاً الحكم بوجود أساطير عندهم من طراز عال كما نجده عند اليونان مثلاً. ويتبين من بعض روايات الأخباريين، وهي قليلة، أن العرب كانت لهم أساطير كالذي رووه من أن (العيَوق) عاق (الدبران) لما ساق إلى الثريا مهراً، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص[١] وكالذي رووه عن (العَبُور) و(الغُمَيصاء) و(سُهَيْل). وقد كانت هذه النجوم مجتمعة، فانحدر سُهَيْل فصار يمانياً، وتبعته العَبوُر فعبرت المجَرَّةَ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت[٢]. وكالذي رووه من أن (الزُهرة) كانت امرأة حسناء، فصعدت إلى السماء ومسخت نجماً، وأمثال ذلك من قصص يظهر أنه من بقايا قصص أطول قديم[٣].

وإذْ لم تصل إلينا نصوص دينية جاهلية، صعب علينا تكوين فكرة صحيحة عن مفهوم الدين عند العرب، وعن كيفية عبادتهم لآلهتهم، وعن كيفية تصورهم للآلهة، خاصةً عند العرب الذين عاشوا قبل الميلاد.

وقد تعيننا أسماء الآلهة والأعلام المركبة في تكوين وجهة نظر عن صفات آلهة الجاهليين. فكلمات مثل (ودّ) و(شرح) و(سعد) و(سمع)، أو تعابير شل (ذت حمم) (ذات حميم) و(ذت صنتم) (ذات صنتم) و(ذت رحبن) (ذات رحبن) و(ذت بعدن) (ذات بعدن) (وذ قبضم) (ذو قبضم) وما شابه ذلك، لا بدّ أن تكون لها معانٍ خاصة تشير إلى صفات الآلهة التي قيلت لها، فتفيدنا في فهم عبادة الجاهليين وتفكيرهم في تلك الآلهة.

وإذا كانت بعض أسماء الآلهة أو صفاتها واضحة مفهومة تمكن الاستفادة منها في تكوين فكرة عن الآلهة، فإن هناك بعضاً آخر يحيط بمعناه الغموض، فلا نستطيع شرح معناه أو ترجمته إلى اللغات الأخرى. وليس من المعقول بالطبع عدم وجود مدلول أو مراد لأسماء هذه الآلهة عند من وضعها لها، ونسبها إليها، وإنما المعقول هو أن هذه المسميات نُسيت بتقادم الزمن وبزوال دولتها وعظمتها

---

1 بلوغ الأرب (٢/ ٢٣٩).
2 بلوغ الأرب (٢/ ٢٣٩).
3 البلخي: البدء والتأريخ (٣/ ١٤).

من الوجود، وضاعت معالمها، فلم يبقَ منها إلا الأسماء المجردة[١]. ولعل معانيها كانت غامضة حتى على من كان يتعبد لها، لاختفائها منذ زمن طويل، وعدم ورود نصوص مدونة إلى المتعبدين لها في هذه المعاني، وهذا شيء مألوف معروف.

وتختلف نظرة الإنسان إلى الخالق والخلق باختلاف تطوره ونمو عقله، ولهذا نجد فكرة (الله) (الإلَه) التي تقابل كلمة Deus في اللاتينية وكلمة Theos في اليونانية وكلمة God في الإنكليزية، تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها. فهي عند الشعوب البدائية القديمة والحديثة في شكل يختلف عن مفهومها عند الشعوب المتحضرة. كذلك اختلفت عند سكنة البوادي عن سكنة الجبال والهضاب، ويختلف مفهوم فكرة الله عند الشعوب السامية عنها عند للشعوب الآرية، لأسباب عديدة يذكرها علماء تأريخ الأديان[٢]. بل يختلف هذا المفهوم في داخل الشعب الواحد، يختلف فيه باختلاف ثقافة الإنسان وتقدم مداركه العقلية، فتصور كل إنسان خالقه على قدر عقله ودوجة ثقافته، صوّره وكأنه مرآة صافية لنفسه ولدرجة نمو عقله. ومن هنا قيل: إن الإنسان يصنع إلهه بنفسه، أي يصوره على نحو صورته ومبلغ تفكيره.

يقول (أكسينوفان) Xenophanes: «تصور الأحباش آلهتهم فطس الأنوف، سوداً. وتصور أهل (تراقية) Thracians آلهتهم ذوي عيون زرق وشعر أحمر. وزعم اليونان أن تصورهم للآلهة هو التصور الصحيح، أما تصور الزنوج وأهل تراقية عن آلهتهم، فهو تصور فاسد باطل! ولو كان للماشية والخيل والسباع أيد تتمكن من الرسم والنحت، لرسمت الخيل آلهتها على صورة خيل، ولنحتت تماثيلها على صورتها، ولرسمت الماشية ونحتت آلهتها على صورتها وهيئتها، تماماً كما يصور الإنسان وينحت آلهته على صورته وقدر إدراكه. كل صنف يتصور ويرى آلهته على صورته»[٣]. وقد نسب اليونان إلى آلهتهم كل الصفات والأعمال الانسانية المعروفة بين اليونانيين، فتصوروهم على هيئة بشر، لهم الفضائل، ولهم الرذائل، يتزوجون وينسلون ويحبّون ويعشقون ويسرقون ويكرهون ويتخاصمون بينهم ويتحاسدون

---

[1] Handbuch, S. 189.

[2] Ency. Religi., Vol., 6, p. 243, W. Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites, London, 1894, p. 5, Ency. Birta., 10, p. 480, «Lyod».

[3] Ency. Religi., 10, p. 113.

ويقومون بأقبح الأعمال كما يفعل الإنسان[١].

وهناك أشكال عديدة للعبادة، تمثل تعدد وجهة نظر الإنسان بالقياس إلى مفهوم الألوهية لديه. فهناك عبادة تسمى عبادة آباء القبائل، حيث أسبغ على أجداد القبائل ما يسبغ عادةً على الآلهة من نعوت وصفات. وتجد هذه العبادة عند القبائل البدائية. وقد يكون هؤلاء الأجداد أجداداً حقيقيين، وقد يكونون أشخاصاً خلقتهم الأساطير. ومهما يكن من شيء، فقد أعطي هؤلاء صفات الربوبية ونعوتها، ونظر إليهم نظرة من فيه قوى خارقة ذات هيمنة على العالم والخلق. وقد اصطلح على تسمية هذه العبادة بـ All Fathers في الإنكليزية وبـ Verehrung des Stammesvaters وبـ Urvaters في الالمانية، لأنها تقوم على أساس عبادة الأجداد[٢].

وإله بعض الناس الظواهر الطبيعية، لتوهمهم أن فيها قوى Spirit روحية كامنة مؤثرة في العالم وفي حياة الإنسان، مثل الشمس والقمر وبعض النجوم الظاهرة. وقد كانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي لفتت أنظار البشر إليها، لما في الشمس من أثر بارز في الزرع والأرض وفي حياة الإنسان بصورة مطلقة. كذلك للقمر أثره في نفس الإنسان بما يبعثه من نور يهدي الناس في الليل، ومن أثر كبير يؤثر في حس البشر. فكانا في مقدمة الأجرام السماوية التي ألّهها الإنسان. عبدهما مجردين في بادىء الأمر، أي دون أن يتصور فيهما ما يتصور من صفات ومن أمور غير محسوسة هي من وراء الطبيعة. فلما تقدم وزادت مداركه في أمور ما وراء الطبيعة، تصور لهما قوى غير مُدْرَكة، وروحاً، وقدرة، وصفات من الصفات التي تطلق على الآلهة. فخرجتا من صفتهما المادية البحتة ومن طبيعتهما المفهومة، وصارتا مظهراً لقوى روحية لا يمكن إدراكها، إنما تدرك من أفعالهما ومن أثرهما في هذا الكون.

وإذا كانت هذه العبادة قد اقتصرت على الظواهر الطبيعية البارزة المؤثرة،

---

[1] Ency. Religi., 10, p. 113.

[2] في الأصل «Father ours»، وقد أطلق «هويت»«Howitt» الاصطلاح «All Father»عليه،
Howitt, Native Tribes of S.E. Australia, London, 1904, Making of Religion, London, 1898, Ency. Religi., Vol., 6, p. 243

فإن هناك توسعاً في هذه العبادة تراه عند بعض الأقوام البدائية، يصل إلى حد تقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه وأمثال ذلك، إذ تصوروا وجود قوى روحية كامنة فيها، فعبدوها على أن لها أثراً خطيراً في حياتهم. ونجد في أساطير الشعوب البدائية أن الإنسان من نسل الحيوان ومن الأشجار أيضاً، كذلك تجد أمثلة عديدة من هذا القبيل في أساطير اليونان والرومان والساميين.

وهناك الشرك، وهو عبادة آلهة عديدة، كما أن هناك عقيدة التوحيد التي تدين بوجود إله واحد خالق لهذا الكون. وليس للشرك بالطبع عدد معين من الآلهة، فقد يكون بضعة آلهة، وقد يكون عشرات. والشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد، ويعرف باسم Polytheism: في الانكليزبة من كلمة Polys اليونانية ومعناها (كثير) و(تعدد)، ومن كلمة يونانية ثانية هي Theos وتعني (الإلَه) (الآلهة). ويختلف الشرك عن عقيدة الـ Polydaemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature، كما يختلف عن أديان التوحيد Monotheism من حيث القول بتعدد الآلهة، وعن القائلين بمبدأ (الحلول) (Panatheism) من حيث حلول الإلَه في الخلق والخلق في الإلَه[1].

وتطلق في العربية كلمة (إله) على الإله الواحد، وكلمة (آلهة) في حالة الجمع، أي في حالة القول بوجود آلهة عديدة. وتقابل كلمة (إلهَ) كلمة (ايلوه) Eloh = Eloah في العبرانية الواردة في سفر (أيوب). ومنها كلمة (إيلوهيم) Elohim في حالة الجمع، أي آلهة المستعملة في العهد القديم بالقياس إلى آلهة الوثنيين[2]. وكلمة (إله) لا تعني على كل حال إلهاً معيناً على نحو ما تعنيه لفظة (الله) في العربية التي يراد بها الله الواحد الأحد ليس غير.

أما (الله)، وهي كلمة الجلالة، فهي (اسم علم) خاص به على رأي، وهي (علم مرتجل) في رأي آخر. وقد ذهب الرازي إلى أنه من أصل سرياني أو عبراني. أما أهل الكرفة فرأوا أنه من (ال إلَه)، أي من أداة التعريف

---

[1] Ency. Religi., Vol., 10, p. 112.
[2] Hastings, p. 299, Ency. Religi., Vol., 6, p. 248, Ency., Bibli., III, Col. 33239, Hebrew Lexicon, 42, Ency., II, p. 464.

(ال) ومن كلمة (إله). وهناك آراء لغوية أخرى في أصل هذه اللفظة[1].

ولم يعثر على لفظة (الله) في نصوص المسند، وإنما عثر في النصوص الصفوية على هذه الجملة: (ف ه ل ه)، وتعني (فالله) أو (فيا الله) و(الهاء) الأولى هي أداة التعريف في اللهجة الصفوية. وقد وردت الجملة على صورة أخرى في بعض الكتابات الصفوية. وردت على هذا الشكل: (ف ه ل ت)، أي (فالات) (فيا الآت) أي في حالة التأنيث. وتقابل (اللات)، وهي نم مؤنث معروف ذكر كذلك في القرآن الكريم[2].

ويظن بعض المستشرقين أن (الله) هو اسم صنم كان بمكة، أو أنه (إلَه) أهل مكة، بدليل ما يفهم من القرآن الكريم في مخاطبته ومجادلته أهل مكة من اقرارهم بأن الله هو خالق الكون[3].

وترد في العربية كلمة أخرى من الكلمات المختصة بالخالق، هي (ربّ) وجمعها (أرباب). وهي من الكلمات العربية الجاهلية المذكورة بكثرة في القرآن الكريم، ولها معنى خاص في اللاهوت وفي الأدب العربي النصرانيِ. وتقابل كلمة Lord في الإنكليزية. وكلمة (بعل)، و(أدون) في اللغات السامية الأخرى[4]. ويذكر علماء اللغة أن (الربّ) هو الله، هو ربّ كل شيء، أي مالكه. وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له، وهو ربّ الأرباب، ومالك الملوك والأملاك، ولا يقَال الربّ في غير الله، إلا بالإضافة.

وقد قال الجاهليون: (الربّ) للملك. قال الحارث بن حلزة:

وهو الربّ، والشهيد على يو   م الحيارين، والبـــلاء بلاء[5]

ويظهر أن لفظة (الرب) و(رب) كانت بمعنى (سيد) ومالك عند

---

[1] الطبري: تفسير (١/ ٤٠)، اللسان (١٧/ ٣٥٧)، الكشاف (ص ٨)، تفسير الرازي (١/ ٨٤ وما بعدها)، البيضاوي (١/ ٤) طبعة (Fleicher)، المفردات، للأصفهاني (ص ١٩ ما بعدها)، Ency., II, p. 464

[2] Ency. Religi., Vol., 6, p. 248.

[3] Ency. Religi., Vol., 6, p. 248.

[4] Ency. Religi., Vol., 6, p. 248, Ency., III, p. 1088.

[5] اللسان (١/ ٣٩٩)، (ربب).

الجاهليين، ولم تكن تعني العلمية عندهم. أي ألوهية خاصة بالله، وهي تؤدي معنى (بعل) عندهم أيضاً. فكانوا يطلقونها على الإلَه والآلهَة وعلى الإنسان باعتباره سيداً ومالكاً. أما هذا التخصص الذي يذكره علماء اللغة، فقد حدث في الإسلام من الاستعمال الوارد في القرآن الكريم.

و(ربّ البيت)، الله، وكذلك: (رب هذا البيت)[1]. و(رب الدار)، أي مالكها، وكل من ملك شيئاً، فهو ربه. وبهذا المعنى (هو رب الأرباب) أما (الربة)، فعنوا بها الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف بالطائف. وكان لهم بيت يسمّونه (الربة) و(بيت الربة)، يضاهي (بيت الله) بمكة. فلما أسلموا هدمه (المغيرة). و(الربة): كعبة كانت بنجران، لمذحج وبني الحارث بن كعب يعظمها الناس[2].

وأما (بعل)، فمعناها مالك وصاحب ورب في اللهجات السامية. فترد بعل الموضع الفلاني، أي صاحب: ذلك الموضع وربه. ومؤنث الكلمة هو (بعلت). وترد كلمة (بعل) بمعنى زوج في العربية، وقد وردت بهذا المعنى في مواضع من القرآن الكريم[3]، وأما الزوجة، فهي (بعلت) (بعلة) أي في حالة التأنيث[4].

ولما كانت لفظة بعل تعني الرب والصاحب، صار اسم الموضع يرد بعد (بعل)، فيقال: (بعل صور)، و(بعل لبنان)، و(بعل غمدان)، أي رب المواضع المذكورة وصاحبها وسيدها. أما اذا وردت اللفظة مستقلة دون ذكر اسم الموضع المنسوب إليها بعدها، فتعني عندئذ رب وإلهَ، أي رب الجماعة المتعبدة المؤمنة به[5].

وقد ورد في القرآن الكريم في صدد الكلام عن إلياس Elijah ﴿وإنّ إلياسَ لَمنَ المرسلين. إذْ قال لقومه: ألا تتقون؟ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾[6]، وقد ذهب الطبري في تفسير (بعل) في هذه الآية إلى أن بعلاً

---

[1] ﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت﴾، قريش، الآية ٣.
[2] اللسان (١/ ٣٩٩ وما بعدها)، (ربب).
[3] البقرة: الآية ٢٨٨، هود: الآية ٧٥، النور: الآية ٣١.
[4] Ency., I, p. 610, Robertson, p. 94.
[5] Robertson, p. 94.
[6] الصافات، الآية ١٢٢ وما بعدها.

تعني رباً في لغة أهل اليمن، أو أن المراد ببعل صنم[١].

ومن رأي (روبرتسن سمث) Robertson Smith أن العرب اقتبسوا المعنى الديني لبعل من الأقوام السامية المجاورة لهم مثل سكّان (طور سيناء) أو موضع آخر، أخذوه من تلك الأقوام التي عُرفت باشتغالها بالزراعة، ولا سيما زراعة النخيل، وأن هذا المعنى دخل اليهم بدخول زراعة النخيل إلى بلاد العرب، وأنه أُستعمل عند العرب المزارعين. أما البدو والرعاة، فإنهم لم يستخدموا تلك اللفظة بالمعنى المذكور[٢]. وهو رأي يخالف رأي بعض المستشرقين من أمثال (نولدكه) Nöldeke و(ولهوزن) Wellhousen الذين يرون أن عبادةّ (بعل) هي عبادة سامية قديمة كانت معروفة عند قدماء العرب منذ أقدم العهود[٣].

ويرى بعض المستشرقين أن لفظة (بعل) أطلقت خاصة على الأرض التي لا تعتمد في زراعتها على الأمطار أو على وسائل الري الفنية، بل على المياه الجوفية وعلى الرطوبة في التربة، فينبت فيها خير أنواع النخيل والأثمار، فهي تمثل الخصب والنماء. والظاهر أن الساميين كانوا يخصصون أرضهم بالآلهة، لتمنّ عليهم بالبركة واليمن، فتكون في حمى ذلك الإلَه (بعل الموضع الفلاني). ومن هنا صارت جملة (بعل سميم) (بعل سمن) (بعل سمين) تعني (رب السماء)، ويعنى بذلك المطر الذي هو أهم واسطة من وسائط الإسقاء والخصب والنماء في جزيرة العرب وفي البلاد التي يسكنها الساميون[٤]. ورأى مستشرقون آخرون أن جملة (أرض بعل) تعني الأرض التي تُسقى بالأمطار[٥].

وذكر العلماء أن لفظة (الال) بمعنى الربوبية، واسم الله تعالى. وأن كل اسم آخره (ال) أو (ايل) فمضاف إلى الله تعالى، ومنه (جبرائيل) و(ميكائيل). وذكر أن (أبا بكر) لما سمع سجع (مسيلمة)، قال: هذا كلام لم يخرج من ال ولا بر، أي لم يصدر عن ربوبية[٦]. وقد ذهب

---

1 تفسير الطبري (٢٣/ ٥٣)، Ency., I, p. 610

2 Robertson, p. 97.

3 Nöldeke, in ZDMG., Bd., 40 1886, S. 174, Reste, S. 146, Handbuch, I, S. 240.

4 Robertson, p. 97, Ency. Religi., I, p. 664.

5 Reste, S. 146.

6 تاج العروس (٧/ ٢١١ ما بعدها)، (أل).

بعض علماء اللغة إلى أن اللفظة (ايل) من المعربات. عُربت عن العبرانية، وهي فيها اسم الله[1]. وهي من الألفاظ العامة التي ترد في اللغات السامية، ولا يعرف معناها على وجه مضبوط، ويظن أنها بمعنىً (القادر) و(العزيز) و(القهار)، و(القوي)، و(الحاكم). وترد في الشعر وفي أسماء الأعلام في الغالب. وقلما نجدها ترد في النثر[2].

وقد وردت في نصوص المسند وفي نصوص أخرى ألفاظ كثيرة مثل (ود) و(سمع) أي (سميع) و(حكم) أي (حكيم)، و(حلم) أي (حليم) و(علم) أي (عالم) و(عليم)، و(رحم) أي (رحيم)، و(رحمنن) أي (الرحمن)، وأمثال ذلك. ذكرت على صورة أسماء آلهة. لكنها في الواقع صفاتها لا أسماؤها. ذكرت في مقام ذكر أسماء الالهة، كما يقول المسلم في دعائه ربه يا سميع ويا حكيم ويا رحيم. وهي صفات وردت في القرآن الكريم.

وعلى من يريد الوقوف على رأي الجاهليين في طبائع آلهتهم وفي تعيين صفاتها، حصر هذه الصفات وضبطها، وتعيين مدلولها، وهي صفات تدل على معانٍ خلقية مجردة. وسنتمكن بذلك من الوقوف على نظرة الجاهليين إلى آلهتهم، ومن تعيين وتثبيت عددها إذ سيظهر لنا من هذه الدراسة أن أكثر تلك الأسماء ليست أسماء آلهة، وانما هي صفات لها، وأن الكلمات التي لا يشك في كونها أسماء صحيحة قليلة جداً، ربما لا يتجاوز عددها الثلاثة، هي الثالوث. ومن يدري؟ فقد تكون في النتيجه اسماً لإلَه واحد، وعندئذ يمكن أن نتوصل إلى نتيجة علمية بالقياس إلى عقيدة الشرك أو التوحيد عند العرب الجاهليين.

ويجد الإنسان اليوم سذاجة مضحكة في بعض العقائد الدينية التي كانت عند الشعوب القديمة، ويستصعب تصور اعتقاد الناس بها، وهو ينسى أن هذه العقائد أو بعضها على الأقل، لا تزال معروفة بين بعض قبائل إفريقية وأستراليا، وأماكن أخرى من العالم، وأن العقل الانساني في تطور مستمر، وأن هناك بشراً يؤمنون بعقائد ورثوها عن آبائهم لا تقل غرابة عن غرابة بعض المعتقدات التي نؤاخذ

[1] تاج العروس (٧/ ٢١٨)، (ايل).

[2] Hastings, p. 299 «God».

بها قدماء البشر، مع أنهم من الشعوب المتقدمة في الحضارة وفي المدنية، ومن القرن الذي نفتخر بتسميته بقرن العقوق على الأم، والهروب منها إلى بيوت أخرى، تكون بعيدة عنها، سابحة في هذا الفضاء.

وقد يصعب على الإنسان اليوم تصور وجود فائدة أو ضرر من أشياء جامدة لا يمكن قطعاً أن تضرَّ أو تنفع، ولكن القدماء تصوروه مع ذلك واعتقدوه. فقدسوا الأحجار والأشجار والحيوانات، وقدّسوا الأرواح والأموات من الآباء والأجداد والقديسين، وتعبّدوا لها. ولهذه العبادات أسماء علمية خاصة اصطلح على تسميتها العلماء.

والدين هو إيمان وعمل: إيمان بوجود قوى هي فوق طاقة البشر، لها تأثير في حياته وفي مقدراته؛ وعمل في أداء طقوس معينة تعين شكلها الأديان للتقرب إلى الآلهة ولاسترضائها. والإيمان هو قبل العمل بالطبع، فلا بد للقيام بالشعائر، أو بأداء العمل، من وجود إيمان عند الشخص أو الأشخاص بوجود إلَه أو آلهة. حتى يقوم بعمل ديني[١]. فالعمل تابع للإيمان، ونتيجة من نتائجه، وهو شعاره ومظهره. وهو أبرز عند الأقوام البدائية من الإيمان لدرجة عقليتها ومجال تفكيرها الضيق. ومن العمل: الرقص، والأفراح الدينية، والسحر، والقرابين، والحج، والصلوات[٢].

وقد أقرّ الإسلام أشياء من أمور الدين كان يمارسها الجاهليون في جاهليتهم، لأنها لا تتعارض مع مبادئ الإسلام. ودراسة أمثال هذه الأشياء توضح لنا نواحي خافية علينا في الزمن الحاضر من الحياة الدينية عند الجاهليين، لذلك أرى من الضروري تتبع هذه الأشياء لتدوين تاريخ صحيح للدين عند الجاهليين. وأرى من الضروري كذلك تتبع الأساطير والعادات الموروثة التي لها صلة وعلاقة بالدين الجاهلي بين الأعراب والحضر في كل أصقاع جزيرة العرب، ولا سيما القرى العربية النائية عن العمران المنعزلة عن الأعاجم، فإن معظم هذه الأساطير والتقاليد هي من بقايا الوثنية العربية القديمة، بقيت جذورها ثابتة راسخة في الآفئدة حتى اليوم.

---

1 The Golden Bough, p. 50, Abridged Edition.
2 Ency. Brita., Vol., 19, p. 108.

ولا بدّ أيضا لدراسة الدين عند الجاهليين دراسة صحيحة من الرجوع إلى أصول الأشياء، وأعني بأصول الأشياء هنا ديانة الساميين الأولى بشكلها البدائي القديم. فمن تلك الشجرة تفرعت أديان الشعوب إلسامية، وفي ذلك الدين نجد الأصول والأسس التي بنيت عليها الديانات الفروع.

أما كيف نتمكن من الرجوع إلى الأصل ومن معرفة ديانة الساميين القديمة، فموضوع ليس بالسهل اليسير، ونحن، وإنْ كنا نملك بعض المؤلفات والبحوث عن أديان الساميين، لا نستطيع أن نجرؤ فنقول إن البحث قد نضج فيه، وإن القوم قد استوفوه من أطرافه وأكملوه، بل أن كثيراً مما تطرق اليه العلماء هو موضع جدل واختلاف، ولن يمكن التوصل إلى نتائج مقبولة معقولة إلا اذا تمكن الباحثون من الحصول على وثائق جديدة تكشف النقاب عن أديان قدماء الساميين.

وللتوصل إلى تكوين رأي عن أديان الساميين القديمة لا بدّ من دراسة النصوص الدينية السامية كلها. ودراسة كل ما له صلة بالدين عند الساميين، ومقارنة الأديان السامية بعضها ببعض ومراجعة الأصول اللغوية للمصطلحات الدينية عند جميع الشعوب السامية للتوصل منها إلى الأسس العميقة المدفونة التي أقيم عليها بنيان ديانة الساميين. ثم لا بد أيضاً من دراسة المؤثرات الخارجية التي أثرت في الساميين من عوامل طبيعية ومن عوامل أخرى غير طبيعية ومن الأثر الثقافي الذي كان لغير الساميين في الساميين.

ويتبين من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من أشكال التوحيد Henoteism عند القبائل السامية البدائية يمثل في اعتقاد القبيلة بوجود إلَه لها واحد أعلى، غير أن هذا لا يعني نفي اعتقادها بتعدد الالهة. فإننا نرى أن تلك القبائل كانت تعتقد، في الوقت نفسه، بالأرواح كأنها كائنات حيه ذات أثر وسلطان في مصير هذا الكون. وفي ضمنه الإنسان، وبآلهة مساعدة للالَه الكبير[١].

والديانات السامية، وإنْ كانت في الأصل من ديانة قديمة، قد تطورت وتغيرت بعوامل عديدة من العوامل التي تؤثر في كل المجتمعات البشرية فتحدث فيها انقلاباً في التفكير وفي طراز الحياة. ومن هذه العوامل المؤثرات الخارجية والمحيط الجديد. وسنجد أن ديانة العرب الجنوبيين، وإن كانت في الأصل من تلك الديانة السامية

---

1 Ency.Religi., II, p. 283.

الأصلية فيها مثل (ال) (ايل) وأمثال ذلك، قد غيّرت في ديانتها، وبدّلت في تصوراتها للآلهة، حتى صارت في بعض معتقداتها على نقيض مع معتقدات الساميين الشماليين.

وفي الدين معبود يُعبد هو الله، أو جملة آلهة، أو قوى خارقة تلعب في مقدرات الإنسان وعبدة يتعبّدون له أو لها، فهم عبّاده أو عبّادها. و(العِبادة) الطاعة، وأداء الواجبات المفروضة على الإنسان تجاه الله[1]، أو الآلهة.

والرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم، أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الإسلام، وأن تفكيرهم في ذلك تفكير منحطّ لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية، وهو رأي خاطئ، يفنده القرآن الكريم. وإذا كان ما يقوله صحيحاً بالقياس إلى السواد والأعراب، فإنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكل، ولا سيما على المتحضرين وعلى من كان لهم اتصال بالعالم الخارجي.

وتأريخ أديان العرب قبل الإسلام، فصل مهم جداً من فصول تأريخ العرب عامة قبل الإسلام وبعدها، بدونه لا يمكن فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم وطريقة معرفة تفكيرهم ووجهة نظرهم إلى الخالق والكون ثم الأسباب التي دعت إلى نزول الوحي وظهور الإسلام. وبدون دراسة أديان الجاهليين ومقالاتهم في الخالق والخلق، لا نتمكن أبداً من فهم رسالة الإسلام فهماً صحيحاً. بل إنّ هذه الدراسة أيضاً فصل مهم جداً لفهم كثير من الأمور الواردة في التوراة والإنجيل إذْ كان العرب قوماً من هذه الأقوام التي كانت لها صلات قديمة بأرض الوحي التي نزل بها الكتاب المقدس بعهديْه، وعضو فعال في هذه المجموعة المُسمّاة بالشعوب السامية. ما نعثر عليه من جديد في الناحية الدينية، يكشف عن غوامض عديدة من غوامض العهديْن، فجدير بالعلماء وبنا إذن الانصراف إلى البحث والاستقصاء للعثور على المصطلحات المفقودة من هذا الفعل.

وسنرى في الفصول القادمة أسماء رجال كان لهم شأن وخطر في الحياة الدينية للجاهليين، وقد زعم أهل الأخبار أن بعضاً منهم كان من الأنبياء الذين جاءوا إلى قومهم برسالة. وأن بعضاً آخر، كان من المصلحين الهادين، من أصحاب

---

[1] تاج العروس (٢/ ٤١٠ وما بعدها).

العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبديانات قومهم. وأن رجالاً منهم كانوا على الحنيفية، يريدون بها ديانة التوحيد، وأن آخرين بشّروا بالوثنية، وأشاعوها بين العرب، لما كان لهم من مكانة ونفوذ. وأن رجالاً من الجاهليين كانوا على ملة اليهودية ودين المسيح. وأن قوماً من أهل الجاهلية كانوا على عبادة (الله) و(الرحمان)، وكل المذكورين كانوا ممن مهد الجادة اذن لظهور الإسلام.

وقد أدى ظهور الإسلام إلى ظهور مصطلحات جديدة وموت مصطلحات قدبمة، وصارت هذه المصطلحات من علائم الوثنية. ولا بد لنا للوقوف على صورة أوضح للحياة الدينية عند الجاهليين من وجوب دراسة الألفاظ الجاهلية ذات المعاني الدينية بجمعها وتبويبها وتثبيت معانيها، فبهذه الدراسة نستطيع الوقوف على مبلغ تغلغل الحياة الدينية في نفوس الجاهليين، ومعرفة مدى تعمقهم في الدين وفهمهم له.

ومن الدراسات التي يجب أن تنال منا الرعاية والعناية لمعرفة الحياة الدينية وتطورها عند الجاهليين معرفة صحيحة، دراسة المصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية، وأماكن تلك اللهجات، وأسماء الأصنام أو الأوثان، ومعتقدات سكان تلك الأرضين في هذه الأيام، فإن دراسة مثل هذه تفيدنا فائدة كبيرة في معرفة أسس الحياة الدينية عند الجاهليين، وفي معرفة اختلاف العرب أو اتفاقهم في العقائد وفي الأمور الدينية، ومعرفة العوامل والأسباب التي أدت الى ذلك، ثم معرفة المؤثرات الخارجية في الحياة الدينية للجاهليين. وبتثبيت هذه وأمثالها وبمقارنتها بأسماء أصنام الأقوام المجاورة وآلهتهم ومصطلحاتهم، نستطيع فهم كثير من الأمور الغامضة من الحياة الدينية عند العرب وعند تلك الأقوام، وفهم الاحتكاك العقلي والصلات الروحية التي كانت بين تلك الشعوب قبل الإسلام.

إن الأخباريين عفا الله عنهم، لم يعنوا بتنسيق هذا الذي توصلوا اليه ورووه لنا من آراء الجاهليين في الدين. فرووا روايات مختلفة متناقضة أو مقتضبة اقتضاباً مخلاً وجاءوا بأمور تثبت ان أولئك الأخباريين لم يكونوا على مستوى عالٍ من النقد والتعمق في دراسة الأخبار، وأنهم كانوا يروون أخبارهم بالمعنى المفهوم من الأخبار. يأخذون ما يقال لهم فيروونه على نحو ما سمعوه وإنْ كان فيما يروونه ما يخالف المنطق والفهم السليم. والاستسلام للروايات داء يذهب بالفائدة. منها، ويعود على المؤرخ بأفدح الأضرار. ولهذا نجد أنفسنا في موضوع أديان العرب

قبل الإسلام في زوبعة عاتية وعاصفة مليئة بالرمال نتخبط فيها للحصول على مخرج نخرج منه، وليس لنا إلا الأمل. بالخروج من هذه العاصفة العاتية المتعبة في وقت ما.

وهذا الذي أورده أهل الأخبار عن أهل الجاهلية على ما فيه من تناقض، وتضارب واقتضاب، هو كما رأينا مادتنا الوحيدة عن الحياة الدينية عند عرب الجاهلية قبيل الإسلام وعند ظهوره، ولا سيما بالنسبة إلى عرب الحجاز وعرب الشأم والعراق. وهناك روايات لم نستفد منها حتى الآن، لصعوبة التوصل إليها، لا لكونها في بطون المخطوطات، ولهذا يصعب الحصول عليها. فإن الكثير منها قد طبع، وهو في متناول الأيدي، إنما صعوبتها في كونها في كتب مطبوعة طبعاً على الطريقة القديمة بلا نظام ولا ترتيب ولا تبويب فنيّ ولا فهرست لما في الكتاب المطبوع من مواد ومن أسماء أشخاص أو أصنام أو أوثان أو ما شابه ذلك. وليس أمام المؤرخ في هذه الحالة إلاّ أن يقرأ تلك الكتب من بسملتها حتى منتهاها، ليحصل منها في النهاية على كلمة أو كلمتين أو خبر أو أخبار، ولكن كيف يتمكن المؤرخ من قراءة كتب ضخمة كتفسير الطبري وكتب التفاسير الأخرى وشروح الحديث وكتب التواريخ والطبقات وبقية الكتب إذا كان الكتاب يتألف من أكثر من عشرة أجزاء، وهي كلها بلا فهرست للأعلام ولا لما في الكتاب من فوائد ومواد. لا يتمكن المؤرخ بالطبع من قراءة كلّ هذه الموارد المذكورة مع تساوي عمره بسائر أعمار الناس، ولو مدّ الله في عمره وصيّره إنساناً آخر ذا عمر طويل من أعمار الناس الذين أرخهم (السجستاني) في كتاب المعمرين، لتمكن من الإحاطة ببعض تلك الموارد على الأقل. غير أن عمر المؤرخ ويا للأسف مثل أعمار سائر الناس، قصير محدود، فليس في إمكانه الإحاطة بما ورد في هذه الكتب الواسعة المجهولة، على ظهورها في عالم الوجود ووجودها في خزانة كتب المؤرخ وفي يد أي شخص يريد الحصول عليها، لأن الموضوع ليس موضوع وجود كتاب مطبوع أو مخطوط، إنما هو اكتشاف ما في المطبوع أو المخطوط من آراء وأخبار وأعلام.

ما دام الوضع على هذا الحال وما دامت أكثر كتبنا غير مفهرسة ولا منسقة، فليس في استطاعة المؤرخ أن يأتي بشيء كثير يشفي غليل من يريد المزيد من

المعرفة عن الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام. وهذا أمر يؤسف له بالطبع كثيراً. وسيأتي بعدنا من يضيفون إلى هذا العلم البسيط الذي توصلنا اليه علماً كثيراً، ثم يتوصل من بعدهم إلى أكثر من ذلك ولا شك. ومن يدري؟ فلعلهّم يتوصلون إلى كتابات جاهلية تغنيهم عن كل هذا الذي اخذناه من موارد إسلامية كتبت بعد الجاهلية بعشرات السنين. وليس لنا، وسنكون بالطبع من الماضين، إلاّ أن ندعو لمن يأتي بعدنا بالتوفيق والنجاح التام.

الفصل الثاني والستون

التوحيد والشرك

كانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب: كان منهم من آمن بالله، وآمن بالتوحيد، وكان منهم من آمن بالله، وتعبد للأصنام، اذ زعموا أنها تقربهم اليه. وكان منهم من تعبد للأصنام، زاعمين أنها تنفع وتضر، وأنها هي الضارة النافعة[١]. وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية، ومنهم من دان بالمجوسية، ومنهم من توقف، فلم يعتقد بشيء، ومنهم من تزندق، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة، وببطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب، ولا كل شيء مما جاء في الإسلام عن يوم الدين.

ومذهب أهل الأخبار، أن العرب كانوا على دين واحد، هو دين إبراهيم، دين الحنيفية ودين التوحيد. الدين الذي بعث بأمر الله من جديد، فتجسد وتمثل في الإسلام. وكان العرب مثل غيرهم، قد ضلوا الطريق، وعموا عن الحق، وغووا بعبادتهم الأصنام. حببها لهم الشيطان، ومن اتبع هواه من العرب، وعلى رأسهم ناشر عبادة الأصنام في جزيرة العرب: (عمرو بن لحي).

وذهب (رينان) Renan إلى أن العرب هم مثل سائر الساميين الآخرين

---

[1] أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي الكاتب، إيمان العرب في الجاهلية، (تحقيق محب الدين الخطيب)، (القاهرة ١٩٨٢) «ص ١٢ وما بعدها».

موحدون بطبعهم، وأن ديانتهم هي من ديانات التوحيد. وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين[١].

وقد أقام (رينان) نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلهة التي تعبد لها الساميون، ومن وجود أصل كلمة (ال) (ايل) في لهجاتهم، فادّعى أن الشعوب السامية كانت تتعبد لإلَه واحد هو (ال) (ايل) الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات، فدعي بأسماء أبعدته عن الأصل، غير أن أصلها كلها هو إلَه واحد، هو الإله (ال) (ايل)[٢].

و(التوحيد) الايمان بإلَه واحد أحد لا شريك له، منفرد بذاته في عدم المثل والنظير. لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام[٣]. ويقال للديانة التي تدين بالتوحيد Monotheism: في اللغات الأوروبية، من أصل يوناني هو Monos، بمعنى (واحد)، وTheos بمعنى (إلَه)، لأنها تقول بوجود إلَه واحد[٤]. ويتمثل القول في التوحيد في اليهودية وفي الإسلام.

والشرك في تفسير العلماء الإسلاميين، أن يجعل لله شريكاً في ربوبيته، غير الله مع عبادته، والايمان بالله وبغيره، فصاروا بذلك مشركين[٥]. ومن الشرك أن تعدل بالله غيره، فتجعله شريكاً له. ومن عدل به شيئاً من خلقه فهو مشرك، لأن الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا نديد[٦]. ويقال له Polytheism = Polytheisums في اللغات الأوروبية. من أصل يوناني هو Polys، ومعناه كثرة وتعداد، وTheos بمعنى (إلَه). فيكون المعنى: القول بتعدد الآلهة، أي الشرك. نقيض القــول بالتوحيد Montheismus. فالشرك هــو الدين المعاكس لدين التوحيد. ويختلف عن عقيدة الـ Polydoemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature، وبوجود أثر لها في حياة الإنسان، كما يختلف

---

1 Ency. Religi., Vol., II, p. 383

2 E. Renan, Histoire Générale et Système comparé des Langues Sémitiques, Paris ; 1855, Vol. I, Chapt. I, p. 1 ff.

3 تاج العروس (٢/ ٥٢٦)، (وحد).

4 Ency. Religi., 10, p. 112.

5 تاج العروس (٧/ ١٤٨)، (شرك).

6 اللسان (١٠/ ٤٤٩ وما بعدها)، (شرك).

عن القائلين بمبدأ (الحلول)Pantheism من حيث حلول الإلَه في الخلق والخلق في الإلهَ[1].

وقد ذهب أهل الأخبار إلى أن العرب الأولى كانت على ملة إبراهيم، من الايمان بإلَه واحد أحد، اعتقدت به، وحجّت إلى بيته، وعظمت حرمه، وحرمة الأشهر الحرم، بقيت على ذلك، ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم، حتى أعادهم الإسلام إليه[2].

ونظرية أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين، ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا، نظرية يقول بها اليوم بعض العلماء مثل (ويليم شميد) Wilhelm Schmidt الذي درس أحوال القبائل البدائية وأنواع معتقداتها، فرأى أن عقائد هذه القبائل البدائية الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها ودرسها إلى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود (القديم الكل) أو (الأب الأكبر). الذي هو في نظرها العلة والأساس. فهو إلَه واحد. وتوصل إلى أن هذه العقيدة هي عقيدة سبقت التوحيد، ثم ظهر من بعدها الشرك. وقد أطلق عليها في الألمانية مصطلح Urmonotheismus أي التوحيد القديم[3].

ويأخذ بهذه النظرية علماء اللاهوت وبعض الفلاسفة، وفي الكتب السماوية تأييد لها أيضاً. فالشرك وعبادة الأصنام بحسب هذه النظرية، نكوص عن التوحيد، ساق اليه الانحطاط الذي طرأ على عقائد الإنسان فأبعده عن عبادة الله[4].

إننا لا نستطيع أن نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الإسلام استناداً إلى ما لدينا من كتابات جاهلية، لعدم ورود شيء عن ذلك. فالنصوص التي وصلت إلينا، هي نصوص فيها أسماء أصنام، وليس فيها ما يفهم منه شيء عن التوحيد عند العرب قبل الميلاد وبعده، إلاّ ما ورد في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة من عبادة الإلَه (ذ سموى) (ذو سموى)، أي صاحب السماء، بمعنى إلَه السماء. وهي عبادة ظهرت متأخرة في اليمن بتأثير اليهودية والنصرانية

---

[1] Ency. Religi., Vol., 10, p. 112.

[2] النجيرمي، إيمان العرب (١٢ وما بعدها)، الأصنام (ص ١٦).

[3] Schmidt, S. 637, W. Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, 4 ed., 1912.

[4] Ency. Religi., Vol., 7 p. 113.

اللتين دخلتا اليمن ووجدتا لهما أتباعاً هناك، بل حتى هذه العبادة لا نستطيع أن نتحدث عنها حديثاً يقينياً، فنقول إنها عبادة توحيد خالص تعتقد بوجود إله واحد على نحو ما يفهمه أهل القول بالتوحيد.

وقد ذكرت جملة (ذ سموى) في نص مع الإلَه (تالب ربمم) (تالب ريام)، رب قبيلة (همدان). ويدل ذكر اسم هذا الإلَه مع اسم إلَه آخر على أن عقيدة التوحيد لم تكن قد تركزت بعد، وأنها كانت في بدء تكوينها، فلما اختمرت فيَ رؤوس القوم، ذكرت وحدها في النصوص المتأخرة، دون ذكر أسماء الأصنام الأخرى، مما يشير إلى حدوث هذا التطور في العقائد، والى ظهور عقيدة التوحيد والايمان بإلَه السماء عند جماعة من العرب الجنوبين. وقد أكملت هذه العقيدة بأن صار إله السماء رب السماء والأرض[١].

ولم يكن (ذ سموى)، (ذ سمى اله)، (ذو السماء إلَه) أي (صاحب السماء)، أو (إلهَ السماء)، أو (رب السماء)، إلَه جماعه معينة أو إلَه قبيلة مخصوصة، بل هو إلَه ولدته عقيدة جديدة ظهرت في اليمن بعد الميلاد على ما يظن تدعو إلى عبادة إلهَ واحد هو (ربّ السماء)، فهو إلهَ واحد مقرّه السماء. ويرى بعض المستشرقين أن هذه العقيدة هي نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولهما العربية الجنوبية، فظهرت جماعة تأثرت بالديانتيْن تدعو إلى عبادة إله واحد هو (رب السماء)[٢].

وأما عبادة (الرحمن) (رحمنن)، فهي عبادة توحيد، ظهرت من جزيرة العرب فيما بعد الميلاد. وقد وردت كلمة (رحمنن)، أي (الرحمن)، في نص يهودي كذلك وفي كتابات (ابرهة)، وردت في نصوص عربية جنوبية أخرى وفي نصوص عثر عليها في أعالي الحجاز[٣]. وقد كان أهل مكة على علم بالرحمن، ولا شك، باتصالهم باليمن وباليهود. ولعلهم استخدموا الكلمة في

---

[1] Handbuch, I, S. 102.
[2] Handbuch, I, S. 104, Rivista, 1955, Fax, I, II, p. 109, Le Muséon, 1954, tome LXVII, p. 118.
[3] Glasser 554, 406-410, Halevy 63, CIH, Pars, 4, Tomus, I, Capt. I, No. 6, p. 15-9, II, 537-543, p. 257-300, CIH, 6, 45, 537, 538, 539, 541, 542, 543, MM, Altsüd., 19, Rep. Epig., 3904, 4069, 4109, Stambul, 7608, Asmara, I, Le Muséon, LII, p. 51.

معنى الله. وإنْ ذكر علماء اللغة أو علماء التفسير أن اللفظة لم تكن معروفة عند أهل مكة في الجاهلية[١].

وقد جاء في النص اليهودي المذكور: (الرحمن الذي في السماء واسرائيل وإلَه اسرائيل رب يهود). وقد حمل هذا النص بعض الباحثين على القول بأن العرب الجنوبيين قد أخذوا هذه الكلمة وفكرتهم عن الله من اليهودية، وأن فكرة التوحيد هذه إنما ظهرت بتأثر اليهودية التي دخلت إلى اليمن. غير أن من الباحثين من رأى خلاف هذا الرأي. رأى أن افتتاح النص بذكر الرحمن، ثم إشارته بعد ذلك إلى إلَه يهود، وورود كلمة (الرحمن) في نص آخر يعود إلى سنة (٤٦٨) للميلاد[٢]. كتبه صاحبه شكراً للرحمن الذي ساعده في بناء بيته: كل هذه وأسباب أخرى، تناقض رأي القائلين بأن عقيدة الرحمن عقيدة اقتبست من اليهود[٣].

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن (الرحمن) اسم من أسماء الله مذكور في الكتب الأول، وأن اللفظة عبرانية الأصل، وأما (الرحيم) فعربية. وذكروا أن (الرحمن) اسم مخصص بالله، لا يجوز أن يسمى به غيره[٤]. وقد أنشدوا للشنفرى أو لبعض الجاهلية الجهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها   ألا قضب الرحمن ربي يمينها[٥]

فيظهر من هذا البيت أن الشاعر كان يدين بعبادة الرحمن. ونجد مثل هذه العقيدة في قول سلامة بن جندل الطهويّ:

---

[1] Handbuch, I, S. 248, Halevy, Revue des Etudes Juives ; 1891; Vol. 22, pp. 125-129, 281, 23, p. 304, Margoliouth, The Relations, p. 67.

[2] CIS, 7.

[3] Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, p. 67.

[4] تاج العروس (٨/ ٣٠٧)، (رحم)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٠٦)، تفسير الطبير (١/ ٤٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٢١).

[5] تفسير الطبري (١/ ٤٤)، وورد:

لقد لطمت تلك الفتاة هجينها   ألا بتر الرحمن ربي يمينها

الاشتقاق (ص ٣٧).

عجلتم علينا عجلتينا عليكم　　　وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق[1]

فإن ذلك يعني أن قوماً من الجاهليين كانوا يدينون بعبادة (الرحمن). ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد من أن بعض أهل الجاهلية سموا أبناءهم عبد الرحمن، وذكروا أن (عامر بن عتوارة) سمى ابنه (عبد الرحمَن)[2].

وقد وردت لفظة (الرحمن) في شعر ينسب إلى (حاتم الطائي) هو:

كلوا اليوم من رزق الإلَه وأيسروا　　　وإن على الرحمان رزقكم غداً

وحاتم من المتألهة، ويعده البعض من النصارى و(الرحمن) نعت من نعوت الله في النصرانية، من أصل (رحمونو) Rahmono [3]، فهل عبر شاعرنا بهذه اللفظة عن هذا المعنى النصراني؟

«وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى ردّ الله عليهم ذلك بقوله: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. ولهذا قال كفّار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعلي: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري. وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة»[4].

وذكر أن المشركين سمعوا النبيّ يدعو ربه، يا ربنا الله ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهيْن، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى. وأن أحدهم سمع الرسول يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم فقال لأصحابه: انظروا ما قال ابن أبي كبشة دعا الرحمن الذي باليمامة. وكان باليمامة رجل يُقال له الرحمان[5].

---

[1] تفسير الطبري (١/ ٤٤)، (سلامة بن جندب الطهوي):
عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم　　　وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق
تفسير ابن كثير (١/ ٢١).

[2] الاشتقاق (ص ٣٧).

[3] غرائب اللغة (١٨٢).

[4] تفسير ابن كثير (١/ ٢١).

[5] تفسير الطبري (١٥/ ١٢١)، سورة الإسراء، الآية ١١٠، روح المعاني (١٥/ ١٧٦).

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن ذلك الشخص الذي زعموا أنه كان يُعرف بـ (رحمان اليمامة). لكنهم ذكروا أن (مسيلمة الكذاب)، كان يُقال له رحمان اليمامة[1]. فهل عنوا بـ (رحمان اليمامة) مسيلمة نفسه، أم شخصاً آخر كان يدعو لعبادة (الرحمان) قبله؟

وورد إن قريشاً قالوا للرسول: «انا قد بلغنا إنك إنما يعلمك رجل باليمامة، يقال له الرحمن ولن نؤمن به أبداً». فنزل فيهم قوله: ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك، وهم يكفرون بالرحمن، قل هو ربي لا إلَه إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾[2]. وذكر بعض أهل الأخبار: كان مسيلمة بن حبيب الحنفي، قد تسمّى بالرحمن في الجاهلية، وكان من المعمرين، وذلك قبل أن يولد عبد الله أبو رسول الله[3].

وورد في بعض أقوال علماء التفسير إن اليهود قالوا: (ما لنا لا نسمع في القرآن اسماً هو في التوراة كثير. يعنون الرحمان، فنزلت الآية)[4].

ويرى المستشرقون أن عبادة (الرحمن) (رحمنن)، إنما ظهرت بين الجاهليين بتأثير دخول اليهودية والنصرانية بينهم[5].

وقد ذكر (اليعقوبي) أن تلبية (قيسى عيلان)، كانت على هذا النحو: «لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمان، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان»[6] وأن تلبية عك والأشعرين، كانت:

نحج للرحمان بيتاًعجباً مستتراً مغبباً محجباً[7]

وفي التلبيتين المذكورتين دلالة على اعتقاد القوم بإلَه واحد، هو الرحمان.

---

[1] اللسان (١٢/ ٢٣١)، (رحم)، تاج العروس (٨/ ٣٠٧)، (رحم).
[2] سورة الرعد، الآية ٣٠، الروض الأنف (١/ ٢٠٠)، سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٠) (حاشية على الروض)، تفسير الطبري (١٣/ ١٠١).
[3] الروض الأنف (١/ ٢٠٠).
[4] القرطبي، الجامع (١٠/ ٣٤٣).
[5] G. Ryckmans, Inscriptions Sudarabes, X, No. 515, Le Muséon, 66, 1953, p. 314, Ryckmans 300. b., CIH 541, G. Ryckmans, in Le Muséon, 59, 1946, p. 165, A. Jamme, La Religion Sud-Arabe, Préislamique ; 275.
[6] اليعقوبي (١/ ٢٢٥).
[7] اليعقوبي (١/ ٢٢٦).

ولم ترد لفظة (الرحمان) إلاّ مفردة، فليس لها جمع، لأنها تعبير عن توحيد، وليس في التوحيد تعدد، فالتعدد شرك. على عكس لفظة (رب)، التي تؤدي معنى (إلَه)، وهي تعبير عن اعتقاد، لا اسم علم لإلَه، ولذلك وردت لفظة (أرباب) بمعنى آلهة تعبيراً عن تعدد الآلهة، وهو الشرك. وقد كان الجاهليون يقولون: ربيّ وربك وربنا وأربابنا، كما يقولون إلهي وإلاهلك وآلهتنا[1].

وقد تكون كلمة (ه رحم) (هارحيم)، أي (الرحيم) الواردة في النصوص الصفوية[2] وفي النصوص السبئية اسم إلَه[3]، وقد تكون صفة من صفات الآلهة على نحو ما تؤديه كلمة (الرحيم) من معنى في الإسلام.

وللعلماء آراء في ظهور عبادة الشرك. ورأي رجال الدين منهم، إن الناس كانوا أمة واحدة في الدين، كانوا على التوحيد جميعاً، ثم ضلّوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين[4]. أما غيرهم من العلماء الذين يستندون إلى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل علم النفس وعلم الاجتماع، فيرون أن عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالنسبة إلى ظهور الوثنية والشرك. ظهرت بعد أن توسعت مدارك الإنسان، فشعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وهم وخداع، وصار يقتصد في الشرك، إلى أن اهتدى إلى عبادة إلهَ واحد.

ظهور الشرك:

هناك عدة عوامل دعت إلى ظهور الشرك، أي تعدد الآلهة، وأثرت في تعدد الآلهة. هناك عوامل طبيعية وعوامل رسيّة Characteristics، وعوامل

---

[1] هناك ربك ما أعطاك من حسن   وحيثما يك أمر صالح فكن
شرح ديوان زهير (١٢٣).

[2] Handbuch, I, S. 248, Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, Paris, 1868-1877, p. 142, No. 402, Dussuad, voyage Archéologique au Safa, Paris, 1901, No. 258, Mission, p. 88, Les Arabes en Syrie, p. 152.

[3] CIS, 4, 2, No. 40, p. 63, Grahmann, S. 246.

[4] Ency. Religi., 10, p. 112.

سياسية وعوامل تأريخية واجتماعية واقتصادية وعوامل أخرى، كل هذه أثرت في شكل الشرك وفيِ تعدد الآلهة وفي كيفية تصور الناس لآلهتهم. ولا يعني هذا أنها أثرت كلها مجتمعة وفي آن واحد، إنما يعنى أن ظهور الشرك وشكله هو نتيجة عوامل متعددة وأسباب مختلفة أثرت في ظهوره وفي تكوين صورة الآلهة في نظر المؤمنين بها المتعبدين لها.

وإنّا لنجد وجهة نظر الشعوب عن الآلهة أو الإلَه تختلف باختلاف ثقافتها ومستواها الاجتماعي، وللوضع السياسي دخل كبير في الشرك وفي عدد الآلهة وفي شكل الدين. لقد كان لكل قبيلة إلهَ خاص بتلك القبيلة يحميها من الأعداء ومن المكاره، ويدافع عنها في الحروب والملمات، ويعطيها النصر. كما كان للقرى والمدن آلهتها الخاصة بها. فإذا تحالفت القبائل أو القرى أو المدن تحالفت آلهتها معها، وكوّنت حلفاً وصداقة متينة بينها. أما إذا تحاربت هذه القبائل أو القرى او المدن، فيكون لهذه الحرب أثر كببر في مستقبل الآلهة وفي عددها. فقد ينصرف المغلوبون عن آلهتهم إلى عبادة آلهة أخرى، لأنها أصبحت ضعيفة لا قدرة لها على الدفاع عن عَبدَتَها. وقد يتأثر الغالبون بعبادة المغلوبين الذين خضعوا لهم، فيضيفون آلهة المغلوبين إلى آلهتهم، فيزيد بذلك عدد الآلهة، ولا سيما إذا كان المغلوبون أصحاب ثقافة عالية، وكان لهم أدب وفن.

والعادة أن آلهة القبائل أو المدن الرئيسية تكون هي الآلهة الرئيسية للحلف أو في المملكة. ويكون إلَه القبيلة ذات النفوذ أو العاصمة عندئذ، هو إلَه الحكومة الكبير. أما الآلهة الأخرى، فتكون دونه في المنزلة، ولهذا يرد اسمها في الغالب بعد اسم الإلَه الكبير.

كذلك يجب ألاّ ننسى عامل الجوار والاتصال الثقافي في ظهور الشرك، فكثيراً ما يؤدي هذا الاتصال إلى اقتباس آلهة المجاورين واضافتها إلى مجموعة الآلهة عند ذلك الشعب، فيزيد بذلك عدد الآلهة أو ينقص. فقد تطغى الآلهة الجديدة المقتبسة على الآلهة القديمة، ويقّل شأن بعضها فيهمل، ثم يموت اسمها. وقد يحدث ذلك بطريق الحرب أيضاً، كما ذكرت، فيتغير العدد بذلك.

ولرجال الدين ولسادات القبائل وللأمراء وللملوك أثر في ظهور الشرك. كان في إمكانهم اقرار مستقبل الآلهة بإضافة آلهة جديدة على الآلهة القديمة، أو بابعاد

إلَه أو آلهة عن عبادة قومهم، فيزيد أو ينقص بذلك عدد الآلهة. وقد كان سادات القبائل والوجوه يغيرّون عبادة أتباعهم بإدخال عبادة إلَه جديد، يأخذونه من زيارتهم لبلد غريب، كأن يكون أحدهم قد أصيب بمرض وهو في ذلك البلد، فيشار عليه بالتعبد وبالتقرب لإله ذلك البلد أو لأحد آلهته، فيصادف أن يشفى، فيظن أنه شفى ببركة ذلك الإله وبقدرته وقوته، فيتقرب له ويتعبد له، فإذا أعاد حمل عبادته إلى أتباعه، فيعبد عندهم. ويضاف على آلهتهم، ويصير أحدهم وقد يطغى اسمه عليها، وذلك حسب درجة تعلق سيد القبيلة به، وحسب درجة ومكانة سيد القبيلة بين الناس. وتأريخ الجاهلية مليء بحوادث تبديل آلهة بسبب تبديل سادات القبائل ووجوه الناس لعقائدهم ولآلهتهم، فتدخل القبيلة كلها في العبادة الجديدة. وقد كان إسلام قبائل برمتها، بسبب دخول سيدها في الإسلام، فالناس تبع لساداتهم ولقادتهم، و«الناس على دين ملوكهم» كما هو معروف ومشهور في أقوال العرب.

ومعظم أسماء الآلهة صفات للآلهة لا اسم علم لها، فودّ ورضى والمقه وذات حميم وأمثالها، هي صفات في الأصل، مضى عليها الزمن، فاستعملت استعمال الأسماء الأعلام. وظن أنها آلهة قائمة بذاتها. فلما جاء الباحثون وجمعوها حسبوها أسماء آلهة، فزاد بذلك عدد الآلهة، واعتبرت الأسماء الكثيرة من سيماء الإفراط في الشرك. بينما هي صفات لإلَه، أو آلهة لا يزيد عددها على ثلاثة، هي الثالوث الكواكبي المقدس الذي تعبدوا له.

ولا بد لنا من الإشارة إلى اصطلاح أطلقه (ماكس مولر) Max Müler على مرحلة من العبادة هي بين بين، لا هي توحيد Monotheism ولا هي شرك Polytheism، بل هي مرحلة تعبد فيها الإنسان على رأى هذا الباحث إلى إله واحد هو إلَه القبيلة، مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى[١]. وهذا الاصطلاح هو Henotheismus. وقد رأى (فلايدلر) Pfleidler أن الساميين لم يكونوا موحدين بطبعهم كما ذهب (رينان) إلى ذلك، بل كانوا يدينون بإلَه قومي، ومن هذه العقيدة ظهر التوحيد الخالص كما حدث عند الاسرائيليين[٢].

---

[1] Max Müller, Varlesungen über den Ursprung und die entwicklung der Religion, 1880, Schmidt, S. 261.
[2] Ency. Religi., 10, p. 811, Pfleidler, Philosophy of Religion, London, 1885-1888, III, p. 19.

وفي القرآن الكريم إشارات إلى أنواع من الشرك كان عليه الجاهليون، وفيه تعريف لمعنى الشرك، فالشرك في قوله تعالى: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾[١] عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعادن، أي مما لا روح له وقابل للكسر[٢]. وفي بعض الآيات أن من أنواع الشرك القول بأن الجن هم شركاء لله[٣]. ومن أنواعه أيضاً القول بأن الملائكة هم شركاء لله وبناته[٤]. وفي آيات أخرى أن من الشرك اتخاذ آلهة أخرى مع الله[٥]. والآلهة هنا شيء عام. فيه تأليه الكواكب وعبادة الأشياء غير المنظورة، أي غير المادية وعبادة الأصنام.

وفي القرآن الكريم جواب عن فلسفة القوم وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم (أولياء) من دون الله، إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه اليهم في عبادة غير الله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء. ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون﴾[٦]. ويتبين من هذه الآية ومن آيات أخرى أن فريقاً من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله، وأنه هو الذي خلق الخلق، وأن له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم، ولكنهم عبدوا الأصنام وغيرها، واتخذوا الأولياء والشفعاء لتقربهم إلى الله زلفى[٧].

وفي كتاب الله مصطلحات لها علاقة بعبادة الشرك، منها (شركاء) جمع (شريك)، وهو من اتخذه المشركون شريكاً مع الله[٨]. و(أنداد) ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبّونهم كحب الله﴾[٩] ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله. قل: تمتعوا، فإنّ مصيركم إلى النار﴾[١٠]. و(أولياء)

---

1 الأعراف، الآية ١٩١ وما بعدها، يونس، الآية ١٨.
2 تفسير الجلالين (١/ ١٣٩)، «طبعة المطبعة المليجية».
3 الأنعام، الآية ١٠٠، الجلالين (١/ ١١٦).
4 سبأ، الآية ٤٠ وما بعدها.
5 الأنبياء، الآية ٢٤.
6 الزمر، الآية ٣، الجلالين (٢/ ١٣٣).
7 الزمر، الآية ٣، الأنعام، الآية ١٤٨، النحل، الآية ٣٥.
8 الأنعام، الآية ١٠٠، راجع «فتح الرحمن لطالب آيات القرآن» (ص ٢٣٨)، حيث تجد المواضع الواردة في القرآن الكريم.
9 البقرة، الآية ١٦٥.
10 إبراهيم، الآية ٣٠.

و(وليّ) و(ولياً)[1] و(شفعاء) و(شهداء)[2]. فهذه الكلمات وأمثالها تعبر عن عقائد الجاهليين قبيل الإسلام. وعن اعتقادهم في عبادة أشياء أخرى مع الله كانوا يرون أنها تستحق العبادة، وأنها في مقابل الله في العرف الإسلامي، أو أنها شركاء في إدارة الكون أو أنها مساعدة لله.

والشرك في تفسير العلماء المسلمين، أن تعدل بالله غيره، فتجعله شريكاً له. فهو يشمل أشياء عديدة. منها عبادة الكواكب، أي عبادة القوى الطبيعية، وعبادة الجن والملائكة والأمور الخفية، ويمعنى آخر عبادة القوى الخفية، أو القوى الروحية، وعبادة الأمور المادية كالأصنام والأحجار، باعتبار أنها تشفع للإنسان عند الالهة، وعبادة الإنسان والحيوان، إلى غير ذلك من عبادات.

ومن العبادات التي يجب أن يشار إليها عبادات اصطلح علماء الأديان على تسميتها بمسميات حديثة، تمثل عقائد قديمة، ولبعضها أتباع أحياء يرزقون. ولبعض منها آثار ومظاهر، دخلت في الأديان الباقية، وصبغت بصبغتها، وهي من بقايا العقائد الدينية البدائية التي رسخت في النفوس وفي القلوب حتى صار من الصعب على الإنسان أن يتخلص منها، فبقيت راسخة تحت مسميات جديدة. ومن تلك العقائد: الـ Shamanism وTatemism، وFetishism، و-Anecestor worship وAnimism، وغيرها من مسميات سيرد الحديث عنها في هذا الكتاب[3].

أما الـ (شمانية)، فقد أخذت من كلمة (شمن) Saman ومعناها كاهن أو طبيب (شمان)، أو من كلمة Shemen التي معناها صنم أو معبد، أو من أصل آخر. ويراد بها اليوم ديانة تعتقد بالشرك، أي تعدد الآلهة Polythesim، أو بعبـــادة الأرواح Polydomonism مع عبادة الطبيعة Nature-worship لإعتقادها بوجود أرواح كامنة فيها. ويعتقد في هذا الدين أيضا بوجود إلَه أعلى هو فوق جميع هذه الأرواح والقوى المؤلهة، وبتأثير السحر[4].

---

[1] راجع فهارس القرآن الكريم، مثل فتح الرحمن (ص ٤٨٠).
[2] فتح الرحمن (ص ٢٤٠).
[3] A. A. Bowman, Studies in the Philosophy of Religion, London, 1939, p. 67.
[4] Ency. Religi., II, p. 441.

ويستعين الـ (شمن)، وهو الكاهن أي رجل الدين، بالقوى الخارقة التي لديه والتي لا يملكها الرجل الاعتيادي في اعتقاد أبناء هذه العقيدة في الاتصال بالأرواح وبما وراء الطبيعة للتأثير فيها. ولدى هذا الكاهن أرواح مأمورة بين يديه للقيام بما يطلب منها القيام به. وهو يمارس أعمالاً سحرية للتأثير في الأرواح. فللسحر في هذا الدين أهمية ومقام. ويقوم الـ (شمن) عند أكثر المتدينين بهذا الدين بأعمال الطبيب[١].

وأما (الطوطمية)، فقد تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب[٢]. وقد بينت عقيدتها في (الطوطم)، ورأي العلماء في كيفية ظهور المجتمع (الطوطمي)، وهو مجتمع يقوم على أساس الجماعة أو القبيلة، يرتبط أفراده برباط ديني مقدس، هو رباط (الطوطم)، رمز الجماعة.

وأما الـ Fetishism من أصل Factitus، بمعنى السحر، أي القوة المؤثرة الخفية، Magic، فللباحثين في تأريخ الأديان آراء متعددة في تعريفها وفي تثبيت حدودها[٣]. والرأي الغالب الشائع بينهم أنها عبـــادة أو تقديس للأشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها لاعتقاد أصحابها بوجود قوة سحرية فيها؛ وقوى غير منظورة في تلك الأشياء تلازمها ملازمة مؤقتة أو دائمة. ويحمل الـ Fetish (البد) لجلب السعد إلى صاحبه. وهو في نظر (تيلور) Dr. Tylor بمثابة (إلَه البيت) وقوة فاعلة خفية تطرد الخبائث عن صاحبه، وتجلب الخير له. ولحدوث الأحلام ونشوئها في نظر الأقوام البدائية دخل كبير في رأي العلماء في ظهور هذه العقيدة[٤].

وأصحاب هذه العقيدة لا ينظرون الى تلك الأشياء المادية على أنها نفسها ذات قوة فعالة خفية، وأنها الرمز أو الصورة للإلَه المنسوب ذلك الشيء إليه، بل هم يرون أن تلك الأشياء ليست سوى منازل أو مواضع لاستقرار تلك القوى المؤثرة التي يكون لها دخل في إسعاد الإنسان. وهو يقدس الأشياء المادية كالحجارة

---

[1] Ency. Religi., Vol., 11, p. 441.

[2] (ص ٥١٨ وما بعدها).

[3] Ency. Religi., Vol., V, p. 894.

[4] Enyc. Brita., Vol., 9, p. 202, Primitive Culture, II, p. 143, Waitny Anthropologie der Naturvölker, II, S. 174.

مهما كانت صغيرة أو كبيرة، مهندمة ومصقولة صقلتها يد الإنسان، ومستها أو لم تمسها يد، بل كانت على نحو ما وجدها في شكلها الطبيعي لأنه حينما يتقرب إلى تلك الحجارة، لا يتقرب إليها نفسها، بل يتقرب إلى الروح التي تحل فيها. فالروح هي المعبودة، لا الحجر الذي تحل الروح فيه، وليس الحجر أو المواد الأخرى إلا بيتاً أو فندقاً تنزل الروح فيه.

أما عبادة الأسلاف Ancestor worship، فهي فرع من أهم فروع الدين في نظر بعض العلماء، بل هي الأساس الذي قام عليه الدين في نظر آخرين، ولا سيما عند (سبنسر) H. Spencer.[١] وأما الأسباب التي دعت البشر إلى هذه العبادة، فهي الحب والتقدير للأبطال والرؤساء والأمل في استمرار دفاعهم عنهم وحمايتهم للجماعة التي تنتمي إليها كما كانت تفعل في حياتها وردّ أذى الأعداء الأموات منهم والأحياء. فتمجيد الأبطال والخوف منهم، هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف، على رأي. وهناك من رأى أن تمجيد الأبطال والاشادة بذكرهم، هو الذي أوجد هذه العبادة، ومنهم من نسبها إلى الخوف منهم حسب[٢].

وسواء أكان منشأ هذه العبادة الحب والتقدير أو الخوف أو كلاهما، فإن أساس هذه العقيدة هو الإيمان ببقاء الروح، روح إلميت، وإن بإمكان هذه الروح نفع الأحياء أو إلحاق الأذى بهم. ورؤية الأحياء وسماع توسلاتهم ودعواتهم لها. فالميت وإنْ كان قد دفن في قبره وغيب بين التراب، إلاّ إنه يسمع ويعي، فروحه حية وبإمكانه النفع والضر. وهذه العقيدة هي التي حملت بعض الشعوب على مخاطبة الأرواح من فجوات مخصوصة في الأرض ومن مواضع أخرى لاستشارتها في بعض الأمور التي تهمها، وللتحدث معها في مسائل خطيرة كتقديم مشورة أو أخذ رأي أو استفسارعن اسم قاتل أو سارق. ولهذه الغاية اتخذت مواضع مقدسة Oracle يتقرب فيها إلى الأرواح وللاستفسار منها. فكان في اليونان مثلاً موضع شهير عرف باسم Thesprotia، وموضع آخر عرف باسم Phigalia في (أركاديا) Arcadia.[٣] وكان في ايطاليا موضع للتنبؤ يقع على بحيرة

---

[1] Ency. Religi., I, pp. 425, 427.
[2] Jevons, Introduction to History of Religion, p. 54.
[3] Herodothus, V, 92, Pausanus, III, 17, 8, 9.

(أفيرنوس) Avernus [1] وكانت العامة في هذا الموضع أن يتقرب الراغبون في استشارة الأرواح إلى الموضع المقدس بتقديم ضحية، وعندئذ ينام السائل في الموضع المقدس، فتظهر له الروح في المنام، فتحدثه بما يحتاج اليه[2].

ولعبادة السلف علاقة بعبادة الأصنام Idolatry. ويلاحظ أن عبادة السلف تقود أتباعها في بعض الأحيان إلى الاعتقاد بأن قبيلتهم تنتمي إلى صلب جد واحد، أصله حيوان في رأي الأكثرين، أو من النجوم في بعض الأحيان. وهذا مايجعل هذه العقيدة قريبة من (الطوطمية)[3].

ولهذه العبادة أثر كبير في نظام أصحابها الاجتماعي، إذ هي تربط الأجيال الحاضرة بالأجيال الماضية بروابط متينة، وتؤلف من أصحاب هذا المذهب وحدة قوية، كما أن لها أثراً مهماً في الأسرة، فهي في الواقع عبادة تخص الأسرة قبل كل شيء[4].

ومعارفنا عن عبادة السلف عند الجاهليين قليلة، ويمكن أن نستنتج من أمر النبي بتسوية القبور ونهيه عن اتخاذها مساجدَ ومواضع للصلاة أن الجاهليين كانوا يعبدون أرواح أصحاب هذه القبور ويتقربون إليها. ولعل في عبارة (قبر ونفس) أو (نفس وقبر) الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي، فإن النفس هي الروح.

ومن آثار عبادة السلف عند العلماء حلق الرأس وإحداث جروح في الجسد واحتفالات دفن الموتى ولبس المسوح والعناية بالقبور والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها أو علامات خاصة بالميت أو الموتى للتقديس[5]. ونحن اذا استعرضنا روايات الأخباريين نجد آثار هذه العبادة معروفة بين الجاهليين.

وقد أشار أهل الأخبار إلى قبور اُتّخذت مزارات، كانت لرجال دين ولسادات قبائل يقسم الناس بها، ويلوذون بصاحب القبر ويحتمون به، كالذي كان من

---

[1] Ency. Religi., I, p. 428.

[2] Ency. Religi., Vol., I, p. 430, Crooke, Popular Religion, I, 179, Wilken, Het Animisme bij de Volken Indischen Archipel, 1884-1885, I, 74, ff.

[3] Ency. Religi., I, p. 536, Taylor, Primitive Cultures, II, p. 193.

[4] Ency. Religi., I, p. 432.

[5] Hastings, p. 300, Ency. Religi., 7, p. 325, «Ancestor-Worship».

أمر ضريح (تميم بن مرّ)، جدّ (تميم)، وكالذي ذكروه من أمر (اللات) من أنه كان رجلاً في الأصل، اتخذ قبره معبداً ثم تحول الرجل إلى صنم. ونجد في كتب الحديث نهياً عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها. وقد أشارت إلى اتخاذ اليهود والنصارى قبور سادتهم وأوليائهم مساجد، تقربوا إليها، لذلك نهي أهل الإسلام من التشبه بهم في تعظيم القبور[١]، كما نهى عن تكليل القبور وتجصيصها، والتكليل رفع القبر وجعله كالكلّة، وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور[٢].

وأما الـ Animism، فهو اعتقاد بوجود أرواح مؤثرة في الطبيعة كلها Nature، ولذلك يؤله كثيراً من المظاهر الطبيعية المرئية وغير المرئية منها، لاعتقاده بوجود قوى هي فوق الطبيعية، منها ما يكون في جسم، وهو (النفس) Saul، منها ما لا يكون في الأجسام وهو (الروح) Spirit[٣].

ويمكن تقسيم هذه العبادة إلى ثلاثة أصناف: عبادة النفس، نفس الإنسان أو الحيوان وخاصة منها عبادة الأموات Necrolatry، وعبادة الأرواح Spiritism، وعبادة الأرواح التي تحلّ في المظاهر الطبيعية، إما بصورة مؤقتة وإما بصورة دائمة Naturism[٤].

والآراء في هذه المعتقدات لا تزال في مراحلها الأولى، وهي موضع جدل بين العلماء، لأنها قائمة على أساس الملاحظات والتجارب التي حصلوا عليها من دراساتهم لأحوال المجتمعات البدائية لهنود أمريكا ولقبائل افريقية واسترالية، ولا يمكن بالطبع حدوث اتفاق في الدراسات الاستقصائية المبنية على المشاهدات والملاحظات. وإذ كانت هذه الدراسات غير مستقرة وغير نهائية حتى الآن، فقد صعب بالطبع تطبيقها على معتقدات العرب قبل الإسلام، وزاد في هذه الصعوبة قلة معلوماتنا في هذه الأمور. وليس من الممكن في نظري أن نتوصل إلى نتائج علمية غير قابلة للأخذ والرد في هذه الموضوعات في الزمن الحاضر، بل ولا في المستقبل

---

1 صحيح مسلم (٢/ ٦٦)، (باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد).

2 اللسان (١١/ ٥٩٥)، (كلل).

3 Schmidt, S. 24.

4 Ency. Religi., I, p. 535.

القريب، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان، من العثور على نصوص دينية تكشف لنا عن عقائد الجاهليين.

ونستطيع أن نقول إجمالاً إن من الجاهليين من كان يدين بعبادة الأرواح على اختلاف طرقها، وبؤمن بأثرها. وللعلماء من مفسرين ولغويين وغيرهم تفاسير عديدة للروح، تفيدنا كثيراً في معرفة آراء الجاهليين عنها، كما أن للأخبارين قصصاً عنها وعن استقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت واتصالها بالقبر وغير ذلك، يمكن أن تكون موضوع دراسة قيمة لمن يريد التبسط في دراسة هذه الأمور.

عبادة الكواكب:

وقد رأى بعض العلماء أن عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل. وأن أسماء الأصنام والآلهة، وإنْ تعددت وكثرت، إلاَّ إنها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي، هو: الشمس والقمر والزهرة. وهو رمز لعائلة صغيرة، تتألف من أب هو القمر، ومن أم هي الشمس، ومن ابن هو الزهرة. وذهبوا إلى أن أكثر أسماء الآلهة، هي في الواقع نعوت لها، وهي من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى لله في الإسلام.

وقد لفت الجرمان السماويان: الشمس والقمر، نظر الإنسان اليهما بصورة خاصة، لما أدرك فيهما من أثر في الإنسان وفي طباعه وسحنه وعمله، وفي الجو الذي يعيش فيه، وفي حياة زرعه وحيوانه، وفي تكوين ليله ونهاره والفصول التي تمر عليه. فتوصل بعقله يوم ذاك إلى أنه نفسه، وكل ما يحيط به، من فعل هذين الجرمين ومن أثر أجرام أخرى أقل شأناً منهما عليه. فنسب إليها نموه وتكوينه وبرءه وسقمه، وحياة زرعه وماشيته، ورسخ في عقله أنه إن تقرب وتعبد لهما، ولبقية الأجرام، فإنه سيرضيها، وستغدق عليه بالنعم والسعادة والمال والبركة في البنين، فصار من ثم عابد كوكب.

ونجد في حكاية كيفية اهتداء (إبراهيم) إلى عبادة إلَه واحد، الواردة في سورة الأنعام، تفسيراً لسبب تعبد الإنسان للأجرام إلسماوية. ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نُري

إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنّ عليه الليل، رأى كوكباً، قال: هذا ربي، فلما أفل، قال: لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً، قال: هذا ربي، فلما أفل، قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة، قال: هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلت، قال: يا قومِ إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[١]. فقد لفت ذلك الكوكب نظر إبراهيم، وبهره بحسن منظره وبلونه الزاهي الخالب، فتعبد له، واتخذه رباً، فلما أفل، ورأى كوكباً آخر أكبر حجماً وأجمل منظراً منه، تركه، وتعبد للكوكب الآخر، وهو القمر. فلما أفل، ورأى الشمس بازغة، وهي أكبر حجماً وأظهر أثراً وأبين عملاً في حياة الإنسان وفي حياة زرعه وحيوانه وجوّه ومحيطه، ترك القمر وتعبّد للشس، فيكون قد تعبّد لثلاثة كواكب، قبل أن يهتدي إلى التوحيد، هي القمر والشمس، والمشتري أو الزهرة على ما جاء في أقوال المفسرين[٢].

ويشير القرآن الكريم في موضع آخر إلى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية، ولا سيما الشمس والقمر، ففيه: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون﴾[٣].

وهذه الأجرام السماوية الثلاثة هي الأجرام البارزة الظاهرة التي بهرت نظر الإنسان، ولا سيما الشمس والقمر. والزهرة، وإن كانت غير بارزة بروز الشمس والقمر، غير أنها ظاهرة واضحة مؤثرة بالقياس إلى بقية الأجرام ذات مظهر جذاب، ولون باهر خلاب، وقد يكون هذا المظهر الجميل الأخاذ هو الذي جعلها ابناً للشمس والقمر في أساطير العرب الجنوبيين.

واعتبر الجاهليون القمر أباً في هذا الثالوث، وصار هو الإلَه المقدم فيه، وكبير الآلهة. وصارت له منزلة خاصة في ديانة العرب الجنوبيين. وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل

---

[1] الأنعام، الآية ٧٥ وما بعدها.
[2] تفسير الطبري (٧/ ١٥٨ وما بعدها)، تفسير القرطبي، الجامع (٧/ ٢٥).
[3] فصلت، الآية ٣٧.

التغليب[1]، وعلى الذهاب إلى أن هذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العربية الجنوبية لا نجده في أديان الساميين الشماليين، مما يصح أن نجعله من الفروق المهمة التي تميز الساميين الجنوبيين عن الساميين الشماليين[2].

ويرجع أولئك المستشرقون هذا التباين الظاهر بن عبادة الساميين الجنوبيين وعبادة الساميين الشماليين وتقدم القمر على الشمس عند العرب الجنوبيين إلى الاختلاف في طبيعة الأقاليم والى التباين في الثقافة، ففي العربية الجنوبية يكون القمر هادياً للناس ومهدئاً للأعصاب، وسميراً لرجال القوافل من التجار وأصحاب الأعمال في الليالي اللطيفة المقمرة، بعد حرّ شديد تبعثه أشعة الشمس المحرقة، فتشل الحركة في النهار، وتجعل من الصعب على الناس الاشتغال فيه، وتميت من يتعرض لأشعتها الوهاجة في عز الصيف القايظ. إنها ذات حميم حقاً، فلا عجب إذا ما دعيت بـ (ذت حمم)، (ذات حميم)، (ذات الحميم) عند العرب الجنوبيين. ولذلك، لا يستغرب إذا قدمه العرب الجنوبيون في عبادتهم على الشمس، وفضلوه عليها. واذا كَانت الشمس مصدراً لنموّ النباتات نموّاً سريعاً في شمال جزيرة العرب، فإن أشعة الشمس الوهّاجة المحرقة تقَفُ نموَّ أكثر المزروعات في صيف العربية الجنوبية، وتسبب جفافها واختفاء الورد والزهر في هذا الموسم، فلا بد أن يكون لهذه الظاهرة أثر في العقلية التي كونت تلك الأساطير[3].

ويرى (هومل) أن ديانات جميع الساميين الغربيين والعرب الجنوبيين هي ديانة عبادة القمر أي أن القمر فيها مقدم على الشمس، وهو عكس ما نجده في ديانة البابليين. ويعلل ذلك ببقاء الساميين الغربيين بدواً مدة طويلة بالقياس الى البابليين. ويلاحظ أيضاً أن الشمس هي أنثى، وأما القمر فهو ذكر عند الساميين الغربيين، وهو بعكس ما نجده عند البابليين[4].

والاسم الشائع للقمر بين الساميين، هو: ورخ، و(سن) (سين)، وشهر. وشهر خاصة هو الاسم الشائع المستعمل للقمر في الكتابات الجاهلية التي

---

1 D. Nielsen, Die Altarabische Mondreligeon.
2 Handbuch, I, S. 213.
3 Handbuch, I, S. 213, Die Altarabische Mondreligeon, S. 49, Die Sabaische Gott Ilmukah, S. I.
4 Hommel, Grundriss, I, S. 85.

عثر عليها في العربية الجنوبية وفي النصوص التي عثر عليها في الحبشة، وفي الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب. ويلاحظ أن الصور التي ترمز إلى القمر مما عثر عليه في تلك النصوص هي متشابهة تقريباً، ومتقاربة في الشكل، مما يدل على أن الأسطورة الدينية التي كانت في مخيلة عبدة القمر عنه كانت متشابهة ومتقاربة ومن أصل واحد. أما كلمة (قمر)، فلم ترد حتى الآن في النصوص الجاهلية التي وصلت إلينا، وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن هذه التسمية متاخرة[1].

ويلاحظ أن النصوص العربية الجنوبية لا تسمى القمر باسمه دائماً في النصوص، وإنما تشير إليه بكناه وصفاته في الغالب. ويظهر أن ذلك من باب التأدب والتجمل أمام رب الأرباب. ونجد هذا التأدب في مقام الأرباب عند جميع البشر، فلا يخاطب الإنسان ربه كما يخاطب غيره من الإنس، أي باسمه المعتاد، لأنه الربّ والإلَه، وهو فوق الإنسان، هو إذا خاطبه باسمه، فإنما يفعل ذلك على سبيل التودد والتقرب والتحبب إلى الرب، فهو نوع من أدب التقرب إلى الإلهة.

ولما كان القمر هو الأب، خاطبه المؤمنون به بـ (ودم ابم)، وبـ (ابم ودم)، أي (وَدٌّ أبٌ)، و(أب وَدٌ)، ولا غرابة في ذلك. فإذا كان القمر أباً للآلهة، فلِمَ لا يكون إذن أباً للإنسان عبده، وهو في حاجة شديدة إليه، حاجة العبد إلى سيده والولد إلى والده؟

ودعوه أيضاً بـ (عم)، ولِمَ لا؟ أليس العم في مقام الأب؟ ثم إن العرب لا تزال تخاطب الكبير بـ (عم) دلالة على تقديره واحترامه، فليس بغريب إنْ نادى المؤمنون إلههم القمر: يا عم! ليرحمهم وليبارك فيهم، إن في هذا النداء تقرباً وتواضعاً وإشعاراً بضعف السائل تجاه المخاطب[2].

والأب عند العرب كلّ ما كان سبباً في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره. ويقوم العم عندهم مقام الأب، ولذلك سمّي مع الأب الأبوين[3].

وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ودّ، أو جمل (ودم

---

[1] Handbuch, I, S. 214.
[2] Handbuch, I, S. 214.
[3] المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ٤ وما بعدها)، مادة أبا في كتاب الألف.

ابم)، أو (ابم ودم)، وذلك فوق أبواب المباني، لتكون في حمايته وللتبرك باسمه وللتيمن به، كما وجدت كلمة (ودّ) محفورة على أشياء ذات ثقوب تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها. فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحبّ والبركة والخيرات.

ونعت القمر بـ (كهلن)، أي (الكهل) في نصوص المسند، وفي نصوص عُثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربية. وتعني لفظة (كهلن)، القدير والمقتدر العزيز[1]. وهي من نعوت هذا الإلَه.

ونعت بنعوت أخرى، مثل (حكم)، أي (حكيم) و(حاكم) و(صدق) أي (صديق) و(صادق)، و(علم)، أي (عليم) و(عالم) و(علام)، وبنعوت أخرى عديدة من هذا القبيل، وهم من نوع (الأسماء الحسنى) لله عند المسلمين. ترينا الإلَه إلهاً قديراً عالماً حامياً مساعداً لأبنائه المؤمنين به. يحبّهم حبّ الأب الشفيق لأبنائه الأعزاء.

والإلَه (القمر)، هو الإلَه (المقه) عند السبئيين، وهو إلَه سبأ الكبير. هو (عم) عند القتبانيين. كما سأتحدث عن ذلك في أصنام الكتابات، وهو ودّ عند المعينين و(سن) (سين)، عند الحضارمة.

واتخذ الثور من الحيوانات رمزاً للقمر، ولذلك عُدّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة. ونجد هذه الصورة مرسومة في النصوص اللحيانية والثمودية وعند غير العرب من الشعوب الساميّة. وقد نص على اسمه في الكتابات، إذ قيل له (ثور)[2].

وقد ذكر (الألوسي)، أن عبدة (القمر) «اتخذوا له صنماً على شكل عجل، وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياماً معلومة في كل شهر، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور. فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه»[3]. ولم يشر إلى اسم الجاهليين الذين فعلوا ذلك. فلعله قصد عبدة القمر بصورة عامة من العرب وغيره.

---

[1] Halevy 237, Chrestoma, 91, 97, Grundriss, I, S. 136, Glasser, 284.
[2] Glasser 1546, Wiener Museum 5, Handbuch, I, S. 214.

[3] بلوغ الأرب (٢/ ٢١٦).

وذهب بعض الباحثين إلى احتمال كون (الحية) تمثل الإلَه القمر، وهي تمثل الروح أيضاً عند بعض آخر[1].

والشمس، هي من أول الأجرام السماوية التي لفتت إليها أنظار البشر بتأثيرها في الإنسان وفي الزرع والنماء. وهذا التأثير البارز جعل البشر يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورةّ كامنة فيها، فعبدها وألّهها، وشاد لها المعابد، وقدّم لها القرابين. وهي عبادة فيها تطور كبير ورقي في التفكير إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الإنسان للأحجار والنباتات والأرواح.

وقد تعبّد العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب. وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد، في زمن لا نستطيع تحديده، لعدم وجود نصوص لدينا يمكن أن تكشف لنا عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب. وعبدها أقوام آخرون من غير العرب من الساميين، مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين. وقد أشير في مواضع عديدة من العهد القديم الى عبادة الشمس بين العبرانيين، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس. ومع ذلك، عبدت في مدن يهوذا. وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ (بيت شمس) Beth Shemesh [2].

والشمس أنثى في العربية، فهي إلِهة، أما في كتابات تدمر فهي مذكر، ولذلك فهي إلَه ذكر عند التدمريين. ويرى (ولهوزن) Wellhousen أن ذلك حدث بمؤثرات خارجية[3]. وكانت عبادة الشمس شائعة بين التدمريين. وورد في الكتابات التي عثر عليها في (حوران) أسماء أشخاص مركبة من شمس وكلمة أخرى، ويدلّ على ذلك شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة. وذكر (سترابو) أن Helios أي الشمس، هي الإله الأكبر عند النبط. ولكن الكتابات النبطية لا تؤيد هذا الرأي. والإله الأكبر فيها هو (اللات). فلعل (سترابو) قصد بـ Helios اللات. وإذا كان هذا صحيحاً، فتكون اللات هي الشمس.

والشمس من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص، فعرفوا بـ (عبد شمس). وقد ذكر إلأخباريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر، لأنه أول من عبد

---

1 Arabien, S. 269.
2 Hastings, p. 880, Die Araber, III, S. 125, ff.
3 Reste, S. 60, Waddington 2569, 2587, Vogue, Palmy, 2, 8, 19, 75, 116, 125, Reste, S. 60.

الشمس، فدعي بـ (عبد شمس)[١]. وقد ذكر أن بني تميم تعبدت له. وكان له بيت، وكانت تعبده بنو أدّ كلها: ضَبّة، وتميم، وعديّ، وعُطل: وثور، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شُريف بن حروة بن أسيد بن عمرو بن تميم، فكسره هند بن أبي أهالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[٢].

ذكر أن (عبد شمس)، اسم أُضيف إلى شمس السماء، لأنهم كانوا يعبدونها. والنسبة (عبشمي)[٣].

وكانت العرب تسميّ الشمس (الإلهة) تعظيماً لها، كما يظهر ذلك من هذا الشعر:

تروّحنـــا من اللعبـــاء قسراً   فأعجلنـــا الإلاهة أن تؤوبا
على مثل ابن مية فانعِيـــاه   تشق نواعم البشر الجيوبا[٤]

ويقال لها (لاهة) بغير ألف ولام.

وعرفت الشمس بـ (ذُكاء)[٥] عند الجاهليين. وقد تصور أهل الجاهلية الصبح ابناً للشمس تارة، وتصوروه تارة حاجباً لها. فقيل حاجب الشمس. وقيل يقال للصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها[٦].

وكانوا يستقبلون الشمس ضحى. ذكر (الأسقع) الليثي، أنه خرج إلى والده، فوجده جالساً مستقبل الشمس ضحى[٧]، وإذا تذكرنا ما أورده أهل الأخبار عن

---

[1] منتخبات (ص ٥٧).
[2] المحبر (٣١٦).
[3] تاج العروس (٤/ ١٧٢)، (شمس).
[4] ينسب هذا الشعر لمية بنت أم عتبة بن الحارث، وقيل لبنت عبد الحارث اليربوعي وقيل: لنائحة عتيبة بن الحارث، وقيل لأم البنين بنت عتيبة بن الحارث، تاج العروس (٩/ ٣٧٤)، اللسان (١٧/ ٦٣٠)، تاج العروس (٩/ ٥١٠)، (لاه) (تروحنا من اللعباء قصراً)، ابن الأجدابي، الأزمنة والأنواء (٧٩).
[5] بالضم.
[6] تاج العروس (١٠/ ١٣٧)، (ذكو).
[7] الإصابة (١/ ٥١)، رقم (١٢١).

صلاة الضحى، وهي صلاة كانت تعرفها قريش، ولم تنكرها، أمكننا الربط بين استقبال الشمس ضحى وبين هذه الصلاة.

وقد لاحظ بعض السياح أن آثار عبادة الشمس والقمر لا تزال كامنة في نفوس بعض الناس والقبائل، حيث تتجلى في تقدير هذيْن الكوكبيْن وفي تأنيب من يتطاول عليهما بالشتم أو بكلام مسيء وفي تعظيمها من بين سائر الكواكب تعظيماً يشيرإلى أنه من بقايا الوثنية القديمة على الرغم من إسلام أولئك المعظمين[1].

ويلي الشمس والقمر (الزهرة)، وهي ذكر في النصوص العربية الجنوبية، ويسمى (عثتر). وهو بمثابة (الابن) للشمس والقمر. وهذا الثالوث الكوكبي يدل، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين، على أن عبادة العربية الجنوبية هي عبادة نجوم. وهو يمثّل في نظرهم عائلة إلهية مكونة من ثلاثة أرباب، هي: الأب وهو القمر، والابن وهو الزُهرة، والأم وهي الشمس.

وإذْ كان القمر هو الأب وكبير الآلهة الثلاثة، صار اسمه في طليعة من يذكر اسمه من الآلهة في النصوص، وصارت له كنى ونعوت كثيرة لا تجاريها في الكثرة نعوت الآلهة الأخرى، وبه تسمّى أشخاص كثيرون. وهذا ما حدا ببعض المستشرقين على إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل التغليب. وهذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العرب الجنوبية، لا نجدها في أديان الساميين الشماليين عن الساميين الجنوبيين[2]. كما يصح اعتبار تذكير (الزهرة) (عثتر) عند العرب الجنوبيين، من جملة الفروق التي نراها بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين في شمال الجنوبية، فإن (الزهرة) هي أنثى عندهم.

وعبد بعض أهل الجاهلية أجراماً سماوية أخرى، وتقربوا إليها بالنذور والصلوات. ففي كتب الأخباريين أن طائفة من تميم عبد (الدّبران)، وأن (العيوق) في زعمهم (عانق الدبران لمّا ساق إلى الثريا مهراً، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها، ولذلك سمّوا هذه النجوم القلاص)[3].

---

[1]Handbuch, I, S. 199, 201, 205, W. Gifford Palgrave, Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia, London, 1866, 250, A. Grahmann, Arabien, S. 81.
[2] Handbuch, I, S. 213.
[3] بلوغ الأرب (٢/ ٢٣٩)، ابن الأجدابي، الأزمنة والأنواء (٧١).

وفي كتبهم أيضاً أن بعض قبائل لخم وخزاعة وحمير وقريش عبدوا (الشعرى العبور)، وأن أوّل من سنّ ذلك لهم، وأدخل تلك العبادة إليهم (أبو كبشة). وهو (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غبشان الخزاعي)، أو (وجز بن غالب)، وهو من خزاعة ثم من بني غبشان، أحد أجداد النبي من قبل أمهاته. خالف قريشاً في عبادة الأصنام وعبد الشعرى العبور. وكان (وجز) يقول: إن الشعرى تقطع السماء عرضاً، فلا أرى في السماء شيئاً، شمساً ولا قمراً ولا نجماً، يقطع السماء عرضاً. والعرب تسمّي الشعرى العبور، لأنها تعبر السماء عرضاً، ووجز هو أبو كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إليه، والعرب تظن أن أحداً لا يعمل شيئاً إلاّ بعرق ينزعه شبهه، فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم، دينَ قريشٍ، قالت قريش: نزعه أبو كبشة، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى. وكانوا ينسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه. وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة، لم يعيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم به من تقصير كان فيه، ولكنهم أرادوا أن يشبهوه بخلاف أبي كبشة، فيقولون: «خالف كما خالف أبو كبشة»[1]. وذكر (القرطبي) أن أول من عبد الشعرى (أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم، من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمّون النبي، صلى الله عليه وسلم، ابن أبي كبشة، حين دعا إلى الله وخالف أديانهم، وقالوا: ما لقينا من ابن أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح، وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تمرّ عليه: لقد أَمِرَ أمر ابن أبي كشبة)[2]. وكان (الحارث)، وهو (غبشان بن عمرو بن بؤي بن ملكان)، ويكنى أبا كبشة، ممن يعبد الشعرى[3].

و(الشعرى) Sirius هي المقصودة في الآية: ﴿وإنّه هو ربّ الشعرى﴾[4]. وكان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يُقال له الشعرى. وهو النجم

---

[1] الزبير، كتاب نسب قريش (٢٦١ وما بعدها)، تاج العروس (٣٤٢/٤) (كبش).
[2] تفسير القرطبي (١٧/ ١١٩)، تفسير الطبرسي) (٢٧/ ١٨٣)، (٩/ ١٨٣)، (طبعة طهران)، المحبر (١٢٩)، ابن سعد، طبقات (١/ ١ ص ٣١).
[3] المحبر (١٢٩).
[4] النجم، الآية ٤٩.

الوقاد الذي يتبع الجوزاء، ويقال له المرزم[١]. وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم[٢].

وذكر بعض العلماء أن (الشعرى) كوكب نير يُقال له المرزم، وطلوعه في شدة الحر. وتقول العرب إذا طلعت الشعرى، جعل صاحب النحل يرى. هما (الشعريان): العبور، والشعرى الغميصاء. تزعم العرب أنهما اختا سهيل. وعبدت طائفة من العرب الشعرى العبور. ويُقال: إنها عبرت السماء عرضاً، ولم يعبرها عرضاً غيرها، وسُمّيت الغميصاء، لأن العرب قالت في حديثها إنها بكت على أثر العبور حتى غمنصت[٣].

والعرب تقول في خرافاتها: إنّ سهيلاً والشعرى كانا زوجيْن، فانحدر سهيل فصار يمانياً، فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميّت العبور، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت عيناه، فسميت غمصاء لأنها أخفى من الأخرى[٤].

ويذكرون أنّ بعض طيء عبدوا (الثريا)، وبعض قبائل ربيعة عبدوا (المرزم)، وأن (كنانة) عبدت القمر[٥]. ويتبين من بعض الأعلام المركبة، مثل: عبد الثريا، وعبد نجم، أن الثريا ونجماً، كانا صنميْن معبوديْن في الجاهلية[٦]. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن (النجم) المذكور في سورة (النجم): ﴿والنجم اذا هوى﴾[٧]: الثريا[٨] (والعرب تسمي الثريا نجماً)[٩]. وقال بعض آخر: (إن النجم ههنا الزهرة، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها)[١٠].

---

1 تفسير الطبري (٢٧/ ٤٥ وما بعدها)، تاج العروس (٤/ ٣٤١)، (جوز)، القرطبي، الجامع (١٧/ ١١٩ وما بعدها).

2 تفسير القرطبي (١٧/ ١١٩).

3 تاج العروس (٣/ ٣٠٥)، (شعر).

4 تفسير القرطبي (١٧/ ١١٩ وما بعدها).

5 بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٠)، تاج العروس (٨/ ٣١١)، (رزم).

6 Ency. Religi. I, p. 66.

7 سورة النجم، الآية ١.

8 تفسير الطبري (٢٧/ ٢٤).

9 تفسير القرطبي (١٧/ ٨٢ وما بعدها).

10 المصدر نفسه.

وعبدَ بعض الجاهليين (المريخ)، واتخذوه إلهاً، كما عبد غيرهم (سهيلا) Canapus و(عطارد) Merkur و(الأسد) Lion و(زحل).

وقد ذكر أهل الأخبار، أن أهل الجاهلية يجعلون فعلاً للكواكب حادثاً عنه. فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وكأنوا يجعلون لها أثراً في الزرع وفي الإنسان، فأبطل ذلك الإسلام، وجعله من أمور الجاهلية. جاء في الحديث: «ثلاث من أمور الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالأنواء»[1].

ومن مظاهر الشرك المتجلي في التعبد للأمور الطبيعية الملموسة، عبادة الشجر، وهي عبادة شائعة معروفة عند الساميين. وقد أشار (ابن الكلبي) إلى نخلة (نجران)، وهي نخلة عظيمة كان أهل البلد يتعبدون لها، (لها عيد في كل سنة. فإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحليّ للنساء، فخرجوا إليها يوماً وعكفوا عليها يوما)[2]. ومنها العزى وذات أنواط. يحدثنا أهل الأخبار عن ذات أنواط، فيقولون: (ذات أنواط: شجرة خضراء عظيمة، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها، فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها، وكانت قريبة من مكة. وذكر أنهم كانوا إذا حجّوا، يعبقون أرديتهم عليها، ويدخلون الحرم بغير أردية، تعظيماً للبيت، ولذلك سميت (ذات انواط)[3]. (وقد روي أن بعض الناس قال يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)[4].

ونستطيع أن نقول إن آثار عبادة الشجر لا تزال باقية عند الناس. تظهر في امتناع بعضهم وفي تهيبهم من قطع بعض الشجر، لاعتقادهم أنهم إن فعلوا ذلك أصيبوا بنازلة تنزل بهم وبمكروه سيحيق بهم. ولذلك تركوا بعض الشجر كالسدر فلم يتعرضوا له بسوء[5].

وتعبد بعض أهل الجاهلية لبعض الحيوانات. فقد ورد أن جماعة الشاعر (زيد الخيل)، وهم من طيء، كانوا يتعبدون لجمل أسود. فما وفد وفدهم على

---

1 ابن الأجدابي، الأزمنة والأنواء (١٣٦).
2 البلدان (٨/ ٢٦٠)، (نجران).
3 البلدان (١/ ٣٦٣)، (أنواط)، تاج العروس (٥/ ٢٣٦)، (نوط)، الأزرقي (٧٤ وما بعدها).
4 رسالة الغفران (١٤٠ وما بعدها).
5 Grahmann, S. 82.

الرسول، قال لهم: «ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله عزّ وجل»[1]. وورد أن قوماً كانوا بالبحرين عرفوا بـ (الأسبذين)، كانوا يعبدون الخيل[2]. ذكر أنهم قوم من المجوس، كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين[3]. فهم فرس. وأن بعض القبائل مثل (إياد)، كانت تتبرك بالناقة[4].

الشفاعة:

والشفاعة من أهم مظاهر الشرك عند الجاهليين. وأقصد بالشفاعة هنا، ما ورد في القرآن الكريم من تبرير أهل الجاهلية لتقربهم إلى الأصنام بأنهم ما يتعبدون لها إلاّ لتقربهم إلى الله: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[5]. ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياءً ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى. إنّ الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون﴾[6]. فهم يحاجّون الرسول، ويَدافعون عن التقرب إلى الأصنام، بقولهم: إنها تشفع عند الله، فهي شفيعة، فهم لا يعبدون الأصنام إذن، ولا يشركون بالخالق، وإنما هم يتقربون اليه بها. فهي الواسطة بينهم وبين الله[7].

الأصنام:

ومن جملة ما كان يتوسط به الجاهليون لآلهتهم ليكونوا شفعاء لهم عندها، التماثيل المصنوعة من الفضة أو الذهب أو الحجارة الثمينة والخشب. ومن عادتهم إنهم كانوا يدونون ذلك على الحجارة، فيكتبون عدد التماثيل وأنواعها وأسماء الآلهة أو اسم الإلَه الذي قدمت له تلك الأشياء واسم الناذر، ويشار الى السبب الداعي

---

1 الأغاني (١٦/ ٤٧)، الإصابة (١/ ٥٥٥)، (رقم ٢٩٤١).
2 البلاذري، فتوح (٨٩)، (البحرين).
3 اللسان (٣/ ٤٩٣)، (سبذ).
4 الأغاني (١٥/ ٩٣)، «في أخبار أبي دواد الإيادي».
5 سورة يونس، الرقم ١٠، الآية ١٨.
6 الزمر، الآية ٣.
7 المفردات، للأصفهاني (٢٦٤).

إلى ذلك، كان يذكر بأن أصحابها توسلوا إلى الإلَه أو الآلهة المذكورة برجائهم الذي طلبوه، فأُجيبت مطالبهم، ولذلك قدموا هذه النذور، فهي وفاء لدين استحق عليهم بسبب ذلك النذر وتلك الشفاعة.

ولا بد لنا من الاشارة هنا إلى ان الأصنام كانت تدافع عن قبائلها وتذب عنها وتحامي عنها في الحرب، كما يدافع سيد القبيلة عن قبيلته، وأن أبناء القبيلة وأبناؤها وأولادها، ولذلك كانوا يقولون عنها (اب) (أب) في كتاباتهم، ويكتبون عن أنفسهم (أبناء الصنم...). وفي الشعر الجاهلي أمثلة عديدة تشير إلى اعتقاد القوم باشراك آلهتهم معهم في الحرب وفي انتصارهم لهم. ففي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و(بني غطيف) بشأن الصنم (يغوث)، يقول الشاعر:

وسارَ بنا يغوثُ إلى مرادٍ   فناجزناهمُ قبل الصباح[١]

وطبيعي أن يعد أعداء القبيلة أعداء لصنم القبيلة، وأعداء الصنم أعداء للقبيلة، فأعداء الآلهة وأعداء القبيلة هم خصوم لا يمكن التفريق بينهم.

وفي معركة أَحد، وهي من المعارك الحربية المهمة التي جرت بين الإسلام والوثنية على مستقبل العرب الديني، نادى أبو سفيان بأعلى صوته: «اعلُ هُبَل! علُ هبل!»، ليبعث الحماسة في نفوس الوثنيين، وليستغيث بصنمه في الدفاع عن أتباعه المؤمنين به. أما المسلمون، فاستنجدوا بالله، إذ ردّوا عليه ردة قوية عالية: «الله أعلى وأجل». فقال أبو سفيان: «ألا لنا العزى ولا عُزى لكم». فأجابه المسلمون: «الله مولانا ولا مولى لكم»[٢].

وفي الحروب يحارب كل إلَه عن قبيلته، ويجهد نفسه في الدفاع عنها في سبيل حصولها على النصر. ولهذا السب كانت القبائل والجيوش تحضر أوثانها أو صور آلهتها أو رموزها الدينية المقدسة معها في الحروب. تتبرك بها وتستمد منها العون والنصر. ولما حارب الأعراب الملك (سنحاريب) ملك آشور، حملوا أصنامهم: (دبلت) (دبلات) Diblat، و(دية) Daia = Daja

---

[1] البلدان (٨/ ٥١١).
[2] الطبري (٢/ ٥٢٦)، «معركة أحد».

و(نوخيا) Nuhaia و(ابيريلو) Ebirillu (عثر قرمية) Atar Kurumaia معهم لتدافع عنهم، ولتحارب معهم الآشوريين. ولكن الآشوريين غلبوهم وانتصروا عليهم واخذوا غنائم وأسرى منهم، كان في جملتها هذه الأصنام المسكينة، التي وقعت في الأسر وبقيت في أسرها إلى أن توفي (سنحاريب) وتولى ابنه (أسرحدون) الحكم، فاسترضى الأعراب هذا الملك وجاءوا بهدايا كثيرة، رجاء استرضائه لإعادة أصنامهم إليهم، فرقّ على حالهم وأعاد إليهم تلك الأصنام السيئة الحظ، التي كتب عليها أن تسجن، وتمكنت من استنشاق ريح الحرية من جديد[١].

وسقطت أصنام الأعراب مرة أخرى في أسر الآشوربين، وذلك في أيام (أسرحدون)، فلما انضم (ليلي) (ليل) Laili ملك (يادي) (يادع) (يدي) (يدع) Jadi' = Jadi' إلى الثائرين على حكم هذا الملك، لحقت بهم الهزيمة، وسقطت أصنامه أسيرة في أيدي الآشوريين، وأخذت إلى (نينوى)، فلم يجد الملك (ليل) (ليلي) أمامه من سبيل سوى الذهاب إلى عاصمة الملك لاسترضائه، حيث طلب العفو والصفع عما بدر منه، فقبل (أسرحدون) منه ذلك، وتآخى معه، وأعاد اليه أصنامه[٢].

وكان في جملة الأصنام التي شاء سوء طالعها الوقوع في أسر الآشورين الصنم (اترسمين) (اترسمائين) (Atarsamin) (A-tar-sa-ma-a-a-in) و(اتر) هو (عثتر)، فيكون المراد به (عثتر السماء) عثتر السماوات، ويدل ذلك على أنه إلَه السماء. وكان قد وقع أسيراً في أيديهم ايام الملك (أسرحدون)، فلما توفي الملك وانتقل عرشه إلى ابنه (أشور بانبال)، جاء Uaite العربي إليه، وهو أحد سادات القبائل إلى الملك، وصالحه وأرضاه، فأعاد اليه أصنامه ومنها الصنم المذكور[٣].

وطالما كان يعرض حمل المحاربن أصنامهم معهم في الحروب إلى وقوع تلك الأصنام في الأسر، تقع كما يقع الإنسان في الأسر. بل يكون أسر الأصنام في نظرهم أشدّ وقعاً في نفوسهم من أسر الإنسان. إنها آلهة تدافع وتحامي، إنها

[1] Musil, Deserta, p. 481, Reall., II, S. 265, Thompson, Prisms of Esarhaddon and of Ashurbanipal, p. 20.
[2] Musil, Deserta, p. 483, Reall., I, S. 440, Rawlinson, The Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World, Vol., II,p. 470-471.
[3] Reall., I, 310, Schrader, KAT., S. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliotheck, VIII, S. 72.

آلهة القبيلة كلّها، فأسرها معناه في عرفهم أسر القبيلة كلها، فأسر الآلهة شيء كبير بالنسبة إلى القبيلة. وقد أشرت إلى استيلاء الآشورين على أصنام قبائل (عريبي) التي حاربتهم، والى أخذها أسيرة إلى أرض آشور، والى مفاوضة الأعراب معهم على الصلح في مقابل إعادة تلك الأصنام اليهم. فلما أعيدت الأصنام إلى أصحابها، كتب الآشوريون عليها كتابة تخبر بوقوعها في الأسر، وبانتصار آلهة آشور عليها، لتكون نذيراً للمؤمنين بها، يحذرهم من حرب ثانية توقع هذه الأصنام في أسر جديد.

وقد أشير إلى (خيل اللات) في مقابل (خيل محمد)، في شعر لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، إذ قال:

لعمرك إني يوم احمل راية   لتغلب خيل اللات خيل محمد[١]

ومن أمثلة العرب: (لا تفر حتى تفر القبة)، أو (لا نفر حتى تفر القبة)[٢]. ويراد بالقبة: قبة الصنم، أي خيمة الصنم التي تحمل مع المحاربين وتضرَب في ساحة القتال، ليطوف حولها المحاربون، يستمدون منها العون والنصر. كما كانوا يستشيرون الأصنام عند القتال، ويأخذون برأيها فيما تأمر به.

وحمل الأصنام مع القبيلة في ترحالها وفي حروبها وغزواتها يستلزم بذل عناية خاصة بها للمحافظة عليها من الكسر ومن تعرضها لأي سوء كان. وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في سمتها، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر. وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز. ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد، واتخاذ معبد ثابت، لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد. ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان الى مكان.

واعتقاد القبائل أن أصنامها هي التي تجلب لها النصر والخسارة، كان سبب يؤدي في بعض الأحيان الى الإعراض عن الصنم المحبوب ونبذه، نتيجة لانهزام للقبيلة،

---

[1] الإصابة (٤/ ٩٠)، (رقم ٥٣٨).
[2] المشرق، السنة ١٩٣٨م، (الجزء الأول)، (ص ١١).

إذ يتبادر إلى ذهن تلك القبيلة أن تلك الهزيمة التي نزلت بها إنما كانت بسبب ضعف ربها واستكانتة وعدم اقتداره في الدفاع عنها، ولذلك تقرر الاستغناء عنه والتوجه إلى رب قوي جديد. وقد يكون ذلك الرب هو ربّ القبيلة المنتصرة، أو رب قبيلة من القبائل التي عُرفت بتفوّقها في الحروب، فيكون التوفيق حليف ذلك الرب. وهكذا الأرباب في نظر قبائل تلك الأيام كالناس لها حظوط، والحظ هو دائماً في جانب القوي.

وكان على كهّان صنم القبيلة المغلوبة ايجاد تفسير لعلة الهزيمة التي لحقت بعبدة ذلك الصنم، والبحث عن عذر يدافعون به عن الصنم، ويلقون اللوم فيه على أتباعه، لتبرئة ذمته وإبعاد المؤمنين به عن الشك في قدرته وعظمته. فكان من أعذارهم، أن الهزيمة عقاب من الإلَه أرسله إلى أتباعه لابتعادهم عن أوامره ونواهيه، ولعدم إطاعتهم أحكام دينه، ولمخالفتهم آراء رجال دينهم وكهانه. ولن تنقشع عنهم النكبة، ويكتب لهم النصر، إلا إذا تابوا وعملوا بأوامر الكهّان وأرضوا الآلهة، وعملوا بما أوجبته شريعتهم عليهم. وهكذا يلوم الكهان للناس، دفاعاً عن التهم التي خلقوها بأنفسهم، وحماية لمصالحهم القائمة على استغلال تلك المخترعات، التي نعتوها آلهة وأصناماً.

ولما كانت الآلهة آلهة قبائل، كان نبذ الفرد لإلهَه معناه نبذه لقبيلته وخروجه على إجماعها، فلا يسع شخصاً أن يغير عبادة إله القبيلة إلا اذا خرج على قبيلته وتعبدّ لإلَه آخر. فإن تغيير عبادة الأفراد لأصنامهم في نظر قدماء الساميين امر إدٌ، هو بمثابة تبديل الجنسية في العصر الحاضر. إن عبادة الأصنام عبادة موروثة يرثها الأبناء عن الآباء، وليست بشيء اختياري، فليس للرجل أن يختار الصنم الذي يريده بمحض مشيئته. إن الصنم دين وهو رمز للقبيلة، والمحامي المدافع عن شعبه، والرابطة التي تربط بين الأفراد، فالخروج عليه معناه خروج على ارادة الشعب، وتفكيك لوحدته، وهو مما لا يسمح به وإلا تعرّض الثائرالى العقاب[1].

نعم، كان في إمكان أصحاب الكلمة والسيادة والرئاسة تغيير أصنام القبيلة، أو تبديل دينها، كما سنرى فيما بعد فهؤلاء هم سادة، والناس تبع لسادتهم

[1] Robertson, p. 37. f.

وفي المثل: «الناس على دين ملوكهم». لقد أضاف سادة أصناماً إلى قبائلهم، فعبدت وتمسك أتباعهم بعبادتها، وكأنهم قد تلقوا أوامرهم من السماء، ونبذت قبائل بعض أصنامها، بأمر من سادتها. ودخلت قبائل في الإسلام، لدخول سيدها فيه، ودخلت أخرى قبل ذلك في النصرانية، بتنصر سادتها، بكلمة أقنعت الرئيس، أو بعد محاورة، أو بإبلال من مرض قيل له إنه كان ببركة ذلك الدين، فدخل أتباعه في ذلك الدين من غير سؤال ولا جواب.

عبادة الأصنام:

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين أن عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل الإسلام، حتى كان أهل كل دارٍ قد اتخذوا صنماً في دارهم يعبدونه. «فإذا أراد الرجل منهم سفراً، تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، واذا قدم من سفره تمسح به، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله»[1]. وقد كان أشق شيء في نظر قريش نبذ تلك الأصنام وتركها وعبادة إله واحد ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملّة الاخرة إن هذا إلا اختلاق﴾[2].

يقول ابن الكلبي: «واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً. ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت... فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره. فإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر، فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها»[3]. وروي أنه لم يكن حيّ

---

[1] ابن هشام (١/ ٦٤) «هامش الروض»، ابن هشام (١/ ٨٤)، الأصنام (٣٢)، خزانة الأدب (٣/ ٢٤٥).
[2] سورة ص، الآية ٤ وما بعدها.
[3] الأصنام (٣٣).

من أحياء العرب إلاّ وله صنم يعبده يسمونه: «أنثى بني فلان. ومنه قوله تعالى: ﴿إنْ يدعون من دونه إلاّ إناثاً﴾[١]. والإناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة»[٢]. وقد كان المشركون يعبدون الأصنام. «ويسمونها بالإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك»[٣].

ولم يذكر (ابن الكلبي) العوامل التي دفعت بعبدة الأحجار إلى اختيار أربعة أحجار من بين عدد عديد من الأحجار، ثم اختيار حجر واحد من بين هذه الأحجار الأربعة المختارة. فهل أخذ هذا العدد من نظرية العناصر الأربعة التى وضعها الفيلسوف (امبدوكلس) (Empedokles) (٤٩٠ ــ ٤٣٠) قبل الميلاد. نظرية أن الكون قد تكوّن من عناصر أربعة هي: النار، والماء، والهواء، والتراب، فكانوا يختارون لذلك أربعة أحجار، تمثل هذه القوى الأربع المكونة على رأي الناس في ذلك الوقت لأساس الكون ثم يختارون حجراً واحداً من بينها يكون أحسنها وأجملها، ليكون رمزاً لها، وممثلاً للإله.

وقد كان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها فإذا رأوا حجراً أحسن وأعجب تركوا الحجارة القديمة وأخذوا الحجارة الجديدة. فال (ابن دريد): «الحارث بن قيس: وهو الذي كان اذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبده. وفيه نزلت: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه»[٤]. فهذه هي عبادة الأحجار عند الجاهلين.

ولدينا أمثلة عديده تفيد أن كثيراً من الجاهليلين كانوا يحتفظون في بيوتهم بأصنام يتقربون إليها كل يوم، ولا يعني ذلك بالطبع أن تلك الأصنام كانت أصناماً كبيرة منحوتة نحتاً فنياً، بل كان أكثرها تماثيل صغيرة وبعضها أحجاراً غير منسقة ولا منحوتة خشباً جيداً وانما هي أحجار تمثل الصنم الذي يتقرب اليه المرء. رُوي أن (أحمر بن سواء بن عدي السَّدُوسي) كان له صنم يعبده، فعمد إليه فألقاه في بئر، ثم جاء إلى الرسول فأسلم[٥].

---

1 النساء، الآية ١١٧.
2 اللسان (١٢/ ٣٤٩)، (صنم).
3 تفسير الطبري (٥/ ١٧٩ وما بعدها)، روح المعاني (٦/ ١٣٤).
4 الاشتقاق (٧٦).
5 الإصابة (١/ ٢٢).

وكان بين الجاهليين قوم كرهوا الأصنام وتأففوا منها، رأوا أنها لا تنفع ولا تضر ولا تشفع، فلم يتقربوا، إليها، وقالوا بالتوحيد، ومن هؤلاء (مالك بن التيهان)، وهو من الأنصار ومن المسلمين الأولين الذين دخلوا في الإسلام من أهل (يثرب)، و(أسعد بن زرارة)[١].

وقد شك بعض المستشرقين في وجود أصنام عند العرب الجنوبيين[٢]، ويظهر أن الذي حملهم على قول هذا القول، هو ما رأوه من تعبد العرب الجنوبيين لإلهة منظورة في السماء هي الكواكب الثلاثة المعروفة، فذهبوا الى انتفاء الحاجة لذلك إلى عبادة أصنام ترمز إلى تلك الآلهة. وعندي أن في اصدار رأي في هذا الموضوع نوع من التسرع، لأننا لم نقم حتى اليوم بحفريات علمية عميقة في مواضع الآثار في العربية الجنوبية حتى نحكم حكماً مثل هذا لا يمكن إصداره الا بعد دراسات علمية عميقة لمواضع الآثار، فلربما تكشف دراسات المستقبل عن حلّ مثل هذه المشكلات، إن الإسلام قد هدّم الأصنام وأمر بتحطيمها، فذهبت معالمها، إلا أنه من الممكن احتمال العثور على عدد منها، لا زال راقداً تحت التربة، لأنه من الأصنام القديمة التي دفنت في التربة قبل الإسلام بسبب دمار حلّ بالموضع الذي عبد فيه، أو من الأصنام التي وصلت إليها أيدي الهدم، فطمرت في الأتربة، وعلى كلّ فالحكم في هذا الرأي هو كما ذكرت للمستقبل وحده، وعليه الاعتماد.

والرأي الذائع ببن الأخباريين عن كيفية نشوء عبادة الأصنام قريب من رأي بعض العلماء المحدثين في هذا الموضوع. عندهم أن الناس لم يتعبدوا في القديم وفي بادىء بدء الأصنام، ولم يكونوا ينظرون إليها على أنها أصنام تعبد، إنما صوروها أو نحتوها لتكون صورة أو رمزاً تذكرهم أو يذكرهم بالإلَه أو الآلهة الأشخاص الصالحين. فلما مضى عهد طويل عليها، نسي الناس أصلها، ولم يعرفوا أمرها فاتخذوها أصناماً وعبدوها من دون الله. وتحملنا رواياتهم في بعض الأحيان على الاعتقاد أنه ربما كانوا يعتقدون بعقيدة المسخ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائلة من أنهما «رجل وامرأة من جرهم، وأن إسافاً وقع عليها في الكعبة فمسخا»[٣]، وبعقيدة التقمص كالذي رووه عن الصنم اللات من أنه كان إنساناً

---

[1] طبقات ابن سعد (٣/ ٤٤٨) «صادر».

[2] Arabien, S. 247.

[3] الروض الأنف (١/ ٦٤).

من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو بن لحيّ: «لم يمت، ولكن دخل في الصخرة. ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات»[١]. أو كالذي رووه عن الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، من أن هؤلاء كانوا نفراً من بني آدم صالحين، «وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلم ماتوا قال أصحابهم للذين كانوا يقتدرن بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة اذا ذكرناهم، فصوّروهم فلما ماتوا ودب اليهم ابليس، فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[٢].

وهذه العقيدة هي التي خلقت للأخبارين جملة قصص عن وجود أرواح كامنة في تلك الأصنام، كانت تتحدث إلى الناس، وهي التي أوحت اليهم بذلك القصص الذي رووه بمناسبة أمر النبي بهدم الأصنام، من خروج جن من أجوافها حينما قام بهدمها المسلمون. وقد كان أولئك الجنة على وصفهم إناثاً، وللغالب أنهن على هيأة زنجيات شمطاوات عجائز، وقد نثرن شعورهن[٣]، وهي صور مرعبة ولا شك في نظر الناس، ومن عادة الناس منذ القديم أن يمثلوا الجنة على هيأة نساء طاعنات في السن مرعبات.

والخوف من هذه الأرواح أو الجنة التي كانت تقيم في أجواف الأصنام على رأي الجاهليين، حمل بعض من عهد إليهم تحطيم تلك الأصنام على التهيب من الإقدام على مثل ذلك العمل خشية ظهورها وفتكها بمن تجاسر عليها. وهذا الخوف هو الذي أوحى إليهم ولا شك برواية القصص المذكور.

ويمثل الصنم قوة عليا هي فوق الطبيعة، وقد يظن أنها كامنة فيه[٤]، وتكون الأصنام على أشكال مختلفة، قد تكون على هيأة بشر، وقد تكون على هيأة حيوان أو أحجار أو أشكال أخرى، ولهذه الأصنام عند عابديها مدلولات وأساطير. وهي تصنع من مواد مختلفة، من الحجارة ومن الخشب ومن المعادن ومن أشياء أخرى بحسب درجة تفكير عبدتها وتأثرهم بالظواهر الطبيعية والمؤثرات التي تحيط

---

[1] البلدان (٧/ ٣١٠) «اللات».
[2] تفسير الطبري (٢٩/ ٦٢).
[3] البلدان (٧/ ٣١٠) «اللات».

[4] Ency. Religi., 7, p. 112.

بهم. وقد تستخدم خُشُبٌ خاصة تؤخذ من أشجار ينظر إليها. نظرة تقديس واحترام في عمل الأصنام منها. ويتوقف صنعها على المهارة التي يبديها الفنان في الصنع. ويحاول الفنان في العادة أن يعطيها شكلاً مؤثراً له علاقة بالأساطير القديمة وبالكائن الذي سيمثله الصنم. وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عبدها عن أجداده كأن يكون من حجارة البراكين، وقد يكون من النيازك عبدها لظنه بوجود قوة خارقة فيها.

ولعبادة الأصنام صلة وثيقة بتقديس الصور Images. وكذلك بصور السحر Magical Images. فكل هذه الأشكال الثلاثة هي في الواقع عبادة. ونعني هنا بتقديس الصور، الصور المقدسة التي تمثل أسطورة دينية أو رجالاً مقدسين كان لهم شأن في تطور العبادة، أو جاءوا بديانة، وأمثال ذلك، فأحب المؤمنون بهم حفظ ذكراهم وعدم نسيانهم أو الابتعاد عنهم، وذلك بحفظ شيء يشير إليهم ويذكرهم بهم، وهذا الشيء قد يكون صورة مرسومة، وقد يكون صورة محفورة أو منحوتة أو مصنوعة على هيأة تمثال أو رمز يشير إلى ذلك المقدس[1]. فالصور المرسومة إذن، هي نوع من العبادة أيضاً، ينظر الها نظرة تقديس وإجلال.

ونجد في روايات أهل الأخبار عن منشأ عبادة الأصنام عند العرب ما يؤيد هذا الرأي، فهناك رواية طريفة عن الصنم (سواع) تزعم أن سواعاً كان ابناً لشيث، وأن يغوث كان ابناً لسواع، وكذلك كان يعوق ونسر، كلما هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضعه من الدين. ولما عهدوا في دعائه من الإجابة. فلم يزالوا هكذا حتى خلف الخلوف، وقالوا: ما عظّم هؤلاء آباءنا إلاّ لأنها ترزق وتنفع وتضر، واتخذوها آلهة. وهناك رواية أخرى تزعم أن الأوثان التي كانت في قوم نوح، كانت في الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم أن~ أنصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً، وسموها بأسمائها، ففعلوا، فلم تعبد، حتى اذا هلك أولئك وتنوسخ العلم بها عبدت[2].

---

[1] Ency. Religi., Vol., p. 110.

[2] الروض الأنف (١/ ٦٢)، تفسير الطبرسي (٥/ ٣٦٤).

وهنالك روايات عن أصنام جعلتها أشخاصاً مسخوا حجراً، فعبدوا أصناماً، وصاروا شركاء لله، تعبد لها، لأنها في نظرهم تنفع وتضر.

ونجد في أخبار فتح مكة أن الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الأنبياء والملائكة، فأمر بها فمحيت. ورأى فيها ستين وثلاث مئة صنم مرصعة بالرصاص، وهبل أعظمها، وهو وجاه الكعبة على بابها، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون، فأمر بها فكسرت[١].

أما هذه الصور، فقيل إنها صور الرسل والأنبياء، وبينها صورة (إبراهيم) وفي يده الأزلام يستقسم بها[٢].

الأصنام:

والصنم في تعريف علماء اللغة هو ما اتخذ إلهاً من دون الله، وما كان له صورة كالتمثال (مثال)، وعمل من خشب، أو ذهب، أو فضة، أو نحاس، أو حديد، أو غيرها من جواهر الأرض. وقال بعضهم: الصنم جثة متخذة من فضة، أو نحاس، أو ذهب، أو خشب، أو حجارة، متقربين به إلى الله، فالشرط فيه أن يكون جثة: جثة إنسان أو حيوان. وقيل: الصنم الصورة بلا جثة[٣]. وذكر أن الصنم ما كان من حجر أو غيره[٤]. وعرف بعضهم الصنم بأنه ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم أو صورة، فهو وثن[٥]. و(الصنمة)، الصورة التي تعبد[٦]. وقد كان (المنطبق) صنماً من نحاس أجوف يكلمون من جوفه[٧].

---

1 ابن الأثير (٢/ ١٠٥)، (فتح مكة)، إمتاع الأسماع (١/ ٣٨٣ وما بعدها).
2 (فترك عمر صورة إبراهيم عليه السلام، حتى محاها عليه السلام)، إمتاع الأسماع (١/ ٣٨٣)، الروض الأنف (٢/ ٢٧٥ وما بعدها).
3 اللسان (١٥/ ٢٤١) (١٧/ ٣٣٣)، تاج العروس (٨/ ٣٧١)، (٩/ ٣٥٨)، (صنم)، القاموس (٤/ ١٤١، ٢٧٤)، الاشتقاق (٣٠٢)، الأصنام (٥٣)، المفردات (٢٨٩).
4 الروض الأنف (١/ ٦٢).
5 اللسان (١٢/ ٣٤٩)، (صنم)، (صادر)؟
6 اللسان (١٢/ ٣٤٩)، (صنم).
7 المحبر (٣١٨).

ووردت لفظة (صنم) في كتابات عثر عليها في أعالي الحجاز، اسم علم لإله ازدهرت عبادته بصورة خاصة بمدينة (تيماء)، ويرجع بعض المستشرقين تأريخ ازدهار عبادة هذا الصنم إلى حوالي سنة (٦٠٠) قبل الميلاد. وقد ورد اسمه علماً لأشخاص في الكتابات اللحيانية. ورمز عنه برأس ثور في كتابات قوم ثمود[1].

وقد وردت كلمة (أصنام)[2] و(أصناماً)[3] و(الأصنام)[4] و(أصنامكم)[5] في القرآن الكريم، بحسب مواقع الكلمة في الجملة.

وذكر علماء اللغة أن كلمة (صنم) ليست عربية أصيلة، وإنما هي معربة وأصلها (شمن) (شنم)، ولكنهم لم يذكروا اسم اللغة التي عُربت منها[6]. وترد اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية، وردت (صلمن) في نصوص المسند بمعنى (صنم) و(تمثال)، و(مثال)[7]. ووردت في لهجات عربية أخرى. وهي (صلمو) Salmo في لغة بني ارم، ومعناها (صورة). من أصل (صلم) بمعنى (صوّر)، وتقابل (صلم) في العبرانية[8].

وقد ورد في قصص أهل الأخبار أن (بني حنيفة) تعبدوا لصنم من حيس، فعبدوه دهراً طويلاً، ثم جاعوا فأكلوه، فقال الشعراء في ذلك شعراً يعيرون به (بني حنيفة) لأكلهم ربهم زمن المجاعة[9]. وهو في رأيي من القصص، الذي يضعه الخصوم في خصومهم للاستهزاء بهم.

---

1 Grimme, 23.

2 الأعراف، الآية ١٣٧.

3 الأنعام، الآية ٧٤، الشعراء، الآية ٧٢.

4 إبراهيم، الآية ٣٥.

5 الأنبياء، الآية ٥٧.

6 القاموس (٤/ ١٤١)، اللسان (١٥/ ٢٤١)، تاج العروس (٨/ ٣٧١)، روح المعاني (١٣/ ٢١٠)، خزانة الأدب (٣/ ٢٤٤ وما بعدها).

7 (صلمن ذ صرفن وصلمنن ذ ذهبن)، أي (تمثال من فضة، وتمثالان من ذهب)،راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية، لغويدي (١٩).

8 غرائب اللغة (١٩٣).

9 الأعلاق النفيسة (٢١٧).

الوثن:

وأما كلمة (وثن)، فهي من الكلمات العربية القديمة الواردة في نصوص المسند. ويظهر من استعمال هذه الكلمة في النصوص مثل: (وليذبحن وثنن درا بخرفم ذبصم صححم انثيم وذكرم)، أي (وليذبح للوثن مرة في السنة ذبحاً صحيحاً، أنثى أو ذكراً)[1]. إن الوثن هو الذي يرمز إلى الإلَه، أي بمعنى الصنم في القرآن الكريم.

الصلم:

ويظهر من استعمال كلمتي (صلمن) (الصلم) (صلم) و(وثنن) (الوثن) أن هناك فرقاً بين الكلمتيْن في نصوص المسند، فإن كلمة (صلمن) تعني في الغالب تمثالاً يصنع من فضه، أو من ذهب، أو من نحاس، أو من حَجر، أو من خشب، أو من أية مادة أخرى ويقدم إلى الآلهة لتوضع في معابدها تقرباً إليها، لإجابتها دعاء الداعين بشفائهم من مرض أو قضاء حاجة، أي إنها تقدم نذوراً. أما الوثن، فإنه الصنم في لهجتنا، أي الرمز الذي يرمز به إلى الإله، والذي يتقرب له الناس.

والوثن في رأي بعض العلماء، لفظة مرادفة لصنم. وقال بعض آخر: (المعمول من الخشب أو الذهب والفضة أو غيرها من جواهر الأرض صنم، وإذا كان من حجارة، فهو وثن)[2]. وذكر بعض آخر أن الصنم ما كان له صورة جعلت تمثالأ، والوثن ما لا صورةٍ له. «وقيل إن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعبد، والصنم صورة بلا جثة. وقيل: الصنم ما كان على صورة خلقة البشر، والوثن ما كان على غيرها». «وقال آخرون: ما كان له جسم أو صورة، فصنم، فإن لم يكن له جسم أو صورة، فهو وثن. وقيل: الصنم من حجارة أو غيرها، والوثن ما كان صورة مجسمة.

---

[1] المختصر، لغويدي (١٨).

[2] الأصنام (٣٣)، (روزا)، تاج العروس (٨/ ٣٧١)، (صنم)، (٣٥٨/٩)، (وثن)، القاموس (٤/ ١٤١، ٢٧٤)، اللسان (١٧/ ٣٣٣)، خزانة الأدب (٣/ ٢٤٤ وما بعدها)، سبائك الذهب (١٠١).

وقد يطلق الوثن على الصليب وعلى كل ما يشغل عن الله». وقال بعض آخر: «يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم، ولا يُقال وثن إلاّ لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه»[1]. وذكر بعض آخر: «أصل الأوثان عند العرب، كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها، وكانت العرب تنصبها وتعبدها»[2].

وذكر علماء اللغة أن (الودع) وثن[3]. ولم يذكروا شيئاً عنه غير ذلك. وقد أطلق (الأعشى) على الصليب (الوثن)، إذ قال:

تطوف العفـــاة بأبوابـــه كطوف النصارى ببيت الوثن

(أراد بالوثن الصليب). «قال عديّ بن حاتم: قدمت على النبي، صلى الله عليه وسلم، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: القِ هذا الوثن عنك، أراد به الصليب، كما سمّاه الأعشى وثنا»[4].

فنحن إذن أمام آراء متباينة في معنى (الصنم) و(الوثن). منهم من جعل الصنم مرادفاً للوثن، أي في معنى واحد، ومنهم من فرّق بينهما، ومنهم من جعل الصنم وثناً والوثن صنماً. والظاهر أن مردّ هذا الاختلاف، هو اختلاف استعمال القبائل للكلمتيْن، فلما جمع علماء اللغة معانيهما، وقع لهم هذا التباين وحدث عندهم هذا الاختلاف في الرأي.

وترد في كتب الأدب واللغة لفظة (البعيم)[5]. اسم صنم، والتمثال من الخشب، وقيل الدمية من الصمغ[6]. والمثال الشبه، وما جعل مثالاً لغيره، والتمثال. وهو الشيء المصنوع مشبهاً بخلق واذا قدرته على قدره. وذكر أنها الأصنام. وفي هذا المعنى وردت في القرآن الكريم: (ما هذه التماثيل؟ أي

---

[1] الروض الأنف (١/ ٦٢).
[2] اللسان (١٣/ ٤٤٣)، (وثن)، (صادر).
[3] اللسان (٨/ ٣٧٨)، (ودع).
[4] اللسان (١٣/ ٤٤٣)، (وثن).
[5] البعيم، كأمير.
[6] تاج العروس (٨/ ٢٠٣)، (البعيم)، الأصنام (١٠٨)، (تكملة)، «روزا».

الأصنام. وقوله تعالى: من محاريب وتماثيل، هي صور للأنبياء)[1]. وذكر: التماثيل للأصنام، والصورة، والشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله. أي إنسان أو حيوان أو نبات[2]. ويعبر عن التمثال والمثال. بلفظة (امثلن) في العربيات الجنوبية. وردت في النصوص لمناسبة تقديم أصحابها تماثيل إلى الآلهة لتوضع في معابدها وفاء لنذور نذروها لها[3].

و(الدمية) الصورة المنقشة من الرخام، أو عام من كل شيء، أو الصورة عامة. والصنم، والأصنام دمى. ومن إيمان الجاهلية: لا والدمى، يريدون الأصنام[4]، وذكر أن (الدمية) ما كان من الصمغ[5].

و(البدّ) الصنم الذي يعبد، فارسي معرب. عرب من (بت) بمعنى (صنم)[6]. وذكر أن (البد)، بيت الصنم والتصاوير أيضاً[7].

وقد اشتغل بعض أهالي مكة بصنع الأصنام. فكان (عكرمة بن أبي جهل) ممن يعملها بمكة[8]. وكان الأعراب اذا جاءوا مكة أو المواضع الحضرية الأخرى اشتروا الأصنام منها للتعبد لها[9].

هيأة الأصنام:

وقد وصف (ابن الكلبي)، وهو الراوية الرئيس والعالم الكبير بالأصنام هيأة بعض الأصنام، فذكر مثلاً أن الصنم (هبل)، كان على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب[10]. فهو تمثال إنسان اذن نحت من حجر أحمر أو وردي، لا يستبعد أن يكون من عمل بلاد

---

1 تاج العروس (٨/ ١١١)، (مثل).
2 تاج العروس (٨/ ١١١)، (مثل).
3 Jamme 558, MaMb 201, Mahram, p. 24.
4 تاج العروس (١٠/ ١٣١)، (دمى).
5 الأصنام (١٠٨)، (تكملة).
6 تاج العروس (٢/ ٢٩٥)، (بدد)، غرائب اللغة (٢١٨).
7 تاج العروس (٢/ ٢٩٥)، (بدد).
8 الأزرقي (١/ ٧٧ وما بعدها).
9 الأزرقي (١/ ٧٨).
10 الأصنام (٢٧ وما بعدها)، الأزرقي (١/ ٦٨).

الشام أو من عمل الفنانين اليونان، واستورد من هناك، فنصب في جوف الكعبة. استورده أحد سادة (مكة) وهو (عمرو بن لحيّ) على رواية أهل الأخبار، أو غيره، لما رأى فيه من حسن الصنعة ودقة النحت. فوضعه في موضعه. ولم يذكر أهل الأخبار سبب كسر اليد اليمنى للصنم، هل كان ذلك بسبب حادث، أو بسبب أسطوري. وأما (اللات) فصخرة بيضاء منقوشة[١]، في رواية أكثر الأخبار. وتمثال من حجر على رواية[٢]. وأما العزّى، فهناك رواية تذكر أنها كانت صنماً، أي تمثالاً، ولكنها لم تعين صورته على نحو ما تحدثت عنها في الفصل الخاص بالأصنام. وأما (ودّ) فقد كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد ذبر عليه حلتان، متزر بحلة، مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء، ووفضة فيها نبل[٣]. وأما (سواع)، فكان صنماً على صورة امرأة. ولا يستبعد أن يكون من بين الأصنام الباقية ما كان على صورة حيوان. فقد كان الصنم (نسر) يمثل النسر.

وأقصد بالأصنام في هذا المكان أصنام المعابد، أي الأصنام التي كان الناس يتقربون إليها بالتعبد والنذور. وأما الأصنام الصغيرة، وهي التماثيل التي كان يتعبد لها الناس في بيوتهم أو يحملونها معهم في أسفارهم أو يحملونها معهم حيث ذهبوا تبركاً بها. فقد كانت كثيرة، لا يخلو منها إنسان، وكانوا يتقربون بها إلى الأصنام الكبيرة. وقد عثر المنقبون على عدد كبير منها، وهي متفاوتة في الحجم وفي الروعة ودقة الصنع والاتقان.

عبادة للأصنام:

ونظرية (ابن الكلبي) ومن لفّ لفّه من الأخباريين أن نسل إسماعيل بن إبراهيم لما تكاثر بمكة حتى ضاقت بهم، وقعت بينهم الحروب والعداوات، فأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا في البلاد التماساً للمعاش. وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة.

---

[1] تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣ وما بعدها).
[2] تفسير ابن السعود (٥/ ١١٢).
[3] الأصنام (٥٦)، (٣٥) «روزا».

فحيثما حلّوا، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم وحُباً له. وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل.

(ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح منها، على أرث ما بقي فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم واسماعيل يتنسكون بها: من تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عَرَفَة ومزدلفة، ولإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه)[١].

فكان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامية، عمرو بن ربيعة، وهو لحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي، وهو أبو خزاعة.

وكانت أم عمرو بن لحيّ، فهيرة بنت عامر عمرو بن الحارث بن عمرو الجرهمي، ويقال: قمعة بنت مضاض الجرهمي[٢].

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة. فلما بلغ عمرو بن لحيّ، نازعه في الولاية، وقاتل جرهماً ببني إسماعيل، فظفر بهم، وأجلاهم عن الكعبة، ونفاهم عن بلاد مكة، وتولى حجابة البيت بعدهم.

ثم إنه مرض مرضاً شديداً، فقيل له: إن بالبلقاء من الشأم حمّة إن أتيتها، برأت. فأتاها، فاستحم بها، فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا. فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة. ثم أخذ عمرو بن لحيّ في توزيع الأصنام على القبائل. وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين الناس[٣].

---

[1] الأصنام (ص ٦ وما بعدها)، ابن هشام (١/ ٨٢)، الروض الأنف (١/٦١).
[2] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ٤٦).
[3] الأصنام (ص ٦ وما بعدها)، الاشتقاق (٢٧٦)، البلدان (٨/ ٤٠٨ وما بعدها)، (ودّ)، مروج الذهب (٢/ ٢٢٧)، (ذكر البيوت المعظمة، والهياكل المشرفة)، سبائك الذهب (١٠١)، الروض الأنف (١/ ٦٤)، البلدان (٤/ ٦٥٢ وما بعدها) (طهران ١٩٣٥).

هذه رواية شهيرة معروفة بين الأخباريين عن منشأ عبادة الأصنام وانتشارها عند العرب. وفي رواية أخرى: «كان أول من اتخذ تلك الأصنام، من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس، وسموّها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل هُذيل بن مدركة»[1]. فنسبت هذه الرواية اتخاذ الأصنام إلى هذيل.

وهناك روايات أخرى في هذا المعنى تتفق مع الرواية الأولى من حيث الجوهر ولا تختلف معها إلا في بعض التفاصيل؛ ففي رواية أن (عمرو بن لحيّ) حينما قدم (مآباً) من أعمال البلقاء، وهي يومئذ بأيدي العماليق، ووجدهم يتعبدون للأصنام، سألهم أن يعطوه صنماً منها ليسير به إلى أرض العرب ليعبدوه، فأعطوه الصنم هبل، فأخذه، وقدم به إلى مكة فنصبه. وأمر الناس بعبادته[2]. فعينت هذه الرواية القوم الذين ذهب اليهم (عمرو بن لحيّ)، والموضع الذي نزل به، وثبتت اسم الصنم الذي أخذه منهم. وهي زيادات لم نجدها في كتاب الأصنام. غير أن تشابه عبارات هذه الرواية التي ذكرها (ابن هشام) مع رواية (ابن الكلبي)، يدل على ان المنبع واحد، وانما الخلاف هو في ذكر بعض الفروع، وفي اختصار بعض المواضع، والإطناب في مواضع أخرى.

وفي رواية أخرى عن (ابن الكلبي) كذلك، وهي في كتابه الأصنام، ترجع أيضاً عبادة الأصنام إلى عمرو بن لحيّ، غير أنها تروي الخبر في صيغة أخرى، فتقول:

«وكان عمرو بن لحيّ، وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد، وهو أبو خزاعة، وأمه فُهيرة بنت الحارث، ويُقال إنها كانت بنت الحارث بن مضاض الجرهمي، وكان كاهناً. وكان قد غلب على مكة وأخرج منها جرهماً، وتولى سدانتها.

---

[1] الأصنام (ص ٩)، نسب عدنان وقحطان، للمبرد (٢٢ وما بعدها)، المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء (١/ ٩٤)، ابن هشام (١/ ٧٨)، (البابي)، البلدان (٤/ ٦٥٢) (طهران)، ابن خلدون (٢/ ٦٨٦)، مروج الذهب (٢/ ٥٦ وما بعدها)، (محمد محيي الدين عبد الحميد)، أبو الفداء (١/ ٧٦).

[2] ابن هشام (ص ٦٢)، حاشية على الروض الأنف، ابن هشام (١/ ٨٢)، ديوان حسان (p. 11)، (هرشفلد، ابن هشام (١/ ٧٨ وما بعدها، ١٢٠).

وكان له رئي من الجن، وكان يكنى أبا ثمامة، فقال له: عجل بالمسير والظعن من يمامة، بالسعد والسلامة! قال: جيْر، ولا إقامة.

قال: ايت ضَفَّ جُدّة، تجد فيها أصناماً معدة، فأوردها تهامة ولا تهاب، ثم ادع عبادتها قاطبة.

فأتى شطّ دجلة، فاستثارها، ثم حملها حتى ورد تهامة، وحضر الحجّ، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة.

فأجابه عوف بن عُذرة بن زيد اللاّت بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، فدفع اليه ودّاً. فحمله إلى وادي القُرى، فأقره بدومة الجندل. وسميّ ابنه عبد ودّ. فهو أول من سُمّي به، وهو أول من سُمّي عبد ودّ، ثم سمعة العرب به بعد»[١].

فهذه الرواية هي على شاكلة الرواية الأولى في منشأ عبادة الأصنام بين العرب قبل الإسلام بحسب رأي الأخباريين بالطبع، سوى اختلافها عنها في المكان الذي أخذت الأصنام منه. فهنا (جُدَّة) على ساحل البحر الأحمر، وهناك البلقاء من أعمال الشام. والموضعان، وإن كانا يختلفان موقعاً، يتفقان في شيء واحد هو وقوعهما على حدّ مقصود، يرده الأجانب منذ القدم للاتجار. فهل يعني هذا استيراد تلك الأصنام من الخارج، من بلاد الشأم أو من مصر، وأنها كانت من عمل أهل الشأم أو أهل مصر أو من عمل الروم أو الرومان؟ وتذكر رواية أخرى أن (عمرو بن لحيّ)، إنما جاء بالصنم (هبل)، من (هيت) بالعراق حتى وضعه في الكعبة[٢].

وعمرو بن لحيّ هو على اختلاف الروايات أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي. فقأ عين عشرين بعيراً، فصارت العادة أن يفقأ عين الفحل من الإبل إذا بلغت الإبل ألفاً. فإذا بلغت ألفين، فقئت العين الأخرى. وقد نسب إليه كلام طويل. وزُعم له عمر مديد، وقصص أخرجه من عالم الواقع إلى عالم القصص والأساطير، ورجع عصره إلى أيام (العماليق) والى أيام (سابور ذي الأكتاف). وذكر ان العرب

---

[1] الأصنام (ص ٥٤ وما بعدها).

[2] الأزرقي (١/ ٧٣ وما بعدها)، الروض الأنف (١/ ٦٥).

جعلته (رباً لا يبتدع لهم بدعة إلاّ اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة)[١]، وذكروا أنه كان ملكاً على الحجاز، وكان كبير الذكر في أيامه، الى غير ذلك من قصص يروونه عنه[٢].

وذكر (المسعودي)، أن (عمرو بن لحيّ) حين خرج إلى الشأم ورأى قوماً يعبدون الأصنام، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة، وأكثر من الأصنام، وغلب على العرب عبادتها، انمحت الحنيفية منهم إلاّ لماماً، ضج العقلاء في ذلك، فقال (شحنة بن خلف) (سحنة بن خلف الجرهمي):

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة   شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربّ واحـــد أبداً   فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعـــرفن بأن الله في مَهَـــلٍ   سيصطفي دونكم للبيت حجابا[٣]

وكان (عمرو بن لحيّ) كاهناً على ما يذكره أهل الأخبار[٤]، وهو من (خزاعة)، التي انخزعت من اليمن. ثبت حكمه على مكة، بعد أن انتزع الحكم من جرهم، وغلب قومه عليها، فصاروا يطيعونه ويتبعون ما يضعه لهم. وقد نسبوا اليه وضع بقية الأصنام، مثل اللات وإساف ونائلة، فهو على رأي أهل الأخبار مؤسس هذه الأصنام التي بقيت إلى أيام النبي، والتي حطمت بأمره عام الفتح، وباستيلاء المسلمين على المواضع الأخرى.

وذكر أهل الأخبار أن (عمرو بن لحي) كان أول من غيرَّ تلبية (ابرهيم). وكانت: (لبيك لا شريك لك. لبيك)، فجعلها: (لبيك اللهم لبيك، إلا شريك هو لك، تملكه وما لك)، وقد كان (ابليس) قد ظهر له في صورة شيخ نبيّ على بعير أصهب، فسايره ساعة، ثم لبى إبليس، فلبى (عمرو) تلبيته حتى خدعه. فلباها الناس على ذلك[٥].

---

[1] الروض الأنف (١/ ٦٢)، البداية والنهاية (٢/ ١٨٨).
[2] المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء (١/ ٩٤).
[3] مروج الذهب (٢/ ٢٩ وما بعدها).
[4] مروج الذهب (٢/ ٣٠٣).
[5] الأزرقي (١/ ١٢٦ وما بعدها)، (١/ ٢٦ وما بعدها)، ابن هشام (١/ ٧٩ وما بعدها).

وقد قيل إنه بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية مبلغه[١]. ويظهر أنه كان من أصحاب الحول والسلطان والجاه، ولذلك ترك هذا الأثر في روايات أهل الأخبار. وإني أرى أنه لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، وإلا لمَ حفظت ذاكرة أهل الأخبار أخبارها عنه. والظاهر أنه كان كاهناً من الكهان، ورجلا كبيراً من رجال الدين.

وروي أن الرسول ذكر أن (عمر بن لحي بن قمعة) كان أول من غيرّ دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة[٢].

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم (عمرو بن لحي) في قصة انتشار الأصنام في جزيرة العرب إقحاماً من غير أصل ولا أساس، فلا بد من أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأصنام عند الجاهليين، ولا بد أن يكون من الرجال الذين عاشوا في عهد غير بعيد عن الإسلام، لا قبل ذلك بكثير كما يدعي الأخباريون، فما كان خبره ليصل اليهم على هذا النحو لو كان زمانه بعيداً عنهم البعد الذي تصوروه. وأنا لا أستبعد احتمال شراء (عمرو بن لحيّ) للأصنام من بلاد الشأم ومجيئه بها إلى الحجاز، ونصبه لها في الكعبة وفي مواضع أخرى، لما وجده من حسن صنعة التماثيل في تلك البلاد ومن جودة حجارتها، فاشترى عدداً منها، لتنصب في المحجات، فنسبت عبادة الأصنام إليه.

وزعموا أن (ابن أبي كبشة): (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غبشان الخزاعي)، كان ممن أدخل الشرك إلى العرب، وخالف دين التوحيد. لقد ذكروا أنه دعا إلى عبادة (الشعرى العبور)[٣].

وليست عبادة الأصنام والأوثان عبادة خاصة بالعرب، بل هي عبادة كانت معروفة عند غيرهم من الشعوب السامية، وعند غير الساميين، كما أنها لا تزال موجودة قائمة حتى الآن.

وكانت قريش تتعبد وتتقرب إلى أصنام قبائل أخرى، على شرط المثل، أي أن تتقرب تلك القبائل وتتعبد لأصنام قريش. فقد ذكر (السكرى) أن قريشاً

---

[1] أخبار مكة (٥٤).
[2] الاستيعاب (١/ ١٢٠).
[3] تاج العروس (٤/ ٣٤١).

كانت تعبد صاحب كنانة، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[١]. وقد تمكنت قريش بفضل هذه السياسة الحكيمة من جمع أصنام العرب وضمها في الكعبة، وهذا ما جعل القبائل تعظم هذا المجمع، وتحج اليه كل سنة مرة، في موسم الحج، بالإضافة إلى الأيام الأخرى من أيام السنة، حيث تقع فيها العمرة. فربحت من ذلك ربحاً معنوياً ومادياً، وصارت مكة سوقاً مستقرة، ثابتة، يقصدها الناس في كل وقت.

الحلف بالأصنام والطواغيت:

ولعقيدتهم المذكورة في الأصنام، كانوا يحلفون بها وبالطواغيت. والظَاهر أن هذه العادة بقيت في نفوسهم حتى في الإسلام. فقد ورد في الحديث: «أنه قال من حلف بغير الله، فقال في حلفه باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله»[٢]، و«من حلف، فقال في حلفه واللات والعزى. فليقل: لا إلَه إلاّ الله»، «ومن قال لصاحبه: تعال ــ أقامرك فليتصدق»[٣]. وكانت ألسنتهم تسبقهم، لما اعتادته من زمن الجاهلية من الحلف بالأصنام[٤].

---

[1] المحبر (٣١٨).
[2] إرشاد الساري (٩/ ٣٧٧).
[3] تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣).
[4] تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣).

الفصل الثالث والستون

أنبياء جاهليون

ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين لم يعدموا من الأنبياء، فقد ذكروا لهم أنبياء قالوا إنهم بشروا بالله وبديه بين العرب، ومنهم (هود) نبيّ (عاد)، و(صالح) نبي قوم ثمود. وقد أُشير إليهما في القرآن الكريم[1].

وزعموا أن رجلاً من بني (قطيعة بن عبس) كان نبياً كذلك، ولم يكن في بني إسماعيل نبيّ قبله، وهو الذي أطفأ الله به (نار الحرتيْن). وكانت ببلاد عبس. فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء، وكانت طيء تُنفش بها إبلها، وربما ندرت منها (العنق)، أي قطعة فتأتي على كل شيء فتحرقه. وإذا كان النهار فإنما هي دخان يغور. احتفر (خالد) لها بئراً، ثم أدخلها فيها، والناس ينظرون، ثم اقتحم فيها حتى غيبها. وذكروا أنه نجح في إخمادها، وكان الناس يقولون: هلك الرجل، فكذبهم، وخرج سالماً، فلما حضرته الوفاة قال لقومه: إذْ أنا مت ثم دفتنموني، فاحضروني بعد ثلاث، فإنكم ترون عيراً أبتر يطوف بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني، فإني أخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة. فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه اختلفوا، فصاروا فرقتيْن، وابنه عبد الله في الفرقة التي أبت أن تنبشه، وهو يقول: لا أفعل! إني إذاً أُدعى ابنَ المنبوش! فتركوه.

---

[1] سورة هود، الآية ٥٣، ٦٠، ٨٩، الشعراء، الآية ١٢٤، صالح، سورة الأعراف، الآية ٧٧، هود، الآية ٦٢، ٨٩، الشعراء، الآية ١٤٢.

قال (الجاحظ): والمتكلمون لا يؤمنون بهذا، ويزعمون أن خالداً هذا كان أعرابيا وَبَرياً، من أهل (شرج) و(ناظرة). ولم يبعث الله نبياً من الأعراب ولا من الفَدّادين أهل الوبر، وهم أهل البادية. إنما يبعثهم من أهل لقرى، وسكان المدن[١].

ويظهر أنه عاش قبيل الإسلام. فقد ذكر أهل الأخبار أن ابنةً له قدمت على النبي، فبسط لها رداءه وقالى: هذه ابنة نبي ضيعه قومه. وذكروا أنها لما سمعت سورة: «قل هو الله أحد»، قالت: قد كان أبي يتلو هذه السورة[٢]. وزعموا أنه هو الذي دعا على العنقاء، فذهبت وانقطع نسلها[٣].

ثم نبيّ اخر اسمه (حنظلة بن صفوان)، كان نبياً بعثه الله إلى (أهل الرس)، فكذبوه وقتلوه، عاش في أيام (بختنصر)، وقد نسب الى حمير، وقبل إنه كان من أنبياء الفترة كذلك، وإنه هو الذيَ دعا على العنقاء، فانقطع نسلها[٤]. وذكر بعض أهل الأخبار أن الله أرسل (حنظلة) إلى أهل عدن ففقتلوه[٥].

وذكر أهل الأخبار اسم نبي أُرسل الى أهل (حضور)، اسمه (شعيب بن ذي مهدم). فقتلوه، فاستأصلهم (بختنصر)، وقبره بـ (صنين) جبل باليمن[٦].

وذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة بن حبيب الحنفي)، كَان ممن ادّعى النبوة بمكة قبل الهجرة، وصنع أسجاعاً[٧]. وكان قد طاف قبل التنبي، في الأسواق التي كانت بين دور العجم والعرب، يلتقون فيها للتسوق والبياعات، كنحو سوق الابلة، وسوق لقه، وسوق الأنبار، وسوق الحيرة. وكان يلتمس تعلم الحيل والنيرّجات، واختبارات النجوم والمتنبئين. وقد كان أحكم حيل السدنة

---

1 الحيوان (٤/ ٤٧٦ وما بعدها).
2 الحيوان (٤/ ٤٧٧).
3 (ذاك نبي أضاعه قومه)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٧٨ وما بعدها).
4 اللسان (١٢/ ١٤٩)، (عنق)، تاج العروس (١/ ٤١٠)، (عنق).
5 الروض الأنف (١/ ٩).
6 الروض الأنف (٩/١).
7 الحيوان (٤/ ٨٩)، «مسيلمة بن عثامة بن كبير بن حبيب بن الحرث، من بني حنيفة»، إرشاد الساري (٦/ ٤٣٤).

والحُواء وأصحاب الزجر والخط، ومذهب الكاهن والعيّاف والساحر، وصاحب الجن الذي يزعم أن معه تابعه.[1]

وقد أحكم من ذلك أموراً. فمن ذلك، أنه صبّ على بيضة من خلّ قاطع، حتى لان قشرها، فادخلها في قارورة ضيقة الرأس، وتركها حتى جفت ويبست، وعادت إلى هيئتها الأولى، فأخرجها إلى (مجاعة بن مرارة بن سلمى الحنفي) اليمامي، وأهل بيته، وهم أعراب، وادعى بها أعجوبة، وانها جعلت له آية، فآمن به من في ذلك المجلس: مجاعة وغيره. ومن ذلك أنه كان قد حمل معه ريشاً في لون ريش أزواج حمامٍ، وقد كان يراهن في منزل مجاعة مقاصيص. فالتفت، بعد أن أراهم الآية في البيض، إلى الحمام فقال لمجاعة: إلى كم تعذب خلق الله بالقص؟! ولو أراد الله للطير خلاف الطيران لما خلق لها أجنحة، وقد حرمت علكيم قص أجنحة الحمام! فقال له مجاعة كالمتعنت: فسل الذي أعطاك في البيض هذه الآية أن ينبت لك جناح هذا الطير الذكر الساعة؟

قال مسيلمة: فإن أنا سألت الله ذلك، فانتبه له حتى يطير وأنتم ترونه، أتعلمون أني رسول الله اليكم؟ قالوا: نعم. قال فإني أريد أن اناجي ربي، وللمناجاة خلوة، فانهضوا عني، وإنْ شئتم فادخلوني هذا البيت وادخلوه معي، حتى أخرجه اليكم الساعة وافي الجناحين يطير. وأنتم ترونه ولم يكن القوم سمعوا بتغريز الحلم، وكانوا بسطاء لا يعرفون حيل المحتالين، فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيأه، فأدخل طرف كل ريشة مما كان معه في جوف ريش الحمام المقصوص، من عند المقطع والقصّ. فلما غرز ريشه أخرجه، وأرسله أمامهم من يده فطار، واعتبروا عمله آية.

ثم إنه قال لهم: إن الملَك ينزل إليّ، والملائكة تطير وهي ذوات أجنحة، ولمجيء الملك زجل وخشخشة وقعقعة، فمن كان منكم ظاهراً فليدخل منزله، فإنّ من تأمل اختطف بصره! ثم صنع راية من رايات الصبيان التي تعمل من الورق الصيني، ومن الكاغد، وتجعل لها الأذناب والأجنحة، وتعلق في صدورها الجلاجل، وترسل يوم الريح بالخيوط الطوال الصلاب. ثم أرسلها مع الريح، وهم لا يرون الخيوط، والليل لا يبين عن صورة الرق، وعن دقة الكاغد،

---

[1] الحيوان (٤/ ٣٦٩ وما بعدها)، المعارف (٥٠٤).

فتوهموا أن ذلك الملائكة: وتصارخوا، وصاح: من صرف بصره ودخل بيته فهو آمن! فاصبح القوم وقد أطبقوا على نصرته والدفع عنه. فهو قوله:

ببيضة قارورٍ ورايـــةِ شـــادن وتوصيل مقصوص من الطير جادف[1]

ونسب بعض أهل الأخبار (مسيلمة) على هذا النحو: (مسيلمة بنُ ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان بن ذهل بن الدول بن حنيفة)[2] و(مسيلمة الكذاب بن حبيب ثمامة بن كبير، وجعله بعضهم (مسيلمة بن حبيب). وجعلوا كنيته (أبا ثمامة) وقيل (أبا هارون) و(أبو ثمالة)[3]. وذكروا أنه كان يسمّى بـ (الرحمان) قبل مولد (عبد الله) والد رسول الله، «وكانت قريش حين سمعت: بسم الله الرحمن الرحيم، قال قائل: دق فوك، إنما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة»[4]. وذكروا أنه دعا إلى الرحمان، أي إلى عبادة الرحمان. بينما عرف نفسه بـ (الرحمن)، فقيل له: (رحمان اليمامة)[5]. وأنه دعا إلى عبادته هذه قبل النبوة، وقد عرف أمره بمكة، فلما نزل الوحي على الرسول، قال أهل مكة إنما أخذ علمه من (رحمان) اليمامة[6]. وقالوا له: «إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن، ولن نؤمن به أبداً». فأنزل الله سبحانه: وهم يكفرون بالرحمن. قل: هو ربي). كان مسيلمة بن حبيب الحنفي، ثم أحد بني الدول قد تسمى بالرحمن في الجاهلية، وكان من المعمرين. ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمى بالرحمن قبل أن يولد عبد الله أو رسول الله صلىالله عليه وسلم»[7].

قال (الواحدي) في أسباب نزول الآية: ﴿وهم يكفرون بالرحمن. قل

---

[1] الحيوان (٤/ ٣٧١ وما بعدها)، المعارف (٤٠٥).
[2] الروض الأنف (٢/ ٣٤٠) (وفد بني حنيفة)، إمتاع الأسماع (١/ ٥٠٦)، البلاذري، فتوح (٩٧)، (اليمامة).
[3] الاشتقاق (٢٠٩)، البلاذري، فتوح (١٠٠).
[4] الروض الأنف (٢/ ٣٤٠)، اليعقوبي (١/ ١٢٠).
[5] Shorter Ency., p. 416.
[6] Shorter Ency., p. 416.
[7] الروض الأنف (١/ ٢٠٠).

هو ربي لا إلّه إلاّ هو عليه توكلت وإليه متاب﴾[1]: «قال أهل التفسير: نزلت في صلح الحديبية، حين أرادوا كتاب الصلح. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن، إلاّ صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذّاب. اكتبْ باسمك اللهم. وهكذا كانت الجاهلية يكتبون، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية»[2]. وذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن. قالوا: ما الرحمن أنسجد لما تأمرنا به وزادهم نفوراً﴾[3]، «أن مسيلمة كان يدعى الرحمن. فلما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم، اسجدوا للرحمن قالو: أنسجد لما يأمرنا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة بالسجود له»[4]. أو أنهم قالوا: « ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة. يعنون مسيلمة الكذاب»[5].

ولا يعقل قول من قال إن مسيلمة كان يُعرف بـ (الرحمن) قبل ولادة (عبد الله) والد الرسول. أما إنه كان أسنّ من الرسول فلا غرابة في ذلك، ولكني لا أرى أنه كان أكبر من الرسول بعشرات السنين. ومن الجائز أن يكون قد دعا إلى عبادة (الرحمن)، وهي عبادة كانت شائعة معروفة إذ ذاك، في اليمامة وفي غير اليمامة، فعرف قومه بـ (رحمن اليمامة)، وذلك قبل نزول الوحي على الرسول، فسمع أهل مكة بدعوته.

وورد في رواية أن (أبا جهل) سمع (رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحجرِ ويقول: يا الله يا رحمن. فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة، وهو يدعو إلهيْن. فنزلت الآية: قُلِ: ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ)[6]. وفي هذا الخبر إنْ صحّ، دلالة على أن أهل مكة كانوا قد سمعوا بعبادة (الرحمن) وأنهم سمعوا أن قوماً من الجاهليين دعوا إلى عبادته، وأن (أبا جهل) كان قد سمع قولهم، ولهذا أخذ على النبي قوله: يا الله يا رحمن. ولا يعقل ألاّ يكون لأهل مكة علم بعبادة (الرحمن)، التي تحدثت عنها في موضع آخر، وقد كان

[1] الرعد، الرقم ١٣، الآية ٣٠.
[2] أسباب النزول (٢٠٥ وما بعدها)، تفسير القرطبي (٩/ ٣١٧ وما بعدها).
[3] الفرقان، الآية ٦٠.
[4] تفسير الطبري (١٩/ ١٩)، روح المعاني (١٩/ ٣٦).
[5] تفسير القرطبي (١٣/ ٦٤).
[6] تفسير القرطبي (٩/ ٣١٨).

لهم اتصال باليمن وباليمامة وبمعظم أنحاء جزيرة العرب. وأرى أن (مسيلمة) كان قد دعا إلى عبادة الرحمن متأثراً بدعوة المتعبدين له ممن كان قبله على ما يظهر، وهي عبادة إلهَ اسمه (الرحمن) فعرف مسيلمة بـ (الرحمن) وبـ (رحمن اليمامة). وعبادة الرحمن ديانة متأثرة بفكرة التوحيد، وبوجود إلهَ واحد هو (الرحمن) رب العالمين.

وقد أشير إلى موضع اسمه (وادي الرحمن) في الكتاب الذي أعطاه رسول الله إلى (يزيد بن المحجل) الحارثي، ورد فيه: (إن لهم غرة ومساقيها ووادي الرحمن من بين غابتها)[١]. ولا أستبعد احتمال وجود صلة بين هذه التسمية وبين الرحمن الإلهَ.

وقد وصف الرواة (مسيلمة) بأنه (كان قصيراً شديد الصفرة أخنس الأنف أفطس)[٢].

ويظهر من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن (مسيلمة) أنه كان أكبر عمراً من الرسول. وأنه كان قد تكهن وتنبأ باليمامة ّوجد له أتباعاً قبل نزول الوحي على النبيّ. وأن أهل مكة كانوا على علم برسالته. ويذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة) كان ابن مائة وخمسين سنة حين قتل[٣]. وهو عمر قد بولغ فيه ولا شك، إذ لا يعقل أن يكون في هذه السن يوم قُتل، فقد كان فعالاً نشيطاً، نشاطاً لا يمكن أن يظهر إلاّ من رجل قويّ فعال، هو دون المائة.

وكان (مُسيلمة) يدعي أن معه رئيّاً في أول زمانه، ولذلك قال الشاعر حين وصفه:

ببيضة قارور وراية شادن وخلة جنّي وتوصيل طائر[٤]

وكان (مسيلمة) في جملة رجال (وفد حنيفة) الذي قصد الرسول، وفيهم (رحال بن عنفوة). لكنه ــ كما يقول الرواة ــ لم يذهب مع الوفد إلى

---

[1] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٦٨)، (ذكر بعثة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الرسل بكتبة إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام).
[2] البلاذري، فتوح (١٠٠).
[3] الروض الأنف (٢/ ٣٤٠)، اليعقوبي (١/ ١٢٠).
[4] الحيوان (٦/ ٢٠٥ وما بعدها).

الرسول، بل بقي مع رجال الوفد يبصرها لهم. فلما قرروا العودة، بعد أن أسلموا وأعطاهم جوائزهم، قالوا: «يا رسول الله إنا خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يبصرها لنا، وفي ركابنا يحفظها علينا، فأمر له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بمثل ما أمر به لأصحابه وقال: ليس بشرّكم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم، فقيل ذلك لمسيلمة، فقال: عرف أن الأمر ليّ من بعده. فلما عادوا إلى ديارهم، ادّعى مسيلمة النبوة، وشهد (رحال بن عنفوة) (الرحال بن عنفوة)، أن رسول الله، أشركه في الأمر، فتبعه الناس»[١]. وكان (الرحال) قد تعلم سوراً من القرآن، فنسب إلى (مسيلمة) بعض ما تعلم من القرآن، فكان من أقوى أسباب الفتنة على (بني حنيفة). قتله (زيد بن الخطّاب)، يوم اليمامة[٢].

وذكر (الطبري)، أن (مسيلمة) كان يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح. (وكان معه نهار الرجّال بن عنفوة) وكان قد هاجر إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وقرأ القرآن، وفقه في الدين، فبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة، وليشدد من أمر المسلمين، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، شهد له أنه سمع محمداً، صلى الله عليه وسلم، يقول: إنه قد أشرك معه، فصدقوه واستجابوا له، وأمروه بمكاتبة النبي، صلى الله عليه وسلم، ووعدوه إن هو لم يقبل أن يعينوه عليه، فكان نهار الرجال بن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه؛ وكان ينتهي إلى أمره[٣]. وكان الذي يؤذن له: عبد الله بن النوّاحة، وكان الذي يقُيم له (حجير بن عمير)، ويشهد له، وكان مسيلمة إذا دنا حجير من الشهادة، قال: صَرّح حجير، فيزيد في صوته، ويبالغ لتصديق نفسه، وتصديق نهار وتضليل منَ كان قد أسلم، فعظم وقاره في أنفسهم[٤]. فجعل (الطبري) اسم مساعد (مسيلمة) (نهار الرجال بن عنفوة)، لا (الرحال بن عنفوة) (رحال بن عنفوة

---

1 ابن سعد، طبقات (١/ ٣١٦ وما بعدها)، (وفد حنيفة)، الطبري (٣/ ١٣٧ وما بعدها)، (قدوم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة).
2 الروض الأنف (٢/ ٣٤٠).
3 الطبري (٣/ ٢٨٢ وما بعدها).
4 الطبري (٣/ ٢٨٣).

كما في الموارد الأخرى. لكنه عاد فدعاه (الرجال)[1] تارة و(رحال بن عنفوة) تارة أخرى، حينما تكلم عنه وعن نهايته. وذلك في أيام (أبي بكر)، أي في حوادث السنة الحادية عشرة[2]. وأظن أن مرد هذا الاختلاف لا يعود إلى (الطبري) نفسه، بل إلى النساخ والى الطبع.

وقد أورد (الطبري) رواية أخرى في كيفية قدوم (مسيلمة بن حبيب) على رسول الله. فذكر (إن بني حنيفة أتت بمسيلمة إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تستره بالثياب، ورسول الله جالس في أصحابه، ومعه عسيب من سعف النخل، في رأسه خوصات، فلما انتهى إلى رسول الله، صلى اللّه عليه وسلم، فقال له رسول الله: لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما اعطيتك!). ولم يشر (الطبري) إلى أسماء من جاء معه من وفد بني حنيفة، وقد ذكر بعد هذه الرواية الرواية السابقة التي ذكرناها، دون أن يشير إلى أسماء رجال الوفد[3]. ثم قال بعد ذلك: (ثم انصرفوا عن رسول الله وجاءوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله، فلما انتهى إلى اليمامة ارتدّ عدو الله وتنبأ وتكذّب لهم، وقال: إني قد أشركت في الأمر معه، وقال لوفده: ألم يقل لكم رسول الله حيث ذكرتموني: أما أنه ليس بشرّكم مكاناً! ما ذلك إلا لما كان يعلم أني قد أشركت معه، ثم جعل يسجع السجعات، ويقول لهم فيما يقول، مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى. ووضع عنهم الصلاة، وأحلّ لهم الخمر والزنا، ونحو ذلك)[4].

ولا يتفق ما ذكره (الطبري) من وضع (مسيلمة) الصلاة عن أتباعه، مع ما أورده هو من انخاذه مؤذناً يؤذن بين الناس، ومن اتخاذه (مقيماً) يقيم له الصلاة، ثم مع ما ذكره غيره من أنه قلّص الصلوات الخمسة، فجعلها ثلاثة صلوات في اليوم[5]. ولا يوجد دلبل على تحليله الزنا والخمر.

وذكر أن (مسيلمة)، بعد ان عاد إلى قومه كتب كتاباً إلى الرسول فيه:

---

[1] الطبري (٣/ ٢٨٧).
[2] الطبري (٣/ ٢٨١ ــ ٣٠١)، (ذكر بقية خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة).
[3] الطبري (٣/ ١٣٧)، زاد المعاد (٣/ ٣١ وما بعدها).
[4] الطبري (٣/ ١٣٨)، زاد المعاد (٣/ ٣١).

[5] Shorter Ency., p. 416.

(من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد، فإني قد أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوماً يعتدون). فكتب اليه رسول الله: (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب، أما بعد، فالسلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين). وقدم بكتاب مسيلمة رجلان، فسألهما رسول الله عنه فصدّقاه، فقال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما[1].

وتذكر رواية أخرى أن مسيلمة قال للرسول يوم وفد عليه مع من وفد من رجال (حنيفة): (إِن شئت خلينا لك الأمر وبايعناك على أنه لنا بعدك. فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا ولا نعمة عين ولكن الله قاتلك). وتذكر رواية أخرى أن (هوذة بن علي الحنفي) صاحب اليمامة، قد كتب إلى النبي، أن يجعل له الأمر من بعده على من يسلم ويصير اليه فينصره، فقال رسول الله: لا ولا كرامة اللهم اكفنيه، فمات بعد قليل[2].

ورُوي أن رسول الله، بعث (حبيب بن زيد بن عاصم) أحد (بني النجار) و(عبد الله بن وهب الأسلمي) إلى مسيلمة، فلم يعرض لعبد الله، وقطع يدي حبيب ورجليه[3].

وذكر أن رسولي مسيلمة اللذين حملا كتابه إلى الرسول، كانا (ابن الفوّ احة) و(ابن أثال)، وأنهما قالا لرسول الله: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال الرسول: لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما. فعادا إلى صاحبهما[4].

وذكر (الطبري) أن (مسيلمة) «ضرب حرماً باليمامة، فنهى عنه، وأخذ الناس به، فكان محرماً، فوقع في ذلك الحرم قُرى الأحاليف، أفخاذ من بني أسيد، كانت دارهم باليمامة فصار مكان دارهم في الحرم، فصاروا يغيرون على ثمار أهل اليمامة، ويتخذون الحرم دغلاً، فإن نذروا بهم فدخلوه أحجموا عنهم، وإن لم ينذروا بهم فذلك ما يريدرن. فكثر ذلك منهم حتى استعدوا عليهم، فقال: انتظر الذي يأتي من السماء فيكم وفيهم، ثم قال لهم:

---

1 إمتاع الأسماع (١/ ٥٠٨ وما بعدها)، اليعقوبي (١/ ١٢٠).
2 البلاذري، فتوح (٩٧)، (اليمامة).
3 البلاذري، فتوح (١٠٢).
4 زاد المعاد (٣/ ٣٢).

والليل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم. فقالوا: أما محرم استحلال الحرم وفساد الأموال! ثم عادوا للغارة، وعادوا للعدوى. فقال: انتظر الذي يأتيني، فقال: والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس. فقالوا: أما النخل مرطبة فقد جدّوها، وأما الجدران يابسة فقد هدموها، فقال اذهبوا وارجعوا فلا حقّ لكم»[١].

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً زعموا أن (مسيلمة) نظمه مضاهاة للقرآن. من ذلك قوله: «يا ضفدع نقيّ كم تنقين! نصفك في الماء ونصفك في الطين! لا الماء تكدرين، ولاَ الشارب تمنعين»[٢]. «وكان فيما يقرأ لهم فيهم: إن بني تميم قوم طهر لقاح، لا مكروه عليهم ولا إتاوة، نجاورهم ما حيينا بإحسان، نمنعهم من كل إنسان، فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمان»[٣]. «وكان يقول: والشاة وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تمجعون». وكان يقول: «يا ضفدع ابنة ضفدع، نقّي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين». «وكان يقول: والمبذّرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه»[٤]. وذكر بعض أهل الأخبار أن (أبا بكر) لما سأل وفداً من (بني حنيفة) أرسله (خالد) اليه عما كان يقوله لهم: «قالوا: كان يقول يا ضفدع نقي نقي، لا للشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون»[٥].

ويظهر من أسلوب هذه الأيات المنسوبة إلى (مسيلمة)، أنها محاكاة ومضاهاة للآيات الأولى من القرآن الكريم، الآيات التي نزلت بمكة في عهد الرسالة الأولى.

---

[1] الطبري (٣/ ٢٨٣).
[2] الحيوان (٥/ ٥٣٠).
[3] الطبري (٣/ ٢٨٣ وما بعدها).
[4] الطبري (٣/ ٢٨٣ وما بعدها).
[5] الطبري (٣/ ٣٠).

وهي بذلك تختلف عن أسلوب الوحي المنزل بعد الهجرة بالمدينة[1]. ولم نجد فيما بقي من كتب أهل الأخبار ما يشير بشيء إلى (قرآن مسيلمة)، أو إلى بقية أخرى منه.

هذا ولا بد لي من التنبيه إلى أننا لا نستطيع التأكيد بأن ما نُسب إلى مسيلمة من كلام، هو حق وصحيح. فمن الجائز أن يكون قد وضع عليه وضعاً. وقد رأينا كيف أنهم اختلفوا في رواية (يا ضفدع) اختلافاً بيناً في ضبط العبارات.

وكان الناس يقصدون (مسيلمة) ليسمعوا منه، بعد أن أشتهر امره. وقد تمكن من التأثير في بعضهم. وكان ممن قصده (المتشمس بن معاوية)، عم (الأحنف بن قيس) الشهير. فلما خرج من عنده قال عنه إنه كذاب[٢]. وقال عنه (الأحنف)، وقد رآه أيضاً، وقد سئل كيف هو؟ ما هو بنبي صادق، ولابمتنبىء حاذق[٣].

وذكر أهل الأخبار أن مسيلمة كان صاحب (نيرجات) وتمويه واحتيال. يدّعي المعجزات والآيات، وأنه أول من أدخل البيضة في القارورة، وأول من وصل جناح الطائر المقصوص، وكان يدّعي أن ظبية تأتيه من الجبل فيحلب لبنها. وقد جربه قوم، فوجدوا آياته منكوسة. (تفل في بئر قوم سألوه ذلك تبركاً، فملح ماؤها. ومسح رأس صبي فقرع قرعاً فاحشاً، ودعا لرجل في ابنين له بالبركة، فرجع إلى منزله، فوجد أحدهما قد سقط في البئر والآخر قد أكله الذئب. ومسح على عيني رجل استشفى بمسحه فابيضت عيناه)[٤]، ومسح وجه (أبا بصير)، وهو صبي من (بني يشكر بن وائل)، وكانوا أتوا به (مسيلمة)، فعمي، فكنى (أبا بصير)، وكان يروى عنه[٥]. وأتته امرأة من بني حنيفة، تكنى بأم الهيثم، (فقالت: إن نخلنا لسحق وإن آبارنا لجرز، فادع الله لمائنا ولنخلنا، كما دعا محمد لأهل هزمان)، فدعا بسجل، ودعا لهم فيه، ثم تمضمض بفمه منه، ثم مجه فيه، فانطلقوا به حتى فرغوه في تلك

---

[1] Shorter Ency., p. 416.

[2] المعارف (٤٢٤).

[3] أمالي المرتضى (١/ ٢٩٢).

[4] الروض الأنف (٢/ ٣٤٠).

[5] المعارف (٤٥٤).

الآبار. ثم سقوه نخلهم، فغارت مياه تلك الآبار، وخوى نخلهم. وقد ذكر (الطبري) هذه الملاحظة: (وانما استبان ذلك بعد مهلكه)[1].

وروى (الطبري)، أخباراً أخرى من هذا النوع، ذكر أن (نهاراً) قال له: برك على مولودي حنيفة، فقال له: وما التبريك؟ قال: كان أهل الحجاز اذا ولد فيهم المولود أتوا به محمداً فحنّكه ومسح رأسه، فلم يُؤتَ مسيلمة بصبي فحنكه ومسح رأسه إلا قرع ولثغ. وذكر أن (نهاراً) قال له: توضأ واعطِ وضوءك إلى أصحاب الحيطان، أي البساتين كما يفعل محمد، فأعطى أحدهم وضوءه، فسقى به حائطه، فيبست أشجاره، وصارت الأرض يباباً لا ينبت مرعاها. وأعطى (مسيلمة) رجلاً سجلاً من ماء، وكانت أرضه سبخة، فأفرغه في بئره، فغرقت أرضه، فما جف ثراها، ولا أدرك ثمرها. وأتته امرأة فاستجلبته إلى نخل لها يدعو لها فيه، فجزت كبائسها يوم عقرباء كلها[2].

وقد عرف (مسيلمة) بين أتباعه بـ (رسول الله)، وكانوا يتعصبون له، ويؤمنون به إيماناً شديداً. وذكر أن (طلحة النميري) جاء إلى اليمامة، فقال: «اين مسيلمة؟ قالوا: إنه رسول الله! فقال: لا، حتى أراه، فلما جاءه. قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم. قال: من يأتيك؟ قال: رحمن. قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنّك لكذّاب وأن محمداً صادق، ولكن كذّاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»، أو (أنه في قال: كذّاب ربيعة أحب اليّ من كذّاب مضر)، فقتل معه) (يوم عقرباء)[3].

ويظهر من بعض ملاحظات (الطبري) عن هذه الأخبار، أنها إنما ظهرت، وقيلت بعد هلاك (مسيلمة). فقد قال في موضع: «وكانوا قد علموا واستبان لهم، ولكن الشقاء غلب عليهم»[4]، وقال في موضع آخر: «وانما استبان ذلك بعد مهلكه»، و«استبان ذلك بعد مهلكه»[5]. ولهذه الملاحظات أهمية كبيرة بالطبع في تقييم هذه الروايات وصحتها، فالعادة أن من يفشل ويهلك

---

[1] الطبري (٣/ ٢٨٤ وما بعدها).
[2] الطبري (٣/ ٢٨٥ وما بعدها).
[3] الطبري (٣/ ٢٨٦).
[4] الطبري (٣/ ٢٨٦).
[5] الطبري (٣/ ٢٨٥).

لا سيما اذا كان قد نال حظاً من المكانة والجاه والاسم، يحمل عليه كثيراً، ولا يتورع حتى أصحابه ومن كان يؤمن به من الدس عليه.

واتخذ (مسيلمة) مؤذناً يؤذن له في أتباعه اسمه (حجير). (وكان أول ما أمر أن يذكر مسيلمة في الآذان، توقف. فقال له محكم بن الطفيل: صرح حجير، فذهبت مثلاً). وكان (محكم بن طفيل الحنفي) صاحب حربه ومدبر أمره، وكان أشرف منه في حنيفة[1]. وذكر (الطبري)، أن الذي كان يؤذن له (عبد الله بن النوّاحة)، وكان الذي يقيم له حُجير بن عمير، ويشهد له. وكان مسيلمة إذا دنا حجير من الشهادة، قال صرح حجير، فيزيد في صوته ويبالغ لتصديق نفسه[2]. وذكر أن مؤذنه (حجير)، كان إذا أذن يقول أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله، فيقول مسيلمة له: أفصح حجير، فذهبت مثلاً[3].

ورووا أنه تزوّج (سجاح) التي تنبأت، وهي تميمة من (بني يربوع)، وكان يُقال لها (صادر) وكان لها مؤذن، يُقال له (زهير بن عمرو)، من (بني سليط بن يربوع)، ويقال إن (شبث بن ربعي) أذن لها[4].

وذكروا أنها كانت كاهنة زمانها، تزعم أن رئيها ورئي سطيح واحد، ثم جعلت ذلك الرئي ملكاً حتى ادّعت النبوة، فاختلفت مع (مسيلمة) وكذبته وجحدت نبوته، فلما اتصلت به وتزوجته، وهبت نفسها له. فقال لها فيما زعموا:

ألا قومي إلى المخدع   فقد هيّي لك المضجع
فـــإن شئتِ سَـــلَقناك   وان شئت على أربع
وإن شـــئتَ بثلثيـــه   وإن شئت به أجمـــع

فقالت بل به أجمع. فجرى المثل بغلمتها حتى قيل أغلم من سجاح[5].

---

[1] الروض الأنف (٢/ ٣٤٠ وما بعدها).
[2] الطبري (٣/ ٢٨٣).
[3] البلاذري، فتوح (١٠٠).
[4] المعارف (٤٠٥).
[5] ثمار القلوب (٣١٥) وما بعدها.

وفيها قال قيس بن عاصم، وقيل عطارد بن حاجب بن زرارة:

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبيــاء الله ذكرانــا
يا لعنـــة الله والأقــوام كلهم ... على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذاب لاسقيت ... أصداؤه مــاء مزن حيثما كانا[١]

ولما قتل (مسيلمة) رثاه بعض شعراء بني حنيفة بقوله:

لهفي عليك أبا ثمامة ... لهفى على ركني تهــامة
كــم آيــة لك فيهــم ... كالشمس تطلع من غمامة[٢]

قتله (وحشي) قاتل حمزة[٣].

وذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة) كان قد تزوج (كبشة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس)[٤] (كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس)[٥]، ثم تركها فخلف عليها (عبد الله بن عامر بن كريز)، فولدت له. ويظهر أنها لم تلد من (مسيلمة).

والذي يقرأ ما ذكره (الطبري) عن (مسيلمة) وعن صلة (نهار) به، يخرج بصورة تظهره شخصاً جاهلاً بليداً، يحركه ويوجهه (نهار) حيث يريد، لا يفهم ولا يعقل، ولا يعرف كيف يتصرف، ولا يتخذ رأياً حتى يشير عليه (نهار) به. (فكان نهار الرجّال بن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه)[٦]. وهي صورة تخالف ما نقرأه عنه في الموارد الأخرى. ولو كان (مسيلمة) على نحو ما صوّره الطبري، لما التفت حوله (بنو حنيفة)، ولما استماتوا في الدفاع عنه. ولما ضحّى (الرحال بن عنفوة) و(محكم بن الطفيل) وغيرهما بأنفسهم

---

[1] ثمار القلوب (٣١٥)، المعارف (٤٠٥).
[2] المعارف (٤٠٥)، «كم آية لأبيهم» (الحيوان ٤/ ٣٧٨).
[3] رسائل الجاحظ (١/ ١٨٠)، الطبري (٣/ ٢٩٤ وما بعدها).
[4] كتاب نسب قريش (٢٠).
[5] الروض الأنف (٢/ ١٩٨، ٣٤١)، (كيسة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس)، المحبر (٤٤٠)، إمتاع الإسماع (٢٤٧)، كتاب نسب قريش (١٤٧).
[6] الطبري (٣/ ٢٨٣).

في الدفاع عنه. حتى أن منهم من بقي مؤمناً به حتى بعد مقتله، وتغلب المسلمين على اليمامة.

وقد كتب الجاحظ قصة مسيلمة وقصة (ابن النواحة)، ولعلّه قصد به (عبد الله بن النواحة) مؤذنه، في كتابه المفقود حتى اليوم (فصل ما بين النبي والمتنبيّ)، حيث ذكر جميع المتنبين[١]. وذكر (البلاذري) أن (مسيلمة)، كان قد أرسل كتابه الذي كان وجهه إلى الرسول والذي فيه (من مسليمة رسول الله، الى محمد رسول الله، أما بعد: فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً لا ينصفون، والسلام عليك. وكتب (عمرو بن الجارود الحنفي)، مع (عبادة بن الحارث) أحد بني عامر بن حنيفة، وهو (ابن النواحة) الذي قتله عبد الله بن مسعود بالكوفة[٢].

وكان (مسيلمة) قد أمر (عمرو بن الجارود الحنفي)، بتدوين كتابه الذي وجهه إلى الرسول، فأمر الرسول كاتبه (أُبي بن كعب) بالردّ عليه. ومعنى هذا أن مسيلمة كان قد اتخذ له كتبة يكتبون له رسائله، على نحو ما كان لرسول الله.

وأنا لا استبعد احتمال علم (مسيلمة) بالكتابة والقراءة. وإن لم ينص أهل الأخبار على ذلك. كما لا استبعد احتمال، إلتقائه باليهود وبالنصارى وأخذه منهم، فقد كان في اليمامة قوم من أهل الكتاب، ودعوته الى عبادة إلَه هو (الرحمن)، تدل على تأثره بأتباع هذه الديانة وبأهل الكتاب.

هذا ولم أجد في الأخبار المتعلقة بمسيلمة خبراً يفيد صراحة أن مسيلمة كان قد اعتنق الإسلام ودخل فيه. فالأخبار التي تتحدث عن مجيئه إلى يثرب لا تشير إلى ذلك، والأخبار الأخرى التي تتحدث عنه وهو في اليمامة لا تشير إلى قبوله الإسلام كذلك، بل نجد فيها كلها أنه ظل يرى نفسه نبياً مرسلاً من (الرحمن) وصاحب رسالة، لذلك فليس من الصواب أن نقول: (ردة مسيلمة)، أو (ارتداد مسيلمة)، أو نحو ذلك، لأنه لم يعتنق الإسلام ثم ارتد عنه، حتى ننعته بالمرتد.

---

[1] الحيوان (٤/ ٣٧٨).
[2] البلاذري، فتوح (٩٧).

وكان (مجاعة بن مرارة) الذي نزل عليه (مسيلمة)، من رؤساء (بني حنيفة) وممن وفد على الرسول، فأعطاه النبي أرضاً باليمامة يقال لها (الغورة)، وكتب له بذلك كتاباً. وذكر بعض أهل الأخبار انه كان بليغاً حكيماً وقد أسر (يوم اليمامة)، فتوسط له بعض وجوه (بني حنيفة)، لدى خالذ أن يبقيه، فأرسله إلى (أبي بكر)، فصفح عنه. وقد كان قد انجرف مع من انجرف فمال إلى (مسيلمة) وأيده، وحارب معه. وله شعر أشار فيه إلى مسيلمة[١]، ونعته فيه بـ (الكذاب). ولما وفد على (أبي بكر) اقطعه (الخضرمة)، ثم قدم على عمر، فأقطعه الرياء، ثم قدم على عثمان، فأقطعه قطيعة أخرى[٢].

وأما (الرحال بن عنفوة) (رحّال بن عنفوة)، فهو (نهار الرجال بن عنفوة)، (الرجّال بن عنفوة) في تأريخ الطبري[٣]. وهو من وجوه (بني حنيفة) واسمه (نهار)، وكان في الوفد الذي جاء إلى الرسول، وقد اختلف إلى (أبيّ بن كعب) ليتعلم منه القرآن. وكان رئيس وفد (حنيفة) (سلمى بن حنظلة)[٤]. وقد تعلّم سورة البقرة وسوراً من القرآن[٥]. وذكر أنه كان على غاية من الخشوع واللزوم لقراءة القرآن والخير، ثم انقلب على عقبيه وصار من أشد أعوان مسيلمة المقربين له، فشهد له أن الرسول أشركه معه في الأمر. وكان أحد وفد (بني حنيفة) إلى رسول الله، وفيهم (فرات بن حيان)[٦].

وأما (محكم بن طفيل بن سبيع) الحنفي، فقد كان من أشراف وسادات

---

[1] قال مجاعة:

أترى خالداً يقتلنــا اليــو م بذنب الأصيفر الكــذاب
لم ندع ملة النبي ولا نحـ ـن رجعنا فيها على الأعقاب

(الأصغر) الإصابة (٣/ ٣٤٢)، (رقم ٧٧٢٤)، الحيوان (٤/ ٣٧١)، (حاشية) المرزباني، معجم (٤٧٢)، الجاحظ، البيان (٣/ ٢٦٢)، «مجاعة بن مرارة بن سلمى بن زيد بن عبد بن ثعلبة بن يربوع بن الدول بن حنيفة»، كتاب الطبقات، لخليفة بن خياط (٦٦/ ٢٨٩).

[2] البلاذري، فتوح (١٠٣).

[3] طبعة (دار المعارف) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

[4] ابن سعد، طبقات (١/ ٣١٦)، (وفد حنيفة)، الروض الأنف (٢/ ٣٤٠).

[5] البلاذري، فتوح (٩٧).

[6] الإصابة (١٠/ ٥٢١)، (رقم ٢٧٦١).

(بني حنيفة). وهو أشرف من مسيلمة في حنيفة[1]. وكان من المقدمين عند مسيلمة. وقد عهد (مسيلمة) اليه قيادة احدى المجنبتين في قتاله مع (خالد بن الوليد). وقد عرف بـ (محكم اليمامة). وقد قتل وهو يحارب المسلمين[2]. «قتله خالد بن الوليد يوم مسيلمة»[3].

وأما (فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبد العزى بن حبيب) العجلي، فكان عيناً لأبي سفيان في حروبه، وكان ممن هجا الرسول، ثم أسلم ومدحه، وأقطعه الرسول أرضاً باليمامة، ثم سكن الكوفة وأقام بها. وكان في حرب الخندق عيناً للمشركين[4].

وأما أثال بن النعمان الحنفي، فكان مع (فرات بن حيان) حين قدم المدينة وقد كلّم الرسول. وذكر في رواية أنه كان مع ثمامة بن أثال في قتال مسيلمة في الردة[5].

وكان (ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي)، من قدماء من أسلم من أهل اليمامة. فقد أرسل رسول الله خيلا قبل نجد، فجاءت به، فربطوه بسارية من سواري المسجد بيثرب، فكلمه الرسول، ثم أمر فأطلق من رباطه، فدخل في الإسلام، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت! قال: لا واللهِ ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ولا واللهِ لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة، حتى يأذن فيها النبيّ. ثم خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً. فكتبوا إلى النبيّ: إنك تأمر بصلة الرحم، فكتب إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبن الحمل اليهم[6]. وكانت ميرة قريش من اليمامة ومنافعهم منها، وكانت ريف مكة. ولما ارتد أهل اليمامة، وصاروا مع مسيلمة، ثبت أثال على الإسلام فكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن إتباع مسيلمة وتصديقه، فلما عصوه وأصفقوا على إتباع مسيلمة، عزم على مفارقتهم، ففارقهم ولحق بالعلاء بن الحضرمي في مقاتلة

---

1 الروض الأنف (٢/ ٣٤١).
2 الطبري (٣/ ٢٩٠)، الاشتقاق (٢١٠)، تاج العروس (٨/ ٢٥٤)، (حكم).
3 اللسان (١٢/ ١٤٢)، (حكم)، تاج العروس (٨/ ٢٥٤)، (حكم).
4 الإصابة (٣/ ١٩٥)، (رقم ٦٩٦٦).
5 الإصابة (١/ ٣٣)، (رقم ٣٥).
6 إرشارد الساري (٦/ ٤٣٢ وما بعدها).

المرتدين من أهل البحرين، فلما ظفروا اشترى ثمامة حلة كانت لكبيرهم: (الحطم) فرآها عليه ناس من (بني قيس بن ثعلبة)، فظنوا أنه هو الذي قتله وسلبه فقتلوه. وقد رووا له شعراً في الرسول وفي الردة[1]. وكان له عم اسمه (عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي). وقد كان مسلماً[2].

وجاء في رواية أن رسول الله لما بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى في رجب سنة تسع، فاسلم المنذر ورجع العلاء، فمرّ باليمامة، قال له ثمامة بن أثال: انت رسول محمد؟ قال نعم. قال: لا تصل اليه ابداً، فقال له عمه: عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي: ما لك وللرجل، فأسلم عامر، ووقع ثمامة بعد ذلك في الأسر[3].

وكان (معمر بن كلاب الرماني)، جاراً لثمامة بن أثال، وهو ممن وعظ مسيلمة وبني حنيفة ونهاهم عن الردة، فلما عصوه تحول إلى المدينة، فمنعه ثمامة حتى ردّه وشهد قتال اليمامة، مع خالد[4].

و(الحطم) المذكور، هو (الحطم بن هند) البكري، أحد (بني قيس بن ثعلبة)، قدم المدينة في رواية في عير له يحمل طعاماً فباعه، ثم دخل على النبي، فبايعة وأسلم، فلما قدم اليمامة، ارتد عن الإسلام، وخرج في عير له تحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة، وكان عظيم التجارة، وأراد المسلمون أن يتلقوه ويأخذوا ما معه، فمنعهم الرسول من ذلك لحرمة الشهر. وذكر أنه بعد ان قابل الرسول، وسمع منه مبادىء الإسلام. قال الحطم: في أمرك هذا غلظة، أرجع إلى قومي، فأذكر لهم ما ذكرت، فإن قبلوه أقبلت معهم، وإن أدبروا أدبرت معهم. قال له ارجع. فلما رجع مرّ بسرح من سرح المدينة، فساقه فانطلق به[5].

وذكر أن (الحطم) قتل في الجيار، من نواحي البحرين، لما ارتدت بكر ابن وائل[6].

---

[1] الإصابة (١/ ٢٠٤)، (رقم ٩٦١)، الاستيعاب (١/ ٢٠٥ وما بعدها)، (حاشية على الإصابة)، تاج العروس (٧/ ٢٠٣)، (أثل).
[2] الإصابة (٢/ ٢٤١)، (رقم ٤٣٩٠).
[3] الإصابة (٢/ ٢٤١)، (رقم ٤٣٩٠).
[4] الإصابة (٣/ ٤٧٥)، (رقم ٨٤٥٢).
[5] تفسير الطبري (٦/ ٣٨).
[6] تاج العروس (٣/ ١١٦)، (جير).

هذا هو كل ما ورد إلى علمنا عن الأنبياء العرب في الجاهلية. وقد حصلنا عليه من المؤلفات الإسلامية. أما نصوص جاهلية، فيها شيء عن النبوة والأنبياء، فلم يصل إلينا منها أي شيء.

يقول (أبو العلاء المعري) عن ادعاء بعض الناس بالأمامة والنبوة في الإسلام: «ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه العظائم، والأمور غير النظائم، بل كانت عقولهم تجنح إلى رأي الحكماء، وما سلف من كتب القدماء. إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي، وينظرون إلى من زعم ذلك بعين الغبي»[1]. فهو ينكر وجود نبوة وأنبياء عند الجاهليين للسبب المذكور. وهو يقصد ولا شك بها، النبوة على وفق المعنى المفهوم منها في الإسلام. أي أن تكون بوحيّ ينزل على النبي من الإسلام، وبكلام منزل يتلوه على الناس، يكون كلام الله لا كلام النبيّ.

---

[1] رسالة الغفران (٤٤٠)، (بنت الشاطئ).

الفصل الرا بع والستون

الله ومصير الإنسان

لا نعرف رأي الجاهليين في الخلق، وفي كيفية نشوء هذا الكون، إذ لم تصل إلينا نصوص جاهلية في هذا المعنى. ولا بد أن يكون لهم كما كان لغيرهم رأي في الخلق وفي نشوء الكون. فموضوع نشوء الكون وظهوره، من الموضوعات التي تثير رأي كل إنسان مهما كانت ثقافته وكان تفكيره.

وفي القرآن الكريم كلمات مثل (البارىء) و(المصور) و(الخلاّق) و(خلقنا) و(خلقت) و(خلقناكم) و(خالق) وغيرها مما له علاقة بخلق الكون والإنسان وبقية المخلوقات، وفيه كيفية خلق الله للكون ومن فيه وكيفية خلق الإنسان ومن أي شيء خلق. ولكن هل كان يعرف جميع الجاهليين هذا المعنى المنزل في كلام الله، وهل نزلت هذه الآيات لإرشاد الناس إلى ذلك، أو إنها نزلت لتذكير القوم ولفت نظرهم إلى شيء يعلمونه ولكنهم كانوا ينسبونه لغير الله أو يتجاهلونه، إن كان ذلك على سبيل التذكير، فمعنى هذا إن لأهل الجاهلية رأياً في كيفية الخلق، وإن كان ذلك على سبيل التعليم والإرشاد، فإنه يدل على أن من خوطب بتلك الآيات لم يكن له فقه وعلم بما خوطب به.

وفي القرآن الكريم آيات فيها خطاب للمشركين في بيان فساد رأيهم واعتقاداتهم، وفيها ردّ عليهم، منها نستطيع أن نحيط بعض الإحاطة بآرائهم في الوجود وفي البعث والحشر والحساب وغير ذلك من أمور تتعلق بدياناتهم. وهذه الآيات هي

الشواهد الوحيدة التي نملكها من آراء القوم في ذلك العهد. أما ما جاء في روايات الأخباريين وفي كتب التفسير والحديث والملل والنحل، ففيه بعض الشيء عن آراء الجاهليين القريبين من الإسلام، ولا سيما عرب مكة ويثرب عن تلك الأمور.

ويفهم من القرآن الكريم إن من الجاهليين من كان يعتقد أن للعالمّ خالقاً خلق الكون وسوّاه، وأن منهم من كان يعتقد بوجود إلهَ واحد فهم موحدون، وأن منهم من أقر بوجود إلَه واحد غير أنه رأى تعذر الوصول إليه بغير وسطاء وشفعاء فاعتقد بالأرواح وبالجن وعبد الأصنام لتكون واسطة تقربه إلى الله[1].

أما كيف خلق الله الأرض والسماوات وكيف نشأ الكون، فذلك ما لم يتعرض له القرآن الكريم حكاية على لسان الجاهليين. ولذلك لا نعرف رأي أولئك القوم الذين عاصروا الرسول وعاشوا قبيل الإسلام في كيفية ظهور الوجود وخلق الكون.

ويفهم من بعض الأخباريين أن من الجاهليين من كان يرى أن خالقاً خلق الأفلاك، غير أنها تحركت أعظم حركة فدارت عليه وأحرقته، لأنه لم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها، وأن منهم من كان يقول: «إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة الى الفعل. فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل، تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر. وقالوا إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله. وهذا العالم هوالممسك لهذه الأجزاء التي فيه»[2]. وهذا كلام إنْ صحّ أنه من كلام الجاهليين ومن مقالاتهم، فإنه يدل على تعمق القوم في المقالات، وعلى أن لهم رأياً وفلسفة في الدين، وأنهم لم يكونوا على الصورة التي يتخيلها معظمنا عنهم، وهي الصورة التي رسمها لهم أهل الأخبار. في أثناء كلامهم العام عن الجاهليين.

اللّه الخالق:

ويظهر من القرآن الكريم، أن قريشاً كانوا يؤمنون بإلَه واحد خلق الكون، وهو رب السماوات والأرض. ففي سورة العنكبوت: ﴿ولئن سألتهم من خلق

---

[1] بلوغ الأرب (٢/ ١٩٤ وما بعدها).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٢٢٠ وما بعدها).

السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ: الله، فأنى يؤفكون﴾[١]. وفي هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه إلى المشركين ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها، ليقولن: الله، قل: الحمد لله، بل أكثرهم لا يعقلون﴾[٢]. وفي سورة لقمان سؤال آخر موجه إلى أولئك المشركين، وجواب صادر منهم، هو هذا الجواب نفسه: إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض، ليقولن: الله. قل الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾[٣]. وفي سورة الزخرف: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض، ليقولن: خلقهن العزيز العليم﴾[٤]، وفي سورة الزمر: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض، ليقولن الله﴾[٥]، وفي سورة الزخرف أيضاً: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم، ليقولن: الله. فأنى يؤفكون﴾[٦]، وفي سورة العنكبوت: ﴿ولئن سألتهم من نزّ ل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها، ليقولن: الله﴾[٧]. وهناك آيات أخرى على هذا النحو، فيها أسئلة موجهة إلى المشركين عن خلق السماوات والأرض، وأجوية على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله.

وفي القرآن الكريم أيضاً إن قريشاً كانت تعتقد أن الله هو الذي ينزل المطر ويحيي الأرض بعد موتها[٨]، وفيه أنهم كانوا يقسمون به[٩]، وأنهم كانوا قد جعلوا له نصيباً مما ذرأ من الحرث والأنعام[١٠]، وأنهم كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين، وأنه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحداً، وأنهم كانوا يتضرعون إليه ويستغيثون به في الكوارث والملمات، وأنهم جعلوا له

---

[1] سورة العنكبوت، الرقم ٢٩، الآية ٦١.
[2] العنكبوت، الآية ٦٣.
[3] سورة لقمان، الرقم ٣١، الآية ٢٥.
[4] الزخرف، الرقم ٤٣، الآية ٩.
[5] الزمر، الرقم ٣٩، الآية ٣٨.
[6] الزخرف، الرقم ٤٣، الآية ٨٧.
[7] العنكبوت، الرقم ٢٩، اِلآية ٦٣.
[8] الأنعام، الآية ١٠٩، النحل، الآية ٣٨.
[9] الأنعام، الآية ١٣٦.
[10] الأنعام، الآية ١٤٨.

بناتاً وبنين وشركاء الجن[1]. فقريش إذن وفق هذه الآيات قوم، كانوا يؤمنون بإِلَه عزيز عليهم، ومن آيات ذلك إنهم جعلوا له نصيباً في أموالهم، مع أن المال من أعز الأشياء على الإنسان، لا سيما بالنسبة لتلك الأيام.

وفي تلبية الجاهليين المنصوص عليها في كتب أهل الأخبار اعتراف صريح واضح بوجود إلهَ. كانوا يلبون بقولهم: (لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلاّ شريك هو لك. تملكه وما ملك، يعنون بالشريك الصنم، يريدون أن الصنم وما يملكه ويختص به من الآلات التي تكون عنده وحوله والنذور التي كانوا يتقربون بها إليه كلها ملك لله عز وجل)[2] فذلك معنى قولهم: يملكه وما ملك. فهم يعترفون ويقرون بوجود الله، لكنهم يتقربون اليه بالأصنام. وهذا هو الشرك.

وفي دعاء العرب اعتراف بوجود (الله)، فقولهم: (رماه الله يما يقبض عصبه)، و(قمقم الله عصبه)، و(لا ترك الله له هارباً ولا قارباً)، و(شتت الله شعبه)، و(مسح الله فاه)، و(رماه الله بالذبحة)، و(رماه الله بالطسأة)، و(سقاه الله الذيغان)، و(جعل الله رزقه فوت فمه)، و(رماه في نيطه)، و(قطع الله به السبب)، و(قطع الله لهجته)، و(مدّ الله أثره)، و(جعل الله عليها راكباً قليل الحداجة)، و(لا أهدى الله له عافية)، و(أثل الله ثلله)، و(حته الله حت البرمة)، و(رماه الله بالُطّلاطلة)، و(رماه الله بالقصمل)، و(ألزق الله به الحَوْبة)، و(لحاه الله كما يُلحى العود)، و(اقتثمه الله إليه)، و(ابتاضه الله)، إلى آخر ذلك من دعاء يدل على وجود ايمان بخالق هو الله[3].

وفي الشعر المنسوب إلى الجاهليين اعتقاد بوجود الله، وإتقاء منه، وتقرب إليه باحترام الجوار وقرى الضيف. هذا عمرو بن شأس يقول في شعره:

---

[1] الأنعام، الآية ١٠٠.
[2] اللسان (١٠/ ٤٥٠)، (شرك).
[3] راجع بقيته في ذيل الأمالي والنوادر (ص ٥٧ وما بعدها)، (عود إلى بحث دعاء العرب).

ولولا اتقاء الله والعهد قد رأى   منيته منى أبوك اللياليا[1]

فلولا اتقاء شأسٍ اللهَ، لفتك بخصمه، وجعله من الهالكين. وفي بعضه اعتراف بأن هذه الأرض الواسعة هي (بلاد الله). أينما حللت فيها فهي أرضه وبلاده[2]. وهذه نظرة مهمة جداً عن رأي الجاهليين في الله وفي الأرض، إن صح أن هذا للشعر الوارد فيه حقاً من شعر أهل الجاهلية.

و(اللهُ) كما جاء في شعر زهير بن أبي سلمى، عالم بكل شيء، عارف بالخفايا وبالأسرار، وبما ظهر من الأعمال وما بطن[1].

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم   ليخفى، ومهما يكتم الله يعلم[3]

وهو عدو للأشقياء شديد عليهم، لا يرحم ظالماً، وأمرهُ بُلْغٌ به تشقى به الأشقياء[4] وهو يثيب على الإحسان، ويجزي المحسن على جميل إحسانه[5]. وهو الذي يعصم من السيئات والعثرات[6]. وهو مقر بوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة، فلا مخلص له[7].

---

1 الأغاني (١٠/ ٦٢)، نسب عمرو بن شأس وأخباره في هذا الشعر وغيره.
بــدا لي أن الله حق فــزادني   إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
شرح ديوان زهير (٢٨٧).

2 فسر في بلاد الله والتمس الغنى   تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذار
ديوان عروة (٥١).

3 شرح ديوان زهير (١٨).

4 فهدــاهم بالأســودين وأمــر   الله بلــغ يشقى بــه الأشــقياء
اللسان (١٠/ ٣٠٢)، (بلغ).

5 رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم   فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
شرح ديوان زهير (١٠٩).

6 ومن ضريبته التقوى ويعصمه   من سئى العثراث الله والمرحم
شرح ديوان زهير (ص ١٦٢).

7 فلا تكتمن الله ما في صدوركم   ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير، لثعلب (ص ١٢)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٧٧ وما بعدها)، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٥١٨) جمهرة أشعار العرب (٧١).

والله (كريم) لا يكدر نعمة، اذا دُعي أجاب. وهذا هو رأي الأعشى في الرب، اذ يقول:

ربّي كريم لا يكــدر نعمة　　واذا يناشد بالمهارق أنشدا[١]

وقد ورد اسم الجلالة في أشعار كثير من الشعراء الجاهليين: ورد في شعر امرىء القيس وغيره، فامرؤ القيس يقول: (من الله) و(لله)،[٢] و(تالله)[٣]، و(قبح الله)[٤]، و(والله)[٥]، و(يمين الله)، و(يمين الإلَه)[٦]، و(الإلَه) هي (الله)، و(الحمد لله)[٧]. ونرى العرب عامة تستعمل في كلامها: (لله دره)[٨]، و(لا يبعد الله)[٩]، و(لحى الله)[١٠]،

---

1 ديوان الأعشى، قصدة ٣٤ (ص ١٥١)، «تحقيق كاير».

2 فاليوم أشرب غير مستحقب　　إثمــا مــن الله ولا واغــل
لله زبدان أمسى قرقرا جلداً　　وكان من جندك أصم منضودا
شرح ديوان امرئ القيس، للسندوبي (ص ٦٣، ١٥٢)، وسكيون رمزه سندوبي.

3 تالله قد علمت قيس إذا قذفت　　ريح الشتاء بيوت الحي بالعنن
شرح ديوان زهير (١٢١).
يا لهف هند إذ خطئن كاهلاً　　تالله لا يذهب شيخي باطلا
سندوبي (١٥٤).

4 ألا قبح الله البراجم كلهما　　وجدع يربوعاً وعفر دارها
سندوبي (١٨٠).

5 فقد أصبحوا والله أصفاهم به　　أبر بميثاق وأوفى بجيران
والله لا يذهب شيخي باطــلا　　حتى أبير مالكــا وكاهنا
سندوبي (١٥، ١٨٩)، شرح ديوان زهير (٢٤).

6 كلا يمين الإله يجمعنا　　شئى وأخوالنا بنو جشما
سندوبي (١٨١).

7 أرى أبلي والحمد الله أصحبت　　ثقالا إذا ما استقبلتها صعودها
سندوبي (٦٤).

8 كم شامت بي أن هلكــ　　ــت وقائل: لله درّه!
ديوان لبيد (ص ٢)، «تحقيق كارل بروكلمن».

9 وقولي ألا لا يبعد الله أربدا　　وهدى به صدع الفؤا المفجعا
ديوان لبيد (ص ٦).

10 لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله　　مصافى المشاش آلفا كل مجزر
ولله صعــلوك صفحية وجهه　　كضوء شــهاب القابس المتنور
ديوان عروة بن الورد (٢٦، ٥٣).

و(جزى الله)[١]، و(عمر الله)[٢]، وأمثال ذلك مما يرد في أشعار الشعراء الجاهليين، يخرجنا تدوينه وحصره في هذا المكان عن حدود الموضوع.

وقد جاءت لفظة الجلالة في أيمان أخرى، في مثل: (لعمر الله)، و(ها لعمر الله) كالذي ورد في شعر زهير:

تعلمن هـــا لعمر الله ذا قســـماً   فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك[٣]

وورد (ها الله) و(والله) و(الله) و(نعم الله) و(أي والله لأفعلن)، و(ايم الله) و(ايمن الله) و(يعلم الله) و(علم الله) وأمثال ذلك[٤].

ومن أيمانهم الدالة على الاعتقاد بوجود خالق، قولهم: (لا وبارىء الخلق)، و(لا والذي يراني من حيث ما نظر) و(لا والذي نادى الحجيج له)، و(لا والذي يراني ولا أراه)، و(لا والذي كل الشعوب تدينه)، و(حرام الله لا آتيك)، و(يمين الله لا آتيك)، و(لا والذي جلد الإبل جلودها)، و(والذي وجهي زمم بيته)، و(لا والذي هو أقرب إليّ من حبل الوريد)، و(لا ومقطع القطر)، و(لا وفالق الإصباح)، و(لا ومهب الرياح) و(لا ومنشر الأرواح)[٥]، إلى غير ذلك من أيمان حلفوا بها، تدل على إيمان وعقيدة بوجود خالق، فحلفوا به.

ونجد في معلقة امرئ القيس قسماً باللّه حكي على لسان صاحبة المعلقة:

فقالت: يمين الله ما لك حيلة   وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[٦]

وترى في بيت لامرىء القيس وهو يذكر اقدامه على الشرب:

فاليوم أسقى غير مستحقب   إثماً من الله ولا واغل[٧]

---

[1] جزى الله خيراً كلما ذكر اسمه   أبا مالك إن ذلك الحي اصعدوا
ديوان عروة (ص ٥٠).

[2] قعيدك عمر الله، هل تعلمينني   كريماً إذا أسود الأنامل أزهرا
ديوان عروة بن الورد (٢٢)، Reste, S. 224

[3] السنن الكبرى (١٠/ ٢٦ وما بعده)، المخصص (١٣/ ١١٣).

[4] المخصص (١٣/ ١١٤ وما بعدها).

[5] ديل الأمالي (ص ٥٠ وما بعدها).

[6] المعلقات العشر وأخبار شعرائها (٦٢).

[7] شعراء النصرانية (١٩).

فالرجل مؤمن بالله، وقد وفى بما عاهد الله عليه، وهو لا يخشى بعد ذلك إثماً اذا شرب، لأنه وفى بنذره.

ونراه يذكر الله أيضاً في هذا البيت:

لله زبدان أمسى قرقراً جلداً وكان من جندل أصم منضودا[1]

ثم نراه يشكر اللهَ بجملة: (والحمد لله) في هذا البيت:

أرى إبلى والحمد لله أصبحت ثقالاً إذا ما استقبلتها صعودها

ونراه يحث الناس على التمسك بحبل الله، فبالله يكون النجاح، ويحث الناس على عمل البر، والبر خير حقيبة الرجل:

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

ونفهم من هذه الأبيات ومن أبيات أخرى، إن امرأ القيس رجل مؤمن يعتقد بالله الواحد، مؤمن بالله الواحد، مؤمن بالثواب وبالعقاب، وأنه كان يخاف الله ويخشى الإثم والفسوق، ولا أدري أينطبق هذا الذي نقوله على امرىء القيس الذي يتحدث عنه أهل الأخبار ويصفونه بأنه رجل عابث ميّال إلى اللهو والشهوات رمى صنمه بسهم وأنبّه لما جاء الجواب بخلاف ما كان يرغب فيه ويشتهيه. ثم لا أدري اذا كان أسلوب هذا الشعر من أسلوب الشعر الجاهلي وطرازه؟ وإذا كان هذا الشعر صحيحاً، فلمَ أدخل رواته شاعره في الجاهليين الوثنيين ولم يدخلوه في عداد المؤمنين بالله من الأحناف؟

وإذا اعتقدنا بصحة الأبيات المنسوبة إلى عَبيد بن الأبرص:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كلّ خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علاّم ما أخفت القلوب

وقلنا مع القائلين إنها من شعر ذلك الشاعر حقاً، وجب عدّه إذن في جملة

---

[1] شعراء النصرانية (٤٠).

الموحدين المؤمنين المسلمين، وإن عاش قبل الإسلام. فرجل يقول هذا القول، لا يمكن إلاّ أن يكون مسلماً مؤمناً بالله الواحد الأحد علاّم الغيوب والعارف بما في القلوب، ومن الممهدين للتوحيد بين العرب قبل الإسلام.

وقد أهمل بعض رواة هذه المعلقة البيت الآتي:

والله ليس لــــه شريك   علام ما أخفت القلوب

وكأنهم فطنوا إلى أن من غير المعقول نسبته إلى رجل وثني، مهما كان رأيه في الأوثان والتوحيد، لا يمكن أن يستعمل هذه الألفاظ التي لم يستعملها العرب بهذا الشكل إلاّ في الإسلام.

والى عبيد نفسه ينسب الأخباريون قول هذا البيت:

حلفت بالله إنّ الله ذو نعم   لمن يشاء وذو عفوٍ وتصفاح

ورجل يقول هذه الأبيات وأبياتاً أخرى من لونها، لا يمكن إلاّ أن يكون موحداً مؤمناً، من فصيلة المؤمنين بالله من الأحناف. وقد أراح (شيخو) نفسه وأراح الناس حين ذهب إلى أن عبيداً وأمثاله من الشعراء الجاهليين كانوا نصارى وأن هذا التوحيد هو توحيد نصراني محض، وقف عليه عبيد في زيارته للحيرة مهد النصرانية في ذلك العهد، فاعتنقه، فهو على رأيه إذن شاعر نصراني، وشعره شعر نصراني لا يرد ولا يرفض.

ونجد (طفيل بن عوف) الغنَوَي يقسم بـ (الإله) في شعره. غير أن هناك رواية تضع (رضى) موضعَ (الإلَه) فيكون القسم به، ورضى اسم صنم كان لطيء[1]. وقد ذكر (الله) في مواضع أخرى من شعره، وقال إنه هو الذي يصلح الأمور، ويسد العجز والثُغر التي ليس في وسع الإنسان سدّها[2]،

---

[1] فقال بصير يستبين رعالها   هم والإله من تخافين، فاذهبي
ويروى، ولعلها رواية أبي عبيدة:
وقال بصير قد أبان رعالها   فهي ورضى من تخافين، فاذهبي
ورضى اسم صنم كان لطيء، ديوان طفيل بن عوف الغنوي «تحقيق ف. كرنكو». (لند ١٩٢٧)، (ص ١٢).

[2] لعمري لقد خلى ابن جيدع ثلمة   فمن أين إن لم يرأب الله ترأب
ديوانه (ص ١٩).

وإنه يجزي الناس على أعمالهم[١].

وفي معلقة (الحارث بن حِلزة) اليشكريّ: «أمر الله بلغ تشقى به الأشقياء»[٢]، وأن الله عالم بالأمور[٣].

ونجد (المتلمس)، يُقسم بالله في شعره، ويذكر الله في مثل جملة (أبى الله)[٤]، للتعبير عن مشيئة الله وإرادته، وجملة (لله دري) في التعجب[٥] وجملة (تقوى الله)[٦]، و(عاداك الله)[٧] وغيرها مما يدل على أنه كان يعتقد أن الله يعادي الأعداء ويحبّ المحبين.

ولكننا نجده في مواضع أخرى يقسم باللات وبالأنصاب، والمقصود بالأنصاب الأوثان مما يشعر أنه كان يؤمن بها، فكيف نوفق بين اعتقاده بالله واعتقاده باللات

---

[1] جزى الله عوفاً من موالي جنابة ونكراء خيراً كل جاء مودع
ديوان (ص ٥٠).
جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
ديوانه (ص ٥٧).

[2] فهداهم بالأسـودَيْن، وأمـر الله بلـغ تشقى بـه الأشـقياء
شرح القصائد العشر (٤٦٨)، (البيت رقم ٦٢) من المعلقة.

[3] وفعلنـا بهـم كمـا علـم الله ومـا إن للخـائنين دمـاء
البيت (رقم ٧٥) من المعلقة، (ص ٤٧٥) من شرح القصائد العشر للتبريزي (محمد محيي الدين عبد الحميد).

[4] يا آل بكر ألا لله احكموا طال الله الثواء وثوب العجز ملبوس
ديوان المتلمس (ص ١٦٩)، (طبعة فولرس)، جمهرة أشعار العرب (ص ٤٤، ٢٠٦)، شعراء النصرانية (٣٣٢).
وقال:
وهل لي أم غيرها أن تركتها أبى الله ألاّ أن أكون لها ابناً
شعراء النصرانية (٣٣٨).
وقال:
اطردتني حـذر الهجاء ولا والله والأنصـاب لا نئـل
وذلك في رواية. وفي الروايات الشائعة «واللات» بدلاً من والله، ديوان المتلمس (١٧١).

[5] تفرق أهلي من مقيم وظاعن فلـله دري أي أهلي اتبـع
ديوان المتلمس (ص ١٨٧).

[6] وأعلـم علـم حقّ غير ظن وتقوى الله من خير العقـاد
ديوان المتلمس (ص ١٩٥)، شعراء النصرانية (٣٤٣).

[7] لا خاب من نفعك من رجالها بلا وعادى الله من عاداكا
ديوان المتلمس (ص ٢٠٦)، شعراء النصرانية (٣٤٨).

والأنصاب؟ وهل نعدّ هذا الشعر صادراً من شاعر واحد؟ نعم، يجوز أن يكون قاله هو. قاله لأنه كان يعتقد بوجود إلَه، فهو يؤمن به ويقر بوجوده، غير أن قسمه باللات والأنصاب، هو من باب. عقيدة الجاهليين المؤمنين بوجود إلَه، ولكنهم كانوا يتقربون اليه بالأصنام والأوثان والأنصاب. ويتوقف هذا التفسير بالطبع على إثبات أن هذا الشعر له حقاً، وليس مفتعلاً، ولا مما أدخل الرواة عليه تغييراً أو تبديلاً.

ونجد في شعر النابغة الجعدي، أبو ليلى عبد الله بن قيس، الشاعر المخضرم المتوفى سنة (٦٥) للهجرة، قصيدة مطلعها:

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

يلي هذا المطلع قصة نوح والسفينة، وهي سفينة مصنوعة من خشب الجوز والقار. وفي هذه القصيدة اعتراف بالتوحيد، وبوجود إلَه واحد لا شريك له، لا يحمد إلا هو، وهو شعر لا يمكن أن يكون إلاّ من شعر شاعر مسلم، إن صح إنه من شعره، فيجب أن يكون مما نظمه في الإسلام.

وينسب إلى (لبيد) اعتقاده أن الله يبسط الخير والشر على عباده، وأنه منتقم ممن يخالفه، معاقب له، كما عاقب (إرما) و(تبعا)، وقوم (لقمان بن عاد)، و(أبرهة) وذلك في أبيات أولها:

من يبسط الله عليه إصبعاً بالخير والشر بأي أولعا

وهي رجز، يرى بعض العلماء أنها ليست من رجزه[1].

ونجد معود الحكماء، وهو معاوية بن مالك بن جعفر، يذكر الله ويحمده، فيقول: «بحمد الله»، ويقول (عامر): «أردت لكيما يعلم الله أنني»، ويقول (خداش بن زهير): «وذكرته بالله بيني وبينه»[2].

---

[1] ديوان لبيد (٣٣٧ وما بعدها).

[2] شرح ديوان لبيد (ص ٢١)، (المقدمة)، (تحقيق الدكتور إحسان عباس)، قيل له معود الحكماء لقوله:
أعود مثلها الحكماء بعدي إذا ما الحق في الأشياع نابا
تاج العروس (٢/ ٤٤٠).

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين الوثنيين كانوا يفتتحون كتبهم بجملة (باسمك اللهم). ساروا في ذلك على هدى (أمية بن أبي الصلت) مبتدعها وموجدها، كما في رواية تُنسب إلى ابن الكلبي. وذكر بعض آخر أن قريشاً كانت تستعمل هذه الجملة منذ عهد قبل الإسلام، وأنها بقيت تستعملها إلى ظهور الإسلام. وقد استعملها الرسول، ثم تركها، وذلك بنزول الوحي باستعمال (بسم اللّه الرحمن الرحيم)[1]. ونحن لا يهمنا هنا اسم مبتدع هذه الجملة، وانما الذي يهمنا منها هو ما فيها من عبارة تدل أيضا على التوحيد، فإذا صح إن الجاهليين كانوا يستعملون هذه الجملة، فإن استعمالها هذا يدل على اعتقاد القوم بإلَه واحد، أي بعقيدة التوحيد، ولا يعقل بالطبع استعمال شخص لهذه الجملة في رسائله، يفتتح بها كتبه، لو لم يكن من أصحاب عقيدة التوحيد، وقد جاء في بعض الأخبار أن هذا الاستعمال متأخر، وأنه حدث بعد ان تغيرت عوائد القوم في افتتاح كتبهم، فقد كانت عوائدهم القديمة افتتاح رسائلهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى، فرفعوا تلك الافتتاحيات القديمة واستبدلوا بها هذه الجملة الجديدة، جملة (باسمك اللهم). وعلى كل، فإن جملة (باسمك اللهم) وأمثالها إن صح إنها من ذلك العهد حقاً فإنها تدل على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين، وإلاّ فكيف يتصور استعمال هذه الجملة الموحدة مع وجود الشرك لو لم يكن قد حدث تطور فكري كبير في هذا العهد حملهم على استعمال هذه الجملة وأمثالها من الجمل والألفاظ الدالة على التوحيد[2]؟

وقد درس بعض المستشرقين هذا الموضوع، ولا سيما موضوع ورود اسم الجلالة في الشعر الجاهلي، فذهبوا في ذلك مذاهب. منهم من أيّد صحة وروده في ذلك الشعر، وآمن أن الشعر الذي ورد فيه هو شعر جاهلي حقاً، ومنهم من أنكر ذلك، وأظهر أنه شعر منحول مصنوع، صنع على الجاهليين فيما بعد، ومنهم من ذهب إلى أنه شعر صحيح، غير أن رواة الشعر أدخلوا اسم الجلالة فيه، ولم يكن هو فيه في الجاهلية، بأن رفعوا أسماء الأصنام وأحلوا اسم اللّهِ محلها.

---

[1] بلوغ الأرب (٣/ ٣٧٥)، تاج العروس (٩/ ٤١١)، (لاه).

[2] «دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اكتب باسم الله الرحمن الرحيم. فقل سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم»، الطبري (٢/ ٦٣٤)، (صلح الحديبية).

وبينما نجد أهل الأخبار ينسبون إلى هؤلاء الشعراء وأمثالهم الاعتقاد بالله، نجدهم ينسبون إليهم، الحلف بالأصنام، والاعتقاد بها. فقد نسبوا إلى (خداش بن زهير) شعراً آمن به بالله، ثم نسبوا له قوله:

وبالمروة البيضاء يوم تبالة ومحبسة النعمان حيث تنصرا

والمروة البيضاء، هي ذو الخلصة، ثم هو يقسم بمحبسة النعمان، وهو نصراني[1]. أفلا يدل هذا على وجود تنافر أو تناقض في عقيدة أمثال هؤلاء الشعراء؟ والذي لا وقوف له على طبائع أهل الجاهلية، يرى هذا الرأي، أو يذهب إلى أن هذا الشعر مصنوع مفتعل. أما الذي يعرف عادة العرب في القسم، فلا يستغرب منه ولا يرى فيه تنافراً، فقد كان الجاهليون يقسمون بكل شيء، يقسمون بالشجر وبالحجر وبالكواكب، وبالليل وبالنهار، وبالأصنام، وبعمر الإنسان وبحياتهم وبلحى الرجال، وبالأصنام وبالمعابد، وبالله، وبالخبز والملح، لا يرون في ذلك بأساً ولا تناقضاً مع عقيدتهم. هذا (عديّ بن زيد) العبادي، يقسم بمكة، وهو نصراني، لا يري للكعبة في دينه حرمة ولا مكانة. أقسم بها على قاعدة العرب في القسم، وقد أقسم بأمور أخرى من أمور أهل الجاهلية الوثنيين، ولم يذكر أحد أنه بدل دينه، وصار وثنياً. وكذلك الأمر مع غيره من شعراء نصارى ويهود وعبّاد أصنام، أقسموا برهبان النصارى وبأمور نصرانية، مع أنهم كانوا عبّاد أوثان.

ومن القائلين بالرأي الأخير، (نولدكه). فقد ذهب إلى أن رواة الشعر وحملته في الإسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر، وذلك بأن حذفوا منه أسماء الأصنام، وأحلوّا محلها اسم الله. فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم (الله)[2]. وقد ذهب أيضا إلى أن رواة الشعر في الإسلام حذفوا من شعر الجاهليين ما لم يتفق مع عقيدتهم، وما وردت فيه أسماء الأصنام. ومن جملة ما استدل به على أثر التغيير والتحريف في الشعر الجاهلي ورود كلمة (الرحمان) في شعر شاعر جاهلي من هذيل، زعم أن ورود هذه الكلمة في هذا الشعر دليل

---

[1] شرح ديوان لبيد (٢١).

[2] Nöldeke, Beträge, S. IX, ff.

كاف لاثبات أثر التلاعب فيه، لأن هذه اللفظة إسلامية استحدثت في الإسلام، ولا يمكن أن ترد في شعر شاعر جاهلي[1]. وقد فات (نولدكه) صاحب هذا الرأي أن الكلمة بهذا المعنى كلمة جاهلية، وردت في نصوص المسند وفي نصوص جاهلية أخرى، وأن من جملة من استعملها (أبرهة) الحبشى في نصه الشهير المعروف بنص سد مأرب، وأن قوماً من الجاهليين تعبدوا للرحمان، على نحو ما تحدثت عن هذه العبادة في موضع آخر من هذا الكتاب.

وادّعاء أن لفظة (الله) لم تكن موجودة في الأصل، وإنما أقحمت فيه من بعد، وذلك بإزالة رواة الشعر لأسماء الأصنام التي ذكرها أولئك الشعراء، واحلالهم اسم الله في محلها، حتى ظهر ذلك الشعر وكأنه شعر شعراء موحدين يعتقدون بوجود إلَه واحد[2]. هو تعليل فيه شيء من التكلف، فليس كل شعر فيه اسم الأصنام بصالح لقبول الجلالة، فقد لا يستقيم من حيث الوزن أو المعنى بإدخال تلك اللفظة في موضع اسم الصنم. ثم إن من الشعر الجاهلي المروي في الإسلام ما بقي محافظاً على اسم الصنم دون أن يمس ذلك الاسم بسوء. ولو كان من عادة الرواة حذف اسم الأصنام عامة لما تركوا لها بقية في الشعر. ثم ما هي الفائدة التي يجنيها الرواة من طمس أسماء الأصنام، وهم يعلمون أن أهل الجاهلية كانوا وثنيين، يدينون بالأصنام، وكانوا يقسمون بها، وقد رووا أمثلة من ذلك القسم!

أما (ولهوزن)، فيرى أن عدم ورود أسماء الأصنام في الشعر الجاهلي إلاّ في النادر وإلاّ في حالة القسم أو في أثناء الإشارة إلى صنم، أو موضع عبادة، ليس بسبب تغيير الرواة الإسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام. وإنما سببه هو أدب الجاهليين وعادتهم في عدم الإسراف والإسفاف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة (الله) التي لم تكن تعني إلهاً معيناً، وإنما تعني ما تعنيه كلمة ربّ وإلَه. ومن هنا كثر استعمالها في القسم وفي التمني أو التشفي وأمثال ذلك من حالات[3].

---

[1] Nöldeke, Beträge, S. X.

[2] Werner Caskel, Das Schiksal im der Altarabishe Poesie, Leipzig, 1926, S. 8, Goldziher, Abhandlungen, II, S. IX-LXXVI, Ahlwardt, Bemerkungen, über die Achtheit der Alten Arabischen Gedischte.

[3] Reste, S. 217, ff.

ويرى (ولهوزن) أن لفظة (الله) كانت بهذا المعنى في الأصل. كانت تعني إلهاً على وجه التعميم، دون التخصيص، أي أنها لا تشير إلى إله معين. استعملتها كل القبائل بهذا المعنى، فهي صفة تشير إلى الألوهية المجردة، وإن كان أفراد كل قبيلة يقصدون بها صنمهم الخاص بهم. استعاضوا بها عن ذكر اسم الصنم. وإن استعمالها جملا مثل: (حاشا لله) و(للهِ درك) و(لاها الله)، و(تا لله)، و(ايم الله)، و(لحا الله)، و(جزى الله)، و(جعلني الله فداك)، و(لك الله)، و(أرض الله)، وأمثالها، هو من هذا القبيل، الله فيها بمعنى الرب والإلَه، ولما كانت أداة التعريف تفيد التخصيص، فدخولها في اسم الجلالة أفاد التخصيص والعلمية. وهذا ما حدث، إذ فقدت الكلمة معناها العام، واتجهت نحو التخصص حتى صارت بهذا المعنى الذي صارت عليه في الإسلام[١].

وقد ذهب مستشرقون آخرون الى صحة ورود لفظة الجلالة في الشعر الجاهلي. كما ذهبوا إلى أن ورودها في القرآن الكريم أو في الحديث، لا يمنع من ورودها في الشعر الجاهلي، ولا يكون سبباً للطعن في ذلك الشعر، لأن من الجاهليين من كان يؤمن بوجود إلهَ هو فوق الآلهة عندهم، فورود اسمه في شعرهم، ليس بأمر غريب.

وورود اسم الجلالة في أشعار الجاهليين يحملنا على البحث في أصله: هل هو اسلامي محدث، أو هو اسم جاهلي قديم؟ وبحث مثل هذا يجب ان يستند إلى النصوص. غير أننا ويا للأسف لا نملك نصاً جاهلياً يمكن أن يفيدنا في هذا الباب، فكل النصوص الجاهلية التي وصلت إلينا خُرس لم تنطق بشيء عن اسم الجلالة، فليس أمامنا إلاّ اللجوء إلى الطريقة المألوفة في مثل هذه الأحوال، وهي الرجوع إلى آراء علماء اللغة، والى المقابلة بين العربية واللهجات السامية الأخرى. أما آراء علماء اللغة، فإنها مثل آرائهم الأخرى في أصول الكلمات الصعبة التي على شاكلتها، كلها حدس وتخمين. ولا يمكن أن يُستنبط منها شيء تاريخي، يرجعك إلى أول عهد ظهرت فيه هذه اللفظة، والى المراد منها. وأما المستشرقون، فمنهم من يرى أن اللفظة عربية أصيلة، ومنهم من يرى أنها من (الاها) Alaha

---

[1] Reste, S. 218.

ومعناها (الإلهَ) بلغة (بني إرم). أما الذين قالوا بعربيتها، فيرون أنها من (اللات)، اسم الصنم المعروف، تحرف وتولد منه هذا الاسم[1].

واللفظة (الله) من أصل (إلاه)، أي (رب)، و(بعل)، وهي من الألفاظ السامية القديمة. ويقال (إلهة) (إلاهة) للانثى. لأن من الجاهليين من تعبد للآلهة الإناث. وتقابل (هـ ــ اله) (ها الاه) (ه الاه) في النصوص الثمودية، أي (الله)[2]، كَما ترد هذه اللفظة في نصوص عربية أخرى مثل النصوص اللحيانية.

ويلاحظ أن لفظة (الله) هي من التسميات التي وردت في النصوص الشمالية، ويدل ورودها في هذه النصوص على تأثر العرب الشماليين بمن اختلطوا بهم من الشعوب التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب، وأخذهم عبادة هذا الإلَه منهم. ولم تكن هذه اللفظة اسم علم في الأصل، ثم تخصصت على ما يظهر من النصوص المتأخرة، فصارت تدل على إلَه معين ثم على إلَه واحد أحد هو إلَه الكون في الإسلام.

وبذكر علماء اللغة أن (لاه) الله الخلق يلوههم خلقهم، واللآهة الحية، منها سميّ الصنم اللات بها، وجوز (سيبويه) اشتقاق اسم الجلالة منها. قال الأعشى:

كدعوة من أبي كبار يسمعها لاهه الكبـــار

ولاه: علا وارتفع. وسُميت الشمس إلاهة لارتفاعها في السماء[3]. وذكروا أن (ال) اسم الله، وكل اسم آخره ال أو ايل، فمضاف إلى الله، ومنه جبرائيل وميكائيل[4]، فهو (ايل) اذن، إلَه جميع الساميين القديم.

وتعداد المواضع التي وردت فيها لفظة الجلالة أو لفظة إلَه والإلَه في الشعر الجاهلي، يخرجنا عن صلب الموضوع، ويحعل البحث جافاً مملاً. غير أن في استطاعتنا أن نقول إنها وردت في أكثر ذلك الشعر إنْ لم نقل فيه كله. وإن ورودها فيه يشير الى اعتقاد أصحاب ذلك الشعر بإله واحد قهار هو إله العالمين.

---

[1] Ency. Religi., I, p. 661, Ency., I, p. 302.
[2] Reste, S. 209, Mission, II, p. 557, 559, 564, Grohmann, S. 87, ff.
[3] تاج العروس (٩/ ٤١٠)، (لاه)، (٩/ ٣٧٤)، (إله).
[4] تاج العروس (٧/ ٢١١ وما بعدها)، (أل).

غير أن هذا القول يتوقف، بالطبع على إثبات أن ذلك الشعر هو شعر جاهلي حقاً، وأن من نسب اليهم قالوه من غير شك، وإنه لم يوضع على ألسنة أولئك الجاهليين.

الاعتقاد بإله واحد:

والذي يفهم ــ وذلك كما سبق أن قلت ــ من القرآن الكريم ومن الحديث أن قريشاً ومن كان على اتصال بهم، أو غيرهم من قبائل أخرى، لم يكونوا ينكرون عباده الله، ولم يكونوا يجحدون الله، بل كَانوا يقرون بوجوده، ويدينون له، وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم عليه، هو تقربهم إلى الأصنام والأوثان، وتقديسهم لها تقديساً جعلها في حكم الشركاء والشفعاء ومرتبة الألوهية. والإسلام لا يعترف بهذه الأشياء، وهو ينكرها، ومن هنا حاربته قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائها ومن القبائل إلتي كانت ترى رأيها. فهنا كان موطن الخلاف، لا عقيدة الإيمان بالله[1].

وإذا أخذنا بهذا الرأي، رأي اعتقاد الجاهليين أو بعضهم بإله واحد، نكون بذلك قد حللنا عقدة الازدواجية، أي العقيدة الثنائية عند الجاهليين ووجودها في شعرهم، فلا نجد عندئذ غرابة إذا وجدنا شاعراً يذكر الله في شعره ويحلف به، ثم نجده يذكر الأصنام في الشعر نفسه، ويقسم بها قسمه بالله.

ويكاد يكون الاجماع على ما تقدم. قال ابن قيم الجوزية في معرض مقارنته بين آراء المجوس وعبدة الأوثان من العرب: «بل كفر المجوس أغلظ. وعبّاد الأوثان كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأنه لا خالق إلاّ الله، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ولم يكونوا يقرون بصانعيْن للعالم أحدهما خالق للخير والآخر للشر كما تقوله المجوس»[2]. فالوثنية على هذا الرأي، ليست نكراناً لوجود إلَه، وإنما هي اعتقاد بوجوده، واعتقاد بفائدة التقرب اليه، بتقربهم إلى الأصنام والأوثان، أي الشفعاء، بما في ذلك المبالغة في تقديس الأشخاص والقبور.

---

[1] Reste, S. 217, Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XXIX.

[2] زاد المعاد (٣/ ٢٢٤)، (فصل في حكمة الجزية ومقدارها وممن تقبل).

ولا نجد للعرب إلهاً قومياً خاصاً بهم كالذي نجده عند العبرانيين من تعلقهم بـ (يهوه)، وعدهم إياه إلهاً خاصاً باسرائيل. فقد صار هذا الإلَه إله جميع قبائل اسرائيل ويهوذا. أما العرب، فقد كانوا يعبدون جملة آلهة: كل قبيلة لها إلَه خاص بها وآلهة أخرى، ولم يكن لها إلَه واحد له اسم واحد يعبده جميع العرب. والظاهر أن القبائل الساكنة في الحجاز ونجد والعراق والشأم، صارت قبيل الإسلام تتنكر لأصنامها العديدة، وتأخذ بالتوحيد وبالاعتقاد بإلَه واحد هو الله، وهو الذي نجده في هذا الشعر الجاهلي الذي هو حاصل تغريد شعراء قبائل عديدة مما يدل على أن قبائل أولئك الشعراء دانوا بالاعتقاد بوجود ذلك الإلَه فوق الأصنام والأوثان، وقد توّجت هذه العقيدة بتاج النصر في الإسلام. غير أن (الله) في الإسلام يختلف عن الله الجاهليين. فالله هو إلَه العالمين، إلَه جميع البشر على اختلافهم. ليس له شريك من أصنام وأوثان.

أما الله الجاهليين، فهو رب الأرباب، وإلَه الآلهة، يسمو فوق آلهة القبائل أي آلهة القبيلة الواحدة. ولهذا ذكر في شعر شعراء مختلف القبائل، لأنه لايختص بقبيلة واحدة.

ويُقال لما يعبد من دون الله: الأنداد. وفي كتاب النبي لأكيدر: وخلع الأنداد والأصنام. والند: مثل الشيء والنظير. وفي التنزيل: واتخذوا من دون الله أنداداً، أي ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله[١].

والله إلَه ذكر. وكيف لا يتصور الإنسان إلهه ذكراً، والذكر هو قوي مقتدر بخلاف الأنثى! وحيث أن الله هو قوي ومصدر القوة والخلق، فلا بد وأن يكون ذكراً في عقلية تلك الأيام، ولا بد من التعبير عنه بصيغ التذكير. كما يلاحظ أن الجاهليين قد تصوروه واحداً، فلم يخاطبوه بصيغة الجمع، مما يفهم منه التعدد.

ولم يتطرق الشعر الجاهلي إلى موضوع وجود إلهة أي أنثى تكون زوجاً له. ولم يشر القرآن الكريم إلى اعتقاد الجاهليين بوجود زوجة له. فهو في نظرهم إذن إلَه واحد متفرد لا يشاركه مشارك في حياته. وإذ كان الله واحداً أحداً أعزبَ، فلا يمكن أن يكون له ولد. ولكن القرآن الكريم يشير إلى اعتقاد الجاهليين

---

[1] اللسان (٣/ ٤٢٠)، (ندد).

بنينُ وبنات لله. ففي سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[١]. وقد ذهب المفسرون إلى أن العرب قالت الملائكة بنات الله[٢]، وقالت اليهود والنصارى عزير والمسيح ابنا الله، وأن النصارى قالت المسيح ابن الله، وقال المشركون الملائكة بنات الله. وفي سورة النحل ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾[٣]، وفي سورة الصافات ﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون﴾[٤]، ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون: ولد الله وإنهم لكاذبون. اصطفى البنات على البنين. ما لكم كيف تحكمون﴾[٥]، وفي سورة الزخرف ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾[٦] وفي سورة الطور ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾[٧]. وأجمعوا على أن قريشاً وأضرابهم كانوا يزعمون أن الله اصطفى الملائكة بناتاً له. ولم يذكروا كيف صاروا له بناتاً، وقد ورد في بعض الروايات أن كفار قريش قالوا: «الملائكة بنات الله. فسأل أبو بكر من أمهاتهن؟ فقالوا: بنات سروات الجن»[٨].

وورد في بعض أقوال علماء التفسير، إن (أعداء الله) زعموا: أن الله وإبليس اخوان[٩]. ولم يذكروا من هم (أعداء الله) أهم من العرب أم من غيرهم!

ويظهر أن الذين آمنوا بوجود إلَه، تصوروا مكانه فوق الإنسان، أي فوق الأرض، في السماء. لذلك كانوا اذا توجهوا اليه بالدعاء رفعوا أيديهم إلى السماء. والسماء، المكان المرتفع اللائق بأن يكون مقر الرب أو الأرباب. وهو اعتقاد نجده عند غير الجاهليين أيضاً، ومن هذه النظرة ظهر (بعل سمين) (بعل سمن)، أي (رب السماء) و(إلَه السماء) المذكور في بعض نصوص المسند، وهو إلَه قبيلة (امر) (أمر) من القبائل العربية الجنوبية. الإلَه المرسل للسحاب

---

[1] الأنعام، الرقم ٦، الآية ١٠٠.
[2] تفسير الطبري (٧/ ١٩٧ وما بعدها)، روح المعاني (٧/ ٢٠٩).
[3] النحل، الرقم ١٦، الآية ٥٧.
[4] الصافات، الرقم ٣٧، الآية ١٤٩.
[5] الصافات، الرقم ٣٧، الآية ١٥١ وما بعدها.
[6] الزخرف، الرقم ٤٣، الآية ١٦.
[7] الطور، الرقم ٥٢، الآية ٣٩.
[8] تفسير الطبري (٢٣/ ٦٩).
[9] تفسير الطبري (٢٣/ ٦٩).

ومنزل الغيث وباعث الحركة والخصب والخير للناس[1]. وقد تعبد له الصفويون كذلك، وذكر في نصوصهم. وعرف عندهم بـ (هـ ــ بعل سمن)[2].

ولهذه النظرة اتخذ زهادهم لهم معابد خلوية على قمم الجبال وعلى الهضاب والمرتفعات وابتنوا الصروح للتعبد فيها ومناجاة الرب، واتخذوا من الكهوف المنقورة في الجبال مآوي يتعبدون فيها ويعتكفون الأيام والشهور والسنين. وكانوا اذا أمسكت السماء قطرها، وأرادوا الاستمطار، أصعدوا البقر في جبل وعر، وقد أضرموا النار في السلع والعشر المعقودين في أذنابها، وهم يتبعون آثارها، يدعون الله ويستسقونه[3]. ولولا اعتقادهم أن الجبل أقرب إلى الله من الأرض، لما اتعبوا أنفسهم، فصعدوا الجبل المرتفع مع بقرهم، فكان استسقاءهم من الأرض.

الجبر والاختيار:

هذا وأود أن أبين إن أكثر الذين كانوا يدينون يالتوحيد، ويعتقدون بوجود إلَه واحد خلّاق لهذا الكون، كانوا يؤمنون بما نسميه: «القضاء والقدر» أو (الجبر) بتعبير أصح. فالخير والشر من الله، وكل شيء في هذا الكون محتوم مكتوب، وما يصيب الإنسان، لا بد أن يكون قد كتب عليه، ولا راد لما هو مكتوب، بل نجد هذه النظرة حتى عند من لم يأت اسم الله في شعره، فلا ندري أكان من المؤمنين بالله ام لا. وفكرة إن كل شيء في هذا الكون مقدر محتوم، فكرة قديمة غلبت على عقلية الشرقيين، بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية التي كانت سائدة اذ ذاك، أوضاع جعلت الغالبية من الناس تشعر أنها مسخرة، وأنها تدفع في حياتها دفعاً وفي سبيل خدمة النخبة المتحكمة، المسيرة للأمور، أضف إلى ذلك تأثير عامل الجو في الإنسان.

وقضية الجبر والاختيار، قضية لا نجدها عند المؤمنين بوجود إلهَ هو (الله)، أو آلهة أخرى من الجاهليين فقط، بل نجدها عند غيرهم أيضاً ممن لم يكن يقر بعبادة (الله)، وينكر وجود خالق، نجدها عند ممن كان يتعبد للأصنام،

---

[1] Rep. Epigr. 4142, Grohmann, S. 245.
[2] F. W. Winnett, Safaitic Inscriptions from Jordan, p. 18, 23.
[3] ابن فارس، رسالة النيروز (ص ١٨ وما بعدها).

أو للقوى الخفية، أو لا يدري أي شيء عن الآلهة والخلق، أو من الدهرية، القائلين بالدهر. فهؤلاء أيضاً كانوا يعتقدون أن الإنسان، مسير ولا اختيار له في هذه الدنيا، فكل شيء مكتوب عليه. كتب عليه منذ ولد. والسبب، هو ما قلته: وجود عوامل عديدة سيرت الإنسان واستعبدته من أوضاع سياسية واجتماعية وعسكرية واقتصادية ومناخية تحكمت فيه، حتى رسخ في عقل الجاهلي، أن كل شي في هذه الدنيا مقدر مكتوب، وأن ما كتب على الجبين، لا يمكن تغيره ولا تبديل له، ولا اعتراض على ما هو مكتوب، ولا راد لأمر كتب في السماء.

الموت:

وفي مطلع قائمة الموضوعات التي أثارت البشريةَ ولا تزال تثيرها قضية الموت الذي هو ضد الحياة والعالم الثاني الذي يصير اليه الإنسان بعد الموت[1]. إن الموت أمر مخيف راعب يثير مشاعر كل إنسان. فما الذي سيكون مصيره بعد الحياة، وإلى أي مكان سيتجه بعد هذه الحياة، وهل الموت انطفاء لشعلة الحياة وانحلال للجسد إلى الأبد؟ أو هو مرحلة من حياة إلى حياة أخرى يحيا فيها الإنسان حياة جديدة، ويُبعث بعثاً جديداً يبعثه من خلقه؟ ثم ما الذي سيكون عليه في العالم الثاني؟ هل يعيش عيشة راضية مطمئنة، عيشة تفوق معيشته في عالمه الأول؟ أم سيعيش عيشة أخرى؟ إما راضية ناعمة، وإما شقيّة تعسة بحسب عمل الإنسان وما قدمه لنفسه من عمل في العالم الأول؟ هذه الأسئلة وعشرات من أمثالها شغلت بال الإنسان البدائي والراقي ولا تزال تشغله. كل وجد لها أجوبة، وكل قنع بما أجاب به عنها، ورضى بها. وكانت للجاهليين على اختلافهم آراء في هذه المشكلات لا شك في ذلك.

والموت في كلام العرب: السكون. يقال مات بمعنى سكن[2]. وهذا هو المعنى المفهوم للموت عند الجاهليين. فالمراد من الموت هو سكون الجسد بعد مفارقة الروح له. وقد حار الجاهليون، كما حار غيرهم في تفسير ظاهرة الموت،

---

[1] المخصص (٢/ ٦٤).
[2] تاج العروس (١/ ٥٨٦)، (موت).

وكيفية وقوع الموت وحدوثه. وقد اعتبره بعضهم حدثاً طبيعياً، يحدث للإنسان كما يحدث لأي شيء آخر في هذا الكون من التعرض للهلاك والدمار. واعتبره بعض آخر، مفارقة الروح للجسد. وهم الذين أعتقدوا بالثنائية وبالازدواجية في حياة الإنسان، أي بوجود جسد وروح. واعتبره آخرون موت للنفس، وبوفاة النفس يتوفى الجسد ويصيبه السكون. فالموت عندهم مفارقة الروح للجسد، فإذا مات الإنسان خرجت روحه من أنفه، أو من فمه، فينفض الإنسان نَفَسَه. واذا مات ميتة طبيعية، يقال عن الميت: مات حتف أنفه، ومات حتف فيه، أي إن روحه خرجت من أنفه أو من فمه، وهو قليل، لأن النفس في نظر أهل الجاهلية تخرج بتنفسه، كما يتنفس من أنفه. ويقال أيضاً حتف أنفيه. وكانوا يعتقدون أن المريض تخرج روحه من أنفه، وأما القتيل، والجريح، فتخرج روحه من موضع جرحه[١].

ويقال: (زهقت نفس فلان)، أي خرجت روحه. فهم يتصورون إذن أن روح الإنسان كائن مستقل اذا فارق الجسد مات. (وفي الحديث: إن النحر في الحلق واللّبة، وأقروا الأنفس حتى تزهق، أي حتى تخرج الروح من الذبيحة ولا يبقى فيها حركة)[٢].

و(الرمق) بقيه الحياة، أو بقية الروح، وآخر النفس[٣]. فكَأنهم تصوروا أن الشخص المريض أو الجريح، قد ودع معظم نفسه، ولم تبقَ كل من روحه إلا بقية لا تزال في جسده، هي الرمق.

البعث:

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث كما يتبين ذلك من القرآن الكريم. لقد كانوا يرون أن الموت نهاية، وأنهم غير مبعوثين، وأن البعث بعد الموت شيء غير معقول، لذا تعجبوا من قول النبي بوجود البعث والحساب. ﴿وقالوا

---

[1] تاج العروس (٦/ ٦٤ وما بعدها)، (حتف).
[2] اللسان (١٠/ ١٤٧)، (زهق).
[3] اللسان (١٠/ ١٢٥)، (زهق).

إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾[١]، ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلي وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٢]، ﴿وقالوا اذا كنّا عظاماً ورفاناً إنّا لمبعوثون خلقاً جديداً. قل: كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم، فسيقولون: من يعيدنا؟ قل:الذي فطركم أول مرة: فسينفضون اليك رؤوسهم، ويقولون: متى هو؟ قل: عسى أن يكون قريباً﴾[٣]. و﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾[٤]، و﴿إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾[٥]، و﴿لئن قلت إنكم مبعوثون بعد الموت، ليقولن الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين﴾[٦]، و﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾[٧]، و﴿إن تعجب فعجب قولهم: أإذا كنّا تراباً أإنا لفي خلق جديد﴾[٨]، و﴿أيعدكم انكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾[٩]. و﴿قال الذين كفروا أاذا كنّا تراباً وآباؤنا أانا لمخرجون، لقد وعدنا هذا، نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين. قل: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين. ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾[١٠]، و﴿وقالوا: أاذا ضللنا في الأرض أانا لفي خلق جديد، بل هم بلقاء ربهم كافرون. قل يتوفاكم

---

1 الأنعام، الآية ٢٩.
2 النحل، الآية، تفسير الطبري (٨/ ١٠٤ وما بعدها).
3 الإسراء، الآية ٤٩ وما بعدها، تفسير الطبري (١٤/ ١٠٤ وما بعدها)، روح المعاني (١٤/ ١٢٨).
4 التغابن (١٤/ ١٢٨).
5 الحج، رقم ٢٢، الآية ٥.
6 هود، رقم ١١، الآية ٧.
7 المؤمنون، الآية ٨٢، الصافات، الآية ١٦.
8 الرعد، الآية ٥.
9 المؤمنون، الآية ٣٥ وما بعدها.
10 سورة النمل، رقم السورة ٢٧، الآية ٦٧ وما بعدها.

ملك الموت الذي وكل بكم، ثمّ إلى ربكم ترجعون﴾[1]. و﴿إن هؤلاء ليقولون: إن هي إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين. فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾[2].

والآيات المتقدمة وأمثالها[3] كلها حكاية عن رأي كثير من الجاهليين في نفي البعث وفي عدم إمكان العودة إلى حياة أخرى بعد موت يهلك الجسم ويفني العظام فيجعلها رميماً ويمحو كل أثر للجسم، لذا كان البعث من أهم ما عارض فيه الجاهليون معارضة قاسية شديدة، وكان من الموضوعات التي تندروا بها وسخروا وآخذوا عليها الرسول[4]. وكانوا يقولون: «إِن هي إلاّ موتتنا الأولى التي نموتها. وهي الموتة الأولى، وما نحن بمنشربن بعد مماتنا ولا بمبعوثن تكذيباً منهم بالبعث والثواب والعقاب». وقالوا للرسول: «فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا ان كنتم صادقين ان الله باعثنا من بعد بلانا في قبورنا، ومحيينا من بعد مماتنا»[5]، وقالوا: «أَإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون؟ يقولون منكرين بعث الله إياهم بعد بلائهم. أئنا لمبعوثون أحياءً من قبورنا بعد مماتنا ومصيرنا تراباً وعظاماً قد ذهب عنها اللحوم. أو آباؤنا الآّولون الذين مضوا من قبلنا فبادوا وهلكوا؟»[6].

وكان من محاججة قريش للرسول ومحاولتهم إفحامه وتعجيزه قولهم له يوم اجتمعوا به: «يا محمد؟ فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماءً ولا أشد عيشاً منا. فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم والعراق. وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً

[1] السجدة، رقم السورة ٣٢، الآية ١٠ وما بعدها، تفسير الطبري (٢١/ ٩٦)، روح المعاني (١١٢/٢١ وما بعدها).
[2] الدخان، رقم السورة ٤٤، الآية ٣٤ وما بعدها، تفسير الطبري (٢٥/ ٧٦ وما بعدها).
[3] هود، ٧، المؤمنون وما بعدها، سبأ، ٣ وما بعدها، الجاثية، ٢٤ وما بعدها.
[4] الكشاف (١/ ٤٤٨)، (٢/ ٧٤، ١٨٩، ١٩٥ وما بعدها)، الطبرسي (٧/ ٣٩)، (١٤/ ٧٥)، (١٥/ ٥٨).
[5] تفسير الطبري (٢٥/ ٧٦)، (١/ ٧٨ وما بعدها).
[6] تفسير الطبري (٢٣/ ٣٠).

كما تقول!»[١]. وسألوه أسئلة أخرى من هذا القبيل، لتعجيزه في إثبات البعث. «جاء عبد الله بن أبيّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بعظم حائل فكسره بيده، ثم قال: يا محمد، كيف يبعث الله هذا وهو رميم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم»[٢]. وأتى (أبيّ بن خلف) رسول الله «بعظم حائل ففته ثم ذراه في الريح، ثم قال: يا محمد من يحيي هذا وهو رميم؟ قال الله يحييه ثم يميته، ثم يدخلك النار»[٣]. و«جاء العاص بن وائل السهمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعظم حائل ففته بين يديه. فقال يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعدما أرم؟ قال: نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم»[٤].

وممن أنكر البعث على ما ذكره الأخباريون قوم من قريش كانوا زنادقة أنكروا الآخرة والربوبية، أخذوا زندقتهم هذه من الحيرة[٥]. وإذا كان من هؤلاء من كان يقدم القرابين والهدايا لأصنامه، فإن ذلك لا يعني أنه كان يفعل ذلك لترضى عنه في العالم التالي، بل كان يفعل ذلك لترضى عنه في هذه الحياة الدنيا، لتمنّ عليه بالنعم والخيرات. أما العالم الثاني، فهو عالم لا يهتم به، لأنه لم يكن يتصور وجوده ولا حدوثه بعد الموت[٦].

ويتجلى هذا الانكار للحشر والبعث في أبيات تنسب إلى (شدّاد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك) يرثي بها قتلى قريش يوم بدرٍ، وهم الذين قتلوا في تلك المعركة وألقوا في القليب:

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا وكيف حيـــاة أصداء وهام؟
أيعجـــز أن يرد المـــوت عني وينشرني إذا بليت عظامي

أراد الشاعر إنكار البعث، وأن يصير الإنسان مرة أخرى إنساناً بعد أن تتحول

---

1 ابن هشام (١/ ١٨٦)، (حاشية على الروض).
2 تفسير الطبري (٢٣/ ٢١)، روح المعاني (٢٣/ ٥٠).
3 تفسير الطبري (٢٣/ ٢١)، الاشتقاق (٨٠).
4 تفسير الطبري (٢٣/ ٢١)، الاشتقاق (٨٠).
5 المحبر (ص ١٦١)، بلوغ الأرب (١/ ٣٤٥)، المعارف (٦٢١).
6 Reste, S. 185.

روح الإنسان إلى طير[١].

وذكر أن (الحارث بن عبد العزى) أبو رسول الله من الرضاعة، لما قدم مكة، قالت له قريش: «ألا تسمع يا حار ما يقول ابنك هذا؟ فقال: وما يقول: قالوا: يزعم لأن الله يبعث بعد الموت، وأن لله دارين يعذب فيها من عصاه، ويكرم فيها من أطاعه. فقد شتت أمرنا وفرّق جماعتنا»[٢]. فهم ينكرون البعث والحساب، ولا يريدون سماع شيء عنهما، ولا يصدقون عودة الروح إلى الجسد بعد أن فارقته، فذلك عندهم من المستحيلات، ولذلك سخروا من البعث لما سمعوا به. وكيف يكون. بعثاً وقد فنت الأجساد، فلم تبق منها بقية!

فرأي من أنكر الحشر والبعث من أهل الجاهلية، أن الحياة حياة واحدة، هي حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيا، ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب، نحيا ونموت، يموت بعضنا ويحيا بعضنا، وما يميتنا إلا الأيام والليالي، أي مرور الزمان وطول العمر[٣]. فالحياة إذن حياة وموت في هذه الدنيا، وهي استمرار للاثنين على مدى الدهر، يولد إنسان ثم يموت ليحل محله إنسان آخر، وهكذا بلا انتهاء.

ونجد رأي الناكرين للبعث في قوله تعالى: ﴿وقالوا: ما هي إلاّ حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلاّ الدهر﴾[٤]. فهم يقولون: ما هي إلاَّ حياتنا الدنيا، نموت نحن ويحيا أبناؤنا بعدنا، فجعلوا حياة أبنائهم بعدهم حياة لهم، لأنهم منهم وبعضهم، فكأنهم بحياتهم أحياء. والدهر الزمان، وهو الذي يهلك ويفنى[٥]. فالحياة بهذا المعنى، فعل مستمر، وتطور لا ينتهي، يهلك جيل،

---

[1] وهي أبيات رُويت بصورة مختلفة، وفي بعضها زيادات، راجع ابن هشام (١/ ١١٣)، هامش على الروض، كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير (ص ٣٠٨)، «طبعة أوروبة»، بلوغ الأرب (٢/ ١٩٨).

[2] بلوغ الأرب (٢/ ١٩٢).

[3] تفسير الطبرسي (٢٥/ ١٣٦)، (بيروت)، (٢٥/ ٧٨)، (طهران).

[4] الجاثية، الآية ٢٤، تفسير الطبري (٢٥/ ٩١)، روح المعاني (٢٥/ ١٣٩).

[5] تفسير الطبري (٢٥/ ٩١ وما بعدها)، (بولاق)، (٢٥/ ١٥١ وما بعدها)، (القاهرة ١٩٥٤).

ليأخذ محله الجيل الذي نبت منه. وكلّ يأخذ دوره في هذه الحياة، فإذا انتهى دور إنسان، قام بدوره نسله، وهكذا، وبهذا المعنى تفسر الحياة، ويفسر الموت.

وقد يسأل سائل اذا كان أغلب أهل الجاهلية لا يؤمنون بثواب ولا بحساب وبعث ونشر، فلمَ تعبّدوا إذن لإلهَ، وتقرّبوا إلى الأصنام، وقدّموا القرابين والنذور؟ وجوابي على هذا السؤال، هو ما ذكره المتقدمون عنه. قالوا: «كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ، ولا يطلبون الآخرة، اذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها»[١]. فعبادتهم الله وتقربهم إلى الآلهة، هي لمصلحة دنيوية، لنفع ولزيادة في مال، ولدفع شر الأذى والأمراض وعيون الحساد، ومن كل ما هو شر، أما الاخرة، فلا علم لهم بها.

وما خوفهم من الآلهة إلاّ لاعتقادهم أنها تضرهم وتهلكهم وتنزل بهم الشرّ في هذه الدنيا. فإذا أقسم أحدهم كذباً، انتقمت الآلهه منه وأنزلت به نازلة، لذلك تجنبوا الأيمان الكاذبة، وامتنعوا من الحلف جهد إمكانهم، لخوفهم من عاقبة الحلف الكذب. والعاقبة السيئة تكون في هذه الدنيا. وهي عواقب مادية، لأن عقلية أكثر أهل الجاهلية لا تدرك إلاّ القيم المادية للأشياء. فتصوروا العاقبة السيئة تصورا مادياً، كنزول مرض بإنسان أو نزول كارثة بماله أو بإبله أو بزرعه أو بأهله، وهي أمور يخشاها الجاهلي، تكون معجلة في نظره، أي في هذه الدنيا. لأنهم لا يعرفون أن في الحياة داراً غير هذه الدار، ولا يؤمنون بحشر وبعث.

جاء في الأخبار أن (ضمام بن ثعلبة) السعدي، ويقال التميمي، لما قدم على الرسول، أقبل حتى وقف على رسول الله، وهو في أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله: أنا ابن عبد المطلب، قال: أمحمد؟ قال: نعم. قال: يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدنّ في نفسك. قال: لا أجد في نفسي. سل عما بدا لك. قال أنشدك باللهِ إلهك وإلهَ من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله امرك أن نعبده وحده

---

[1] تفسير القرطبي (٢/ ٤٣٢).

لا نشرك به شيئاً، وان نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: اللهم نعم. ثم سأله عن الفرائض، فأسلم. فلما قدم على قومه، فاجتمعوا اليه، (فكان أول ما تكلم به، أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا: مه يا ضمام اتقِ البرص، اتقِ الجذام، اتقِ الجنون. قال: ويلكم إنهما والله ما يضران وما ينفعان)[١]. فالعقاب عقاب مادي في هذه الدنيا، ترسله الآلهة على الإنسان.

غير أن فريقاً من الجاهليين كما يقول أهل الأخبار كان يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت، ويستشهدون على ذلك بـ (العقيرة) وتسمى (البلية) أيضاً. والبلية الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها اذا مات حتى تموت جوعاً وعطشاً. ويقولون إنه يحشر راكباً عليها، ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً. وهذا مذهب من كان يقول منهم بالبعث، وهم الأقل. ومنهم زهير فإنه قال:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم[٢]

ويذكر أيضاً أنهم كانوا يعكسون رأس الناقة أو الجمل أي يشدونه إلى خلف بعد عقر إحدى القوائم أو كلها لكيلا تهرب، ثم يترك الحيوان لا يعلف ولا يسقى حتى يموت عطشاً وجوعاً، ذلك لأنهم كانوا يرون أن الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاةً اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم[٣]، وفي هذا المعنى قال الشاعر في البلية:

والبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حر الخدود

والولايا هي البراذع، وكانوا يثقبون للبرذعة فيجعلونها في عنق البلية وهي معقولة. وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذه الوصية:

يا سـعدُ أما أهلكن فإنني أوصيك إنّ أخا للوصاة الأقرب

---

[1] الاستيعاب (٢/ ٢٠٧ وما بعدها)، (حاشية على الإصابة).
[2] الروض الأنف (١/ ٩٦)، الشعر والشعراء (١/ ٧٦)، (بيروت ١٩٦٤م).
[3] تاج العروس (١٠/ ٤٣)، اللسان (١٨/ ٩٢)، النهاية (١/ ١١٥)، رسالة الغفران (٣٣٣ وما بعدها)، (بنت الشاطئ).

لا تتركن أبـــاك يمشي خلفهم   تعباً يخرّ على اليــدين وينكب
احمل أباك على بعير صالح   وابق الخطيئة إنه هو أصوب
ولعــلّ مالي ما تركت مطيّة   في اليم أركبها إذا قيل اركبوا[١]

وذكر أنهم كانوا يحفرون البلية حفرة وتشد رأسها إلى خلفها وتبلى، أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً. وكانت النساء، يقمن حول راحلة الميت فينحن إذا مات أو قتل، وقد عرفن بـ (مُبَكّيّات)[٢].

وفي رواية أن بعض المشركين كان يضرب راحلة الميت بالنار وهي حية حتى تموت[٣]، يعتقدون أنهم إنما يفعلون ذلك، ليستفيد منها الميت بعد الحشر[٤].

وإذا كانت عقيدة الجاهليين فُي عقر الحيوانات المسكينة وإهلاكها قد ماتت وزالت، بسبب تحريم الإسلام لها، فإن فكرة حشر الناس ركباناً لا تزال باقية حية عند بعض الناس. فالذبن يقدمون (العقيقة) في الحياة أو يقدمونها حين الوفاة ومع نقل الجنازة أو على القبر، يختارون أحسن الحيوانات وأقواها لتتمكن من حملهم يوم المحشر، وتنهض بهم، فيسير راكباً، ولا يحشر وهو مترجل يسير في تلك الساعات الرهيبة ماشياً على قدميه.

ويقال للموت وللحساب (اللِزام)[٥].

ولا أعتقد أن نحر الإبل على القبر وتبليله بدم الإبل المذبوحة[٦]، مجرد عادة يراد بها إظهار تقدير أهل الميت له، أو تمثيل كرم الراحل حتى بعد وفاته، بل لا بد أن يكون هذا النحر من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لها علاقة بالموت وباعتقادهم أن موت الإنسان لا يمثل فناءً تاماً وإنما هو انتقال من حال إلى حال.

---

[1] الشعر لـ (جريبة بن الأشم الفقعسي)، يوصي ابنه به وقد ورد بصور أخرى، راجع الروض الأنف (١/ ٩٦)، النهاية، لابن الأثير (١/ ١١٥)، اللسان (١٤/ ٨٥ وما بعدها)، تاج العروس (١٠/ ٤٣)، طبقات الأمم (٤٩).
[2] اللسان (١٤/ ٨٥ وما بعدها).
[3] المخصص (٦/ ١٢٢)، اللسان (١٦/ ١٥)، الأغاني (٦/ ١٢٢).
[4] الأغاني (١٦/ ٤٨)، «أخبار زيد الخيل»، (١٧/ ١٧٦)، (بيروت ١٩٥٥)، Reste, S. 180.
[5] تاج العروس (٩/ ٥٩)، (لزم)، المخصص (٦/ ١٢٢).
[6] الأغاني (١٩/ ٨٨).

وذكر (السكري)، أن أكثر العرب كانوا يؤمنون بالبعث. واستشهد على ذلك بشعر للأعشى، ذكر فيه الحساب. كما ذكر أنهم كانوا يؤمنون بالحساب، واستشهد على رأيه هذا بشعر للأخنس بن شهاب التميمي[١]. وقول (السكري) هذا مردود، بما ورد في القرآن الكريم من إنكار أغلبهم للحساب والبعث والكتاب، واما الذين قالوا بالبعث، فهم طائفة لا تصل إلى مستوى الكثرة أو الكلّ حتى نستعمل صيغة التعميم.

وإذا كان ما تصور أهل الجاهلية عن البعث والحشر صحيحاً على نحو ما ذكره أهل الأخبار، فلا يستبعد أن يكون القائلون به أو بعضهم قد تصوروا الحساب على نحو ما يحاسب الإنسان على عمله في دنياه. ويلاحظ أن القيامة والبعث والحشر والجنة والنار هي من الكلمات العربية التي لا يستبعد أن يكون لها مفهوم قريب من مفهومها الإسلامي عند الجاهلين.

أما كيف تصور أولئك الجاهليون حدوث البعث والحشر، هل هو قصاص وثواب وعقاب وحساب وجنةّ ونار، أو هو بعث وحشر لا غير، فأهل الأخبار لم يأتوا عنه بجواب، ولم يذكروا رأي تلك الفئة المقرة بالبعث والحشر في ذلك. ولهذا فليس في استطاعتنا إعطاء صورة واضحة عن الحشر وعما يحدث بعده من تطورات وأمور.

ولم تتحدث الكتابات الجاهلية عما سيحدث للإنسان بعد موته. وكل ما ورد فيها هو توسل إلى الآلهة بأن تنزل غضبها على كل من يحاول تغيير قبر، أو ازالة معالمه، أو دفن ميت غريب فيه، وأن تنزل به الأمراض والآفات والهلاك. ولم تذكر تلك النصوص السبب الذي حمل أهل القبور على التشدد في المحافظة على القبر وعلى ضرورة بقائه ودوامه. فلا ندري اذا كان ذلك عن تفكير بوجود بعث، وبتصور قيام الميت من قبره مرة أخرى، ورجوعه ثانية إلى الحياة، أو إلى عالم ثان، هو عالم ما بعد الموت، ولهذا حرصوا حرصاً شديداً على عدم السماح بدفن أحد في قبر، إلاّ اذا كان من أهل صاحب القبر ومن ذوي رحمه، حتى لا يتأذى الميت من وجود الغرباء: وليستأنس بأهله وبذوي قرابته مرة أخرى بعد عودة الحياة اليه، فيرى نفسه محشوراً معهم، ومع من أحبه في حياته، عائشاً

---

[1] المحبر (٣٢٢).

معهم، كما كان قد عاش معهم، أو إن حرصهم على حرمة القبر، إنما كان عن مراعاتهم لحرمة القبر، وعلى منزلة الموتى، فالمسّ بحرمة القبر، مسّ بحرمة الميت، وانتهاك لمقامه ولمكانته، ولما كان عليه في هذه الحياة!

وهناك من كان يعتقد أن الميت وإن غيب في قبره وانقطعت علاقته بآله وذويه، إلاّ إن روحه لن تموت، وأنه يظل وهو في قبره يقظاً، متتبعاً لأخبار أهله. تخبره بها هامته التي تكون عند ولد الميت في محلته بفنائهم، لتعلم ما يكون بعده فتخبره به، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه:

هامي تخّبرني بما تستشعروا　　　فتجنبوا الشنعاء والمكروها[١]

واما ما ورد في الشعر الجاهلي من أمر الحشر والنشر والحساب والكتاب والعالم الثاني، فهو مما ورد ودوّن في الإسلام، ولم أجد في رواية من روايات أهل الأخبار أن أحداً من رواة الشعر الجاهلي، ذكر أنه نقل ما نقل من هذا الشعر من ديوان جاهلي، أو من كتاب كتب قبل الإسلام. ومع ذلك، فإن هذا المروي عن العالم الثاني قليل، لذلك لا نتمكن لقلته من تكوين صورة واضحة عن ذلك العالم ومن التحدث بطلاقة عن رأي أصحاب هذا الشعر في الحشر والنشر والبعث.

وأما ما ورد في شعر (أمية بن أبي الصلت) عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، فهو أوسع ما ورد في الشعر الجاهلي في هذا الموضوع. وأمية، هو الشاعر الجاهلي الوحيد الذي جاء أكثر شعره في نزعات دينية وفكرية، ذلك لأنه كان في شك من عبادة قومه، وكان على شاكلة غيره ممن سئم تلك العبادة، ينهى قومه عنها، ويسفه أحلامها، وقد تأثر باليهودية وبالنصرانية، وفي شعره اعتقاد بالجنة والنار والبعث. وبصحة المعاد الجسماني، وبوجود الجنة والنار بالمعنى الحقيقي، لا المجازي، وهو يتفق في ذلك مع الإسلام، كما تحدثت عن ذلك في الفصل الخاص بالأحناف.

وكان (الأعشى) ممن يؤمن بالله وبالحساب، وقد استشهد من قال ذلك عنه

---

[1] مروج (٢/ ١٣٣).

بأبيات شعر تشعر أنه كان يؤمن بالحساب وبقيام الإنسان بعد الموت لمحاسبته على عمله. من ذلك قوله:

يراوح مـــن صلوات المليك طوراً سُجوداً وطوراً جُؤَارا
بأعظم منك تُقى في الحساب إذا النسمات نفضن الغبارا[1]

وكان (زهير بن أبي سلمى) على مذهب من كان منهم يقول بالبعث، وهم الأقل[2] قال:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أن يعجل فينقم[3]

وكان (حاتم) طيء من المتألهين، ومن المعتقدين بالحساب. وقد أورد أهل الأخبار له شعراً في ذلك[4].

البلية والحشر

ولم يذكر أهل الأخبار كيف تصور القائلون بالقيامة وبالحشر من أهل الجاهلية قيام الموتى ومشيهم إلى المحشر: فقد ذكروا ان قوماً من الجاهليين كانوا اذا مات احدهم عقلوا ناقة على قبره وتركوها حتى تبلى، وتسمى لذلك (البلية). وقالوا: (البلية كغنيّة الناقة التي يموت ربها، فتشد عند قبره، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً أويحفر لها وتترك فيها إلى ان تموت، لأنهم كانوا يقولون صاحبها يحشر عليها، و(كانوا يزعمون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاة اذا لم تعكس مطاياهم غد قبورهم). وذكر انهم (كانوا في الجاهلية يعقرون عند القبر بقرة أو ناقة أو شاة، ويسمون العقيرة البلية)، (وفي فعلهم هذا دليل على انهم كانوا يرون فِي الجاهلية البعث والحشر بالأجساد. وهم الأقل. ومنهم زهير)[5]. وفي هذا المعنى يقول جريبة بن أشيم[6]:

---

[1] رسالة الغفران (١٨٠).
[2] الروض الأنف (١/ ٩٦).
[3] الروض الأنف (١/ ٩٦).
[4] رسالة الغفران (٤٨٨).
[5] تاج العروس (١٠/ ٤٣ وما بعدها)، (بلى)، القاموس (٤/ ٣٥٠ وما بعدها).
[6] اللسان (١٢/ ٦٢٥)، (هوم)، تاج العروس (٩/ ١١٢)، (هيم)، (جريبة بن الأشيم الفقعسي)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٧).

يا ســـعدُ إما اهلــكنّ فــإنني أوصيك أن أخا الوصـــاة الأقربُ
لا أعرفن أباك محشر خلفكم تعباً يخـــرّ على اليـــدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح وتقى الخطيئة انـــه هـــو أصوب
ولَقَلَّ لي ممـــا جمعت مطيّة في الحشر أركبها اذاقيل: اركبوا[1]

ومن ذلك قول عمرو بن زيد المتمني يوصي ابنه عند موته في البلية:

أبنيَّ زوّدنـــي اذا فـــارقتني في القبر راحلةً برحل فـــاتر
للبعث أركبها اذا قيل: اظعنوا مستوثقين معاً لحشر الحاشر
من لا يوافيـــه على عثـــراته فالخلق بين مدقع أو عاثـــر[2]

وقال عويمر النبهاني:

أبنيَّ لا تنسَ البليّة إنهـــا لأبيك يوم نشوره مركوب[3]

وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذا:

لا تتركنّ أباك يحشر مرة عدواً يخر على اليدين وينكب[4]

وطريقتهم في ذلك أن أحدهم اذا مات، بلوا ناقته، فعكسوا عنقها إلى مؤخرتها مما يلي ظهرها، أو مما يلي كلكلها أو بطنها، ويأخذون وليّة فيشدون وسطها، ويقلدونها عنق الناقة، ويتركون الناقة في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها، وربما سلخت وملىء جلدها ثماماً[5].

قال شاعر في البليّة:

والبلايا رؤوسها في الولايا ما نحات السموم حر الخدود

---

[1] اللسان (١٢/ ٦٢٤)، (هوم)، تاج العروس (٩/ ١١٢)، (هيم)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٧ وما بعدها).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٩).
[3] بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٩).
[4] الروض الأنف (١/ ٩٦).
[5] بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٧)، اللسان (١٤/ ٨٥ وما بعدها)، (بلا).

والولايا هي البراذع. وكانوا يثقبون البرذعة، فيجعلونها في عنق البليّة وهي معقولة حتى تموت[١].

أما كلمة (جهنم)، فيرى العلماء أنها من الكلمات المعربة. ويظن المستشرقون أنها من أصل عبراني[٢]. ومن أسماء جهنم على رأي علماء اللغة (الهاوية)[٣]. و(أم الهاوية)[٤].

---

[1] الروض الأنف (١/ ٩٦).
[2] المعرف للجواليقي (ص ١٠٧)، «طبعة دار الكتب المصرية»، Ency., I, p. 998.
[3] اللسان (٢٠/ ٢٥٠).
[4] المخصص (١١/ ٣٨).

الفصل الخامس والستون

الروح والنفس والقول بالدهر

ويحملنا قول بعض الجاهليين بوجود البعث، ويالصدى والهامة، على التحرش بموضوع الروح وماهيتها عند أهل الجاهلية، وعن كيفية تصورهم لها. وقد سأل أهل مكة الرسول عن ماهية الروح، فنزلت الآية: ﴿ويسألونك عن الروح، قلِ: الروحُ من أمر ربي، وما أُوتيتم من العلم الاّ قليلاً﴾[1]. ويذكر المفسرون أن اليهود حرضوهم على توجيه هذا السؤال إلى الرسول، امتحاناً واحراجاً له[2]. وفي سؤالهم له عن الروح معنى اهتمام القوم بالموضوع، ومحاولة إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد. وورد أن يهود يثرب هم الذين سألوه عن أمر الروح ما هي؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد؟ فنزل الوحي عليه بالآية المذكورة[3].

و(الروح) في تعريف علماء اللغة ما به حياة الأنفس، والذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة. وذهب بعضهم إلى أن الروح والنفس واحد، غير أن

---

[1] الأسراء، الآية ٨٥.

[2] القرطبي، الجامع (١٠/ ٣٢٥).

[3] تفسير الطبري (١٥/ ١٠٤ وما بعدها)، القرطبي، الجامع (١٠/ ٣٢٣ وما بعدها)، تفسير الطبرسي (١٥/ ٩٣)، (بيروت ١٩٥٦)، تفسير ابن كثير (٣/ ٦١)، تفسير البيضاوي (١٥/ ٣٨٢)، تفسير أبو السعود (٢/ ٢٣٠)، تفسير السيوطي (٤/ ١٩٩ وما بعدها)، تفسير الكشاف (٢/ ١٩٧)، إرشار الساري (٧/ ٢١٢).

الروح مذكر والنفس مؤنثة[١]. وقال بعض آخر الروح هو الذي به الحياة، والنفس هي التي بها العقل، فإذا نام النائم قبضت نفسه، ولم يقبض روحه، ولا يقبض الروح إلاَّ عند الموت. وذكر بعض العلماء: لكل إنسان نفسان: إحداهما نفس التمييز، وهي التي تفارقه اذا نام، فلا يعقل بها، والأخرى نفس الحياة، واذا زالت زال معها النفَس، والنائم يتنفس. وقد يراد بالنفس الدم، وفي الحديث: ما ليس له نفس سائلة، فإنه لا ينجس الماء اذا مات فيه. فعبر عن الدم بالنفس السائلة، وكما ورد في قول السموأل:

تسيل على حد الظبات نفوسنا   وليست على غير الظبات تسيل

وانما سمّى الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه[٢].

وقد يعبر بها عن الإنسان جميعه، وعن الجسد[٣]. وهناك كلمة أخرى ترد في معنى (الروح)، هي (النسيم). و(النسم) نفس الروح كالنسمة، يقال ما بها نسمة، أي نفس، وما بها ذو نسيم، أي ذو روح. والنسم نفس الريح اذا كان ضعيفاً كالنسيم[٤]. وقد ربطوا بين النسيم والروح، لما كان قد علق في أذهانهم اذ ذاك من أن الروح نوع من أنواع النسيم، وهو النفس الذي يتنفسه الإنسان، ومن أن النفس من النسم كذلك، وأن بين التنفس والنفس صلة، والتنفس يكون بالنسيم. ولهذا قالوا لمن يموت موتاً طبيعياً: (مات حتف أنفه)، و(مات حتف فيه)، والحتف الموت، لأن نفسه يخرج بتنفسه من أنفه أو فيه. ولأنهما نهاية الرمق، ومنهما يكون التنفس[٥].

ويظهر من دراسة معاني الكلمات المذكورة، أن لفظة (نفس) هي بمعنى الإنسان والجسد في الشعر الجاهلي القديم، أما (الروح)، فبمعنى النفس،

---

1 تاج العروس (٢/ ١٤٧)، (الروح).
2 اللسان (٦/ ٢٣٣ وما بعدها)، (نفس).
3 اللسان (٦/ ٢٣٤ وما بعدها)، (نفس).
4 تاج العروس (٩/ ٧٤ وما بعدها)، (نسم)، اللسان (٢/ ٤٣٢)، تاج العروس (٢/ ١٤٧).
5 تاج العروس (٦/ حتف).

أي التنفس واستنشاق الهواء والريح[١]. وتقابل لفظة (نفس) لفظة (نيفش) Nephesh في العبرانية، وتطلق على نفس كل كائن حي، من إنسان أو حيوان، وبهذا المعنى وردت في العهد القديم[٢]. وتقابل لفظة Soul في الإنكليزية وSeele في الألمانية. وقد استعملت لفظة Psyche اليونانية بمعنى نفس في العهد الجديد[٣]. ومن هذه اللفظة اليونانية أخذ العلماء مصطلحهم Psychology Psychologie، أي علم النفس، ثم مصطلحات العلوم الأخرى المتعلقة بموضوع النفس. وهي في الوقت الحاضر علوم عديدة.

أما لفظة (الروح)، فتقابل كلمة (روح) Ruach في العبرانية، ولفظة Spirit في الإنكليزية، وGeist في الألمانية. وتكون في مقابل النفس في علم النفس، وتقابل لفظة Pneuma في اليونانية، ومعناها الهواء والريح والنفس.

ونجد بين المعاني التي ذكرها علماء العربية للألفاظ المذكورة، وهي: النفس، والريح، والهواء، والنسيم، وبين المعاني الواردة في اللغات الأعجمية عنها شبهاً كبيراً، يرجع إلى وجهة نظر الإنسان في تفسير مظاهر الحياة، وشعوره بوجود شيء في نفسه خارج عن حدود المادة، أي عن الجسم أو الجسد، لا يمكن أن يمسكه ولا أن يلمسه، فسماه (نفساً) تارة وسماه (روحاً) تارة أخرى، وفرق بين الاثنين تارة ثالثة. وقدّ تصور أن النفس والروح، شيئان لهما علاقة بالحياة. فنسب الحياة إليهما أو إلى أحدهما. ونظراً إلى أنهما غير محسوسين، ولا يمكن الامساك بهما أو لمسهما، تصورهما الإنسان تصوراً يختلف باختلاف درجة مداركه ومقدار ثقافته ودرجة ما توصل اليه من علم في ذلك الوقت.

وقد تصور اليونان النفس، على أنها هواء ونسيم، وتصوروها على هيأة طائر صغير في شكل الإنسان، أو على شكل طير، أو فراشة[٤]. وهو تصور عرف عند غيرهم أيضاً، بل يكاد يكون الغالب على الناس. ولا زال الناس يصورون الروح على هيأة طائر، يسبح في الفضاء، فإذا مات الإنسان صعدت روحه إلى خالقها، أو إلى السماء. فالأرواح طيور تكون في الإنسان، اذا انفصلت

---

1 Shorter Ency., p. 433

2 التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٢٠.

3 إنجيل متى، الإصحاح السادس عشر، الآية ٢٦، Hastings, p. 872.

4 H. Schmidt, Philosophische Wörterbuch, S. 518.

عن الجسد مات، وأخذت هي تطير مرفرفة. في الأعالي، وبهذا الرأي أخذ بعض الجاهليين تفسير النفس. تصوروا (النفس طائراً ينبسط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره). (وكانوا يزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش، ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور، وأنها ــ أي النفس ــ لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون من بعده فتخبره)[١]. وزعموا أنه إذا قتل قتيل، فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة، وهي الهامة، والذكر الصدى، فيصيح على قبره اسقوني اسقوني، فإن قتل قاتله كفّ عن صياحه. وكان بعضهم يقول إن عظام الموتى تصير هامة وتطير. وذكر أن الصدى حشو الرأس، ويقال لها الهامة أيضاً، أو الدماغ نفسه[٢].

وكان من زعم بعض الجاهليين، أن الإنسان اذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه، فانتصب طيراً هامة، ترجع إلى رأس القبر كل مئة سنة[٣]. ويرجع هذا الرأي إلى عقيدة قديمة تعتبر الدم مقراً للنفس، بل تجعل الدم في معنى النفس، والنفس في معنى الدم، وذلك للصلة الوثيقة الكائنة بين الدم والنفس، ولأن الإنسان اذا قتل سال دمه، فتخرج روحه بخروج الدم من الجسم، أي خروج النفس من الدم، بعد أن كانت كامنة فيه. وبمثل هذا الرأي رأي العبرانيين أيضاً في النفس وفي صلتها بالدم، ورأي غيرهم من الشعوب[٤].

وكان اعتقادهم أن مقر الدم ومركز تجمعه في الدماغ، ومن هنا قيل: بنات الهام: مخ الدماغ[٥]، فلا غرابة إذا تصوروا أن الروح تنتصب فيه، فتكون هامة تخرج من الرأس، وتطير. ويكون خروجها من الأنف أو الفم، لأن النفس يكون منهما. فتتجمع الأرواح حول القبور، ويكون في وسعها مراقبة أهل الميت وأصدقائه ونقل أخبارهم اليه. ولهذا السبب، تصوروا المقابر مجتمع

---

1 بلوغ الأرب (٢/ ٣١١).

2 تاج العروس (١٠/ ٢٠٧)، (صدى)، (٩/ ١١٢)، اللسان (١٦/ ١٠٨)، المعاني الكبير (٢/ ٩٥١، ١٠٠٨ وما بعدها).

3 بلوغ الأرب (٢/ ١٩٩، ٣١١)، الروض الأنف (٢/ ١٠٩).

4 Hastings, p. 101.

5 اللسان (١٢/ ٦٢٥)، (هوم).

الأرواح، تطير فيها مرفرفة حول القبور. والى هذه العقيدة أشير في شعر أبي دُواد:

سلّط الموت والمنون عليهم   فلهم في صدى المقابر هام

وكذلك في شعر للشاعر لبيد:

فليس الناس بعدك في نفيرٍ   وليسوا غير أصداء وهام[١]

ولهذا سموا الدماغ (الطائر) لأنهم تصوروه على صورة طير. قال الشاعر:

همُ أنشبوا صم القنا في نحورهم   وبيضاً تقيض البيض من حيث طائر

عنى بالطائر الدماغ. وعبر عنه للسبب المذكور بـ (الفرخ)[٢].

وورد أن (الصدى) ما يبقى من الميت في قبره، وهو جثته[٣]، وقيل: حشوة الرأس، أي دماغ الإنسان الهامة والصَّدَى. وكانت العرب تقول إن عظام الموتى تصير هامة فتطير. وقال بعض الأخباريين: إن العرب تسمي ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت اذا بلي، الصدى[٤].

وقد نهى الإسلام عن الاعتقاد بالصدى والهامة. ورد في الحديث: «لا عدوى، ولا هامة، ولا صفر»[٥].

وذكر بعض العلماء أن المراد من (صفر) في الحديث النبوي المذكور دابة يُقال إنها أعدى من الجرب عند العرب، فأبطل النبيّ أنها تعدي. وقال بعض آخر أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو تأخيرهم المحرم إلى صفر في تحريمه وجعل صفر هو الشهر الحرام، فأبطله الرسول[٦].

---

1 اللسان (١٢/ ٦٢٤ وما بعدها)، (هوم)، تاج العروس (٩/ ١٢٢)، (هيم).

2 تاج العروس (٢/ ٢٧٢)، (فرخ)، (٣/ ٣٦٤)، (طير).

3 قال النمر بن ثولب، وهو من المخضرمين:

أعازل أن يصبح صداي بقفرة   بعيداً نآني ناصري وقريبي

البرقوقي (ص ٧٥).

4 أضربك حيث تقول الهامة أسقوني

البرقوقي (ص ٧٦).

5 اللسان (١٢/ ٦٢٤)، (هوم)، تاج العروس (٩/ ١١٢)، (هيم).

6 اللسان (٦/ ١٣٣)، (٤/ ٤٦٣)، (صفر)، (صادر).

وقد لخص (المسعودي) آراء أهل الجاهلية في النفس والروح، فقال: «كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس، آراء ينازعون في كيفياتها، فمنهم من زعم أن النفس هي الدم لا غير، وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه، ولذلك سموا المرأة منه نفساء، لما يخرج منها من الدم، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفسٌ سائلة اذا سقط في الماء: هل ينجسه أم لا؟ قال تأبط شراً لخاله الشنفري الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله، كيف كانت قصته؟ فقال: ألجمته عضباً، فسالت نفسه سكباً. وقالوا إن الميت لا ينبعث منه الدم، ولا يوجد فيه، بدأ في حال الحياة، وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات بقي اليبس والبرد، ونفيت الحرارة)[1].

ثم تطرق (المسعودي) إلى رأي من قال إن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان، فإذا مات أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً إليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً، يسمونه الهام، والواحدة هامة[2].

ونظراً إلى قلة ما لدينا من موارد عن الروح والنفس وعلاقتهما بالجسد، عند الجاهلين، فإننا لسنا في وضع نستطبع فيه أن نتحدث عن رأي عموم الجاهليين في تركيب الإنسان. هل هو من (جسد) و(روح)، أو (جسد) و(نفس) أي ثنائي التركيب، أو أنه من (جسد) و(روح) و(نفس)، أي ثلاثي التركيب. فقد رأينا أنهم يجعلون الروح والجسد شيئاً واحداً أحياناً، ويفرقون بينهما أحياناً اخرى. ولكننا نستطيع أن نقول إن غالبيتهم كانت ترى أن الإنسان من جسد، هو الجسم، أي مادة، ومن شيء لطيف ليس بمادة هو الروح أو النفس، وهما مصدرا القوى المدركة في الإنسان ومصدرا الحياة. وأن بانفصالهما عن الجسد، أو بانفصال الجسد عنهما يقع الموت.

ويظهر من مخاطبات الوثنين للأصنام، كأنهم كانوا يتصورون أن لها روحاً وأنها تسمع وتجيب. ومن الجائز حلول الروح في الجماد. وقد ورد عن (ابن الكلبي) عن (مالك بن حارثة) أن والد مالك هذا كان يعطيه اللبن، ويكلفه

---

[1] مروج (٢/ ١٣٢).
[2] مروج (٢/ ١٣٣).

بأن يذهب به إلى الصنم ودّ ليسقيه، فكان مالك يشربة سراً ويبخل به على صنمه[1]. واذا صح خبر ابن الكلبي هذا، فإنه يدل على (حارثة)، وربما غيره أيضاً من عبدة الأصنام، كان يرى أن الصنم يعقل ويدرك، يسمع ويرى، وأنه وإن كان من حجر، إلا أنه ذو روح كما ورد أن من المشركين من كان يرى أن الشمس، ملك من الملائكة ذات نفس وعقل[2].

ويتبين من تشديد النبي في تسوية القبور مع الأرض، ومن لعن المتخذين على القبور المساجد والسُرُج، ومن النهي عن الصلاة إلى القبور، ومن حديث: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[3]، أن المشركين كانوا يقدسون قبور أسلافهم، ويتقربون إليها، لزعمهم أنهم أحياء، لهم أرواح، تعي وتسمع وتدرك، وتفرح وتغضب وتجيب، وتنفع وتضر، ولهذا حاربها الرسول، وأمر بتسوية القبور، إبعاداً عن أمر الجاهلية في ذلك، وخشية العودة إلى، ما كانت عليه: ﴿ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى﴾[4]، تعبير عن معنى هذه المشاركة وعن رأيهم في عبادة الأصنام.

الرجعة:

واعتقد قوم من العرب في الجاهلية بالرجعة: أي الرجوع إلى الدنيا بعد الموت. فيقولون إن الميت يرجع إلى الدنيا كرة أخرى ويكون فيها حياً، كما كان[5]. ولعل هذه العقيدة هي التي حملت بعض الجاهليين على دفن الطعام وما يحتاج الإنسان في حياته إليه مع الميت في قبره، ظناً منهم، أنه سيرجع ثانية إلى هذه الدنيا، فيستفيد منها، فلا يكون معدماً فقيراً. ويفهم من كتب الحديث أن من الناس

---

[1] بلوغ الأرب (٢/ ٢١٤).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٢١٥).
[3] بلوغ الأرب (٢/ ٢١٤).
[4] الزمر، الرقم ٢٩، الآية ٣.
[5] تاج العروس (٥/ ٣٤٨ وما بعدها)، (رجع)، (والرجعة: مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم. ومذهب طائفة من فرق المسلمين من أولى البدع والأهواء، يقولون إنّ الميت يرجع إلى الدنيا ويكون فيها حياً كما كان)، اللسان (٨/ ١١٤)، (رجع).

من سأل الرسول عن الرجوع إلى هذه الدنيا[1]، مما يشير إلى معرفة القوم عند ظهور الإسلام بهذا الرأي.

و«لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قام عمر بن الخطاب، فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وأن رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات». ثم جاء (أبو بكر) «وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر؟ فأنصت، فأبى إلاّ أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه، وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، انه من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل[2]... إلى آخر الآية﴾ «وقال عمر: والله ما هو إلاّ أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت ان رسول الله قد مات».

وقد اعتقد بعض الجاهليين بـ (المسخ). وهو تحول صورة إلى صورة أخرى أقبح، وتحول إنسان إلى صورة أخرى أقبح، أو إلى حيوان. كأن يصير إنسان قرداً، أو حيواناً آخر[3]، أو إلى شيء جماد. من ذلك ما يراه بعض أهل الأخبار عن (اللات)، من أنه كان رجلاً يلت السويق عند صخرة بالطائف، فلما مات قال لهم (عمرو بن لحيّ)، إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها وبنى بيتاً عليها يسمى اللات[4]. وما رووه أيضاً عن (أساف) و(نائلة)، من أنهما كانا رجلاً وامرأة، عملا عملاً قبيحاً في الكعبة، فمسخا حجرين[5]. وما رووه من أن (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً،

---

[1] النهاية (٢/ ٧٢)، (رجع).
[2] سورة آل عمران، الآية ١٤٤، الطبري (٣/ ٢٠٠ وما بعدها)؟
[3] تاج العروس (٢/ ٢٧٩)، (مسخ).
[4] تاجع العروس (١/ ٥٨٠)، (لت).
[5] تاج العروس (٦/ ٤٠ وما بعدها). (اسف)، اللسان (١٠/ ٣٤٨)، الأصنام (٩/ ٢٩)، الروض الأنف (١/ ٦٤)، المحبر (٣١٨).

فمسخه الله كوكباً[1].

وورد أن بعض الملائكة عصى الله فأهبط إلى الأرض في صورة رجل تزوج أم جرهم فولدت له جرهماً. وأن ما تولد بين الملك والآدمي يقال له (العلبان)[2]. وأن (النسناس) جنس من الخلق يثب أحدهم على رجل واحدة، أصلهم حيّ من عاد عصوا رسولهم فمسخوا نسناساً، لكل إنسان منهم يد ورجل من شق واحد، ينقزون كما ينقز الطائر ويرعون كما ترعى البهائم[3].

وقد ذكر (الجاحظ) أمثلة من أمثلة المسخ التي وقعت للحيوان على اعتقاد الناس، من ذلك: اعتقادهم أن السمك (الجريّ) والضباب كانتا أمتين من الأمم مسختا، واعتقادهم أن (الإربيانة) كانت خيّاطة تسرق السلوك، وأنها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس سرقتها، ومن أن (الفأرة) كانت طحانة، والحية كانت في صورة جَمَل، وأن الله عاقبها حتى لاطها بالأرض، وقسم عقابها على عشرة أقسام، حين احتملت دخول إبليس في جوفها حتى وسوس إلى آدم من فيها. ومن أن الإبل خلقت من أعناق الشياطين، وأن الكلاب أمة من الجن مسخت، وأن الوزغة والحكأة من ممسوخ الحيوان[4].

ومن أمثلة المسخ: جرهم، فقد زعم أن جرهماً كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وكان بعضى الملائكة قد عصى الله، فأهبط إلى الأرض في صورة رجل، تزوج أم جرهم فولدت له جرهما[5]. وزعموا أن سهيلاً كان عشاراً باليمن، فلما ظلم مسخه الله نجماً[6]. و(الزهرة)، وقد زعموا أنها كانت بغياً عرجت إلى السماء فمسخها الله شهاباً[7]. و(البسوس)، وقد زعموا أنها كانت امراة مشؤومة اسمها: البسوس، أعطي زوجها ثلاث دعوات مستجابات، وكان له منها ولد، فكانت محبّه له. فقالت اجعل لي منها دعوة واحدة. قال: فلكِ واحدة. فماذا تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة

---

[1] تاج العروس (٧/ ٣٨٤)، (سهل)، الحيوان (١/ ٢٩٧).
[2] الحيوان (١/١٨٧)، (٤/ ٧٠)، حاشية (٦).
[3] تاج العروس (٤/ ٢٥٧)، (نس).
[4] الحيوان (١/ ١٥٢، ٢٩٧)، (٦/ ٦٨، ١٥٥)، (٤/ ٦٨).
[5] الحيوان (١/ ١٨٧)، (٤/ ٦٩)، الروض الأنف (١/ ٩٧).
[6] الحيوان (١/ ٢٩٧)، (٤/ ٦٩).
[7] الحيوان (٤/ ٦٩).

في بني اسرائيل. ففعل فرغبت عنه، لما علمت أن ليس فيهم مثلها، فأرادت سيئاً. فدعا الله تعالى عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة، فذهبت فيها دعوتان. فجاء بنوها، فقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا بها الناس. فادع الله تعالى، أن يردها إلى حالها التي كانت عليها، ففعل. فعادت كما كانت: فذهبت الدعوات الثلاث بشؤمها، وبها يضرب المثل[١].

ونجد عقيدة (المسخ) عند غير العرب أيضاً. في التوراة أن الله مسخ امرأة لوط، فصارت عمود ملح[٢]. ونجدها عند الهنود وعند غيرهم من الأمم القديمة. وقد تشرب من اليهودية إلى العرب المسلمين كثير من القصص الوارد في المسخ.

وقد أنكر بعض المتكلمين (المسخ)، وأنكره قوم آخرون، لكنه جوّزو (القلب)، وهو أن يقلب ابن أدم قرداً من غير أن ينقص من جسمه طولاً أو عرضاً[٣].

الزندقة:

وقد أشار بعض الأخباريين إلى اعتقاد بعض قريش بالنور والظلمة، زاعمين أنهم أخذوه من الحيرة، ويسمي الأخباريون أصحاب هذا الرأي (الثنوية)، وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش: (الزنادقة)[٤]. ولم يذكروا شيئاً عن زندقة تلك الجماعة من قريش ولا عن رجالها. وأشار بعض أهل الأخبار إلى وجود الزندقة والتعطيل في قريش: «وكانت الزندقة والتعطيل في قريش»[٥]. وقد وصفوا الزنديق بأنه القائل بدوام بقاء الدهر[٦]، ولا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الخالق. فهو دهري ملحد لا يؤمن بوجود إلَه واحد، وهو من (الثنوية) على

[1] تاج العروس (٤/ ١٠٩)، (بس).
[2] التكوين، الإصحاح ١٩، الآية ٢٤ وما بعدها.
[3] الحيوان (٤/ ٧٣).
[4] اللسان (١٢/ ١٢) «زندق»، (١٠/ ١٤٧)، «بيروت ١٩٥٦»، تاج العروس (٦/ ٢٧٣)، (وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة)، المعارف (٦٢١)، المعرف للجواليقي (١٦٦).
[5] البدء والتأريخ (٤/ ٣١)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٢٨).
[6] اللسان (١٠/ ١٤٧)، «بيروت ١٩٥٦»، اللسان (١٢/ ١٢)، «زندق» «بولاق».

رأي بعض العلماء[1]. والى هذا المعنى في تفسير زندقة قريش، ذهب أكثر أهل الأخبار. وقد عدّ (أبو العلاء) المعري (شداد بن الأسود الليثي) المعروف أيضاً بـ (ابن شعوب)، وهي أمه، شاعر زنادقة قريش. وذلك لشعره الذي فيه:

ألا مـــن مبلغ الـــرحمن عني	بأني تارك شـــهر الصيام
اذا ما الـــرأس زايل منكبـــيه	فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيا؟	وكيف حيـــاة أصداء وهام
أتترك أن ترد المـــوت عني	وتحييني اذا بليت عظامي[2]

والزندقة كلمة معربة، ذكر علماء اللغة أنها أخذت من الفارسية، أريد بها في الأصل الخارجون والمنشقون على تعاليم دينهم، فهي في معنى (هرطقة) وقد صار لها في العهدين: الأموي والعباسي مدلول خاص، حيث قصد بها (الموالي الحمر)، الذين تجمعوا في الكوفة، وكانوا يظهرون الإسلام ويبطنون تعاليم المجوسية والإلحاد[3].

وفي كلام أهل الأخبار عن الزندقة ووصفهم لزندقة قريش إيهام وغموض وخلط. وإذا كان الزنديق هو القائل ببقاء الدهر، وبعدم وجود عالم ثان بعد الموت، فتكون الزندقة (الدهرية) ويكون الزنديق هو الدهرىّ لقوله بالدهر وبأبدية الكون والمادة[4]. أما القول بالثنوية: بالنور والظلمة، وبالكفر والإلحاد، فشيء آخر، يختلف عن القول بالدهر. والظاهر أن الجمع بين القول بالدهر وبالقول بالنور والظلمة وبالكفر والإلحاد، إنما وقع في الإسلام، بسبب الخلط الذي وقع بين المعنى المفهوم للفظة في الفارسية القديمة وفي الفارسية الحديثة، وبالمعنى الذي ظهر للكلمة في الإسلام. والذي تحول إلى زندقة بغيضة تحوي العناصر المذكورة، والتي كانت تؤدي بمن يتهم بها إلى القتل.

---

[1] اللسان (١٠/ ١٤٧)، (زندق)، الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (١٧٣)، (١٩٦١).
[2] رسالة الغفران (٤٢١ وما بعدها).
[3] «والحمراء العجم، لبياضهم، ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم»، اللسان (٥/ ٢٨٨)، «حمر»، Shorter Ency., of Islam, p. 659, Muh. Stud., I, S. 150.
[4] المعرب (ص ١٦٦ وما بعدها)، اللسان (١٢/ ١٢)، (١٠/ ١٤٧)، طبعة دار بيروت «١٩٥٦م».

وقد أشير في القرآن الكريم إلى وجود القائلين بالدهر: ﴿وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلاّ الدهر﴾[1]. وهم على حد قول المفسرين والأخباريين، من لا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الله. وهو مذهب ودين كان عليه كثير من أهل الجاهلية، يسخر من البعث بعد الموت، ويرى استحالة ذلك. ولم يذكر المفسرون أن من عقيدة هؤلاء القول بالثنوية، أي بالنور والظلمة، وبوجود إلهيْن: إلهَ الخير واله الشر.

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أسماء (زنادقة قريش)، فجعلهم: (أبو سفيان بن حرب)، و(عقبة بن أبي معيط)، و(أبى بن خلف الجمحي)، و(النضر بن الحارث بن كلدة)، و(منبه) و(نبيه) ابنا (الحجاج) الهمّيان، و(العاص بن وائل) السهمي، و(الوليد بن المغيرة) المخزومي. وذكر أنهم (تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة)[2]. فربط هنا بين الزندقة وبين (نصارى الحيرة). وقد ذهب (ابن قتيبة) أيضاً، إلى أخذ قريش الزندقة من الحيرة[3].

والذي نعرفه عن المذكورين، أنهم كانوا من المتمسكين الأشداء بعبادة الأصنام وقد كان (أبو سفيان) يستصرخ (هبل) على المسلمين يوم أُحد، ويناديه: (أعلُ هُبَلُ، أُعلُ هُبَلُ)، وقد نص على أنه كان من أشد المتحمسين لعبادة الأصنام[4]. ولم يذكر أحد من أهل الأخبار، أنهم كانوا ثنويين على رآي المجوس، يقولون بإلهين، بالنور والظلمة، وأنهم تعبّدوا للنار، أو تأثروا برأي مزدك أو ماني الذي أضيف إليه الزنادقة، ولا نجد في آرائهم المنسوبة اليهم وفي حججهم في معارضة الرسول ما يشير إلى (زندقة) بمعنى (ثنوية)، لذلك فزندقة من ذكرت لا يمكن أن تكون بهذا المعنى ولا على هذه العقيدة[5].

وللوقوف على زندقة من ذكرت من رجال قريش، ولتحديد معنى زندقتهم، يجب الرجوع إلى ما نسب اليهم من أراء والى ما عارضوا به الرسول وحاربوه

---

[1] الجاثية، الآية ٢٣.
[2] المحبر (١٦١)، (زنادقة قريش).
[3] المعارف (٦٢١)، الأعلاق النفيسة (٢١٧).
[4] اللسان (١٤/ ٢١٢)، تاج العروس (٨/ ١٦٢)، (هبل)، الأصنام (٢٨).
[5] راجع معنى الزندقة في مروج الذهب (١/ ٢٧٥)، (أثناء حديثه على بهرام).

من أجله. ويمكن حصر ذلك في أمريْن: التقرب إلى الأصنام والتعبد لها، والدفاع عنها بقولهم: ﴿ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى﴾[1]، ولا علاقة لهذه العقيدة بالزندقة. والأمر الثاني، هو القول بالدهر وبالتعطيل، أي بنكران البعث والحشر والنشر. ويتجلى ذلك في قولهم لرسول الله: إن كنت صادقاً فيما تقول، فابعث لنا جدّك: (قصي بن كلاب)، حتى نسأله عما كان ويحدث بعد الموت، وأمثال ذلك مما له علاقة بنفي وقوع البعث. وهو الذي له صلة بالزندقة. فالزندقة بهذا المعنى قول بالدهر وبدوامه ونكران للبعث، لا الثنوية بمعنى القول: بالنور والظلمة.

وأما ما يرويه أهل الأخبار من أخذ زنادقة قريش زندقتهم من الحيرة[2]، أو من نصارى الحيرة[3]، فإن فيه تاييداً لما قلته من أن الزندقة لا تعني المجوسية والثنوية، وإنما القول بالدهر، وانكار المعاد الجسماني[4]، وهو قول قريب من قول من أنكر بعث الأجسام، وآمن ببعث الروح فقط من النصارى ومن غيرهم من أهل الأديان.

والزندقة بهذا المعنى قريبة من رأي القائلين بالدهر، وهم (الدهرية) الذين أشير اليهم في القرآن الكريم، في الآية: ﴿وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر﴾[5]. وهم من يقول ببقاء الدهر، وبنكران البعث والآخرة، والخالق والرسل والخلق على بعض الآراء، وينسبون كل شيء إلى فعل الدهر، أي الأبدية مع التأثير في حياة الإنسان وفي العالم. ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ والنعوت التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة فقالوا: يد الدهر، وريب الدهر، وعُدواء الدهر، و(الدهر لا يبقي على حدثانه)، و(الدهر يحصد ربه ما يزرع)، وأمثال ذلك من تعابير، فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما فيه[6].

---

[1] الزمر، سورة رقم ٣٩، الآية ٣.
[2] المعارف (٦٢١).
[3] المحبر (١٦١).
[4] مروج (٢/ ١٠٢)، (ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية).
[5] الجاثية، سورة رقم ٤٥، الآية ٢٤، تفسير الطبري (٢٥/ ١٥١)، (القاهرة ١٩٥٤).
[6] ألم أخبرك أن الدهـر غـول   ختور العـهد يلتهم الـرجال
ألا إنما الدهر ليـال وأعصر   وليس على شيء قويم بمستمر

ونسبوا الإماتة إلى الدهر، فقالوا: «وما يهلكنا إلا الدهر» أي وما يميتنا إلا الأيام والليالي، أي مرور الزمان وطول العمر، إنكاراً منهم للصانع. قال أحدهم:

فاستأثر الدهـر الغـداة بهم   والدهر يرميني وما أرمي
يا دهر قـد أكثرت فجعتنا   بسراتنا ووقرت في العظم[1]

فكانوا في الجاهلية يضيفون النوازل إلى الدهر، والنوازل تنزل بهم من موت أو هرم، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه، وأبادهم الدهر، فيجعلون الدهر الذي يفعله، فيذمونه ويسبونه. وقد ذكروا ذلك في أشعارهم[2].

ومن الجمل التي تنسب الفعل إلى الدهر، قولهم: «أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه، وأبادهم الدهر»، والدهر يجلب الحوادث، ففي هذه الجمل وأمثالها معنى أن ما ينزل بالإنسان من قوارع، وما يحلّ به من إبادة هو بفعل الدهر، فهو إذن المهيمن على العالم والمسخر له[3].

وقد كان هذا الاعتقاد راسخاً في نفوس كثير من الجاهليين، وفي نفوس كثير ممن أدرك الإسلام فأسلم، فكانوا إذا أصيبوا بمكروه وبحادث مزعج نسبوا حدوثه إلى الدهر، فسّبوه كما يتضح من حديث: «لا تسّبوا الدهر، فإن

---

1 تفسير الطبرسي (٢٥/ ١٣٦)، (بيروت ١٩٥٥)، (٢٥/ ٧٨ وما بعدها)، (طبعة طهران).

2 تاج العروس (٣/ ٢١٨)، (دهر).

3

ديـار بني سـعد بن ثعلبة الألى   أذاع بهم دهر على النـاس دائب
فأذهبهم ما أذهب النـاس قبلهم   ضراس الحروب والمنايا العواقب
Caskel, S. 45.

ولست إذا ما الدهر أحدث نكبة   ورزءا بزوار القـرائب أخضعنا
Caskel, S. 50.

وألا تعـاديني المنـية أغشـكم   على عـدواء الدهر جيشاً لهـاما
Caskel, S. 51.

ابن قتيبة: الشعراء (٢٢٩)

غنينا زمانـاً بالتصعلك والغنى   كما الدهر في أيامه العسر واليسر
Caskel, S. 51.

قال زهير بن أبي سلمي:

وأسـتأثر الـدهر الغـداة بهـم   والـدهـر يرميـني ولا أرمـي
ديوان زهير (٣٨٥).

الله الدهر»، أو «فإن الدهر هو الله». ومن حديث: «يؤذيني ابن آدم بسبّ الدهر الدهرَ، وإنما أنا الدهر: أقلب الليل والنهار»[1]. وأحاديث أخرى من هذا القبيل. وقد ذكر (الجاحظ)، أن مّن الصحابة والتابعين والفقهاء من نهى الناس من قول: طلع سهيل وبرد سهيل، وقوس قزح، كأنهم كرهوا ما كانوا عليه من عادات الجاهلية، ومن العود في شيء من أمر تلك الجاهلية، فاحتالوا في أمورهم، ومنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق[2].

وفي هذين الحديثين توفيق لفكرة الجاهيين في الدهر، وللعقيدة الإسلامية في التوحيد بأن صير الدهرُ اللهَ، وصيره بعض العلماء من أسماء الله الحسنى. والذي حملهم على ذلك، على ما أرى، صعوبة ازالة تلك الفكرة التي رسخت في النفوس منذ القدم عن فعل الدهر، وعن أثره في الكون، فرأى القائلون بذلك ازالتها الدهر اسماً من أسماء اللهِ، أو هو الله تعالى، وهو واحد أحد، والدهر واحد أبدي أزلي كذلك، فلا تصادم في هذا التوفيق بين الرأيين.

وقد وقع هذا التوفيق على ما أعتقد بعد وفاة الرسول في أمور عديدة نسبت إلى الرسول، وقد ثبت عدم إمكان صدورها منه. وللحكم على صحة نسبة الحديثين الى الرسول أحيل القارىء على الطرق التي وردا بها، والى آراء العلماء فيهما، وأعتقد أنه إن فعل ذلك فسيجد في نسبتهما إلى الرسول بعض الشك، إن لم أقل كل الشك.

وتعبر لفظة (الزمان) عن معنى (الدهر) كذلك. وقد ذهب علماء اللغة إلى أن الزمان، أقصر من الدهر، اذ يقع على الزمان القصير، أما الدهر، فالزمان الدائم، أي الزمان الذي لا ينتهي بنهاية. وأنا لا يهمني في هذا المكان تفريق العلماء بينهما في الطول والقصر، إنما المهم عندي هو إن الجاهليين استعملوا الزمان استعمالهم للدهر، ونسبوا اليه ما نسبوه للدهر من فعل في الإنسان وفي الحياة والعالم. هذا (زهير بن أبي سُلمى) يشتكى منه في قصيدته التي يمدح بها (هرم بن سنان)، فيقول في مطلعها:

---

[1] اللسان (٥/ ٣٧٨)، (دهر)، تاج العروس (٣/ ٢١٨)، (دهر)، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، تفسير الطبرسي (٢٥/ ١٣٦)، (بيروت ١٩٥٥)، صحيح مسلم (١٥/ ٢ وما بعدها).
[2] الحيوان (١/ ٣٤٠ وما بعدها).

لمن الديار بقُـنّة الحجـــر أقوين من حجج ومن دهــــر
لعبَ الزمان بها وغيّرهـــا بعدي سوافي المُور والقَطر[1]

وتجد اللفظة في أشعار غيره من الشعراء الجاهليين والإسلاميين تعبّر عن (غدر الزمان) وعن (كذبه)[2] وتلوّنه وتلاعبه بمقدرات الإنسان[3]. وفي كل هده المواضع التي استعملت فيها تعبير عن تلك العقيدة التي لا تزال راسخة في نفوس كثير من الناس، وهي أن الحياة قسمة ونصيب وحظ وبخت، وأنه ليس لمخلوق على ما يقدره له القدر من سلطان. وأن الزمان يلعب بالإنسان وبالكون كيف يشاء، مع أن الإنسان لو فكر في نفسه وتأمّل في عقله، لوجد أنه هو الذي خلق الزمان أي الدهر فأوجده على صورته هذه، بأن حدده وعيّنه بسنين وبقرون، وليس الزمان إلاّ دوام وبقاء لهذا الكون، وليس له أي فعل حقيقي في هذا الكون، والإنسان هو الذي أوجد السنين ليقيس بها طول الزمان، لحاجته إلى معرفته، وإن حسابه بالسنين مهما سيطول، فإنه لن يبلغ ولن يكون في مقدوره بلوغ نهاية الكون.

والمعنى الذي نفهمه من (الدهر) في الشعر الجاهلي، هو، الأبدية مع التأثير في حياة الإنسان وفي العالم. ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ التي تشير إلى وجود هذا التأثير في الحياة، فقالوا: يد الدهر، وريب الدهر، وعدواء الدهر، وأمثال ذلك من تعابير. فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما هو فيه[4].

---

[1] وفي بعض الروايات «لعب الرياح»، شرح ديوان زهير (ص ٨٧)، Caskel, S. 44.

[2] أفرحت أن غدر الزمان بفارس قلح الكلاب وكنت غير مغلب
ما مر قد كذب الــزمان عليكم ونكـــأت قرحتكم ولمــا أنكب
Caskel, S. 51.

[3] ولو سألت سراة الحي عني على أني تلون بي زماني
Caskel, S. 52.

[4] (والدهر لا يبقى على حدثانه)، «والدهر يحصد ريبه ما يزرع».
ألم أخبرك أن الدهــر غـــول ختـــور العهد يلتهم الرجـــالا
ألا إنما الدهر ليـــال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر
Caskel, Die Schiksal in der Altarabishen Poesie, Leipzig, 1926, S. W. L. Schramaier, über den Fatalismus der Varislamischen Araber, S. 12, Bonn, 1881.

ومن نسب اليه القول بالدهر، الحارث بن قيس، المعروف بابن الغيطلة[1].

وتؤدي لفظة (الأيام) هذا المعنى كذلك، بل استعملت أجزاء اليوم مثل (الليالي) للتعبير عن تلك الفكرة أيضاً. فالليالي هي كالأيام، لا يمكن أن يطمأن إليها، ولا أن يوثق بها، إنها تتلون وتتبدّل ولا تخلص لأحد. وحيث أن الليالي هي أوقات الراحة والاستقرار والهدوء، وأوقات الإنس والطرب والإنفراد بالأحبة، وهي اوقات الغدر والاغتيال والغارات والغزو في الوقت نفسه، فيكون ذكرها في الشعر وتفضيلها على النهار وتقديمها عليه، ونسبة الخير أو الشر إليها أكثر من نسبتهما إلى النهار شيئاً طبيعياً. لذلك يجب ألا يستغرب ما نقرأه في الشعر وما نسمعه من أفواه الناس من نسبة تبدل الحال والتلون إلى الليالي أكثر من النهار[2].

وقد استعملت لفظة (عَوْض) في معنى الدهر والزمان، وردت في شعر شاعر من شعراء بكر بن وائل، فعبر بهذه اللفظة عن زمانه، واستخدام بكري لهذه الكلمة، يشير إلى الصنم (عوض) الذي كانت بكر قبيلة هذا الشاعر تتعبد له[3]. وقد أقسموا بها، فقالوا: (عوض لا يكون ذلك أبداً)[4]، ولا أستبعد وجود صلة بينها وبين الصنم (عوض).

وأما (الحِمام)، فإنه قضاء الموت وقدره، يقال: (حُمَّ أجله) أي قضى وقدر[5]. وقد وردت لفظة (حم) ومتعلقاتها في أشعار عديدة بهذا المعنى. أي القضاء والتقدير. فورد (ما حُمّ واقع)، وورد (أحم الله...) و(حمّه الله)، و(حمت لميقاتي)، و(حمتي)، و(حمام الموت)، و(حمام

---

1 أنساب (١/ ١٣٢).

2 فإن تك غبراء الخبيبة أصبحت — خلت منهم واستبدلت غير أبدال
بما قد رأي الحي الجميع بغبطة — بها والليالي لا تدوم على حال
Caskel, S. 51.

3 «وعوض معناه أبداً أو الدهر. سمي به لأنه كلما مضى جزء عوضه جزء أو قسم. أو اسم صنم لبكر بن وائل»، القاموس (٢/ ٣٣٧)، قال الأعشى:
حلفت بمائرات حول عوض — وأنصاب تركن لدى السعير
وقيل إن هذا الشعر لرشيد بن رميض العنزي. والسعير اسم صنم ذلك، تاج العروس (٥/ ٥٨ وما بعدها)، (عوض).

4 تاج العروس (٥/ ٥٨)، (عوض).

5 تاج العروس (٨/ ٢٥٨).

النفس)، و(حمام المنون)، و(حمام)[1]. وهي من حيث هذا المعنى كالحتف والأجل والآجال والحتوف والمنون.

القضاء والقدر:

ويسوقنا هذا الموضوع إلىالبحث عن فكرة القضاء والقدر عند الجاهليين. فقد كان بين أهل الجاهليه من كان يقول بالجبر، وبأن الإنسان مسيّر لا مخير. وأن كل ما يقع له مكتوب عليه، ليس له دخل في حدوثه. ومن هؤلاء القائلون بالدهر والمنون والحمام وما شاكل ذلك من مصطلحات تشير إلى وجود هذا الرأي عندهم.

ولا يعني القول بالجبر، إن قائله من المتألهين القائلين بوجود خالق أوجد الكون، فقد كان من المجبرة من كان ملحداً، لا يقول بخالق، وكان منهم من كان مشركاً. كما أن بينهم من كان يؤمن بوجود خالق أو جملة آلهة. فليس لمذهب الجبر علاقة بالخالق، وإنما هو مذهب يرى أن الإنسان مسيّر، وأنه يسير وفق ما كتب له، ومنهم من ينسبه إلى علة، هي الله أوالدهر، ومنهم من لا ينسبه إلى أحد وهو مذهب موجود في اليهودية وفي النصرانية وفي الإسلام.

ونجد هذه العقيدة في شعر الشاعر النصراني (عديّ بن زيد العبادي)، وربما نجدها أيضاً عند سائر إخوانه النصارى ومن كان على هذا الدين من غيرهم من العرب. والواقع أن الاعتقاد بوجود إلهَ خلق الكون منفرداً، أو آلهة خلقوا الكون مشتركين، يحمل الإنسان على أن يتصور نفسه أنه لا شيء تجاه خالقه أو آلهته وأنه من صنعهم، فما يقوم به، هو من صنع الله أو من صنع الآلـهة

---

[1] قال البعيث:
ألا يا لقــوم كل ما حــم واقــع   وللطير مجرى والجنوب مصارع
وقال الأعشى:
تــؤم ســـــلامة ذا فــائش   هــو اليــوم حــم لميعــادهــا
وقال خباب بن غزي:
وأرمي بنفسي في فــروج كثيرة   وليس لأمــر حمه الله صــارف
تاج العروس (٨/ ٢٥٨).

وهي عقيدة لا بد أن يكون للأحوال الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية إذ ذاك دخل في شيوعها بينهم. ونكاد نجد أكثر الشعوب الشرقية على هذا الرأي. وأما ما ظهر من نظرية حرية الارادة وقدرة الإنسان على خلق أفعاله واختياره، فإنه من تأثير الفلسفة الاغريقية التي دخلت النصرانية.

ونرى (حاتم الطائي) وهو من النصارى على رأي، مؤمناً بالقضاء وبالقدر وبما يأمر به الله، اذ يقول:

اتيـــح له من أرضه وسمائه   حِمامٌ، وما يأمر به الله يفعل

فأسند الأمر والنهي في هذا البيت إلى الله، وأما الإنسان فأنه مامور مسيّر.

ونجده يكل أمره إلى الله، ويدعو قومه إلى تسليم أمرهم للإله الذي يرزقهم اليوم ويرزقهم غداً:

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا   وان على الرحمان رزقهم غدا

ونجد (المثقب العبدي) مؤمناً بالله، وبالقدر. فما يقع للإنسان بمشيئة الالَه وقدره:

وأيقنت إنْ شاء الإله بأنه   سيبلغني أجلادها وقصيدها[1]

و(القدر) و(المقدر) و(المقدور) و(الأقدار) و(القضاء)، من الألفاظ القديمة التي كانت تؤدي هذا المعنى الذي نبحث فيه قبل الإسلام. واستعمال المتكلمين للقضاء والقدر وللقدرية، لا يعني أن تلك الكلمات من الألفاظ التي نبعت في الإسلام. بل إن ظهورها في هذا العهد وأشتهارها فيه، هو لاستخدام العلماء لها في مدلولات معينة وفي مصطلحات وأفكار توسعت واستقرت في هذا العهد.

ونجد الاشارة إلى القدر في شعر الجاهليين والمخضرمين بالمعنى الذي نقصده هنا، أي شيء مقدر مفروض على كل إنسان. هذا لبيد الشاعر المخضرم يذكر أن ما يرزقه هو من فضل الله عليه، وما يحرمه فإنه مما يجري به

---

[1] تاج العروس (٢/ ٤٦٨)، (قصد).

القدر[١]. ونجد فكرة القدر مركزة قوية صريحة في شعره، فهو يعتقد أن القدر خيره وشره من الله، وأن ما يصيب الإنسان مكتوب عليه، ولا راد لما هو مكتوب. ولا دخل لامرىء في عمله، فليحمد الله على خيره، وليشكره على شرّه أيضاً، فهو العالم وحده بما هو صالح وضار[٢]. وشعره هذا لا بد أن يكون مما نظمه في الإسلام، اذ لا يعقل أن يكون من نظم عصر وثني، لما يتجلى عليه من الطابع الإسلامي في الفكر وفي الأسلوب والعرض.

كذلك نجد هذه العقيدة عقيدة القدر في شعر (زهير بن أبي سُلمى) وفي شعر غيره من الشعراء. هذا زهير يقول: إن المنايا أمر لا مفرّ منه، وإن من جاءت منيته لا بد أن يموت، ولو حاول الارتقاء إلى السماوات فراراً منه[٣]. ثم نجده يقول:

وجدت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم[٤]

فليس للإنسان دخل في عمله، وإنما كل شيء يقع له في حياته هو مكتوب عليه. مكتوب عليه أن يموت في أجله، وأن يعيش إلى أجله، وأن يكون غنياً وأن يكون فقيراً، وليس للإنسان عمل على سلطان الحظ.

ومن القائلين بالقدر، (عبَيد بن الأبرص)، الشاعر الجاهلي الشهير، المقتول في قصة معروفة مشهورة. نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمنايا وبالمحتم المكتوب، ونراه يتوكل على الله، ويدعو الناس إلى الاعتماد عليه، فيقول:

---

[1] فمـــا رزقـــت فإن الله جـــالبه   وما حرمت فما يجري به القدر
ديوان لبيد (ص ٥٤)، (طبعة ليدن ١٨٩١).
ولا أقول إذا ما أزمة أزمت   يا ويح نفسي مما أحـــد القـــدر
Caskel, S. 20.

[2] من يبسط الله عليـــه إصبعـــاً   بالخيـــر والشـــر بأي أولعـــا
ديوان لبيد (٨، ١١، ٢٨، ٣٣، ٥٣، ٥٤، ٥٥)، (طبعة بروكلمن)
Ency., III, p. I.

[3] ومن هاب أسباب المنايا ينلنه   ولو نـــال أسباب السماء بسلم
شرح ديوان زهير لثعلب (ص ٣٠)، «وطر بالذي قد حم»، Caskel, S. 54.

[4] الحيوان (٢/ ١٠٣).

من يسأل الناس يحرموه وســائل الله لا يخيب
بــالله يــدرك كل خيــر والقول في بعضه تلغيب
والله ليس لـــه شــريك علاّم ما أخفت القلوب[1]

ونراه يقول في المنايا:

فأبلغ بنيّ وأعمـــامهم بأن المنـــايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العبـــاد إليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا فللموت ما تلــد الوالده[2]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويذكر الموت، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال، وينصح الناس بالسير على هذا المنوال. والذي يقرأ شعره، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج، ذي نفس ميّالة إلى التقشف والتصوف، مؤمن بالعدل، كاره للظلم، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه؟ أو هو من نظم من عاش بعد في الإسلام؟.

ونجد (عمرو بن كلثوم) في جملة من آمن بالقضاء والقدر، وبأن الموت مقدر لنا، ونحن مقدرون له، وذلك في قوله:

وأنّا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا[3]

وهو من المؤمنين بالله، الحالفين به. وذلك كما جاء في بيت شعر نسبوه اليه:

معاذ الله يدعوني لحنث ولو أقفرت أياماً قتار[4]

وكما ورد في أشعار أخرى تنسب اليه.

والشاعر (لبيد) من هذه الطبقة التي اعتقدت أن الله خالق كل شيء،

---

[1] البيان والتبيين (١/ ٢٢٦)، شعراء النصرانية، القسم الرابع (ص ٦٠٧).
[2] شعراء النصرانية، القسم الرابع (٦٠٤ وما بعدها).
[3] التبريزي، شرح القصائد العشر (٣٨٤)، (البيت رقم ٧ من المعلقة)، شرح القصائد السبع للزوزني (١٤٦)، جمهرة أشعار العرب (١٢٠).
[4] المحبر (٤٧١).

يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا دخل للإنسان في عمله. تراه يقول:

من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومن شاء أضل[1]

وتؤدي لفظة (منا) معنى القدر، ومنها (الماني) بمعنى القادر، و(المنية) بمعنى الموت، لأن الموت مقدر بوقت مخصوص[2]. وهي من الكلمات السامية المشتركة الواردة في مختلف لهجات هذه المجموعة. ولهذه الكلمةَ صلة باسم الإلَه الكنعاني (منى)، وهو إلهَ القدر. ولها أيضاً صلة بالصنم (منوات) (منوت)، من أصنام ثمود، وبـ (مناة) من أصنام الجاهليين[3].

ومن أصل (منا) (المنايا) الواردة في أشعار الجاهليين[4]. و(الماني) الواردة في شعر منسوب إلى سويد بن عامر المصطلقي، هو:

لا تأمن الموت في حلّ ولا حرم   إن المنـــايا توافي كل إنســـان
واسلك طريقك فيها غير محتشمٍ   حتى تلاقي ما يمنى لك الماني

في رواية. و:

لا تأمنن وإن أمسيت في حـــرم   حتى تلاقي ما يُمني لك الماني
فالخيرُ والشر مقرونان في قرن   بـــكل ذلك يأتيــك الجديـــدان

---

1 الأغاني (٩/ ١١٢)، (٢١/ ١٢٦).

2 تاج العروس (١٠/ ٣٤٧ وما بعدها)؟

إن المنــــية   منهــــل   لا بدّ أن أســقى بكأس المنهــل

الأغاني (١٥/ ٧٩):

وإذا المنــية أنشــبت أظفــارها   ألفيــت كل تميــــمة لا تنفــع

ولو كانت في بيت تسد خصاصه   حوالي من أبنـــاء نكرة مجلس
ولو كان عندي حازيـــان وكاهن   وعلق أنجـــاســاً على المنحس
إذا لاتتـــنى حيث كنــت منيــتي   يخب بهـــا هـــاد إلى معرس

Caskel, S. 51.

3 Caskel, S. 22, Ency. Religi., I. p. 661.

4 وإن المنـــايــا ثغــر كل ثنــية   فهل ذاك عما يبتغي القوم محضر

وغبراء مخشي رداها مخوفة   أخوهــا بأســباب المنــايا معــرر

ديوان عروة بن الورد (ص ٣٨)، (تحقيق نلولدكه)، (كوتنكن ١٨٦٣).

على رواية أخرى.

وفي هذا البيت الذي ينسبه بعض الرواة إلى أبي قلابة الهُذلي:

فلا تقولن لشيء سوف أفعله　　حتى تلاقي ما يمني لك الماني[١]

وتؤدي كلمة (المنون) معنى الدهر والموت[٢]، وقد تسبق بكلمة (ريب) في بعض الأحيان، فيقال: (ريب المنون) كما يقال (ريب الدهر)[٣].

ويرى (نولدكه) أن هذه الكلمات هي أسماء آلهة، وليست أسماء أعلام، هي أسماء تعبر عن معان مجردة للألوهية، وهي مما استخدم في لغة الشعر للتعبير عن هذه العقائد الدينية. فالزمان مثلا أو الدهر، لا يعنيان على رأيه هذا إلهاً معيناً، ولا صنما خاصاً، إنما هي تعبير عن فعل الإلهة في الإنسان[٤].

وبعض هذه الكلمات ــ في رأي (ولهوزن) ــ مثل قضاء ومنيّة، هي بقايا جمل اختصرت، ولم يبقَ منها غير بقايا، هي هذه الكلمات. فكلمة قضاء هي بقية جملة أصلها (قضاء الله)، سقطت منها الكلمة الأخيرة، وبقيت الأولى. وكذلك الحال في منية، فإنها بقية جملة هي: منية الله، سقط عجزها، وبقي صدرها. وهي تعني أن المنية هي منية الله تصيب الإنسان[٥].

يبدو أن من الغريب ذكر الدهر والزمان والحمام والمنايا وأمثالها في الشعر ونسبة الفعل إليها، بينما يهمل ذكر الأصنام فيه أو نسبة الفعل إلى الله. فهل يعني هذا أن الجاهليين لم يكونوا يعلمون أن لله سلطاناً وحولاً، وأن المنايا والحتوف وكل خير أو مكروه هو من فعل الله؟ الواقع إن هذا الذي نذكره يذهب اليه أهل

---

[1] تاج العروس (١٠/ ٣٤٧)، اللسان (٢٩٢/١٥)، (منى).

[2] تاج العروس (٩/ ٣٥٠ وما بعدها).

[3] ﴿أم يقولون شاعر نتربص به المنون﴾، الطور، الآية ٣٠.

أإن رأت رجــلا أعشى أضر به　　ريب المنون ودهر مفند خبل

تخوفني ريب المنون وقد مضى　　لنــا سلف قيس معــاً وربيع

ديوان عروة بن الورد (ص ٤٣)، (نولدكه)،

أمن المنون وديبهــا تتوجــع　　والدهر ليس بمعتب من يجــزع

Caskel, S. 41.

[4] Ency. Religi., I, p. 661.

[5] Reste, S. 222.

الجاهلية ولم يقصدوه. وما ذكر الدهر في الشعر، إلاّ كتشكّي الناس من الزمان أو من الحظ أو النصيب في هذه الأيام. وشكواهم من ذلك لا يعني تحديد سلطان الله، أو نكرانه، وإنما هو بقية من تصور انساني قديم بنسبة كل فعل وعمل إلى قوة خفية هي القوة العاملة، وهي ما عبرت عنها بالدهر وبالزمان. وذلك لما يتصورونه من مرور الأيام والسنين وبلاء الإنسان فيه، وبقاء الأرض والكون، ومثل هذه النسبة والشكوى عامة عند جميع الشعوب البدائية والمتطورة المتقدمة، فنراها عند القبائل البدائية ونراها عند الغربيين.

ولا يقصر هذا الاستعمال على الشعر وحده، بل نجد ذلك في النثر وفي كلام الناس الاعتيادي. لذلك لا أرى صحيحاً ما ذهب اليه بعض المستشرقين من أن نسبة الفعل إلى الدهر هو من الاستعمالات الخاصة بالشعر[١].

وهناك كلمات أخرى تشير معانيها إلى هذه الفكرة فكرة القدر، وأن الخير والشر وكل ما في يصيب الإنسان هو مقدر مكتوب. وهي نظرة لا بد أن تكون قد انبعثت من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومن أثر المحيط في الإنسان. ومن شعور الإنسان بأن قوى خفية تلعب به وتوجهه حيث يشاء[٢]. فنسب كل ذلك إلى غيره، وصير نفسه مسخراً موجهاً كالريشة في مهب الرياح.

وتؤدي عقيدة القدر بصاحبها الى التشاؤم، والى القنوط والاستسلام والتوجع والتألم، والتشكي من عبث الدهر بالإنسان، وهو ليس له دخل في رده وصده. وقد تؤدي بمعتنقها إلى الخمول والكسل، والى العجز في هذه الحياة، والى ردّ كل ما يصيبه بسبب كسله وعدم استخدام قابلياته ومواهبه إلى غدر الدهر به وحنق الزمان عليه، وتلاعب الحدثان بأموره. ونجد أكثر شعراء أهل الجاهلية، هم على هذه الشاكلة، يبكون أيامهم، ويتذكرون الماضي، ويتوجعون، لأنهم سائرون نحو مستقبل مؤلم موجع، لا حول فيه لإنسان ولا قوّة. إنه عالم الشيخوخة أو عالم الموت أو عالم الفقر. وأمثال ذلك من العوالم المفزعة. يستوي في ذلك امرؤ القيس والشعراء المخضرمون، فأنت اذا تصفحت دواوينهم قلما تجد فيهم شاعراً متفائلاً، أو شاعراً غير مبال بالأيام، لا يهمه ما يأتي به الدهر، حتى

---

[1] Caskel, S. 54.

[2] والمـال ما خـول الإلـه فـلا   بـد لـه أن يحـوزه قـدر
شرح ديوان زهير (ص ٣١٤).

ليخيل إلينا أن هذا طبع. والواقع أننا نجد الشعراء في الجاهلية والإسلام وأكثر الكتاب والخطباء على هذا المنوال، مما يحمل المرء على القول بوجود التشاؤم في طبع العرب.

وموضوع (القدر) من المواضيع التي حيّرت المسلمين أيضاً. فانقسموا في ذلك إلى مذاهب. وقد مرّ الرسول بناس كانوا يتذاكرون في القدر، فقال: إنكم قد أخذتم في شعبين بعيدي الغور. أي يبعد أن تدركوا حقيقة علمه، كالماء الغائر الذي لا يقدر عليه[١].

وقد ذكر علماء التفسير أن قريشاً خاصموا الرسول في القدر، وأن رجلاً جاء إلى الرسول فقال: يا رسول الله ففيم العمل؟ أفي شيء نستأنفه، أو في شيء قد فرغ منه؟ فقال رسول الله: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، سنيسره لليسرى، وسنيسره للعسرى[٢]. ويظهر من ذلك أن قريشاً أو جمعاً منهم، لم يكونوا يؤمنون بالقدر، بل كانوا يؤمنون بأن فعل الإنسان منه، وأن لا لأحد من سلطان في تصرفه وفعله.

القدرية:

وذكر أن الشاعر (الأعشى) كان قدرياً، يرى أن للإنسان دخلاً في فعله، وأن له سلطاناً على نفسه، حيث يقول:

استأثر الله بالوفاء وبالـ عدل وولى الملامة الرجلا[٣]

فالإنسان مسؤول عن فعله، ملام على ما يرتكبه من قبيح. فالله عادل، لا يجازي الإنسان إلاّ على فعله، ولو كان قد قدر كل شيء له، وحتمه عليه كان ظالماً. وقد أخذ الأعشى رأيه هذا «من قبل العباديين نصارى الحيرة، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك».

---

[1] تاج العروس (٣/ ٤٥٧)، (غور).
[2] تفسير الطبري (٢٧/ ٦٤ وما بعدها).
[3] الأغاني (٩/ ١١٢)، (٢١/ ١٢٦).

فنحن أمام عقيدتين. عقيدة تقول: إن الله خالق كل شيء، وإن فعل الإنسان من تقدير الله وأمره، فهو يفعل بفعله وبحسب ما قدره له، ورأي يقول إن الإنسان خالق فعله، فهو حرّ مختار، ولهذا فهو وحده مسؤول عن عمله، من خير أو شرّ. والرأي الأول أظهر عندهم وأقوى من الرأي الثاني.

الحظ:

وحظ الإنسان، أي ما يصيبه في حياته، هو جزء من هذا الموضوع أيضاً. مشتبك به، متصل بأجزائه، والحظ في اللغة النصيب والجد. أو خاص بالنصيب من الخير والفضل[١]. والنصيب، هو ما قدر وما قسم لك، أي حظك. والحظ[٢] وهو (البخت). وقيل: البخت من المعربات، وقيل من الألفاظ التي تكلمت العرب بها قديماً[٣]. وذكر علماء اللغة أن الجد البخت والحظ في الدنيا. ويفهم من الأمثلة الواردة في شرح معنى اللفظة، أنها في معنى الحظوة والرزق[٤]. أي في معنى الشيء الحسن المفرح مما يصيب الإنسان.

قالوا: والحظ موجود في المرزوق والمحروم، وفي المحارف، وفي القبائل، فربما سعدت بالحظ، وربما حظيت بالجد. وهو كذلك في الشعر وفي النباهة، ورب عاقل فاهم أديب، لا يكون إلاّ دائم الصبر على الشدة، لسلطان الحظ على الإنسان[٥].

ونظرية (القسمة والنصيب)، معروفة في الإسلام، وقد بحث فيها علماء الكلام. فهي فن الموضوعات التي بحثت في الجاهلية والإسلام. ونجد احد الشعراء يقول:

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى   ولكن أحاظ قسمت وجدود

وهو بيت ينسب لسويد بن حذاق العبدي، ويروى للمعلوط بن بدل القريعي وصدره:

---

[1] تاج العروس (٥/ ٢٤٩)، (حظ).
[2] تاج العروس (١/ ٤٨٦)، (نصب).
[3] تاج العروس (١/ ٥٢٥)، (بخت).
[4] تاج العروس (٢/ ٣١٣)، (جدد).
[5] الحيوان (٢/ ١٠٢ وما بعدها).

متى ما يرى الناس الغني وجاره   فقير يقولوا عاجز وجليد

أي «إنما أتاه الغني لجلادته، وحرم الفقير لعجزه وقلة معرفته، وليس كما ظنوا، بل ذلك من فعل القسّام وهو الله سبحانه وتعالى، لقوله: نحن قسمنا بينهم معيشتهم»[١]. وفي هذا المعنى قول الشهاب المقري:

سبحان من قسم الحظو   ظ فلا عتاب ولا ملامه[٢]

وأهل الجاهلية يرجعون القسمة إلى الدهر والزمان والحظ. فأبطل الإسلام ذلك، اذ جعلها بأمر الله وقدره. فالله هو مقدر الأقدار، ومقسم القِسَمْ، وموزع الحظوظ والأرزاق.

الطبع والطبيعة:

ومن الموضوعات التي لها صلة بالقضاء والقدر. موضوع الطبع، أي الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان. فرأي كثير من الجاهليين، أن الإنسان مجبول على طبيعته التي ولد فيها، وكل إنسان على طبيعته، ولن يستطيع تبديل طبعه، ولا تغيير السجايا، لأنها مكتوبة على الإنسان مسنونة، ولا تبديل لما طبع المرء عليه[٣]. وطبائع الإنسان لا يغيرها إلاّ الموت. جاء في شعر لبيد:

فاقنع بما قسم المليك، فإنما   قسم الخلائق بيننا علامها[٤]

وهو شعر قد يكون مما قاله في الإسلام.

و(زهير بن أبي سلمى)، ممن يعتقدون بهذه العقيدة، ويأخذون بهذا الرأي، فهو القائل:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   ولو خالها تخفى على الناس، تعلم[٥]

---

[1] تاج العروس (٥/ ٢٤٩)، (حظ).
[2] المصدر نفسه.
[3] اللسان (٨/ ٢٣٢)، (طبع).
[4] اللسان (١٠/ ٨٦)، (خلق).
[5] التبريزي، شرح القصائد العشر (٢٤٠)، (البيت ٥٨ من المعلقة)، (القاهرة ١٩٦٤).

الفصل السادس والستون

الآلهة والتقرب إليها

لا نملك ــ ويا للأسف ــ نصوصاً جاهلية فيها وصف لطبائع الآلهة، ولا أساطير فيها شيء على رأي أهل الجاهلية في أخلاق أربابهم، ولهذا صار مرجعنا وسندنا في تكوين صورة عن طبائع الآلهة وأخلاقها، دراسة وتفسير أسماء الآلهة ونعوتها التي نعتت بها، لاستخراج شيء منها يعيننا على تكوين هّذه الصورة.

وتفسير أسماء الآلهة ومعرفة أصولها وجذورها، عملية ليست سهلة يسيرة، بسبب جهلنا بمعاني بعض تلك الأسماء، وعدم وقوفنا على أصولها التي اشتقت منها، لأن اللهجات التي دوّنت بها، لا تزال بعيدة عن مداركنا، ولأن قواعد نحوها وصرفها مختلف بعض الاختلافات عن قواعد وصرف عربيتنا، ونحن لا نملك اليوم المؤهلات الكافية، للحكم في تلك اللهجات حكمنا في عربيتنا.

واسم الإلَه هو صفة في الغالب، ألبسها الزمن بمضي الوقت لباس العلمية فعُدت اسماً علماً فإذا استطعنا الرجوع الى أصول وجذور هذه الأسماء الصفات، نكون قد استنبطنا شيئاً عن طبائع تلك الآلهة من صفاتها المذكورة. ونجحنا بعض النجاح من تكوين رأي عن تلك الديانات الجاهلية.

هنالك أسماء مثل (ال) (ايل)، يجد الباحثون صعوبة في الاتفاق على تعيين أصولها، وضبط معانيها، وهناك أسماء واضحة جليّة ظاهرة، تدل على أشياء معروفة محسوسة، مثل (شمس) و(ورخ) بمعنى قمر، و(عثتر) و(الشعرى العبور) و(نجم)، و(ثريا) وأمثال ذلك من أسماء تشير إلى

أشياء مادية، هي كواكب ونجوم، يستدل منها على وجود عبادة الأجرام السماوية عند الجاهليين. وهناك أسماء، هي نعوت في الواقع، لا تدل على ظواهر حسية وإنما تعبر عن أمور معنوية، مثل (ودّ) بمعنى (حبّ) و(رضى)، و(سعد)، و(حكم)، و(نهي)، و(صدق)، و(رحمن)، و(رحم) (ها ـــ رحم) (الرحيم)، و(سمع)، (سميع)، و(محرمم) (محرم)، وأمثال ذلك من ألفاظ، هي نعوت، جرت بين الناس مجرى الأسماء. وعلى هذه الصفات الأسماء سيكون جلّ اعتمادنا في استنباط الصورة التي نريد تكوينها عن طبيعة آلهة العرب الجنوبيين.

وعلينا أن نضيف على ما تقدم الأعلام المركبة المضافة للأشخاص، مثل (عبد ود)، و(عبد مناف)، و(عبد شمس)، و(عبد يغوث)، و(امت العزى) (أمة العزى)، فالكلمات الثانية من الاسم، أسماء أصنام. وفي تركيب الاسم على هذا النحو، دلالة على تذلل الإنسان تجاه ربه، واعتبار نفسه عبداً له، وفيه تعبير عن صلة الأشخاص بربهم، أضف إليها الأعلام المركبة تركيباً إخبارياً، مثل (ودم ابم)، أي (ود أبٌ) أو (أبٌ ود)، ففي هذا التركيب دلالة على حنو الإلَه على المؤمنين به، واشفاقه عليهم، إشفاق الأب على أولاده.

ودراسة الأمور المذكورة، هي مصدر مهم، بل هي تكاد في هذا اليوم أن تكون المصدر الوحيد لفهم ذات الآلهة وإدراك شخصيتها، ولفهم تطور الدين على مر العصور والأجيال، وكيف تطور الدين عند الجاهليين إلى يوم ظهور الإسلام.

هذا، ونجد في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة، أسماء آلهة لا نجد لها موضعاً في النصوص العربية الجنوبية المتقدمة، واختفاءً لأسماء الآلهة القديمة التي كانت لامعة ساطعة في سماء الألوهية عند العرب الجنوبيين قبل الميلاد. ونجد أسماء آلهة قبائل تعبد عند قبائل أخرى مع معبوداتها القديمة، وأسماء آلهة كانت لامعة شهيرة، تحولت إلى آلهة صغيرة. وفي كل هذه الملاحظات دلالة على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين، وعلى تأثر العقائد بمؤثرات داخلية وخارجية، فأحدثت هذا التطور الذي نبحث عنه.

ومن بين أسماء الآلهة، أسماء مركبة، استهلت بـ (ذ)، أو بـ (ذت). و(ذ)، بمعنى (ذو) في عربيتنا و(ذت) بمعنى (ذات). و(ذ) للمذكر، و(ذت) للمؤنث، أما الكلمات التالية، فهي صفات فجملة (عثتر ذ قبضم)، تدل على إله ذكر، اسمه (عثتر ذو القبض) (عثتر ذو قبض)، أو (عثتر القابض) بتعبير أصح. وجملة (ذ شقرن)، و(ذ صهرم)[1] و(ذ عذبتم)، و(ذ يسرم)[2]، و(ذ امر وشمر)، أي الآمر الناهي[3] و(ذ انبى)، هي جمل تشير إلى إله ذكر، لوجود (ذ) علامة التذكير فيه. وجملة (ذت حمم)، و(ذت بعدن)، و(ذت برن)، و(ذت غضرن) و(ذت رحبن)، و(ذت صهرن)، و(ذت صنتم)، و(ذت ظهرن)، تشير إلى آلهة إناث، لوجود (ذت) (ذات) في الاسم. ومعنى هذا أن العرب الجنوبيين كانوا قد جعلوا الآلهة كالإنسان إناثاً وذكوراً. وهو ما ورد في القرآن الكريم عن أهل مكة وبعض قبائل الحجاز، من قوله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾[٤]، ومن قوله: ﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿واصطفى البنات على البنين﴾[٦] و﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾[٧] و﴿أم له البنات ولكم البنون﴾[٨]. وقد ذكر علماء التفسير أنه «لا ينبغي أن يكون لله ولد ذكر ولا أنثى، سبحانه نزه جل جلاله بذلك نفسه عما أضافوا اليه ونسبوه من البنات، فلم يرضوا بجهلهم اذ أضافوا إليه ما لا ينبغي إضافته إليه، ولا ينبغي أن يكون له من الولد أن يضيفوا اليه ما يشتهونه لأنفسهم ويحبونه لها ولكنهم أضافوا اليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات ما يقتلونها اذا كانت لهم»[٩]. وذكروا أن مشركي قريش كانوا يقولِون: الملائكة بنات الله،

---

[1] Rep. Epigr. 504.
[2] Rep. Epigr. 2831, 4688.
[3] Handbuch, I, S. 244.

[4] النحل، الرقم ١٦، الآية ٥٧.
[5] الصافات، الرقم ٣٧، الآية ١٤٩.
[6] الصافات، الرق ٣٧، الآية ١٥٧.
[7] الزخرف، الرقم، الآية ١٦.
[8] الطور، الرقم ٥٢، الآية ٣٩.
[9] تفسير الطبري (١٤/ ٨٣)، روح المعاني (١٤/ ١٥٦).

وكانوا يعبدونها»[1]. وقد وبخهم القرآن الكريم على قولهم هذا، واستخف بأحلامهم وبما قالوه جهلاً وحماقة.

وذكر علماء التفسير أن كفار قريش قالوا: «الملائكة بنات، الله. فسأل أبو بكر من أمهاتهن؟ فقالوا سروات الجن. يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس[2]. وإنهم قالوا: «ان الله وابليس اخوان»، وإن بين الله وبين الجنة نسباً[3]. ولم يذكَر علماء التفسير من قال هذا القول من كفّار قريش. ولا كيف صارت الملائكة بناتاً لله، أو كيف اصطفى الله له البنات، ولمَ فضلهن على البنين، إذ لم يذكروا أن أهل الجاهلية نسبوا له ولداً ذكراً، ولَم يذكروا هل اختار الله البنات اختياراً من خلقه، أو من زواج؟ وقد رأيت أن رواية نسبت إلى قريش قولهم إن أمهات الملائكة سروات الجن، وذلك حين سألهم أبو بكر من أمهاتهن[4].

ولا نجد في نصوص المسند إشارة إلى زواج الآلهة، ولوجود بنات لها. وما قلناه من وجود آلهة ذكور، وآلهة إناث، هو إستنباط من وجود علامة التذكير (ذ) وعلامة التأنيث (ذت) في أسماء الآلهة. أما موضوع زواج القمر بالشمس، وظهور ولد ذكر منه هو (عثتر). فهو من استنباط علماء العربيات الجنوبية ومن آرائهم التي استخلصوها من دراستهم للنصوص. فليس في المسند أي شيء عنه. وليس في المسند، أي شيء عن دين العرب الجنوبيين، وعن أساطيرهم في الآلهة وفي الخلق، ولا عن صلواتهم وأدعيتهم وكل مما يتعلق بالدين من أمور.

وكل اسم ورد في المسند استهل بلفظة (ذت)، (ذات)، فيراد به الشمس، وهي إلهة، وكل لفظة بدأت بي (ذ)، (ذي)، فإنها تعني إلهاً، هو القمر أو عثتر. فنحن أمام ثالوث سماوي، يمثل عقيدة الجاهليين في الألوهية، كما يمثل عقيدة الساميين عموماً. والثالوث السماوي هو نواة الألوهية عند جميع الساميين، ومنه انبثقت عقيدة التوحيد فيما بعد.

---

[1] تفسير الطبري (٢٣/ ٦٧ وما بعدها)، روح المعاني (٢٣/ ١٣٥).
[2] تفسير الطبري (٢٣/ ٦٩).
[3] المصدر نفسه.
[4] تفسير الطبري (٢٣/ ٦٩).

وعثتر، هو (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم[1]. وقد ذهب المفسرون إلى أن العرب كانت تسمي الثريا النجم. وذكر بعض منهم أن النجم الثاقب هو زحل. والثاقب الذي قد ارتفع على النجوم[2]. وذكر بعض آخر أن النجم الثاقب هو الجدي[3]. وأقسم في موضع آخر من القرآن الكريم بـ (النجم)[4]. وقد ذهب المفسرون إلى أن النجم الثريا[5]، ونحن لا يهمنا هنا اختلاف علماء التفسير في تثبيت المراد من النجم، إنما يهمنا أن المراد به نجم من النجوم. فنكون أمام ثالوث معبود: هو الشمس والقمر والنجم الثاقب، الذي هو (عثتر) في نصوص العرب الجنوبيين.

وقد ذكر أن العرب تعبدت للشمس وللقمر، وأن طائفة منها، تعبدت لكواكب أخرى مثل الشعرى، حيث تعبدت لها خزاعة وقيس، ومثل (سهيل)، حيث تعبدت لها (طيء). و(عطارد)، وقد تعبّد له (بنو أسد). و(الأسد)، وقد تعبد له بعض قريش. و(الدبران)، وقد تعبدت له (طسم). و(الزهرة)، وقد تعبد لها أكثر العرب. و(زحل)، وقد تعبد له بعض أهل مكة. حتى إن من الباحثين من زعم أن (الكعبة) كانت معبداً لزحل في بادئ الأمر. وتعبد للمشتري قوم من لخم وجذام[6].

ونجد في الكتابات العربية الجنوبية جملة: (ودم ابم)، أي (ودٌ أب) و(أبم ودم)، أي (أبٌ ود). كما نجد جملة: (ولد ود) و(اولد ود) (اولد هو ود)، أي (أولاد ود) بمعنى (شعب معين). وتعبر الجمل الأولى عن معنى أن الإلَه (ود)، هو إله شفيق رحيم عطوف على الإنسان، هو بالنسبة له بمنزلة الأب من الابن. فهو (أب) للإنسان لا بالمعنى الحقيقي بالطبع، أي بمعنى أن الإنسان انحدر من صلبه، بل بالمعنى المجازي الذي أشرت اليه. وبهذا المعنى نفسر جملة: (أولاد ودّ) تعبيراً عن معنى (شعب

---

[1] سورة الطارق، رقم ٨٦، الآية ٣.
[2] تفسير الطبري (٣٠/ ٩١).
[3] تفسير القرطبي، الجامع (٢٠/ ١).
[4] سورة النجم، الرقم ٥٣، الآية ١.
[5] تفسير الطبري (٢٧/ ٢٤).
[6] Johann Ernest Osiander, Studien über die Varislamische Religion der Araber, in ZDMG., 1853, S. 463-505, Grohmann, S. 81.

معين). فالإله (ود) هو أب هذا الشعب يحميه ويدافع عنه ويعطف عليه. وبهذا المعنى وردت أيضاً جملة (ولد عم) عند القتبانيين و(ولد المقه) عند السبئيين. فـ (عم) الذي هو (القمر) في لغة القتبانين هو بمنزلة الأب لشعبه، وكذلك (المقه) الذي هو (القمر) في لهجة سبأ[١].

وقد عبرّ عن الشمس بلفظة (هـ الت)، الى (الإلهة) في النصوص العربية الشمالية[٢]. وقيل لها (نكرح) في النصوص المعينية، و(ذت حمم) (ذات حمم) (ذات حميم) في النصوص السبئية، كما قيل لها (ذت بعدن) و(ذت غضرن)، و(ذت برن)، و(ذت ظهرن) في هذه النصوص كذلك، وقيل لها (ذت صنتم) و(ذت صهرن) و(ذت رحبن) في النصوص القتبانية[٣]. ومن الممكن التعرف على بعض هذه الأسماء التي أريد بها الشمس، فـ (ذت حمم)، بمعنى (ذات حمم)، و(ذات حميم). وقد وردت لفظة (حميم) و(يحموم) في القرآن الكريم[٤]. والحميم الحار الشديد الحرارة، المتقد من شده الحر الساخن الشديد السخونة[٥]. وقد ذكر علماء التفسير أن (اليحموم)، دخان حميم، ودخان شديد السواد يخرج من نار جهنم[٦]. فمعنى (ذت حمم)، إذن، الإلهة ذات الحرارة الشديدة المتقدة المهلكة، التي تلفح وتحرق. والشمس، نفسها حارة، ملتهبة متقدة. لذلك يكون الناس قد أخذوا صفتها هذه منها فأطلقوها عليها، وصاروا ينعتونها بها، ويخيفون الناس منها، بانتقامها منهم إن خالفوا أمرها وعملوا عملاً يثير غضبها عليهم.

ويقابل هذه الإلهة ذات الحميم، الإله (الـ حمون) (حمون) و(بعل حمون) عند الساميين الشماليين، فهذا الإلَه الذكر عند الساميين الشماليين، بسبب أن لفظة (الشمس)، نفسها مذكرة عندهم، هو ذو حميم وحما، أي ذو سخونة وحماوة وشدة حرارة[٧]، وقد نعت عندهم بالنعت الذيَ نهيّ به عند العرب

---

1 Handbuch, I, S. 217, D. Nielsen, Der Sabäische Gott Ilmukah, S. 61.
2 Handbuch, I, S. 224.
3 Handbuch, I, S. 224, 260.

4 الواقعة، الرقم ٥٦، الآية ٤٣.
5 تاج العروس (٧/ ٢٥٩ وما بعدها)، (حمم).
6 تفسير الطبري (٢٧/ ١١٠ وما بعدها).

7 Handbuch, I, S. 225.

الجنوبيين. فهو إله ذو حرارة مفزعة، وحمم لا يوصف. وقد استمد هذا الوصف من الطبيعة بالطبع. فالشمس مبعث الحرارة على الأرض، يدرك الإنسان حرارته في كل مكان. فهي اذن (ذت حمم) حقاً.

وعرفت الشمس بـ (اثرت) في كتابات قتبانية، ومعناها: (اللامعة)، أو الشديدة اللمعان بعبارة أصح والمتوهجة. فهي في معنى (ذت حمم). وعرفت أيضاً بـ (ذت اثر)، (ذات اثر)، وبـ (ربت اثر)، (ربت أثر)[١]. ونجد في النصوص النبطية الإلهة الشمس وقد عرفت بـ (ربت الاثر) بمعنى ربة التوهج، مما يدل على أن (اثرت)، و(ذت اثر)، و(ربت أثر)، في القتبانية هذه الإلهة للشمس[٢].

وقد يعبر عن (الشمس) بـ (الفرس). والفرس من الحيوانات التي قدسها قدماء الساميين. وقد كان العرب الجنوبيون يتقدمون بتماثيل الخيل، تقرباً إلى الآلهة. ومنها الإلهة (ذت بعدن) (ذات البعد) أي البعيدة، وهي الشمس[٣].

واما (عثتر)، الذي هو (الزهرة)، فيرد اسمه في نصوص عربية جنوبية كثيرة، ولاسمه هذا صلة بأسماء بعض الجاهليين الواردة إلينا، مثل (أوس عثت) بمعنى (عطية عثتر) و(لحيعثت) (لحى عثت)[٤].

وفي الكتابات العربية الجنوبية أسماء يظن أنها تخص الإله (عثتر). منها: (ذ قبضم)، و(ذ يهرق)، و(ذجفت) و(ذ جرب)، و(جرب)، و(متب نطين)، و(متب قبت)، و(مت مضجب)، و(يهر) و(بر) وغيرها[٥].

وقد عرف (عثتر) بـ (الشارق) في الكتابات، فورد (عثتر شرقن) أي (عثتر الشارق) وعرف بـ (شرقن) فقط. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن المراد من (شرقن) بمعنى الطالع من الشرق، أو (عثتر المشرق). وهو تفسير رده بعض آخر من الباحثين، إذ رأوا أن (شرقن)، بمعنى

---

[1] Handbuch, I, S. 226.
[2] Handbuch, I, S. 226.
[3] Handbuch, I, S. 227.
[4] Handbuch, I, S. 228.
[5] Handbuch, I, S. 228.

(الشارق). وهي لفظة ترد في اللهجات العربية الشمالية[1]. وقد سبق لي أن بينت رأي المفسرين في (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم، وقلت باحتمال المراد به هذا الكوكب، وإن ذهبوا إلى انه الثريا أو زحل أو الجدي. و(الشارق) صنم من أصنام الجاهليين تسمى به عدد من أهل الجاهلية تسموا بـ (عبد الشارق)[2] قد يكون رمزاً لهذا الإلَه.

وورد في بعض كتابات المسند: (ذ غريم)، و(عثتر ذ غريم) أي (الغارب) و(عثتر الغارب). ومعنى ذلك (نجمة الغروب)، أو (نجمة المساء)، و(كوكب المساء)، في مقابل (نجمة الصباح) و(كوكب الصباح)[3].

وورد (عثتر نورو)، و(نورو)، أي (عثتر نور)، (نور)[4]. نور صفة من صفات الله في الإسلام. ﴿الله نور السماوات والأرض. مثل نوره﴾. ولفظة (نورو)، هي نعت من نعوت (عثتر). وورد (سحرن)، بمعنى السحر. والسحر، قبيل الصبح وآخر الليل، فيراد بذلك (كوكب السحر)، أي الكوكب الذي يطلع عند طلوع السحر. كما ورد (متب مطين)، أي (الحامل للرطوبة)، وورد (عثتر قهحم)، أي (عثتر القدير) و(عثتر القادر) و(القاهر)، و(سمعم)، أي (السميع)، و(نوبم) و(نبعن)[5] و(يغل) (يغلن) بمعنى المدمر، والمنتقم. وقد ورد هذا النعت في أحجار القبور بصورة خاصة. وذلك لتذكر من يحاول تغيير الحجر أو أخذه من موضعه أو تدميره أو إلحاق أذى به، أو الاستفادة منه في أغراض أخرى، بأنه في حماية إله قدير منتقم[6].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الإله (رضى) (رضو) الذي يرد في النصوص الثمودية والصفوية، هو الإلَه (عثتر). وهو صنم ذكره أهل الأخبار، لكنهم لم يذكروا شيئاً عن صلته بالكواكب ولا عن المعبود الذي يمثله[7].

---

1 Handbuch, I, S. 228, Fell, in ZDMG., 54, (1900), S. 231-259.

2 تاج العروس (٦/ ٣٩٣)، (شرق).

3 Arabien,S. 245.

4 سورة النور، الآية ٣٥، تفسير الطبري (١٨/ ١٠٤)، (١٨/ ١٤٤).

5 Rep. Epigr. 4194.

6 Arabien, S. 245.

7 Handbuch, I, S. 229.

وقد ورد في الأخبار المتعلقة بـ (الرها) أن أهل هذه المدينة، كانوا يعبدون الشمس ويعتقدون بوجود إلَه يطلع قبلها اسمه (أزيزوس) Azizos، وإلَه يظهر بعدها يسمى (مونيموس) Monimos. وذهب الباحثون الى ان (أزيزوس)، هو (عزيز). وهو نجم الصباح، ويطلع قبل طلوع الشمس. وبمثل (رضى) (رضو)، و(عثتر). ويرد اسم (رضى) في الكتابات التدمرية كذلك[١]. و(عزيز) (العزيز) من صفات الله في الإسلام.

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن الصنم المنحوت على شكل طفل هو رمز (عثتر)، أي (رضى) (رضو)، و(عزيز). وقد حفر على شكل طفل عاري الجسم في الكتابات التدمرية. أما الشمس والقمر، فقد مثلا إنسانين كاملين. وفي هدا التصور للآلهة في الديانات الفطرية، التي استمدت ادراكها لِكُنه الآلهة عن مظاهر الطبيعة[٢].

ولعل تصور الجاهليين الإله (رضو) على هيئة طفل، هو الذي يحل لنا المشكلة الواردة في أخبار (نيلوس) Nilus عن تقديم العرب Saracens قرابين أطفالاً لكوكب الصباح. ذكر (نيلوس) أن العرب سرقوا ابنه الجميل الصغير (ثيودولس) Théodulus، وقرروا تقديمه قرباناً لكوكب الصباح. وقد قضى الطفل ليلة تعسة صعبة، فلما طلع الكوكب، وحان وقت تقريب الطفل قرباناً له، نام مختطفوه، ولم يستيقظوا إلاّ وقد طلعت الشمس، وفات وقت القربان، وبذلك نجا الطفل من الهلاك[٣]. وقد تفسر جملة «إننا نقدم لك قرباً يشبهك» الواردة في دعاء عثر على نصه في (حران) قصة تقديم الأطفال الجميلة قرابين الى هذا الإله[٤].

وقد أشار كتاب يونان إلى تعبد العرب إلى الشمس والقمر وكوكب الصباح، وهي أجرام سماوية تراها العين. ذاكرين أن العرب لا يتعبدون لآلهة روحية لا يبصرونها بأعينهم. ولهذا تعبدوا لهذه الأجرام المادية وللأحجار[٥].

---

[1] Handbuch, I, S. 229.
[2] Handbuch, I, S. 213.
[3] Handbuch, I, S. 203, Nili Opera, Tomus, 79, 1865, in Migne, Patrologia, Series Graeaca.
[4] Handbuch, I, S. 231.
[5] المصدر نفسه.

وأما (مونيموس) Monimos، فإنه (منعم). و(منعم) من صفات الله في الإسلام. فالله هو (المنعم) المتفضل على عباده العزيز المقتدر.

وذهب بعض الباحثين إلى أن الصنم (ذو الخلصة) المذكور في كتب أهل الأخبار، والذي كان له بيت يدعى: (الكعبة اليمانية)، ويقال له (الكعبة الشامية) أيضاً، والذي هدم في الإسلام، هو تعبير آخر عن الصنم (عثتر)، أي الإلَه المكون مع القمر والشمس الثالوث[1].

ويظن أن (ملك) اسم آخر من أسماء (عثتر). وقد تسمى به رجل عرف بـ (عبد ملك). كما ورد اسم (عبد ملكا) في النصوص النبطية والإرمية، بمعنى (عبد الملك)[2]. ويرد اسم (ملك ال) (ملك ايل) كثيراً في الكتابات الثمودية. كما ورد في كتابة من الكتابات القتبانية (مختن ملكن)[3]. وقد ظن أن لفظة (ملك) تعني ملكاً، أي رئيس حكومة ملكية، فترجمت جملة (مختن ملكن) بـ (مختن الملك) أي ملك قتبان. غير أن هذه الترجمة وإن كانت ترجمة مقبولة، إلاّ إنها غير دقيقة. ولو ترجمت لفظة (ملكن) بمعنى (الملك) على أنه اسم الِه لكانت الترجمة أحق وأصح. فنحن نجد النص القتباني الذي ورد فيه جملة (مختن ملكن) يقول: «بنى الملك ورم معبد ود وأثرت ومختن ملكن»، أي «بنى الملك ورمّ معبد ود وأثرت ومختن الملك»، ولو ترجمناها على هذه للصورة: «بنى الملك ورم معبد ود وأثرت ومعبد الإلَه الملك» كانت الترجمة أنسب وأقبل، ويجب أن نتذكر ان الله هو: الملك، في الإسلام، وأن (عبد الملك)، وهو من أسماء المسلمين كذلك يعني: عبد الله. وأن (الملكوت) من الملك مختصة بملك الله. ورد في القرآن: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾[4].

ومن الممكن فهم الصلة من لفظة (ملك) التي تعني إله، ومن لفظة (ملك) المالك على الأرض، أي الملك الدنيوي. فالإلَه مالك، والملك مالك أيضاً، مالك شعبه. ومن هنا فلا غرابة اذا ما رأينا عقيدة تقديس الملوك عند الشعوب

---

[1] Handbuch, I, S. 232.
[2] Handbuch, I, S. 232.
[3] Handbuch, I, S. 2206.
[4] تاج العروس (٧/ ١٨١)، (ملك).

القديمة، واعتبار بعضها ملوكها من نسل الآلهة. فالآلهة قوة خارقة، والملوك قوة مسيطرة مهيمنة، تفعل في القديم ما تشاء بغير حساب، وهي ألسنة الآلهة الناطقة على الأرض، فلا بد وأن تكون للآلهة إذن صلة بالملوك، ولا بد وأن يكون لملوك الأرض نسب وأن تكون لهم قرابة بالآلهة. وقد فسر بعض الباحثين جملة: (ولد ود)، التي نعت بها أحد ملوك قتبان، تفسيراً بهذا المعنى، تفسيراً يعبر عن اعتقاد القوم، بأن ملوكهم هم من نسل الإلَه (ود)[1]. ولكني أرى أننا لو فسرنا لفظة (ولد) بالمعنى المجازي، أي ولد الإله ود على سبيل المجاز، بمعنى إن الإله منه بمنزلة الوالد من الولد، في العطف والود، فإن هذا التفسير يكون مقبولاً أكثر من تفسير الولد المتسلسل من صلب الإلَه ود.

الآلهة:

توصلنا من دراساتنا المتقدمة، إلى أن الآلهة كالبشر ذكوراً وإناثاً. وتوصلنا منها إلى أن القمر، هو مذكر عند جميع العرب على اختلاف لهجاتهم، وأما (الشمس)، فهي أنثى عندهم. وأما (النجم)، الذي هو (عثتر)، فهو ولد، عند العرب الجنوبيين. وعلى ذلك فنحن أمام ثالوث سماوي يتألف من إلآهين ذكرين ومن إلاهة أنثى.

وقد عجزنا على الاهتداء إلى كيفية ظهور هذا الثالوث. أو العائلة الصغيرة المختارة المكونة من ذكرين وأنثى. لأننا لم نعثر على نص جاهلي أو غير جاهلي يتحدث عن كيفية ظهوره. وعجزنا عن التوصل إلى علاقة أعضاء هذا الثالوث بعضهم ببعض، وذلك لسبب مماثل، هو عدم وجود نص لدينا يشرح لنا هذه العلاقة ولم نتمكن من العثور على أي مورد يشرح لنا كيفية ظهور هذه الآلهة، ولا سيما الإلَه (عثتر) الذي يعدّ ابناً للقمر وللشمس.

ولم نعثر ويا للأسف على نصوص جاهلية فيها بعض الشيء عن كيفية التقاء القمر بالشمس، وفي كيفية طلوع (النجم) (عثتر). فبينما تجد في اللغات اليونانية والهندية واللاتينية تعابير عن التقاء الشمس بالقمر، فيها معنى النكاح،

---

[1] Handbuch, I, S. 233.

نجد أنفسنا قد عجزنا عن الحصول على مثل هذه المصطلحات في النصوص الجاهلية، ولهذا لم نتمكن من تكوين رأي عن تصور الصلة التي كان يراها الجاهليون بين الشمس والقمر. وفي اليونانية والهندية وأساطير الشعوب الأخرى، أن القمر اقترن بالشمس، وتزوج بها، وتغنت بذلك الزواج[١].

وبالنظر لوجود الإلَه الذكر والإلهة الأنثى في نصوص المسند، وفي مؤلفات أهل الأخبار، فلا يستبعد احتمال مجيء يوم قد نعثر فيه على نصوص قد تتعرض إلى أسطورة زواج القمر بالشمس. وفي عربيتنا لفظة (اقتران) نطلقها على اقتران الشمس بالقمر وعلى اقتران الكواكب بعضها ببعض، وترد في كتب النجوم والأنواء. وفي هذه اللفظة معنى الازدواج.

إن هذه الأسطورة التي جعلت من الأجرام السماوية آلهة، وحصرت الألوهية في ثلاثة أجرام منها في الغالب ثم زوجتها وأولدتها، حولت هذا الزواج إلى زواج حقيقي سماوي يشبه زواج الإنسان على سطح الأرض. زواج تكوّن من ذكر وأنثى، من أب وأم، أنتج ولداً عند العرب الجنوبيين، وولدين عند شعوب أخرى غير عربية هما كوكبا الصباح والمساء، أو بناتاً هي الملائكة أو الجن عند فريق من الجاهليين.

ونجد الإلَه (القمر) يلعب دوراً كبيراً في الأساطير الدينية عند الجاهليين. دوراً يتناسب مع مقامه باعتباره رجلاً بعلاً أي زوجاً، والزوج هو (البعل)، والرب والسيد وصاحب الكلمة على زوجه وأهله عند العرب. وهو القوي ذو الحق، وعلى الزوجة حق الطاعة والخضوع له. وبناءً علي هذه النظرية جعل الإلَه القمر صاحب الحول والصول والقوة في عقيدة أهل الجاهلية في الأرباب. ومن هذا الإلَه القوي الجبار، جاء (الله) بعد أن تحول الثالوث عند بعض الجاهليين إلى (واحد)، واستخلصوا منه عبادة (الله).

وقد عرف القمر بـ (ثور). ولعل ذلك بسبب قرنيه اللذين يذكران بالهلال. دعي بهذه التسمية، أي (ثور) في الكتابات[٢]. وقد رمز إلى الإلَه القمر بـ (ثور) عند شعوب سامية قديمة أخرى[٣].

---

[1] Handbuch, I, S. 206, ff.
[2] Glaser 1546, Wiever Musem 5.
[3] Handbuch, I, S. 214, D. Nielsen, Altarabische Mondreligion, S. 110.

ونظراً لأن القمر هو الإلَه الذكر، صار بمنزلة الأب. فدعي بـ (ابم)، أي (أب). ونعت بمحب، فقيل له (ودم) (ود)، لأنه يحب عبيده ويشفق عليهم. وهو (كهلن)، أي القادر والقدير، وهو (حكم)، أي الحاكم والحكيم، وهو (سمعم)، أي السامع والسميع، وهو (علم)، أي العالم والعليم، والبصير المبصر، وهو (نهى)، أي الناهي[1]، وهو (صدق) الصادق الصديق المتعالي المنعم الكريم إلى غير ذلك من نعوت عرف بها ورمز بها اليه في النصوص.

ويجب أن ننتبه إلى أن الكتابات الجاهلية وكذلك أخبار أهل الأخبار، قد نصّا على اسم الإلهة الشمس، فدعوها باسمها، أي الشمس. أما القمر، فلا نجد لاسمه الخاص ذكراً يتناسب مع مقامه. نعم ذكر بـ (شهر) و(سين) في النصوص العربية الجنوبية. و(شهر) القمر في العربيات الجنوبية، ولا زال الناس يسمونه بهذه التسمية في جنوبي جزيرة العرب. لكننا نجد أسماءه المأخوذة من النعوت، أي من صفاته تطغى عليه. فهو (ود) في الغالب في النصوص المعينية. ويظن من لا علم عميق له بالعربيات الجنوبية، أنه اسم إلهَ خاص، بينما هو اسم من أسماء عديدة للإلَه القمر عند شعب معين، وهو (المقه)، أي المنير والنور عند السبئيين أي صفة للقمر. وهكذا قل عن باقي أسمائه، فهي صفات له في الغالب، لا اسم علم خاص به، كما في حالة الشمس.

ونحن نجد هذه الظاهرة في روايات أهل الأخبار أيضاً. فبينما تنص أخبار أهل الأخبار على تعبد بعض العرب للشمس، وعلى مخاطبتهم لها بـ (الإلاهة) وبـ (لاهة)[2]، وعلى تعبد بعضهم لزحل أو للمشتري أو لغيرهما من الأجرام السماوية كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر، لا نجد للقمر ذكراً في أخبار أهل الأخبار. فلم يشيروا إلى اسمه ولا إلى تعبد الجاهليين له، حتى ليذهب الظن بعد تتبع جميع ما ورد في تلك الأخبار واستقصاءها استقصاءً تاماً أن الجاهليين لم يعرفوا عبادة القمر. والظاهر أن أهل الأخبار كانوا في جهل من عبادة الجاهليين للقمر، بسبب ما شاهدوه من تعبد أهل مكة وغيرهم وكذلك القبائل إلى الأصنام وتقربهم

---

[1] Handbuch, I. S. 215, D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriften, S. 15.

[2] ابن الأجدابي (٧٩).

إليها، وقولهم إنها تقربهم إلى الله، وبسبب نص القرآن الكريم على تعبد الجاهليين وتقربهم للأصنام والأوثان. فذهبوا إلى أنهم كانوا مجرد عبدة أوثان ولم يفطنوا إلى أنهم اتخذوا الأصنام واسطة وشفيعة للآلهة التي هي أجرام سماوية في الأصل. أو لأن أهل الجاهلية القريبين من الإسلام، كانوا قد ابتعدوا عن عبادة الكواكب ولم يعودوا يذكرونها ذكر أجدادهم لها، واختصروا عبادتها، بأن جعلوا من الثالوث إلهاً واحداً، هو (الله). فتقربوا اليه، وعكفوا يتقربون اليه بالتقرب. إلى الأصنام والأوثان. وذلك باتخاذهم إياها رموزاً مشخصة وممثلة للإلَه على الأرض. فكان لكل قبيلة صنم يقربهم في زعمهم إلى الله.

واذا أردنا تلخيص ما توصلنا اليه عن آلهة العرب الجنوبيين، قلنا إنهم تعبدوا كما ذكرنا لثالوث سماوي تألّف من القمر والشمس ومن عثتر، وهو الزهرة في رأي معظم الباحثين. وقد عرف القمر بـ (ود) عند المعينيين، وبـ (المقه) عند السبئيين، وبـ (عم) عند قتبان، وبـ (سن) (سين) عند حضرموت، وبـ (ود) عند أوسان. وعرفت الشمس بـ (نكرح) عند المعينيين، وبـ (شمس) عند السبئيين، وبـ (اثرت) (اثيرت) عند القتبانيين، وبـ (شمس) عند أهل حضرموت وأوسان. وعرف (عثتر) بـ (عثتر) عند المعينيين والسبئيين وعند قتبان وأهل حضرموت والأوسانيين[١].

وقد رمز الفن العربي الجنوبي إلى هذا الثالوث السماوي المقدس برموز. فرمز إلى القمر بهلال نحت أو نقش على الأحجار والأخشاب والمعادن. والهلال، يشير بالطبع إلى مطلع القمر في أول الشهر القمري. كما اشير اليه برأس ثور ذي قرنين. أما الشمس، فقد صورت قرصاً أو دائرة، أو كتلة أو هالة، والقرص، صورة طبيعية لقرص الشمس، التي تظهر في السماء قرصاً وهاجاً يبعث الحرارة والنور. وأما الزهرة، فرمز إليها بصورة نجمة في النقوش العربية الجنوبية وبثمانية خيوط اشعاعية في النصوص البابلية[٢]. وهي ذكر وولد عند العرب الجنوبيين.

---

[1] A. Jamme, La Religion Sudarabe Préislamique, in M. Brillant et R. Aigrain, Histoire des Religions, IV, Paris, 1956, 239-307, G. Ryckmans, Les Religions Arabes Préislamiques; Bibliothèque de Muséum, 26, Louvian 1951, 25-64, G. Ryckmans, De Maangod in de Voorislami.

[2] Handbuch, I, S. 201, Grohmann, Göttersympole, S. 37-44, H. Primy, Altorientalische Symbolik, Berlin, 1915, S. 75, 76, 142.

وقد هدم الإسلام عبادة الكواكب، وحرم السجود للشمس وللقمر، والصلاة لهما، وحاول اجتثاث كل ما له صلة بتلك للعبادة، فلم يبقَ اليوم من العرب من يتعبد للثالوث السماوي المقدس. ولكننا لا نزال نرى بعض العوام يغضبون إذا سبّ أحدهم الشمس أو القمر، وبتقرب الأطفال إلى الشمس بأسنانهم التي يخلعونها لتعطيهم أسنان غزال، أي أسناناً جميلة بيضاء، إلى غير ذلك من أوابد يعرفها الأعراب.

وفي القرآن الكريم: ﴿ومن آياته الليل والنهار. والشمس والقمر. لا تسجدوا للشمس ولا للقمر. واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾[١]. ﴿فله فاسجدوا وإياه فاعبدوا دونهما، فإنه إن شاء طمس ضوءهما فترككم حيارى في ظلمة لا تهتدون سبيلاً ولا تبصرون شيئاً﴾[٢]. وقد خاطب الله قريشاً وغيرهم بذلك، مما يدل على أنهم كانوا يسجدون للشمس والقمر. ولعلهم كانوا يفعلون ذلك عند الشروق، وعند الغروب. وقد ذكر (ابن كثير) في تفسيره الآية المذكورة، ما يأتي: «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون». أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به[٣].

والسجود الخضوع، ومنه سجود الصلاة، وهو وضع الجبهة على الأرض، والانحناء، وسجد طأطأ رأسه. وكان النصارى يسجدون لأحبارهم، أيْ سادتهم من رجال دينهم. و(المسجد) من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين. وهو البيت الذي يسجد فيه، وكل موضع يتعبد فيه، فهو مسجد[٤].

صفات الآلهة:

ومعظم أسماء الآلهة هو كما سبق أنْ ذكرت صفات في الأصل، استعملت

---

1 فصلت، رقم ٤١، الآية ٣٧.
2 تفسير الطبري (٢٤/ ٧٧).
3 تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٢).
4 قال حميد بن ثور:
فضـــول أزمتهـــا أســـجدت سجود النصارى لأحبارهـــا
تاج العروس (٢/ ٣٧١)، (سجد).

استعمال الأسماء الأعلام، وهي كثيرة يتبين من دراستها أن الآلهة كالانسان، تغضب وترضى، تحب وتبغض، قوية شديدة، رؤوفة رحيمة شفيقة، اذا رضيت عن إنسان أسعدته في هذه الدنيا، وإن غضبت عليه أهلكته، سميعة بصيرة حكيمة حليمة. باقية خالدة خلود الدهر، بينما الإنسان هالك.

ومن النعوت الواردة في نصوص المسند: (رحم)، أي (رحيم)، فالآلهة رحيمة بعبادها، تغفر ذنوبهم وتصفح عن سيئاتهم، وهي (حليمة) (حلم)، سميعة (سمع)، قديمة (كهلن)، تحمي عبادها حماية الأب لأبنائه (ابحمى)، ترضى عنهم رضاء الأب عن أولاده (أب رضو). شفيقة بهم شفقة الأب بأبنائه (أب شفق)، وتهتم بهم (أب شعر). وهي فخورة (ايل فخر) (الفخر)، عالية سيدة العالم (ال تعلى) (ايل ــ تعلى)، (ايل تعالى)، و(بعل) (بعلت)[1].

ومن الصفات والنعوت التي أطلقتها النصوص الثمودية على الآلهة: (عم)، بمعنى رحيم ورؤوف. و(سمع)، بمعنى (سميع)، و(رم) بمعنى العظيم، و(الرامي)، والكبير. و(ابتر) (أبتر) بالمعنى المفهوم من اللفظة في عربيتنا، اي، ليس له ولد[2]. ولهذه الصفة أهمية كبيرة بالنسبة لدارس الحياة الدينية وتطور فكرة الألوهية عند الجاهليين، لأنها تشير إلى أن صاحب النص الذي خاطب إلهه يقوله: (ه أل ه ابتر)، (ه إله ابتر)، بمعنى (فيا الله الأبتر)، أي الإلَه الذي لم يلد ولا ولد له، كان يعتقد أن إلهه لم يلد أحداً، فهو فرد واحد أحد. وقد وردت لفظة (أبتر) في نص ختم بهذه الجملة: (ه ال ه ابتر بك سرور لن)[3]، اي: (فيا إلاه أبتر بك سرور لنا)، أو بتعبير أوضح: (فيا إلهي أو إلاهنا الذي ليس له ولد، بك نسرّ)، أو (فيا إلهنا أبتر بك سرور لنا) أو (أنت سرور لنا).

والآلهة تساعد الناس وتعاونهم وتغيثهم. هذا نص ثمودي كتبه رجل من قوم ثمود توسل فيه الى إلهه أن يرسل المسرات (ميسر)، إلى من نزلت بهم

---

[1] Arabien, 246.
[2] Hu 475, JSA 302, 305, 306, H. Grimme, s. 66.
[3] السطر الرابع من النص المذكور.

الدواهي من الناس. وأن يعاون العاملين. (ذ اتا يعمل)[1]. وهذا نص آخر، كتبه شخص آخر، وجهه إلى الإلَه (رضو)، يقول فيه: (ه رضو ات عون عمل)[2]. أي (يا رضو امنح العون لمن يعمل)، أو (يا إلهي رضو العون للعامل).

والآلهة ضياء للناس، تضيء لهم سواء السبيل، تمنحهم نعمة الرؤية وترشدهم إلى النور. هنا نص يقول: (إلى ن ا م ت ض ي ل ن)[3]. فهو يطلب من الإله أو من المعبد، أن يضيء لكاتبي النص السبيل، وأن ينقذهم من الغفوة التي أصيبوا بها، ليتجلى لهم الحق. وفي نص آخر: «بك ري نور تمت حيت»[4]، ومعناه «بك رأينا النور. وتمت الحياة»، أو «بك نور. ضياء.. حياة»، أو ما شابه ذلك. فالإلَه هو نور لهذه الحياة، وضياء للناس.

والله عالم بكل شيء، ذو المعرفة والعلم. وقد وردت صفة (ه ع ر ف) (ها عارف) (ها عرف) أي العارف في نص وسم بـ JSA 568 [5]. وفي نص آخر، وسم بـ Hu 626 [6]. وهو العالم المحيط بكل شيء، وقد عبر عن هذه الصفة بلفظة (حصي)، و(أحصى) بمعنى أحاط وأحصى كل شيء عدداً[7]، فالله محيط بكل شيء عالم لا يخفي على علمه شيء.

ووصفت الآلهة في النصوص الثمودية بأوصاف أخرى، مثل (عبر) بمعنى (القدير والقوي والمعتز، و(ذ عبر)، (ذو عبر) بمعنى ذو الحول والطول، وذو القوة والقدرة. و(ذبر)، وهي بهذا المعنى أيضاً[8]. وهو (العوذ)، (عوذ)، والملجأ لكل إنسان[9]. وهو (العلي)، وقد وردت جملة (عل رضو)، بمعنى (أعل رضو)، وهي جملة تذكرنا بقول (أبو سفيان)

---

[1] Hu 643/6, JSA 409, 504, Grimme, S. 33-34.
[2] Hu 643/6, Grimme 33.
[3] Grimme, S. 35, 41.
[4] Grimme, S. 41.
[5] Grimme, S. 37.
[6] Grimme, S. 42.
[7] تاج العروس (١٠/ ٩١).
[8] Grimme, S. 44.
[9] Grimme, S. 44.

يوم معركة (أحد): «اعلُ هبل، اعلُ هبل»[1]. وإني أرجح أن لفظة (عل) في هذا النص، تعني (على)، أي حرف جر، فيكون المعنى (على رضو الملجأ)، و(على رضو المعولّ).

ولم أعثر في النصوص الجاهلية على نعت يشير إلى استخفاف أو حطة بالآلهة. فلم أجد إلهاً نعت فيها باللؤم أو بالسرقة، أو بالاعتداء على الأعراض، أو رمي بالحسد، حسد الناس أو حسد أمثاله من الأرباب، كما لم أجد ما تجده في الأساطير اليونانية من وجود فروق بين الآلهة، وتباين بينها في المنزلة والمكانة، بحيث نجد آلهة كبيرة غنية، وآلهة ضعيفة فقيرة تحسد الأولى وتنقم عليها، وآلهة تسرق وتنهب لحاجتها إلى المال ولفقرها، ولم أجد فيها التخصص الذي نجده في الآلهة اليونانية، من وجود آلهة للبحار، وآلهة للهواء، وآلهة للحب، وآلهة للخمر، ونحو ذلك، وكل ما نجده عندهم، هو وجود آلهة شعوب وقبائل، مثل ود إلَه شعب معين، والمقه إلَه شعب سبأ، وهبل إلهَ قريش، وهكذا نشأت من الظروف المحلية التي عاش فيها الجاهليون.

ولا أستبعد وجود (ميثولوجيا) أي أساطير عند الجاهليين، تدور حول آلهتهم، فقد تحدثت عن رأي بعضهم في (الشعرى)، ولكني أستبعد وجود أساطير دينية معقدة عندهم على شاكلة الأساطير اليونانية، أو الأساطير المصرية أو الهندية، لما بين الظروف المحيطة بالجاهليين وبين الشعوب المذكورة من فروق. والأساطير هي من حاصل المجتمع والظروف المتحكمة في الإنسان.

وإذا وجدنا آلهة أهل الجاهلية على هذا النحو من الصفات المذكورة، حساسة ذات حسّ مرهف، تنفعل بسرعة، تغضب وترضى، فيجب أن نعرف أن هذه الصفات، تمثل خلق من أطلقها على أربابه، فأرباب الناس من صنعهم، هو الذي أوجد تلك الأصنام وسوّاها، فما دام هو موجدها، فلن تكون آلهته إلا على شاكلته، إنها صورة صادقة له.

الثواب والعقاب:

وما يفعله الإنسان من خير أو شر، سيكون ثوابه وجزاؤه في هذه الدنيا.

---

[1] Grimme, S. 44.

والآلهة، هي التي تثيب وتعاقب. تثيب المتقي المتعبد لها المتقرب إليها بالنذور وبالبر بمعابدها، فتعطيه مالاً وتبارك له في نفسه وفي أهله، وتعطيه ذرية صالحة ذكوراً. وتنجيه من البلايا والآفات ومن الأوبئة والأمراض، وترجعه سالماً معافى من الحروب، تشفي جروحه اذا جرح، وتغدق عليه بالنعم من غنائم الحرب. فهذا هو الثواب. ثواب في الدنيا وكفى.

اما العقوبة، ففي الدنيا وحدها أيضاً، وتكون بإنزال البلاء بمن يستحقه من الخارجين على أوامر الآلهة، المتجاسرين على حرمة المعابد، المارقين على النظام، المخالفين لسلوك المجتمع، المتجاوزين على حقوق غيرهم. ومن البلاء الأمراض، من عمى وعور، وإصابة عضو من أعضاء الجسم بعطب، والأوبئة. ونجد في النصوص توسلات إلى الآلهة بأن تصيب من يغير النصوص المدونة الموضوعة شواخص على القبور، ومن يتطاول على حرمة المقابر، أو يدفن غريباً فيها بغير إذن، بالعمى والعور، لتجاوزه على حرمة القبور. وكان في روع أهل مكة وما حولها أن من يعرض للسائبة، أو لحرمات الله، أصابته عقوبة في الدنيا[1]. وعقوبات الدنيا أشد تخويفاً للاعرابي، وأكثر وقعاً في نفسه من العقوبات المؤجلة في للعالم الثاني، ثم إن معظم أهل الجاهلية لا يؤمنون باليوم الثاني، ولا بحشر وبعث ونشر.

ولولا الثواب والخوف من العقاب في هذه الدنيا، لما تقدم إنسان وهو فقير بائس، بأعز ما عنده إلى آلهته، على فقره وجوعه، ليقدَمه قربة إليه، وهو في أشد الحاجة له، ولما بنى الناس المعابد، وتقدموا إليها بالهدايا والنذور، ولما ذكر رجل آلهته وتبرك باسمها، ووضع ملكه في حمايتها ورعايتها، ولعمت الفوضى المجتمع، وأكل بعضهم بعضاً، ونهبوا المال. والخوف من العقوبة في هذه الدنيا، ساعد بالطبع كثيراً في ردع الأشرار عن غيهم، وفي منعهم من الاعتداء على الحرمات، كما ان الإثابة في هذه الدنيا حملتم على عمل الخير، وعلى التقرب إلى المعابد والعمل بأوامر رجال الدين، لتحقيق رضى الالهة، وفي نيل رضاها كسب مادي وربح ملموس أكيد في هذه الحياة.

ولولا الأمل في الرضى والثواب، والخوف من الآلهة، لما جعل الناس أنفسهم عبيداً إلى الآلهة، فسموا أنفسهم (عبد ود) و(امت العزى) (أمة العزى)،

---

[1] تفسير الطبري (٧/ ٥٩)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٣٦).

و(عبد يغوث)، و(عبدَ مناة)، وما شابه ذلك من أسماء دُعي أصحابها بها، أملاً في العمر الطويل، وفي التهرب من الموت. فقد كان الآباء والأمهات ينذرون نذراً، إنه إن ولد لهم مولود، أخدموه إلهاً من الآلهة، ودعوه عبداً له حتى يعيش. يفعل هذا الفعل من لا يعيش له مولود، ومن يولد له مولود لكنه لا يعمر طويلاً، بل يموت طفلاً أو في مقتبل العمر. فأمل الإنسان في أن يضع الإلَه حمايته ورعايته للمولود، دفعه على ركوب هذا المركب، لاقناع الآلهة بدفع الموت عن أبنائهم وحمايتهم منه.

ولدينا نصوص جاهلية عديدة، تخبر عن تلبية الآلهة توسلات المتعبدين لها، ووفائها لهم بما طلبوه منها. ففي نص ثمودي يخاطب إنسان ربه (منف) (مناف) بقوله: (سمعت منف)[1]، أي (سمعت ندائي. يا مناف)، أي استجبت لندائي، فوفيت لى يا إِلهي مناف. وقد دوّنه حمداً له وشكراً واعترافاً بفضله عليه، وفي نص آخر، يخبر صاحبه أنه برئ. وأن ربه شفاه مما ألم به من مرض. فيقول (برات)، أي (برأت)[2]، و(برتن)[3]، و(برتتن)[4]. وفي نص آخر يشكر إنسان ربه (صلم)[5]، ولم يرد في النص السبب الذي حمل صاحب النص على شكر إلهه (صلما)، لكننا نستطيع أن نحزر، فنقول، إنه طلب منه شيئاً، فصار على نحو ما أراد فشكر إلهه لذلك وفي نص آخر، توسل من شخص الى إلهه (صلم) لكي يعينه في الفاجعة التي فجع بها[6]. وفي نص آخر، توسل إلى إلهه لأن يمنحه: (خلود)، أي الخلود، بمعنى طول للعمر[7].

ومن التوسلات الجميلة التي وجهها الثموديون إلى آلهتهم، قول أحدهم: (بالهى امت)، (ب الهى اموت)، (بإلهي أموت)[8]، أو (في حب إلهي أموت)، أو (في إلهي أفنى) فهو يخاطب ربه. وقد ملأ قلبه العشق نحوه، العشق الإلهي الذي نقرأه في كتب المتصوفة، ونسمعه في تغاريدهم يخاطبون

---

[1] Hu. 421, Eu, 775, Hu 505/37, H. Grimme, S. 58.
[2] Hu. 504/34.
[3] Hu. 497.
[4] JSA 503.
[5] «صلم شكر»، JSA 17.
[6] Grimme, S. 34, 40.
[7] Grimme, S. 35, 41.
[8] Hu 255/20 Eu 250, Grimmes, S. 66.

بها الله. ونجد هذا الحب الإلهي والهروب إلى الله في نص ثمودي آخر، هذا نصه: (بم مرر. ب ل هـ ى جرت، ب ل هـ ى ا م ت لبب ذ هـ غ ث ت)[1]. أي (من مرّ. بإلهي استجرتُ. بإلهي أموت. أعطني لبك. يا مغيث)، وبعبارة أوضح: (من مر) و(مر) اسم صاحب النص، فهو يوجه نداءه إلى ربه (استجرتُ بإلهي. وبإلهي أموت. اسمع ندائي يا من يغيث)، أو (يا مغيث). ففي هذه التوسلات وأمثالها رقَة الشعور الديني، والحس المرهف الذي يكون عند كبار المتصوفة في مناجاتهم الله.

التطاول على الأرباب:

وفي روع أهل الجاهلية أن من سب الأرباب أو تطاول في كلامه عليها، نزلت به قارعة. فلما أسلم (ضمام بن ثعلبة) السعدي أو التميمي، وقدم على قومه، (فكان أول ما تكلم به، لن قال: بئست اللات والعزى. قالوا: مه ياضمام اتقِ البرص، اتقِ الجذام، اتقِ الجنونَ قال: إنهما والله ما يضران ولا ينفعان)[2]. ولما تحرش الرسول بالأصنام خوفه المشركون من أن يصاب بسوء، والى تخويفهم هذا أشير في القرآن الكريم: ﴿ويخوفونك بالذين من دونه، ومن يضلل الله، فما له من هاد﴾[3]. يعني «ويخوفونك (هؤلاء المشركون) يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء، ببراءتك منها وعيبك لها، والله كافيك ذلك»[4]. و«كانت زنيرة روميّة، فأسلمت فذهب بصرها، فقال المشركون: أعمتها اللات والعزى»، «وقالت قريش ما أذهب بصرها إلاّ اللات والعزى»[5].

---

1 Hu 528/27, Grimme, S. 67.

2 الاستيعاب (٢/ ٢٠٨)، (حاشية على الإصابة).

3 الزمر، ٢٩، الآية ٣٦.

4 تفسير الطبري (٢٤/ ٥)، تفسير القرطبي (١٥/ ٢٥٨).

5 الإصابة (٤/ ٣٠٥)، (رقم ٤٦٥).

الفصل السابع والستون

التقرب الى الآلـهة

وكما تقوم الصداقة بين الناس على أساس الود والتقرب والاتصال والتذكر بتقديم الهدايا والألطاف ونفائس الأشياء، كذلك تقوم الصلة بين الإنسان وآلهته على أساس من الود والصداقة أيضاً. وإذْ كانت الآلهة أقدر من الإنسان، كان من اللازم على البشر التودد إليها بشتى الطرق المعبرة عن معاني التقرب والتحبب والتعظيم، لتتذكره، فتمن عليه بالبركه والسعد وبخير ما يشتهيه ويرغب فيه.

والبشر عبيد لآلهتهم، فعليهم أن يؤدوا لها ما يجب أن يؤديه العبد لسيده. إن على العبد واجبات وفروضاً يجب أن يؤديها لصاحبه ومالكه، وعلى الإنسان كائناً ما كان أن يقوم بأداء ما فرض عليه لآلهته وأربابه في اوقات مكتوبة وفي المناسبات.

ولما كانت عقلية الإنسان القديم وعقلية كل بدائي تقوم على فهم الإدراك الحسي في الدرجة الأولى، كان للهدايا وللنذور والقرابينِ والشعائر العملية المقام الأول في دياناته، لأنها ناحية ملموسة تراها الأعين وتدركها الأبصار، وفيها تضحية تقنع المتدين التقي المتقرب بها إلى آلهته بأنه قد قدم شيئاً ثميناً لها، وأنها لذلك سترضى عنه حتماً، لأنه قد آثرها على نفسه فقدم إليها أعز الأشياء وأغلاها. إنها سترضى عنه، لأنه لم ينسها، ولم يغفل عنها، ولم يفتر حبه لها. وسترضى عنه كلما تذكرها وقام بأداء هذه الواجبات المفروضة أو المستحبة لها، كما يرضى الصديق عن صديقه أو السيد عن عبده، بإظهار الإخلاص وبالحرص على أداء الأعمال المرضية.

والدين عقيدة، أي (ايمان) Belief وعمل. والعمل أبين وأظهر وأقوى في الديانات القديمة من الإيمان، بسبب أن الايمان بالقلب، وهو لا يكون إلاّ بين المرء وربه، ولا يمكن لأحد الاطلاع على كنهه. أما العمل فهو تجسيد للإيمان وتعبير عنه بصورة عملية واقعية. وهو الناحية المحسوسة الظاهرة للتدين. ولا يفهم البدائي من الدين إلاّ مظاهره، التي ترتكز على تضحية وبذل مادي لإرضاء الآلهة، فعنده أنه متى بذل أعز ما يملكه في سبيل آلهته عدّ مؤمناً تقياً، ترضى عنه الآلهة، وألسنتها الناطقة بلسانها على الأرض: طبقة رجال الدين. ولهذا رأى بعض العلماء، أنه لدراسة دين من الأديان القديمة يجب الاهتمام بشعائره وبالأحكام التي فرضها على أتباعه، لأنها هي أساس ذلك الدين وجوهره[1].

لقد كانت ديانات الجاهليين ذات حدود ضيقة، آلهتها آلهة محلية، فالإله إما إلَه قبيلة وإما إلهَ موضع. وطبيعي أن تكون صلة الإنسان بإلهه متأثرة بدرجة تفكير ذلك الإنسان وبالشكل العام للمجتمع. والإله في نظرهم هو حامي القبيلة وحامي الموضع، وهو المدافع عنها وعنه في أيام السلم وفي أيام الحرب، ما دام الشعب مطيعاً له منفذاً لأوامره وأحكامه وللشعائر المرسومة التي يعرفها ويقررها ويقوم بتنفيذها رجال الدين.

ويكون إرضاء الآلهة بالتقرب إليها وبتنفيذ أوامرها التي تعينها وتثبتها خاصتها المختصة بين القبيلة أو الشعب، أعني كهّانها ورجال الدين الذين يعرفون أوامرها وأحكامها خير معرفة، وهم الذين يفسرونها ويأمرون بتنفيذها بين للناس. وقد يكون هذا التنفيذ في أيام أو أشهر ثابتة معينة تكون لها قدسية وحرمة خاصة، وقد يكون في مواسم. يرى الناس أن آلهتهم تكون في تلك الأوقات حاضرة متهيئة قريبة منهم تسمع شكاواهم وما عندهم من مطالب. ويكون هذا التنفيذ بصور مختلفة أهمها زيارة المعابد والتبرك بأصنامها، وتقديم النذور لها، وإيقاف الحبوس عليها، والحج إليها في الأوقات المفروضة وفي كل وقت آخر ممكن، وأداء الصدقات والزكاة، تزكية للمال، وتطهيراً للنفس من الذنوب.

ومن أهم ما تقرب به الإنسان إلى آلهته (النذور) و(القرابين) و(المنح)، أي الصدقات والعطايا. وتدخل (الذبائح) في باب النذور والقرابين كذلك.

---

[1] Robertson, p. 16.

وبجب أن أضيف (القرى) أي الضيافة عليها أيضاً، لما لها من صبغة أخلاقية دينية، حتى صارت الضيافة من الواجبات المثبتة في نظام (مكة). وهي (الرفادة) أي تقديم الطعام لمن يحتاج اليه.

والمنحة عند العرب أن يعطي الرجل صاحبه المال هبة أو صلة فيكون له، أو أن يمنح الرجل أخاه ناقة أو شاة يحلبها زماناً وأياماً ثم يردها. وقد تقع على الأرض، وهي أن يعطي الرجل غيره أرضاً ليزرعها ويستفيد منها، هبة أو عارية[1]. ويظهر من الاشارة إليها في الحديث، أنها كانت من أعمال البر المعروفة عند أهل الجاهلية، وكانوا يتقربون بها إلى آلهتهم.

ولم تحدد الوثنية الأشياء التي كان على الإنسان أن يتقدم بها إلى آلهته قربة إليها أو وفاءً لنذر، بل تركت له الأبواب مفتوحة، فله أن يتقرب إلى أربابه بكل ما يختار ويشاء، من أمور بسيطة رخيصة إلى أشياء ثمينة غالية، كل حسب مقدوره وقابلياته. فنجد بين النذور مباخر وتماثيل ومصابيح، وأشياء نفيسة من ذهب أو من جواهر. كما كانوا يتبركون بوضع حصونهم وبيوتهم وبساتينهم ومزارعهم في حراسة الآلهة ورعايتها، لتحفظها ولتحفظ أصحابها.

ويمكن تقسيم ما تقدم به الجاهليون إلى أربابهم إلى قسمين: قسم إجباري، يجب الوفاء به بسبب (نذر) مثلاً؛ وقسم تطوعي، أي اختياري مثل (المنح) والذبائح التي تقدم في المواسم وفي سائر الأيام، ويقال لها (ندب) و(ندبت) (ندبة). و(المندوب) في عربيتنا المستحب[2]. وأدخل في القسم الأول ما يقال له (خطت) (خطات) (خطأة)، أي (الحطيئة)[3]. ويراد بها تقديم (فدية) عن عمل مخالف قام به إنسان، مثل تقديم ذبيحة بسبب دخول إنسان نجس في المعبد.

واذا كنا في شيء من الجهل بالنسبة إلى الزكاة التي كان الناس يدفعونها في نجد أو العربية الشرقية أو في الحجاز إلى المعابد والى رجال الدين، لعدم وجود نصوص جاهلية تكشف النقاب عنها، فإن لنا بعض المعرفة عن الزكاة التي كان

---

[1] تاج العروس (٢/ ٢٣٢)، (منح).
[2] تاج العروس (١/ ٤٨١)، (ندب).
[3] Anicent Israel. 418-421, 425, 429.

يقدمها أهل العربية الجنوبية إلى معابدهم، ظفرنا بها في الكتابات التي عثر عليها هناك، وقد وردت فيها إشارات إليها في نصوص تعرضت لها بالمناسبات.

وهذه الزكاة حصص عينية مقررة تدفع إلى المعبد على شاكلة الحصص التي تدفع إلى أصحاب الأرض والحكومة، تخزن في مخازن المعابد، لتصدّر إلى الخارج، أو لتباع في الأسواق، أو ليصرف منها على المعابد ورجال الدين والمحتاجين. فكان القتبانيون مثلاً يدفعونُ عُشر حاصلهم إلى المعبد، ويعرف ذلك عندهم بـ (عصيم)[١]، تدفع هذه الضريبة عن حاصلات الأرض، وذلك في كل سنة. وقد عرفت هذه الضريبة بـ (عشر) عند المعينيين، وهي ضريبة تدفع أيضاً عن الحيوان إلى المعبد. وهذه الضريبة هي في الواقع من الضرائب العامة التي كانت تدفعها أمم اخرى عديدة إلى المعابد، وتستند الى تقاليد تأريخية قديمة، والى نظرية أن الأرض هي ملك للآلهة، فهي التي تنعم على الإنسان بالحاصل وبالخير وبالبركات، فعلى الإنسان تخصيص جزء من حاصله لتلك الآلهة. فإذا قصر إنسان في إداء ما عليه إلى الآلهة، تعرّض للعقاب ولحرمان الآلهة إياه من البركة والخصب[٢].

ويتبين من نصوص المسند أنه كانت في العربية الجنوبية أرضون واسعة مسماة بأسماء الآلهة، أجرّتها المعابد للرؤساء أو سلمّتها إلى أيدي (الكبراء) لاستغلالها في مقابل أجر يدفعونه إلى المعبد يتفق عليه. وهذه الأرضون هي أوقاف حبست على الآلهة تعرف بـ (وتفم) (وتف)[٣]، ومن غلات هذه الأوقاف ومن (العصم) والنذور والهبات الأخرى ينفق على المعابد وعلى رجال الدين.

وقد ظهر في العربية الجنوبية نظام اقطاعي (كهنوتي)، أسياده رجال الدين، تولوا الإشراف على ادارة أملاك المعبد الواسعة وعلى استغلالها وإدارة شؤونها، وجباية الأرضين التي يوقفها المؤمنون أصحابها على الآلهة، وعلى استحصال حقوق المعبد من المتمكنين. وقد أشير في كتابات المسند الى أرضين واسعة كانت أوقافاً للمعابد، أجرّت الى سادات القبائل لاستغلالها في مقابل أجر اتفق عليه. ويظهر أن بعض أولئك السادات كانوا أقوياء وأصحاب نفوذ فاستولوا على (الحبوس)

---

[1] السطر الثالث من النص الموسوم بـ : Kataba. Texte, I, Glasser 1601.

[2] Hastings, p. 940.

[3] Katab. Texte, II, S. 30.

استيلاءً في مقابل اجور زهيدة كانوا يدفعونها للمعبد، ولما لم يكن في وسع المعبد فعل شيء تجاههم، اضطر إلى قبول الأجر الزهيد الرمزي الدال على تملك المعبد للأرض. اما السادات فكانوا يؤجرون الأرض لأتباعهم بأجور عالية، ويربحون من ذلك أرباحاً كبيرة.

وعثر المنقبون على وثائق في خرائب بعض المعابد، تبين منها أنها كانت نصوص عقود إيجار واستئجار لأملاك المعبد، أي للأوقاف المحبوسة على أرباب المعبد. وقد ذكر المستأجرون فيها الشروط التي اتفقوا عليها مع المعبد في مقابل استغلال الوقف. واذا كان المستأجر غير متمكن من أداء ما عليه للمعبد في مقابل استغلال الأرض، فإن من حقه الاستدانة من غيره أو الاتفاق معه على المساهمة معه في الاستغلال والاستثمار على شرط أخذ موافقة رجال المعبد على ذلك، وإدخال اسم الشخص الثاني في العقد، كي يكون مسؤولاً شرعاً عن تنفيذ شروط العقد في حالة عدم تمكن زميله من ذلك[1].

وقد اقتضى تضخم أملاك المعابد خلق جهاز خاص لادارة الأملاك والأوقاف والاشراف على استحصال (الأعشار) عن الدخل وتركات الارث والمشتريات إلى جانب النذور والقرابين وتوقيع العقد. جهاز رأسه كبار رجال الدين، الذين يمثلون الآلهة على الأرض، وقاعدته صغار رجال الدين ومن عهد إليهم أمر الادارة من غير رجال الدين. فصار للمعبد بذلك نفوذ كبير في اقتصاد العربية الجنوبية في ذلك الوقت.

وفي المعابد مواضع يرمي الزوار فيها ما يجودون به على المعبد، تكون أمام الأصنام في الغالب. وهي خزائن تتجمع فيها النذور والهبات، فياخذها السدنة. وأغلب ما يرمى فيها الحلي والمصوغات المصاغة من الذهب والفضة، والأشياء النفيسة الأخرى. كما كانوا يعلقون السيوف والألبسة الثمينة على الأصنام وعلى الأشجار المقدسة تقرباً إليها، ووفاءً بنذور نذروها لها.

ولم يبخل الجاهليون على أصنامهم، فقدموا لها حتى المأكل والمشرب، لاعتقادهم أنها تسر بذلك وتفرح. فقد علقوا على (ذي الخلصة)، وهو صنم نصبه

---

[1] Die Bodenwirtschaft, S. 22, A. Steinwenter, Beiträge zum Offentlichen, 1915.

(عمرو بن لحي)، القلائد وبيض النعام، والبرد النفيسة، وقدموا له الحنطة والشعير، بل واللبن أيضاً، ليشرب منه، وذبحوا له[1]. فهم يعتقدون أن في الصنم روحاً، وأن في مقدوره التلذذ بهذه النذور. وكان في روعهم أنه يشرب من ذلك اللبن.

وقد أشير إلى الهبات التي تقدم إلى المعابد والآلهة بكلمة (وهبم) في النصوص القتبانية. بمعنى (وهبّ) و(هبات). ووردت كلمات أخرى تؤدي هذا المعنى أيضاً. منها: (ودم)، و(شفتم)، و(بنتم)[2]. وتقابل هذه ما يقال له: (منحة) و(المنحة) عند العرب الشماليين.

وفي جملة ما يدخل في هذا الباب (بكرت)، أو (الباكورة) أول كل شيء. مثل الثمر وأول مولود بالنسبة للحيوان، حيث يهدى للآلهة. وقد كان معروفاً عند العبرانيين وعند غيرهم من الساميين. وذلك أن يجعل صاحب المال ثمرة أول زرعه أو حيوانه نذراً لآلهته[3]. وقد أشير إلى هذا النذر أو الهبة في نصوص المسند. ومن (الباكورة) العقيقة التي تحدثت عنها في موضع آخر من هذا الكتاب.

وتلعب النذور دوراً خطيراً في الحياة الدينية عند الجاهليين، حتى صارت عندهم بمثابة المظهر الأول والوحيد للدين. فالعامة لا تكاد تفهم من الدين إلاّ تقديم النذور للآلهة، لتجيب لها طلباتها وتنعم عليها بنعمائها. والنذور هي وعد على شرط. يتوسل الناذر إلى آلهته بأنها إن أجابت طلباً عينه، وحققت مطلباً نواه، فعليه كذا نذر، يعينه ويذكره. فهنا عقد ووعد بين طرفين في مقابل تنفيذ شرط أو شروط، أحد طرفيه السائل صاحب النذر، أما الطرف الثاني فهو الإله أو الآلهة. وأما الشرط، فهو تنفيذ المطالب التي يريدها الناذر. وأما النذر، فهو أشياء مختلفة، قد تكون ذبيحة، وقد تكون جملة ذبائح، وقد تكون نقوداً، وقد تكون فاكهة أو زرعاً، وقد تكون أرضاً، وقد تكون تمثالاً، وقد تكون حبساً لإنسان يهب نفسه أو مملوكه أو ابنه لإلهه أو لآلهته، وقد يوهب

---

[1] الأزرقي، أخبار مكة (٧٨)، (لاييزك).

[2] N. Rhodokanakis, Katab Texte, I, S. 18, 26.

[3] في العبرانية «بكوريم»، Ancient Israel, 380, 404, 493

ما في بطن المرأة أو ما في بطن الحيوان، وقد يكون النذر حيوانات حية. وهكذا نجد مادة النذر كثيرة مختلفة متباينة بتباين النذر والأشخاص[١].

ولا يشترط في وفاء النذر أن يكون عيناً أي مادة، إذ يجوز أن يكون أمراً معنوياً، كأن يذكر الناذر في نذره أنه إن أجاب الإلَه الفلاني طلبه وبارك له ومنحه طفلاً، يخدمه له أو يسميه عبده، أي عبد ذلك الإله الذي نذر له. وكثير من الأسماء المبتدأة بـ (عبد). يليها اسم (صنم)، هي من هذا القبيل، دُعي أصحابها بها ليحمي من سمّي به صاحب ذلك الاسم في مقابل تلك التسمية. ومن هذا القبيل عبد مناف وعبد مناة[٢].

ومن هذا القبيل أيضاً نذر المواهب، كأن ينذر شخص مواهبه لصنم او لمعبد، بأن يتعهد أن يقوم بترنيم التراتيل الدينية في الأعياد أو في أوقات الصلوات والمناسبات في ذلك المعبد، أو يقوم فيه بأعمال فنية مثل رسم منظر ديني أو تزيين معبد الإله، والنذر بالصيام وبغير ذلك[٣].

ويعبر عن الابن الذي ينذره أبوه أو أمه بأن يجعله خادماً للمعبد أو للصنم أو للكنيسة ذكراً كان أم أنثى (النذيره)، وذلك لأنه حبس على خدمة الإله أو الصنم أو المعبد وتفرغ، فلا يخدم أحداً سواها[٤]. وفي التنزيل: ﴿إني نذرت لكَ ما في بطني محرراً﴾[٥].

ويقال للنذر (النَّحْب)، وهو ما ينذره الإنسان على نفسه فيجعله نحباً واجباً، وقيل: إنما قيل للنذر نذراً، لأنه ينذر فيه، أي أوجب على النفس[٦]. ووردت لفظة (نذر) (نذرم) (نذرن) في نصوص المسند، بمعنى (نذر) و(نذور).

---

1 تفسير الطبري (٣/ ٩١ وما بعدها)، (القاهرة ١٩٥٤)، القاموس (٢/ ١٢٠)، Ency. Brita., Vol., 25, p. 200, Reste, S. 112, Ency. Religi., 12, p. 644.

2 الورض الأنف (١/ ٦).

3 تفسير الطبري (٥/ ٥٨٢ وما بعدها)، (دار المعارف)، تفسير البيضاوي (٦/ ١٥٤)، القرطبي، الجامع (١١/ ٩٧ وما بعدها)، الطبرسي (٢/ ٣٤٥).

4 اللسان (٥/ ٢٠٠)، (نذر) تاج العروس (٣/ ٥٦١)، (نذر).

5 آل عمران، الآية ٣٥، تفسير الطبري (٣/ ١٥٧ وما بعدها)، القرطبي (٤/ ٦٥ وما بعدها)، تفسير البيضاوي (٣/ ٢٠ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٨ وما بعدها)، روح المعاني (١/ ٥٦١).

6 اللسان (٥/ ٢٠٠)، تاج العروس (٣/ ٥٦١).

ومن هذه النذور (الربيط). فقد كان الجاهليون ينذرون أنهم إذا عاش لهم مولود جعلوه خادماً للبيت، أي لبيت الصنم. ومن هنا لقب (الغوث بن مرّ) بالربيط «لأن أمه كانت لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش هذا لتربطن برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيط الكعبة، فعاش ففعلت وجعلته خادماً للبيت حتى بلغ الحلم، فنزعته فلقب الربيط»[1].

ويظهر من بعض الروايات أنهم كانوا يربطون الربيط بالبيت. فقد ذكروا أن أم (الغوث) لما «ربطته عند البيت أصابه الحرّ، فمرت به، وقد سقط وذوى واسترخى»[2]، فيظهر أنهم كانوا يربطونه برباط بالموضع المقدس، ليكون على اتصال تام به، كما يفعل الناس اليوم من ربط مرضاهم ومن لا يعيش طويلاً من الأولاد بقبور الأولياء بخيط أو حبل، رجاء الشفاء وطول العمر، وقد يعقدون خيطاً أو شريطاً بالقبر، لهذا الغرض.

وقد كان اصحاب النذور يتنسكون ويكثرون من تعبدهم ومن تقربهم للصنم الذي نذروا له، ليمنّ عليهم ويحقق لهم ما طلبوه. وقد أشار (لبيد) الى الناسكات ينتظرن النذر بقوله:

توجس النُبوُحَ شُعُثا غُبراً   كالناسكات ينتظرن النذرا[3]

ومن نذورهم في الجاهلية، إنهم كانوا ينذرون بألا تهب الصبا حتى يذبحوا أو ينحروا[4]، ويظهر أن هذه عادة كانت لها صلة بطقوس دينية جاهلية قديمة، نجدها عند أهل مكة وعند الأعراب.

وتكون النذور في حالات الشدة والضيق في الغالب. فإذا أصيب إنسان بمكروه أو أصيب عزيز له بذلك، نذر إلى آلهته نذراً، يقدمه لها حالة تحقق الشرط، فإن صادف ان تحقق ما طلبه، وجب على الناذر الوفاء بنذوره. ونظراً لظروف ذلك الوقت، فقد كانت النذور كثيرة ومتنوعة. منها نذور مادية، ومنها نذور

---

1 تاج العروس (٥/ ١٤٢)، (ربط).
2 الروض الأنف (١/ ٨٥).
3 ديوان لبيد (٣٣٦).
4 الكامل (٢/ ٥٢ وما بعدها).

معنوية، مثل التعبد والتبتل وخدمة بيوت الأصنام وما شاكل ذلك من نذور[1].

وقد كانوا لا يحلون لأنفسهم التملص والتخلص من الوفاء بالنذور، لاعتقادهم أنهم إن أكلوها ولم يوفوا بها، غضبت عليهم الآلهة، ولاسيما الإلَه الذي جعلوا نذرهم له، فيصابون بغضب منها، وينالهم مكروه، فهم لذلك يوفون نذورهم ولا يقصرون في الأداء، إلا لحاجة أو لاستهتار. أو لتغلب الشح على النفس، ومع ذلك، فقد كانوا يلجأون الى الحيل الشرعية في هذا التهرب، بإيجاد الحلول والأعذار.

ونجد في نصوص المسند عدداً كبيراً من الكتابات تفيد أن صاحب الكتابة قد قدّم إلى الإلَه الفلاني كذا وكذا، لأنه أجاب طلبه وأعطاه ما أراد ووفاه بحسب طلبه، فقدم اليه كذا وكذا وفاءً لنذره. وتذكر في النص أحياناً جملة لتنزل اللعنة أو لينزل الهلاك والدمار أو ما شابه ذلك على من يحاول إزالة النذر والأثر عن موضعه أو إلحاق الأذى به أو ما شابه ذلك من عبارات. وقد ورد مثل ذلك في النصوص الثمودية واللحيانية والنصوص الأخرى. وتفهم فكرة النذر والغاية منه صراحة من هذه الكتابات، فالناذر قدّم نذره، لأن الإلَه المذكور أو الآلهة المذكورة أجابت طلبه ووفت له ما أراد، فوفى هو له أو لها ما أشترط على نفسه تقديمه عند عقده صيغة النذر. فالإلَه أو الآلهة طرف يسمع ويتعاقد ويجيب ويفعل أو تفعل تماماً كما يفعل الإنسان، وهي تشترط على الطرف الثاني أي على السائل الوفاء بالنذر، لأنه دين يجب عليه دفعه في مقابل تنفيذ الآلهة الشروط المذكورة، وإلاّ فإن الآلهة تغضب عليه وتوقع القصاص عليه، وقد تسحب ما قدمت له حينما عقدت النذر معه.

وكانت القرابين البشرية في جملة الأشياء التي قدمها الإنسان نذراً إلى آلهته. وكان (عبد المطلب)، كما يذكر أهل الأخبار قد نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم. فلما أكمل العدد، قرر الوفاء بنذره، وذلك بذبح أحدهم. وإذ لم يكن قد عين الولد الذي سيذبحه، ذهب كعادة أهل مكة إلى هُبل يستقسم عنده. فلما أصاب النصيب (عبد الله)، ذهب إلى (إساف) ونائلة

---

[1] طبري (٣/ ١٤٤ وما بعدها)، روح المعاني (١/ ٥٦١ وما بعدها)، تاج العروس (٣/ ٥٦١)، (نذر)، تفسير البيضاوي (٣/ ٢٠ وما بعدها).

وثَنيْ قريش الذين تنحر عندهما، ليذبحه، «فقامت اليه قريش من أنديتها: فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه. فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟». ثم سألوه أن يذهب إلى عرّافة كانت بالمدينة لها (تابع)، لترى رأيها في الموضوع وتفتي فيه، فلما ذهب إليها، وجدها بخيبر، فأشارت عليه أن يعود الى مكة، ثم يضرب بالقداح على ابنه وعلى عشر من الإبل وهو مقدار الدية عندهم، فإن خرجت القداح على عبد الله ضربوا القداح مرة أخرى، فإن خرجت القداح على عبد الله مرة أخرى، أعادوا الضرب حتى يقع على الإبل، فيكون الرب قد رضي عنه، فتنحر الإبل عندئذ، فسمع نصيحتها وفعل، ونحرت الإبل فدية عن ابنه (عبد الله)[1]. والظاهر أن عادة نحر الأبناء عند الكعبة قد بقيت حتى بعد دخول العرب في الإسلام، بدليل ما ورد عن نذر امرأة أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته، ففعلت ذلك الأمر، فجاءت إلى المدينة تستفتي علماءها في الأمر. فأشار عليها من استفتتهم بوجوب الوفاء بالنذر، ولكنهم ذكروا لها أن الله قد نهى عن قتل أنفسكم، وذكروا لها قصة عبد المطلب المذكورة، ومعنى ذلك تقديم الفداء[2].

كذلك كان من عادة الجاهليين النذر في ساعات الشدة والخطر، فكان بعض النساء ينذرن أن يجعلن ولدهن (حمساً) إن شفي الرب ابنها من مرض ألم به، كما كانوا ينذرون بحلق شعر الرأس أو جز شعر الناصية أو الاعتكاف والانزواء بعيداً عن الناس[3]. وهي عادات نجدها عند غير العرب أيضاً[4].

وقد أشار المفسرون وأصحاب الحديث والأخبار الى نذور كانت معروفة في الجاهلية، فمنعها الإسلام وفي بعضها نوع من التحايل والتلاعب، حيث كانوا يتصرفون بحسب أهوائهم وشهواتهم ومنافعهم وقت استحقاق النذر. ومن ذلك ما أشير اليه في القرآن الكريم: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى

---

[1] الطبري (٢/ ١٧٢ وما بعدها)، ابن الأثير الكامل (٢/ ٢).
[2] الطبري (٢/ ١٧٢).
[3] الأزرقي (١/ ١٢٣).

[4] Shorter Ency., p. 429.

الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾[1]. وقد ذكر المفسرون أن من الجاهليين من كان يزرع لله زرعاً وللأصنام زرعاً، فكان اذا زكا الزرع الذي زرعوه لله ولم يزك الزرع الذي زرعوه للأصنام، جعلوا بعضه للأصنام وصرفوه عليها، ويقولون إن الله غني والأصنام أحوج، وان زكا الزرع الذي زرعوه للأصنام، ولم يزك الزرع الذي زرعوه لله لم يجعلوا منه شيئاً لله. وقالوا هو غني.

وكانوا يقسمون الغنم، فيجعلون بعضه لله، وبعضه للأصنام، فما كان لله أطعموه الضيفان، وما كان للصنم أنفقوه على الصنم. فكانوا اذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله تعالى ردوه، واذا اختلط ما جعل لله بما جعل للأصنام تركوه. وقالوا الله أغنى. واذا هلك ما جعل للأصنام، بدّلوه مما جعل للّه، واذا هلك ما جعل لله لم يبدلوه بما جعل للأصنام[2].

فهم يتطاولون على ما خصصوه لله من نصيب، ويتصرفون به كما يشاؤون، ويحافظون على ما خصصوه للأصنام، بزعمهم أنها شركاء لله، ويقدمونه لها. ولعل ذلك بسبب أن ما كان يخصصونه للأصنام كان يجد له معقباً وسائلاً، يراجع أصحاب الحرث أي الزرع وأصحاب الأنعام لاستحصال حق الأصنام منهم. وهو حق مفروض، وهم السدنة ورجال الأصنام، فكانوا يستحصلون حقوق الأصنام منهم، على حين كان ما يخصصونه لله نذراً لا يعرف به غير الناذر، فكان يتلاعب به، ويعطيه أو يعطي جزءاً منه إلى جامعي حق الأصنام، على اعتبار أنها شريكة لله، وبذلك يتهرب من أداء النذر كاملاً بهذه الحيلة الشرعية، فلا يستخرج من ماله الذي خصصه لنفسه شيئاً عن الوفاء بالنذر وفاءً تاماً، أو لاعتقادهم أن الله بعيد عنهم، وهو غفور رحيم، أما الأصنام، فقريبة منهم، وهي منتقمة أشد الانتقام.

ويتبين من دراسات النذور عند الشعوب القديمة أنها كانت نتيجة حاجة، وتصور الإنسان أن بإمكانه التأثير على آلهته بهذه النذور، فيجعلها تميل إلى اجابة طلبه

---

[1] الأنعام، الآية ١٣٦.

[2] تفسير الطبرسي (٨/ ٣٦٩ وما بعدها)، تفسير الطبري (٨/ ٣٠ وما بعدها)، روح المعاني (٨/ ٢٨)، تفسير التبيان، للطوسي (النجف ١٩٦٠)، (٤/ ٣٠٧ وما بعدها)، القرطبي، الجامع (٧/ ٨٩)، الكشاف (١/ ٤٧١).

وحل مشكلاته، وذلك بتقديم مطالب مغرية تطمعها، وهدايا سارة تفرح بها، كما يفرح الإنسان عند تقديم أمثالها إليه، فيهش لصاحب الهدية ويرتاح له ويتقرب اليه، ويعد الهدية نوعاً من التقرب والتودد والتحبب، فمن واجب من أهديت اليه الهدية مقابلة المتودد بالمثل. وأما الحاجات التي كان يرجو الناذرون تحقيقها، فهي في الغالب الحصول على ثروة، أو صحة وعافية أو ذرية أو نصر وتوفيق. والناذر على يقين بالطبع من أن الإلَه الذي نذر له النذر قادر على تحقيق ذلك، وإلاّ لم يتقدم اليه بهذا النذر[١].

ويدخل في باب النذور ما يأخذه المرء عهداً على نفسه بتجنب الطيبات واللذيذ من العيش، أو بالابتعاد عن الناس، واعتزالهم على نحو ما يفعله الرهبان والناسكون لأمد معين أو لأجل غير معلوم. ونجد أمثلة عديدة من هذا العهد في أخبار الجاهليين، كالذي ذكروه عن (امرىء القيس) من أنه قال حينما بلغه مصرع والده: «الخمر عليّ والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مئة وأجز نواصي مئة»[٢]، وكالذي رووه عن غيره من الجاهليين. وهي كلها من هذا الطراز. أخذ الشخص عهداً على نفسه بألا يقرب امرأة أو يشرب خمراً أو يضع طيباً أو يقرب اللذائذ حتى يأخذ بثأره أو يتحقق ما نوى عليه، وقد يحدد ذلك بوقت بأن يعين أجل العهد[٣].

وإذ كان النذر عهداً، كان من اللازم تنفيذ العهد؟ فإذا مات من أخذ عهداً على نفسه بأن يفعل شيئاً لم يفعله، فعلى ورثته وقبيلته الوفاء بعهده. فإذا مات شخص كان قد نذر على نفسه الأخذ بثأر قتيل ولم يوفِ بعهده، بسبب موته، فعلى أهله وذوي قرابته وأفراد قبيلته الأخذ بالثأر. ولذلك كانت أحقاد الثأر تنتقل من الآباء إلى الأبناء فالأحفاد، وتستغرق أحياناً زمناً طويلا حتى يؤخذ بالثأر. وقد نشأت عن هذه العهود مشكلات خطيرة في المجتمع الإسلامي في موضوع العهود التي يمكن تنفيذها والعهود التي لا يجوز تنفيذها، أو التي يسمح بعدم تنفيذها وفي مبلغ التبعة التي تترتب على الورثة في تنفيذ العهود[٤].

---

[1] Ency. Religi., 12, p. 656.

[2] الأغاني (٨/ ٦٥)، (ذكر امرئ القيس ونسبه وأخباره).

[3] ابن هشام (٥٤٣)، Shorter Ench., p. 428.

[4] Shorter Ency., p. 429.

القرابين:

وتؤلف القرابين جزءاً مهماً من عبادة الأمم القديمة، بل تكاد تكون العلامة الفارقة عندهم للدين. والرجل المتدين في عرفهم هو الرجل الذي يتذكر آلهته ويضعها دائماً نصب عينيه، وذلك بتقديم القرابين لها، ولست أخطئ اذا قلت إنها كانت عندهم أبرز من العبادات العملية كالصلوات، لأن الإنسان القديم لم يكن يفهم آنئذ من الحياة إلاّ مفهومها المادي، وهو يرى بعينيه ويدرك أن ما يقدم اليه من هدايا يؤثر في نفسه كثيراً، ولذلك كان من الطبيعي ان يتصور بعقله ان القرابين هي أوقع في نفوس آلهته من أي شيء كان، فقدمها على كل شيء، وجعلها عبادة يتقرب بها إلى الآلهة كما يتقرب أهل الأديان السماوية إلى الإلَه بالدعاء والصلوات، فهي في نظره عبادة تقربه إلى الأرباب.

وقد كان الجاهليون، يعظمون البيت بالدم، ويتقربون إلى أصنامهم بالذبائح، يرون أن تعظيم البيت أو الصنم لا يكون إلاّ بالذبح، وأن الذبائح من تقوى القلوب. والذبح هو الشعار الدال على الإخلاص في الدين عندهم، وعلامة التعظيم. «قال المسلمون: يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق أن نعظمه»[1].

ويظهر من قول أحد الشعراء الجاهليين:

فلا لعمر الذي مسحت كعبته   وما هرُيق على الأنصاب من جسدِ

أن الجاهليين كانوا يريقون دم الضحية على الأنصاب، وهي موضوعة في الكعبة، ويمسحون الكعبة[2].

وكلمة (قربان) وجمعها (قرابين)، هي من أصل (ق ر ب)، وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب إلى الآلهة. والقربان هو كل ما يتقرب به إلى الله. فليس القربان خاصاً بالذبائح، وإن صار ذلك مدلوله في الغالب[3].

---

[1] تفسير الطبري (٦/ ٤٨).
[2] الاشتقاق (ص ٢٠٦).
[3] تاج العروس (١/ ٤٢)، (قرب)، اللسان (٢/ ١٥٨)، (قرب).

ومن القرابين ما يقدّم في أوقات معينة موقوتة، ومنها ما ليس له وقت محدد ثابت بل يقدم في كل وقت. ومن أمثلة النوع الأول ما يقدم في الأعياد أو في المواسم أو في الأشهر أو في أوقات معينة من اليوم وفي ساعات العبادات، ومن أمثلة النوع الثاني ما يقدم عند ميلاد مولود، أو انشاء بناء أو القيام بحملة عسكرية أو لنصر وما شابه ذلك من أحوال. ويدخل في النوع الأول الاحتفاء بأعياد الآلهة، حيث تكسى أصنامها أحسن الحلل، وتزين بأجمل زينة، ثم يوضع أمامها ما لذَّ من الطعام وما حسن من الهدايا، وتذبح لها الذبائح، تذبح على الأنصاب. ويأتي الكهّان ليقوموا بتأدية الشعائر الدينية المقررة في هذه الأحوال.

ومعظم نصوص المسند كتابات دونت عند تقديم قربان أو نذر إلى الآلهة في ميلاد مولود، أو شفاء مريض، أو بناء معبد أو بيت، أو حفر خندق أو تشييد برج أو سور، أو حفر بئر أو زواج وما شاكل ذلك. ويظهر منها أن الناس في ذلك العهد كانوا يقدمون القرابين إلى آلهتهم في مناسبات كثيرة، تقرباً إليها وارضاءً لها، ولكي تمنّ على أصحابها بالخير والبركة.

وقد استعملت نصوص المسند لفظة (ذبح) و(ذبجم) بمعنى (ذبحوا) و(ذبح) و(ذبيحة) و(ذبائح). وقد تسبق بكلمة (يوم)، فتكون (يوم ذبح)، أي (يوم ذبحوا)، ثم يذكر بعدها عدد ما ذبح ونوعه، ثم كلمة (اذبح) بمعنى (ذبائح) في بعض الأحيان. والذبائح التي تقدم إلى الآلهة هي الإبل والبقر والثيران والغنم والمعز، وهي أكثر الحيوانات شيوعاً في الذبح عند الشعوب السامية الأخرى. ولم نجد في نصوص المسند ذكراً لحيوانات اخرى كالأسماك أو الدجاج مثلاً، ولعل ذلك بسبب ضآلة قيمتها وتفاهتها بالقياس إلى أثمان الحيوانات الأخرى، مما جعل الناس يأنفون من الإشارة إليها في النصوص.

وفي بعض الأديان حرق الذبائح وسكب دمائها على النار كما يفعل العبرانيون، إذ اتخذوا مذبحاً للمحروقات، ويسمى أيضاً بمذبح النحاس. وكانت ناره لا تطفأ، وتقدم اليه الذبائح على الدوام، ويعرف ذلك عندهم بـ (عولاه) Olah، وتفسير الكلمة الشيء الذي يعلو[١].

وينفي (ولهوزن) وجود المحارق عند الجاهليين، وعنده أن العرب لم يكونوا

---

[1] قاموس الكتاب المقدس (١/ ٤٥٨)، Hastings. P. 111.

يحرقون الذبائح للأرباب، بل كانوا يكتفون بالذبح وبسكب دم الذبيحة على النصب كله أو بعضه، أو أنهم يتركونه يسيل إلى (الغبغب)، وليس في الذي بين أيدينا من نصوص ما يدل على أن الجاهليين كانوا يحرقون ذبائحهم لأربابهم على نحو ما كان يفعله العبرانيون، غير أن ذلك لا يمكن أن يكون مع ذلك دليلاً قاطعاً وحجة كافية في إثبات أن هذه العادة لم تكن عند جميع الجاهليين.

وهناك ذبائح من نوع آخر قدمها الإنسان إلى آلهته، من نوع لا تشمله كلمة خروف أو شاة أو بقرة أو ثور أو جمل، من نوع آخر لا تشمله أية تسمية من هذه التسميات التي تطلق على هذه الحيوانات التي يأكلها الإنسان في العادة، هي ذبائح يعاقب القانون كل من يمارسها في الوقت الحاضر بأشد العقوبات، هي ذبائح بشرية قدمها الإنسان إلى آلهته لاعتقاده أنها زلفى محببة الى نفوسها، وأنها ستفيد المجموع وتنقذه من كثير من الأوبئة والأمراض وأنواع الشر والضر، إن كان الإنسان الحديث يتبرأ منها في الزمن الحاضر ويتنكر لها ويحاول تبرئة أجداد أجداده من ممارستها قبل مئات من السنين، فالتأريخ لا يستطيع أن يجد دليلاً يثبت تبرئة أكثر أديان شعوب العالم القديمة من تقديم هذا النوع من القرابين، وفي التوراة أمثلة عديدة تتحدث عن تقديم العبرانيين لهذا النوع من القرابين إلى (يهوه)، ليرضى عن شعبه، ويعفو عنه، ويتقرب منه[1]. كذلك نجد هذه العادة عند اليونان والرومان والهنود والفراعنة والصينيين واليابانيين وغيرهم.

أما عند الجاهليين، فذكر (فورفيريوس) Forphyrius أن أهل (دومة) Duma كانوا يذبحون في كل سنة إنساناً عند قدم الصنم تقرباً إليه[2]. وذكر (نيلوس) Nilus أن من عادة بعض القبائل تقديم أجمل من يقع أسيراً في أيديهم إلى (الزُهرة)، ضحية لها تذبح وقت طلوعها، وقد وقع ابنه (تيودولس) Theodolus أسيراً حوالي سنة ٤٠٠م في أيدي الأعراب Saracenes، وهيىء ليذبح قرباناً إلى الزُهرة غير أن أحوالاً وقعت أفاتت عليهم الوقت المخصص لتقديم

[1] الملوك الأول، الإصحاح السادس عشر، الآية ٣٤، الملوك الثاني، الإصحاح السادس عشر، الآية ٣، الإصحاح السابع عشر، الآية ١٧، الإصحاح الحدي والعشرون، الآية ٦، صموئيل الأول، الإصحاح الخامس عشر، الآية ٣٢، الملوك الثاني، الإصحاح الثالث، الآية ٢١، القضاة، الإصحاح الحادي عشر، الآية ٣٠ وما بعدها، ومواضع اخرى، Hastings, p. 813, Ency. Religi., p. 864.

[2] Reste, S. 115.

الذبائح، أنقذته من الذبح، فاكتفى آسروه ببيعه في أسواق الرقيق بـ (ألوسة) Elusa، فاستقر هناك إلى أن صار أسقفاً على المدينة[1]. وذكر أيضاً أن الملك (المنذر) ملك الحيرة قدم أحد أبناء الحارث الذي وقع أسيراً في يديه ونحو من أربع مئة راهبة قرابين إلى العُزّى[2]. غير أننا يجب أن نكون في حذر شديد من قراءة أمثال هذه الروايات، لأن مصدرها في الغالب هو الخيال. كذلك يجب أن نمر برواية الأخباريين عن قصة عبد المطلب وعبد الله بشيء من الاحتراس والحذر، بل والشك والريبة، ويخيل اليّ أن الاخباريين استفادوا في هذه القصة من حكاية إبراهيم وإسحاق.

وليس في الذي بين أيدينا من نصوص المسند نصّ ما فيه خبر يشير إلى تقديم شخصٍ ما ملك أو كاهن أو أي إنسان آخر ذبيحة بشرية إلى الآلهة، كذلك لا نجد في النصوص الأخرى مثل النصوص الثمودية أو اللحيانية أو الصفوية مثل هذه الإشارات.

وتلعب (المذابح) التي سبق أن تحدثت عنها، دوراً خطيراً في العبادة عند الساميين، بل تكاد تكون المظهر الأساس للدين والتعبد عندهم في ذلك العهد. ولهذا كان المتدين يكثر من ذبح الذبائح لأنها تقربه إلى الآلهة في نظره.

الترجيب:

وقد عرف شهر (رجب) بكثرة ما كان ينحر فيه من عتائر للأصنام، فلا بدّ أن يكون لذلك أصل وسبب، كأن يكون هذا الشهر من الأشهر التي كان لها حرمة خاصة في الجاهلية القديمة. وشهر رجب هو من الأشهر الحرم المعظمة التي لم يكن يحلّ فيها القتال[3]. وقد سمى الذبح في هذا الشهر بـ (الترجيب)، وقيل للذبائح التي تقدم فيه (العتائر) جمع (عتيرة). وقد عدّت العتائر من شعائر الجاهلية. وأطلق بعض علماء اللغة كلمة (العتائر) على ذبح الحيوانات

---

[1] Ency. Religi., 6, p. 853.

[2] Hastings, A Dictionary, Vol., I, p. 75.

[3] تاج العروس (١/ ٢٦٦)، (رجب).

الأليفة، وأطلق لفظة (النافرة) على ذبح الحيوانات الوحشية[1]. «وفي الحديث: هل تدرون ما العتيرة، وهي التي يسمونها الرجبية؟ كانوا يذبحون في شهر رجب ذبيحة، وينسبونها إليه. يقال هذه أيام ترجيب وتعتار. وكانت العرب ترجب، وكان ذلك لهم نسكاً»[2].

وذكر بعض أهل الأخبار أن أول من عتر العتائر وسن العتيرة للعرب، هو (بورا)، وهو (بوز)، وهو ابن شوحا، وهو سعد رجب، وهو أول من سن الرجبية للعرب. وهو ابن يعمانا، وهو قموال، وكان في عصر سليمان بن داوود[3]. والظاهر أن أحد أهل الكتاب قص على الاخباريين هذه القصة، فنسبوا هذه السنّة الجاهلية إلى هؤلاء الأشخاص.

وكان بعض السادة ينحرون إذا أهل (الشهر الأصم)، أي (شهر رجب). روي: إن (حاتماً الطائي) كان ينحر اذا أهل الشهر، ينحر عشراً من الإبل ويطعم الناس لحومها، وذلك لحرمته ومنزلته عنده، ولتعظيم (مضر). فهو من شهود مضر الخاصة[4].

وعرفت (العتيرة) بـ (الرجبية) عند الجاهليين كذلك، لأنها كانت تذبح في شهر رجب، فنسبوها إليه. وعرفت أيام رجب بـ (أيام الترجيب). وورد (أيام ترجيب وتعتار). وقيل للذبائح التي تقدم فيه (النسائك) كذلك[5].

وأصل (النُسك): الدم، وبهذا المعنى ورد من فعل كذا وكذا فعليه نسك، أي دم يهريقه. و(النسيكة): الذبيحة. و(مَنْسك): الموضع الذي تذبح فيه النسيكة، وهذا هو المعنى القديم الأصلي للكلمة. وقد صار من معانيها في العربية الشمالية، العبادة والطاعة، وكل ما يتقرب به إلى الله تعالى، لما كان للذبح من شأن في الديانات القديمة بحيث كان يعدّ عبادة أساسية عندها،

---

[1] Reste, S. 118.

[2] تاج العروس (١/ ٢٢٦ وما بعدها)، (رجب)، مسند أحمد بن حنبل (٢/ ١٧٣).

[3] الطبري (٢/ ٢٧٤).

[4] الأغاني (١٦/ ٩٤).

[5] تاج العروس (١/ ٢٦٦) وما بعدها)، اللسان (١/ ٣٩٦)، المعاني الكبير (٣/ ١١٧١)، المخصص (١٣/ ٩٨)، مجمع البيان للطبرسي (٢/ ١٥٠).

ولذلك قيل لمن انصرف إلى التعبد: الناسك[١].

وقد فسر علماء التفسير لفظة (نسك) الواردة في الآية: ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾[٢]، بذبح ذبيحة شاة أو ما فوق ذلك[٣].

والعرف في الذبح عندهم، إنهم كانوا يسوقون ما يريدون تعتاره أي ذبحه إلى النصب الخاص بالصنم أو إلى الصنم نفسه، ثم يذبحونه بعد التسمية باسم ذلك الصنم، وبيان السبب في ذبح هذه العتيرة، ثم يلطخ رأس الصنم بشيء من دم تلك العتيرة[٤]. وقد منع المسلمون من أكل ذبائح المشركين، لأنها مما أهل لغير الله، ولأن المشركين لم يكونوا يذكرون اسم الله عليها، بل كانوا يذكرون اسم الصنم الذي يذبحون له عليها. فحرم ذبائح المشركين لذلك على المسلمين[٥].

وقد أبطل الإسلام (الرجبية) وهي العتيرة، كما أبطل (الفرع)، وهو ذبح أول نتاج الإبل والغنم لأصنامهم، فكانوا يأكلونه ويلقون جلده على الشجر. ويذكر أنهم كانوا اذا أرادوا ذبح الفرع زيتوه وألبسوه[٦]، ليكون ذلك أوكد في نفوس الآلهة، وتعريفاً للناس. وكانوا يفعلون ذلك تبركاً. وفي الحديث: لا فرع ولا عتيرة[٧].

وذكر أنهم كانوا اذا بلغت الإبل ما يتمناه صاحبها ذبحوا، أو اذا تمت إبل احدهم مائة عتر عنها بعيراً كل عام فأطعمه الناس ولا يذوقه هو ولا أهله، قيل بل قدم بكره فنحره لصنمه. وقد كان المسلمون يفعلونه في صدر الإسلام ثم نسخ[٨]. وذكروا أن العتيرة الذبيحة التي كانت تذبح للأصنام ويصب دمها على رأسها[٩]. و(العِتر) الصنم الذي يصاب رأسه من دم العتر. قال زهير:

فزلّ عنها وأوفى رأس مرقبة   كناصب العتر دمى رأسه النسك[١٠]

---

1 تاج العروس (٧/ ١٨٦ وما بعدها)، (نسك)، اللسان (١٢/ ٣٨٩)، (نسك).
2 البقرة، الآية ١٩٦.
3 تفسير الطبري (٢/ ١٣٤ وما بعدها).
4 ديوان زهير، للأعلم الشمنتري (٤٦).
5 تفسير الطبري (٨/ ١٢ وما بعدها)، سورة الأنعام، الرقم ٦، الآية ١١٨ وما بعدها.
6 بلوغ الأرب (٣/ ٤٠ وما بعدها).
7 تاج العروس (٥/ ٤٤٩).
8 تاج العروس (٥/ ٤٤٩).
9 اللسان (٤/ ٥٣٧)، (عتر)، المرزوقي، الأزمنة والأمكنة (١/ ٢٧٨).
10 اللسان (٤/ ٥٣٧)، (عتر).

وكانوا يؤكدون على تلطيخ الصنم الذي يعتر له، أو (النصب) بشيء من دم العتيرة. يفعلون ذلك على ما يظهر، ليحس الصنم بالدم فوقه. فيتقبله ويرضى به عنهم: ويتقبل عتيرتهم.

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات علماء اللغة والأخبار عن العتيرة والرجبية، أن العتيرة بمعنى الذبيحة، وأن (العتر) الذبح عامة، في رجب وفي غير رجب. و(العتائر) الذبائح التي كانوا يذبحونها عند أصنامهم وأنصابهم في رجب وفي غير رجب، والتي كانوا يلطخون بدمائها. الصنم الذي كانوا يعترون له. وأما (الرجبية) فهي العتائر التي تعتر في رجب خاصة، وقد كانت كثيرة. ولذلك نسبت إلى هذا الشهر. ونظراً إلى كون الرجبية عتيرة، ذهب البعض إلى أن العتيرة الرجبية. فظن أنهم قصدوا بذلك أن العتيرة هي الرجبية[١]، مع أن الرجبية من العتائر، أي بعض من كل، وليست مساوية لها.

وقد كان بعض أهل الجاهلية إذا طلب أحدهم أمراً نذر لئن ظفر به ليذبحن من غنمه في رجب كذا وكذا، أو أن يقول: إن بلغت إبلي مائة عترت عنها عتيرة، فإذا ظفر به، أو بلغت مائة، فربما ضاقت نفسه عن ذلك، وضن بغنمه، فصاد ظبياً فذبحه، أو يأخذ عددها ظباءً، فيذبحها مكان تلك الغنم، وهي (الربيض). والى ذلك أشير في شعر للحارث بن حلزة اليشكري:

عنتاً باطلا وظلماً، كمـــا تعـ ـــتر عن هجرة الربيض الظباء[٢]

فذلك نوع من أنواع التحايل للتخلص من الوفاء بالنذور.

وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم[٣]، وإنما يأكل لحومها غيرهم. كما كانوا يضرجون البيت بدماء البدن[٤]، ويضرجون أصنامهم بها. وورد في رواية

---

[1] اللسان (٤/ ٥٣٧)، (عتر)، الأصنام (٣٢)، (مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م)، تاج العروس (٣/ ٣٨٠)، (عتر)، المخصص (٩٨ وما بعدها).

[2] «عننا» اللسان (٤/ ٥٣٧)، (عتر)، «عننا»، تاج العروس (٣/ ٣٨٠)، (عتر)، البيت رقم (٥١) من المعلقة، شرح القصائد العشر، للتبريزي (ص ٤٦٣ وما بعدها).

[3] تفسير القرطبي (١٢/ ٦٤).

[4] تفسير القرطبي (١٣/ ٦٥).

أخرى، أنهم ينحرون هديهم عند الأصنام، فإذا نحروا هدياً قسموه فيمن حضرهم[١].

من ذبائح أهل الجاهلية (الشريطة). كانوا يقطعون يسيراً من حلق الشاة ويتركونها حتى تموت ويجعلونه ذكاة لها. وقد نهي عن ذلك في الإسلام. وقيل ذبيحة الشريطة، هي أنهم كانوا يشرطونها من العلة، فإذا ماتت قالوا قد ذبحناها[٢].

ومما يلاحظ في تقديم الذبائح، أن الناذر يراعي الجنس في اختيار الذبيحة، فإذا كان مقرب القربان ذكراً، اختار قربانه حيواناً ذكراً، وإنْ كان المقرب أنثى، اختيرت الذبيحة أنثى. ولا زال الناس يراعون ذلك حتى اليوم. ونجد هذه العادة عند غير العرب أيضاً، فقد كان أهل العراق يقدمون كتف حيوان، في مقابل شفاء كتف انسان، ورأس ذبيحة في مقابل رأس ناذر، وهكذا وكانوا يجعلون الرأس رمزاً أحياناً، فينذرون تقديم رأس المريض أو الصبي إلى الإلَه، إن منّ عليه بالعافية وبالصحة. ويقصدون بذلك بدلاً، رأس حيوان أو رمزاً يرمز إليه من ذهب أو فضة[٣].

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام:

ومن النذور والقرابين ما يكون حيوانات حية، تسمى كلها أو بعضها باسم الأرباب، فتحبس عليها، وتكون حرة طليقة لا يجوز مسها بسوء. وقد أشير في القرآن الكريم إلى (البحيرة)، و(السائبة)، و(الوصيلة)، و(الحام)[٤]، وللعلماء في هذه المصطلحات كلام، مهما تضارب واختلف، فإنه يوصلنا إلى نتيجة هي أن الجاهليين كانوا يراعون هذه الأمور مراعاة شديدة، ولهم فيها قواعد وأحكام ترجع إلى تقاليد موروثة قديمة، حافظوا عليها، وظلوا يحافظون عليها إلى ان منعها الإسلام.

---

[1] ابن هشام (١/ ٦٥)، هامش على الروض الأنف.
[2] تاج العروس (٥/ ١٦٧)، (شرط).
[3] Ancient Israel, p. 434.
[4] المائدة، الآية ١٠٣.

فاما البحيرة، فالناقة او الشاة تترك فلا ينتفع من لبنها ولا تحمل ولا تركب، وترعى وترد الماء فلا ترد، فاذا ماتت حرموا لحمها على النساء وأباحوه على الرجال، ذلك بعد أن تنتج خمسة أبطن أو عشرة أو ما بين ذلك[1]. وقيل أيضاً الناقة اذا نتجت خمسة أبطن نظروا في البطن الخامس فإن كان ذكرا نحروه، فأكله الرجال والنساء جميعاً، وإن كانت أنثى شقوا أذنها، فتلك البحيرة، فلا يجز وبرها ولا يحمل عليها، وحرم على النساء ان يذقن من لبنها شيئاً وأن ينتفعن بها، وكان منافعها للرجال دون النساء[2]. وقيل للشاة التي تشق أذنها، وذلك شيء كان لأهل الجاهلية. تشق أذنها أو أذن الناقة بنصفين، وقيل بنصفين طولاً، ليكون التبحير علامة لها[3].

وقيل: البحيرة هي التي يمنع درّها للطواغيت، فلا يحتلبها أحد من الناس[4]. قيل لها البحيرة، لأنهم بحروا أذنها، أي شقوها، وكان البحر علامة التخلية. وقال بعض العلماء: البحيرة هي ابنة السائبة[5]. وقال بعض آخر: البحيرة من الإبل يحرم أهل الجاهلية وبرها وظهرها ولحمها ولبنها إلاّ على الرجال، فما ولدت من ذكر وأنثى، فهو على هيئتها، وإن ماتت اشترك الرجال والنساء في أكل لحمها[6]، وورد أن البحيرة من الإبل، كانت الناقة اذا نتجت خمسة أبطن نحروا الخامس إن كان سقباً، وإن كان ربعة شقوا أذنها واستحيوها وهي بحيرة. وأما السقب فلا يأكل نساؤهم منه، وهو خالص لرجالهم، فإن ماتت الناقة أو نتجوها ميتاً فرجالهم ونساؤهم فيه سواء يأكلون منه[7]. والمرار من (السقب) الذكر من ولد الناقة[8].

وورد في الأخبار أنّ أول من بحر البحائر رجل من (بني مدلج)، كانت له ناقتان فجدع آذانها وحرم ألبانهما وظهورهما، وقال هاتان لله، ثم احتاج

---

1 تاج العروس (٣/ ٢٨)، (بحر)، اللسان (٥/ ١٠٦).
2 مجمع البيان، للطبرسي (٢/ ٢٥١)، شمس العلوم (جـ١، ق١، ص ١٣٣)، المفردات (٢٦).
3 الاشتقاق (١١٨)، اللسان (٤/ ١٦ وما بعدها).
4 الطبري (٧/ ٥٩)، القرطبي، الجامع (٦/ ٣٣٥).
5 القرطبي (٦/ ٣٦٣).
6 تفسير الطبري (٧/ ٥٨).
7 تفسير الطبري (٧/ ٥٩ وما بعدها)؟
8 اللسان (١/ ٤٦٨)، (شعب).

إليهما، فشرب ألبانهما وركب ظهورهما[1]. كما نسب التبحير إلى (عمرو بن لحيّ)، إذ قيل إنه كان أول من بحر البحيرة وسيب السائبة[2].

وأما السائبة، فهي الناقة أو البعير أو الدابة تترك لنذر، أو بعد بلوغ نتاجها حداً معلوماً، فلا تركب ولا يحمل عليها ولا يمنع من ماء وكلأ، وتترك سائبة لا يحل لأحد كائناً من كان مخالفة ذلك[3]. «وكان الرجل في الجاهلية اذا قدم من سفر بعيد، أو بريء من علة، أو نجَّته دابة من مشقة أو حرب، قال ناقتي سائبة، أي تسيب، فلا ينتفع بظهرها، ولا تحلأ عن ماء، ولا تمنع من كلأ، ولا تركب، وقيل: بل كان ينزع من ظهرها فقارة، أو عظماً، فتعرف بذلك. فأغير على رجل من العرب، فلم يجد دابة يركبها، فركب سائبة، فقيل: أتركَب حراماً؟ فقال: يركب الحرام من لا حلال له، فذهبت مثلاً»[4]، و«قيل: هي أم البحيرة، كانت الناقة اذا ولدت عشرة أبطن، كلهن إناث: سيبت فلم تركب، ولم يشرب لبنها إلاّ ولدها أو الضيف حتى تموت. فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء جميعاً، وبحرت إذن بنتها الأخيرة، فتسمى البحيرة، وهي بمنزلة أمها في أنها سائبة»[5]. وقيل السائبة: كان الرجل من أهل الجاهلية يسيب من ماله من الأنعام، فلا يمنع حوضاً أن يشرع فيه، ولا مرعى أن يرتع فيه، فيهمل في الحمى، فلا ينتفع بظهره، ولا بولده ولا بلبنه ولا بشعره ولا بصوفه، فهو مخلاة لا قيد عليه، ولا راعي له. وكان في روعهم أن من تعرض للسوائب أصابته عقوبة في الدنيا[6].

ويذكر أهل الأخبار أن أول من سيب السوائب (عمرو بن عامر الخزاعي)، أي (عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف)، أخا بني كعب، وهو أول من غير دين إبراهيم. وقد رجعوا خبرهم هذا الى رسول الله[7]. وقيل إن أول من

---

[1] تفسير الطبري (٧/ ٥٦).
[2] اللسان (٤/ ١٦ وما بعدها)، ابن هشام (١/ ٧٨). (البابي).
[3] الكشاف (١/ ٣٦٨)، الطبرسي (٢/ ٢٥١ وما بعدها)، تاج العروس (١/ ٣٠٥).
[4] الاشتقاق (٧٦ وما بعدها).
[5] اللسان (١/ ٤٧٨).
[6] تفسير الطبري (٧/ ٥٩ وما بعدها)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٣٦).
[7] تفسير الطبري (٧/ ٥٦ وما بعدها)، القرطبي، الجامع (٦/ ٣٣٧ وما بعدها).

ابتدع ذلك (جنادة بن عوف)[١]، وهو من النسأة، كما سيأتي الكلام عنه فيما بعد.

وأما الوصيلة، فالناقة التي وصلت بين عشرة أبطن، أو الشاة التي وصلت سبعة أبطن. وفي رواية: إن الشاة اذا ولدت ستة أبطن نظروا، فإن كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى تركت في الغنم، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، ولم يذبح، وكان لحمه حراماً على النساء. وفي رواية: إن لبن أم الوصيلة حلال على الرجال دون النساء[٢]. وقالوا: الوصيلة الشاة إذا أتامت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن، ليس بينهن ذكر. فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الإناث، إلا أن يموت شيء منها فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم[٣].

وأما الحام، فالبعير اذا نتج عشرة أبطن من صلبه، قالوا: قد حمى ظهره، فلا يركب ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى[٤]. وقالوا: الحام من الإبل، كان الفحل اذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه[٥]. وقالوا بل الحام إن الفحل اذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره ولم يركب ولم يجز وبره ويخلى في إبله يضرب فيها لا ينتفع به بغير ذلك. وذكر أن الحام، الفحل يضرب في الإبل عشر سنين، ويقال: اذا ضرب ولد ولده قيل قد حمى ظهره، فيتركونه لا يمس ولا ينحر أبداً ولا يمنع من كلا يريده. وهو من الأنعام التي حرمت ظهورها[٦].

وذكروا أن أول من حمى الحامي هو (عمرو بن لحي)، وذلك في سنن أخرى سنها لأهل الجاهلية[٧].

وقد أشير في سورة (الأنعام) إلى أشياء كان يفعلها أهل الجاهلية، يتقربون بها إلى آلهتهم، كانوا يحرمون من أنعامهم أشياء لا يأكلونها ويعزلون من حرثهم

---

1 القرطبي، الجامع (٦/ ٣٣٧).
2 تاج العروس (٨/ ١٥٥)، الكشاف (١/ ٣٦٨).
3 القرطبي، الجامع (٦/ ٣٣٧).
4 الكشاف (١/ ٣٦٨)، تاج العروس (١٠/ ١٠٠)، اللسان (١٨/ ٢٢٠).
5 القرطبي، الجامع (٦/ ٣٣٦).
6 تفسير الطبري (٧/ ٥٧ وما بعدها).
7 تفسير الطبري (٧/ ٥٦ وما بعدها).

شيئاً معلوماً لآلهتهم ويقولون لا يحل، لنا ما سمينا لآلهتنا[1]. فورد: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً. فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم. ساء ما يحكمون﴾ وورد: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث، حجر لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون. وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا. ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء. سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾[2].

وذكر المفسرون أن من المشركين من حرم ظهور بعض أنعامهم، فلا يركبون ظهورها، وهم ينتفعون برسلها ونتاجها وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب. وحرموا من أنعامهم أنعاماً أخر فلا يحجون عليها. وقد ذكروا أن المراد بذلك: البحيرة والسائبة والحام. وأنهم كانوا قد جعلوا ألبان البحائر للذكور دون الإناث. وإن كانت ميتة اشترك فيها ذكورهم وإناثهم. وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء، فإن كانت أنثى تترك فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء[3]. فالمراد بهذه الآيات مما ذكرته عن الأمور المتقدمة.

وقد كان بعض أصحاب النذر ينذر، فإذا تم النذر وصار وبلغت إبلهم أو غنمهم ذلك العدد، بخل بإبله أو شائه وضاقت نفسه عن الوفاء وضن بإبله وبغنمه فاستعمل التأويل، وقال: إنما قلت إني أذبح كذا وكذا شاة والظباء شاء، كما أن الغنم شاء: فيجعل ذلك القربان شاءً كله مما يصيده من الظباء فلذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكري:

عنناً باطــلاً وظلمـــاً كمـــا تعـ ـــتر عن حجرة الربيض، الظِباءُ[4]

وكان الرجل من العرب في الجاهلية اذا بلغ إبله ألفاً عار عين بعير منها،

---

1 تفسير الطبري (٨/ ٣٥).
2 الأنعام، الآية ١٣٦ وما بعدها.
3 تفسير الطبري (٨/ ٣٧ وما بعد).
4 الأصنام (١٣)، شرح المعلقات للزوزني (ص ١٦٧)، المعاني الكبير (٢/ ١٠١٢).

وسرحه لا ينتفع به[1]. وكان من عادتهم اذا بلغ إبلهم المئة، ترك ركوب ظهر بعير منها، فلا يركب ولا ينتفع به، ويقولون لذلك: الأخلاق[2].

وكانوا يتصدقون بمائة من الإبل على الفقراء والمحتاجين والمعابد، وما شاكل ذلك. روي أن (حنيفة) النعم، وهو من أثرياء الجاهلية، لما شعر بدنو أجله، جمع بنيه، ثم أوصى بمائة من إبله على يتيمه صدقة. وكانوا يسمونها (المطيبة)[3].

وقد عرف ما كان يحبسه أهل الجاهلية على أصنامهم من السوائب والبحائر والحوامي وغيرها. بـ (الحبس). وقد أطلق الإسلام ما حبسوا وحلل ما حرموا، وهو جمع حبيس[4].

وكانت لهم مكرمات، فعلوها في الجاهلية عن خلق ودين ورغبة في شهرة وسمعة. منها إنهم كانوا يتصدقَون بأموالهم على أبناء السببل وعلى الفقراء والمحتاجين، ذكر أن (الأسود بن ربيِعة بن أبي الأسود) اليشكري، قال لرسول الله: «يا رسول الله إن أبي كان تصدق بمالٍ من ماله على ابن السبيل في الجاهلية، فإن تكن لي مكرمة تركها، وإن لا تكن لي مكرمة، فأنا أحق بها. فقال: بل هي لك مكرمة فتقبلها». وذكر أن رسول الله قال: «ألا إن كل مكرمة كانت في الجاهلية، فقد جعلتها تحت قدمي، إلا السقاية والسدانة»[5]. وهذه المكرمات هي من مآثر العرب في الجاهلية، مكارمها وتفاخرها للتي تؤثر عنها[6].

وتحريم أكل لحوم الحيوانات في مثل هذه الحالات على النساء وتخصيصه بالرجال، وجوازه في حالات أخرى، ثم تحريم الانتفاع من لبنها على النساء في بعض الحالات وعلى الرجال والنساء في حالات أخرى إلاّ للضيوف وعلى جواز ركَوبها: كل هذه تشير إلى أنها من شريعة قديمة. وقد رجع بعض العلماء ذلك إلى الطوطمية، غير أن من العسير قبول هذا التفسير.

وقد كان الجزارون المجازون شرعاً يقومون بذبح الذبائح عند العبرانيين، وهم

---

[1] تاج العروس (١/ ٩٧)، (فقأ)، (٣/ ٤٢٨)، (عور).

[2] Reste, S. 114.

[3] الاستيعاب (١/ ٣٩٥ وما بعدها)، (حاشية على الإصابة).

[4] تاج العروس (٤/ ١٢٥)، (حبس).

[5] الإصابة (١/ ٥٩)، (رقم ١٥٨).

[6] تاج العروس (٣/ ٥)، (أثر).

الذين يقررون صلاح الذبيحة أو عدم موافقتها لأحكام الشرع. أما عند الجاهليين فلا نعرف شيئاً عمن كان يقوم بذبح الضحايا التي تقدم إلى الأصنام، كما أننا لا نستطيع أن نبحث عن الشروط التي كانوا يشترطونها في الذبيحة ليكون لحمها صالحاً للأكل.

والطيب والبخور من أهم المواد التي كان يتقرب الجاهليون إلى آلهتهم بإهدائها إلى المعابد. ولم تكن هذه عادة خاصة بالجاهليين وحدهم، بل هي عادة معروفة في جميع الأديان، ولا تزال باقية مستعملة. يحرق البخور في المباخر والمجامر، لتنبعث روائحه الزكية في أبهاء المعبد. أما الخلوق وأنواع الطيب، فتلطخ بها الأصنام وجدران المعبد، وطالما تقدم المؤمنون إلى آلهتهم بمبخره ليحرق البخور فيها. ومن بين نصوص المسند، نص كتبه مؤمن اسمه (عبد أصدق) وأبناؤه إلى الإلَه (ود)، ذكروا فيه أنهم قدموا إليه مبخرة تعويضاً عن المبخرة التي سرقها اللصوص من معبده[١]. وقد عثر في اليمن على مباخر كبيرة نحتت من الصخر، أهديت إلى المعابد، ليحرق فيها البخور[٢].

وبين ما قدم إلى الآلهة، الملابس والأقمشة وأنواع الأطعمة، حتى اللبن قدّم إلى الصنم (ود) على رواية الأخباريين.

ووردت لفظة (الهدي) في القرآن الكريم[٣]. ويراد بها ما أهدي إلى مكة من النعم وغيره من مال أو متاع. والعرب تسمي الإبل هَدْياً، لأنها تهدى إلى البيت لتنحر، فأطلقت على جميع الإبل، وإن لم تكن هدياً تسمية للشيء ببعضه[٤]. وذكر أن الهدي ما أهدي إلى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة أو ثياب وكل ما يهدى. فهو عام في جميع ما يتقرب به من الذبائح والصدقات. إلاّ إن الاطلاق إنما ينصرف إلى أحد الأصناف الثلاثة من الإبل والبقر والغنم، وسوقها إلى الحرم وذبحها فيه[٥]. وقد ذكر (الهدي) في شعر لزهير بن أبي سلمى:

فلم أرَ معشراً أسروا هدياً ولم أر جار بيت يستباء

---

1 Glasser 324, Handbuch, I, S. 216.
2 Ency. Religi., I, p. 352.
3 البقرة، الآية ١٩٦، المائدة، الآية ٢، ٩٧، الفتح، الآية ٢٥، تفسير الطبري (٦/ ٣٧).
4 اللسان (١٥/ ٣٥٨ وما بعدها).
5 القرطبي، الجامع (٦/ ٣٩).

يذكر رجلاً أسر يشبهه في حرمته بالبدنة التي تهدى[1].

وعرف الهدي المقلد بقلائد، تشعر أنه مما أهدى إلى بيت الله بـ (القلائد). فلا يجوز لأحد أن يتحرش به، أو أن يفك قلائده، لأن ذلك تجاوز على مال الله، وهو مال معلم عليه معروف بقلادته أنه من الهدي المخصص بالبيت. فإذا فكت قلادته سرق وحسب من أموال الناس، الخاصة[2]. والظاهر أن من الجاهليين من كان يتطاول على أموال البيت، يستولي على الهدي، ويفك القلائد، ويسطو بذلك على الإبل المقلدة والبقر المقلد، وذلك كما يظهر من الآية: ﴿لا تحلوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد﴾[3]. ومنهم من كان يسطو على الهدي قبل وصوله موضعه من البيت.

وكانوا يهدون الإبل والبقر إلى بيوت أصنامهم. وقيل للناقة أو البقرة أو البعير تهدى إلى مكة (البدنة). وقد أشير إلى البدن في القرآن، فورد: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾[4]. تهدى إلى بيت الله فلا تركب[5]. وذكر أن البدن السمان من الإبل والبقر[6]. ويظهر من غربلة ما ورد في روايات علماء التفسير عن البدن، أنها الهدايا التي تقدم إلى الكعبة، تحبس فتبقى حية، لا يجوز لأحد التطاول عليها، وكانوا ينحرونها أيضاً. والإبل تنحر قياماً معقولة. فكانوا اذا ا أرادوا نحر البعير، عقلوا إحدى يديه، فيقوم على ثلاث قوائم[7]. ولم يكونوا يركبون البدن إلا عن ضرورة[8]. فالبدن إذن ما يهدى إلى مكة، ليحبس على اسمها، أو ليذبح تقرباً إلى رب البيت.

حمى الآلهة:

ولحماية الحبوس من أرض ومن حيوان، شددت شرائع الجاهليين في وجوب

---

[1] تفسير الطبري (٢/ ١٢٨).
[2] تفسير الطبري (٦/ ٣٧).
[3] المائدة، الرقم ٥، الآية ٢.
[4] الحج، الآية ٣٦، تفسير الطبري (١٧/ ١١٧).
[5] اللسان (١٣/ ٤٨ وما بعدها)، (بدن).
[6] تفسير الطبري (١٧/ ١١٧)، القرطبي، الجامع (١٢/ ٦٠).
[7] القرطبي، الجامع (١٢/ ٦٠)، تفسير الطبري (٧/ ١١٧ وما بعدها).
[8] اللسان (١٣/ ٤٨ وما بعدها)، (بدن).

المحافظة على حرمتها وعدم الاعتداء عليها. وهددت من يتجاسر على مال الأرباب بعقوبة تنزل عليه منها وبغضب الآلهة عليه، وبمصير سيئ يلحق به، فضلاً عن العقوبة التي تنزلها المعابد به، قد تصل حد القتل. فصار من المحظور اعتضاد نبات الحرم وصيد الحيوان فيه، ومن يفعل. ذلك يكون آثماً، وقد يعرض نفسه لغضب الناس عليه. فصار الحرم مرتعاً آمناً للطيور، ولا زال الناس لا يتحرشون بطيور المعابد ولا يمسونها بأي سوء، بل يقدمون لها ما تحبه من المأكول، لتعيش عليه.

وجعلت المعابد لحيواناتها وللهدي وللقلائد مواضع خاصة، اختارتها لترعى فيها جعلت (حمى) للأرباب. لا يجوز لأحد رعي سوائمه بها ولا التطاول على دواب تلك الأحمية، لأنها مما حبس للأصنام. وتكون هذه المواضع مخصبة معشبة ذات حياة، وقد تزرع. وتكون غلتها للمعبد.

الفصل الثامن والستون

رجال الدين

أقصد برجال الدين، أولئك الذين خدموا الأصنام، أو زعموا أنهم ألسنة الأرباب الناطقة على سطح الأرض، والذين كانوا يوجهون الناس توجيهاً روحياً دينياً، ويرعون حرمة المعابد والأماكن المقدسة وشعائر الدين ويحافظون عليها، ويضعون قواعدها للناس.

ومعارفنا عن هذا الموضوع قليلة ضئيلة، لعدم وجود نصوص جاهلية تتحدث عن ذلك، ولعدم ورود شيء مهم عنه في روايات أهل الأخبار. وليس لنا من أمل في زيادة علمنا بهذه الناحية، إلاَّ في المستقبل، فلعله يكشف عن نصوص جاهلية جديدة، قد يرد فيها شيء جديد عن رجال الدين عند الجاهليين، أو في موارد أخرى عربية أو غير عربية قديمة، قد تكون مختبئة مطمورة، يأمر الزمن بإخراجها، ليقف عليها الباحث عن هذا الموضوع.

ومن الألفاظ الخاصة برجال الدين، لفظة (رشو)، الواردة في النصوص المعينية والقتبانية، أطلقت على من كان يقوم بخدمة الإلَه (ود) إله معين الرئيس و(عم) إله شعب قتبان الرئيس[١]. فهي في معنى سادن في لغة أهل الحجاز. ووردت لفظة (شوع) في المعينية أيضاً في المعنى نفسه. و(رشوت) (رشوة).

---

[1] Handbuch, I, S. 131, 218, Katab. Texte, II, S. 80.

بمعنى سادنة وكاهنة. مما يدل على وجود سادنات وكاهنات بين رجال الدين الجاهليين[١].

ووردت في المعينية وفي اللحيانية لفظة (افكل) (أفكل) بمعنى رشو وسادن، أي القائم بأمر الصنم، والسادن له، فورد: (افكل ود)، أي سادن ود[٢]. وتقابل هذه اللفظة لفظة (ابكلو) Apkalu في الأكادية[٣]. وعرفت السادنة بـ (افكلت) (أفكلة)[٤].

والسدنة، قومة الأصنام ومتولو أمرها وكان أمر فتح البيت بمكة وغلقه وتولي أمره الى السادن وهو من (بني عبد الدار)، وقد أقر الرسول السدانة فيهم عام الفتح[٥]. ويعرف السادن بـ(الحاجب) كذلك. فالسدان والحجابة هما بمعنى واحد[٦]. غير أن الحجابة تخصصت بحجابة الملوك والحكام، فصارت وظيفة إدارية ذات مدلول خاص فالحاجب هو الذي يتولى تقديم الناس الى الملوك أو منعهم من الوصول إليهم وذلك في الجاهلية وفي الإسلام. أما السدانة فإنها ظلت محافظة على معناها هذا الخاص بالمعابد والمواضع المقدسة ولهذه المنزلة وصلتها بالآلهة وبالأصنام عدت السدانة من درجات الشرف والجاه وكانت لأصحابها حرمة ومكانة في النفوس.

والسدانة تنتقل بالإرث من الآباء الى أكابر الأبناء وتنحصر في الأسرة فتكون من حقها ومن نصيبها لا يمكن انتزاعها منها إلاّ بقوة لا يمكن التغلب عليها. ومن واجب العشيرة التي تنتمي إليها هذه الأسرة الدفاع عنها إنْ حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها. لقد كانت سدانة الكعبة في (بني عبد الدار)، وكانت حجابة (ود) في (دومة الجندل) الى (بني عامر الاجدار)، (بنو الفرافصة بن الاحوص) من كلب[٧]. وكانت سدنة العزى (من بني

[1] Arabien, S. 249.
[2] Grahmann, S. 87, Jaussen-Savignac,II, 380.
[3] Grahmann, S. 249.
[4] راجع النصوص رقم ٩، ١٢، ٢١، ١٠٤، وكتاب W. Caskel, S. 132.
[5] تاج العروس (٩/ ٢٣٣)، (سدن).
[6] Reste, S. 30.
[7] المحبر (٣١٦)، Reste, S. 130.

صرمة بن مرة)، وكان سدنة (جهار) من (آل عوف) من (بني نصر)[1]، وكان سدنة (سواع) (بنو صاهلة)، من هذيل[2]. وكان سدنة بيت (الربة) أي الشمس، من (بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيّد بن عمرو بن تميم)، وكان سدنة (الفلس)، (بنو بولان)، وكان سدنة (مناة) (الغطاريف) من الأزد. وسدنة (السعيدة) (بنو العجلان)، وسدنة (ذو الخلصة)، (بنو هلال بن عامر)، وكان سدنة (ذو اللبا)، (بنو عامر)، وسدنة (المحرق)، (آل الأسود) العجليوّن. وسدنة (مرحب) (ذو مرحب)، أي من يتولى أمر الصنم[3].

وكان (مسعود) الثقفي، زوج (سبيعة)، وقائد ثقيف في الفجار، من سدنة اللات[4]. وهو من سادات ثقيف. ومن أبنائه (عروة بن مسعود)، وأمه (سبيعة) بنت (عبد شمس). وذكر أنه الذي ذكر الله عزّ وجل في التنزيل من القريتين عظيم. وأحد أربعة اتصل سؤددهم في الجاهلية والإسلام[5].

وكان لهذه الأسر التي تولت السدانة، مكانة كبيرة في قومها، فعدّت من الأسر الشريفة ذات النفوذ عند الجاهليين. وقد استفادت من النذور والقرابين التي تقدم إلى بيوت الأصنام، إذ تكون من حقها ونصيبها. وقد ظهر من (بني مخاشن بن معاوية بن شُريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم)، حكام حكموا بعكاظ[6]. والحكومة من أمارات الشرف والجاه والتقدير، كما ظهر منها أئمة تولوا الإجازة بالمواسم، وهي من علائم التعظيم والتفخيم عندهم.

غير أن هذا الحق لا يستوجب ولا يشترط أن تكون السدانة في أسرة من القبيلة أو الموضع الذي فيه بيت الصنم أو الأصنام، فقد كان كثير من سدنة الأصنام من قبيلة لا تنتمي إليها من يقع بيت الصنم في أرضها. فكانت السدانة مثلاً لبني أنعم في جرش، ولبني الغطريف في قديد، ولبني شيبان في نخلة،

---

[1] المحبر (٣١٥).
[2] المحبر (٣١٦).
[3] المحبر (٣١٦ وما بعدها).
[4] المشرق، السنة ١٩٣٨م، (الجزء الأول)، (ص ٧ وما بعدها).
[5] الاشتقاق (٢/ ١٨٦).
[6] المحبر (١٣٤).

ولآل أمامة في تبالة وهكذا[1]. ويظهر أن هؤلاء توارثوا هذا الحق من عهد سابق، إما لأنهم استوردوا الصنم أو تلك الأصنام إلى هذه المواضع فأقاموا فيها وإما لأنهم كانوا يسكنون مع قبيلتهم في تلك الأماكن، ثمَ حدث لسبب من الأسباب أن جلت قبيلتهم عن الموضع. أما السدنة، ففضلوا البقاء في الموضع الذي كانوا فيه حيث أصنامهم والبيت. ونجد مثل ذلك أيضاً عند العبرانيين[2].

ويظهر من تفسير لفظة (صوفة) و(صوفان)، على رأي بعض العلماء، أن هذه الكلمة كانت تقال لكل من ولي البيت شيئاً من غير أهله. أو قام بشيء من خدمة البيت أو بشيء من أمر المناسك[3]. ومعنى هذا أن خدمة البيت: بيت مكة أو غيره، لم تكن خاصة بأهل الموضع الذي يكون فيه هذا البيت، بل كان من الجائز أن في يتولاها أناس من أهل ذلك الموضع، وأناس من غيرهم أيضاً كأن يقيم أشخاص في ذلك المكان فتطول إقامتهم به وتظهر منهم زعامة أو من أولادهم تؤدي بهم الى الاستحواذ على رئاسة البيت ورئاسة ذلك المكان كالذي كان من أمر (قصي) مثلاً.

ولا بد من إدخال (النسأة)، في رجال الدين. فقد كان الناسئ هو الذي ينسئ النسيء، يعيّن موسم الحج ويثبته للناس فهو إذن فقيه القوم وعالمهم ومفتيهم في أمر الحج[4].

وقد كان من أهم واجبات (النسأة). تثبيت وتعيين الأشهر. فقد كانت لدى الجاهليين أشهر حرم) لها حرمة ومنزلة خاصة في نفوسهم، لما كان لها من علاقة بآلهتهم وبتعبدهم لها، وبالحج فيها إلى معابد الآلهة. مثل شهر (ذ الالت) (ورخن ذ الالت)، وهو شهر خصص بالآلهة، كما يظهر من تسميته بها. يظهر أنه كان شهر تقرب وعبادة الأرباب، ومثل شهر (ذ عم)، (ذو عم)، و(عم) هو إله قتبان الرئيس، فيظهر أنه شهر مقدس خصص بعبادة هذا الإلَه، أو أن يوماً أو عيداً خاصاً به، كان يقع فيه، فدعي لذلك باسمه. ومثل شهر (ذ حجن)، أي شهر (ذو الحجة)، وهو شهر خصص

---

[1] Reste, S. 130.
[2] Reset, S. 31.

[3] الروض الأنف (١/ ٨٥).
[4] المحبر (١٥٦ وما بعدها)، المعاني الكبير (٣/ ١١٧١).

بالحج. ومثل الأشهر الأربعة الحرم التي تتحدث عنها الموارد الإسلامية.

والإجازة بعرفة من الأعمال التي لها تماس بالدين، فهي من شعائر الحج ومناسكه. ولا بد وأن نعدّ (المجيز)، وهو الذي يجيز الناس من المزدلفة إلى منى من رجال الدين. وممن كانت له منزلة وحرمة في قومه، لما لمركزه من أهمية في الحج.

وقد أشار (السكري) الى (أئمة العرب)، فذكر أنهم الذين تولوا أمر المواسم وأمر القضاء بعكاظ، والذين كانوا سدنتهم على دينهم وأمناؤهم على قبلتهم، وكانوا من قريش، والذين تولوا الإفتاء في دينهم. وهم من (بني مالك بن كنانة)[١]. ولما تحدث عن (النسأة)، قال: «نسأة الشهور من كنانة وهم القلامسة، واحدهم قلمّس؛ وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم»[٢]. والفقيه العالم (وفقيه العرب عالمهم)[٣]. والفقه العلم، (وقد جعلته العرب خاصاً بعلم الشريعة). وفقهه تفقيهاً علمه. (ومنه الحديث: اللهم علمهم الدين وفقهه في التأويل، أي علمه تأويله[٤].

وفي القران الكريم ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾[٥]. والفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة[٦]. وقد خصصت اللفظة بعلم الفقه في الإسلام. مما يدل على أن لها صلة منذ أيام الجاهلية بالعلم وبالدين. وأن (الفقهاء)، العلماء بأمور إلدين عند الجاهليين كذلك. وفيه ألفاظ يستدل منها على وجود مفهوم العلم والعلماء والتعلم والدين وفهمه والشريعة والأحكام عند الجاهليين، ولا تكون هذه عند قوم ليس لهم علماء ورجال دين يعلمون منهم دونهم أحكام الدين، ليتفقهوا فيه وليتعلموا ما هو واجب عليهم وما هو غير واجب ومفروض عليهم.

والإفتاء الإجابة عن مسألة ومنه قوله تعالى ﴿قل: الله يفتيكم في الكلالة﴾ و(الفتيا) و(الفتوى) ما افتى به الفقيه في مسألة[٧]. وقد استفتى أصحابه

---

1 المحبر (١٨١ وما بعدها).
2 المحبر (١٥٦).
3 تاج العروس (٩/ ٤٠٢)، (فقه).
4 تاج العروس (٩/ ٤٠٢)، (فقه).
5 التوبة، الرقم ٩، الآية ١٢٢، تفسير الطبري (١١/ ٤٨)، روح المعاني (١١/ ٤٣).
6 تاج العروس (٩/ ٤٠٢)، (فقه).
7 تاج العروس (١٠/ ٢٧٥)، (فتى).

رسول الله الرسولَ في أمر النساء وإرثهن فنزل الوحي: ﴿ويستفتونك في النساء. قل: الله يفتيكم فيهن﴾[1]. فقد كان أهل الجاهلية يستفتون فقهاءهم وأهل الفتيا منهم فيما يشكل عليهم من أمور الدين، فيفتون لهم ما يرونه من رأي واجتهاد. فنحن، إذن أمام فقه في الدين واجتهاد فيه عند أهل الجاهلية.

والإمام ما ائتم به قوم من رئيس أو غيره، كانوا على دين أو كانوا مشركين. فهو الذي يقتدى به[2]. وقد وردت الكلمة في سبعة مواضع من القرآن الكريم في حالة الإفراد، ووردت خمس مرات في حالة الجمع، أي (أئمة)، أطلقت على أئمة الكفر وعلى الغواة كما أطلقت فيه على المؤمنين الهادين إلى الحق. وأئمة الكفر في قوله تعالى: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾، أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان، وهم الذين كانوا يؤذون الرسول، وهمّوا بإخراجه وعادوه[3]. فالإمام إمام دين وإمام دنيا: رجل دين يقتدى به، ورئيس قبيلة وشريف قوم وسيدهم. ونظراً لقلة استعمال اللفظة في الرئاسة الدينية ولاستعمالها في معنى الرئاسة الدينية في الغالب، ولا سيما في الإسلام حيث خصصت برئاسة دينية، من إمامة للمسلمين، وإمامة في الفقه، وإمامة في الصلاة، ولعدم إطلاق الجاهليين لها على سادات القبيلة أو سادة القوم، إلاّ في القليل. فإن في استطاعتنا القول إنها كانت عندهم في معنى الرئاسة الدينية كما هو الحال في الإسلام.

ونجد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد بوجود رجال دين كان لهم رأي في الخلق وفي الخالق وفي الحياة، منهم من بشر برأيه وحاول نشره: ومنهم من تبتل واعتكف وقنع بإيمانه برأيه وبصحة عقيدته. حتى أن منهم من كان قد تبتل وتنسك وسلك طريق الزهاد في اجتناب الطيبات ولذات الحياة، ومن ذلك أكل اللحم. فقد عرف (عبد الله بن عبد الملك بن عبد الله)[4] الغفاري، بـ(أبي اللحم) (آبي اللحم)، لأنه كان يأبى أن يأكل اللحم. وكان شريفاً شاعراً، ينزل (الصفراء)، وشهد (حنين) وقتل بها[5].

---

[1] النساء، الآية ١٢٧، تفسير الطبري (٥/ ١٩١)، روح المعاني (٥/ ١٤٣).
[2] تاج العروس (٨/ ١٩٣)، (أمم).
[3] التوبة، الرقم ٩، الآية ١٢، تفسير الطبري (١٠/ ٦٢).
[4] ذكر «ابن الكلبي» أن اسمه «خلف بن عبد الملك»، وقيل اسمه الحويرث.
[5] الإصابة (١/ ٢٣)، (رقم ١).

وعرف (عثمان بن مظعون) بتبتله، حتى أنه ابتعد عن زوجه، فلم يقربها، وكاد أن يختصي، حتى نهاه عن ذلك رسول الله. وكان على هذا الرأي في جاهليته من شدة التمسك بالزهد عن الدنيا والابتعاد عن ملذاتها، وقد كان نصرانياً متأثراً بالرهبانية، أخذ آراءه هذه من زهاد النصارى، الذين غلب التصوف علهم، وابتعدوا عن الدنيا، ورأوا أن الخلاص من الخطيئة والإثم، هو بالتقشف وبالابتعاد عن كل حلو محبوب في هذه الدنيا[1].

وقد عرفت الجاهلية رجالاً آخرين كانوا مثل عثمان بن مظعون والرهبان في التأمل والتفكر والابتعاد عن الناس. وهي رهبانية حاربها الإسلام، إذ نهى عن الرهبنة. رأى (عمر) رجلاً مطأطئاً رأسه، فقال: ارفع رأسك، فإن الإسلام ليس بمريض. ورأى رجلاً متماوتاً، فقال: لا تمت علينا ديننا، أماتك الله. ونظرت عائشة إلى رجل كاد يموت تخافتاً، فقالت: ما لهذا؟ قيل: إنه من القراء، فقالت: كان عمر سيد القراء، وكان اذا مشى أسرع، واذا قال أسمع، واذا ضرب أوجع[2]. وذكر أن عشرة من الصحابة اجتمعوا في بيت (عثمان بن مظعون)، واتفقوا على أن يصوموا النهار َويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلون اللحم والودك، ويلبسوا المسوح، فسمع، رسول الله بهم، فنهاهم عن ذلك[3].

و(الصارورة) والصرار الذين تبتلوا وتركوا النكاح. وهذا من فعل الرهبان. وهو معروف عند العرب. والصرورة الرجل في الجاهلية يحدث حدثاً فيلجأ الى الكعبة، فلا يهج. فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم، قيل له هو صرورة ولا تهجه، تعظيماً للبيت واحتراماً له[4].

ومثل (صرمة) إلى المعروف بـ (أبي قيس)، وكان ترهب في الجاهلية واغتسل من الجنابة، وهمّ بالنصرانية ثم أمسك. وكان قوّالاً بالحق لا يدخل بيتاً فيه جنب أو حائض الى أن أدرك الإسلام فأسلم ويظهر من ذلك

---

[1] إرشاد الساري (٨/ ١٠ وما بعدها).
[2] اللسان (٢/ ٩٤)، (موت).
[3] الطبرسي، مجمع البيان (٣/ ٢٣٦).
[4] الإصابة (٢/ ١٧٦)، (رقم ٤٠٦١).

أن الاغتسال من الجنابة والابتعاد عن الحائض من الشعائر التي راعاها المتدينون من أهل الجاهلية، من الموحدين الذين تأثروا باليهودية، لكنهم لم يدخلوا فيها ولا في النصرانية، بل أمسكوا عن الديانتين، ودعوا إلى عبادة واحد أحد، وماتوا على هذا الدين.

ومثل (وكيع بن سلمة) الإيادي، صاحب الصرح بحزورة مكة، فقد كان كاهناً ورجل دين، وقالوا كان صديقاً من الصديقين. اتخذ صرحاً يصعد إليه بسلالم، فكان يدعي أنه يناجي ربّه من ذلك الموضع[١]. وكان يعظ الناس وينصحهم التدين بدينه وبالابتعاد عن عبادة الأوثان، على شاكلة الأحناف. وهو في الواقع واحد منهم، ويجب اعتباره أحدهم، لأن ما ينسب اليه ينسب أيضاً إلى الحنفاء.

والصديق الكثير الصدق، ومن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله. «قال الله تعالى واذكر في الكتاب إبراهيم. إنه كان صديقاً نبياً. وقال تعالى: وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام، أي مبالغة في الصدق والتصديق»[٢]. وهم من آمن بالله وصدق به وبشر بعبادته بين الناس، وكان باراً بنفسه وبغيره. وهي بمعنى (بار) في لغة بني إرم[٣].

وقد نسب أهل الأخبار إلى رجال من الجاهليين فتاوى وأحكام صارت سنناً في قومهم. من ذلك ما نسبوه إلى (قصي) من أمور، زعموا أنها صارت سنّةً احتذت بها قريش، وأن بعضاً من أحكامه بقيت إلى الإسلام، فأقرها[٤]، وما نسبوه إلى (عامر بن الظرب) العدواني من حكم في (الخنثى) جرى حكم الإسلام به[٥]. وما ذكروه من إفتاء (عامر بن جشم بن غنم)، المعروف بـ (ذي المجاسد) في التوريث على قاعدة: إن للذكر مثل حظ الانثيين، وهو حكمٌ حكمَ به الإسلام. ومن أمور أخرى، يرد ذكرها في المواضع المناسبة من هذا الكتاب[٦]، مما يدل على أن الحياة الدينية عند الجاهليين، هي آراء وفتاوى، أفتى بها رجل الدين أهل الدين والمروؤة والعقل والعلم من أهل الجاهلية، فأخذ بها قوم من

---

[1] المحبر (١٣٦).
[2] تاج العروس (٦/ ٤٠٥ وما بعدها)، (صدق)، تفسير الطبري (١٦/ ٦٧)؟.
[3] غرائب اللغة (١٩٢).
[4] المحبر (٢٣٦).
[5] المحبر (٢٣٦).
[6] المحبر (٢٣٦ وما بعدها).

أتباعهم، وساروا بموجبها. وبقي بعض منها إلى الإسلام. غير أن تلك الفتاوى لم تكن عامة، شملت كل العرب، بل حتى كل قوم ذلك المفتي أو الإمام، إذ لم تكن عند العرب سنة واحدة ملزمة، لسبب أنهم كَانوا شيعاً وقبائل، ولكراهتهم الخضوع للقيود العامة، إلاّ كرها، وذلك في الأمور التي لا بد لهم من الخضوع لحكمها لأنها من أصول الأعراف التي يقوم عليها وجودهم مثل عرف الأخذ بالثأر.

ومن الصعب تصور وجود طبقة خاصة كبيرة لرجال الدين على نحو ما كان عند المصريين مثلاً أو الآشوريين أو البابليين أو اليونان أو الرومان، أو في الكنيسة، بسبب النظام القبلي الذي كان غالباً على جزيرة العرب. وصغر المجتمعات الحضرية. فالأصنام هي أصنام محلية. أصنام قبيلة، لذلك كان عبدتها هم عبدة القبيلة أو القبائل المتعبدة لها. وفي محيط اجتماعي ضيق مثل هذا المحيط، لا يمكن ظهور طبقة خاصة برجال الدين ذات نفوذ واسع، إنما تكون قدرتها بقدرة المحيط الذي تعيش فيه. ولما كانت حياة البداوة حياة بسيطة غير معقدة، تعذر علينا أن نتصور حياة دينية معقدة عند أبناء البادية. وكل ما يمكن وجوده عندهم، هو ما كان له علاقة بمحيطهم وبمعيشتهم البسيطة، مثل السدانة والكهانة وأمثال ذلك مما يحتاج اليه البدوي لحل مشكلات حياته ولجلب السعادة له.

ولم أجد في نصوص الجاهليين ولا في أخبار أهل الأخبار، ما يفيد قيام رجال الدين من أهل الجاهلية، بتلقين الناس أصول الدين وتعاليمه، أو شرح نصوص دينية لهم. أو تعليمهم الناس مبادئ القراءة والكتابة في المعابد على نحو ما كان يفعله اليهود والنصارى في ذلك الوقت. ولكن هذا لا يكون دليلاً على نفي وجود شيء من ذلك عندهم. فقد يجوز أن يعثر في المستقبل على نصوص تفيد بوجود ذلك عندهم. ذكر أن رجلاً من (خثعم) قال: «كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحلل حراماً. وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون إليها»[1].

وفي القرآن الكريم آيات مثل: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا: هذا لله بزعمهم. وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم، فلا يصل إلى الله، وما كان لله، فهو يصل إلى شركائهم. ساء ما يحكمون.

---

[1] ابن عساكر، التأريخ الكبير (١/ ٣١٧).

وكذلك زين لكثير. من الناس قتل أولادهم، شركاؤهم ليردوهم، وليلبسوا عليهم دينهم. ولو شاء الله ما فعلوه، فذرهم وما يفترون. وقالوا: هذه أنعام وحرث حجرٌ لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، افتراءً عليهم، سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾[1]، وآيات أخرى وكلمات تفيد وجود تسريع ومشرعين لدى الجاهليين، أي رجال دين يبينون لهم الحلال والحرام وأوامر الأصنام، ويشرعون لهم من تشريع كالذي نراه في هذه الآيات وغيرها من أحكام وضعوها للناس باسم آلهتهم، فوبخهم الله في القرآن. على افترائهم هذا على الله وعلى الأصنام التي لا تنطق ولا تعقل.

وكان من أهم واجبات رجال الدين والزهاد والمتنسكين، الإشراف على المعابد وصيانة أموالها، وخدمة الأصنام وتنفيذ الأحكام، وتلبية طلبات الناس في التوسط لدى الآلهة برفع الضر والكرب عنهم، أيام الشدة وساعات العسر. من ذلك التوسل إلى الآلهة. بحفظ القوافل، وإنزال الرحمة بالناس سني القحط. ومن ذلك ما يسمونه بالاستسقاء. فقد كانوا يستسقون إذا أجدبوا، فإذا أرادوا ذلك أخذوا من ثلاثة أشجار وهي: سلع وعشر وشبرق، من كل شجرة شيئاً من عيدانها وجعلوا ذلك حزمة، وربطوا بها ظهر ثور وأضرموا فيها النار، ويرسلون ذلك الثور، فإذا أحس بالنار عدا حتى يحترق ما على ظهره ويتساقط. وقد يهلك ذلك الثور فيسقون[2].

وذكر أنهم كانوا اذا أرادوا الاستمطار في الجاهلية اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر، ثم صعدوا بها في جبل وعر، وأشعلوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرع، فكانوا يرون ان ذلك من أسباب السقيا. ولأمية بن أبي الصلت شعر في ذلك[3].

وكان من عادة أهل مكة في الاستسقاء، إنهم كانوا اذا أجدبوا وقحطوا، واشتدت بهم الحاجة، خرج من كل بطن منهم رجل، ثم يغتسلون بالماء، ويتطيبون، ثم يلتمسون الركن ويطوفون بالبيت العتق سبعاً، تم يرقون أبا قبيس،

---

[1] الأنعام، الرقم ٦، الآية ١٣٧ وما بعدها.
[2] السيرة الحلبية (١/ ١٣٢).
[3] الحيوان (٤/ ٤٦٦ وما بعدها).

فيتقدم رجل منهم، يكون من خيارهم، ومن رجال الدين فيهم، ممن يتبركون به، فيدعو الله ويستغيث، طالباً الرحمة والغوث بالمتوسلين إليه، ويذكرون أن (عبد المطلب)، كان ممن استسقى لأهل مكة ولغيرهم مراراً[1].

التبرك برجال الدين:

ويظهر من أخبار أهل الأخبار، أن رجال الدين من أهل الجاهلية كانوا يباركون أتباعهم ويقدسونهم ويلمسون رؤوسهم لمنحهم البركة والشفاء من الأمراض. فكان أحدهم يضع يده على رأس مريض، أو يلمس جبهته، ليمنحه بركة تشفيه، أو عافية تصيبه، أو تبركاً وتقرباً بذلك إلى الآلهة. وكانوا يتفلون في فم الصبيان، لتكون التفلة بركة لهم، وعافية، وشفاء من مرض، أو علماً يصيب الصبي، حينما يكون رجلاً.

ويظهر من القرآن ومن الحديث النبوي، أن أهل الكتاب من الجاهليين كانوا يبالغون في التقرب من رجال دينهم وفي التبرك بهم، حتى أنهم كانوا يتسابقون في الحصول على قطعة من ملابس أوليائهم ورجال دينهم ورهبانهم ونسّاكهم للتبرك بها. وفي شعر امرىء القيس، وشعر غيره إشارة إلى هذا التبجيل والتعظيم.

تنفيذ الأحكام:

ولم يكن تنفيذ الأحكام الدينية إلزامياً، إنما كان عن طاعة وموافقة. ثم إن العرب لم يكونوا على دين واحد يرجع إلى شرائعه، حتى يلزم المرء بتنفيذ ما جاء في حكمه[2]. فكان أمر إطاعة أحكام رجال الدين رهناً بمكانة رجل الدين وبما له من هيبة ونفوذ بين قومه.

وقد رأينا أن من الناس من كان يثور حتى على آلهته، إذا وجد أنها لم تلبّ طلباته. وأنه كان يتوسل إليها ويلوذ بها لمساعدته عند الشدة، ثم يهددها ويتوعدها

---

[1] السيرة الحلبية (١/ ١٣٢ وما بعدها).
[2] اليعقوبي (١/ ٢٢٧)، (حكام العرب).

بالابتعاد عنها وبترك زيارتها وبنبذها، إن هي صمت آذانها عنه، ولم تجب ما طلبه منها. وقد قصصنا حكاية امرئ القيس مع صنمه، اذ رمي السهام في وجهه وعنفه وشتمه، لأن جواب الاستقسام لم يكن على نحو ما كان يريد. ولم يكن ذلك من عمل أهل الجاهلية وحدهم، بل في وقوع مثل هذه الحوادث في الإسلام أيضاً.

وقد رأينا أن في الجاهليين ــ كما في كل قوم ــ أناس كانوا لا يقيمون وزناً لحلال أو حرام، فكانوا يستحلون المظالم، ولا يجعلون للحرمات حرمة، ويعتدون في الأشهر الحرم. كانوا إذا حضروا الأسواق، أباحوا لأنفسهم الاعتداء فيها على أموال الناس فسمّوا: (المحلون). ومنهم قبائل من أسد وطيء وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقوم من بني عامر بن صعصعة[1]. فهؤلاء لا يعرفون الحلال ولا الحرام، والشهور والأيام عندهم سواء بسواء، يغزون فيها متى شاؤوا، حتى في الأشهر الحرم، اذا لا حرمة عندهم لشهر.

وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر، فيسمون الذادة المحرمون[2]. وهم من بني عمرو بن تميم، وبني حنظلة بن زيد مناة، وقوم من هذيل، وقوم من بني شيبان، وقوم من بني كلب بن وبرة. فكانوا يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس. وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم.

ولم تكن للجاهليين أحكام في الحلال والحرام بالنسبة إلى المأكول على ما يظهر، بل كان مرجع الحرمة والإباحة عندهم إلى عرف القبائل. فلما نزل الأمر في الإسلام بتحريم أكل الميتة، أي الحيوان الميت، عجبت قريش من ذلك، واحتجوا قائلين: كيف تعبدون شيئاً لا تأكلون مما قتل، وتأكلون أنتم مما قتلتم؟ وكانوا يقولون ما الذي يموت، وما الذي تذبحون إلاّ سواء. وذكر «أن ناساً من المشركين دخلوا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: أخبرنا عن الشاة اذا ماتت من قتلها؟ فقال الله قتلها. قالوا: فتزعم ان ما قتلت أنت

---

[1] اليعقوبي (١/ ٢٤٠)، (أسواق العرب).
[2] اليعقوبي (١/ ٢٤٠)، (أسواق العرب).

وأصحابك حلال، وما قتله الله حرام!»[1]. وذكر ان فارس أوحت إلى أوليائها من مشركي قريش ان خاصموا محمداً وقولوا له: ان ما ذبحت فهو حلال وما ذبح الله بشمشار من ذهب، فهو حرام. فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء»[2]. فقد كانت قريش تأكل كل شيء، من ميتة ومختنقة ومن نطيحة وما أكل السبع وما أُهل للصنم، فنزل تحريم ذلك في الإسلام.

وذكر أنهم كانوا يقطعون يسيراً من حلق الشاة ويتركونها حتى تموت، يجعلون عملهم هذا ذكاة لها. وقيل: ذبيحة الشريطة، هي أنهم كانوا يشرطونها من العلة، فإذا ماتت، قالوا: قد ذبحناها. وذكر أن الشريطة الشاة أثر في حلقها أثر يسير كشرط المحاجم، لا يستقصي في ذبحها، والشريطة أيضاً المشقوقة الأذن من الإبل، لأنها شرطت آذانها، واذا كان التعريف الأول صحيحاً، فإن معنى هذا أنهم كانوا يراعون بعض الأحكام في الذبح، أي إن لهم أحكاماً دينية في كيفية الذبح. وقد نهى الإسلام عن أكل الشريطة[3].

واستباح الجاهليون أكل (النطيحة)، وهي المنطوحة التي ماتت من النطح. واستباحوا أيضاً أكل الفريسة والأكيلة والرمية[4].

وقد كان رجال الدين وسادات القبيلة، يحرمون بعض الأشياء على أنفسهم اذا شعروا بوجود ضرر بها، وبأن في فعلها إلحاق أذىً في الإنسان وخدشاً في الاسم فحرم بعض رجال الجاهلية الخمر على أنفسهم تكرماً وصيانةُ لانفسهم، منهم عامر بن الظرب العدواني، وقيس بن عاصم، وصِفوان بن أمية بن محرث الكناني، وعفيف بن معد يكرب، وسويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي. وغيرهم لما وجدوا فيها من ضرر على الأبدان وأثر في العقل وإضاعة للمال[5]. وورد في بعض الموارد أن أول من حرّم الخمر في الجاهلية (الوليد بن المغيرة)، وقيل (قيس بن عاصم) ثم جاء الإسلام بتقريره[6].

---

[1] تفسير الطبري (٨/ ١٢ وما بعده).
[2] تفسير الطبري (٨/ ١٣).
[3] تاج العروس (٥/ ١٦٧)، (شرط).
[4] تاج العروس (٢/ ٢٤٠)، (نطح).
[5] الآمالي، للقالي (١/ ٢٠٤ وما بعدها).
[6] صبح الأعشى (١/٤٣٥).

وذكروا أن أوّل من حرم القمار في الجاهلية (الأقرع بن حابس) التميمي، ثم جاء الإسلام بتقريره. وأن أول من رجم في الزنا في الجاهلية (ربيعة بن حدّان)، ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن. وأول من حكم أن الولد للفراش أكثم بن صيفي، حكيم العرب، ثم جاء الإسلام بتقريره. وأنّ أول من قطع في السرقة في الجاهلية: (الوليد بن المغيرة)، ثم جاء الإسلام بتقريره. وأن أول من سنّ الدية مائة في الإبل (عبد المطلب) جد النبيّ، ثم جاء الإسلام بتقريرها. وأن أول من أوقد النار بالمزدلفة، قصي بن كلاب، وأن أول من أظهر التوحيد بمكة (قس بن ساعدة الإيادي)[1].

ولكننا نجدهم يتقيدون بعرفهم وعاداتهم تقيداً شديداً، والعرف عندهم هو ما استقرّ في نفوسهم وثبت في ذهنهم، حتى صار في حكم الدين عندهم، فلا يجوز لأحد الخروج عليه وكسر حكمه. وعرف القبيلة، الذي هو دينها، هو الذين يعيّن لها الحرام والحلال، والمباح والمحرم. وأحكام رجال القبيلة من رؤساء وسادة وحكّام، هي منبع التشريع والإفتاء في أمور الدين والحقّ في القبيلة. ويلائم طبيعة القبائل، ويناسب عقليتها وينبع من محيطها، يكون ديناً على القبائل إطاعته، لأنه في صالحها جميعاً، ولأن في مخالفته ضرراً بالغاً، فصار من ثم في درجة أحكام الشرع عندها.

ومن قبيل الأعراف التي صارت ملزمة عندهم لكل أحد، وفي حكم الأحكام اللزومية، وجوب احترام العقود والعهود وما اُتفق عليه من عهود. مثل مراعاة الأشهر الحرم بالنسبة للمحرمين. فلا يجوز لأحد القتال فيها ولا الاعتداء على أحدٍ، ولو كان قاتلاً مطلوباً بدم. ومثل مراعاة حرمة الأماكن المقدسة، كالمسجد الحرام، فلا يجوز لأحد التعرض لحيوان لجأ إليه، أو لإنسان لاذ به، ولو كان قاتلاً. وهذا ما حمل البعض على ملازمة (البيت الحرام) وعدم الخروج منه، لأنه غير آمن على نفسه، ولأنه مطلوب بدم.

ومثل ما كان يفعله الناس من التمسك بالعهود والمواثيق والأحلاف. وقد عيب رجلان قتلا رجليْن كان تقلدا لحا شجر الحرم الذي كان أهل الجاهلية يتقلدونه،

---

[1] صبح الأعشى (١/ ٤٣٥ وما بعدها).

ليأمنوا به على أنفسهم، لأنهما قد خالفا بذلك العهود وما اتفق عليه من وجوب مراعاة الحرمات[١].

وقد كان من عرفهم: إنهم كانوا يتقلدون من لحاء شجر مكة، فيقيم الرجل بمكانه، حتى اذا انقضت الأشهر الحرم فأراد أن يرجع إلى أهله قلّد نفسه وناقته من لحاء الشجر فيأمن حتى يأتي أهله. وكان من عرفهم في رواية من روايات أهل الأخبار، أنهم اذا خرجوا من بيوتهم يريدون الحج، تقلدوا من لحاء السمر واذا أرادوا العودة إلى ديارهم تقلدوا قلادة شعر، فلم يعرض لهم أحد بسوء[٢]. وذكر أيضاً، أن الرجل منهم كان يتقلد قلادة من لحاء شجرة من شجر الحرم، ثم يذهب حيث يشاء، فيأمن بذلك[٣]. وأن أهل مكة كانوا يفعلون ذلك في تجارتهم، فيضعون القلائد في أعناقهم وفي أعناق بهائمهم، فلا يعرض لهم أحد بسوء. إذ كانوا يرون الوفاء بالميثاق عهداً في أعناقهم وديناً يلزمهم بالوفاء في أحكامه.

كسوة رجال الدين:

يقول أهل الأخبار في معرض كلامهم على كسوة العرب: «وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم، فكانوا يتفننون في لبوسهم، ويختلفون في كسوتهم، فكان الكَاهن لا يلبس المصبغ والعرّاف لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه، والحكم لا يفارق الوبر والشاعر منهم كان اذا أراد الهجاء دهن أحد شقي رأسه، وأرخى إزاره، وانتعل نعلاً واحدة، وكان لحرائر النساء زيّ، ولكل مملوك زي، ولذوات الرايات زي...»[٤]. لا يظهر من قولهم هذا أنه قد كان لرجال الدين أو لبعض منهم زي، يميزون أنفسهم به عن بقية الناس، وهو شيء معروف عند البشر من قديم الأيام الى اليوم فلا نستبعد وجود زي خاص لرجال الدين عند الوثنيين الجاهليين. أما رجال الدين من أهل الكتاب فقد كانوا يتزيون بزي خاص يميزهم عن بقية أتباعهم. وقد نص على ذلك أهل الكتاب.

---

[1] ألم تقتلا الحرجين إذ أعودا كما   يمران بالأيدي اللحاء المضفرا
تفسير الطبري (٦/ ٣٨).
[2] تفسير الطبري (٦/ ٣٧ وما بعدها).
[3] المصدر نفسه.
[4] بلوغ الأرب (٣/ ٤٠٧).

الفصل التاسع والستون

الأصنام

نجد في كتاب الأصنام لابن الكلبي وفي المؤلفات الإسلامية الأخرى، أسماء عدد من الأصنام كان الجاهليون يعبدونها، وهي على الأكثر أصنام كان يتعبدها أهل الحجاز ونجد والعربية الشمالية، وذلك قبيل الإسلام. ومن هذه الموارد الإسلامية استقينا علمنا عن هذه الأصنام[١].

وقد ذكر أهل الأخبار أن بعض هذه الأصنام إناث. وهن اللات، والعزى، ومناة. وهي أصنام ذكرت في القرآن الكريم: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾[٢]. ويجب أن نضيف إليها الشمس.

اللات:

واللات من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب. ذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء، بنت ثقيف عليها بيتاً صاروا يسمرون اليه، يضاهون به

---

1 كتاب الأصنام، لابن الكلبي، بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٥م (مطبعة دار الكتب المصرية)، (كتاب الأصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه)، الفهرست (١٢٥)، (الرد على عبدة الأوثان)، معجم الأدباء (١/ ١٣٢)، (كتاب الأصنام)، للجاحظ، وقد نقل منه النويري، نهاية الأرب (١٦/ ١٥).

2 سورة النجم، الآية ٢٠.

الكعبة، وله حجبة وكسوة، ويحرمون واديه. وكانت سدانته لآل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك من ثقيفٍ، أو لبني عتاب بن مالك. وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضاً، ويتقربون إليه، حتى أن ثقيفاً كانوا إذا ما قدموا من سفر، توجهوا إلى ببيت اللات أولاً للتقرب إليه، وشكره على السلامة، ثم يذهبون بعد ذلك إلى بيوتهم[1]. فيتبين من ذلك أن معبد اللات الشهير كان في مدينة الطائف، مركز قبيلة ثقيفٍ، يقصده الناس للتبرك به. وقد كانت له معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من الحجاز.

وذكر ابن كثير أن اللات (صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش)[2]، فلم تكن صخرة اللات صخرة ملساء حسب، بل كانت إلى ذلك منقوشة، وكانت في داخل بيت له أستار على شاكلة الكعبة. والفناء هو حرم معظم عند أهل الطائف، تعظيم قريش لحرم البيت. حُرّم على الناس قطع شجره، وصيد حيوانه، ومن دخله صار آمناً[3].

وكانت تحت صخرة اللات حفرة يُقال لها (غبغب)، حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم إلى الصنم. فلما هدم المغيرة الصنم أخذ تلك الأموال وسلّمها إلى أبي سفيان امتثالاً لأمر الرسول[4].

ويظهر من وصف أهل الأخبار لبيت اللات أنه كان على طراز البيت بمكة من حيث المنزلة والاحترام والكسوة. فقد كان يُكسى في كل عامٍ كسوة. ويظهر أن ثقيفاً اتّخذت له سدنة وخدماً يقومون بحراسة البيت وخدمته وتنظيفه على نحو

---

[1] البلدان (٧/ ٣١٠) (اللات)، الأصنام (١٦)، اللسان (٢/ ٣٨٨)، تاج العروس (١/ ٥٨٠)، المحبر (٣١٥)، الواقدي (٣٨٤ وما بعدها)، سبائك الذهب (١٠٤)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٣)، قاموس المحيط (١/ ١٥٦)، تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٨/ ١٦٠ وما بعدها)، (الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ)، تفسير الطبري (٢٧/ ٥٨ وما بعدها)، فتح الباري (١٠/ ٢٣٥، ٢٥٣)، (تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣).

[2] تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣ وما بعدها).

[3] العرب في سوريا قبل الإسلام (١١١ وما بعدها).

[4] الطبري (٣/ ٩٩ وما بعدها) (دار المعارف)، Reste, S. 31

ما كان في مكة وفي بيوت الآلهة الأخرى[1].

ويرى ابن الكلبي أن الصنم (اللات) هو أحدث عهداً من مناة[2]. أما نحن فلا نستطيع أن نجرؤ فنقول بهذا القول، لأن الصنميْن هما من الأصنام القديمة التي ورد ذكرها في كتابات النبط والصفويين ثم أن (هيرودوتس) أشار الى (اللات)، كما سأذكر بذلك وليس من السهل حتى بالنسبة الى ابن الكلبي أو غيره ممن تقدم عليه بالزمن الحكم على زمن دخول عبادة الصنمين الى جزيرة العرب لأن ذلك يعود الى زمن سابق لا تصل ذاكرة الرواة اليه.

ومكان بيت اللات في موضع مسجد الطائف، أو تحت منارة مسجد الطائف. وقد عرف البيت الذي بني على اللات بيت الربة، ويقصدون بالربة اللات، لأنه أنثى في نظر عابديه[3]. ولا ندري أكان إنشاء مسجد الطائف على موضع معبد اللات رمزاً لحلول بيت الله محل بيت الربة، وبيت الأصنام، وتعبيراً عن حلول الإسلام محل عبادة اللات والأصنام، أم كان ذلك لسبب آخر، هو وجود أسس، سابقة وحجارة قديمة موجودة، فاستسهل لذلك إقامة بناء المسجد في هذا المكان؟ وقد فسّر بعض المستشرقين إقامة المسجد في هذا المكان، بأنه تخليد لذكرى الوثنية في نفوس بعض من أسلم لسانه وكفر قلبه، فسرهم قيام المسجد في هذا المكان ليبقى أثراً يذكرهم بذكرى صنمهم القديم اللات[4].

وللأخباريين روايات عن صخرة اللات، منها أنها في الأصل، صخرة كان يجلس عليها رجل، يبيع السمن واللبن للحجاج في الزمن الأول، وقالوا: «إنها سميت باللات لأن عمرو بن لحي كان يلت عندها السويق للحجاج على تلك الصخرة، وقالوا: بل كانت اللات في الأصل رجلاً من ثقيف. فلما مات، قال لهم عمرو بن لحي: لم يمت، ولكن دخل في الصخرة، ثم أمر بعبادتها، وأن يبنوا بنياناً يسمى اللات». وقالوا: «قام عمرو بن لحي، فقال لهم: إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر، يعني تلك الصخرة، نصبها لهم صنماً يعبدونها. وكان فيه وفي العزى شيطانان يكلّمان الناس، فاتخذتها ثقيف طاغوتاً، وبنت لها

---

[1] Das Götzenbuch, S. 93.

[2] الأصنام (١٦).

[3] العرب في سوريا قبل الإسلام (١١٢).

[4] العرب في سوريا قبل الإسلام (١١٢).

بيتاً. وجعلت لها سدنة. وعظمته، وطافت به». وقيل: «كانت صخرة مربعة. وكان يهودي يلت عندها السويق»[١].

وذكر المفسر (أبو السعود) أن هناك روايةً تزعم أن حجر اللات كان على صورة ذلك الرجل الذي قبر تحته، وهو الذي كان يلت السويق، فلما مات، عكفوا على قبره فعبدوه[٢]. وقيل إن اللات: الذي كان يقوم على آلهتهم ويلت لهم السويق[٣].

فنحن أما رأي يزعم أن (اللات) إنسان في الأصل مات، وكان يخدم الأصنام، فيتقدم إليها يلت السويق ويعطيه للناس، فلما توفي، دفن في موضعه الذي كان يلت السويق عنده ثم اتخذه قبره مزاراً، كما اتّخذت قبور أخرى مزارات ينحر عندها ويتبرك بها الناس، ولهذا نهي الإسلام، عن اتخاذ القبور مزارات، حتى لا تعظم من دون الله، كالذي حدث عند الجاهليين[٤].

وذكر بعض أهل الأخبار أن صنم اللات إنما سمّى لاتاً، من (لوى، لأنهم كانوا يلون عليها، أي يطوفون)[٥]، ويعتكفون للعبادة عنده[٦]. ومعنى هذا أن عبّاد هذا الصنم لم يكونوا يكتفون بالذبح عنده، بل كانوا يطوفون حوله طوافهم حول أصنام أخرى. وذكر أنه سمي لاتاً، من اللتات، وكل كل شيء يلت به سويق أو غير نحو السمن[٧].

ولدينا رأي آخر في سبب تسمية اللات لاتاً، خلاصته: «إن الناس اشتقوا اللات من اسم (الله)، فقالوا (اللات)، يعنون مؤنثه منه»[٨]. وذكر

---

1 الأصنام (١٦ وما بعدها)، البلدان (٧/ ٣١٠) (اللات)، النقائض (١٤١)، تاج العروس (١/ ٥٨٠ وما بعدها)، اللسان (٢/ ٣٨٨)، روح المعاني (٢٧/ ٤٧ وما بعدها)، الأزرقي، أخبار مكة (٧٩ وما بعدها) (طبعة لايبزك)، تفسير الخازن (٤/ ١٩٤ وما بعدها).

2 تفسير أبي السعود (٥/ ١١٢).

3 تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥).

4 كان النهي عن ذلك في أول ظهور الإسلام، ثم أذن به، بدلالة الحديث: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور. ألا فزوروها، فإنها تذكركم بالآخرة»

5 تفسير البيضاوي (١/ ١٩٩) (سورة النجم).

6 روح المعاني (٢٧/ ٣٧ وما بعدها).

7 اللسان (٢/ ٨٣) (بيروت ١٩٥٥).

8 تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣ وما بعدها).

الطبرى أن «اللات، هي من الله، ألحقت فيه التاء، فأنثت، كما قيل عمرو للذكر وللأنثى عمرة، وكما قيل للذكر عباس ثم قيل الأنثى عباسة»[١].

وورد في بعض روايات أهل الأخبار أن الثقفي الذي كان يلت السويق بالزيت ويقدمه للناس، لما توفي قبر في موضع اللات، فعكفوا على قبره، فعبدوه وجعلوه وثناً، وزعم بعض آخر أنه قبر عامر بن الظرب العدواني[٢]. فترى هذه الروايات أن (بيت الربة)، هو قبر رجل، دفن، فيه فعبد وصير إلهاً. وزعم قوم أنه كان رجلاً من ثقيف، يقال له (صرمة بن غنم)، وكان يسلأ السمن، فيضعه على صخرة، فتأتيه العرب، فلما مات، عبدته ثقيف[٣].

وتفسير أهل الأخبار لاسم (اللات)، هو بالطبع من تفسيراتهم المألوفة الكثيرة التي لا يمكن أن نثق بها، ولا يمكن أن نحملها على محمل الصدق والعلم. فالاسم هو من الأسماء القديمة التي عرفت قبل الميلاد. ويرى بعض المستشرقين أنه ادغام وسط بين (الالاهت)، (ال سال هت) Al Alahat والإدغام التام (اللات) (ال لت) Allat، على نحو ما حدث للفظ الجلالة: (الا لاه) (ال ـــ ال ه) الذي صار (الله)[٤].

وفي قول أهل الأخبار أن صخرة اللات كانت ليهودي، يلتّ عندها السويق أو لرجل من ثقيف، غمز وطعن في ثقيف، وقد غمز بها في أمور أخرى أشرت إليها في مواضع أخرى. ويعود سبب هذا الغمز إلى المنافسة التي كانت بين أهل الطائف وأهل مكة، ثم إلى الكراهية الشديدة التي حملها أهل العراق وأهل الحجاز وغيرهم للحجاج لأعماله القاسية، وعدم مبالاته ومراعاته للحرمات حتى بالنسبة إلى الكعبة، مما حمل الناس على كرهه وكره قومه ثقيف، وعلى وضع قصص عن ثقيف.

ولا يستبعد أن تكون صخرة اللات صخرة من هذه الصخور المقدسة التي كان يقدسها الجاهليون ومن بينها (الحجر الأسود) الذي كان يقدسه أهل مكة ومن

---

[1] تفسير الطبري (٢٧/ ٣٤)، تفسير الطبرسي (٢٧/ ٤٨ وما بعدها).
[2] روح المعاني (٢٧/ ٤٧ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣ وما بعدها).
[3] الخازن (٤/ ١٩٤ وما بعدها).
[4] رينه ديسو :العرب في سوريا قبل الإسلام (١١٤).

كان يأتي إلى مكة للحج وفي غير موسم الحج، لذلك كانوا يلمسونه ويتبركون به. وإذا أخذنا برأي ابن الكلبي من أن عمرو بن لحي قال للناس: «إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر»، أو أن الرجل الذي كان عند الصخرة لم يمت، ولكن دخل فيها أو أن روح ميت حلت فيها ونظرنا إلى رأيه هذا بشيء من الجد، فلا يستبعد أن يشير هذا الرأي إلى ما يسمّى بـ (الفتيشزم) fetichism أي عبادة الأحجار في اصطلاح علماء الأديان. ويعنون بها عبادة الأرواح التي يزعم المتعبدون لها أنها حالة في تلك الأحجار، وخاصة الأحجار الغريبة التي لم تصقلها الأيدي، بل عبدت على هيأتها وخلقتها في الطبيعة، وهي من العبادات المنحطة بالنسبة الي عبادة الصور والتماثيل والأصنام[1].

وذكر أن قريشاً تعبدت للصنم اللات بموضع نخلة عند سوق عكاظ، وقيل إنه كان بالكعبة[2]. وذكر أن (اللات بيت كان بنخلة تعبده قريش)[3]. ويلاحظ أن من أهل الأخبار من جعل العزى بيت كان بنخلة[4] أي هذا البيت المذكور.

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن منهم من رأى أن اللات بيت للصنم، الذي كان بالطائف، وأن منهم من رأى أنه كان بنخلة تعبده قريش. وأما عباد البيت الأول، فهم ثقيف. ولا أستبعد وجود بيوت عبادة اخرى في غير هذين المكانين في الحجاز وفي غير الحجاز.

واللات من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً، وقد ورد اسمها في نصوص (الحجر) و(صلخد) و(تدمر)، وهي من مواضع النبط[5]. وهو (هـ ل ت) (هـ ــ لت) (ها ــ لت) في النصوص الصفوية[6]، ومعناها (اللات)، لأن (الهاء) حرف تعريف في اللهجة الصفوية. وقد ذكر أكثر من ستين مرة في الكتابات الصفوية. وهو أكثر آلهة الصفويين وروداً في نصوصهم، ويدل ذلك على شيوع عبادته بينهم[7].

---

1 Robertson, p. 209.

2 الخازن (٤/ ١٩٤ وما بعدها)، البيضاوي، سورة النجم (١/ ١٩٩)، روح المعاني (٢٧/ ٤٧ وما بعدها).

3 تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥).

4 تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥).

5 Reste, S. 32, Vogue 6, 8, Euting 3, Waddington 2203, Dussaud-Maclar, Mission, p. 55.

6 Ency. Religi., I, p. 661.

7 العرب في سوريا قبل الإسلام (١١١).

ويذكر الباحثون أن النبط عدّوا اللات أماً للآلهة، وهي في نظر (روبرتسن سمث) الإلهة الأم لمدينة (بطر)، وتقابل الإلهة Artemis عند أهل قرطاجة[١]. وقد عبدت اللات في تدمر، وفي أرض (مدين) عند اللحيانين[٢]. وقد وصف (أفيفانيوس) Epiphanius معبد الإلهة اللات في مدينة (بطرا)، فذكر أنه معبد (الأم العذراء) Virgin mother. كما أنها كانت معبودة عند أهل (الوسة) (الوس) Elusa كذلك. ويظهر أن عبادتها كانت قد انتقلت من النبط ومن القبائل العربية الشمالية إلى أهل الحجاز[٣].

وصنم اللات، هو (أليلات) (أللات) Alilat = Alelat المذكور في تاريخ (هيرودوتس). ذكر أنه من آلهة العرب الشهيرة[٤]. والتسمية عربية النجار، وقد غيرت تغيراً طفيفاً، اقتضته طبيعة اللغة اليونانية، فذكره (هيرودوتس) على النحو المذكور. فهذا الصنم إذن هو أول صنم عربي يرد اسمه في نص مؤرخ يوناني. وهو يقابل الإله Minerva أي (أثينة) Athene عند اليونان[٥].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن (اللات) تمثل (الشمس)، وهي أنثى أي إلهة[٦] أما (رينه ديسو)، فيرى أنها لا تمثل الشمس، وانما تمثل كَوكب الزهرة، وخطأ رأي من يقول إن اللات الشمس[٧].

وقد انتهت إلينا أسماء رجال أضيفت إلى اللات، مثل: (تيم اللات)، و(زيد اللات)، و(عائذ اللات)، و(شيع اللات). و(شكم اللات)، و(وهب اللات) وما شاكل ذلك من أسماء. ومما يلفت النظر أننا لم نلاحظ ورود اسم (عبد اللات) بين أسماء الجاهليين[٨].

وقد أقسموا باللات. كما أقسموا بالأصنام الأخرى، ونسب إلى أوس بن حجر قوله[٩]:

---

1 Smith, p. 56, Reste, S. 33.
2 Arabien, S. 82.
3 Smith, p. 56, Das Götzenbuch, S. 91.
4 Herodotes, I, 181, III, 8, Araabien, S. 82.
5 Arabien, S. 82.
6 Ency. Religi., I, p. 661.

7 العرب في سوريا قبل الإسلام (١١٥).
8 الأصنام (١٨)، المحبر (٢١٣، ٣٢٧، ٣٥٠، ٤٥٣).
9 الأصنام (١١)، (روزا).

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله، ان اللهَ منهن أكبر

وهدم اللات في جملة ما هدم من الأصنام، وأحرق البيت وقوضت حجارته، هدمه بأمر الرسول المغيرة بن شعبة في أغلب الروايات. وكان الناس ينظرون إلى هدمه في خوف وفزع وهلع خشية أن ينالهم شيء من أذى انتقاماً منهم، لأنهم لم يدافعوا عن بيت ربتهم، وكانت نساء ثقيف حسراً يبكين عليه. فلما انتهى الهدم، ولم يحدث لهن شيء، أخذ المغيرة مالها وحليها من الذهب والجزع وأعطاه أبا سفيان، وكان الرسول قد أرسله مع المغيرة في وفد ثقيف الذي جاء اليه عارضاً عليه الإسلام، فأخذه منه أبو سفيان، ليقضي من مال اللات دين عروة والأسود ابني مسعود[١].

ولما أصيبت ثقيف بهزيمة، واحتمت بالطائف قال الشاعر:

وفرّت ثقيف الى لاتهـــا   بمنقلب الخائب الخاســـر[٢]

ويظهر من هذا الشعر الذي ينسب الى (شداد بن عارض الجشمي). وقد قاله حين هدمت وحرقت اللات:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها   وكيف نصركم من ليس ينتصر؟
إن التي حرقت بالنار فاشتعلت،   ولم تقاتل لـــدى أحجارهـــا هدر
إن الرسول متى ينزل بساحتكم   يظعن، وليس بها من أهلها بشر

إن ثقيفا بقيت مخلصة لصنمها مؤمنة به، حتى بعد هدمه وتحريقه، فقال الشاعر شعره، ينهى ثقيفاً عن العود إليها والغضب لها[٣].

ويظهر من بيت ينسب الى كعب بن مالك الأنصاري، هو قوله:

وننسى اللات والعزى ووداً   ونسلبها القلائد والسيوفا[٤]

---

[1] الطبري (٣/ ٩٩ وما بعدها)، البلدان (٧/ ٣١٠)، البداية والنهاية (١/ ١٤٩)، نهاية الآرب (١٨/ ٥٩ وما بعدها)، ابن سيد الناس، عيون الأثر (٢/ ٢٢٩ وما بعدها)، ابن هشام (٢/ ٣٢٦)، الروض الأنف (٢/ ٣٢٦).
[2] الأغاني (١٩/ ٨٠)، المشرق، السنة ١٩٣٨م (جـ١) (ص ٤).
[3] الأصنام (١١/ (روزا)، الإصابة (٢/ ١٣٩)، (رقم ٣٨٥٢).
[4] ابن هشام (١/ ٦٣) (هامش روض الأنف).

إن الناس كانوا يعلقون القلائد والسيوف على تلك الأصنام. وروايات الأخباريين تؤيد هذه الدعوى، إذ نذكر أن الجاهليين كانوا يقدمون الحلي والثياب والنفائس وما حسن وطاب في أعين الناس هدية ونذوراً إلى الأصنام، فكانوا يعلقون ما يمكن تعليقه عليها، ويسلمون الأشياء الأخرى إلى سدنة الأصنام.

وقد ذكر الرحالة الإنكليزي (جيمس هاملتون) أن صخرة اللات كانت لا تزال في أيامه بالطائف. وقد شاهدها فوصفها بأنها صخرة من الغرانيت ذات شكل خماسي، وأن طولها زهاء اثنتي عشرة قدماً[١].

ويظهر أنه كان للات بيت وقبة يحملها الناس معهم حين يخرجون إلى قتال، فينصبان في ساحة الجيش، ليشجع المحاربون فيستميتوا في القتال، وينادي المنادون بنداء تلك الأصنام مثل: يا للات، وقد كانت لبقية الأصنام بيوت وقباب أيضاً[٢]. وعادة حمل الأصنام إلى المعارك والحروب واشتراكها مع الناس في القتال بإحضارها ساحة المعارك عادة قديمة، معروفة عند العرب وعند غيرهم. وقد سبق أن قلت إن الآشوريين ذكروا أنهم أسروا أصنام (أريبي) العرب في أثناء قتالهم معهم، أسروها مراراً، وكانوا يثبتون عليها خبر الأسر. كما أن الفلسطينيين والعبرانيين وغيرهم كانوا يحملون معهم أصنامهم في القتال[٣].

العُزى:

والعزُى صنم أنثى كذلك، وهي أحدث عهداً في نظر ابن الكلبي من اللات ومناة. وأما الذي اتخذ العُزى على رواية ابن الكلبي، فهو ظالم بن أسعد. وضعت (بوادٍ من نخلة الشامية، يقال له حراض، بأزاء الغمير، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال، فبنى عليها بيساً (يريد بيتاً)، وكانوا يسمعون فيه الصوت،[٤] وينسب اليه بيت العزى كذلك.

---

[1] James Hamilton, Sinai, The Hegaz and Soudan, London, p. 150, (1857).

[2] Das Götzenbuch, S. 83.

[3] صموئيل الأول، الإصحاح الرابع، الآية ٥ وما بعدها، صموئيل الثاني، الإصحاح الخامس، الآية ٢١، الإصحاح ١١، الآية ١١.

[4] الأصنام (١٧ وما بعدها)، البلدان (٦/ ١٦٥) (العزى)، سبائل الذهب (١٠٤)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٦ وما بعدها)، تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥)، المحبر (١٢٤، ٣١١، ٣١٥)، تفسير الطبرسي (٢٧/ ١٧٥)، (طهران).

وقد زعم بعض أهل الأخبار أن (العزى) كان بيتاً بالطائف تعبده ثقيف. ويظهر أن هذا اشتباه قد وقع لهم، وأنهم خلطوا بين اللات والعزى، فتوهموا أن بيت اللات هو العزى فقالوا ما قالوه. ونجد في تفسير الطبري تأييداً لهذا الرأي[1].

وورد في بيت شعر ينسب إلى (حسان بن ثابت) أن بيت العزى كان (بالجزع من بطن نخلة)[2].

ويظهر أن العزى كانت (سمرات)، لها حمى، وكان الناس يتقربون إليها بالنذور. وهي بالطبع عبادة من العبادات المعروفة للشجر[3]. وقد ذكر الطبري روايات عديدة تفيد أن (العزُى) شجيرات، ولكنه أورد روايات أخرى تفيد أنها حجر أبيض[4]. فنحن إذن أمام رأييْن: رأي يقول إن العزى شجيرات، ورأي يرى أنها حجر. وذكر (ابن حبيب) أن العزُى شجرة بنخلة عندها وثن تعبدها غطفان، سدنتها من بني صرمة بن مرة[5]. وذكر غيره أنها سمرة لغطفان[6].

وقد تسمى العرب وقريش بالعزى، فقالوا: (عبد العزى)[7]. وقد أقسموا بها، ولها يقول درهم بن زيد الأوسي:

إني ورب العزى السعيدة والله الذي دون بيته سرف[8]

وأقدم من سمي باسم (عبد العزى) في رأي ابن الكلبي هو عبد العزى بن كعب[9]. وقد ذكر ابن دريد أسماء عدد من أهل مكة عرفوا بـ (عبد العزى)،

---

[1] تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥)، (العزى بيت بالطائف تعبده ثقيف).
[2] الأزرقي، (ص ٧٨ وما بعدها).
[3] أخبار مكة، للأزرقي (٢/ ٧٤)، اللسان (٥/ ٣٧٨)، (عز)، تاج العروس (٤/ ٥٥)، تفسير الخازن (٦/ ٢١٧ وما بعدها)، الشوكاني، فتح (٥/ ١٠٥)، تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٨/ ١٦٠ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣).
[4] تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥).
[5] المحبر (٣١٥)، تفسير الطبرسي (٢٧/ ٤٨ وما بعدها)، تفسير البيضاوي (١/ ١٩٩).
[6] مراصد الإطلاع (٩٣٧).
[7] الأصنام (١٦ وما بعدها).
[8] الأصنام (١٣) (روزا)، مراصد الإطلاع (٩٣٧).
[9] الأصنام (١٨).

منهم بـ (عبد العزى بن قصي)، و(عبد العزى بن عبد مناف)، و(عبد العزى بن عبد المطلب)[١].

ويظهر من هذا الشعر المنسوب إلى (زيد بن عمرو بن نفيل):

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعـل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني غنم أزور[٢]

أن عباد العزى كانوا يتصورونها أماً، ولها ابنتان، ولعله أراد بـ (ابنتيها) اللات ومناة. وقد نسب بعض أهل الأخبار عبادة العزى إلى عمرو بن لحي جرياً على عادتهم في نسبة عبادة الأوثان إليه، فقالوا إنه قال لعمرو بن ربيعة والحارث ابن كعب: إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعزى لحر تهامة[٣]. وفي رواية لابن اسحاق: إن عمرو بن لحي اتخذ العزى بنخلة، فكانوا اذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة، لم يحلوا حتى يأتوا العزى، فيطوفون بها، ويحلون عندها، ويعكفون عندها يوماً. وكانت لخزاعة. وكانت قريش وبنو كنانة كلها تعظم العزى مع خزاعة وجميع مضر. وكان سدنتها الذين يحجبونها بنو شيبان من بني سليم، حلفاء بني هاشم[٤].

وتشير رواية من زعم أن عمرو بن لحي قال لقومه: «إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعُزى لحر تهامة»، صحت أو لم تصح، إلى وجود صلة بين اللات والعُزى. وقد ذكرت العُزى بعد اللات في القرآن الكريم. وكذلك ترد بعد اللات في جميع روايات الأخباريين. مما يشير إلى وجود صلة بين اللات والعزى. ولا يستبعد ان تكون هذه الصلة بين الصنمين قد جاءت إلى أهل الحجاز من بلاد الشأم من أهل تدمر وبادية الشأم والصفويين، إذ وردا وكأنهما إلهان متقابلان، فحمل ذلك بعض المستشرقين على تصور أنهما يمثلان كوكبين: كوكب الصباح وكوكب المساء[٥].

---

1 الاشتقاق (٣٤٨) (الفهرست).
2 الأصنام (١٤) (روزا).
3 الأزرقي، أخبار مكة (١/ ٧٤) (باب ما جاء في اللات والعزى).
4 الأزرقي (١/ ٧٤ وما بعدها).
5 العرب في سوريا قبل الإسلام (١٢٥).

والعزُى مثل اللات ومناة من الآلهة المعبودة عند عرب العراق وعرب بلاد الشأم، وعند النبط والصفويين. وقد ذكر اسم العزى مرتين في المصادر المؤلفة بعد الميلاد، وأشار اسحاق الأنطاكي Isaac of Antioch من رجال القرن الخامس للميلاد، إلى اسم العُزى في حديثه عن مدينة (بيت حور) Beth-Hur ودعاها بـ Beltis، وسماها (كوكبتا). ويظن أن (كوكبتا) Kawkabta، أي (كوكبة) المذكورة في المصادر السريانية، هي أنثى كوكب، تعني الكوكب الذي يظهر عند الصباح، وهو العُزى عند الجاهليين[١]. ويراد بها (الزهرة) Venus، عند النبط[٢]. حيث اتخذوا لها معبداً في مدينة (بصرى) في منطقة (رم) عرف بـ (بيت ايل) وقد نص (بروكوبيوس)، Procopius على أنها (أفروديت)[٣]. وهي كناية عن القمر على رأي بعض المستشرقين[٤].

ولعل العزى هي (ملكة السماء) Melekheth Hash-Shama المذكورة في سفر (ارميا)[٥]، وقد جاء فيه: إن أهل (اورشليم) كانوا يصنعون كعكاً، يتقربون به إلى تلك الإلهة: إلهة السماء. وقد كان الجاهليون يتقربون بالخبز والكعك إلى (كوكب السماء)[٦].

ويظهر من ورود اسم امرأة هو: (امت عزى)، (أمة العزى)، في نص عربي جنوبي، أن عبادة العزى كانت معروفة هناك. وقد قدم أحد العرب تمثالاً من ذهب إلى هذه الإلهة[٧].

وقد كان آل لخم، ملوك الحيرة، ينحرون الأسرى قرباناً للعزى. وقد زعم بعض المؤرخين السريان أن (المنذر بن ماء السماء) ضحى بأربع مئة راهبة للعزى[٨].

---

1 Reste, S. 40, Ency. Vol. IV, p. 1059, Rothstein, S. 81, 141, Shorter Ency. of Islam, p. 617.
2 Arabien, S. 82.
3 Procopius, De Bello Persi, II, 28, Arabien, S. 28, 82.
4 Arabien, S. 82, Reste, S. 40, Rychmans, 15.
5 أرميا، الإصحاح السابع، (الآية ١٨ وما بعدها).
6 Hastings, p. 778, Das Götzenbuch, S. 95.
7 Das Götzenbuch, S. 96\4.
8 Malalas, II, 166, Nöldeke, Sassaniden,S. 171, Ghass, II, Anm. 3, Theophanes, 273, Land, Anecd. Syr., III, 247, Rothstein, S. 81, Paulys-Wissowa, Erster Halband, 1893, S. 1281.

وذكر (إسحاق الأنطاكي) أن العرب كانوا يقدمون الأولاد والبنات قرابين للكوكبة (كوكبتا)، فينحرون لها، ويقصد بـ (كوكبتا) العزى[1].

وكانت قريش تتعبد للعزى، وتزورها وتهدي إليها، وتتقرب إليها بالذبائح. وذكر ابن الكلبي أنها كانت أعظم الأصنام عند قريش، وأن قريشا كانت تطوف بالكعبة وتقول: «واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى. فإنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى». وكَانوا يقولون: هن بنات الله، وهن يشفعن إليه. وكانت قريش قد حمت لها شعباً من وادي حراض، يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة. وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم، يقال له الغبغب، فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها[2].

وكانت قرِيش تستعين بأصنامها حين تحارب، تستجير بها وتستمد منها العون في الحرب[3]، لتبعث الهمة والنشاط في النفوس بذكرها. فلما كان يوم أحد نادى (أبو سفيان): «اعلُ هبل، اعلُ هبل» فقال المسلمون: «الله أعلى وأجل». فقال (أبو سفيان): «لنا العزى ولا عزى لكم». فقال المسلمون: «الله مولانا ولا مولى لكم»[4].

ويقول ابن الكلبي أيضاً: «ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى، ثم اللات، ثم مناة.. فأما العزى، فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش للعزى وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين، وكلهم كان معظماً لها»، أي للعزى[5].

ولابن الكلبي رأي في اقبال قريش على العزى، إذ يقول: «فأما العزى، فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية. وذلك فيما أظن لقربها منها»[6]. فجعل قرب بيت العزى من قريش، هو السبب في إقبال قريش عليها.

---

[1] Issak von Antiochia, Opera, I, 220, (Ed. Bickell), Reste, S. 40, Das Götzenbuch, S. 96.

[2] الأصنام (١٨) وما بعدها، (١٢) (طبعة روزا كلينكه روزنبركر) بمدينة (لايبزك ١٩٤١م).

[3] Arabien, S. 83.

[4] تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣)، الطبري (٢/ ٥٢٦)، «معركة أحد».

[5] الأصنام (٢٧).

[6] الأصنام (١٦) (روزا).

وهو يرى هذا الرأي نفسه حين تكلم على الأصنام: ود، وسواع، ويعوق، ونسر، وقارن بينها وبين الأصنام اللات والعزُى ومناة، إذ قال: «ولم يكونوا يرون في الخمسة الأصنام التي دفعها عمرو بن لحي.. كرأيهم في هذه ولا قريباً من ذلك. فظننت أن ذلك كان لبعدهم منهم»[١].

وقال ابن الكلبي في كتابه الأصنام «وقد بلغنا أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ذكرها يوماً، فقال: لقد أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا على دين قومي»[٢].

وكان فيمن يتقدم إلى العُزى بالنذور والهدايا، والد خالد بن الوليد. ذكر خالد أن والده كان يأتي العزى بخير ما له من الإبل والغنم، فيذبحها للعزى، ويقيم عندها ثلاثة أيام[٣].

وممن تعبد للعزُى بنو سليم وغطفان وجشم ونصر وسعد بن بكر[٤]. وغني وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة. وقد ارتبطت قبائل غطفان بعبادة العزُى وتقديمها بصورة خاصة، حتى لقد ذكر (ياقوت الحموي) أن (العزُى سمرة كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتاً، وأقاموا لها سدنة)[٥]. وقد عرف البيت بـ (كعبة غطفان)[٦]. وذكر (الطبري) أن العُزى (صنم لبني شيبان)، بطن بن سليم حلفاء بني هاشم، وبنو أسد بن عبد العزى، يقولون: هذا صنمنا، وإنها (كَانت بيتاً يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها)[٧]. وقد تعبدت لها ثقيف كذلك، بأن اتخذت صنماً[٨]. والظاهر أن قريشاً كانت تعدّ العزى حامية وشفيعة لها[٩].

وكان لحرم العزى شعب حمته قريش للصنم، يقال له سقام في وادي حراض

---

1 الأصنام (١٧) (روزا).
2 الأصنام (١٨) وما بعدها، (١٢) (طبعة روزا روزنبركر).
3 الأزرقي، أخبار مكة (٧٨ وما بعدها).
4 تفسير الطبرسي، مجمع البيان (٥/ ٣٦٤)، اليعقوبي (١/ ٢٢٥).
5 البلدان (٦/ ١٦٦)، (٤/ ١١٦)، (صادر).
6 Shorter Ency., p. 617, Arabien, S. 83.
7 الطبري (٣/ ٦٥)، (دار المعارف).
8 Arabien, S. 83, Doughty, Documents Epigraphiques, 35, Travels in Arabia Deserta, II, p. 511, 515.
9 Arabien, S. 83.

على طريقة قريش في اتخاذ حرم للكعبة. وقد صار هذا الحمى موضعاً آمناً لا يجوز التعدي فيه على أحد، ولا قطع شجره، ولا القيام بعمل يخل حرمة المكان[١]. فذاك قول أبي جندب الهذلي ثم القردي في امرأة كان يهواها، فذكر حلفها له بها:

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة   بفرع التي أحمت فروع سقام[٢]

وينسب (ابن الكلبي) بناء (بيت العزى) إلى (ظالم بن أسعد)، إذ يقول: «بس: بيت لغطفان بن سعد بن قيس عيلان كانت تعبده. بناه ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك، بن مرة بن عوف، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة، فذرع البيت. ونص العباب: وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة، فرجع إلى قومه، وقال: يا معشر غطفان، لقريش بيت يطوفون حوله والصفا والمروة، وليس لكم شيء، نبنى بيتاً على قدر البيت، ووضع الحجرين فقال: هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج. فأغار زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي، فقتل ظالماً، وهدم بناءه»[٣].

وجاء في رواية أخرى أن (بني صداء) قالوا: أما والله لنتخذن حرماً مثل حرم مكة، لا يقتل صيده، ولا يعضد شجره، ولا يهاج عائذه، فوليت ذلك بنو مرة بن عوف. ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه رباح بن ظالم ففعلوا ذلك، وهم على ماء لهم يُقال له بس، فلما بلغ فعلهم هذا وما أجمعوا عليه زهير بن جناب، قال: والله لا يكون ذلك وأنا حي، ولا أخليّ غطفان تتخذ حرماً أبداً، ثم سار في قومه حتى غزا غطفان، وتمكن منها، واستولى على الحرم، وقطع رقبة أسير من غطفان به، وعطل الحرم وهدمه[٤].

وذكر بعض أهل الأخبار، أن العزى صنم كان لقريش وبني كنانة، أو سمرة عبدتها غطفان بن سعد بن قيس عيلان. أول من اتخذها منهم: (ظالم بن أسعد)

---

1 البلدان (٥/ ٩١)، (٦/ ١٦٦).
2 الأصنام (١٢) (روزا).
3 الأغاني (٢١/ ٦٣)، تاج العروس (٤/ ١٠٩)، البلدان (٢/ ١٧٩)، اللسان (٧/ ٣٢٧)، (بس).
4 الأغاني (٢١/ ٦٣).

فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال، بالنخلة الشامية بقرب مكة، وقيل بالطائف، بنى عليها بيتاً وسمّاهُ بُساً، وقيل بساء، وأقاموا لها سدنة مضاهاة للكعبة، وكانوا يسمعون فيها الصوت، فبعث إليها رسول الله خالد بن الوليد، عام الفتح، فهدم البيت، وقتل السادن وأحرق السمرة[١].

ويظهر مما تقدم أن البيت هدم مرتين: مرة في الجاهلية، على يد زهير بن جناب، وقتل إذ ذاك بانيه ظالم، والمرة الثانية عام الفتح على يد خالد بن الوليد[٢].

وأما سدنة العزى، فكانوا من بني صرمة بن مرة، أو من بني شيبان بن جابر بن مرة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور. فهم من بي شيبان، من بني سليم حلفاء بني هاشم[٣].

وكان آخر سادن للعزُى (دبية بن حرمي السلمي ثم الشيباني)، قتله خالد بن الوليد بعد هدمه الوثن والبيت وقطعه الشجرة أو الشجرات الثلاث[٤]. وفي رواية: أن هدم العزى كان لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان، وكان سادنها أفلح بن النضر السلمي من بني سليم. فلما حضرته الوفاة دخل عليه أبو لهب يعوده وهو حزين، فقال له: ما لي أراك حزينا؟ قال أخاف أن تضيع العُزى من بعدي قال ابو لهب فلا تحزن فأنا أقوم عليها بعدك. فجعل أبو لهب يقول لكل من لقي: إن تظهر العزى، كنت قد اتخذت عندها يداً بقيامي عليها؛ وإن يظهر محمد على العزى وما أراه يظهر، فابن اخي. فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿تبت يدا ابي لهب وتب﴾[٥]. وتدل هذه الرواية إن صحت على ان أفلح بن النضر لم يكن آخر سادن للعزى، وأن الهدم لم يكن في حياته وانما كان بعد وفاته.

وتشبه هذه القصة قصة أخرى وردت في الموضوع نفسه عن أبي أحيحة

---

[1] تاج العروس (٤/ ٥٥)، (عزز).
[2] تاج العروس (٤/ ١٠٩)، (بس).
[3] الطبري (٣/ ٦٥) (دار المعارف)، تاج العروس (٤/ ٥٦)، (عزز).
[4] البلدان (٦/ ١٦٧ وما بعدها)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٥)، ابن هشام (١/ ٦٥) (هامش الروض الأنف)، الطبري (٣/ ١٢٣)، (٣/ ٦٥) (دار المعارف)، الأصنام (١٥) (روزا)، (ودبية بن حرمس السلمي سادن العزى)، تاج العروس (١٠/ ١٢٤)، (دبي).
[5] أخبار مكة، للأزرقي (١/ ٧٦)، البلاذري، أنساب (١/ ١٢١).

وأبي لهب. فلما مرض أبو أحيحة، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، مرضه الذي مات فيه، كان أهم ما شغل باله عبادة العزُى وخشيته أن لا تعبد من بعده، فلما أجابه ابو لهب مهوناً عليه الأمر: رد واللهِ ما عبدت حياتك (لأجلك)، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك سره هذا الجواب، وأفرج عنه. فقال: «الآن علمت إن لي خليفة»[1].

ويروي ابن الكلبي أن الرسول أمر بالقضاء على العزُى، وذلك عام الفتح، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له: ايت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى. فأتاها فعضدها، فلما جاء إليه عليه السلام، فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال لا، قال: فاعضد الثانية؟ فأتاها فعضدها. ثم أتى النبي عليه السلام، فقال: هل رأيت شيئا؟ قال: لا. قال: فاعضد الثالثة. فأتاها. فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها دبية بن حرمي الشيباني ثم السلمي، وكان سادنها. فلما نظر إلى خالد، قال:

أعزّ شدي شـــدة لا تكذبي   على خالد ألقي الخمار وشمري
فإنك ألا تقتلي اليوم خالداً   تبوئي بذل عـــاجلاً وتنصري

فقال خالد:

يا عز كفرانـــك، لا سبحانك   إني رأيت الله قـــد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حممة. ثم عضد الشجرة، وقتل دبية السادن. ثم أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فأخبره فقال: تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب. أما أنها لن تعبد بعد اليوم[2].

---

[1] الأصنام (٢٣).
[2] الأصنام (١٥ وما بعدها) (روزا) ويختلف نص الشعر المذكور المنسوب إلى (دبية) في كتاب الأصنام بعض الاختلاف عن نص تأريخ الطبري (٣/ ٦٥)، إمتاع الأسماع (١/ ٣٩٨)، تفسير الطبرسي (٢٧/ ٤٨ وما بعدها)، روح المعاني (٢٧/ ٤٧ وما بعدها)، الأزرقي (٧٨ وما بعدها).

ويظهر من شعر لـ (أبي خراش الهذلي) أن (دبية) كان كريماً، يطعم الناس، عظيم القدر، له جفنة حين الشتاء، وقد مدحه، إذ حذاه نعلين جيدين، كما رثاه يوم قتل بأبيات ذكرها (ابن الكلبي) في كتابه الأصنام[1].

وذكر بعض أهل الأخبار أن (خالد بن الوليد) هدم بيت العزى عام الفتح، وقتل إذ ذاك سادنه (ربيعة بن جرير السلمي)[2]. وروايات الأخبارين عن العُزى يكتنفها شيء من الغموض واللبس، ويدل ذلك على أنهم لم يكونوا على علم تام بالعُزى. فبينما هم يذكرون أن العزى شجرة أو سمرة[3]. تراهم يذكرون في روايات أخرى أنها شيطانة تأتي ثلاث سمرات، أي إن العزى هي تلك الشيطانة، لا السمرة أو السمرات الثلاث[4]. ثم تراهم يذكرون في روايات أخرى أن العزى صنم، وأن الرسول حينما أمر خالد بن الوليد بهدمه، قال له لما هدم العزى، وعاد: «أرأيت شيئاً قال: لا، قال: فارجع فاهدمه، فرجع خالد إلى الصنم، فهدم بيته، وكسر الصنم، فجعل السادن يقول: أعزى اغضبي بعض غضباتك. فخرجت عليه امرأة حبشية عريانة مولولة، فقتلها وأخذ ما فيها من حلية، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بذلك، فقال: تلك العزى، ولا تعبد العزى أبداً»[5]. ومعنى هذا أن العزى صنم، كان في داخل بيت العُزى، وأن خالد بن الوليد كسره، وهدم بيته. ولم يكن شجرة. أما تلك السمرة أو السمرات الثلاث، فلم تكن إلاّ أشجاراً نبتت في حرم البيت. لذلك صارت محرمة لا يجوز مسها بأي سوء كان.

وقد سمىّ بعض أهل الأخبار اسم اخر سدنة العزى (دُبَيَّة) و(دبية بن

---

1 الأصنام (١٤ وما بعدها) (روزا).
2 تاج العروس (٤/ ١٠٩)، (بس)، ابن سعد، حلقات (٢/ ١٤٦).
3 السمر: شجر صغار الورق قصار الشوك وله برمة صفراء يأكلها الناس، وليس في العضاه شيء أجود خشباً من السمر، بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٤)، تاج العروس (٤/ ١٠٩)، (بس).
4 البلدان (٦/ ١٦٧ وما بعدها)، المحبر (٣١٥)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٤)، الأصنام (١٥ وما بعدها)، (روزا).
5 الطبري (٣/ ٦٥) (دار المعارف)، روح المعاني (٢٧/ ٤٧ وما بعدها).

حرمس السلمي)[1]، وسمّاه بعض آخر (ربية السلمي)، و(ربية بن جرمي)[2]، و(ربيعة بن جرير السلمي)[3].

والرأي المعقول المقبول، هو أن العزى صنم، له بيت، وأمامه غبغب، أي خزانة يضع فيها العباد المؤمنون بالعزى هداياهم ونذورهم لها، كما كانوا ينحرون لها، إذ لا يعقل أن يقال إن خالداً كسر الصنم وهدم بيته[4]. ثم لا يكون العزى، صنماً بل يكون شجرة، أو شجرات. وأما الشجيرات، فإنها شجيرات مقدسة أيضاً، لأنها في حرم العزى، وشجر الحرم هو شجر مقدس لا يجوز قطعه، ولذلك كان أهل مكة يتجنبون مس شجر الحرم بسوء، فلما أراد (قصي) اعتضاده، هابت قريش عمله وخافت سوء العاقبة، ونهته عن مسه بسوء، ولكنه أقدم على قطعه، لم يبال برأيهم، ولم يحفل بنصائحهم، فقطعه. وكان بيت العزى يسمع فيه الصوت. وقد ذكر الأخباريون أنه كان في كل من اللات والعزى ومناة شيطانة تكلمهم، وتظهر للسدنة وقد نسبوا ذلك إلى صنع إبليس[5]. والظاهر أن الحبشية المذكورة التي قتلها خالد، وزعم أنها شيطانة إن صح ما ذكره الرواة عن وجودها، كانت امرأة كان السادن يخفيها في موضع سري، وهي التي تجيب عن أسئلة السائلين فينسب السادن كلامها الى العزى.

ومما يؤيد رأيي في أن (العزى) صنم، ما ورد في تفسير (الطبري) من قوله: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، خالد بن الوليد إلى شعب بسقام ليكسر العزى، فقال سادنها، وهو قيمها: يا خالد أنا أحذركها إن لها شدة لا يقوم إليها شيء. فمشى إليها خالد بالفأس فهشم أنفها»[6]. مما يدل على أنها كانت صنماً أنثى، أي تمثالاً لامرأة، لأنها أنثى.

ويظهر من هذا البيت:

أما ودمـــاء مائرات تخالها   على قنة العزى وبالنسر، عندما[7]

---

1 بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٤).
2 تاج العروس (٤/ ٥٥ وما بعدها)، (عزز).
3 تاج العروس (٤/ ١٠٩)، (بس).
4 المحبر (١٢٣).
5 الأزرقي (١/ ٧٥)، (باب ما جاء في اللات والعزى).
6 تفسير الطبري (٢٤/ ٥)، تفسير القرطبي (١٥/ ٢٥٨).
7 اللسان (١٣/ ٣٤٩)، (قنن).

أن عبّاد العزى كانوا قد لطخوا قنة الصنم، أي أعلاه ورأسه بدم الأضاحي. وكذلك فعل عباد الصنم نسر بقنة صنمهم.

مناة:

ويعد الصنم مناة أقدم الأصنام عند الأخباريين. وهو من الأصنام المذكورة في القرآن الكريم: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾[١]. وهذه الأصنام الثلاثة هي إناث في نظر الجاهليين.

وموضع مناة بالمشلل على سبعة أميال من المدينة[٢]، وبقديد بين مكة والمدينة[٣]، وقيل أيضاً إنه بموضع (ودان) أو في موضع قريب منه[٤]. وذكر اليعقوبي أن مناة كان منصوباً بفدك مما يلي ساحل البحر[٥]. والرأي الغالب بين أهل الأخبار أنه كان على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد[٦]. وذكر (محمد بن حبيب) أنه كان بسيف البحر وكانت الأنصار وأزد شنؤة وغيرهم من الأزد تتعبد له. وأما سدنته، فهم (الغطاريف) من الأزد[٧]. وذكر أن تلبيته كانت على هذه الصورة: «لبيك اللهم لبيك، لولا أن بكراً دونك، يبرك الناس ويهجرونك، وما زال حج عثج يأتونك. أنا على عدوائهم من دونك»[٨].

وتسكت أكثر روايات أهل الأخبار عن معبد (مناة) فلم تذكر شيئاً عنه،

---

[1] النجم، الآية ١٩ وما بعدها.
[2] تاج العروس (٣٥١/١٠)، تفسير الطبري (٢٧/ ٣٢ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣ وما بعدها)، تفسير الخازن (٤/ ١٩٤ وما بعدها)، تفسير أبي السعود (٥/ ١١٢)، اللسان (١٦٧/٢٠)، تفسير الطبرسي (٢٧/ ٤٨).
[3] مجمع البيان (٩/ ١٧٦)، البلدان (٢/ ٩٤٤)، عمدة القارئ (٩/ ٢٨٧).
[4] البلدان (٨/ ١٦٧ وما بعدها).
[5] اليعقوبي (١/ ٣١٢)، (١/ ٢٢٥).
[6] ابن هشام (١/ ٨٧)، الأصنام (١٣ وما بعدها)، الروض الأنف (١/ ٦٥)، أخبار مكة (١/ ٧٣ وما بعدها)، البداية والنهاية (٢/ ١٩٢)، عمدة القارئ (٩/ ٢٨٧).
[7] المحبر (٣١٦).
[8] المحبر (٣١٣).

ولكن (الطبري) يشير في تفسيره إلى أنه كان بيتاً بالمشلل[١]، وهو كلام منطقي معقول، إذ لا يعقل أن يكون هذا الصنم، مجرد صخرة أو صنم قائم في العراء تعبث به الرياح والشمس، ثم إن له سدنة، ولا يعقل أن تكون لصنم سدنة، ثم لا يكون له بيت يؤويه. ولست أستبعد أن يكون له، (جب) يلقي المؤمنون فيه هداياهم ونذورهم. وذكر (الطبري) أيضاً أن معبده كان في (قديد). وأما عبدته، فخزاعة، وبنو كعب[٢].

والأخباريون على خلاف فيما بينهم على هيأة (مناة) وشكله، منهم من يقول إن مناة صخرة، سميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها، أي تراق[٣]. ومنهم من يقول إنه صنم كان منصوباً على ساحل البحر، فهو على هيأة تمثال، وقد نحت من حجارة[٤]، وجعله بعض الرواة في الكعبة مع بقية الأصنام[٥].

والذين يذكرون أن مناة صخرة، يرون أن اناس كانوا يذبحون عندها فتمنى دماء النسائك عندها، أي تراق، فهي إذن، وبهذا الوصف مذبح تراق عنده الذبائح الذي تقدم نسيكة للإلهة. ويذكرون أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك «كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها»[٦]. ويتبين من ذلك أن هذا الموضع كان مكاناً مقدساً، وقد خصص بإلهه ينشر السحب ويرسل الرياح فتأتي بالأمطار لتغيث الناس، وأن لهذا الإلَه صلة بالبحر وبالماء، ولذلك أقيم معبده على ساحل البحر[٧]. قد تكون هذه الصخرة مذبحاً أقيم عند الصنم، أو عند معبده لتذبح عليه ما يهل للصنم، فسمي باسمه، ولذلك يمكن التوفيق بن الرأيين: كونه صخرة، وكونه صنماً.

ويظهر من أقوال ابن الكلبي أن هذا الصنم كان معظماً، خاصة عند الأوس

---

1 تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥).
2 تفسير الطبري (٢٧/ ٣٥).
3 تفسير الطبري (٢٧/ ٣٢ وما بعدها).
4 تفسير الطبرسي، مجمع البيان (٩/ ١٧٦)، البلدان (٨/ ١٦٧ وما بعدها).
5 مجمع البيان (٨/ ١٦٧ وما بعدها).
6 تفسير الطبري (٢٧/ ٣٢ وما بعدها)، الكشاف (٣/ ١٤٤ وما بعدها)، تفسير البيضاوي (١/ ١٩٩).
7 وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، بين المدينة ومكة وما قارب ذلك من المواضيع، البلدان (٨/ ١٦٧ وما بعدها).

والخزرج، أي أهل يثرب ومن كان يأخذ مأخذهم من عرب المدينة والأزد وغسان (فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلاّ بذلك[١]. ولكن القبائل العربية الأخرى كانت تعظمه كذلك، وفي جملتها قريش[٢] وهذيل وخزاعة[٣]. وأزد شنوءة، وغيرهم من الأزد. وقيل ثقيف أيضاً، وذكرت رواية أخرى أن العرب جميعاً كانت تعظمه وتذبح حوله[٤]. أما سدنته، فالغطاريف من الأزد[٥].

كانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمون مناة، ويهلون منها للحج إلى الكعبة[٦].

فمناة إذن من الأصنام المعظمة المقدسة عند (الخزرج). وكانوا يحلفون بها ويقفون عندها. وفي ذلك ورد شعر ينسب إلى عبد العزى بن وديعة المُزني أو غيره من العرب:

إني حلفت يمين صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج

فالمحل الذي يقف فيه (آل الخزرج)، هو المحل الذي يحلف به أمام مناة. وكان العرب في الجاهلية يسمون الأوس والخزرج جميعاً: الخزرج، ولذلك يقول الشاعر في بيته: (عند محل آل الخزرج)[٧].

وترجع بعض الروايات تأريخ مناة إلى (عمرو بن لحي) فتزعم أنه هو الذي نصبه على ساحل البحر مما يلي قديداً[٨]. وقد أخذت من الرواية التي ترجع أساس عبادة الأصنام وانتشارها بين العرب إلى ذلك الرجل.

---

1 الأصنام (١٤)، البلدان (٨/ ١٦٩) (مناة الأزرقي (١/ ٧٣ وما بعدها).
2 الأصنام (١٣، ١٥)، البلدان (٨/ ١٦٩).
3 البلدان (٨/ ١٦٩)، اللسان (٢٠/ ١٦٧).
4 الكشاف (٣/ ١٤٤ وما بعدها).
5 المحبر (٣١٦)، البلدان (٨/ ١٦٧ وما بعدها).
6 تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣)، اللسان (٢٠/ ١٦٧).
7 الأصنام (١٣ وما بعدها).
8 أخبار مكة (١/ ٧٣ وما بعدها)، البلدان (٤/ ٦٥٣).

وكان المتعبدون لهذا الصنم يقصدونه، فيذبحون حوله، ويهدون له. ويظهر من روايات ابن الكلبي عن هذا الصنم، أنه. كان من الأصنام المعظمة المحترمة عند جميع العرب. وقد قصد ابن الكلبي بعبارة: «وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله»[1] عرب الحجاز على ما اعتقد. وكان سدنته يجنون من سدانتهم له أرباحاً حسنة من هذه الهدايا التي تقدم إلى معبده باسمه.

وقد بقي سدنة هذا الصنم يرتزقون باسمه، إلى أن كان عام الفتح، فانقطع رزقهم بهدمه وبانقطاع سدانته. فلما سار الرسول في سنة ثمان للهجرة، وهي عام للفتح أربع أو خمس ليال من المدينة، بعث علياً إليه، فهدمه وأخذ ما كان له، فأقبل به إلى النبي، «فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أهداهما له، أحدهما: يسمى مخذماً، والآخر رسوباً. وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في بيته:

مظاهر سربالي حديد عليهما   عقيلاً سيوف: مخذوم ورسوب

فوهبهما النبي لعليّ، فيقال: إن ذا الفقار، سيف علي أحدهما. ويقال: إن علياً وجد هذين السيفين في الفلس، وهو صنم طيء، حيث بعثه النبي فهدمه»[2].

وفي رواية للواقدي أن الذي هدم الصنم هو سعد بن زيد الأشهلي، هدمه سنة ثمان للهجرة[3]. وفي رواية أخرى ان الذي هدم الصنم هو أبو سفيان[4].

وقد كانت القبائل تتجنب أن تجعل ظهورها على (مناة) إعظاماً للصنم، ولذلك كانت تتحرف في سيرها، حيث لا يكون الصنم إلى ظهرها[5]. وفي ذلك قال الكميت بن زيد الشاعر، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة:

وقد آلت قبائل لا تولي   مناة ظهورها متحرِّفينا

---

[1] الأصنام (١٥، ٤٩)، (القاهرة ١٩١٤).
[2] الأصنام (١٥)، البلدان (٨/ ١٦٨).
[3] الطبري (٣/ ١٢٣)، روح البيان، لإسماعيل حقي أفندي، (٤/ ٥٥١)، تأريخ الخميس، للديار بكري (٢/ ١٠٧ وما بعدها)، إمتاع الأسماع (١/ ٣٩٨)، البخاري (٥/ ١٨).
[4] البداية والنهاية (٢/ ١٩٢)، الروض الأنف (١/ ٦٥)، ابن هشام (١/ ٨٧).
[5] ابن هشام (١/ ٩٠).

ويظهر من ورود اسم هذا الصنم في القرآن الكريم ومن انتشار التسمية به في مثل (عبد مناة) و(عبدة مناة) و(زيد مناة) و(عوذ مناة) و(سعد مناة) و(أوس مناة) بين القبائل المختلفة مثل طيء وكنانة، أن عبادة مناة كانت منتشرة انتشاراً واسعاً بين القبائل[١]. ولهذه الكلمات المتقدمة على كلمة مناة شأن كبير في وصف الصورة التي كانت مخيلة عبدة مناة عنه اذ تمثله إلهاً كريماً يسعد عباده ويساعدهم في المكاره والملمات ويعطيهم ما يحتاجون اليه.

والصنم مناة هو (منوتن) (منوت) Manavat عند النبط ويظن أن لاسمه صلة بـ (مناة) Menata في لهجة بني إرم و(منا) Mana في العبرانية وجميعها (مانوت) (منوت) Manot وباسم الإله (منى) Meni، بكلمة منية وجمعها (منايا) في عربية القرآن الكريم وهي لذلك تمثل الحظوظ والأماني وخاصة الموت[٢]. ولهذا ذهب بعض الباحثين الى أن هذه الإلهة هي إلهة المنية والمنايا عند الجاهليين[٣].

وقد ذكر (منى) Meni مع (جد) Gad في العهد القديم. والظاهر أن كلمة (جد) كانت مصدراً ثم صارت اسم علم لصنم. وذكر (منى) مع (جد) له شأن كبير من حيث معرفة الصنمين. فالأول هو معرفة المستقبل وما يكتبه القدر للإنسان من مناية ومخبآت لا تكون في مصلحة الإنسان. والثاني وهو جد لمعرفة المستقبل الطيب والحظ السعيد (tyche) (fortune) في اليونانية، فهما يمثلان إذن جهتين متضادتين[٤].

هبل:

يقول ابن الكلبي: «وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل. وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد

---

[1] تاج العروس (١٠/ ٣٥١). Reste, S. 29.

[2] Reste, S. 28, Ency., Religi., I, pp. 231, 661.

[3] Das Götzenbuch, S. 87.

[4] Hastings, pp. 275, 604.

اليمنى. أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب. وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر. وكان يُقال له هبل خزيمة.

وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح، مكتوب في أولها: صريح والآخر ملصق. فإذا شكوا في مولود أهدوا اليه هدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج صريح ألحقوه، وإن خرج ملصق دفعوه. وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر لي على ما كانت. فإذا اختصموا في أمر، أو أرادوا سفراً أو عملاً، أتوه فاستسقوا بالأزلام عنده. فما خرج، عملوا به وانتهوا اليه. وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله[1].

وتذكر رواية أخرى أن خزيمة بن مدركة كان أول من نزل مكة من مضر فوضع هبل في موضعه، فكان يُقال له صنم خزيمة، وهبل خزيمة. وورث أولاده سدانته من بعده[2]. وقد ذهب (ابن الكلبي) هذا المذهب أيضاً، إذ قال: «وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة»[3].

ولا خلاف بين أهل الأخبار في أن (هبل)، كان على هيأة إنسان رجل[4].

وهناك روايات تنسب هبل إلى عمرو بن لحي، تقول إنه جاء به إلى مكة من العراق من موضع هيت، فنصبه على البئر وهي الأخسف والجب الذي حفره إبراهيم في بطن الكعبة، ليكون خزانة للبيت، يلقى فيه ما يهدى إلى الكعبة، وأنه هو الذي أمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده، وكان على هذه الروايات من خرز العقيق على صورة إنسان، وكانت يده اليمنى مكسورة، فأدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب. وكانت له خزانة للقربان وكان قربانه مائة بعير. وله حاجب يقوم بخدمته[5].

[1] الأصنام (٢٧ وما بعدها) (تحقيق أحمد زكي باشا)، سبائك الذهب (١٠٤)، الأزرقي (١/ ٦٨ وما بعدها)، ابن هشام (١/ ٦٤)، الطبري (٢/ ٢٠٢)، (الاستقامة)، (٢/ ٢٤٠) «المعارف»، خزانة الأدب (٣/ ٢٤٤)، سبائك الذهب (١٠١)، ابن الأثير، الكامل (٢/ ١٨)، مروج الذهب (١/ ٢٣٨)، (محمد محيي الدين عبد الحميد)، البداية والنهاية (٢/ ١٨٧).

[2] طبقات ابن سعد (١/ ٣٩).

[3] الأصنام (روزا)، نهاية الأرب (١٦/ ١٢).

[4] الطبرسي، مجمع البيان (٢٩/ ٦٨ وما بعدها)، (بيوت ١٩٥٤م).

[5] أخبار مكة، للأزرقي (١/ ٢٧، ٦٨ وما بعدها)، الروض الأنف (١/ ٦٥).

وجاء في رواية أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشأم في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق، ويقال عمليق، وجدهم يتعبدون للأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه الأصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل، وأخذه، فتقدم به إلى مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته[١].

ولسنا نجد في كتب أهل اللغة أو الأخبار تفسيراً مقبولاً لمعنى (هبل). وقد ذهب بعضهم إلى انه من (الهبلة)، ومعناها القبلة. وذكر بعض آخر أنه من (الهبيلي)، بمعنى الراهب، وذكر أن (بني هبل) كانت تتعبد له[٢]. وذكر أنه من (هُبل) بوزن (زُفَر)، ومعناها كثرة اللحم والشحم، أو من (هبل) بمعنى غنم، وما شاكل ذلك من آراء[٣]. ويكمن سبب اضطراب العلماء في تسميته في أنه من الأصنام المستوردة من الخارج التي حافظت على تسميتها الأصلية، فوقع لديهم من ثم هذا الاضطراب.

وكانت تلبية من نسك هبل: «لبيك اللهم لبيك. إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح»[٤].

ويذكر أهل الأخبار أن (هبل) كان أعظم أصنام قريش، وكانت تلوذ به وتتوسل إليه، ليمن عليها بالخير والبركة، وليدفع عنها الأذى وكل شر. وكانت لقريش أصنام أخرى في جوف الكعبة وحولها، ولكن هبل هو المقدم والمعظم عندها على الجميع. وقد نصب على الجب الذي يقال له (الأخسف)، وهو بئر، وكانت العرب تسميها (الأخشف)[٥].

وذهب بعض المستشرقين إلى أن (هبل)، هو رمز إلى الإلَه القمر، وهو

---

[1] سيرة ابن هشام (١/ ٦٢)، (وقد طبعت في هامش كتاب الروض الأنف للسهيلي)، ديوان حسان (تحقيق هرشفلد)، سيرة ابن هشام (١/ ٨٢)، البداية والنهاية (١/ ١٨٧ وما بعدها)، اليعقوبي (١/ ٢١١)، مروج (٢/ ٢٣٨).

[2] اللسان (١١/ ٦٨٦)، تاج العروس (٨/ ١٦٨)، (هبل).

[3] البلدان (٨/ ٤١٦).

[4] المحبر (ص ٣١٥).

[5] أخبار مكة (١/ ٦٦ وما بعدها).

إلَه الكعبة، وهو الله عند الجاهليين[1]. وكان من شدة تعظيم قريش له أنهم وضعوه في جوف الكعبة. وأنه كان الصنم الأكبر في البيت.

ويرى بعض الباحثين أن صورة الحية أو تمثالها يشيران إلى هبل، أو إلى هبل وود. وقد عثر على صورة لحيّة في (رم)، يظهر أنها رمز إلى (هبل) أو ود[2].

وذكر (ياقوت الحموي) أن هبل (صنم) لبني كنانة: بكر ومالك وملكان، وكَانت كنانة تعبد ما تعبد قريش، وهو اللات والعزى. وكانت العرب تعظم هذا المجمع عليه، فتجتمع عليه كل عام مرة[3]. وقال غيره: «وكان هبل لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة. وكانت قريش تعبد صاحب بني كنانة، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش»[4].

وقد ورد اسم هبل في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر، ورد مع اسم الصنمين: دوشرا (ذي الشرى)، و(منوتو) (مناة)[5]. وقد تسمى به أشخاص وبطون من قبيلة كلب، مما يدل على أن هذه القبيلة كانت تتعبد له، وأنه كان من معبودات العرب الشماليين[6]. وباسم هذا الصنم سمي (هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي جدَّ زهير بن جناب)[7].

ولما أراد النبي الانصراف عن أحد، علا صوت أبي سفيان: أعل هُبَل، أعل هُبَلْ. فقال النبي لعمر: أجبه، قال: ما أقول له؟ قال: الله أعلى وأجل. فقال: لنا العُزى ولا عزى لكم. فقال النبي لعمر قل: الله مولانا ولا مولى لكم[8].

---

1 Reste, S. 73, 221, Grohmann, S. 87.
2 Grohmann, S. 87, Jaussen-Savignac, Mission, I, 169.
3 البلدان (٧/ ٤٤٢ وما بعدها).
4 المحبر (٣١٨).
5 Ency., II, 337, CIS, II, NR: 189, Jaussen et Savignac, Mission, I, p. 169, Reste, S. 75, 221, L. Krehl, Über die Religion der Vorislamischen Araber, S. 90, Oslander, in ZDMG., VII, S. 493, Ency. Religi., I, p. 664.
6 Ency. Religi., I, p. 664.
7 كتاب المعمرين (ص ٢٩) (هبل).
8 الأصنام (ص ٢٨)، اللسان (١١/ ٦٨٦)، (١٤/ ٢١٢)، تاج العروس (٨/ ١٦٢)، الاشتقاق (٢/ ٣١٦).

أصنام قوم نوح:

وزعم ابن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب، من زمن نوح، وهي: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر[١]. وقد ذكرت في القرآن الكريم: ﴿قال نوح: ربّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خساراً، ومكروا مكراً كباراً، وقالوا: لا تذرون آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ونسراً، وقد أضلوا كثيراً﴾[٢]. ويظهر أن ورود اسمها على هذا النحو في القرآن، هو الذي حمله على رجع هذه الأصنام إلى أيام نوح.

وزعم (ابن الكلبي) أن الأصنام المذكورة كانت في الأصل قوماً صالحين، ماتوا، في شهر، وذلك في أيام (قابيل)، فجزع عليهم بنو قابيل، وذوو أقاربهم، وقام رجل من قومهم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فصار الناس يعظمونها ويسعون حولها، ثم جاء من بعدهم من عبدها، وعظم أمرها، ولم يزل أمرها يشتد، حتى أدرك (نوح) فدعاهم إلى الله، والى نبذ هذه الأصنام، فكذبوه، فكان الطوفان، فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام من جبل (نوذ) إلى الأرض، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدة، ثم نضب الماء وبقيت على الشط، فسفت الريح عليها حتى وارتها. وبقيت مطمورة هناك أمداً، حتى جاء (رئي) (عمرو بن لحي) وكان يكنى أبا ثمامة، فقال له: عجل بالمسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة. قال عمر: جير ولا إقامة فقال الرئي ايت ضف جدة تجد فيها أصناماً معدة، فأوردها ولا تهاب، ثم أدع العرب إلى عبادتها تجاب. فأتى شط جدة فاستثارها، ثم حملها حتى ورد تهامة. وحضر الحج، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة. فأجابه سادات القبائل، ووزع تلك الأصنام عليهم، وأشاعوا عبادتها بين الناس[٣]، ومن ثم عبد العرب هذه الأصنام.

وذكر أيضاً أن الأصنام المذكورة هي أصنام نحتها الشيطان على صورة خمسة بنين من أبناء (آدم)، ماتوا فجزع الناس عليهم، لأنهم كانوا عباداً صالحين.

---

[1] الأصنام (٨) (روزا).
[2] سورة نوح، الآية ٢١ وما بعدها.
[3] الأصنام (٣٣ وما بعدها) (روزا).

فسوّل لهم الشيطان أن يصنع لهم تماثيل على هيأتهم وصورهم، لتذكرهم بهم فسرّوا برأيه، وصنعها لهم، فما لبث الناس أن عبدوها، حتى تركوا عبادة الله، وكان (ود) أكبرهم وأبرهم، فصار أول معبود عبد من دون الله[١].

ود:

وكان الصنم ود من نصيب (عوف بنُ عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحلف بن قضاعة)، أعطاه إياه (عمرو بن لحي) فحمله إلى وادي القرى، فأقره بدومة الجندل. وسمىّ ابنه عبد ود، فهو أول من سمي به، وهو أول من سمىّ عبد ود، ثم سمّت العرب به بعد[٢]. وقد تعبّد له بنو كلب[٣].

ومنهم من يهمز فيقول أدٌّ. ومنه سمي (عبد ودّ) و(أد بن طابخة)، و(أدد) جد معد بن عدنان[٤].

وجعل عوف ابنه عامراً الذي يقال له عامر الأجدار سادناً له، فلم يزل بنوه يسندونه حتى جاء الله بالإسلام.

وقد استنتج (ياقوت الحموي) من هذه الرواية التي يرويها (ابن الكلبي) أن الصنم اللات أقدم عهداً من ودّ لأن وداً على هذه الرواية قد سلم إلى عوف وعوف هو حفيد زيد اللات الذي سمي بـ (زيد اللات)، نسبة الى الصنم اللات، فوّد على هذا أحدث عهداً من اللات[٥].

وفي رواية لمحمد بن حبيب أن وداً كان لبني وبرة، وكانت سدنته من بني الفرافصة بن الأحوص من كلب[٦]. ويشك (ولهوزن) Wellhausen في

---

[1] روح المعاني (٢٩/ ٧٧ وما بعدها).
[2] الأصنام (٣٤)، (روزا) اللسان (٤/ ٤٦٨) (بولاق) روح المعاني (٢٩/ ٧٧ وما بعدها).
[3] اللسان (٤/ ٤٦٨) تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٨)، تفسير الخازن (٤/ ٣١٤)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٦ وما بعدها)، الروض الأنف (١/ ٦٣)، ابن هشام (١/ ٦٣)، (هامش على الروض).
[4] اللسان (٤/ ٤٥٥)، (ودد).
[5] البلدان (٨/ ٤١٠) (نهاية مادة ود).
[6] المحبر (٣١٦)، البلدان (٨/ ٤٠٧)، (ود).

صحة هذه الرواية، فقد كان الفرافصة بن الأحوص على رأيه نصرانياً، وهو والد نائلة زوج الخليفة عثمان. ثم أن (الفرافصة) لم يكن من بني عمرو بن ود، ولا من بني عوف بن عذرة، فهل يعقل ان تكون السدانة إليه وفي نسله[1].

وود على وصف (ابن الكلبي) له في كتابه الأصنام «تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد ذبر عليه حلتان، متزر بحلة، مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها. لواء، ووفضة فيها نبل»[2]. وقد أخذ ابن الكلبي وصفه هذا لود من أبيه عن مالك بن حارثة الأجداري.

ومالك بن حارثة الأجداري، هو من بني عامر الأجدار، وهم سدنة ود. وزعم ابن الكلبي ان أباه محمد بن السائب الكلبي حدثه عن مالك بن حارثه أنه قال له: إنه رأى وداً، وأن اباه كان يبعثه، وهو صغير، باللبن اليه، فيقول: اسقه إلهك فيشربه مالك، فيعود وقد شرب اللبن. أما أبوه فيظن انه قد أعطى وداً إياه[3].

وذكر (جارية بن أصرم الأجداري)، من بني عامر بن عوف، المعروف بعامر الأجدار، انه رأى وداً بدومة الجندل في صورة رجل[4]. وورد أن من عبدة (ودّ) بعض تميم، وطيء، والخزرج، وهذيل، ولخم[5].

ويظهر انه (أدد) عند ثمود. وأدد من الأسماء المعروفة. وقبيلة (مرة) نسبة إلى (مرة بن أدد). وقد عرف بـ (كهلن)، أي (الكاهل) (هكهل) (ها ــ كهل). ويظن أن الإلَه (قوس) (قيسو) (قوسو)، هو (ود)، أي اسم نعت له. وذهب بعض الباحثين الى أن (نسراً) و(ذا غابة) (ذ غبت) يرمزان اليه[6].

---

1 Reste, S. 17, Ency.Religi., I, p. 662.

2 الأصنام (٥٦)، (٣٥) (روزا) سبائك الذهب (١٠٤)، البلدان (٨/ ٩٠٤) (ود).

3 الأصنام (٥٥).

4 الإصابة (١/ ٢١٩)، (رقم ١٠٤٤).

5 Reste, 14-18, Ryckmans 16, Grohmann, S. 87.

6 Jaussen-Savignac, Mission, II, 395, 581, Grohmann, S. 87.

وقد بقي ود قائماً في موضعه إلى أن بعث رسول الله خالدَ بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه. فلما أراد خالد هدمه، اعترضه بنو عبد ود وبنو عامر الأجدار، وأرادوا الحيلولة بينه وبين هدمه، فقاتلهم وأوجعهم، وقتل منهم، فهدمه وكسره. وذكر ابن الكلبي أنه كان فيمن قتل رجل من بني عبد ود يقال له قطن بن شريح، ورجل آخر هو حسان بن مصاد ابن عم الأكيدر صاحب دومة الجندل[١].

ويرى بعض المستشرقين استناداً إلى معنى كلمة (ود) بأن هذا الصنم يرمز إلى الود، أي الحب، وانه صنو للإلهين (جيل) Gel و(بحد) Pahad عند الساميين. ويستندون في رأيهم هذا إلى بيت للنابغة مطلعه: (حيآك ود)[٢]، غير أن من العسير علينا تكوين رأي صحيح عن هذا الصنم. ولا أستبعد أن تكون كلمة (ود) صفة من صفات الله لا اسم علم له.

وهناك من يرى وجود صلة بين (ود) و(ايروس) Eros الصنم اليوناني، ويرى أنه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك، وعبدته العرب. وهو رأي يعارضه (نولدكه)، لانتفاء التشابه في الهيأة بين الصنمين[٣].

و(ود) هو الإلَه الأكبر لأهل معين. وسوف أتحدث عنه فيما بعد.

سواع:

أما سواع فكان موضعه برهاط، من أرض ينبع. وذكر أنه كان ضخماً على صورة امرأة، وهو صنم هذيل. وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته ــ كعادته ــ الى عمرو بن لحي، فذكر أن مضر بن نزار أجابت عمرو بن لحي، فدفع إلى رجل من هذيل (يقال له الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر) سواعاً، فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة، يعبده من يليه من مضر[٤]. وذكر (ابن حبيب) أنه كان بـ (نعمان)، وأن

---

[1] الأصنام (٥٥).

[2] Reste, S. 17, Ency. Religi., VIII, p. 180.

[3] Ency. Religi., I, p. 662.

[4] الأصنام (٥٧)، البكري (٢/ ٦٩٧) (رهاط)، اللسان (١٠/ ٣٤) (بولاق).

عبدته: بنو كنانة، وهذيل، ومزينة، وعمرو بن قيس بن عيلان. وكان سدنته بنو صاهلة من هذيل. وفي رواية أن عبدة سواع هم آل ذي الكلاع[١]. وذكر (اليعقوبي) أنه كان لكنانة[٢].

وفي رواية أخرى يرجع سندها إلى (ابن الكلبي) كذلك، تزعم أن سواعاً صنم كان برهاط من أرض ينبع، وينبع عرض من أعراض المدينة. وكانت سدنته بنو لحيان. ثم تقول إنه لم يسمع بورود اسم هذا الصنم في شعر هذيل، إنما بورود اسمه في شعر رجل من اليمن[٣].

وورد في رواية أخرى أن (سواعاً) صنم من أصنام همدان[٤].

ويرى (نولدكه) أن سواعاً لم يكن من الأصنام الكبرى عند ظهور الإسلام، وهو في نظره من الأصنام التي لم ترد أسماؤها في الأعلام المركبة، ويدل عدم ورود اسمه في هذا الإعلام على خمول عبادته بين الجاهليين[٥].

وفي السنة الثامنة من الهجرة هدم سواع، وكان الذي هدمه عمرو بن العاص، فلما انتهى الى الصنم، قال له السادن: ما تريد: قال: هدم سواع، قال: لا تطيق تهدمه، قال له عمرو بن العاص: أنت على الباطل بعد. فهدمه عمرو، ولم يجد في خزانته شيئاً، ثم قال للسادن: كيف رأيت، قال: أسلمت والله[٦].

و(سواع) من الأصنام التي ورد اسمها في القران الكريم وقالوا: ﴿لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾[٧]. وقد ذكر بعض العلماء، أنه صنم عُبد في زمن نوح، فدفنه الطوفان، فأشار (ابليس)

---

[1] المحبر (٣١٦)، البكري (٢/ ٦٧٩).
[2] اليعقوبي (١/ ٢٢٥).
[3] الأصنام (٦) (روزا)، البلدان (٣/ ٣٤١)، (رهاط)، تاج العروس (٥/ ٢٩٠)، اللسان (١٠/ ٢٤)، القاموس (٣/ ٤٢) (سوع).
[4] الأصنام (٥٧)، الطبرسي، مجمع البيان (٥/ ٣٤٦)، الكشاف (٤/ ١٤٣)، تفسير البيضاوي (١/ ٢٣٩)، روح المعاني (٢٩/ ٧٧ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٦ وما بعدها)، تفسير ابن السعود (٥/ ١٩٨).
[5] Ency. Religi., I, p. 663.
[6] الطبري (٣/ ٦٦) (دار المعارف)، (حوادث السنة الثامنة)، إمتاع الأسماع (١/ ٣٩٨).
[7] نوح، ٧١ (الآية ٢٢ وما بعدها)، تفسير الطبري (٢٩/ ٦٢)، روح المعاني (٢٩/ ٧٧).

على الجاهليين بالتعبد له، فعبدته همدان، ثم صار لهذيل، وكان برهاط وحجّ إليه. وقال (ابن الكلبي) أنه لم يسمع بذكره في أشعإر هذيل. وقد قال رجل من العرب:

تراهم حـــول قيلهم عكوفـــاً كما عكفت هذيل على سواع
يظل جنابه برهاط صرعى عتائر من ذخـــائر كل راع[1]

وذكر بعض أهل الأخبار أن سواعاً وبقية الأصنام التي ذكرت معه في سورة نوح، «كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ اليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[2].

ورهاط من بلاد بني هذيل، ويقال وادي رهاط ببلاد هذيل، ذكر أنه على ثلاثة أميال أو ثلاث ليال من مكة[3].

ونسب بعض أهل الأخبار هدم الصنم (سواع) إلى (غاوي بن ظالم السلمي) (غاوي بن عبد العزى). ذكروا أن هذا الصنم كان (لبني سليم بن منصور)، فبينما هو عند الصنم، اذ أقبل ثعلبان يشتدان حتى تسنّماه، فبالا عليه فقال:

أربّ يبول الثعلبـــان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم قال: يا معشر سليم؟ لا والله هذا الصنم لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع! فكسره ولحق بالنبيّ عام الفتح. فقال النبي صلى الله عليه وسلم، ما اسمك؟ فقال: غاوي بن عبد العزى. فقال: بل أنت راشد بن عبد ربه. وعقد له على قومه. وقيل إن هذه الحادثة إنما وقعت لعباس بن مرادس السلمي، وقيل لأبي ذر الغفاري[4].

---

[1] تاج العروس (٥/ ٣٩٠)، (ساع).
[2] تفسير الطبري (٢٩/ ٦٢).
[3] تاج العروس (٥/ ١٤٥)، (رهط)، نوادر المخطوطات، أسماء جبال تهامة وسكانها (٤٠٩).
[4] اللسان (١/ ٢٣٧)، (ثعلب)، (صادر)، (كان الصنم الذي يُقال له سواع بالمعلاة، فذكر قصته إسلامه وكسره إياه)، الإصابة (١/ ٤٨٢ وما بعدها) (رقم ٢٥١٧).

يغوث:

وأما يغوث، فكان أيضاً على رواية ابن الكلبي، في جملة الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على من استجاب إلى دعوته من القبائل، دفعه إلى أنعم بن عمرو المرادي، فوضعه بأكمة مذَحج باليمن، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل جرش[1]. وقد بقي في أنعم إلى أن قاتلتهم عليه بنو غطيف من مراد، فهربوا به إلى نجران، فأقروه عند بني النار من الضباب، من بني الحارث بن كعب. واجتمعوا عليه جميعاً[2]. وفي رواية أن عبدة يغوث هم بنو غطيف من مراد[3].

وفي رواية أن يغوث بقي في أنعم وأعلى من مراد. إلى أن اجتمع أشراف مراد وتشاوروا بينهم في أمر الصنم، فقر رأيهم أن يكون فيهم، لما فيهم من العدد والشرف. فبلغ ذلك من أمرهم إلى أعلى وأنعم، فحملوا يغوث وهربوا به حتى وضعوه في بني الحارث بن كعب، في وقت كان النزاع فيه قائماً بين مراد وبني الحارث بن كعب. فلما أبت بنو الحارث تسليم الصنم إلى مراد، وتسوية أمر الديات، أرسلت عليها مراد جيشاً فاستنجدت بنو الحارث بهمدان، فنشبت بينهما معركة عرفت بيوم الرزم، انهزمت فيها مراد ومنيت بخسارة كبيرة قبيحة، وبقي الصنم في بني الحارث. وقد وافق يوم الرزم يوم بدر[4].

وذكر (الطبرسي) أن بطنين من طيء أخذا يغوث، فذهبا به إلى مراد،

---

[1] الأصنام (١٠، ٥٧)، اللسان (٢/ ٤٨٠) (غوث) تاج العروس (١/ ٣٣٧) (غوث)، قال الشاعر:
وسار بنـــا يغوث إلى مراد فناجزناهم قبل الصبـــاح
البلدان (٨/ ٥١١) (يغوث)، الروض الأنف (١/ ٦٣)، سبائك الذهب (١٠٤)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠١)، القاموس (١/ ١٧١)، روح المعاني (٢٩/ ٧٧ وما بعدها)، تفسير البيضاوي (١/ ٢٣٩).

[2] المحبر (٣١٧).

[3] الطبرسي (٥/ ٣٦٤)، الكشاف (٤/ ١٤٣)، تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٨)، تفسير الخازن (٣١٤)، تفسير ابن كثير (٤/٤٢٦).

[4] البلدان (٨/ ٥١١)، (يغوث).
Reste, S. 20, Ency. Religi., I, p. 663, A. Fischer, in ZDMG., 58, 869, Nöldeke, in ZDMG., 40, 161, 168, Das Götzenbuch, S. 28.

فعبدوه زماناً ثم إن بني ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم، ففروا به إلى بني الحارث بن كعب[١].

ويظهر من غربلة هذه الروايات أن الصنم يغوث كان في جرش أو على مرتفع قريب من هذه المدينة. أما سدنته، فكانوا من بني أنعم بن أعلى من طيء، وكانوا في جرش. وفي حوالي سنة ٦٢٣، أي السنة التي وقعت فيها معركة بدر، حدث نزاع على الصنم: أراد بنو مراد أن يكون الصنم فيهم وسدنته لهم، وأراد بنو أنعم الاحتفاظ بحقهم فيه. فهرب بنو أنعم بصنمهم إلى بني الحارث، واحتفظوا به بعد أن وقعت الهزيمة في مراد[٢].

وفي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و(غظيف) حمل عبدة (يغوث) صنمهم معهم وحاربوا، مستمدين منه العون والمدد. وفي ذلك يقول الشاعر:

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجوناهم قبل الصباح[٣]

ويظهر أن (بني أنعم)، وسائر عبدة هذا الصنم، كانوا يحملون صنمهم معهم في غالب الأحوال عند قتالهم القبائل الأخرى[٤].

ولا يستبعد أن تكون لاسم هذا الصنم علاقة بفكرة المتعبدين له عنه، بمعنى أن المتعبدين له كانوا يرون أنه يغيثهم ويساعدهم. وقد ظن بعض الباحثين أنه يمثل الإلَه الأسد. وأنه كان (طوطم) قبيلة مذحج، يدافع عنها ويذب عن القبيلة التي تستغيث به، على نحو ما فعله الاسرائيليون من استغاثتهم بـ (حية النحاس) المسماة (نحشتان) Nahushtan [٥]، التي كانت (طوطماً) في الأصل على رأي (سمث)[٦].

ونجد بين أسماء الجاهليين عدداً من الرجال سموا بـ (عبد يغوث)، منهم

---

[1] الطبرسي (٥/ ٣٦٤).
[2] Reste, S. 21, A. Fischer, Der Götze Jaguth, in ZDMG., BD., 58, S. 869, Leipzig, 1904.
[3] البلدان (٨/ ٥١١).
[4] Reste, S. 20, Das Botzenbuch, S. 83.
[5] الملوك الثاني، الإصحاح الثامن عشر الآية ٤.
[6] Das Götzenbuch, S. 82, Smith, The Religion of the Semites, London, 1927, p. 227, Journal of philo., IX, 99.

من كان فيِ مذحج، ومنهم من كان في قريش، ومنهم من كان في هوازن. وقد كان قائد بني الحارث بن كعب على تميم في معركة (الكلاب) عبد يغوث، كما كان لدريد بن الصمة أخ اسمه (عبد يغوث). ومن مذحج: (عبد يغوث) بن وقاص بن صلاءة الحارثي الذي قتلته (التيم) يوم الكلاب الثاني[١]. ومن بني زهرة: عبد يغوث بن وهب، وعبيد يغوث، وأمهما صفية بنت هشام بن عبد مناف[٢]. ويدل ذلك على ان عبادته كانت معروفة بين مذحج وأهل جرش وقريش وهوازن. وقبائل أخرى مثل تغلب[٣].

ولم يرد اسم هذا الصنم في الكتابات[٤]. وقد ذهب (روبرتسن سمث) إلى أنه (يعوش) Ye'ush المذكور في سفر التكوين، وهو أحد أجداد أدوم[٥]. ويمثله الأسد في نظر (روبرتسن سمث)[٦].

يعوق:

ويعوق أيضاً في جملة هذه الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على القبائل. لقد سلمه عمرو الى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف بن همدان فوضعه في كل موضع خيوان، حيث عبدته همدان وخولان ومن والاها من قبائل. وكان في أرحب[٧].

وذكر (ياقوت الحموي) أن ابن الكلبي قال: «واتخذت خيوان يعوق، وكان بقرية لهم يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة، ولم أسمع لها

---

[1] المحبر (٢٥١)، (عبد يغوث بن الحارث بن وقاص، قتل يوم الكلاب وكان على مذحج يؤمئذٍ)، الاشتقاق (٢٣٩).
[2] الاشتقاق (٩٥).
[3] Ency. Religi., I, p. 663.
[4] Ency. Religi., I, p. 663.
[5] التكوين، الإصحاح ٣٦، الآية ٥، ١٤، ١٨، وأخبار اليوم الأول، الإصحاح الأول، الآية ٢٥.
[6] Robertson, p. 226.
[7] الأصنام (٥٧)، القاموس (٣/ ٢٧٠)، الطبرسي (٥/ ٣٦٤)، سبائك الذهب (١٠٤)، الأكليل (١٠/ ٥٦)، الكشاف (٤/ ١٣٤)، الاشتقاق (٢٥٣)، البلدان (٥/ ٤٣٨)، روح المعاني (٩/ ٢٧ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٦ وما بعدها)، تفسير الخازن (٤/ ٣١٤)، تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٨).

ولا لغيرها شعراً. فيه. وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير، فدانوا معهم باليهودية أيام تهود ذي نواس، فتهودوا معه»[١]. ونسب (الطبرسي) عبادة يعوق إلى كهلان، وذكر أنهم توارثوه كابراً عن كابر، حتى صار إلى همدان[٢]. وذكر في رواية أخرى أن يعوق اسم صنم كان لكنانة[٣].

وذكر بعض أهل الأخبار: (يعوق) صنم كان لكنانة، «وقيل كان لقوم نوح عليه السلام، كما في الصحاح. أو كان رجلاً من صالحي أهل زمانه. فلما مات جزعوا عليه فأتاهم الشيطان في صورة إنسان. فقال: أمثله لكم في محرابكم حتى تروه كلما صليتم، ففعلوا ذلك به وبسبعة من بعده من صالحيهم، ثم تمادى بهم الأمر إلى أن اتخذوا تلك الأمثلة أصناماً يعبدونها»[٤].

وتشير ملاحظة (ابن الكلبي) من أنه لم يسمع بأن همدان أو غير همدان سمت (عبد يعوق)[٥] إلى أن يعوق لم يكن من الأصنام المهمة بين العرب عند ظهور الإسلام، وأن عبادته كانت قد تضاءلت. وانحصرت في قبائل معينة.

وهناك بيت يُنسب إلى مالك بن نبط الهمداني الملقب بذي المعشار، وهو من بني خارف أو من يام بن أصى، هذا نصه:

يربش الله في الدنيا ويبري ولا يبرى يعوق ولا يريش[٦]

النسر:

وأما نسر فكان من نصيب حمير، أعطاه عمرو بن لحي قيلَ ذي رعين المسمّى (معديكرب) فوضعه في موضع بلخع من أرض سبأ، فتعبدت له حمير إلى أيام

---

1 البلدان (٨/ ٥١٠) (يعوق)، Reste, S. 22, Ency. Religi., I, p. 663.
2 الطبرسي (٥/ ٣٦٥).
3 اللسان (١٠/ ٢٨١) (صادر)، تاج العروس (٧/ ٢٩)، اللسان (١٢/ ١٥٤) (بولاق).
4 تاج العروس (٧/ ٢٩)، (عوق).
5 الأصنام (٧)، (روزا)، البلدان (٤/ ١٠٢).
6 الروض الأنف (١/ ٦٣)، ابن هشام (١/ ٦٣)، (هامش الروض).

ذي نواس، فتهودت معه، وتركت هذا الصنم[1]. وكان عباد نسر آل ذي الكلاح من حمير على رواية من الروايات[2]. وذكر (محمد بن حبيب)، أن حمير تنسكت لنسر، وعظمته ودانت له، وكان في همدان قصر ملك لليمن[3]. وذكر اليعقوبي أنه كان لحمير وهمدان منصوباً بصنعاء[4].

ونسر هو (نشر) Nesher في العبرانية[5]. وهو صنم من أصنام اللحيانيين كذلك، ويجب أن يكون من أصنام العرب الشماليين لورود اسمه في الموارد العبرانية والسريانية على أنه اسم إله عربي[6].

وأشير في التلمود إلى صنم ذكر أن العرب كانوا يعبدونه اسمه (نشرا) Neshra و(نشرا) هو (نسر). وقد ورد اسم الصنم (نسر) عند السبئين كذلك، وكان من الآلهة المعبودة عند كثير من الساميين، وقد عبد خاصة في جزيرة العرب[7].

ولم يشر ابن الكلبي إلى صورة الصنم نسر، ولكننا نستطيع أن نقول استناداً إلى هذه التسمية أنه كان على هيأة الطائر المسمى باسمه، وقد وجدت أصنام على صورة نسر منحوتة على الصخور خاصة في أعالي الحجاز[8]. ويؤيد هذا الرأي رواية ذكرها الطبرسي في أشكال الأصنام، أسندها إلى الواقدي، قال فيها: «كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير»[9].

---

[1] الأصنام (٥٧ وما بعدها)، البلدان (٨/ ٢٨٦) (نسر)، ابن هشام (١/ ٦٣)، (هامش الروض)، سبائك الذهب (١٠٤)، الكشاف (٤/ ١٤٣) بلوغ الأرب (٢/ ٢٠١)، القاموس (٢/ ١٤١).

[2] الطبرسي (٥/ ٣٦٤)، تاج العروس (٣/ ٥٦٣)، اللسان (٧/ ٦٠ وما بعدها)، (نسر).

[3] المحبر (٣١٧).

[4] اليعقوبي (٣١٧).

[5] Hastings, p. 200.

[6] Handbuch, I, S. 44.

[7] Ency. Religi., I, p. 663.

[8] XXIX, S. 600, Robertson, p. 226, Nöldeke, in ZDMG., 1886, S. 186.

[9] الطبرسي (٥/ ٣٦٤).

عميأنس:

وعميأنس (عم أنس)، هو صنم خولان، وموضعه في أرض خولان. وكان يقدم له في كل عام نصيبه المقرر من الأنعام والحروث[1]. وذكر ابن الكلبي أن الذين تعبدوا له من خولان هم بطن منهم يقال لهم (الادوم) وهم الأسوم. وفيهم نزلت الآية: ﴿وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا: هذا لله، بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، ساء ما محكمون﴾[2]. وكانوا «يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله بزعمهم. وما دخل في حق الله من حق عميأنس، ردوه عليه، وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سموه له، تركوه له»[3].

وقد ورد ذكر هذا الصنم في خبر (وفد خولان) الذي قدم على رسول الله في شعبان سنة عشر، إذ ذكر أن رسول الله. قال لهم: «ما فعل عم أنس»، فقالوا: بشرّ وعرّ، أبدلنا الله به، ولو قد رجعنا اليه هدمناه[4]. «وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به»[5].

وقد كانوا يقدمون له القرابين حتى في أيام الضيق وأوقات المحنة، تقرباً إليه. لقد قالوا للرسول حين سألهم: «ما أعظم ما رأيتم من فتنته» «لقد رأيتنا وأسنتنا حتى أكلنا الرمة، فجمعنا ما قدرنا عليه، وابتعنا مئة ثور، ونحرناها لعم أنس قرباناً في غداة واحدة، وتركناها تردها السباع، ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا. لقد رأينا العشب، يوارى الرجال، ويقول قائلنا: أنعم علينا عم أنس»[6]. وذكروا له أنهم كانوا يقتسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له[7].

---

[1] سبائك الذهب (١٠١)، خزانة الأدب (٣/ ٢٤٥)، سيرة محمد (١/ ٥٣)، (طبعة فرانكفورت)، ابن خلدون (٢/ ١٦٩)، الأغاني (٣٠/ ١٢٤).
[2] الأنعام، الآية ١٣٧.
[3] الأصنام (٤٤).
[4] نهاية الأرب (١٨/ ٨٢)، ابن سعد (١/ ٣٢٤)، (صادر).
[5] عيون الأثر (٢/ ٢٥٣).
[6] عيون الأثر (٢/ ٢٥٣ وما بعدها).
[7] المصدر نفسه.

اساف ونائلة:

وللأخبارين قصص في اساف ونائلة، وهما في زعم بعضهم إنسانان عملا عملاً قبيحاً في الكعبة، فمسخا حجرين، ووضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما. فلما طال مكثهما، وعبدت الأصنام، عبدا معها. وكان أحدهما بلصق الكعبة، والآخر في موضع زمزم. فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما[١]. وفي رواية أن اسافاً كان حيال الحجر الأسود. وأما نائلة، فكان حيال الركن اليماني[٢]. وفي أخرى أنهما «أخرجا إلى الصفا والمروة فنصبا عليهما ليكونا عبرة وموعظة، فلما كان عمرو بن لحي، نقلهما إلى الكعبة ونصبهما على زمزم: فطاف الناس بالكعبة وبهما حتى عبدا من دون الله»[٣]. وذكر (اليعقوبي)، أن (عمرو بن لحي) وضع (هبل) عند الكعبة، فكان أول صنم وضع بمكة. ثم وضعوا به اساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت. فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم به. ونصبوا على الصفا صنماً يقال له مجاور الريح وعلى المروة صنماً. يقال له مطعم الطير»[٤]. فاليعقوبي ممن يرون أن اسافاً ونائلة كانا عند الكعبة، لا على الصفا والمروة.

وتذكر رواية أخرى أن أساف صنم وضعه عمرو بن لحي الخزاعي على الصفا، ونائلة على المروة. وكانا لقريش. وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة. أو هما رجلان من جرهم، أساف بن عمرو ونائلة بنت سهل فجرا في الكعبة، وقيل أحدثا فيها، فمسخا حجرين، فعبدتهما قريش[٥]. وورد أن موضع أساف ونائلة عند الحطيم[٦]. وورد أن اسافاً رجل من جرهم، يقال له اساف بن يعلى، ونائلة

---

[1] الأصنام (١٨) (روزا)، الروض الأنف (١/ ٦٤)، سبائك الذهب (١٠٤)، ابن هشام (١/ ٨٦)، الطبري (٢/ ٢٨٤)، المحبر (٣١١، ٣١٨)، اليعقوبي (١/ ٢٢٤)، الطبري (٢/ ٢٤١)، (المعارف).
[2] الطبرسي (٥/ ٣٦٤)، روح المعاني (٢/ ٤١).
[3] الروض الأنف (١/ ٦٥)، ابن هشام، تاج العروس (٦/ ٤٠)، اللسان (٩/ ٦)، (أسف)، البلدان (١/ ١٧٠).
[4] اليعقوبي (١/ ٢٢٤).
[5] تاج العروس (٦/ ٤٠ وما بعدها)، اللسان (١٠/ ٣٤٨)، الروض الأنف (١/ ٦٤)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٥)، ابن هشام (١/ ٦٤)، اللسان (٩/ ٦)، (أسف)، (صادر).
[6] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ٧٠).

امرأة من جرهم يقال لها نائلة بنت زيد، وكان اساف يتعشقها في أرض اليمن، فأقبلا حجاجاً، فدخلا الكعبة، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت، ففجر بها في الكعبة، فمسخا حجرين، فأصبحوا فوجدوهما ممسوخين، فوضعوهما موضعهما. فعبدتهما خزاعة وقريش، ومن حج البيت بعد من العرب[١].

وذكر (محمد بن حبيب) أن اسافاً كان على الصفا. وأما نائلة، فكان على المروة. (وهما صنمان وكانا من جرهم. ففجر اساف بنائلة في الكعبة، فمسخا حجربن، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما، ثم عبدا بعد)[٢]. وكان نسك قريش لأساف: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، لاشريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»[٣].

وورد اسم اساف في بيت شعر ينسب إلى بشر بن أبي خازم الأسدي، هو:

عليه الطير ما يدنـــون منه   مقامات العوارك من اساف[٤]

وورد أن نائلة حين كسرها الرسول عام الفتح، خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتنادي بالويل والثبور[٥].

ويظهر أن مردّ هذا القصص الذي يقصه علينا أهل الأخبار عن الصنمين، إنما هو إلى شكل الصنمين. كان (اساف) تمثال رجل على ما يظهر من روايات الأخباريين، وكان (نائلة) تمثال إمرأة. يظهر أنهما استوردا من بلاد الشأم، فنصبا في مكة، فتولد من كونهما صنمين لرجل وامرأة، هذا القصص المذكور ولعله من صنع القبائل الكارهة لقريش، التي لم تكن ترى حرمة للصنمين.

وكانت قريش خاصة تعظم ذينك الصنمين وتتقرب اليهما، وتذبح عندهما وتسعى بينهما. أما القبائل الأخرى، فلم تكن تقدسهما، لهذا لم تكن تتقرب إليهما، ومن هنا لم يكن الطواف بهما من مناسك حج تلك القبائل.

---

1 الأصنام (٦) (روزا)، (٩)، (القاهرة ١٩١٤).
2 المحبر (٣١١).
3 المحبر (٣١١)، صبح الأعشى (٤/ ٤٦٢)، أخبار مكة، للأزرقي (٧٢)، (طبعة لايبزك)، (نائلة بنت وهب)، (أساف بن عمر، ونائلة بنت سهل)، تفسير الطبري (٢/ ٤٣)، (١٩٥٤م).
4 ديوان بشر بن أبي خازم، ملحق الديوان رقم ١١، (صفحة ٢٣٣).
5 الروض الأنف (١/ ٦٥).

وكانت قريش تحلف عند هذين الصنمين. ولهما يقول (أبو طالب)، وهو يحلف بهما حين تحالفت قريش على بني هاشم:

أحضرت عند البيت رهطي ومعشري   وأمسكت من أثوابــه بالوصـــائل
وحيــث ينــخ الأشــعرون ركابهــم   بمغضي السيول من أســاف ونائل

فكانا على ذلك الى أن كسرهما الرسول يوم الفتح فيما كسر من الأصنام[١].

ويظهر من الشعر المتقدم، أن أسافاً ونائلة كانا في موضعين مكشوفين، وعندهما كان ينيخ الأشعرون. ويؤيد ذلك هذا الشعر المنسوب إلى بشر بن أبي خازم الأسدي:

عليه الطير مــا يدنون منه   مقامات العوارك من أساف[٢]

حيث يظهر أن الطير كانت تقف مكتظة، عليه، لا تخاف من أحد، ولا تفزع من قادم، لأنها في حرمة صنم.

رضى:

ورضى، ويكتب رضاء في بعض الأحيان، هو صنم آخر. وذكر ابن الكلبي أنه كان لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، فهدمه المستوغر، وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. هدمه فيَ الإسلام[٣]. وتعبدت لهذا الصنم قبيلة تميم. وقد ورد اسم (عبد رضى) بين أسماء الجاهليين. ويظهر أن قبيلة طيء كانت قد تعبدت له كذلك[٤].

و(رضى) من الأصنام المعروفة عند قوم ثمود. وقد ورد اسمه في كتابات

---

1 تاج العروس (٦/ ٤٠)، «أسف».
2 ابن الكلبي (٢٩ وما بعدها)، ديوان بشر بن أبي خازم، ملحق الديوان، رقم ١١، (ص ٢٣٣).
3 الأصنام (٣٠)، (١٩)، (روزا)، الروض الأنف (١/ ٦٧)، تاج العروس (١٠/ ١٥١)، (رضو).
4 الأغاني (٧/ ١٤٧)، (٩/ ١٦، ٤٧).

ثمودية عديدة[1]. وكانت عبادته منتشرة بين العرب الشماليين. وورد في نصوص تدمر وبين أسماء بني إرم[2]، كما ورد في كتابات الصفويين. وورد على هذا الشكل: (رضو) و(رضى)[3]، و(هر ضو) (ها ــ رضو). ويظن انه يرمز إلى كوكب.

ويظهر من بيت شعر ينسب الى المستوغر في كسره رضى في الإسلام، هو:

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها تلا تنازع أسحما[4]

أن الصنم (رضى) (رضاء)، هو أنثى، بدليل استعمال ضمير التأنيث في لفظة (فتركتها). فهو إلهة. ويرى بعض الباحثين، انه إلهة أيضاً عند العرب الصفويين.

مناف

و(مناف): صنم من أصنام الجاهلية، قال عنه ابن الكلبي: «وكان لهم مناف، فيه كانت تسمى قريش (عبد مناف). ولا ادري أين كان، ولا من نصبه؟»[5]. وسمي به أيضاً رجال من هذيل[6]. و«به سمي عبد مناف. وكانت أمه أخدمته هذا الصنم»[7].

وفيه يقول بلعاء بن قيس:

وقرن وقد تركت الطير منه كمعتبر العوارك من مناف[8]

---

1 Reste, S. 58, Ency. Religi., I, p. 662, Hubert Grimme, Die Losung des Sinai., S. 43, 44, Vogue, 6, 86, Reste, S. 59.
2 Vogue 6, 86, Reste, S. 59.
3 العرب في سوريا قبل الإسلام (١٣٥ وما بعدها).
4 الأصنام (١٩)، (روزا)، (٣٠)، (أحمد زكي)، الروض الأنف (١/ ٦٧)، (فتركتها قفراً بقاع أسحما)، سبائك الذهب (١٠٤)، ابن هشام (١/ ٦٦)، (حاشية على الروض)، تاج العروس (١٠/ ١٥١)، ابن كثير، البداية (١/ ١٩٢).
5 الأصنام (٣٢)، (٢٠)، (روزا)، تاج العروس (٦/ ٢٦٣)، (ناف).
6 Reste, S. 57.
7 تاج العروس (٦/ ٢٦٣)، (ناف)، الأصنام (٣٢٢)، البلدان (٨/ ١٦٦)، النقائض (١٤١)، (بيفان)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٦).
8 تاج العروس (٦/ ٢٦٣)، (ناف).

ويتبين من ورود اسم (مناف) بين عرب الشأم أنه كان إلهاً معبوداً عندهم كذلك. وقد عثرعلى اسمه في كتابة دَوّنها شخص اسمه: (أبو معن) على حجر توجه بها إلى الإلهة مناف، ليمن عليه بالسعد والبركة، وحفرت على الحجر صورة الإلَه (مناف) على هيأة (رجل لا لحية له) يتحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعي المرموز به إلى الإلهة الشمس، وحول جفنيه وحدقتيه خطّان ناعمان: ويزين جيده قلادة، كما ترى غالباً في تصاوير الآلهة السوريين، وعلى صدره طيات ردائه، ويرى طرف طيلسانه الإلهي الذي ينعطف من كتفه الأيسر فيتصل إلى الأيمن ويعقد به[١]. وقد ذهب المتخصصون الذين فحصوا هذه الكتابة إلى أنها من حوران.

وقد عثر على كتابة وجدت في حوران، ورد فيها اسم (مناف) مع إلَه اخر، ورد اسم مناف فيها على هذا الشكل (MN, PHA). وقد عثرعلى كتابة أخرى وجد فيها الاسم على هذه الصورة: (منافيوس) Manaphius مما يدل على أن المراد بالإسمين شيء واحد، هو الإلَه مناف[٢].

ذو الخلصة:

أما ذو الخلصة، فكان صنم خثعم وبجيلة ودوس وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة[٣]، والحارث بن كعب وجرم وزبيد والغوث بن مر بن أد وبنو هلال بن عامر، وكانوا سدنته[٤]. وذكر ابن الكلبي أن سدنته بنو أمامة من باهلة بن أعصر[٥].

---

[1] المشرق، السنة الرابعة والعشرون، العدد ٣، آذار ١٩٣٣م، (ص ١٩٨ وما بعدها).

[2] المشرق، السنة ٢٤، آذار ١٩٣٣، العدد ٣، (ص ١٩٨ وما بعدها).
Ency. Religi., I, p. 662, Ephem, Epigr., II, 390,
No. 22, Mordtmann, in ZDMG., XXIV, 1875, S. 106.

[3] الأصنام (٣٥، ٤٧)، (٢٢)، (روزا)، ابن هشام (١/ ٣٠)، الأزرقي (١/ ٢٥٦)، الروض الأنف (١/ ٦٦)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٧)، اليعقوبي (١/ ٢٢٥).

[4] المحبر (٣١٧).

[5] الأصنام (٢٢) (روزا).

وصفته أنه (كان مروة بيضاء منقوشة، عليها كهيأة التاج). وكان بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة[١]. وله بيت يحج إليه. وجعل (ابن حبيب) موضع البيت في العبلاء على أربع مراحل من مكة[٢].

وفي رواية لابن اسحاق أن عمرو بن لحي نصب ذا الخلصة بأسفل مكة، فكانوا يلبسونه القلائد، ويهدون إليه الشعير والحنطة، ويصبون عليه اللبن، ويذبحون له، ويعلقون عليه بيض النعام[٣].

وهناك روايات جعلت ذا الخلصة (الكعبة اليمانية) لخثعم، ومنهم من سماه كعبة اليمامة. وأظن أن هاتين الروايتين هما رواية واحدة في الأصل، صارت روايتين من تحريف النساخ. ومنهم من جعل ذا الخلصة بيتاً في ديار دوس[٤]. ويُستنتج من كل هذه الروايات ان ذا الخلصة بيت كان يدعى كعبة أيضاً، وكان فيه صنم يدعى الخلصة، لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم[٥].

ويظهر من حديث: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة، والمعنى أنهم يرشدون ويعولون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان، فتسعى نساء بني دوس طائفات حول ذي الخلصة، فترتج أعجازهن»[٦]. ويستنتج من ذلك أن بني دوس وغيرهم كانوا يطوفون حول كعبة ذي الخلصة التي في جوفها صنم الخلصة.

وكان (بيت ذي الخلصة) من البيوت التي يقصدها الناس للاستقسام عندها

---

[1] الأصنام (٢٢) (روزا) (٣٤) (أحمد زكي)، الأزرقي (١/ ٧٣).

[2] المحبر (٣١٧)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٧)، صفة جزيرة العرب (١٢٧).

[3] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ٧٣) (باب ما جاء في الأصنام التي كانت على الصفا والمروة)، تاج العروس (٤/ ٣٨٩) (خلص)، البلدان (٨/ ٤٣٤).

[4] ابن هشام (١/ ٣٠)، الأغاني (٩/ ٧)، الأكليل (٨/٨٤)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٩)، وقد أجمل السيد رشيد الصالح ملحس الروايات الواردة عن ذي الخلصة في نهاية الأول من تأريخ مكة للأزرقي. وهو يرى أن البجلي لم يهدم بنيان ذي الخلصة تهديماً تاماً، وأنه بقي إلى أيام الملك عبد العزيز آل السعود، فأزاله، وأحرقت الشجرة التي كانت بجانب البيت وهي شجرة العبلاء. وذهب أيضاً أن ذلك البيت لم يكن بتبالة، إنما كان في تروق وقد عرف البيت بالولية كذلك. الأزرقي (١/ ٢٥٦ وما بعدها)، ابن هشام (١/ ٦٤) (حاشية على الروض الأنف، تاج العروس (٢/ ٣٧٨)، الروض الأنف (١/ ٦٥ وما بعدها).

[5] اللسان (٧/ ٢٩) (خلص) (صادر).

[6] اللسان (٧/ ٢٩) (خلص).

بالأزلام. وكانت له ثلاثة أقدح: الآمر، والناهي، والمتربص[١].

وفي ذي الخلصة قال الرجّاز:

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا   مثلي، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العــداة زورا[٢]

وكان سبب قوله أنه قُتل أبوه، فأراد الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة، فاستقسم عنه بالأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال تلك الأبيات. ومن الناس من ينحلها امرأ القيس. وذكر (ابن الكلبي) أيضاً أنه لما أقبل امرؤ القيس بن حجر، يريد الغارة على بني أسد، مرَ بذي الخلصة، فاستقسم عنده ثلاث مرات. فخرج الناهي. فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم، ثم غزا بني أسد، فظفر بهم[٣].

وقد هدم البيت في الإسلام، «فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها، قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً. فقال له: يا جرير: ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلى.. فوجهه إليه. فخرج حتى أُتي بني أحمس من بجيلة، فسار بهم إليه. فقاتلته خثعم وباهلة دونه. فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مئة رجل، وأكثر في خثعم، وقتل مئتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم. فظفر بهم وهزمهم، وهدم بنيان ذي الخلصة، وأضرم فيه النار فاحترق[٤]. وورد في رواية أن هدمه كان قبل وفاة الرسول بشهرين أو نحوهما[٥].

ويذكر (ابن الكلبي) أن موضع بيت ذي الخلصة عند عتبة باب مسجد تبالة[٦] أما (ابن حبيب)، فذكر أنه صار بيت قصار في العبلاء[٧]. وذكر أن موضعه

---

1 الأصنام (٢٢، ٢٩) (روزا).
2 الأصنام (٣٥) (٢٢) (روزا)، الروض الأنف (١/ ٦٥)، ابن هشام (١/ ٦٥) (هامش على الروض الأنف)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٧).
3 الأصنام (٢٩) (روزا).
4 الأصنام (٢٣) (روزا)، الطبري (٣/ ١٥٨) (دار المعارف).
5 الروض الأنف (١/ ٦٦).
6 الأصنام (٢٣) (روزا).
7 المحبر (٣١٧).

مسجد جامع لبلدة يُقال لها العبلات من أرض خثعم[١].

ويظهر من رثاء امرأة من خثعم لذي الخلصة حين هدمه جرير بن عبد الله، وأحرق بيته، وهو قولها:

وبنو أمامة بالوليّة صرعوا ثملا يعالج كلهم انبوبا[٢]

أن (الخلصة) كان صنماً أنثى، أي إلهة، ولذلك قيل له (الوليّة)، كما ترى ذلك في البيت المذكور. ونجد في مواضع أخرى من روايات أهل الأخبار ما يؤيد هذا الرأي، فقد استعملوا ضمير التأنيث للتعبير عنها[٣]، كما قالوا فيه (المروة البيضاء)[٤]. وأما تعبيرهم عنه بضمير التذكير، مثل قولهم (وكان)، فإنهم أرادوا بذلك لفظ (صنم) فذكروه.

سعد:

وكان لمالك وملكان، ابني كنانة، بساحل جدة وتلك الناحية صنم يُقال له سعد. وكان صخرة طويلة[٥]. وذكر (اليعقوبي) أنه كان لبني بكر بن كنانة[٦]. وذهب (ابن اسحاق) إلى أنه في موضع قفر، وقيل لإنه قرب اليمامة. وقد أورد الأخباريون عنه هذه القصة: «أقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه، يتبرك بذلك فيها. فلما أدناها منه نفرت منه، وكان يهراق عليه الدماء، فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه، وأسف فتناول حجراً فرماه به، وقال: لا بارك الله فيك إلهاً. أنفرت عليّ إبلي». ثم خرج في طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه، وهو يقول:

---

1 الروض الأنف (١/ ٦٥).
2 الأصنام (٢٣) (روزا).
3 الأزرقي (١/ ٧٣)، تاج العروس (٤/ ٣٨٩).
4 قال خداش بن زهير العامري:
وبالمروة البيضـــاء يوم تبالة ومحبة النعمـــان حيث تنصرا
الأصنام (٢٢) (روزا).
5 الأصنام (٣٦ وما بعدها) (٢٣) (روزا)، ابن هشام (١/ ٦٤) (حاشية على الروض)، تاج العروس (٢/ ٣٧٨).
6 اليعقوبي (١/ ٢٢٥).

أتيـــنا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا ســـعد، فلا نحن من ســـعد
وهل سعد إلاّ صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعي لغيّ ولارشد[١]

وذكر (ابن قتيبة) أن سعداً صنم على ساحل البحر بتهامة، تعبده عك ومن يليها، ويقال كانت تعبده هذيل[٢].

وقد ورد اسم (سعد) في أسماء الأشخاص المركبة المضافة، مثل (عبد سعد)، وهو مما يدل على أن الناس كانوا يتبركون به بتسمية أبنائهم باسمه[٣].

وقد ورد اسم هذا الصنم في كتابات النبط، فدعي بـ (سعدو)[٤]. كما ورد في كتابات الصفويين، مما يدل على أنه كان بين الأصنام التي تعبد لها أولئك القوم[٥]. ويظن أنه يرمز إلى كوكب.

ذو الكفين:

وهناك صنم عرف عند الأخبارين بـ (ذي الكفين) وكان لدوس، ثم لبني منهب بن دوس. فلما أسلموا، بعث النبي صلى الله عليه وسلم، الطفيل بن عمرو الدوسي، فحرقه وهو يقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أكبر من ميلادكا
إني حشوت النار في فؤادكا[٦]

ويظهر من هذا الرجز أنه أحرقه بالنار. ومعنى هذا أنه لم يكن صنماً من

---

[1] الأصنام (٣٧)، (٢٣) (روزا) ابن هشام (١/ ٦٤)، (حاشية على الروض الأنف) الروض الأنف (١/ ٦٤)، تاج العروس (٢/ ٣٧٨)، اللسان (٣/ ٢٠٢) (سعد) بلوغ الأرب (٢٠٨/٢)، اللسان (٣/ ٢١٨) (صادر).
[2] الاشتقاق (٢٥)، تاج العروس (٣/ ٣٧٨)، (سعد).
[3] الأغاني (١١/ ١٧١)، .Reste, S. 60
[4] O. Eissfeldt. 150, Arabien, S. 85, Handbuch, I, S. 234.
[5] Ency. Religi., I, p. 662.
[6] الأصنام (٣٧)، (٢٣) (روزا)، الأزرقي (١/ ٧٨، ٢٦٩)، تأريخ الخميس (٢/ ١٠٩)، تاج العروس (٦/ ٢٣٥)، (كف)، اليعقوبي (١/ ٢٢٥)، (أقدم)، الروض الأنف (١/ ٢٣٥).

حجر، وإنما كان من خشب، أو أنه أراد بيت الصنم. وذكر أن هذا الصنم كان صنم (عمرو بن حممة الدوسي) أحد حكام العرب[١].

ذو الشرى:

وكان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد، صنم يقال له ذو الشرى[٢]. وورد في رواية للأخباريين أن (ذا الشرى) صنم لدوس كان بالسراة[٣]. وقد ورد اسم هذا الصنم في الحديث النبوي، وورد بين أسماء الجاهليين اسم (عبد ذي الشرى)[٤].

ويرى بعض اللغويين أن الشرى ما كان حول الحرم، وهو إشراء الحرم[٥]، فإذا كان هذا التعريف صحيحاً، فإنه يكون في معنى (ذات حمى) عند السبئيين[٦]. وكان له حمى، به ماء يهبط من جبل حمته دوس له[٧].

و(ذو الشرى) إلَه ورد اسمه في كتابات (بطرا) و(بصرى)، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد.

الأقيصر:

أما الأقيصر، فكان صنم قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان، وكان في مشارف الشأم. وقد ذكر اسمه في شعر لزهير بن أبي سلمى، ولربيع بن ضبع الفزاري، وللشنفرى الأزدي[٨]. وكانوا يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده، ويلقون مع الشعر قرة من دقيق[٩]. وهي عادة كانت متبعة عند بعض قبائل اليمن كذلك.

---

1 إمتاع الأسماع (١/ ٣٩٨).
2 الأصنام (٣٨)، (٢٤) (روزا)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٩).
3 تاج العروس (١٠/ ١٩٧).
4 Ency. Religi., I., p. 663, Reste, S. 48.
5 (وأشراء الحرم: نواحيه، والواحد شرى)، اللسان (١٤/ ٤٢٨) (صادر).
6 Reste, S. 51.
7 نهاية الأرب (١٨/ ١٤ وما بعدها).
8 الأصنام (٣٨ وما بعدها)، (٢٤) (روزا)، تاج العروس (٣/ ٤٩٧)، اللسان (٦/ ٤١٦)، الأغاني (٢١/ ١٤١).
9 البلدان (١/ ٣٤١ وما بعدها) (الأقيصر)، الأصنام (١٨).

ويذكر (ابن الكلبي) أن هوازن كانت تنتاب حجاج الأقيصر، فإن أدركت الموسم، قبل أن يلقي القرة، أي قبضات من دقيق، قال أحدهم لمن يلقي: «أعطنيه. فإني من هوازن ضارع»، وإن فاته، أخذ ذلك الشعر بما فيه من القمل والدقيق، فخبزه وأكله. وقد عبرت هوازن في ذلك، فقال معاوية بن عبد العُزى بن ذراع الجرمي، في (بني جعدة) وكانوا قد اختصموا مع بني جرم في ماء لهم إلى النبي يقال له العقيق، فقضى به رسول الله لجرم، شعراً منه:

ألم تر جرمـــاً أبحدت وأبوكــم   مع القمل في جفر الأقيصر شـــارع؟
إذا قرة جاءت بقول: أصب بها   سوى القمل؟ إني من هوازن ضارع[1]

ويظهر من بيت شعر رواه (ابن الأعرابي)، هو:

وأنصاب الأقيصر حين أضحت   تسيل على مناكبها الدماء

ومن بيت لزهير بن أبي سلمى، هو:

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهداً   وما سحقت فيه المقاديم والقمل[2]

أنه كان عند الصنم الأقيصر أنصاب ينحر الناس عليها ذبائحهم التي يتقربون بها إلى هذا الإلَه. وكانت أكثر من نصب واحد، وقد تلطخت بالدماء من كثرة ما ذبح عليها.

وأشير إلى (أثواب الأقيصر) في بيت للشنفرى الأزدي[3]. ويظهر أن عباده كانوا يطوفون حوله، وهم يلبون ويغنون[4].

---

1 الأصنام (٣٠) (روزا).
2 الأصنام (٣٠) (روزا)، تاج العروس (٢/ ٤٩٧)، اللسان (٦/ ٤١٦)، الأغاني (٢١/ ١٤١).
3 وإن امرءاً أجار عمراً ورهطه   علي، وأثواب الأقيصر، يعنف
الأصنام (٢٥) روزا).
4 البلدان (١/ ٣٤٠).

نـهم:

وكان لمزينة صنم يُقال له: نهم، كسره سادنه خزاعي بن عبد نهم، وهو من مزينة من بني عداء، وأعلن إسلامه[١]. ويظهر من أبيات لأمية بن الأسكر أن أتباع الصنم كانوا يقدمون الذبائح له، ويقسمون به. وقد سمى منهم جملة رجال عرفوا بـ (عبد نهم) من بني هوازن وبجيلة وخزاعة[٢]. وهذا مما يدل على انتشار عبادة هذا الصنم بين هذه القبائل أيضاً.

عائم:

وكان لأزد السراة صنم يُقال له عائم. ورد اسمه في شعر لزيد الخير، المعروف أيضاً بزيد الخيل[٣].

سعير:

أما سعير، فهو صنم عنزة[٤]. وكان الناس يحجون إليه ويطوفون حوله، ويعترون العتائر له، وقد ورد في شعر لجعفر بن خلاس، الكلبي، وكان راكباً ناقة له، فمرت به، وقد عترت عنزة عنده، فنفرت ناقته منه، فأنشأ يقول:

نفرت قلوصي من عتائر صرعت   حول السعير تزوره ابنا يقدم
وجموع يذكـــر مهطعين جنـــابه   ما إن يحيـــر إليهـــم بتكلم[٥]

---

[1] وكان سادن نهم يسمّى خزاعي بن عبد نهم، من مزينة ثم من بني عداء، فلما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم، ثار إلى الصنم فكسره. وأنشأ يقول:

ذهبت إلى نهـــم لأذبـــح عنـــده   عتيرة نسك كالتي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها   أهـــذا إلـــه أبكم ليس يعقل؟
أبيت فديني اليـــوم ديـــن محمد   إله الســـماء الماجد المتفضل

الأصنام (٣٩ وما بعدها)، (٢٥) (روزا)، معجم الشعراء (٣٢٨)، بلوغ الأرب (٢/ ٢١٠).

[2] Reste, S. 583

[3] الأصنام (٤٠)، (٢٥) (روزا)، الأغاني (١٦/ ٥٧)، بلوغ الأرب (٢/ ٢١٠).

[4] الأصنام (٤١)، (٢٥) روزا)، بلوغ الأرب (٢/ ٢١٠).

[5] الأصنام (٢٥) (روزا) (٤١) (أحمد زكي باشا).

وبين أسماء الرجال أناس عرفوا بـ (سعير)[1]. والسعير النار واللهب، ولا استبعد وجود صلة بين هذا المعنى وبين هذا الصنم. بأن يكون هذا الصنم ممثلاً للشمس[2].

الفلس:

وكان لطيء صنم يُقال له الفلس، وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ، أسود، كأنه تمثال إنسان. وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه، ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلاّ أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلاّ تركت له ولم تخفر حويته أي حوزته وحرمه[3]. ذكر (ابن حبيب) أنه كان بنجد، وكان قريباً من فيد وسدنته بنو بولان[4].

وبولان جد بني بولان هو الذي بدأ بعبادته على رواية ابن الكلبي. وكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له صيفي «فأطرد ناقة خلية لامرأة من كلب من بني عُلَيم، كانت جارة لمالك بن كلثوم الشمجي، وكان شريفاً، فانطلق بها حتى وقفها بفناء الفلس. وخرجت جارة مالك، فأخبرته بذهابه بناقها، فركب فرساً عُرياً وأخذ رحمه، وخرج في أثره، فادركه وهو عند الفلس، والناقة موقوفة عند الفلس، فقال له: خل سبيل ناقة جارتي. فقال: إنها لربك. قال: خل سبيلها. قال: أتخفر إلهك؟ فبوأ له الرمح، فحل عقالها، وانصرف بها مالك، وأقبل السادن على الفلس، ونظر إلى مالك، ورفع يده وقال، وهو يشير بيده إليه:

يا ربّ إن مالك بن كلثوم   أخفرك اليوم بنابٍ علكوم
وكنت قبل اليوم غير مغشوم

[1] Reste, S. 61.

[2] تاج العروس (٣/ ٢٦٨)، (سعر).

[3] الأصنام (٥٩ وما بعدها)، (٣٧) (روزا)، الروض الأنف (١/ ٦٥)، نهاية الأرب (١٨/ ٧٧)، البلدان (٣/ ٩١١)، جمهرة (٣/ ٣٨).

[4] المحبر (٣١٦)، اليعقوبي (١/ ٢٢٥).

يحرضه عليه. وعدي بن حاتم يومئذ قد عثر عنده وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك. وفزع لذلك عدي بن حاتم وقال، انظروا ما يصيبه في يومه هذا. فمضت له أيام لم يصبه شيء. فرفض عدي عبادته وعبادة الأصنام وتنصر. فلم يزل متنصراً حتى جاء الله بالإسلام، فأسلم.

فكان مالك أول من أخفره. فكان بعد ذلك السادن إذا أطرد طريدة، أخذت منه. فلم يزل الفلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي عليه السلام، فبعث إليه علي بن أبي طالب، فهدمه، وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني، ملك غسان قلده اياهما، يُقال لهما مخذم ورسوب، فقدم بهما علي بن أبي طالب على النبي، فتقلد أحدهما، ثم دفعه إلى علي بن أبي طالب، فهو سيفه الذي كان يتقلده»[١]. وجاء في بعض الروايات ذكر ثلاثة سيوف، هي: مخذم، ورسوب، واليماني[٢].

وقد عرف (مالك بن كلثوم بن ربيعة) الشمجي المذكور، بـ (مخفر الفلس)، لأنه أخفر ذمته، وكان لا تخفر ذمته[٣].

و(الفلس)، هو (هفلس) (ها ــ فلس)، عند لحيان. وقد تعبدوا له مع أصنام أخرى، وردت أسماؤها في نصوصهم[٤].

ويلاحظ أن (ابن الكلبي) الذي يروي هذا الخبر، كان نفسه قد روى قبل ذلك أن السيفين مخذماً ورسوباً، كانا على الصنم مناة، صنم الأوس والخزرج، وأن الذي أهداهما له هو الحارث بن أبي شمر الغساني، وأن علي بن أبي طالب لما هدم مناة، أخذ السيفين معه، فجاء بهما إلى الرسول. فيظهر من ذكره للخبر مع صنمين أنه وقع في هفوة أو نسي، فجعل من القصة الواحدة قصتين.

أصنام أخرى:

وكانت لطيء أصنام أخرى، منها اليعبوب، وهو صنم لجديلة طيء، وكان

[1] الأصنام (٣٧ وما بعدها)، (روزا)، نهاية الأرب (٨/ ٧٧)، تاج العروس (٤/ ٢١٠)، (الفلس).
[2] Das Götzenbuch, S. 140
[3] الاشتقاق (٢/ ٢٣٥).
[4] Jaussen-Savignac, Mission, II, 484, Grohmann, S. 984.

لهم صنم أخذته منه بنو أسد، فتبدلوا اليعبوب بعده. وقد ورد ذكره في شعر لعبيد:

فتبدلوا اليعبوب بعد إلهـــهم صنماً، فقروا، يا جديل، وأعذبوا

أي: لا تأكلوا على ذلك، ولا تشربوا[١].

وأما باجر، فكان صنماً للأزد ومن جاورهم من طيء وقضاعة[٢].

ولم يذكر ابن الكلبي في كتابه الأصنام اسم الصنم الجلسد. وهو صنم كانت كندة تتعبد له، وكذلك تعبد له أهل حضرموت. وكان سدنته بنو شكامة من السكون، وهم من كندة. وكان للصنم حمى، ترعاه سوامه وغنمه، فإذا دخلته هوافي الغنم، حرمت على أربابها، وصارت ملكاً للصنم[٣].

وقد وصف بأنه كان كجثة الرجل العظيم، من صخرة بيضاء، لها كالرأس أسود، إذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان. وكانوا يكلمون منه، وتخرج منه همهمة، ويقربون القرابين اليه، ويلطخون بدمه، ويكترون ثياب السدنة يلبسونها حينما يقربون قرباناً اليه ويريدون مكالمته[٤]. ويلاحظ أن تغيير الملابس، وإبدالها للتطهر، له مثيل عند العبرانيين[٥].

المحرق:

وكان المحرق (محرق) صنماً لبكر بن وائل وبقية ربيعة في موضع سلمان. وأما سدنته، فكانوا أولاد الأسود العجلي. وقد نسب اليه بعض الرجال فورد

---

[1] الأصنام (٣٩) (روزا)، (٦٣) (أحمد زكي باشا)، المشرق، السنة ١٩٣٨م، الجزء الأول.
[2] الأصنام (٦٣) (٣٩) (روزا).
[3] البلدان (٣/ ١٢٢). قال المثقب العبدي، وقيل عدي بن وداع:
فبات يجتاب شقارى كما يبقر من يمشي إلى الجلسد
تاج العروس (٢/ ٣٢٤)، (جلسد).
[4] البلدان (٣/ ١٢٢ وما بعدها).
[5] التكوين، الإصحاح الخامس والثلاثون، الآية ٢.

(عبد محرق)[١]. ويظن بعض المستشرقين أنه عرف بـ (محرق) لأن عبدته كانوا يقدمون اليه بعض القرابين البشرية محروقة[٢]. وكان بنو بكر بن وائل وسائر ربيعة، قد جعلوا في كل حي من ربيعة له ولداً. (وكان في عنزة بلج بن المحرق. فكان في عميرة وغفيلة عمرو بن المحرق. وكان سدنته آل الأسود العجليون)[٣].

الشمس:

والشمس صنم كان لبني تميم، وله بيت. وكانت تعبده بنو أد كلها: ضبة: وتميم، وعدي، وعكل، وثور. وأما سدنته، فكانوا من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم. فكسره هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[٤]. وقد قيل لها: الإلاهة[٥]. وذكر (اليعقوبي) أن قوماً من (عذرة) تعبدوا لصنم يقال له: شمس[٦].

وقد ذكر بعض أهل الأخبار، أن الشمس صنم قديم. وأول من تسمى به سبأ بن يشجب[٧]. وذكر(اليعقوبي)، أنه صنم قوم من عذرة[٨].

وقد وردت جملة أسماء منسوبة إلى الشمس، عرف أصحابها بعبد شمس، منهم من قبائل أخرى من غير تميم. ويدل ذلك على أن عبادتها كانت معروفة في مواضع مختلفة من جزيرة العرب. وعرف بعض الأشخاص بـ (عمرو شمس) عند العرب الشماليين[٩].

---

[1] الأصنام (١١١) (تكملة الأصنام) البلدان (٧/ ٣٩٣) (المحرق)، تاج العروس (٦/ ٣١٣)، (حرق).
[2] Reste, S. 57, Ency. Religi., I, p. 660.
[3] المحبر (٣١٧).
[4] المحبر (٣١٦)، البلدان (٦/ ٣٩٣)، (شمس).
[5] شمس العلوم (جـ١ ق١ ص ٩٣).
[6] اليعقوبي (١/ ٢٢٥).
[7] تاج العروس (١٧٢/٤)، (شمس).
[8] اليعقوبي (١/ ٢٢٥).
[9] Ency. Religi., I, 660.

وفي جملة أصنام تميم الأخرى، الصنم تيم، وبه سمي رجال من تميم ومن غيرهم، مثل (عبد تيم) و(تيم الله)[١].

وهناك أسماء أصنام أخرى لم ترد في كتاب الأصنام، إنما وردت في كتب أخرى. وقد ذكرها (ابن الكلبي) نفسه في بعض مؤلفاته. ومن هذه الأصنام: الأسحم، والأشهل، وأوال، والبجة، وبلج، والجبهة، وجريش، وجهار، والدار، وذو الرجل، والشارق، وصدا، وصمودا، والضمار، والضيزن، والعبعب، وعوض، وعوف، وكثرى، والكسعة، والمدان، ومرحب، ومنهب، والهبا، وذات الودع وياليل[٢]، وذريح[٣]، وباجر، والجد، وحلال، والحمائم، وذو اللبا، والسعيدة، وغنم، وفراض، وقزح، وقيس، والمنطبق، ونهيك[٤].

أما أوال، فإنه ايال، وهو صنم بكر وتغلب[٥].

وأما جهار، فقد كان من أصنام هوازن، وموضعه بعكاظ، وسدنته آل عوف النصريون، ومعهم محارب فيه. وكان في أسفل أفطح.[٦] وكانت تلبية من نسك لجهار: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، اجعل ذنوبا جبار، وأهدنا لأوضح المنار. ومتعنا وملنا بجهار»[٧].

وأما الدار، فصنم سمي به عبد الدار بن قصي بن كلاب[٨].

وأما الدوار، فصنم كانت العرب تنصبه، يجعلون موضعاً حوله، يدورون به، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار، ومنه قول امرىء القيس:

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه　　عذارى دوار في ملاءٍ مذيل[٩]

وقد ذكر (ابن الكلبي) أن العرب تسمي الطواف حول الأصنام والأوثان

---

[1] الأغاني (١٨/ ١٦٨)، كتاب المعمرين (٣١).
[2] الأصنام (١٠٧ وما بعدها) (تكملة).
[3] المحبر (٣١٤، ٣١٨).
[4] Reste, S. 64.
[5] الأصنام (١٠٧).
[6] المحبر (٣١٥).
[7] المحبر (٣١٢).
[8] الأصنام (١٠٨)، تاج العروس (٣/ ٢١٦)، الاشتقاق (٥٦، ٩٧).
[9] اللسان (٥/ ٣٨٤).

الدوار[١]. وعرف بعض أهل الأخبار الدّوار بأنه (نسك للجاهلية يدورون فيه لصنم أو غيره)[٢].

ويظهر من دراسة ما ورد في كتب أهل الأخبار وفي كتب اللغة عن (الدوار) أن الدوار لم يكن صنماً، وإنما هو طواف حول صنم من الأصنام، أي عبادة من العبادات لا تختص بصنم معين. وقد كان من عادة الجاهليين الطواف حول الأصنام. فظن بعض أهل الأخبار أن الدوار صنم معين، أو أنه صنم ينصب، فيدور الناس حوله.

وأما ذو الرجل، فهو صنم من أصنام أهل الحجاز[٣]. ويظهر أن هذا الصنم، وكذلك الصنم (ذو الكفين)، هما من الأصنام التي تغلبت صفاتها على أسمائها، فنعتت بهذه النعوت، كأن تكون لرجل أحد الصنمين، ولكفي الصنم الآخر ميزة خاصة وعلامة فارقة مثل كسر أو دقة صنعة، جعلت الناس يدعون الصنمين بالنعتين البارزين. ويرى (نولدكه) احتمال كون هذين الصنمين حجرين في الأصل من الأحجار المقدسة Fetish التي كان يعبدها الناس في القديم، ثم تحولت إلى صنمين بعد ان رسمت عليها بعض التصاوير صيرتهما على شكل انسانين[٤].

وسمي بالصنم (الشارق) جملة رجال عرفوا بعبد الشارق[٥]. ولكلمة الشارق علاقة بالشروق. وقد ذهب (ولهوزن) إلى أن المراد به الشمس لشروقها[٦]. و(الشريق) اسم صنم أيضاً[٧]. وعندي أن الشارق وشريقاً نعتان للآلهة، وليسا اسمين لصنمين، وأنهما في معنى (شرقن) الواردة في نصوص المسند، وتعني (الشارق)، أي اللفظة المذكورة تماماً. وقد وردت نعتاً في نصوص عربية جنوبية كثيرة، مثل جملة: (عثتر شرقن)، أي (عثتر الشارق). فالشارق إذن نعت من نعوت الآلهة، أو اسم من أسماء الله الحسنى، بالتعبير

---

[1] الأصنام (٢١) (روزا).

[2] تركت الطير عاكفة عليه   كما عكف النساء على دوار
شرح ديوان لبيد (ص ٤٤)، المعاني (١/ ١٠٥).

[3] الأصنام (١٠٩).

[4] Ency. Religi., I, 663.

[5] الأصنام (١٠٩)، تاج العروس (٦/ ٣٩٢)، القاموس (٣/ ٢٤٨).

[6] Reste, S. 65.

[7] اللسان (١١/ ٤٦).

الإسلامي. وقد يقابل لفظة (نور) الذي هو نعت من نعوت الله في الإسلام، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾[1].

وأما صدا وصمودا والهبا، فإنها من أصنام قوم عاد على رواية الأخباريين[2].

وأما الضمار، فكان صنماً عبده العباس بن مرداس السلمي[3]، وبنو سليم.[4] ولما حضرت مرداس الوفاة، أوصى به إلى ابنه العباس، وطلب منه العناية به، لأنه يضر وينفع. فلما ظهر الإسلام، أحرق العباس ضماراً، واتى النبي فأسلم[5].

والعبعب، هو صنم كان لقضاعة ومن داناهم. وقد يقال بالغين المعجمة، فيخلط بينه وبين الغبغب[6]. ورأيي ان الكلمتين أصلهما كلمة واحدة، حرفها النساخ فصارت كلمتين.

وأما (عوض) فهو صنم كان من أصنام بكر بل وائل. وقد ذكر مع الصنم سعير في بيت شعر نسب الى الأعشى، أو الى رشيد بن رميض العزى[7].

وكان (جد) (الجد) صنماً معروفاً عند عدد من الشعوب السامية، وليس من المستبعد أن يكون لاسم القبيلة الإسرائيلية (جد) (جاد) علاقة باسم هذا الصنم[8]. وقد ورد في النبطية (جدا). وورد في الأسماء العربية (عبد جد)

---

1 سورة النور، السورة ٢٤، الآية ٣٥.

2 الأصنام (١١٠)، (وصمود كزبور: اسم صنم كان لعاد يعبدونه. قال يزيد بن سعد، وكان آمن يهود عليه السلام:

عصمت عادة رسولهم فأمسوا — عطاشا لا تمسهم السماء
لهم صنم يُقال له صمود — يقابله صداء والهباء
وإن إله هود هو إلهي — على الله التوكل والرجاء

وهو مذكور في كتب السير، تاج العروس (٢/ ٤٠٢).

3 الأصنام (١١٠)، (وضمار: صنم عبده العباس بن مرداس ورهطه)، تاج العروس (٣/ ٣٢٣)، (ضمر)، الروض الأنف (٢/ ٢٨٣).

4 البكري (٨٨١) (ضمار).

5 البلدان (٥/ ٤٤٠)، ابن هشام (٨٣٢)، (ضماد) الأغاني (١٣/ ٦٢)، (أخبار العباس بن مرداس).

6 الأصنام (١١٠)، تاج العروس (١/ ٣٦٣)، اللسان (٢/ ٦٤)، (عب).

7 الأصنام (١١٠) (وبه فسر ابن الكلبي قول الأعشى:

حلفت بمائرات حول عوض — وأنصاب تركن لدى السعير

قال: والسعير: اسم صنم كان لعنزة خاصة، كما في الصحاح، قال الصاغاني: ليس البيت للأعشى، وإنما هو لرشيد بن رميض العنزي)، تاج العروس (٥/ ٥)، اللسان (٩/ ٥٦)، Reste, S. 66.

8 Robertson Smith, Marr., p. 43, Kinship, p. 261, Nöldeke in ZDMG., XXXI, 86, CIS, IV, p. 20, Ency. Religi., I. p. 661.

و(عبد الجد)[١].

و(كثرى) من الأصنام المنسوبة إلى طسم وجديس، ظل باقياً معروفاً إلى أيام الرسول، فكسره نهشل بن عرعرة ولحق بالنبي[٢]. وقد ورد بين أسماء الجاهليين منُ دُعي بـ (عبد كثرى). ويرى (نولدكه) في عدم ورود أداة التعريف (ال) مع (كثرى) في (عبد كثرى)، دلالة على أن هذا الصنم هو من الأصنام القديمة. ويرى أيضاً أن كلمة (كثرى) هي مجرد لقب من ألقاب (العزُى)، نسي فظن أنه اسم صنم مستقل[٣].

وأما المدّان، فصنم يظهر أنه كان من أصنام أهل الحجاز. وقد سمي به جملة رجال عرفوا بـ (عبد المدان)، وكان له بيت[٤].

وأما (مرحب)، فصنم من أصنام حضرموت، وبه سمي (ذو مرحب) سادن هذا الصنم[٥]. وكانت تلبية من نسك له: «لبيك. لبيك، إننا لديك. لبيك، حببنا اليك»[٦].

وللأخباريين جملة آراء في معنى ذات الودع، وهي أنثى. وقد ورد اسمها في الشعر، وكانت العرب تقسم بها. قيل إنها وثن بعينه، وقيل هي مكة لأنه كان يعلق الودع في ستورها. وقيل سفينة نوح، كانت العرب تقسم بها، فتقول بذات الودع، قال عدي بن زيد العبادي:

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا[٧]

---

[1] Ency. Religi., I, p. 662.

[2] الأصنام (١١٠)، (وكثري كسكري: صنم كان لجديس وطسم، كسره نهشل بن الربيس بن عرعرة ولحق بالنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكتب له كتاباً. قال عمرو بن صخرة بن أشنع:
حلفت بكثرى حلفةً غيـــر بـــرة لتستلبن أثـــواب قيس بن عـــازب
تاج العروس (٣/ ٥١٣).

[3] الاشتقاق (٢٣٥)، Reste, S. 67, Ency. Religi., I, p. 660.

[4] الأصنام (١١١)، تاج العروس (٩/ ٣٤٢ وما بعدها)، اللسان (١٧/ ٢٨٩)، الاشتقاق (٢/ ٢٣٧).

[5] الأصنام (١١١)، تاج العروس (١/ ٢٦٩)، (رجب)، المحبر (٣١٨).

[6] المحبر (٣١٤).

[7] الأصنام (١١١)، اللسان (١٠/ ٢٦٧) (ودع)، تاج العروس (٥/ ٥٣٥).

ويا ليل، اسم صنم كذلك، أضيف اليه فقيل (عبد ياليل)، كما قيل (عبد يغوث) و(عبد مناة) و(عبد ودّ)[1].

وأما (ذريح) (ذرح)، فكان لكندة بالنجير من اليمن ناحية حضرموت، يظهر أنها كانت تحج اليه، وأن له بيتاً يقصد، بدليل ورود تلبية من نسك اليه، وهي: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، كلنا كنود، وكلنا لنعمة جحود. فأكفنا كل حية رصود». ويظن (ولهوزن) أنه يمثل الشمس. (وذرح) اسم من الأسماء، ويرد في الأعلام العربية الجنوبية المركبة، مثل (ذرح ايل).

وذهب (نولدكه) إلى أن (ذرح) هو مثل الشارق و(محرق) صنم يمثل الشمس. والظاهر أن عبادة هذا الصنم لم تكن منتشرة خارج حدود العربية الجنوبية[2].

وأما باجر، فإنه من أصنام الأزد ومن داناهم من طيء. وقد سمي به رجال عرفوا بـ (عيد باجر)[3].

وحلال، هو صنم فزارة، أما الحمام، فإنه صنم بنو هند من بني عذرة.

وكان في المشقر صنم لبني عبد القيس يسمى ذا اللبا، سدنته بنو عمرو[4]. وكانت تلبية من نسك له: «لبيك اللهم لبيك. لبيك، رب فاصرفن عنا مضر. وسلمن لنا هذا السفر. إن عما فيهم لمزدجر. واكفنا اللهم أرباب حجر»[5].

وكان المنطبق صنماً، للسلف وعك والأشعريين، وهو من نحاس، يكلمون من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله. فلما كسرت الأصنام، وجدوا فيه سيفاً، فاصطفاه الرسول، وسمّاه (مخدماً)[6]. وذكر (ابن حبيب) أن تلبية من نسك لمنطبق: «لبيك اللهم لبيك. لبيك». ويلاحظ أن الأخباريين ذكروا أن السيف (محدم) (مخذم) كان سيفاً على الصنم مناة أو (الفلس) صنم طيء، كما ذكروا أن السيف (رسوب) كان على الصنم (مناة)، أو الفلس كذلك.

وأما الصنم نهيك، فقد كان من الأصنام الموضوعة في مكة. وذكر (الأزرقي) أن عمرو بن لحي نصب هذا الصنم عند الصفا، وأنه كان يعرف بـ (مجاود

---

[1] الأصنام (١١١).

[2] Reste, S. 65, Ency. Religi., I, p. 660.

[3] Reste, S. 64.

[4] Reste, S. 65.

[5] المحبر (٣١٤).

[6] البلدان (٨/ ١٧٩) (المنطبق)، المحبر (٣١٨).

الريح) (مجاور الربح)، وأنه نصب الصنم: مطعم الطير عند المروة[1]، فكان الناس في موسم الحج يحجون إلى الصنمين.

ولعل هذين الصنمين كانا من الأصنام التي خصصت بالسماء، وإن الناس كانوا يضعون الحبوب عندهما لتأكلها الطيور. ولذلك قيل لنهيك (مجاود الريح)، ولصنم المروة (مطعم الطير).

وغنم، ذكر أنه كان في جملة الأصنام الموضوعة بمكة. وقد ورد اسم رجال، واسم أسر[2].

وفراض، صنم كان بأرض سعد العشيرة[3]. وقد حطمه رجل منهم اسمه (ذُباب)، وهو من (بني أنس الله بن سعد العشيرة). حطمه، ثم وفد إلى النبي فأسلم، وقال شعراً في ذلك، أشار فيه إلى هدمه ذلك الصنم[4]. وكانوا يذبحون له ويلطخونه بالدم[5].

أما قزح (قزاح)، فالظاهر أنه صنم، كان الناس يتصورون أنه يبعث الرعد والعواصف. وقد نسي على ما يظن. ولا بد أن يكون لقوس قزح علاقة ما بهذا الصنم القديم. وقد يكون لاسم قزح، وهو من مواضع الحرم بمكة، علاقة باسم هذا الوثن العتيق، وقد تعبد بنو أدوم لصنم اسمه (قزح) Koze مما يدل على أنه هو الصنم العربي الذي نتحدث عنه. والظاهر أنه كان من الأصنام القديمة المعروفة، غير أنه فقد منزلته وقلَّت أهميته، فلم يكن من الأصنام الكبرى عند ظهور الإسلام[6]. ويخالف (نولدكه) رأي بعض المستشرقين الذين ذهبوا الى أن المراد بقزح الشيطان، لا صنم من الأصنام[7].

و(قيس) اسم صنم قديم. نُسيت عبادته، وصار اسم أشخاص. ودليل كونه صنم قديم وروده في الأعلام المركبة، مثل (عبد القيس)، فإن في هذه

---

[1] المحبر (٣١٣)، الأزرقي (١/ ٧٣).
[2] ابن هشام (١٤٥)، (بنو غنم)، المحبر (٢٨٨).
[3] في نهاية الأرب (فراص)، نهاية الآرب (١٨/ ١٨).
[4] تبعت رسول الله إذا جاء بالهدى   وخلفت فراضاً بدار هوان
شددت عليه وشدة فتركته   كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
[5] نهاية الأرب (١٨/ ١٥١).

[6] Josephus, Antiq., XV, 253.
[7] Ency. Religi., I, p.661.

التسمية دلالة على أن قيساً اسم إلَه. ولقيس علاقة بـ (قوس) Quas، وهو إله من آلهة أدوم[١].

وقد ورد اسم (قيس) (قس) و(قوس) في الكتابات. وهما اسم إلهَ واحد. عثر على معبد له في مدائن صالح[٢].

وأما (عوف)، فقد استدل من التسمية بـ (عبد عوف) على أنه اسم صنم، غير أننا لا نعرف من أمر عبادته شيئاً، فلعله من الأصنام التي ذهب ذكرها قبل الإسلام بزمن طويل. وقد ذكر أهل الأخبار أنه (صنم)، ولم يذكروا اسم عبدته.[٣]

وذكر (اليعقوبي) أن للأزد صنم، يقال له (رئام)[٤].

والسعيدة، صنم أنثى وعلامة تأنيثه وجود تاء التأنيث بآخره. وكان لسعد هذيم وسائر قضاعة إلا (بني وبرة)، وعبدته الأزد أيضاً. وكان سدنته (بنو عجلان) وموضعه بأحد[٥] «وورود أن (السعيدة) بيت كان يحجه ربيعة في الجاهلية»[٦].

وورد في جملة أسماء أهل الجاهلية اسم (سعد العشيرة). وقد ذهب أهل الأخبار إلى أن (مذحجاً) كان يعرف بذلك الاسم[٧]. و(العشيرة) اسم صنم من الأصنام القديمة، وله علاقة بعبادة الساميين. فقد كان الكنعانيون يضعون وثناً في محلات العبادة يسمونه (العشيرة)، كما كانوا يتعبدون له لأنه من آلهتهم القديمة. وهو إلهة، أي أنثى عند الكنعانيين. ويظهر أن (العشيرة) من الآلهة السامية القديمة التي كانت تعبد بصورة خاصة عند الساميين الغربيين، كما عبر بلفظة (العشيرة) عن (المذبح) (المزبح)[٨]. واسم (عبد عشيرة) مرتبط بالطبع باسم هذا الإلَه.

---

1 Reste, S. 67.

2 «بت قسو»، «بيت قيسو»،
Reste, 67, Ryckmans 18, Grohmann, S. 85, Jaussen-Savignac, Mission, II, 501, 520, 528, I, 169, 200, CIS, II, 209, Doughty, Documents Epigraphiques, 38, CIS, II, 198, J. Euting, Tagebuch, II, 262.

3 تاج العروس (٦/ ٢٠٦)، (عوف).

4 اليعقوبي (١/ ٢٢٥).

5 المحبر (٣١٦ وما بعدها).

6 اللسان (٣/ ٢١٥) (صادر)، تاج العروس (٢/ ٣٧٨) (سعد).

7 الاشتقاق (٢/ ٢٣٧).

8 Encyclopaedia Biblica, By Cheyne, Vol. I, 3330.

ومن دلائل عبادة (الأشهل)، ورود الأشهل في الأعلام المركبة، مثل (عبد الأشهل). وقد ذكر (ابن دريد) ان الأشهل صنم[١].

وأشار (محمد بن حبيب) إلى صنم قال له: (زائدة)، لم يذكر من كان يتعبد له[٢].

وذكر علماء اللغة اسم صنم قالوا له: (الضيزن). وقال بعضهم: «والضيزنان صنمان للمنذر الأكبر، كان اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحاناً للطاعة»[٣].

وأدخل بعض علماء اللغة (الغري) في عداد الأصنام. فقال: «والغريّ: صنم كان طلي بدمٍ». وذكر بعض آخر أن الغري: نصب كان يذبح عليه النسك. وذكروا أن الغريين بناءان طويلان، يقال هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش، وسمّيا الغريين لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله في يوم بؤسه[٤].

ومن الأصنام صنم اسمه (عير)، قيل إنه كان لعبد عمرو المعروف بـ (بكر بن جبلة الكلبي)، كان قومه يعظمونه[٥]. وصنم اسمه (جريش)، اليه نسب: (عبد جريش)[٦].

وذكر بعض أهل الأخبار أن (كعباً) و(كعيباً) المذكورين في قصة (القليس) التي أقامها (أبرهة) بصنعاء، هما صنمان[٧].

---

[1] الاشتقاق (٢٦٣)، تاج العروس (٧/ ٤٠٢)، (شهل).
[2] الاشتقاق (ص ١٣).
[3] اللسان (١٣/ ٢٥٤)، (ضزن)، تاج العروس (٩/ ٢٦٤)، (ضزن).
[4] اللسان (١٥/ ١٢٢)، (غرا)، تاج العروس (١٠/ ٢٦٤)، الجوهري، تاج اللغة (٢/ ٥٢٦).
[5] الإصابة (١/ ١٦٦).
[6] تاج العروس (٤/ ٢٨٨)، (جرش).
[7] البداية، لابن كثير (٢/١٧٠ وما بعدها).

الفصل السبعون

أصنام الكتابات

أقصد بـ (أصنام الكتابات) الأصنام التي عرفنا خبرها وأمرها من الكتابات الجاهلية ومن الكتابات الآشوربة ومن كتب الكتبة (الكلاسيكيين)، وذلك تمييزاً لها عن الأصنام التي أخذنا علمنا بها من روايات الأخباريين في الغالب.

وقد سبق لنا أن وقفنا على أسماء بعض آلهة الأعراب، وذلك أثناء حديثنا عن الآشوربين والعرب. وقد ذكرت تلك الأسماء في الكتابات الآشورية لمناسبة سقوط أصنامها أسيرة في أيدي الآشوريين. وكان الأعراب الذين حاربوا الآشوريين قد حملوها معهم، إما تبركاً وتيمناً بها، وتفاؤلاً من وجودها معها بالنصر والغنائم، وإما لأنها كانت معهم في خيمتها المتخذة معبداً لها فسقطت في أيدي الآشوريين باكتساح الآشوريين لمنازل أولئك الأعراب. فأخذها الآشوريون معهم، وحملوها الى عاصمتهم أسيرة كما يؤسر البشر، وسجنوها عندهم، إذلالاً لعبادها وإهانة لهم، وازدراءً بشأن تلك الآلهة المغلوبة السيئة الحظ التي لم تتمكن من مساعدة عبادها في القتال والتي لم تتمكن حتى من تخليص نفسها من الأسر، فوقعت هي نفسها أسيرة ذليلة في أيدي عبدة آلهة أخرى. وبقيت في أسرها هذا، حتى وجد الأعراب ألاَّ مناص لهم من استردادها من الآشوريين إلاّ باسترضائهم وبإعلان خضوعهم لهم. فذهبوا إلى نينوى، وقدموا طاعتهم لملك آشور، وأمر عندئذ بإعادة أصنامهم إليهم، وكتب الآشوريون فوقها كتابة تشير إلى سقوطها في أسرهم، والى تغلب آلهة الآشوريين على آلهة الأعراب، وتفوق إله آشور على

تلك الأصنام، وبعد أن نقش عليها اسم الملك. ثم أعيدت وهي على هذه الصورة اليهم[١].

ومن هذه الأصنام دلبت (دلبات) Dilbat[٢]، و(عتر سماين) (عشتر السماء) Atarsamain (A-tar-sa-ma-a-in) و(عتر قرمية) (عتر قرمي) (Atar Kurumiaa)، و(ديه) (دايا) = (Dija) (Diya)، و(نوهيا) (نخيا) (نهيا) (نهى) (Nuhaia) ، و(ابيريلو) (Ebirillu). وهي الأصنام التي عليها أن تسجن فأعيدت إلى أصحابها، ووضعت في أماكنها وسرّ أتباعها ولا شك بهذه العودة[٣].

وقد حرفت أسماء هذه الأصنام، حتى صار من الصعب علينا تشخيصها. ولعل اسم الصنم (دلبت) أو تحريف (ذات بعل)، أي (الشمس). والشمس، إلهة عند العرب، تعبدت لها قبائل عديدة، كما تكلمت عنها في موضع آخر، وقد عرفت به الإلهة عندها. وأما (عتر سمين)، فهو (عثتر السماء)، و(عثتر) من الآلهة المعبودة عند العرب، وقد ورد اسمه في نصوص المسند. ويرى بعض الباحثين أنه إلهة، أي أنثى[٤]. ويرمز إلى (الزهرة) في رأي غالب العلماء[٥]. وقد أشير في النصوص القتبانية إلى قبيلة عرفت بـ (عتر سمين)، أي باسم هذا الصنم[٦]، لعلها من عبدته، فنسبوا اليه.

وأما (نوهيا) (نخيا) (نهى) (نهيا)، فهو الإلَه (نهى). وقد ورد في الكتابات الثمودية، اسم صنم بهذا الاسم[٧]. فلعل له صلة بالصنم المذكور.

---

1 جواد علي، تأريخ العرب قبل الإسلام (٢/ ٣٢٠)، المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام (١/ ٥٩١)، (١/ ٦٠٠)، Pritchard, p. 291.

2 Reallexi., I, S. 125, Winckler, AOF., I, S. 526, Schell, Le Prisme D'Assaraddon, (1914), p. 18, British Museum Tablets, K3087, Smith, History of Sennacherib, (1878), p. 138.

3 Pritchard, p. 291, D.J. Wixman, The Vassal-Treaties of Esarhadddon, p. 4.

4 Schrader, KAT., S. 434.

5 Handbuch, I, S. 228.

6 جواد علي، تأريخ العرب قبل الإسلام (٢/ ٣٣٢).

7 جواد علي، تأريخ العرب قبل الإسلام (٥/ ١٥١).

وحدثنا (هيرودوتس) ــ في أثناء كلامه على حملة (قمبيز) على مصر ــعن إلهين من آلهة العرب، هما: (باخوس) Bacchus و(اوزانيا) (Urania). وذكر ان العرب تسمي (باغوس) (اوراتل) Oratal، وتسمي (اورانيا) (أليلات)، Alilat [١]. و(اليلات)، هو الصنم (اللات)، الذي يرمز إلى (الشمس)، فهو إلهة، أي أنثى. ويقابل (اثينة) Athene التي ظهرت عبادتها متأخرة بعض التأخر بالنسبة إلى الآلهة الأخرى[٢]. و(اللات) من الأصنام العربية المعروفة النبي ذكرت في القرآن، وفي النصوص النبطية والصفوية، كما سأتحدث عن ذلك في المواضع المناسبة. وأما Oratal، فهو تحريف. عل ما يظهر لاسم صنم من الأصنام العربية، صار من الصعب ارجاعه إلى صنم من الأصنام النبي نعرفها الآن[٣].

وقد حفظت النصوص الجاهلية أسماء عدد لا بأس به من الأصنام، كان الناس يقضون الليالي سهراً في عبادتها والتودد إليها، لتنفعهم ولتدفع الأذى وكل سوء عنهم، وكانوا يتقربون إليها بالنذور والقرابين. ثم ذهب الناس وذهبت آلهتهم معهم. وبقيت أسماء بعض منها مكتوبة في هذه النصوص، وبفضل هذه الكتابات عرفنا أسماءها، ولولاها لكانت أسماؤها في عداد المنسيات، كأسماء الآلهة التي نسيت لعدم ورود أسمائها في النصوص.

وبين هذه الأسماء أسماء يجب اعتبارها من (الأسماء الحسنى)، أي (اسماء الله الحسنى) في المصطلح الإسلامي لأنها نعوت وصفات للالهة، التصقت بها حتى صات في منزلة الأسماء العلمية. وهي تفيد المؤرخ كثيراً، إذ انها تعينه في فهم طبيعة تلك الالهة، وهي فهم رأي المؤمنين بها، في ذلك الوقت.

وفي طليعة أسماء الآلهة المدونة في نصوص المسند، اسم الإله (ود)، إلهَ معين اكبير، وإلَه قبائل عربية أخرى، منها (ثمود)، حيث ورد اسمه في كتاباتهم و(لحيان)، حيث ذكر في كتاباتهم أيضاً. كما كان من الأصنام الكبرى في الحجاز عند ظهور لاسلام. وقد ذكَر في القرآن الكريم مع أسماء

---

[1] جواد علي، تأريخ العرب قبل الإسلام (٢/ ٣٤٣) و Herodotus, I, p. 213

[2] Ency. Religi., I, p. 661.

[3] المصدر نفسه.

أصنام أخرى عبدت في عهد نوح[1]. وقد ظن بعض المستشرقين ان هذا الصنم لم يكن معبوداً في الجاهلية القريبة من الإسلام وعند ظهور الإسلام، وهو رأي غير صحيح، إذ ورد ذكره في شعر للنابغة، وكان له معبد في دومة الجندل، وسدنة وأتباع. ولدينا أسماء جملة رجال جاهليين عرفوا بـ (عبد ود). وقد ذكر ان قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه ود، ويقولون له أدّ أيضاً[2].

ونعت (ود) بالإله (ال هن) (الهن) في بعض، الكتابات، جاء في أحد النصوص (ودم الهن)، أي (ود الإلَه). و(كهلن)، أي (الكاهل) بمعنى القدير والمقتدر[3]. وهما من صفات هذا الإلَه التي كان يراها المعينيون فيه.

ويرمز (ود) إلى القمر، عند المعينيين، وهو الإله الرئيس عندهم. وقد وردت لفظة (شهرن)، أي (الشهر) بعد كلمة (ود) في بعض الكتابات. فورد: (ودم شهرن)، أي (ود الشهر). وتعني لفظة (شهر) القمر في عربية القرآن الكريم[4]. و(ود)، هو الإلَه (القمر) عند بقية العرب الجنوبيين. ومتى ورد اسمه في نص، قصد به القمر.

وقد نعت (ود) بـ (الأب)، تعبيراً عن عطفه على المتعبدين له وعن رحمته بهم. فورد في النصوص المعينية: (ودم ابم)، و(ابم ودم) أي (ود أب)، و(أب ود)، فهو بمثابة الأب للانسان. والأب من كان سبباً في ايجاد شيء أو اصلاحه أو ظهوره. وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ود أو جمل (ودم ابم) أو (ايم ودم)، وذلك فوق أبواب المباني، لتكون في حمايته ورعايته، وللتبرك باسمه وللتيمن به، كما وجدت كلمة (ود) محفورة على اشياء ذات ثقوب، تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها[5]. فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحب والبركة والخيرات.

ويظن ان لفظة (ود)، ليست اسم علم للقمر، بل هي صفة من صفاته، تعبر عن الود والمودة. فهي من الأسماء الحسنى للقمر اذن.

---

[1] سورة نوح، الآية ٢٣.
[2] البلدان (٨/ ٤٠٧)، (ود).
[3] Hommel, Grundriss, I, S. 136, Glaser 284, Halevy 237, Chrestom., 91, 97.
[4] Glaser 324, 504, Handbuch, I, S. 37.
[5] Halevy 534, 535, 583, 586, 587, 591, 685, Glaser 80, 84.

وقد ورد اسم (ودّ) في كتابة ثمودية دوّنها أحد المؤمنين الفانين في حب (ودّ)، جاء فيها: «أموت على دين ودّ»، «بدين ودّ أمت»، وجاء في كتابة أخرى: «يا إلهي احفظ لي ديني، يا ودّ أيده»[١].

وورد اسم (ودّ) في النصوص اللحيانية[٢]. فتكون عبادة هذا الإلَه قد انتشرت في العربية الغربية من أعالي الحجاز إلى العربية الجنوبية. وذلك منذ ما قبل الميلاد إلى ظهور الإسلام.

وقد اقترن اسم (ود) مع (ال) (ايل) في بعض الكتابات العربية الجنوبية، و(ايل) هو الإله السامي القديم. ولعلّ في (ود ال) (ودّ ايل) معنى (حب ايل)، فتكون (ودّ) هنا صفة من صفات الإله. وأما (ايل)، فإنها قد تعني ما تعنيه كلمة (إلَه) في عربيتنا، وقد تعني إلهاً خاصاً في الأصل هو إلهَ الساميين المشترك القديم[٣].

وقد وردت في نص قتباني جملة: (بت ودم) أي (بيت ود)، ومعناها معبد خصص بعبادة الإلَه (ودّ)[٤]. ولا بد أن تكون هناك جملة معابد خصصت بعبادة هذا الالَه.

ويرى بعض المستشرقين استناداً إلى معنى كلمة (ودّ) أن هذا الصنم يرمز إلى الودّ، أي الحبّ وانه صنو للإلهين (جيل) Gil، و(بحد) Pahad عند الساميين. ويستندون في رأيهم هذا إلى بيت للنابغة هو:

حياك ودّ وأنى لا يحل لـــه   لهو النساء وان الدين قد عزما[٥]

---

[1] Herbert Grimme, Die Lösung des Sinainschriften, Die Altthamudische Schrift, Münster, 1926, S. 40.
[2] Handbuch, I, S. 616.
[3] Handbuch, I, S. 217, H. Bauer, in ZDMG. , Bd., 69, 1915, S. 561.
[4] Hommel, Die Südarabische Alterthumer, S. 2.
[5] البلدان (٤٠٨)، (ود).

قالت آراك أخا رحل وراحلة   تغشى متالف لن ينظرنك الهرما
حياك ود فأنـــا لا يحل لنـــا   لهو النساء وإن الدين قد عزمـــا
مشمرين على خوض مزممة   نرجو الإله ونرجو البر والطعما

شعراء النصرانية (ص ٧٠٥)

Reste, S. 17, 31, 42, 53, Ency. Religi., VIII, p. 180.

وهناك من يرى وجود صلة بين (ود) و Eros الصنم اليوناني، ويرى أنه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك، وعبد عند العرب. وهو رأي يعارضه (نولدكه) لعدم وجود تشابه في الهيأة بين الصنمين[١].

ومن آلهة المعينيين الإلَه: (كهلن)، أي (الكهل) و(الكاهل). وقد ورد اسمه في النصوص التي عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربية كذلك[٢]. وهو يرمز مثل (ودّ) إلى (القمر).

وعرف (ود) بـ (نحس طب) (نحسطب). (ونحس) بمعنى (نحش)، أي الحيّة، و(طب) طيب، فيكون المعنى (الحية الطيبة). والحيّة رمز لود. فيكون المراد من (نحس طب) الإلَه ودّ[٣].

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص المعينية، اسم الإله (نكرح). ويري بعض الباحثين أنه إلهَ البغض والحرب. وأن (نكرح) في معنى (كره) فيَ عربيتنا. وأنه (نكرو) أو (مكرو) Makru = Nakru عند البابليين. وهو (العدو) فهو على طرفي نقيض مع الإلَه (ود)[٤]. ويرون أنه يرمز إلى الشمس، وأنه في منزلة (ذت حمم) (ذات الحميم) عند السبئيين[٥].

وقد وجد من دراسة الكتابات المعينية أن آلهة المعينيين ترد مرتبة على هذه الصورة في بعض الأحيان: (عثتر) يليه (ود) ثم (نكرح)، وتذكر بعدها جملة (ال ل ات معن)، بمعنى (آلهة معين)[٦].

وهناك آلهة أخرى وردت أسماؤها في كتابات المعينيين، لا نعرف من أمرها شيئاً يذكر منها: (بلو) إلَه البلاء والنوازل والموت، و(حلفن) (حلفان)، وهو خاص بالقسم، و(ورفو)، وهو حارس الحدود، و(منضح) (منضحت) (منفحة)، إله الماء والري والحدود، و(متبقبط)، إله الحصاد[٧]. غير أن من الجائز في رأيي ألا تكون هذه الأسماء أسماء آلهة، وانما

---

1 Ency. Religi., I, p. 662.
2 Handbuch, I, S. 215.
3 Grohmann, Göttersymbole, S. 71.
4 Ency. Religi., 10, p. 882, Handbuch, I, S. 20, 40.
5 Handbuch, I, S. 188, Ilmukah,S. 56.
6 Ilmukah, S. 55, Glaser, 1089, 1660, Halevy 208, N. Rhodokanakis, Stud. Lexi. II, S. 26, Glaser 1144, Halevey 353.
7 Arabien, S. 246.

هي مجرد مصطلحات يراد بها أمور أخرى.

وتعبد السبئيون للإِلَه (المقه)، إلههم الكبير. ويعد في منزلة (ود) عند المعينيين، ويرمز إلى (القمر). وهو المقدم عندهم على سائر الآلهة. إليه تقرب (المكربون) والملوك بالأدعية والهدايا، وإليه توسل الشعب في كل ملمة تنزل به. ونجد اسمه مدوناً في كثير من النصوص السبئية. بل تعبّد له أهل الحبشة كذلك، فنجد له معبداً عند (بحا) (يها). انتقلت عبادته إليهم من السبئيين الذين كان لهم نفوذ سياسي وثقافي على الساحل الافريقي المقابل لليمن، ويظهر أثر ذلك في الخط الحبشي حتى اليوم.

وليس للعلماء رأي واضح صحيح في معنى (المقه)، ويرى (ايوالد) Ewald أن الكلمة من أصل (لمق)، وهي بمعنى (لمع)، فيكون للاسم ــ على ذلك ــ معنى اللمعان[1]، ويمكن أن تكون كلمة (المقه) اذن، بمعنى (الثاقب) و(اللامع). وقد كان الجاهليون يقسمون بالنجوم الثاقبة، أي النجوم التي يتوقد ضياؤها ويتوهج. ورد في القران الكريم: ﴿والسماء والطارق، وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب﴾. وقال المفسرون: «النجم الثاقب، يعني يتوقد ضياؤه ويتوهج». وذكروا أن العرب كانت «تسمي الثريا: النجم. ويقال إن الثاقب: النجم الذي يقال له زحل. والثاقب أيضاً الذي قد ارتفع على النجوم»[2]. وقد ذهب (هومل) إلى أن (المقه)، إنما تعني (سيده)[3]. وذهب بعض الباحثين إلى أن اللفظة من (ال) (ايل)، اسم الإلهَ (ايل) الشهير، المعروف عند جميع الساميين. ومن (مقهو) بمعنى قوي، فيكون الاسم (ايل قوى)، (ال مقهو)[4].

وتدل روايات الأخباريين عن (المقه) على عدم وقوفهم على حقيقة هذه التسمية. فقد حاروا فيها، واضطربوا في أمرها، ولم يظهر أحد من بينهم من عرف حقيقتها. فصيرها بعضهم اسماً كل من أسماء الملكة (بلقيس)، وصيرها بعض آخر مصنعة من مصانع الجن التي بنتها على عهد (سليمان)، وجعلها

---

[1] سورة الطارق، رقم ٨٦.
[2] تفسير الطبري (٣٠/ ٩٠ وما بعدها).
[3] Handbuch, I, S. 40.
[4] Arabien, S. 244.

(الهمداني) الزهرة؛ «لأن اسم الزهرة في لغة حمير: يلمقه والمق». ذكروا أن بناء (يلمقه) ظل قائماً باقياً إلى أيام غزو الحبشة لليمن، فهدموه[١]. وإذا صحت رواية الهدم هذه، فلا يستبعد حينئذ أن يكون ذلك بسبب كونه معبداً وثنياً خصص بعبادة الأوثان، والأحباش نصارى سعوا لطمس الوثنية ونشر النصرانية في البلاد. ولعلّه أراد به معبد (المقه) بمأرب، فهدمه الحبش للاستفادة من أحجاره لبناء كنيستهم التي بنوها بهذه المدينة. وقد كان ذلك المعبد قد خصص بعبادة (المقه) إله سبأ الكبير، فعرف بـ (المقه)، و(يلمقه) عند سواد الناس.

وقد حفظت لنا نصوص المسند أسماء جملة معابد خصصت بعبادة المقه، وللتمييز بينها ذكرت أسماء المواضع التي شيدت عليها تلك المعابد. ومن أشهرها معبد (المقه) الكبير بمدينة (مأرب)، المعروف بمعبد (المقه بعل اوم) (المقه بعل أوام)، وهو معبد لا تزال آثاره باقية، زارته ونقبت فيه بعثة (وندل فيلبس) الأمريكية إلى اليمن[٢]. وتعرف بقايا هذا المعبد عند أهل اليمن باسم (حرم بلقيس) و(محرم بلقيس). فأحل الدهر اسم امرأة محل اسم إلَه قديم كبير.

ووردت في بعض النصوص هذه الجملة: (المقه ثور بعل...)، ومعناها: (المقه ثور ربّ)[٣]. أي (المقه الثور هو رب...) كما وردت جمل مثل: (المقه ثهون)، بمعنى: (المقه المتكلم). ومثل (المقه ثهون بعل اوم)، أي (المقه المتكلم ربّ أوم)، (أوام). ويظن أن المراد بذلك الكاهن المتكلم. باسم الرب (المقه). فقد كان لبعض المعابد كهنة، يزعمون أن الآلهة تتكلم فيها، ويقومون أنفسهم بدور الوساطة والترجمة. فإذا أراد شخص سؤال إلهه عن مشكلة يريد حلاً لها، أو عن قضية عويصة، أو عن سرقة وما شاكل ذلك، يذهب إلى المعابد المختصة، التي يزعم أن الآلهة تجيب فيها، فيتقدم إلى الكاهن بنذر وبهدايا مناسبة، ثم يلقي سؤاله، فيظهر عندئذ صوت مسموع، يزعم أنه

---

[1] البكر (١٣٩٨).
D. H. Müller, Burgen, II, S. 972, Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S. I,
[2] Wendall Phillips, Qataban and Sheba, 1955.
[3] D. Nielsen, Die, Altarabische Mondreligion, S. 107.

صوت الإلَه الذي لا يرى، يجيب على السؤال أو على الأسئلة، بما يناسب السؤال.

وقد كنيّ عن (المقه) بـ (ثور) في بعض الكتابات. ومما يؤيد أن المراد (بثور) هذا الإلَه، هو صورة رأس ثور في كثير من الكتابات، وهي ترمز اليه، كذلك رمز إليه بنسر وبصور الحيات. وهذه الصور من الرموز الدالة على الإلَه القمر عند قدماء الساميين[١]. وقد صور العبرانيون (يهوه) على هيأة عجل[٢]. ويلاحظ أن أكثر الأوثان والصور (صلمن) التي كان الناس يقدمونها إلى معابد (المقه) وفاءً لنذور نذروها لها، اشتملت على صور ثيران، ويلاحظ كذلك أن الثيران، كانت من أكثر الحيوانات التي كان المتعبدون يقدمونها ذبائح لهذا الإلَه. وقد استنتج (دتلف نلسن) من هاتين الملاحظتين ومن تسمّي أشخاص وأسر وعشائر وقبائل باسم (ثور)، أن الثور رمز يراد به هذا الإلَه (المقه)، أي القمر[٣].

وورد في النصوص السبئية اسم إلَه هو (هوبس) (هبس)، ورد منفرداً، وورد مع الإلَه (المقه)[٤]. وقد قصد به الإله القمر. ومعنى (هوبس) على رأي (فرسنل) Fresnel اليابسة والجاف، وهو وصف للقمر[٥]. ويعلل ذلك بفعل القمر البارز في احداث الجزر حيث تنسحب المياه من الساحل مسافة إلى البحر. وقد أشار (الهمداني) إلى أن اسم القمر (هيبس)، والظاهر أن هذه التسمية للقمر ظلت معروفة في اليمن بعد الإسلام[٦].

ووردت جملة (المقه ذ قلم) في بعض النصوص ووردت (هوبس)، و(المقه ذ هوبس)[٧]. بمعنى اليابس. وذكر بعض العلماء أن معنى ذلك (المقه) الذي يؤثر في المد والجزر[٨]، وذلك لما لاحظه المتعبدون له من وجود أثر له في احداث المد والجزر.

---

[1] Ilmukah, S. 51.

[2] الملوك الأول، الإصحاح الثاني عشر، الآية ٢٨، الخروج، الإصحاح ٣٢، الآية ٤.

[3] Ilmukah, S. 52.

[4] Hommel, Grundriss, I, S. 85, Altertumer, 1899, S. 28.

[5] Handbuch, I, S. 40.

[6] Bürgen und Schlosser, II, S. 20-22, Hommel, Südarabische Altertumer, S. 30.

[7] Rep.Epigr. 4921, 4963.

[8] Arabien, S. 244.

وقد أشير اليه بـ (هلل) بمعنى هلال، وبـ (ربع)، أي الربع الأول من الشهر، وبـ (حول)، بمعنى تمام الشهر، أي القمر كاملاً. ومن صفاته (سمع)، أي سميع[١].

و(عم) هو إلَه شعب قتيان الرئيس. وقد ورد اسمه مقروناً مع الإله (أنبي) في نصوص قتبانية عديدة. وهو يقابل الإلَه ود عند المعينيين، والإله (المقه) عند السبئيين، والإله (سن) (سين) عند أهل حضرموت. فهو الإله القمر اذن عند القتبانيين.

وكلمة (عم) من الكلمات السامية القديمة الواسعة الانتشار عند الساميين. وقد ذكرت في نص يقدر أنه كتب حوالي سنة (٤٥٠٠) قبل الميلاد وهي من كلمات عهد الأمومة، ثم صارت من المصطلحات الدينية مثل (ال) (ايل) El و(بعل) Baal، و(أدون) Adon، و(ملك) Malke وما شابهها من أسماء الألوهية: كانت نعتاً في الأصل من جملة النعوت التي كان يطلقها الساميون على آلهتهم، ثم جعلت علماً لإله[٢].

وترد لفظة (أنبي) في الكتابات القتبانية علماً على إله ذكر هو القمر. وقد وردت بعد اسمه كلمة (شيمن)، ومعناها (الحامي) والحافظ، فورد (انبي شيمن)، أي (أنبي المحامي) و(أنبى الحافظ)، والمدافع عن المؤمنين به. فهو إذن في معنى (عم)[٣]. ولا بد أن يكون لهذا النعت صفات بصفات هذا الإلهَ، أي إنه اسم من أسماء الله الحسنى.

ومن آلهة قتبان التي ذكرت مع (عم) الإلَه (حوكم) و(اثرت) و(نسور) و(ال فخر). ويرى (هومل) أن الإله (أثرت) هو إلهة أنثى. هي في نظره زوج الإلَه (عم)[٤]. ويظن أن (اثرت) هي الشمس، ويظن أيضاً أن هذه الكلمة قريبة في المعنى من كلمة (عشيرة) (عشيرات) العبرانية، و(عشرتو) الآشورية البابلية، وأنها تعني في القتبانية الشروق أو الشارقة والشرقة الشديدة

---

1 Rep. Epigr., 3945, 4067, 4228, 4991, 4992, 4993, CIH 282, Arabie, S. 244.
2 Ency. Religi., I, p. 387, Glaser, Mitteilungen, II, S. 21.
3 Glaser 1602, SE 84, Ilmukah, S. 56, D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriftttten, S. 14.
4 Südar.S. 22, Glaser 160. «شفتم لعم وآثرت».

من (عثر) بمعنى شرق وإشراق، أضيف الى نهاية الكَلمة حرف التأنيث، لأن الشمس مؤنثة، كما فعل في عتثر إذ عد مؤنثاً عند الساميين الشماليين. فصار (عتثرت) (عشترت) (عشتروت). أي أنثى. وكما فعل في (كوكب) و(ملك)، فى (ذي الخلصى)، و(ذي الشرى)، حيث أضيفت إليها التاء، فصارت (كوكبت) (كوكبة)، و(ملكت) (ملكة)، و(الخلصت) و(شربت)[١].

ويحتمل على رأي (هومل)، أنْ يكون (حوكم) (حوك) إله السماء، ويظهر أنه من الآلهة الخاصة بشعب قتبان[٢]. أما (دتلف نلسن) فيرى احتمال كون الكَلمة من (حكم)[٣].

وقد عبر عن الإلهة (الشمس) بـ(ذت حمم)، أي (ذات حميم)، (ذات حمم)، (ذات الحميم)، أي ذات الحرارة الشديدة والأشعة المتوهجة التي تشبه الحميم من شدة الحر. وهذا المعنى قريب من (الحمون) El-Hamon و(بعل حمون) Ba'al Hammon في العبرانية، ويراد بها الشمس. و(حمت) (حمه) Hamma في العبرانية هي الشمس. وورد في بعض النصوص التدمرية اسم الإلهَة (حمن) Hamman، وورد هذا الاسم في بعض النصوص النبطية التي عثر عليها في حوران. وهذا الإله هو الشمس. وقد كنّي عنها بالأشعة الحارة المحرقة التي ترسلها خاصة في أيام الصيف[٤].

وهناك من فسر (ذت حمم) بـ (ذاتَ حمى) (ذات الحمى)، والحمى الموضع الذي يحمي، ويخصص بالإله أو المعبد أو الملك أو سيد قبيلة، والمكان الذي يحيط بالمعبد، فيكون حرماً آمناً لا يجوز لأحد انتهاك حرمته[٥]. وفي جزيرة العرب جملة مواضع يقال لها (حمى) ذكر أسماءها الأخباريون.

---

1 Handbuch, I, S. 237, Glaser 1395, 1604, SE 84, Rhodokanakis, Katabanische Inschriftten, II, S. 121.

2 Hommel, Grundriss, I, S. 140.

3 D. Nielsen, Katabanische Inschriftten, S. 15.

4 Handbuch, I, S. 225, Hommel, Aufsatze und Abhandlungen, II, S. 177, Ilmukah,S. 53, Oslander, in ZDMG., Bd., 20, S. 282.

5 Handbuch, I, S. 225, Oslander, in ZDMG., Bd., 20, 1866, S. 282, Hommel, Aufsatze, II, S. 177, Mordtmann, Himjarische Inschriftten, S. 27, ZDMG., Bd., 31, S. 88, Saba, Denkmaler, S. 258, Fell, in ZDMG., Bd. 54, S. 250.

وعبر عن الشمس بـ (ذت بعدن) (ذات بعدان) كذلك، أي ذات البعد. وهي كنية قصد بها الشمس حينما تكون بعيدة عن الأرض أي في أيام الشتاء. وقد استدل على ذلك بجملة وردت في نصوص المسند، هي: (بعلمن بعدن وقرين)، أي (بالعالم البعيد والقريب)، بمعنى في الماضي والحاضر[1]. وقصد بذلك الشي، في هذا الوقت من السنة حيث تكون أشعتها غير محرقة ولا شديدة مؤذية للناس[2]. وأنا لا استبعد أن يكون المراد من ذات البعد، الإلهة التي تشمل برحمتها وبركتها الأبعاد، أي المسافات الواسعة والأماكن البعيدة فضلاً عن القريبة أو الإلهة البعيدة عن الناس التي لا يمكن أن يصل، إليها أحد.

وكنّي عن الشمس في النصوص القتبانية بكنى أخرى، منها: (ذت صنتم)، (ذات صنتم)، (ذات صنت)، و(ذت رحبن)، (ذات رحبان) (ذات الرحاب)، و(ذات صهرن) (ذات الصهر)[3]، و(ذت غدرن) أي (ذات الغدر) و(ذاتَ الغدران)، و(ذت برن)، (ذات بران)، (ذات البر)، و(ذت ضهرن)، (ذات ضهران)، و(ذ محرضو ومشرقتن)، أي ذات اللون الذهبي المشرق و(مشرقتن)، بمعنى الغروب والشروق، و(تدن) (تدان) (تدون)، و(تنف)، وذلك في الكتابات السبئية، و(ذت حسولم) (ذات حسول)، أي شمس الشتاء، وذلك في النصوص المعينية[4].

وقد عرف إلَه حضرموت الرئيس بـ (سن) (سين)، وهو القمر. وهو إلَه شعب حضرموت الخاص. وقد نعت بنعوت، مثل (ذ علم)، أي (ذو العلم)، بمعنى العالم، وبنعوت أخرى. وورد اسمه في كتابات عثر عليها في (يحا) بالحبشة[5].

و(عثتر) من الآلهة التي ورد اسمها في نصوص، كثيرة من نصوص المسند.

---

1 Glaser 618, CIS, 541.
2 Handbuch, I, S. 226.
3 W. Fell, Südarabische Studien, in ZDMG., Bd., 54, S. 238 (1900), Neue Katabanische Inschrifften, S. 15.
4 Arabien, S. 245.
5 Rep. Epigr., 3616, Grohmann, S. 245.

ورد في نصوص معينية وسبئية وحضرمية وقتبانية. ويقابله Atargatis المدون اسمه في كتب (الكلاسيكيين). و(عتر) Atar’ عند السريان، و(عشتر) (عشتار). وقد ذكر في نصوص الآشوريين والبابليين والكنعانيين والعبرانيين والحبش وغيرهم، مما يدل على أنه كان من الآلهة التي كانت عبادتها شائعة في منطقة واسعة، وأنه كان من الآلهة الكبرى قبل الميلاد[1].

وقد ورد (ام عثتر)، و(ابم عثتر) في بعض النصوص. وقصد بالجملة الأولى: (أم عثتر)، وبالجملة الثانية (أب عثتر) (عثتر أب). وقد استنتج (دتلف نلسن) من ذلك أن (عثتر) هنا هو بمثابة الإلَه الرئيس، فهو أب وأم للآلهة يليه القمر في الترتيب ثم الشمس[2]. وذهب في بحث آخر له عن ديانة العرب إلى ان المراد بـ (ام عثتر) الشمس، باعتدادها أنثى إلهة أماً. أما ولدها فهو (عثتر)[3]. وليس بمستبعد أن يكون المراد من (ام عثتر)، أن (عثتر) بمنزلة الأم للمتعبدين لها، تريد لهم الخير والبركة وتعطف عليهم وتحبهم عطف الأم على ولدها وأن المراد من (عثتر ابم) (عثتر أب)، أن (عثتر) هو بمنزلة الأب للمتعبدين، يشفق عليهم ويحبهم، ويمنحهم الخير والصحة والبركة. وذهب بعض الباحثين إلى ان المراد من عبارة (ام عثتر)، الإلهة الشمس، لأنها أم (عثتر)، وأن المقصود من (ابم عثتر) (أب عثتر) لإلَه القمر، الذي هو زوج الشمس، ومن زواجهما ولد الابن (عثتر).

وقد جاء في نص سبئي وجد في مدينة (صرواح) أن صاحبة النص قدمت إلى الإلهة (ام عثتر) (ام عثتر) أربعة تماثيل من ذهب، لأنها وهبت إليها أربعة أطفال، هم ولد واحد وثلاث بنات، كلهم أحياء يرزقون. ولأنها سرت قلبها بهذه الذرية. وهي لذلك قدمت هذه التماثيل، ولترجو منها أن تستمر في الإنعام عليها وعلى ابنها وبناتها بالصحة والعافية[4]. وقد قصد بـ (ام عثتر) هنا

---

1 Winckler, Atorien, Forschungen, I, S. 528, Hilprech, Baby., Exped., IX, 51, 76, Ency. Religi., Vol., II, p. 165.
2 D. Nielsen, Mondreiligion, S. 42.
3 Handbuch, I, S. 228.
4 Handbuch, I, S. 228, Derenbourg. Etudes sur l’Epigraphic du Jemen, Paris ; 1884, No, II.

الإلهة الشمس. ويتبين من هذا النص أن السبئيين كانوا ينظرون إلى (ام عثتر)، نظرة البابليين إلى (عشتار) على أنها إلهة الخصب[١].

وقد عثر في النصوص النبطية، على اسم إلهة هي (ربة العثر) (ربت عثر)، أي الشمس[٢].

وورد اسم (عثتر) في عدد كبير من نصوص المسند على هذا النحو: (عثتر شرقن)، و(عثتر ذ قبضم)، و(عثتر ذ يهرق)، و(عثتر ذ يهر)، وهكذا. وتعني جملة (عثتر شرقن)، عثتر الشارق. وقد ذكر أهل الأخبار أن (الشارق) صنم كان في الجاهلية وبه سموّا عبد الشارق. مثل (عبد الشارق بن عبد العُزّى) الجهني شاعر من شعراء الحماسة[٣]. فلفظة (شرقن) إذن، نعت لـ(عثتر)، معناه (الشارق).

ويرى بعض الباحثين أن (عثتر شرقن)، هو الإله الحارس للمعابد والمقابر اليه يصلي ويدعى أن تصل الهبات الى المعابد[٤]. واليه توسل المتوسلون لحفظ قبورهم من عبث العابثين بها المُعَيرين لاحجارها الطامعين في كنوزها، ولهذا نعت بـ (عثتر يغل)، أي (عثتر المنتقم)[٥].

واما جملة (عثتر ذ قبضم)، فقصد بـ (قبضم) معنى القابض أو (الجالس)، أو اسم موضع يقال له (قبض). فيكون المعنى: (عثتر رب موضع قبض)[٦]. واما (يهرق) و(يهرق) (يهريق)، فهو اسم مدينة من مدن معين، كان بها معبد لعبادة (عثتر)[٧].

وورد أيضاً (عثتر غربن)، أي (عثتر الغارب)، كناية عن غروبه، أو عن طلوعه عند الغروب، فهو إذن نجم الشروق ونجم الغروب، أو النجم الشارق والنجم الغارب. كما ورد (عثتر نورو) (عثتر نورن)، أي (عثتر

---

1 D. Nielsen, Altarabische Mondreligion, S. 41.
2 Littmann, No: 24, Lidzbarski, Ephem., Bd., 3, S. 292, Handbuch, I, S. 227.
3 تاج العروس (٦/ ٣٩٢)، (شرق).
4 Ency. Religi., 10, p. 883.
5 Arabien, S. 245.
6 Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 27, Ency. Religi., 10, p. 882, Glaser, 1089, 1660, Halevy 208.
7 Handbuch, I, S. 228, Hommel, Grundriss, I, S. 85, W. Fell, in ZDMG. Bd., 54, S. 231-259.

نور) و(عثتر المنير)، تعبيراً عن لمعانه وعن النور الظاهر عليه. وجاء (عثتر سحرن)، أي (عثتر السحر)، بمعنى عثتر الذي يظهر عند السحر، وعبر عنه بـ (متب نطين)، أي الحامل للرطوبة، تعبيراً عن الرطوبة التي تكون عند ظهوره، فنسبوها اليه[١].

وقد تكرر ذكر اسم (عثتر) في بعض النصوص، على سبيل التوكيد والتشديد في القسم وفي الدعاء، كما نفعل نحن أيضاً من اعادة اسم الله في الايمان المغلظة وفي التوسلات عند ساعات المحنة والشدة. ورد: (بعثتر شرقن، ويعثتر ذ قبضن، وود ونكرحم، وبعثتر ذ يهرق، وبكل ال ل ات معن)[٢]. أي: (بعثتر الشارق وبعثتر ذو قبض وبودّ، ونكرح، وبعثتر ذو يهرق، وبكلّ آلهة معين)، أو (وبحق عثتر الشارق، وبحق عثتر القابض أو رب موضع قبض، وبحق ودّ، ونكرح وعثتر رب يهرق، وبحق كل آلهة معين).

ولدينا جملة أسماء مركبة ورد فيها اسم (عثتر)، مثل (أوس عثتر) (أو سعثت) و(هوف عثت) (هو فعثت)، و(لحي عثت) (لحيعثت). و(عثب) هنا هو اختصار (عثتر)[٣].

ومن آلهة العرب الجنوبيين الإله (قينن) (قينان)، وهو إله قبيلة (سخيم)، النازلة بـ (شبام)، (شبام سخيم)[٤].

ومن بين اسماء آلهة العرب الجنوبيين اسم الإله، (ال) (ايل)، ذكر اسمه مستقلاً كما ورد مقروناً باسم الإله (عثتر) كما في الكتابتين الموسومتين بـ Halevy 144، وبـ Halevy 150، وقد قدم ذكره فيها على اسم الإله (عثتر)[٥]. وقد ورد بكثرة في الأعلام المركبة.

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص العربية الجنوبية. اسم الإله (تلب ريم) (تالب ريام). وهو إلَه خاص بقبيلة (همدان). كما أن (المقه) هو إلهَ (سبأ) و(سين) (سن) اله حضرموت، و(عم) إله قتبان،

---

1 Arabien, S. 245.

2 الفقرة الخامسة من النص: Glser 1150, Halevy 192.

3 Handbuch, I, S. 228.

4 Arabien, S. 245.

5 Handbuch, I, S. 218, Halevy, in Journal Asiatique, 1872, Tome 19, p. 152.

و(ود) إلهَ معين. وقد ظهر بظهور نجم (بني بتع) واشتهر بهم. وكان ظهوره حوالى الميلاد بصورة خاصة. ففي ذلك العهد اشتد أمر أقيال همدان، فاستأثروا بالحكم، ودعوا أنفسهم ملوكاً، ورفعوا إلَه قبيلتهم فوق الآلهة الأخرى، فنحروا له الذبائح، وقدّموا له النذور، وتنافسوا في بناء معبده. ودام عزيزاً مكرماً ما دام نفوذ ملوك همدان[١].

وقد كانت لهذا الإله مثل سائر الآلهة الأخرى جملة معابد، غير أن معبده الأكبر هو المعبد المعروف بمعبد (تلب ريم بعل ترعت) أي: (تألب ريام رب ترعت)[٢]. ويظهر أن كلمة (ترعت) هي اسم موضع، أقيم المعبد عليه. وهو معبد كانت تقدّم اليه أقيال (سمعى) وقبائل همدان الأخرى النذور والقرابين والهدايا، وتحبس له الأرضين.

ومن الآلهة التي ورد اسمها في الكتابات العربية الجنوبية، الإلَه (حول) (حويل)، والإله (جلسد) (الجلسد). وتدل لفظة (حول) على الحول والقوة. فلعلّ معنى اسم هذا الإله هو (الحويل)، أي صاحب الحول والقوة. بمعنى القوي. وهو من آلهة حضرموت[٣].

وورد اسم الإلَه (حلفن) في جملة أسماء الآلهة المذكورة في الكتابات العربية الجنوبية. وقد ورد في جملة نصوص تتعلق بحبس أموال وبعقد عقود. ويلاحظ أن أصحابها استعانوا بهذا الإلَه لإنزال النقمة والعذاب وأشد الجزاء بكل من يحاول أن يغير أو يبدل تلك العقود والنصوص، أو يتجرأ فيستولي على الأموال والحبوس المقررة، كما رجوا منه أن يشملهم هم وجماعتهم برحمته وبلطفه وكرمه لاخلاصهم له ولفنائهم في حبه[٤].

ومن بين الآلهة إله عرف بـ (ذ سموي)، أي (رب السماء)، وهو إلَه ظهر اسمه قبل الميلاد بقليل[٥]. وقد بقي اسمه متألقاً في سماء اليمن، يقدم إليه الناس النذور والقرابين إلى ما بعد الميلاد. ويرى بعض الباحثين، أن عبادته تدل

---

1 Ilmukah, S. 68.
2 Hommel, Grundriss, I, S. 143.
3 Handbuch, I, S. 188, Ilmukah, S. 55, Hommel, Südarabische, S. 22.
4 Halevy, 147, 148, Rhodokanakis, Stud., I, S. 57, 59.
5 Handbuch, I, S. 88.

على ظهور عقيدة التوحيد عند العرب الجنوبين، إذ تدعو إلى عبادة إله واحد، هو (رب السماء)[1].

ولدينا كتابة مخرومة أسطراً، لكنها لا تزال مع ذلك مفهومة، تفيد أن جماعة من الأشرار المارقين تطاولوا على حرم (اوثن ذ سموي) أي (الوثن رب السماء)، فسرقوه، ونهبوا ما كان فيه، واستولوا على ما كان حبس له. ولكن عبدته عادوا، فجمعوا ما سرق، وأصلحوا ما أفسد، وتقربوا إلى الإله (رب السماء) بطلب التوبة والغفران، وختموا نصهم بهذه الجملة: (وذ سموى ليزامتعن شعبهو)، أي (وليمتع رب السماء شعبه)[2]. ويقصد النص بشعبه أتباع هذا الإلَه وعبدته.

وإلى هذا الإله، الإلهَ: (ذ سمي) (ذ سموي)، إلَه السماء تعبدت قبيلة (امر) (أمر). ويعد (بعل سمن) (بعل سمين) (بعل السماوات) إلهاً للبركة والخصب، إذ يرسل المطر فينشر الخير للناس[3].

ونقرأ في النصوص العربية الجنوبية اسم إله جديد، هو الإله (رحمنن)، أي (الرحمن). وهو إله يرجع بعض المستشرقين أصله إلى دخول اليهودية إلى اليمن وانتشارها هناك. وهذا الإله هو الإله (رحمنه) Rahman-a (رحمنا) في نصوص تدمر[4].

وورد في نص: (رحمنن بعل سمين) (رحمنن بعل سمن)، أي (الرحمن رب السماء)، أي إنه إلَه السماء. فصار في منزلة الإلَه (ذ سموى). ثم لقب بـ (رحمنن بعل سمين وارضن)، أي (الرحمن رب السماء والأرض) في نصوص أخرى[5]. فصار إله السماوات والأرضين.

وقد نشر نص بالمسند، وردت فيه جملة: (الرحمن الذي في السماء وإسرائيل رب يهود)[6]. وهو نص، إنْ صح نقله عن الأصل بدقة وعناية، وإنْ صح

---

[1] Handbuch, I, S. 104, Rivsta, 1955, Fasc., I, II, p. 109, Le Muséon, 1954. Tome, LXVII, p. 118.
[2] Rep. Epigr. 850, Rhodokanakis, Stud., S. 162, Mordtmann, Beiträge, S. 188.
[3] Rep. Epigr., 4142, Arabien, S. 245.
[4] Hadbuch, I, S. 104, 248.
[5] Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, p. 103.
[6] Margoliouth, Relations, p. 68.

إنه نص صحيح غير مزيف، يشير إلى تأثر صاحبه باليهودية وبعبارة الرحمن. وقد استشهد به من قرأه على تهود صاحبه.

ويرد اسم الإله (بعل سمن) (بعل السماء) (بعل السماوات) في الكتابات الصفوية، وفي كتابات تدمر، حيث ورد (بعل شمن) (بعل شمين)، وفي كتابات بعلبك، وفي كتابات اللحيانيين. وقد ظهرت عبادته قبل الميلاد[١]. ويظهر لذلك أنه من الآلهة المعروفة عند الساميين وعند العرب الشماليين قبل الميلاد، ومن الجائز أن يكون قد انتقل إلى العرب الجنوبيين من العرب الشماليين.

ووردت في الكتابة الموسومة. بـ SE 48 أسماء. آلهة هي: (م ح ر ض و) (محرضو)، و(م ش ر ق ي ت ن) (مشرقيتن) و(نسور) و(ال فخر)[٢]. وقد ذهب (رودوكناكس) إلى أن المراد من محرضو ومشرقيتن الشمس. وذهب آخرون إلى أن المراد بهما القمر والزهرة. وذهب فريق آخر إلى أن المراد بذلك غروب الشمس وشروقها[٣]. أما (نسور)، فاسم إلَه، لعل له صلة بـ (نسر). وقد وردت في نص سبئي هذه الجملة: (بت نسور وبت ال) (بيت نسور وبيت ال)، ويقصد بـ(بت) (بيت) معبد لعبادة هذين الإلهيْن: (نسور) و(ال). و(ال) هو (ايل) (ايلو) إلهَ الساميين القديم[٤].

وورد في أحد النصوص السبئية هذا التعبير: (أهل نسور) مؤدياً معنى (قوم نسور) و(ملة نسور)، ويراد بهم جماعة هذا الإلَه التي كانت نتعبد له. وعرف أحد أشهر السنة في النصوص السبئية المتأخرة بـ (ذ نسور)، ولعله أريد بذلك نسبة الشهر المذكور إلى هذا الإلَه[٥].

و(نسور) هو (نسر) على رأي بعض الباحثين. ويرمز إلى (القمر)[٦]. وقد حصل المنقبون على أحجار حفرت عليها صورة النسر، فعلوا ذلك على سبيل التيمن والتبرك بهذا الإلَه.

---

1 Arabien, S. 86, Ryckmans 20.

2 الجملة الخامسة والسادسة من النص: Rhodokanakis, Katabanische, II, S. 28.

3 Katabanische, II, S. 38, Hommel, Grundriss, S. 689, 719, Sab. Denkm., S. 80, Südarabische, S. 22.

4 Glaser, 418, 419.

5 Glaser 418, 419, 1549, Katabanische, II, S. 36.

6 D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriftten, S. 14.

وورد اسم إله دعي بـ (نسر)، يظن أنه إله (ذ قلع)، (ذو قلاع)، اسم موضع أو قبيلة. ويرى الباحثون أنه الإلَه (نسور) الذي نتحدث عنه[1].

و(نسر) هو اسم صنم من الأصنام التي عرفها أهل الأخبار. فقد زعموا أنه أحد أصنام نوح الخمسة، وأن (عمرو بن لحي) جاء به إلى حمير، فأشاع عبادته بينهم[2].

وأما اسم الإله (ال فخر)، فيظهر أنه مؤلف من كلمتين، هما: (ال) اسم الإله (ايل) المعروف عند الساميين، و(فخر)، وهي نعت من نعوت الآلهة. كما في كلمة (ال تعلي) في النصوص القتبانية، وهي بمعنى (الله تعالى) في لهجتنا. و(فخر) العربية، هى مثل (بخرو) في الآشورية، ومنها العلم المركب: (نبخر بلو)[3].

وورد اسم الإله: (يعوق) أي الصنم يعوق المعروف، في نص متأخر، يعود عهده الى ما بعد الميلاد، وورد معه اسم: (رحمنن بعل سمن)، أي (الرحمن رب السماء). وقد أرخ النص بشهر (ذ دون) (ذ داون) (ذي دوأن) لسنة (٥٧٤) من التأريخ الحميري. المقابلة لسنة (٤٥٩) للميلاد[4].

وهناك أسماء آلهة لا نعرف من أمرها في الوقت الحاضر شيئاً كثيراً، من بينها الإله (بلو)، وقد عبر عنه بأنه إلَه البلاء والموت والمنون. وإلَه يقال له (حلفن) (حلفان)، ويقال إنه إله القسم والحلف واليمين، والإله (ورفو)، وهو إلَه الحدود، أي الإله المختص بالمحافظة على الحدود، و(منضح) (منضحت)، وهو إله الماء والري، و(متبقبط)، وهو إله الحصاد عند المعينيين ثم الإله (يهرهم)، وهو إله المطر[5].

ولا بد من الاشارة الى إله ورد في كتابات عثر عليها في (شبام سخيم)

---

[1] راجع النص: Rep. Epigr., 4725, Arabien, S. 246.
[2] Reste, S. 23, Ryckmans 16, Winckler, Arabisch-Semittisch Orientalisch, S. 118, Arabien, S. 85.
[3] Katabanische, II, S. 38.
[4] Ryckmans, in Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, pp. 100, A. Fakhry, An Archaelogy. Journey to Yemen, III, p. 195, PL: XXLX, XXX.
[5] Arabien, S. 246.

وهو الإله (قينن) (قينان). وهو إله (بني سخيم)[1].

لقد تجمع لدى علماء العربية الجنوبية من أسماء آلهة العرب الجنوبيين ما ينيف على مئة اسم إلهَ، غير أن أكثر هذه الأسماء ليست في الواقع أعلاماً، وإنما هي صفات ونعوت للآلهة ذكرت بدلاً من ذكر اسم الإله الخاص. أو كناية تشير إلى أسماء المواضع التي كانت فيها معابد تلك الآلهة؛ فقد كان لبعض المدن معابد خصصت بعبادة إله، ربما كان إله المدينة أو جملة آلهة لها بالطبع صلة بالمدينة وبالشعب الذي تنتمي المدينة اليه. غير أن هذه الآلهة جميعها يمكن رجعها إلى ثلاثة، هي القمر والشمس والزهرة. أي الى ثالوث يرمز الى هذه الكواكب الثلاثة[2].

وهناك أسماء مثل (يثعم) في السبئية، و(ككون) في المعينية، و(ارن يدع)[3]، و(سميهت)، و(ذ اينت)، و(نقين)، و(نوشم) و(هروم)، يظن أن لها صلة بالآلهة.

وكما حفظت نصوص المسند أسماء بعض آلهة العرب الجنوبيين، حفظت النصوص الثمودية واللحيانية والصفوبة والنبطية كذلك أسماء بعض آلهة تلك الشعوب. وهي كما يظهر من دراستها وتحليلها خليط من آلهة ترد أسماؤها في روايات الأخباريين، ومن آلهة ترد أسماؤها في النصوص العربية الجنوبية، كما أن بينها أسماء آلهة لم ترد لا في أخبار الأخباريين ولا في نصوص المسند. ولاتصال مواطن هذه الشعوب بمواطن الساميين الغربيين وبمواطن الساميين الشرقيين ومتاخمتها لعرب العراق ونجد والقبائل العربية في الحجاز ولصلاتها التأريخية القديمة بالعرب الجنوبيين، كان لدراسة الناحية الدينية عند هذه الأقوام أهمية كبيرة في معرفة التطورات الدينية قبل الإسلام، وهذا الخليط الذي أشرت إليه هو في حد ذاته دراسة قيمة تشير إلى التقاء التيارات الدينية واتصالها بهذه البقاع.

وحفظت النصوص الثمودية أسماء جملة آلهة، تعبدوا لها وتقربوا إليها بالقرابين والنذور. منها الإلَه: (ود) و(جد هدد) و(شمس) و(عزيز)

---

1 Arabien, S. 245.
2 Ency. Britani., Vol., 19, p. 486.
3 Arabien, S. 246.

و(نعرجد) و(عمى شجا) و(رضو) و(منت) و(كهل) و(نهي) و(ايل) (ال) و(لت) (اللات) و(عتر سم) (عتر سمن) و(صلم) و(منف) (مناف).

و(جد) هو إلَه عرف عند بني إرم وعند العرب الشماليين وفي المقاطعات السورية، وهو إله (السعد) في اليونانية، يسعد الأشخاص والبيوت. وقد سمي به موضع (بعل جد) وموضع (مجدل جد)، وأسماء مواضع أخرى فيها كلمة (جد)[1].

وقد وجدت جملة (الإلَه ازيزوس الفتى الطيب) مدونة على جدران أحد المعابد باللغة اللاتينية، ووجدت جملة أخرى فيها: (الإله الطيب الفتى فوسفورس)[2]، وفي وصف الإلهين بـ(الفتى) وبـ (الطيب) دلالة على أن المتعبدين لهما كانا يتصوران انهما كانا فتيين طيبين خيرين يمثلان الطيب والمودة. ونجد في نص تدمري وصفاً للإلهين: (ارصو) و(ازيزو)، أي (رصو) و(عزيز)، يشبه الوصف المتقدم، إذ ورد: (لارصو ولازيزو: الإلهان الخيران المجزيان)، و(ازيزو: الإله الطيب والرحيم). فوصف الإلهان بأنهما خيران، ويجزيان الناس خيراً. وهي نعوت تمثل وجهة نظر القوم إلى هذين الإلهين.

وقد عثر في (تدمر) على نص ورد فيه: «لا رصو ولا زيزو. الإلهان الخيران المجزيان. قد عمله بعكي (بعلي؟) بن ير حيبولا. أفكل ازيزو الإلَه الطيب والرحيم. لسلامته ولسلامة إخوته. في شهر اكتوبر من سنة ٢٥. فليذكر الناس يرحى النحات»[3]. فنحن أمام إلهين: (ارصو) و(ازبزو)، من آلهة تدمر.

وورد اسم الإلَه (ازيزوس) والإله (مونيموس) في كتابات عثر عليها في (الرها) وفي حوران وتدمر. وقد ظهر الإلهان في نقش، حفر عليه موكب عربة الشمس. نقش (أزيزوس)، وهو يتقدم العربة، و(مونيموس)، وهو يتبعها[4].

---

[1] Hastings, p. 276.

[2] رينه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام (١٤٠).

[3] رينه ديسو (١٣٥ وما بعدها).

[4] رينه ديسو (١٣٤ وما بعدها).

و(ارصو) (أرصو)، هو الإلَه (رضو) على ما يظن. وأما (ازيزوس) (أزيزو)، فهو اسم إلهَ لعلّه (عزيز)، تحرف فصار على النحو المذكور في الكتابات اللاتينية: والإرمية. وأما (مونيموس)، فهم (منعم). وأرى أن عزيزاً ورضياً ومنعماً هي من الأسماء الحسنى، أي نعوت من نعوت الآلهة لا أسماء علم. وذلك على نحو ما نسميّ اليوم بـ (عبد الرضا)، وبـ (عبد العزيز)، وبـ (عبد المنعم).

و(هدد) هو اسم إله تعبدت له شعوب عديدة من شعوب الساميين، منهم بنو إرم والعرب الجنوبيون والشماليون، كما تعبد له الآشوريون. وقد اقترن اسمه عند الآشوريين والبابليين بـ(رمان)، ودخلت عبادته إليهم من بني إرم الغربيين. ويمثل (هدد) مثل (رمان) (رمون) Rimmon= Rammon= Ramman إلهَ الهواء والرعد والعواصف، ويظهر أنه من أصل عربي هو (هد). ومن اسم هذا الصنم الاسم (بنهدد) (بن هدد) (بنحدد) المذكور في التوراة[١].

ولا بد ان تكون لهذا الإله صلة بالإله (جد)، ومن هذا الاقتران ظهر (جد هدد) في كتابات قوم ثمود.

و(رضو) هو الصنم (رضى) عند الأخباريين، وهو صنم بقي حياً تتعبد له القبائل العربية حتى الإسلام، فكسر[٢]. ويرى (دتلف نيلسن)، أنه يمثل الزهرة عند قوم ثمود والصفويين، وأنه في منزلة (عثتر) عند العرب الجنوبيين[٣]. وقد تعبدت له (بنو ربيعة بن كعب)، كما تعبّد له أهل تدمر والنبط وأهل الصفاة، وعرف بـ (ه رضو) (هارضو)، أي بإدخال (ه) (ها) أداة التعريف على الاسم. وقد انتشرت عبادته بين قبائل نجد والحجاز[٤].

ويرى (رينه ديسو) أن (رضى) إلهة عند الصفويين، وأنها كانت إلهة كذلك عند بقية العرب. أما (ارصو)، فإنه مذكر عند أهل تدمر[٥].

---

1 Hastings, p. 323.

2 الأصنام (ص ٣٠).

3 Handbuch, I, S. 229.

4 E. Oslander, 499, Reste, S. 58, Ryckmans 18, Jaussen-Savignac, Mission, II, 565, 583, 598, Arabien, S. 84.

5 رينه ديسو (١٣٦).

أما (عزيز)، فإنه الإلَه (عزيزو) Azizo المعروف عند أهل (الرها)، الذي تحدثت عنه. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه يمثل كوكب الصباح، أي الزهرة. وقد وصف في كتابة مدونة باليونانية أنه: Deus bonus puer phosphorus أي الإله الجميل اللماع ذو الأشعة البراقة التي تشبه في لمعانها لمعان الفوسفور[١].

و(كهل) أو (كاهل)، هو (كهلن) المذكور في كتابة معينية. وقد ورد الاسم مقروناً في نص ثمودي بأداة التعريف (ه) (ها)، أي (ه ك ه ل) (ها ــ كهل) (هكهل). وتعني لفظة (كهل) المعنى المفهوم منها في عربيتنا، كما تعني (القدير)[٢].

وتعني كلمة (نهي) في الثمودية ما تعنيه لفظة (حكم) في العربية الجنوبية، أي (حكم) وحاكم و(حكيم) في بعض الآراء، ولعلها تعني (الناهي) وتكون بذلك صفة للإله. وقد ورد اسم هذا الإله في مواضع عديدة من الكتابات الثمودية[٣].

وأما (منف)، فإنه الصنم (مناف) المذكور عند أهل الأخبار[٤]. وقد تعبدت له قريش ولحيان، كما تحدثت عنه في موضعه.

وقد ورد اسم (صلم) في عدد من الكتابات الثمودية. ويظهر أن الثموديين كانوا قد أخذوا عبادة هذا الإلَه من أهل (تيماء). فقد كانت تيماء من أهم الأماكن المتعلقة بعبادة هذا الصنم في حوالي السنة (٦٠٠) قبل الميلاد. وقد جاءت عبادته إليهم من (بني إرم). ومنهم انتقلت عبادته إلى العرب. وتدل بعض الأسماء المركبة الواردة في الكتابات اللحيانية مثل اسم (صلم يهب) (صلميهب) على أنه كان معبوداً عند اللحيانيين كذلك[٥]. ومن لفظة (صلم) جاءت كلمة (صنم) على رأي بعض المستشرقين.

وقد ورد اسم (عترسم) (هـ ــ عترسم) في عدد من الكتابات الثمودية.

---

1 Handbuch, I, S. 220.

2 Handbuch, I, S. 215, Glaser 299, Halevy, 237, Hommel, Grundriss, S. 163, E. Littmann, Zur Entzifferung der Thamudischen Inschriftten, 1904, S. 75.

3 Handbuch, I, S. 215.

4 أخبار مكة، للأزرقي (١/ ٧٨)، Ryckmans 16, Reste, S. 18, Arabien, S. 84.

5 Hubert Grimme, Die Losung des Sinaischriftproblems, Die Altthamudische Schrift, Musnter, 1926, S. 23, Aarien, S.86.

وقد توسل فيها أصحابها منه أن يمن عليهم بالبركة والخير والصحة والسلامة[1]. وقد جاء اسم هذا الصنم من (عثتر سمن) (عتر سماء)، أي (عثتر السماء).

والإلَه (ود) هو إله معروف عند الثموديين كماٍ سبق أن ذكرت. وقد تودد اليه عباده والمؤمنون به، فذكروه في كتاباتهم، ورمزوا إليه بصورة حية، كما رمز إليه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور. وقد تعبر صورة الحية عن الروح التي في بدن الإنسان[2].

وذهب (دتلف نلسن) إلى أن من بين آلهة ثمود إله اسمه (ملك)، وهو يرى أن الإسم المركب (عبد ملكن)، أي (عبد الملك)، لا تعني كلمة (ملك) الواردة فيه بالمعنى السياسي الذي نفهمه منها، وإنما المراد بها اسم إله. وذهب أيضاً إلى أن لفظة (ملكن) الواردة في النص القتباني الموسوم بـ Glaser 1600 لم يقصد بها ملكاً من ملوك قتبان، بل أر]د بها إلَه اسمه ملكن، أي (الملك). وذكر أيضاً ان اسم (عبد الملك) من الأسماء المعروفة في الجاهلية، ورد في نصوص الثموديين والصفويين[3].

وفي الكتابات الثمودية أسماء مركبة مثل (يعذر ال) (يعذر ايل)، و(صلم ال) (صلم ايل)، و(عزر ال) (عزر ايل)، و(سعد ال) (سعد ايل)، و(ود ال) (ود ايل)، اختتمت باسم الإلَه (ال) (ايل)، مما يدل على أن (ال) (ايل) كان من الآلهة التي تعبّد لها قوم ثمود.

ومن الأسماء الثمودية المركبة الأخرى (بعثتر) وفيه اسم الإله (عثتر) الذي عرفناه في المسند، و(يثع امر) (يثع أمر). وفيه اسم الإله (يثع)، وهو من الأسماء المستعملة بكثرة في العربية الجنوبية. و(صلم دع) و(صلمن دعم)، فـ (صلمن) اسم الإله (صلم) من آلهة قوم ثمود المعروفة، و(تيم يغث) (تيم يغوث)، وهو اسم مركب من اسمي إلهيْن هما: (تيم) و(يغوث)[4].

---

[1] Hubert Grimme, S. 43.
[2] Arabien, S. 269.
[3] Hanbuch, I, S. 232, D. Nielsen, Studier over Oldarabiske Indskrifter, Kobenhave, 1906, p. 136, O. Weber, Studien zur Südarabischen Altertumskunde, in MVAG. 1917, S. 26-31.
[4] Grimme, S. 33.

ووردت في الكتابات اللحيانية، اسماء جملة آلهة. منها: (ذ غابت) (ذو غابة) و(عوض)، و(ود)، و(بعل سمن)، و(سلمان) (سلمن)، و(العزى)، و(منف) (مناف)، و(جدت)، و(ال) (ايل)، و(إلَه)، و(لت) (الت)، و(سمع)، و(نصر)، و(منت)، و(هفلس)، و(عجلبون) (عجلبن)، وأكثر هذه الآلهة كما نرى معروفة، وردت أسماؤها في الكتابات وفي مؤلفات أهل الأخبار.

والإله (ذ غبت) (ذو غابة)، هو من أشهر آلهة اللحيانيين. ولعله إلههم الأول والأكبر. ومع ذلك، فإننا لا نعرف عنه شيئاً كثيراً، وقد كان له معبد في (الديدان)[١]. وخوطب بكلمة (قدست)، أي القدس أو المقدس في كتابة من كتاباتهم، وقيل إه في جملة ما قدم إيه من قرابين، قرابين من البشر[٢].

وليست كلمة (ذ غبت) (ذو غابة)، اسم علم للإلَه، بل هي صفة له، تعني: (صاحب الغابة)، أو (صاحب غابة). وقد وردت لفظة (ذ غبت) في الأعلام المركبة، مثل: (عبد ذ غبت) (عبد ذوغابة)، و(فلح ذ غبت) (فالح ذو غابة)، و(خرح ذغبت) (خرح ذو غابة)، و(مر ذ غبت)، أي (مرأ ذو غابة)، و(زيد ذ غبت)، أي (زيد ذو غابة). وورد (عرر ذ غبت)، أي (عرر ذو غابة). والعرو والعر، الجرب، وهو مرض جلدي معروف. فكأن صاحب الكتابة أراد بها، إن الإلَه (ذو غابة) يرسل هذا المرض إلى مخالفيه ومن يعارض أحكامه أو يعتدي على غيره[٣].

وأما (عوض)، فقد ورد اسمه في الأعلام المركبة مثل: (عبد عوض)، و(جد عوض)، وقد تعبّد له الصفويون كذلك[٤].

وأما ودّ، فهو إله عام له شهرة عند العرب، وقد عمت عبادته كل جزيرة

---

[1] Ryckmans 19, Jaussen-Savignac, Mission, II, 368, 371, 375, W. Caskel, Lihyan, S. 45, Arabien, S.45.
[2] Histoire Générale des Religions, Tome, IV, p. 312, Préislamiq., p. 19.
[3] W. Caskel, Lihyah., S. 44.
[4] Histoire, IV, p. 312, Préislamiq., p. 19, Handbuch, I, S. 193.

العرب. والظاهر أنه كان من الآلهة العربية القديمة، وقد بقي معبوداً حتى الإسلام: وهو من الأصنام المذكورة في القرآن[١]. وقد نعت بـ (افكل)، وورد اسمه في الأعلام اللحيانية المركبة[٢]. وتعبدت له تميم، وطيء، والخزرج، وهذيل، ولخم، وقريش. وأقيم له صنم في دومة الجندل، صنع على هيأة إنسان. ويرى البعض أنه الإله (أدد) عند ثمود. ويظن أن الصنم (قوس) يرمز إليه، ويرى بعض الباحثين أن (نسراً) والصنم (ذو غابت) يرمزان اليه كذلك[٣].

وقد نعت (ود) في بعض النصوص العربية بـ (نحسطب) (نحس طب)، ومعناه (الحية الطيب) (الحية الطيبة)، لأن الحية رمز للإلَه (ود)[٤].

ويظن أن اللحيانيين كانوا يتعبدون لهذا الإلَه منذ كَانوا في مواطنهم الأولى، فلما هاجروا إلى (ديدان) لم ينسوه، ولكنهم بقوا يتعبدون له ويتقربون اليه، لأنه إله الآباء والأجداد وإلهَ لحيان الأكبر، كما تفعل بقية القبائل في اتخاذ إلهَ الآباء والأجداد الإلَه الأول للقبيلة، والصنم الأكبر بين الأصنام[٥].

وأما (بعل سمن) أي (رب السماء)، فقد تحدثت عنه، ووجدنا أنه كان معبوداً عند العرب الجنوبيين، والغالب أنهم أخذوا عبادته من العرب الشماليين. وقد كان له معبد في (ديدان). وقد نعت معبده بـ (احرم) (احرام)، بمعنى (الحرم)، أي حرم الإلَه (بعل سمين) (رب السماء)[٦]. وتعبد له (النبط) وكانوا قد أقاموا له معبداً في (سيع)، وذلك فيما بين السنة ٣٢/٣٣ ــ ١٢/١٢ قبل الميلاد[٧].

والظاهر أن اللحيانيين قد أخذوا هذا الإله من النبط. وقد تشرف أحدهم بتسمية نفسه بـ(عبد سمن) أي (عبد السماء)[٨]. وقصد بـ (سمن) الإله

---

[1] سورة نوح، رقم ٧١، الآية ٣٢.

[2] Histoire, IV, p. 312.

[3] Arabien, S. 87, Reste, S. 14, Ryckmans, 16, Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 395, 581.

[4] Gromann, Göttersymbole, S. 71.

[5] Lihyanisch, S. 44.

[6] Histoire, IV, p. 312, Préislamiq., p. 20.

[7] W. Caskel, Lihyan., S. 45.

[8] W. Caskek, Lihyah., S. 124.

(بعل سمن)، أي (رب السماء). وقد اختصر الاسم، فصار (سمن) (سمين).

والعزى من الأصنام المعروفة عند أهل الأخبار. وقد بقيت عبادته معروفة إلى الإسلام. وقد أشير إليه في القرآن. وقد ذكر اسمه في كتابات عثر عليها في (العلا)[١]. وتعبد له النبط كذلك، وصنعت له معبداً في (بصرى) دُعي (بيت ايل). وعبر عنه بـ (كوكبتا)، أي (الكواكب)، وهو أنثى، أي إلهة[٢].

وقد ورد اسم (العزى) على هذه الصورة: (هنعزى) في كتابة لحيانية، دوّنها رجل اسمه (أوس بن حجر)[٣]. ويظن بعض الباحثين، أن العزى تمثل كوكب الصباح. ويظهر أن اللحيانيين قد أخذوا عبادتها من نبط بلاد الشأم[٤]. وأنها لم تكن من آلهة اللحيانيين في الأصل، بدليل عدم ورود اسمها كورود (ذو غابة) أو الآلهة اللحيانية الأخرى في النصوص اللحيانية[٥].

وورد اسم العزُى في الأعلام المركبة، مثل: (بل عزيني) (بال عزيني) و(بـ ايل عزينى)، أي بـ (العزينى)، وذلك في الكتابات الثمودية. و(تيم العزى) و(عبد العزى) و(امت العزى)، وفي كتابات أخرى تعود إلى ما بين القرن الخامس قبل الميلاد، والقرن الرابع بعد الميلاد[٦].

ويظهر من بعض الأعلام اللحيانية المركبة، مثل (اوس يه) (اوس يهو)، و(عزريه) (عزر يهو)، أن القسم الثاني من الاسم، وهو (يه) (يهو)، قريب من (يهوه)، وهو الإله الكبير المعروف عند العبرانيين. فـ (يه) (يهو) هو اسم إِلهَ من آلهة اللحيانيين.

وأما الإله (جدت)، فالغالب أنه إلهة، أي إلهاً أنثى بدليل وجود تاء التأنيث في آخر الاسم. والأصل هو (جد)، وهو اسم إله تكلمت عنه[٧].

---

[1] Histoire, IV, p. 312, Préislamique., p. 20.
[2] Doughty, Travels in Arabia Deserta, II, p. 511, 515.
[3] W. Caskel, Lihyan., S. 82.
[4] Lihyan., S. 262.
[5] Lihyah., S.45.
[6] Littmann, Thamud und Safa, S. 29.
[7] Ryckmans, Préislamiques, p. 19, Histoire, IV, p. 312.

وأما (هفلس) (ها ــ فلس)، فإنه (الفلس)، عند أهل الأخبار. وقد ذكروا أنه كان على هيأة حجر أسود تعبدت له (سليم)، أو على صورة إنسان قدّ من حجر عند (طيء)[١].

و(قيس) و(قيسو) من أسماء الآلهة المذكورة في الكتابات اللحيانية. وقد كان له معبد عرف بـ (بت قس) (بيت قيس) في مدائن صالح[٢]. ويدل وجود اسمه في الأعلام العربية المركبة، مثل (عبد قيس) و(عبد القيس)، أنه كان من الأصنام المعروفة المعبودة عند بقية العرب في مختلف أنحاء جزيرة العرب.

وورد في كتابة لحياني اسم إله هو: (محر) (هـ ــ محر) (همحر) وبعده اسم إله آخر، هو (هنا كتب). ويظهر أنه من الآلهة التي كانت تعبد في العربية الجنوبية وعند المعينيين الشمالبن، وتعني لفظة (محر) شريعة، أو قانون أو أمر، أو سنة. وهو من الآلهة التي آختفى اسمها في الكتابات اللحيانية المتأخرة[٣].

وأما (هنا كتب) (هانىء كاتب) (هني) (هاني)، و(هنى كتب) (هاني كتب) المذكور مع (هـ ــ محر) (همحر) (هامحر)، فيرى (كاسكل) W. Caskel أنه الإله (توت) Thot [٤]. و(توت) هو إله مصري، ويرمز إليه بصورة قرد. ويمثله الإلَه (نبو) عند البابليين. ويمثل (توت) (هرمس) و(المريخ) Merkur. فهو الإله الكاتب. ولعل اللحيانيين أخذوا إلههم هذا من المصريين[٥]. ولكننا لا نستطيع أن نجزم أن اللحيانيين قد تصوروا إلههم هذا على صورة (قرد) محاكاة للمصريين لأنهم أخذوه منهم، إذ لا دليل لدينا نستدل به على أنهم تصوروا ذلك الإله بصورة قرد[٦].

---

1 E. Oslander, 501, Reste, S. 51, Préislamiques, p. 17, Arabien, S. 84, Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 84.
2 Reste, S. 67, Preilamiques, p. 48, Arabien, 85, Jaussen-Savignac, Mission, II, 501, 520, 528, I, 169, 200, CIS, II, 209, Daughty, Documents Epigraphiques, p. 38, CIS, II, 198, J. Euting. Tagebuch., II, S. 262.
3 Lihyan., S. 45.
4 Préislamiques, p. 20, Arabien, S. 86.
5 Lihyan., S. 45.
6 Lihyan., S. 45.

ووردت في بعض الكتابات اللحيانية أعلام مركبة، جاء فيها اسم هذا الإله، مثل (جرم هنا كتب)، و(زيد هنا كتب). ومعنى (جرم) و(زيد) خادم أوعبد، فيكون الاسم (عبد هنا كتب)، (عبد هنا كاتب)[١].

وأما (سلمن) (سلمان)، فإنه من الآلهة التي ظهرت عبادتها عند اللحيانيين المتأخرين. ويرى بعض الباحثين أنه والإله (اب الف) (أبو ايلاف) من الآلهة التي كان واجبها حماية القبور. وقد رمزعن (ابي ايلاف) بصورة أسد يوضع عند جانب القبر ليحميه[٢].

وقد ورد اسم الإله (ابا لف) (ابو ايلاف) اسم علم لشخص كان كبيراً على قومه، وذلك في ايام الملك (عبدان بن ها نواس)[٣].

وورد اسم إله هو (شمس)، وقد عبد عند أهل تدمر أيضاً، كما تعبدت له تميم. ونجد بين أسماء رجال قريش وقبائل أخرى أسماء تدل على تعبد الناس للشمس، ومن هذه الأسماء: (عبد شمس)[٤].

وأما الإله (عجلبن) (عجلبون) (عجل بن)، فإنه من الآلهة اللحيانية المتأخرة. ويظهر أن اسمه الأصلي هو (عجل بل) (عجل بول) (عجلى بل) أي (عجل) و(بول). ونجد اسمه مع (يرحى بول) (يرح بل) (يرحبل)، و(بل) في الكتابات التدمرية. وبظهر أن تاجراً جاء به إلى اللحيانيين، وأدخل عبادته عندهم. ويظهر أنه جاء به من العراق[٥].

ولدينا أسماء ونعوت آلهة تعبد لها اللحيانيون من غير شك، وإن لم نعثر عليها في كتاباتهم، توصلنا إلى معرفتها والوقوف عليها من دراستنا للأسماء اللحيانية المركبة، مثل (كبر ال) (كبر ايل)، و(متع ال) (متع ايل)، و(ذرح ال) (ذرح أيل) (ذر حال)، و(عذر ال) (عذر ايل)، وأمثال ذلك، فإن اللفظة الثانية وهي (ال) (ايل)، هي الإله (ايل)

---

1 Lihyan., S. 45.
2 Lihyan., S. 45.
3 Lihyan., S. 113.
4 Starcky, Palmyre, 37, 80, O. Eissfeldt, 95, 101, Arabien, S. 87.
5 Lihyan., S. 45.

(ايلو)، وهو من الآلهة السامية القديمة[١].

ومن الأسماء التي وصلت إلينا، اسم رجل عرف بـ (عبد قني) (عبد قاني)[٢]، مما يدل على ان لفظة (قني)، هي اسم إله أو نعت من نعوت الآلهة.

وورد في الكتابات اللحيانية المتأخرة اسم رجل عرف بـ (عبد غث بن زد له سمم)[٣]، أي (عبد غوث بن زيد لاه بن سمم) (سموم)، كما ورد (زد غث)، أي (زيد غوث)[٤]، وذلك يدل على أن لفظة (غوث) اسم إله. وعندي أن (غوثاً) نعت من نعوت الآلهة، أي اسم من أسماء الله الحسنى لا اسم علم لإلهَ خاص.

و(خرج) من الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون، بدليل ورود اسمه في أسماء الأعلام المركبة مثل: (زيد خرج) و(عبد خرج)[٥].

ويعد (رعن) من آلهة اللحيانيين كذلك، إذ ورد في الأعلام المركبة، مثل: (رعنامر)، أي (رعن أمر)، وهو اسم رجل من (ديدان). فـ (رعن) من آلهة اللحيانيين أيضاً، ومثل: (رعنا مد) (رعن امد)، ومعنى (امد) أغضب، و(رعنلثع)، (رعن لثع)، أي (رعز احاط) و(رعن ادرك). فـ(رعن) إذن اسم إله من آلهة اللحيانيين والديدانيين[٦].

والإله (يثع) و(يثعن)، من الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون، فقد ورد في النص الذي وسمه الباحثون برقم (٧٣) وبـ JS 73 وM 26، اسم امرأة عرفت بـ (امتيثعن بنت دد)، أي (أمة يثعن بنت داد)، (أمة اليثع بنت داد)، وورد في الكتابات اسم رجل عرف بـ (يثع حيو)[٧]، واسم رجل آخر هو

---

[1] (جرم ال)، (جرم ايل)، (عزال)، (عزايل)، (عم ال)، (عم ايل)، (ايس ال)، (ايس ايل)، (سعد ال)، (سعد ايل)، (يمسك ال)، (يمسك ايل)، Lihyan., S. 46.

[2] Lihyan., S. 47, 143, JS 214.

[3] JS 41, Lihyan., S. 109.

[4] JS 298, Lihyan., S. 47, 154.

[5] Lihyan., S. 47.

[6] Lihyan., S. 47, JS 108, JS 116, JS 142.

[7] Lihyan., S. 100.

(يثعحن)، مما يدل على أن (يثع) كان إلهاً معبوداً ومعروفاً عند (بني لحيان).

وقد ورد في كتابة من كتابات (ديدان) اسم رجل عرف بـ (يثع امر) (يثع أمر)، فقد ورد في النص الموسوم بـ (٢) من الكتابات القبورية: (كهف: يثعامر)، أي (قبر: يثعامر) (قبر يثع أمر)[١]. واسم (يثع أمر) هو من الأسماء الشائعة المعروفة عند العرب الجنوبيين، وقد تسمى به ملوك من ملوك (سبأ). فالظاهر أنه من الأسماء التي أخذها الديدانيون واللحيانيون عن العرب الجنوبيين، ومن الجاليات العربية الجنوبيهَ التي كانت قد استقرت في أيام عز الحكومات العربية الجنوبية في هذه الأماكن، فـ (يثع) إذن، هو إلَه من آلهة العرب الجنوبيين في الأصل، انتقلت عبادته منهم إلى أهل ديدان واللحيانيين.

ومن الآلهة التي نجد لها أثراً في عبادة اللحيانيين من دراستنا لأسمائهم، الإله: (حمد) (حميد). فقد ورد في اسم امرأة عرفت بـ (امتحمد بنت عصم)[٢]. وأرى أن (حمد) أو (حميد) ليس اسم إلهَ، أي اسم علم، وانما هو نعت من نعوت الآلهة، أي اسم من الأسماء الحسنى، التي يسم الإنسان بها آلهته، على سبيل التأدب والاحترام.

ونرى أثر عبادة الإلَه (مناة) عند اللحيانيين من دراستنا للأعلام المركبة أيضاً، مثل: (عبد مناة) (عبد منت)[٣]، و(اسمنت) (اوس منت)، أي (أوس مناة)[٤]، و(عبمنت) اختصار (عبد مناة) و(عبدة مناة)، و(عذ منت)، أي (عوذ مناة)، و(عابذ مناة)، و(هون منت) (هون مناة)، و(نعم منت) (نعمت) أي (نعم مناة)، و(نسمنت) (نسأ مناة) و(قن منت) (قنمنت)، أي (قين مناة)، و(سنفمنت) (سنف مناة)، و(تهنمنت) (تهنأ مناة)، إلى غير ذلك من أعلام مركبة، ورد فيها اسم ذلك الإلهَ[٥] الذي هو إلهة، أي أنثى عند العرب. وقد ذكرت

[1] Lihyan., S. 78.

[2] راجع السطر الأول من النص المرقم بـ: ٧٨، المنشور في كتاب: Lihyan., S. 115.

[3] Lihyan., S. 103.

[4] Lihyan., S. 143.

[5] Lihyan., S. 46.

في القرآن الكريم. ولا أستبعد ان يكون أنثى عند اللحيانيين أيضاً. ولعل لأصل الكلمة التي أخذ اسم هذه الإلهة منه، وهو (منوتو) Manotu في النبطية، وتعني (منية) في عربيتنا صلة، بجعل الإلَه إلهة، أي تحويلها إلى إلهة أنثى.

والصنم (اللات) من الأصنام النبطية، المعبمودة عند النبط، والمعبودة عند ثمود كذلك، والظاهر ان عبادته انتقلت إلى عرب الحجاز ونجد من العرب الشماليين، الذين تأثروا بعبادة النبط[1].

ووردت لفظة (هتهم) في كتابة لحيانية، وردت بمعنى (إلاهتهم)، أي تعبيراً عن إلهة أنثى[2]. ويظن (كاسكل)، أنها تصغير (لات) (لث). و(اللات)، من الآلهة المعروفة المعبودة عند النبط، وكذلك عند العرب الشماليين، وعند عرب الحجاز. وقد ذكرت في القرآن الكريم، وهي إلهة، أي أنثى. وترد اللفظة عندهم في إلاعلام المركبة مثل: (تيم اللات) (تيم لات)[3].

وقد وردت (لفظة (هله) (هـ ـــ لاه) في كتابة لحيانية، وردت بصيغة التوسل والنداء والخطاب، أي بمعنى: (اللهم) و(يا الله)[4]. ووردت لفظة (لِله)، أي (إلى الإله) أو (لله)، في كتابة أخرى[5]. وهي لا تعني في كلتا الحالتين إلهاً خاصاً معيناً، وانما تؤدي المعنى الذي تؤديه لفظة (إله) و(الإله) في عربيتنا، و God في الإنكليزية، وربما قصد بها إله لحيان الأكبر (ذو غابة)، كما يقصد المسلمون باطلاقها لفظة (الله)، وذلك للتعبير عن اسم الله بأسلوب مؤدب مهذب[6].

ومثل: (هنا له) (هنا لاه) (هنى لاه)، و(نساله) (نسألاه) (نسى لاه)، و(ودع لاه) (ودع له)، و(مراله) (مرأ لاه)، و(تيم له) (تيم لاه)، و(وهب له) (وهب لاه)، و(زيد له) (زيد لاه)، و(جرم له) (جرم لاه)، و(سعد له) (سعد لاه)[7]،

---

[1] Lihyan., S. 44.
[2] Lihyan., S. 89.
[3] Lihyan., S. 46.
[4] Lihyan., S. 103.
[5] Lihyan., S. 104.
[6] Lihyan., S. 46.
[7] Lihyan., S. 46.

فإن الجزء الأخير من الاسم وهو (له) (لاه)، هو (إلَه). وإله من الألفاظ الدالة على الله، وترد في أكثر اللغات السامية.

ويلاحظ أن أكثر استعمال (ال) (ايل) في العبرانية هو في الشعر وفي أسماء الأعلام المركبة، ولم يستعمل في النثر إلاّ قليلاً[1]. أما في اللهجات العربية وفي اللغات السامية الأخرى، فقد استعملت اللفظة في الأعلام المركبة في الغالب، وفي معنى (إلَه) مثل (ال تعلى)، أي (الإلَه تعالى)، وما شاكل ذلك، بمعنى اسم من أسماء الله الحسنى وإله.

وعلى الرغم من ورود (ال) (ايل) El بصورة يستنبط منها أنها قصدت إلهاً معيناً خاصاً، أي اسم علم، لا نستطيع أن نقول إن (ال) اسم علم لإلَه معين مخصوص، مثل الآلهة الأخرى التي ترد أسماؤها في الكتابات، ذلك لأن الذين ذكروا (ال) (ايل) في الأعلام المركبة، أو في مواضع أخرى من كتاباتهم لم يقصد كما يتبين من الاستعمال إلهاً معيناً اسمه (ال) (ايل)، وانما أرادوا ما نعبر عنه بقولنا (إلَه) والجمع آلهة. فلفظة (إلَه) عندنا ليست اسم علم، وانما تعبر عن اسم الجلالة دون ذكر اسمه. وهي كذلك عندهم وعند بقية الساميين بمعنى (رب)، وإله و(بعل) عند الأقدمين.

ولا يعرف العلماء معنى لفظة (ال) (ايل) على وجه علمي دقيق. ولكنهم يفسرونها عادة بمعنى (القدير) و(الحاكم). ومعنى ذلك أن (ال) نعت من نعوت الآلهة، أو اسم من أسماء الله الحسنى بحسب التعبير الإسلامي. ويرى بعض العلماء احتمال عدم وجود صلة له بـ (الوهيم)، Elohim الكلمة العبرانية التي تطلق على الإله[2].

وأما آلهة الصفويين، فهي (اللت) (لت) (هلت)، و(دين) (ديان)، و(هله) (هـ ل ه)، و(جد عوذ)، و(بعل سمن)، و(شيع هـ ـ قوم) (شيع القوم)، و(اثع)، و(صالح)، و(ذ الشرا) (ذو الشرى)، و(رضا) (رضى)، و(جد ضيف)، و(رحم) (ورحيم)[3].

---

[1] Hastings, p. 299, Lihyan, S. 46, Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, p. 106.
[2] Hastings, p. 299.
[3] Ryckmans, p. 21.

و(الت)، أي (اللات) إلهة أي أنثى، ويراد بها الشمس. وقد مثلت في بعض النصوص الصفوية بقطعة من الشمس رسمت بصورة بدائية، ورسمت في بعض النصوص السامية الشمالية بشكل امرأة عارية[1]، رمز إليها بصورة فرس في النصوص العربية الجنوبية، والفرس من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الشمس عند قدماء الساميين وعند غيرهم من الشعوب، ولذلك كان الناذرون لها يقدمون لها تماثيل مصنوعة على هيأة فرس[2].

ولفظة (ديان) (ديّان)، ليست اسم صنم على ما يظهر، وإنما هي صفة من صفات الآلهة. وهي معروفة في عربيتنا وعند المسلمين، تطلق على الله.

وقد استعمل الصفويون (جد عوض) اسماً لإلَه، كما استعملوا اسماً آخر قريباً منه هو (جد ضيف).

وقــد ورد اسم الإلَه: (جد عوض) (هجد عوض) في نص محفوظ في متحف دمشق، وسم بـ Damas 1312 ، وورد بعده اسم الإلـهين: (شع هقوم) (شيع هقوم)، و(هلت) (اللات)[3].

وتقابل لفظة (جد) معنى الحظ في اللغة اليونانية، وقد صار في الأقاليم السورية المتحضرة الإلـهَ الحارس للمدينة. و(جد عوذ) هو إلَه معروف مشهور عند الصفوبين، وورد اسمه في كتاباتهم. وقد ذهب (رينه ديسو) إلى أن لفظة (عوذ) (عويذ) هي اسم عشيرة أو قبيلة كانت تعبد للاله (جد)، وكانت سدنته منهم، فنسب إليهم وعرف بـ (جد عوذ) (جد عويذ) على طريقة العرب في ذلك العهد من نسب الأرباب إلى القبائل أو العشائر أو السدنة التي يخدمونها أو إلى الأشخاص الكبار[4].

وقد ورد اسم الإلَه (جد ضيف) (جد ضف) في عدد من الكتابات الصفوية التي عثر عليها في المملكة الأردنية الهاشمية. كما ورد فيها اسم إلهَ آخر هو الإلَه: (هجد عوذ) (ها ــ جد عوذ)[5].

---

[1] Handbuch, I, S. 214.

[2] Handbuch, I, S. 227, Grohmann, Göttersymbole un Symboltiere auf Südarabischen Denkmaler, Wien, S. 70.

[3] Rychmans, Inscriptions Safaitiques, Louvain, 1951, p. 87.

[4] رينه ديسو (١٣٧).

[5] Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 1951, Vol., I, p. 27.

أما الإله (شيع القوم)، فقد ورد اسمه في النصوص النبطية في (بطرا) وفي (تدمر) وهو إلَه القوافل في نظر بعض المستشرقين[1].

وهو إله يحمي قومه. وقِد احتمى به أهل القوافل خاصة من الأعراب وقطّاع الطرق. ولذلك كان التجار وأصحاب القوافل يذكرون اسمه وربما يحملون وثنه معهم لحمايته لهم في أثناء السفر حتى بلوغهم ديارهم سالمين.

وقد نعت في كتابة نبطية دوّنها أحد نبط (تدمر). بأنه (الذيَ لا يشرب خمراً)[2]. وهذا يعني أن هذا الإله كان يكره الخمور، ويكره شاربيها، ولعل في ذلك فكرة تحريم الخمر عند جماعته. وقد كان في الجاهليين ممن حرموا الخمر على أنفسهم. كما نعت بـ (الإلَه الطيب المجازي)[3]، وهو نَعْت نُعِت به وبمثله آلهة أخرى. وقد ذهب بعض الباحثين الى احتمال وجود جماعة من النبط ومن غير النبط كانت تحرم شرب الخمر، بدليل ما جاء في النص النبطي من نعته بأنه (الإلَه الطيب المجازي الذي لا يشرب الخمر)[4]. و(يثع) هو في جملة الآلهة التي تعبد لها الصفويون، كما تعبد له غيرهم أيضاً. قد قلت سابقاً باحتمال انتقال عبادته إلى هذه الأرضين من العرب الجنوبيين الذين كانوا قد نزحوا إليها واستولوا عليها وذلك قبل الميلاد. وتعني لفظة (يثع) الحامي والناصر والمساعد، وقد حرّف في اليونانية الى (ايثاؤس) و(يشع). وقد ورد (يثع) في نص توسل فيه صاحبه الى هذا الإله ان يعينه على المكاره، وتوسل آخر اليه أن يثأر ممن يتبعه، وطلب اليه آخر أن يشفيه من المرض[5].

و(رحم) (رحيم) مثل (رحمن)، أي (الرحمن)، لعلهما اسمان من أسماء الله الحسنى في الأصل، ثم صارا اسمين علمين. وينطبق هذا القول على لفظة (صالح) الواردة في نصوص الصفويين[6].

---

1 Histoire., IV, p. 14.
2 Littmann, Semitic Inscriptions, 1904, Montgomery, p. II, Cooke, North Semetic Inscriptions, p. 304.
3 رينه ديسو (١٤٥).
4 رينه ديسو (١٤٥).
5 رينه ديسو (١٤٣ وما بعدها).
6 Préislamiques, p. 23.

وقد قرأ بعض الباحثين لفظة (رحم): (رحام). أما (نولدكه)، فقد قرأها بتشديد حرف الحاء[١]. ولعدم وجود علامات لحركات الحروف يجوز أن تقرأ الكلمة (رحيم)، كما ذكرت آنفاً. وقد ورد اسم هذا الإلَه في نص تدمري أيضاً، لأنه كان معبوداً عندهم أيضاً[٢].

وقد ذكرت (الشمس) في نص، أو نصين أو أكثر من ذلك بقليل من النصوص الصفوية. وعبادة الشمس هي عبادة قليلة الانتشار بين الأعراب، على عكس الحضر الذين كانوا يتعبدون لها. ولهذا كان أثر الذين عبدوها من الحضر، أو من الأعراب الذين تطوروا بأن ركنوا الى حياة الحضر. أو توسطوا بين الحياتين[٣].

وفي جملة النصوص الصفوية التي ورد فيها، اسم (الشمس)، نص سجله رجل اسمه (خالص بن شهم[٤] بن عمرة بن عم)[٥]. وقد توسل الى (شمس وجد عوذ واللات) أن تنزل العمى بمن يتطاول على الكتابة فيمحوها ويطمس معالمها[٦].

و(شمس) من هذه الآلهة التي ذكرت في الأعلام المركبة، إذ ورد (عمشمس) (عم شمس)[٧]. وهي إلهة معروفة تعبد لها العرب الجنوبيون وغيرهم من العرب، كما أنها من الآلهة المعبودة عند بقية الساميين. ويرى (كاسكل) أن الشمس كانت تعد إلها ذكراً عند أكثر العرب الشماليين في هذا العهد، أيْ في القرن الأول قبل الميلاد، والقرن الأول للميلاد[٨].

ونجد اسم الإلَه (بعل سمن) في الكتابات الصفوية كذلك[٩]. والصفوِيون

---

1 رينه ديسو (١٤٤).
2 رينه ديسو (١٤٤).
3 رينه ديسو (١٤٤ وما بعدها).
4 «شهم» «شهيم» على هذه الصورة: «شوهيم» دونها مترجم: رينه ديسو، أما الأصل الصفوي، فهو «شهم»، راجع رينه ديسو (١٤٢).
5 في الأصل «عمرت»، «عمرة»، في الترجمة «عميرت»، رينه ديسو (١٤٢)، و«عم» في الأصل، في الترجمة «عوم»، رينه ديسو (١٤٢)، ربما «عوام»، رينه ديسو (١٤٢).
6 رينه ديسو (١٤٢).

7 Lihyan, S. 47, 144.
8 Lihyan, S. 48.
9 Littmann, Saff., S. 58.

هم كما ذكرت قبائل عديدة طافت في هذه الأرضين التي عثر على الكتابات الصفوية بها، وهم من مواضع متعددة، ولم يكونوا من موطن ثابت، لذلك كانوا يعبدون آلهة مختلفة: آلهة قبائلهم وآلهة قبائل سبقتهم، وآلهة قبائل اختلطوا بها فأخذوا عنها معبوداتهم، مثل هذا الإله (بعل سمين)، أي بعل السماء، أو ربّ السماء.

وتعد اللات من أهم الآلهة عند الصفويين بدليل كثرة ورود اسمها في كتاباتهم. فقد ورد اسمها في أكثر من ستين مرة في الكتابات[١].

و(ه ل ه)، (هله) هي بمعنى: (اللهم). فلفظة (له) هي بمعنى (إلهَ) و(لاه). وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أنها تعني (الله). وإذا صح هذا الرأي، دلّ على أن لفظة الجلالة (الله) كانت معروفة عند العرب الجاهلين قبل الإسلام بقرون. وقد وردت في عدد من النصوص الصفوية مسبوقة بحرف (الهاء) في الغالب، وهو حرف النداء، كالذي ورد في نص صفوي سجله شخص اسمه (سني بن سني بن محنن)، ذكر فيه أنه عثر على أثر عمه، ثم توسل إلى (له) إذ خاطبه بقوله: «فهله سلم لذ ساد وغيرت»، أي: «فيا الله امنح السلامة لمن سار بمعنى سافر وساعده»[٢].

و(رضى) (رضا) هو من الآلهة التي تعبد لها الصفويون كذلك، وقد تحدثت عنه في مواضع عدة، اذ كان معبوداً عند غيرهم أيضاً. وهو (ارصو) (ارضو) في الغالب، الذي يرد في نصوص تدمر. وقد ورد اسم (رضى) في عدد من الكتابات الصفوية، يتوسل فيها أصحابه إليه أن يمنّ عليهم بالسلامة والنعم، وأن يبعد عنهم شر الأعداء وكيدهم، وأن ينزل النقمة وغضبه على أعدائهم، إلى أمثال ذلك من توسلات وأدعية[٣].

وورود (عبد حت)، أي (عبد حوت)، في الكتابات المتأخرة[٤]، يدل على أن (حوتاً) من أسماء الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون.

---

[1] العرب في سورية قبل الإسلام (١١١).
[2] رينه ديسو (١٣٤).
[3] رينه ديسو (١٣٤).
[4] Lihyan, S. 47, 143, JS 89.

و(حمل) اسم إله أيضاً، لورود اسمه في الأعلام المركبة مثل: (عبد حمل)[١]، وهو من الأسماء التي وردت في الكتابات اللحيانية المتقدمة[٢].

وكثيراً ما نجد أناساً يتوسلون إلى هذه الآلهة بأن تمنحهم السلام والرحمة، وأن تنكل بأعدائهم، بل نجد شواخص القبور، ترجوها ان تصيب بالعمى من يطمس كتابة الشاخص، الذي يحمل اسم صاحب القبر المدفون فيه وأن تنزل به الأمراض والآفات[٣]. ومعنى هذا أن المؤمنين بها كانوا يعتقدون أنها تثيب وتعاقب، تمنح السلام والخير، وتنفع وتضر وتنزل الأذى بمن تريد وتشاء، ولهذا توسل الناس إليها وخاطبوها، إما لرجاء وإما لايذاء.

أما آلهة النبط، نبط (بطرا)، فهي: (ذو الشرى) Dushara، و(اللات)، وهو إلهة، (ام الآلهة)[٤]، و(منوتو)، أي (مناة)[٥]، (قشح)، و(هبلو)، أي (هبل)، و(شيع القوم) خامي القوم، وإلَه القوافل[٦].

وأما (ذو شرا) Dausarys = Dousares (دوسرا)، فإنه (ذو الشرى) الذي يرد اسمه عند أهل الأخبار. وهو من آلهة (بطرا)، وقد زعم أنه في منزلة (ديونيسوس) Dionysos وعرف بـ Deos Arabikos = Dieu Arabiques في بعض الكتابات اليونانية التي عثر عليها في الأردن، والتي يعود عهدها إلى سنة (١١٦ ــ ١١٧) أو (١٢٦ ــ ١٢٧) للميلاد: مما يدل على أنه كان من الآلهة المعروفة بين العرب، وانه إلههم الخاص بهم[٧].

وذكر أن Dusares هو في منزلة Dionysus ، وقد عرف عند اليونان بأنه إلَه العرب، كما ذكرت. وأنه الإله Pakades؛ عند النبط، وله معبد في (جرش) Gerash [٨].

---

1 Lihyan, S. 47.
2 Lihyan, S. 143.
3 راجع النصوص في رينه ديسو (ص ١٢٦ فما بعدها).
4 CIS, II, 85, 98, NSI, 80, Ency. Religi., 9, p. 112.
5 CIS, II, 97, 98, NSI, 79, Ency. Religi., 9, p. 22.
6 Ency. Religi., 9, p. 22.
7 R. De Vaux, Une Nouvelle Inscription au dieu Arabikue, ADAJ, I, 1951.
8 BASOR, NUM: 83, 1941, p. 8.

وورد اسم (دشر) (دوشرا) Dushares في عدد من النصوص الصفوية. ورد في هذه الجملة مثلاً: (فهلت وهدشر ثار لمن حولت)[1]، أي (فيا اللات ويا ذو الشرى، اثأروا ممن يحوّل). ويقصد بـ (يحوّل)، يحول شاهد القبر الذي كتبت عليه هذه الكتابة. كما ورد في عدد من الكتابات، يرجو فيها أصحابها من هذا الإله أن ينعم عليهم بالسلامة وان يتقبل منهم أعمالهم.

وقد ورد مع اسم (ذي الشرى) في بعض الكتابات النبطية، اسم الإلَه (هبل) واسم (مناة). و(هبل) هو صنم قريش الرئيس. وهو إلَه الكعبة ويرمز إلى القمر. وقد وضع في الكعبة على هيأة انسان، وأمامه حفرة عبر عنها بلفظة (بغبغ)، وكانت يده اليمنى مكسورة، فعوضته قريش بيد من ذهب، والظاهر أن الحية ترمز إليه، أو إلى ود، وأن الحية التي قيل إنها كانت في بئر زمزم، هي رمز هبل[٢].

وورد اسم (اللات) مدوناً في نصوص، نبطية عديدة، فقد عثر بـ (صلخد) على كتابات من سنة (٤٠) قبل الميلاد، وسنة (٥٠) بعد الميلاد. وسنة (٩٥) للميلاد، وعلى نصوص أخرى، وقد ذكر فيها اسم هذه الإلهة، وأشير فيها إلى تشييد معبد خصص بعبادتها والى سدنة كانوا يقومون بخدمتها. ووجدت كتابات في مواضع نبطية أخرى، ورد فيها اسم (اللات)، ويدل كل ذلك على أن اللات كانت من المعبودات المقدره عند نبط هذه الديار[٣].

أما الكتابات النبطية المدونة في مواضع أخرى من بلاد الشأم وفي أعالي الحجاز، فقد ورد فيها اسم (اللات). ورد فيها على أنه من الآلهة الكبيرة، التي يخدمها سدنة، ولها معابد خصصت بعبداتها. فقد جاء في نص مؤرخ بسنة (٤٧) للميلاد أن شخصاً اسمه (ملكو بن قصيو) و(مالك بن قصي)، أو (مليك بن قصي)، كان كاهناً (للات) في موضع (حبرن) (حبران)، وهو من جبل حوران[٤].

---

1 Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol., II, p. 28, 1953.

2 الأزرقي، أخبار مكة (١/ ٦٨ وما بعدها).

3 رينه ديسو (ص ١١٦ وما بعدها).

4 رينه ديسو (١١٥)، Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 506.

وأما آلهة (تدمر)، فهي (بل)، أي (بعل) و(عزيزو)، و(ارصو) (ارضو)، و(شيع القوم)، و(شمش) (شمس) و(اللات)، و(ايل)، و(بعل شمين)، و(سعدو). ويلاحظ أن الكتابات التدمرية تستعمل في الغالب الكنايات والنعوت الإلهية بدلاً من أسماء الآلهة، فاستعملت (تبارك اسمه)، و(رب العالم)، و(الله المحسن)، و(رب العالمين)، وأمثال ذلك كناية عن آلهة تدمر. وهي تشير إلى وجود فكرة التوحيد عند التدمريين. والى اغراب أهل تدمر عن التصريح بأسماء الآلهة، والاكتفاء بذكر نعوتها وأسمائها الحسنى، على طريقة العبرانيين في تجنب ذكر اسم الإله، والتكنية عنه بنعوته. وقد يكون لآراء الفلاسفة اليونان أثر في معتقدات أهل تدمر في آلهتهم[1].

ويرى (ليدزبارسكي) Lidzbarski أن (بل)، هو إلَه تدمر الأكبر. وهو (بعل). ولمركزه الخطير عند أهل تدمر، دعاه اليونان (زيوس) Zeus أما (ملك بل)، فإنه الشمس، وأما (عجلى بل)، فهو القمر. ويقدم عادة على (ملك بل) في الكتابات. وتقدم القمر على الشمس عادة قديمة عند أهل تدمر لا بدّ أن يكون لها سبب بالطبع[2].

أما الإلَه (عزيزو)، فهو العزى. ويؤيد ذلك ما ذكره أحد الكتبة اليونان من أنه كان كوكب الصباح عند العرب، وأنه الإلَه الرؤوف الرحيم الذي عبدته العرب قبل الإسلام. ويلاحظ أن هذا النعت وارد في نص تدمري، مما يثبت كون (عزيزو) هو (العزى) الإلَه الشهير[3].

وأما (ارصو) (ارضو)، فيظن (ليدزبارسكي) أنه Oratal الذي ذكر المؤرخ (هيرودوتس)، أنه أحد آلهة العرب الكبرى مع الإلَه (اللات). ويظن أن (ارصو)، هو (رضا) (رضى) الإلَه الذي أشار اليه الأخباريون.

وأما (اللات)، فقليل الورود في النصوص التدمرية مع شيوع الأسماء المركبة

---

[1] Ency. Religi., 9, p. 592.
[2] Ency. Religi., 9, p. 593.
[3] Ency. Religi., 9, p. 594.

المؤلفة منها ومن كلمات أخرى عندهم[١].

وأما (منوتو)، فإنه (مناة) المذكور في القرآن[٢]. وكان له معبد في (قديد)، بين مكة والمدينةَ، وقد صنع من حجر، وتعبدت له الأوس والخزرج، وهذيل، وخزاعة، وتعبد له النبط كذلك، وأقاموا له معبداً أشير اليه في كتابات (مدائن صالح)، كما تعبدت له ثمود ولحيان ونبط تدمر[٣]. وهو أنثى في نظر أهل الأخبار، والظاهر أن بينه وبين المنية صلة، كما بينت ذلك قبلاً.

وقد عبد الإلَه (بعل شمن) (بعل شمين) في تدمر. وقد رأينا أنه عبد عند اللحيانين والصفوين، وعند غيرهم أيضاً. وقد وجد اسمه في كتابة تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، تبين منها أنه كان معبوداً في (بعلبك). وهو كما قلت الإلَه (بعل سمن)[٤].

وأما (سعدو)، فقد رأى بعض المستشرقين أنه الإلَه (القمر)، وأنه الصنم (سعد)، وهو من الأصنام التي ذكرها أهل الأخبار. وقد تعبد له بعض كنانة، ويقال هذيل، كما تحدثت عنه[٥].

وورد في بعض كتابات (حوران) اسم إلهَ دعي بـ (قصي). وإليه تنسب بعض الأعلام المركبة التي ورد فيها اسمه، مثل (عبد قصي). ويظن أنه الإلَه المسمى بـ (زيوس كاسيوس) Zeus Kasios وبـ Jupiter Casiu = Jupiter Casius في الكتابات اليونانية[٦]. وفي جملة هذه الأسماء المركبة المعروفة التي وردت إلينا، اسم (وهب لث)، أي (وهب اللاتِ)، وهو اسم ابن الملك (أذينة) من زوجه (زنوبيا)، أي (الزباء)[٧].

---

1 Ency. Religi., 9, p. 594.

2 سورة ٥٣، الآية ٢٠.

3 Jaussen-Savignac, Mission, I, p. 169, 192, CIS, II, No.: 22, J. Starcky, Palmyre, 85, Arabien, S. 84.

4 Arabien, S. 86, Ryckmans, 20.

5 O. Eissfeldf, 150, Arabien, S. 85, Handbuch, I, S. 234.

6 Arabien, S. 86.

7 رينه ديسو (١٢٢).

وقد ذهب (رينه ديسو)، إلى أن العنصر العربي كان مهماً في تدمر، وله أثر في حياة المدينة، وأنه هو الذي أدخل عبادة اللات إلى تدمر. وقد عبّر عنها بـ (أثينا)، ولهذا ترجموا اسم ابن الزبّاء، أي (وهب اللات)، بـ (اثينودور) Athenodore [١].

وجاء في كتابات نبط (مدائن صالح) اسم إلَه عُرف بـ (شيع هقوم) (شع هقم). (هشع هقم) (شيع هاقوم) (شيع القوم)، وهو إلَه القوافل والمحاربين. يدافع عن القوافل وعن رجالها ويصد عنها لصوص الطرق وقطّاعها، ولهذا كان يتقرب إليه التجار بالنذور وبالدعوات ينزل بمن يتحرش بتجارتهم العذاب الأليم[٢]. وهو أيضاً من آلهة قوم ثمود والصفويين[٣]، كما تحدثت عن ذلك.

وقد بني للعزى معبد في (بصرى)، عرف بـ (بت ال)، أي (بيت ايل)[٤].

وأما آلهة (ديدان)، فلا نستطيع التحدث بإفاضة عنها، لعدم وصول كتابات ديدانية إلينا، فيها ذكر لتلك الآلهة. وفي الأسماء الديدانية المركبة أسماء آلهة، على رأسها (ال) (ايل) الذي ورد في (كبر ــ ال) (كبرايل)، و(متع ال) (متعال) (متع ايل)، و(ذرحال) (ذرح ايل)، و(وسقال) (وسق ايل)، و(ال ــ بر) (ايل ــ بر)، و(العم) (ايل ــ عم)، و(شيمال) (شيم ــ ايل)، و(الاب) (ال اب)، (ايل اب)، فإن (ايل) (ال) في هذه الأسماء هو الإلَه (ايل)[٥].

ثم: (إلَه)، و(يثع)، و(خرج)، و(رعن)، و(دد) (داد)، و(نعر)، و(قس) (قوس) (قيس). وبعض هذه الألفاظ نعوت للآلهة، لا أسماء أعلام، وبعضها من أصل عربي جنوبي، مثل (يثع)، فإنها نعت من نعوت الآلهة، معناه: (المساعد) (الناصر) (المؤيد)،

---

[1] رينه ديسو (١٢٢).

[2] Arabien, S. 86.

[3] F. V. Wineth, Safatic Inscriptions from Jordan, University of Toronto Press, 1957, p. 20.

[4] Arabien, S. 82.

[5] Lihyan, S. 37.

وقد عرف عند السبئيين. وبعض آخر من أصل شمالي مثل (دد) (داد)، فإنه من معبودات الكنعانيين والنبط[1].

ويرى (كاسكل) أن (خرجا) هو إله، والخرج في العربية أول ما ينشأ من السحاب. وبه سمي (الخرج). وقد ورد في الأعلام المعينية المركبة: (عبد خرج)، و(زيد خرج)[2]. ويحتمل أن يكون قد جاء إلى الديدانيين من المعينين الذين كانوا أصحاب ديدان قبل الديدانيين.

ويرد (دد) (داود) في الأسماء المركبة كذلك، وكذلك بصيغة التأنيث أي (ددت) (دادت)، أي إلهة. ويعني (دد) عم[3]. فقد ورد (حي ــ دد) (حي داد)، وورد (عبد ددت)، أي (عبد دادت)، يدل على أن (داد) إله من الآلهة المعبودة، وأن (ددت) إلهة.

و(قس) أي (قوس) هو أيضاً من أسماء الآلهة، اذ ورد مكوناً لاسم رجل، عرف بـ (جلتقس)، أي (جلت قوس)[4]. وورد اسم آخر في الأعلام المركبة كذلك، هو (قس)، في اسم (عبد قس)، ويمكن ان يقرأ (قوساً) كما يمكن ان يقرأ (قيساً)، أي (عبد قيس)، و(عبد قيس) و(عبد القيس) من الأسماء المعروفة عند العرب. ف (قوس) و(قيس) من الآلهة المعروفة عند العرب.

و(قوس) هو من آلهة (بني أدوم)، أي الأدوميين، اذ كان يعبد عندهم. وقد ذهب (بروى) Braeu الى أن الإله (قيس) هو إلَه واجبه حماية الحدود[5].

ووردت لفظة (صلم) في الأعلام المركبة كذلك، مثل (صلمجد) أي (صلم جد)، ومثل (صلميحب) (صلم يحب)[6]. ومعنى ذلك أن (صلما) هو اسم إله.

يلاحظ أن بين الآلهة المذكورة أسماء، هي في الواقع ليست أسماء، وانما هي

---

1 Lihyan, S. 38.
2 Lihyan, S. 38.
3 Lihyan, S. 38, 47, 145.
4 Lihyan, S. 146.
5 Lihyan, S. 47, Brau. in WZKM., XXXII, 56.
6 Lihyan, S. 47, 142, JS 314, 382.

صفات، أو ما يقال له (أسماء الله الحسنى) فيِ الإسلام، استعملت وأطلقت على الآلهة حتى صارت في منزلة الأسماء. كما نجد صفات وضعت قبلها لفظة (ذ) أي (ذو) أو (ذت)، أي (ذات)، وأطلقت على الآلهة اطلاق الأسماء على المسميات. ومن هذا القبيل (ذعقل)، أي (ذو عقل)، و(ذ شرى)، أي (ذو الشرى)، و(ذ قبض)، أي (ذو قبض)، و(ذت أنوط)، أي (ذات أنواط)، و(ذت حمم)، أي (ذات حميم)، و(ذت بعدن)، أي (ذات البعد)، فليست هذه أسماء في الأصل، وانما هي على ما ذكرت، وقد عبر بها عن آلهة معينة، حتى صارت عندهم في منزلة الأسماء.

الآلهة التي ورد ذكرها في النصوص:

وأود أن أدوّن هنا أسماء ونعوت الآلهة التي أشير إليها في نصوص المسند، وفي النصوص الأخرى باختصار، ليحيط بها القارئ، وهي: (ود) إلَه معين الكبير. وقد ورد في نصوص أخرى عثر عليها في أعالي الحجاز. و(المقه) إلَه سبأ الكبير، و(سن) (سين) إلهَ حضرموت الكبير، و(ورخ) و(شهر)، و(عم) إلهَ شعب قتبان. وهي كلها في معنى واحد، اذ قصد بها الإلَه القمر.

ومن الأسماء الأخرى: (انبي) (أنبى)، و(شرقن) (الشارق)، و(رحم) (الرحيم) (رحيم)، و(رحمنن) (الرحمن)، و(عثتر)، و(اثرت) (اثيرت)، و(بعل)، و(بعلت)، و(ذات انوت) (ذات أنوات)، و(ربت اثر)، و(بعدن)، و(ذت بعدن)، و(برن)، و(ذت برن)، و(غضرن)، و(ذت غضرن)، و(حمم) (حميم)، و(ذت حمم) (ذات حميم) (ذات حمم)، و(نشقم) (نشق)، و(رحبن) (رحاب) (الرحاب)، و(ذت رحبن) (ذات الرحاب)، و(صهرن) (الصهر)، و(ذت صهرن) (ذات الصهر)، و(صنتم)، و(ذت صنتم)، و(ضهرن)، و(عم ذ دون)، أي (عم رب دأون) (عم صاحب داوان)، و(ال) (ايل)، و(كهلن) (الكاهل)، و(حرمن) (الحرم)، بمعنى الإلهَ، و(حرمت) (حرمة)،

بمعنى الإلهة. و(هوبس)، و(حلم) (حليم)، و(حكم) (حوكم)، و(متب قبط)، و(متب نطين)، و(نهى)، و(نكرح)، و(نسر)، و(نسور)، و(رب شهر)، و(رب ثون)، و(صدق) (صديق) (صادق)، و(شمس)، و(سموى)، و(شرقن)، و(سمع) (سميع) (سامع)، و(تالب) (تلب)، و(تلب ريمم) (تالب ريام)، أي الإلَه (تالب) رب موضع (ريام) لوجود معبد كبير له به. و(عثرت)، و(عزيّ)، و(تلب سمعى) (تالب سمعى)[1]، و(حول) (حويل)، و(ذ جربم) (ذو جرب)، و(ذ قبضم) (ذو قبض) (ذو القبض) (القابض)، و(سمعى)، و(شريت) (شرى)، و(عثتر شرقن)، و(عزين)، و(قزح)، و(متب مذجب)، و(نرو)[2].

ومن أسماء آلهة ثمود: (ود)، و(جد هدد)، و(شمس)، و(عزبز)، و(نعرجد)، و(عمى شجا)، و(رضو) و(منت)، و(كهل)، و(نهي)، و(ايل) (ال)، و(لت) (لات)، و(عثرسم) (عثر سمن)، و(صلم)، و(منف)، و(عثتر)، و(يثع)، و(يغث) (يغوث)، و(بعلت)، و(يهو)، و(فلس)، و(عوذ).

وتمكن الباحثون من الحصول على أسماء عدد من آلهة لحيان، منها: (ابلف) (اب الف) (ابالف)، بمعنى (أبو ايلاف)، و(عجلبن)، و(بدع سمع)، و(بدعسمع)، و(بعلسمن)، (بعل السماء)، و(ذ غبت) (ذوغابة)، و(هنا كتب) (هانئ كتب)، و(له) (لاه)، و(لهت) (الهات)، و(لت) (لات)، و(همحر) (ها محر)، و(سلمن) (سلمان)، و(هنعزي) (هانعزي)، و(ود)[3].

---

[1] Handbuch, I, S. 206-261.
[2] Handbuch, I, S. 260.
[3] W. Caskel, Lihyan, S. 141.

وحصلنا من الكتابات الصفوية على أسماء بعض الآلهة، مثل: (اللات) (لت)، و(العزى)، و(مناة) (منات)، و(رضا) (رضو)، و(هـ له) (ها لاه) (الله)، و(جد عوذ)، و(شمس)، و(رحم)، و(شيع هقوم) (شيع القوم)، و(اثع) (اثاع)، و(بعل سمين) (بعل سمن)، و(دو شر) (ذو الشرى) (دشر)، و(جد ضف) (جد ضيف)[1].

---

[1] Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol., I, 1951, p. 27.
والعدد الثاني الصادر سنة ١٩٣٥ (ص ٢٣، ٢٤، ٣١، ٣٦، ٣٩، ٤١، ٤٢، ٤٣).

الفصل الحادي والسبعون

شعائر الدين

ولكل دين شعائر تكون له سمة وعلامة تميزه عن غيره من الأديان. ولمّا كنا قد ذكرنا أن الجاهلين كانوا شعوباً وقبائل، لم تجمع بينهم وحدة فكر ولم تضمهم دولة واحدة، بعقيدة مشتركة، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن شعائر واحدة لجميع عرب الجاهلية.

وما سأذكره عن ديانات أهل الجاهلية، مستمد إما من نصوص جاهلية، وذلك فيما يخص العربية الغربية والعربية الجنوبية في الغالب، وإما من موارد إسلامية، وهو ما يتناول أهل الحجاز، قبل ظهور الإسلام، وبعض أنحاء نجد. وهو مما جاء عنهم في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفي كتب التفسير والسير والأخبار مما له صلة بأيام الجاهلية المتصلة بالإسلام، وبظهور الإسلام.

وفي مقدمة شعائر الدين عند أهل الجاهلية: الأصنام وبيوتها والتقرب إليها بالصلاة وبالسجود. وبالطواف حولها، وبالنذور. وبالحبوس وبالقسم بها، وذلك لتمنّ على عبدها الإنسان فتمنحه ما يرجوه. في هذه الحياة من صحة وعافية ومال ونسل وذكور وتكاد تنحصر الكتابات الجاهلية[1] التي عثر عليها حتى الآن بهذه الأمور، اذ لا نكاد نجد فيها شيئاً له علاقة بالآلهة يخرج عن حدود ما ذكرت. ويكاد يقتصر ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ديانة أهل الجاهلية بهذه الأمور

---

[1] Grohmann, S. 89, Jaussen-Savignac, Mission, II, 397, 401, 452.

ايضاً، فلا تتجاوز ما ذكرته من تقرب إلى صنم أو توسل إليه وطواف به، لنيل شيء منه يتمناه ويرجوه في هذه الحياة الدنيا.

أما الصلاة إلى الآلهة على نحو ما يفهم من الصلاة في الإسلام فلا نجد لها ذكراً في النصوص الجاهلية، ولا نكاد نجد لها صورة واضحة صحيحة في روايات أهل الأخبار، اللهم إلا فيما يخص صلوات اليهود والنصارى والعرب فقد كان هؤلاء يصلون في كنائسهم في أوقات معينة، وقف بعض أهل الجاهلية عليها، فأشاروا إليها في أشعارهم وفي حديثهم عن أهل الكتاب.

وقدُ ذكر أن عبدة (الشمس) كانوا قد «اتخذوا لها صنماً بيده جوهرعلى لون النار، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلّون فيه لها ثلاث مرات في اليوم، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به. وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها، واذا غربت واذا توسطت الفلك. ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة، لتقع عبادتهم وسجودهم له. ولهذا نهى النبي، صلى الله عليه وسلم، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً، وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام»[1]. وذكر (اليعقوبي) أن العرب كانت «اذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوّا عنده ثم تلبوا»[2]. وفي هذين الخبرين دلالة على وجود الصلاة عند الجاهليين، ولا سيما في خبر عبدة الشمس، حيث كانوا يصلّون ثلاث مرات لها في اليوم.

وذكر أن (التسبيح) بمعنى الصلاة والذكر، روي أن (عمر) جلد رجلين سبّحا بعد العصر، أي صلّيا. وإن قول الأعشى:

وسبحّ على حين العشيّات والضحى   ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعني الصلاة بالصباح والمساء. وعليه فسر قوله: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، يأمرهم بالصلاة في هذيْن الوقتيْن[3].

---

[1] بلوغ الأرب (٢/ ٢١٥ وما بعدها).
[2] اليعقوبي (١/ ٢٢٥).
[3] اللسان (٢/ ٤٧٣)، (سبح).

وذكر انهم كانوا يصلون على موتاهم، وكانت صلاتهم ان يحمل الميت على سرير، ثم يقوم وليه، فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه. ثم بقول: عليك رحمة الله. ثم يدفن[١].

وقد أشير إلى سجود الناس للشمس والقمر في القرآن الكريم: ﴿ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر. لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون. فإن استكبروا، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾[٢]. «يقول تعالى ذكره: فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك ولا يتعظمون عنه»[٣]. كما أشير إلى سجود أهل (سبأ) إلى (الشمس) في الآية: ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، فهم لا يهتدون﴾[٤]. وفي هذه الآية وصف لتعبد أهل سبأ للشمس وسجودهم لها. وقد ذكر المفسرون أن ملكة سبأ «كانت لها كوة مستقبلة الشمس، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها، فتسجد لها»[٥]. فسجودهم للشمس، هو عبادة لها وتعظيماً لشأنها.

الصوم:

وأما (الصوم)، فنحن لا نجد له ذكراً في الكتابات الجاهلية بالمعنى المفهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين. وهو في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له. وقبل للصائم صائم لامساكه عن المطعم والمشرب والمنكح، وقيل للصائم صائم، لامساكه عن الكلام. وقوله عزّ وجل: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾. قيل:

---

[1] المحبر (٣٢٠ وما بعدها).
[2] سورة فصلت، الرقم ٤١، الآية ٣٧ وما بعدها.
[3] تفسير الطبري (٢٤/ ٧٧).
[4] النمل، الرقم ٢٧، الآية ٢٤.
[5] تفسير الطبري (١٩/ ٩٤ وما بعدها)، تفسير القرطبي (١٣/ ١٩٠ وما بعدها).

معناه صمتاً، ويقويه قوله تعالى: ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾[1]. والصوم: الصبر كذلك.

وقد ذكر (الصوم) في السور المدنية، أما في السور المكية، فقد ذكر مرة واحدة، في (سورة مريم): ﴿فقولي: إني نذرت للرحمن صوماً. فلن أكلم اليوم إنسياً﴾[2]. وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام.

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب. فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود، بسبب وجودهم بينهم. وكان عرب العراق وبلاد الشأم على علم بصوم النصارى، بسبب وجود قبائل عربية متنصرة بينهم. وكان أهل مكة، ولاسيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب. وبصيام الرهبان، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة، للتفكير في ملكوت السماوات والأرض. ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم، وسلك مسلكهم. فكان يصوم، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة.

ويذكر أهل الأخبار أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء. وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون، ويعيدّون، ويكسون الكعبة، وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنبت ذنباً في الجاهلية، فعظم في صدورهم، وأرادوا التكفير عن ذنبهم، فقرروا صيام يوم عاشوراء، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم[3]. وذكر أن رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية، ولما قدم المدينة واظب عليه وأمر الناس بصيامه حتى نزل الأمر بصيام رمضان. وقد ذكر العلماء أنه يحتمل أن قريشاً اقتدت بصيامه في الجاهلية، بشرع سالف ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه[4]. وذكر بعضهم: كان يوم عاشوراء، يوماً تصومه قريش في الجاهلية، اقتداءً بشرع سابق، وكان النبي يصومه في الجاهلية، فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية، فلما نزل رمضان، كان من

---

[1] اللسان، (صوم).
[2] سورة مريم، رقم ١٩، الآية ٢٦.
[3] بلوغ الأرب (٢/ ٢٨٨).
[4] إرشاد الساري (٣/ ٤٢١)، (باب حكم صيام عاشوراء).

شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لا يصومه. وعلوا سبب صيام (قريش) هذا اليوم، إنه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم، فصاموه شكراً[1]. وورد «إن قريشاً كانت تعظم هذا اليوم، وكانوا يكسون الكعبة فيه، وصومه من تمام تعظيمه». وذكر أن رسول الله، كان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام، وكان يصومه قبل فرض رمضان. فلما فرض رمضان، قال: من شاء صامه، ومن شاء تركه. وبقي هو يصومه تطوعاً، فقيل له: «يا رسول الله أنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال، صلى الله عليه وسلم: اذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله»[2].

وذكر أيضاً أن قريشاً كانوا اذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله وحمداً له على إجابة دعوتهم[3].

وقد أشار أهل الحديث إلى صيام (يوم عاشوراء)، فجعله بعضهم الصيام الذي كان في الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان، وذكر بعضهم إنه كان مفروضاً إلى السنة الثانية من الهجرة، ثم نسخ بصوم رمضان[4].

وقد أشير إلى الصيام في السور المكية من القرآن الكريم كما أشير إليه في السور المدنية، ويدل نزول الوحي به في مكة وفي المدينة أنه كان من الشعائر الدينية القديمة، وأن قريشاً كان لها علم به. ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع من الأكل والشرب حَسْبُ، بل كان يعني في أول عهد النبوة الامتناع عن الكلام كذلك[5].

ورواية أن قريشاً كانت تصوم في يوم (عاشوراء)، لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان. ففي هذه الروايات أن النبي «حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء، فسألهم: فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون، ونجّى موسى ومن معه منهم. فقال: نحن أحق بموسى منهم، فصام، وأمر الناس بصومه. فلما فرض صوم شهر رمضان،

---

[1] إرشاد الساري (٦/ ١٧٤)، «باب أيام الجاهلية».
[2] زاد المعاد (١/ ١٦٤ وما بعدها).
[3] إرشاد الساري (٦/ ١٧٤).
[4] رجع كتب الحديث: باب الصوم.
[5] سورة مريم، الآية ٢٦. وهي سورة مكية، رقمها ٥٨ حسب نزول السور بمكة.

لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء، ولم ينههم عنه»[1]. وورد أن يهود خيبر والمدينة كانوا يعظمون صيام عاشوراء ويتخذونه عيداً[2].

ويقصدون بصوم اليهود يوم عاشوراء، ما يقال له (يوم الكفارة)، وهو يوم صوم وانقطاع، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام، أي في يوم (١٠ تشرى) وهو يوم (الكبور) Kipur ويكون الصوم فيه من غروب الشمس إلى غروبها في اليوم التالي، وله حرمة كحرمة السبت، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء الفروض الدينية المفروضة في ذلك اليوم[3].

ومما يلاحظ أن علماء التفسير والحديث، قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في موضوع الصيام قبل نزول الأمر به وفرضه. فقال بعضهم كان المسلمون يصنعون كما تصنع من صيامهم خمسين يوماً (حتى كان من أمر أبي قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب ما كان، فأحل لهم الأكل والشرب والجماع إلى طلوع الفجر)[4]. وقال بعض آخر، كان صيام الناس قبل فرض رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وذكر أن ذلك كان تطوعاً لا فرضاً، ولم يأتِ خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الإسلام غير صوم شهر رمضان[5]. ولم أتمكن من العثور علي خبر قاطع يفيد بأن المسلمين كانوا يصومون بمكة قبل الهجرة إلى المدينة.

ولا صلة لقصة (أبي قيس بن صرمة الأنصاري) (أبو صرمة الأنصاري) و(عمر بن الخطاب) بصيام عاشوراء ولا بعدد أيام الصوم. وكل ما ورد فيها أن المسلمين كانوا في أول ما فرض عليهم في رمضان اذ أفطروا وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا، فإذا رقدوا حرم عليهم ذلك إلى مثلها من القابلة، فلم يزل المسلمون على ذلك، حتى نام (أبو قيس بن صرمة) بعد إفطاره وكان يعمل في حيطان المدينة بالأجر، فلما أفاق أبى أن يأكل شيئاً وأصبح صائماً، وكان (عمر) قد وقع على جارية له، فنزل الوحي

---

[1] الطبري (٢/ ٢٦٥)، «ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من الهجرة»، إرشاد الساري (٣/ ٤٢١).
[2] إرشاد الساري (٣/ ٤٢٣).
[3] قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٦٠).
[4] تفسير الطبري (٢/ ٧٥ ما بعدها).
[5] تفسير الطبري (٢/ ٧٦ وما بعدها).

بنسخ ذلك عنهم في آية: ﴿أحلى لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن. علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾[1]. فلا صلة لقصتيهما بموضوع الصوم.

ويظهر أنه خبر صيام قريش يوم (عاشوراء) هو خبر متأخر ولا يوجد له سند يؤيده. ولا يعقل صيام قريش فيه، وهم قوم مشركون، وصوم (عاشوراء)، هو من صيام يهود. وهو صيام كفارة واستغفار عندهم، فَلِمَ يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم؟ وماذا فعلوا من ذنب، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في (عاشوراء) ولا في غير عاشوراء. ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار، يذكرون أن الرسول صام (عاشوراء) مقدمه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل، وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان. ويظهر أن الرواة أقحموا اسم قريش في صيام (عاشوراء)، لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة، التي ترجع إلى ما قبل الإسلام وأن قريشاً، كانت تصوم قبل الإسلام[2].

ويظهر من روايات أهل الأخبار، أن صوم أهل الجاهلية: صوم امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء. وهو صوم الإسلام، وصوم امتناع عن الكلام وحبس للسان، إما لأمد معين قصير، مثل يوم أو أسبوع، وإما لأمد طويل. وقد أشير في القرآن الكريم إن هذا الصوم في قوله تعالى: ﴿فقولي إني نذرت للرحمن صوماً، فلن أكلّم اليوم أنسياً﴾[3]. وروي أن رجالاً من زهاد أهل الجاهلية كانوا يصومون هذا الصوم.

وقد اتخذ الصوم نذراً، روي أن (أبا بكر) دخل على امرأة من (أحمس) يُقال لها (زينب)، فرآها لا تتكلم، فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مُصمتة، قال لها: تكلمي. فإن هذا لا يحل. هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت

---

[1] البقرة، الآية ١٨٧، تفسير الطبري (٢/ ٩٤ وما بعدها).

[2] Sprenger, Leben, III, S. 54.

[3] سورة مريم، الرقم ١٩، الآية ٢٦، تفسير الطبري (١٦/ ٥٦)، روح المعاني (١٦/ ٧٩).

فقالت له: من أنت: قال امرؤ من المهاجرين. قالت: أي المهاجرين؟ قال لها: من قريش. قالت له: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسؤول. أنا أبو بكر. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم. قالت: وما الأئمة قال لها: كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى. قال: فهم أولئك على الناس[١].

فالتصميت، وهو الصوم عن الكلام، من فعل أهل الجاهلية. وهو معروف عندهم، ولعله وقع لهم بتأثرهم بأهل الكتاب.

التحنث:

ومن طرق عبادة أهل الجاهلية: التحنث، أي التعبد والتقرب الى الآلهة، ومن ذلك حديث (حكيم بن حزام): «أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة، أي أتقرب إلى الله تعالى بأفعال في الجاهلية»[٢]. وكان رسول الله «يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان مما تحنّث به قريش في الجاهلية. والتحنث: التبرر». «فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به ـــ اذا انصرف من جواره ـــ الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً»، ثم يرجع إلى بيته. وذكر أن ذلك الشهر هو شهر رمضان[٣].

الاختتان:

ومن شعائر الدين عند الجاهلين الاختتان. وهو من الشعائر الفاشية بينهم،

---

[1] إرشاد الساري (٦/ ١٧٥ وما بعدها)، (إنها مصمتة، إنها نذرت أنْ لا تتكلم. فقال: تكلمي إنما هذا من فعل الجاهلية)، الإصابة (٤/ ٣١٥ وما بعدها)، (رقم ٥١٣، ٥١٥)، اللسان (٢/ ٥٥).
[2] تاج العروس (١/ ٦١٦)، (حنث).
[3] الطبري (٢/ ٣٠٠).

حتى انهم كانوا يعيرون (الأغرل)، وهو الشخص الذي لم يختتن. وكان منهم ولا سيما أهل مكة من يختن البنات أيضاً، بقطع (بظورهن). وتقوم بذلك (الختانة) (الخاتنة). وقد كانوا يعيرون من تكون أمه (ختانة) نساء، فإذا أرادوا ذم أحد قالوا له: يا ابن مقطعة البظور، وإن لم تكن أم من يقال له: خاتنة[1].

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى، فمن السنن التي أقرت في الإسلام، وقد أشير إلى غسل الميت في شعر للأفوه الأوديّ. وأشير إلى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة إلى الأعشى وإلى بعض الجاهليين[2]. وورد أن قريشاً كانت تغسل موتاها وتحنطهم، ولكننا لا نستطيع تعميم هذه الأمور على كل العرب، ولا الإدعاء بأنها كانت من شعائر الدين عندهم، لما ذكرته مراراً من اختلاف العرب بأمور دينهم، وعدم خضوعهم لدين واحد. بل ورد أن المشركين لم يكونوا يغتسلون من الجنابة، وقد ذهب المفسرون إلى أن لفظة (نجس) الواردة في الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا. وإن خفتم عيلة، فسوف يغنيكم الله من فضله﴾[3]. فانما قصد بها أجناب، «سمّاهم بذلك لأنهم يجنبون فلا يغتسلون. فقال: هم نجس ولا يقربوا المسجد الحرام، لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد»[4]. ولما نزل الأمر بمنع المشركين من دخول مكة، «شق ذلك على أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقالوا: من يأتينا بطعامنا ومن يأتينا بالمتاع؟ فنزلت»وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء». و«كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام ويتجرون فيه. فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون من أين لنا طعام؟ فأنزل الله وإن خفتم عيلة، فسوف يغنيكم الله من فضله»[5].

والقرابين والنذور وزيارات المعابد والحج، هي من أبرز الشعائر الدينية عند

---

[1] تاج العروس (٣/ ٥٢)، (بظر)، نهاية الأرب (١٧/ ١٠٠).
[2] المحبر (٣١٩ وما بعدها).
[3] سورة التوبة، الآية ٢٨.
[4] تفسير الطبري (١٠/ ٧٤).
[5] تفسير الطبري (١٠/ ٧٥).

سواد الناس. وتكاد تكوّن مفهوم الدين عندهم، وذلك لما فيها من تماس مباشر بأمور حياتهم ومصالحهم. فهم يفعلون ذلك لغايات استرضاء الآلهة والتوسل إليها بأن تعطيها غلة وافرة ومالاً، فكانوا اذا تقربوا إلى صنم أو دعوا ربهم أو أدوا مناسك حجهم (فلا يسألون ربهم) إلاّ متاع الدنيا (فمن الناس من يقول: ربنا آتنا في الدنيا. هب لنا غنماً، هب لنا إبلاً). (وكانوا يعني في الجاهلية يقفون يعني بعد قضاء مناسكهم، فيقولون: اللهم ارزقنا إبلاً، اللهم ارزقنا غنماً)، وفي هؤلاء نزلت الآية: ﴿فمن الناس من يقول: ربنا آتنا في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق﴾[1].

والفقر هو الذي حمل هؤلاء على أن يتقربوا إلى آلهتهم، بالنذور والقرابين وبالحج على فقرهم وجوعهم، على أمل أن تعطف الآلهة عليهم، فتمن عليهم بالمال واليسر والبركة والصحة، تماماً كما يفعل شراء أوراق (النصيب) أو أوراق سباق الخيل من الفقراء والمحتاجين علي أمل الربح والكسب.

وهذه النظرة المادية الساذجة، هي التي حملت عوامهم على تهديد آلهتهم وإخبارها أنهم سيمتنعون عن تقديم أي نذر أو أداء أية زيارة لها، إنْ لم تمنّ عليهم وتستجيب لأدعيتهم، فتنفذ طلباتهم وما طلبوه منها. وهي التي تحملهم بعد ذلك على التراجع عن تهديداتهم هذه، وعلى الاستغفار وإظهار الندم لها، لما بدر منهم من سوء أدب، على أمل استرضاؤها من جديد، بعد أن فشلت وسائل التهديد من تخويف تلك الآلهة.

الحلال والحرام:

يقول (ابن عساكر) في رواية تنسب إلى رجل من خثعم: «كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحلّ حراماً. وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون إليها»[2]. ومعنى هذا إنهم كانوا يحلون ويحرمون. وأن أمر الحلال والحرام إلى رجال الدين منهم، وهم سدنة الأوثان.

وقد تعرض (اليعقوبي) لموضوع (أديان العرب) وشعائرها، فقال:

---

[1] البقرة، الآية ٢٠٠، تفسير الطبري (٢/ ١٧٤ وما بعدها).
[2] التأريخ الكبير، لابن عساكر (١/ ٣١٧).

«وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل، والانتقال إلى البلدان، والانتجاعات. فكانت قريش وعامة ولد (معد) بن عدنان على بعض دين إبراهيم، يحجون البيت ويقيمون المناسك، ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم، ويعاقبون على الجرائم»[١]. فأدخل في الدين أموراً نعدها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك، وجعلها من سنة إبراهيم، أي دين العرب القديم قبل إفساده بالتعبد للأصنام.

وذكر (السكري)، أن العرب كانت «دون من سواها من الأمم. تصنع عشرة أشياء منها: في الرأس خمسة. وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب. وفي الجسد خمسة. هي: الختانه وحلق العانة ونتف الأبطين، وتقليم الأظفار والاستنجاء. خصت بهذا العرب، دون الأمم»[٢]. فهذه الأمور العشرة هي من شعائر العرب في نظر (السكري). وهي شعائر، لا يمكن أن نجاريه في رأيه، فنقول إنها كانت في جميع العرب، وإنها كانت فيهم خاصة، دون غيرهم من الأمم وفي كلام (السكري) أمور كثيرة لا يمكن التسليم بصحتها بل نجده هو يناقض نفسه في مواضع أخرى من كتابه، من ذلك قوله: «وكانوا يؤمنون بالحساب»[٣] «ولا يأكلون الميتة»[٤]، فعمم رأيه، وجعله شاملاً كل العرب، بينما هو رأي طائفة من الجاهليين، وليس جميع أهل الجاهلية. وللقرآن الكريم دليل ذلك، فقد حمل عليهم لنكرانهم البعث والحساب، وحرم على المسلمين أكل لحم الميتة. ﴿حرمت علكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾[٥]. وكانوا يأكلونها في الجاهلية.

وورد أن ممن حرم أكل الميتة على نفسه (حارثة بن أوس) الكلبي، وهو جاهلي، يقول:

لا آكل الميتة مـا عمـرت   نفسي وإن أبرح إمـلاقي
والعقد لا أنقض منه القوى   حتى يواري القبر أطباقي[٦]

---

[1] اليعقوبي (١/ ٢٢٤). (أديان العرب).
[2] المحبر (٣٢٩).
[3] المحبر (٣٢٢).
[4] المحبر (٣٢٩).
[5] المائدة، الآية رقم ٣، تفسير الطبري (٦/ ٤٤)، روح المعاني (٦/ ٥١).
[6] المحبر (٣٢٩).

الفصل الثاني والسبعون

الحج والعمرة

والحج الذهاب إلى الأماكن المقدسة في أزمنة موقوتة، للتقرب إلى الآلهة، والى صاحب ذلك الموضع المقدس. وتقابل هذه الكلمة Pilgrimage في الإنكليزية[1]. والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين.

وكلمة (حجّ) من الكلمات السامية الأصيلة العتيقة، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة إلى بني سام[2]. كما وردت في مواضع من أسفار التوراة[3]. وهي تعني قصد مكان مقدس وزيارته.

وفي روع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها، قيل لها في الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة). ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شدّ الرحال إليها، للتبرك بها وللتهرب إليها، وذلك في أوقات تحدد وتثبت، وفي أيام تعين تكون أياماً حرماً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الإنسان إلى آلهته، ولذلك تعدّ أعياداً، يعمد فيها الناس، بعد إقامتهم الشعائر الدينية المفروضة

---

[1] تفسير الطبري (٢/ ٤٤)، (البابي)، اللسان (٢/ ٢٢٦)، الإقناع (١/ ٣٣٤)، الكشاف، للزمخشري (١/ ٣٨٩ وما بعدها)، Ency. Brita., Vol., 17, p. 925, Ency. Religi., Vol., 10, p. 10.

[2] تاج العروس (٢/ ١٦ وما بعدها)، اللسان (٣/ ٤٨ وما بعدها)، Ency. Religi., 10, p. 23.

[3] Shorter Ency. of Islam, p. 123.

وبعد أدائهم القواعد المرسومة، إلى الفرح والسرور والرقص، ليدخلوا السرور إلى قلوب الأرباب. ففي الحج إذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدى، واجتماع وسرور وحبور.

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة إلى الآلهة وبتوسلات لتتقبل حج ذلك الشخص الذي قصدها تقرباً إليها. وهذا هو الشائع والمعروف عن الحج، غير أن من الجاهليين من كان يحج حجاً مصمتاً، أي دون كلام، فلا يتكلم الحاج طيلة أيام حجه. وقد كان ذلك من عمل الجاهلية[١].

وقـد ميزّ الشهر الـذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ (شهر ذي الحجة) وبـ (شهر الحج). وذلك لوقوع الحج فيه. وهذه التسمية المعروفة حتى الآن في التقويم الهجري، هي تسمية قديمة، كانت معروفة في الجاهلية، وردت في نصوص الجاهلية. فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسند اسم شهر يعرف بـ (ذ حجتن) أي (ذي الحجة)، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه. وقد وردت كلمة (حج) في نصوص المسند كذلك[٢].

وقـد ذكر (أفيفانيوس) Epiphanius أن من أسـماء الأشـهر عنـد العرب شـهراً اسمه Aggathalbaeith (حج البيت)[٣] أراد به شهر (ذي الحجة). والعرب الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب (الكورة العربية)، ومعنى هذا أن العرب الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ (ذي الحجة) كذلك[٤].

ولفظة Aggathalbaeith، هي لفظة عربية النجار حرفت على لسان (أفيفانيوس) وقومه، لتناسب منطقهم، فصارت على هذا النحو، وهي من كلمتين عربيتين في الأصل، هما (حجة البيت)، أو (حج البيت). ويكون نص (أفيفانوس) هذا من النصوص المهمة بالنسبة لنا، التي ساعدنا في الرجوع بتأريخ استعمال هذا المصطلح إلى أيامه، ولا بدّ وأن يكون ذلك المصطلح قد استعمل قبل أيام ذلك الكاتب ولا شك.

ويقع شهر الحج (ذي الحجة) ــ على رواية (أفيفانيوس) ــ في (تشرين

---

[1] إرشاد الساري (٦/ ١٧٥).
[2] D. Nielsen, Mondreligion, S. 86, Glaser, 1054, Wiener Mus., No. 7.
[3] Shorter Ency. of Islam, p. 124.
[4] Reste, S. 85, Ency. Religi., 10, p. 10.

الثاني)[1]، وأشار (بروكوبيوس) إلى أن العرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيهما ولا يهاجم بعضهم بعضاً[2]، كما أشار (فوتيوس) إلى الأشهر الحرم عند العرب[3]. والشهران اللذان أشار اليهما (بروكوبيوس)، هما شهرا ذو القعدة وذو الحجة في نظر (ونكلر)، وها يمثلان ــ في رأيه ــ (جولاي) و(أغسطس) أي تموز وآب[4].

إننـــا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقــول إن شهر (ذ حجتن) المذكور في المسند، أو Aggathalbaeith الذي ذكره (افيفانيوس)، هو شهر (ذو الحجة) الشهر المعروف الذي كان من شهور أهل مكة. فمن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة، ولا ينطبق مع شهر (ذي الحجة).

ويرى (ونكلر) أن ما ذكره (فوتيوس) من احتفال العرب مرتين في السنة بالحج إلى معبدهم المقدس: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور، وذلك لمدة شهر واحد، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمدة شهرين، إنما يراد بذلك شهر رمضان لاقتران الشمس فيه ببرج الثور. وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة[5].

ويظهر من غربلة ما أورده أهل الأخبار من روايات عن موسم الحج في الجاهلية، أن الحج إلى مكة كان في موسم ثابت، هو الربيع على رأي كثير من المستشرقين، أو الخريف على رأي (ولهوزن)[6]. وذلك بسبب ما ذكر عن النسيء ومن رغبة قريش وغيرها من أن يكون في وقت واحد، كما تحدثت عن ذلك في باب النسيء. وقد ذهب (ولهوزن) إلى أن (الشهر الحرام) المذكور في القرآن الكريم، هو (شهر الحج)، وهو الشهر الأول من السنة

---

[1] Reste, S. 100, Epiphanius, Haer., 51, 24.
[2] Procopius, II, 16.
[3] Reste, 101.
[4] Winkler AlF., II, Reihe, Ibd., S. 336.
[5] Winkler AlF., II, Reihe, Ibd., S. 336.
[6] Shorter, p. 124.

أي شهر محرم، بينما يرى المفسرون أنه رجب، أو ذو القعدة أو ذو الحجة[1]. والأصح إنه في شهر من الأشهر الحرم.

وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾[2]. وقد قال (الطبري): «اختلف أهل التأويل في قوله: الحج أشهر معلومات. فقال بعضهم: يعني بالأشهر المعلومات: شوالاً وذو القعدة، وعشراً من ذي الحجة»، «جعلهن الله سبحانه للحج، وسائر الشهور للعمرة، فلا يصلح أن يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج. والعمرة يحرم بها في كل شهر»[3]، وذكر أن الله لم يسمّ أشهر الحج في كتابه، لأنها كانت معلومة عندهم[4]، وأن المراد بذلك أنه لا يحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج، فإن من سنّة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج[5]. وبناءً على ذلك، فلا يكون المراد من الآية أن الحج يقع في كل وقت من أوقات هذه الأشهر، وانما هو في وقت معين، ولكن الإحرام للحج، أي العزم عليه يكون في أي وقت من هذه الأشهر المذكورة، وليس في الأشهر الأخرى. وذكر (المسعودي) أن أشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة[6].

ومعنى ما تقدم أن الجاهليين كانوا يتهيأون للحج من دخول شهر شوال، فيصلحون أمورهم، ويحضرون ما يحتاجون إليه من لوازم السفر، فإذا أراد أحدهم تجارة وكسباً ذهب إلى الأسواق، حتى يهل شهر ذو الحجة، وإنْ لم يرد تجارة، ذهب في أي وقت يراه مناسباً له. فبدء موسم الحج إذن والتهيؤ له يكون من شهر شوال.

ويظهر من شعر نسب الى (عوف بن الأحوص) أنه سمى شهر (ذي الحجه) (شهر بني أميّة). إذ يقول:

وإني والــذي حجت قريش ... محـــارمه ومـــا جمعت حراء
وشهر بني أميّة والهدايــا ... إذا حبست مضرجها الدمـــاء[7]

---

1 Shorter, p. 409.

2 البقرة، الآية ١٩٧.

3 تفسير الطبري (٢/ ١٠٥).

4 القرطبي، الجامع (٢/ ٤٠٥).

5 تفسير الطبرسي (الجزء الثاني) (ص ٢٩٢ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٣٥).

6 مروج (٢/ ١٨٩)، (الكشاف (١/ ٢٥٤).

7 شرح ديوان لبيد (٢١).

وقد ذهب (ولهوزن) وجماعة آخرون من المستشرقين إلى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج إليها الجاهليون في شهر (ذي الحجة) وإلى عدم حصر الحج عند الجاهلين بموضع واحد[١]. ومعنى هذا أن حج أهل الجاهلية لم يكن إلى (مكة) وحدها، بل كان الى جهات عديدة أخرى. بحيث حج كل قوم إلى (البيت) الذي قدسوه وكانوا يتقربون إليه ووضعوا أصنامهم فيه. ويتفق هذا الرأي مع ما يراه أهل الأخبار من وجود بيوت للأصنام، وكان الناس يزورونها ويتقربون إليها ويذبحون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبّون تلبية الصنم الذي يطوفون حوله.

والحج إلى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى، مثل بيت اللات في الطائف وبيت العُزى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخلصة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات، كل يذبح على قدر طاقته ومكاته، فيأكل منها في ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم في أثناء السنة لفقره، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذة ومتعة وعبادة.

ويذكر أهل الأخبار أن الحج إلى مكة كان في الجاهلية كذلك، وأن الجاهليين كانوا يحجون إلى البيت منذ يوم تأسيسه، وأنهم كانوا يقصدون مكة أفواجاً من كل مكان. وأن ملوكهم كانوا يتقربون إلى (بيت الله) بالهدايا والنذور، وان منهم من حج اليه. وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوس جميع الجاهليين.

غير أننا نجد في روايات بعض أهل الأخبار ما ينافي تعظيم كل العرب للبيت وحجّهم اليه واحترامهم للحرم وللأشهر الحرم. فقد ورد أن من العرب من (كان لا يرعى للحرم ولا للأشهر الحرام حرمه)، ومنهم (خثعم) و(طيء)[٢]، وأحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب[٣]. وورد أن ذؤبان العرب وصعاليكها

---

[1] Reste, S. 84.

[2] تاج العروس (٨/ ٢٤١)، (حرم).

[3] الجاحظ، الحيوان (٧/ ٢١٦ وما بعدها)، النجيرمي، أيمان العرب (١٢)، المحبر (٣١٩).

وأصحاب التطاول، كانوا لا يؤمنون على الحرم، ولا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدراً. وقد كانوا خطراً يهدد البيت وأهله لذلك، ألف (هاشم) بن قريش وسادات القبائل ألفة ليحمي بهم البيت. قال (الجاحظ) في تفسيره للإيلاف: «وقد فسره قوم بغير ذلك. قالوا: إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة. فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول كانوا لا يؤمنون على الحرم، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب»[1]. ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة، هم رؤساء مكة بلا شك، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة، فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذه ثم يجمعه ويعطيه إلى (المؤلفة قلوبهم) من سادات القبائل النازلين حول مكة وعلى مقربة منها، كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين تمر قوافل مكة بأرضهم في طريقها الى الشأم أو العراق أواليمن، بروابط (الإيلاف)، أي العقود التي عقدها معهم، باعطائهم جعلاً معيناً، أو حقوقاً تبين وتكتب، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع لقريش، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق. وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها، ودانت بعض القبائل بدين قريش في الأشهر الحرم، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية بينة ظاهرة: فاحترمتها، وبهذا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور إلى الأسواق.

وليست لدينا ويا للاسف أخبار مدوّنة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة إلينا، ما خلا الحج إلى (بيت الله الحرام) بمكة، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئاً من ذلك، بسبب فرض الحج في الإسلام، وإقرار الإسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج إلى مكة عند الجاهليين. ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج إلى مكة فقط. إلاّ إذا وجدت خبراً أو نصاً عن حج غير

[1] رسائل الجاحظ (٧٠)، Kister, p. 119. 143.، طبقات الشعراء، لابن سلام (٦١)، الثعالبي، المضاف والمنسوب (٨٩)، النقائض (٢/ ٦٧١)، ابن هشام (١/ ٦٠٣)، الأزمنة والأمكنة، للمرزوقي (٢/ ١٦٦)، الأغاني (٢١/ ٤٢).

أهل مكة من الجاهليين إلى مكة أو إلى بيوت أخرى فسأتكلم عنه حينئذ.

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن (حج البيت)، أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج، بل كانت تختلف باختلاف القبائل. فقد انفردت (قريش) بأمور من أمور الحج، واعتبرتها من مناسك حجها، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها (قريش) موجبة لها، ولم تعمل بها ووقفت قريش في مواقف، اعتبرتها مواقف خاصة بها. وأوجبت على من يفد إلى مكة للحح، مناسك معينة سنتحدث عنها. فلما ظهر الإسلام وحّد مناسك الحج وثبتها. وأوجب على كل مسلم اتباعها.

ويبدأ الحج في الإسلام بلبس (الاحرام) حين بلوغه (الميقات) المخصص للجهة التي جاء منها. و(ميقات) الحج موضع إحرامهم[1]. وقد عين الرسول أكثر (المواقيت) وثبتها، فجعل (ذا الحليفة) ميقاتاً لأهل (يثرب)، و(الجحفة)، ميقاتاً لأهل الشأم، و(يلملم) ميقاتاً لأهل اليمن، و(قرن المنازل) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز. وأما (ذات عرق)، فميقات أهل العراق، قيل إن الرسول ثبته، وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق. أما أهل مكة، فكانوا يحرمون من بيوتهم[2]. ويجوز أن تكون هذه المواقيت من مواقيت أهل الجاهلية كذلك، وقد ثبتها الإسلام.

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم (سوق عكاظ). فإذا انتهت أيام السوق، وأراد منهم من أراد الحج، ذهب إلى (مجنة)، فأقام بها إلى هلال ذي الحجة، ثم ارتحل عنها إلى (ذي المجاز)، ومنه إلى (عرفة)، فإذا كان يوم التروية، تزودوا بالماء وارتفعوا إلى عرفة. هذا بالنسبة إلى التجار، الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة. أما بالنسبة إلى غيرهم، فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت شاءوا، ثم يذهبون إلى (عرفة) للوقوف موقف عرفة، يقصدها (الحلة)، أما (الحمس) فيقفون بـ (نمرة)، ثم يلتقون جميعاً بمزدلفة للإفاضة[3].

---

[1] تاج العروس (١/ ٥٩٤)، (وقت).
[2] شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٩٠ وما بعدها)، (حاشية على إرشاد الساري)، إرشارد الساري (٣/ ٩٧ وما بعدها).
[3] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ١٢١ وما بعدها).

ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال. فكانوا يهلّون عند أصنامهم، ويلبون إليها، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة، فكان الأنصار مثلاً يهلون لمناة في معبده، أي إنهم كانوا يغادرون (يثرب) إلى معبد الصنم، فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة، فإذا أهلّوا لبوّا، ثم يسير من يسير منهم إلى مكة، لحج البيت[1].

والطواف بالبيوت وبالأصنام، ركن من أركان الحج، ومنسك من مناسكه. وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام، فإذا دخل أحدهم الحرم، واذا سافر أو عاد من سفر، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت. وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم، إذ كانوا يطوفون حولها، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ (مناة)[2].

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجمات، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة، ويقال لها الرجمة[3]. وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك. وذكر (نيلوس) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة[4]. وكانوا يطوفون حول القبور أيضاً: قبور السادات والأشراف من الناس.

وطافوا حول (الأنصاب)، ويسمون طوافهم بها (الدوار). فكَانوا يطوفون حول حجر ينصبونه طوافهم بالبيت، وسموّا تلك الأحجار الأنصاب[5].

وللطواف كلمة أخرى هي (الدوار) من (دار) حول موضع من المواضع، وطاف حوله الشيء، واذا عاد إلى الموضع الذي ابتدأ منه. ونجد هذا المعنى في شعر الشاعرين الجاهليين: امرئ القيس، وعنترة بن شدّاد العَبْسي[6]. وقد ذكر علماء اللغة أن (الدوار) صنم كانت العرب تنصبه، يجعلون موضعاً حوله يدورون به، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار. ومنه قول امرئ القيس:

فعَنّ لنا سِربٌ كأن نعاجه   عذارى دوار، في مُلاءٍ مذيل[7]

---

[1] صحيح مسلم (٤/ ٦٨ وما بعدها).
[2] شرح صحيح مسلم، للنووي (٨/ ٢١ وما بعدها).
[3] تاج العروس (٣/ ٤٢٢ وما بعدها)، «عمر» اللسان (٦/ ٢٨٢).
[4] Reste, S. 108.
[5] الأصنام (٣٣، ٤٢).
[6] اللسان (٤/ ٢٩٦ وما بعدها)، Shorter Ency. of Islam, p. 585.
[7] اللسان (٤/ ٢٩٧ وما بعدها).

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة. وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبهاً بالكعبة[١].

وتلعب عبادة الحجر دوراً بارزاً في (الدوار). فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار، ثم يطوفون حولها، يتخذون الدوار عبادة لهم. وقد تكون الأحجار أصناماً، وقد تكون حجارة تنتقى فيطاف حولها. و«عن أبي رجاء العطاردي، قال: لما بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب، فلحقنا بالنار، وكنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه، ألقينا ذلك وأخذناه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب. ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به. وكنا اذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسنة، فلا ندع سهماً فيه حديدة، ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها»[٢].

ويلاحظ أن الجاهليين كانوا يقيمون وزناً للحليب في أمور العبادة، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام، كما رأينا في باب الأصنام، وفي القصة المتقدمة. ويلاحظ أن الرواية قد خصصت حليب الغنم، ولم تشر إلى حليب الإبل، أو حليب أية ماشية أخرى، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين (الدوار) وأن له علاقة بالأساطير، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع.

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب إلى الآلهة. يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة، وليس له وقت معلوم. ولا يخص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم، أو كعبة أو ضريح، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً: كما يطوفون حول الذبائح المقدمة الى الآلهة. فالطواف، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين.

وكانوا يطوفون بالبيت في نعالهم، لا يطأون أرض المسجد تعظيماً له[٣]. إلاّ أن يكون الحاج فقيراً حافياً، فقد كان منهم من لا يملك نعالاً ولا خفاً

---

1 تاج العروس (٣/ ٢١٦)، (دار).
2 زاد المعاد (٣/ ٣٢) (فصل في قدوم وفد بني حنيفة)، إرشاد الساري (٦/ ٤٣٥)، (باب وفد بني حنيفة).
3 اليعقوبي (٢٢٦/١)، (أديان العرب).

ولا سائر ما يلبس بالرجل لفقره. وذكر أن رسول الله قال: «من لم يجد نعلين، فليلبس خفين»[١]. وقد ذكر (السكري)، أن (الحمس) كانوا «لا يطوفون بالبيت إلاّ في حذائهم وثيابهم، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته»[٢]. وذكر أن (الحلة) كانوا على العكس منهم. «فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم»[٣].

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم، لا يتأثمون من ذلك. وذكر أن (الوليد بن المغيرة) كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة، تعظيماً لها، فخلع الناس نعالهم[٤].

وعدّة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط، ولا أستبعد أن يكون هذا العدد. ثابتاً بالنسبة إلى الطواف حول البيوت الأخرى أو حول الرجمات والأنصاب والقبور أيضاً. فقد كان الطواف سبعة أشواط مقرراً عند غير العرب أيضاً، وقد ذكر في (التوراة)، اذ كان العبرانيون يمارسونه[٥]. والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة. ولهذا أرى أن غير قريش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضاً حول محجّاتهم في ذاك الوقت.

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيد إنسان آخر، بحبل أو بسير، أو بزمام أو منديل، أو خيط أو أي شيء آخر، يفعلونه نذراً، أو حتى لا يفترقا. وقد نهى عن ذلك في الإسلام. فقد روي أن الرسول رأي أحدهما وقد فعل ذلك، فقطع بيده ذلك الرباط[٦].

---

1 صحيح مسلم (٤/ ٢ وما بعدها)، (كتاب الحج)، إرشاد الساري (٣/ ٣١٣ وما بعدها)، (باب لبس الخفين للمحرم إذا لم يجد النعلين).

2 المحبر (١٨٠).

3 المحبر (١٨٠ وما بعدها).

4 ابن رستة، الأعلاق (١٩١).

5 Shorter Ency. of Islam, p. 585.

6 صحيح البخاري (٢/ ١٧٩)، إرشاد الساري (٣/ ١٧٣ وما بعدها)، (باب الكلام في الطواف).

الحمس والطلس والحلة:

والأخباريون يذكرون أن الطائفين بالبيت كانوا على صنفين: صنف يطوف عرياناً، وصنف يطوف في ثيابه. ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً بـ (الحلة). أما الذين يطوف بثيابهم، فيعرفون بـ (الحمس)[١]. وأضاف بعض أهل الأخبار إلى هذين الصنفين، صنفاً ثالثاً قالوا له: (الطلس)[٢].

وقبائل الحلة من العرب: تميم بن مرّ كلّها غير يربوع، ومازن، وضبة، وحميس، وظاعنة، والغوث بن مر، وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً وعدوان، وعامر بن صعصعة، وربيعة بن نزار كلها. وقضاعة كلها ما خلا علافاً وجناباً. والأنصار وخثعم، وبجيلة، وبكر بن عبد مناة بن كنانة، وهذيل بن مدركة، وأسد وطيء، وبارق. وقد ذكر هذه الأسماء (محمد بن حبيب)[٣]. وذكرها (اليعقوبي) على هذا النحو: تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد[٤].

وهم يذكرون أن (الحلِة) هم ما عدا الحمس وأنهم كانوا يطوفون عراةً إن لم يجدوا ثياب أحمس، وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها[٥]. ويذكَرون أنهم كانوا يقولون: «لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب»، «ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها»، «ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها»، وذكر أنهم «كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فيلقونها عنهم، ويسمون ذلك الثوب اللقي»[٦]. وفي رواية أن من يطوف

---

[1] تفسير الطبري (٢/ ١٧٠)، البخاري، (كتاب الحج، الباب ٩١)، (كتاب التفسير، الباب ٣٥)، البلدان (٤/ ٦٢٠ وما بعدها)، الأزرقي (١/ ١١٣)، اليعقوبي (١/ ٢٢٦)، (النجف ١٩٦٤م)، المحبر (١٧٨)، ابن هشام (١/ ٢١٢)، الكشاف (١/ ٢٥٦)، شرح حماسة أبي تمام للتبريزي (١/ ٧)، شرح المفضليات، للأنباري (٢٥٩)، ابن رشيق، العمدة (١٨٨/٢)، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان (١٨).

[2] المحبر (١٧٨ وما بعدها).

[3] المحبر (١٧٩).

[4] اليعقوبي (١/ ٢٢٦)، (النجف ١٩٦٤م).

[5] الروض الأنف (١/ ١٣٣).

[6] الأزرقي (١/ ١١٧)، اللسان (٢٠/ ١٢٢)، الكشاف (٢/ ٦٠).

من (الحلة) بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه[١]. فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتم عليهم، لايجوز مخالفته، وإلاّ تعرض المخالف للعقاب.

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً اذا كَنّ من الحلة، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة[٢]. وقيل تضع إحداهن ثيابها كلها إلاّ درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه[٣]. وقبل كانت تقف على باب المسجد، فتقول: من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً؟ من يعيرني تطوافاً؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به، وإلاّ طافت عريانة كما يطوف الرجال على حد زعم الروايات. لا يستر عورتها لباس أو قماش، بل كانت تضع إحدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو. وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة، قيل هي: ضباعة بنت عامر بن صعصعة، طافت بالبيت عريانة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله[٤]

وشاعت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس، فذكرت أن بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستتر بها[٥]، وذكرت روايات أخرى أنهن كن يطفن ليلاً، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال، لأن طواف الرجال في النهار[٦].

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت: «يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعاً، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس، فيأخذها فيلبسها ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك

---

[1] الكشاف (٢/ ٦٠)، الأزرقي (١/ ١١٢ وما بعدها).
[2] صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢).
[3] سيرة ابن هشام (١/ ١٣٣) «حاشية على الروض».
[4] الأزرقي (١/ ١١٥، ١١٧)، اللسان (١١/ ١٢٩)، «طوف» الروض (١/ ١٣٣)، صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢)، تفسير الطبري (٨/ ١١٨)، تفسير القرطبي، الجامع (٧/ ١٨٩).
[5] الأزرقي (١/ ١١٧).
[6] الأزرقي (١/ ١١٧)، الطبرسي (٣/ ٤١٤).

عرياناً»[1]. هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الإسلام على رواية أهل الأخبار.

وجاء في بعض الروايات: «كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلاّ الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عراة، إلاّ أن تعطيهم الحمس ثياباً، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء»، «فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً ولا يسارٌ يستأجر به، كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عرياناً، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه، فلم يمسه أحد. وكان ذلك الثوب يسمّى اللقى»[2]. وجاء أيضاً أن (الحمس) كانوا «يقولون نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلاّ في ثيابنا، ولا يأكل اذا دخل أرضنا إلاّ من طعامنا»[3].

وورد أنهم «كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون»[4].

ويذكر بعض أهل الأخبار أن طواف الطائف عرياناً إنما يكون للمرة الأولى، فإذا عاد فطاف بعد ذلك: لبس ملابسه، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقيها خارج حدود الحرم.

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العري، هو رغبة الطائف حول البيت أن يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران. واعتقاده ان طوافه بملابسه طواف غير صحيح، لأن ملابسه شاركته في آثامه، فهي ملوثة نجسة، ولذلك هاب من لبسها، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها، ولبس ملابس أخرى جديدة[5].

ويذكر الأخباريون أن تلك الملابس التي يلقيها المحرم تبقى في مكانها، لا يمسها أحد، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح. ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف (اللقي). وقد أشير إليها في شعر

---

1 الأزرقي (١/ ١١٤).
2 تفسير القرطبي (٧/ ١٨٩).
3 المصدر نفسه.
4 تفسير النيسابوري (٩/ ١٥٧)، «حاشية على تفسير الطبري»، تفسير الطبري (٩/ ١٥٧ وما بعدها).
5 الأزرقي (١/ ١١٧)، اللسان (٢٠/ ١٢٢)، الكشاف (٢/ ٦٠).

لـ(ورقة بن نوفل)[١]. ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبث بها إلى أن تتمزق وتهرى[٢].

ولكننا نجد الأخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكروه من (اللقي). إذ يقولون: كان الحلة اذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة، خرجوا إلى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد، فلبسوها، فإذا أرادوا الطواف مرة أخرى طافوا بملابسهم[٣]. فهم يقرون في هذه الرواية طواف العرى، ولكنهم ينكرون ترك (اللقى) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبث بها الأهوية والأتربة، ويجعلون أصحابها يعودون إليها فيلبسونها تارة أخرى.

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر أن أحداً من الحلة اذا لم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقى يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار[٤].

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أن (الحلة) كانوا اذا دخلوا مكة «تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم. فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراةً. وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه. فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً. وانما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلاّ اللحم. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حرمى عياض بن حمار المجاشعي: كان اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله»[٥].

---

[1] كفى حزنـاً كرِّي عليه، كأنـه   لقي بين أيـدي الطـائفين حريـم
الأزرقي (١/ ١١٢، ١١٤)، اللسان (٢٠/ ١٢٢)، النهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٩)، تفسير القرطبي، الجامع (٧/ ١٨٩).

[2] Robertson Smith, p. 751.

[3] الأزرقي (١/ ١١٤).
[4] الأزرقي (١/ ١١٤).
[5] المحبر (ص ١٨٠ وما بعدها).

فالذي يطوف بالبيت عرياناً، هو ضعيف (الحلة)، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحمسي، وممن لا صاحب له من الحمس، يعطيه ثياباً ليلبسها. أما المتمكن من (الحلة)، ومن له صديق من الحمس، فلا يطوف عرياناً وانما يطوف بثياب أحمسي.

ويرى (روبرتسن سمث) أن الذي أوحى إلى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة اذا أحرم فيها، اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (تابو) Tabu عند الأقوام البدائية، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين[1].

وقد منع الإسلام طواف (العريّ) في أي وقت كان، وحتم على الجميع قريش وغيرهم لبس (الإحرام)[2]. وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿واذا فعلوا فاحشة، قالوا وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها. قلْ: إن الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾[3]. إن هذه الآية نزلت في حق المتعرين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة، «فإذا قيل لهم: لم تفعلون ذلك قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها»، «فنحن نفعل مثلَ ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم ونستن بسنتهم. والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه»[4]. فنحن إذن أمام سنة جاهلية قديمة، ترجع طواف العري إلى أمر سابق وشريعة سابقة.

وأما (الحمس)، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة. ولهم على الحلة ميزة أخرى، هي إنهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (غرة): يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة، ويفيضون منه إلى المزدلفة[5]. ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل. وحجتهم أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل

---

[1] R. Smith, p. 751.

[2] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ١١١).

[3] الأعراف، الرقم ٢٧، الآية ٢٨.

[4] تفسير الطبري (٨/ ١١٤)، تفسير القرطبي، الجامع (٧/ ١٨٧).

[5] الأزرقي (١/ ١١٦ وما بعدها) (٢/ ١٥٨ وما بعدها)، النهاية (١/ ٢٣٣)، شرح النووي، (٨/ ١٨٠ وما بعدها)، Ency., II, p. 335.

سائر الناس. ويقولون: «نحن أهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف»[1].

وتفسير كلمة (الحمس) في رأي علماء اللغة التشدد في الدين، سُمّوا حمساً، لأنهم كانوا يتشددون في دينهم، فكانوا اذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه أن كل من ولدت له، فهو أحمسي على دينهم. وكانوا اذا أحرموا لا يأتقطون الاقط، ولا يأكلون السمن ولا يسلؤونه ولا يمخضون اللبن، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه، وانما يستظلون بالأدم، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم. وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم. وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الإسلام، فإنْ كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه. وكانوا يقولون: لا تعظموا شيئاً من الحل، ولا تجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة: يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة، ويفيضون منه إلى المزدلفة. فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا. وكانوا يقولون: نحن أهل الحرم، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس. وكانوا اذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم، تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح، ثم ينزلون في حجرتهم، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب[2]. فهم يحرمون إذن اشياء لم تكن العرب تحرمها[3].

---

[1] ابن هشام (١/ ١٣٢) «هامش على الروض».
[2] الأزرقي (١/ ١١٦ وما بعدها)، النهاية (١/ ٢٣٣، ٢٩٣)، الاشتقاق (١٥٣)، ابن هشام (١/١١٢)، الكامل، لابن الأثير (١/ ٣٩١)، الطبرسي (٣/ ٤١١).
Caetani, Annali, I, S. 121, Ency., II, p. 335, Snouk Hurgrounie, Het Mekkaanische Feest, p. 21, 77m 111, 130.
[3] المعاني (٢/٩٩٨).

والحمس: قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية[1]. تضاف إليهم خزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأزد شنوءة وجذم زبيد وبنوا ذكوان من بني سُليم وعمرو اللات وثقيف وغطفان والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي[2]. وهم: قريش وكنانة وجديلة قيس، وفهم، وعدوان، وثقيف، وعامر بن صعصعة على رواية أخرى[3]. وقد ذكر (ابن سعد)، أن الحمس هم: قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب. أو حليف قريش. وذكر بعض الرواة أنهم قريش وعامر بن صعصة، والحارث بن كعب[4]. وذكرهم بعض آخر على هذا النحو: قريش، وكنانة، وخزاعة، وثقيف، خثعم، وعامر بن صعصعة، ونصر بن معاوية. وأضاف (القرطبي) جشماً إليهم[5]. وورد أن «الحمس لقب قريش ومن ولدت قريش، وكنانة وجديلة قيس. وهم: فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان، وبنو عامر بن صعصعة، ومن تابعهم في الجاهلية. هؤلاء الحمس. وإنما سمّوا لتحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه، وكذا في الشجاعة فلا يطاقون، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة»[6].

وأورد (ابن حبيب) أسماء من العرب، فقال: «قبائل الحمس من العرب: قريش كلها. وخزاعة لنزولها مكة، ومجاورتها قريشاً. وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب.

فمن ولدت قريش: كلاب، وكعب، وعامر، وكلاب بنو ربية بن عامر بن صعصعة. وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر. وإياها عنى لبيد بن ربيعة بقوله:

سقى قومي بني مجد وأسقى   نميراً والقبـــائل من هلال

---

[1] النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٩٣)، تاج العروس (٤/ ١٣٢ وما بعدها)، (حمس)، اللسان (٧/ ٢٥٧ وما بعدها)، (حمس)، إرشاد الساري (٣/ ٢٠٠)، البلخي، البدء والتأريخ (٤/ ٣٢ وما بعدها).

[2] البلدان، (مكة)، Kister, p. 138.

[3] الطبقات (١/ ٧٢)، (صادر).

[4] ابن هشام (١/ ٢١٢)، ابن قتيبة، المعارف (٢٦٩)، المعاني (٩٨٩)، المرزوقي، شرح الحماسة (٣١)، Kister, p. 132.

[5] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٤٥)، أبو حيان، البحر المحيط (٢/ ٦٣)، Kister, p. 132.

[6] تاج العروس (٤/ ١٣٢)، (حمس).

والحارث بن عبد مناة بن كنانة. ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة، بنزولهم حول مكة. وعامر بن عبد مناة بن كنانة. ومالك، وملكان، ابنا كنانة، وثقيف، وعدوان، ويربوع بن حنظلة. ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم. وأمهما جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر. ويقال: إن بني عامر كلهم حمس لتحمس إخوتهم من بني ربيعة بن عامر. وعلاف، وهو ربّان بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وجناب بن هبل بن عبد الله من كلب. وأمه آمنة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة. وأمها مجد بنت تيم الأدرم بن غالب ابن فهر»[1].

ويتبين مما تقدم أن (الحمس)، لم يكونوا قريشاً وحدهم وسكان الحرم، وأنهم لم يكونوا جماعة قامت وظهرت على رابطة الدم والنسب، كما هو الحال بالنسبة إلى القبيلة. بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة، وطوائف من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها، وسارت على نهجها في الحج، وشاطرتها الرأي في دينها. وقد ذكر (الجاحظ) أن (عامر بن صعصعة)، و(خزاعة) و(ثقيفاً)، والحارث بن كعب، كانوا ديّانين، أي على رأي ودين[2]. وكانوا على دين قريش. وقال غيره: «وصارت بنو عامر من الحمس وليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية. وهي مجد بنت تيم بن مرة. وخزاعة إنما سميت خزاعة، لأنهم كانوا من سكان الحرم فخزعوا عنه، أي خرجوا. ويقال إنهم من قريش انتقلوا ببنيهم إلى اليمن. وهم من الحمس»[3].

وقد ميزّ بعض العلماء بين (الحمس) وهم نزلاء الحرم، وبين المتحمسين الذين دخلوا في الحمس، لأن أمهاتهم من قريش، بأن أطلقوا عليهم لفظة (الأحامس). فقالوا: «والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش»[4].

وجاء في بعض الأخبار أن (غطفان)، لما اتخذت لها بيتاً أرادت به مضاهاة الكعبة، وجعلت له حرماً كحرم مكة. أغار (زهير بن جناب الكلبي) عليه

---

[1] المحبر (١٧٨ وما بعدها)، ابن دريد، الاشتقاق (٥٤٠)، ابن عبد البر، أنباء (٨٧)، المفضليات، شرح الأنباري (٢٥٩).

[2] Kister, p. 136.

[3] تاج العروس (٤/ ١٣٢)، (حمس).

[4] تاج العروس (٤/ ١٣٣)، (حمس).

وهدمه[1]. وكان زهير من الحمس.

وقد وصف (ابن سعد) (التحمس) بقوله: «والتحمس أشياء أحدثوها في دينهم تحمسوا فيها، أي شددوا على أنفسهم فيها، فكانوا لا يخرجون من الحرم اذا حجّوا، فقصروا عن بلوغ الحق، والذي شرع الله، تبارك وتعالى، لإبراهيم وهو موقف عرفة، وهو من الحل، وكانوا لا يسلؤون السمن ولا ينسجون مظال الشعر، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم، وشرعوا لمن قدم من الحاج أن يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا إلى عرفة، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إِلاّ عراة أو في ثوب أحمسيّ، وإن طاف في ثوبه لم يحلّ له أن يلبسهما»[2].

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لها صلة بالتحمس، وقد تفسر لنا معنى التحميس بسبب شموله أناساً هم من غير قريش.

ذكر أن الإسلام لما ظهر، لم تكن هنالك أية امرأة قرشية، كانت مسبية عند غير قريش. ولم تكن هنالك أية امرأة مسبيّة فيِ أي سبي القبائل وأمها من قريش. ويذكر أيضاً أن قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل حتى تشترط عليهم أن من تلد منهن، فيكون من يلدن من الحمس. أما هم، فكانوا اذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى، فإنهم لم يشترطوا على أنفسهم أي شرط، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب، (وكانوا ديّانين). وكانوا على دين قريش في أمورها. وكانت قريش كريمة، ولم ترضَ بالغارات والغزو ولا بالظلم ولم تقبل بالوأد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء. وكان من فضائلهم إن منّ الله عليهم بالإيلاف. فأغناهم وجعلهم (لقاحاً). فلم يخضعوا لمالك ولم يستعبدهم سلطان أجنبي[3]. ولم يدفعوا أي شيء عنهم لملك من الملوك. بل كانت الملوك تأتي إلى مكة وتعظم البيت وتحترم سكانه. وهم قريش الحمس[4].

---

[1] الأغاني (١٢/ ١٢١)، (٢١/ ٦٣).
[2] ابن سعد، الطبقات (١/ ٧٢)، (صادر).
[3] أخذت هذه الملاحظات من (كستر) (Kister)، لعدم وجود مخطوط الجاحظ التي نقل منها عندي. وهي: مختارات فصول الجاحظ، الموجودة في المتحف البريطاني برقم ٣١٨٣.
[4] ابن الفقيه، كتاب البلدان (١٨).

ويظهر من ملاحظات الجاحظ المذكورة، أن من أهم مبادىء الحمس، نبذ الغارات، أي الغزو، حتى جعلته قريش ركناً من أركان دينها. كما تمسكت بركن آخر، هو عدم الدخول بمن يقع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما اذا أغارت قبيلة عليهم، واعتدت عليهم، فانتصرت قريش عليها، وأخذت منها سبايا. اما الحمس الآخرون، مثل عامر بن صعصعة وثقيف والحارث بن كعب، وأمثالهم ممن تحمسوا، فلم يتمسكوا بهذه الأصول. وذكر (ابن الفقيه) أن القبائل المذكورة لم تكن في الأصل حمساً على دين قريش، وانما تحمست وصارت من الحمس بتأثير قريش عليها[١]. وقريش تمسكوا وحدهم بالحمس، (وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[٢]. وقد عرفت مكة بـ (دار الحمس)، كما جاء ذلك في شعر ينسب إلى (الكاهن اللهبي)[٣]. وعرفت قريش بـ (أهل الله)[٤].

ونجد بين (الحمس) والحرم صلة متينة، تشير إلى الأصل الديني للحمس وإلى ارتباطهم بالكعبة. فذهب (الزمخشري) إلى أن (حمس) من (حرم)[٥]. ومن دلائل هذه الصلة أيضاً مما ورد في كتب أهل الأخبار من أن الكعبة كانت قد عرفت بـ (الحمساء). سميت بذلك (لأن حجرها أبيض إلى السواد)[٦]. ومن أن (الحمس) هم نزلاء الحرم[٧]. فبين الحمس والحرم، صلة متينة إذن. حتى قيل إن المنسوب الى الحرم من الناس (حرمي)[٨]. و«ان عياض بن حمار المجاشعي، كان حرمي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان اذا حج طاف في ثيابه. وكان أشراف العرب الذين يتحمسون على دينهم، أي يتشددون اذا حج أحدهم لم يأكل إلاّ طعام رجل من الحرم: ولم يطف إلاّ في ثيابه.

---

[1] Kister, p. 137.

[2] الثعالبي، ثمار القلوب (٨)، (أهل الله)، Kister, p. 137.

[3] الروض الأنف (١/ ١١٨)، ابن دريد، الاشتقاق (٤٩١)، Wellhausen, Reste, S. 134, Kister, p. 138.

[4] Kister, p. 139.

[5] الزمخشري، الفائق، (حمس)، Kister, p. 138.

[6] تاج العروس (٤/ ١٣٢)، (حمس).

[7] تاج العروس (٤/ ١٣٢)، (حمس).

[8] بالكسر.

فكان لكل رجل من أشرافهم رجل من قريش. فيكون كل واحد منهما حرمي صاحبه»[١]. ويفسر لنا هذا المعنى أيضاً قولهم: «رجل حرام: داخل في الحرم»، و«الحرم بالكسر الرجل المحرم. يُقال: أنت حل وأنت حرم»[٢]. وقد أنجب الزواج المشروط بين قريش وبين من يتزوج منها حمساً جدداً، انتقل الحمس اليهم عن طريق (شرط عقد الزواج) من جهة الأمهات. أمها نسل هؤلاء الحمس الجدد، الذين هم فيِ الواقع أنصاف أحماس، فقد صار حمساً مثل قريش، لأنهم ولدوا من والد حسب من الحمس ومن والدة أحمسية. وبذلك لم يعد الحمس أهل مكة وحدهم، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكّيات فأنجين ولداً، عدّوا حمساً بشرط العقد.

وتذكر بعض الروايات أن عقيدة (الحمس) لم تكن قديمة، بل ظهرت قبيل الإسلام. قال ابن اسحاق: كانت قريش لا أدري قبل الفيل أو بعده، ابتدعت أمر الحمس رأياً. فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج، إلاّ إنهم قالوا: نحن أهل الحرم، ونحن الحمس. والحمس أهل الحرم. قالوا: ولا ينبغي للحمس أن يتأقطوا الأقط ولا يسلؤوا السمن، وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلاّ في بيوت الأدم ما كانوا حرماً، ثم قالوا: لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عمّاراً، ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس»[٣]. ولم تذكر هذه الرواية سبب ظهورها، ولا من أوجدها من رجال قريش.

ويتبين من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن الحمس، أن الحمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل، ثم من دان بدينهم. وجدوا أنفسهم في ضنك شديد، في وادٍ غير ذي زرع، لا شيء عندهم غير (البيت)، فتحمسوا في دينهم وتشددوا وتعاونوا فيما بينهم على العمل معاً، وعلى الدعوة إلى عبادة رب البيت واقراء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم، وعن التحرش بأحد، إلاّ اذا تحرش بهم، وعلى إغاثة الملهوف ومساعدة من يأت البيت حاجاً أو معتمراً أو قاصداً

---

[1] تاج العروس (٨/ ٢٤٣)، (حرم).
[2] تاج العروس (٨/ ٢٤٣)، (حرم).
[3] إرشاد الساري (٣/ ٢٠٠).

تجارة، وتقديم الرفادة له. ونصرة الغريب. وحافظوا على الحرمات: حرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرم، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وفي غيره، تشعر أنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم كانهم (جنس)، فضله الله على بقية أجناس العرب، لهم مناسكهم، ولبقية العرب مناسكهم، ولهم قباب خاصة يضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم عن سائر من يفد إلى هذه المواضع، وترفّعوا عن مصاهرة سائر الناس إلاّ اذا وجدوا أنهم أكفاء لهم، والكفاءة: القوة والمال. وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية. اقتصادية (صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[1]. شعارهم إنهم (أهل الله)[2]، دينهم «التحمس والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال، فلما زهدوا في الغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة: فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم، والنجاشي بالحبشة، والمقوقس بمصر، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء»[3]. وكان أن تفردوا بالإيلاف، وللإيلاف ارتباط بالحمس، وتوجهوا إلى التجارة والاتجار، وجمعوا بين الدين والمال، وأفسحوا المجال لمن به نشاط وهمة أن يجمع مالاً وأن يكون غنياً على أن يساهم بنصيبه في تحمّل أعباء مجتمعهم، للدفاع عن (بيت الله) ولكسب المتحالفين معهم وتوزيع العدل فيما بينهم، توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيما بين الغني والفقير، حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء كرهاً وقسراً. وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم، فحثوا على رفع الظلم، واتخذوا السقاية والرفادة، وعقدوا (حلف الفضول) للدفاع عن المحتاج، وجعلوا (الإيلاف) الذي سأتكلم عنه في الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية، سبباً من أسباب إشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية: (أم القرى)، وفي ذلك يقول (مطرود بن كعب الخزاعي) في رثائه عبد المطلب:

---

1 الثعالبي، ثمار القلوب (١٨)، (أهل الله)، (ص ١١)، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).
2 ثمار (١٠).
3 ثمار (١٠ وما بعدها)، سيرة ابن دحلان (١/ ١٤٠)، (حاشية على السيرة الحلبية).

يا أيهـــا الرجل المحول رحله ألا نزلـــت بآل عبـــد منـــافِ
هبلتـــك أمك لو نزلـــت عليهم ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخـــذون العهد مـــن آفـــاقها والراحلـــون لرحلة الإيـــلاف
والمطعمون إذا الرياح تناوحت ورجال مكة مسنتون عجـــاف
والمفضلون اذا المحول ترَادفَت والقـــائلون هلـــمّ للأضيـــاف
والخـــالطون غنيهم بفقيـــرهم حتى يكون فقيـــرهم كالكافي
كانت قـــريش بيضة فتفلقـــت فالمحّ خـــالصة لعبد منـــافِ[1]

قام رجال من رجال مكة بالانفاق على المحتاجين، فعدّوا ذلك ديناً ومروءة وشهامة. فكان (نعيم بن عبد الله) العدوي، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم[2]. وكان (حكيم بن حزام) ينفق من أُرباحه على المحتاجن من آله وذويه[3]. وكان صديق النبي قبل المبعث[4]، وتذكر كتب السير والتراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجن، اعتبروها منقبة وقربة لهم في الجاهلية، وقد أقرهم الرسول عليها.

فالحمس (أهل الله)، وأمته، تجمعهم عبادة الله والأصنام، والمناسك والشعائر التي وضعوها لهم، والتجارة التي جعلوها مثل شعائر دينهم، ينفقون من أرباحهم منها في سبيل (الله). أي بيت الله وأهله المستضعفون، حتى جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. فمجتمعهم مجتمع جمع بين الدين والتجارة، وبين الدين والمال. حثهم على التعاون بخلط رؤوس أموالهم والاتجار معاً بقوافل، وفيه ربح كبير مضمون، وحثهم على إنصاف من ليس له شيء حتى يصير

[1] أخذت هذه الأبيات من أمالي المرتضى (٢/ ٢٦٨)، وتختلف بعض الاختلاف عن أمالي القالي (١/ ٢٤١ وما بعدها)، التي فيها:
منهـــم علي والنبي محمـــد القـــائلان هلـــم للأضيـــاف
وعن سيرة ابن هشام (١/ ١١٧)، (حاشية على الروض الأنف)، وعن معجم الشعراء (٣٧٥)، وشرح ابن أبي الحديد (٣/ ٤٥٣)، والعيني (٤/ ١٤٠)، البكري، سمط (٥٤٧ وما بعدها)، وعن تفسير الطبرسي (ج٣٠ ص ٥٤٥)، (طبعة طهران)، تفسير سورة لإيلاف قريش، عن ابن العربي، محاضرات الأبرار (٢/ ١١٩).
[2] الإصابة (٢/ ٥٢٧)، (رقم ٨٧٧٨).
[3] نسب قريش (١/ ٣٦٧)، (رقم ٦٤٤)، Kister, p. 125.
[4] الإصابة (١/ ٣٤٨ وما بعدها)، (رقم ١٨٠٠).

مكتفياً غير محتاج، لا يوجه عينه نحو غيره حسداً وحقداً. شعار هذا المجتمع الله والأصنام والحج والتجارة، مجتمع لم يكن يخلو بالطبع من أحامس بخلاء، شذوا عن الطريق، واغتصبوا أموال الفقراء، كما هو الحال في كل مجتمع بشري.

وقد اقتصرت (قريش)، وهم من الحمس، على استعمال القباب المصنوعة من الأدم لا يضربها غيرها بـ (منى)[1]. لأنهم (كانوا لا ينسجون مظال الشعر، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم)[2]. وقد استعمل الرسول في حجه هذا النوع من القباب[3]. ولا بدّ أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع، سبب ما، الأرجح إنه عامل ديني واجتماعي[4]. ويلاحظ أنه كان للقباب الحمر ذكر خطير، وجاه عظيم في نظر الجاهليين، فكان أصحابها يفتخرون على غيرهم بأنهم (أهل القباب الحمر)[5]، وقد كان الملوك والسادة يضربون لأنفسهم القباب الحمر. فهي من إمارات الجاه والمكانة والنفوذ.

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة (حمس) و(حمس) أن هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلاً عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى الى الجاهلية المتصلة بالإسلام. ففي الأسماء الواردة إلينا: (أحمس الله)، و(بنو أحمس)، و(أبو أحمس)، و(الأحامس)[6]؛ ما يفيد أن الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب إليه أهل الأخبار، وأن للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً، هو التشدد في الدين والتمسك به، وبعبادة الصنم، والمحافظة على سنّة الآباء والأجداد مع تصلب وتقشف.

---

[1] (كانت قباب قريش من الأدم، لا يضربها غيرهم بمنى)، المشرق، السنة السابعة والثلاثون، كانون الثاني ــ آذار، ١٩٣٩ (ص ٩٥).
[2] ابن سعد، الطبقات (١/ ٤١).
[3] ابن سعد، الطبقات (٢/ ٨٨)، أسد الغابة (١/ ٢٥١).
[4] المشرق، السنة السابعة الثلاثون، كانون الثاني ــ آذار، ١٩٣٩ (ص ٩٥).
[5] أهـل القبــاب الحمــر والنعــم المؤبــل والمــدامة
ديوان عبيد الأبرص (٢٩)، (طبعة لايل).
[6] الأغاني (٢/ ٤٦)، الاشتقاق (١٥٣)، تاج العروس (٤/ ١٣٢ وما بعدها)، (حمس).

والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش[1]، صاروا من الحمس بسبب أمهاتهم.

هذا وقد نزل الوحي بتنظيم الحج وفق مبادىء الإسلام، فأباح للحجاج ما كانت الحمس حرمته على نفسها من طعام الحج إلاّ طعام أحمسى، على نحو ما ذكرت قبل قليل. وما ذكر من أن قوماً كانوا قد حرّموا على أنفسهم ما يخرج من الشاة لبنها وسمنها ولحمها، اذا حجوا أو اعتمروا[2]. كما نزل بوجوب ستر العورة ولبس الإحرام في الحج، وذلك بالنسبة إلى المحلّين، وأغلبهم من الأعراب ومن الفقراء، حيث كانوا يطوفون عراة، وفي ضمنهم النساء[3]. فنزل الوحي بـ: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾[4]. ونهوا عن ذلك[5]. وذكر عن أبي هريرة أنه قال: «بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر، لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[6].

كما نزل الوحي بجواز دخول الحجاج بيوتهم وخيامهم وما يأوون إليه من بيوتها، من أبوابها، لا كما كان يفعل بعضهم في الجاهلية وفي أول الإسلام، من أنه اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلماً فيصعد فيه، وإنْ كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه ويرون ذلك ذماً، إلاّ أن يكون من الحمس. وهم: قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة، وبنو النضر بن معاوية. نزل الوحي بذلك في الآية: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[7].

---

[1] تاج العروس (٤/ ١٣٣)، (حمس).
[2] تفسير الطبري (٨/ ١٢١).
[3] تفسير الطبري (٨/ ١١٨).
[4] الأعراف، الآية ٣١.
[5] تفسير الطبري (٨/ ١١٨ وما بعدها)، أسباب النزول (١٦٨ وما بعدها).
[6] صحيح مسلم (٤/ ١٠٧)، (باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان الحج الأكبر).
[7] البقرة، الآية ١٨٩.

وقد ذهب بعض أهل الأخبار والسير إلى أن الآية المذكورة، نزلت في أمر الحمس، «لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها، فإن احتاج أحدهم الى حاجة في داره تسنم البيت من ظهره، ولم يدخل من الباب»[1]. وذهب المفسرون إلى أنها نزلت في الأنصار، فقد كانوا اذا حجّوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من قبل بابه، فكأنه عير بذلك، فنزلت هذه الآية. وورد: «كانت قريش تدعى الحمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في بستان، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله: إن قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب! فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: فإنّ ديني دينك! فأنزل الله: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾[2]. وقد أغفلت بعض الروايات اسم من كان لا يدخل البيوت من أبوابها، بأن قالت: «كان أهل الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها ويرونه براً»، أو «كانوا في الجاهلية اذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها، ولم يأتوا من أبوابها»، أو «إن ناساً كانوا اذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً»، أو «كان ناس من أهل الحجاز، اذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوها من ظهورها»[3]، وذكر أن من كان يفعل ذلك، فانما يفعله، لأنهم كانوا يتحرجون من أن يكون بينهم وبين السماء حائل[4].

وقد جعل (اليعقوبي) العرب في الجاهلية على دينيْن: دين الحمس ودين الحلة. وذلك بالنسبة للمشركين. وذكَر أن منهم من دخل في دين اليهودية وفي النصرانية، ومنهم من تزندق وقال بالثنوية، وبهذه الفرق حصر (اليعقوبي) أديان أهل الجاهلية. إذ قال: «فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليهما. ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود، وفارقوا هذا الدين. ودخل آخرون

---

[1] الروض الأنف (١/ ١٣٤ وما بعدها).
[2] أسباب النزول (ص٣٥ وما بعدها).
[3] تفسير الطبري (٢/ ١٠٨ وما بعدها).
[4] المصدر نفسه.

في النصرانية، وتزندق منهم قوم، فقالوا بالثنوية»[1].

والتعميم الذي يطلقه (اليعقوبي) وبقية المؤرخين والأخباريين في قولهم «وكانت العرب في أديانهم»، لا يمكن التسليم به، إلاّ بالنسبة لأهل مكة ولمن كان يقصدهم من العرب. أما بالنسبة لجميع العرب، فهذا ما لا يمكن التسليم به.

وأما (الطلس)، فقد وصفهم (محمد بن حبيب) بقوله إنهم: «بين الحلة والحمس: يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس. وكانوا لا يتعرون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثياباً، وبدخلون البيت من أبوابها، وكانوا لا يئدون بناتهم، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون»[2]. وهم سائر أهل اليمن، وأهل حضرموت، وعك وعجيب، وإياد بن نزار[3].

وذكر أن من الحجاج من كان يحج بغير زاد، وأن منهم من كان اذا أحرم رمى بما معه من الزاد، واستأنف غيره من الأزودة، وأن «قبائل من العرب يحرمون الزاد اذا خرجوا حجاجاً وعمّاراً»، فنزل الوحي: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[4]، فأمر من لم يكن يتزود منهم بالتزود لسفره، ومن كان منهم ذا زاد ان يتحفظ بزاده فلا يرمي به[5]. وقد عرف هؤلاء بـ (المتوكلة)، لتوكلهم على (رب البيت) في إطعام أنفسهم، واعتمادهم في ذلك على السؤال.

وقد ذكر علماء التفسير أن الآية: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ نزلت «في طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا، فكانوا يبقون عالة على الناس، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالزاد. وكان للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلة عليها زاد، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مزينة، فلما أرادوا أن ينصرفوا قال: يا عمر زوّد

---

[1] اليعقوبي (١/ ٢٢٦).
[2] المحبر (ص ١٨١).
[3] المحبر (ص ١٧٩)، الروض (١/ ١٣٣).
[4] البقرة، الآية ١٩٧.
[5] تفسير الطبري (٢/ ١٦٢)، (إن قوماً كانوا يرمون بأزوادهم ويتسمون بالمتوكلة، فقيل لهم تزودوا من الطعام، لا تلقوا كلكم على الناس)، تفسير الطبرسي (١/ ٢٩٤).

القوم..... كما روى البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس»[١].

ويظهر مما تقدم أن (المتوكلة) لم يكونوا جميعاً من الفقراء المحتاجين، بل كان منهم قوم أغنياء فضل الله عليهم، بدليل أنهم كانوا اذا حجّوا رموا زادهم، أو أعطوه للمحتاج اليه، يفعلون ذلك ديانة وتقرباً الى الله، كما فعل (المتوكلة) من بعدهم في الإسلام. فهم إذن طائفة من الطوائف الجاهلية المتدينة، ترى ان التقشف في الحج، يزيد في ثوابه، ويقرب أصحابه الى رب البيت.

ويريد أهل الأخبار بالثياب (الإحرام) على ما يظهر. وهو قديم وقد عرف عند غير العرب أيضاً. وهو محاكاة لملابس رجال الدين الذين يخدمون المعابد، ويتقربون إلى الآلهة. وهو يتكون من قطعتين من: إزار ومن وشاح. ويكون أبيض اللون. واللون الأبيض من الألوان التي تعبر عن معان دينية. فقد كان رجال الدين والكهنة يلبسون الثياب البيض. كما أنه شعار الحزن عند بعض الشعوب، وفي جملتهم عرب الحجاز[٢]. ويظهر أن أهل مكة وهم قريش، كانوا يلبسون الإحرام، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعيرونه لهم إن كانوا من حلفائهم، فيحرمون كإحرام قريش. أما من لم يتمكن من الحصول على الإحرام، فقد كان يضطر بحكم الضرورة إلى الطواف عرياناً على نحو ما يقصه علينا أهل الأخبار.

أما بالنسبة إلى أهل العربية الجنوبية من معينيين وسبئيين وقتبانيين وحضرميين، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهم، لعدم ورود شيء عن ذلك في النصوص الواصلة إلينا. ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجاز، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني إرم والنبط.

---

[1] تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤١١)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٣٩).

[2] Shorter Ency. of Islam, p. 160.

التلبية

وذكر (محمد بن حبيب) أن طواف أهل الجاهلية بالبيت أسبوعاً، وذكر أنهم كانوا يمسحون الحجر الأسود، ويسعون بين الصفا والمروة. وكانوا يلبّون. وذكر أن نسك قريش كان لإساف، وأن تلبيتهم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، لا شريك لك إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك»[1]. وأن تلبية من نسك للعزى: «لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، ما أحبنا اليك». وأن تلبية من نسك للات: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، كفى ببيتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحي البرية». وكانت تلبية من نسك لجهار: «لبيك، اللهم لبيك. لبيك، اجعل ذنوبنا جبار، واهدنا لأوضح المنار، ومتعنا وملنا بجهار». وكانت تلبية من نسك لشمس: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، ما نهارنا نجره، ادلاجه وحره وقره، لا نتقي شيئاً ولا نضره، حجاً لرب مستقيم بره»، وكانت تلبية من نسك لمحرّق: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك حجاً حقاً، تعبداً ورقاً»، وكانت تلبية من نسك لودّ: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، معذرة إليك». وكانت تلبية من نسك ذا الخلصة: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، بما هو أحب إليك». وكانت تلبية من نسك لمنطبق: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك». وتلبية عك، أنهم كانوا اذا بلغوا مكة، يبعثون غلامين أسودين أمامهم، يسيران على جمل مملوكين، قد جردا، فهما عريانان، فلا يزيدان على أن يقولا: «نحن غرابا عك». واذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عك: «عك إليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية، على الشداد الناجية»[1].

وكانت تلبية من نسك مناة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، لولا أن بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك، ما زال حج عثج يأتونك، إنا على عدوائهم من دونك»، وتلبية من نسك لسعيدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لبيك، لم نأتك للمياحة، ولا طلباً للرقاحة، ولكن جئناك، للنصاحة». وكانت تلبية من نسك ليعوق: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، بغض إلينا الشر، وحبب إلينا الخير، ولا تبطرنا فنأشر، ولا تفدحنا بعثار». وكانت تلبية من نسك ليغوث:

---

[1] المحبر (٣١٣).

«لبيك، اللهم لبيك، لبيك، أحبنا بما لديك، فنحن عبادك، قد صرنا إليك». وكانت تلبية من نسك لنسر: «اللهم لبيك، اللهم لبيك، لبيك، إننا عبيد، وكلنا ميسرة عتيد، وأنت ربنا الحميد، اردد إلينا مُلكنا والصيد». وكانت تلبية من نسك ذا اللبا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، رب فاصرفن عنّا مضر، وسلّمن لنا هذا السفر، إن عما فيهم لمزدجر، واكفنا اللهم أرباب هجر». وكانت تلبية من نسك لمرحب: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، إننا لديك. لبيك، حببنا إليك». وكانت تلبية من نسك لذريح: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، كلنا كنود، وكلنا لنعمة جحود، فاكفنا كل حية رصود». وكانت تلبية من نسك ذا الكفين: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، إن جرهماً عبادك، الناس طُرف وهم تلادك، ونحن أولى منهم بولائك». وتلبية من نسك هبل: «لبيك اللهم لبيك، إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح»[1].

وقد تعرض (اليعقوبي) لموضوع التلبية، فقال: «فكانت العرب، اذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده، ثم تلبوا حتى يقدموا مكة، فكانت تلبياتهم مختلفة. وكانت تلبية قريش: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، تملكه وما ملك. وكانت تلبية كنانة: لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف. وكانت تلبية بني أسد: لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد، أهل التواني والوفاء والجلد إليك. وكانت تلبية بني تميم: لبيك اللهم لبيك، لبيك عن تميم، قد تراها قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءها. وكانت تلبية قيس عيلان: لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمان، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان. وكانت تلبية ثقيف: لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك، وأخلفوا المال وقد رجوك. وكانت تلبية هذيل: لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل، في إبل وخيل. وكانت تلبية ربيعة: لبيك ربنا لبيك، لبيك إن قصدنا اليك. وبعضهم يقول: لبيك عن ربيعة، سامعة لربها مطيعة. وكانت حمير وهمدان يقولون: لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان. وكانت تلبية الأزد: لبيك رب الأرباب،

---

[1] المحبر (٣١١ ـــ ٣١٥).

تعلم فصل الخطاب، لملك كل مثاب. وكانت تلبية مذحج: لبيك رب الشعرى، ورب اللات والعزى. وكانت تلبية كندة وحضرموت: لبيك لا شريك لك، تملكه، أو تهلكه، أنت حكيم فاتركه. وكانت تلبية غسان: لبيك رب غسان، راجلها والفرسان. وكانت تلبية بجيلة: لببك عن بجيلة في بارق ومخيلة، وكانت تلبية قضاعة: لبيك من قضاعة، لربها دفاعة، سمعاً وطاعة. وكانت تلبية جذام: لبيك من جذام، ذوي النهي والأحلام، وكانت تلبية عك والأشعريين:

نحج للرحمان بيتاً عجبا　　مستتراً مضبباً محجبا[1]

و(التلبية) إجابة المنادي، أي إجابة الملبي ربه. وقولهم: لبيك اللهم لبيك، معناه إجابتي لك يا رب، واخلاصي لك[2]. وقد كان الجاهليون يلبون لأصنامهم تلبيات مختلفة. وقد ذكر (أبو العلاء المعري)، أن تلبيات العرب جاءت على ثلاثة أنواع: مسجوع لا وزن له، ومنهوك، ومشطور. فالمسجوع كقولهم:

لبـيك ربنا لبـيك　　والخيـر كله بيديـك

والمنهوك على نوعيْن: أحدهما من الرجز، والآخر من المنسرح. فالذي من الرجز كقولهم:

لبيك إنّ الحمـد لك　　والملك لا شريك لـك
إلاّ شريك هـو لك　　تملكـه ومـا ملـك
أبو بنـات بفـدك

وكقولهم:

لبيك يا معطي الأمـر　　لبيك عن بني النمـر
جئناك في العام الزمر　　نأمل غيثـاً ينهمـر
يطرقُ بالسيل الخَمر

---

[1] اليعقوبي (١/ ٢٢٥ وما بعدها).
[2] اللسان (١/ ٧٣٢)، (لبيب).

والذي من المنسرح جنسان: أحدها في آخره ساكنان كقولهم:

لبـــيك رب همـــدان　　من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان　　بكل حرف مذعـــان
نطوي اليك الغيطان　　نأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لبـــيك عن بجيـــله　　الفخمـــة الـــرجيله
ونعمـــت القبـــيله　　جـــاءتك بالوســـيله
تؤمـــل الفضيـــله

وربما جاءوا على قوافٍ مختلفه، من ذلك تلبية بكر بن وائل:

لبـــيك حقـــاً حقـــا　　تعبـــــداً ورقـــــا
جئـــناك للنصـــاحة　　لم نـــأت للرقاحه

وروي في تلبية (تميم) قولها:

لبيك لولا أن بكراً دونكا　　يشكرك الناس ويكفرونكا
ما زال منا عثـــج يأتونكا

ورووا أن من تلبيات همدان:

لبـــيك مع كل قبـــيل لبـــيك　　همدان أبنـــاء الملوك تدعوك
قد تركوا أصنامهم وانتابوك　　فاسمع دعاءً في جميع الأملوك

ومن تلبياتهم قولهم:

لبيك عن سعد وعن بنيها　　وعن نساء خلفها تعنيها
سارت إلى الرحمة تجتنيها

وختم (أبو العلاء المعريَ) رأيه عن التلبية بقوله: «والموزون من التلبية، يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب، ولم تأت التلبية بالقصيد. ولعلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرواة»[1].

---

[1] رسالة الغفران (ص ٥٣٥ ــ ٥٣٧). (بنت الشاطئ).

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام، غير أنه غيّر صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد. فصارت على هذا النحو: «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك»[1]. كما جعلها جزءاً من حج مكة، بعد أن كانت تتم خارج مكة، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها، وتصلي عنده ثم تلبي، قبل أن تقدم مكة[2]. وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة. فأبطل ذلك الإسلام، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية. وقد رأينا صيغ التلبيات، وكيف كانت تلبيات القبائل خاصة بها، تلبى كل قبيلة لصنمها، وتوجه نداءها إليه.

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهلين أن في رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبى داعيه، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته. وقد أشار بعض الكتاب (الكلاسيكيين) إلى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية.

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام، كانت مقدسة وداخلة في شعائر الحج، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفا والمروة، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسيتها أو لوجود صنم بها، ثم حرمها الإسلام، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين.

وتقف الحمس في حجها على أنصاب الحرم من نمرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والطلس، أي غير الحمس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة، عشية يوم (عرفة). فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً. وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في

---

[1] البخاري، كتاب الحج، الحديث ٣١ وما بعده، عمدة القارئ (٩/ ١٧٢ وما بعدها)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٨٨)، إرشاد الساري (٣/ ١٩٧)، (باب التلبية والتكبير إذا غدا من منى إلى عرفة).
[2] اليعقوبي (١/ ٢٢٥)، (أديان العرب).

وجوههم دفعوا من مزدلفة، وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير[1].

ومن مناسك الحج الطواف بالصفا والمروة، وعليها صنمان: اساف ونائلة: وكان الجاهليون يمسحونهما[2]. وكان طوافهم بهما قدر طوافهم بالبيت، أي سبعة أشواط. تقوم بذلك قريش، أما غيرهم فلا يطوفون بهما، وذلك على أغلب الروايات. ويظهر أن الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة أهل مكة. ففي حج أهل مكة طوافان: طواف بالبيت، وطواف بالصفا والمروة.

بين الصفا والمروة يكون (السعي) في الإسلام، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين (المسعى). وكان إساف بالصفا، وأما نائلة فكان بالمروة[3]. ولا بد ان يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب، و(المسعى) هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين.

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود، ثم يسعون بين الصفا والمروة. ويطوفون بإساف أولاً ويلمسونه، كل شوط من الطواف ثم ينتهون بنائلة. ويلبّون لهما: وكانت تلبيتهم لهما: «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك»[4]. وذكر أن (الأنصار)، لما قدموا مع النبي في الحج، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية، وأرادوا تركه في الإسلام. وذكر أن قوماً من المسلمين قالوا: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة، فإنه شرك كنّا نصنعه في الجاهلية. فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنيين، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين، فأنزل الله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾[5]. ويتبين من غربلة الأخبار أن الذين كانوا يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينهما. هم من عبّاد الصنمين وهم قريش

---

[1] الأزرقي (٢/ ٢٢٦)، مسند ابن حنبل (١/ ٣٩، ٤٢، ٥٠، ٥٢)، الأم للشافعي (٢/ ١٨٠).
[2] البلدان (٥/ ٣٦٥)، (٨/ ٣٨)، إرشاد الساري (٣/ ١٨٧).
[3] Reste, S. 77.
[4] المحبر (٣١١)، الأزرقي (١/ ١١٢).
[5] البقرة، الآية ١٥٨، أسباب النزول (٣٠ وما بعدها)، تفسير الطبري (٢/ ٤٣)، (طبعة البابي ١٩٥٤م).

خاصة، وليس كل من كان يحج إلى مكة من العرب، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام بالصفا والمروة. وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي، لهدم الصنمين اللذين كان الناس يطوفون حولهما واكتفى بالسعي بين الموضعين.

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأنزل الله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾[1]، أي لا تستحلون ترك ذلك[2]. وذكر أن الأنصار كانوا يهلون لمناة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام قالوا: يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما، فأنزل الله الآية المذكورة. وكان أهل (تهامة) ممن لا يطوفون أيضاً بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت، ولم ينزل بالطواف بين الصفا والمروة، قيل للنبي: إنا كنا نطوف في الجاهلبة بين الصفا والمروة وإن الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما. فنزل الوحي: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾، فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج، لا كما كان في عهد الجاهلية. من اقتصاره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم. فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنين إساف ونائلة، فلما جاء الإسلام تحرج بعض الناس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينهما لأنهما من شعائر الجاهلية، فنزل الأمر به[3].

وذكر أهل الأخبار أن السعي بين الصفا والمروة، شعار قديم من عهد هاجر أم إسماعيل. وأما رمل الطواف، فهو الذي أمر به النبي، أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوتهم، حيث قالوا: وهنتهم حمى يثرب[4].

---

[1] البقرة، الآية ١٥٨.

[2] تاج العروس (٣/ ٣٠٤)، (شعر)، روح المعاني (٢/ ٤١)، تفسير القرطبي، الجامع (٢/ ١١٤)، الأزرقي (٧٤)، تفسير ابن كثير (١/ ١٩٨)، صحيح البخاري (١/ ٤١٤)، الموطأ (١/ ٣٧٣)، إرشاد الساري (٣/ ١٨٧).

[3] تفسير الطبري (٢/ ٢٧ وما بعدها)، الطبرسي (٢/ ٤٥)، ابن كثير (١/ ١٨٨، ٢٠٠)، البخاري (١/ ٤٠٤)، (باب ٧٩)، الموطأ (١/ ٦٥٣)، (١/ ٣٧١)، (باب ٤٠).

[4] اللسان (١١/ ٢٩٥ وما بعدها)، (رمل).

وورد في خبر عن (عائشة) إنها قالت: «إن الأنصار كانوا يهلّون في الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما: إساف ونائلة، ثم يجيئون، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام، كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: إن الصفا والمروة من شعائر الله إلى آخرها. قالت: فطافوا». وهو خبر يناقض أخباراً أخرى يتصل سندها بـ (عائشة)، تجمع على أنها قالت: إن الأنصار أو الأنصار وغسان كانوا قبل أن يسلموا يصلّون لمناة، فلا يحل لهم أن يطوّفوا بن الصفا والمروة، وكان ذلك سنّة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة[1]، ولم أجد في خبر آخر شيئاً يفيد أن إسافاً ونائلة كانا على ساحل البحر.

و(السعي) في الإسلام سبعة أشواط، تبدأ بالصفا، وتختتم بالمروة. وعندما يصل الحاج حد (السعي) يسعى ويهرول، فإذا جاز الحد مشى. وكان الجاهليون يبدأون بـ (الصفا) وينتهون بـ(المروة) كذلك[2].

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ (عرفة)، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة ويسمى (يوم عرفة). ومن (عرفة) تكون (الإجازة) للإفاضة إلى (المزدلفة). ومن (المزدلفة) إلى (منى). وقد كان الجاهليون من غير قريش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس، وأما في المزدلفة فعند شروقها. وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له (صوفة)، ثم انتقلت إلى (صفوان) من تميم كذلك[3]. ولم يكن (الحمس) يحضرون عرفة، وإنما يقفون بالمزدلفة، وكان سائر الناس يقف بعرفة. ولما رأى أحد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس، وما كان يظن أنه يخالف قومه في ذلك، فيساوي نفسه بسائر الناس[4]. فأنزل الله: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله إن اللّه غفور رحيم﴾[5]،

---

[1] صحيح مسلم (٤/ ٦٨)، (باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلاّ به).
[2] راجع باب الحج في كتب الحديث والفقه.
[3] ابن هشام (٧٧/ ٨٢)، اللسان (٧/ ١٩١)، تاج العروس (٦/ ١٩٣)، الروض الأنف (١/ ٨٦)، الصحاح (٣/ ١٠٩٩)، البلدان (٤/ ١٠٤).
[4] إرشاد الساري (٣/ ٢٠٠)، تفسير الطبرسي (٢/ ٢٩٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٢ وما بعدها)، أسباب النزول (٤٢).
[5] البقرة، الآية ١٩٩.

فشمل ذلك الحمس وغيرهم. فأخذوا يقفون كلهم موقف عرفة، ووضع عن قريش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس[١].

وورد في روايات أخرى، أن قريشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهم، لا يفيضون من عرفات، إنما يفيضون من المغمس، وورد أن قريشاً وكل ابن أخت وحليف لهم، لا يفيضون مع الناس من عرفات، يقفون في الحرم ولا يخرجون منه. يقولون: إنما نحن أهل حرم الله، فلا نخرج من حرمه، وأنهم قالوا «نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت، وقاطنوا مكة وساكنوها، فليس، لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلنا، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الحل، كما تعظمون الحرم. فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها»[٢].

وذكر أن قريشاً ومن دان بدينها تفيض من (جمع) من المشعر الحرام[٣]. و(جمع) المزدلفة[٤].

و(عرفة) أو (عرفات) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة[٥]. لا بدّ وأن يكون من المواضع التي كان يقدسها أهل الجاهلية، وان يكون له ارتباط بصنم من الأصنام، وإلاّ لما صار جزءاً من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر إلى وقت الغروب. وقد يكون لموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس. فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج إلى (المزدلفة).

---

1 تفسير الطبري (٢/ ١٦٦ وما بعدها).

2 تفسير الطبري (٢/ ١٧٠).

3 أسباب النزول (٤٢).

4 قال أبو ذؤيب:

فبات بجمــع ثم تــم إلى منى فأصبح راداً يبتغي المزج بالسحل

تاج العروس (٥/ ٣٠٥)، (جمع).

5 (وعرفات، موقف الحاج ذلك اليوم على اثني عشر ميلاً من مكة)، تاج العروس (٦/ ١٩٣)، تفسير الطبري (٤/ ١١٤ وما بعدها)، أخبار مكة (١/ ١١٥ وما بعدها).

الإفاضة:

ومن (عرفة) تكون الإفاضة إلى (المزدلفة). و(المزدَلفة)، موضع يكاد يكون على منتصف الطربق بين (عرفة) و(منى). وفيه يمضي الحجاج ليلتهم، ليلة العاشر من (ذي الحجة). ومنه تكون الإفاضة عند الشروق إلى (منى). وقد نعت بـ (المشعر الحرام) في القرآن الكريم[١]. ويذكر أهل الأخبار أن (قصي بن كلاب)، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة، وأن العرب سارت على سنته هذه. وبقيت توقدها حتى في الإسلام[٢]. ولا بد وأن يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك، التي كَان لها صلة بالأصنام. وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه (قزحاً)، قالوا إنه (هو القرن الذي يقف عنده الإمام)[٣]، وذكروا أن (قزح) اسم شيطان[٤]. ونحن نعرف اسم صنم يقال له (قزاح)، قد تكون له صلة بهذا الموضع.

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من (المزدلفة) إلى (منى)، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية. و(منى) موضع لا يبعد كثيراً عن مكة. ولعلماء اللغة آراء في سبب التسمية، من جملتها إنها عرفت بذلك لما يمنى بها من الدماء[٥]. وذكر بعض أهل الأخبار أن (عمرو بن لحي) نصب بمنى سبعة أصنام، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنماً، ونصب على الجمرة الأولى صنماً، وعلى الجمرة الوسطى صنماً، وعلى شفير الوادي صنماً[٦]. ولا بد أن يكون لهذا الموضوع صلة بالأصنام، نظراً لما له من علاقة متينة بمناسك الحج. وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام.

---

1 سورة البقرة، الآية ١٩٨، تفسير الطبري (٢/ ١٦٤)، روح المعاني (٢/ ٧٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٢).
2 نهاية الأرب (١/ ١٠٩)، (ذكر نيران العرب)، صبح الأعشى (١/ ٤٠٩)، الأزرقي (٣٦، ١٣٠، ٤١١، ٤١٥)، (وستنفلد)، ابن هشام (٧٧)، ابن سعد (١/ ٧٢)، (صادر)، اللسان (٩/ ١٣٨)، البلدان (٤/ ٥١٩)، تاج العروس (٦/ ١٣١).
3 تاج العروس (٢/ ٢٠٧)، (قزح).
4 تاج العروس (٢/ ٢٠٧)، (قزح).
5 تاج العروس (١٠/ ٣٤٨)، (منى).
6 الأزرقي (٢/١٤٢).

وقد ذكر العلماء «أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير»[١]، وأن النبي خالفهم، «فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس»[٢]. وفي فعل المشركين ذلك، ووقوفهم انتظاراً للإفاضة عند طلوع الشمس، دلالة على عبادة الشمس عندهم، ولهذا غيَّر الرسول هذا الوقت.

و(رمي الجمرات) بمنى من مناسك الحج وشعائره. وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحجات الأخرى من جزيرة العرب. كما كان معروفاً عند غير العرب أيضاً. وقد أشير اليه في التوراة[٣]. وهو معروف عند (بني إرم)[٤]. وكلمة (رجم) من الكلمات السامية القديمة. وقد وردت في حديث (عبد الله بن مغفل): لا ترجموا قبري، أي لا تجعلوا عليه الرجم، وهي الحجارة، على طريقة أهل الجاهلية، ولا تجعلوه مسنّماً مرتفعاً[٥]. وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم. فكان أحدهم إذا مرّ بقبر، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجاماً عليه.

(والجمرات)، أي مواضع (رمي الجمرات) عديدة عند الجاهليين، يطاف حولها، ويحج إليها[٦] منها مواضع أصنام، وأماكن مقدسة، ومنها قبور أجداد. وقد ورد قسم بها في بيت ينسب إلى شاعر جاهلي[٧]. وترمى الجمرات على مكان عرف بـ (جمرة العقبة) وبـ (الجمار) وبـ (موضع الجمار) وهو بـ (منى)، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى. وهي جمرات ثلاث: الجمرة

---

[1] إرشاد الساري (٣/ ٢١٠).

[2] المصدر نفسه.

[3] التكوين، الإصحاح الحادي والثلاثون، (وقال لابان ليعقوب: هوذا هذه الرجمة، وهو ذا النصب الذي وضعت بيني وبينك)، الآية ٥١.

[4] Shorter Ency., p. 464, Reste, S. 112.

[5] النهاية (٢/ ٧٤)، اللسان (١٥/ ١١٧ وما بعدها)، تاج العروس (٨/ ٣٠٤ وما بعدها)، (رجم).

[6] المشرق: السنة التاسعة والثلاثون، تموز ــ أيلول ١٩٤١م، (٢٤٦)، Reste, S. 111.

[7] فأقسم بالذي قد كان ربي   وأنصاب لدى الجمرات معر

ابن هشام (٥٣٤)، المشرق، الجزء المذكور. قال حذيفة بن أنس الهذلي:

لادركهم شعث النوامي كأنهم   سواشق حجاج نوافى المجمر

الأولى، والجمرة الوسطى، وجمرة العقبة[1].

ويرجع أهل الأخبار مبدأ رمي الجمرات إلى (عمرو بن لحي). يذكرون أنه جاء بسبعة أصنام فنصبها بـ (منى)، عند مواضع الحجرات، وعلى شفير الوادي، ومواضع أخرى، وقسم عليها حصى الجمار، إحدى وعشرين حصاة، يرمي كل منها بثلاث جمرات، ويقال للوثن حين يرمى: أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمى قبله[2].

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو: كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناوبت هذا العمل أباً عن جد. وقد اشتهر منهم رجل عرف بـ (عميلة بن خالد العدواني)، واشتهر بين الناس بـ(أبي سيارة). كان يجيز الناس من المزدلفة إلى منى أربعين سنة. يركب حماراً أسود، وينظر الى أعالي جبل (ثبير)، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى: أشرق ثبير، كيما نغير! ثم يجيز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر:

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره وعن مواليه بني فــزاره
حتى يجيز ســالماً حمــاره مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد أجــار الله من أجاره[3]

وضرب به المثل، فقيل: أصح من عير أبي سيّارة[4].

وذكر (الجاحظ) أن اسم (أبي سيّارة) (عميلة بن أعزل)، دفع بأهل الموسم أربعين عاماً، ولم يكن عيره عيراً وإنما كان أتاناً، ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش وعمّر أطول من عير (أبي سيارة)[5].

---

[1] تاج العروس (٣/ ١٠٧)، (حجر)، (١٠/ ٣٤٨)، (منى).
[2] الأزرقي، أخبار (ص ٤٠٢)، (لايبزك).
[3] اللسان (٧/ ١٩١)، الروض الأنف (١/ ٨٦)، الميداني (١/ ٤٢١ وما بعدها)، البلدان (٦/٣)، (ثبير)، البكري (١/ ٣٣٥)، (طبعة السقا)، (وأبو سيارة: عميلة بن أعزل)، الحيوان (٧/ ٢١٥)، (عبد السلام محمد هارون)، إرشاد الساري (٣/ ٢١٠).
[4] تاج العروس (٣/ ٢٨٧)، (سير)، نهاية الآب (١٦/ ٣٦ وما بعدها).
[5] الحيوان (١/ ١٣٩).

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج، وهي الإفاضة، هم (صوفة). وهم حيّ من مضر من نسل (الغوث بن مرّ بن اد بن طابخة بن إلياس بن مضر)، وقد سمّوا (صوفة) و(آل صوفة)، لأن (الغوث) أبوهم جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها. وكانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج، أي يفيضون بهم، فيكونون أول من يدفع. وكان أحدهم يقوم فيقول: أجيزي صوفة، فإذا أجازت، قال: أجيزي خندف، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة. وكانت الاجازة بالحج اليهم في الجاهلية. وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حى تدفع بها صوفة، وكذلك لا ينفرون من (منى) حتى تنفر (صوفة)، فإذا أبطأت بهم، قالوا: أجيزي صوفة. وورد أن (صوفة) قوم من (بني سعد بن زيد مناة) من تميم[١].

ويفهم من رواية أن كلمة (صوفة) لم تكن اسم علم، وإنما هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت أو قام بشي، من خدمته، أو بشئ من أمر المناسك[٢]. فهم من رجال الدين، تخصصوا بالإجازة بالناس في مواسم الحج. ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيأة عمامة أو عصابة، أو عطر، لتكون علامة على أنهم من أهل بيت دين وشرف. فعرفوا بـ (صوفة) وبـ (آل صوفة) وبـ (صوفان). وفي ذلك قال (مرة بن خليف الفهمي)، وهو شاعر جاهلي قديم:

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ولاح قتار فوقــه ســفع الدم[٣]

و(يظهر) من الروايات الواردة عن (ثبير)، أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين، أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون إليه لزيارته وللتبرك به[٤].

ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح، وهي الأضحية في الإسلام و(العتائر)

---

[1] تاج العروس (٦/ ١٦٩)، (صوف)، معجم الشعراء (٣٨٢)، ابن هشام (١/ ٧٧، ٨٢).
[2] الروض الأنف (١/ ٨٥).
[3] معجم الشعراء (٣٨٢).
[4] المشرق، السنة التاسعة والثلاثون (١٩٤١م)، (ص ٢٥٩).

في الجاهلية. ولذلك عرف هذا العيد: عيد الحج بـ (عيد الأضحى). وعرف اليوم الذي تضحى به الأضحية بـ (يوم النحر) وبـ (الأضحى) وبـ (يوم الأضحى). وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد. وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا (يصد عنها إنسان ولا سبع)[١]. وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة.

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة، أو بنعلَيْن، يعلقان على رقبتي الهدي، إشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدي، فلا يجوز الاعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه. والإشعار الإعلام. وهو أن يشق جلد البدنة أو يطعن في اسنمها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدي. والشعيرة البدنة المهداة[٢]

وكان بعض أهل الجاهلية، يسلخون جلود الهدي، ليأخذوها معهم. ويتفق هذا مع لفظة (تشريق) التي تعني تقديد اللحم. ومنه سميت أيام التشريق، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها، أي تشرّر في الشمس[٣]. وقيل سمي التشريق تشريقاً، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس[٤]. ويظهر أن الجاهليين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها، بدليل ما ورد في الحديث من النهي عن ذلك. ومن حديث: من ذبح قبل التشريق فليعد. أي قبل أن يصلي صلاة العيد، وهو من شروق الشمس واشراقها، لأن ذلك من وقتها[٥].

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم، وإلاّ بطل حجتهم. ويلاحظ أن غير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس

---

[1] ابن هشام (١٠٠)، المشرق: السنة السابعة والثلاثون، كانون الثاني ــ آذار ١٩٣٩م. (٩٢).
[2] نقتلهم جيلاً فجيلا تراهم شعائر قربان بها يتقرب
تاج العروس (٣/ ٣٠٣ وما بعدها)، (شعر).
[3] تاج العروس (٦/ ٣٩٣)، (شرق).
[4] المصدر نفسه.
[5] تاج العروس (٦/ ٣٩٣)، (شرق).

الدينية عندهم، ولا سيما اللحية لما لها من علاقة بالدين. ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأتقياء الورعين يحافظون عليها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر التدين[1].

وقد كانت القبائل لا تحلق شعورها في مواسم حجها إلاّ عند أصنامها، فكان الأوس إذا حجوا وقفوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا صنمهم مناة فحلقوا رؤوسهم عنده، وأقاموا لا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك[٢]. وكانت قضاعة ولخم وجذام تحج للأقيصر وتحلق عنده[٣].

وكان من عادة بعض القبائل، مثل بعض قبائل اليمن، القاء قرة من دقيق مع الشعر[٤]. وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق، ويجعلون ذلك الدقيق صدقة، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق. وفي ذلك يقول معاوية بن أبي معاوية الجرمي:

ألم ترَ جرمـــاً أنجدت وأبوكـــم   مع الشـــعر في قص الملبد شـــارع
إذا قرة جاءت تقول أصب بها   سوى القمل إني من هوازن ضارع[٥]

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون، وكان من يقصد مناة يهدي لها كما كان غيرهم يهدي للكعبة ويطوفون بها ثم ينحرون عندها، وكان عبدة ذي الخلصة في أسفل مكة يذبحون عنده كذلك[٦]. وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها. حول أصنامها، وتهدى إليها، ثم تنحر عندها عند اكمالها هذه الشعائر دلالة على اكمالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه.

وتميز الحيوانات التي يهيئها أصحابها أو مشتروها للذبح في الحح بعلامات، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة، أو أن يحدث لها جرح يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة إنها هدي. ويقال لذلك إشعار، ومنه إشعار البدن، وهو أن يشق

[1] Smith, p. 323.

[2] الأصنام (ص ١٤)، البلدان (٨/ ١٦٩)، الأزرقي (١/ ٧٣).

[3] الأصنام (ص ٤٨)، البلدان (١/ ٣١٤)، Reste, S. 62.

[4] الأصنام (ص ٤٨)، البدان (١/ ٣١٤ وما بعدها)، Reste, S. 62, ff.

[5] تاج العروس (٣/ ٤٨٦)، (قرر).

[6] بلوغ الأرب (١/ ٣٤٤ وما بعدها).

أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي[1]. وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها في عنق البدن، لتكون دلالة على إنها هدي، فلا يعترضها أحد[2].

ويجوز للحجاج مغادرة (منى) في اليوم العاشر من ذي الحجة، أي في اليوم الأول من العيد، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم، ولكن منهم من يمكث في هذا الموضع حتى اليوم الثالث عشر، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد، ومشاركة لإخوانه فيه. ويقال لذلك (التشريق). وأيام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر[3].

وكان أهل الجاهلية اذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج، وذبحوا نسائكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فيقول بعضهم لبعض: كان أبي يطعم الطعام، ويقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول بعضهم: كان أبي جزّ نواصي بني فلان. يقولون ذلك عند (الجمرة)، أو عند البيت، فيخطب خطيبهم ويحدث محدثهم. أو إنهم كانوا اذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقاً، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم به، يقوم الرجل، فيقول: اللهم ان أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبّة كثير المال، وما شاكل ذلك، فنزل الوحي: ﴿فإذا قضيتم مناسككم، فإذ ذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾[4].

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج، تقلد قلادة من لحاء السمر، دلالة على ذهابهم إلى الحج، في أمن حتى يأتي أهله. وذكر أنه كان يقلد نفسه وناقته، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السمر. وروي أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين إلى مكة يتقلدون من لحاء السمر، وإذا خرجوا منها إلى منازلهم منصرفين منها، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء. بقي ذلك شأنهم حتى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا[5].

---

1 النهاية (٢/ ٤٤٢).
2 اللسان (٤/ ٣٦٩)، (٦/ ٨١ وما بعدها)، الموطأ (١/ ٢٤٩)، مسند ابن حنبل (١/ ٢١٦، ٢٥٤، ٢٨٠، ٢٤٩، ٣٣٤، ٣٣٩)، (٦/ ٣٥، ٨٢، ٨٧).
3 تاج العروس (٦/ ٣٩٣)، (شرق).
4 البقرة، الآية ٢٠٠، تفسير الطبري (٢/ ١٧٢ وما بعدها)، تفسير الطبرسي (٢/ ٢٩٦ وما بعدها).
5 تفسير الطبري (٦/ ٣٧ ما بعدها)، اللسان (٣/ ٣٦٧)، (قلد).

التجارة في الحج:

قال علماء التفسير: كان متجر الناس في الجاهلية: عكاظ وذو المجاز، فكانوا إذا أحرموا لم يتبايعوا حتى يقضوا حجهم. ويقولون أيام الحح أيام ذكر. وقالوا: «كان هذا الحي من العرب لا يعرجون على كسير ولا ضالة ليلة النفر. وكانوا يسمّونها ليلة الصدر، ولا يطلبون فيها تجارة ولا بيعاً». وقالوا: «كان بعض الحاج يسموّن الداج. فكانوا ينزلون في الشق الأيسر من منى. وكان الحاج ينزلون عند مسجد منى، فكانوا لا يتجرون حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبغوا فضلاً من ربكم. هي التجارة. قال: اتجروا في الموسم»[١]. والصدر الإفاضة. ومنه طواف الصدر. وهو طواف الإفاضة[٢].

والداج: الأجراء والمكارون والأعوان ونحوهم الذين مع الحاج[٣]. وذكر ان قوماً جاءوا إلى (عبد الله بن عمر)، فقالوا: «انا قوم نكرى، فيزعمون أنه ليس لنا حج. قال: ألستم تحرمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟» قالوا بلى. قال فأنتم حاج[٤]، ومن يكرى لخدمة الحاج، فهو من الداج.

العمرة:

و(العمرة) هي بمثابة (الحج الأصغر) في الإسلام، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر (رجب). وللعمرة في الإسلام شعائر ومناسك، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة. ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك. وهي في الإسلام فردية اختيارية، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض عين على كَل مسلم مستطيع، وجماعي، أي إن المشتركين فيه يؤدونه جماعة[٥]. أما بالنسبة إلى الجاهليين، فيظهر من ذكر العمرة في القرآن

---

[1] تفسير الطبري (٢/ ١٦٤ وما بعدها).
[2] تاج العروس (٣/ ٣٢٨)، (صدر).
[3] تاج العروس (٢/ ٣٩)، (دج).
[4] تفسير الطبري (٢/ ١٦٤ وما بعدها).
[5] Shorter Ency. of Islam, p. 604, ff.

الكريم أنهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج، ولوقوعها في شهر رجب، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه، لعلنا لا نخطىء اذا قلنا إنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمرة، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولها، أما في الإسلام، فالعمرة دون الحج. وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية، كانت حجّاً خاصاً مستقلاً عن الحح الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة. حرص الجاهليون على ألاّ يوافق موعدها موعد مواسم الحج، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج[١].

وورد أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن العمرة من أشهر الحج: شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلةّ النحر، أو عشر أو ذي الحجة من الفجور في الأرض، أي من الذنوب[٢]، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كل شهر، ولا سيما في رجب، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون إلى محجاتهم للعمرة. وورد أن أهل الجاهلية «كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر. ويقولون: اذا برأ الدبر، وعفا الأثر، وانسلخ صفر، حلت العمرة لمن اعتمر»[٣].

وذكر أن الأشهر الحرم ثلاثة سرداً وواحداً فرداً، وهو رجب. أما الثلاثة، فليأمن من الحجاج واردين إلى مكة وصادرين عنها، شهراً قبل شهر الحج، وشهراً بعده، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب، ثم يرجع. وأما رجب، فللعمّار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه للإياب، إذ لا تكون العمرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحج. وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً[٤].

ويلبس المعتمر (الاحرام) أيضاً. وقد كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت، أما (السعي) بين الصفا والمروة، فأغلب الظن أن العرب لم يكونوا يقومون به. بدليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوّف بهما.

---

[1] المشرق، الجزء ٣٩ (١٩٤١)، (ص ٢٥٠)، Reste, S. 84.
[2] إرشاد الساري (٦/ ١٧٤).
[3] الروض الأنف (١/ ٣٥١).
[4] الروض الأنف (٢/ ٦٠).

ومن تطوّع خيراً فان الله شاكر عليم﴾[1]. ففي هذا النص دلالة على أن الجاهليين من غير قريش لم يكونوا يدخلون السعي بينهما في شعائر الحج أو العمرة، وأن الله أمر بإدخاله فيهما. أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة، فهو نفس موقفهم بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج، والفرق بين الحج والعمرة، إن الحج هو الإحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروه وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها، بينما العمرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[2]، فلا يكون موقف عرفة من العمرة. وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة، ويكون حلق الرأس علامة لها. فاذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا أنه من (العمار)، فلا يمسونه بسوء، إلاّ اذا مس أحداً بسوء احتراماً للعمرة ولشعائر الدين[3].

والفرق بين العمرة والحج في الإسلام، إن العمرة تكون للإنسان في السنة كلها، والحج في وقت واحد في السنة. وتمام العمرة أنْ يُطاف بالبيت، ويسعى بين الصفا والمروة، والحج لا يكون إلاّ مع الوقوف بعرفة يوم عرفة وإجراء بقية المناسك[4].

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين. كان في روعهم أن هذا التقبيل مما يقربهم إلى الآلهة، ويوصلهم إليها، فتقربوا إليها ونصبوها في مواضع ظاهرة، ومسحوا أجسامهم بها تبركاً. وكلمة (تمسَّح) من الكَلمات التي لها معاني عند الجاهليين، وكذلك كلمة (استلم) و(استلام) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجر الأسود. وطريقتهم أن يمر الإنسان يده على الحجر المقدس أو أن يمسسه بها إن صعب استلامه كله. وقد يعوض عن ذلك بعصا يمدها الإنسان إلى الحجر حتى

---

[1] البقرة، الآية ١٥٨.
[2] تفسير الطبري (٢/ ١٢٠ وما بعدها).
[3] «وقد كان حلق رأسه، فلما رأوه آمنوا، وقالوا: عمار فلا بأس علينا منهم»، تفسير الطبري (٢/ ٢٠٢).
[4] اللسان (٦/ ٢٨٢)، تاج العروس (٣/ ٤٢٢ وما بعدها)، اللسان (٤/ ٦٠٤)، (صادر)، البلدان (٤/ ١٥٤)، الإقناع (١/ ٣٣٤، ٣٩٧ وما بعدها).

تلمسه، وإذا تعذر الوصول اليه بسبب ما، فيجوز أن يفعل ذلك راكباً على جمل[١].

ومن هذا القبيل ايضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقدسة طرقات خفيفة، وإمرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لاكتساب البركة، والتمسح بجدران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة. وتلطيخ الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها، أو بتلطيخها وتلويثها كلها أو جزء منها بدم الضحية، توكيداً بإراقة دم الضحية في نفس من ضحيت الضحية من أجله[٢].

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحح إن الرجل منهم كان إذا أحرم، تقلد قلادة من شعر، فلا يتعرض له أحد. فإذا حجّ وقضى حجّه، تقلد قلادة من (إذْخِر)، والإذخر نبات زكي الرائحة، وأن الرجل منهم يقلد بعيره أو نفسه قلاعة من لحاء شجر الحرم، فلا يخاف من أحد، ولا يتعرض له أحد بسوء[٣]. وتذكرنَا هذه العادة بما يلبسه بعض الحجاج عند إتمامهم حجّهم وعودتهم إلى بلادهم من لباس (كوفية) خاصة بأهل مكة ومن عقال حجازي وذلك بالنسبة للرجال، وخمار أبيض بالنسبة للنساء، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج.

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة) وعمرة (رجب) حسب، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات، للطواف حول الأصنام، واستلام الحجر الأسود، والتقرب إلى الآلهة المحلية. وقد ساعد ذكاء سادة قريش الذي تجلى في جمعهم أكثر ما أمكنهم جمعه من أصنام القبائل في (البيت الحرام)، على اجتذاب القبائل إليها، وبذلك نشطوا في استغلال مواسم الحج والعمرة بالاستفادة من القادمين بالاتجار معهم، وببيع

---

1 وفي الحديث أن الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة، وهو على ظهر جمل، البخاري (١/ ٦٦، ٢١١)، السنن (٢/ ٣٧، ٣٩)، مسلم (١/٤٨٦، ٤٨٨)، الأغاني (١٣/ ١٦٦)، المشرق، السنة السابعة والثلاثون، كانون الثاني ـــ آذار ١٩٣٩م (ص ٨٧ وما بعدها).

2 Reste, S. 109.

3 بلوغ الأرب (٢/ ٢٨٩).

ما يحتاجون اليه من طعام وزاد، فحصلوا على مال، حسدهم عليه الآخرون فكان الفضل في ذلك للبيت.. والى ذلك أشير في القرآن، في سورة(قريش): ﴿فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[1].

هذا ما عرفناه عن شعائر الحج إلى مكة وعن مناسكه في الجاهلية المتصلة بالإسلام. أما عن الحج إلى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه، فلا نكاد نعرف من أمرهما شيئاً يذكر. ولكننا نستطيع أن نقول إن من أهم أركان الحج عند جميع الجاهليين، وجوب مراعاة النظافة، نظافة الجسم ونظافة الثياب. ولذلك، كانوا اذا حجّوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي (الاحرام) أو ملابس جديدة، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة، وذلك لحرمة هذه المواضع وقدسيتها، فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة، واذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند ذهابهم إلى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم، احتراماً له واجلالاً لشأنه، أفلا يجب إذن لبس خير ما عند الإنسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة، ولا سيما في مواسم الحج؟ وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتنظيف جسده حين دخوله المعبد أو اعتزامه الحج.

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف، والتمسح لها، من الشعائر الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات. كان في روعهم إن هذا التقبيل مما يقربهم إلى الآلهة، ويوصلهم إليها، فتجعلها ترضى عنهم وتشفيهم مما هم فيه من سقم وأمراض، فتقربوا إليها ومسحوا أجسامهم بها تبركاً وتقرباً. و(التمسح) بالصنم أو الحجر المقدس، التبرك به لفضله وعبادته، كأنه يتقرب إلى الآلهة بالدنو منه ولمسه[2]. وقد كان رجال الدين يمسحون بأيديهم أجسام المرضى وثيابهم، لإزالة السوء عنهم. وقد ذكر أهل الأخبار إن الجاهليين كانوا يتمسحون بأصنامهم، ويمسحون ظهورهم بها، لاعتقادهم أنها تشفيهم من كل ألم وسوء.

واستلام الصنم أو الحجر المقدس، هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب. ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمسه وتناوله باليد ومسحه بالكف. واذا صعب الوصول

---

[1] سورة قريش، الرقم ١٠٦، رقم الآية ٣ وما بعدها، تفسير الطبري (٣٠/ ١٩٧)، روح المعاني (٣٠/ ٢٤١).
[2] تاج العروس (٢/ ٢٢٦)، (مسح).

إليه لشدة الازدحام، فقد يمدّ أحدهم قصبة أو عوداً أو عصاً إليه لمسه، فيكون لمس هذه الأشياء له، كأنه لمس حقيقي، يجلب لصاحبه ما تمناه وطلبه ورجاه من ذلك الصنم أو الحجر[١].

وقد أشار بعض (الكلاسيكين) إلى وجود غابة من النخيل في ركن من البحر الأحمر، كان يؤمّها النبط للتبرك بها، إذ كانت في نظرهم أرضاً مقدسة، عليها معبد من الحجر عليه كتابة، وصفوها بأنها كتابة لا يستطيع اليوناني قراءتها، وبه كهّان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد. قالوا: وفي كل خمس سنين يحج الناس إليه، ويتجمعون عنده، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس، فيذبحون، ويتقربون إلى آلهتهم. فإذا عادوا أخذوا معهم ماءً من ذلك المكان، للتبرك به، لاعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية. وذكر بعض آخر أن الحج إلى هذا البيت كان مرتين في السنة: الحج الأول في مطلع السنة، ويستغرق شهراً واحداً. اما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف، ويستغرق شهرين. وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهراً حرماً لا يحل فيها قتال، يعمّها سلم أوجبته الآلهة على الإنسان والحيوان[٢].

ونرى في هذه الشعائر مشابهة كبيرة لشعائر الحج في مكة. ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان، ونصهم على أنه على البحر الأحمر، وأنه غابة نخيل، لأنصرف الذهن إلى مكة، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هذه الشعائر، واستقاؤهم من ماء (زمزم) للتبرك به، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدهم هذا، وقد أهمل أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة، فأضاعوا علينا فرصة ثمينة كانت تساعدنا كثيراً في الوقوف على تثبيت الأشهر عند الجاهليين.

ويلاحظ أن النبط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقاً، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز. ولا شك أن موسم الحج في المعبد المذكور، الذي يتحول إلى سوق للبيع والشراء، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضاً إلى سوق.

---

[1] اللسان (١٢/ ٣٧٩)، (سلم).

[2] Die Araber in der Alten Welt, I, S. 32. f.

الأعياد:

والأعياد من جملة مظاهر الأديان وشعائرها. والحج في حد ذاته عيد من أعياد الجاهلين. وقد كانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم، غير أننا لا نستطيع ان نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعيّد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إلَه أو آلهة مشتركة يعبدها جميع القوم، واذ كانت العرب لا تعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة يقدسها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً، فلا يمكن ان نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب، في عهود ما قبل الإسلام.

ولفظة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة[١]. وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ المعربة المأخوذة عن لغة بني إرم على رأي المستشرقين. ف (عيدا) في الإرمية هي (العيد) في العربية[٢].

---

[1] تاج العروس (٢/ ٤٣٨)، اللسان (٤/ ٣١٣)، بلوغ الأرب (١/ ٣٤٤).

[2] Ency., II, p. 444.

الفصل الثالث والسبعون

بيوت العبادة

والمعبد هو الموضع المخصص للعبادة. وقد وردت في النصوص الجاهلية وفي عربية القرآن الكريم ألفاظ تؤدي هذا المعنى، فقد كان الجاهليون قد اتخذوا معابد ثابتة ومعابد متنقلة مثل بيوت الوبر، تعبدوا بها إلى معبوداتهم قبل الإسلام وقبل الميلاد.

فقد كانت القبائل في حركة دائمة، بحثاً عن الغزو والكلأ والماء. وكانت آلهتها في حركة دائمة أيضاً، ترحل مع المتعبدين لها، وتستقر عند استقرارهم بمكان ما. وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في قبتها، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر. وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة، وللموضيع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه، وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز[1]. ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد، واتخاذ معبد ثابت، لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد. ولذلك لم يرضَ العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان الى مكان. ثم إن أهل الوبر قوم رحل، ولا يمكن لمن هذا حاله اتخاذ معبد ثابت له، لما كان عليه من وجوب نقل أصنامه معه حيث يذهب.

---

[1] Die Araber, III, S. 132.

ولبيوت الأصنام سدنة، يحفظون الأصنام بها، ويرعونها، وينقلونها معهم حيث ترحل القبيلة، فإذا نزلت نزلوا بها، ليقيموا لها الواجبات الدينية المفروضة في الخيمة المقدسة. حيث فرضت طبيعة البداوة على أصحابها هذا النوع من أنواع البيوت المقدسة، وهذه الطقوس الدينية التي تلائم حياة الأعراب.

وبيوت العبادة عند الجاهليين ثلاثة أنواع: بيوت عبادة خاصة بالمشركين عبدة الأصنام، وهم الكثرة الغالبة، وبيوت عبادة خاصة باليهود، وبيوت عبادة خاصة بالنصارى. أما بيوت عبادة المجوس، فقد عرفت في العربية الشرقية وفي العربية الجنوبية، ولكن عبّادها هم من المجوس، أي العجم، فالمجوسية لم تنتشر بين العرب، ولم تدخل بينهم إلاّ بين عدد قليل من الناس.

وما ذكرته عن بيوت العبادة، خاص بالمعابد العامة، وهناك مواضع عبادة خاصة، جعلت في البيوت، وضع أصحابها أصنامهم في ركن من أركانها، وتقربوا إليها. روي أن العباس، كان قد أقام الصنمين أسافاً ونائلة في ركن داره، وكانا حجرين عظيمين[1]. واحتفظ غيرة بأصنام في بيوتهم للتبرك بها، ولحماية البيت، وكانوا اذا سافروا حملوا أصنامهم الصغيرة معهم للاحتماء بها، وأخذ بعض شباب المدينة ما وجدوه من أصنام في البيوت، تعبد لها آباؤهم فحطمها، ومنهم من رماها في مواضع العذرة والقاذورات.

وقد استطعنا اليوم بفضل جهود السياح والمنقبين والباحثين من الحصول على بعض المعلومات عن معابد جاهلية كانت عامرة يوماً ما. وذلك بعثور المذكورين على ألواح مكتوبة وجدت في خرائب تلك المعابد. ولكن ما عثر عليه، لا صلة له بالدين في الغالب، فليس فيه أدعية أو صلوات أو كتابات تفصح عن عقائد القوم وعن أمور دينهم. ولهذا فإن علمنا بديانات الجاهليين لا يزال ضحلاً، لم يتقدم تقدماً مرضياً، وأملنا الوحيد في زيادته هو في المستقبل، فلعله يخرج من صناديق سره المكتومة ما يفصح عن عقائد القوم.

وقد اتخذ بعض العرب، وهم المتمكنون، بيوتاً وكعبات لعبادة أصنامهم، وضعوا أصنامهم في أجوافها، ومنهم من اتخذ صنماً، فلم يبن عليه بناءً، لعدم استطاعته ذلك. ومن لم يقدر عليه، ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام

---

[1] الأزرقي (١/ ١١٢)، (٢/ ١٨٨).

الحرم، وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسمّوها الأنصاب[١].

وذكر أن (وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي)، كان قد اتخذ له صرحاً بالحزورة، سوق كانت بمكة، يرتقيه بسلالم يتعبد فيه، فعرف بصاحب الصرح[٢].

والبيت، مأوى الإنسان ومسكنه في الأصل، ثم تجوز الناس فأطلقوا اللفظة على المعبد، باعتبار أنه بيت الآلهة أو الإلهَ، لاعتقادهم أن الآلهة تحل به[٣]. وقد كانوا يضعون الصنم أو الأصنام فيه. ويقال للبيت عندئذ (بيت الله) أو (بيت ريام) وهو بيت يذكر (ابن الكلبي) أنه كان لحمير بصنعاء، وأن الناس كانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح[٤]، أو (بيت الربة) وما شاكل ذلك، بحسب اختصاص البيت بالصنم.

كذلك أطلقت كلمة (بيت) بمعنى معبد في نصوص المسند، فورد: (وقدسو بيت مرب)، أي (وقدسوا بيت مأرب) أو (وبيت مأرب المقدس)[٥]. فلفظة بيت هي اللفظة التي استعملت لمواضع العبادة، أي المعبد، أطلقت قبل اسم الإلَه أو الموضع لتدل على التخصيص. وهي ترد في لغات سامية أخرى في هذا المعنى نفسه.

وأما (الكعبة) فالبيت المربع، وكل بيت مربع كعبة عند العرب. وقد خصصت في الإسلام بالبيت الحرام بمكة. والكعبة الغرفة أيضاً. وقد كان لربيعة بيت يطوفون به، يسمونه الكعبات، وقيل: ذو الكعبات، وقد ذكره الأسود ابن يعفر في شعره، فقال:

والبيتِ ذي الكعبــات من ســنداد[٦]

والمسجد كل موضع يتعبد فيه[٧]. وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى أيضاً.

---

1 الأصنام (٢١) «روزا».
2 تاج العروس (١٣٩/٢)، (صرح).
3 المفردات (٦٤).
4 الأصنام (٧) «روزا».
5 CIH 541, Le Muséon, 1936, LXVII, p. 103.
6 اللسان (١/ ٧١٨)، المفردات (٤٤٦).
7 اللسان (٣/ ٢٠٤ وما بعدها)، تاج العروس (٢/ ٣٧١)، (سجد).

وقد وردت اللفظة في نصوص بني إرم وفي النصوص النبطية والصفوية. ورد على هذه الصورة (مسجدا) في نصوص بني إرم. وورد على هذه الصورة في النصوص الصفوية أيضاً، وقد عنت به معبداً[١].

وقد عبر عن المعبد بلفظة (مكربن)، أي (المكرب) أو (المكراب) في بعض نصوص المسند؛ إذ ورد (مكربن يعق)، بمعنى (معبد يعوق)[٢]. ومن هذا الأصل أخذت كلمة (مكراب) في الحبشية، ومعناها (معبد)[٣]. ولهذا ذهب (كلاسر) وغيره الى أن (مكربة) Mocoraba المدينة المذكورة في (جغرافيا) (بطلميوس) هي (مكة)، لأنها (مقربة) الى الأصنام، فهي بمعنى (البيت) و(الكعبة) في لهجتنا[٤].

وتقابل كلمة (المعبد) كلمة Templum اللاتينية التي تعني موضعاً مربعاً، فهي بمعنى (الكعبة)، و(كعبة) في اللغة العربية. ويلاحظ توافق تام بين معنى الكلمتيْن في هاتيْن اللغتيْن[٥]. ولا بد أن يكون لاتخاذ هذا الشكل للمعبد سبب، إذ لا يعقل أن يكون قد جاء ذلك عفواً، ولا سيما أننا نلاحظ ان الكلمتيْن: اللاتينية والعربية، قد جاءتا من شكل البناء ونوعه وطرازه.

وذكر علماء اللغة أن في جملة الألفاظ التي تطلق على بيوت الأصنام والعبادة والتصاوير، لفظة (البد). وهي تؤدي معنى (صنم) كذلك. وذكروا أنها من الألفاظ المعربة عن الفارسية، عربت من (بت)[٦]، وأنها تعني البيت اذا كان فيه أصنام وتصاوير[٧].

وذكروا أن في جملة الألفاظ التي أطلقت على بيوت الأصنام لفظة (الطاغوت) والجمع (الطواغيت). ورد أن العرب «كانت قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي إليها، كما

---

[1] العرب في سورية قبل الإسلام (١١٩).
[2] Shorter Ency. of Islam, p. 330, Cooke, North Semitic Inscriptions, p. 238.
[3] Le Muséon, 1954, LXVII, p. 100.
[4] Ency., II, p. 586.
[5] Ency. Religi., Vol., 12, p. 236.
[6] تاج العروس (٢/ ٢٩٥)، (بدد).
[7] شمس العلوم (جا، ق١، ص ١١٩)، غرائب اللغة (٢١٨).

تهدي إلى الكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر، عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده»[١]. وورد أن (الطاغوت). الصنم، وكل معبود من دون الله، ولما تقدم سُمي الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً[٢]. واللفظة تعني في لغة (بني إرم): رئيس عقيدة ضلال، وشيطان وصنم[٣].

و(الهيكل) من الألفاظ الدالة على موضع العبادة، استعملت لبيوت الأصنام مجازاً، ولمعابد النصارى[٤]. والظاهر أن استعمالها كان عند العرب الشماليين، في الغالب. مثل عرب العراق وعرب بلاد الشأم، ولا سيما عند النصارى منهم. أخذوها من الآراميين، إذ هي بمعنى بيت الصنم، أي معبد الوثنيين عندهم[٥]. وقد وردت في لغة (المسند) كذلك، وردت بمعنى (قصر)[٦]، ومعبد في أيام دخول النصرانية إلى اليمن.

وقد أطلق (الديدانيون) على بيت (بعل سمن)، لفظة: (احرم) بمعنى (الحرم) تعظيماً وتمجيداً له. فهو ذلك الإلَه[٧]. وترد لفظة (محرم) ـــ التي لا زالت حية معروفة يطلقها أهل اليمن على محرم (بلقيس) ـــ في لغة المسند، بمعنى المعبد، والمسجد الحرام. وقد وردت في عدد من النصوص[٨].

وبيوت العبادة أنواع. بيوت عبادة كبيرة، يحج إليها في أوقات معينة، ومواسم محددة، من مواضع قريبة أو بعيدة، هي محجات يحج إليها في وقت معين ثابت، يتقرب بها المتعبدون الى رب المحجة أو أربابها بأداء واجب الخضوع والطاعة. وتكون محجة واحدة في الغالب، اختارها الإله أو الآلهة من بين سائر أماكن الأرض لتكون موضعاً مقدساً وحرماً آمناً، فهي أقدس بقعة وأعز مكان في نظر المتعبدين لها على وجه هذه الدنيا. فلا تدانيها المعابد الأخرى ولا تبلغ منزلتها في الحرمة والمكانة.

---

[1] ابن هشام (١/ ٨٦ ما بعدها)، هامش على الروض الأنف (١/ ٦٤).
[2] المفردات، للأصفهاني (٣٠٧)، الأصنام (٦)، تاج العروس (١٠/ ٢٢٥)، (طغا)، غرائب اللغة (١٩٤).
[3] غرائب اللغة (١٩٤)، Hughes, Dictionary of Islam, p. 625.
[4] تاج العروس (٨/ ١٧٠)، (هيكل).
[5] غرائب اللغة (٢٠٩).
[6] Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 433.
[7] Histoire, IV, p. 312, Préislamiques, p. 20.
[8] Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 440.

وهناك بيوت عبادة أخرى تكون دون المحجات في الأهمية والدرجة، لأن الآلهة لم تخترها لنفسها ولم تنص على اسمها، وإنما هي دور عبادة أقامها الناس تقرباً إلى تلك الآلهة. وهي متفاوتة في الدرجة أيضاً، فيها المعابد الكبيرة التي صرف على إقامتها مال كثير، وفيها معابد بسيطة، يقيمها الناس تقرباً إلى أربابهم.

والناس في ذلك العهد، كالناس في أيامنا هذه، لا يكتفون بتشييد معبد واحد في المدينة، بل نجدهم يقيمون جملة بيوت للعبادة، وقد خُصص بعضها بعبادة جملة آلهة، وخصص بعضها بعبادة إلَه واحد معين، يذكر اسمه على باب المعبد. وقد تبنى في الموضع الواحد جملة معابد لإله واحد، لأن المعابد من الأعمال الخيرية التى يقوم بها المؤمنون تقرباً إلى الآلهة، لذلك يصادف قيام جملة أسر ببناء معابد لذلك الإلهَ، تسميها باسمه وتنقش اسم الأسرة أو المتبرع بالبناء على موضع بارز من المعبد. وبفضل هذه الطريقة القديمة، التي لا تزال البشريه تتبعها، تمكنا من الحصول على معلومات عن تلك المعابد وعن الآلهة التي خصصت لها وعن أسماء المؤمنين الذين أقاموها.

وقد اتخذ الإنسان من الكهوف بيوتاً للعبادة، كما اتخذ من الجبال والمواضع المرتفعة أماكن بنى عليها معابده، ليكون في رأيه ونظره أقرب إلى السماء، حيث تقيم الالهة، فتسمع دعاءه، وتصل إليها كلمته، وتستجيب له، أكثر من استجابتها له لو كان على سطح الأرض. وبنى الحضري معبده في المواطن التي يقيم فيها، وحاول جهده الإنفاق عليها، والتفنن في بنائها وزخرفتها، لتكون بيوتاً تليق بسكنى الأرباب. أما البدو، فكانت معابدهم في الخيام، تحفظ فيها أصنامها، فتنتقل معها، وتضرب في الموضع الذي تحل القبيلة فيه. ينظرون إليها نظرة تقديس وإجلال، لأنها حرم الآلهة وأماكنها وبيوتها المقدسة، فلا يجوز تدنيسها ولا انتهاك حرمتها. لهذا لم يكن يسمح لأحد بالدخول إليها إلا اذا كان من رجال الدين.

ولهذه الخيام المقدسة سدنة، يضعون الصنم أو الأصنام في جوفها، ويسهرون على خدمتها، وينقلونها معهم حيث تنتقل القبيلة. وهم يتوارثون خدمتها. واذا استقرت القبيلة وتحضرت، تحضر معبد صنمها بتحضرها كذلك. ووجد الصنم

عندئذ له مستقراً دائماً ومقاماً ثابتاً، ويصير عندئذ في عداد الأصنام الثابتة. ويكون للصنم عندئذ معبد تتناسب قيمته وأهميته ودرجة عمرانه، مع مكانة القبيلة وعدد رجالها وغناها وما عندها من مال.

وللعين أهمية كبيرة في تقييم المعبد وفي نشر العبادة وفي تكوين شخصية الإلَه رب المعبد فيما بين الناس. فكما أن قيمة الإنسان بملبسه وبأناقته وبحسن مظهره، كذلك تكون قيمة المعبد بضخامته وبما يزين به من نقوش وزخارف وبما يعلق على الموضع المقدس منه من ذهب وفضة وأحجار كريمة. فالمعبد الضخم، يدل على قوة الإلَه وقدرته في نظر من ينظر بعينه لا بعقله إلى قيم الأمور، أي في نظر السواد، وهم الكثرة الغالبة، ولذلك يجلبهم اليه، وتلقى ضخامته في نفوسهم تأثيراً كبيراً يجعلهم يشعرون أنهم أمام بيت إلَه حقاً، لما فيه من روعة ولما تفوح في داخله من روائح البخور والطيب، لذا حرص رجال الدين على جعل معابدهم ضخمة فخمة، لتجلب لها أكبر عدد ممكن من المتعبدين.

ومن أشهر المواضع المرتفعة التي حج إليها المتعبدون للتبتل والتعبد، والتي ورد ذكرها في قصص أهل الأخبار: حِراء، وأبو قبيس، وثبير.

أما (حراء) فقد ورد في بيت منسوب إلى شاعر جاهلي:

فإني والــذي حجت قريش   محارمه، وما جمعت حراء[1]

وجعل أحد الأجبل الخمسة التي بُني من حجارتها البيت[2]. وإليه كان يلجأ كبار قريش لدعوة آلهتهم في الملمات، وإليه أيضاً كان يأتي بعض المتحنثين النّساك الزاهدين في عبادة الأوثان للتفكير والتأمل. وفيه غار تحنث فيه النبي، ويعرف بـ (جبل النور)[3]. وورد أن أبا طالب أرسل عقيلاً ليأتي بالرسول إليه، فذهب إلى (كبس)، وأخرجه منه. والكبس الغار[4]. ويظهر أنه أراد به غار حراء.

---

[1] البكري (٢/ ٤٣٢)، (حراء)، هو «عوف بن الأعوص» العامري، شرح ديوان لبيد (٢١).
[2] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ٢٦)، (ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة).
[3] تاج العروس (١٠/ ٨٧)، (جرو).
[4] تاج العروس (٤/ ٢٣٩)، (كبس).

وأما (أبو قبيس)، فيظهر من غربلة أخبار الأخباريين أنه كان من المواضع المقدسة الداخلة في شعائر الحج، يرتقي. الحجاج ظهره، ليتموا بذلك مناسك حجهم، وليدعوا آلهتهم بما يطلبون ويرغبون. وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء. فالمظلوم يجد محله فوق هذا الجبل للدعاء عند انحباس المطر، لنزول الغيث[1].

وقد زعم بعض أهل الأخبار، أنه سمّي (أبا قبيس) برجل من مذحج حدّاد، لأنه أول من بنى فيه، أو بقبيس بن شالخ، رجل من جرهم، كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه (مية)، فنذرت أن لا تكلمه، وكان شديد الكلف بها فحلف ليقتلن قبيساً، فهرب منه في الجبل المعروف به، وانقطع خبره. فإما مات وإما تردّى منه، فسمي الجبل أبا قبيس. «وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب. وكان أبو قبيس الجبل هذا يسمى الأمين، لأن الركن، أي الحجر الأسود، كان مستودعاً فيه»[2]. «وكان الله عز وجل استودع للركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح»، فلما أقام (إبراهيم) قواعد البيت، (جاءه جبريل بالحجر الأسود)[3]. والظاهر أن بيتاً للعبادة كان عليه، وأنه كانت له صلة بالبيت، فتجسمت هذه الصلة في الذي ذكروه عن الحجر الآسود ووجوده فيه.

وأما (ثبير)، فقد كانوا يفيضون منه في الحج على نحو يذكر في شعائر الحج.

ويلاحظ أن أهل العربية الجنوبية وأهل السراة قدسوا قمم الجبال، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآلهة، مثل معبد (اوم) (أوّام) في (الو). وقد أزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام، ولكن بعضها أخذ طابعاً إسلامياً فصير مثلاً قبراً من قبور الأنبياء مثل: (حضور نبي شعيب)، الذي يقع على قمة جبل تعد من أعلا قمم جبال العربية الجنوبية، و(نبي ايوب) و(مقلى) على محر (مبلقة)[4].

---

[1] المشرق: السنة التاسعة والثلاثون، تموز ــ أيلول ١٩٤١، (ص ٢٥٢ وما بعدها).
[2] تاج العروس (٤/ ٢١٢)، (قبس).
[3] الأزرقي (١/ ٢٧)، (ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة).
[4] تاج العروس (٣/ ١٤٨)، (حضر)، Beiträge, S. 85, Ency., II, p. 222.

وترجع قدسية المواضع المقدسة وحرمتها إلى الاعتقاد بنزول الآلهة في هذه المواضع، والى وجود قوى خارقة فيها، أو إلى وجود مقدسين فيها قبروا في باطنها، فقدست تلك المواضع لهذه الأسباب. وتعرف هذه المواضع المقدسة بأسماء من تقدست بهم، وبأسماء المواضع التي تقع فيها.

وإنا لنرى كثيراً من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والآبار المقدسة حيث تروى الأرض بالماء فتنمو به المزروعات ويستقي منها الناس. وقد صوّر هذا الخصب لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان ولهذه الأرض[١].

وقدست بعض المواضع وأقيمت المعابد بها، بسبب وجود أشجار مقدسة بها، ونجد في أخبار أهل الأخبار أن بعض المعابد مثل معبد العزى، كان المتعبدون يتقربون بها إلى سمرات، أي شجرات ثلاثة، أو إلى شجرة واحدة، فكانوا يعلقون عليها الحلي ويزينونها، ومثل معبد (ذات أنواط)، وهي شجرة كانت تعبد في الجاهلية، وهي سمرة كان المتعبدون لها ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها[٢].

وقدست مواضع أخرى لوجود أحجار مقدسة بها، كانوا يطوفون، حولها من هذه المواضع: (عكاظ). فكان الناس يأتون الموضع في الموسم، فينصبون فيه خيامهم، ويقيمون سوقهم، ويطوفون بأحجار عكاظ، يقيمون على ذلك أيام الموسم. فهي أيام عبادة وتجارة وفرح.

ولهذه القدسية والحرمة، لم يسمح للسواد الأعظم من الناس بدخول الغرف المقدسة المخصصة بالآلهة، لأنها بيوت الآلهة، وعوض لهم عن هذا التحريم بالطواف حولها أو بلمس جدرانها، وللسبب نفسه، حتم على القاصدين لها غسل أجسامهم وتنظيفها ولبس ملابس طاهرة نظيفة، كان سدنة بعض تلك المعابد، أو أهل المواضع التي تقع فيها المعابد يؤجرونها للناس، بأجر معين مرسوم، إن كانت تلك المعابد من المعابد الكبيرة وفي مواسم الحج. كذلك لم يكن يسمح لأحد بالدخول إلى المعابد والأحذية في أرجلهم فلا بد من خلعها والدخول بغير أحذية

[1] Ency. Relgili., 6, p. 753, Roberson, p. 115.

[2] تاج العروس (٥/ ٢٣٦)، (نوط).

احتراماً لقدسية المكان وخشية التدنيس[1]. وقد حتم الجاهليون على من يريد دخول الكعبة من المتمكنين خلع نعليه، احتراماً للبيت. ذكر أهل الأخبار أن أول من خلع نعليه لدخول الكعبة (الوليد بن المغيرة)، فخلع الناس نعالهم في الإسلام[2].

وقد عثر على كتابات جاهلية تبين منها، أن الجاهليين كانوا يعدّون طهارة الملابس وطهارة الجسم من الأمور الملازمة لمن يريد دخول المعبد، فإذا دخل إنسان معبداً وهو نجس عدّ آثماً، وقد ورد أن رجلاً اتصل بامرأة، ثم دخل المعبد بملابسه التي كان يلبسها حين اتصل بها، فعدّ آثماً، ودفع فدية عن إثمه إرضاءً للآلهة[3]. وورد أن رجلاً دخل معبد الإلَه (رب السماء) (ذ سموى) بمعطف نجس، فدفع فدية عن ذلك، جزاء ما ارتكبه من إثم[4]. فدخول المعابد بملابس نجسة، نجاسة: مادية أو معنوية، إثم، تعاقب الآلهة عليه، لهذا اشترطت ديانتهم عليهم عدم دخول بيوت الآلهة، إلاّ بملابس طاهرة نظيفة حرمة وتقديراً لهذه البيوت.

وللسبب المذكور اشترط سدنة الصنم (الجلسد) على من يريد من عبّاده تقديم قربان إليه، أو تكليمه كراء ثياب مسدنة، للبسها بدلاً من ملابسهم، لأنها ملابس نظيفة طاهرة، لم تمسها أدارن مادية أو معنوية[5]. وهو شرط نجده عند غير العرب أيضاً كالعبرانيين[6]. وقد كانت المعابد تدخر ملابس تكريها لمن يريد أداء شعائر زيارة بيوت الأصنام.

وورد في كتب أهل الأخبار، أن الجاهليين حتموا على المرأة الحائض ألاّ تمس الصنم ولا تتمسح به، وألاّ تدخل بيته لنجاسة الحيض[7]. وورد أن (فاختة) أم (حكيم بن حزام بن خويلد)، كانت دخلت الكعبة وهي حامل متمّ بحكيم

---

1 Ency. Religi., 6, p. 53.

2 ابن رسته، الأعلاق (١٩١)، صبح الأعشى (١/ ٤٢٨).

3 Glaser 1050, Hofmus 6, CIH 523, Grohmann, S. 251, f.

4 Rep. Epigr., 3956, Grohmann, S. 252.

5 البلدان (٣/ ١٢٢).

6 «ثم قال الله ليعقوب: قمْ فأصعد إلى بيت إيل، وأقمْ هناك، واصنعْ هناك مذبحاً لله الذي ظهر لكَ عند هربك من وجه عيسو أخيك، فقال يعقوب لأخيه وسائر من معه: أزيلوا هذه الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم. وهلموا نصعد إلى بيت إيل»، التكوين (٣٥)، الآية ١ وما بعدها.

7 الأصنام (٣٣)، خزانة الأدب (٣/ ٢٤٥).

ابن حزام فأجاءها المخاض، فلم تستطع الخروج من الكعبة، فوضعته فيها فلفت في الأنطاع هي وجنينها وطرح مثبرها وثيابها التي كانت عليها، فجعلت لقي لا تقرب[١]. فيظهر من هذا الخبر أن أهل مكة كانوا يعتبرون دم المخاض والولادة نجساً، ولهذا اعتبرت الأنطاع التي وضعت (فاختة) جنينها عليها، بل اعتبرت هي نجسة أيضاً، فلفت بالأنطاع، وألقيت، وجعلت لقي لا يمسها أحد.

وعثر المنقبون على أحواض داخل المعابد في العربية الغربية، يظهر أنها كانت للوضوء، لتطهير الجسم قبل الدخول إلى المسجد، موضع الصنم. وذلك بغسل الوجه واليدين والقدمين وربما الأبدان كذلك، قبل الدخول إلى بيت الصنم. ولكون هذا الوضوء تطهيراً للجسم، عرفت (الميضأة) بالمطهرة، لأنها تطهر من الأدران[٢]. ولهذا السبب، حفرت الآبار في المعابد، لتموين هذه الأحواض بالماء، وللتبرك أيضاً بالماء المقدس، ولاستعماله في أغراض أخرى، منها تنظيف الجسم من الأدران بعد قضاء الحاجة.

ولهم آداب اتبعوها حين دخولهم بيت الصنم، وحين خروجهم منه. من ذلك إن القبائل كانت تتجنب أن تجعل ظهورها على مناة إعظاماً للصنم. فكانت تنحرف في سيرها، حتى لا يكون الصنم إلى ظهرها. وفي ذلك قال الكميت بن زيد، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة:

وقد آلت في قبائل لا تولي مناة ظهورها مُتَحرّفينا[٣]

وقد تطورت أشكال المعابد وهندستها بتطور الحضارة، وبشكل طبيعة الأرض التي يقام المعبد عليها. وهي تتناسب مع درجة تطور الشعوب ودرجة رقيها وطراز تفكيرها واختلاطها. بالأمم المجاورة. ولذلك نجد معابد (تدمر) مثلاً قد تأثرت بطراز البناء الإغريقي، لتغلغل الثقافة اليونانية فيها، ولتأثر سكان المدينة باليونان. كذلك نجد هذا الأثر والأثر الروماني في معابد بلاد الشأم وفلسطين، فالمعبد أذن

---

[1] الروض الأنف (١/ ١٣٤)، الإصابة (١/ ٣٤٨)، (رقم ١٨٠٠)، كتاب نسب قريش (٢٣١).
[2] تاج العروس (١/ ١٣٤)، (وضوء).
[3] ابن هشام (١/ ٩٠)، المشرق، السنة ١٩٣٨م، (الجزء الأول)، (ص ١١)، ابن هشام (١/ ٦٥)، (حاشية على الروض الأنف)، (قصة عمرو بن لحي وذكر أصنام العرب).

هو نموذج معبر عن نفسية الناس وعن حضارتهم ودرجة تفكيرهم وعن هندستهم، ومدى تأثر فن البناء عندهم بالمؤثرات الداخلية الأصيلة أو المؤثرات الدخيلة في الزمن الذي قام فيه البناء.

ومن هنا نجد معابد اليمن، اتخذت لها الحجارة الضخمة المتقطعة من الصخور في بناء الجدر والأرض وفي الأعمدة، ونجد المعمار قد تفنن في تزويق الجدر والأعمدة والسقوف وفي زخرفتها، فصارت المعابد ضخمة جميلة، لا تضاهيها المعابد التي أقيمت في مواضع سهلة من جزيرة العرب، لعدم وجود المواد الصالحة للبناء فيها، ولأن الطبيعة لم تهب للمعمار فيها ما يدفعه إلى بناء أبنية ضخمة فيها تضاهي معابد أهل اليمن.

الاستفسار عن المغيبات:

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقرب إلى الأصنام حسب، بل كانت مواضع استفسار عن المغيبات كذلك، يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عمّا عندهم من مشكلات، أو عما سيخبئه لهم المستقبل من أمور، أو عن أعمال يريدون القيام بها، أو عن سرقة، وما شابه ذلك من طلبات. ومن هذه البيوت بيت رئام، وقد كانوا يكلمون منه وينحرون عنده[١]. وبيت العزى، وكانوا يسمعون فيه الصوت[٢]. والمنطبق وكان صنماً من نحاس يكلمون من جوفه، فيأتيهم الجواب[٣]. وبيت (الجلسد)، صنم كندة وأهل حضرموت[٤]. وقد ذكر (الجاحظ): «أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه، حتى عاده النبي، صلى الله عليه وسلم». وهو ممن يشكون في صدور مثل هذه الأمور إذ يقول: «وهذه فتنة لم يكن الله ليمتحن بها الأعراب وأشباه الأعراب من العوام. وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب»[٥].

---

[1] الأصنام (ص ١٢)، الطبري (٢/ ٩٧).
[2] الأصنام (ص ١٨).
[3] المجد (ص ٣١٨).
[4] البلدان (٣/ ١٢٢ وما بعدها).
[5] الحيوان (٦/ ٢٠١).

تكليم الأصنام:

ويقوم الكهان بتكليم الصنم، وهم الذين يفسرون للسائلين الهمهمة أو الأصوات الصادرة من تلك الأصنام ويتكلمون على ألسنتها بما يلائم السائل مقابل نذر وهدايا وألطاف يقدمونها إلى السدنة. وهذا النوع من التنبؤ، معروف عند اليونان والرومان، مشهور ومعروف عند غيرهم من الأمم كالبابليين والآشوريين والعبرانيين. بل هو يؤلف جزءاً مهماً من أركان الديانات القديمة، ويطلق عليه Oracle في الإنكليزية من Oraculum اللاتينية، ومعناها التكلم. ولهذا النوع من التنبؤ صلة كبيرة بالسحر Magic وبالكهانة في الديانات القديمة والديانات البدائية عند بعض الشعوب الافريقية والاسترالية في الزمن الحاضر. وقد اكتسبت بعض معابد اليونان شهرة كبيرة في هذا النوع من التنبؤ بالغيب، وأشهرها معبد (دلفي) Delphi الذي كسب شهرة عظيمة في هذا الباب[١].

وقد ورد في بعض النصوص، أن قوماً كلموا آلهتهم في شهر (ذ اجبى ذ عثتر) و(ذ فرعم ذ عثتر)، فأجابهم الإله (عثتر) على ما سألوا عليه. وورد أن جماعة من المؤمنين بـ (عم)، كلموه، فأجابهم على ما سألوا عنه. وكانوا إذا كلموا الآلهة، فوجدوا أن الأجوبة غير منسجمة مع الأسئلة، أعادوا الأسئلة عليها وقدموا قرابين جديدة لها، أو وزادوا في الحلوان، يفعلون ذلك حتى يسمعوا الجواب المناسب لأسئلتهم[٢].

ولم أسمع بوجود تكليم في مكة. فلم يذكر أحد من أهل الأخبار أن الجاهلين كانوا يأتون الكعبة لسماع أجوبة الأصنام عن أسئلة يوجهونها إليها، ولا عن وجود سدنة كانوا يقومون بأي نوع من التكليم. وإنما ذكروا أنهم كانوا يسألون الأصنام النصح والارشاد، والأمر والنهي بفعل فعل أو تركه، ويكون ذلك بالاستقسام بالأزلام. وقد خصص الصنم (هبل) بهذا النوع من الإرشاد. وكانت عنده سبعة قداح، كل قدح منها فيه كتاب: قدح فيه العقل، اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم، ضربوا بالقداح السبعة عليهم، فإن خرج العقل، فعلى

---

[1] Ency. Brita., Vol., 16, p. 830, T. D. Dempsey, The Delphic Aracle, 1918, L. R., Farnell, Cults of the Greek Sates, Vol., IV, p. 179.

[2] Grohmann, S. 251.

من خرج حمله. وقدح فيه (نعم) للأمر، إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قدح فيه نعم، عملوا به. وقدح فيه (لا)، فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القداح، فإذا خرج ذلك القدح، لم يفعلوا ذلك الأمر. وقدح فيه (منكم)، وقدح فيه (ملصق)، وقدح فيه (من غيركم)، وقدح فيه (المياه)، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج به، عملوا به. وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل وبمئة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا فلان، أردنا به كذا. وكذا، فأخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح: إضرب، فإن خرج عليه (منكم) كان منهم وسيطاً، وإن خرج عليه من (غيركم) كان حليفاً، وإن خرج عليه (ملصق)، كان ملصقاً على منزلته فيهم لا نسب له ولا حليف، وإن خرج شيء مما سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك، حتى يأتوا به مرة أخرى، ينتهون في أمرهم ذلك إلى ما خرجت به القداح[١].

وهكذا كانت قريش والقبائل التي تحج إلى مكة تأتي إلى هبل لاستشارته في قضايا تهمها، فما يخرج في القدح مما هو مكتوب، يكون الجواب. غير أن بعض الأجوبة قد يأتي على خلاف رغبة السائلين، ولذلك كانوا يغرون الضارب على القداح بالضرب إلى أن يخرج القدح الذي فيه يريدون ويشتهون وقد يؤخرون ذلك بعض الوقت. وهم يفسرون النتيجة التي تظهر أنها رغبة الصنم وأرادته بوحيها، فتظهر بالقداح.

وذو الخلصة من الأصنام التي كان يستقسم عندها كذلك. وإلى هذا الصنم ينسب قول أحد الشعراء لهذه الأبيات:

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العُداة زورا

---

[1] الأزرقي (١/ ٦٨ وما بعدها)، الطبري (٢/ ١٧٢ وما بعدها).

وهي أبيات ينسبها بعض الرواة إلى امرئ القيس. وكان أبوه قتل، فأراد الطلب بثأره. فأتى ذا الخلصة، فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال هذه الأبيات التي تتحدث عن غضب الشاعر على هذا الصنم، لنهيه إياه عن الأخذ بالثأر، ولو كانت النتيجة كما يشتهي، لما قال الشاعر هذه الأبيات بالطبع، وتجاسر على الصنم[١].

ولما كانت الحروب والغزوات من القضايا المهمة، كانت استشارة الأصنام والاستقسام بشأنها من الأمور المألوفة، فكان أهل مكة اذا أرادوا الحرب أو عقد هدنة أو إبرام أمر خطير أتوا (هُبل) يستقسمون عنده ليعطيهم الرأي المصيب في هذا الموضوع.

والغالب أن يكون الاستقسام أمام الصنم، ليقع في روع طالب الاستقسام أن ما يجري إنما هو بعلم الصنم وبوحيه، فيكون ذلك أوكد في نفسه وأعمق تأثيراً.

أشكال المعابد:

هذا ولا بد لي أن أشير إلى أننا لا نملك حتى الآن رأياً واضحاً قاطعاً في شكل المعابد عند الجاهليين. ولا يمكن تكوين رأي واضح عن هذا النحو إلاّ بعد قيام علماء الآثار المتخصصين بدراسة آثار المعابد والكشف عنها ورسم مخططات صحيحة لقواعدها وأسسها. ولذلك، لا بد من مرور زمن، حتى يتمكن العلماء من تكوين رأي في أصول المعابد، وكيفية إقامتها من الوجهة الدينية الأصولية عند العرب قبل الإسلام.

واذا كان في استطاعتنا تحديد شكل (بيت الله) بمكة، و(كعبة نجران) و(كعبة سنداد)، أو (كعبات سنداد)، كما يسميها البعض، فإن من الصعب علينا تحديد هيأة بيوت الأصنام في المعابد الأخرى، لعدم ورود نص يعين صفة تلك البيوت في أخبار أهل الأخبار. فلا ندري أكانت مكعبات، أم على أشكال أخر.

ولما كانت المعابد بيوت الأرباب، صارت لها حرمة خاصة وقدسية في كل

---

[1] الأصنام (٣٥، ٤٧).

دين، فلا يجوز انتهاك حرمتها، ولا القيام بأعمال شائنة دنسة فيها، خاصة بالقياس إلى الأماكن المقدسة جداً التي تعدّ محجة للناس. وقد اتخذت حول البيوت مواضع عدّت جزءاً من المعبد حددت بحدود، فما كان داخلاً عد حرماً آمناً، وما كان خارج الحد كان خارجاً عن المعبد، فليست له تلك الحرمة التي عيّنتها شريعة القوم للمعابد.

وأقدس مكان في المعبد هو (البيت)، أي الغرفة التي تضم الصنم أو الأصنام. فقد كان البيت، وهو المسمى الكعبة في مكة، أقدم موضع عند قريش وعند غيرهم من عبدة الأصنام الذين كانوا يقدسون (البيت الحرام)، وذلك بسبب وجود الأصنام فيه.

ويعبر في العربية الجنوبية عن البيت الذي توضع فيه الأصنام، بـ (مختن)[1] فهو إذن بمثابة الكعبة بمكة.

ويقال للأرض الحرام المقدسة التي تحيط بـ (البيت)، (الحرم). قيل سمي (الحرم) حرماً لتحريم الناس فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواضع[2]. وقد وردت اللفظة في الكتابات النبطية. فوردت في كتابة نبطية عثر عليها في (بطرا) علماً لحرم الإلَه ذي الشرى، قصد به الأرض المقدسة المحيطة ببيت ذلك الصنم، والمعبد كله، لأنه محرم ومقدس: (حرم ذي الشرى الإلَه ربنا)[3].

ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه. وإذا دخل إنسان الحرم صار آمناً مطمئناً، لا يجوز أن يعتدى عليه، ولا أن يمس بسوء، وإن كان قاتلاً. وحدود الحرم أنصابه، وهي علاماته، فمن اجتازها وصار في داخلها، دخل في حرمة الحرم.

وما كان خارج الحرم، هو من الحل، أي من المنطقة الخارجة عن حرمة المعبد. فلا تشملها الأحكام المفروضة على الحرم.

وكان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً ولجأ إلى الكعبة، لم يهج، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم، قيل له: هو صرورة ولا تهجه[4].

---

[1] Grohmann, S. 249.

[2] المفردات (١١٣).

[3] Lidzbarski, Nord Semi. Epigra., S. 280, CIS., II, p. 350, G. A. Cooke, North Semi. Inscriptions, Oxford, 1903, p. 79, Ency. Religi., 6, p. 753.

[4] تاج العروس (٣/ ٣٣١)، (صرر).

ولمكانة الحرم في نفوس الجاهليين ولأنه موطن آمن من دخل فيه صار آمناً، كان لا بد من تحديده ووضع معالم تشير إلى نهايته، إما بوضع أنصاب على أطرافه من تجاوزها إلى داخله صار آمناً فلا يخاف على نفسه، وإما ببناء حائل كجدار أو سياج أو أمثال ذلك ليكون اشارة إلى حرمة ما وراءه في الداخل. وقد جعل أهل مكة حدود حرم البيت أنصاباً من تجاوزها إلى الداخل صار في حرمة الحرم وفي حماية رب البيت.

وكانت أرض المعابد، أي حرمها، واسعة في الأصل، ذات ماء وأشجار وحمى، ثم تقلصت وضيقت وحددت بحدود، يسكن الناس حولها، وبتقربهم من المعبد، وبزيادة عدد عبّاده. فعندما يتألق نجم معبد، ويكثر المؤمنون بصاحبه، يكثر زوّاره، ويتسابق الناس إلى السكن بجواره والتقرب منه جهد امكانه، إذ يكون ذلك شرفاً لهم. شرف مجاورة البيت، كما يكون مكسباً وموردا طيباً للمال، لرغبة الزوار في مجاورة المعبد، فيدفع هذا الطمع، أصحاب النفوذ والجاه على اختلاس الأرض والتجاوز على حدود الحروم فتضيق. كالذي حدث بمكة، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً، يشمل الوادي كله، فلما هبط (قصي) به وابتنى البيوت، اعتدى من جاء بعده على الحرم حتى صغر، مما دفع الخلفاء على شراء البيوت المجاورة وهدمها لإعادة أرضها إلى الحرم ليتسع صدره للناس.

وتلحق بالمعابد أرضون، يقال لها (حمى) لأنها في حماية الأرباب والأصنام ورعايتها، فلا يعتدى عليها، ولا يقطع شجرها ولا يرعى فيها ولا يسمح بصيد الحيوان فيها والاعتداء عليه في أرض الحمى[1]. فكان في الطائف (حمى)، وهو (حمى اللات)، وقد خصص به، وكان حمى في جرش[2]. بل كان وادي مكة الذي أقيم البيت به (حمى) لرب البيت، ولم يكن يسمح لأحد قبل (قصي) بقطع شجره، ولا التجاوز على ما فيه من نبت. وقد كان (قُصي) كما يقول أهل الأخبار أول من اقتطع شجره، وأقام البيوت لسكناه وسكنى قريش في ذلك الوادي.

ويفهم من كلام (نيلوس) Nilus أن العرب لم يكونوا يحيطون مواضعهم

---

[1] اللسان (١٤/ ١٩٩)، العرب في سوريا قبل الإسلام (١١١).

[2] Ency. Religi., 6, p. 753.

المقدسة التي فيها أصنامهم بأسوار، وإنما كانوا يجعلون لحرمها حجارة تكون حدّاً وعلامة للحرم. ويتبين من كلام هذا المؤرخ الذي أسر العرب ابنه وأرادوا تقديمه إلى الزهرة قرباناً على حدّ قوله، أنه قصد بالعرب الأعراب، ولا سيما أعراب طور سيناء، وقد كانوا أشداء غلاظاً يلقون الرعب في النفوس، وكانوا يتاجرون بالرقيق يقبضون على من يقع في أيديهم ويبيعونه في أسواق الرقيق. وجماعة هذا شأنها لا تستقر في مكان، لا يمكن بالطبع أن يكون لها معبد ثابت، وإنما يكون معبدها الموضع الذي يوضع صنم القبيلة فيه، ولتعيين الأرض الحرام توضع تلك الحجارة.

إلا أن هذا لا يعني أن معابد أهل المدر كانت مسورة أو ذات حائل دائماً، فقد ذكرت أن حرم بيت الله بمكة لم يكن مسوراً، بل كان معلماً بأنصاب. ومكة موضع حضر. أما حرم معبد (المقه) بمأرب وكذلك أكثر معابد أهل اليمن، فقد كانت مسوّرة بأسوار عالية قوية، لها أبواب يدخل المتعبدون منها، تفتح وتغلق كما نفعل هذا اليوم في دور العبادة عندنا.

ومن المعابد الشهيرة: (البيت الحرام)، أي (الكعبة) بمكة، وسأتكلم عليه في موضع خاص. ومعبد (ذو الشرى) Dushare بمدينة (بطرا)، و(كعبة سنداد)، و(كعبة نجران)، ومعابد عديدة في مواضع أخرى من جزيرة العرب، ولا سيما اليمن.

والفضل في ظفرنا ببعض المعارف عن (بيت الرب) بمدينة (بطرا)، يعود إلى الكتابات النبطية، والى ما كتبه بعض الكتبة اليونان والسريان عنه. وقد خصص هذا البيت بعبادة الإلَه (ذي الشرى)، الذي هو (رب البيت)[1] التي أطلقها النبط على إلههم، تذكرنا بجملة أخرى معروفة في الجاهلية عند أهل مكة، كما هي معروفة عند المسلمين حتى اليوم، هي جملة: (رب البيت)، التي تعني إلَه البيت، وهو الكعبة، وقد أقرها وثبّتها الإسلام. وقد نعت (رب البيت)، (رب بيت ذي الشرى) بـ (الذي يفرق الليل عن النهار)[2] وهو نعت له أهمية كبيرة في تكوين فكرة عن وجهة نظر عبّاده اليه.

---

[1] CIS, II, 235, RES, 1088.
[2] RES, 1102, Ency. Religi., p. 122.

وقد نصب في هذا المعبد الصنم (ذو الشرى) على قاعدة مكسوة بالذهب، في بيت موشى بالذهب وبالصور التي تمثل مشاهد تقديم القرابين إليه. وهو في موضع مرتفع على صخرة عالية، يحج إليه الناس من مواضع بعيدة، للتقرب إلى ذلك الإله الذي يقابل الإلَه (باخوس) و(ديونسيوس) (Dionysos-Bacchus) في رأي الكتبة اليونان واللاتين[1].

وكان لهذا المعبد حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام، فيفد إليه الناس من أماكن بعيدة للتقرب إلى (رب البيت)، فينحرون ويقضون الأيام المعينة، ثم يعودون إلى ديارهم. والظاهر أن هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل (العربية النبطية)، إنما كانت محجة لغيرهم من العرب، كما يتبين ذلك من تصريحات بعض الكتبة (الكلاسيكيين) عنها.

وقد عرفت بعض معابد الجاهليين بـ (الكعبات). ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيأة مكعب كشكل بناء الكعبة، وعلى أن العرب كانوا يبنون بيوت الأصنام الكبرى على هذا النحو. من هذه كعبة (سنداد) على ما يذكره الأخباريون، وهي قصر كانت العرب تحج إليه. فيطوفون حوله، وقد عرف بـ (الكعبات) جمع كعبة وهو البيت المربع والمرتفع، وبـ (ذات الكعبات). و(ذي الكعبات). وكان مركز حج قبائل بكر بن وائل وإياد[2]. ولكن الأخباريين لم يتحدثوا بشيء من التفصيل عن هذا المعبد وعن كيفيته وشكله وعن الأصنام التي كانت فيه. وقد ذكر (ابن الكلبي) أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة، إنما كان منزلاً شريفاً[3].

وذكر أن (ذات الكعبات) بيت كان لبكر وتغلب ابني وائل وإياد، وذكر أنه بيت كان لربيعة، كانوا يطوفون به. وذكر أنه كان لإياد، وكان كعبة

---

[1] Ency. Religi., 9, p. 122, Epiphanius, Hoer., LI, 22.

[2] البلدان (٥/ ١٥٠)، «سنداد»، (٧/ ٢٥٥)، اللسان (١/ ٧١٨)، (كعب)، تاج العروس (١/ ٤٥٦ وما بعدها)، Ency., II, p. 590.

[3] الأصنام (ص ٤٥)، «وكان لربيعة بيت يطوفون به، يسمونه الكعبات، وقيل ذا الكعبات، وقد ذكره الأسود بن يعفى في شعره، فقال: والبيت ذي الشرفات من سنداد»، اللسان (١/ ٧١٨)، (كعب).

بسنداد بين الحيرة والابلة[1]. وهو من منازل إياد أسفل سواد الكوفة، وكان عليه قصر تحج العرب اليه[2].

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ (كعبة نجران). وهو بناء بُني على هيأة الكعبة. وفي رواية تنسب لابن الكلبي انها كانت قُبة من أدم من ثلاث مئة جلد، كان اذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفداً رفد[3]. ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها ومن كونهم أساقفة انها كانت بيعة أسسها النصارى في مركز النصرانية في اليمن، وهو موضع نجران، وأنه لا علاقة له بالوثنية. ويذكر الأخباريون أن بني عبد المدان بن الديّان الحارثي أقاموها هناك، مضاهاةً للكعبة[4]. وقد ذكر (ابن الكلبي) أن كعبة نجران لم تكن كعبة عبادة، وانما كانت غرفة يعظمها القوم من بني الحارث بن كعب[5]. وبنو الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران.

وذكر بعض أهل الأخبار أن كعبة نجران وكانت لمذحج وبني الحارث بن كعب، عرفت بـ(الربة)[6].

وقد ذكر (ابن الكلبي) أن رجلاً من جهينة يقال له عبد الدار بن حُديب أراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء ليضاهي به الكعبة حتى يستميل به العرب، فأعظم قومه ذلك، وأبوا عليه[7]. ونجد في كتاب (الأصنام) لابن الكلبي، وفي كتب أهل الأخبار أسماء مواضع ذكر أنها كانت بيوت عبادة حج إليها العرب حجهم لمكة. وذكر ان قريشاً بَنَتْ للعزى بيتاً بوادي حراض بإزاء الغمير، وحمت له شِعباً من وادي حراض يقال له سقام، يضاهون به

---

[1] تاج العروس (١/ ٤٥٧)، (كعب)، الأصنام (٤٥)، البلدان (٥/ ١٤٩).
[2] تاج العروس (٢/ ٣٨٣)، (سند).
[3] البلدان (٨/ ٢٦٢ وما بعدها)، تاج العروس (٣/ ٥٥٦)، (نجر).
[4] البلدان (٨/ ٢٦٢).
[5] الأصنام (ص ٤٥).
[6] تاج العروس (١/ ٢٦٢)، (ربب)، قال الأعشى:

وكعبة نجران حتــم عليــك ... حتى تنــاجي بأبوابهــا
يزور يزيــد وبعد المســيح ... وقيسا هم خيــر أربابها

تاج العروس (٣/ ٥٥٦)، (نجر).
[7] الأصنام (٤٥).

الكعبة، وقد حجت إليه، وكانت تنحر عنده، ويتقربون إلى العزى بالذبائح[١].

وقد ذكر الأخباريون أنه كان بعكاظ صخور يطوف الجاهليون بها ويحجون إليها[٢]. وإذا تذكرنا (دومة الجندل) ومعبدها الكبير، فلا يستبعد أن تكون الأسواق الأخرى مواضع مقدسة قديمة كانت محجة للناس عامرة تفد إليها القبائل في مواسم الحج، ثم فقدت خطورتها قبيل الإسلام، ولم يبقَ عليها إلا طابع الأسواق التجارية.

وتكون في المعابد مواضع يلقي فيها العباد وأصحاب النذور هداياهم ونذورهم التي يتقربون بها إلى آلهة المعبد. وقد أشار أهل الأخبار الى وجودها في الكعبة وفي المعابد الجاهلية الأخرى. ويظهر من وصفهم لها أنها كانت على شكل حفر، تلقى فيها تلك الهدايا والنذور. فذكر الأخباريون أنه كان على يمين الداخل إلى البيت (جب)، اتخذ خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى الى الكعبة، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي (هُبَل) وهو صنم كانت قريش تعبده. وقد عرف علماء اللغة الجب بأنه البئر[٣]، ووصفها (الأزرقي)، فقال: إنها كانت في جوف الكعبة على يمين من يدخلها، وكان عمقها ثلاث أذرع، وأن اسمها (الأخسف)، وكانت العرب تسميها (الأخشف)[٤].

السقاية:

وفي المعابد سقايا، يستقى منها الماء للشرب وللتطهر، كأن تغسل الأوجه والأيدي والأرجل بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية. ويعد الماء ماءً مقدساً، لأنه من أرض مقدسة، ولذلك يتبرك به أيضاً، ويستشفى بالشرب منه. وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم،

---

[1] الأصنام (ص ١٦، ١٨ وما بعدها).
[2] البلدان (٦/ ٢٠٣)، المشرق السنة ٣٧، نيسان ــ حزيران، ١٩٣٩م (ص ٢٢٠).
[3] اللسان (١/ ٢٥٠) «صادر».
[4] أخبار مكة (١/ ٢٧، ٦٨)، البلدان (٧/ ٢٥٨ وما بعدها).

وعند أدائهم الشعائر الدينية. وبئر زمزم، هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية.

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة، وهي تسقية الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء. وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب[1]. وكان بعضهم يسقي الحاج اللبن بالعسل.

المذابح

وتلحق بالمعابد مذابح تذبح عليها القرابين التي يقرب بها المؤمنون الى آلهتهم، ويقال للواحد منها، (مذبح) و(نصب) و(مصب) و(غبغب). وقد وردت لفظة (مذبح) و(مذبحت)، أي (المذبحة)، في طائفة من الكتابات. وهي مواضع الذبح، حيث يكون تقريب القرابين إلى الآلهة.

وقد ذهب علماء اللغة مذاهب في تحديد معنى (النصب)، فرأى بعضهم أن النصب كل ما عُبد من دون الله، وذهب بعض آخر الى أن النصب صنم أو حجر كانت الجاهلية تنصبه، وتذبح عنده، فيحمرّ للدم، وذهب آخرون إلى أن الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب، ويذبح عليها لغير الله تعالى[2]. وعرفها بعض بقوله: «النصب الأوثان من الحجارة، جماعة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرض، فكان المشركون يقربون لها وليست بأصنام»، «قال ابن جريج: النصب ليست بأصنام. الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب ثلثمائة وستون حجراً. منهم من يقول ثلثمائة منها بخزاعة. فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة. فقال المسلمون: يا رسول الله! كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق أن نعظمه»[3]. ولو أخذنا برواية (ابن جريج)، خلصنا إلى أن هذه

---

[1] اللسان (١٤/ ٣٩٢)، (سقى)، الإصابة (٢/ ٢٦٣)، (رقم ٤٥٠٧).
[2] اللسان (١/ ٧٦٠) «صادر»، (٢/ ٢٥٩)، «بولاق»، القاموس (١/ ١٣٢)، تاج العروس (١/ ٤٨٦)، الأصنام (٩٧)، تفسير الطبري (٦/ ٤٤)، الأصنام (٣٣)، (المطبعة الأميرية ١٩٦٤).
[3] تفسير الطبري (٦/ ٤٨).

الأنصاب، كانت بعدد أصنام الكعبة، أي إنهم كانوا قد خصصوا بكل صنم، نصباً، يذبحون عليه ما يتقربون به إليه من عتائر. فقد كان عدد أصنام الكعبة ثلثمائة وستون حجراً عام الفتح على ما يذكره أهل الأخبار، إلاّ اذا اعتبرنا ما ذكروه عن عدد الأصنام وهماً، وأخذنا برواية (ابن جريج) التي هي دون الرواية الأخرى في الشهرة والذكر.

وأشير إلى (النصب) في شعر ينسب إلى (الأعشى)، يقال إنه قاله في مدح الرسول هو:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعـــاقبة والله ربك فاعبـــدا[١]

وعلى كل، فنحن لو أخذنا بالروايتيْن، أو برواية واحدة منهما، فإن العدد (٣٦٠) يلفت النظر حقاً. فلمَ خصص رواة الخبرين عدد الأصنام أو الأنصاب بهذا الرقم، وهل يمثل ذلك شيئاً له صلة بالفلك، أو بأسطورة دينية قديمة كانت عند أهل مكة؟

وقد وردت كلمة (النصب) في آية اللحوم المحرمات التي لا يجوز أكلها في القرآن الكريم: ﴿حرمت عليكم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبعُ، إلاَّ ما ذكيتم، وما ذبح على النصب﴾[٢]. فجعلت، الذبائح التي تذبح على النصب للأصنام في جملة التي لا يحل للمسلم أكلها، فيفهم من هذه الآية أن النصب مواضع تذبح عليها القرابين. كما وردت في موضع آخر من سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان. فاجتنبوه﴾[٣]. وقد ذكر علماء التفسير، أن الأنصاب التي يذبحون عندها[٤].

وقد ذكر علماء التفسير، أن أهل الجاهلية كانوا قد وضعوا حول الكعبة

---

[1] تاج العروس (٤٨٦/١)، (نصب).
[2] المائدة، الآية ٣.
[3] المائدة، الرقم (٥)، الآية ٩٠.
[4] تفسير الطبري (٧/ ٢١).

أنصاباً، أي حجارة كانوا يذبحون عليها، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم: وجعلوه على الحجارة. وكانوا يبدلونها إذا شاؤوا بحجر هو أحب إليهم منها[1]. كما كانوا قد وضعوا الأنصاب في بيوت الأصنام الأخرى، يذبحون عليها ذبائحهم لها. وقد أشير إلى (المائرات)، أي الدماء: دماء الذبائح لـ(رشيد بن رميض العنزي):

حلفت بمائرات حول عوض وأنصار تركن لدى السعير[2]

و(عوض) صنم لبكر بن وائل، و(السُعير) صنم لعنزة خاصة.

و(نصب) هي (نصب) و(مصب) في اللهجات العربية الجنوبية، و(نصب) و(مصبت) في الفينيقية، و(مصبه) Masseba في العبرانية. ويراد بها مذبح، تذبح عليها القرابين والضحايا التي يقدمها المتعبدون إلى معبودهم Deity . ويعرف بـ Altar أي مذبح في الإنكليزية. وهو من حجر واحد في الأصل، قد يذبح عليه، فيسيل الدم فوقه ويتلطخ به، وقد يكون في نظرهم بمثابة المعبود الذي تقدم الضحية إليه. وقد يذبح عليه، فيسيل الدم من فتحة تكون فيه إلى بئر تتجمع فيها دماء الذبائح، تكون عند قاعدة النصب.

وقد تخصص المذابح بحرق لحم الذبيحة كله أو بعضه عليها، تقرباً إلى الأصنام، كالذي كان يفعله العبرانيون[3].

وقد عثر المنقبون على أحجار عديدة اتخذت أنصاباً لذبح القرابين عليها أو عندها، عثر عليها في العربية الجنوبية بصورة خاصة. وفي بعضها فتحة على هيأة ثقب تسيل منه دماء القرابين إلى موضع تتجمع فيه. وفي بعض آخر مسايلُ جانبية، تسيل الدماء منها إلى الخارج. وهذه الأنصاب هي (مذابح) ويقال للواحد منها (مذبحم) في العربيات الجنوبية أي (مذبح). ولذبح القرابين (ذبحن) و(ذبحم)، أي (الذبح) و(ذبح).

---

[1] تفسير الطبري (٦/ ٤٨ وما بعدها)، «وهي أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها الأصنام»، إرشاد الساري (٦/ ١٧٢).

[2] تاج العروس (٣/ ٢٦٨)، (سعر)، (٣/ ٥٥٠)، (مور).

[3] Hastings, p. 23.

فالنصب اذن، الأحجار التي تذبح عليها القرابين وما يهل للأصنام. والعادة أن تكون أمام الصنم، وعلى مقربة منه. فإذا ذبح القربان سال دمه على النصب إلى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم. هي (الغبغب). و(النصب) هو (مصبه) Massebah في العبرانية، حيث كانوا يذبحون عليها القرابين. ولكثرة ما كان يذبح عليها صارت تبدوا حمراء من لون الدم، وقد أشير إلى الحمرة في حديث إسلام (أبي ذر الغفاري)، إذ ذكر أنه وصف تعذيب قريش له بقوله: «فرماني الناس حتى كأني نصب أحمر»[١].

وليس لأهل الأخبار رأي واحد في (الغبغب)، وإنما ذهب بعضهم إلى أن الغبغب هو المنحر، وذهب بعض آخر إلى أنه خزانة المعبد، يلقي الناذرون فيها ما عندهم من نذور وقربات، وذهب فريق آخر الى أنه بيت كان الناس يحجون إليه، كما يحج إلى البيت بمكة[٢]. وقيل إنه كان لمعتب بن قيس بيت يقال له غبغب، كانوا يحجون اليه[٣].

والذي عليه أكثر أهل الأخبار أن (الغبغب) المنحر. وقد صرح بذلك (ابن الكلبي) في كتاب (الأصنام): وهو يتحدث عن (العزى)، فقال: «ولها منحر ينحرون فيه هداياها، يقال له الغبغب»[٤]. كما صرح بذلك علماء اللغة إذ عرفوا الغبغب بأنه المنحر، أو نصب كان يذبح عليه في الجاهلية، أو كل مذبح بمنى. وقد خصصه بعضهم بمذبح منى[٥]. أو هو حجر ينصب بين يدي صنم، وكان لمناف مستقبل ركن الحجر الأسود غبغب، وقيل كانا اثنين ويظهر من شرح علماء اللغة للمثل: (رب رمية من غير رامٍ)، ينسب قوله إلى الحكم بن عبد غوث أن الغبغب هو المذبح، أي المنحر الذي ينحر عليه[٦].

---

1 الإصابة (٤/٩٣)، (الرقم ٣٨٤)، «فخررت مغشياً علي، ثم ارتفعت كأني نصب أحمر»، الأصنام (١١١).
2 مراصد الإطلاع (٢/ ٩٨٣)، البلدان (٤/١٨٥)، اللسان (١/ ٦٣٧)، تاج العروس (١/ ٤٠٣)، البلدان (٦/ ١١٢)، الأصنام (١١١)، ابن هشام (١/ ٥٥).
3 ابن هشام (١/ ٥٥)، البلدان (٦/ ١١٢).
4 الأصنام (١٣)، «روزا».
5 اللسان (١/٦٣٧).
6 اللسان (١/ ٦٣٧) «صادر»، (٢/ ١٢٨ وما بعدها)، «بولاق»، تاج العروس (١/ ٤٠٦)، (غب)، البلدان (٦/ ٢٦٥)، (الغبغب).

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن (بيوت) الآلهة أنه كان لكل (بيت) (غبغب)، تذبح فيه هداياها، أي ما يهدى إلى تلك البيوت من قرابين. وقيل: الغبغب: المنحر، وهو جبيل بمنى، فخصص. وقيل كل منحر بمنى غبغب. قال الشاعر:

والراقصـــات الى منى فالغبغب[١]

ويذكر علماء اللغة أن (الغبغب) (العبعب) كذلك[٢]. وأن العبعب موضع الصنم. وصنم لقضاعة ومن داناهم[٣]. وبيت كان لمتعب بن قيس، كانوا يحجون إليه كما يحجون إلى البيت[٤]. ويظهر من هذا الشرح أن (الغبغب) و(العبعب)، كلمة واحدة، لشيء واحد.

و(الغبغب) (الجب) كذلك. وهو حفرة يجمع فيها دم البدن، والجمع (الجباجب). قال «الزبير بن بكّار: الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى، أو أسواقها أو منحر، وقال البرقي، حُفرٌ بمنى كان يلقى به الكروش، أي كروش الأضاحي في أيام الحج، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا، والعرب تعظمها وتفخر بها»[٥].

ويفهم أحياناً أن (الغبغب)، حفرة أو بئر، كان المتعبدون للأصنام يرمون بها نذورهم وهداياهم وما يتقربون به إلى أصنام كل: نذور نفيسة، من ذهب أو فضة أو حجارة كريمة. فكانت تحت صخرة (اللات) حفرة عُرفت بـ (الغبغب) حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم إلى الصنم. فلما هدم الصنم أخذت من الغبغب تلك الأموال[٦]. ويرادف الغبغب (الجب)، الذي يُقال له (الأخسف) و(الأخشف)، وهو بئر في جوف الكعبة نصب (هبل) عليه. كان الناس يرمون فيها نذورهم وهداياهم. وتقع على يمين من يدخل البيت، وكان عمقها ثلاث أذرع[٧].

---

1 تاج العروس (١/ ٤٠٤)، (غب).
2 تاج العروس (١/ ٤٠٣)، (غب).
3 تاج العروس (١/ ٣٦٣)، (غب)، البلدان (٦/ ١١٢)، الأصنام (١١١).
4 البلدان (٤/ ١٨٥).
5 تاج العروس (١/ ١٧٤)، (جبب).
6 الطبري (٣/ ٩٩ وما بعدها).
7 أخبار مكة، للأزرقي (١/ ٦٦ وما بعدها).

و(الغريّ) مذبح على ما يظهر من تفسير علماء اللغة لهذه اللفظة. يظهر أنه كان صخرة تذبح عندها الذبائح وتطلى بدمها، أو نصب تذبح للقرابين عليه[1].

ويعبر عن المذبح الذي تذبح عليه الحيوانات الكبيرة، مثل البقر بلفظة (حردن)[2].

ومن الألفاظ التي تطلق على المذبح، (منطف) و(منطفت)، أي (المنطفة)، وهي المذبحة[3]. والمذبح، هو (مذبحت) في نصوص المسند، أي موضع الذبح.

المحارق:

وتلحق بالمعبد محارق، تحرق فيها القرابين، يقال لها (مصرب)[4]. وقد كان العبرانيون يحرقون قرابينهم، في محارق تلحق بالمعبد، وتكون جزءاً منه. أما العرب، فإننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا يحرقون قرابينهم في كل جزيرة العرب، لأننا لا نملك أدلّة آثارية على ذلك، إلاّ معابد اليمن وأعالي الحجاز، حيث عثر على آثار المحارق في معابدها، مما يدل على أنهم كانوا يحرقون القرابين.

و(المصرب)، المحرقة، الموضع الذي يحرق به الخشب ذي الرائحة الطيبة أو البخور، وهو مبخرة، تكون في المعابد، يحرق بها، لتفوح منها روائح طيبة، أثناء العبادة. وقد أشير إليها في نصوص المسند.

البخور والمباخر:

وللتبخير شأن كبير في أداء الفروض في المعابد، إذ لا بد من حرق البخور فيها، فيبخر بها المذبح والأصنام كما يبخر القائمون بأداء تلك الفروض. وتسمى المبخرة ب (مسلم)، وب (مقطر) وذلك في لغة بعض الجاهليين[5].

---

[1] اللسان (١٥/ ١٢٢)، (غرا)، تاج العروس (١٠/ ٢٦٤).

[2] Grohmann, Arabien, S. 247.

[3] Grohmann, Arabien, S. 249.

[4] Grohmann, Arabien, S. 247.

[5] Grohmann, Arabien, S. 247.

و(المجمرة) والمجمر، الموضع الذي يوضع فيه الجمر بالدخنة للتجمير[1].

وقد أشير إلى المجمرات والمباخر في كتابات المسند. وعثر المنقبون على نماذج منها، قدمها الناذرون نذوراً إلى آلهتهم، وقد وضعوها في معابدها، وهي في جملة الهدايا المرموقة التي تقدم إلى المعابد بعضها من أحجار وبعضها من معدن بذل جهداً في صنعته وفي زخرفته حيث يكون هدية قيّمة تكون خليقة بوضعها في المعابد.

وقد كان الناس يأتون بالمجامر ليجّمروا بها، الكعبة تقرباً بعملهم هذا إلى الأصنام، وذكر أن حريقاً أصاب الكعبة، بسبب تطاير شرر من جمرة امرأة جمرت البيت، فأصاب ستار الكعبة، فاحترق. والتجمير، هو من شعائر التقدير والتعظيم. وهو مما يدخل في الطقوس، وقد صرفت المعابد القديمة أموالاً على شراء (العود) وغيره لإحراقه في المجامر، لتطييب المذبح والمعبد به. وَكان البخور مما يبخر به في المعابد أيضاً. وقد استعمله الجاهليون في بيوتهم المعظمة كذلك.

وتلحق بالمعابد مواضع يخزن فيها ما يقدم إلى المعبد من هدايا ونذور، وما يرد إليه من غلات أوقافه. واذا كانت النذور والهدايا ماشية، فقد تحفظ في مواضع بعيدة عن المعبد، أو توضع في أحماء المعابد لترعى بها. ولا يجوز التعرض لها بسوء. وتعلم بعلامات تشير إلى أنها مما حبس على الأصنام. وكانت لهبل خزانة للقرابين. وكان قربانه مئة بعير، وله حاجب يقوم بخدمته[2]. وفي جملة ما أهداه الناس إلى أصنامهم السيوف والملابس، وكانوا يعلقونها أحياناً على الأصنام[3].

سدنة الآلهة:

ولبيوت العبادة سدَنة وحجبة وخدم، يقومون كلهم بخدمة البيت وما فيه من أصنام. ويعبر في عربيتنا عن الذي يتولى أمر الصنم بـ (السادن) و(سادن الصنم).

---

[1] تاج العروس (٣/ ١٠٨)، (جمر).
[2] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ٦٨ وما بعدها).
[3] نهاية لأرب (١٦/ ١٩).

وهو المسؤول عن الصنم أو الأصنام، ومتولي أمرها. وهو المرجع الأعلى في سلسلة الرتب بالنسبة إلى المعابد. ويعبر عنه بلفظة (شوع) في المعينية[1]، وبلفظة أخرى هي (رشو). وأما إذا كان السادن امرأة، فيقال لها (رشوت) (رشوة) عندئذ[2].

ويقال لسادن الآلهة (افكل) (أفكل) في اللحيانية. جاء (افكل لت) (أفكل لات) أي (سادن اللات)[3]. وتقابل هذه اللفظة لفظة (ابكلو) Apkallu في اللغة الأكادية[4].

وتعد السدانة من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين. وبيد السادن في العادة مفتاح بيت الصنم أو الأصنام. وتكون وراثية في الأغلب تتنقل في أفراد العائلة من الأب الى ابنه الأكبر أو إلى غيره من البارزين في الأسرة. وهي منزلة شرف، تكسب صاحبها جاهاً، كما تكسبه مالاً، لما تأتي به إليه من حبوس ونذور وقرابين. لذلك صارت سبباً لوقوع خصومات بين الأسر، من أجل الاستحواذ عليها، كالذي حدث مراراً في مكة من أجل الحصول على مفاتيح البيت.

وسدنة الأصنام في الجاهلية قومتها وحجابها، وكانت السدانة واللواء بمكة لبني عبد الدار في الجاهلية، فأقرها النبي لهم في الإسلام. فكان إليهم أمر مفتاح البيت[5].

ومن قدماء من كانت إليهم ولاية أمر البيت الحرام أي سدانته، رجل زعموا أنه ولي أمر البيت بعد جرهم، ودعوه (وكيع بن سلمة بن زهير (زهر) الإيادي). جعلوه سادناً، وجعلوه كاهناً، فنسبوا اليه سجعاً من نوع سجع الكهان. ذكر أنه جمع إياداً قبيل وفاته فنصحها وأوصاها. وزُعم أنه بنى صرحاً بمكة، وجعل فيه سلماً كان يرقاه ليناجي الله. وكان الجاهليون يرون أنه صدّيق

---

[1] راجع النص رقم ٤ و٥ من كتاب: نقوش خربة معين.

[2] Grohmann, Arabien, S. 248.

[3] Grohmann, Arabien, S. 82, Jaussen-Savignac, Mission, II, 506.

[4] Grohmann, Arabien, S. 248.

[5] تاج العروس (٩/ ٢٣٣)، (سدن).

من الصّديقين، وأنه ينطق بالخبر اليقين مع السماء. وذكر أنه صاحب الصرح المعروف بحزورة مكة، وأنه هو القائل: «اسمعوا وصيتي: الكلام كلمتان، والأمر بعد البيان. من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكل شاة معلقة برجلها». فكان أول من قال هذه الكلمة، فذهبت مثلاً[1].

ويذكر أهل الأخبار أنه لما مات وكيع، نعي على الجبال. وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي:

ونحن إيـــاد عبـــاد الإلـــه ورهط منـــاجيه في سلم
ونحن ولاة الحجاب العتيق زمان النخاع على جرهم

ويفسرون زمان النخاع بأنه داء يقال له النخاع، سلّط على جرهم، فأفنى منهم ثمانين كهلاً في ليلة واحدة، سوى الشباب. وفي هذا الداء قال بعض العرب:

هلكت جرهم الكرام فعالاً وولاة البنـــية الحجـــاب
نخعوا ليلة ثمـــانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب[2]

ويظهر أن داءً كان قد تفشى في عهد غير بعيد عن الإسلام بين جرهم، فبقيت ذكراه في النفوس. ولا بد أن يكون (وكيع بن سلمة) ممن عاشوا قبيل الإسلام أيضاً، فبقيت ذكراه في أهل مكة، وإلاّ لما حفظت الذاكرة اسمه.

وقد ذكر أهل الأخبار أحياناً أسماء الأسر التي تولت سدانة البيوت المعظمة والمحجات، كما ذكروا أسماء السدنة، ولا سيما السدنة الذين كانت إليهم سدانة تلك البيوت عند ظهور الإسلام. وهم من أسر عريقة، توارثت هذا المنصب من عهد بعيد، وحافظت عليه، وصارت بذلك من أشراف القوم.

---

1 المحبر (ص ١٣٦)، الأمثال، للميداني (٢/ ٨١)، البيان والتبيين (٢/ ١٠٩)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٦٠).
2 بلوغ الأرب (٢/ ٢٦٠ وما بعدها.

حرمة المعابد:

ومع الحرمة التي كانت للمعابد، انتهك المستهترون وذوو الحاجة حرمتها، فسرقوا ما تمكنوا عليه من خزائنها. فقد سرقت خزانة الكعبة مراراً. ذكر أهل الأخبار أن سارقاً سرق من مالها في زمن جرهم، وأنه دخل البئر التي فيها كنزها، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه. وسرقت قبيل بنيانها في أيام الرسول، سرقها فتيان من فتيان قريش وأودعوا المال عند (دويك) مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة. فقطعت قريش يده[1].

---

[1] الروض الأنف (١/ ١٣٠).

الفصل الرابع والسبعون

الكعبة

وكعبة مكة، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية. فقد اندثر أثر الكعبات الأخرى وزالت معالمها، ولم يبقَ لها مكان. والى الإسلام يعود ولا شك فضل بقاء (البيت الحرام). وبفضل الإسلام أيضاً جمع العلماء ما تمكنوا من جمعه من تأريخ المدينة القديم والمعالم المتصلة بها، ومن أخبار قريش، لما لهذا التأريخ من صلة بظهور الإسلام[١].

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك، وأنهم كانوا يحجون إليها ويقدسونها ويقسمون بها. وأن من أقسم بها وذكر البيت

[1] آل عمران، الآية ٩٦، تفسير الطبري (٤/ ٦ وما بعدها)، (دار المعارف)، الطبرسي (٢/ ٤٧٦)، سورة الحج، الرقم ٢٢، الآية ٢٦، تفسير الطبري (٣/ ٤٧ وما بعدها، ٦٦ وما بعدها)، تفسير الطبرسي (٧/ ٧٨ وما بعدها)، سورة إبراهيم، الرقم ١٤، الآية٣٧، تفسير الطبري (١٣/ ١٢٥)، روح المعاني (١٣/ ٢١٢)، تفسير الطبرسي (٦/ ٣١٧ وما بعدها)، البقرة، الآية ١٢٧، تفسير الطبري (١/ ٥٤٦)، تفسير الطبرسي (١/ ٢٠٦)، البقرة، الآية ١٥٨، تفسير الطبري (٢/ ٤٣)، تفسير الطبرسي (١/ ٢٣٨ وما بعدها)، سورة المائدة، الآية ٩٧، تفسير الطبري (٧/ ٧٦ وما بعدها)، تفسير الطبرسي (٣/ ٢٤٦ وما بعدها)، سورة الأنفال، الآية ٣٤، تفسير الطبري (٣/ ٢٣٨)، تفسير الطبرسي (٣/ ٥٣٩)، سورة الإيلاف، الآية ٣، تفسير الطبرسي (٣٠/ ٣٠٧ وما بعدها)، تفسير الطبرسي (١٠/ ٥٤٣).

في شعره (زهير)[1] و(النابغة)[2]. وقد عرفت بـ (البيت العتيق)، وبـ (البيت المعمور)[3]. ورووا أن (عدي بن زيد العبادي) قصدها بقوله:

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا

دعاها (ذات الودع) لأنه كان يعلق الودع في ستورها[4].

وقد أقسم بها شاعر جاهلي آخر، هو (عوف بن الأحوص) إذ قال:

وإني والذي حجت قريش محارمه وما جمعت حراء

وشاعر عامري آخر، إذ قال:

فاقسم بالـــذي حجت قريش وموقف ذي الحجيج إلى إلال[5]

يريد بذلك مكة. وبمكة بيت الله.

ومعارفنا عن (البيت الحرام) ضئيلة، وفي الذي يذكره أهل الأخبار عنه ما لا يمكن قبوله ولا الأخذ به، لأنه لا يدخل في حدود التأريخ، ولغلبة الطابع القصصي عليه. ثم إن بعضه يناقض بعضاً، وفي بعضه تحيز وتعصب لبيت قرشي على بيت آخر. وحتى القسم الذي يتناول الأيام القريبة من الإسلام، لا يخلو من اضطراب ومن تناقض، وفيه شعر نحل على أناس، أقحمت أسماؤهم في قصص مكة، لتثبيته على طريقتهم في تثبيت الأخبار برواية شعر يتعلق بها.

ولم يعثر حتى الآن على كتابة جاهلية تكشف القناع عن تأريخ (البيت الحرام). ولذلك انحصر علمنا بتأريخه بما ورد في الموارد الإسلامية عنه.

وقد نص في القرآن الكريم، على أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت ﴿وإذ جعلنا البيتَ مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى،

---

1 فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجـــال بنوه من قريش وجرهم
ديوان زهير (١٥)، الثعالبي، ثمار القلوب (١٦).

2 فلا وربّ الذي قد زرته حججا وما هريق على الأنصاب من جسد
(فلا لعمر الذي مسحت كعبته) في رواية أخرى، ديوانه (٢٥)، الثعالبي، ثمار (١٧).

3 البلدان (١/ ٥٢١)، (بيروت ١٩٥٥).

4 تاج العروس (٥/ ٥٣٤)، (ودع).

5 المحبر (٣١٩)، شرح ديوان لبيد (٢١).

وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر. قال: ومن كفر فأمتعّه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا أنك أنت السميع العليم﴾[١]. وقد كان تأسيس البيت في أيام العرب الأولى، في أيام جرهم، على روايات أهل الأخبار، وفيهم تزوج وفي عهده ظهر ماء زمزم[٢].

ويذكر أهل الأخبار ان مكة حرم آمن، لا يحلّ فيه قتال، ولم يكن أهله يقاتلون فيه، وأن أول بغي وقع فيه، كان حرب وقعت بين (بني السباق بن عبد الدار) وبين (بني على بن سعد بن تميم)، حتى تفانوا. ولحقت طائفة من (بني السباق) بعك، فهم فيهم. وقيل أول بغي كان في قريش: بغي(الأقايش)، وهم (بنو أقيش) من بني سهم، بغى بعضهم على بعض، فلما كثر بغيهم على الناس، أرسل الله عليهم فأرة تحل فتيلة، فأحرقت الدار التي كانت فيها مساكنهم فلم يبق لهم عقب[٣].

وقد بقي البيت معبوداً مقدساً عند أهل مكة وعند غيرهم، غير أن المشركين حوّلوه إلى بيت لعبادة الأصنام والأوثان والشرك حتى عام الفتح، حيث أزال الرسول عنه آثار الجاهلية، وأمر بطمس معالم الوثنية. وصار حرماً آمناً خاصاً بالإسلام لا يدخله مشرك ولا تطأ أرضه أقدام غير مسلم مؤمن بالله وبرسوله.

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يعظمون البيت، وأن من سنن تعظيمهم له، أن من علا الكعبة من العبيد، فهو حرّ لا يرون الملك من علاها، ولا يجمعون بين عزّ علوّها وبين الرق[٤].

---

[1] البقرة، السورة رقم ٢، الآية ١٢٦ وما بعدها.

[2] الطبري (١/ ٢٧٥)، قصص الأنبياء، (٦٩)،
Shorter Ency. of Islam, p. 178, ff., Grünbaum Neue Beiträge zu Sem. Sogenkunde, S. 102, Goldziher, Die Richtungen der Islamischen Koranauslegung, S. 79, J. Harovitz, Koranische untersuchungen, S. 91.

[3] الروض الأنف (٢٨/١).

[4] الثعالبي، ثمار (١٨).

وإنهم لم يكونوا يبنون بنياناً مربعاً بمكة تعظيماً للكعبة[١]. وإن أوّل من بنى بها بيتاً مربعاً، (بديل بن ورقاء) الخزاعي، وهو أول من أتخذ بمكة روشناً، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربيع في البناء كيلا يشبه بناء الكعبة[٢] وأن أول من سقف بمكة سقفاً (قصي بن كلاب)، وكان الناس قبل ذلك إنما ينزلون في العريش وأن أول من بوب بمكة باباً (حاطب بن بلتعة)[٣].

و(بديل بن ورقاء)، هو (بديل بن ورقاء بن عبد العزى)، شريف كتب إليه النبي يدعوه إلى الإسلام، وكان له قدر في الجاهلية بمكة[٤]. فلو أخذنا برواية من قال إنه كان أول من بنى بيتاً مربعاً بمكة، وأول من اتخذ بها روشناً، وجب جعل حدوث ذلك في أيام النبي، أو بسنين قليلة قبل المبعث، فهل يعقل ذلك؟ والروشن الرف، و(الرشن) الكوة، من الألفاظ المعربة عن الفارسية[٥].

وأما (حاطب بن أبي بلتعة) فهو (حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي)، حليف بني أسد بن عبد العزى، من الصحابة وممن شهد بدراً، كان حليفاً للزبير، وكان قد كتب كتاباً إلى قريش يخبرهم بتجهيز رسول الله إليهم، فضبط الكتاب قبل وصوله مكة، واعتذر. فهو من الصحابة[٦]، وذكر أن الرسول أرسله إلى (المقوقس) صاحب الاسكندرية[٧]. فهل يعقل أن يكون أول من بوّب باباً بمكة، وقد كانت البيوت قبله بمكة منذ وجدت، فكيف كان يدخل الناس إليها، وقد رأينا قصصاً لأهل الأخبار يروونه عن امتناع (الحمس) عن دخول البيوت من أبوابها، والحمس هم قريش وأهل مكة قبل دخول (حاطب) إليها!

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرّات، لذلك لم يتمكن (بيت إبراهيم وإسماعيل) من البقاء، ولكن

---

1 الثعالبي، ثمار القلوب (١٦).
2 صبح الأعشى (١/ ٤٢٦).
3 صبح الأعشى (١/ ٤٢٦).
4 الاشتقاق (٢٨٠).
5 تاج العروس (٩/ ٢١٦)، (رشن).
6 الإصابة (١/ ٣٠٠)، (١٥٣٨)، المحبر (٧٢).
7 المحبر (٧٦).

الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه. وإنهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبه يحاولون إرجاعه إلى ما كان عليه في أيام آبائهم وأجدادهم جهد امكانهم، لا يحدثون فيه تغييراً ولا يدخلون على صورة بنائه تبديلاً.

و(البيت الحرام) بناء مكعب، ولذلك قيل له (الكعبة). وصفه أهل الأخبار، فقالوا كانت الكعبة قبل الإسلام بخمسة أعوام صنماً، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط، فوق القامة، وقيل كانت تسع أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف، وكان لها باب ملتصقة بالأرض. وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع[١]. ثم صنع (عبد المطلب)، لها باباً من حديد، حلاها بالذهب من ذهب الغزالين. وهو اول ذهب حليت به الكعبة[٢].

ووصف أهل الأخبار لها على النحو المذكور، يجعلنا نتصورها وكأنها خربة بدائية بسيطة، هي ساحة تكاد تكون مربعة أحيطت بجدار من أحجار رضمت بعضها فوق بعض من غير مادة بناء تمسك بينها، تحط في فنائها الطيور وسباع السماء، ولا يحول بين أرضها وبين أشعة الشمس المحرقة والأمطار التي تنزل على مكة أحياناً على شكل مياه خارجة من أفواه قرب، أي حائل. إنها في الواقع حائط من أحجار لا يزيد ارتفاعه على قامة إنسان.

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من بنى جدار الكعبة، (عامر) الجادر من الأزد. فقيل له: (الجادر)[٣]. وكان أول من جدر الكعبة بعد إسماعيل[٤].

وأول تسقيف لها كان ــ كما يذكر أهل الأخبار ــ في التعمير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد، وذلك قبل الإسلام بخمس سنين، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة. وسبب ذلك حريق أصابها ــ كما يزعمون ــ فقرروا إعادة بنائها، واجتمعوا وعملوا رأيهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب، وزعت في صفين. وزادا فيها تسع أذرع، فصارت ثماني عشرة ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد إليها إلا في درج أو سلّم. ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساف

---

[1] الروض الأنف (١/ ١٢٧)، الطبري (٢/ ٢٨٣ وما بعدها).
[2] الروض الأنف (١/ ١٠١).
[3] ابن سعد، طبقات (٦٤/١)، (صادر).
[4] الاشتقاق (٢٥).

من حجر وساف من خشب، حتى زادت على ما كانت عليه في الأصل[1]. وورد في الأخبار أن رسول الله لما دخل الكعبة عام الفتح، قام عند سارية فدعا، وفيها ست سوارٍ[2].

وذكر أهل الأخبار، أن سبب بنيان الكعبة، هو أنها كانت رضمة فوق القامة، وأنها كانت قد تصدعت حتى تداعت جدرانها وتساقطت أحجارها، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك إن نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة، فأجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها[3].

ولم يكن هذا البناء الجديد بناءً فخماً، كما يظهر من الوصف الوارد في كتب أهل الأخبار. كل ما فيه أنه غرفة سقفت الآن بخشب، أقيم سقفها على صفين من أعمدة، كل صف ذي ثلاثة أعمدة. وأما حيطانها، فقد زيد ارتفاعها فصار ثماني عشرة ذراعاً، بعد أن كانت تسع أذرع، أو ارتفاع قامة أو أعلى من ذلك بقليل. وقد بنيت هذه المرة من مادة بناء قوية، جعلت مدماكاً من حجارة ومدماكاً من خشب، فكان الخشب خمسة عشر مدماكاً، والحجارة ستة عشر مدماكاً. وجعلوا سقفها مسطحاً له ميزاب، يسيل منه ماء المطر. وهو على الجملة لا يقاس بشيء بمعابد العربية الجنوبية مثل معبد (المقه) بمدينة مأرب أو المعابد الأخرى التي تمكن الباحثون من الوقوف على أسسها ومعالمها، من حيث مساحة البناء أو الفن أو الروعة والعظمة.

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل من تجار الروم رمى البحر بسفينته إلى الساحل إلى (الشعيبة)، وهو مرفأ السفن من ساحل الحجاز، وكان مرفأ مكة، ومرسى سفنها قبل (جدة). فجاؤوا بالخشب إلى مكة، وكان بها نجار (قبطي)، استعين به في تسقيف البيت بذلك الخشب. وذكر أن الذي سقف البيت علج كان في السفينة، يحسن النجارة اسمه

---

[1] الروض الأنف (١/١٢٧ وما بعدها)، الطبري (٢/ ٢٨٣ وما بعدها)، «دار المعارف»، البلدان (٧/ ٢٥٩)، (الكعبة)، مروج الذهب (١/١٦٩)، (محمد محيي الدين عبد الحميد).

[2] صحيح مسلم (٤/ ٩٧)، (باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة فيها والدعاء في نواحيها كله).

[3] الطبري (٢/ ٢٩٣).

(باقوم)، فجئ به مع الخشب، وسقف الكعبة. وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة أو مسطحاً، فأمروه أن يكون مسطحاً، فعمله على ما أمروه به[1]. ويذكرون أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة أتى (عبد الله بن هبل بن أبي سالم)، ومعه مال، فقال: دعوني أشرككم في بنائها، فأذنوا له فبنى الجانب الأيمن، فـ (لبني كلب يد بيضاء في نصرتهم لقريش حين بنوا الكعبة)[2]، وصاحب هذا الخبر هو (ابن الكلبي)، ولا أستبعد أن يكون خيره هذا من وحي العاطفة فى قومه الكلبيين.

وذكر أن (باقوم) الرومي، كان يتجر إلى (المندب)، فانكسرت سفينته بالشعيبة، فخرجت إليه قريش فأخذوا خشبها، وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس، وقال لقريش: هل لكم أن تجروا عيري في عيركم، يعني التجارة، وأن أمدكم بما شئتم من خشب ونجار، فتبنوا به بيت إبراهيم[3].

ويذكر الأخباريون أنه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدار تلقاء من دخلها يخلّقان ويطيّبان اذا طيب البيت، وقد علق عليهما معاليق من حليّ كانت تهدى الى الكعبة. ويرمز القرنان إلى قرني الكبش الذي ذبحه إبراهيم الخليل[4]. وقد بقيا في الكعبة إلى أيام (عبد الله بن الزبير) فاحترقا مع الكعبة[5].

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق، زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلت «في دعامائها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة، فكان فيها صورة إبراهيم الخليل الرحمان، شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى بن مريم وأمه، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين. فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، البيت، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء، وأمر بطمس تلك الصور فطمست. ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما اسلام وقال:

---

1 الأزرقي (١/ ١٠٤)، ابن هشام (١/ ١٣٠ وما بعدها)، (حاشية على الروض الأنف)، الروض الأنف (١/ ١٣٠).

2 تاج العروس (٤/ ١٠٩)، (بس).

3 الإصابة (١/ ١٤٠ وما بعدها)، (رقم ٥٨٣).

4 الأزرقي (١/ ١٠٠).

5 القاسمي، شفاء الغرام (١٩).

أمح جميع الصور، إلاّ ما تحت يدي، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه ونظر إلى صورة إبراهيم، فقال: قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام، ما لإبراهيم والأزلام»[١]. وقد بقيت صورة عيسى بن مريم وأمه، إلى أيام عبد الله بن الزبير، فلما تهدم البيت، تهدمت الصورة معه[٢].

وأعاد الجاهليون ـ كما يذكر أهل الأخبار ـ الصنم هبل إلى مكانه، نصبوه أمام (الغبغب)، وأعادوا معه بقية الأصنام، التي كانت تتعبد لها بعض القبائل. ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة. وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح إلى (٣٦٠) صنماً، كان بعضها منحوتاً من الحجارة، وبعضها معمولاً من النحاس، وبعضها قوارير، وكان صنم خزاعة قوارير صفر. ولما دخل الرسول مكة، أمر بها فأزيلت وحطمت، فلم يبقَ من يومئذ بها صنم[٣]. وذكر أن النبي دخل مكة «وحول الكعبة ثلاثماثة وستون نصباً. فجعل يطعنها بعود كان بيده. ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»[٤].

وذكر في بعض الروايات أن رسول الله بعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته دخل الكعبة فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها[٥]. وأنه لما طاف بالبيت وجد حولها أصناماً مشدودة بالرصاص، فحطمت، وأعظمها (هبل) صنم قريش[٦].

ويتبين من الروايات الواردة عن بناء الكعبة وعن اختلاف أهل مكة وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم. على شرف وضع (الحجر الأسود) في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم، وأنه كان أقدس شيء عندهم. وإلا لما اختلفوا

---

[1] الأزرقي (١/ ١٠٤ وما بعدها)، السيرة الحلبية (٣/ ٨٧)، ابن الأثير (٢/ ١٠٥)، نهاية الأرب (١٧/ ٣١٣).
[2] الأزرقي (١/ ١٠٤).
[3] السيرة الحلبية (١/١٤٤)، ابن الأثير (٢/ ١٠٥).
[4] صحيح مسلم (٥/ ١٧٣)، «باب إزالة الأصنام من حول الكعبة»، إرشاد الساري (٧/ ٢١٠)، «باب وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».
[5] الروض الأنف (٢/ ٢٧٤)، نهاية الأرب (١٧/ ٣١٢).
[6] الروض الأنف (٢/ ٢٧٦)، نهاية الأرب (١٧/ ٣١٤).

هذا الاختلاف على وضعه، حتى ليمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة، بدليل عدم ورود لشارة ما إلى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام إلى مواضعها. ولو كانت الأصنام أقدس منه، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع. وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفيَ الميزة النبي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله. لقد ذهب (ولهوزن) إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه، بل كانت بسبب هذا الحجر. لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته، وهو الذي جلب القدسية للبيت، فصار البيت نفسه مقدساً، مقدساً في حد ذاته، بحجره هذا الذي هو فيه، ولعله شهاب (نيزك)، أو جزء من معبود مقدس قديم[١].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش، لأنه بمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد[٢].

ويلاحظ أن التقرب إلى الأحجار في بيوت العبادة كانت شائعة بين الجاهليين. وقد ذكر أن في (غيمان) موضع عبادة وفيه (حجر قحمم) (حجر قاحمم) (حجر قاحم)، وهو يشبه الحجر الأسود الذي كان يتقرب اليه الجاهليون في مكة. والحجر الذي كان في كعبة نجران وفي (تسلال)، وفي مواضع أخرى عديدة ذشرها (الهمداني). وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تبين للذين نقبوا فيها ان لها صلة بعبادة الأحجار، وأن تلك المقابر أقيمت عند موضع مقدس لوجود حجر مقدس فيه[٣].

وقد كان الجاهليون يلمسون الحجر الأسود للتبرك به، وهو مبني في جدار الكعبة، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه. وبين موضع (الحجر الأسود) وباب البيت يكون (الملتزم)، وفي الناحية الشمالية الغربية (الحجر) أو (الحطيم).

---

[1] Reste, S. 74.

[2] المشرق: (١٩٤١)، تموز ــ أيلول، (ص ٢٤٧).

[3] Beiträge, S. 84.

وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده[1]. ويقال للجهة التي فيها (الحجر الأسود) (الركن). وذكر أن العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع الحطيم ما طافت به من الثياب، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان، فسمي الموضع حطيماً[2].

وقد كانت الجاهلية تتحالف عند (الملتزم) بالأيمان، وتدعو على الظالم، وتعقد الحلف[3].

وذكر (اليعقوبي) أن الجاهليين كانوا قد وضعوا (إسافاً) و(نائلة)، داخل المسجد الحرام. وضعوا كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف اذا طاف بدأ، بإساف فقبله وختم به. وذكر أنهم نصبوا على الصفا صنماً، يقال له (مجاور الريح)، وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير)[4].

وفي روايات أهل الأخبار عن تزويق الكعبة بالصور لبس وغموض وهي روايات عديدة، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت، رسمت على دعائم السقف. ويفهم من بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متنقلة، وأنها كانت معلقة على جدران البيت. ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمست معالم جميع الصور، ويفهم من بعض آخر، أنه استثنى منها صورة مريم وابنها عيسى، وأنها بقيت كما ذكرت إلى أيام عبد الله بن الزبير. فلما تهدم البيت: تهدمت الصورة معه. أما رسم شجر أو صور ملائكة أو أشباه ذلك في الكعبة، فأمر لا اعتراض عليه، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني، يضم الأصنام. ولكن ما للوثنية والأنبياء، وما شأن للشرك بمريم وبابنها وببقية الرسل حتى ترسم صورهم على جدران أو أعمدة البيت؟ ثم هل كانت الكعبة مزوّقة قبل هذا التزويق بالرسوم والصور؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمة؟ أم هي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت؟ ورأيي أن هذه الصور هي من عمل عمّال نصارى أراهم للروم الذين جلبهم أهل مكة مع (باقوم) بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للاتجار معهم ولبناء الكعبة.

---

[1] تاج العروس (٣/ ١٢٥)، (٨/ ٢٥١)، اللسان (٤/ ١٦٦)، (١٥/ ٢٩)، البلدان (٢/ ٢٢٣ وما بعدها)، (٥/ ١٩٠)، أخبار مكة، للأزرقي (٢٤٦)، تاج العروس (٩/ ٥٩).
[2] اللسان (١٢/ ١٣٩)، (حطم)، تاج العروس (٨/ ٢٥١).
[3] البلدان (٨/ ١٤٦)، «الملتزم».
[4] اليعقوبي (١/ ٢٢٤).

و(باقوم) كما يقول الأخباريون. هو الذي أشرف على إقامة البناء وهندسته. وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد. ولا أستبعد أن يكون هو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم. وقد كان هؤلاء نصارى، فرسموا على جدران البيت أو أعمدته صور قصص كتابي، ومنه صور الأنبياء، للزينة والزخرف. لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الأصنام. ومن يدري، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها، فلم يعترضوا لذلك عليه. أما طمس الإسلام لتلك الصور، فللعلماء في ذلك كلام. وقد أشير إليه في كتب الحديث، وأكثرهم على أن الرسول لم يستثنِ من ذلك الطمس صورة[1].

وفي الحرم بئر (زمزم)، وهناك مقام إبراهيم، وبين زمزم ومقام إبراهيم كان موضع الذبح، ذبح القرابين. ويرى (ولهوزن) احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه[2].

ويرجع الأخباريون تأريخ بئر (زمزم) إلى يوم بناء الكعبة وعهد إسماعيل. ويقال لها (بئر إسماعيل) أيضاً. وهي في الحرم في جهة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن. ولا نعرف من أمرها شيئاً يذكر. ويظهر من روايات أهل الأخبار عنها أنها دفنت في أيام جرهم، وأن أهل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى احتفروها، ويستوردونه من الخارج إليها، حتى اذا كانت أيام عبد المطلب، ألقى في قلبه أن يحتفرها، فحفرها واستخرج منها كنزاً، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم[3]. ولأهل الأخبار تفاسير عديدة للفظة (زمزم)، تدل على أنهم لم يكونوا على علم بأصل التسمية، مما جاء فيها أن الملك (سابور) لما حج للبيت أشرف عليها وزمزم فيها، فقيل لها (زمزم)[4]. وهكذا جعلوا (سابور) من المؤمنين الحجاج للبيت الحرام، المتبركين بماء زمزم!

---

1 الأزرقي (١/ ١٠٤)، «تعليقات السيد رشدي الصالح ملحس على الأزرقي».

2 Reste, S. 76.

3 الطبري (٢/ ٢٥١)، «دار المعارف»، الروض الأنف (١/ ٨٠، ٩٨ وما بعدها)، الأزرقي (١/ ٢٤، ٢٨٠ وما بعدها)، البلدان (٢/ ٦٤٣)، Shorter Ency. of Islam, p. 657.

4 البلدان (٣/ ١٤٧)، الصحاح (٥/ ١٩٤٥)، اللسان (١٢/ ٢٧٥)، البكري، معجم (٢/ ٧٠٠)، عمدة القارئ (٩/ ٢٧٧)، البلدان (٢/ ٩٤٠ وما بعدها).

وكان حرم (الكعبة) كما يظهر من روايات أهل الاخبار واسعاً شاسعاً ذا نبت وشجر. ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجره أو قطعه لحرمة المكان ولحرمة ما فيه، فبقيت أشجاره على ما هي عليه، حتى إذا ما كانت أيام (قصي)، ضاقت مكة بمن وفد عليها من قريش، ممن جاء بهم (قصي) إليها، وقطعها (قصي) رباعاً، وأرادوا البنيان، ولكنهم هابوا قطع شجر الحرم للبنيان، وتذكر رواية أنهم قالوا لقصي: كيف نصنع من شجر الحرم؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك. فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله[١]. وتذكر روايات أخرى العكس. تذكر أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم، فقطعها قصي بيده، وأعانوه[٢]. وبذلك تقلصت أرض الحرم وقلت أشجاره بالتدريج.

وتذكر رواية أن أهل مكة كانوا يهابون حتى في الإسلام قطع شجر الحرم. وقطع كل شجرة دخلت من أرض الحرم في دور أهل مكة. وأن (عمر) لما قطع (دوحة) كانت في دار (أسد بن عبد العزى)، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين. بالكعبة، وذلك قبل أن يوسع المسجد، ودّاها بقرة. وتذكر أيضاً أن (عبد الله بن الزبير) حين ابتنى دوراً بـ (قعيقعان) ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان، وجعل دية كل شجرة بقرة. وذكر أن (أبا حنيفة)، قال إن كانت الشجرة التي في الحرم مما يغرسها الناس ويستنبتونها فلا فدية على من قطع شيئاً منها، وإن كان من غيرها ففيه القيمة بالغاً ما بلغت[٣].

وفي الحديث أن الله حرم مكة، وحرم شجر الحرم في جملة ما حرمه على الناس[٤].

ويظهر أن أرض مكة كانت كلها في الأصل قبل ايام (قصي) حمى للكعبة، على عادة الجاهلين. في تخصيص (حمى) لأربابهم تكون حول بيوتها، ولهذا كانت أشجار هذا الحمى أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها، سوى أخذ بعض أغصانها أو لحائها لعمل قلائد منها للاحتماء منها، فلما استباح أهل مكة لأنفسهم

---

[1] الروض الأنف (١/ ٨٧ وما بعدها).
[2] الطبري (٢/ ٢٥٨) «دار المعارف».
[3] الروض الأنف (١/ ٨٧ وما بعدها).
[4] الروض الأنف (١/ ١٢٨).

التطاول على الحرم، أي على هذا الحمى، بقطع شجره وتحويل أرضه إلى بناء، أو بإبقاء بعض أشجاره في داخل الدور، بقوا ينظرون إلى ذلك الشجر الباقي في البيوت نظرة هيبة وتقدير، باعتبار أنه من بقايا الحرم القديم. وبذلك صغرت مساحة الحرم، وقلت مساحته، حتى اضطر الخليفة (عمر) إلى توسيعه بشراء البيوت التي أقامها الناس عليه وإدخالها في الحرم من جديد، وذلك حين ضيق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها، فقال: «إن الكعبة بيت الله، ولا بدّ للبيت من فناء، وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم»، فاشترى بعض الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها، ثم اشترى عثمان دوراً أخرى وأغلى في ثمنها[1] ثم زاد في المسجد من جاء بعدهما حتى وصل الى النحو الذي هو عليه الآن.

ولم يكن للحرم في الجاهلية سور، إنما كانت تحدد معالمه وحدوده أنصاب نصبت على أطرافه. لتكون علامة على ابتدائه وانتهائه. أما ما نراه في الوقت الحاضر من وجود سور مرتفع له، أي حائط به غرف، فإنه مما حدث في الإسلام. وذكر أهل الأخبار أن الحرم قد ضرب على حدوده بالمنار القديمة التي بيَّن إبراهيم مشاعرها، وكانت قريش تعرفها في الجاهلية والإسلام، لأنهم كانوا سكان الحرم، ويعلمون أن ما دون المنار إلى مكة من الحرم، وما وراءها ليس من الحرم. فما كان دون المنار، فهو حرم لا يحل صيده ولا يقطع شجره، وما كان وراء المنار، فهو من الحل يحل صيده، إذا لم يكن صائده محرماً[2].

الكسوة:

وكسوة البيت عادة قديمة، كان يقوم بها الجاهليون. ينسبها الأخباريون إلى (تبع أسعد الحميري)، فيذكرون أنه كساها بالأنطاع، ثم كساها بثياب جدة من عصب اليمن، أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات[3]. ولا يستبعد أن يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت، حيث كان خيمة في الأصل. وقد

---

[1] الروض الأنف (١/ ١٢٩ وما بعدها).
[2] تاج العروس (٨/ ٢٣٩)، (حرم)، اللسان (١٢/ ١٢٢)، (حرم).
[3] الأزرقي (١/ ١٦٥)، الروض الأنف (١/ ٢٤).

ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل ان تكون الكعبة[١]. وكذلك كان معبد بني إسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبنى الهيكل.

ويذكرون أن التبع الذي كسا البيت، هو التبع الذي أتى به (مالك بن عجلان) إلى يثرب لطرد اليهود عنها. وذكروا أن ذلك التبع هو (أسعد ابو كرب الحميري)[٢]. وقد كساها الوصايل، ثياب حبرة من عصب اليمن. وكانت الكعبة تكسى بالحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن، تكسى بها ويوضع ما يفضل منها في خزانة الكعبة. فإذا تمزقت الكسوة، تستبدل بكسوة أخرى تؤخذ من الخزانة. تكسى من الداخل والخارج، وتطيب بالخلوق وتبخر بالمجامر[٣].

وقد سبق لي أن تحدثت عن (التبع أسعد)، وذكرت ما قاله رواة الأخبار عنه، وما جاء عنه في نصوص المسند. وكان قد علق في ذاكرة أهل الأخبار أشياء عنه وعن بعض من جاء بعده، زوقت ونمقت على طريقتهم في رواية أكثر أخبار اليمن. ولعل ما ذكروه عن إكسائه البيت، هو من مصنوعاتهم التي وضعوها في الإسلام ليجعلوا لأهل اليمن فضلاً على الكعبة، فضل يسبق فضل العدنانيين عليها، وقد رأينا أنهم أوجدوا لهم جملة أنبياء نسبوهم إلى قحطان، ووضعوا أشياء أخرى كثيرة، في اظهار فضل للقحطانيين على الإسماعيليين المتعربين يوم فات الحكم من قحطان وصار في أهل مكة في الإسلام. فكان النزاع القحطاني العدناني المعروف.

ولو جارينا أهل الأخبار، واخذنا برواياتهم في أن التبع (لسعد ابو كرب الحميري)، كان أول من كسا الكعبة، نكون قد رجعنا بمبدا تأريخ إكساء الكعبة إلى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد. وقد سبق أن تحدثت عن هذا الملك في الجزء الثاني من هذا الكتاب[٤].

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة، ولا من نسيج واحد، بل كانت انطاعاً، أي أبسطة من أدم، وحبرة وبروداً، وغيرها من عصب اليمن. وهي برود يمنية يعصب غزلها ثم يصبغ وينسج، فيأتي

---

[1] الأزرقي (١/ ٦)، «ذكر هبوط آدم إلى الأرض».
[2] البلدان (٤/ ٤٦٣).
[3] أخبار مكة، للأزقي (١/ ١٧٣ وما بعدها).
[4] (ص ٥٦٩ فما بعدها).

موشىً، وقيل هي برود مخططة[1]. وذكر أن النبي كساها الثياب اليمانية، وأن عمر وعثمان كسواها بالقباطي[2].

وذكر أن أول من كسا البيت الحرير (نتيلة بنت جناب بن كليب) وهي من (بني عامر) المعروف بالضحيان، وكان من ملوك ربيعة. وكان العباس بن عبد المطلب ابنها، قد ضاع وهو صغير، فنذرت أمه إن وجدته ان تكسو البيت الحرير، فكسته، فهي أول من كساه ذلك[3]. وقيل أول من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب. أخذ لطيمة من البر وأخذ فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة[4].

وروي أنهم كانوا يكسون الكعبة يوم (عاشوراء)، وذكر أن (بني هاشم) كانوا يكسونها يوم التروية بالديباج، لتظهر في أحسن حال، ويراها الناس على ذلك. أما اذا حلّ يوم عاشوراء، فإنهم يعلقون الإزار عليها. وورد أنهم كانوا يكسون الكعبة بالديباج يوم التروية، فيعلق عليها القميص ولا يخاط، حتى اذا ما انصرف الناس من (منى) خيط وترك الأزار، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء، ويعلق عليها الإزار، ويوصل بالديباج[5].

ولا نستبعد احتمال كون يوم (عاشوراء) من الأيام التي كانت لها حرمة وقدسية عند أهل الجاهلية، وإن كنا نجهل كل شيء عنه وعن سبب احتفال أهل مكة به، وصومهم فيه. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى احتمال تأثر قريش بعاشوراء اليهود، كأن يكون أحد سادة مكة قد أخذ ذلك اليوم عنهم فعظمه، فأخذه أهل مكة عنه وجعلوه سنّةً لهم. غير أن من الجائز ألا يكون لهذا اليوم صلة بعاشوراء اليهود، وانما كان من تقاليد أهل مكة القديمة المعروفة عند غيرهم أيضاً، ولا صلة له بيوم يهود[6].

ويظهر أنهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة، فلايرفعونها

---

[1] اللسان (١/ ٦٠٤)، (عصب).
[2] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ١٧٣ وما بعدها).
[3] الإصابة (٢/ ٢٦٣)، (رقم ٤٥٠٧)، كتاب نسب قريش (١٨)، الروض الأنف (١/ ٧٧).
[4] الروض الأنف (١/ ٧٧).
[5] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ١٧٣ وما بعدها).
[6] Shorter Ency., p. 47.

عنها، فكانت تتراكم بعضها فوق بعض، فلما جاء الإسلام، استمروا على ذلك أمداً، ثم رأى (شيبة بن عثمان) سادن البيت، تجريدها من أكسية الجاهلية، لأنها رجس من عمل الجاهليين فأزيلت. ثم رأى الخليفة المهدي، أن الأكسية قد أثقلت الكعبة، فأمر بتجريدها، تخفيفاً عنها، واكتفى بثلاث كسيّ من القباطي والخزّ والديباج[١].

وذكر أهل الأخبار أن اول من حلّى البيت (عبد المطلب)، جدّ النبي، لما حفر (بئر زمزم)، وأصاب فيه من دفن جرهم غزالين من ذهب، فضربهما في باب الكعبة[٢].

المال الحلال:

وقد تجنب أهل الجاهلية. بناء معابدهم بمال حرام، فلما أرادت قريش بنيان الكعبة نادى مناديهم: لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلاّ طيباً. لا تدخلوا فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس[٣]. هذا ما يذكره أهل الأخبار ويروونه عن بناء البيت الحرام.

بقية محجات العرب:

ومن محجّات العرب وبيوتها المعظمة: بيت عُرف بـ (بس) لغطفان، كانت تعبده. بناه (ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف)، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة، فذرع البيت، وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة، فرجع إلى قومه، فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين، فقال: هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج، فأغار (زهير بن جناب الكلبي)، فقتل ظالماً وهدم بناءه. وورد في رواية أخرى أن (العزى) سمرة عبدتها غطفان. أول من اتخذها (ظالم بن أسعد)، فوق ذات

---

[1] الأزرقي، أخبار مكة (١/ ١٧٣ وما بعدها)، الإصابة (٢/ ١٥٧)، (شيبة بن عثمان).
[2] البلدان (٤/ ٤٦٣ وما بعدها).
[3] الروض الأنف (١/ ١٣٠ وما بعدها).

عرق إلى البستان بتسعة أميال، بنى عليها بيتاً وسمّاه بسّاً، وأقام لها سدنة، فبعث إليها رسول الله (خالدَ بن الوليد)، فهدم البيت وأحرق السمرة[١].

وفي أخبار أهل الأخبار عن بيت (العزى)، أوهام وتناقض. فتراهم يجعلون (العزى) صنماً مرة ويجعلونها (سمرة) أو (شجرة) أو ثلاث سمرات مرة أخرى، ثم تراهم يخلطون بين البيت وبين الحرم الذي كان حوله، كما بينت ذلك في أثناء حديثي عن (العزى)[٢]. والذي أراه، أنه كان للعزى بيت هو (بس)، فيه صنم العزى، وكان حوله حرم، كحرم مكة، به، (سمرة) أو ثلاث سمرات، كان الناس يقدسونها أيضاً ويتقربون إليها بالنذور. وهي جزء متمم لبيت العزى. فلما أمر الرسول خالد بن الوليد، بهدم العزى، هدم البيت وحطّم الصنم، فرجع، فلما سأله الرسول عنه، واستفسر منه عن السمرة أو السمرات الثلاث، وعلم منه أنه لم يقطعها، أمره بالعودة إليها وقطعها اجتثاثاً لكل علامة من علائم عبادة هذا الصنم. فقطعها. فقطع عن عبّادها كل صلة لهم كانت تربطهم بذلك الصنم.

ومن محجّات الجاهليين، بيت الصنم (ذو الخلصة)، ذكر أنه كان بتبالة، وكان يسمى بـ(الكعبة اليمانية)، تمييزاً له عن الكعبة التي عرفت بـ (الكعبة الشامية). وذكر أنه نفسه عرف بـ(الكعبة الشامية)، كما دُعي بـ (كعبة اليمامة)، وقد تحدثت عنه في أثناء كلامي على هذا الصنم. ولما هدم البيت والصنم بأمر الرسول، صار مكانه موضع عتبة باب مسجد تبالة. وذكر أن البيت هو (ذو الخلصة)، والصنم (الخلصة)، وقيل (ذو الخلصة: الصنم نفسه)[٣] وقد عرف البيت بـ(الكعبة) كذلك، لأنه كان بناءً مكعباً. وكان بيتاً في خثعم باليمن، وكانت بجيلة تعظمه كذلك. به صنم، هو (ذو الخلصة) ونصب يذبحون عليه[٤]، ويظهر أنه كان من البيوت المعظمة الكبيرة بدليل، ما ذكره العلماء من أن الرسول قال لجرير بن عبد الله البجلي: «ألا تريحني من ذي الخلصة»؟ فذهب إليه وأحرق البيت وهدم الصنم وكسر النصب. وذكر

---

[1] تاج العروس (٤/ ١٠٩)، (بس)، مراصد الاطلاع (٩٣٧).
[2] البلدان (١/ ٤١٢)، (بساء).
[3] تاج العروس (٤م ٣٨٩)، (خلص).
[4] إرشاد الساري (٦/ ٤٢٤ وما بعدها).

أن موضع (ذي الخلصة)، صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها: العبلات من أرض خثعم[١].

وقد ذكر (أبو العلاء المعري) أن فدك كانت في الجاهلية ذات أصنام. وكانوا يقصدونها للحج، وذكر تلبيتهم لها[٢].

وكان بيت (اللات) من البيوت المعظمة عند ثقيف. كانوا اذا عاد أحدهم من سفر، فأول ما يفعله أن يأتي (الربة)، وهي اللاّت ليتبرك بها. وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف. ولما أسلم (عروة بن مسعود الثقفي)، وعاد إلى قومه دخل منزله، فأنكر قومه عليه دخوله قبل أن يأتي الربة، يعني اللات. وفي حديث وفد ثقيف: كان لهم بيت يسمونه الربة. يضاهون بيت الله[٣]. وكانت ثقيف تضاهي أهل مكة، وتنافسهم على الزعامة. وكان لبيت اللات أستار وسدنة وحوله فناء معظم، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب[٤].

ولأهل اليمن بيوت تعبدوا لها، وبقيت معظمة عندهم إلى الإسلام. من ذلك بيت عرف بـ(بيت رئام). ذكر (ابن إسحاق) أن أهل اليمن كانوا يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون. وكانوا يعتقدون أن رئاماً كان فيه شيطان، وكانوا يملأون له حياضاً من دماء القربان، فيخرج فيصيب منها، ويكلمهم، وكانوا يعبدونه[٥]. وبيت غمدان، وقد ذكروا أن الضحاك بناه باليمن على اسم الزهرة[٦]، فجعلوه بيتاً، أي موضع عمادة، بينما هو دار حكم وبيت الملوك بصنعاء، كما سبق أن تحدثت عنه.

وذكَر بعض أهل الأخبار أن (ريام) بيت بصنعاء كان لحمير، وكان به كلب أسود. وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت[٧].

وكان (ذو الكعبات) لبكر ولتغلب ابني وائل وإياد بسنداد، وله يقول الأعشى:

---

1 إرشاد الساري (٦/ ٤٢٣ وما بعدها).
2 رسالة الغفران (٥٣٥)، (بنت الشاطئ).
3 تاج العروس (١/ ٢٦٢)، (دبب).
4 تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣).
5 الروض الأنف (١/ ٢٨).
6 نهاية الأرب (٦٢/١).
7 تفسير ابن كثير (٢٥٤/٤).

بين الخورنق والسدير وبارق   والبيت ذو الكعبات من سنداد[1]

وذكر أنه بيت كان لربيعة، كانوا يطوفون به، وقد ذكره الأسود بن يعفر في شعره، فقال:

والبيت ذي الكعبات من سنداد[2]

فالبيت للأسود لا للأعشى على هذه الرواية.

وقد تعرض (ابن كثير) لموضوع بيوت الأصنام: اللات والعزى ومناة، فقال: «وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة، غير أن هذه الثلاثة التي تنص عليها في كتابه العزيز... قال ابن اسحاق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها»[3]. وما فات من أسماء المحجات في العربية الجنوبية والشرقية وفي نجد، قد يزيد عدده على ما ذكرنا. فات عنا، لأن أهل الأخبار لم يذكروا شيئاً عنها، لانصراف اهتمامهم إلى الحجاز وما كان له صلة بالإسلام، من أرضين، فحرمنا بذلك من الوقوف على أخبار المحجات في المواضيع الأخرى من جزيرة العرب.

ويحجّ الناس إلى هذه البيوت في أشهر معينة من السنة، هي الأشهر الحرم، وهي أشهر مقدسة لا يحلّ فيها قتال ولا اعتداء على أحد، فهي أشهر هدنة وسلام، أشهر خصصت بالآلهة، فلا يجوز انتهاك حرمتها. وفي شهر الحج الذي يحج فيه الناس إلى أصنامهم، يجتمع، الناس في المعبد لأداء الفروض المكتوبة المعينة، فيكون الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس. ويتبادلون به السلع، ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بأرباح كبيرة ولا شك. وقد ذكرت أن هذه الحرمة لم تكن عامة، فقد كان من العرب من لا يراعيها ولا يحترمها، ثم إننا لا ندري إذا كان أهل العربية الجنوبية أو العربية الشرقية كانوا يعرفونها أم لا!

---

[1] تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٤).
[2] تاج العروس (٤٥٧/١)، (كعب)، اللسان (١/ ٧١٨)، (كعب).
[3] تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣ وما بعدها).

وليست كل المعابد محجة للناس، يقصدونها في الأيام أو في المواسم. فقد كان في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان، ولا يحج إليها، بل كانت المعابد التي يحج إليها معدودة معينة. لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى. ولهذه الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة. واذا استثنينا ما ورد عن مكة، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى. ثم إن في أكثر ما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للنقد، لأنه منقول عن أفواه رجال يظهر أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص.

المزارات:

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون يها ويتبركون بها، وقد بلغ من بعضهم أن جعلها حمى وملاذاً من دخل إليها أمن، ومن لجأ إليها وكان محتاجاً أغيث، ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث، حتى صارت في منزلة المعابد. ومنها أضرحة السدنة والكهان وسادات القبائل، فقد كان قبر (تميم) جدّ قبيلة (تميم) مزاراً معظماً عند أبناء القبيلة من احتمى به من (بني تميم) ومن غيرهم صار آمناً.

ولم أجد في أخبار أهل الأخبار مما يفيد بوجود أضرحة في مكة. اتخذت مزاراً وموضعاً يتبرك به. يعظمونه ويتقربون اليه بالنذور والذبائح. فقد كان قبر قصي معروفاً عند أهل مكة، ولكنهم لم يتخذوه مزاراً ومصلى على ما يتبين من روايات الأخباريين.

الفصل الخامس والسبعون

الحنفاء

وقد أشار القرآن الكريم إلى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام، فلم تكن من اليهود ولا النصارى، وإنما اعتقدت بوجود إلَه واحد عبدته[1]. وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء، غير أن ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم، ولا يوضح رأيهم في الدين، فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون.

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف، ونعتوا بأنهم كانوا على دين إبراهيم، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى، ولم يشركوا بربهم أحداً. سفهوا عبادة الأصنام، وسفهوا رأي القائلين بها[2].

---

[1] ﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا. قلْ: بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين﴾، البقرة، رقم ٢، الآية ١٢٥، تفسير الطبري (١/ ٤٠٤)، روح المعانى (١/ ٣٥٢)، تفسير المنار (١/ ٢٧٩ وما بعدها)، بلوغ الأرب (٢/ ١٩٦)، اللسان (١٠/ ٤٠٢ وما بعدها)، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (١/٢٦٥)، الطبرسي، مجمع البيان (١/ ٤٦٧)، (١/ ٢١٥ وما بعدها)، (طبعة طهران)، تفسير القرطبي، الجامع (٢/ ١٢٨)، الطبري، جامع البيان (١١/ ١٧٧)، (٢١/ ٤٠)، البيضاوي (١/ ١٥٩، ٢١٥)، تفسير القرطبي (١٠/ ١٩٨)، الكشاف، للزمخشري (١/٢٣٦)، اللسان (٩/ ٥٦)، «صادر»، تأريخ الخميس، للدياربكري (٢/ ١٧٧)، الكامل، لابن الأثير (١/ ٢٤٤)، تفسير القرطبي (١٠/ ١٩٨)، (حنيفاً)، سورة النحل، رقم ١٦، الآية ١٢٠.

[2] النهاية (١/ ٢٩٩).

وقد أشير إلى (الحنيفية) و(الحنفاء) في كتب الحديث[١]. وقد بحث عنها شرّاح هذه الكتب. ومما نسب اليه حديث: «لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة»[٢]. وحديث: «بعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة»[٣]. وحديث «أحب الأديان إلى الله تعالى الحنيفية السمحة»[٤].

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعيّ على دين إبراهيم. كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده، لا يشركون به ولا ينتقصونه. فما جاء عمرو بن لحيّ، أفسد العرب، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام، بما تعلمه من وثنيي بلاد الشأم حين زارهم، وحل بينهم، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلهم الأول. وهو على رأيهم موزع الأصنام بين القبائل، ومقسمها عليها. فكان من دعوته تلك عبادة الاوثان، إلى أن جاء الإسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل، إلى دين إبراهيم حنيفاً، وما كان إبراهيم من المشركين[٥].

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي وانتشرت، حتى دخل فيها أكثرهم، والضلال سريع الانتشار، وقلّ عدد من حافظ على دين إبراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الحنيف: من اعتقاد بوجود إلَه واحد أحد، وطواف بالبيت، وحج إليه، وعمرة، ووقوف على عرفة وهدي للبدن، واهلال بالحج والعمرة، وغير ذلك. فلم يبقَ منهم إلاَّ عدد محدود في كل عصر إلى زمن البعثة المحمدية[٦].

ولسنا نملك ويا للاسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم، فليس في كتابات المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى، بل ولا في كتب اليونان واللاتنين شيء عن عقيدتهم وعن آرائهم، لذلك اقتصر علمنا بأحوالهم على ما جاء في المؤلفات الإسلامية وحدها، والفضل في حفظ أخبارهم للقرآن

---

1 راجع ونسنك: المعجم المفهرست لألفاظ الحديث النبوي، حيث نجد الإشارة إلى تلك الأحاديث.
2 مسند أحمد بن حنبل (١١٦/٤)، (٦/ ٣٣).
3 اللسان (٩/ ٥٦ وما بعدها).
4 مجمع البيان، للطبرسي (١/ ٢١٥ وما بعدها)، «أحب الدين إلى الحنيفية السمحة»، الإصابة (٥١/١)، (رقم ١١٤).
5 اللسان (١٠/ ٤٠٣)، بلوغ الأرب (٢/ ١٩٥).
6 بلوغ الأرب (٢/ ١٩٦).

الكريم، فلولا إشارته إليهم وذكره لهم، لما اهتم المفسرون وأصحاب الأخبار بجمع ما كان عالقاً في ذهن الناس عنهم. وللحديث وكتب السير والأدب فضل في جمع أخبارهم يجب ألا ينهى كذلك.

وللعلماء الإسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة (حنيف) وحنفاء وأحناف وفي معانيها. فهم يقولون إن الأصل (حنف)، وحنف بمعنى مال. وحنف القسمين ميل كل واحدة منهما نحو الأخرى. والحَنَفُ هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال. والحنيف هو المائل. ومن هذا المعنى أخذ الحنف. وأما الحنيف، فالشيء يميل الى الحق، وقيل الذي يستقبل. البيت الحرام، أو الحاج أو من يختتن، والحنيف من أسلم في أمر الله فلم يلتوِ في شيء، والحنيف المستقيم الذي لا يلتوِ في شيء[١].

وقد وردت لفظة (حنيفاً) في عشر مواضع من القرآن الكريم[٢]. ووردت لفظة (حنفاء) في موضعيْن منه[٣]. وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكية، وبعضها آيات مدنية. وقد نص في بعض منها على إبراهيم، وهو على الحنيفية، ولم ينص في مواضع منها على اسمه. وقد وردت لفظة (حنفاء) في سورتين فقط، هما: سورة الحج وسورة البينة، وهما من السور المدنية.

وذكر بعض أهل الأخبار أن الحنيف عند أهل الجاهلية من اختتن وحج البيت فكل من اختتن وحج البيت هو حنيف[٤]. وقد رأى الطبري أن ذلك لا يكفي،

---

[1] المفردات، للأصفهاني (ص ١٣٣)، اللسان (١٠/ ٤٤)، (٩/ ٥٦ وما بعدها)، «صادر»، تاج العروس (٦/ ٧٧ وما بعدها)، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١٠/ ٢٦٥)، تفسير الطبري (١/ ٢٥٨ وما بعدها)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (٣/ ١٣٠)، تفسير الطبري (١/ ٥٦٣)، «١٩٥٤» (٣/ ١٠٥)، «دار المعارف»، الملل والنحل، (٢/ ٥٢)، الأغاني (٣/ ١١٣ وما بعدها)، «دار الثقافة بيروت ١٩٥٥م»، روح المعاني للألوسي (٣/ ١٧٣ وما بعدها)، تفسير الخازن (١/ ٩٨).

[2] البقرة، رقم ٢ الآية ١٣٥، آل عمران، ٣ الآية ٦٧، ٩٥، النساء، الرقم ٤، الآية ١٢٥، الأنعام ٦، الآية ٧٩، ١٦١، يونس، الرقم ١٠، الآية ١٠٥، النحل ١٦، الآية ١٢٠، الروم، الآية ٣٠.

[3] الحج، الآية ٣١، البينة، الآية ٥.

[4] اللسان (١٠/ ٤٠٢ وما بعدها)، الكشاف (١/ ١٧٨، ٢٣٦، ٤٠٧)، الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن (١/ ٤٦٧ وما بعدها)، (٣/ ١٠٩ وما بعدها)، تفسير الفخر الرازي (١٣/ ٥٧ وما بعدها)، (١٤/ ١٠ وما بعدها)، (١٧/ ١٧١ وما بعدها)، تفسير الطبري (٣/ ١٠٤ وما بعدها).

بل لا بدّ من الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها[1]. والذين يذكرون أن الحنيف هو من اختتن وحج البيت، يذكرون أن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشي من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت، ولهذا فكل من اختتن وحج البيت، قيل له حنيف. وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة إلى ما ذكرت، وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين[2]، لأن الحنفية على حد قولهم لو كانت حج البيت والاختتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجون ويختتنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء، وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله: ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[3].

وينسب أهل الأخبار إلى الأحناف بالإضافة إلى ما ذكرت، امتناعهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهلّ إلى غير الله. فقد ذكروا عن كل واحد من الأحناف أنه كَان قد امتنع عن أكل الذبائح التي تذبح للأوثان والأصنام، لأنها ذبحت لغير الله. كما نسبوا إليهم تحريم الخمر على أنفسهم، والنظر والتأمل في خلق الله، ونسبوا اليهم أداء شعائر الحج وغبر ذلك.

وقد لخص (الفخر الرازي) و(الطبرسي)، آراء العلماء في (الحنيفية) واجملاها في تفسيرهما للآية: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كنت من المشركين﴾. فقالا: «وفي الحنيفية أربعة أقوال: أحدها إنها حج البيت، عن ابن عباس والحسن ومجاهد. وثانيها إنها اتباع الحق، عن مجاهد، وثالثها إنها اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير، ذلك من شرائع الإسلام[4]،

---

[1] تفسير الطبري (١٠٥/٣ وما بعدها)، (٣/ ٣٠٦)، (٥/ ٢٩٧)، (٧/ ٢٥١)، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٢٨).

[2] اللسان (٩/ ٥٦)، «صادر»، القاموس (٣/ ١٣٠)، تاج العروس (٦/ ٧٧ وما بعدها)، (حنف).

[3] الطبري، جامع البيان (١/ ٥٦٤ وما بعدها).

[4] الأصنام (٦)، «١٩١٤م»، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٠٩)، «١٩٣٧م» «مطبعة دار الكتب المصرية»، ابن خلدون (القسم الأول من المجلد الثاني) (ص ٧٠٧ وما بعدها)، «بيروت ١٩٥٦م»، الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٢٣٨ وما بعدها، ٢٥١)، تفسير الرازي (٨/ ١٥٠ وما بعدها).

والرابع إنها الإخلاص لله وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية»[١].

ترى مما تقدم، وسترى فيما بعد أن أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة وعلم واضح بأحوال الحنيفية وبآرائها وقواعد أحكامها وأصولها، وأنهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة، ولا سيما رهبنة النصرانية. فأدخلوا فيها من يجب إخراجهم عنها، لأنهم كانوا نصارى على ما يذكره نفس أهل الأخبار في أثناء تحدثهم عنهم، ومن هؤلاء: قيس بن ساعدة الأيادي وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، فقد نصوا نصاً صريحاً على أنهم كانوا من العرب المتنصرة، ثم نجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف.

وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الإسلام. ومنهم من يرى أن اللفظة من أصل إرمي، وقد كانت معروفة عند النصارى، وأخذها الجاهليون منهم، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب، على أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمان. وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية، غير أن أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وأنما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين[٢].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن اللفظة من أصل عبراني، هو: (تحينوت) tchinoth، أو من (حنف) Hnêt، ومعناه التحنث في العربية، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزّهاد[٣]. وقال (نولدكه) إنها من أصل عربي هو (تحنف)، على وزن تبرر، وهي من الكلمات التي لها معانٍ دينية. ويلاحظ أن السريان يطلقون لفظة (حنفه) Hanfa على الصابئة[٤]. وقد وردت لفظة (حنف) في النصوص العربية الجنوبية، وردت بمعنى (صبأ)، أي مال وتأثر بشيء ما[٥].

---

[1] مجمع البيان (١/ ٢١٥ وما بعدها)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (٤/ ٨٩ وما بعدها).

[2] Ency., II, p. 259.

[3] Abraham I. Katsh., Judaism in Islam, New York, 1954, p. 108, f., J.A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in JBL., Vol., LI, (1932), pp. 183, Tar Andrae, Der Ursprung der Islam und das Christentum, Uppala, 1926, p. 40, Chrales, Lyall, The Ward Hanif and Muslim, in JRAS, 1903, p. 772, Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 45. ff.

[4] Ency., II, 259, Barhebraeus, Chronic., p. 176.

[5] Rhodokanakis, Stud., II, S. 40.

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة إذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين.

عندي أن لفظة (حنيف)، هي في الأصل بمعنى (صابئ) أي خارج عن ملة قوم، تارك لعبادتهم. ويؤيد رأيي هذا ما ذهب إليه علماء اللغة، من أنها من الميل عن الشيء وتركه، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوبية. وبمعنى (الملحد)، و(المنافق)، و(الكافر) في لغة بني إرم، ومن اطلاق (المسعودي) و(ابن العبري) لهذه اللفظة على (الصابئة). ومن ذهاب (المسعودي) إلى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة. وقد اطلقت على (المنشقين) على عبادة قومهم الخارجين عليها، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه (الصابئ) و(الصباة)، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه، وخرج على الأصنام. ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادئ الأمر على نابذي عبادة الأصنام، وهم الذين دعاهم بأنهم على (دين إبراهيم). ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً[1].

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية. فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله، وكيفية تصورهم وعبادتهم له، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليها. نعم، إن نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها، وما أسماؤها. وهل هي التوراة والانجيل؟ ولكن أي توراة وإنجيل؟ التوراة والانجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بأيدي الناس، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية إلى دين إبراهيم الحنيف، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة إبراهيم. ولكن ما هي كتب إبراهيم وما هي عبادته؟

---

[1] راجع أيضاً: Ency., II, p. 259.

وليس في امكاننا في الوقت الحاضر وضع حد صريح واضح لمفهوم الأحناف و(الدين الحنيف) عند الجاهليين، لما ذكرته من عدم وجود موارد واضحة صريحة عن الأحناف، ولعدم ورود أي شيء عنهم في نصوص جاهلية، ولأن في الكثير من الذي يذكره المفسرون وأهل الأخبار عنهم غموض وإبهام أو صنعة وتكلف، لذلك فليس أمامنا سوى الانصراف إلى البحث عن جمع كل ما ورد عن الحنيفية في الشعر وفي النثر وتنقيته وغربلته لاستخراج المادة الصافية منه التي تفيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية التي كانت بارزة عند المذكورين قبيل ظهور الإسلام. والوقوف عليها يفيدنا كثيراً ولا شك في فهم الإسلام الذي أثنى على الحنيفية وأرجعها إلى ديانة إبراهيم، وفي فهم اتجاهات الأحناف ودعوتهم التي وجهوها إلى قومهم في نبذ عبادة الأصنام والأحجار والمعبودات المادية الأخرى، والالتجاء إلى عبادة إلهَ أعلى لا يشبه المادة، هو إله واحد لطيف خبير.

والحنفاء، كما يفهم من روايات أهل الأخبار، كانوا طرازاً من النسّاك، نسكوا في الحياة الدنيا، وانصرفوا إلى التعبد للإلهَ الواحد الأحد إلَه إبراهيم وإسماعيل، ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله الحجاج الزهاد بحثاً عن الدين الصحيح دين إبراهيم، فوصل زيد بن عمرو بن نفيل إلى الشأم والبلقاء ووقف على اليهودية والنصرانية، فلم يرَ في الديانتيْن ما يريد[1]. ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحثّهم على ترك عبادة الأصنام، لذلك لاقوا منهم غشاً ونصباً شديداً. ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون، لذلك تجنب الناس واعتزلهم، والتجأ إلى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعاداً عن الناس للتأمل والتفكر، وقد تجنبوا الخمرة والأعمال المنكرة، وقول الفحش، وساروا على مثل الإسلام، وان عاشوا قبل الإسلام، لأن الإسلام دين إبراهيم.

والذي يفهم من القرآن الكريم، هو أن الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام، فلم يكونوا من المشركين، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى، و﴿وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من

[1] بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٧ وما بعدها)، الطبرسي، مجمع البيان (٣/ ١١٠)، (٧/ ٢٥٢)، (١١/ ١٠٧)، (١٤/ ١٣٧).

المشركين﴾[1]، وإن قدوتهم في ذلك إبراهيم. ويلاحظ أن لفظة (مسلم) استعملت في مرادف ومعنى لفظة (الحنيف)، وإن إبراهيم هو أبو وأول المسلمين. وقد وصف الإسلام بأنه دين الله الحنيف، والدين الحنيف، وإن الشريعة الإسلامية، هي الحنيفية السمحة السهلة، وذلك تميزاً لها عن الرهبانية المتعصبة[2].

وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية، وعدّوهم نصارى عرباً زهاداً كيّفوا النصرانية بعض التكييف بهم وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها. وقد استدلوا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية[3]. غير أن القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وأنهم ينتمون في عقيدتهم إلى إبراهيم. ثم إن الأخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على أنهم كانوا نصارى، إلاّ إنهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على أن البقية الباقية، كانت واقفة، لم تدخل في يهودية ولا نصرانية، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتيْن أموراً جعلتها تتريث، فلم تدخل في إحداهما، وبقيت مخلصة لسنّة إبراهيم، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصاً، أو شيعة من الشيع النصرانية.

وقد كان من الحنفاء نفر من النصارى، أخلصوا نصرانيتهم وماتوا عليها. فهؤلاء هم نصارى من غير شك، ويجب اخراجهم من طائفة الحنفاء، وإدخالهم في النصارى، مثل (بحيرا) الراهب، وأمثاله ممن سأتحدث عنهم فيما بعد.

ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفية، كانوا من القارئين الكاتبين. وكانوا يشترون الكتب ويراجعونها ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات. ولبعض منهم ــ كما يروي أهل الأخبار ــ علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية، كما كان لهم علم ووقوف على تيارات الفكر في ذلك الوقت. وقد أضافوا إلى علمهم الذي أخذوه من الكتب، علماً حصلوا عليه من

---

[1] آل عمران، الآية ٦٧ وما بعدها، البقرة، الآية ٣٥، آل عمران، الآية ٩٥، النساء، الآية ١٢٤، الأنعام، الآية ٧٩، يونس ١٠٥.

[2] ابن سعد (١/ ١٢٨)، قال عبد الله بن أنيس:
فقلت له خذهـــا بضربة ماجد حنيف على دين النبي محمد

[3] Reste, S. 238, J.A. Montgomry, Asetic Strains in Early Judaism, JBL., Vol., LI, 1932, Abraham J. Katsch, Judaism n Islam, p. 108.

أسفارهم إلى الخارج مثل العراق وبلاد الشأم. ومن اتصالهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهود. فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة من الجاهلين نادت بالإصلاح وبرفع مستوى العقل وبنبذ الأساطير والخرافات وبتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب وبالرجوع إلى دين الفطرة، الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس.

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي نطلق عليهم كلمة (مصلحين) في الوقت الحاضر. من هذا الطراز الذي يريد إصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل. فهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة في أيامهم. لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن إدراك الواقع. وقد رأت أن العقل لا يقرّ التقرب إلى أحجار والى التبرك بها والذبح لها، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إِمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها. ومنهم من آمن بدين كالنصرانية، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه، لأن عقله لا يقر التقرب إلى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل، ومنهم من أبعدته مثل هذه العبادة عن النصرانية، فصيرته حائراً في أمره من الديانات، يعتقد بإلَه، ولكنه لم يستقر على دين. عائب على قومه من المشركين ما هم عليه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب إليها.

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر ذكروا أنهم كرهوا عبادة الأوثان وسخفوا أحلام المتعبدين لها، إذ وجدوا أن من الحمق التقرب إلى حجر لا يضر ولا ينفع، وهو جماد، فلما سمع بعضهم بالإسلام أسلموا. ولكنهم لم يدخلوهم في عداد الأحناف. وقد رأينا أن من أهل الأخبار من جعل (مسيلمة) يدعو إلى عبادة (الرحمن) قبل مبعث النبي. وقد ذكروا ان «عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد» السلمي، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية، رأى أنها باطلة، وأن الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة، والحجارة لا تضر ولا تنفع، فكان حائراً، حتى اهتدى إلى الإسلام[1].

وليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم لمن أطلق الأخباريون

---

[1] الإصابة (٣/ ٥ وما بعدها)، رقم (٥٩٠٥)، الاستيعاب (٢/ ٤٩١ وما بعدها)، حاشية على الإصابة.

عليهم لفظة: (الحنفاء)، تكتل وتنظيم مع مظاهر خارجية وداخلية يميزهم عن غيرهم من أهل الأديان. لذلك، فنحن لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين، كدين اليهودية أو النصرانية، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب مُنزلة مقدسة ومن وحي نزل من السماء، على نحو ما نفهمه من الأديان السماوية. لذلك، فانا لا أستطيع إقرار رأي من ذهب إلى أنهم كانوا جماعة دينية منظمة، كرأي المستشرق (شبرنكر)، الذي ذهب إلى هذا المذهب[1].

وجلّ هؤلاء الآحناف، هم من أسر معروفة، وبيوت يظهر أنها كانت مرفهة أو فوق مستوى الوسط بالنسبة إلى تلك الأيام، ولهذا صار في امكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب، وقد كانت غالية الثمن إذ ذاك، لنيل العلم منها. كما صار في امكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتصاص المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة إلى تلك الأوقات، مثل العراق وبلاد الشأم. وقد اتصلوا كما يزعم أهل الأخبار فعلاً برجال العلم والدين فيها، وتحادثوا معهم وأخذوا الرأي منهم. ومن يدري فلعلهم قرأوا عليهم الكتب وفي جملتها كتب اليونان، أو ترجمات كتبهم بالسريانية، فحصلوا نتيجة لذلك على علم بمقالات اليونان وبآرائهم في الفلسفة والدين والحياة. وقد تكون بعض الآراء المنسوبة إليهم، والتي ترجع إلى أصل يوناني، قد قالوها من أخذهم لها من تلك الكتب ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء في أثناء وجودهم في العراق وفي بلاد الشأم.

ونجد في الأخبار أن الرسول كان يعدّ الرهبانية مخالفة للحنيفية، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي ــ المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ــ قدم المدينة ورأى الرسول، وسأله: ما هذا الذي جئت به؟ ــ فقال الرسول: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها، فقال الرسول: لست عليها، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها. وقد سماه الرسول الفاسق. فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات، متوجهاً إلى قيصر، ليحمله على توجيه جيش إلى المدينة للقضاء على الإسلام، غير أنه مات وهو في بلاد الشأم[2].

---

[1] Sprenger, Das Leben, Bd., I,S. 4, Ency., II, S. 259.

[2] مجمع البيان (٩/ ٦٤ وما بعدها)، (٣/ ٥٠٠)، (طبعة طهران).

وقد خرج (أبو عامر) واسمه (عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ابن أمة)[1] الراهب أحد (بني ضبيعة) إلى مكة مباعداً لرسول الله، معه خمسون غلاماً من الأوس، منهم (عثمان بن حنيف). «فكان يعد قريشاً أن لو قد لقي محرماً لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما كان يوم أُحد، كان أول من لقي أهل المدينة أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى يا معشرَ الأوس، أنا ابو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية (الراهب) فسمّاه رسول الله الفاسق، فلما سمع ردهم عليه، قاتلهم ثم راضخهم بالحجارة». ثم رجع مع قريش إلى مكة وخرج إلى الروم يوم فتحت مكة فمات بها سنة تسع، ويقال سنة عشر. وأعطى (هرقل) ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي[2]، وكان قد اختصم مع علقمة بن علاثة في ميراثه، فدفع هرقل ميراثه لكنانة قائلاً لعلقمة: هما من أهل المدر وأنت من أهل الوبر.

وكان له ولد اسمه (حنظلة) أسلم، واستأذن رسول الله في قتل أبيه، فنهاه عن ذلك. فلما كان يوم أحد شهده، وألتقى هو وأبو سفيان، فلما استعلى حنظلة رآه (شداد بن شعوب) فعلاه بالسيف حتى قتله، وقد كاد يقتل أبا سفيان. فقال النبي: «إن صاحبكم تغسله الملائكة»[3]، فعرف بـ(غسيل الملائكة)[4]. فكان الابن مع المسلمين في هذا اليوم، وكان الأب مع المشركين.

وروي أنه كان يتزهد في الجاهلية، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشأم وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار، واتى قيصر فاستنجده على النبي[5]. وروي أنه هو الذي حزب الأحزاب لقتال الرسول: فلما خذل لحق بالروم يطلب النصر منهم، وقال لأناس من الأنصار ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح،

---

[1] تأريخ الطبري (٢/ ٥١٢)، (معركة أحد)، المحبر (٤٧٠)، سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٩)، (حاشية على الروض)، أبو عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، الأوسي، الإصابة (١/ ٣٦٠)، (رقم ١٨٦٣)، مروج الذهب (١/ ٨٨)، (دار الأندلس).

[2] الإصابة (١/ ٣٦٠)، (رقم ١٨٦٣).

[3] الاستيعاب (٢٧٩/١ وما بعدها)، (حاشية على الإصابة).

[4] الإصابة (١/ ٣٦٠)، (رقم ١٨٦٣)، الاستيعاب (١/ ٢٧٩ وما بعدها)، (حاشية على الإصابة).

[5] تفسير النيسابوري (٩/ ٧٦)، (حاشية على تفسير الطبري)، روح المعاني (٩/ ١١١).

فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، وكان قد خرج معه كنانة بن عبد ياليل الثقفي وعلقمة بن علاثة. فأما علقمة وابن ياليل (ابن بالين)، فرجعا فبايعا النبي وأسلما، وأما (أبو عامر) فتنصر وأقام[1].

ويظهر أن (أبا عامر الراهب)، كان قد وضع مع جماعة من الأنصار الحاقدين على الرسول وعلى المهاجرين الذين صاروا يزاحمونهم في أعمالهم، واستحوذوا على التجارة واستغلوا أرض يثرب فقام قوم منهم بزراعتها، خطة لعمل مكيدة يخرجون بها الرسول من المدينة، يساعدهم في ذلك الروم. غير أنها لم تنجح، وهدم المسجد، الذي تواعدوا على أن يكون موضع التآمر وملتقى الحاقدين على الرسول، وقضي على المؤامرة، وبقي (أبو عامر) عند الروم. فلما مات عاد (كنانة بن عبد يا ليل) الثقفي، وكان رئيس ثقيف في زمانه، وكان يقول: «لا يرثني رجل من قريش»، مما يدل على أنه كان من الكارهين لقريش المتحاملين عليها وعلى الإسلام، ففر إلى (نجران) ثم توجه إلى الروم. فلما مات (أبو عامر) عاد فأسلم[2]. وعاد (علقمة) أيضاً. وهناك روايات أخرى، تذكر أنه ارتد في أيام (عمر)، والتحق بالروم، ثم عاد إلى الإسلام[3].

ولاشتهار أبي عامر بالراهب، ولما ورد في بعض الأخبار من أنه كان حنيفاً، ذهب (ولهوزن) إلى أن الأحناف هم من النصارى، وأن حركتهم حركة نصرانية، وأنهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والإسلام[4]. غير أن ما لدينا من معارف عن الأحناف، لا يكفي لإبداء رأي كهذا الرأي، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لنتمكن من التوصل إلى رأي علمي في هذا الشأن.

وفي بيت منسوب إلى أمية إشارة إلى الحنيفية، ذكر فيه أن كل دين زور عند الله إلاّ دين الحنيفية. وقد رأينا أن أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة

---

1 تفسير الطبري (١١/ ١٧ وما بعدها)، تفسير القرطبي (٧/ ٣٢٠)، (٨/ ٢٥٣ وما بعدها).
2 الإصابة (٣/ ٣٠٥)، (رقم ٧٥٣٢).
3 الإصابة (٢/ ٤٩٦)، (٥٦٧٧).

4 Wellhausen, Reste, S. 239, f.

الحنفاء، ويقولون: إنه لبس المسوح تعبداً، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل وحرم الخمر[1]. ويلاحظ أن الأخباريين ينسبون إلى عدد من هؤلاء الأحناف لبس المسوح، مما يشير إلى أنهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين، فأخذوا عنهم هذه، الطريقة التي أشير إليها في القرآن الكريم وفي الحديث، والتي عدّ ت من البدع الممقوتة في الإسلام.

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا أن الأحناف قالوه، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع، أوردوه بنصه على ما ذكروه. غير أن من الصعب تصور صدور ذلك الكلام المنمق من أناس عاشوا قبل الإسلام، ومحافظة الناس عليه محافظة تامة إلى ما بعد الإسلام. ويظهر على كل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف أن كلام رجال الدين قبل الإسلام كان على هذا النمط من السجع، ومن جمل مكررة معادة عامة. وقد ظل السجع الطريقة المحببة في الكتابة إلى أيامنا هذه عند بعض الكتّاب.

ويفهم من كلام الرواة أن بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة إبراهيم[2]. والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد.

ولدينا أمثلة أخرى على هذا الوهم. وسنرى من تراجم عدد من الاحناف أن منهم من يجب إدخاله في عداد النصارى، لا الأحناف. وقد نص أهل الاخبار أنفسهم على تنصرهم، غير أنهم أدخلوهم مع ذلك في جملة الأحناف حين تكلموا عنهم. فكأنهم عنوا بالأحناف من كان على حياة الرهبنة والتقشف.

وقد أدخل (المسعودي) بعض الاحناف في جماعة أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد، ومن أهل التوحيد، من يقر بالبعث ثم قال: «وقد اختلف الناس فيهم، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء، ومنهم من رأى غير ذلك»[3].

---

[1] كل دين يو القيامة عند اللـــ ـــه إلاّ ديـــن الحنـــيفة زور
الأغاني (٤/ ١٢٢)، «طبعة دار الكتب المصرية».
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٢٧٠).
[3] مروج (١/ ٧٨)، (دار الأندلس).

وقد ذكر من بينهم (حنظلة بن صفوان)، و(خالد بن سنان العبسى)، و(رئاب الشنى)، و(أسعد أبو كرب الحميري)، و(قس بن ساعدة الإيادي)، و(أمية بن أبي السلط الثقفي)، و(ورقة بن نوفل)، و(عداس) مولى (عتيبة بن ربيعة الثقفي)، و(أبو قيس) (صرمة بن أبي أنس) الأنصاري، و(أبو عامر الأوسي)، و(عبد الله بن جحش الأسدي)، و(بحيرا الراهب)[١]. ومن هؤلاء من كان على النصرانية، وقد نص (المسعودي) نفسه على ذلك.

والذين ذكر الرواة أسماءهم من الحنفاء هم أناس عاشوا في الجاهلية المتصلة بالإسلام، ومنهم من أدرك الرسول، ولا عبرة بالطبع لما زعمه الأخباريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئين عدة من السنين، وإدخالهم في المعمرين[٢]، فإن من عادة الأخباريين إطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين الظاهرين، ليكون ذلك مناسباً لما يجيء في أخبارهم من الحكم المنسوبة إليهم، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضاً، ولذلك نجد صور الحكماء والفلاسفة الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جلله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير، فصلَعِ، لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير.

وعندي أن الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام، وثارت عليها وعلى المُثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلك الزمن، ودعت إلى إصلاحات واسعة في الحياة وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التي كانت متفشية في ذلك العهد، دعاها إلى ذلك ما رأته في قومها من إغراق في عبادة الأصنام ومن إسفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة، فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم في كل زمن ينادون بالإصلاح، وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الاوثان شأن كل دعوة إصلاحية. ويجوز أن يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية، غير أننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا نصارى أو يهوداً، إنما أستطيع أن أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإله رب السماء (ذو سموى) أو عبادة الرحمن في اليمن،

---

[1] مروج (١/ ٧٨ وما بعدها).

[2] جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الإيادي، وهو من الحنفاء، ثمانين وثلاث مئة سنة، بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٦).

متأثرين بمبادئ التوحيد التي حملتها اليهودية والنصرانية إلى اليمن. ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى، إنما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد.

ولا يعني قولي هذا أن الحنفاء كانوا على رأي واحد ودين واحد كالذي يفهم مثلاً من قولنا يهودي ونصراني ويهود ونصارى، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة كالذي ذهب (شبرنكر) إليه[1]. إنما كان أولئك الأحناف نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة، إنما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الأصنام وفي الدعوة إلى الإصلاح. وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت إلى الحنفاء.

والرجال الذين قال أهل الاخبار عنهم إنهم كانوا على دين، وكانوا من الأحناف، هم: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نُفيل، وأميّة بن أبي الصلت: وارباب بن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقي، وأسعد ابو كرب الحميري، ووكيع بن زهير الإيادي، وعمير بن جندب الجُهني، وعدي بن زيد العبادي، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وسيف بن ذي يزن، وورقة بن نوفل القرشي، وعامر بن الظرب العدواني، وعبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي، والملتمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبي سُلمى، وخالد بن سنان العَبْسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن الأبرص الاسدي، وكعب بن لؤي بن غالب[2].

وبعض هؤلاء مثل: (قس بن ساعسة الإيادي) و(عثمان بن الحويرث) و(عسي بن زيد العبادي) نصارى، وبعض منهم مثل (أسعد ابو كرب الحميري)، (أبو كرب أسعد الحميري)[3] و(عبيد بن الأبرص)، و(زهير بن أبي سلمى)، مشكوك في أمرهم، لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن دينهم. ولهذا فأنا أذكرهم هنا بحذرٍ، مجاراة لمن أدخلهم في أهل الدين من الجاهلين. ولا أعني أنهم كانوا على الحنيفية، أي على شريعة التوحيد التي ينص عليها أهل الأخبار.

---

[1] Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4.

[2] بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٤ وما بعدها)، مروج الذهب (١/ ٧٨)، (دار الأندلس).

[3] بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٤)، مروج (١/ ٥٢ وما بعدها).

وقد اقتصر (محمد بن حبيب) على ذكر بعض من تقدم، حين تكلم عن (أسماء الذين رفضوا عبادة الأصنام)، فذكرهم على هذا النحو: عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعبيد الله بن جحش بن رئاب الأسدي. وذكر أن منهم من تنصر ومات على النصرانية، مثل: عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش بن رئاب الأسدي[1].

فأما قُس بن ساعدة الإيادي، فقد رفعه الأخباريون من مصاف أسوياء البشر، ووضعوه في صف المعمرين الذين عاشوا مئين من السنين قيل سبع مئة سنة، وقيل ست مئة سنة، أو أقل من ذلك بكثير، غير أنه لا يقل عن ثلاث مئة سنة على كل حال[2].

وأما موته، فمجهول. وأما وفاته، فيكاد يحصل الاتفاق على أنه كان قبيل البعثة. وقد ورد في رواية أن الرسول أدركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة، غير أنه لم يحفظها، وأن أبا بكر، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة، كان قد حفظها، فأعادها على الرسول. وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحفوظة في الكتب. وهناك رواية تذكر أن الرسول كان حفظها، وقد تلاها على من حضر عنده، وتلا بعضاً منها على وفد عبد القيس[3].

---

1 المحبر (١٧١ وما بعدها).

2 وقيل: قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر، وقيل: حذافة بن زهير بن نزار. وقيل قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن أيدعان بن النمر الخ... وقيل: هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك، وهكذا، بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٦)، البيان والتبيين (١/ ٥٠) «طبعة السندوبي»، (١٩٢٦)، شعراء النصرانية (٢/ ٢١١)، «قس بن ساعدة الأيادي بن عمرو بن عدي بن مالك بن أبدطان «ايدعان» بن النمر بن وائلة بن الطمثان بن عوذ بن مناة بن يقدم بن أفصى» المحبر (ص ١٣٦)، الأغاني (١٤/ ٤٠)، البداية والنهاية، لابن كثير (٢/ ٢٣٠)، الميداني، مجمع الأمثال (١/ ١١٧).

3 وفي نصها بعض الاختلاف، راجع:
الإصابة (٥/ ٢٨٥): «وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رجل منهم: هل تعرف قس بن ساعدة؟ فقال رسول الله: ليس هو منكم. هذا رجل من إياد، تحنف في الجاهلية، فوافى عكاظ والناس مجتمعون، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه»، طبقات ابن سعد: الجزء الأول: القسم الثاني (ص ٥٥)، «وفد بكر بن وائل»، محاضر الأبرار (ص ٤٨ وما بعدها)، البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠).

ومما يلفت النظر في الروايات الواردة عن حفظ الرسول لخطبة (قس)، هو إشارتها إلى أن النبي كان يحفظ نص الخطبة، ولم يكن يحفظ الشعر الملحق بها. مع أن حفظ الشعر أيسر من النثر. ولعل الرواة رووا ذلك لإظهار أن الرسول كان لا يقول الشعر، وانما كان يسمعه. ولكننا نجدهم من ناحية أخرى يروون أنه كان يتلو من الشعر المناسب ما شاء أن يتلو، وأنه كان يستشهد به في كلامه، وأنه كان يحفظ شيئاً من شعر الماضين والحاضرين. ولن يضير النبوة من حفظ الشعر شيئاً.

والنص المحفوظ لخطبة (قس) نص مختلف لم يتفق الرواة عليه. مما يدل على أنه لم يكن مدوناً، وإنما روي بروايات مختلفة، ثم دونت فيما بعد.

وأوصل بعض الأخباريين قساً إلى القيصر، فزعموا أنه ذهب إليه واتصل به، وأن القيصر أكرمه وعظمه. وأنه سأله عن العلم قائلاً له: ما أفضل العلم؟ قال: معرفة الرجل بنفسه. قال: فما أفضل العقل؟ قال: وقوف المرء عند علمه. قال: فما افضل الأدب؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه. قال: فما أفضل المروءة؟ قال: قلة رغبة المرء في إخلاف وعده. قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قضى به الحق[1]. وهو كلام ينبئك أسلوبه وطبيعته عن أصله وفصله، وله أصل يرجع إلى الفلاسفة اليونان. ونسبوا له قبراً جعلوه في موضع (رَوْحين) على مقربة من حلب في لحف جبل ينشر له[2].

ونجد حديث قيصر المزعوم مع (قس)، في رواية أخرى على شكل آخر. وقد أهملت هذه الرواية اسم قيصر فلم تشر إليه، واكتفت بلفظة (قيل)، فقالت: «قيل لقس بن ساعدة: ما أفضل المعرفة قال: معرفة الرجل بنفسه. قيل له: فما أفضل العلم قال: وقوف المرء عند علمه! قيل له: فما أفضل المروءة؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه»[3].

وقسُ هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الأخبار، أحدث لهم أموراً كثيرة. فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ

---

[1] شعراء النصرانية (٢/ ٢١١)، الأمالي، للقالي (٣/ ٣٧)، «دار الكتب»، العقد الفريد (٢/ ٢٥٤ وما بعدها)، ٢٩٠ وما بعدها).

[2] شعراء النصرانية (٢/ ٢١٦)، الأغاني (١٤/ ٤٠ وما بعدها).

[3] العقد الفريد (٢/ ٢٩٠ وما بعدها).

عند خطبته على سيف أو عصا وأول من علا على شرف وخطب عليه، وأول من قال: «أما بعد»، وأول من كتب «إلى فلان بن فلان»[١]. وأول من قال: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر»، فكل ما عرفه العرب من هذه الأمور، هو من صنعة قس وعمله. ثم أنه كان أحد حكماء العرب، وكان أسقف نجران، وخطيب العرب كافة[٢]. وذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب، لأن الرسول روى كلامه وموقفه على جمله الأورق بعكاظ وموعظته، وعجب من حسن كلامه، وأظهر تصويبه[٣]، وأنه قال فيه: «يحشر أمة وحده»[٤].

وجاء في رواية في تفسير قول الرسول: «يحشر أمة وحده»، أو «يرحم الله قساً، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة واحدة»، إن وفداً من إياد قدم على النبي: فسألهم عن قس، فقالوا: هلك. فقال: رحمه الله، كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق (أحمر) وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أوجدني أحفظه. فقال رجل من القوم، أنا أحفظه يا رسول الله. سمعته يقول: ايها الناس اسمعوا وعوا... إلى آخر الخطبة، وما جاء بعدها من شعر، فقال رسول الله عندئذ قوله المذكور فيه[٥].

ويختلف هذا الخبر بعين الاختلاف مع خبر آخر أشرت إليه قبل قليل، فقد ورد في ذلك الخبر أن رسول الله كان. يحفظ تلك الخطبة، غير أنه لم يكن يحفظ الأبيات الملحقة بها، وكان (أبو بكر) يحفظها، فأعادها على مسامعه[٦]. كما يختلف عن رواية أخرى، جاء فيها أن الوفد الذي قدم على الرسول كان وفد (عبد القيس)، وأن الذي قرأ الشعر عليه هو أحد بني عبد القيس[٧].

---

1 المؤتلف والمختلف، للمرزباني (٣٣٨)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٦)، الأغاني (١٤/ ٤٠ وما بعدها)، مروج الذهب (١/ ٨٢)، (٢/ ١٠٢)، (دار الأندلس)، البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠ وما بعدها).

2 اللسان (٨/ ٥٨)، شعراء النصرانية (٢/ ٢١١).

3 بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٦).

4 الأغاني (١٤/ ٤٠).

5 الأغاني (١٤/ ٤٠ وما بعدها)، المعارف (٦١)، البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠ وما بعدها).

6 البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠ وما بعدها)، مجمع الأمثال، للميداني (١/ ١١٧).

7 البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠ وما بعدها).

ويذكر بعض أهل الأخبار، أن (الجارود)، وكان في ضمن رجال وفد (عبد القيس)، قال للرسول حين سأل عن (قس): «فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم يخبره، واقف على أمره. كان قس يا رسول الله سبطاً من أسباط العمر عمّر ستمائة سنة، تقفر منها نفسه خمسة أعمار في البراري والقفار». ثم أخذ في وصفه وفي ذكر عقائده، وفي لقياه لـ (سمعان) رأس الحواريين. وخلص بعد ذلك إلى ذكر نص خطبته بسوق عكاظ، ومطلعها: «شرق وغرب»، حتى انتهى منها، ثم ألحق بها شعراً[١]. وهي خطبة تختلف تماماً عن الخطبة المعروفة التي تنسب إليه، وإن كانت على نمطها من حيث الأسلوب والأفكار، وفيها مصطلحات اسلامية ترد في القرآن الكريم. ولا أستبعد أن تكون من وضع شخص آخر غير الجارود. وضعها في العصور العباسية، للحث على الزهد.

والجارود من سادات عبد القيس، وكان نصرانياً، قدم على النبي سنة عشر في وفد عبد القيس الأخير، وسرّ الرسول بإسلامه، وكان حسن الإسلام صلباً على دينه، وقتل بأرض فارس في خلافة عمر، وقيل بقي إلى خلافة عثمان[٢].

ولو صح ما ذكروه من أنه كان أسقفاً على نجران، لوجب اخراجه إذن من الحنيفية وإدخاله في عداد النصارى. ولكن ليس مؤكداً أنه كان اسقفاً على ذلك الموضع، ويرى الأب (لامانس) احتمال كونه نصرانياً، لان ما نسب إليه يبعث على هذا الظن[٣]. وقد أدخل الاب (لويس شيخو) قساً في جملة النصارى الجاهليين، وأورد أكثر ما نسب إليه في ترجمته[٤]. غير أن كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب إلى غيره. وقد إشار إلى من نسب اليهم العلماء.

وذهب (شبرنكر) إلى أن قساً كان من (الركوسية)، وهم فرقة عرفهم أهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين، شملت جماعة من الحائرين في أمر دينهم، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترفع والأنزواء[٥]. وقد حسبهم العرب نصارى، فأدخلوهم فيهم في أثناء كلامهم على هؤلاء[٦].

---

[1] البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠ وما بعدها).
[2] الإصابة (١/ ٢١٧ وما بعدها)، (رقم ١٠٤٢).
[3] Ency., II, p. 1161, Sprenger, Leben, I, S. 45.
[4] شعراء النصرانية (٢/ ٢١١ وما بعدها).
[5] تاج العروس (٤/ ١٦٣).
[6] Sprenger, Leben, I, S. 43.

ويرى (لامانس) أنه لو كان قس شخصية تاريخية حقاً، فإن زمانه لا يمكن ان يكون في أيام الرسول أو في أيام مقاربة من أيامه. إذ لا يعقل عنده أن يتكون هذا القصص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية، لو كان من المعاصرين أو المقاربين له. ثم إن اياداً لم تكن في أيام الرسول كتلة واحدة، حتى ينسب قس إليها. فلا بد إذن ان تكون أيام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن أيام الرسول[1].

غير أن حجج (لامانس) المذكورة لا يمكن أن تكون سنداً يؤيد ادعاءه في أن قساً كان شخصية خرافية، أو أنه كان رجلاً حقاً، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول. فقد روى الأخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة، لا يقل نسيجاًعن نسيج قصص قس، فهل يتخذ هذا القصص حجة لإنكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القصص عنهم؟ وهل يجوز أن نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب ان تكون أيامه بعيدة عن ايام الرسول.

ولدى الرواة أبيات ينسبونها إلى بعض الشعراء الجاهليين، هم: الأعشى، والحطيأة، ولبيد، ذكر فيها اسم قُسّ. وقد أشيد فيها بفصاحته وببلاغته وحكمته، حتى جعل لبيد لقمان دون قس في الحكم[2].

وورد اسم (قس) في هذا الشعر وفي أمثاله إن صح إنه من شعر الجاهليين حقاً، وورود اسمه في الحديث وفي الأخبار، هو تعبير عن رأي أهل الجاهلية في خطيب مفوه عدّ في نظرهم المثل الأعلى في الخطابة وممثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين.

---

[1] Ency., II, p. 1161.

[2] قال لبيد:
وأخلف قساً ليتني ولعلني   وأعيا على لقمان حكم التدبر
الإصابة (٥/ ٢٨٥)، «قس»، قال الأعشى:
وأحلم من قس وأجرى من الذي   بذي الغيل من خفان أصبح حاردا
وفي رواية أخرى:
وأحلم من قيس وأجرء مقدما   لذي الدرع من ليث إذا راح حاردا
ديوان الأعشى (ص ٤٩)، «تحقيق R. Geyer»، المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨)، وقال الحطيأة:
وأقول من قس وأمضى إذا مضى   من الرمح إذ مس النفوس نكالها
المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨).

وجميع هذا القصص المروي عن قس، هو من النوع الذي يحتاج إلى تمحيص. وقد نسبوا إليه شعراً، زعموا أنه قاله وهو يبكي بين قبرين بنى بينهما مسجداً، هما قبرا أخويه، على حين أن أكثر الرواة يقولون إن هذا الشعر لغيره، وإن قصة القبرين لا تخص قساً، بل تخص أناساً آخرين، وقد كانا في إيران وأصحابهما قبرا فيهما في الإسلام. ورواة هذا الخبر، هم رواة خطبة قس الشهيرة، وهم محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح ابن عباس وجماعة آخرون أشار (ابن حجر) إلى بعضهم في كتابه: «الإصابة في تمييز الصحابة»، وقد ضعف ابن حجر هذه الطرق، فقال: «وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس، وفيه شعره وخطبته، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها. وطرقه كلها ضعيفة»[١]. ثم عرج بعد ذلك إلى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس.

واما (زيد بن عمرو بن نفُيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر)، فهو من قريش من بني عدي، لم تعجبه عبادة قومه، فانتقدها وسخفها وهزىء منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فأعتزل الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة، وامتنع من الذبح للأنصاب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام. فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش، منهم: ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش، لاموا قومهم على عبادتهم الأصنام، واتخاذ الأنصاب وعبادة ما لا يضر ولا ينفع[٢]. وهم طائفة من المفكرين، رأى بعضهم بلاد الشأم، واتصل ببعض المبشرين النصارى، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج، ولعله كان يقرأ ويكتب، وله اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين.

وترجع احدى الروايات سبب خروج (زيد) على عبادة قومه، أنه حضر يوماً وحضر معه في ذلك اليوم (ورقة بن نوفل)، و(عبد الله بن جحش) و(عثمان بن الحويرث)، عيداً من أعياد قريش، عند صنم من أصنامهم،

---

[1] الأغاني (١٤/ ٤٠ وما بعدها)، الإصابة (٥/ ٢٨٦).

[2] ابن هشام (١/ ٢٤٤ وما بعدها)، إرشاد الساري (٦/ ١٩٠)، أسد الغابة (٢/ ٢٣٦)، طبقات الشعراء (ص ٦٦)، «طبعة ليدن»، البداية والنهاية (٢/ ٢٣٧)، ابن خلدون، القسم الأول، المجلد الثاني (ص ٧٠٧)، المسعودي، مروج (١/ ٧٠)، «محمد محيي الدين عبد الحميدي» الأغاني (٣/ ١١٣)، البخاري (٥/ ٥٠)، المعارف (٢٧).

كانوا يعظمونه، ويعكفون عنده، أو يديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، وكانوا ينحرون له، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا، قالوا ليكتم بعضكم على بعض، واتفقوا على ذلك، ثم قال قائلهم: «تعلمون والله ما قولكم على شيء، لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه. ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء. فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب»[١].

وقد زار زيد الشأم والبلقاء، وعاش إلى خمس سنين قبل البعث، فهو من أولئك الرهط الثائربن على قومهم، والذين أدركوا أيام الرسول. وقد نسبوا إليه شعراً في تسفيه عبادة قومه، وفي فراقه دينهم وما لقيه منهم. وكان قد أوذي لمقالته هذه في دين قومه، حتى أكره على ترك مكة والنزول بـ (حراء)، وكان (الخطّاب بن نفيل) عمه، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفائهم كلفهم ألاّ يسمحوا له بدخول البلدة وبمنعه من الإتصال بأهلها، مخافة أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراق ما هم عليه. واضطر زيد إلى المعيشة في هذا المحل، معتزلاً قومه، إلاّ فترات، كان يهرب خلالها سراً، ليذهب إلى موطنه ومسكنه، فكانوا اذا أحسوا بوجوده هناك، آلموه وآذوه[٢].

وورد في رواية، يرجع رواتها سندها إلى (هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل)، أي إلى حفيد (زيد)، تذكر أن (زيد) خرج مع (ورقة بن نوفل) يلتمسان الدين، حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فسأله عن الدين، فلم يقتنع بالنصرانية، أما (ورقة)، فاقتنع بها وتنصر[٣]. وتذكر رواية أخرى أن (زيد بن عمرو) خرج إلى الشأم ومعه: (ورقة بن نوفل)، و(عثمان بن الحويرث)، و(عبيد الله بن جحش)[٤]. ويذكر الرواة أن زيداً كان

---

[1] البداية (٢/ ٢٣٨)، ابن هشام، سيرة (١/ ٢٤٢).
[2] ابن هشام (١/ ٢٤٠ وما بعدها) (البابي)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٥١ وما بعدها)، ابن سعد، الطبقات (١/ ١٦٢)، «طبعة دار صادر»، مروج الذهب (١/ ٧٠).
[3] البداية (٢/ ٢٣٨).
[4] البداية (٢/ ٢٤٣).

نديماً لورقة بن نوفل، فمات ورقة، وخرج زيد إلى الشأم، فقتله لخم وجذام[1].

ويذكر أهل الأخبار أن حرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها، حمله على السفر إلى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة، مبادئ إبراهيم الأصيلة الخالية من كل درن وشائبة. فذهب إلى الموصل والجزيرة، ثم طاف في بلاد الشأم حتى انتهى إلى راهب بـ (ميفعة)[2] (ببيعة)[3] من أرض البلقاء أو (أيلة)، فسأله عما قدم من أجله، فأرشده إلى أن ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية، فغادره وتركه، وعاد يريد مكة موطنه. فلما توسط بلاد لخم أو جذام، عدوا عليه وقتلوه. وقالوا أيضاً إنه التقى في أثناء أسفاره هذه بأحبار اليهود وبعلماء من النصارى، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه، وما يرى فيه التوحيد الخالص، ومبادىء إبراهيم، لذلك لم يدخل في ديانة ما من تلك الديانتيْن، حتى قتل[4].

وتذكر رواية من الروايات، أن (زيد بن عمرو بن نفيل) مات بالسمّ في بلاد الشأم، سمّه بعض ملوك غسان[5]. وتجعل رواية أخرى مقتله بمكان يقال له (ميفعة) من أرض البلقاء بالشأم، وتذكر أن قتلته هم من بني لخم[6]. وتذكر رواية أن (ورقة بن نوفل)، لما سمع بخبر وفاته بكاه في شعر له[7].

وهناك روايات أخرى تفيد رجوع زيد إلى قومه بعد عودته من الشأم، ووفاته وفاة طبيعية لا قتلا بيد إنسان. «توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله بخمس سنين»، ودفن بأصل حراء[8].

---

[1] المحبر (١٧٥).
[2] ابن هشام (١/ ٢٤٩).
[3] «ببيعة»، البداية (٢/ ٢٣٨).
[4] ابن هشام (١/ ٢٤٩ وما بعدها)، طبقات ابن سعد :الجزء الثالث: القسم الأول (ص ٢٧٦ وما بعدها)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٥١ وما بعدها)، «فلما توسط جذام عدوا عليه فقتلوه» المحبر (ص ١٧٢)، سير أعلام النبلاء، للذهبي (١/ ٩٠ وما بعدها)، ابن خلدون (٢/ ٧٠٧ وما بعدها)، المسعودي، مروج (١/ ٧٠)، إرشاد الساري (٦/ ١٧٢ وما بعدها).
[5] المسعودي، مروج (٥٦/٢).
[6] البداية (٢/ ٢٤١).
[7] ابن هشام (١/ ٢٤٩ وما بعدها).
[8] طبقات ابن سعد: الجزء الثالث: القسم الأول (ص ٢٧٧)، البداية (٢/ ٢٤١).

وفي رواية تظهر عليها سيماء الصنعة، أن الذي أرشد (زيد بن عمرو) إلى الحنيفية، حبر التقى به في بلاد الشأم، وعالم نصراني، وذلك أنه كان قد سألهما عن دين صحيح قويم، فأرشداه إلى الحنيفية دين إبراهيم. فدخل فيها وصار يرفع يديه إلى الله ويقول: اللهم إني أشهدك أننى على دين إبراهيم[١]. ونجد في هذه الرواية أسئلة وجهها (زيد) إلى الحبر في البحث عن الله وعن دينه الحق، وأجوبة الحبر عليها. كما نجد أسئلة أخرى ذكر أنه وجهها إلى العالم النصراني، وفي أجوبة ذلك العالم عليها. وكيف أنهما دلاه على الحنيفية[٢].

وذكر (ابن حبيب) أن زيداً «أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان»[٣]. وقال عنه (ابن دريد)، وكان قد «ترك دين العرب في الجاهلية وقلاه»[٤]. وقصد بـ (دين العرب) الوثنية ولا شك. وزعم أنه «كان يحيي الموؤودة. يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته مهلاً: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها»[٥]. وقيل إنه كان يقول: «اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك سجدت إليه. ولكني لا أعلمه. ثم يسجد على راحته»[٦]. وإنه كان «يقول: إلهي إلَه إبراهيم، وديني دين إبراهيم. وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماءً وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى! إنكاراً لذلك واعظاماً له»[٧]. أو «يا معشر قريش: أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحوها لغيره! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري»[٨]. ويستقبل القبلة ثم يقول:

---

1 الطبري، تفسير (٣/ ٣٠٦)، صحيح البخاري (٥/ ٥٠)، «مطبعة الأزهر بمصر».
2 الأغاني (٣/ ١٢٦ وما بعدها) «دار الكتب المصرية»، البداية (٢/ ٢٣٨).
3 المحبر (ص ١٧١).
4 الاشتقاق (ص ١٠٣).
5 طبقات ابن سعد، الجزء الثالث: القسم الأول (ص ٢٧٦ وما بعدها).
6 المحبر (ص ١٧١).
7 أسد الغابة (١/ ٢٣٦)، طبقات الشعراء (٦٦)، «طبعة ليدن»، بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٨)، البداية والنهاية (٢/ ٢٣٧)، إرشارد الساري (٦/ ١٧١ وما بعدها).
8 الأغاني (٣/ ١١٩ وما بعدها).

أنفي لرب البيت عانٍ راغم   مهما يُجشّمني فإني جاشم
عذت بما عـــاذ به إبراهيم   مستقبل القبلة وهـــو قائم[1]

وروي أن أسماء بنت أبي بكر «قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به. ولكني لا أعلم. ثم يسجد على راحته»[2]. ثم يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إلَه إبراهيم، وديني دين إبراهيم[3].

وذكر (ابن دريد) أن (زيد بن عمرو بن نفيل)، أدرك أيام الرسول، ثم قال: «وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حبب إليه الأنفراد، فكان يخلو في شعاب مكة، قال: فرأيت زيد بن عمرو بن نفيل في بعضى المشاعب، وكان قد تفرّد أيضاً، فجلست إليه وقربت إليه طعاماً فيه لحم، فقال لي يا ابن أخي إني لا آكل من هذه الذبائح»[4].

وذكر (ابن دريد)، أن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام، هو:

فلا عُزى أدين ولا ابنتيهـــا   ولا صنمي بني عمرو أزور
أربّـــاً واحداً أم ألـــف ربّ   أديـــن اذا تقسمت الأمـــور[5]

ويفهم من هذا الشعر أن (عزى)، إلهة، أي أنثى، وأن لها ابنتين اثنتين، ولم يشر (ابن دريد) إلى اسميهما.

وقد صيغت الرواية المتقدمة التي تشير إلى التقاء الرسول بزيد في شكل آخر. صيغت بهذه الصورة: «أتى زيد بن عمرو بن نفيل على رسول الله صلى الله

---

[1] كتاب نسب قريش، للزبير (ص ٣٦٤).
[2] البداية (٢/ ٢٣٧)، الذهبي، تأريخ الإسلام (١/ ٥٤)، البغدادي، خزانة (٣/ ٩٩).
[3] المصدر نفسه.
[4] الاشتقاق (٨٤)، إرشاد الساري (٦/ ١٧١ وما بعدها).
[5] الاشتقاق (٨٤)، وورد:
أربـــاً واحـــداً أم ألـــف رب   أديـــن إذا تقســـمت الأمـــور
عزلت اللات والعزى جميعاً   كذلـــك يعقل الجـــلد الصبور
فلا عـــزى أديـــن ولا ابنتيها   ولا صنمي بني عمرو أزور

عليه وسلم، ومعه زيد بن حارثة، وهما يأكلان من سُفرة لهما، فدعواه لطعامهما، فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي: أنا لا آكل مما ذبح على النصب»[١].

وورد خبر التقاء (زيد) مع رسول الله في رواية اخرى. يرجع رواتها سندها إلى (زيد بن حارثة). يذكرون أنه قال: خرجت مع رسول الله في يوم حار من أيام مكة، وهو مردفي، فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل، فحيا كل منا صاحبه. فقال النبي: يا زيد مالي أرى قومك قد شنفوك؟ فأجابه زيد، بأنه لا يهتم بذلك، وأنه خرج يبتغي دين الله، حتى قدم على أحبار خيبر، فوجدهم يعبدون الله ويشركون به. ثم سأل أحد الأحبار، وهو شيخ منهم عن الدين الذي يبتغيه، فقال له: ما نعلم أحد يعبد الله به إلاّ شيخاً بالحيرة، فخرج إليه. فلما كلمه قال له: إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك قد بعث نبيّ، قد طلع نجمه. فعاد إلى مكة[٢]. ولو صح هذا الخير لوجب أن يكون زيد قد أدرك مبعث الرسول. ولكن أهل الأخبار مجمعون على أنه توفي قبل المبعث. وأن الرسول نفسه قال عنه: يبعث يوم القيامة أمة واحدة، وعلى الخبر سيماء الصنعة والتزويق.

وروي عنه أن قومه كانوا اذا دعوه إلى وليمة، كان يأبى أن يأكل منها قائلاَ: «إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلاّ ما ذكر اسم الله عليه»[٣]. وهكذا كان يقاطع أكل لحوم الحيوانات التي تذبح للأصنام. ويشاركه في الامتناع عن أكل لحوم هذه للذبائح الأحناف الآخرون، فقد روي أن ورقة بن نوفل كان لا يأكل من لحوم هذه الذبائح أيضاً للسبب المذكور[٤].

ويذكر أهل الأخبار أن (زيد بن عمرو بن نفيل) كان اذا خلص إلى البيت استقبله ثم قال: لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر لمن قال. ثم يقول:

عذت بما عاذ به إبراهيم　　مستقبل الكعبة وهو قائم[٥]

---

[1] البداية (٢/ ٢٣٨، ٢٤٠).
[2] أسد الغابة (٢/ ٢٣١).
[3] البخاري (٥/ ٥٠).
[4] الأغاني (٣/ ١١٩).
[5] الأغاني (٣/ ١١٧).

أو «لبيك حقاً، تعبداً ورقاً، عذت بما عاذ به إبراهيم»[1].

وذكر أنه كان يأمر بالتوحيد وبعبادة إلَه واحد. من ذلك قوله:

لا تعبدنّ إلهـــاً غير خالقكم   وإن دعيتم فقولوا دونه حدد[2]

وزُعم أنه كان يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة، فصلى وسجد سجدتين، ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا اعبد حجراً ولا أصليّ له ولا آكل ما ذبح له، ولا أستقسم بالأزلام، وإنما أصليّ لهذا البيت حتى أموت. وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي، فيقول: لبيك لا شريك لك، ولا ندّ لك. ثم يدفع من عرفة ماشياً، وهو يقول: لبيك متعبداً مرقوقاً[3].

ويروي أهل الأخبار أقوالاً أخرى لزيد، كما رووا له أشعاراً زعموا أنه قالها، وهي في هذه الأمور التي ينسبونها إلى الأحناف من ذكر لديانة إبراهيم وللتوحيد ومن ذمّ إلى الأصنام ومن إصلاح لحال مجتمع ذلك اليوم[4]. كما رووا له أبياتاً من شعر زعموا أنه نظمه يعاتب فيه زوجته (صفية بنت الحضرمي)، لأنها كانت تمانع في خروجه عن مكة وفي سفره إلى الخارج التماساً لهذا الدين[5].

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن (زيد بن عمرو بن نفيل)، كان في جملة من اشترك في (حرب الفجار)، تقول إنه كان على رأس (بني عدي) وذلك في يوم شمطة[6].

وروي أن رسول الله سئل عن (زيد بن عمرو)، فقال: «يبعث أمة وحده يوم القيامة»[7]. بل روي أنه ترحم عليه، وأنه قال: «رأيته في الجنة يسحب ذيولاً»[8].

---

1 الأغاني (٢/ ٢٣٨).
2 تاج العروس (٢/ ٣٣١)، (حدد).
3 البداية (٢/ ٢٣٩).
4 الأغاني (٣/ ١١٧).
5 ابن هشام، سيرة (١/ ٢٤٧).
6 البلاذري، أنساب (١/ ١٠٢).
7 البخاري (٥/ ٥٠)، المعارف (٢٧)، البغدادي، خزانة (٣/ ١٠٠).
8 ابن سعد، طبقات (٣/ ٢٧٣).

وينسب أهل الأخبار لزيد شعراً، هو من هذا الشعر الذي ينسبونه إلى الأحناف، في الطابع الديني، من بحث عن توحيد، وحث على عبادة إلَه واحد، وإقرار بحساب وكتاب. وأمثال ذلك[١]. وقد نسب بعض منه إلى (أمية بن أبي الصلت)، ونسب بعض منه إلى شعراء آخرين. كما أن الرواة يروون هذا الشعر بقراءات مختلفة.

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الإسلام، هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين، شهد المشاهد والأحداث المهمة، إلاَّ بدراً، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك. وهو أحد العشرة المبشرة. ذكر أنه أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم. ولا بد أن يكون لرأي والده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في نشوء هذا الابن وفي إقدامه مع السابقين على الدخول في الإسلام، بعد أن كان والده قد سبق إسلامه برحيله إلى الآخرة بسنين. وأمه (فاطمة بنت بعجة بن أمية بن خويلد بن خالد بن اليعمر) من خزاعة. ولسعيد أخت اسمها عاتكة بنت زيد[٢].

وذكر (ابن هشام) أن زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، اتفقوا في الرأي والعقيدة، وتعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال، وتصادقوا، وكوّنوا عصبة خرجت على عبادة قريش، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم، ولم يشاركوهم في عبادتهم، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين[٣].

أما عبيد الله بن جحش بن رئاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فقد بقي مرتاباً في دين قومه، بعيداً عنهم وعن عبادتهم، حتى إذا ظهر الإسلام دخل فيه، ثم هاجر مع من هاجر إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مسلمة كذلك. فلما صار في الحبشة، فارق الإسلام

---

[1] البداية (٢/ ٢٤١ وما بعدها).
[2] كتاب نسب قريش (٣٦٥)، الاستيعاب (٤/ ٣٦٥)، الإصابة (٢/ ٤٤)، (رقم ٣٢٦١).
[3] ابن هشام (١/ ٢٤٢)، «طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد»، المحبر (١٧١، ١٧٥، ٢٣٧)، الروض الأنف (١/ ١٤٥).

وتنصر، وهلك هناك[1].

وأما عثمان بن الحويرث، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم، ثم رأى الذهاب إلى الروم، فذهب إليهم، وتقرب إلى قيصر، وحسنت منزلته عنده ومنحه لقب (بطريق)، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة، ولكن قومه أبوا ذلك، فلم يتمّ له مراده، ومات بالشأم مسموماً، سمّه عمرو بن جفنة الغساني[2].

وذكر (الزبيري)، أن والدة (عثمان بن الحويرث)، هي تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح)[3]. وأنه خرج إلى (قيصر فسأله أن يملكه على قريش، وقال: أحملهم على دينك، فيدخلون في طاعتك، ففعل. وكتب له عهداً وختمه بالذهب، فهابت قريش قيصر، وهمّوا أن يدينوا له، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة، فصاح، والناس في الطواف: إن قريش لقاح، لا تملك ولا تملك. فاتسعت قريش على كلامه، ومنعوا عثمان مما جاء له، فمات عند ابن جفنة، فاتهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله)[4]. وكان ابن جفنة حبس أبا ذئب عنده، وأبا أحيحة بسبب عثمان بن الحويرث[5]. ويقصدون بابن جفنة: عمرو بن جفنة الغساني[6].

وتذكر احدى الروايات، أن وفاة (عثمان بن الحويرث) كانت بالشأم وقد مات عند قيصر، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة، أو نحها، وقد رثاه (زيد بن عمرو بن نفيل)، وورقة بن نوفل[7].

ويعد (عثمان بن الحويرث) من أشراف (بني أسد) من قريش[8]. وقد كان مع (خويلد بن أسد) على رأس (بني أسد) في (حرب الفجار)[9].

---

1 ابن هشام (١/ ٢٤٣)، المحبر (٧٦، ٨٨، ١٧٢، ١٧٣)، البداية (٢/ ٢٤٣)، L. Krehl, Das Leben Muhammad, S. 14.

2 ابن هشام (١/ ٢٤٣)، الاشتقاق (ص ٥٩)، المحبر (١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٥، ٣٠٧)، الروض الأنف (١/ ١٤٦).

3 كتاب نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها)، وذكر صاحب «المحبر» أن أمه من الحبشيات (٣٠٧).

4 كتاب نسب قريش (٢١٠).

5 جمهرة ابن حزم (١٩٠).

6 البداية (٢/ ٢٤٣).

7 كتاب نسب قريش (٢١٠).

8 المحبر (١٦٥).

9 المحبر (١٧٠).

وكان ينادمه (شيبة بن ربيعة بن عبد شمس). وقد تنصرا جميعاً، وقتل شيبة يوم بدر كافراً[١].

وأما (أمية بن أبي الصلت)، فهو أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر، بقي كثيراً من شعره، وربما وضع كثير منه على لسانه، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره. وسبب ذلك بقاؤه إلى ما بعد البعث، واتصاله بتأريخ النبوة والإسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام. لم يكن مسلماً ولم يرضَ أن يدخل في الإسلام لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه، وأن ينزل الوحي عليه، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين. فلما رأى النبوة في الرسول، حسده، وأثار المشركين عليه، ورثى قتلاهم في معركة بدر، وحرض قريشاً عليه، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون. لم يمت مسلماً، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه: بل مات كافراً بالديانتيْن[٢].

وقد جاء في بعض الروايات، أن وفاة (أمية)، كانت في السنة الثانية من الهجرة[٣]. وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة، كافراً قبل أن يسلم الثقفيون[٤].

ورثاؤه قتلى معركة بدر، محفوظ في قصيدة حائية. مطلعها:

ألا بكيت على الكرا	م بني الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فرو	ع الأيك في الغصن الصوادح

---

1 المحبر (١٧٥).

2 الأغاني (٤/ ١٢٠ وما بعدها)، «طبعة دار الكتب المصرية»، ابن هشام (١/ ١١، ٤٨، ٦١، ٦٣، ٦٨)، (٢/ ١٦، ٣٢١، ٤٠١، ٤٠٦)، (٣/ ٦٥)، «طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد»، شرح السيرة النبوية، لأبي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (١/ ٢٣، ٢٤)، «تحقيق بولس برونله»، نسب قريش (٩٨)، جمهرة الأنساب (٢٥٧)، ابن قتيبة، الشعراء (٤٢٩)، شعراء النصرانية (٢/ ٢١٩ وما بعدها)، الأغاني (١٦/ ٦٩)، الحيوان للجاحظ (٢/ ٣٢٠)، خزانة الأدب (١/ ١١٩)، الشعر والشعراء (١٧٦)، النووي، تهذيب الأسماء (١/ ١٢٦)، Ency., IV., p. 997.

3 تأريخ الخميس (١/ ٤١٢)، الأغاني (٤/ ١٢٤، ١٢٩)، الشعر والشعراء (١٠/ ٣٦٩).

4 الإصابة (١/ ١٣٤)، (رقم ٥٥٢).

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين، ودفنهم بالقليب، وفيهم (عتبة) و(شيبة) ابنا (ربيعة بن عبد شمس)، وهما ابنا خالة أمية. وقد ذكر بعض الرواة أن الذي حمله على قول هذا الشعر، هو أنه لما وصل إلى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر، وكان ذاهباً إلى المدينة يريد الدخول في الإسلام، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين: هل تدري ما في هذا القليب؟ قال: لا. قيل: فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان. فجدع أنف ناقته، وشق ثوبه، وبكى، وعاد إلى الطائف[1].

وذكر أن أمية نال في بيتين من هذه القصيدة من أصحاب رسول الله، ولذلك أهملهما (ابن هشام) صاحب السيرة[2]. وذكر أيضاً أن النبي نهى عن روايتها[3]. ولكن الرواة رووها وحفظوها ودوّنوها في الكتب، فكيف تجرؤوا على حفظها وتدوينها لو صح أن النبي نهى عن روايتها على نحو ما يزعمه أهل الأخبار.

وأميّة مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء، سافر إلى الشأم، واتصل بأهلها، وأوى إلى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم ما يهمه من مشكلات دينية وعما كان يجول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم. وكان تاجراً، يذهب مع التجار في قوافلهم إلى تلك الديار التي كَانت في أيدي الروم. ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات التي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً، قرأ الكتب، ووقف عليها. ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين، وشكّه في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات. وقد بدا هذا التأثر في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة في شعره وفي الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين: للعهد القديم والعهد الجديد ومن موارد

---

[1] ابن هشام (٢/ ٤٠١ وما بعدها)، راجع القصيدة في (ص ٢٠) من ديوان أمية، بيروت ١٩٣٤، بلوغ الأرب (٢/ ٢٥٦)، خزانة الأدب (١/ ١١٩)، الحيوان، للحاحظ (٢/ ٣٢٠)، الشعر والشعراء (١٧٦)، البيان والتبيين (١/ ٢٩١)، المسعودي، مروج (١/٧٣)، محمد محيي الدين عبد الحميد، «١٩٥٨م»، الأغاني (٣/ ١١٩ وما بعدها)، خزانة الأدب (٢/ ٣٩ وما بعدها)، الأغاني (٤/ ١٢٢)، الإصابة (١/ ١٣٤)، (رقم ٥٥٢).

[2] ابن هشام (٢/٤٠٥).

[3] الأغاني (٤/ ١٢٣)، «ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره»، بروكلمان، تأريخ الأدب العريب (١/ ١١٣).

أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب[1].

وقد ورد في بعض الأخبار أن أمية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في تجارة إلى بلاد الشأم، فكان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرأه على من معه، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم، وكان يلبس ثوبين أسودين حينما يقابلهم[2]. ولم تذكر الرواية شيئاً عن السفر أو الأسفار التي كان يقرأ منها أمية ويشرحها لمن معه من التجار. وتذكر رواية أخرى أنه كان قد بلغ مع (أبي سفيان) غزة أو (ايلياء)[3].

ولأمية في هذا اليوم ديوان ضم أكثر ما نسب إليه من شعر. كما أن في بطون كتب الأدب والأخبار أشعاراً أخرى لم يرد لها ذكر في هذا الديوان. ومعظم شعره هو عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار والحساب والكتاب، وقد تضمن إشارات إلى حوادث وقعت في أيامه، أو في أيام قريبة من أيامه مثل قصة الفيل، كما تضمن بعض قصص الأنبياء، ولتعرض شعره إلى هذه النواحي نعت بشاعر الآخرة[4].

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على استعماله للكلم الغريب، أنه استعمل (الساهور) للقمر، وهي كلمة لا تعرفها العرب، وأنه ذكر، (السلطيط)، اسماً لله تعالى. وأنه أطلق كلمة (التغرور) على الله تعالى في موضع آخر من شعره، وأنه سمى السماء (صاقورة) و(حاقورة) وأنه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل. ولولعه هذا باستعمال الغريب، رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره[5].

---

[1] الأغاني (١٢١/٤ وما بعدها)، «طبعة دار الكتب المصرية»، «وكان يحكى في شعره قصص الأنبياء، ويأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب، يأخذها من الكتب المتقدمة، أو بأحاديث من أحاديث أهل الكتاب»، الشعر والشعراء (١/ ٣٦٩).

[2] البداية والنهاية، لابن كثير (٢/ ٢٢٠)، الأغاني (٤/ ١٢٣ وما بعدها)، (دار الكتب المصرية).

[3] البداية والنهاية (٣/ ٢٢٤).

[4] تأريخ الأدب العربي، لبروكلمن (١/ ١١٣)، «الترجمة العربية»، عيون الأخبار، لابن قتيبة (٦/ ٣٧٤)، الحيوان (٧/ ٣٢١)، «عبد السلام هارون»، البيان والتبيين (١/ ٢٩١).

[5] الأغاني (٤/ ١٢١ وما بعدها)، شعراء النصرانية (٢/ ٢١٩)، ديوان أمية فحول الشعراء، «جمع بشير يموت»، «بيروت ١٩٣٤م» (ص ٥ وما بعدها)، سيرة ابن هشام (١/ ٤٨).

والساهور، كلمة آرامية الأصل من أصل (سهرو) Sahro، بمعنى القمر، أي تماماً بالمعنى الوارد في شعر أمية[1].

وهذا الشعر المنسوب إلى أمية وغريبه خاصة مادة مهمة جداً تجب دراستها بعناية، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء في أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى، إن صح أنها من أشعار تلك الأيام حقاً، إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات إلى معرفة المنابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التي كانت في مكة وفي خارج جزيرة العرب قبيل الإسلام.

وقد روى الأخباريون قصصاً عن إلتقاء أمية بالرهبان، وعن توسمهم معالم النبوة فيه، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة. فلما كانوا يقفون على الأجوبة، يقولون له: كادت النبوة تكون فيه، لولا بعض النقص في علاماتها عنده، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر، لتنظيفه، وتهيئة النبوة فيه. ولكنهما عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له[2]. وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول[3]. كذلك رووا أنه كان يتفرس في لغات الحيوانات، فيعرف ما تقوله وما تريده ويقصه على الناس وأنه كان يسخر الجنّ، وكانت تطيعه، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب[4]. فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي سلمان في علمه بمنطق الطير وبقية الحيوانات[5]. وذكر (ابن دريد): «كان بعض العلماء يقول له لولا النبي صلى الله عليه وسلم، لادعت ثقيف أن أمية نبي، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم، ودارس اليهود وكلّ الكتب قرأ»[6].

وتشبه قصة تنظيف الطيرين لقلب أمية، وهي القصة التي أشرت إليها قبل

---

1 غرائب اللغة العربية (ص ١٨٩).

2 الأغاني (٤/ ١٢٣ وما بعدها)، شعراء النصرانية، الجزء الثاني (ص ٢١٩)، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء (٢٢٠ وما بعدها) «دار المعارف».

3 Sprenger, Leben, I, S. 119, M. cl. Huart, Le Livre de la Création et de L'histoire, I, pp. 55, 153, 155, 156, 190, 191, 195.

4 البداية والنهاية (٢/ ٢٢٧ وما بعدها).

5 النمل، الآية ١٥ وما بعدها.

6 الاشتقاق (ص ١٨٤).

قليل، خبر (حليمة السعدية) مرضعة الرسول لصدر النبي. ورواة قصة شق صدر أمية وتنظيف قلبه هم من أهل الطائف، ويرجعون سند قصتهم إلى أخت أمية المسماة (الفارعة)، «وكانت ذات لُبّ وعقل وجمال، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم بها معجباً»[١]، وقد وفدت عليه، فلما سألها عن شعر أخيها كما يقول الرواة، قصت عليه قصة الطيرين، كما قصت عليه قصة وفاته، فقال رسول الله: «إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها»[٢].

ويشير القصص الوارد عن التقاء (أمية) بالأحبار وبالرهبان وباتصاله بهم، إلى أن امية كان يرجو أن يكون نبياً، وأنه كان يعتقد بقرب ظهور نبي وتأمله أن يكون هو ذلك النبي المرتجى:

ألا نبيّ منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا[٣]

وقد كسف وتألم كثيراً وأكل الحسد قلبه، حين فلت الأمر منه، اذ سمع بإعلان الرسول رسالته، ودعوة الناس. إلى دين الله، الذي كان أمية نفسه يدعو إليه. وقد ورد أنه لما سمع بنبوة الرسول قال: «إنما كنت أرجو ان أكونه»[٤].

ويروي أهل الأخبار أن امية كان قد مات وهو معتقد بأن الحنيفية حق إذ رووا أنه قال في مرض موته، «قد دنا أجلي، وهذه المرضة فيها منيتي وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في محمد. وقال: لا برىء فأعتذر ولا قوي فانتصر له».

وفي جملة ما رووه عنه، أنه عرف مجيء يومه من نعيب غراب، نعب على مقربة منه. فحدث القوم بما سمعه من الغراب، وكان يعرف منطقه، وقال لهم

---

[1] البداية والنهاية (٢/ ٢٢٤ وما بعدها).

[2] البداية والنهاية (٢/ ٢٢٤ وما بعدها)، تهذيب ابن عساكر (٣/ ١٢٧)، مروج (١/ ٥٧ وما بعدها)، الطبرسي، مجمع (٧/ ٦٣ وما بعدها)، الطبري، تفسير (٩/ ١٢١)، «طبعة البابي»، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٤)، شرح الشهاب على البيضاوي (٤/ ٢٣٦).

[3] البداية والنهاية (٢/ ٢٢٧)، تهذيب ابن عساكر (٣/ ١٢٧)، تأريخ الخميس.

[4] الأغاني (٤/ ١٢٣ وما بعدها).

إنه سيموت وذكر علامة ذلك، فكان أن مات على نحو ما قال القوم[1]. وذكر أيضاً أنه لما كان على فراش الموت محتضراً أفاق عدة مرات، وكان يتلو في كَل مرة: «لبيكما لبيكما، ها أنذا لديكما»، ثم يتلو هذا الكلام بكلام آخر فيه توسل وتضرع إلى الإلَه، إلى ان أفاق للمرة الأخيرة، فقال شعراً بين فيه أن الموت أمر لا بد منه، وأنه هالك في هذه المرة لا محالة، ثم هلك، دون أن يؤمن بالرسول[2].

وهذا القصص الوارد عن أمية، هو ــ بالطبع ــ من القصص المصنوع الموضوع، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره، قص على ذوي القلوب الطيبة من الرواة والأخبارين، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الاسرائيليات والأساطير، وروي على أنه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب.

ولا أستبعد أن يكون هذا القصص قد ظهر في أيام الحجاج عصبية وتقرباً إليه، فقد كان الحجاج من ثقيف، وكان أمية من ثقيف كذلك. وقد أنتج الوضاعون في أيامه شيئاً كثيراً من الأخبار في قبيلة ثقيف، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكاية به.

وقد يكون في قول (الحجاج) حين سئل عن شعر أمية، شيء من التوجع والتألم أو المبالغة في تقديره حين قال: «ذهب قوم يعرفون شعر أمية، وكذلك اندراسُ الكلام». وقد يكون كلام الحجاج غير ذلك، لو كان أمية من قبيلة أخرى.

ونحن نستطيع ادخال قول من قال عن (أمية) «قيل إنه كان نبياً»[3] في جملة هذه الدعاوى التي وضعت في هذا العهد، للرفع من شأن (ثقيف) ومن الرد على المتهجمين عليها الطاعنين حتى في نسبها الذين جعلوا (ثقيفاً) من بقية (ثمود)، وأيدوا قولهم هذا بحديث زعموا أن الرسول قاله: «ثقيف

---

[1] البداية والنهاية (٢/ ٢٢٧).
[2] الأغاني (٤/ ١٢٥ وما بعدها)، ابن سلام، طبقات فحول (ص ٢٢٠ وما بعدها)، الإصابة (١/ ١٣٤)، (رقم ٥٥٢).
[3] تهذيب ابن عساكر (٣/ ١١٥).

من ثمود»[1]، وجعلوه من عبد لأبي رغال، وأبو رغال نفسه الذي نسب عبده إليه، أي جد ثقيف، هو في نظر العرب وقريش خاصة سبّة[2].

ويذكرون عنه أنه بعد أن صبأ عن قومه وتحنف، لبس المسوح على زي المترهبين الزاهدين في هذه الدنيا، ورافق الكتب ونظر فيها، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح، ثم حرّم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين، وتجنب الأصنام، وصام، والتمس الدين، وذكر إبراهيم وإسماعيل، وأنه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة: «باسملك اللهم»، وهي الجملة التي نسخت في الإسلام بجملة: «بسم الله الرحمن الرحيم»[3].

ويذكر أهل الأخبار أن أمية أخذ جملة: «باسمك اللهم» من شيخ كان منطوياً على نفسه في برية نائية، وذلك حينما ألح عليه قوم كانوا معه من قريش في عير لهم، كانت قد نفرت، بأن يجد طريقة لطرد حيّة كانت تظهر بين إبلهم فتنفرها، فذهب إلى ذلك الشيخ واستشاره في طريقة تبعد عنهم أذى تلك الحية، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة، فهربت الحية ونفرت منهم، وقد كان سبب ظهور تلك الحية كما يذكر أهل الأخبار، هو أن رجلاً من القوم هو: (حرب بن أمية بن عبد شمس) كان قد قتل حيّة فقررت زميلتها الانتقام من قتلتها، فقتلته الجن انتقاماً منه بثأر تلك الحية. وهربت الجن عند سماعها تلك الجملة. وإليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم:

وقبـــر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر[4]

فحرب هذا المذكور في هذا البيت، هو حرب بن أمية، وأما الشيخ فكان رجلاً من الجن.

---

[1] الأغاني (٤/ ٣٠٧) «دار الكتب».
[2] الأغاني (٤/ ٣٠٢) «دار الكتب».
[3] المسعودي، مروج (١/ ٥٧ وما بعدها)، ديوان، أمية «المقدمة» لبشير يموت «بيروت ١٩٣٤»، ابن خلدون (١/ ١٧٧ وما بعدها)، (بيروت ١٩٦١م)، التنبيه والأشراف (٣٥٩)، (مكتبة الخياط).
[4] الحيوان للدميري (٢/ ١٩٥)، الأغاني (٤/ ١٢٢ وما بعدها)، (دار الكتب المصرية).

ويُذكر أنه لم يكن يرتضي من الأديان غبر دين الحنيفية ديناً. وأنه قال ذلك في شعر له:

كل دين يوم القيامة عند الله، إلاّ ديــن الحنيفية، زور[1]

وأنه كان يعظم الله في شعره ويكبره ويحمده، ويرى أنه إلهَ واحد لا شريك له، وأن من يشرك به أحداً فقد ظلم نفسه:

الحمــد لله لا شــريك له من لم يقلها فنفسه ظلما[2]

وهناك من يروي أن (النابغة الجعدي)، كان يدعي أن هذا البيت وما بعده هو من نظمه. قال ذلك أمام (الحسن بن على بن أبي طالب)[3].

ويروى أن النبي كان يسمع شعر أمية، وأن (الشريد بن سويد) (الشريد بن عمرو) الثقفي، كان ينشد له شيئاً منه، في أثناء أحد أسفاره، فكان كلما أنشد له شيئاً منه، طلب منه المزيد، حتى اذا ما أنشده مئة بيت، قال النبي له: كاد ليسلم، أو كاد ليسلم في شعره. وذكر أن الرسول قال في حديث له عنه: آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه[4]. وأنه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسّانا

قال: «إن كاد أمية ليسلم»[5].

---

1 الأغاني (٣/ ١١٢)، البغدادي، خزانة الأدب (٢/ ٣٩)، شيخو، شعراء النصرانية، الجزء الثاني (ص ٢١٩)، ابن هشام، السيرة (١/ ٤٠)، (٢/ ٩٨٢)، الأغاني (٤/ ١٢٣)، «دار الكتب»، الإصابة (١/ ١٣٠)، «مطبعة السعادة».

2 المسعودي، مروج (١/ ٧٠).

3 طبقات ابن سلام (١٠٦ وما بعدها)، الأغاني (٥/ ١٠).

4 صحيح مسلم «كتاب الشعر»، (٧/ ٤٨)، «طبعة محمد علي صبيح»، طبقات ابن سعد: (٥/ ٣٧٦)، «الشريد بن سويد»، بلوغ الأرب (٢/ ٢٥٣ وما بعدها)، المعارف، لابن قتيبة (٢٨)، المزهر (٢/ ٣٠٩)، خزانة الأدب (١/ ٢٢٧)، ابن سعد (٥/ ٣٧٦)، الشعر والشعراء (١/ ٣٦٩)، الإصابة (١/ ١٣٤)، (رقم ٥٥٢).

5 الأغاني (٤/ ١٣٢ وما بعدها)، «دار الثقافة»، شرح الشهاب على البيضاوي (٤/ ٢٣٦)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٤)، ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (١/ ٢٦).

وروي عن (ابن عباس)، أن الرسول لما سمع شعر (أمية):

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد[١]

قال: صدق أمية.

وفي رواية أنه: «كان قد قرأ الكتب القديمة، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول، فأتفق أن خرج إلى البحرين، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقام هناك ثماني سنين. ثم قدم، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، في جماعة من أصحابة، فدعاه إلى الإسلام، وقرأ عليه سورة يس، حتى إذا فرغ منها، وثب أمية يجر رجليه، فتبعته قريش تقول: ما تقول يا أمية؟ فقال: أشهد أنه على الحق. قالوا: هل نتبعه؟ قال: حتى انظر في أمره. فخرج إلى الشأم، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بها، ترك الإسلام. وقال: لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته فذهب إلى الطائف ومات»[٢].

وفي هذه الرواية المنسوبة إلى الزهري، عن سماع أمية بن أبي الصلت بنبوة النبي وهو في البحرين، ثم مجيئه إلى مكة والتقائه بالرسول ومحاجته له في ظل الكعبة، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه إلى الشأم، ثم عودته منها[٣]، تكلف ظاهر، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً.

وورد في رواية أخرى، أن أمية بن أبي الصلت قدم المدينة فقال للنبي: ما هذا الذي جئت به؟ فقال الرسول: الحنيفية دين إبراهيم. قال: فأنا عليها. فقال عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها. فقال: أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً، ثم خرج إلى الشأم، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا للسلاح. ثم أتى قيصر، وطلب منه جنداً، ليخرج النبي

---

[1] الإصابة (١/ ١٢٩)، الإصابة (١/ ١٣٤)، (رقم ٥٥٢)، (القاهرة ١٩٣٩م).
[2] روح المعاني (٩/ ١١٢ وما بعدها)، تأريخ الخميس، للدياربكري (١/ ٤١٢)، مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي (٧/ ٦٣ وما بعدها)، (بيروت ١٩٥٧م).
[3] راجع البداية والنهاية (٢/ ٢٢٠).

من المدينة، فمات بالشأم طريداً وحيداً. وهي قصة ينسب وقوعها إلى (أبي عامر) الراهب، كما سبق أن تحدثت عن ذلك[1].

وتخالف هذه الرواية الروايات المألوفة الواردة إلينا عن وفاة (أمية) بالطائف. وتزعم إحدى الروايات، أن أمية كان قد أخذ ابنتيه وهرب بهما إلى أقصى اليمن، وذلك حين بعث النبي. ثم عاد إلى الطائف، فبينما هو يشرب مع إخوان له في قصر بالطائف، إذ سقط غراب على شرفة في القصر فنعب، وأدرك أمية انه ميت، لأنه عرف منطق الغراب، وحدّث القوم بذلك في قصة مفصلة تجدها في الكتب ثم مات[2]. وقصة الشرب هذه تناقض ما يذكر عنه أهل الأخبار من أنه كان لا يقترب من الخمر، ومن أنه كان قد حرمها على نفسه، شأنه في ذلك شأن بقية الأحناف. كذلك يناقض خبر تحريمه الخمر على نفسه، خبر آخر، خلاصته أنه كان يشرب يوماً مع عبد الله بن جدعان، فأخذ الشراب برأس (ابن جدعان)، وأصاب عين أمية، فلما كان اليوم الثاني وجلس أيضاً للشرب معه، سأل (عبد الله) أمية عن سبب الألم البادي على عينه، فلما أخبره بأنه كان هو سببه، ترك (ابن جدعان) الخمر استحياءً مما فعله وقال شعراً في سبب تركه الخمر. ويقول أهل الأخبار: «ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية، إلاّ ترك الخمر استحياء مما فيه من الدنس»[3].

وتؤيد قصة ذهاب (أمية) إلى اليمن وسكنه أمداً هناك قصة ينتهي سندها بـ (أبي سفيان)، خلاصتها أنه كان قد ذهب في ركب من قريش إلى اليمن في تجارة، فمرّ بأمية، وقال له كالمستهزىء به: يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته؟ فأجابه أمية: أما إنه حق فاتبعه. وقال له قولاً يتنبأ فيه بمصير أبي سفيان وكيف سيؤتى به إلى الرسول، فيحكم فيه كما يريد[4]. ففي هذه القصة توكيد بخروج أمية الى اليمن حين بعث الرسول وبمكوثه زماناً هناك.

وذكر أنه الشخص الذي نزلت في حقه الآية: ﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه

---

[1] روح المعاني (٩/ ١١١)، تفسير الطبرسي (٣/ ٥٠٠)، (طعبة طهران).
[2] الأغاني (٤/ ١٣٠ وما بعدها)، الإصابة (١/ ١٢٩).
[3] الأغاني (٨/ ٣٣٢).
[4] البداية والنهاية (٢/ ٢٢٤).

آياتنا، فانسلخ منها﴾[1]. وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في (بلعام بن باعور) (بلعم بن ابر)، (بلعام بن باعرا)، أو في زوج البسوس، أو في (النعمان بن صيفي الراهب)[2].

وأمية كأكثر الشعراء له شعر في المدح وله تعريض. وأكثر مدحه في (ابن جدعان) من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية[3]. وهو في المدح أو في الرثاء أو في كل مناسبة أخرى، مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار الدينية ولمصطلحات لا ترد إلاّ نادراً في الأشعار المنسوبة إلى الشعراء الجاهليين، مما يدل علي غلبة التفكَير الديني عليه، وتأثير ما قرأه أو أخذه من غير العرب فيه. سئل الأصمعي عن شعر أمية، فقال: «ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب»[4].

ووالد (أمية)، هو (عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي) أو (ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة) الثقفي على رواية (الزبيري)[5]. أما أمه فهي (رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف). وقد كان والده شاعراً. ذكر أنه مدح (سيف بن ذي يزن)[6].

ومن الرواة من ينسب القصيدة التي تنسب إلى والد أمية، والتي هي في مدح (سيف بن ذي يزن)، إلى أمية نفسه. وفي هذه القصيدة إشارة إلى ذهاب (سيف بن ذي يزن) إلى هرقل، فلما لم يجد منه أية مساعدة أو اهتمام، عافه، وذهب إلى كسرى، حيث وجد منه مساعدة، فجاءت إليه بعد سنين

---

1 الأعراف، الآية ١٧٥، الأغاني (٤/ ١٢٥ وما بعدها) «بيروت»، تفسير الطبري (٩/ ٨٢ وما بعدها).

2 روح المعاني (٩/ ١١)، تفسير الطبرسي (٣/ ٤٩٩ وما بعدها).

3 المحبر (ص ١٣٨)، ديوان أمية بن أبي الصلت: تحقيق «فريدرش شولتس» (Friedrich Schulthetz)، المطبوع بمدينة «لايبزك» سنة ١٩١١، وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٤، جمع بشير يموت، التبريزي، شرح الحماسة (٤/ ١٤٥)، الأغاني (٨/ ٣٢٧)، تهذيب ابن عساكر (٣/ ١٢٣)، ابن هشام (٣/ ١٤١).

4 الإصابة (١/ ١٢٩)، الأغاني (٤/ ١٣٠ وما بعدها).

5 نسب قريش (٩٨).

6 الأغاني (٤/ ١٢٠ وما بعدها)، الشعر والشعراء (١/ ٣٦٩)، (بيروت)، تهذيب ابن عساكر (٣/ ١١٥)، اليعقوبي (١/ ٢٢)، الأغاني (٤/ ١٢٠ وما بعدها)، الأزرقي، تأريخ مكة (٩٣/١)، جمهرة الأنساب (٢٥٧).

من تعب ومواظبة[1].

وينسب إلى أمية شعر، ذكر أنه افتخر فيه بـ (نزار) وبـ (معد). وبقبيلة (إياد)، حيث نعتهم بـ(قومي إياد)[2].

ويتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إلَه واحد، خلق الكون وسوّاه وعدله، وأرسى الجبال على الأرض، وأنبت النبات فيها، وهو الذي يحيي ويميت، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم، وليجازيهم بما كسبت أيديهم، فريق في الجنة وفريق في النار، يساق المجرمون عراة إلى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال، ثم يلقى بهم في النار يصلونها يوم الدين، يبقون فيها معذبين بها، ليسوا بميتين، لأن في الموت راحة لهم، بل قضى الله أن يمكثوا فيها خالدين أبداً[3].

أما المتقون، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال: لهم ما يشتهون، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وحور لا يرين الشمس فيها، نواعم في الأرائك قاصرات، على سرر ترى متقابلات، عليهم سندس وجياد رَيْط وديباج، حلّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم، لا لغو فيها ولا تأثيم، ولا غول ولا فيها مُليم، وكأس لا تصدع شاربيها، يلذّ بحسن رؤيتها النديم، تحتهم نمارق من دمقس، فلا أحد يرى فيهم سئيم.

والوقوف على آراء (أمية)، وعلى معتقداته الدينية يجب الرجوع بالطبع إلى أشعاره وما نسب إليه من كلام. ففي هذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية، تتمثل أراء ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث، وهي آراء قريبة جداً من الإسلام، وبعضها يكاد يكون قولاً إسلامياً في لفظه وفي معناه مسبوكاً في شعر. وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء: آدم ونوح وقصة

---

[1] كتاب التيجان، لوهب، (٣٠٧)، الشعر والشعراء، لابن قتيبة (١/ ٣٦٩)، بروكلمان (١/ ١١٤)، Schultheso Orient, Studien, I, 73.

[2] الأغاني (٤/ ١٢٠)، (٨/ ٣٢٧ وما بعدها)، شعراء النصرانية (٢/ ٢٣٤).

[3] وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال

ديوان أمية (٤٩).

جهنم تلــك لا تبقى بغيــاً وعدن لا يطــالعها رجيم

ديوان أمية (٥٣)، (بشير يموت).

طوفانه، والغراب والحمامة[1]، وقصة ذي القرنين وبلقيس وحكاية الهدهد[2]، وقصة إبراهيم وتقديم ابنه للذبح، وداوود، وفرعون، وموسى، وابن عاد[3]. وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء في القرآن الكريم عن تكوّن عيسى، مضيفاً إلى ذلك زيادات في حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها[4]. كما أورد في الشعر قصة (لوط اخي سدوم)[5]. وهي من القصص المذكور في التوراة، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل[6].

وفي أكثر ما نسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم. بل نجد في شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي، فكيف وقع ذلك؟ وكيف حدث هذا التشابه؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق أو إن أمية اخذ مادته من القرآن الكريم، أو كان العكس، أي إن القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر أمية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها أمية في آيات الله وسوره؟ فكتاب الله إذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله، أو إن هذا التشابه مردّه شيء آخر هو تشابه الدعوتيْن واتفاقهما في العقيدة والرأي، أو اعتماد الاثنين على مورد أقدم، هما الكتابان المقدسان: التوراة والانجيل، وما لهما من شروح وتفاسير، أو كتب أو موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها في القرآن الكريم وفي شعر أمية بن أبي الصلت، أو إن كل شيء من هذا الذي نذكره ونفترضه

---

1 جزى الله الأجـل المرء نوحـا جزاء البـر ليس له كـذاب
ديوان أمية (١٨ وما بعدها، ٥٨)، (بشير يموت)، الحيوان، للجاحظ (٢/ ١١٧)، البدء والتأريخ (١/ ٢٤).

2 قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ملكاً علا في الأرض غير معبد
من قبـله بلقيس كانت عمتي حتى تقضى ملكهـا بالهـدهد
ديوان أمية (ص ٢٦)، (بشير يموت).

3 حي داوود وابن عاد وموسى وقريـع بنيـانه بالثقـال
إنني زارد الحديد على النـا س دروعاً سوابع الأذيال
ديوان أمية (٥٠ وما بعدها)، (بشير يموت).

4 وفي دينكم من رب مريم آية منبئة بالعبد عيسى بن مريم
ديوان أمية (٥٨)، (بشير يموت).

5 ثم لوط أخو سـدوم أتاهـا إذا أتاهـا برشدها وهـداها
ديوان أمية ٦٩)، (بشير يموت).

6 راجع التوراة، ومادة (Lot) في معجمات التوراة.

افتراضاً لم يقع، وإن ما وقع ونشاهده، سببه إن هذا الشعر وضع على لسان أمية في الإسلام، وإن واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه.

أما الاحتمال الأول، وهو فرض أخذ أمية من القرآن، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه، وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة، وفي فترة محدودة تبتدىء بمبعث الرسول، وتنتهي في السنة التاسعة من الهجرة، وهي سنة وفاة أمية بن أبي الصلت. أما ما قبل المبعث، فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ، وأما ما بعد السنة التاسعة، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً، لأنه لم يكن حياً، فلم يشهد بقية الوحي. ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة، إلاّ اذا أثبتنا بصورة جازمة أن شعر أمية الموافق لمبادىء الإسلام ولما جاء في القرأن قد نظم في هذه المدة المذكورة، أي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة، وأن أمية كان يتتبع نزول الوحي، ويجمعه، وأنه كان يملك نسخة مما نزل على الرسول، رجع إليها واقتبس منها، وإلاّ سقط العرض. فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أمية وما جاء في معناه وفي موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة، فلا تكون شاهداً على أخذ أميّة منها: لأنه كان قد توفي في السنة التاسعة، فلا يقع هذا الافتراض.

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه، وتعيين أوقات نظمه؟ إن في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبد الله بن جُدعان أو معركة بدر. ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه، وهي غالبية لم يتطرق الرواة إلى ذكر المناسبات التي قيلت فيها. ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه، مروي لغيره، وبعضه إسلامي، فيه مصطلحات لم تعرف إلاّ في الإسلام، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة. ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر أن أمية كان ينتحل معاني القرآن الكرم، وبنسبها إلى نفسه. ولو كان قد فعل، لما سكت المسلمون عن ذلك، ولكان الرسول أول الفاضحين له.

بقي لدينا افتراض آخر، هو أخذ القرآن الكريم من أميه، وهو افتراض ليس من الممكن تصوره، فعلى قائله إثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم، وتلك قضية لا يمكن إثباتها أبداً. ثم إن قريشاً ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه، لما سكتوا عنه، ولقالوا له إنك تأخذ من أمية، كما قالوا له: انك تتعلم من غلام نصراني كان مقيماً بمكة، وإليه أشير في القرآن الكريم يقوله: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر، لسانُ الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين﴾[1]. ولقد أشار المفسرون إلى اسم الغلام، كما سأتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالنصرانية عند العرب قبل الإسلام، ولم يشيروا إلى أمية بن أبي الصلت[2]. ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك أو يظن أن محمداً. إنما اخذ منه، لما سكت عنه وهو خصم له، منافس عنيد، أراد أن تكون النبوة له، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته. أما هو فلا يتبعه أحد. هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد أي ظن وإن كان بعيداً يفيد أن الرسول قد اخذ فكرة منه، أو من المورد الذي أخذ أمية نفسه منه؟ لو كان شَعرَ بذلك، لنادى به حتماً، ولأعلن للناس أنه هو ومحمد أخذا من منبع واحد، وأن محمداً أخذ منه، فليس له من الدعوة شئ، ولكانت قريش وثقيف أول القائلين بهذا القول والمنادين به.

نعم، لقد ورد في الحديث، كما قلت قبل قليل، أن الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية، وأنه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منه المزيد، حتى إذا ما أنشده مئة بيت، قال له الرسول: آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه، ولكننا هنا بحاجة إلى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد، وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند، لإثبات إن ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي.

وممن ذهب إلى افتراض أخذ الرسول من أمية من المستشرقين (كليمان هوار) و(بور) Power زعم (بور) أنه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن

---

[1] النحل، الآية ١٠٣.

[2] سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٠).

الكريم، فإن ذلك يدل على أن الرسول أخذ من (أمية)، لأن أمية أقدم من الرسول[1]. وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا ان هذا النظم شعر أصيل صحيح، وأنه نظم قبل نزول مشابهه في القرآن الكريم، وأنه لم يضف إليه في الإسلام. فإن أثبتنا انه له، جاز لهما مثل هذا الادعاء.

وأما الرأي الثالث ــ وأعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر أمية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم إلى أخذ الإثنين من التوراة والانجيل وتفاسيرهما، والى بعض (الصحف) و(المجلات) التي أشير إلى وجودها عند العرب ــ فهو رأي قديم، وليس بجديد. رأي قيل عن الوحي كله، لا عن القرآن وشعرّ أمية أو غير أمية، قبل أن يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة، فقد زُعم «أنّ النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر!!». وقد أشير إلى هذا الزعم في كتاب الله، وجاء الرد عليه في قوله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون، إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين﴾. فلم يُخْفِ القرآن الكريم ذلك الطعن والمغمز، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يَعلمه، فذكروا جبراً هذا، وكان غلاماً مقيماً بمكة، وقال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك.

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد، واستقيا من مورد واحد، لما سكتت قريش عن القول به، ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به. وكيف يعقل سكوته عن هذا، وهو أمر مهم جداً بالنسبة اليه. وسيف يحارب به الإسلام؟ ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة إليه في أثناء حروب الردّة، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة. ولما سكت (يوحنا الدمشقي) وأمثاله من التلميح إلى ذلك، وقد لمح بأمور كثيرة في طعنه على الإسلام.

ثم إنّ هذا التشابه، على ما يتبين من نقده وتمحيصه، ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين، إنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم،

---

[1] ديوان أمية (ص ٧)، «المقدمة الألمانية» «تحقيق فردرش شولثيس»، بروكلمن (١/ ١١٣)، CI, Huart, JA. X. Vol., XI, 1904, p. 125.

لم ترد في التوراة ولا في الانجيل، ولكنها وردت في شعر أمية، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي، لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب. واستعمال هذا الشخص لجمل وألفاظ وتراكيب إسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة. فلو كان مردّ هذا التشابه الأخذ من مورد واحد، لوجب انحصار هذا التشابه في الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة: التوراة والانجيل والقرآن، وفي شعر أمية حسب، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم، ولا ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى.

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة صله أحدهما بالآخر، وأخذ احدهما من الآخر، تستوجب التأكد من صحة نسبة هذا الشعر إلى أمية. ففي هذا الشعر مقدار لا يمكن أن يشك في وضعه وصنعه، ومقدار نص العلماء نصاً على أنه لغيره، وهم انما ذكروه في شعر أمية، لأن بعض أهل الأخبار نسبه اليه. ولذلك استدركوا هذا الخبر، بالاشارة إلى اسم قائله الصحيح. فلم يبقَ من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين. وهذا القليل هو، في الغالب ايضاً، تبع لما ورد في القرآن وحده، لا لما ورد في الكتابين المقدسين. ولما كان القرآن محفوظاً ثابتاً، فلم يرتق إليه الشك. اما شعر أمية، فليس كذلك، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم. فهذه المقابلة إن جازت، فإنها تكون حجة على القائلين بالرأي المذكور، لا لهم. وقد كَان عليهم أن يثبتوا أولاً اثباتاً قاطعاً صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر، لا أن يفترضوا مقدماً انه شعر أصيل صحيح، وأن يذهبوا رأساً إلى أنه هو والقرآن الكريم من وقت واحد، بل إنه على حد قول بعضهم أقدم منه، فكتاب الله منتزع منه.

وممن قال باحتمال أخذ القرآن وأمية من مورد مشترك واحد، (فردرش شولثيس) Friedrich Schulthetz ناشر ديوان أمية. وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت مُنزلة ؤمئذ، ونظمها في شعره. استند في زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك إلى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير، يفهم منها على زعمه أن الرسول كان قارئاً كاتباً، لكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة، بل ذهب الى أنها

(مجلة) و(صحيفة)، تتضن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً[1]. أما دليله، فافتراض واحتمال، وليس له غير هذين. ولا يقوم علم إلاّ على دليل ملموس.

أما أنا، فأرى أن مردّ هذا التشابه والاتفاق إلى الصنعة والافتعال. لقد كان أمية شاعراً، ما في ذلك شك، لاجماع الرواة على القول به. وقد كان ثائراً على قومه، ناقماً عليهم، لتعبدهم للأوثان. وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك، إن هذا الذي ذكره شيء إسلامي خالص، لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى، ولا عند الأحناف. فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الإسلامية، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام: وضعته على لسانه، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الإسلام، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه، وأنه لم يكن لذلك غريباً، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب، يعلمون بقرب ظهور نبيّ عربي، وأنهم لذلك بشروا به، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا في أيامه، أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا، وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان.

ولا بد وأن يكون هذا الوضع قد صنع في القرن الأول للإسلام، لأن أهل الأخبار القدامى يذكرون بعض هذا الشعر[2]. وقد يكون قد وضع أكثره في عهد الحجاج تقرباً إليه، لأنه من ثقيف، وفي ذلك العهد وضع الوضّاع أخباراً كثيرة في الغض من شأن قوم الحجاج، نكاية به فتقدم قوم آخرون إليه بالرفع من شأنها وبإضافة ذلك الشعر الى أمية وغيره، ليكون رداً على كارهي ومبغضى الحجاج.

وتتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه.

---

[1] Ency., IV, p. 998, Tar Andrae, Die Entstehung des Islams und das Charistentums, Upsale, 1926, S. 48.

[2] بروكلمان (١/ ١١٣).

فبينما نجد شعره المنسوب إليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب إلى شعراء الجاهلية، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفين المتزمتين، ونسّاك النصارى، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين، حتى أسلوب مثل (عدي بن زيد) العبادي والأعشى وبقية من نسب إلى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الإسلام[1]. يضاف إلى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء.

وقد يقال إن أسلوب (أمية) في نظم الشعر الديني والحكمي، هو أسلوب صحيح لا يمكن إلاّ أن يكون على هذا الحال، هو أسلوب بعيد عن أسلوب الجاهليين في النظم، لأن الشعر الجاهلي المعروف نظم في أغراض أخرى لا صلة لها بالحكم وبالدين، وما جاء منه إلينا في الحكم وفي الدين هو على أسلوب آخر أيضاً، بدليل أن بعض الشعراء منهم حين نظموا في الحكم، رق شعرهم وبان عن نظمهم المألوف. وبدليل أن نظم (حسان بن ثابت) في الإسلام، هو دون نظمه في الجاهلية من حيث الجزالة والفخامه في النظم، وأن شعر (لبيد). في الإسلام، هو دون ما نظمه في الجاهلية، بسبب تغير الظروف واختلاف الموضوع. وهو اعتذار صحيح، ولكن أسلوب أمية في تعبيره عن الجنة والنار والبعث والحساب، أسلوب آخر، لا يفصح عن عقلية دينية جاهلية، وانما عن عقلية إسلامية. ومن هنا جاء شكنا في صحة هذا الشعر وفي أصالته، وليس من أسلوب النظم.

ولكن من الذي وضع هذا الشعر، ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية؟ ومن الذي وضع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته، ولكنها أبيات إسلامية؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبه إليه؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة، ولكن أجوبتها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه، عندئذ يكون هناك مجال للتنقيب عن هذه الأمور، روي أن الحجّاج قال، وهو على المنبر: «ذهب قوم يعرِفون شعر أمية»[2]. فهل ذهب العالمون

---

[1] Ency., IV, p. 998.

[2] الأغاني (٤/ ١٢٣).

به حقاً قبل أيام الحجاج؟ وهل كان شعره ضخماً واسعاً؟ أو هو قول من أقوال الحجاج، وهو ثقفي من قوم أمية، أو هو قول وزعم من زعم الرواة. وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار.

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج إلى دليل، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً. فالقصيدة التي مطلعها:

لك الحمد والمن ربّ العبا د أنت المليك وأنت الحكمُ

هي قصيدة إسلامية، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعر لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه. خذ هذا البيت منها مثلاً:

محمداً أرسله بالهدى فعاش غنياً ولم يُهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها:

عطـــاء مـــن الله أعطيــته	وخصّ بــه الله أهــل الحـــرم
وقــد علموا أنـــه خيـــرهم	وفي بيتهم ذي النـــدى والكرم
يعَيبون ما قـــال لمـــا دعـــا	وقـــد فرج الله احـــدى البـــُهَمْ
به وهـــو يدعو بصدق الحديـ	ـــث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرســـول عبـــادَ الإلـ	ـــه تنجـــون من شرّ يـــومٍ ألم
تنجون من ظلمـــات العذاب	ومن حر نـــار على من ظـــلم
دعـــانـــا النبيّ بـــه خـــاتم	فمن لـــم يُجبـــه أســـر النـــدم
نبي هـــدىً صـــادق طيـــب	رحيم رؤوف بوصل الـــرحيم
بـــه ختـــم الله مـــن قبـــله	ومن بعـــده مـــن نبـــي ختـــم
يموت كما مات من قد مضى	يـــردّ إلى الله بـــاري النســـم
مع الأنبياء في جنان الخلود	هُمُ أهلهـــا غيـــر حـــلّ القسم
وقدس فينـــا بحب الصـــلاة	جميعـــاً وعـــلم خـــط القـــلم
كتـــاباً مـــن اللهِ نقـــرأ بـــه	فمـــن يعتـــريـــه فقدمـــاً أتـــم

اقرأ هذه المنظومة، ثم احكم على صاحبها. هل تستطيع أن تقول إنه كان

شاعراً مغاضباً للرسول، وإنه مات كافراً، وأن صاحبها رثى كفار قريش في معركة بدر وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول؟ اللهم، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان، هو واعظ مبشر، يخاطب قومه فيدعوهم إلى الإسلام والى طاعة الله والرسول. إنه مؤمن قلباً وايماناً، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه: آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول، ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول، مع أن أمية، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية. نحمد الله على أن صنّاعها لم يتقنوا صنعتها، ففضحوا أنفسهم بها، ودلوّا على مقاتل النظم.

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت:

جهنم تلك لا تبقي بغياً وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر في قراءتها، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار، ثم أنعم النظر في هذه الأبيات:

فــذا عسل وذا لبــن وخمرٌ وقمــح في منــابته صَرِيمُ
ونخل ساقط الأكتــاف عــد خــلالَ أصوله رطب قميمُ
وتفــاح ورمــان ومــوز ومــاء بارد عــذب ســليم
وفيهــا لحم ســاهرة وبحر وما فاهــوا بــه لهُمُ مقــيم
وحورٌ لا يربن الشمس فيها على صور الدمى فيها سهوم
نواعم في الأرائك قاصرات فهنّ عقــائل وهُــمُ قــروم
على ســررٍ ترى متقابلات ألا، ثمَّ النضــارةُ والنعــيم
عليهم سندس وجيــاد رَيط وديبــاج يُرى فيهــا قتــوم
وحُلّوا من أساور من لُجين ومن ذهــب، وعسجده كريم
ولا لَغْــوٌ ولا تأثيــم فيهــا ولا غــولٌ ولا فيهــا مُلــيمُ

وكأس لا تصدع شاربيــها   يلــذّ بحسن رؤيتــها النــديم
تصفَّق في صحافٍ من لجين   ومــن ذهب مبــاركة رذوم[1]

ثم أحكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات. لقد حاول ناظمها إدخال بعض الكلمات الجاهلية فيها، لإلباسها ثوباً جاهلياً، ولاظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل، ولكنه لم يتمكن من ذلك، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الإسلام. وما بي حاجة إلى أن أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر. وصفه من القرآن الكريم.

ومن الغريب أن بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين، فذكر مثلاً أن العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء، وأن منهم من نظر في الكتب وكان مقراً بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة إلى أمية[2]. وقد نسي أن ما قاله على سبيل التعميم أو التغليب، يناقض ما جاء في القرآن الكريم وما أورده الأخباريون عن الجاهليين.

ثم خذ قصيدته في عيسى بن مريم وحمل أمه به[3]، وسائر قصائده الأخرى، تجد عليها هذه المسحة الإسلامية بارزة ظاهرة، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تكون من نظم أمية حقاً، في هذا المنظوم الديني، غير أن هذا الموجود، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الإسلام. ومن الممكن إدراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين.

ولأمية بن أبي الصلت أخت، اسمها (فارعة)[4]. قدمت على النبي بعد فتح الطائف، وكانت ذات لبّ وعفاف وجمال، وكان يعجب بها. وقال لها يوماً: هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟ فأخبرته خبره وقصت قصته في شق جوفه

[1] تجد اختلافاً في كلمات هذه القصيدة وأبياتها، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الأخرى، فارجع في ذلك إلى طبعات ديوانه وإلى كتب الأدب لمعرفة مواضع الاختلاف: كتاب البدء والتأريخ (١/ ٢٠٢ وما بعدها)، ديوان أمية «طبعة بشير يموت» (ص ٥٣)، ديوان أمية (ص ٥١ ما بعدها)، «طبعة فريدرش لولثيس».
[2] كتاب البدء والتأريخ (١/ ٢٠٢)، (طبعة كليمان هوار)، «النص العربي».
[3] ديوان أمية (ص ٥٨)، «طبعة بشير يموت»
[4] اللسان (١/ ٧٩٢)، (وثب).

واخراج قلبه وردّه مكانه وهو نائم وأنشدته شعره[1]، على ما يزعمه أهل الأخبار.

وذكر أهل الأخبار أسماء أربعة بنين لأمية، هم: القاسم، ووهب، وعمرو (عمر)، وربيعة. فأما (القاسم)، فكان شاعراً، وله مرثية في عثمان بن عفّان[2]. وأسلم (وهب بن أمية) كذلك. وذكر أن رجلاً من ثقيف مات في عهد النبي عن غير ولد، فاختصموا في ميراثه، فأعطى النبى ميراثه لوهب[3]. وأما (ربيعة)، فأسلم كذلك، وله شعر[4]. وقد ذكر أهل الأخبار أن (حقة) بنت (وهب بن أمية بن أبي الصلت)، تزوجت (عبد الله بن صفوان الأكبر)، فولدت له صفوان بن عبد الله بن صفوان[5]. وذكر أن (ربيعة)، قد ولي بعض الوظائف في الإسلام. وأنه صاحب (ربيعتان)، نهر بقرب الابلة. وأن من ولده (كلدة بن ربيعة)، وكان شريفاً شاعراً. وقد ذكر أن بغلاً قتل (ربيعة) على باب دار (عبد الله بن عباس)[6].

وكل ما يعرف عن سويد بن عامر المصطلقي أنه كان على دين الحنيفية وملة إبراهيم، وأنه قال شعراً، وصلت منه بضعة أبيات في (المنايا) وفي المقدر على الإنسان، وأن المنايا محتومة لا مفرّ منها، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي، وليس لامرىء يدٌ فيما يصيبه من مقدور. فهي في هذه المشكلة المعضلة التي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة: (الجبر والاختيار)، أو (القدر)، المشكلة التي احتلت منزلة الصدارة في (علم الكلام). والتي صارت من أهم موضوعات الجدل في الإسلام. ويقال إنها أنشدت للرسول، فلما سمعها، قال: «لو أدركته لأسلم»[7].

وأما ورقة بن نوفل. فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، يلتحم نسبه بنسب الرسول في جد جده. ذكروا أنه ساح على شاكلة من شك

---

[1] الإصابة (٤/ ٣٦٣)، (رقم ٨٢٤).
[2] الإصابة (٣/ ٢١٣)، (رقم ٧٠٥٢).
[3] الإصابة (٣/ ٦٠٤)، (رقم ٩١٥٧).
[4] الإصابة (١/ ٤٩٣)، (رقم ٢٥٩٠).
[5] الإصابة (٣/ ٦٠٤)، (رقم ٩١٥٧).
[6] كتاب البغال، للجاحظ (٢/ ٢٥٨)، (من رسائل الجاحظ)، الأغاني (٣/ ١٧٩)، الاشتقاق (٣٠٤ وما بعدها)، (٤/ ١٢٠)، الشعر والشعراء (١/ ٣٦٩).
[7] بلوغ الأرب (٢/٢٥٩).

في دين قومه، وتتبع اليهود والنصارى، وقرأ الكتب، وعدّ في جملة المتنصرين في أغلب الروايات، فقد ذكر أنه «تنصر واستحكم في النصرانية، وقرأ الكتب ومات عليها»[1]. وهذا هو رأي أكثر أهل الأخبار.

ونسب اليه شعر ذكَر أنه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل، وفيه إشارة إلى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت وإلى فكرة التوحيد والإيمان برب ليس رب كمثله والى التنديد بالأوثان[2].

وله أبيات من الشعر يحث فيها على مساعدة الضعيف ونصر المظلوم، وعلى فعل الخير للناس[3].

ولا نعلم عن حياة ورقة في أيام شبابه شيئاً، ولعله كان يعين أهله أو أقربائه في اتجارهم مع بلاد الشأم أو اليمن شأن أكثر شبان أسر مكة المعروفة فيِ ذلك الوقت. فتَعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة إلى العراق أو بلاد الشأم، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول إلى رأي يقنعه في الحياة. ويظهر أنه لم يكن في شبابه من أولئك الشباب الخاملين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم، دون عمل ولا تفكير، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام، كما أنه لم يكن من أولئك الطائشين النزقين الذين يقضون وقتهم في النزاع والخصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس، والحصول على المال للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت، بل كان شاباً متأملاً مفكراً منكمشاً على نفسه، مكنه علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين، حتى جاء يوم، دفعه اجتهاده الذي وصل إليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كانوا عليها، مما حمله على ترك مكة طوعاً أو قهراً، والتجول للبحث أو فراراً من غضب قومه عليه.

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول. وقد أشير اليه في خبر «مجيء جبريل إلى النبى في حراء»، وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات،

---

[1] اليعقوبي (١/ ٢٩٨)، «٢٢/٢» «ليدن»، البداية، لابن كثير (٢/ ٢٣٨).
[2] المحبر (١٧١)، ابن هشام (١/ ٢٤٣، ٢٥٦)، الأغاني (٣/ ١١٣ وما بعدها)، شيخو، النصرانية (١/ ١١٨)، خزانة الأدب (٢/ ٣٩ وما بعدها)، مروج (١/ ٧٣)، الذهبي، تأريخ الإسلام (١/ ٦٨).
[3] خزانة الأدب (٢/ ٣٩ وما بعدها).

يقال إنه قال للرسول وكَان قد ذهب إليه مع زوجته خديجة ليسأله رأيه فيما رآه من الرؤيا: «ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك!» وان الرسول قال له: أمخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلاّ عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[1]. وأشير اليه في خبر آخر، حيث ورد أن (خديجة) ذهبت وحدها إلى ابن عمها لتسأله عن الرؤيا التي رآها الرسول وعن هذا الناموس الأكبر الذي تجلى له. فلما قصت عليه القصة قال: «لئن كنتِ صادقة، إنّ زوجك لنبي، وليلقين من أمته شدة، ولئن أدركته لأومنن به»[2].

وذكر في خبر آخر أن الرسول قد رأى (ورقة) في منامه، وكان لابساً ثياباً بيضاً، وأن الرسول ذكر ذلك لمن سأله عنه، وبين لهم أنه لو كان من أهل النار لما ظهر له في منامه وهو بهذه الملابس. لأن أهل النار. لا يلبسون ثياباً بيضاً[3]. ويروى أن الرسول قال: «لا تسبّوا ورقة بن نوفل، فإني رأيته في ثياب بيض»[4]. قيل إن شخصاً تساب مع أخ لورقة بن نوفل، فسب ورقة ليحرق قلب أخيه، فبلغ ذلك الرسول، فنهى عن سبّه[5].

وجاء في خبر أن (ورقة) كان يمر بمكة فيرى بلالاً وهو يعذَّب، يعْذبه المشركون برمضاء مكة، يلصقون ظهره بالرمضاء، ويضربونه يريدون منه أن يشرك بالله، فلا يشرك به. ويأبى إلاّ أن يقول: أحد أحد، فيرثي ورقة لحاله ويقول: أحد أحد والله يا بلال. والله لئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين[6]. أو «والله لئن قتلتموه، لاتخذن قبره حناناً»[7].

---

[1] الطبري (٢/ ٢٩٩) «دار المعارف»، ابن هشام (١/ ٢٥٤ وما بعدها)، المسعودي، مروج (٢/ ٥٩)، (١/١/ ٧٣)، «محمد محيي الدين عبد الحميد» «١٩٥٨م»، الكامل، لابن الأثير (٣١/٢)، الذهبي، تأريخ الإسلام (١/ ٧٥)، القسطلاني، شرح صحيح (١/ ٦٦)، الإصابة (٣/ ٦٣٢).

[2] الطبري (٢/ ٣٠٠) «دار المعارف»، ابن سعد، الطبقات (١٩٤/١)، «بيروت ١٩٥٧»، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (١/ ٦٦ وما بعدها).

[3] الأغاني (٣/ ١١٣ وما بعدها) «بيروت ١٩٥٥ م».

[4] كتاب نسب قريش (٢٠٧)، الترمذي (٣/ ٢٥١)، الإصابة (٦/ ٣١٨ وما بعدها)، مجمع الزوائد (٩/ ٤١٦).

[5] الإصابة (٣/ ٦٣٣).

[6] الأغاني (٣/ ١١٣ وما بعدها).

[7] النهاية، بن الأثير (١/ ٢٢٦)، الإصابة (٦/ ٣١٨)، كتاب نسب قريش (٢٠٨).

ويظهر من الأخبار المتقدمة أن (ورقة بن نوفل)، كان قد أدرك أيام الرسول وعاش إلى يوم نزول الوحي عليه. بل يظهر من خبر رؤيته لبلال وهو في حالة تعذيبه، أنه عاش مدة بعد نزول الوحي. غير أن الأخبار المذكورة لا تنص على اسلامه، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك. أما خبر رؤيا الرسول له في منامه، فإنه يدل على عدم إسلامه، وعلى أنه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول. وهو الرأي الراجح. وهذا ما حمل أحد المؤرخين على القول: وقد اختلف فيه، فمنهم من زعم أنه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي. ومنهم من رأى أنه مات مسلماً وأنه مدح النبي[١]. وقد ورد في بعض الأخبار أن الرسول قال لما توفي ورقة: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدقني»[٢]. وورد مثل ذلك من أحاديث زعم أن الرسول قالها في حق ورقة، وهي كلها تشير إلى وفاة ورقة قبل المبعث، وعلى دينه، إذ لم يدرك الإسلام.

وورد في بعض الروايات أنه «كان يكتب الكتاب العربي، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب»[٣]. وورد في رواية أخرى أنه «كان يكتب الكتاب العبراني، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب»[٤]. والخبران هما خبر واحد، كما يظهر من وحدة النص، غير أن اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد حرّف، فقرأه بعضهم العربي، وقرأه بعض آخر العبراني. ولما كان الانجيل باليونانية وبلغة بني إرم، فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الانجيل هي العبرانية، وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية. والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني إرم التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وفي بلاد الشأم، بل وبين مثقفي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت.

وذكر أهل الأخبار أنه لم يعقب[٥]. ولم يذكروا سبب ذلك، هل كان قد

---

1 المسعودي، مروج (٢/ ٥٩).
2 القسطلاني، شرح صحيح (١/ ٦٥)، الذهبي، تأريخ الإسلام (١/ ٦٨)، الذهبي، سير النبلاء (٨٠)، خزانة الأددب (٢/ ٤١).
3 النصرانية (١/ ١١٩).
4 الأغاني (٣/ ١١٣)، الاشتقاق (١٦٤).
5 كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧).

تزوج، ولكنه كان عقيماً، فلم يعقب؟ أو أنه عاش أعزب لم يتزوّج طول حياته؟

وكان (أبو قيس صرمة بن أبي أنس) (صرمة بن أنس) وهو من بني النجار، قد ترهب ولبس المسوح، وهجر الأوثان، ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم، فلما قدم النبي المدينة أسلم وهو شيخ كبير، وحسن إسلامه. وفيه نزلت الآية: ﴿وكلوا واشربوا حى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾[1]. ورووا له شعراً[2]. وزعم أنه اغتسل من الجنابة، وهمَّ بالنصرانية، ثم أمسك عنها. وذكر أن (ابن عباس) كان يختلف اليه يأخذ عنه الشعر[3].

وأما (وكيع بن سلمة بن زهر الإيادي)، فهو من إياد، زعم (ابن الكلبي) أنه ولي البيت بعد جرهم، فبنى صرحاً بأسفل مكة، وجعل فيه أمة يُقال لها (حزورة)، وبها سُميّت (حزورة مكة)، وجعل في الصرح سلّماً، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله. وكان ينطق بكثير من الخبر، ويزعم الناس أنه صدِّيق من الصدِّيقين، وقالوا كان كاهناً[4]. وذكروا له كلمات مسجعة، ليس فيها ما يشرح لنا معتقده الديني ويوضحه وضوحاً تاماً[5].

والصرح كما يقول علماء اللغة، بيت يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء

---

[1] البقرة، الآية ١٨٧، مروج (١/ ٥٢ وما بعدها)، تفسير الطبري (٢/ ٩٧) «بولاق».

[2] بلوغ الأرب (٢/ ٢٦٦).

[3] بلوغ الأرب (٢/ ٢٦٦)، أسد الغابة (٣/ ١٨)، الإصابة (٢/ ١٧٦)، (رقم ٤٠٦)، الاستيعاب (٢/ ١٩٤)، (حاشية على الإصابة).

[4] المحبر (١٣٦)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٦٠).

[5] (وقال الإيادي صاحب الصرح، الذي اتخذ سلماً لمناجاة الرب، وهو القائل: مرصعة وفاطمة، القطيعة والفجيعة، وصلة الرحم وحسن الكلم، زعم ربكم ليجزين بالخير ثواباً، وبالشر عقاباً. وإن من في الأرض عبيد لمن في السماء. هلكت جرهم وربلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد. من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه. كل شاة معلقة برجلها.

وإياه عنى الشاعر بقوله:

ونحن إيــاد عبــيد الإلــه ورهط منــاجيه في السلم

ونحن ولاة حجاب العتيق زمان الرعاف على جرهم

البيان والتبيين (١٠٩/٢)، الأمثال، للميداني (٢/ ٨١).

وكل بناء عالٍ مرتفع[1]. والحزورة الرابية الصغيرة والتل الصغير[2]. ويظهر أنه كان بنى صرحه فوق تل في محل منفرد، ليختلي هناك على طريقة الرهبان والنساك.

وكل ما عرفه أهل الأخبار عن (عمير بن جندب) الجُهني، أنه كان من جهينة، وأنه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً، وأنه مات قبيل الإسلام[3].

وكان عامر بن الظرب العَدواني من الحكماء، نسبت إليه أقوال في الحكم والدين. منها: «إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلاّ مصنوعاً، ولا جائياً إلاّ ذاهباً، ولو كان يميت الناس الداء، لأحياهم الدواء». ثم قال: «إني ارى أموراً شتى وحتى. قيل له: وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حياً، ويعود اللاشيء شيئاً، ولذلك خلقت السماوات والأرض، فتولوا عنه ذاهبين»[4].

وقد نسبوا إليه جملة أحكام، منها حكمه في (الخنثى)، وقد ذكروا أن حكمه هذا قد أقرّه الإسلام. وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر في قضاء، أو حارت في أمر معضل ترى وجوب الحكم فيه برأي صائب وعقل وتدبير، ذهبت إليه، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل، فلا رادّ له[5].

ونسبت إلى كل من عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات، فيها إقرار بوجود إلَه واحد خالق لهذا الكون، ويوجود الحساب والثواب والعقاب[6].

وأما (المتلمس بن أمية) الكناني، فذكروا أنه كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه، ويعظ قومه عظات دينية، فكان في جملة ما قاله لهم:

---

1 تاج العروس (٢/ ١٧٨ وما بعدها)، (صرح).
2 تاج العروس (٣/ ١٣٨)، (حزر).
3 بلوغ الأرب (٢/ ٢٦١ وما بعدها).
4 المحبر (١٣٥، ١٨١، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٧٥ وما بعدها).
5 الروض الأنف (١/ ٨٦)، ابن هشام (١/ ١٣٤)، (محمد محيي الدين عبد الحميد)، المعمرون (٤٤ وما بعدها)، عيون الأخبار (١/ ٢٦٦)، البيان والتبيين (١/ ٢٦٤، ٣٦٥، ٤٠١)، (٢/ ٧٢، ١٩٩)، (٣/ ٣٨، ٣٩، ٢٩٩، ٣٦٩).
6 الأغاني (٣/ ١١٣)، (طبعة بيروت)، مروج (٢/ ٦٠).

«إنكم قد تفردتم بآلهة شتى، وإني لأعلم ما الله راض به. وإن الله تعالى رب هذه الآلهة، وإنه ليحب أن يعبد وحده»، فنفرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبته، وقالوا عنه إنه على دين بني تميم[١].

وفي أبيات منسوبة إلى زهير بن أبي سُلمى الشاعر المعروف إقرار بوجود الَله عالم بكل ما في النفوس، هو (الله)، لا تخفى عليه خافية، فلا يجوز كتمان شيء عنه، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة، فلا مخلص له[٢].

ونسب الإيمان بالله واليوم الآخر إلى أشخاص آخرين، منهم: عبد الله القضاعي والشاعرَ عبيد بن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب، والأول منهم هو ابن تغلب بن وبرة بن قضاعة، كان من الحكماء الخطباء، يتبع الحنيفية، وينهج على نهجها مثل الحنفاء[٣].

واما الثاني، وهو عبيد بن الأبرص، فشاعر جاهلي شهير، له في قتله قصة، هي من ذيول قصة (الغريَين) للمنذر بن ماء السماء. نجد في الشعر المنسوب إليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمنايا وبالمحتم المكتوب، ونراه في القصيدة البائية يتوكل على الله، ويدعو الناس إلى الاعتماد عليه فيقول:

من يسأل الناس يحرموه ... وسـائل الله لا يخيـب
بـالله يـدرك كل خيـر ... والقول في بعضه تلغيب
والله ليس لـه شـريك ... علاّمُ ما أخفت القلوب[٤]

---

1 بلوغ الأرب (٢/ ٢٧٧).

2 فلا تكتمن الله ما في صدوركم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، للأمام ثعلب (ص ١٢)، (طبعة دار الكتب المصرية)، شعراء النصرانية، (القسم الرابع ص ٥١٨)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٧٧ وما بعدها).

3 بلوغ الأرب (٢/ ٢٨٠).

4 البيان والتبيين (١/ ٢٢٦)، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٧ وما بعدها)، أسماء المغتالين (٢١١)، (نوادر المخطوطات).

ونراه يقول في المنايا:

فأبلغ بنيَّ وأعمـــامهم   بأن المنـــايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العـــباد   إليها وإنْ كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا   فللموت ما تلد الـــوالده[1]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال، وينصح الناس بالسير على هذا المنوال. والذي يقرأ شعره، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج، ذي نفس ميالة إلى التقشف والتصوّف، مؤمنً بالعدل، كاره للظلم، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه؟ أو هو من نظم من عاش بعده في الإسلام؟

وأما (كعب بن لؤي بن غالب). فهو من أجداد النبى. وقد كان على الحنيفية، وإليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة، فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم يأمرهم بالطاعة والتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين، ويحثهم على صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام[2].

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الحنفاء، تريك آراء الجماعة تكاد تكون واحدة: كفر بالأصنام وبالشرك كله، وإعراض عن عادات قومهم، وثورة على عقائدهم، وترقب لحدوث تطورٍ وإصلاح يقضي على الجهالة، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بني قومهم فجلبت عليهم السخط والغضب الشديد، مما حمل أكثرهم، وهم في الغالب من مكة وأطرافها، على الفرار من بلدتهم إلى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن الخالية، ليكونوا في أمان من ايذاء قومهم لهم، وفي وسط يفكرون فيه في خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً، فلا يزعجهم مزعج، ولا ينغص حياتهم هناك منغص.

---

[1] شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٤ وما بعدها).
[2] ابن سعد، الطبقات (الجزء الأول، القسم ص ٣٩)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٨٢).

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم نقل كلهم من القارئين الكاتبين، ونسبوا إلى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزبور ومجلة لقمان. يريدون بذلك الكتب المقدسة. ويفهم من كلامهم في بعض الأحيان أن منهم من كان يحسن فهم العبرانية أو لغة بني ارم. ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتبسطوا لنا في الحديث عن ماهية تلك الصحف وعن محتويات مجلة لقمان وعن الكتب المنُزلة، ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المظانّ التي نقلت منها. فأضاعوا علينا، بإهمالهم الإشارة إلى هذه الأمور، أشياء كثيرة مهمة، بنا حاجة ماسة إلى معرفتها، للوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الإسلام وإبان ظهوره.

ويؤكد أهل الأخبار أن بعض أولئك الحنفاء كانوا يسيرون على سنة إبراهيم وشريعته، وأن بعضاً آخر منهم كان يلتمس كلماته ويسأل عنها، وأنهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق والأسفار والصعاب. وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشأم وأعالي العراق. أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان. وقد أضافوا إليهم الأحبار أحياناً، وذكروا أن الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين إبراهيم وإسماعيل، ولذلك لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحق، ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة. مات معتقداً بدين إبراهيم حنيفاً، غير مشرك بربه أحداً.

أما كيف كانت شريعة إبراهيم، وعلى أي نهج سار الحنفاء، وهل كان لهم كتاب أو كتب أو نحو ذلك؟ فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة واضحة. لذلك صرنا في جهل بأمر تلك الشريعة: شريعة إبراهيم، شريعة التوحيد الحق.

ويذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع إبراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم، منها: الختان، وحلق العانة، وقص الشارب، وهي علامات جعلها بعض المفسرين من (كلمات إبراهيم) التي ذكرت في القرآن الكريم، في الآية: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن﴾[1]. ذهب القائلون

---

[1] البقرة، الآية ١٢٤.

بهذا الرأي إلى أن تلك الكلمات هي عشر: «خمس في الرأس، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس، فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب وفرق الرأس والسواك. وأما التي في الجسد فالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان»[١].

ومن سنن شريعة إبراهيم الاختتان. وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين. أما العرب النصارى، فلم يكونوا يختتنون. فالحنفاء في هذه العادة والوثنيون سواء. وفي أخبار معركة (حنين) أنّ الأنصار حينما أجهزوا على قتلى ثقيف ممن سقط في هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً، عندما كشف ليستلب ما علية وجد أغرل. فلما تبين ذلك للأنصار، نادى أحدهم بأعلى صوته: يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ما تختتن. فقام إليه المغيرة بن شعبة، وهو من ثقيف، فأخذ بيده، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب، فقال له: لا تقل ذلك فداك أبي وأمي، إنما هو غلام لنا نصراني، ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول له: ألا تراهم مختتنين[٢]؟

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدون الغرل شيئاً معيباً، ومنقصة تكون حديث الناس. وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختتنون، وأن الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم، وأنهم في ذلك كاليهود[٣]. وقد ورد في الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب. ولعل التوراة، التي ذكرت قصة اختتان إسماعيل، أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت شائعة بينهم في ذلك العهد[٤].

الاعتكاف:

وقد نسب الاعتكاف في الكهوف وفي البراري وفي الجبال الى عدد من هؤلاء الحنفاء. فقد ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا قد اعتكفوا في المواضع الخالية البعيدة

---

[1] تفسير الطبري (١/ ٤١٤ وما بعدها)، روح المعاني (١/ ٣٧٤)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٨٧)، المحبر (٣٢٩).
[2] الطبري (٣/ ١٣٠)، «ذكر الخبر عن غزوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هوازن بحنين».
[3] الأغاني (٦/ ٩١)، «ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه».
[4] Reste, S. 175.

عن الناس، وحبسوا أنفسهم فيها، فلا يخرجون منها إلاّ لحاجة شديدة وضرورة ماسة[١]. يتحنثون فيها ويتأملون في الكون، يلتمسون الصدق والحق. والتحنث التعبد. فكانوا يتعبدون في تلك المواضع الهادئة الساكنة، مثل غار (حراء) وقد ذكر أن الرسول كان يتحنث فيه الليالي، يقضيها في ذلك الغار[٢].

ويعبر عن التعبد ليلا بـ (التهجد) أيضاً. وذكر أن التهجد الصلاة ليلاً. وقد كان الرسول يتهجد[٣]. والتهجد التيقظ والسهر بعد نومة من الليل. والهجود النوم عند العرب. ويظهر أن تفسير التهجد بالتعبد ليلاً، انما ورد من تفسيرهم لما ورد في القرآن الكريم: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾[٤]. فخص العلماء التهجد بالتعبد ليلاً.

ويعبر عن التعبد بالنسك، والنسك: العبادة والطاعة وكل ما يتقرب به إلى الآلهة. والنسّاك: المتعبدون. وقد كان الحنفاء من النساك أي المتعبدين. وعدّوا الذبائح من النسك. وجعلوا النسيكة: الذبيحة[٥]. والذبائح، أي النسائك، هي من أهم مظاهر التعبد والزهد عند الجاهليين.

وممن نسب إلى النسك والرهبنة من الجاهليين (أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان)، أحد (بني ضبيعة بن زيد). وكان في الجاهلية يسمى (الراهب)، لأنه كان مترهباً، وقد كان من المقدمين بيثرب، إذ كان رأس الأوس فيها، فلما جاء رسول الله إلى المدينة، خاصمه، ثم خرج إلى مكة مباعداً له، ومعه خمسون غلاماً من الأوس، واشترك مع قريش يوم أُحد[٦].

---

[1] تاج العروس (٦/ ٢٠٣)، (عكف).
[2] تاج العروس (١/ ٦١٦)، (حنث).
[3] تاج العروس (٢/ ٥٤٣)، (هجد).
[4] الإسراء، الآية ٧٩، تفسير الطبري (١٥/ ٩٥)، روح المعاني (١٥/ ١٢٧).
[5] اللسان (١٠/ ٤٩٨ وما بعدها)، (نسك).
[6] نهاية الأرب (١٧/ ٨٩)، (ذكر غزوة أحد)، إمتاع الأسماع (١/ ١١٥)، «غزوة أحد».

الفصل السادس والسبعون

اليهودية بين العرب

والحديث عن اليهودية بين العرب، وعن وجود يهود في أنحاء من جزيرتهم، لا يمكن أن يكون حديثاً تأريخياً مبنياً على العلم اذا ارتفعنا به إلى الميلاد وإلى ما قبل الميلاد. ولا يعني كلامي هذا عدم وصول يهود إلى جزيرة العرب، وعدم إقامتهم في أماكن منها. فهذا كلام لا يمكن أن يقال، ولا يمكن قبوله. انما أريد ان أقول إننا لا نملك نصوصاً تأريخية تخولنا أن نتحدث عن اليهود في جزيرة العرب قبل الميلاد حديثاً، علمياً، بأن نعين المواضع التي نزلوا فيها، والأماكن التي وصلوا إليها، وما فعلوه هناك، وفي أي عهد كان ذلك، ومن قادهم إلى تلك الأنحاء، ومن استقبلهم استقبالاً حسناً، أو استقبلهم استقبالاً سيئاً من الجاهليين؟

وقد عرف اليهود عند الجاهليين، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي. ولا بد من وقوف الجاهليين على أحوالهم، لأنهم كانوا كما سنرى يسكنون في مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين ويثرب، كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة وفي العروض. وكان تجار منهم يقيمون فى مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للاتجار وإقراض المال بربا فاحش للمحتاجين إليه.

ومعارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية. والسبب في ورود خبرهم في هذه الموارد، هو اصطدامهم بالإسلام، ومقاومتهم له حينما دعاهم الرسول إلى الدخول فيه، فنزل فيهم الوحي، وأشير اليهم في الحديث،

وذكروا في كتب التفسير والسير والتواريخ والأدب. ومن هنا تجمعت معارفنا عن يهود الجاهلية. ولهذا تجد الحديث عن يهود الجاهلية لا يرتقي كثيراً عن عصر النبوة، ولا يبتعد عنه ولكني لا استبعد احتمال تغير الحال، إذا ما عثر المنقبون في المستقبل على كتابات جاهلية قد تكون مطمورة في الوقت الحاضر في باطن التربة، يكون لها صلة بيهود جزيرة العرب، أو إذا ما عثر على مؤلفات ووثائق مكتوبة عبرانية أو غير عبرانية قد تكون مجهولة عن ذوي العلم في الوقت الحاضر، تكون لها صلة وعلاقة بأمر يهود جزيرة العرب قبل الإسلام.

وقد وردت لفظة (يهود) معرفة في القرآن الكريم. أي على هذا الشكل: (اليهود). وردت في مواضع من سورة البقرة[١]. ومن سورة المائدة[٢] ومن سورة التوبة[٣]. وكلها سور مدنية. ولم ترد في سورة من السور المكية. كما وردت لفظة (يهودياً) في سورة آل عمران، وردت في شرح ديانة (إبراهيم): ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾[٤]. وهي من السور المدنية كذلك.

وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بـ ﴿الذين هادوا﴾[٥]، وبـ ﴿من كان هوداً﴾[٦] و﴿كونوا هوداً﴾[٧] و﴿كانوا هوداً﴾[٨] وسورتي الأنعام والنحل من السور المكيّة. وبناء على ذلك تكون جملة «الذين هادوا» قد نزلت قبل نزول لفظة (اليهود) في القرآن الكريم.

وقد عبر عن العبرانيين عامة بـ (بني اسرائيل) في القرآن الكريم. عبر عنهم في سور مكية وفي سور مدنية. ويلاحظ أن ورود هذا التعبير في القرآن الكريم، هو أكثر بكثير من ورود لفظة (اليهود) فيه.

---

[1] البقرة، الآية ١١٣، ١٢٠.
[2] المائدة، الآية ١٨، ٥١، ٦٤، ٨٢.
[3] التوبة، الآية ٣٠.
[4] آل عمران، الآية ٦٧.
[5] البقرة، الآية ٦٢، النساء، الآية ٤٦، ١٦٠، المائدة، ٤١، ٤٤، ٦٩، الأنعام، الآية ١٤٦، النحل، الآية ١٨٨، الحج، الآية ١٧، الجمعة، الآية ٩.
[6] البقرة، الآية ١١١.
[7] البقرة، الآية ١٣٥.
[8] البقرة، الآية ١٤٠.

ولما كانت فلسطين امتداداً طبيعياً للحجاز، كان من الطبيعي اتصال سكانها بالحجاز، واتصال سكان الحجاز بفلسطين، وذهاب جاليات يهودية إلى العربية الغربية، للاتجار وللاقامة هناك، خاصة بعد فتوح الدول الكبرى لفلسطين، واستيلائها عليها، وهجرة اليهود إلى الخارج. فكانت العربية الغربية لاتصالها بفلسطين من الأماكن الملائمة المناسبة لهجرة اليهود إليها، وإقامتهم فيها، ولا سيما عند مواضع المياه وفي الأرضين الخصبة العامرة. غير أننا لا نستطيع، كما قلت، التحدث عن هجرة اليهود هذه إلى هذه الأنحاء حديثاً علمياً معززاً بالكتابات وبالتواريخ.

ولم يترك يهود جزيرة العرب لهم أثراً مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها. وكل ما عثر عليه منهم، نصوص معدودة، وجدت في اليمن، لا تفصح بشيء ذي بال عن اليهود واليهودية. كذلك لم يصل إلينا إن أحداً من المؤلفين والكتبة العبرانيين ذكر شيئاً عن يهود الجاهلية. وليس لنا من تأريخ اليهود في جزيرة العرب إلاّ ما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث وكتب التفسير والأخبار والسير. فمادتنا عن تأريخ اليهودية في العربية، لا ترتقي إلى عهد بعيد عن الإسلام.

لقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن اليهود كانوا في جملة من كان في جيش (نبونيد) يوم جاء إلى تيماء. فأقاموا بها وبمواضع أخرى من الحجاز بلغت (يثرب). وأن هؤلاء اليهود أقاموا منذ ذلك الحين في تلك الأماكن واستوطنوا وادي القرى وأماكن أخرى إلى مجيء الإسلام. غير أن (نبونيد) لم يشر في أخباره المدونة إلى وجود اليهود في جيشه والى اسكانه لهم في هذه الأرضين كما أننا لم نعثر على كتابات تتحدث عن هذا العهد أو عن العهد الذي سبقه أو الذي جاء من بعده، لذلك فإننا لانستطيع أن نعزز هذا الكلام بنصوص وكتابات. وإن كنا لا نريد نفي احتمال مجيء اليهود إلى هذه الديار في عهد (نبونيد)، أو في عهد (بخت نصر)، أو قبل العهديْن.

نعم، لقد عثر على عدد من الكتابات النبطية في الحجر وفي مواضع أخرى من أرض النبط وردت فيها أسماء عبرانية تشير إلى أن أصحابها من يهود، ويعود بعضها إلى القرن الأول للميلاد، ويعود بعض آخر إلى ما بعد ذلك مثل الكتابة التي يعود عهدها إلى سنة ٣٠٧ ميلادية، وصاحبها رجل اسمه (يحيى بر شمعون) أي (يحيى بن شمعون)[1]. غير أن هذه الكتابات شخصية، ولا تفصح بشيء

[1] Islamic Culture, Vol., III, No. 2, April 1929, Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islam's Times, By Josef Horovity, p. 170.

ذي بال عن عقيدة أصحابها، ولا عن تأربخهم في هذين الأرضين.

وقد ذهب اليهود إلى العربية الشرقية، ذهبوا إليها من العراق، فسكنوا في مواضع من سواحل الخليج، وتاجروا مع أهل هذه البلاد ومع باطن الجزيرة. وقد ساعدتهم بعض الحكومات على للذهاب إليها. وقد كانت ليهود العراق تجارات مع أهل الخليج، كما يفهم ذلك من مواضع من التلمود.

ويتبين من روايات المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) Iosephos Flavius أن اليهودية كانت قد وجدت لها سبيلاً بين العرب. وأن بعض ملوك مملكة (حدياب) Adiabene كانوا قد دخلوا فيها[١]. ويذكر المؤرخ (سوزومين) Souzomenos أن اليهود كانوا ينظرون إلى العرب الساكنين شرق الحد العربي Limes Arabicus على أنهم من نسل إسماعيل، وأنهم كانوا يرون أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم، فهم من ذوي رحمهم، ولهم بهم صلة قربى. وكانوا يرجون لذلك دخولهم في دينهم، واعتناقهم دين إبراهيم جد اليهود والعرب. وقد عملوا على تهويد أولئك العرب[٢].

ويظهر من مواضع من التلمود أن نفراً من العرب دخلوا في اليهودية، وأنهم جاءوا إلى الأحبار، فتهودوا أمامهم[٣]. وفي هذه المرويات (التلمودية)، تأييد لروايات أهل الأخبار التي تذكر أن اليهودية كانت في حمير، وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة[٤]، وغسان[٥]. وذكر (اليعقوبي) أن ممن تهود من العرب «اليمن بأسرها. كان تُبّع حمل حبرين من أحبار يهود إلى اليمن، فأبطل الأوثان، وتهود من باليمن، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير. وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام»[٦].

وقد ذكر علماء التفسير في تفسيرهم الآية: ﴿لا إكراه في الدين. قد تبين

---

1 Die Araber, II, S. 65, ff.
2 Sozomenos, 6, 38, 10-13, 299, 17, Die Araber, II, S. 74.
3 Y ‘bamot, 16 b, ‘Aboda Zara 27,a, Die Araber, II, S. 74.

4 المعارف (٦٢١)، الأعلاق النفيسة (٢١٧).
5 البدء والتأريخ (٤/ ٣١).
6 اليعقوبي (١/٢٢٦ وما بعدها).

الرشد من الغي﴾[1]، أنها نزلت في الأنصار. كانت المرأة المقلات في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده، فتهود قوم منهم. فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام. أو أنهم لما بقوا، على يهوديتهم، وأمر اليهود بالجلاء، وفيهم منهم، شق على آبائهم ترك أبنائهم يذهبون مع اليهود، فقالوا: «يا رسول الله أبناؤنا وإخواننا فيهم.. فسكت عنهم رسول الله، صلى الله عليه فسلم، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لا إكراه في الدين قد تبنن الرشد من الغيّ...﴾ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد خيّر أصحابكم، فإن إختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم»[2]. وذكر العلماء أيضاً أن ناساً من الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة وغيرهم من يهود، فتهودوا، وأن من الأنصار من رأى في الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان، فهودوا أولادهم، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه، فنزل الوحي بالآية المذكورة[3]. فقد كان إذن بين يهود جزيرة العرب، عرب دخلوا في دين يهود.

وذكر أهل الأخبار أن (جبل بن جوال بن صفوان) الثعلبي، من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، كان يهودياً فأسلم. فهو عربي، يظهر أنه أو أهله قبله قد تهودوا، فكان على دين يهود، وعاش مع (بني قريظة)، حتى اعتنق الإسلام[4]. وذكروا أسماء آخرين كَانوا من متهودة الجاهليين.

ويرى بعض المؤرخين اليهود أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود العربية مثلهم في العقيدة، بل رأوا أنهم لم يكونوا يهوداً، لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ولم يخضعوا لأحكام التلمود[5]. ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين العبرانيين.

وعندي إن عدم ورود شيء عن يهود الحجاز في أخبار المؤلفين العبرانيين

---

1 البقرة، رقم ٢، آية ٢٥٦.
2 تفسير الطبري (٣/ ١٠ وما بعدها).
3 تفسير الطبري (٣/ ١٠ وما بعدها)، تفسير القرطبي (٣/ ٢٨٠ وما بعدها).
4 الإصابة (١/ ٢٢٣ وما بعدها)، (رقم ١٠٧١).
5 إسرائيل ولفنسون: تأريخ اليهود في بلاد العرب (ص ١٣)، (القاهرة ١٩٢٧).

لا يمكن أن يكون دليلاً على عزلة يهود الحجاز عن بقية اليهود. فقد أهمل غيرهم أيضاً ولم يشر إليهم، لأن التأليف والنشاط الفكري عند العبرانيين كانا قد تركزا في هذه العهود على المستوطنات اليهودية في العراق وعلى فلسطين، وعلى (طبريا) بصورة خاصة، ولم تشتهر الجاليات اليهودية التي انتشرت في مواضع أخرى بالتأليف، فكان من الطبيعي أن تنحصر أخبار اليهود في هذا العهد فيِ هذين القطرين. ولهذا لم يشر إلى يهود الحجاز والى يهود بقية جزيرة العرب. ثم إن الحجاز على اتصال بفلسطين، وفلسطين جزء من الحجاز متمم له جغرافياً، وهو متصل بفلسطين منذ القدم، وفلسطين منفذه التجاري، وميناء (غزة) من المواضع التي كان يقصدها تجار الحجاز للاتجار، والحركة مستمرة دوماً بين فلسطين والحجاز، وقد كان تجار اليهود من أهل الحجاز يتاجرون مع بلاد الشأم وفي جملتها أرض فلسطين، فلا يعقل بالطبع أن يصير يهود الحجاز في عزلة عن يهود فلسطين، وألاّ يكون بين اليهودين اتصال. أما من ناحية الآراء الدينية والاعتقادية، فقد يكون بين اليهودين بعض الاختلاف، فقد وقع اختلاف في الآراء بين أحبار يهود العراق وبين أحبار يهود فلسطين، فلا يستبعد إذن رأي من يقول بوجود اختلاف في وجهة نظر يهود فلسطين بالنسبة ليهود الحجاز، إذ قد يكون يهود الحجاز ويهود جزيرة العرب قد تأثروا بالعرب الذين نزلوا بينهم فاضطروا إلى التخفيف من التمسك بشعائر دينهم، لا سيما وأن من بين يهود جزيرة العرب يهود متهودون، كانوا في الأصل من أدوم ومن النبط ومن العرب، دخلوا في اليهودية لعوامل متعددة، فلم يكونوا لذلك على سنّة اليهود الأصيلين في المحافظة على شريعتهم محافظة شديدة تامة.

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر إلى يثرب، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم. وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع إتاوة لهم، وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم. وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفو الأحوال فيما بينها وتلتئم ولئلاء يكون اتفاقها والتئامها خطراً يتهدد اليهود.

وليس الذى يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشاً إلى الحجاز، واستقرار ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعماليق وبعد وفاة موسى، ثم ما يذكرونه عن

هجرة داوود مع سبط يهوذا إلى خيبر وتملكه هناك ثم عودته إلى اسرائيل[1] وأمثال هذا إلاّ قصصاً من هذا النوع الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم، لإثبات انهم ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم، وانهم كانوا ذوي بأس شديد، وأن تأريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء اسرائيل، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين.

وقد زعم أهل الأخبار، أن العمالقة كانوا أصحاب عز وبقي شديد، وكانوا ينزلون الحجاز في جملة ما نزلوا من أماكن في أيام موسى. وكان منهم: بنو هف وبنو سعد وبنو الأزرق وبنو مطروق. وملكهم إذ ذاك رجل منهم اسمه (الأرقم)، ينزل ما بين تيماء وفدك. وكان سكان يثرب من العمالقة وكذلك سكان بقية القرى. فلما تغلب عليهم العبرانيون انتزعوا منهم مساكنهم، وأقاموا في مواطنهم في الحجاز[2].

وقد أخذ أهل الأخبار ما رووه عن دخول اليهود إلى يثرب في أيام موسى، وما ذكروه عن إرساله جيشاً إلى هذه المنطقة، ثم ما رووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز، من سفر (صموئيل الأول) من التوراة[3]. وقد حسب أهل الأخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء، ومن سكان أعالي الحجاز، فزعموا أن تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة، وأن اليهود قد سكنوها لذلك منذ أيام موسى. وقد أخذ الأخباريون رواياتهم هذه من اليهود، وممن دخل منهم في الإسلام[4].

ويري بعض الأخباريين أن ابتداء أمر اليهود في الحجاز ونزولهم وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب إنما كان في أيام (بخت نصر)، فلما جاء (بخت نصر)

---

[1] الأغاني (١٩/ ٩٤ وما بعدها)، «أخبار اوس ونسب اليهود بيثرب وأخبارهم»، ابن خلدون (٢/ ٨٨)، (٢/ ٥٩٤)، «دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦»، أبو الفداء (١/ ١٢٣)، ابن الأثير، الكامل (١/ ٤٠١ وما بعدها)، ابن خلدون (٢/ ٥٩٤) «بيروت ١٩٥٦»، ابن هشام (٢/ ١٧).

[2] الأغاني (١٩/ ٩٤)، ابن هشام (٢/ ١٧).

[3] صموئيل الأول: الإصحاح الخامس عشر، الآية ٥ وما بعد.

[4] Nöldeke, Beträge, S. 52.

إلى فلسطين، هرب قسم منهم إلى هذه المواضع واستقروا بها إلى مجيء الإسلام[1]. وليس في هذا الخبر ما يحملنا على استبعاده، فهروب اليهود إلى أعالي الحجاز ودخولهم الحجاز أمر سهل يسير، فالأرض واحدة وهي متصلة والطرق مفتوحة مطروقة، ولا يوجد أي مانع بمنع اليهود أو غير اليهود من دخول الحجاز. لا سيما وأن اليهود كانوا خائفين فارين بأنفسهم من الرعب، فهم يبحثون عن أقرب ملجأ إليهم يحميهم من فتك ملك بابل بهم. وأقرب مكان مأمون اليهم هو الحجاز.

اما ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشأم وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تأريخي صحيح[2]. فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدّى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين.

وكان يقيم بـ (مقنا) عند ظهور الإسلام قوم من اليهود اسمهم (بنو جنبة)، وقد كتب إليهم الرسول والى أهل (مقنا) يدعوهم إلى الإسلام، أو إلى دفع الجزية[3]. وكتب إلى قوم من يهود اسمهم (بنو غاديا)[4]، والى قوم آخرين اسم (بنو عريض)[5].

ومن هؤلاء المهاجرين علي رأي الأخباريين بنو قريظة وبنو النضير وبنو بهدل. ساروا إلى الجنوب في اتجاه يثرب، فلما بلغوا موضع الغابة، وجدوه وبيّاً، فكرهوا الاقامة فيه، وبعثوا رائداً أمروه أن يلتمس لهم منزلاً طيباً، وأرضاً عذبة، حتى إذا بلغ (العالية)، وهي بطحان ومهزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة. بها مياه وعيون غزيرة، رجع إليهم بأمرها، وأخبرهم بما

---

[1] الأغاني (٩٤/١٩)، ابن خلدون (٢/ ٥٩٤)، «دار الكتاب»، أبو الفداء (١/ ١٢٣)، الكامل (١/ ٤٠١)، R. Donyy, Die Israeliten zu Mekka, S. 135.
[2] ابن خلدون (٢/ ٥٩٤)، «بيروت ١٩٥٦».
[3] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٧٦).
[4] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٧٩).
[5] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٧٩).

راه منها، فقرّ رأيهم على الإقامة فيها. فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور، فكانت لهم تلاعه وما سقي من بعاث وسموات[1].

وسكن اليهود يثرب. سكنها منهم بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قينقاع وينو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص وبنو ماسلة، سكن هؤلاء المدينة وأطرافها، وكان يسكن معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب، منهم: بنو الحرمان حي من اليمن، وبنو مرثد حي من بلَيّ، وبنو نيف وهم من بلي أيضاً، وبنو معاوية حي من بنيُ سليم ثم من بني الحرث بن بهثة، وبنو الشظيّة حي من غسان. وظل اليهود أصحاب يثرب وسادتها، حتى جاء الأوس والخزرج، فنزلوها واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود، فتغلبوا عليهم، وسيطروا على المدينة، وقسموها فيما بينهم، فلم يبق من يومئذ عليها سلطان[2].

وتذكر روايات أهل الأخبار أن مجيء الأوس والخزرج إلى يثرب كان بعد حادث سيل العرم. جاؤوا إليها لفقر حالهم، والتماساً لوطن صالح جديد، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة. ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من أرض ضعيفة موات، ومن رزق شحيح. أما المال والثروة والملك والجاه، فلليهود. بقوا على ذلك أمداً حتى إذا ما ذهب مالك بن العجلان، وهو منهم، إلى أبي جبيلة الغساني رئيس غسان يومئذ، ونزل عنده، شكا لأمير غسان سوء حال قومه وما هم عليه من بؤس وضنك. فوعد أبو جبيلة أن يأتي على رأس جيش من قومه لمساعدته، على أن يقوم بعد عودته ببناء حائر عظيم، يعلن أنه بناه لاستقبال الأمير فيه، وأن يطلب من اليهود الخروج لاستقباله والتشرف بزيارته في ذلك الحائر، فإن فعلوه، فتك بهم وأبادهم. فلما تمّ البناء، ووصل الأمير في الأجل الموقوت، ودخل المدعوون رؤساء اليهود الحائر، فتكت عساكر أبي جبيلة بهم وأهلكتهم، وتمت الغلبة من يومئذ للأوس والخزرج، وعاد

---

[1] الأغاني (١٩/ ٩٤ وما بعدها)، ابن خلدون (٢/ ٥٩٤)، تأريخ أبو الفداء (١/ ١٢٣) «مطبعة التقدم».
[2] الأغاني (١٩/ ٩٥)، الكامل، لابن الأثير (١/ ٤٠١).

أبو جبيلة الى مقر ملكه[١].

غير أن اليهود ظلوا مع هذه الغلبة يتهاترون مع الأوس والخزرج ويعترضونهم ويتناوبونهم، فعمد مالك بن العجلان الى الحيلة، فتظاهر أنه يريد الصلح معهم، وأنه عزم على تسوية العداوات وطمس الحزازات، وأنه لذلك يدعو رؤساء يهود إلى طعام، ليتفاوضوا مع سادات قومه في أمر الصلح. فلما حضر رؤساء يهود، فتك بعشرات منهم ممن استجاب لدعوته، وفرّ أحدهم ليخبر قومه بما حدث، وحذر أصحابه الذين بقوا، فلم يأت منهم أحد.

«فلما قتل مالك من يهود من قتل، ذلّوا، وقلّ امتناعهم، وخافوا خوفاً شديداً، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم لبعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك، ولكن يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم، فيقول: انما نحن جيرانكم ومواليكم، فكان كل قوم من يهود لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم» ومنذ ذلك الزمن لم يبقَ لليهود على هذه الأرضين سلطان[٢].

وورد في رواية أخرى أن (مالك بن عجلان)، كان من الخزرج، وكان سيد قومه يومئذ، وكان على اليهود رجل منهم اسمه (الفَطْيون) ملك عليهم، واستبد بأمر الناس، وكان يهودياً ومن بني ثعلبة، وكان امرأ سوء فاجراً، قرر ألاّ تدخل امرأة على زوجها إلاّ بعد دخولها عليه. فاغتاظ مالك من فعل الفَطْيون ومن استذلاله للعرب، ولما كان زفاف أخته لزوجها، وكان لا بد من ادخالها على (الفطيون) أولاً ليستمتع بها، كبر ذلك عليه، فدخل معها في زي امرأة، فلما أراد (الفطيون) الخلو بها، وثب مالك عليه وعلاه بسيفه وقتله، وخلّص قومه منه، وفرّ عندئذ إلى أبي جبيلة ملك غسان[٣].

وتذكر هذه الرواية أن (أبا جبيلة) لم يكن من غسان، بل كان من الخزرج، وكان عظيماً ذا منزلة كبيرة في الناس، حتى صار ملكاً على الغساسنة، ويرجح

---

[1] الأغاني (١٩/ ٩٧ وما بعدها)، ابن خلدون (٢/ ٥٩٦)، أبو الفداء (١/ ١٢٣)، الكامل (١/ ٤٠١).

[2] الأغاني (١٩/ ٩٥ وما بعدها)، ابن الأثير، الكامل (١/ ٤٠١ وما بعدها).

[3] ابن الأثير، الكامل (١/ ٤٠١)، وفي بعض الكتب «القطيون»، بحرف القاف، وهو تحريف، المحبر (١١٢)، جمهرة أشعار العرب (٢٤٣)، (القاهرة ١٩٢٦م).

رواتها أنه لم يكن ملكاً على آل غسان، بل كان مقرباً عند ملكهم، عظيم الحظوة لديه. ودليلهم على ذلك عدم اعتراف الغساسنة بوجود ملك عليهم اسمه (عبيد بن سالم بن مالك بن سالم)، وهو اسم (أبو جبيلة) المذكور. ويذكرون أن (الرمق بن زيد الخزرجي) مدحه بشعر قاله فيه[١].

وتذكر رواية أن الفطيون اسم عبراني، واسمه (عامر بن عامر بن ثعلبة بن حارثة)، وكان تملك بيثرب. فلما قتل خرج مالك بن العجلان، حتى قدم على (أبي جبيلة) ملك غسان، فأعلمه غلبة يهود على يثرب وفعله بهم، فقدم (أبو جبيلة) يثرب، ثم صنع طعاماً، ومكن الأوس والخزرج ممن دعاهم إلى الطعام من قتل مائة من أشراف اليهود، فقويت الأوس والخزرج عليهم[٢].

وجاء في رواية أخرى، أن (مالك بن العجلان)، إنما فرّ إلى (تبع)، بعد قتله (الفطيون) فأستصرخه على اليهود، فجاء حتى قتل ثلثمائة وخمسين رجلاً غيلة من سادات يهود بـ (ذى حرض)، ولما أدبهم رجع إلى أرضه اليمن[٣].

أما مالك بن العجلان، فقد صوره اليهود شيطاناً ملعوناً، وصوروه في بيعهم وكنائسهم ليلعنوه كلما دخلوا ورأوه، وذكروه في شعرهم في أقبح هجاء قالوه[٤].

وقد كان بين يهود يثرب قوم يقال لهم (بني الفطيون) بقوا حتى جاء الرسول إلى يثرب. فأجلاهم في السنة الثالثة من الهجرة[٥]. وذكر (ابن دريد) أن بعضاً من (بني الفطيون) الذين هم من نسل (الفطيون) ملك يثرب، قد شهد (بدراً) واستشهد بعضهم يوم اليمامة. وذكر أن نسب (الفطيون) في غسان. وأن من ولد الفطيون: (ابو المقشعر) واسمه (أسيد بن عبد الله)[٦].

---

1 ابن الأثير، الكامل (١/ ٤٠١ وما بعدها).

2 نوادر المخطوطات، أسماء المغتالين (١٣٦ وما بعدها).

3 البدء والتأريخ (٣/ ١٧٩).

4 الأغاني (١٩/ ٦٩)، الاشتقاق (ص ٢٧٠)،
Graetz, Geschichte der Juden, V, S. 431, Hisrchfeld, Essai de l’histoire des Juives de Medine, Revue Etudes Juives, VII, 1889, p : 173, Caussin de Perceval, Essai, II, p. 652, Wellhausen, Skizze, IV, S. 33, Nallino, Raccoltam IIIm p. 111.

5 المحبر (١١٢).

6 الاشتقاق (٢/ ٢٤٩)، «وستنفلد».

وقد فسّر أهل الأخبار كلمة (الفطيون) بـ (مالك)، وقالوا إنها تقابل (النجاشي) عند الحبشة، و(خاقان) عند الترك. وذكروا أسماء نفر ممن كانوا يلقبون بالفطيون[١].

ويفهم من روايات الأخباريين أن يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطوناً، منهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو عكرمة، وبنو محمر، وبنو زعورا، وبنو زيد، وبنو الشظية، وبنو جشم، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو القصيص (العصيص)، وبنو ثعلبة[٢]. غير أنهم لم يكونوا أعراباً، أي بدواً يتنقلون من مكان إلى مكان، بل كانوا حضراً استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها، ومارسوا مهن أهل المدر، كل جماعة مستقلة تحمل اسماً من تلك الأسماء التي ذكرها الأخباريون.

وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ (الكاهنين)، نسبوا ذلك إلى جدهم الذي يقال له (الكاهن). و(الكاهن) هو الكاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار[٣]. فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ومن نسب حسيب، يميزهم عن بقية طوائف يهود. ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من إخوانهم في الدين.

ويرى (نولدكه) احتمال كون بني النضير وبني قريظة من طبقة الكهّان في الأصل: هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التي وقعت فيها، فسكنوا في هذه الديار. وهناك جملة عشائر وأسر يهودية تفتخر بإلحاق نسبها بالكاهن هارون شقيق موسى النبي[٤].

كذلك يرجع (أوليري) كأمثاله من المستشرقين أصل بني قريظة وبني النضير إلى اليهود، ويرى أنهم غادروا ديارهم وجاءوا إلى هذه المنطقة في الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد وتنكيل (هدريان) باليهود في عام ١٢٣ للميلاد[٥].

---

1 الاشتقاق (٢/ ٢٥٩).

2 الأغاني (١٩/ ٩٥ وما بعدها)، سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٧ وما بعدها)، Nöldeke, Beträge, S. 54.

3 الأغاني (١٩/ ٩٥)، تاج العروس (٥/ ٢٥٩)، (قرظ)، Margoliouth, p. 59, Graetz, History of the Jews, III, p. 56.

4 Nöldeke, Beträge, S. 55.

5 O’beary, p. 173.

ويرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم إلى الكاهنين والى الأسباط العشرة. كذلك، فيدعون أنهم من تلك الأسباط المفقودة، وأنهم من نسل قدماء اليهود[١].

وقد كانت منازل بني النضير حينما غزاهم الرسول في وادي بطحان وبموضع البُويرة[٢]. ووادي بطحان، هو أحد أودية يثرب الثلاثة، وهي: العقيق وبطحان وقناة. وهو واد فيه مياه غزيرة وعيون، اتخذ به اليهود الحدائق والآطام. وقد كان موضع البُويرة عامراً كذلك، وهو من تيماء، فيه نخل وزرع وأشجار. وقد غزاهم الرسول بعد ستة أشهر من غزوة أُحد، فأحرق نخلهم وقطع زرعهم وشجرهم لتطاولهم على المسلمين. ومن ساداتهم: حيي بن أخطب، وأخوه ياسر بن أخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، وهو أبو رافع الأعور، والربيع بن أبي الحقيق[٣]. وعمرو بن جحاش.

ومن بني النضير، كعب بن الأشرف، وكان معاصراً للرسول، وكان صاحب لسان ونفوذ. أبوه من طيء على رواية، ومن بني النضير على رواية أخرى. أما أمه فهي من بني النضير بإجماع الرواة. توفي أبوه ــ على رأي من يقول إنه من طيء ــ وهو صغير، فحملته أمه إلى أخواله، فنشأ فيهم، وقال الشعر عندهم، وساد. ولما جاء الرسول إلى يثرب، كان كعب فيمن ناصب الرسول العداء فعلاً وقولاً، فهجا الرسول، وهجا أصحابه، وظل هذا شأنه بالرغم من محاولة المسلمين استصلاحه واسترضاءه. حتى جنى عليه لسانه، فأهدر النبي دمه، فذهب إليه نفر من المسلمين، فاقتحموا داره وقتلوه. وقد كانت له مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج[٤].

---

[1] Nallino, Raccolta, III, p. 99, Friedlander, The Jews of Arabia, and the Rechabites, in Jews Quarterly Review, 1910-1911, p. 254.

[2] بالضم ثم السكون، وقيل بفتح أوله وكسر ثانيه وبفتح أوله وسكون ثانيه، البلدان (٢/ ٢١٦)، (١/ ٥١٢ وما بعدها)، (السعادة).

[3] البلدان (٢/ ٣١٠ وما بعدها)، البكري، معجم (١/ ٢٨٥)، «طبعة مصطفى السقا» «بويرة»، شرح ديوان حسان، للبرقوقي (ص ١٩٣ وما بعدها)، الطبري (٢/ ٢٢٤)، (الاستقامة)، فتوح البلدان، للبلاذري (١/ ٣٢)، (١٩٣٢م)، (القاهرة).

[4] الأغاني (١٩/ ١٠٦ وما بعدها)، المحبر (ص ١١٧، ٢٨٢، ٣٩٠)، ديوان حسان (ص ٤٦)، «طبعة هرشفلد»، شرح ديوان حسان (ص ٢٧٢ وما بعدها)، «للبرقوقي»، الكامل، لابن الأثير (٢/ ٩٩)، الطبري (٢/ ١٧٧)، معجم الشعراء، للمرزباني (٣٤٣)، ابن خلدون (٢/ ٧٥٧)، ابن هشام (٢/ ٥٤٨)، البداية والنهاية (٤/ ٧٤).

وكان قد ذهب إلى مكة، فحرض قريشاً على الرسول، ولما عاد إلى موضعه، ألب المشركين من أهل يثرب عليه. ورثا قتلى القليب، فقتله المسلمون كما ذكرت[١].

وكانت لبني قريظة حصون، يتحصنون بها وقت الخطر، ولهم آبار، ومنهم (محمد بن كعب القرظي)[٢]. والزبير بن باطان بن وهب، وعزال بن شمويل، وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، وجبل بن عمرو بن سكينة.

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء، وكانوا يسكنون في أحياء يثرب، وكانوا أغنياء على غير وفاق ووئام مع بقية أبناء قومهم بني قريظة وبني النضير، وقد اشتركوا في يوم بُعاث. ووقعت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة معارك فتك فيها ببني قينقاع، وأصيبوا بخسائر كبيرة اضطرتهم على ما يظهر إلى الالتجاء إلى يثرب والإقامة فيها في حي واحد من المدينة[٣].

ويرى (أوليري) احتمال كون بني قينقاع من أصل عربي متهود، أو من بني أدوم[٤].

وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماءها الأخباريون قبائل يهودية حقاً، أي من الجماعات اليهودية التي هاجرت من فلسطين في ايام القيصر (طيطوس) Titus، أو (هدريان) Hadrian، أو قبل أيامهما، أو بعدها، ولكن بعضاً آخر منها، لم يكن من أصل يهودي، انما كانت قبائل عربية دخلت في دين يهود، ولا سيما القبائل المسماة بأسماء عربية أصيلة. ولبعض هذه

---

1 التنبيه (٢٤٣)، والمصادر المذكورة، السيرة الحلبية (٢/ ٩٤ وما بعدها)، الكامل، لابن الأثير (١/ ٤٠١ وما بعدها)، ابن خلدون (٢/ ٦٠٨)، ابن عساكر (١/ ٤٠)، البداية النهاية (٤/ ٧٤ وما بعدها).

2 تاج العروس (٥/ ٢٥٩)، (قرظ)، البداية والنهاية (٤/ ١١٦)، الأغاني (١٩/ ٩٤)، فتوح البلدان، للبلاذري (١/ ٢٣/ ٣٥)، الطبري (٢/ ٢٤٥)، (الاستقامة)، السيرة الحلبية (٢/ ١٤٥)، ابن خلدون (٧٧٧).

3 البداية والنهاية (٤/ ٣)، الطبري (٢/ ١٧٢)، (الاستقامة)، البدء والتأريخ (٤/ ١٩٥)، البلدان (٧/ ١٩٩)، ولفنسون (١٢٨ وما بعدها)، السيرة الحلبية (٢/ ٢ وما بعدها)، ابن خلدون (٢/ ٦٠٨).

4 O'beary, p. 173, f.

الأسماء، صلة بالوثنية تشعر أنها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود[1]. والظاهر أنها تهودت إما بتأثير التبشير، وإما باختلاطها ودخولها في عشائر يهودية جاورتها فتأثرت بديانتها. وقد ذكر البكري أن (بنى حشنة بن عكارمة)، وهم من بليّ قتلوا نفراً من بني الربعة، ثم لحقوا بتيماء «فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم، فتهودوا، فأدخلوهم المدينة. فكانوا معهم زماناً، ثم خرج نفر إلى المدينة، فاظهر الله الإسلام، وبقية من أولادهم بها»[2]. وهنالك بطون أخرى عربية الأصل كانت على دين يهود[3].

وقد اشتهر يهود خيبر من بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم. وخيبر موضع غزير المياه كثيره، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل. وعند إجلاء اليهود عن خيبر، تفرقوا فذهب بعض منهم إلى العراق، وبعض آخر إلى الشأم، وبعض منهم إلى مصر. وقد بقوا في كل هذه المواضع متعصبين لوطنهم القديم خيبر، ينادون بشعارهم الذي كانوا ينادون به قبل الإسلام، وهو: (يا آل خيبر)[4].

وقد اشتهرت (خيبر) وعرفت بالحمى. حتى نسبت إليها، فقيل لها (حمى خيبرية). وكان من أساطيرهم إذ ذاك، أن من أراد دخولها فعليه بالتعشير ليتخلص منها. وكان من أوابدهم فيما يزعمون أن الرجل إذا ورد أرض وباء ووضع يده خلف أذنه، فنهق عشر نهقات نهيق الحمار، ثم دخلها أمن من الوباء[5].

وزعم أن يهود خيبر هم من نسل (ركاب) المذكور في التوراة،[6] وأن (يونادب) Jonadab (جندب) ابنه: تبدى مع أبنائه ومن اتبعه، وعاش

---

1 Margoliouth, p. 60, Nöldeke, Beträge, S. 52, Wüstenfeld, Geschichte von Medina, S. 28.

2 البكري (١/ ٢٩) «طبعة السقا»، .Islamic Culture, III, Vol., 2, p. 177

3 Nöldeke, Beträge, S. 55.

4 المشرق: السنة السادسة والثلاثون، ١٩٣٨ (ص ١٥٢ وما بعدها).

5 قال عروة بن الورد:

وإني وإنْ عشرت من خشية الردى نهـاق حمـار إنني لجزوع

تاج العروس (٣/ ٤٠٣)، (عشر).

6 الملوك الثاني: الإصحاح العاشر، الآية ١٥ ــ ٢٨، .Hastings, p. 784

عيشة تقشف وزهد وخشونة، وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول إلى الحجاز حتى بلغوا خيبر، فاستقروا بها، واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب، وأنهم أقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم. ذكر بعض الأخباريين أنها ولاية من سبعة حصون، منها: حصن ناعم، والقموص حصن ابن أبي الحقيق وهو أقواها وأعزها وقد أقيم على مرتفع من الأرض حماه وعزز دفاعه، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن وجده، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة (الكثيبة). وقد أخرجوا منها وأجلوا عنها زمان عمر بن الخطاب[١].

وقد زعم بعض الأخباريين أن خيبر لفظة عبرانية، وأن معناها الحصن في عربيتنا[٢]. وزعم بعض آخر أنها نسبة إلى رجل اسمه (خيبر بن فاتيه بن مهلاييل)، سميت خيبر باسمه، لأنه كان أول من نزلها[٣]. وذهب (وايل) Weil، إلى ان اللفظة لفظة عبرانية، وهي بمعنى مجموعة مستوطنات[٤]. أما (دوزي)، فقد أخذ بالرواية العربية، فزعم أن (خيبر)، كناية عن جماعة من اليهود هاجرت في أيام السبي من فلسطين الى هذا الموضع، وهي من نسل (شفطيا بن مهللئيل) من (بني فارص)[٥]. وأن (فاتيه)، هو تحريف (شفطيا) Shaftja المذكور في سفر (نحميا) من أسفار التوراة، وهو ابن (مهللئيل)، الذي هو (مهلاييل) عند أهل الأخبار. وزعم أن زمان هجرة هذه الجماعة يتناسب تماماً مع الرواية القائلة إن هجرة اليهود إلى جزيرة العرب كانت، في أيام (بخت نصر)[٦].

وذهب المستشرقون أن كلمة (خيبر)، كلمة عبرانية الأصل (خيبر) Kheber

---

[1] البلدان (٣/ ٤٩٥ وما بعدها)، البكري، معجم (١/ ٥٢١)، تاج العروس (٣/ ١٦٨)، (خبر)، زاد المعاد (٢/ ١٣٣)، تأريخ الإسلام (١/ ٢٩٤ وما بعدها)، Graetz, III, p. 56, Ency., II, p. 869, Caetani, Annali, II, I, 8-33.

[2] أبو الفداء، (ص ٨٩)، البلدان (٣/ ٤٩٥)، البكري، معجم (٢/ ٥٢١ وما بعدها)، تاج العروس (٣/ ١٦٨)، (خبر).

[3] R. Dozy, Mekka, S. 136.

[4] Mohammed der Prophet, s. 185.

[5] نحميا، الإصحاح الحادي عشر، الآية ٤ وما بعدها.

[6] R. Dozy, Mekka, S. 136, f.

ومعناها الطائفة والجماعة[١]. وذهب بعضهم إلى أن معناها الحصن والمعسكر[٢]. وهي من أقدم المواضع التي لجأ إليها اليهود في الحجاز.

ومن الصعب تعيين الزمن الذي هاجر فيه اليهود إلى هذا الموضع. لقد رجع بعضهم ذلك إلى أيام هجوم الرومان على فلسطين. غير أن من الجائز أن تكون هجرتهم إليها قد وقعت قبل ذلك، ومن الجائز أن تكون في أثناء السبي واستيلاء البابليين على القدس، وقد يجوز أن يكون قوم منهم قد جاءوا مع (نبونيد) ملك بابل إلى تيماء حين اتخذ (تيماء) عاصمة له. فهاجر قسم منهم إلى خيبر والى نواح أخرى من الحجاز[٣].

وأقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر، نص: حرّان اللجاة، ويرجع تأريخه إلى سنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطية الأولى، وتقابل سنة ٥٦٨ للميلاد. وقد ورد فيه: «بعد مفسد خيبر بعم»[٤]. أي بعد خرب خيبر بعام. وهو يشير إلى غزو لهذا الموضع أنزل به خسائر كبيرة، ولأهميته وفداحته في نفوس أهله أرخوا بوقوعه. ويعود النص المذكور المدون باليونانية والعربية إلى (شرحيل بن ظلمو) (شراحيل بن ظالم)، وقد دوّنه لمناسبة بنائه (مرطولاً)، فأرخ بتاريخ خيبر المذكور. وهو يشير إلى غزوة قام بها أحد أمراء غسان على خيبر[٥].

وقد وجدت كتابات بحروف المسند وكتابات نبطية في خيبر، هي أقدم عهداً من نص (حرّان اللجاة)، يفهم منها بوجود سكن في هذه الأرضين يعود بعضه إلى ما قبل الميلاد. ولم تكتشف تربة خيبر حتى الآن، وكل ما عثر عليه من عاديات فيها هو من النوع الذي وجد ظاهراً على سطح الأرض، وليس بمستبعد أن يعثر فيها على كتابات قد تكشف عن تأريخ هذه البقعة.

ولما بلغ أهل تيماء ما حدث لإخوانهم في خيبر ووادي القرى، وفدك، قبلوا

---

1 Charles Cutler Torrey, The Jewish Foundations of Islam, New York, 1933, p. 13.
2 Ency., II, p. 870.
3 Torrey, p. 17, A. Müller, Der Islam, Bd., I, S. 36. ff.
4 جواد علي، العرب قبل الإسلام (١/ ١٩٥ وما بعدها).
5 المصدر المتقدم، المعارف (٣١٣)، ولفنسون، السامية (١٩٢).

الجزية، وصالحوا الرسول في سنة تسع للهجرة، فضمن بذلك لهم حرية بقائهم في دينهم. وعلى تيماء كان يشرف حصن السموأل (الأبلق الفرد). وقد نعتت تيماء في بعض الأشعار بتيماء اليهود[١].

وتيماء من المواضع القديمة. وقد مرّ الحديث عنها في أماكن من هذا الكتاب. وقد سبق أن قلت بأن الملك (نبو نيد) قد أقام زماناً فيها، حيث اتخذها عاصمة له. وهي في موقع حسن، وملتقى طرق هامة يسلكها التّجار. وقد استبد بها اليهود فأقاموا بها وجعلوها من أهم مستوطناتهم في الحجاز. استغلوا أرضها فزرعوها، واستنبطوا الماء من الآبار بالإضافة إلى واحتها ذات المياه العذبة الغزيرة التي كان لها الفضل في تكوين هذا الموضع وإعماره. وقد ذكرت في شعر (امرىء القيس)، وفيها كان حصن السموأل بن عادياء المذكور في قصص امرىء القيس الشاعر.

ويرى بعض المستشرقين أن (شمعون التيماني) Simeon of Temanite المذكور في التلمود والمدراش، هو من أهل (تيماء)[٢]. ولا يستبعد أن يكون من بين أهل هذه المدينة من حصل على شهرة في العلم بفقه اليهود وبأحوال دينهم. فإن مركزها وموقعها يجعل من السهل على سكانها الوصول إلى فلسطين وبقية بلاد الشأم وأخذ العلم من علماء تلك البلاد.

وقد عثرالرحالة (أويتنك) Euting على كتابة مدونة بقلم بني إرم تعود إلى عهد كان الفرس قد استولوا فيه على هذا المكان، تتحدث عن أهمية تيماء ورقيها في هذا العهد[٣]. ولا يستبعد العثور على كتابات عديدة إذا ما قام العلماء بالتنقيب عنها في باطن الأرض، فإن موضعاً مثل هذا الموضع لا بدّ أن يكون غنياً بالكتابات والآثار. وقد وجد (أويتنك) آثار معبد قديم، وآثار مواضع عتيقة أخرى ترجع إلى ما قبل الإسلام[٤]. ووجد (جوسن) Jaussen و(سافينه) Savignac آثار مقابر على تلال من النوع الذي يطلق عليه الآثاريون اسم

---

[1] البلدان (٢/ ٤٤٢) «تيماء»، فتوح البلدان (١/ ٢٩).

[2] Mishna Yadayim, I, 3, Yebamoth, 4, 13, Tosephta Berachoth, 4, 24, Sanhedr, 12, 3, Besa, 2, 19, Bab. Talmud, Zebachim, 32b, Baba gamma, 90b., Besa, 21a, Tarrey, p. 26, Margoliouth, p. 68.

[3] Ency., IV, p. 622.

[4] Euting, Tagebuch einer Reise in Innerarabien, II, 146, 199.

(تمولي) Tumuli، ومرقاة مدرجة تؤدي إلى بناء مربع لعله معبد من معابد القوم بني على هذا التل[١].

ولا توجد اليوم بقية للأبلق الفرد، الذي افتخر السموأل وآل السموأل به، وكذلك يهود تيماء. وليس بمستبعد أن يكون ذلك الحصن من بقايا قصر (نبونيد) أو من بقايا قصر رجاله، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان. وقد يكون بناء أقامه السموأل وبناه بحجر تلك الأبنية القديمة. وقد أكسب قصر السموأل، هذا الموضع شهرة، وأكسبه خبر وفاء السموأل شهرة كذلك على النحو المذكور في كتب الأدب والأخبار[٢].

وفدك موضع آخر من المواضع الذي غلب عليه اليهود. وسكانه مثل أغلب يهود الحجاز مزارعون عاشوا على الزراعة كما اشتغلوا بالتجارة وببعض الحرف التي تخصص فيها اليهود مثل الصياغة والحدادة والنجارة[٣]. والموضع من المواضع القديمة التي يعود عهدها إلى ما قبل الإسلام، وقد ذكره الملك (نبونيذ) في جملة المواضع التي زارها والتي خضعت لحكمه في الحجاز. وكان رئيس فدك عند ظهور الإسلام وهجرة الرسول إلى يثرب يوشع بن نون[٤].

ووادي القرى، هو من المواضع التي غصت باليهود، فكان أكثر أهله منهم. وقد كان يهوده من المزارعين[٥]، وقد حفروا به الآبار، وتحالفوا مع الأعراب، وعاشوا معهم متحالفين. يعملون بالزرع. وقد غزاهم الرسول مرجعه من خيبر سنة سبع للهجرة، على أثر إصابة (مدعم الأسود) مولى الرسول بسهم غارب قتله. وهو مولى مولد من (حسمى)، كان أهداه (رفاعة بن زيد الجذامي) أو (فروة بن عمرو الجذامي) إلى الرسول[٦].

---

1 Jaussen and Savignac, Mission Arhéologiques, II, pp. 133, 163.

2 أبو الفداء تقويم البلدان (٨٦)، البكري، معجم (١/ ٣٢٩)، البلدان (٢/ ٦٧)، اللسان (١٢/ ٧٦) «صادر»، ابن حوقل، صورة الأرض (٣٠)، ابن خلدون (٢/ ٥٧٤)، دائرة المعارف الإسلامية «الترجمة العربية» (٦/ ١٣٠).

3 البكري، معجم (١/ ٣٢٧)، تقويم البلدان (٧٨).

4 الطبري (٣/ ٩٨)، «حوادث السنة السابعة» ابن الأثير (٢/ ٩٣)، «ذكر فدك»، البلاذري، فتوح (٣٦ وما بعدها)، Nallino, Raccolat, I, 198, III, 97.

5 زاد المعاد (٢/ ١٤٦).

6 الطبري (٣/ ١٦)، (ذكر غزوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وادي القرى)، الإصابة (٣/ ٣٧٤)، (رقم ٧٨٥٨).

وكان بين أهل مقنا وأيلة في أيام الرسول قوم من اليهود كذلك، وكذلك أهل بقية القرى الواقعة في أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر، وقد صالحوا الرسول على الجزية، وبذلك ضمنوا لهم البقاء في هذه الأنحاء[1]. ومن هؤلاء اليهود (بنو جنبة)، وهم يهود بـ (مقنا)[2]، و(بنو غاديا)[3]، و(بنو عريض)[4].

وكان بالطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب، فجاءوا إليها ولم تكن قد أسلمت بعد، فأقاموا بها للتجارة. فلما صالح أهل الطائف الرسول ــ على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم، واشترط عليهم ألا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب ربا ــ وضعت الجزية على يهودها، وبقوا فيها، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف[5].

ويظهر أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في جنوب المدينة حتى اليمن، لعدم إشارة أهل الأخبار إليهم، وإن كنت لا أستبعد وجود أفراد وأسر منهم في مكة وفي عدن وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانىء البحر الأحمر وموانىء سواحل العربية الجنوبية. غير أن وجودهم في هذه المواضع، لم يكن له أثر واضح مهم، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار.

وقد ذهب بعض المستشرقين، استناداً إلى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الإسلام، إلى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً، بل كانوا عرباً متهودين، تهودوا بتأثير الدعاة اليهود[6]. ولكن الاستدلال من دراسة الأسماء على أصول الناس، لا يمكن أن يكون حجة للحكم على أصولهم وأجناسهم. فالفرس والروم والهنود وغيرهم ممن دخل في الإسلام، تسمّوا بأسماء عربية، وبعضها أسماء عربية خالصة. وتسمياتهم هذه لا تعني أن من تسمى بها كان عربي الأصل. ثم إن كثيراً من اليهود في الغرب وفي أمريكة وفي البلاد العربية والإسلامية، سموا أنفسهم بأسماء غير عبرانية، ولكنهم كانوا وما زالوا على دين يهود.

---

[1] البلدان (٨/ ١٢٨)، «مقنا»، البلاذري، فتوح (٦٦)، زاد المعاد (٢/ ١١٧)، الطبري (٢/ ٢٣٢ وما بعدها).
[2] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٧٦).
[3] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٧٩).
[4] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٧٩).
[5] البلاذي، فتوح (٦٣).
[6] W. Caskel, Das attararabische köningereich Lihyan, S. 19.

فالأسماء وحدها لا تكفي في إعطاء رأي علمي في تعيين الأصول والأجناس، ولا سيما في المواضع الكائنة على طرق التجارة والمواصلات وفي الأماكن التي يكثر فيها الاختلاط.

وللمستشرق (ونكلر) رأي في هذا الموضوع، خلاصته: إن أولئك اليهود لو كانوا يهوداً حقاً هاجروا من فلسطين إلى هذه المواضع، لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كان عليه هؤلاء اليهود. كانت حالتهم أرقى وأرفع من الحالة التي كانوا عليها، إذ لا يعقل، على رأيه، وصول جماعة إلى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمدني أرقى من مستوى من هو دونهم كثيراً في شؤون الحياة. ومستوى الحياة في جميع نواحيها، في فلسطين، أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب، فهم على رأيه عرب متهودون، لا يهود مهاجرون[1].

غير أن هنالك من يؤاخذ ونكلر على هذا الرأي، لأن رأيه لا يمكن أن ينطبق على من ترك دياره وهاجر، واستقر في موطن جديد لأمد طويل، لأن الأوضاع المحيطة بالوطن الجديد سرعان ما تؤثر في المهاجرين، ولا سيما إذا كانوا جماعات صغيرة أو جماعات ليست ذات بأس شديد، فتجعلها تتصاع للمحيط الذي نزلت به بعض الإنصياع، فتفقد بعض خصائصها، لتكتسب خصائص المجتمع الجديد. ثم إن اليهود الذين نزلوا في الحجاز كانوا يختلفون مع ذلك عمن كان في جوارهم أو بينهم، إذ كانوا يشتغلون بالزراعة ويمتهنون بعض المهن التي يأنفها العربي الأصيل، كما أنهم كانوا لا يرغبون في القتال، ولا يميلون إلى الغزو والحروب، ولم يشتركوا إلاّ اضطراراً وإلا بإلحاح المصالح الضرورية فيها، وهم يختلفون في هذه الناحية من الأعراب[2].

ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى. فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص، هي أسماء عربية، والشعر المنسوب إلى شعراء منهم، يحمل الطابع العربي، والفكر العربي. وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية

---

[1] Wnkler, Mett. Var. Asal. Ges., VI, S. 222.
[2] Margoliouth, p. 62.

لم يكونوا يختلفون اختلافاً كبيراً عن العرب، فهم في أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين[1]. ولعل هذا بسبب تأثير العرب المتهودة عليهم، وكثرتهم بالنسبة إلى من كان من أصل يهودي، مما سبب تأثيرهم، وهم ذوو أكثرية، في اليهود الأصيلين الذين أثروا فيهم فأدخلوهم في دينهم، فأثروا هم فيهم، وطبعوهم بطابع عربي.

وقد عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها، فلبسوا لباسهم، وتصاهروا معهم، فتزوح اليهود عربيات، وتزوّج العرب يهوديات، ولعلّ كون بعض يهود من أصل عربي، هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس. والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود عند ظهور الإسلام هو الاختلاف في الدين. وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد[2].

ومن الأسماء التي قد تكون من أصل عبراني (زعورا)، وهو اسم عبراني متأثر بلهجة بني إرم، و(يساف)، وقد يكون من (يوسف)، و(نبتل) وقد يكون من (نفتالي) Naftali، وأسماء أخرى لم تتمكن من المحافظة على أصلها العبراني، فتأثرت بخواص اللسان العربي. وليس بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر، التي كانت في الحجاز في أيام ظهور الإسلام، اسم تظهر عليه الملامح العبرانية غير الاسم الذي ذكرته وهو (زعوراء)[3].

وكانت يثرب عند هجرة الرسول إليها، في أيدي أصحابها الأوس والخزرج، لهم السيطرة والسلطان، ولليهود آطامهم وقلاعهم في خيبر وفي تيماء وفي بعض قرى وادي القرى وفي أعالي الحجاز، يتاجرون، ويزرعون، ويقرضون الأموال بالربا الفاحش للأعراب، ويحترفون بعض الحرف مثل الصياغة، وهي حرفة اشتهروا بها منذ القديم، ويعقدون الأسواق ليقصدها الأعراب للامتيار.

ولكن اليهود مع ما كان لهم من قلاع وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرضين التي أنشأوا مستوطناتهم

---

[1] Nöldeke, Beträge, S. 55, f.
[2] Graetz, III, p. 58, f., 60.
[3] Margoliouth, p. 60, Nallino, Raccolta, III, p. 104, H. Hirschfeld, Essai sur l’histoire des Juives de Medine, in Revue Etudes Juives, VII, 1889, p : 173 f.

فيها، ولم يتمكنوا من انشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل، يؤدون لهم إتاوة في كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدي عليهم. وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم، فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين.

وقد كان اليهود يخضعون في نظامهم السياسى والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة. وهؤلاء السادة هم أصحاب الآطام والحصون والأرض. ولمن يشتغل في الأرض تسديد ما عليه لصاحبها في مقابل استغلاله لها. وقد اعتنوا عناية خاصة بزراعة النخيل. وعرفت القطعة من الأرض المزروعة نخلاً عندهم بـ (الصورين) (الصور)[1]. ولما كانت الأرضون المزروعة واسعة، كانت خارج الآطام والحصون، يحميها حراسها والمشتغلون بها أيام ثمرتها. وأما في أيام الغزو والحروب، فقد كانت معرضة لهجوم المهاجمين. وهذا ما كان يعرض أعظم غلة اليهود للخطر، ولهذا شق عليهم كثيراً، وانهارت مقاومتهم حين أمر الرسول بقطع النخل وتحريقه، وأخذوا يلتمسون منه وقف ذلك.

ويتولى الأحبار الأمور الدينية وتنفيذ الأحكام والنظر فيما يحدث بين الناس من خصومات. يقيمون لهم الصلوات وبقية شعائر دينهم، ويعلمونهم في بيوت المدارس.

وقد أدى التنافس بين سادات يهود إلى نشوب معارك بينهم في الجاهلية. وقد أشار إليها القرآن الكريم وأنّبهم على ذلك. واضطرت بنو قينقاع بسبب ذلك وبضغط بني النضير وبني قريظة الى الالتجاء إلى أحياء يثرب والى محالفة الخزرج، وفي مقابل ذلك تحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس، فصاروا فرقتين: فرقة مع الخزرج، وفرقة مع الأوس.

وفي تأنيب يهود، لتخاصمهم وتنابذهم وإخراجهم بعضهم بعضاً من ديارهم وأسْر بعضهم بعضاً وافتداء الأسرى كالذي وقع بين بني قينقاع وبني النضير، نزل الوحي: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم، لا تسفكون دماءكم، ولا تخرجون أنفسكم

---

[1] الروض الأنف (٢/ ١٩٤)، ابن هشام (٢/ ١٩٥)، (حاشية على الروض)، (الصور: أصل النخل)، (الصور: النخلة)، تاج العروس (٣/ ٣٤٣)، (صور).

من دياركم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون، ثم أنتم هؤلاء تقتلون انفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان. وإن يأتوكم أسرى، تفتدوهم وهو محرم عليكم إخراجهم، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب، وما الله بغافلٍ عما تعملون﴾[١]. أنبهم لأنهم فعلوا فعل المشركين والأعراب، مع أنهم أهل دين واحد وكتاب. أما المشركون فلا لوم عليهم، لأنهم لم يكونوا على دين، وليس لهم كتاب يأمرهم وينهاهم.

وفي المعارك والخصومات التي تقع بين يهود، كانوا يؤدون الدية. وهي على ما يظهر من روايات أهل الأخبار مختلفة، وغير متكافئة. فكان بنو النضير يؤدون الدية كاملة لشرفهم في يهود، أما بنو قريظة، فكانوا يؤدون نصف الدية. وفي خلاف في أداء الدية وقع بينهم، التجأوا إلى الرسول للحكم بين، فذكروا له هذا الاختلاف، فحكم بالدية متساوية. وفي هذا الحكم نزلت الآية: ﴿سماعون للكذب، أكّالون للسحت، فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾[٢]. ذكر علماء التفسير عن (ابن عباس) أنه قال: «كانت قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ودى مائة وسق من تمر، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، تبل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا: ادفعوه الينا لنقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبي، صلى الله عليه وسلم، فنزلت: وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط. النفس بالنفس، ونزلت أفحكم الجاهلية يبغون»[٣].

وذكر علماء التفسير في تفسيرهم للآيات المتقدمة، أن أحبار اليهود لم يكونوا يحكمون بالحق فيما بين الناس، كانوا يحابون ويتحزبون ويحكمون بالباطل ويأكلون (السحت) أي الرشا، جزاء حكمهم بالباطل. وكانوا يتساهلون في تطبيق أحكام

---

[1] البقرة، الآية ٨٤ وما بعدها، روح المعاني (١/ ٣٠٩)، ابن هشام (٢/ ٢٣)، (حاشية على الروض).
[2] المائدة، الآية ٤٢.
[3] تفسير القرطبي، الجامع (٦/ ١٨٧)، تفسير الطبري (٦/ ١٥٧).

الشريعة مع الشريف لشرفه، ويتشددون مع الدنيء لدناءته وفقر حاله. ولا يراعون التساوي في أخذ الديّات. «كان الشريف إذا زنى بالدنيئة رجموها هي وحموا وجه الشريف وحملوه على البعير، أو جعلوا وجهه من قبل ذنب البعير. وإذا زنى الدنيء بالشريفة: رجموه». وكان هذا شأنهم «إلى أن زنى شاب منهم ذو شرف، فقال بعضهم لبعض لا يدعكم قومه ترجمونه، ولكن اجلدوه ومثّلوا به، فجلدوه وحملوه على حمار أكاف وجعلوا وجهه مستقبل ذنب الحمار. إلى أن زنى آخر وضيع ليس له شرف، فقالوا ارجموه. ثم قالوا فكيف لم ترجموا الذي قبله، ولكن مثل ما صنعتم به فاصنعوا بهذا»، واختلفوا فذهب فريق منهم إلى الرسول، فحكم بينهم بما جاء بحكم التوراة[1].

وذكر أن (حيي بن أخطب) كان قد حكم أن للنضري ديتان وللقرظي دية، لأنه كان من النضير[2].

وذكر أهل الأخبار أنه كان لليهود حكام يحكمون بينهم، ويقيمون حدودهم عليهم. فلما جاء الرسول إلى يثرب، صار اليهود يعترضون على عدالة حكم بعضهم، ولا يرضون بتنفيذ أحكامهم عليهم. فكان الحكام أو هم يذهبون إلى الرسول لكي يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون وفق شريعتهم[3].

وكان جلّ اعتماد اليهود في هذه المنطقة عند ظهور الإسلام على التجارة، ومعاطاة الربا والزرع، وبعض أنواع الصناعة: كالصياغة، وتربية الماشية والدجاج، وصيد الأسماك في أعالي الحجاز على ساحل البحر الأحمر. واشتهروا بالاتجار بالبلح وبالبر والشعير والخمر، وكانوا يجلبون الخمر من بلاد الشأم. وكانوا يبيعون بالرهن، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه. وقد ورد أن الرسول رهن درعاً له عند يهودي من أهل يثرب في مقابل شعير كان به حاجة شديدة إليه[4].

ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود، النسيج وهو من اختصاص نسائهم على

---

[1] تفسير الطبري (٦/ ١٥٧).
[2] تفسير الطبري (٦/ ١٥٧).
[3] تفسير القرطبي، الجامع (٦/ ١٨٧).
[4] Islamic Culture, 1929, III, No., 2, p. 187.

الأكثر، والصياغة وقد اختص بها بنو قينقاع، والحدادة، وهي صناعة يأنف منها العرب ويزدرونها ويرونها من الحرف الممقوتة الحقيرة.

ولم يكن من مصلحة اليهود، وهم أهل زرع وضرع ومال وتجارة وأرض ثابتة وقصور وآطام، أن يشتركوا في الحروب أو يشجعوا وقوعها في ديارهم وفي جوارهم، بل كان من مصلحتهم أن يعمّ الاستقرار البلاد التي يقيمون فيها، ليعيشوا عيشة هنيئة، وليبيعوا ما عندهم من الأعراب وليشتروا منهم ما عندهم من سلع وليقبضوا أموالهم منهم والأرباح التي استحقت على تلك الأموال.

وفي النزاع الذي يقع بين القبائل، لم يكن من مصلحتهم تأييد حزب على حزب، خوفاً من الوقوع في أخطاء تجر عليهم أخطاراً ومهالك هم في غنى عنها وفي مأمن من شرّها. ثم إنهم بتحزبهم لطرف يغضبون الطرف الآخر، فيضمر عندئذ شراً لهم، فيخسرون بذلك مشترياً وبائعاً. وهم أناس أصحاب سوق وتجارة. غير أن الظروف كانت تكرههم في بعض الأحيان على الاشتراك في الحرب، وعلى إثارة الحرب أيضاً متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ومصلحة ترتجى كأن ينهكوا العدوّ بحرب مع عدو آخر بإيقاع الفتنة وإشعال النيران، كما أوقعوا بين الأوس والخزرج، لإضعاف الطرفين معاً، حتى لا تبقى لهم قوة تهددهم وتكون خطراً عليهم.

وفي يوم بعاث استعان الأوس ببني قريظة والنضير، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا إليهم يحذرونهم من سوء عاقبة الإشتراك في هذا النزاع، فتوقفوا، غير أنهم عادوا فعاونوا الأوس، وانضم إليهم بنو النبيت. فلما كسب الأوس الحرب، كسب بنو قريظة والنضير والنبيت غنائم من الخزرج، وخرجوا في هذا اليوم منتصرين بانتصار الأوس[١].

ويذكر أهل السير والأخبار: إن يهود يثرب كانوا اذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبي يستعلون به عليهم. ففي رواية عن بعض الصحابة أنهم قالوا: «كنا قد علوناهم في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون لنا: إن نبياً يبعث الآن نتبعه، قد أطل زمانه،

---

[1] ابن هشام (٣/ ٩٤)، اليهود (ص ٦٢ وما بعدها).

نقتلكم معه قتل عاد وإرم»[1]. ولما ذكّرهم معاذ بن جبل وبشر بن البرّاء بن معرور ونفر آخرون بدعواهم تلك، وبظهور النبى العربي بقولهم، لهم: «يا معشر يهود، اتقوا الله، واسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا انه مبعوث وتصفونه لنا بصفته»، فكان جواب يهود لهم ما جاء على لسان سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم. وقد أشير إلى ذلك في القرآن الكريم: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا. فلما جاءهم ما عرفوا، كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾[2].

واستفتاح اليهود على المشركين، هو للتفريج عن أنفسهم ولتخويف الأوس والخزرج ولاعتقادهم حقاً بظهور مسيح منهم، أي من بني اسرائيل. ولهذا أنكروا نبوة الرسول، وأبوا التسليم بها، لأنه لم يكن منهم، ولأن النبوة لا تكون ــ على رأيهم ــ إلاّ في بني اسرائيل. فكيف يصدقون بنبي عربي من الأميين (نبي اموت هاعولام) Nebi’e Ummot ha-‘Olam.

يهود اليمن:

والموضع الثاني الذي عششت فيه اليهودية وباضت، هو اليمن. ففي هذه الأرض من جزيرة العرب ظهر اليهود فيها ظهوراً واضحاً، وصارت اليهودية ديانة البلاد الرسمية. أما كيفية مجيئها وانتشارها هناك، ومتى كان ذلك، فليس لدينا علم واضح دقيق عن ذلك. ويزعم أهل الأخبار أن تبعاً، وهو التبع (تبّان أسعد أبو كرب)، اهتدى إلى هذه الديانة عند اجتيازه بيثرب وهو عائد إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي ايران، وذلك بتأثير بعض الأحبار عليه، ومنذ ذلك الحين صارت هذه الديانة ديانة رسمية للبلاد[3].

وتجعل بعض روايات الأخباربين اسم هذا التبع (تبع بن حسان) أو (حسان)،

---

[1] ابن هشام (٢/ ١٦٦)، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد)، تفسير الطبري (١/ ٣٢٤).
[2] البقرة، الآية ٨٩، تفسير الطبري (١/ ٣٢٤)، روح المعاني (١/ ٢٨٩).
[3] الطبري (٢/ ١٠٥ وما بعدها)، «طبعة دار المعارف بمصر».

وهو (تبع الأصغر)، أو (أبو كرب بن حسان بن أسعد الحميري) أو غير ذلك. وتزعم أن حبرين من أحبار اليهود من بني قريظة عالمين راسخين في العلم، هما اللذان هديا التبع إلى اليهودية، وأبعداه عن عبادة الأوثان[١].

وقد يكون لهذه الروايات شيء من الصحة، غير أني أرى أن دخول اليهوديه إلى اليمن مردّه أيضاً إلى اتصال اليمن من عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشأم. وفي قصة سليمان وملكة سبأ إشارة إلى تلك الصلات، والى هجرة جماعات من اليهود إلى هذا القطر عن طريق الحجاز، بعوامل متعددة، منها: التجارة والهجرة إلى الخارج، وهروبهم من اضطهاد الرومان لهم، وعوامل أخرى جعلتهم يتجهون من الحجاز إلى اليمن، فأقاموا هناك.

وأما يهود اليمن المحدثون فإن أحبارهم ورجال العلم والفهم منهم يرجعون وجودهم في اليمن إلى أيام السبي، أي إلى أيام (بخت نصر)، وهم يزعمون أنهم بقوا في اليمن منذ ذلك الحين ولم يعودوا إلى فلسطين[٢]. وقد غادروا اليمن بعد التقسيم.

وقد أشار حبر يسمى (ربي عاقبة) (رباي عقيبة) Rabbi ‘Aqiba، في حوالى سنة (١٣٠م)، إلى زيارته لملك عربي كوشي (مليخ عرابيم) كانت زوجته كوشية كذلك، وإلى تحدثه معه. ويراد بـ (كوش) الأحباش غير أن بعضهم كان يقصد بها العربية الجنوبية، كذلك. ولا يستبعد أن يكون مراد الحبر بذلك اليمن، أو منطقة أخرى من العربية الجنوبية كان الحبش قد استولوا عليها[٣]. وربما قصد منطقة إفريقية ساحلية كان يحكمها ملك عربي في ذلك الوقت.

وتدل رحلة (ربي عقيبة) R. ‘Aqiba هذه إلى اليمن على وجود يهود فيها، إذ لا يعقل سفره هذا إلى تلك البقعة النائية وتجشمه مشقته، لو لم تكن هناك

---

[1] الأغاني (١/ ١٠٩ وما بعدها)، (١٣/ ١٢٠ وما بعدها)،
Gaussin de Perceval, Essai, I, 91, Nallino, Raccolta, III, p. 88.

[2] Travels and adventure of the Rev. Poseph Walf, London, 1861, p. 509, R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka von David Zeit bis in’s fünfte Jakrhundert unsrer Zeitrechung, 1864, S. 135.

[3] Islamic Culture, III, 2, p. 190 (1929), Josephus, Antiquitate, XV, 3, 29, Die Araber, III, S., 22, Talmud Babli., in Rosh Hashnah, 26a, Kraus, in ZDMG., S. 331, 1916.

جالية يهودية فيها. وقد يجوز أن تكون سفرته إلى اليمن مجرد سفرة استطراق وعبور، لغاية الذهاب من اليمن إلى الحبشة، ولكني لا أستبعد مع ذلك وجود اليهود في اليمن في هذا العهد، إذ كان (أوليوس غالوس) قد جاء بجمع منهم معه في حملته على اليمن، فيجوز أن يكون بعضهم قد فضّل البقاء في اليمن والسكن فيها لطيبها ولخصب أرضها وتعبهم من السفر، ففضلوا لذلك البقاء على الرجوع وتحمل المشقات والجوع والعطش والهلاك. وقد هلك بالفعل القسم الأكبر من رجال الحملة بسبب صعوبة الطريق والحر الشديد والجوع والعطش[١].

وقد عثر على كتابة من كتابات القبور في (بيت شعاريم) Beth She'arim في جنوب شرقي حيفا، ورد فيها: (منحم قولن حميرن) Mnhm Kwin hmyrn أي (مناحيم قيل حمير). والموضع الذي وجدت هذه الكتابة فيه، هو مقبرة من مقابر كبار الأحبار، وقد وجدت معها كتابات أخرى، تشير إلى أسماء أحبار معروفين، قبروا فيها. لذلك فإن (مناحيم) (قيل حمير) هو يهودي، قد كان جاء إلى فلسطين للزيارة أو للاتصال بعلماء اليهود الذين كانوا قد تجمعوا في (بيت شيعاريم)، فمرض ومات هناك. ودفن في مقبرة هذا الموضع. ويرجع الباحثون تأريخ الكتابة المذكورة إلى حوالى سنة (٢٠٠م)[٢].

واستدل بعض المستشرقين بنص دوّنه (شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد) على سد مأرب، وردت فيه جملة (بعل سمن وأرضن)، أي (رب السماء والأرض) على تهوده بحجة أن هذه العبارة تشير إلى التوحيد الخالص، والتوحيد الخالص هو عقيدة يهود[٣].

وقد ذكر المؤرخ النصراني (فيلوستورجيوس) Philostorgius في حوالى سنة ٤٢٥م، أن أهل سبأ كانوا يتبعون في (السبت) سنة (إبراهيم)، ولكنه ذكر أيضاً أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر ومعبودات أخرى، وأن بعضاً منهم كان على دين يهود، وأنه قاوم رسالة (ثيوفيلس) Theophilus الذي أرسله القيصر

---

1 Ullendorff, in Journ. of Sem. Stud., Vol., I, Num. 3, July 1956, p. 221.
2 S. D. Goitein, Jews and Arabs, New York, 1955, p. 47, Die Araber, III, S., 16, ff., Corp. Inscript. Iudaic., 2, 1952, 207, Nr. 1137, Driver, in Hebrew and Semitic Studies, 1963, 151, f.
3 Islamic Culture, 1929, III, 2, p. 191, Margoliouth, Relations, p. 68.

قسطنطين (٣٤٠ ــ ٣٦١م) للتبشير بين الحميريين. وذكر المؤرخ (ثيودور لكتور) Theodorus Lecrtor، وهو من رجال النصف الأول للقرن السادس للميلاد، أن الحميريين كانوا في بادىء أمرهم على دين يهود، دخلوا فيه في أيام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع سليمان، بدعوتها إياهم إلى هذا الدين. ولكنهم كما يقول هذا المؤرخ عادوا فارتدوا إلى الوثنية، ثم دخلوا بعدئذ في النصرانية في ايام القيصر (أنسطاس) Anastasius (٤٩١ ــ ٥١٨م). ولم يشر هذا المؤرخ إلى وجود اليهودية بين الحميريين، كما أنه لم يشر ولا المؤرخ الآخر إلى تهود أحد من ملوك حمير[١].

ويفهم من الجمل: «وإن اليهود الكائنين في طبرية يرسلون سنة فسنة وقتاً فآخر كهنة منهم إلى هناك لإثارة السجس بين نصارى الحميريين. فلو كان الأساقفة نصارى وليسوا بشركاء لليهود، ويودّون أن تستقيم النصرانية، لرغبوا إلى الملك وعظمائه، ليلقوا القبض على رؤساء كهنة طبرية وبقية المدن، ويلقوهم في السجن. ولا نقول هذا لنجازي سيئة بسيئة، بل ليتوثقوا منهم بكفلاء حتى لا يعودوا يرسلون رسائل وأشخاصاً وجيهين إلى ملك الحميريين، فيصب صاعقة الأرزاء على شعب المسيح في حمير...»، وهي جمل اقتبسها من رسالة (شمعون) عن تعذيب نصارى نجران، إن يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين، بل كانوا على اتصال بهم، وإن أحبار طبرية كانوا يرسلون رجالاً منهم إلى اليمن ومعهم أموال ووجوه إلى يهودها وملكها وكبارها للتأثير فيهم ولتوثيق صلاتهم وروابطهم بهم، وقد نسب شمعون إلى أحبار طبربة، أنهم كانوا يحرضون ملك حمير ويهود حمير على الضغط على نصارى اليمن وعلى اضطهادهم انتقاماً منهم، فطالب الحكومة والنصارى على الضغط على يهود فلسطين وعلى أحبار طبرية بصورة خاصة، ليكتبوا إلى يهود حمير بالكف عن التحرش بنصارى اليمن، وعن تهديدهم بإنزال العقوبات بهم إنتقاما منهم إن لم يسدوا لهم النصح.

وورد في أخبار الشهداء الحميربين: إن أحبارا من فلسطين من (طبريا) Tiberias، كانوا قد جاؤوا إخوانهم في الدين يهود اليمن وسكنوا معهم[٢]. ومعنى

---

[1] Margoliouth, p. 62, f., Migne, Patrologia Graeca, XXXV, p. 211, Islamic Culture, 1929, 2, p. 190, Philostorgius, Hist. Eccl., III, 5.

[2] Margoliouth, p. 68.

هذا أن الصلات بين يهود اليمن ويهود فلسطين كانت موجودة، وأن يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين، ويجب أن يقال مثل ذلك عن يهود الحجاز، اذ لا بد وأنْ يكون ليهود الحجاز اتصال بيهود فلسطين وبيهود اليمن. وكيف لا يكون لهم اتصال بهم، وهم جيران فلسطين ولهم تجارات معهم، ثم إنهم على طريق اليمن وفلسطين، فإذا أراد يهود فلسطين الذهاب إلى اليمن، أو يهود اليمن الذهاب إلى فلسطين فلا بد من المرور بأرض يهود الحجاز والنزول بهم.

وقد عثر في اليمن على نص مكتوب بالمسند، وردت فيه كلمة (يسرائيل) و (رب يهود). ويدل هذا على أن صاحبه كان على دين يهود. عثر عليه المستشرق (كلاسر) ونشره المستشرق (ونكلر)، وهذا هو: «تبرك سم رحمنن ذ بسمين (سمن) ويسر ال والهمو رب يهود. ذ هرد عبدهمو وشحرم وامهوبم (?) وحشكهتو شمسم واولدهمو ذمم (?) وابشعر ومار وكل ابهه»[١].

وأما كتابته بلهجتنا، فعلى هذا المنوال: «تبارك اسم الرحمان الذي في السماء وإسرائيل وإلهه رب يهود الذي ساعد عبده شحراً وأمه بم (?) وزوجته شمساً وأولاده ذمم (?) وأبشعر ومئاراً وكل أهله بيته».

غير أن من الباحثين من يشك في صحة نقل هذا النص نقلاً صحيحاً تاماً، ولم يتأكد من صحة نقل كلمة (اسرائيل)[٢].

واليهودية وإن ضعفت في اليمن بدخول الحبشة فيها، بقيت مع ذلك محافظة على كيانها، فلم تنهزم، ولم تجتث من أصولها، وبقيت قائمة في هذه البلاد في الإسلام كذلك فلم يجل أهلها عنها كما أجلي أهل خيبر، وظلت بقيتهم هناك إلى سُنَيَّات قريبة حيث غادروها على أثر حوادث فلسطين.

وقد كانت (نجران) من المستوطنات المهمة التي نزل بها اليهود في اليمن[٣]. وهي مكان خصب، وقد عاش اليهود فيها مع غيرهم من العرب من نصارى وعبدة أصنام.

ووُجد اليهود في مواضع أخرى من جزيرة العرب. وجدوا في العربية الشرقية

---

[1] Glaser 394-395, Revue des Etudes Juives ; 1891, vol., 23, p. 122, Winckler, AOF, I, S. 337.
[2] Margoliouth, p. 68.
[3] معجم (١/ ٣٢٧).

وفي نجد وفي مواضع من العربية الجنوبية. ولما ارتد (بنو وليعة) والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي، وتحصن (الأشعث) في (النجير)، وهو حصن لهم، كانت فيه امرأة من يهود، عُرفت بشماتتها بوفاة الرسول، اسمها (هند بنت يامين) اليهودية[١]. مما يدل على وجود اليهود في هذا المكان. وكان بالبحربن قوم من اليهود، صالحوا المسلمين مثل النصارى على دفع الجزية عن رؤوسهم[٢]. وقد كتب (المنذر بن ساوى) العبدي، يخبر الرسول أن بأرضه يهود ومجوس، فكتب اليه الرسول: «من أقام على يهودية، أو مجوسية فعليه الجزية»[٣].

---

[1] البلاذري، فتوح (١١١)، «ردة وليعة والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي».
[2] البلاذري، فتوح (٨٩، ٩١)، (البحرين).
[3] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٦٣).

الفصل السابع والسبعون

اليهود والإسلام

ويتبين من القرآن الكريم، إن اتصال الرسول باليهود اتصالاً مباشراً إنما كان في يثرب. أما في مكة، فلم يكن لليهود فيها شأن يذكر، لذلك لا تجد في الآيات المكّية ما نجده في الآيات المدنية، ولا سيما المتأخر منها، من تقريع لليهود وتوبيخ لهم، لوقوفهم موقفاً معادياً من الإسلام، واتفاقهم مع المشركين في معارضة الرسول ومقاومته. وقد بدأ اليهود يعارضون الرسول والإسلام، حينما طلب إليهم الدخول في الإسلام والإيمان برسول الله، وحينما تبين لهم أن الأمر سيفلت من أيديهم، وأن الرسول ليس كبقية رجال قريش أو غير قريش سهل الانقياد مطواعاً لهم، وأن تعاليم الإسلام ستفسد العرب عليهم، ولا سيما بعد تحريم الربا. والربا مورد مهم كان يدر ربحاً عظيماً على يهود، لهذا وجدوا مصلحتهم في معارضته ومقاومته وفي الاتفاق مع المشركين عليه.

ويظهر أنه لم يكن لليهود نفوذ كبير ولا جاليات كبيرة في مكة. فلو كان لهم نفوذ فيها أو رأي مسموع، لسمعنا به كما سمعنا بخبرهم في يثرب، ولكان لهم حيّ خاص بهم، ومكانة بين رجال قريش، كالذي كان عليه يهود يثرب في اتصالهم بالأوس والخزرج. ولأشير إليهم في السور المكية، على نحو ما أشير إليهم في السور المدنية، ثم لما ضطر رجال قريش للذهاب الي يثرب مراراً، لاستشارتهم في أمر سلوكهم مع المسلمين، ولما جاء سادات يهود يثرب إلى مكة، لتحريض أهلها على مقاومة الرسول، ولعقد حلف معهم عليه.

وقد أمل المسلمون أن يساعد اليهود الإسلام على الوثنية وأن يقفوا منه موقف ود أو حياد، ذلك بأنهم أصحاب كتب مُنزلة ودين توحيد، والإسلام قريب منهم، وقد اعترف بالأديان السابقة له، ونزه الأنبياء والمرسلين، وهو دين توحيد كذلك. ثم إن الرسول تودد إليهم حين دخوله يثرب، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم، وزارهم وطمأنهم، ثم تعاهد معهم في صحائف كتبت لهم، فيها العهد بالوفاء لما اشترط لهم، ما داموا موفين بالوعد وبالعهد وقد طلب إلى جميع المسلمين الوفاء بما جاء فيها، ومنعوا من التجاوز والتطاول على من في يثرب من يهود[١]. وجعل لليهود نصيباً في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم النفقة معهم في الحروب.

ولم تكن علاقات اليهود مع المسلمين سيئة في الأيام الأولى من مجيء الرسول إلى يثرب. رأت جمهرة يهود أن الإسلام دين اعترف بالأنبياء، وأنه دين توحيد وأنه في جملة أحكامه قريب من أحكام ديانتهم وقواعدهم، وأنه يناهض الأوثان، وقد أشاد بفضل بني اسرائيل وبتفوقهم على غيرهم بظهور الأنبياء من بينهم، ثم إن قبلته إلى القدس، وقد تسامح معهم فأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب[٢]. وهو دين اعترف بأبوة إبراهيم للعرب، وجعل سنته سنة له. وقد تسامح معهم وحفظ ذممهم، فلم ترَ في انتشاره بين أهل يثرب ما يضيرهم شيئاً أو يلحق بهم أذى، ولذلك أظهرت استعدادها لعقد حلف سياسى معه ووقوفها موقف ود منه أو موقف حياد على الأقل، على ألا يطلب منها تغيير دينها وتبديله والدخول في الإسلام.

ولما دخل أهل يثرب في الإسلام أفواجاً، وتوجه المسلمون إلى اليهود يدعونهم إلى الدخول فيه والى مشاركتهم لهم في عقيدتهم باعتبار أنهم أهل دين يقول بالوحي ويؤمن بالتوراة، وبرسالة الرسل، فهم لذلك أولى بقبول هذه الدعوة من الوثنيين، أدركت جمهرتهم أن الإسلام إذا ما استمر على هذا المنوال في المدينة من التوسع والانتشار ومن توجيه دعوته إلى اليهود أيضاً، فسيقضي على عقيدتهم التي ورثوها وهي عقيدة لا تعترف بقيام نبىّ من غير بني اسرائيل، ولا بكتب غير التوراة

---

[1] ابن هشام (٣/ ٧٤، ١٩٧)، الروض الأنف (٢/ ١٦)، (كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين اليهود).

[2] المائدة، الآية ٤٨.

والكتب التي دونها علماؤهم، ثم هم يرون أن النبوة قد ختمت ولن يكون المسيح إلاّ منهم، فكيف يعتقدون بنبي عربي وهو من الأميين؟

وقد رفض اليهود الدخول في الإسلام، وأبوا تغيير دينهم، ودافعوا عن عقيدتهم وتمسكوا بها، ورفضوا التسليم بما جاء في رسالة الرسول من أن الرسول نبي أرسل للعالمين كافة وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن القرآن كتاب مصدق من الله، وأن أحكامه مؤيدة لما جاء في التوراة ناسخة لبعضها. وقد جادلوا في ذلك، وانبرى أحبارهم للدفاع عن عقيدتهم ولمجادلة من يأتي إليهم من المسليمن لاقناعهم في الدخول في الإسلام. وفي القرأن الكريم صور من جدلهم هذا ومن محاجّتهم الرسول في دعوته، كما نجد مثل ذلك في الحديث النبوي وفي كتب السير.

ويتبين من نتائج دراسة صور هذا الجدل والخصام الذي وقع بين اليهود والمسلمين، وهو خصام مهم خطير، أن الخصومة كانت في مرحلتها الأولى رفض لدعوة الرسول إياهم للدخول في الإسلام، وتمسكاً شديداً بعقيدتهم وبدينهم وبما ورد عندهم من أن النبوة قد بدأت وانتهت في بني إسرائيل، ثم تطورت واشتدت عنفاً وقوة لما تبين لهم أن الإسلام يرفض نظريتهم هذه، وأنه قد حرم أموراً ستؤثر في مستقبلهم، وقد ألف بين قلوب أهل يثرب وأوجد منهم كتلة واحدة، وأنه سيحدّ من سلطانهم لا محالة، وأن ملكهم سيزول، فوسعوا مقاومتهم، واتصلوا بمن وجدوا فيه حقداً وبغضاً للرسول، وبمن تأثر سلطانه بدخول الإسلام في يثرب من أهلها، ثم لما وجدوا أن كل ذلك غير كاف، تراسلوا مع أعداء الرسول في خارج يثرب من قريش. لتوحيد خططهم معهم، ولحملهم على مهاجمة المسلمين في مدينتهم ومعقلهم قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى مركزهم، فيعجزون جميعاً هم وأهل مكة عن التغلب عليهم والقضاء على الإسلام.

وهكذا بدأت خصومة اليهود للإسلام خصومة فكرية، هم يرفضون الاعتراف بنبوة الرسول، وبأن دعوته موجهة إليهم، ويرفضون نبوة في غير بني اسرائيل، والرسول يدعوهم إلى الايمان بالله والى الدخول في دعوته المبنية على الايمان بالله رب العالمين، رب العرب وبني اسرائيل والعجم، وعلى الايمان بنبوته وبنبوة الأنبياء السابقين، ثم تطورت هذه الخصومة إلى معارك وحروب، والحروب كما نعلم تبدأ نزاعاً في الآراء والأفكار ثم تتحول الى صراع ونزاع وقتال.

ومن أشهر سادات يهود الذين وقفوا موقفاً معادياً من الرسول، وعارضوه معارضة شديدة، وصمموا على الايقاع به، حيي بن أخطب، وأخواه ياسر بن أخطب وجُدَىّ بن أخطب[1]، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن الربيع بن أبي الحقيق، وهو أبو رافع الأعور الذي قتله أصحاب الرسول بخيبر، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جحاش، وكعب بن الأشرف، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وكردم بن قيس حليف كعب بن الأشرف، وكل هؤلاء من بني النضير، وعبد الله بن صوري الأعور[2]، وابن صلوبا، وهما من بني (ثعلبة بن الفطيون)، وزيد بن اللعيث (اللعيب)[3]، وسعد بن حنيف، ومحمود بن سيحان (سبحان)، وعزير بن أبي عزير، وعبد الله بن صيف (ضيف)، وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفنحاص، وأشيع، ونعمان بن أضنا (أمنا؟)، وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي، وشاس بن قيس، وزيد بن الحارث، ونعمان بن عمرو، وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس، ومحمود بن دحية، ومالك بن الصيف (الضيف)، وكعب بن راشد، وعازر، ورافع بن أبي رافع، وخالد، وإزار بن أبي إِزار (آزر بن أبي أزر)، ورافع بن حارثة، ورافع بن حريملة، ورافع بن خارجة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وكل هؤلاء من يهود بني قينقاع[4].

أما الذين حاربوا الإسلام من بني قريظة، فكانوا: الزبير بن باطا بن وهب، وعزّال بن شَمْوِيل (سموال)، وكعب بن أسد، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب، وشمويل بن زيد، ونافع بن أبي نافع، وأبو نافع، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، وكردم بن زيد، وأسامة بن حبيب، ورافع بن رميلة (زميلة)، وجبل بن أبي قشير، ووهب بن يهوذا.

أما من بقية بطون يهود، فكانوا: لبيد بن أعصم، وهو من يهود بني زريق،

---

[1] (جد بن أخطب)، (جدي بن أخطب)، (حدى بن أخطب)، الروض الأنف (٢/ ٢٤).
[2] الروض الأنف (٢/ ٢٤).
[3] (ابن اللعيب)، ابن هشام (٢/ ١٣٦).
[4] ابن هشام (٢/ ١٣٦ وما بعدها)، الروض الأنف (٢/ ٢٤)، (تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن).

وكنانة بن صوريا (صوريا)، وهو من بني حارثة، وفردم (قردم) بن عمرو، وهو من يهود بني عمرو بن عوف، وسلسلة بن برهام، وهو من يهود بني النجار[1].

ويظهر من أقوال علماء التفسير في تفسير لفظة (الطاغوت) الواردة في القرآن الكريم، أن (كعب بن الأشرف)، كان من أبرز سادات اليهود في أيام الرسول[2]. فقد كانوا يتحاكمون إليه ويأخذون برأيه، وكان المقدم عندهم وعند الأوس والخزرج، حتى أن الأنصار كانوا يتحاكمون إليه.

ونجد في القرآن أمثلة من أسئلة وجهها اليهود إلى الرسول لاحراجه ولإظهار فساد دعوته بزعمهم. سألوه ان يأتي لهم بمعجزة، إذ قالوا له: ﴿إن الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يؤتينا بقربان تأكله النار﴾[3]، فنزل الرد عليهم: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم، فلِمَ قتلتموهم إنْ كنتم صادقين﴾[4]. «نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا، وفنحاص بن عازورا، وجماعة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: له: أتزعم أن الله أرسلك إلينا، وأنه أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإذا جئنا به صدقناك، فأنزل الله هذه الآية»[5]. وسألوه «أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالتوراة»[6]. وسألوه أسئلة عن أشياء مذكورة في التوراة، وسألوه عن أشياء أخرى محرجة عديدة، وأوحوا إلى غيرهم من المشركين بأسئلة مماثلة ليلقوها على الرسول لامتحانه وإحراجه، وقد نزل الوحي بالرد، عليهم، وبتأنيبهم على أقوالهم هذه، وبتذكيرهم

---

1 وتختلف الموارد في ضبط هذه الأسماء: ابن هشام (٢/ ١٣٧ وما بعدها)، الروض الأنف (٢/ ٢٤).
2 تفسير الطبري (٥/ ٩٧ وما بعدها).
3 سورة آل عمران، الآية ١٨٣.
4 الآية نفسها.
5 تفسير القرطبي (٤/ ٢٩٥)، روح المعاني (٤/ ١٢٨ وما بعدها)، تفسير الطبري (٤/ ١٣١ وما بعدها).
6 سورة النساء، الآية ١٥٣، تفسير القرطبي (٦/ ٦)، تفسير الطبري (٦/ ٦ وما بعدها)، روح المعاني (٦/ ٥)، ابن هشام (٢/ ١٩٨).

بما قام به أجدادهم وأسلافهم في مقام أنبيائهم من عدم التصديق برسالتهم ومن الطعن بهم ومن إصرارهم على عبادة الأوثان والكفر بالتوحيد[1].

ووقع جدل بين المسلمين وبين سادات يهود، أثار نزاعاً بين الطرفين. دخل أبو بكر «بيت المدراس، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمع إلى رجل منهم يقال له (فنحاص) كان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له: أشيع. فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص اتقِ الله وأسلم، فوالله أنك لتعلم إن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. قال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه، كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء. ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا، كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال:. والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك»[2]. ووقع مثل ذلك في مناسبات أخرى، جعل اليهود يحقدون على المسلمين.

وعمد اليهود إلى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمينة التي كانت كامنة في نفوس أهل يثرب من الأوس والخزرج من أيام الجاهلية، فأثاروها، كما استفادوا ممن كان بينهم وبين رجال من المسلمين من الحلف والجوار في الجاهلية للاحتماء بهم وللاتقاء بهم مما قد يلحق بهم من أذى في إثارة الفتنة.

وفي عهد (عمر) أمر بإجلاء اليهود ممن لم يكن لديهم عهد من رسول الله. أما من كان له عهد منه، فقد بقي في وطنه وعلى دينه بالشروط التي ذكرت في الصحف. وقد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها في زمن الرسول حتى بعد إجلاء بني النضير وبني قريظة وبعد غزوة خيبر. وقد ورد في رواية أن النبي لمّا أمر أصحابه بالتهيؤ لغزوة خيبر، شقّ ذلك على من بقي بالمدينة من يهود[3]. ولما مرض عبد الله بن أبي، كان اليهود في جملة من التفّ حول سريره في مرضه الذي هلك فيه، ثم كانوا في جملة من شيعه إلى قبره ومن

---

[1] سورة البقرة، الآية ١٠١، ابن هشام (٢/ ١٦٧، ١٧١، ٢٠١).
[2] آل عمران، الآية ١٨١، تفسير الطبري (٤/ ١٢٩ وما بعدها)، تفسير الطبرسي (١/ ٥٤٨)، (طهران).
[3] الطبقات، لابن سعد (الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٧٧).

نثر التراب على رأسه حزناً على فراقه[1]. وقد بقيت أسر يهودية في وادي القرى وفي تيماء قروناً عديدة بعد صدور أمر عمر بالإجلاء، بل ورد أن عدداً منهم عاش في المدينة أيضاً.

وقد كانت اليهودية قانعة بما أوتيت، وبما كسبته من مواطن وتجارة، إن وجدت سبيلاً إلى اقناع سادات القبائل والأمراء والملوك بالتهود وبالدخول في دعوتها، فذلك خير وتوفيق. وإن لم تجد في هؤلاء ميلاً إلى اليهودية، رضيت منهم باكتساب العطف والحماية ورعايتهم في تحصيل ديونهم والأرباح التي يحصلون عليها من الربا، وبالسماح لهم بالتجارة والبيع والشراء، وهو ما يصبو اليه كل يهودي.

لذلك نستطيع أن نقول إن اليهودية كانت من ناحية التبشير عند ظهور الإسلام جامدة خامدة، لا يهمها نشر الدين بقدر ما تهمها المحافظة على الحياة وعلى المركز الذي توصلت إليه وعلى تجارتها التي تعود عليها بمال غزير. فكانت لهذا لا تهتم بحركة إلاّ إذا وجدت فيها فائدة لها، ومنفعة ترتجى منها، ولا تحارب رأياً إلا إذا وجدت أنه سيكون خطراً عليها، فحاربت النصرانية في اليمن لمّا وجدت الروم يسيرون على سياسة معادية لليهود، وأن النصرانية مهما كانت كنيستها هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدسها الروم، فامتداد أي فرع منها إلى اليمن، كفيل بالحاق الأذى الذي لاقاه إخوانهم من البيزنطين بهم. وحاربت الإسلام بعد هجرة الرسول إلى المدينة، لمّا تبين لها أنه يدعو إلى رب العالمين، وأنه لم يكن على ما ظنته حينما سمعت بدعوة الرسول وهو في مكة، من أنه سيخضع لها، أو سيميل إليها، فتستفيد منه على الأقل، فلما وجدت الأمر غير ما ظنت، عندئذ خاصمته وانضمت إلى المشركين في محاربة الإسلام.

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهوداً وفدوا إليها وأحباراً سكنوا بينها لاقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين يهود. نعم لم يفعل اليهود هذا كما فعله النصارى، ولهذا انحصرت سكنى اليهود عند ظهور الإسلام في هذه المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب، وانحصر عملهم في التجارة وفي الربا وفي الزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها. وهي أمور جعلت لهم نفوذاً عند سادات القبائل والأمراء والملوك.

[1] الواقدي (٤١٥)، اليهود (١٧٧).

وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم، وأيامهم الماضية، وأخبار الرسل والأنبياء، وما جاء في التوراة والمشنا، وغير ذلك. عرفت بين الجاهليين بـ(المدراس) و(بيت المدراس) (والمدراش). وأطلق الجاهليون على الموضع الذي يتعبد اليهود فيه (الكنيس) و(كنيسة اليهود) تمييزاً لهذه الكنيسة عن (الكنيسة) التي هي لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى[1].

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الكنيسة كلمة معربة من (كنشت) وهي لليهود، والبيعة للنصارى. وذهب بعض آخر إلى أنها متعبد الكفّار مطلقاً[2].

وقد أخذ الجاهليون مصطلح (المدراس) من العبرانيين، من لفظة (مدراش) Midrash التي هي من أصل (درش) Darash التي تقابل (درس) في العربية، وتؤدي هذه الكلمة المعنى المفهوم من لفظة (درس) العربية تمام الأداء. ويقصد بالمدراش درس نصوص التوراة وشرحها وتفسيرها وإيضاح الغامض منها وأسرارها وأمثال ذلك، وينهض بذلك المفسر الشارح (درشن) Darshan، ولكل طريقة وأسلوب. وقد نجمت عن هذه الدراسة ثروة أدبية ودينية طائلة للعبرانيين. نتجت من اتباع جملة طرق في الشرح والتفسير، منها (مدراش هلاخه) Midrash Halachah و(مدراش هاكاده) Midrash Haggadah، وتختلف هذه في كيفية إتباع طرق العرض والشرح والتفسير[3].

ولم يكن المدراس (المدراش) موضع عبادة وصلوات حسب، بل كان إلى ذلك دار ندوة ليهود يجتمعون فيه في أوقات فراغهم لاستئناس بعضهم ببعض وللبحث في شؤونهم، وللبت في القضايا الجسيمة الخطرة على اختلاف درجاتها. فهو إذن مجمع الأحبار ومجمع الرؤساء والسادات وأصحاب الشرف فيهم، وإليه كان يقصد الجاهليون حين يريدون أمراً من الأمور أو الاستفهام عن شيء يريدون الوقوف عليه، وإليه ذهب الرسول وكبار المسلمين لمحادثة يهود ومجادلتم فيما

---

[1] اللسان (٧/ ٣٨٢)، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (٢/ ١٢٠)، صحيح مسلم (٥/ ١٢٢)، البخاري «كتاب الجزية والموادعة من أهل الذمة والحرب»، الحديث ٦، غرائب اللغة (ص ٢١٣)، النهاية (٢/ ٢٠)، محيط المحيط (١/ ٦٤٣)، القاموس (٢/ ٢١٥).

[2] اللسان (٨/ ٨٣)، المعرب (٨١)، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الأول (ص ٢٠١).

[3] Ency. Briti., 15, p. 458, Moore, Judaism, I, 125, Jew, Ency., VII, p. 538.

كان يحدث بينهم من خلاف أو من أمر يريدون البت فيه. ويقال إنهم عرضوا أمام الرسول كتبهم، فكان يقرأها له بعضهم ممن دخل في الإسلام كعبد الله بن سلام أو بعض المسلمين ممن كان له علم وفهم في العبرانية لغة يهود.

قال (ابن عباس): «دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال على ملة إبراهيم ودينه. فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً. فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبوا عليه»[١]. ويظهر أن هذا المدراس كان من بيوت مدراسهم بيثرب.

وعرفت مساجد اليهود، أي المواضع التي كان يصلّون بها، بالمحاريب جمع محراب. وقد جاءت الاشارة إليها في بيت شعر منسوب إلى (قيس بن الخطيم)[٢]. أما في النصرانية، فقد خصصت الكلمة بصدر الكنائس، وذلك على ما يفهم من الكلمة في الإسلام[٣].

وعرف علماء اليهود ورجال دينهم بـ (الأحبار) جمع (الحبر) وبـ (الربانيين) وقد وردت الكلمتان في القرآن الكريم[٤]. وللإسلاميين آراء في أصل (الحبر)، وهم يذكرون أن من معانيها العالم، والرجل الصالح[٥]. واللفظة من الألفاظ المعربة عن العبرانية أصلها (حبر) Haber وجمعها حبريم Habarim ، ومعناها (الرفيق) camrade وassociate، وكانت ذات مدلول خاص ومعنى معين. وقد أطلقت في العهد التلمودي على العضوية في جمعية معينة، فأطلقت في العصر الأول والثاني للميلاد على من كان من (الفروشيم)، وهم شيعة يهودية أقسمت على نفسها بمراعاة النصوص الدينية (اللاوية) على نحو ما نزلت وعلى نحو ما يفعله اللاويون.

---

1 الطبري (٧/ ١٤٥).

2 Margoliouth, p. 73.

3 النصرانية: القسم الثاني، الجزء الثاني (ص ١٧٤).

4 حبر بالضم والكسر، المائدة: الآية ٤٤، ٦٣، التوبة، الآية ٣١، ٣٤.

5 تاج العروس (٢/ ١٢٠)، (حبر)، اللسان (٥/ ٢٢٨)، المفردات، للأصفهاني (ص ١٠٤).

وللفظة (حبر) أهمية كبيرة عند اليهود، فإنها تشير إلى العلم والمعرفة، وإن كانت لا تصل إلى درجة (رابي) (ربي) Rabbi. ولا تزال مستعملة عندهم فيمن درس الشريعة اليهودية والعلوم الشرعية وتقدم فيها وأتقن الأحكام، وقضى بين الناس، غير أنها دون درجة Rabbi [١]. فهي في العبرانية بمعنى عالم ولكن دون المعنى المفهوم في العربية عند علماء اللغة الإسلاميين، فهذا المعنى هو في مقابل لفظة Rabbi أي (ربّان) لا (حبر).

قد وردت لفظة (حبر) في شعر للشماخ:

كما خطّ عبرانيــة بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا[٢]

أما (الربانيون)، فهم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي، على رأي بعض العلماء الإسلاميين. وقال بعض آخر: الربّان العالم الراسخ. في العلم والدين، أو العالم العامل المعلّم، أو العالي الدرجة في العلم. وفرّق بعضهم بين الربانيون وبين الأحبار بأن جعل الأحبار أهل المعرفة بأنباء الأمم وبما كان ويكون، وذهبوا إلى أنها من الألفاظ المعربة العبرانية أو السريانية[٣]. وهي من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في أثناء الكلام على علماء يهود[٤].

ويتبين من القرآن الكَريم أنه قد كان للأحبار والربّانيين نفوذ عظيم على اليهود، فكانوا يطيعون أوامرهم ويفعلون ما يأمرونهم به، وأن غالبيتهم لم تكن تفقه شيئاً ولا تعرف من أحكام دينها إلاّ ما يقوله لهم أولئك الأحبار[٥]. وبعض هؤلاء الأحبار هم من المقيمين في جزيرة العرب في المواطن التي أقامت فيها يهود، وبعض منهم كان يأتي إلى يهود العرب من فلسطين: ولا سيما من (طبرية) التي اكتسبت شهرة عظيمة بعد خراب القدس (أورشليم) حيث استقر فيها (السنهدريم) وغدت مركزاً عظيماً للعلوم عند اليهود، وفيها جمعت (المشنه) (المشنا) Mishna و(الماسورة) الكتاب الذي يبين كيفية تحريك كلمات التوراة[٦].

---

[1] اليهود (ص ٢٠)، The Universal Jewish Ency., Vol., p. 145.
[2] تاج العروس (٣/ ١١٧)، (حبر).
[3] تاج العروس (١/ ٢٦٠)، (٩/ ٢١١)، المعرب، للجواليقي (ص ١٦١)، سيرة ابن هشام (١/ ٣٩٥).
[4] المائدة: الآية ٤٤، ٦٣، آل عمران، الآية ٧٩، تفسير الطبري (٦/ ٢٥١).
[5] التوبة، الآية ٣١.
[6] قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٤٦).

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من رجال يهود ممن أدركوا الإسلام، ذكر عنهم أنهم كانوا أحباراً، وأنهم كانوا أصحاب علم بالتوراة وبكتب الأنبياء. وفي مقدمة من ذكروا، عبد الله بن صوري الأعور، قالوا: إنه لم يكن بالحجاز في زمانه من كان أعلم بالتوراة منه، وإنه كان من بني ثعلبة بن الفطيون. ويقولون: إن الفطيون كلمة تقال لمن يلي أمر اليهود وملكهم، كما أن النجاشي تقال لمن يلي ملك الحبشة[١].

وذكر (القلقشندي) أن المشهور من ألقاب أرباب الوظائف عند اليهود ثلاثة ألقاب: الأول الرئيس، وهو القائم فيهم مقام البطرك في النصارى، والثاني الحزّان، وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم، والثالث الشَّيلحصبور، وهو الإمام الذي يصلي بهم[٢].

وقد أطلق القرآن الكريم على أسفار اليهود، أي كتبهم المقدسة (التوراة)[٣]. وعرفت بهذه التسمية في الحديث وفي كتب التفسير، وصارت علماً لها في الإسلام. كذلك أطلقت هذه اللفظة على معابد اليهود، ولم يعرف ورودها في الشعر الجاهلي خلا بيتاً ينسب إلى شاعر جاهلي يهودي اسمه (سماك)[٤].

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في أصل كلمة (التوراة)، حتى ذهب بعضهم إلى أنها عربية. ولكن ذوي أكثريتهم ترى أنها عبرانية، لأن لغة موسى كانت العبرانية، وبهذه اللغة نزلت التوراة[٥]. ثم هم يختلفون في تعيين حدود التوراة، فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار، ويرى بعض آخر أنها أكثر من ذلك، وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات، لا يستثنى إلاّ الأناجيل[٦].

---

1 ابن هشام (٢/ ١٣٦)، «محمد محيي الدين عبد الحميد».

2 صبح الأعشى (٥/ ٤٧٤).

3 آل عمران، الآية ٣، ٤٨، ٦٥، ٩٣، المائدة، ٤٦ وما بعدها، ٤٩، الصف، الآية ٦، الفتح، الآية ٢٩، الجمعة، الآية ٥.

4 Ency., IV, p. 706.

5 اللسان (٢٠/ ٢٦٥ وما بعدها)، «ورى»، تاج العروس (١٠/ ٣٨٩)، القراؤون والربانون (١٧٩)، المفردات، للأصفهاني (ص ٧٤)، Uni. Jew. Ency., 10, p. 267, Katsh., p. 191.

6 صبح الأعشى (١٣/ ٢٥٤ وما بعدها)، Katsh., p. 191.

وليس في القرآن الكريم تحديد لأسفار التوراة، ولكن اقتران اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير إلى أن المراد بها ما يقال له بـ (الأسفار الخمسة) Pentateuch عند الغربيين. وهذه الأسفار الخمسة هي الأسفار المُنزلة المكتوبة التي نزلت على موسى على رأي قدماء العبرانيين. ثم توسعوا في مدلول اللفظة فيما بعد، فأطلقوها على جميع الأسفار التي يقال لها العهد القديم. وأطلقتها بعض الفرق على غيرها من الأسفار مثل الأنبياء (نبيم) Nebiim، والكتب (كتوبيم) Kettubim [١].

وقد أورد القرآن في مخاطبة يهود وتقريعهم قصصاً عن الأنبياء والمرسلين والأمم القديمة، منه ما هو مذكور عندهم في الأسفار الخمسة، ومنه ما هو وارد عندهم في (الهكاده) وفي (المشنه). ولما كان في احتكاك الإسلام بيهود كان لأول مرة في منطقة يثرب، صارت معظم الاشارات الواردة في القرآن الكريم إلى التوراة في السور المدنية لمخاطبة الوحي لهم، وتوجيه الكلام مباشرة إليهم، ولم ترد تلك التسمية في الآيات المكية إلا في موضع واحد هو في سورة الأعراف[٢].

والمراد من (الكتاب) الذي أنزل على موسى، والمذكور في مواضع من القرآن الكريم التوراة، أي هذه الأسفار الخمسة التي نتحدث عنها[٣]. وهو تعبير قرآني لا نستطيع أن نقول إنه كان من مصطلحات الجاهليين، كما أننا لا نستطيع نفي ذلك، إذ يجوز أن يكون الجاهليون. قد أطلقوه على تلك الأسفار، أو على العهد القديم كله، بمعنى هذه الأسفار وبقية مما ورد فيها من أخبار الأيام والملوك والأنبياء.

وقد ورد في الأخبار عن (أبي هريرة)، أنه «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله»[٤].

---

[1] Uni-Jew. Ency., 10, p. 268, Katsh., p. 191, f.

[2] الأعراف: الآية ١٥٧، Ency., IV, p. 706.

[3] ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾، البقرة، الآية ٧٨، روح (١/ ٣١٦)، تفسير الطبرسي (١/ ١٥٥)، المفردات، للأصفهاني (ص ٤٢٧).

[4] «كتاب تفسير القرآن»، سورة البقرة: ٢ رقم ١١، البخاري (٣/ ١٩٨)، «طبعة ليدن».

وقصد بعبارة أهل الكتاب، اليهود، لأنهم أصحاب كتاب موسى، وبينهم كان نزوله، ولذلك عرفوا به. ويظهر من خبر أبي هريرة هذا ومن أخبار أخرى في هذا المعنى أن اليهود كانوا يقرؤون على المسلمين كتبهم وهي بالعبرانية، ثم يفسرونها لهم بالعربية، وذلك في أيام حياة الرسول.

أما الزبور والزبر، فقد وردتا في القرآن الكريم. ويراد بـ (الزبر) في بعض الآيات مثل: ﴿وإنه لفيُ زبر الأولين﴾ الكتب المُنزلة القديمة[1]. وقد وردت الكلمتان في بعض الشعر المنسوب إلى الجاهليين كامرىء القيس[2] والمرقش الأكبر[3] وأمية بن أبي الصلت[4]. وذكر علماء اللغة أن معنى زبر كتب ونقش. ويرى بعض المستشرقين احتمال. كونها من الكلمات العربية الجنوبية. ويرى بعض آخر أنها من أصل (مزمور) Mazmor العبراني. و(مزمور) Mazmör في اللهجة السريانية، و(مزمور) Mazmur في الحبشية. أخذت الكلمة وأجري عليها بعض التغيير حتى صارت على هذا الشكل[5].

وقد وردت لفظة (الزبور) مفردة في موضعين من القرآن الكريم، في سورة النساء[6] وفي سورة الأنبياء[7]. أما في الموضع الأول، فقد ورد فيه: ﴿وآتينا داوود زبوراً﴾، ومعنى هذا أن زبوراً أو كتاباً من الكتب المنزلة نزل على داوود. أما الموضع الثاني، فقد أشير فيه إلى (زبور) معرف بأداة التعريف

---

[1] الشعراء: الآية ١٩٦.

[2] أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان
وينسب إليه أيضاً هذا البيت:
لمن طلــل أبصرتــه فشــجاني كخط زبور في عسيب يمــاني
شرح ديوان امريء القيس، تأليف السندوبي (ص ١٨٤)، قصيدة رقم ٨٦، النصرانية: القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٨٤).

[3] وكــذاك لا خيــر ولا شيء على أحد بدائم
وقد خط ذلك في الزبو ر الأوليــات القدائم
اللسان (١٣/ ١٦)، النصرانية: القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٨٤).

[4] وأبرزوا بصعيد مستوى جرز وأنزل العرش والميزان والزبر
كتاب البدء (٢/ ١٤٦)، النصرانية: القسم الثاني، الجزء الثاني (ص ١٨٤).

[5] اللسان (٤/ ٣١٤ وما بعدها)، Ency., IV, p. 1184.

[6] الآية ١٦٣.

[7] الآية ١٠٥.

(ال): ﴿ولقَد كتبنا في الزبور من بعد الذكر إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾. ولكن لم يضف إلى اسم نبي من الأنبياء، كما رأينا في الموضع السابق. وقد فسر بعض المفسرين كلمة (الزبور) في هذا الموضع بمعنى الكتاب وكتب الله المنزلة، أي على التعميم لا التخصيص[١].

ويراد بالزبور ما يقال له (المزامير) في الترجمات العربية للتوراة، وPsalms في الإنكليزية، من أصل Psalmos اليونانية التي هي ترجمة لفظة (مزمور) Mizmor العبرانية، ومعناها المدائح والأناشيد. وهي أناشيد شعرية تُرنّم في حمد الإله وتمجيده، ولذلك قيل لهذه المزامير (تحلّيم) tehillim في العبرانية. وtillim على سبيل الاختصار، وtillin في لهجة بني إرم[٢].

وقد «قال أبو هريرة: الزبور ما أنزل على داوود، من بعد الذكر من بعد التوراة»[٣]. وذكر بعض العلماء أن الزبور خص بالكتاب المنزل على داوود[٤]. وقد ذهب الشعبي إلى أن الزبور، الكتاب المنزل على داوود، أما الذكر فما نزل على موسى. وذهب آخرون مذاهب أخرى في تفسير المراد من الزبور ومن الذكر. ولكن الرأي الغالب ان المراد من الزبور، مزامير داوود. وذلك لنص القرآن على ذلك.

وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود اختلاف بين بني اسرائيل في فهم كتاب الله وتفسيره، وأنهم انقسموا لذلك شيعاً وأحزاباً. ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاف شاملاً ليهود الحجاز أيضاً، كأن يكون أحبارهم قد ساروا في اتجاهات مختلفة في التفاسير وفي شرح الأحكام وكان أصحابهم يتعصبون لهم ويتحزبون، على نمط الأعراب في عصبيتهم لقبائلهم، وفي اتباع أقوال ساداتهم دون تعقل وتفكير. أما مواضع الاختلاف ومواطن الفرقة التي كانت تفرق فيما بينهم، فلا نعرف اليوم من أمرها شيئاً، لأنها لم تدون ولم تذكر، ولم يشر القرآن إليها، ولكنها على كل لا تخرج ولا شك عما نعرفه من خلاف في أوجه النظر في المسائل المعروفة حتى اليوم في أمور الفروع.

---

1 تفسير الجلالين (٢/ ٣٣).

2 Uni-Jew. Ency., Vol., 9, p. 13.

3 اللسان (٤/ ٣١٥)، «صادر».

4 المفردات (ص ٢١٠).

ونحن لا نستطيع أن نتصور أن سواد يهود الجاهلية كانوا على علم بالكتابة وبالقراءة ثم بأحوال دينهم وأموره. وفي القرآن الكريم أن هذا السواد كان جاهلاً ليس له علم ولا خبر بأمور دينه وشريعته، وأنه مقلد تابع لما يقوله له أحباره وربّانيوه. فكل ما كانوا يقولونه له، كانوا يرونه حقاً وعلماً[1]. مع أن من بين أولئك من كان دجّالاً ليس على درجة من دراية وعلم، ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب، لينال بذلك كسباً ومالاً، وأنه كان لهؤلاء على أتباعهم ومقلّديهم سلطان عظيم.

وقد تعرض (ابن خلدون) لموضوع علم اليهود العرب وثقافتهم، فقال: «ذا تشوقت العرب إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبد الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم. وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك»[2]. فغالبية يهود جزيرة العرب في الجاهلية، هم في مستوى، يعد، دون مستوى يهود البلاد الأخرى، بسبب تبدّيهم وانقطاعهم عن غيرهم من اليهود.

وقد كانت لليهود مدارس تدارسوا فيها أحكام شريعتهم، وكان لهم أحبار وحاخامون علموهم أمور دينهم. ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا يكتبون بالعبرانية أو بالسريانية، وذلك لاختلاف أهل الأخبار في تعيين تلك اللغة، وعدم تمكنهم من التمييز بينهما. وفي كتب الأخبار والتواريخ اشارات إلى اتصال بعض رجال مكة ويثرب باليهود والاستفسار منهم عن أمور الرسل والأنبياء والماضين وعن بعض الأحكام. وفيها قصص إسرائيلي وجد له سبيلاً الى العربية، يرويه القصاصون عن الرسل والأنبياء، وأساطير لا يشك في كونها اسرائيلية الأصل. كما نجد ألفاظاً

---

[1] ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني. وإن هم إلاّ يظنون﴾، البقرة، الآية ٨٧، تفسير القرطبي، الجامع (١/ ٢٩٦ وما بعدها).

[2] ابن خلدون (١/ ٤٣٩).

عبرانية لا شك في أصلها وجدت لها سبيلاً إلى عربية الجاهليين بسبب اتصال اليهود بهم، واستعمالهم اياها، فتأثر بهم الجاهليون وأخذوها منهم واستعملوها أيضاً فصارت من المعربات.

وينسب إلى الشاعر (الأسود بن يعفر) بيت شعر هو:

سُطورُ يهوديين في مهرقيهما   مُجيدين من تيماء أو أهل مدين[1]

واذا صحت نسبة هذا البيت إليه، يكون قد تعرف على يهوديين اثنين، وجدهما يجيدان الكتابة، وقد كتبا على المهارق. ولم يكن الشاعر على علم أكيد بموطنهما، فلم يدرِ اذا كانا من أهل تيماء أو من أهل مدين.

ولتعبير (مجيدين) أهمية خاصة، إذ يشير إلى تمييزه بين الكتابة الجيدة والكتابة الرديئة، والى وجود مصطلح (مجيد) عند الجاهليين، يطلقونه كما نطلقه اليوم على من يجيد الكتابة ويتقنها.

ولما كانت اللغة العبرانية لغة الدين عند العبرانيين، وبها نزل الوحي على موسى، فلا بد أن يكون لعلمائهم ورجال دينهم في جزبرة العرب علم بتلك اللغة وفقه بها. ولكن هذا لا يعني ضرورة كونهم كعلماء طبرية أو قيصرية في فلسطين أو بعض المواضع التي اشتهرت بعلمائها في التلمود بالعراق، ولست أستبعد أن يكون لهم علم بلغة بني إرم أيضاً، لأن هذه اللغة كما نعلم كانت لغة العلم والثقافة قبل الميلاد وبعده، وبها كتبت كتب عدة من التلمودين، ثم إنها انتشرت بين سواد الناس حتى صارت لغة سواد يهود يتكلمون بها ولو برطانة وبلهجة خاصة هي اللهجة التي يمتاز بها سواد اليهود في كل قطر يعيشون فيه.

أما سواد يهود جزيرة العرب في الجاهلية: فلا أظن أنهم كانوا يتكلمون العبرانية أو لغة بني إرم، إنما أرى أنهم كانوا يتكلمون لهجة من هذه اللهجات العربية. أَعني لهجة العرب الذين كانوا يعيشون بينهم وينزلون بين أظهرهم، ولم يرد في الأخبار ما يفيد أنهم كانوا يتحادثون بالعبرانية، بل الذي ورد أن عامتهم لم تكن تعرف تلك اللغة، وأن الخاصة منهم والمزاولين لحرفة الكتابة

---

[1] ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، (ص ٨٢).

والسحر كانوا يعرفونها ويكتبون بها، وبها يعوذون أنفسهم وغيرهم من الناس. وكانوا يفسرون التوراة والتلمود والكتب المقدسة لسواد الناس من العبرانية إلى العربية، لأنهم لم يكونوا يعرفون العبرانية، لا سيما وقد كان بينهم عرب متهودة.

ولم يظهر في يهود جزيرة العرب من حاز على شهرة في العلم والفقه والتأليف والخطابة على نحو ما ظهر بين يهود العراق أو فلسطين أو مصر، وإلا لاشتهر أمره وذاع خبره، كما ذاع خبر علماء يهود بابل وفلسطين ومصر. ولا يمكن أن تكون عزلتهم عن بقية يهود الأقطار المذكورة سبباً كافياً في تعليل عدم شيوع اسم أحد من هؤلاء، إن قضية عزلتهم عن بقية إخوانهم في الدين، هي نفسها تحتاج إلى سند يثبت وجود تلك العزلة. فمواضعهم في أعالي الحجاز، على اتصال ببلاد الشأم، وهي لا تبعد كثيراً عن مساكن إخوانهم في فلسطين. ثم إنهم كانوا على اتصال مستمر بهم بالتجارة، وقد كانوا يشترون حاصل بلاد الشأم من خمور وحبوب وما شاكل ذلك، وينقلونه إلى يثرب، يذهبون إليها للتعامل والاتجار، فكيف يكون يهود جزيرة العرب في معزل عن غيرهم مع وجود الأسفار والتجارة لا سيما أن أحبار (طبرية) كانوا يأتون إلى يهود اليمن ليلقنوهم أمور الدين، ولا يستبعد أن يكون من بين أولئك الأحبار من ذهب إلى يهود يثرب أو خيبر أو تيماء.

فالقضية على ما يظهر، ليست قضية عزلة يهود جزيرة العرب عن بقية يهود وانفصالهم بذلك ثقافياً وعلمياً عن بني دينهم انفصالاً يؤثر في مستواهم الثقافي والعلمي، فيجعلهم دون غيرهم من إخوانهم في العلم والثقافة، إنما يظهر أن هنالك جملة عوامل حالت دون نبوغ أحد فيهم. فيهود جزيرة العرب مهما قيل عنهم وعن رقيهم وارتفاع مستواهم عن مستوى من كان في جوارهم، لم يكونوا في ثقافتهم وفي مستواهم الإجتماعي أرقى من الفلاحين وسكان القرى وما إليها في العراق أو فلسطين أو مصر، كما أن حالتهم المادية لم تكن على مستوى عالٍ بحيث يمكن أن تقاس بالأحوال المادية التي كان عليها اليهود الآخرين في الأرضين المشار إليها، أو أصحاب تلك الأرضين من غير يهود. ثم إن عددهم مهما قيل فيه، لم يكن كبيراً. وقد رأينا أن رجالهم المحاربين لم يكونوا يتجاوزون كلهم في الحجاز كله بضعة آلاف، وفي مثل هذا العدد والظروف والأحوال لا يمكن بالطبع أن تتوفر الامكانيات المساعدة على البحث والتتبع والتعمق في العلم.

وقد عرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر والاتقاء منه، وبعلمهم بالتعاويذ، فكان المشركون يلجؤون إليهم إذا احتاجوا إلى السحر أو اذا اعترضتهم مشكلات يرون أنها لا تحل إلاّ بقراءة التعاويذ عليها. وقد ذكر المفسرون أن اليهود عملوا السحر للنبى، عمله رجل اسمه (لبيد بن الأعصم) أو بناته وهو من يهود يثرب[١]. وقد أشير إلى سحر اليهود في الحديث[٢].

وقد لجأ العرب إلى اليهود يأخذون منهم الرقى والتعاويذ. فقد ورد في الأخبار «أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقيها، فقال أبو بكر: أرقيها بكتاب الله. يعني: بالتوراة والإنجبل...»[٣].

وقد حافظ يهود جزيرة العرب على حرمة السبت، ويوم السبت من الأيام المقدسة التي يجب مراعاة حرمتها مراعاة تامة، فلا يجوز ليهودي الاشتغال فيه، والقيام ببعض الأعمال. ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنّسه بالإشتغال فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً.

وقد وردت إشارات إلى يوم السبت في مواضع من القرآن الكريم، في معرض الكلام على بني اسرائيل، وأشير في بعضها إلى أخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم، وإلى نقضهم له وعدم مراعاتهم جميعاً لهذا العهد، وإلى أنهم اعتدوا فيه[٤]. وفي هذه الإشارات دلالة على أن من اليهود عامة من خالف حرمة هذا اليوم، فلم ينفذ ما ورد في أحكام شريعته عنه. ولكن هذا عام غير خاص بيهود العرب الجاهليين، وإنما يشير إلى خروج بعض بني اسرائيل على أحكام دينهم وعدم مراعاتهم لها، وهذا اليوم من أقدس الأيام في نظرهم.

---

1 تفسير الطبري (٣١/ ٢٢٦)، تفسير الطبرسي (٥/ ٥٦٨)، روح المعاني (٣٠/ ٢٨٢).

2 البخاري باب السحر، عمدة القارئ (٢١/ ٢٧٩ وما بعدها)، «الحديث رقم ٧٧ وما بعده».

3 عمدة القارئ (٢١/ ٢٦٢).

4 الأعراف: الآية ١٦٢، النحل: الآية ١٢٤، البقرة: الآية ٦٥، النساء: الآية ٤٦، ١٥٣، أو الثناء الألوسي، روح المعاني (١/ ٢٥٦ وما بعدها)، اللسان (٢/ ٣٧) «صادر»، محيط المحيط (٣/ ٩١١ وما بعدها)، الطبري، تفسير (٩/ ٦٥)، الطبرسي، مجمع البيان (١/ ١٢٩ وما بعدها)، الزمخشري، الكشاف (١/ ٢١٨)، الطبرسي (٥/ ٣٩١) «طهران»، الطبري، تفسير (١٤/ ١٢٤)، الكشاف (٢/ ١٧٨).

وقد وقف العرب الذين كانوا على اتصال باليهود على بعض أحكام دينهم مثل: الرجم بالنسبة للزنا، واعتزال النساء في المحيض. فذكر العلماء أن حكم الإسلام في الحيض «اقتصاد بين إفراط اليهود الآخذين في ذلك باخراجهن من البيوت، وتفريط النصارى. فإنهم كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض»[١]، ومثل الدعاء إلى الصلاة عند اليهود بالنفخ في (الشبور)[٢]، وذلك كما تحدثت عنه في موضع آخر، ومثل صوم (عاشوراء) وأعيادهم، ومثل الصلاة وأوقاتهم عندهم.

واستعمل يهود يثرب (القرن) في معابدهم، لإعلان صلواتهم وأعيادهم واعلان احتفالاتهم والحوادث المهمة التي قد تقع لهم. وقد كانوا يستعملون آلتين، يقال لإحداهما الـ (شوفار) Shophar ومعناها القرن، ويقال للأخرى القرن، وتصنع من القرون كذلك. ولذلك اختلط الأمر بينهما. والظاهر أنهما كانتا تختلفان في نوع قرون الحيوانات التي تتخذان منها[٣].

وقد اختلف يهود جزيرة العرب عن الجاهليين في الأمور التي حرمتها شريعتهم عليهم في مثل المأكولات، كما اختلفوا عنهم في عبادتهم وفي اعتقادهم بوجود إلهَ واحد، هو (إلَه اسرائيل)، وفي أمور عقائدية أخرى، واختلفوا عنهم في بعض العادات والمظاهر الخارجية، فكان اليهود مثلاً يسدلون شعورهم، أما المشركون فكانوا يفرقون رؤوسهم. ورد عن ابن عباس: «أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يسدل شعره وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي، صلى الله عليه وسلم، رأسه». ولا يستبعد اختلافهم عنهم في لبس بعض الملابس التي لم تكن مألوفة عند الجاهليين[٤].

وقد ظهر بين اليهود شعراء، نظموا الشعر بالعربية وعلى طريقة العرب في نظم الشعر. منهم السموأل المشهور، و(كعب بن الأشرف) وسمّاك اليهودي، وسأتكلم عنهم في أثناء حديثي عن الشعر.

---

[1] إرشاد الساري (١/ ٣٤٠)، (كتاب الحيض).

[2] إرشاد الساري (٢/ ٢ وما بعدها)، (كتاب الآذان).

[3] A Religi. Ency., Vol., III, p. 1599.

[4] عمدة القارئ (١٧/ ٧١).

لم يسلم من يهود في أيام الرسول غير عدد قليل من المتبينين منهم. مثل: عبد الله بن سلام، ولم يتعاون معه غير عدد قليل منهم مثل يامين بن عمير بن كعب النضري، ويامين بن يامين الاسرائيلي، ومخيريق، وكان رجلاً غنياً صاحب نخيل، وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيون، حث قومه على مساعدة الرسول ومعاونته في غزوة أُحد. وكان الرسول قد طلب مساعدتهم لوجود صحيفة بينه وبينهم. فلما اعتذروا له بالسبت، خالفهم مخيريق قائلاً لهم: لا سبت لكم، وقاتل معه حتى قتل، فقال الرسول: مخيريق خير اليهود. وقد وصف بالعلم، وذكر أنه كان حبراً عالماً فيهم[١]. آمن بالرسول وجعل ماله له، وهو سبعة حوائط فجعلها الرسول صدقة[٢].

أما عبد الله بن سلام، فكان يدعى، وهو في يهوديته، الحصين بن سلام بن الحارث. وسلام اسم والده. فلما أسلم سمّاه رسول الله (عبد الله)، وهو من بني قينقاع، أسلم والرسول في مكة لم يهاجر بعد، وذلك في رواية من الروايات. وأسلم بعد الهجرة على أكثر الروايات. ذكر أنه كان شريفاً في قومه، سيداً، صاحب نسب وحسب، وأنه كان حبراً عالماً. فلما أسلم، نبذه قومه، وتحدثوا فيه[٣]. وقد نزلت فيه بضع آيات[٤].

أما أنه كان حبراً من الأحبار، عالماً في شريعتهم، فلا يمكن البت فيه، فقد جرت عادة أهل الأخبار على إطلاق كلمة (الحبر) على نفر ممن أسلم من يهود في أيام الرسول، كما أطلقت على نفر ممن أسلم بعده، مثل كعب الذي عرف بكعب الأحبار. ولا يمكن في نظري البت في درجات علم أمثال هؤلاء وفي مقدار فهمهم للتوراة ولكتب يهود إلاّ بجمع ما نسب إليهم من قول، ودراسته. عندئذ نستطيع أن نحكم على علمهم إنْ كان لهم علم بأحكام ديانة يهود وبالعالم وبما كان يتدارسه علماء ذلك العهد. ورأيي أن هذه الدرجات إنما منحها لهم

---

[1] ابن هشام (٢/ ١٤٠)، (٣/ ٣٨)، (محمد محيي الدين عبد الحميد)، Graetz, Vol., III, p. 75.

[2] البلاذري، فتوح (٢٤)، الإصابة (٣/ ٣٧٣)، (رقم ٧٨٥٢)، (من بني النضر... ويُقال إنه من بني قينقاع، ويُقال من بني الفطيون).

[3] ابن هشام، سيرة (٢/ ١٣٧)، أسد الغابة (٣/ ١٧٦)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧٠ وما بعدها)، الروض الأنف (٢/ ٢٥).

[4] تهذيب الأسماء (١/ ٢٧١)، الإصابة ٣/ ١١٦)، (٢/ ٢١٢)، (رقم ٤٧٢٥)، (١٩٣٩م).

بعض ذوي القلوب الطيبة من المسلمين الأولين، لما رأوه فيهم، ولما سمعوه منهم من أقوال نسبوها إلى الأنبياء والعلماء والى كتب الله القديمة، ولم يكن لهم بطبيعة الحال علم بها، لعدم وقوفهم على ما كان يتداوله الأحبار، فعجبوا من علمهم هذا، ومن إحاطتهم بأحوال الماضين، فعدّوهم أحباراً لهم في قومهم علم ورأي. وقد تساهل بعضهم في ذلك لظنه أن في منح هؤلاء أمثال هذه النعوت مما يفيد الإسلام، إذ يعني هذا تقدير أولئك الأحبار أصحاب العلم الأول له، وأن تقديرهم هذا شهادة مزكية له. وقد يكون لهم نصيب أيضاً في منحهم هذه الدرجة لأنفسهم للتباهي وللتصدر بذلك بين المسلمين.

وقد نسب أهل الأخبار أقوالاً لابن سلام، نجد بعضها في كتب التفسير والحديث، ونجد بعضها في كتب السير والأخبار. لبعضها طابع إسرائيلي، فهو من القصص المعروفة بالإسرائيليات، ولبعضها طابع الأقاصيص. قد يكون (ابن سلام) صاحبها ومرجعها، وقد يكون غيره قد نسبها اليه[١].

وقد كان له ابنان، هما يوسف ومحمد، رويا عنه الحديث[٢]. وقد كنّي باسم ولده يوسف، فعرف بأبي يوسف[٣]. ويعد يوسف من الصحابة، وله حديث عن الرسول، ويقال إن الرسول هو الذي سماه يوسفَ، وقيل ليست له صحبة. وقد روى عن جماعة من الصحابة[٤].

وقد أسلم يامين بن يامين الاسرائيلي، على أثر إسلام عبد الله بن سلام[٥].

وأما يامين بن عمير بن كعب، أبو كعب النضري، فهو من بني النضير. وقد ساعد اثنين من فقراء أصحاب رسول الله على تجهيزهما بشيء من التمر ليتمكنا بذلك من الالتحاق بالجيش الذي سار في السنة التاسعة من الهجرة لغزوة تبوك[٦]. أسلم فأحرز ماله من بني النضير، ولم يحرز ماله من بني النضير غيره وغير أبي سعيد بن عمرو بن وهب، فأحرزا أموالهما. وذكر أن النبي قال

---

[1] Ency., I, p. 30-31, Caetani, Annali, I, p. 413, Harovitz, in ZDMG., IV, 524.

[2] أسد الغابة (٣/ ١٧٦).

[3] تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧١).

[4] تهذيب الأسماء (٢/ ١٦٦).

[5] الإصابة (٦/ ٣٣٣)، (٣/ ٦١٢)، (رقم ٩٢١٤).

[6] الطبري (٣/ ١٤٣)، (حوادث السنة التاسعة)، الإصابة (٦/ ٣٣٣)، (القاهرة ١٩٠٧م)، (٣/ ٦١١)، (رقم ٩٢١٣).

ليامين: ألم ترَ إلى ابن عمك عمرو بن جحاش وما همّ به من قتلي؟ وكان أراد أن يلقي على النبى رحى فيقتله. فجعل يامين لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله.

وكان فيمن أسلم من بني قريظة (كعب بن سليم القرظي)، وهو من سبيهم في الإسلام، ويعد في الصحابة، ولكن لا تعرف له رواية، وهو والد محمد بن كعب القرظي المعروف بروايته عن أحداث يهود مع النبي، وعن بعض أخبار بني اسرائيل[1]. وله روايات في حديث الرسول عن بعض الصحابة، ويعد من التابعين. يقال: إنه ولد في حياة الرسول، وتوفي ما بين سنة ثمان ومئة وسنة عشرين ومئة. وقد عدّه علماء الحديث في طبقة الثقات الورعين[2].

وفيمن أسلم من يهود بني قريظة رفاعة القرظي، وهو رفاعة بن سموأل (سموال)، وقيل: رفاعة بن رفاعة القرظي من بني قريظة، وهو خال صفية زوجة النبي، لأن أمها برة بنت سموأل (سموال)، أما أبوها، فهو (حيى بن أخطب) من رؤساء يهود، وكان من كبار المعارضين له، وهو من بني النضير[3].

ويعدّ (زيد بن سَعْية) (سعنة) في طبقة الصحابة، ويُقال إنه كان أحد أحبار اليهود الذين أسلموا، وإنه كان أكثرهم علماً ومالاً، وقد شهد مع النبي مشاهد كثيرة، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً إلى المدينة[4].

ويعدّ (عطية القرظي) من الصحابة كذلك، كان صغيراً حين غزا النبي بني قريظة، ولذلك لم يقتل، فأسلم، وصحب النبي[5].

ولم يظهر من يهود اليمن في الإسلام ممن عرفوا برواية الإسرائيليات سوى رجلين، هما: كعب الأحبار، ووهب بن منبه. فأما كعب الأحبار، فقد أدرك زمن الرسول، غير أنه لم يره، ولم يدخل في الإسلام إلاّ في أيام أبي بكر أو عمر، وهو أبو اسحاق كعب بن ماتع بن هينوع (هيسوع)، وقد عرف

---

[1] تهذيب التهذيب (٦٧/٢)، أسد الغابة (٤/ ٢٤٢).
[2] الطبري (٣/ ٤٤)، (السنة الخامسة)، تهذيب الأسماء (١/ ٩٠).
[3] الإصابة (١/ ٥٠٤)، (رقم ٢٦٦٨)، تهذيب الأسماء (١/ ١٧١ وما بعدها، ١٩١)(٢/ ٣٤٨ وما بعدها).
[4] تهذيب الأسماء (١/ ٢٠٤)، الإصابة (٣/ ٢٨)، (١/ ٥٤٨)، (رقم ٢٩٠٤)(التجارية ١٩٣٩م)، (واستشهد في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر).
[5] تهذيب الأسماء (١/ ٢٣٥)، الإصابة (٢/ ٤٧٩)، (رقم ٥٥٨١).

بين المسلمين بكعب الأحبار وبكعب الحبر من باب التعظيم والتقدير لعلمه. وقد أتاه هذا اللقب من علمه بالشريعة وبكتب الأنبياء وباخبار الماضين، وهو علم لا نستطيع أن نحكم على درجته ومقدار بعده أو قربه من العلم الذي كان منتشراً بين أحبار ذلك العهد ما لم نقف على الأقوال الصحيحة التي صدرت عن ذلك الحبر. أما هذا المروي عنه والمذكور في تفسير الطبري وفي تأريخه وفي كتب من كان يعنى بجمع القصص ولا سيما قصص الرسل والأنبياء، فليس في استطاعتنا التصديق بأنه كله صادر من فم كعب، إذ يجوز أن يكون من رواية أناس آخرين ثم حمل على كعب.

ولم ينسب أحد إلى كعب مؤلفاً، وكل ما نسب إليه فهو مما ورد عنه بالمشافهة والسماع. وهو بين صحيح بمكن أن يكون قد صدر منه، وبين مشكوك في أمره وضع عليه، وفيه ما هو اسرائيلي صحيح، أي إنه مما هو وارد في التوراة أو في التلمود أو في الكتب الاسرائيلية الأخرى وفيه ما هو قصص اسرائيلي نصراني، وما هو محض افتعال وخلط. وبالجملة، إن هذا الوارد عنه يصلح أن يكون موضوعاً لدراسة، لمعرفة أصوله وموارده والمنابع التي أخذت منه. وعندئذ يمكن الحكم على درجة أصله ونسبه في علم بني اسرائيل، وإمكان صدوره من كعب أو من غيره، ومقدار علم كعب ووقوفه على الإسرائيليات.

وأما وهب بن منبه، فيعدّ من التابعين، ويعد مرجعاً مهما في القصص الاسرائيلية ويقال إنه حصل على علمه من كتب الأولين، وإن أخاً له كان يذهب إلى الشأم للتجارة فيشتري له الكتب ليطالعها، وإنه كان على علم غزير بأحوال الماضين، وكان ملماً بجملة لغات[1]. وإذ كان وهب من المتأخرين وكان نشاطه في الحركة الفكرية في الإسلام لا في الجاهلية، لم نجعل له في هذا الموضع مكاناً، انما مكانه في الأجزاء المتعاقبة بتأريخ الإسلام.

هذه قصة يهود جزيرة العرب قبل الإسلام، قصة لا تستند إلى مؤلفات تأريخية كتبت في تلك الأيام، ولا إلى نصوص جاهلية عربية أو أعجمية لها علاقة بيهود كتبت في ذلك العهد، ولكن استند، في أكثر ما حكيناه، إلى موارد إسلامية، ذكرتهم وأشارت إليهم لمناسبة ما وقع بينهم وبين الرسول من خلاف، وقد ورد

---

[1] لي مقال عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول والثاني منها.

شيء كثير بحقهم في القرآن الكريم وفي الحديث وفي الأخبار ولا سيما أخبار الغزوات، يتعلق معظمه بأمر الخصومة التي وقعت بينهم وبين النبي عند قدومه يثرب، فهو لا صلة له لذلك إلاّ بما له علاقة بهذه الناحية. وما ورد عنهم إذن هو من مورد واحد وطرف واحد. أما الطرف الثاني من أصحاب العلاقة بهذا التأريخ والشأن، وأعني بهم اليهود، فلا صوت لهم فيه، ولا رأي. فلم تصل إلينا منهم كتابة ما عنهم في علاقتهم بالإسلام. كذلك لم تصل إلينا كتابة أو رواية أو خبر عن أولئك اليهود في الموارد التأريخية التي دوّنها غيرهم من مؤرخي يهود وكتابهم عن علاقة يهود جزيرة العرب بالإسلام، وعن إجلاء يهود الحجاز من مواضعهم إلى بلاد الشأم، لا في العربية ولا في العبرانية ولا في بقية اللغات، مع ما لهذا الحادث من خطر في تأريخ اليهود في جزيرة العرب. ولعل الأيام تكشف لنا عن موارد في العبرانية أو في لغة بني إرم تذكر أحوال يهود جزيرة العرب قبل الإسلام وعند ظهوره، وتكشف عن آثار يهود في المواضع التي كانوا يسكنونها في الحجاز، فتبتّ في أمور كثيرة عن حياة هؤلاء. وليس احتمال عثورنا على مثل هذه الآثار ببعيد، فلا بد أن يعثر على حجر من الحجارة المكتوبة التي توضع فوق القبور، فنعرف منه ما لغة الكتابة التي كان يستعملها أولئك اليهود، أهي العبرانية، أو العربية، أو لغة بني إرم، أو أبجدية من الأبجديات المشتقة من القلم المسند؟ وقد يعثر على نصوص أطول من هذه النصوص التي توضع على القبور، تكشف النقاب عن أمور أخرى مهمة تفيدنا في معرفة أحوال اليهود ببلاد العرب قبل الإسلام.

وما دمنا لا نملك نصوصاً يهودية جاهلية، ولا نصوصاً عربية جاهلية تتعرض ليهود، فليس في وسعنا إذن أن نتحدث باطمئنان عن أثر اليهود في الجاهليين أو أثر الجاهليين في اليهود. لقد تحدث عدد من المستشرقين عن أثر اليهود في الجاهليين، فزعموا أن لليهود أثراً عميقاً فيهم، فالختان مثلاً هو أثر من آثار يهود في العرب، وشعائر الحج عند الوثنيين أكثرها هي من إسرائيل، فالطواف حول البيت يرجع أصله إلى بني اسرائبل، ذلك أن قدماءَهم كانوا يطوفون حول خيمة الإلَه (يهوه) إلَه اسرائيل ومنهم تعلمه الجاهليون واتبعوه في طوافهم بالبيت. والإجازة بعرفة يهودية كذلك، لأن الذي كان يجيز الحجاج بعرفة فيأمر الحجيج بالرمي بعد أن يلاحظ الشمس، وقت الغروب يعرف بـ (صوفة)، وصوفة

تسمية عبرانية لها علاقة وصلة بهذه الوظيفة وظيفة مراقبة غروب الشمس وتثبيت وقته، فالإجازة إذن عبرانية الأصل. و(منى) صنم من أصنام اسرائيل، ووادي منى على اسم هذا الصنم الإسرائيلي، وأسماء أيام الأسبوع هي تسميات أخذت من يهود، ولفظة (المدينة) التي تطلق على يثرب، أطلقها اليهود على هذا الموضع قبل الإسلام، وقد أخذوها من الإرمية، لتميز هذا المكان عن (وادي القرى). وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل[١].

وقد غالى بعض اليهود في تقدير يهود جزيرة العرب، فذهب إلى أن أولئك اليهود جلهم إن لم يكونوا كلهم كانوا يحسنون قراءة الكتاب المقدس، بدليل اطلاق القرآن الكريم عليهم (أهل الكتاب). وقد فاته أن عبارة (أهل الكتاب) لا تعني أهل الكتابة، بمعنى أنهم كانوا أصحاب علم بالكتابة، وإنما المراد من ذلك أهل كتاب منزل سماويّ. ويدخل في ذلك النصارى أيضاً لوجود كتاب سماوي لديهم كذلك هو الانجيل. وقد رأيت أن القرآن الكريم قد وصف بعض الأحبار بالعلم، كما رمى أكثرهم بالجهل. أما السواد الأعظم منهم، فقد جعلهم عامةً تتبع أقوال رجالها، فلا علم لها ولا معرفة بأمور الماضين أو الحاضرين.

وأنا لا أريد هنا أن أجادل في نفي هذه الأمور، أو إثباتها، فأخذ الشعوب واقتباسها بعضها عن بعض، من القضايا التي لا يمكن أن ينكرها إلاّ المعاندون الجاهلون المتعصبون. وقد رأيت ان ابن الكلبي وغيره من قدامى الأخباريين قد أشاروا إلى أن أصل بعض الأصنام عند العرب هو من الشمال، استورد في مناسبات أشاروا إليها، كما أن التنقيبات الأثرية قد أثبتت وجود صلات فكرية بين جزيرة العرب وبين العالم الخارجي، وأن ما يزعمه القائلون بعزلة الجاهليين عن بقية العالم هو هراء لا يستند إلى دليل. ولكني في هذه الأمور من الحذرين. أكره الجزم في بشيء من غير برهان قاطع ودليل محسوس. فكلام أهل الأخبار، أكثره مما لا يمكن الاعتماد عليه، وقد رأينا طبيعة أكثره ونوعه. ثم إن الكثير مما له علاقةّ بيهود وبالدين هو مما أخذ من أهل الكتاب في الإسلام أو من أفواه مسلمة أهل الكتاب. فهو متأخر عن الجاهلية، فلا يمكن أن يشمل الجاهليين من أهل الكتاب ومن وثنيين. وعلينا الآن التمييز بين هذا الذي أدخل بين العرب بعد أيام الجاهلية

---

[1] اليهود (٧٨ وما بعدها)، Graetz, Vol., III, p. 60.

وبين ذلك الذي كان معروفاً عند الجاهليين وقد ورد عنهم، وذلك لنتمكن من إبداء رأي في هذه القضايا المعقدة.

ثم إن العرب كانوا شعباً سامياً، كاليهود في اصطلاح العلماء، وتشترك البطون السامية في كثير من أصول التفكير والعقيدة، ومعنى هذا أن ما تجده عند يهود قد يكون عند العرب وعند غيرهم ممن يدخلهم المستشرقون في هذه الزمرة. فلم كل شيء ليهود، ونحكم على أن الجاهليين قد أخذوه منهم، ولا نقول إن هذا من فلك التراث القديم الموروث؟ أنا لا أقول ذلك متأثراً بدافع من العصبية، انما أقول ذلك لأني أدين بفكرة هي ان الاستعجال في اصدار الأحكام بغير دليل خطأ فاحش لا يجوز لإنسان يشعر بانسانيته أن يوقع نفسه فيه.

هذا ولا بدّ بالطبع من أن يتأثر الجاهليون المجاورون لليهود بعض التأثر بهم، بأن يأخذوا منهم بعض الأشياء ويتعلموا منهم بعض الأشياء التي تنقصهم. والتي هم في حاجة ماسة إليها. فذلك أمر لا بد منه. بهما ولا بد وأن يكون اليهود قد اقتبسوا أشياء من جيرانهم العرب، وعملوا على محاكاتهم في حياتهم الاجتماعية، لا سيما وبينهم يهود من أصول عربية.

الفصل الثامن والسبعون

شعر اليهود

واللغة التي كان يتكلم بها اليهود، هي اللهجات العربية التي كان يتكلم بها أهل المناطق التي ينزلونها. ولتكلم اليهود في كل قطر يحلّون فيه بشيء من الرطانة، لا يستبعد أن تكون لغتهم العربية التي كانوا يتكلمون بها عربية. تشوبها الرطانة العبرانية. ولكن هذا لا يمنع من وجود أناس فيما بينهم كانوا يتكلمون ويكتبون بالعبرانية، ولا سيما أنهم كانوا يستعملون العبرانية في دراسة أمورهم الدينية وفي كتابة النشرات والتعاويذ، كما كانوا يستعملونها في السحر. وقد وردت إشارات إلى ذلك في كتب الحديث. وقد ورد أيضاً أنهم كانوا يعلمون أطفالهم العبرانية في الكتاب.

ويروي رواة الشعر شعراً جاهلياً زعموا أن قائليه هم من يهود. وأكثره أبيات لشعراء لا نعرف من أمرهم شيئاً، لعلها بقايا قصائد. أما القصائد، فينسب أكثرها إلى السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق في تيماء، وصاحب قصة الوفاء المشهورة[١]. وهذا الشعر المنسوب إلى اليهود، لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين، ولا نكاد نلمس فيه أثراً لليهودية ولا للعبرانية. فالفاظه عربية صافية نقية مثل ألفاظ أهل الجاهلية، وأفكاره على

[1] تأريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان (١/ ١٢١)، (طبعة دار المعارف بمصر)، (طبعة ثانية)، (تعريب الدكتور عبد الحليم النجار).

نمط أفكار الجاهليين. ويصعب أن تجد فيه أثراً للتوراة والتلمود، مما يحملنا على التفكير في صحة هذا الشعر وفي درجة تعمق صاحبه وتفهمه لدين يهود.

ومن الشعراء الذين روى الأخباريون شيئاً من شعرهم بعد السموأل: (أوس بن دنن)، وهو من بني قريظة، و(كعب بن سعد القرظي)، و(سارة القريظية)، و(سعية بن غريض بن عادياء) (شعية بن غريض بن عادياء)، و(الربيع بن أبي الحقيق)، و(أبو الديال) (أبو الزناد)، وله شعر في رثاء يهود تيماء الذين أجلاهم الرسول و(شريح بن عمران)، و(كعب بن الاشرف)، و(أبو رافع اليهودي)[١].

وروى أن (جعفر بن محمد الطيلسي) جمع أشعار اليهود في ديوان، ويظهر أنه أخذ ذلك من كتاب للسكري. ويقال إن الموفق بالله أخا الخليفة المعتمد العباس طلب من الوزير (إسماعيل بن بلبل) أن يقدم إليه ديواناً في شعر اليهود، فطلب الوزير من العالم اللغوي الأديب (المبرّد) أن يقدم إليه ديواناً في شعر يهود، فأخبره المبرد أنه لا يعرف شعراً لليهود. فطلب الوزير من العالم (ثعلب) أن يقدم إليه ما عنده من شعر لليهود، فأجابه أن لديه ديواناً من شعرهم، فقدمه إليه[٢].

وقد كانت بين المبرد وثعلب خصومة شديدة ومنافسة عنيفة، فلعل هذا الخبر هو من مرويات الجماعة المتعصبة لأحد الطرفين في الطعن في أحدهما والحطّ من شأنه، فقد تحزّب طلاب العلم وانقسموا جماعتين، كل جماعة كانت تنتصر لصاحبها، إذ لا يعقل ألا يكون للمبرد علم بشعر لليهود، وقد ذكر من سبقه مثل أبي تمام في حماسته والجمحي في طبقات الشعراء كما ورد في الأصمعيات شعراً لهم[٣]، كما أن في كتابه الكامل، نتفاً من شعرهم، أو لعل إنكاره لشعرهم بمعنى أن أكثر ما نسب إليهم من شعر هو في نظره مزيف مصنوع، ولهذا لم يُعنَ بجمع ما ورد عنهم، ولا يمكن أنْ يكون ديواناً في شعر يهود[٤].

---

[1] الأغاني (١٩/ ٩٤ وما بعدها)، الميداني (٢/ ٢٧٦)، المشرق، السنة الثانية عشرة (١٩٠٩)، (١٦٢)، Margoliouth, p. 76.

[2] Margoliouth, p. 75.

[3] طبقات الشعراء للجمعي (٧٠ وما بعدها).

[4] Margoliouth, p. 74.

والشعراء اليهود الذين ذكرهم الجمحي في كتابه، (طبقات الشعراء)، هم: السموأل بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق، وهو من (بني النضير)، وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعبة بن غريض (شعية بن غريض) وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذيال، ودرهم بن زيد. وقد ذكر لهم أبياتاً مما قالوه من الشعر[1].

والسموأل، وهو من سادات يهود الحجاز ومن أثريائهم وملاكهم، أحسن الشعراء اليهود حظاً في الخلود. بقيت أشعاره، وحفظت قصائده، ولم يبخل علماء الشعر عليه، فجمعوا شعره في ديوان. ولم يشأ الزمان أن يبخل عليه فهيأ له من طبعه. ولا تزال تلك القصة: قصته مع مخلفات امرئ القيس مضرب الأمثال. وصير هذا الشاعر الملاك المرابي مثلاً وقدوة للأوفياء، فضرب به المثل وقيل: أوفى من السموأل، ولعل القصيدة المبتدئة بهذه الأبيات:

وفيت بأدرع الكنـــدي، إني	إذا ما ذمّ أقـــوام وفيت
وأوصى عاديـــاً يومـــاً بألا	تهدمَ يا سموأل ما بنيت
بنى لي عادياً حصناً حصينا	وماء كلما شئت استقيت

هي التي خلدت هذه القصة، وصيرت لها فروعاً وذيولاً، وهي قصة تجعل الكندي المقصود بها هو الشاعر الشهير امرأ القيس وهي التي خلدت اسم صاحب ذلك الحصن.

ونجد هذه القصة في قصيدة للأعشى، يقال إنه قالها مستجيراً بابن السموأل شريح، ليفكه من أسره، وكان قد وقع أسيراً في يد رجل كلبي كان الأعشى قد هجاه، ثم ظفر به الكلبي، فأسره وهو لا يعرفه، فنزل بشريح بن السموأل وأحسن ضيافته، فلما مرّ بالأسرى، قال الاعشى أبياتاً يمدحه فيها، ويمدح أباه، ويذكر كيف أن أباه اختار أدراع الكندي، وأبى إلاّ أن يسلمها إلى آله وذويه، على أن يسلمها إلى آسري ابنه إذا أطلقوه. وهي أبيات نجته من أسر الكلبي، ففر منه بعد أن وهبه لشريح وهو لا يعرف به. فلما عرف به، ندم. ولكن ندمه هذا لم يفده شيئاً لأنه جاء بعد فوات الوقت[2].

---

[1] (ص ٧٠ وما بعدها).
[2] الأغاني (١٩/ ٩٩ وما بعدها).

ويروي الأخباريون ورواة الشعر أشعاراً أخرى للأعشى قالها في مدح السموأل وفي وصف حصنه وفي سرد قصة وفائه، تجد فيها مصطلحات وجملاً وكلمات ترد أيضاً في الشعر المنسوب إلى السموأل. وهذا ما يحملنا على التفكير في كيفية حدوث ذلك ووقوعه. هل حدث ذلك لوقوف الأعشى على شعر السموأل واقتباسه منه، باعتبار أن السموأل أقدم عهداً منه أم حدث بتوارد الخواطر والمعاني فهو من قبيل المصادفة ليس غير، أم صنع فيما بعد على لسان السموأل بعد شيوع هذا الشعر المنسوب إلى الأعشى صاحب الأبلق الفرد، أم الشعران مصنوعان صنعاً في الإسلام ووضعا على لسان الرجلين؟ وبالجملة أن أكثر ما ينسب إلى السموأل، هو من النوع المصنوع الذي شك فيه، وبعضه مما نسب إلى غيره من الشعراء.

أما جامع شعر السموأل في ديوان، فهو إبراهيم بن عرفة الملقب بنفطويه (٣٢٣ ــ ٣٢٤هـ)، من مشاهير علماء العربية. وبعض ما هو مذكور في هذا الديوان[1]، مثل قصيدته الشهيرة:

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتــديه جميــل

مذكور في حماسة أبي تمام، وبعضه من مرويات الأصمعي ولم يذكر نفطويه جامع الديوان سنده في رواية هذا الشعر. وهذا السند مهم جداً عند المؤرخ للوقوف على كيفية حصول هذا العالم على شعر السموأل، ولمعرفة صحة نسبته اليه.

وفي الشعر المنسوب إلى السموأل جزء منحول مصنوع، وُضع عليه، وجزء منسوب إلى غيره، وقد أشار اليه العلماء. ونحن إذا قمنا بغربلته وتنقيته نجد أقله له وأكثره لغيره، قد يكون من صنعة شاعر آخر، وقد يكون من وضع وضَعَة الشعر ومفتعليه. ثم إذا فحصنا هذا القليل الذي يتفق أهل الأخبار على أنه له، لا نجد فيه ما يشير إلى وجود أثر لدين يهود في هذا الشعر.

وقد استدل الأب (شيخو) على نصرانية ذلك الشاعر، من قصيدة نسبت الى السموأل، ورد فيها شيء من القصص الديني، والأب شيخو لا يكتفي بنصرانية

[1] طبع هذا الديوان في بيروت (سنة ١٩٠٩م) في مجلة المشرق للسنة المذكورة (ص ١٦١ ما بعدها)، كما نشره عيسى سابا بعنوان: شعر السموأل ببيرت كذلك. وأعاد نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين بعنوان: «ديوان السموأل» صنعة أبي عبد الله نفطويه وطبع ببغداد سنة ١٩٥٥م.

السموأل وحده، بل يرى أن النصرانية هي ديانة جميع الشعراء الجاهليين، ولهذا ألف فيهم كتابه (شعراء النصرانية) وتحدث فيه عنهم على أنهم نصارى مؤمنون بدين المسيح[1]. وقد فاته شيء واحد لا أدري كيف عزب عن باله، عفا الله عنه، هو: تعيينه مذهبهم في النصرانية، ونصه على ترهبهم وتنسكهم ولبسهم المسوح على طريقة الرهبان.

ومن القصائد المنسوبة إلى السموأل، قصيدة مطلعها:

ألا أيها الضيف الذي عاب سادتي   ألا اسمع جوابي لست عنك بغافل

ختمها بهذا البيت:

وفي آخر الأيام جاء مسيحنا   فأهدى بني الدنيا سلامَ التكامل[2]

وهي قصيدة تختلف في أسلوب نظمها وفي العرض العام عن طرق النظم المألوفة في الشعر قبل الإسلام، والشعر المنسوب إلى السموأل. وقد وردت فيه كلمة (رحمانهم) وأشير فيها إلى قصة إبراهيم الخليل، والذبيح ابنه، والى تسميته بإسرائيل، ثم إلى الأسباط. وقصة بني إسرائيل مع فرعون مصر. وقد أغرق الله فرعون في البحر. والى القدس والطور، وأمثال ذلك.

وهذه القصيدة هي ردّ لأقوال رجل يظهر أنه عاب بني اسرائيل، وتهجم عليهم، فأثار هذا التطاول صاحب هذه الأبيات فنظمها في الردّ عليه، وفي الفخر بقومه، مستشهداً على ذلك بالقصص الوارد في التوراة عن بني اسرائيل وعن الأنبياء: إبراهيم وإِسحاق ويوسف، وختمها بالبيت الذي رويته منها عن مجيء المسيح، وقد دعاه بـ (مسيحنا) لأن المسيح من اليهود. ذكر المسيح فيها بعد حديثه عن موسى وتكليم الربّ له على جبل الطور، وهو انتقال فجائي غريب ليست له صلةٌ ما بالأبيات المتقدمة.

---

[1] Nallino, Raccolta, III, p. 105, Nöldek, Sammaual, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVII, 1912, S. 177, Welahusen, Zum Koran in ZDMG, LXVII, 1913, S. 630, Eisenburg, Zu Samaw'al, in ZDMG., LXVIII, 1914, S. 644, Al-Samaw'al ibn Adiya, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVI, 1912, S. 318.

[2] شعر السموأل (ص ٥٣)، (عسى سابا)، «بيروت ١٩٥١م».

والحوادث المذكورة في هذه القصيدة والاستشهادات التي استشهد بها الشاعر، وإن كانت مما هو مذكور في (الكتاب المقدس) بجزءيه، تدل على أن ناظمها قد استعان في نظم المصطلحات التي استعملها وطريقة تعبيره عن الحوادث بالقرآن الكريم، وبالقصص الوارد في كتب سير الرسل والأنبياء، وأن الغاية من نظمها هو إثبات مجيء المسيح، وقد جاء. وشهادة شاعر يهودي مفيدة ولا شك في هذا الباب.

ولم ترد هذه القصة في ديوان السموأل ولا في كتب الأدب القديمة. وعدم ورودها في تلك الموارد، دليل بالطبع على أنها مما وضع بعد تدوين شعر السموأل في الديوان المنسوب إليه وفي كتب الأدب القديمة، وأن هذه القصيدة هي من الشعر المصنوع المتأخر بالنسبة إلى بقية ما نسب إليه.

وللسموأل آراء دينية تراها في هذا الشعر المنسوب إليه، في بعضه إقرار بالبعث والحساب، وأن المليك وهو الرب يجازي الإنسان على ما قام به وما فعله من خير أو شرّ[١]، وأن الله قد قدّر كل شيء وقضى به، وأن كل ما قدره كائن ولكل رزقه[٢]، وأن الإنسان ميت من يوم يولد، وفيه جرثومة الموت، ولد من ميت، ثم يموت، ثم يبعث تارة أخرى للحساب والكتاب، ولكل أجل[٣].

وفي قصيدة تائية:

نطفة ما منيت يوم منيت   أمرت أمرها وفيها بريت
كنّهـــا الله في مكانٍ خفي   وخفيّ مكانهـــا لو خفيت

وهي فيِ كيفية نشوء الإنسان منَ مني يُمنى، وهي فكرة يظهر أن صاحب هذا الشعر اقتبسها من القرآن الكريم، نظراً لمظهر التأثر به في تعبيره عن كيفية خلق الإنسان. وقد تطرق في هذه القصيدة إلى ما ذكرته من اعتقاده بالموت وبالبعث بعده وبالحساب والثواب والعقاب، والى سليمان والحواري، يحيى وبقايا

---

[1] شعر السموأل (بيروت ١٥٩٥١)، «عيسى سابا» (ص ٢٦).
[2] ليس يعطى القوي فضلاً من الرز   ق ولا يحرم الضعيف الشخيت
بل لكل رزقـــه مـــا قضى اللـــ   ـــه وإن حـــز أنفـــه المستميت
شعر السمؤال (٢٨).
[3] شعر السموأل (ص ٢٩ وما بعدها).

الأسباط أسباط يعقوب دارس التوراة والتابوت[١]. والى انفلاق البحر لموسى وأشار إلى طالوت وجالوت. والاشارات الموجزة هذه، وإن كانت لقصص موجود في التوراة، لم يعتمد الشاعر عليها، بل اعتمد على القرآن الكريم[٢]. ف (طالوت) مثلاً غير مذكور في التوراة، انما ذكر في القرآن الكريم. وهو اسم الملك (شاؤول) في التوراة[٣]. وفي أخذ الشاعر بهذه التسمية القرآنية التي لا وجود لها في التوراة دليل على أنه وضع شعره بعد نزول القرآن، أي في الإسلام. وأما (جالوت) فلفظة وردت في كتاب الله كذلك، وهي تقابل Galiath في العهد القديم[٤]. ويلاحظ أن صاحب القصيدة قد أخذ مصاب (جالوت) من القرآن الكريم، كما أنه سار على نهجه في ذكر طالوت وجالوت، وهو ينفرد بذلك عن التوراة.

وشعر فيه هذه المصطلحات وهذه المعاني، لا يمكن أن يكون شعراً يهودياً جاهلياً، بل لا بد أن يكون من الشعر المصنوع المنظوم في الإسلام.

فليس في شعر السموأل إذن شيء خاص من الأشياء التي انفردت بها يهود، وهذا الفخر الذي نراه في إسرائيل وفي الأسباط هو فخر يقوم على نمط فخر القبائل بقبائلهم، وليس شيئاً من دين. ثم إن بنا حاجةً إلى إثبات أنه من نظم السموأل حقاً، وأنه ليس من نظم إنسان آخر قاله على لسان السموأل في مدح اليهود وفي الفخر بهم. ولا عجب أن يقوم إنسان بوضع شعر على لسان السموأل أو غيره من الشعراء الجاهليين، فكتب الأدب مليئة بشواهد تذكر أسماء قصائد منتحلة، وضعت على ألسنة شعراء جاهليين، وأسماء من انتحل ذلك الشعر. ولم يكن انتحال ذلك الشعر عملاً سهلاً، إذ لا بد له من قدرة وعلم ومعرفة بأساليب شعر الماضين. وقد كان حمّاد الراوية، وهو أديب كبير وراوية شهير، على رأست طبقة المنتحلين الوضاعين للشعر.

---

[1] وبقـــايا الأســـباط أســـباط يعقـــو ب دارسي التوراة والتـــابوت
وانفلاق الأمواج طـــورين عن مو سى وبعـــد الممـــلـك الطالوت
ومصاب الافريس حين عصى اللـ ـــه وإذا صاب حينه الجالوت
شعر السموأل (ص ٢٧)، ديوان السموأل (ص ٢٥).

[2] سورة البقرة، الآية ٢٤٦ وما بعدها.

[3] Ency., IV, p. 642.

[4] Ency., I, p. 1008, Hastings,p. 303.

وأشهر القصائد والأشعار المنسوبة إلى السموأل، القصيدة المقولة في الفخر التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداءٍ يرتديــه جميل

وهي قصيدة شهيرة معروفة تعد نموذجاً في الفخر والحماسة وفي حسن النظم، ولذلك تحفظ في المدارس حتى اليوم، ويضيف إليها بعض العلماء هذا البيت:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعز على من رامــه ويطول

وبعض العلماء يزيد عليها وينقص منها أبياتاً أخرى. وهي مع ذلك مما يعزوه بعض العلماء إلى شعراء آخرين، فعزاها بعضهم إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارني، أو عبد الله بن عبد الرحمان، وقيل ابن عبد الرحيم الأزدي، وهو شاعر شامي إسلامي[1].

وينسب بعض الرواة القصيدة المذكورة إلى شاعر إسلامي آخر يسمى (دكين) الراجز[2]، فترى من هذا مبلغ الاختلاف في صحة نسبة هذه القصيدة إلى السموأل.

ولم يرد في ديــوان السموأل. ولا في بعض الكتب الأخرى البيت المتقدم، وأعني به قوله:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعزّ على من رامــه ويطول

ولعدم وروده في ديوانه أهمية بالطبع، إذ يجوز أن تكون هذه الزيادة متعمدة لإثبات إنها من شعر السموأل حقاً، وآية ذلك ورود (الأبلق الفرد) في هذه القصيدة، وليس هناك حصن اشتهر وعرف بهذه التسمية غير هذا الحصن.

وينسب إلى السموأل قوله معتذراً لرجل من ملوك كندة:

وإن كنت ما بلغت عني فلامني صديقي وحزت من يدي الأنامل

---

[1] ديوان السموأل (ص ١٠ وما بعدها)، الحماسة (ص ٤٩)، العيني (٢/ ٧٧)، الأمالي (١/ ٢٧٣).
[2] الأغاني (٩/ ٢٦٢)، (طبعة دار الكتب المصرية).

وقد ذكر هذا البيت، وكذلك بيت آخر معه في ديوانه. غير أن بعض العلماء ينسبها إلى معدان بن نجواس بن فروة السكوني[1].

وللأخباريين روايات تختلف بعض الاختلاف في اسم والد السموأل فمنهم من جعله عادياء، ومنهم من دعاه أوفى، ومنهم من سمّاه حيّان، (حسان)، ومنهم من قال له (السموأل بن غريض بن عاديا)[2]. وهم يقولون إنه يهودي، ويقولون أحياناً إنه من غسان، وغسان بالطبع ليست من يهود. ومنهم من قال إن والده من يهود، أما أمه فكانت من غسان[3]. فهو إذن ذو نصفين ــ اذا صح التعبير ــ نصف يهودي، ونصف آخر عربي. ثم هم يذكرون أنه كانت له صلات وثيقة بأمراء غسان، ولصلته هذه بهم قصده امرؤ القيس، طالبا وساطته له عند الحارث بن أبي شمر الغساني، ليوصله إلى قيصر، فينال بمساعدته حقه من خصومه[4]. أما نحن، فلا يهمنا من أمر السموأل في هذا المكان شيء، وكل ما يهمنا هو ما له صلة بدين اليهود، وعقيدة يهود الجاهلية في الحجاز.

ويستشهد الذين يذكرون أن اسم والد السموأل هو (عاديا) ببيت شعر نسبوه إلى السموأل هو:

بني لي عاديا حصنًا حصيناً وعينـــاً كلما شئت استقيت

فقالوا إن أباه (عاديا) اليهودي، وهو باني ذلك الحصن[5].

وقد جعل (ابن دريد) نسب (السموأل) في (بني غسان)، وجعل عمود نسبه على هذا النحو: (السموأل بن حيّا بن عادياء بن رفاعه بن الحارث، بن ثعلبه بن كعب)[6].

---

[1] ديوان السموأل (ص ٤٣ وما بعدها)، سمط اللآلئ (٤٥٧).
[2] الأغاني (١٢/٣)، (١٩/ ٩٨)، الميداني (٢/ ٢٧٦)، تاج العروس (٧/ ٣٨٢)، (السموأل بن أوفى بن عادياء بن رفاعة بن جفنة)، التاج (٧/ ٣٨٢)، المشرق، النسة الثانية عشرة (١٩٠٩)، (ص ١٦٢)، اليهود (ص ٢٧)، معاهد التنصيص (١/ ١٣١)، مروج (٢/ ١٧٦)، (دار الأندلس).
[3] الأغاني (١٩/ ٩٨)، المشرق، العدد المذكور.
[4] الأغاني (١٩/ ٩٨).
[5] تاج العروس (٦/ ٢٩٨).
[6] الاشتقاق (٢٥٩/٢)، «وستنفلد».

ولا يستبعد بعض المستشرقين احتمال كون السموأل من أصل عربي، هو من غسان. تهود في جملة من تهود من العرب، لا سيما أن في منطقة يثرب أحياء نص على أصلها العربي، دخلت في هذا الدين. وقد ذهب بعضهم إلى احتمال وجود رجلين بهذا الاسم: رجل غساني عربي، وأخر يهودي[١].

وفي هذا البيت المنسوب إلى الأعشى:

أرى عاديا لم يمنع الموت ما له   وفرد بتيمـــاء اليهودي أبلـــق

ما يشير إلى يهودية السموأل، وهو يشير أيضاً إلى غنى عادياء وكثرة ماله.

وقت عرف حصن السموأل بالأبلق، وبالأبلق الفرد، وهو حصن مشرف على تيماء، وقد ذكر الأخباريون أنه إنما دعي بالأبلق لأنه كان في بنائه بياض وحمرة. وكان أول من بناه عادياء أبو السموأل. وقد ذكر ياقوت الحموي أن موضعه على رابية فيها آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنه من العظمة والحصانة، وهو خراب[٢] ولست أرى أن الأبلق أو الأبلق الفرد هي تسمية ذلك الحصن، إنما هي صفة له، أخذت من البيت:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره   يعز على من رامه ويطول

وهو بيت ينسب قوله إلى السموأل. ومن أبيات أخرى تنسب إلى الأعشى. وورد في أبيات منسوبة إلى الأعشى أن باني الأبلق هو (سليمان)، قال:

ولا عاديا لم يمنع الموت ما له   وحصن بتيماء اليهودي أبـــلق
بناه ســـليمان بن داوود حقـــبة   له أزجٌ عـــالٍ وطيء موثـــق
يوازي كبيدات الســـماء ودونه   بلاط ودارات وكلس وخندق[٣]

ولكن هذا البيت يناقض ما ينسب إلى السموأل من شعر فيه أن باني ذلك

---

[1] Zeitschrift für Assyriologie, 1912, S. 174.
[2] البلدان (١/ ٨٦)، القزويني، آثار البلاد (٤٨)، المشرق (١٩٠٩)، (١٦٣)، تاج العروس (٦/ ٢٩٨)، (بلق).
[3] البلدان (١/ ٨٧)، تاج العروس (٦/ ٢٩٨).

الحصن، هو أبوه (عاديا) (عادياء). ولست أستبعد أن يكون أكثر هذا الشعر من الشعر المصنوع في الإسلام. وأما نسبة بناء الحصن إلى سليمان، فهي من الأمور المألوفة التي رواها أهل الأخبار عن أبنية سليمان في جزيرة العرب. وردت من أساطير روّجها اليهود بين العرب في الجاهلية وفي الإسلام عن عظمة سليمان وبنائه الأبنية العظيمة. وقد خصصوا سليمان دون سائر رجال اليهود بالبناء، لبنائه الهيكل الذي أدهش العبرانيين ولا شك، ولم يكن لهم عهد بمثل هذا العهد من قبل. ومن يدري، فلعل هذه الأبيات المنسوبة إلى الأعشى هي من عمل أناس في الإسلام كلفهم اليهود صنعها، للتفاخر والتباهي بمآثرهم الماضية، إنها حقاً من قول الأعشى، صنعها لليهود بعد أن فك شريح أسره وأعطاه شيئاً من المال، والمال مالك لكل لسان.

وزعم أهل الأخبار أن الملكة (الزّباء) قصدت هذا الحصن، وحصن مارد، فعجزت عنهما، فقالت: «تمرد مارد وعزّ الأبلق»، فسيرته العرب مثلاً لكل عزيز ممتنع[١]. و(مارد) حصن بدومة الجندل[٢].

ونحن إذا تتبعنا الشعر المنسوب إلى السموأل، نجد معظمه كما قلت منتحلاً موضوعاً، صنع فيما بعد. وإذا تتبعنا سيرة هذا الشخص وما قيل فيه، نجد أكثره مما لا يستطيع الثبات للنقد. ولعل هذا هو الذي حمل بعض المستشرقين على الشك لا في شعر السموأل وحده، بل في شخصية السموأل نفسها، فذهبوا إلى أنها من اختراع أهل الأخبار، اخترعوها لما سمعوه من قصص مذكورة في التوراة عن (صموئيل)[٣].

وقد نسب بعض المستشرقين بقاء شعر السموأل وعدم ذهابه في الإسلام إلى أهله الذين دخلوا في الإسلام، وبقوا في أماكنهم من تيماء، فلم يكن من الهين عليهم نبذ شعره وتركه، ولهذا حافظوا عليه، فكانت محافظتهم هذه عليه سبب بقائه حتى اليوم[٤].

---

[1] تاج العروس (٦/ ٢٩٨)، (بلق).
[2] تاج العروس (٢/ ٥٠)، (مرد).
[3] Margoliouth, p. 72, Winckler, in MVAG., Bd., S. 262.
[4] Islamic Culture, III, 2, p. 190, (1939).

وقد ذكر الأخباريون أسماء ثلاثة أولاد للسموأل. أولهم شريح الذي مر ذكره. وثانيهما حوط، وثالثها منذر. ولا نعرف من أمرهما غير الاسم. ويظن أن حوطاً هو الذي وقع في الأسر فذبح[1].

أما (سعية بن غريض) (شعية بن غريض بن السموأل) (شعبة)، فهو أخو السموأل على رواية لأبي الفرج الأصبهاني، جعلت اسم والد السموأل: (غريض بن عادياء)[2]، وهو حفيده على رواية أخرى. وقد أورد له الأصبهاني جملة أبيات في أثناء كلامه على السموأل[3]. ويذكر أنه كان غنياً صاحب أملاك وأموال، يعقد المجالس، وينادمه قوم من الأوس والخزرج، وأن بعض ملوك اليمن أغار عليه فانتسف من ماله حتى افتقر ولم يبقَ له مال، ثم عاد إليه حاله، وأنه عاش طويلاً إلى أيام معاوية، وأنه دخل في الإسلام، وأن معاوية رآه يصلي في المسجد الحرام، فطلب حضوره، وسأله عن شعر أبيه الذي يرثي به نفسه، فأنشده قصيدته:

يا ليت شعري حين أندب هالكاً   مـــاذا تــؤبنني به أنواحي

ويذكر رواة هذا الخبر أن (سعية) كان شيخاً طاعناً في السن يومئذ. وأنه لم يكن يرى حقاً لمعاوبة في الخلافة، ولذلك لم يقبل أن يسلم عليه بالخلافة، وأنه أجاب أجوبة فيها خشونة وجفاء، وأن الخليفة كف أصحابه من الإساءة إليه قائلاً لهم: قد خرف الشيخ، فأقيموه. فأخذ بيده فأقيم.

والقصيدة المذكورة ينسبها بعض الرواة إلى السموأل، وهذه النسبة تجعل السموأل أبا لسعية لا أخاً له. أما اذا جعلناها من شعر غريض (عريض)، والد سعية، فلا يكون هناك إشكال ما من ناحية نسبة القصيدة، غير أن علينا حينئذ جعل (سعية) (شعية) حفيدا للسموأل، في رواية من جعله (شعية بن غريض بن السموأل). بإضافة ولد آخر على أولاد السموأل، اسمه (غريض) (الغريض).

---

[1] المشرق، السنة (١٩٠٩)، (ص ١٦٣).
[2] الأغاني (١٩/ ١٠٠)، طبقات الشعراء، لابن سلام (١١١)، اليهود (٣١).
[3] Nöldeke, Beiträge, S. 64.

وذكر البحتري في (حماسته) اسم شاعر يهودي آخر، هو: عريض بن شعبة، ونسب اليه هذا الشعر:

ليس يعطى القوي فضلاً من الرز ق ولا يحــرم الضعيف الخبيث
بــل لكلّ رزقــه ما قضى اللّــ ـــه ولــو كــد نفسه المستميت[1]

وهو من شعر السموأل نفسه على رواية بعض الأخباريين، يروونه له مع شيء من الاختلاف[2].

أما (الربيع بن أبي الحقيق)، فهو من بني قريظة على رواية، أو من بني النضير على رواية أخرى. وقد اشترك في يوم بعاث، وعاصر النابغة الشاعر الشهير، وخلف جملة أولاد ناصبوا الرسول العداء[3].

ومن بقية شعراء يهود: (أوس بن دنى) من قريظة[4]، و(كعب بن الأشرف)[5]، و(سمّاك اليهودي). وهو شاعر قوي في رده على المسلمين عنيف[6].

وكان (كعب بن الأشرف) رجلاً شاعراً يهجو النبي وأصحابه ويحرض عليه ويؤذيهم. خرج إلى مكة ونزل على (المطلب بن أبي وداعة السهمي)، بعد معركة (بدر) وجعل يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب. فكان حاصل هجائه القتل[7].

وكان (أبو عفك) اليهودي ممن يحرض على رسول الله ويقول الشعر، وكان شيخاً كبيراً. فقتل لتحريضه على رسول الله وقوله الشعر فيه[8].

---

1 Nöldeke, Beiträge, S. 71.

2 ليس يعطى القوى فضلاً من الرز ق ولا يحرك الضعيف الشخيت
بل لكل من رزقه ما قضى اللّــ ـــه وإن جــز أنــفه المستميت
شعر السموأل (٢٧ وما بعدها).

3 الأغاني (٢١/ ٦٣)، Nöldeke, Beiträge, S. 72.

4 الأغاني (١٩/ ٩٤).

5 الأغاني (١٩/ ١٠٦)، ابن هشام (٢/ ١٢٣)، «حاشية على الروض».

6 ابن هشام (٢/ ١٧٩)، «حاشية على الروض».

7 نهاية الأرب (١٧/ ٧٢ وما بعده).

8 نهاية الأرب (١٧/ ٦٦ وما بعدها.

الفصل التاسع والسبعون

النصرانية بين الجاهليين

ولم تكن اليهودية، الديانة السماوية الوحيدة التي وجدت لها سبيلاَ إلى جزيرة العرب، بل وجدت ديانة سماوية أخرى طريقاً لها إلى العرب، هي الديانة النصرانية. وهي ديانة أحدث عهداً من الديانة الأولى، لأنها قامت بعدها، ونشأت على أسسها ومبادئها، ولكنها كانت أوسع أفقاً وتفكيراً من الأولى. فبينما حبست اليهودية نفسها في بني إسرائيل، وجعلت إلهها إلَه بني إسرائيل شعب الله المختار، جعلت النصرانية ديانتها ديانة عالميةً جاءت لجميع البشر. وبينما قيّدت اليهودية أبنائها بقيود تكاد تضبط حركاتهم وسكناتهم، وفرضت عليهم فروضاً ثقيلة، نجد النصرانية أكثر تساهلاً وتسامحاً، فلم تقيد أبنائها بقيود شديدة، ولم تفرض عليهم أحكاماً اشترطت عليهم وجوب تنفيذها. وقد قام رجال الدين النصارى منذ أول نشأتها بالتبشير بها، وبنشرها بين الشعوب، وبذلك تميزت عن اليهودية التي جمدت، واقتصرت على بني إسرائيل.

ولفظة (النصرانية) و(نصارى) التي تطلق في العربية على أتباع المسيح، من الألفاظ المعربة. يرى بعضى المستشرقين أنّها من أصل سرباني هو: (نصرويو) Nosroyo، (نصرايا) Nasraya [1]، ويرى بعضٌ آخر أنّها من Nazerenes التّسمية العبرانية التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح. وقد وردت في

---

[1] غرائب اللغة (ص ٢٠٧)، Ency. , III, p. 848.

في العهد الجديد في (أعمال الرسل) حكاية على لسان يهود[١]. ويرى بعض المؤرخين أن لها صلةً (بالناصرة) التي كان منها (يسوع) حيث يُقال: (يسوع الناصري) أو أنّ لها صلة بـ (الناصريين) Nasarenes = Nazarenes إحدى الفرق القديمة اليهودية المتنصرة. وقد بقي اليهود يطلقون على من اتّبع ديانة المسيح (النصارى)، وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم، ومن هنا صارت النصرانية علماً لديانة المسيح عند المسلمين.

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في معنى هذه الكلمة وفي أصلها، هي من قبيل التفسيرات المألوفة المعروفة عنهم في الكلمات الغريبة التي لا يعرفون لها أصلاً. وقد ذهب بعضهم إلى أنها نسبة إلى الناصرة التي نُسب إليها المسيح[٢]. وزعم بعض منهم أنها نسبة إلى قرية يُقال لها (نصران)، فقبل نصراني وجمعه نصارى[٣]. وذُكر أن (النصرانة) هي مؤنث النصراني[٤].

ولم أعثر حتى الآن على نص جاهلي منشور وردت فيه هذه التسمية. أما في الشعر الجاهلي، وفي شعر المخضرمين، فقد ذُكر ان أمية بن أبي الصلت ذكرهم في هذا البيت:

أيام يلقى نصاراهم مسيحهم   والكائنين له وداً وقربانا[٥]

وذكر أنّ شاعراً جاهلياً ذكر النصارى في شعر له، هو:

اليكَ تعدو قلقا وضينها   معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

1 أعمال الرسل: الإصحاح ٢٤، الآية ٥ «فإننا إذّ وجدنا هذا الرجل مفسداً ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة ومقدام شيعة الناصريين»، Ency. Relig. Ethic. , III, p. 574.

2 اللسان (٧/ ٦٨)، تاج العروس (٣/ ٥٦٨)، (نصر).

3 المفردات، للأصفهاني (ص ٥١٤).

4 فكلتاهما خرت وأسجد رأسها   كما أسجدت نصرانة لم تحنف
اللسان (٧/ ٦٨)، (نصر)، «والنصرانية واحدة النصارى»، تاج العروس (٣/ ٥٦٩)، (نصر).

5 النصرآنية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٨٧).

وذُكر أنّ جابر بن حُنىّ قال:

وقد زعمت بهراء أنّ رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى دم[1]

وأنّ حاتماً الطّائي قال في شعر له:

ومازلت أسعى بين نابٍ ودارة بلحيانَ حتى خفت أن أتنصرا[2]

وأنّ (طخيم بن أبي الطخماء) قال في شعر له في مدح بني تميم:

وإنّي وإنْ كانوا نصارى أحبهّم ويرتاح قلبى نحوهم ويُتَوَّق[3]

وأنّ حسان بن ثابت قال:

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد[4]

غير أنّ هذه الأبيات وأمثالها إنْ صح أنها لشعراء جاهليين حقاً، هي من الشعر المتأخر الذي قيل قبيل الإسلام. أما قبل ذلك، فليس لنا علم بما كان العرب يسمّون به النصارى من تسميات.

والذي نعرفه أن قدماء النصارى حينما كانوا يتحدثون عن أنفسهم كانوا يقولون (تلاميذ) Disciples، و(تلاميذ المسيح)، ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى المسيح نظرتهم إلى معلم يعلمهم[5] وكذلك نظروا إلى حوارييه، فورد (تلاميذ يوحنا) وقصدوا بذلك النصارى[6]. وهذه التعابير من أقدم التعابير التي استعملها النصارى للتعبير عن أنفسهم.

كذلك دعا قدماء النصارى جماعتهم بـ (الاخوة) وبـ (الاخوة في الله) Brethren in Lord للدلالة على الجماعة، وبـ (الأخ) للتعبير عن المفرد،

---

[1] النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٧١، ٢٢٥)، شعراء النصرانية (١٩٠)، المشرق، السنة السابعة ١٩٠٤، (٦٢٠ وما بعدها).

[2] الأغاني (١٦/١٠٤)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (١٧١، ٢٢٥).

[3] المشرق، السنة السابعة ١٩٠٤ (٦٢٠ وما بعدها).

[4] ديوان حسان (٢٤).

[5] Hastings, p. 192.

[6] إنجيل مرقس: الإصحاح الثاني، الآية ١٨.

ذلك لأن العقيدة قد آخت بينهم، فصار النصارى كلهم إخوة في الله وفي الدين[١]. ثم تخصصت كلمة (الأخ) برجل الدين[٢]. ودعوا أنفسهم (القديسين) Saints[٣] والمؤمنين[٤] والمختارين الأصفياء والمدعوّين، ويظهر أنها لم تكن علمية، وإنما وردت للأشارة إلى التسمية التي تليها.

وقد كنى عن مجتمع النصارى بـ (الكنيسة) Ecclesia وتعني (المجمع) في الإغريقية، بمعنى المحل الذي يجتمع فيه المواطنون. فكنى بها عن المؤمنين وعن الجماعة التابعة للمسيح. كما عبر عن النصارى بـ (الفقراء) وبـ (الأصدقاء) [5].

وقد عرف النصارى بـ Christians نسبةً إلى Christos اليونانية التي تعني (المسيح) Messiah، أي المنتظر المخلص الذي على يديه يتم خلاص الشعب المختار. ويسوع هو المسيح، أي المنتظر المخلص الذي جاء للخلاص كما جاء في عقيدة أتباعه، ولذلك قيل لهم أتباع المسيح. فأطلقت عليهم اللفظة اليونانية، وعُرفوا بها، تمييزاً لهم عن اليهود. وقد وردت الكلمة في أعمال الرسل وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتوس[٦].

أما في القرآن الكريم وفي الأخبار، فلم ترد هذه اللفظة اليونانية الأصل. ولهذا نجد أن العربية اقتصرت على إطلاق (نصارى) و(نصراني) و(نصرانية) على النصارى تمييزاً لهم عن أهل الأديان الأخرى. أما مصطلح (عيسوي) و(مسيحي)، فلم يُعرفا في المؤلفات العربية القديمة وفي الشعر الجاهلي، فهما

---

[1] Hastings, p. 104.

[2] أعمال الرسل، الإصحاح الأول، الآية ١٥ وما بعدها، Ency. Reli. Ethic. , 3, p. 573.

[3] رسالة بولس الرسول، الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس، الإصحاح الأول، الآية الأولى ما بعدها.

[4] أعمال الرسل: الإصحاح الخامس، الآية ١٤، رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس، الإصحاح الأول، الآية الأولى وما بعدها.

[5] Ency. Reli. Ethic. , 3, p. 574 .

[6] أعمال الرسل: الإصحاح الحادي عشر: الآية ٢٦، الإصحاح ٢٦، الآية ٢٨، رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتس: الإصحاح الرابع، الآية ١٦، Hastings, p. 127.

من المصطلحات المتأخرة التي أطلقت على النصارى[1]. وقد قصد في القرآن الكريم بـ (أهل الإنجيل) [2] النصارى، إذ لا يعترف اليهود بالإنجيل. وقد أدخل علماء اللغة اللفظة في المعربات[3].

وأهم علامة فارقة ميزت نصارى عرب الجاهلية عن العرب الوثنيين، هي أكل النصارى للخنازير، وحملهم الصليب وتقديسه. ورد أنّ الرسول قال لراهبيْن أتياه من نجران ليبحثا فيما عنده: «يمنعكما عن الإسلام ثلاث: أكلكما الخنزير، وعبادتكما الصليب، وقولكما لله ولد»[4]. وورد أنه رأى (عدي بن حاتم الطائي) وفي عنقه صليب من ذهب، لأنه كان على النصرانية[5].

وورد في شعر ذي الرّمة:

ولكنَّ أصل امرىء القيس معشرٌ   يحل لهم أكل الخنازير والخمر[6]

يريد أنّهم نصارى في الأصل، فهم يختلفون عن المسلمين في أكلهم لحم الخنزير وفي شربهم الخمر.

وقد أقسم النصارى بالصليب. هذا (عدي بن زيد) يحلف به في شعر ينسب اليه، فيقول:

سعى الأعداء لا يألون شراً   عليك ورب مكة والصليب[7]

ليس في استطاعتنا تعيين الزمن الذي دخلت فيه النصرانية إلى جزيرة العرب. وتحاول مؤلفات رجال الكنائس رد ذلك التاريخ إلى الأيام الأولى من التأريخ النصراني[8]، غير أننا لا نستطيع اقرارهم على ذلك، لأن حججهم في ذلك غير

---

[1] Hughes, Dictionary of Islam, p. 431.

[2] المائدة، الآية ٤٧.

[3] النهاية في غريب الحديث (٤/ ١٣٦)، المعرب، للجوالقي (٢٣).

[4] البلاذري (٧١).

[5] اللسان (٤٤٣/١٣)، (وثن)، السيوطي، الدرر المنثور (١٠/ ٧٥).

[6] النصرانية (٧٥).

[7] شيخو، شعراء النصرانية (٤٥١).

[8] النصرانية وآدابها، القسم الأول، تأليف لويس شيخو، بيروت، ١٩١٢م.

كافية للاقناع. ولذلك، فليس من الممكن تثبيت تأريخ لانتشارها في هذه الأماكن في الزمن الحاضر، وليس لنا إلاّ التفتيش عن أقدم الوثائق المكتوبة للوقوف عليها بوجه لا يقبل الشك ولا التأويل. ونحن أمام بحث علمي، يجب أن تكون العاطفة بعيدة عنه كل البعد.

واذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة، فإنّ دخول النصرانية إليها كان بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان إليها للعيش فيها بعيدين عن ملذات الدنيا، وبالتجارة، وبالرقيق ولا سيما الرقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة. أما هجرة نصرانية كهجرة يهود إلى الحجاز أو اليمن أو البحرين، فلم تحدث، ذلك لأن النصرانية انتشرت في إمبراطورية الروم والساسانيين بالتدريج، ثم صارت ديانة رسمية للقياصرة والروم وللشعوب التي خضعت لهم، فلم تظلّ النصرانية أقلية هناك، لتضطر إلى الهجرة جماعة وكتلة إلى بلد غريب. لذلك كان حديثنا عن نصارى العرب من حيث الأصل والأرومة، يختلف عن حديثنا عن أصل يهود اليمن أو الحجاز.

وبفضل ما كان لكثير من المبشرين من علم ومن وقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير في النفوس، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم في دينهم، أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم. فنسب دخول بعض سادات القبائل ممن تنصر إلى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض. وقد نسبوا ذلك إلى فعل المعجزات والبركات الإلهية، وذكر بعض مؤرخي الكنيسة أن بعض أولئك الرهبان القديسين شفوا بدعواتهم وببركات الربّ النساء العقيمات من مرض العقم فأولدن أولاداً، ومنهم من توسل إلى الله أن يهب لهن ولداً ذكراً، فاستجاب دعوتهم، فوهب لهم ولداً ذكراً، كما حدث ذلك لضجعم سيد الضجاعمة، اذْ توسل أحد الرهبان إلى الله أنْ يهب له ولداً ذكراً، فاستجاب له. فلما رأى ضجعم ذلك، دخل في دينه وتعمّد هو وأفراد قبيلته[1]. ومنهم من شفى بعض الملوك العرب من أمراض كانت به مثل (ماريشو عزخا) الراهب. ذكروا أنه شفى النعمان ملك الحيرة من مرض عصبي ألم به، وذلك بإخراجه الشيطان

---

[1] النصرانية وآدابها (١/ ٣٥)، Sozomene, Hist. Eccl. , VI, 38.

من جسده[1].

وفي تواريخ الكنيسة قصص عن أمثال هذه المعجزات المنسوبة إلى القديسين، كالتي نسبوها إلى القديس (سمعان العمودي) (المولود نحو سنة ٣٦٠م) يذكرونها على أنها كانت سبباً في هداية عدد من الأمراء وسادات القبائل إلى النصرانية، وبفضل تنصرهم دخل كثير من أتباعهم في هذا الدين[2]. وكالتي نسبوها إلى القديس (أفتميوس) الذي نصر بفضل هذه المعجزات جمعاً من الأعراب وأسكنهم في أماكن خاصة أنشأ فيها كنائس أطلق عليها في اليونانية ما معناه (المحلة) أو (المعسكر) [3].

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها، فدخلوا مواضع نائية في جزيرة العرب، ومنهم من رافقوا الأعراب، وعاشوا عيشتهم، وجاروهم في طراز حياتهم، فسكنوا معهم الخيام، حتى عرفوا بـ (أساقفة الخيام) وبـ (أساقفة أهل الوبر)، وبأساقفة القبائل الشرقية المتحالفة وبأساقفة العرب البادية. وقد ذكر أن مطران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان وقد نعتوا بالنعوت المذكورة، لأنهم كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر[4].

وقد دخل أناس من العرب بالنصرانية باتصالهم بالتجار النصارى وبمجالستهم لهم. روي أن رجلاً من الأنصار، يُقال له (أبو الحصين)، كان له ابنان، فقدم تجار من الشأم إلى المدينة يحملون الزيت، فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا، أتاهم ابنا أبي الحصين، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصرا فرجعا إلى الشأم معهم[5].

ودخلت النصرانية جزيرة العرب مع بضاعة مستوردة من الخارج، هي تجارة الرقيق من الجنسيْن، فقد كان تجار هذه المادة المهمة الرابحة يستوردون بضاعتهم من أسواق عالمية مختلفة، ولكن أثمن هذه البضاعة وأغلاها هي البضاعة المستوردة من إمبراطوريتي الرّوم والفرس، لمميزات كثيرة امتازت بها عن الأنواع المستوردة

---

[1] الديورة في مملكتيْ الفرس والعرب، للقس بولس شيخو (ص ٣٢، ٤٧).
[2] النصرانية وآدابها (١/ ٨١ وما بعدها).
[3] المشرق: السنة الثانية عشرة، الجزء ٥، آذار (١٩٠٩م)، (ص ٣٤٤ وما بعدها).
[4] النصرانية (١/ ٣٧).
[5] تفسير الطبري (٣/ ١٠)، تفسير القرطبي (٣/ ٢٨٠ وما بعدها).

من إفريقية مثلاً. فقد كان صنفها من النوع الغالي الممتاز بالجمال والحسن والاتقان ثم بالابتكار وبالقيام بأعمال لا يعرفها من هم من أهل إفريقية. ومن الروميّات والصقليات والجرمانيات من صرن أمهات لأولاد عدوا من صميم العرب. وقد كان أكثرهن، ولا سيما قبيل ظهور الإسلام، على النصرانية. ومن بينهن من خلدت أسماؤهن لتتحدث للقادمين من بعدهم من الأجيال عن أصولهن في العجم وعن الدين الذي كنّ عليه.

وقد كان في مكة وفي الطائف وفي يثرب وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب رقيق نصراني كان يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والأناجيل، ويقص عليهم قصصاً نصرانياً ويتحدث إليهم عن النصرانية، ومنهم من تمكن من إقناع بعض العرب في الدخول في النصرانية، ومنهم من أثر على بعضهم، فأبعده عن الوثنية، وسفه رأيها عندهم، لكنهم لم يفلحوا في إدخالهم في دينهم، فبقوا في شك من أمر الديانتيْن، يرون أنّ الحق في توحيد الله وفي اجتناب الأوثان، لكنّهم لم يدخلوا في نصرانية، لأنها لم تكن على نحو ما كانوا يريدون من التوحيد وتحريم الخمر وغير ذلك مما كانوا يبتغون ويشترطون.

وقد أثرت الأديرة تأثيراً مهماً في تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية. فقد وجد التجار في أكثر هذه الأديرة ملاجىء يرتاحون فيها ومحلات يتجهزون منها بالماء، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشرب: يأنسون بأزهارها ويخضرة مزارعها التي أنشأها الرهبان، ويطربون بشرب ما فيها من خمور ونبيذ معتق امتاز بصنعه الرهبان. وقد بقيت شهرة تلك الأديرة بالخمور والنبيذ قائمة حتى في أيام الإسلام. ومن هؤلاء الرهبان ومن قيامهم بشعائرهم الدينية، عرف هؤلاء الضيوف شيئاً عن ديانتهم وعما كانوا يؤدونه من شعائر. وقد أشير إلى هؤلإء الرهبان الناسكين في الشعر الجاهلي، وذكر عنهم أنهم كانوا يأخذون المصابيح بأيديهم لهداية القوافل في ظلمات الليل[١].

وقد كانت هذه الأديرة، وهي بيوت خلوة وعبادة وانقطاع إلى عبادة الله والتفكير فيه، مواطن تبشير ونشر دعوة. وقد انتشرت حتى في المواضع القصية من البوادي. واذا طالعنا ما كتب فيها وما سجله أهل الأخبار أو مؤرخو الكنائس

---

[1] Wellhausen, Reste, S. 232.

عن أسمائها، نعجب من هذا النشاط الذي عرف به الرهبان في نشر الدعوة وفي إقامة الأديرة للإقامة فيها في مواضع لا تستهوي أحداً. وهي متقاربة عديدة في بلاد العراق وفي بلاد الشأم. بل نجد لها ذكراً حتى في الحجاز ونجد وفي جنوبي جزيرة العرب وشرقيها: تتلقى الإعانات من كنائس العراق والشأم ومن الروم، حتى تمكنت من التبشير بين أكثر القبائل. ولولا ظهور الإسلام ونزول الوحي على الرسول في الحرمين، لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن. كان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية أجنبية، هي الثقافة التي اتسمت بها هذه الشيع النصرانية المعروفة حتى اليوم.

وقد ذكر (ابن قتيبة الدينوري): أن النصرانية كانت في ربيعةَ، وغسان، وبعض قضاعة[1]. وقال (اليعقوبي): «وأما من تنصر من أحياء العرب، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى، وورقة بن نوفل بن أسد. ومن بني تميم: بنو امرىء القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة: بنو تغلب، ومن اليمن: طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم»[2].

وطبيعي أن يكون انتشار النصرانية في العرب ببلاد الشأم واضحاً ظاهراً أكثر منه في أي مكان آخر. وأقصد ببلاد الشأم ما يقصده علماء الجغرافيا العرب من هذا المصطلح. فقد كان لعرب هذه الديار علاقة مباشرة واتصال ثقافي بغيرهم من سكان هذه الأرضين الذين دخل أكثرهم في الديانة النصرانية، والذين صارت هذه الديانة ديانة بلادهم الرسمية بعد دخول الروم فيها واتخاذهم النصرانية ديناً رسمياً للدولة منذ تنّصر أوّل قيصر من القياصرة، فكان من أولى واجبات الروم السعي في تنصير الشعوب الخاضعة لهم، لا تقرباً إلى الله وحده، بل لتمكين سلطانهم عليهم، وإخضاعهم روحياً لهم. ولهذا كان من سياسة البيزنطيين نشر النصرانية بين أتباعها وفي الخارج وإرسال المبشرين والاغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير، وبالفعلة لبناء الكنائس الفخمة الجميلة على طراز فني أنيق جميل غير معروف بين من سيبشر بهذا الدين بينهم. وبذلك تبهر عقولهم، فتشعر أن للدين الجديد مزايا ليست في دينهم، وأن معابده أفخم من

---

[1] المعارف (٦٢١)، البدء والتأريخ (٤/ ٣١)، الأعلاق النفيسة (٢١٧).
[2] اليعقوبي (١/ ٢٢٧).

معابدهم، ورجال دينه أرقى من رجال دينهم. وبذلك يأتون إليها. وللبهرجة والفخفخة أثــر عظــيم في كثير من الناس، فالعين عند أكثر البشر، تقوم مقام العقل. وقد يكون ما قام به الأحبــاش فــي اليمن من إنشاء الكنائس العظيمة فيها وتفننهم في تزويقها وتجميلها وفي فرشها بــأفخر الريــاش والفراش لصرف الناس عن الكعبة كما يزعم أهل الأخبار دليلاً على ما أقول.

وقد وجدت النصرانية لها سبيلاً بين عرب بلاد الشأم وعرب بادية الشأم والعراق. فدخلت بين (سليح)، و(الغساسنة)، و(تغلب)، و(تنوخ)، و(لخم)، و(إياد) [1]. وقد انتشرت بين عــرب بــلاد الشأم بنسبة تزيد على نسبة انتشارها بين عرب بلاد العراق، وهو شيء طبيعي، فقد كانــت بــلاد الشأم تحت حكم البيزنطيين، وديانتهم الرسمية، هي الديانة النصرانية، وكانوا يعملون على نشــرها وترويجها بين شعوب (إمبراطوريتهم)، وبين الشعوب الأخرى، لا سيما الشعوب التي لهم مصالح اقتصادية معها. ففي نشر النصرانية بينهم وإدخالهم فيها، تقريب لتلك الشــعوب مــنهم، وتوســيع لنفوذهم السياسى بينهم، وتقوية لمعسكرهم المناهض لخصومهم الفرس، أقوى دولة معادية لهم في ذلك الوقت. ولهذا سعت القسطنطنية لإدخال عربهم في النصرانية، وعملت كل ما أمكنهــا عملــه للتأثير على سادات القبائل لإدخالهم في دينهم، بدعوتهم لزيارة كنائسهم وبارسال المبشرين اللبقــين اليهم، لاقناعهم بالدخول فيها، وبإرسال الأطباء الحاذقين اليهم لمعالجتهم، وللتأثير عليهم بذلك فــي اعتناق النصرانية. كما دعوهم لزيارة العاصمة، لمشاهدة معالمهــا ولإبهــار عقــولهم بمشــاهدة كنائسها، والاتصال بكبار رجال الدين فيها، لتعليمهم أصول النصرانية. وأظهــروا لهــم مختلــف وسائل المعونة والمساعدة إن دخلوا في ديانتهم، وبذلك أدخلوهم في النصرانية فصــاروا إخوانــاً للروم في الدين.

نعم، دخل سادات القبائل والحكام العرب التابعون لهم في هذه الديانة، فصاروا نصــارى، ولكنهم لم يأخذوا نصرانية الروم، بل أخذوا نصرانية شــرقية مخالفــة لكنيســة (القســطنطنية)، فاعتنقوها مذهباً لهم. وهي نصرانية عدت (هرطقــة) وخروجــاً علــى النصــرانية الصــحيحة (الأرثوذكسية) في نظر الروم. نصرانية متأثرة

---

[1] اليعقوبي (١/ ٢٢٧)، (أديان العرب).

بالتربة الشرقية، وبعقلية شعوب الشرق الأدنى، نبتت من التفكير الشرقي في الدين، ولهذا تـأثرت بها عقلية هذه الشعوب فانتشرت بينها، ولم تجد لها إقبالاً عند الروم وعند شعوب أوروبة. وكـان من جملة مميزاتها عكوفها على دراسة العهد القديم، أي التوراة، أكثر من عكوفها علـى دراسـة الأناجيل[١].

والنصرانية التي شاعت بين عرب بلاد الشأم، هـي النصـرانية اليعقوبيـة، أو المـذهب اليعقوبي بتعبير أصح. وهو مذهب اعتنقه أمراء الغساسنة وتعصبوا له، ودافعوا عنـه، وجـادوا رجال الدين في القسطنطنية وفي بلاد الشأم في الذب عنه. فزعم مثلاً أن (الحارث بن جبلة) (ملك العرب النصارى) تغلب في مناظرة جرت له مع (البطريـرك افـرام) (٥٢٦ ـــ ٥٤٥م) علـى (البطريرك) وأفحمه في جوابه. وكان افرام، وهو على مذهب (الملكيين)، قد قصده لاقناعه بتـرك المذهب (المنوفيزيتي) والدخول في مذهبه[٢]. ونسبوا إلى (المنذر بن الحارث) دفاعاً شـديداً عـن (المنوفيزيتية)، أي المذهب الذى كان عليه الغساسنة من مذاهب النصرانية، وذكـروا أنـه أنـب (البطريرك دوميان) وهو في القسطنطنية على تهجمه على (المنوفيزيتيين)، وعمـل جهـده فـي التقريب بين مذهبه ومذهب القيصر، واتصل بالقيصر (طيباريوس) (٥٧٨ ــ ٥٨٢م) ليعمل علـى بث روح التسامح بين المذاهب النصرانية وترك الحرية للأفراد في دخول المذهب الذي يريدونـه والصلاة في أية كنيسة يريدها النصراني[٢].

ويظهر أن بعض الضجاعمة الذين كانوا يتولون حكم عرب الشأم قبل الغساسنة كانوا على دين النصرانية. غير أننا لانستطيع أن نحكم على أي مذهب من مذاهب النصرانية كانوا. فـذكروا أن (زوكوموس)، وهو (ضجعم) جد الضجاعمة تنصر على يد أحد الرهبان، وذلك أن هذا الرئيس كان متلهفاً إلى مولود ذكر، فجاءه هذا الراهب، وتضرع إلى الله أن يهبه ولداً ذكراً، فلما اسـتجاب الله له تعمدّ وتبعته قبيلته[٣].

---

[1] Nöldeke, Geschichte des Qorāns, I, S. 7.

[2] المشرق، السنة الرابعة والثلاثون، كانون الثاني ــ آذار، ١٩٣٦ (ص ٦١ وما بعدها).

[3] النصرانية (١/ ٣٥).

وقد كان مشهد القديس (سرجيوس) في (الرصافة)، من أهم المزارات التي تقصدها المتنصرة من عرب الشأم، مثل الغساسنه وتغلب. وقد تقرب إليه بعض ملوك الغساسنة بتقديم الهدايا والنذور إليه وبتزيينه وبزيارته، وبالاعتناء بالمدينة وبصهاريجها تكريماً له، وتقرباً اليه، وظل هذا المزار مقصوداً مدة في الإسلام. وقد عدّ التغلبيون هذا القديس شفيعهم، جعلوا له راية حملوها معهم في الحروب، وكانوا يحملونها مع الصليب تبركاً وتيمناً بالنصر[١].

وكان حاضر (قنسرين) لتنوخ. أقاموا في طرفها هذا منذ زمن قديم، مذ أول نزولهم بالشأم. نزلوا في طرفها وتنصروا. فلما حاصر (أبو عبيدة) المدينة، دعاهم إلى الإسلام، فأسلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو سليح. كذلك كان في طرف قنسرين عشائر من طيء، نزلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيما بينهم، واستدعت تفرقهم، فأقاموا عند قنسرين مع القبائل العربية الأخرى التي جاءت إلى هذا المكان[٢].

وكان بقرب مدينة (حلب) حاضر يدعى (حاضر حلب) يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم. فلما جاء (أبو عبيدة) إلى المدينة، صالح من فضّل البقاء منهم على دينه على الجزية، ثم أسلم الكثير منهم فيما بعد[٣].

وتعد بهراء في جملة القبائل العربية المتنصرة عند ظهور الإسلام. تنصرت كما تنصرت غسان وسليح وتنوخ وقوم من كندة، وذلك لنزولها في بلاد الشأم ولاتصالها بالروم[٤].

---

[1] قال الأخطل:

لما رأونا، والصليب طالعا، ومار سرجيس، وسما ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا خلوا لنا راذان والمزارعا

فأجابه جرير:

أفبالصليب وما سرجيس تتقي شهباء ذات مناكب جمهورا

وقال:

يستنصرون بمار سرجيس وابنه بعد الصليب وما لهم من ناصر

المشرق، السنة الرابعة والثلاثون، نيسان ــ حزيران، ١٩٣٦، (ص ٢٤٦ وما بعدها).

[2] البلاذري، فتوح (١٥٠ وما بعدها)، (أمر جند قنسرين والمدن التي تدعى العواصم).

[3] البلاذري، فتوح (١٥١).

[4] اليعقوبي (١/ ٢٩٨)، الخراج (١٤٦)، النصرانية (١٢٥).

وقد سكن قوم من (إياد) السواد والجزيرة، وسكن قوم منهم بلاد الشأم، فخضعوا للغساسنة وللروم وتنصروا. وهم في جملة القبائل التي لم يأخذ علماء العربية اللسان عنها لمجاورتها أهل الشأم، ولتأثرها بهم، وهم قوم يقرؤون ويكتبون بالسريانية، فتأثروا بهم، لروابط الاحتكاك والثقافة والدين[1].

وقد ترك لنا رجل من نصارى الشأم نصاً قصيراً مؤرخاً بسنة (٤٦٣) المقابلة لسنة (٥٦٨) للميلاد، وهي غير بعيدة عن ميلاد الرسول جاء فيها: «نا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم»، أي «أنا شراحيل بن ظالم بنت ذا المرطول بعد مفسد (خيبر) بعام». هو على قصره ذو أهمية عظيمة من الناحية اللغوية، إذ هو النص الجاهلي الوحيد الذي وصل الينا مكتوباً باللهجة التي نزل بها القرآن الكريم. وهو على ما أعلم النص الجاهلي الوحيد أيضاً الذي وصل إلينا مكتوباً بصيغة المتكلم، فالنصوص الأخرى التي وصلت إلينا والمكتوبة بمختلف اللهجات العربية مدوّنة كلها بضمير الغائب. وهو أيضاً من النصوص العربية القليلة التي تركها النصارى العرب لمن بعدهم في بلاد الشأم.

وقد استغل الروم العربَ المتنصرة بأن أثاروا في نفوسهم العواطف الدينية على المسلمين، حينما عزم المسلمون على فتح بلاد الشأم وطرد البيزنطيين منها، وأغروا سادات القبائل بالمال وبالهدايا وبالوعود حتى اشتروهم فصاروا إلى جانبهم. والمصالح الشخصية هي فوق كل مصلحة عند سادات القبائل، لا تعلوها عندهم مصلحة، فانضموا اليهم، وجاءوا بقبائلهم لتحارب معهم. ومن هذه القبائل العربية التي حاربت مع الروم، غسان. حاربوا معهم في معارك عديدة. ففي يوم اليرموك كانوا في صفوف الروم، وكان رئيسهم (جبلة بن الأيهم الغساني) في مقدمة الجيش الذي أرسله هرقل لمحاربة المسلمين. كان على رأس مستعربة الشأم من غسان ولخم وجذام[2]. وقد اشترك مع الروم في حروب أخرى ضد المسلمين.

وكانت (سليح) في جملة القبائل العربية المتنصرة التي حاربت المسلمين. ولما تقهقر الروم وانهزموا، دفعوا الجزية لاحتفاظهم بدينهم. وكذلك كانت عاملة ولخم وجذام في جملة القبائل المتنصرة التي ساعدت الروم، وآزرتهم. كانوا مع

---

[1] المزهر (١/ ١٠٥)، النصرانية (١٢٤).
[2] البلاذري، فتوح (١٤٠)، (يوم تبوك).

الروم مثلاً حين مجيء الرسول إلى (تبوك) [1]. وظلوا إلى جانبهم يؤيدونهم حتى تبين لهم أن النصر قد تحول للمسلمين، وأن الهزائم قد حالفت الروم، عندئذ انضمت في جملة من انضم من متنصرة العرب إلى المسلمين لمحاربة الروم[2].

وكادت قبيلة (تغلب) الساكنة غرب الفرات، أن تفرّ إلى بلاد الروم وتلحق بأرض الروم، لما غلب البيزنطيون على أمرهم وفتحت بلاد الشأم والعراق أمام المسلمين. ولما خيّرت بين البقاء على دينها ودفع الجزية وبين الدخول في الإسلام، أنفت من دفع الجزية، ورضيت بدفع ضعف الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض[3].

وقد نزحت (إياد) إلى بلاد الروم وبقيت بها، ثم عاد جمع منها لاخراج القيصر إياهم، فنزلوا بلاد الشأم والجزيرة وانضموا إلى اخوانهم في الجنس[4].

ويلي هؤلاء عربُ العراق، لاحتكاكهم بالنصارى ولانتشار النصرانية في العراق بالرغم من أن ديانة الحاكمين لهذا القطر كانت ديانة أخرى، وأن النصرانية لم تكن في مصلحة الفرس. غير أن الفرس لم يكونوا يبشرون بدينهم، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه، إذ عدت المجوسية ديانة خاصة بهم، وهذا مما صرف الحكومة عن الاهتمام بأمر أديان الخاضعين لها من غير أبناء جنسها، إلاّ اذا وجدتها تتعارض مع سياستها، وتدعو إلى الابتعاد عنها. ثم إن النصرانية التي انتشرت فيها لم تكن من النصرانية المتشيعة للروم، ولهذا لم تجد الدولة الساسانية من هذه الناحية ما يهدد سياستها بالأخطار، فغضت النظر عنها، وإنْ قاومتها مراراً واضطهدتها، وفتك ملوكها بعدد من الداخلين فيها، أشارت اليهم كتب مؤرخو الكنيسة في تواريخهم عن الشهداء القديسين[5].

وقد أشار أهل الأخبار إلى تنصر بعض ملوك الحيرة، ونسبوا اليهم بناء الأديرة

---

1 البلاذري (٧١)، (تبوك وأيلة وأذرح ومقنا والجرباء).
2 الخراج (١٣٨)، (فصل في الكنائس والبيع والصلبان).
3 البلاذري (١٨٥)، (أمر نصارى بني تغلب بن وائل)، السنن الكبرى (٩/ ٢١٦)، الخراج (١٢٠ وما بعدها).
4 الطبري (٤/ ١٩٧ وما بعدها)، (الجزيرة).
5 هنالك عدة مؤلفات في هذا الموضوع، راجع منها:
Georg Hoffmann, Auzüge aus Syrischen akten Persicher Märtyrer, Leipzig, 1880.

والكنائس، كما أشار إلى ذلك بعض مؤرخي الكنيسة. كالذي ذكروه عن (المنذر) وعن (النعمان بن المنذر). غير أننا لا نستطيع إقرار ذلك بوجه عام، ولا بدّ من التريث، إذ يظهر أن أكثر ملوك الحيرة كانوا على الوثنية. وإذا كان كثير من ملوك الغساسنة قد دخلوا في النصرانية فإن ظروفهم تختلف عن ظروف ملوك الحيرة. فقد كان الروم، وهم سادة بلاد الشأم، على هذه الديانة، وكانوا يشجعون انتشار النصرانية ويسعون لها، ولهذا كان لهذه السياسة أثر في الغساسنة أصحاب الروم، وهم على اتصال دائم بهم بطبيعة حكمهم لبلاد الشأم. أما في العراق، فلم تكن هذه الديانة ديانة رسمية للحكومة، إنما انتشرت بفضل المبشرين، ولهذا انتشرت بين سواد الشعب، ولم تنتشر بين الملوك. ولم تضغط الحكومة الساسانية على ملوك الحيرة للدخول في هذه الديانة التي لم يكونوا أنفسهم داخلين فيها، فهي بالإضافة إليهم ديانة غريبة، لا يعنيهم موضوع انتشارها، ولا يهمهم موضوع انتشارها، ولا يهمهم شأنها ما دامت لا تتعارض وحكمهم في العراق.

وقد كان (هانىء بن قبيصة الشيباني) ممن كان على النصرانية، وهو من سادات (بني شيبان)، ومات وهو على هذا الدين. وكان في جملة من فاوض (خالد بن الوليد) باسم قومه على دفع الجزية للمسلمين.

ومن متنصرة العراق بنو عجل بنُ لجيم من قبائل بكر بن وائل. وقد عُرف منهم (حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي) الذي سادهم في معركة ذي قار. وقد حاربت (خالد بن الوليد)، وكان قائدها جابر بن بجير وعبد الأسود. وكان منها في أيام بني أمية أبجر بن جابر. وهو والد حجّار. وقد بقي على نصرانيته في الإسلام. [1]

وكان في الحيرة سراة نصارى اشتركوا مع سراة قريش في الأعمال التجارية مثل (كعب بن عدي التنوخي)، وهو من سراة نصارى الحيرة، وكان أبوه أسقفاً على المدينة، وكان هو يتعاطى التجارة، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع (عمر بن الخطاّب) في تجارة البز، وكان (عقيداً) له، قدم المدينة في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ورأى الرسول، فأسلم في رواية، ولم يسلم في رواية أخرى. ولما توفي الرسول، ثبت على الإسلام على رواية من صيره مسلماً في

---

[1] الأغاني (٤٦/١٣ وما بعدها)، النصرانية (١٣٦).

أيام الرسول. واشترك في جيش اليمامة الذي أرسله (أبو بكر)، ووجهه (أبو بكر) في رسالة إلى (المقوقس)، ثم وجهه (عمر) برسالة اليه في أيامه. وشهد فتح مصر. [١]

وقد أخرجت مدينة الحيرة عدداً من رجال الدين، مثل مار إيليا وأصله من الحيرة، والقديس حنا نيشوع، وهو من عرب الحيرة ومن عشيرة الملك النعمان[٢]، والقديس مار يوحنا[٣]، و(هوشاع) الذي حضر مجمع اسحاق الجاثليق عام ٤١٠م، وشمعون الذي أمضى أعمال مجمع (يهبالا) الذي انعقد سنة ٤٨٦م، وشمعون الذي حضر مجمع (أقاق)، و(ايليا) المنعقد سنة ٤٨٦م وأمضى في سنة ٤٩٧م مجمع (اباي)، و(ترساي) الذي تحزب سنة ٥٢٤م لنرساي الجاثليق ضد (اليشاع) و(افرام) و(يوسف)، وقد حضر مجمع (أيشوعياب الأرزني) الذي انعقد سنة ٥٨٥م، وشمعون بن جابر الذي نصرّ الملك النعمان الرابع في سنة ٥٩٤على ما يذكره مؤرخو الكنيسة[٤].

وقد كان (مار يشوعياب الأرزوني) Jesujab I. Arzunita المتوفي سنة ٥٩٦م من أصل عربي. درس الديانة في (نصيبين) Nisibis، ثم تقّدم فصار أسقفاً على (أرزون) Arzun، ثم ترقى حتى صار (بطريكاً) (بطريقاً) على النساطرة سنة٥٨٠م. وقد زار الملك (النعمان). وتوسط عند الروم لمساعدة (خسرو أبرويز) Chosroes Abruizus، ضد (بهرام) — Varames Beheram وقد توفي في خيم (بني معدّ) (المعديين) Maadenes، ونقل إلى الحيرة فدفن في دير (هند) ابنة النعمان[٥].

وقد عثر على آثار كنائس في خرائب الحيرة، وأشار أهل الأخبار إلى وجود الكنائس والبيع والأديرة في الحيرة. وذكر (ياقوت الحموي) أسماء عدد من الأديرة كانت بالحيرة أو بأطرافها وبالبادية، منها: (دير ابن برّاق) بظاهر الحيرة، و(دير ابن وضّاح) بنواحي الحيرة، وديارات الأساقف، وهي

---

[1] الإصابة (٣/ ٢٨٢)، (رقم ٧٤٢٢).
[2] الديورة في مملكتيْ الفرس والعرب (٣٢ وما بعدها).
[3] الديورة (٤٧).
[4] أدي شير (٢/ ٢٠٨).
[5] W. Smith, A Dictionary, II, p. 370, John of Ephesus, Eccl. Histo. , II, 40 ff.

جملة أديرة كانت بالنجف ظاهر الكوفة بحضرتها نهر الغدير، ودير الأسكون «وهو بالحيرة راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم». ودير الأعور، بظاهر الكوفة بناه رجل بن إياد يقال له الأعور من بني حذافة بن زهر بن إياد، ودير بني مرينا، بظاهر الحيرة عند موضع جفر الأملاك، ودير حنظلة، منسوب إلى حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان، وهم عم إياس بن قبيصة، وكان من رهط (أبي زبيد) الطائي، وكان من شعراء الجاهلية، ثم تنصر وفارق قومه، ونزل الجزيرة مع النصارى حتى فقه دينهم وبلغ نهايته، وبنى ديراً عُرف باسمه، هو هذا الدير، وترهب حتى مات[١]. ودير حنظلة بالحيرة، وهو منسوب إلى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة، ودير حنة، وهو بالحيرةّ كذلك بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع، تقابله منارة عالية كالمرقب تسمى القائم، لبني أوس بن عمرو بن عامر، ودير السوا بظاهر الحيرة يتحالفون عنده، ودير الشاء، ودير عبد المسيح وهو بظاهر الحيرة بموضع الجرعة بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة، ودير علقمة بالحيرة منسوب إلى علقمة بن عدي بن الرميك بن توب بن أسس بن دبي بن نمارة بن لخم، ودير قرة وهو دير بإزاء دير الجماجم بناه رجل اسمه قرة من بني حذافة ابن زهر بن إياد في أيام المنذر بن ماء السماء، ودير اللُجّ وهو بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس، و«كان يركب في كل أحد اليه، وفي كل عيد، ومعه أهل بيته، خاصة من آل المنذر، عليهم حلل الديباج المذهبة، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب، وفي أوساطهم الزنانير المفصصة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان، وإذا قضوا صلاتهم، انصرفوا إلى مستشرفه على النجف، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه، وخلع ووهب، وحمل ووصل وكان ذلك أحسن منظر وأجمله»[٢].

ودير مارت (مارة) مريم. وهو دير قديم من أبنية آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب مشرف على النجف، ودير مار فايثون بالحيرة أسفل النجف، ودير مر عبدا بذات الأكيراح من نواحي الحيرة منسوب إلى مر عبدا بن حنيف بن وضاح اللحياني كان مع ملوك الحيرة،

---

[1] البكري، معجم (٢/ ٥٦٧)، (دير حنظلة).
[2] البكري، معجم (٥/ ٥٩٦)، (دير اللج).

دير ابن المزعوق، وهو دير قديم بظاهر الحيرة، ودير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالخَرْقة، وكانت به قبور أهلها، بنته هند في أيام (خسرو أنو شروان) في زمنْ مار افريم الأسقف. وأما الدير المعروف بدير هند الأقدم، فنسب بناؤه إلى هند الكبرى، أم عمرو بن هند[1].

هذه أسماء اخترتها من بين أسماء أديرة أخرى كثيرة ذكرها (الشنابشتي) [2]، وياقوت الحموي والبكري، لأن لها صلة بالحيرة وبما جاورها وبالعرب سكان هذه الأرضين. ونجد في بلاد الشأم أديرة أخرى بناها عربها في تلك الديار قبل الإسلام. ونجد على تسميات بعضها الصبغة الإرمية كما في تسمية (مار افريم) (مار افرايم) و(مار عبدا) و(مار فايثون)، وغيرها. وكلمة (مار) من كلمات بني إرم، كما نجد الصبغة النصرانية للأعلام واضحة على بعضها كما في عبد المسيح وحنة ومارت مريم وأمثال ذلك، وهي من الأعلام التي اختصت بالنصارى. وذلك بسبب أن النصرانية كانت متأثرة بثقافة بني إرم، وكانت تستعل اللغة الإرمية في الصلوات وفي تأدية الشعائر الدينية الأخرى. ولغة بني إرم هي لغة العلم عند النصارى الشرقيين، فكان من الطبيعي استعمال نصارى العرب لهذه اللغة في كنائسهم وبيعهم وأديرتهم وفي دراستهم للدين وما يتصل باللاهوت من علوم. ومن هنا استعمل كتّابهم قلم بني إِرم في كتاباتهم، ومن هذا القلم تولد القلم النبطي المتأخر الذي تفرع منه القلم العربي الذي كتب به أهل الحجاز عند ظهور الإسلام، فصار القلم الرسمي للمسلمين.

وقد نعت الرواة وأهل الأخبار العرب التي دانت بالنصرانية بـ (العرب المتنصرة)، تمييزاً لها عن العرب الآخرين الذين لم يدخلوا في هذه الديانة، بل بقيت على إخلاصها ووفائها لديانة آبائها وأجدادها، وهي عبادة الأوثان. ومن القبائل التي يحشرها أهل الأخبار في جملة (العرب المتنصرة) غسان وتغلب وتنوخ ولخم وجذام وسليح وعاملة. ويلاحظ أن الأخباريين يطلقون على هذه القبائل أو على أكثرها (العرب المستعربة)، وهم لا يقصدون بذلك نسبها، لأن من بينها كما نعلم من هو من أصل قحطاني على حسب مذهب أهل الأنساب في نسب

---

[1] البكري (٢/ ٦٠٦)، البلدان (٤/ ١١٩ وما بعدها)، «القول في ذكر الأديرة».
[2] مطبعة المعارف، بغداد، تأريخ كلدو وآثور (٢/ ٢٩)، ذخيمة الأذهان (٣١٧).

القبائل. وإنما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت ببلادالشـام والسـاكنة فـي أطراف الإمبراطورية البيزنطية وفي سيف العراق. من حدود نهر الفرات إلى بادية الشـأم، فهـو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القـوس التـي تحـيط بحـدود الإمبراطوريتيْن. وخاصة تلك القبائل التي دانت بالنصرانية وتأثرت بثقافـة بنـي إرم وبلهجتهـا، وذلك لظهور هذا الأثر فيها، وعلى لهجتها خاصة، مما حـدا بعلمـاء اللغـة أن يتحرجـوا فـي الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة. والاستشهاد بشعر قبيلة لاثبات القواعد هو أوثق شاهد في نظر العلماء على التسليم بنقاوة لغة القبيلة التي يستشهد بشعرها وأصالتها.

ووجدت النصرانية بعد بلاد الشأم والعراق لها مواضع أخرى دخلت إليها، هـي أطـراف جزيرة العرب، كالعربية الغربية والجنوبية والشرقية. وتفسير دخولها إلى هذه الأرضين واضـح، هو اتصالها بطرق القوافل البرية والبحرية في البلاد التي انتشرت فيها النصرانية، ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل إليها. وتجار النصارى، لم يكونوا على شاكلة تجار يهود: كـانوا يرون أن التجارة هي كسب مادي، ولكن التبشير مع التجارة ربـح مضـاعف، هـو ربـح فـي الداريْن:. الدنيا والاخرة، فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم في البلاد التي ينزلونها لنشر دينهم فيهـا ثم إن في انتشار دينهم بين سكان هذه المواضع التي يطرقونها كسباً لهم ولبلادهم، وأكثـرهم مـن الروم. فإنهم يجدون بتنصر الغرباء، إخواناً لهم يرون رأيهم، ويعطفون عليهم. ثم إنهم سيفضلونهم في تعاملهم معهم على غيرهم، وسيتساهلون معهم ولا شك. ثم إنهم سـيقربونهم بتنصـيرهم مـن العالم النصراني، وممثل هذا العالم وحماته هم الروم.

وكان أهل دومة الجندل خليط، فهم نصارى، قال عنهم أهل الأخبـار انهـم (مـن عبـاد الكوفة)[١]. ويظهر من خبر أسر خالد للأكيدر ومجيئه به على رسول الله، ومن مصالحة الرسـول له على الجزية، أنه كان على النصرانية، إذ لا تؤخذ الجزية من مشرك[٢].

---

[1] البلاذري، فتوح البلدان (٧٤) «دومة الجندل».

[2] «ثم إنّ خالداً قدم بأكيدر على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته»، الطبري (٣/ ١٠٩)، (دار المعارف)، (ذكر الخبر عن غزوة تبوك).

أما (أيلة)، فكان اسم صاحبها في أيام الرسول (يحنة بن رؤبة) (يوحنا بن رؤبة) وهو نصراني كما يدل اسمه عليه، جاء إلى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، وكان الرسول بها، فصالحه على الجزية وبقي في محله[١]. وقد دعاه المسعودي (أسقف أيلة) [٢]. وورد في محاضر بعض المجامع الدينية (أسقف أيلة والشراة) [٣].

وكان في وادي القرى نفر من الرهبان، كما ورد ذلك في شعر جعفر بن سراقة أحد بني قرة، وهو:

فريقان: رهبان بأسفل ذي القرى وبالشأم عرافون فيمن تنصرا[٤]

وتعد طيء من القبائل التي وجدت النصرانية سبيلاً إليها. وقد ورد أن (أحودما) (المغريان) تنقل بين طيء في سنة (٨٧٠) لليونان المقابلة لسنة (٥٥٩) للميلاد[٥]. وقد كان عدي بن حاتم الطائي في جملة الداخلين في النصرانية من طيء. ويذكر أنه كان (ركوسيّاً)، وفد على الرسول، وأعلن إسلامه[٦]. غير أن هذا لا يعني أن النصرانية كانت هي الغالبة على هذه القبيلة، فقد كان قوم منها يتعبدون للصنم (الفلس)، أي على الشرك.

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً يستحق الذكر عن النصرانية في يثرب. وقد أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة من الآيات المدنية إلى النصارى، غير أن تلك الاشارات عامة في طبيعة المسيح وفي النصرانية نفسها لا في نصارى يثرب وفي صلاتهم بالإسلام. ثم إن أهل السير لم يشيروا إلى تصادم وقع بين النصارى والمسلمين ولا إلى مقاومة نصارى يثرب للرسول كالذي وقع بين يهود يثرب والرسول، مما يدل على أن النصرانية لم تكن قوية في المدينة، وأن جاليتها لم تكن

---

1 البلاذري (٦٦)، السنن الكبرى (٩/ ١٨٥ وما بعدها).
2 التنبيه (٢٧٢)، النصرانية (٤٤٨).
3 النصرانية (٤٤٨).
4 الأغاني (٧/ ٩٦) «نسب جميل وأخباره».
5 النصرانية وآدابها، القسم الأول (١٣٢ وما بعدها)، Barhebraei, Chronicon Eccl. , III, 100.
6 الإصابة (٢/ ٤٦١)، (رقم ٥٤٧٧)، المشرق، السنة الثامنة، العدد ١١، (١٩٠٥)، (٥٠٧)، النصرانية (١٣٣).

كثيرة العدد فيها. غير أن هذا لا يعني عدم وجود النصارى في هذا الموضع الزراعي المهم[١]. فكما كان في مكة رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم، كذلك كان في المدينة نفر منهم أيضا يقومون بمختلف الأعمال التي يعهد أصحابهم إليهم القيام بها. ولا بدّ أن تكون لهذه الطبقة من البشر مكانة في هذه المدينة وفي أي موضع آخر من جزيرة العرب. فقد كانت هذه الطبقة عموداً خطيراً من الأعمدة التي يقوم عليها بنيان الاقتصاد في ذلك العهد، فهي بالنسبة لذلك العهد الآلات المنتجة والمعامل المهمة لأصحاب الأموال وللسادة الأثرياء، تؤدي ما يطلب منها القيام به وما يراد منها إنتاجه بأجور زهيدة وبدقة ومهارة لا تتوفر عند الأحرار من العرب. ثم إن الأحرار مهما بلغ حالهم من الفقر والفاقة كانوا يأنفون من الأعمال الحرفية ونحوها مما يوكل إلى هذه الطبقة القيام به، لأنها في نظرهم من المهن المنحطة التي لا تليق بالرجل الحر مهما كان عليه من فقر وبؤس، ولهذا كان لا بد من الاستعانة بالموالي والرقيق للقيام بأكثر متطلبات حياة الإنسان.

ويفهم من بيت للشاعر حسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي، وهو:

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لمّا توارى في الضريح الملجد[٢]

أنه كان في يثرب نفر من النصارى كما كان بها قوم من يهود. وذكر أن النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له: سوق النبط[٣].

ولعل هذه السوق هي الموضع الذي كان ينزل فيه نبط الشأم الذين كانوا يقصدون المدينة للاتجار في الحبوب، فصارت موضعاً لسكنى هؤلاء النصارى، ونسب إليهم[٤]. وقد ورد أن عمر بن الخطاب استعمل أبا زبيد الشاعر النصراني على صدقات قومه، وأن أبا زبيد هذا كان مقرباً من الخليفة عثمان بن عفان من بعده[٥].

وقد كان (أبو عامر) الراهب، الذي تحدثت عنه أثناء حديثي عن الأحناف،

---

1 السنن الكبرى (٩/ ١٨٢ وما بعدها).
2 ديوان حسان (٥٩) «تحقيق هرشفلد».
3 Nallino, Raccolta, III, p. 140.
4 البخاري (٣/ ٤١ وما بعدها)، النصرانية (٤٤٩).
5 النصرانية (٤٤٩).

ممن اعتنق النصرانية، ومن أهل يثرب. ويظهر أنه كان قد تمكن من إقناع بعض شباب الأوس من اعتناق دينه، بدليل ما ذكره علماء التفسير من أنه لما خرج من يثرب مغاضباً للرسول، وذهب إلى مكة، مؤيداً إياهم ومحرضاً لهم على محاربة الرسول أخذ معه خمسين أو خمسة عشر رجلاً من الأوس، على ما ذكره علماء التفسير، فلما أيس من نجاح أهل مكة في القضاء على الرسول فرّ إلى بلاد الشأم على نحو ما ذكرت، ليطلب مدداً من الروم يعينه في زحفه على المدينة. وأنا لا استبعد احتمال وجود أناس آخرين من أهل يثرب كانوا قد دخلوا في النصرانية ودعوا إليها، واحتمال وجود مبشرين فيها، كانوا يسعون لإدخال أهلها في دين عيسى، يؤيدهم ويمدّهم بالمال والمعونة الروم حكام بلاد الشأم.

وكان بين سكّان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين إليها، لأسباب، منها: الرق، والإتجار، والتبشير، والحرفة. فأما الرقيق، فمنهم الأسود والأبيض: الأسود من إفريقية، والأبيض من أوروبة، أو من أقطار الشرق الأدنى، وهم أعلى في المنزلة وفي السعر من النوع الأول، وهم بحكم قانون ذلك العهد وعرفه تبع لسادتهم وفي ملك يمينهم، يقومون بالأعمال التي توكل اليهم، ليس لهم التصرف إلاّ بأمرهم، فهم في الواقع بضاعة يتصرف بها صاحبها كيف يشاء، ليس لها صوت ولا رأي، إن أبق المملوك قتل أو أنزل به العقاب الذي يراه ويختاره صاحبه ومالكه.

وبين الرقيق الأبيض خاصة نفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة، يعرفون القراءة والكتابة، ولهم إطلاع في شؤون دينهم ومعارف ذلك العهد. ولهذا أوكل اليهم القيام بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وخبرة وذكاء. وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء. ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم، ويقصون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين، وأكثرهم ممن كانت ألسنتهم لم تتروض بعد على النطق بالعربية، فكانوا يرطنون بها، أو يتلعثمون، ومنهم من كان لا يعرف شيئاً منها، أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات.

ومن، هؤلاء رجل نصراني كان بمكة قيل إن اسمه: سلمان، أو يسار، أو جبر، أو يعيش، أو بلعام، ادعى أهل مكة أنه كان هو الذي يلقن الرسول

ما كان يقوله للناس من رسالته، وأنه هو الذي كان يعلمه. وقد أشير إلى قول قريش هذا في الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[١]. ومن روى من المفسرين أن اسمه جبر، قال: إنه كان غلاماً لعامر بن الحضرمي، وأنه كان قد قرأ التوراة والإنجيل[٢]، وكان الرسول يجلس اليه عند المروة إلى مبيعته، «فكانوا: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلاّ جبر النصراني، غلام الحضرمي»[٣].

ومن هؤلاء من زعم أنه كان قيناً لبني الحضرمي، وأنه كان قد جمع الكتب، وهو رومي، فكان رسول الله يأتي اليه ويجتمع به، فكان المشركون يقولون: إنه يتعلم من هذا الرومي! وذكر بعض الرواة أن (آل الحضرمي) كانوا يملكون عبديْن، هما: جبر ويسار، فكانا يقرآن التوراة والكتب بلسانهما، فكان الرسول يمر عليهما فيقوم يستمع منهما. وقيل إنهما كانا من أهل (عين التمر)، وإنهما كانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل، فربما مرّ بهما النبي، وهما يقرآن فيقف ويستمع. وأما من قال إن اسمه (يعيش)، فذكر أنه كان مولى لحويطب بن عبد العزى. وأما من ذكر أن اسمه (بلعام)، فقال انه كان قيناً رومياً بمكة وكان نصرانياً أعجمي اللسان، «فكان المشركون يرون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده، فقالوا انما يعلمه بلعام»[٤]. ومهما اختلف المفسرون في اسم هذا الرجل فإنهم اتفقوا على أنه كان أعجمي الأصل، نصرانياً، يقرأ الكتب، وأنه كان بمكة نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية يقرأون ويكتبون.

والى هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص، أعني: يعيش ويقال عائش أو عدّاس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر، أشير في القرآن الكريم، في الآية: ﴿وقال الذين كفروا: إن هذا إلاّ

---

[1] سورة النحل، الرقم ١٦، الآية ١٠٣.
[2] تفسير الطبري (١٤/ ١١٩)، «وكانوا يقولون: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلاّ جبر النصراني، غلام ابن الحضرمي»، روح المعاني (١٤/ ٢١٢ وما بعدها)، ابن هشام.
[3] تفسير الطبري (١٤/ ١٢٠)، روح المعاني (١٤/ ٢١٢)، ابن هشام (٢٦٠).
[4] تفسير الطبري (١٤/ ١١٩)، روح المعاني (١٤/ ٢٣٣)، تفسير الطبرسي (المجلد الثالث).

إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾[1]. وقد ذكر المفسرون أنّ هؤلاء «كانوا كتابيين يقرأون التوراة، أسلموا، ركان رسول الله، صلى الله عليه وسلم يتعهدهم، فقيل ما قيل»[2].

وعرفت أسماء جملة رجال ونساء من هذا الرقيق الذي جيء به إلى مكة والى مواضع أخرى من جزيرة العرب. من هؤلاء نسطاس، ويقصد بذلك أنستاس، وكان من موالي صفوان بن أمية. و(مينا) (ميناس)، و(يوحنا) عبد (صهيب الرومى)، و(صهيب) نفسه لم يكن عربياً، إنما كان من بلاد الشأم في الأصل، وهو رومي الأصل ولذلك قيل له (صهيب الرومي). وكان قد جاء مكة فقيراً لا يملك شيئاً، فأقام بها، ثم اتصل بعبد الله بن جُدعان الثري المعروف، وصار في خدمته، ولذلك قيل إنه كان مولى من موالي عبد الله بن جدعان. وفي رواية أنه كان من (النمر بن قاسط)، سقط أسيراً في الروم فباعوه، فاشترى منهم. وقد ورد في حديث: «صهيب سابق الروم»، فهذا يدل على أنه من أصل رومي. وهو من أوائل المسلمين، يذكر أنه حينما همَّ بترك مكة والذهاب إلى المدينة بعد هجرة الرسول إليها «قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسلك!! والله، لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي»[3]، وترك قريشاً ليذهب إلى الرسول.

وكان لبني مخزوم الأثرياء جملة جوارٍ يونانيات، كما كان لدى العبّاس عم النبي جوار يونانيات، وأشير إلى وجود جوار فارسيات. وكان هذا الرقيق الأبيض ذكوراً وإناثاً من جنسيات متعددة، منهم من كان من أصل رومي، ومنهم من كان من عنصر أوروبي آخر، ومنهم من كان من الفرس أو من أهل العراق مثل نينوى وعين التمر، ومنهم من كان من بلاد الشأم أو من أقباط مصر، وهم على النصرانّية في الغالب[4].

---

1 الفرقان، الرقم ٢٥، الآية ٤.

2 تفسير الطبري (١٨/ ١٣٧ وما بعدها)، روح المعاني (١٨/ ٢٣٤ وما بعدها)، مجمع البيان (٧/ ١٦١)، (طهران)، (الجزء الثامن عشر)، (سورة الفرقان).

3 ابن هشام (٢/ ٨٩)، الإصابة (٢/ ١٨٨)، (الرقم ٤١٠٤).

4 المشرق، السنة الخامسة والثلاثون ١٩٣٧ (ص ٨٨ وما بعدها).

وقد كانت في مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد، عرفوا بـ (الأحابيش). وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى، استوردوا للخدمة وللقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة. وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً في لغة أهل مكة، يظهر في وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها في مثل المصطلحات الدينية والأدوات التي يحتاج إليها في الصناعات وفي الأعمال اليدوية التي يقوم بادائها العبيد. وقد أشار العلماء إلى عدد من هذه الكلمات ذكروا أنها تعربت، فصارت من الكلام العربي. وقد أشاروا إلى ورود بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث[١].

ويشير أهل الأخبار إلى ورود بعض الرهبان والشمامسة إلى مكة. وقد كان من بينهم من يقوم بالتطبيب. وقد ذكر الأخباريون أن شماساً كان قد قصد مكة، فعجب الناس به، وقد سمّوا أحدهم به، هو عثمان بن الشّريد بن سويد بن هرمي بن عامر بن مخزوم، فقالوا له: (شماس) [٢].

وذكر (اليعقوبي)، أن ممن تنصر من أحياء العرب، قوم من قريش من بني (أسد بن عبد العزى)، منهم (عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى) [٣]. وقد ورد في بعض الأخبار أنه قدم على قيصر، فتنصر، وحسنت منزلته عنده. وأن قيصر ملكه على مكة. ومنحه براءة بذلك، واعترف به. وقد سبق أن تحدثت عنه في أثناء كلامي على مكة. وقد ذكرت أن من الصعب تصور بلوغ نفوذ القيصر هذا الحد من جزيرة العرب، فلم يتجاوز نفوذ الروم الفعلي في وقت ما من الأوقات أعالي الحجاز. ولكن ذلك لا يمنع من تقرب السادات وتزلفهمً إلى عمال الروم وموظفيهم في بلاد الشأم، بإظهار أنهم من المخلصين لهم المحبين للروم، وأنهم من كبار السادات ذوي المكانة والنفوذ، للحصول على مكاسب مادية ومعنوية منهم، تجعل لهم مكانة عند أتباعهم وجاهاً ومنزلة ونفوذاً على القبائل الأخرى. وقد كان الروم يعرفون ذلك معرفة جيدة، بفضل دراستهم لنفسية الأعراب، ووقوفهم على طبائع سادات القبائل، فكانوا يشجعون هذا النوع من التودد السياسي لكسب العرب وجرهم إلى جانبهم.

---

[1] «فقال: يا أم خالد، هذا سناه. وسناه بالحبشية حسنة»، أسد الغابة (٥/ ٥٧٩)، المعرب (٢٠٢، ٣٠٣، ٣٥٢)، صحيح مسلم (٢/ ١٨٩).

[2] ابن هشام (٢/ ٣٢٩)، «من حضر بدراً من بين مخزوم»، المشرق، السنة الخامسة والثلاثون، ١٩٣٧ (ص ٩٠ وما بعدها)، كتاب نسب قريشٍ (٣٤٢).

[3] اليعقوبي (١/ ٢٢٧)، (أديان العرب).

وعدّ (ورقة بن نوفل) في جملة المتنصرين في بعض الروايات، فقد ذكر أنه «تنصر واستحكم في النصرانية، وقرأ الكتب، ومات عليها»[1].

وقد استدل (شيخو) من الخبر المروى عن الصور التيً قيل إنها صور الرسل، والأنبياء وبينها صورة المسيح ومريم، والتي ذكر أنها كانت مرسومة على جدران الكعبة، على أنها هي الدليل على أثر النصرانية بمكة. استدل على فكرته هذه بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطمست تلك الصور، استثنى منها صورة عيسى وأمه مريم، وبخبر ثان ورد عن تمثال لمريم مزوّق بالحلي وفي حجرها عيسى، باد في الحريق الذي شب في عصر (ابن الزبير)، وبخبر ثالث عن امرأة من غسان قيل إنها «حجت في حاج العرب، فلما رأت صورة مريم في الكعبة، قالت: بأبي أنتِ وأمي: إنكِ لعربية. فأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بمحو تلك الصور، إلاّ ما كان من صورة عيسى ومريم»[2].

وكان في الطائف نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية، لم يتعرض سادتهم كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم، فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاؤون. من هؤلاء (عدّاس)، وكان من أهل نينوى، أوقعه حظه في الأسر، فبيع في سوق الرقيق، وجي به إلى الطائف فصار مملوكاً لعتبة وشيبة ابني ربيعة. وعند مجيء الرسول إلى الطائف عارضاً نفسه على ثقيف أهلها، كان هو في جملة من تكلم اليه[3]. ومنهم الأزرق، ذكر أنه كان عبداً رومياً حداداً، وأنه هو أبو نافع الأزرق الخارجي الذي ينتمي اليه الأزارقّة. وهناك روايات تنفي وجود صلة لهذا الأزرق بالأزرق والد نافع المذكور[4].

وأما الحديث عن النصرانية في اليمن، فهو حديث غامض أوله، مبهم أصله، لا نعرف متى نبدأ به على وجه التحقيق. فليس لدينا نص بالمسند يشير إلى مبدأ

---

1 اليعقوبي (١/ ٢٩٨)، (ليدن)، المحبر (١٧١)، ابن هشام (١/ ٢٤٣، ٢٥٠ وما بعدها)، النصرانية (١/ ١١٩)، المشرق، السنة الخامسة والثلاثون، ١٩٣٧ (ص ٢٧٢).
2 النصرانية (ص ١١٧).
3 ابن هشام (٢/ ٣٠)، أسد الغابة (٣/ ٢٨٩)، الإصابة (٢/ ٤٥٩)، الرقم ٥٤٧٠)، النصرانية (٤٥٢).
4 البلاذري (٦٢).

دخول النصرانية العربية الجنوبية. وما لدينا من كتابات مما له بعض العلاقة بالنصرانية إنما دوّن في الحقبة المتأخرة من تأريخ اليمن، وفي أيام الحبشة في اليمن، وهو ساكت في الجملة عن المبدأ وعن المبشرين بالنصرانية في العربية الجنوبية. فليس لدينا من بين نصوص المسند في هذا الباب عون ولا سند.

وليس لنا اذن إلاّ أن نفعل ما فعلناه بالنسبة إلى اليهودية، فنرجع إلى الموارد الإسلامية والنصرانية لنرى رأيها في هذا الباب.

وتزعم الموارد الإسلامية أنّ الذي نشر النصرانية في اليمن رجل صالح من بقايا أهل دين عيسى اسمه (فيميون) Faymiyon = Phemion [1]، وكان رجلاً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة سائحاً ينزل القرى لا يُعرف بقرية إلاّ خرج منها إلى قرية لا يعرف فيها، وكان لا يأكل إلاّ من كسب يده، وكان بنّاءً يعمل الطين وكان يعظم الأحد: إذا كان الأحد لم يعمل فيه شيئاً. ففطن لشأنه في قرية من قرى الشأم رجل من أهلها اسمه (صالح)، فأحبه واتبعه على دينه ورافقه. وانصرف ومعه صالح من ضواحي الشأم حتى وطئا بعض أرض العرب، فعدا عليهما، فاختطفتهما سيارة من بعض العرب، فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران. وأهلها من بني الحارث بن كعب من بني كهلان. وكانوا يعبدون العزى على صورة نخلة طويلة بين أظهرهم. فابتاع رجل من أشرافهم (فيميون)، وابتاع رجل آخر صالحاً، وقد أعجب صاحب فيميون به، لما رآه فيه من صلاح وورع، فآمن بدينه، وآمن أهل نجران منذ ذلك الحين بالنصرانية لمعجزة قام بها (فيميون)، حينما دعا الله يوم عيد العزى أنْ يرسل عليها ريحاً صرصراً عاتية تُخنى عليها. فأتت الريح عليها فجعفتها من أصلها فألقتها، فآمن بدينه أهل نجران. فمن هنالك كانت النصرانية بنجران[2]. ويذكر الطبري أنّ أهل نجران كانوا يعيدون كل سنة، «إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه، وحليّ النساء. ثم خرجوا، فعكفوا عليها يوماً»[3].

ويظن أن (فيميون) كلمة يونانية في الأصل حرفت من أصل Euphemion.

---

[1] «فيميون» «قميون» «ميمون».

[2] الطبري (٢/ ١٠٣ وما بعدها)، ابن هشام (٢٠ وما بعدها)، الكامل، لابن الأثير (١/ ١٧١)، البيضاوي (٢/ ٣٩٥)، ابن خلدون (٢/ ٥٩).

[3] الطبري (٢/ ١٢٠ وما بعدها) «دار المعارف».

وزعم أن (فيميون) عين أحد النجرانيين واسمه (عبد الله بن الثامر) رئيساً عليهم، وجعلهم تحت رعاية أسقف اسمه (بولس) [1].

وقد ذكر (الأزرقي) أن أهل نجران كانوا من أشلاء سبأ «وكانوا على دين النصرانية على أصل حكم الإنجيل، وبقايا من دين الحواريين، ولهم رأس يقال له: عبد الله بن ثامر»[2].

وتذكر رواية اسلامية أخرى أن أهل نجران كانوا أهل شرك، يعبدون الأوثان وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، وكان أحد رجال نجران واسمه (الثامر) يرسل ابنه (عبد الله) مع غلمان أهل نجران إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فكان يمر على صاحب خيمة بين نجران وتلك القرية، وقد أعجبه ما رآه من صلاته وعبادته وتقواه، فجعل يجلس اليه ويسمع منه حتى دخل في دينه، وصار يدعو اليه بين أهل بلده. فمن ثم انتشرت النصرانية في نجران، وظهرت على الوثنية[3].

وتذكر هذه الرواية، أن (عبد الله بن الثامر)، أخذ من ثم يبشر بالنصرانية، ويأتي بالمعجزات إذ يشفي المرضى «حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلاّ أتاه فاتبعه على أمره، ودعا له فعوفي، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران. فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأمثلن بك! قال: لا تقدر على ذلك، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض، ليس به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران، بحور لا يقع فيها شيء إلاّ هلك، فيُلقى فيها فيخرج ليس به بأس، فما غلبه، قال عبد الله بن الثامر: إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت ذلك سلطت علي فقتلتني، فوحد الله ذلك الملك، وشهد بشهادة عبد الله بن الثامر، ثم ضربه بعصاً في يده فشجّه شجة غير كبيرة، فقتله، فهلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر»[4].

ولم تصرح هذه الرواية التي يرجع سندها إلى (محمد بن كعب بن القرظي)

---

1 Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 31, anm., I, O'leary, p. 143.

2 أخبار مكة (١/ ٨١).

3 الطبري (٢/ ١٢١ وما بعدها) «دار المعارف».

4 الطبري (٢/ ١٢٢) «دار المعارف».

وبعض أهل نجران، باسم الرجل الصالح الذي أخذ منه (عبد اللّه بن الثامر) نصرانيته. وقد نبّه إلى ذلك الطبري، في أثناء سرده لها، فقال: «ولم يسموه باسمه الذي سمّاه به وهب بن منبه»[١].

وقد صيرت بعض الروايات (عبد الله بن الثامر) في جملة من قتلهم (ذو نواس) من النصارى، غير أن (الطبري)، نبه إلى خطل هذا البعض، وبينّ أن (عبد الله) كان قد قتل قبل ذلك، قتله ملك كان قبله، هو كان أصل ذلك الدين[٢].

وهناك قصة ذكرها (ابن إسحاق)، تزعم أن رجلاً حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجاته، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دفن منها قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده، فإذا أخرت يده عنها انبعثت دماً، واذا أرسلت يده ردّها عليها، فأمسك دمها، وفي يده خاتم، فأقر على حاله وردّوا عليه الدفن الذي كان عليه، وكان ذلك بأمر عمر بن الخطاب[٣].

والظاهر أن النجرانيين، لم ينسوا رئيسهم (عبد الله بن الثامر) حتى بعد اسلامهم، فرووا عنه هذا القصص وصيروه على هذه الصورة التي روتها القصة. ويظهر أنه قتل، فصير شهيداً من الشهداء، لأنه قتل في سبيل دينه وفي سبيل نشره بين النجرانيين.

وزعم بعض الأخباريين أن الذي أدخل النصرانية ونشرها في الحميريين، هو التبع عبد كلال بن مثوب: أخذ التبع نصرانيته بزعمهم من رجل من غسان ذكروا أنه كان قد قدم عليه من الشأم. فما علمت حمير بتنصر التبع وبتغيير دينه وإعراضه عن عبادتها، وثبت بالغساني فقتلته[٤]. وقد أشير إلى تنصره في القصيدة الحميرية[٥].

---

1 الطبري (٢/ ١٢١ وما بعدها) «دار المعارف».
2 الطبري (٢/ ١٢٣) «دار المعارف».
3 الطبري (٢/ ١٢٤).
4 الطبري (٢/ ٨٦): «ذكر ما كان من الأحداث في أيام يزدجرد بن بهرام وفيروز بين عمالها على العرب وأهل اليمن»، النصرانية (١/ ٥٥ وما بعدها)، Nallino, Raccolta, III, p. 124.
5 أم أين عبد كلال الماضي على دين المسيح الطاهر المساح
النصرانية (١/ ٥٥).

أما الرواية الأولى فتنسب إلى (وهب بن منبه). وأما الرواية الثانية فتنسب إلى (محمد بن كعب القرظي) والى بعض أهل نجران لم يصرح (ابن إسحاق) بذكر أسمائهم، فالروايتان اذن من مورد واحد هو أهل الكتاب[1]. فوهب بن منبه من مسلمة يهود. وأما محمد بن كعب بن أسد القرظي المتوفي بين سنة ١١٨ ــ ١٢٠ للهجرة، فهو من أصل يهودي كذلك، من قريظة حلفاء الأوس، وقريظة يهود. وكان مثل وهب قاصاً من القصاص يقص في المسجد. وقد جرّ قصصه. هذا عليه البلايا، فكان يقص في المسجد فسقط عليه السقف فمات[2].

وجدت أقوال محمد بن كعب القرظي سبيلها إلى تأريخ الطبري عن طريق سيرة ابن إسحاق، وهو طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق صاحب السيرة الذي أخذ منه بلا واسطة كما أخذ منه بالواسطة. أما الأخبار المروية عنه، فهي في سير الرسل والأنبياء، وفي انتشار اليهودية والنصرانية في اليمن، وفي الأمور التي تخص اليهود في الحجاز[3]. وكان من المقربين إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، لأنه كانت له به معرفة سابقة قبل توليه الخلافة. فلما ولي الخلافة، كان يذهب اليه ويتحدث معه في الزهد وفي القصص الذي يحمل طابع الإسرائيليات وفي التفسير الذي اشتهر به[4].

فناقل النصرانية إلى نجران إذن رجل غريب جاء إلى البلد من ديار الشأم على رواية (وهب بن منبه). ويرجع (أوليري) هذه الرواية إلى أصل يرى جذوره في السريانية[5]. واسم هذا الرجل الصالح غير عربي بالطبع. فلعله من المبشربن الذين كانوا يطوفون بين ديار العرب للتبشير.

ولا يستبعد أن يكون المبشرون قد أدخلوا النصرانية إلى اليمن عن طريق الحجاز،

---

[1] الطبري (٢/ ١٠٤)، تفسير الطبري (٣٠/ ٨٥)، Nallino, Raccolta, Di Scritti, III, 1941, p. 124.

[2] راجع ما كتبته عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الأول، ١٩٥٠، (ص ١٩٨)، وتهذيب التهذيب (٩/ ٤٢٠)، عيون الأخبار (١/ ٢٠١، ٢٦٤) (٢/ ١٤، ٣٤٣)، (٣/ ٤).

[3] الطبري (١/ ١٣٨)، (٢/ ١٠٤)، ورد اسمه في «٢٩» موضعاً في تأريخ الطبري.

[4] ابن سعد، طبقات (٥/ ٢٧٢ فما بعدها)، مجلد ٧، قسم ٢ ص ١٩٤، عيون الأخبار (٢/ ٣٤٣)، (٣/ ٤).

[5] O'leary, p. 143.

فقد كانوا يتنقلون بين العرب لنشر هذا الدين. وليس بمستبعد أيضاً أن يكون قد دخل عن طريق الساحل أيضاً مع السفن. فقد كان المبشرون يتنقلون مع البحارة والتجار لنشر النصرانية، وقد تمكنوا بمعونة الحكومة البيزنطية من تأسيس جملة كنائس على سواحل جزيرة العرب وفي سقطرى والهند. كما لا يستبعد أن يكون للمبشرين الذين جاؤوا من العراق كما تذكر بعض الموارد النصرانية السريانية دخل في نشر النصرانية في اليمن. ولا سيما نشر النسطورية في تلك البلاد.

وأما الموارد النصرانية، فإنها مختلفة فيما بينها في أول من أدخل النصرانية إلى اليمن، فالموارد اليونانية ترى رأياً، والموارد السريانية ترى رأياً، والموارد الحبشية ترى رأياً آخر، يختلف عن الرأيْن. وكل رأي من هذه الأراء الثلاثة يرجع شرف نشر النصرانية في اليمن إليه.

يحدثنا كتبة التواريخ الكنسية من اليونان أن القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل في عام (٣٥٤) للميلاد (ثيوفيلوس اندس) Theophilus Indus، أي (ثيوفيلوس الهندي)، من جزيرة سرنديب أي سيلان إلى العربية الجنوبية للتبشير بالنصرانية بين الناس. وقد تمكن من إنشاء كنيسة في عدن وأخرى في ظفار وثالثة في هرمز، وعين للمتنصرين رئيساً ثم رحل. وصارت ظفار في سنة ٣٥٦م مقراً لرئيس أساقفة يشرف على شؤون نصارى نجران وهرمز وسقطرى[1]. وقد عثر على مقربة من خرائب ظفار على أعمدة من الطراز (الكورنثي) وعلى بقايا تيجانها وعليها نقوش صلبان يظهر أنها من مخلفات تلك الكنائس القديمة التي شيدت بمساعدة البعثات التبشيرية وفي أيام الحبشة في اليمن[2].

وزعم (فيلوستورجيوس) Philostorgius أنّ هذا الشعب الذي بشّر (ثيوفيلوس) بين أفراده بالنصرانية، شعب هندي، وكان يدعى سابقاً باسم شعب (سبأ) نسبة إلى عاصمته سبأ ويعرف اليوم باسم حمير Homeritae [3]. وقد توهم

---

1 «تاوفي الهندي» النصرانية (١/ ٥٦).
Alt Kult., S. 148, Philostorgius, Historia Eccleslastica, III, 46, Hugh Scott, in the High Yemen, 1947, p. 211, Mordtmann, Miscellen zur himjarischen Alterthumskunde, in ZDMG., 1877, XXXI, S. 64. ff., Migne, Petr. Grea., LXV, Col., 459-637, Conti Rossini, un documento, p. 710.

2 Alt. Kult. S. 148, Nallino, Raccolta, III, p. 133, Bury, History of the Roman Empire, II, p. 322.

3 Philostorgius, I, II, 6, ZDMG., 31, 1877, S. 65.

عدد من الكتبة (الكلاسيكيين) فحسبوا الحميريين من الهنود، كما أن بعضاً منهم ظنوا أن السبئيين من (الكوشيين) الحبش، والذي أوقعهم في هذا الوهم هو صلات هؤلاء بإفريقية وبالهند، ولوقوع بلادهم على المحيط الهندي وعلى مقربة من إفريقية[١].

وجاء في رواية أخرى أن القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل (ثيوفيلوس) إلى ملك حمير Homeritaeونجاشي الحبشة Axume وذلك في عام (٣٥٦) للميلاد. برسائل كتبها القيصر إلى الملكيْن. فلما أنهى مهمته لدى ملك حمير، انتهز هذه الفرصة فزار وطنه الهند، ثم عاد فذهب إلى الحبشة. وعاد منها فذهب إلى أنطاكية Antiochia ومنها إلى القسطنطنية[٢]. ويظهر من هذه الرواية أن مهمته هذه لم تكن مهمة دينية، انما كانت ذات طابع سياسي، الغاية منها ضم حمير والأحباش إلى معسكر البيزنطيين.

وقد كان من مصلحة الحكومة البيزنطية بعد دخول القيصر (قسطنطين) في النصرانية عام (٣١٣) للميلاد واتخاذها ديانة رسمية للدولة، أن ينشر هذا الدين ويكثر أتباعه، لما في ذلك من فوائد سياسية ومصالح اقتصادية، فضلاً عن الأثر العميق الذي يتركه هذا العمل في نفوس أتباعه المؤمنين مما يرفع من مكانة القياصرة في نفوس الشعب ويقوي من مراكزهم ونفوذهم على الكنيسة والرعية. وبمساعدة هؤلاء القياصرة تمكن المبشرون من إنشاء ثلاث كنائس في (ظفار) و(عدن) و(هرمز) [٣].

ولم يكن يقصد (قسطنطين) كما يرى المستشرق (روسيني) من إرسال الوفد الذي ترأسه (ثيوفيلوس) إلى ملك حمير، هدفاً دينياً محضاً، وإنما أراد أن يعقد معاهدة تجارية مع الحميريين ويحقق له منافع اقتصادية وسياسية، بأن يحقق له التجارة البحرية، ويحرض اليمانيين على الفرس ويدخلهم في معسكره بدخولهم

---

[1] النصرانية (١/ ٥٣ وما بعدها).

[2] Paulys—Wissowa, Zweite Reike, Zehuter Halbband, S. 2167, Philostorgius, Hist. Eccle., II 6, Kidd, A History of the Church, II, 161, III, 429, Bury, History of the later Romen Empire, II, p. 322.

[3] Ency. of Relig. And Ethi., III, p. 589, Franz Stuhimann, Der Kampf um Arabien, S. 12.

في النصرانية التي تجمع عندئذ بينهم وبين الروم[1].

وورد في رواية أخرى أن الحميريين Homeritae دخلوا في عهد (انسطاس) (انسطاسيوس) (٤٩١ ــ ٥١٨م) في النصرانية. وذكر أيضاً أنه كان في جملة من قصدوا القديس (سمعان العمودي) رجال من عرب حمير، وقد رآهم (تاودوريطس) في القرن الخامس للميلاد[2].

وأما الموارد السريانية، ومنها الموارد النسطورية، فتزعم أن تاجراً من أهل نجران اسمه (حنان) أو (حيّان)، قام في أيام (يزدجرد) الأول (٣٩٩ ــ ٤٢٠ للميلاد) بسفرة تجارية إلى القسطنطنية، ثم ذهب منها إلى الحيرة، وفيها تلقن مبادىء النصرانية ودخل فيها. فلما عاد منها إلى نجران، بشر فيها بالنصرانية حتى تمكن من نشرها بين حمير. وترجع تواريخ البطارقة هذه الحادثة إلى أيام بطرقة (معنى) Ma'na الموافقة لحوالى سنة (٤٢٠) بعد الميلاد[3]. وذكر أنه في عهد البطريق (سيلاس) Silas (٥٠٥ ــ ٥٢٣م) هرب لاجئون من اليعاقبة Jakobiten إلى الحيرة، غير أن النساطرة أجلوهم عنها، فذهب قسم منهم إلى نجران، فنشروا مذهبهم بين السكان[4].

وتشير الأخبار الكنسية أيضاً إلى أن رسولي الكلدان الأولين: (ادي) و(ماري) كانا قد سارا إلى بلاد العرب سكان الخيام. وإلى نجران وجزائر بحر اليمن. وجاء في المصحف الناموسي: «وبشر الجزيرة والموصل وأرض السواد كلها وما يليها من أرض التيمن كلها وبلاد العرب، سكان الخيام والى ناحية نجران والجزائر التي في بحر اليمن مارى الذي من السبعين»[5].

وللحبش قصص عن انتشار النصرانية في نجران، خلاصتها: إن قديساً اسمه

---

1 النصرانية (١/ ٥٩)،
Conti Rossini, un documento sul Cristianesimo nello iemen, p. 710.

2 النصرانية (١/ ٥٧ وما بعدها)،
Mordtmann, in ZDMG., XXXI, 1877, S. 65, Theodorus, Lector, Histo. Eccl., I, II, p 567, (ed. Valesius and Nicephorus Callistus).

3 Chronik von Séert, II, 149, ABM, 22, Eduard Sachau, zur ausbreitung des Christentums in Asien, Berlin, 1919, S. 68.

4 Chronik von Séert, II, 149.

5 النصرانية (١/ ٥٨).

(ازفير) Azkir، أقام كنيسة ورفع الصليب وبشّر بالنصرانية في نجران، وذلك في أيـام الملـك (شرحبيل ينكف) ملك حمير، فاستاء من ذلك (ذو ثعلبان) و(ذو قيفان)، وأرسـلا رجالهمـا إلـى المدينة لهدم الكنيسة وإنزال الصليب والقبض على القديس، ففعلوا وألقوا به في غياهـب السـجن. وفي أثناء اقامته فيه هدى قوماً من السجناء إلى النصرانية بفعل المعجزات التي قام بها، فغضـب الملك (شرحبيل) عليه، وأرسل إلى القيلين اللذين كانا في نجران أن يرسلا اليه هذا الرجل الـذي فتن الناس، فأرسل مخفوراً اليه. وفي أثناء اجتيازه الطريق إلى عاصـمة الملـك ظهـرت منـه معجزات خارقة، آمن بها عدد ممن رافقوه أو وقفوا على أحواله وتعمّدوا على يديه. فلما وصـل إلى (ظفار) عاصمة (شرحبيل)، انتهره الملك وحاجه في دينه وعرض عليه كتـب (يهـود)، ثـم أغراه بالذهب والمال، فقال له القديس: «الذهب والفضة فانيان، أما كرستس ساكن السماء فبـاق». وقد حرضه عليه أحد الأحبار، فأمر الملك عندئذ بإرساله إلى نجران لقتله. فلما بلغ المدينة، قتلـه اليهود، فمات شهيداً في سبيل دينه[١].

وتزعم الرواية الحبشية أن نصارى اليمن كانوا يرسلون بهداياهم إلى النجاشي بالضـرائب يدفعونها اليه[٢].

وذكر أن أحد الأساقفة ممن كان في اليمن، كان قد اشترك في أعمال مجمع (نيقية) الـذي انعقد سنة ٣٢٥ للميلاد[٣]. وإذا صح هذا الخبر، فإنه يعني أن النصرانية كانت قد وجدت لها سـبيلاً إلى اليمن في القرن الرابع للميلاد.

يتبين من هذه الأخبار أن النصرانية لم تدخل العربية الجنوبية من طريـق واحـد، وإنمـا دخلتها من البر ومن البحر، دخلتها من البر من ديار الشأم إلى الحجاز فاليمن، ومن العراق أيضاً مع القوافل التجارية المستمرة التي كانت بين اليمن والعراق. ودخلتها من البحر بواسـطة السـفن اليونانية ودخلتها مع الحبشة كذلك الذين كانوا على اتصال دائم باليمن وببقية العربية الجنوبية منـذ أيام ما قبل الميلاد.

---

[1] Winckler, AOF., IV, 1896, S. 329. ff., British Museum Orient., 686, 687, 688, 689.

[2] Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 50.

[3] النصرانية (١/ ٥٧)، Nallino, Raccolta, III, p. 122, Caetani, Annali, I, p. 125.

وقد كانت نجران أهم موطن للنصرانية في اليمن، ولعلها الموطن الوحيد الذي رسخت هذه الديانة فيه في هذه البلاد. وقد اشتهرت نجران بالحادثة التي وقعت فيها، حادثة تعذيب النصارى، وبما ذكره أهل الأخبار عن الكنيسة التي أنشأها الأحباش فيها وعرفت بـ (كعبة نجران) عند الأخباريين كما عرفت بـ (بيعة نجران) أيضاً. وفي رواية تنسب إلى ابن الكلبي «أنها كانت قبّة من أدم من ثلاث مئة جلد، كان اذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفد أرفد. وكانت لعظمتها عندهم يسمونها كعبة نجران، وكانت على نهر نجران، وكانت لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل، وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينار، وكانت القبّة تستغرقها»[١]. وكان ينفق عليها من غلّة ذلك النهر.

وورد في رواية أخرى أنها كانت بناءً بُني على بناء الكعبة. وقد بناها بنو عبد المدّان بن الديّان الحارثي، بنوها على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة لها. وكان فيها أساقفة معتمون، وهم الذين جاؤوا إلى النبي، ودعاهم إلى المباهلة[٢].

وتذكرنا قصة (ابن الكلبي) عن أصل كعبة نجران، وأنها كانت من أدم، بما نعرفه عن خيمة (يهوه) إله العبرانيين، وتعبد الإسرائيليين له فيها قبل بناء الهيكل، واعتقادهم أنها خيمة مقدسة، وبما نعرفه من خيم القبائل المقدسة، وذلك لأنها كانت بيوتاً توضع فيها الأصنام ويتعبد أفراد القبيلة بها، فإذا ارتحلوا إلى مكان جديد نقلوا خيمتهم معهم. والظاهر ان كعبة نجران المذكورة، إن صحت رواية ابن الكلبي، كانت من هذا النوع، خيمة مقدسة في الأصل وذلك قبل دخول أهل نجران في النصرانية، فلما دخلوها، لم تذهب عنها قدسيتها، بل حولوها إلى كنيسة، ثم بنوا بيعة في موضعها فيما بعد.

وفي رواية أن قُس بن ساعدة الإيادي كان أسقفاً على نجران[٣]، وهي رواية تحتاج إلى سند موثوق به، وقد أخذ بها (شيخو) وأمثاله ممن يرجع كل شيء

---

[1] البلدان (٨/ ١٩٣)، تاج العروس (١/ ٤٥٧)، (٣/ ٥٥٦)، ديوان الأعشى (١٢٢)، (طبعة كاير) (Geyer)، ابن قتيبة، الشعر والشعراء (٢٨٣)، Raccolta, III, p. 127.

[2] البلدان (٨/ ٦٢٣) «نجران»، تاج العروس (٣/ ٥٥٦).

[3] Raccolta, III, p. 128, Lammens, Califat, p. 332.

من هذا القبيل في الجاهلية إلى النصرانية.

وقد كانت نجران المركز الرئيس للنصرانية في اليمن عند ظهور الإسـلام، لهـا نظـام سياسى وإداري خاص تخضع له، وعليها: (العاقب)، وهو كما يقول أهل السير: «أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه»، و(السيد)، وهو «ثمالهم، وصـاحب رحلهم ومجتمعهم»، و(الأسقف)، وهو «حبرهم، وإمامهم، وصاحب مدراسهم»[1]. ويقصـدون بـه رئيس نجران الديني الذي اليه يرجعون في أمور الدين. أما العاقب والسيد، فإليهما إدارة الجماعة، والإشراف على شؤونهم السياسية والمالية، وتدبير ما يحتاج المجتمع اليه من بقية الشؤون[2].

وقد صالح أهل نجران خالد بن الوليد، في زمن النبي، في السنة العاشرة مـن الهجـرة، وبذلك دخل أكثر سكان المدينة في الإسلام. أما من بقي على دينه من النصارى، فقد فرضت عليه الجزية[3].

ويذكر أهل السير أن اسم عاقب نجران في أيام النبي، هو (عبد المسيح) رجل من كنـدة. وقد قدم على رأس وفد من أهل نجران إلى يثرب، فقابل الرسول، وتحـدث معـه. وكـان معـه (الأيهم) وهو سيد نجران يومئذ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بـن وائـل، وكـان أسـقفهم وحبرهم وإمامهم يومئذ، وله مقام عظيم عندهم، «وقد شرف فيهم، ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولّوه، وأخدموه، وبنوا لـه الكنـائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه وإجتهاده في دينه»[4].

وإذا صح ما رواه أهل الأخبار من أن عاقب نجران كان كندياً، وأن اسقفها كان من (بكر بن وائل)، فإن ذلك يدل على أن الرئاسة عند النصارى العرب،

---

[1] ابن هشام (٢/ ٢٠٤)، تاج العروس (١/ ٣٨٩)، (عقب)، (٦/ ١٤١)، (سقف)، اللسان (١١/ ٥٧)، «وصاحب مدارسهم»، ابن سعد (١/ ٣٥٧).

[2] Raccolta, III, p. 128.

[3] الطبري (٣/ ١٥٧)، «حوادث السنة العاشرة»، البلدان (٨/ ٢٦١ وما بعدها).

[4] ابن هشام (٣/ ٢٠٤)، تاج العروس (١/ ٣٨٩)، اللسان (٢/ ١٥)، ابن سعد (١/ ٣٥٨)، نهاية الإرب (١٨/ ١٢١).

لم تكن تتبع العرف القبلي في الزعامة، وإنما كانت عن تنسيب واختيار، وأنا لا استبعد احتمال وجود مراجع دينية عليا، كانت هي التي تتولى النظر في ادارة الكنائس وفي تعيين رجال الدين وفي النظر في المشكلات التي تقع بين النصارى، أو بين النصارى وغيرهم، وفي أمر مساهمة النصارى العرب في المجامع الكنسية التي تنظر في المسائل العامة للطوائف.

ويرى بعض أهل الأخبار أن «السيد والعاقب أسقفي نجران اللذين أرادا مباهلة رسول الله» هما من ولد الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي، الذي حكم بين بني نزار بن معد في ميراثهم، وكان منزله بنجران[١].

ويذكر علماء اللغة، أن (العاقب) من كل شيء آخره، والعاقب السيد، وقيل الذي دون السيد، وقيل الذي يخلف السيد، وقيل: الذي يخلف من كان قبله في الخير كالعقوب[٢]. والذي أوحى اليهم بهذا التأويل والتفسير، ظاهر لفظة (عقب) في عربيتنا التي منها اشتقت لفظة (العاقب) على رأيهم، والصحيح أنها لفظة عربية جنوبية وردت في المسند، بمعنى (رئيس) وممثل قوم، أي رسول قوم، فورد (عقبت نشقم)، أي (رئيس) مدينة (نشق)[٣]، وبمعنى ممثل مدينة (نشق)[٤].

وذكر أن نصارى نجران، أرسلوا العاقب والسيد في نفر لمحاججة رسول الله فيما نزل عليه في المسيح، من أنه عبد الله، حيث كبر ذلك عليهم سماعه، فاخذوا يخاصمونه ويجادلونه فيه، وألحوا عليه بالجدل والخصومة، فدعاهم إلى الملاعنة، فامتنعوا ودعوا إلى المصالحة، فصالحهم[٥]. وأنه إلى ذلك أشير في القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٦].

---

[1] المحبر (١٣١).
[2] تاج العروس (١/ ٣٨٩)، (عقب).
[3] Jamme 619, Ma Mb 178, Mahram, p. 120.
[4] Jamme, South Arabian Inscription, p. 445.
[5] إرشار الساري (٦/ ٤٣٧).
[6] آل عمران، الآية رقم ٦١، تفسير الطبري (٣/ ٢٠٩ وما بعدها)، روح المعاني (٣/ ١٦٥)، إمتاع الأسماع (١/ ٥٠٢)، الواحدي، أسباب (٧٤)، ابن سعد (١ قسم ٢ ص ٨٤)، إشارد الساري (٦/ ٤٣٧).

وورد ايضاً أنه لما بُعث رسول الله وسمع به أهل نجران أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم منهم العاقب والسيد، و(مار سرجس)، و(مار يحز)، «فسألوه ما يقول في عيسى. فقال: هو عبد الله وروحه وكلمته. قالوا هم: لا، ولكنه هو الله نزل من ملكه، فدخل في جوف مريم، ثم خرج منها، فأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب؟ فأنزل الله، عز وجل: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ: كُن فَيَكُونُ»[١].

وقد كان لنصارى اليمن كنائس أخرى غير كنيسة (نجران): فقد كانت لهم كنيسة عظيمة في (صنعاء)، هي (القليس) التي اكتسبت شهرة عظيمة في كتب الأخبار والتواريخ وهي كنيسة (أبرهة)، من أصل (اكلسيا) Ecclysia اليوناني بمعنى الكنيسة، وموضعها الآن جامع (صنعاء) على ما يظن. وقد أبدع الأحباش في تزيينها وتجميلها، وأنفقوا عليها مبالغ طائلة.

كما كانت لهم كنائس في (مأرب) و(ظفار). وقد عهد الأحباش بتدبير شؤون كنيسة (ظفار) إلى أسقف شهير يقال له (جرجنسيوس) (جورجيسيوس) (جرجيسيوس). وهو مؤلف كتاب شرائع الحميريين. وله مناظرات مع اليهود[٢].

وقد بقيت النصرانية قائمة في اليمن في أيام الإسلام، ففي الأخبار الكنسية أن رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس)، نصب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء، اسمه (بطرس)[٣]. وفي (الفهرست) لابن النديم، أنه التقى براهب من نجران يدعى حسّان، كان قد أنفذه الجاثليق إلى الصين، ليتفقد مع خمسة أناسي من النصارى أحوال نصاراها، فعاد منها سنة (٣٧٧) للهجرة، وأخبره بعجائب تلك البلاد[٤]. وذكر أنه في حوالي سنة ١٢١٠ للميلاد كان في منطقة صنعاء خمسة أساقفة، وأسقف في مدينة زبيد وأسقف في نجران، وأنه كان في حوالى سنة ١٢٥٠ للميلاد أسقف في عدن[٥].

---

[1] تفسير الطبري (٣/ ١٩ وما بعدها).
[2] النصرانية (١/ ٦٤)، Minge, Patr. Grae., 86, 567-620.
[3] النصرانية (١/ ٦٧).
[4] الفهرست (٥٠٤) «مطبعة الاستقامة».
[5] النصرانية (١/ ٦٧).

إن بقاء النصرانية في نجران وفي مواضع من اليمن وأنحاء أخرى من جزيرة العرب، وبقاء اليهود في اليمن إلى زمن غير بعيد، يشير إلى أن ما ذهب اليه كثير من المؤرخين من إجلاء أهل الكتاب بأمر الخليفة (عمر) عن جزيرة العرب ثم بقية الخلفاء الذين ساروا على حكم: «لا يجتمع دينان في جزبرة العرب» فيه مبالغة[١]. والظاهر أن الإجلاء كان قاصراً على المواضع التي تعرضت فيها جاليات أهل الكتاب فيها للإسلام بسوء. فطبق على جاليات يهود يثرب ومن كان يسكن إلى الشمال منهم، لوقوفهم موقفاً معادياً شديداً من الإسلام، ولعملهم في إثارة الفتن على المسلمين. ومن يدري فلعلهم، ولعل أهل الكتاب عموماً ساعدوا في قيام الردة وتشجيع المتنبين والمرتدين للقضاء على الخطر الذي زعموه، خطر ظهور الإسلام وانتشاره في جزيرة العرب وفي خارجها، وقيام دولة موحدة كبيرة فيها. ومن يدري أيضاً، فلعل الروم والأحباش كانوا أيضاً في جملة من كان محرض أهل الكتاب على الدس للإسلام، وأن بعض من أعلن الردة مثل (النعمان الغرور) وهو نصراني، وغيره ممن ارتد معه من النصارى، كانوا قد تلقوا عوناً من الخارج، وهذا ما حمل الخليفة على اتباع قاعدة إجلاء الدساسين من أهل الكتاب مهما كان نوعهم عن جزيرة العرب لحماية الإسلام من خطر الفتنة ومن الردة، ولم تكن قواعده قد تركزت واستقرت استقراراً تاماً بعد.

إن الذي افهمه من سياسة إجلاء (عمر) لأهل الكتاب، هو إن ذلك الإجلاء كان خاصاً بالجاليات اليهودية التي كانت تقيم فيما بين فلسطين ويثرب، وقاصراً عليها، بسبب وقوفها موقفاً معادياً من الإسلام، أما النصارى فلم تكن لهم جاليات هناك، فلم يقع إجلاء لهم فيها. ولكن (عمر) ومن جاء بعده لم يطبقوا الإجلاء على الأسر والأفراد، بدليل ما نجده في أخبار أهل الأخبار من وجود أسر وأفراد من يهود ونصارى في يثرب وفي مكة وفي الطائف بعد وفاة عمر.

أما في غير الحجاز من بقية أنحاء جزيرة العرب، فلم يطبق قانون (عمر) على أهل الكتاب، بدليل دفع جالياتهم (الجزية) عن رؤوسهم في أيامه إلى وفاته، ثم في أيام من جاء بعده من الخلفاء. فكأن الخليفة، قد طبق أمر الإجلاء على

---

[1] «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأخرجن اليهود والنصارى عن جزيرة العرب حتى لا أدعْ فيها إلا مسلماً»، البلدان (٨/ ٢٦٣).

يهود الحجاز لخوفه من خطر بقائهم في مقر الإسلام وفي مدينة الرسول ومن احتمال عودة من هاجر منهم إلى أرضهم وتكتلهم من جديد، وإثارتهم من لم يكن قد تمكن الإسلام من قلبه بعد، فيقع للاسلام ما وقع في أيام الرسول من إتصالهم سراً بكفار قريش، ومن حدوث ردة جديدة، فقرر إجلاءهم جماعة عن تلك الديار.

النصرانية في بقية مواضع جزيرة العرب:

وكان التجار الروم ينزلون سواحل العربية الجنوبية للتزود منها بالماء وبالطعام وللاتجار مع سكانها، ومنهم من أقام بها وقضى حياته فيها، وتعرب. وكان منهم من بشر بالنصرانية وعمل على نشرها بين السكان. ولعل الحكومة البيزنطية كانت ترسل المبشرين إلى هذه المواضع للتبشير، كذلك أرسل نصارى الحيرة المبشرين لنشر نصرانيتهم في العربية الجنوبيّة[١]. وبعد دخول هذه البلاد في الإسلام احتفظ قوم من النصارى بدينهم، مقابل دفع الجزية للمسلمين[٢].

وأما اليمامة، فكانت النصرانية قد وجدت لها سبيلاً بين قراها وقبائلها. ويظهر من شعر للأعشى مدح به (هوذة بن على) حاكمها عند مبعث الرسول، أنه كان نصرانياً منّ على قوم من (تميم) ففك وثاقهم يوم أسروا، ويوم قتلوا وسط (المشقر)، ومنّ عليهم (يوم الفصح)، يرجو الإلَه بما سدى وما صنعا[٣].

وأما العربية الشرقية، فقد دخلت النصرانية إليها من الشمال، من العراق في الغالب. ولكن بعض الروم كانوا قد وجدوا سبيلهم إليها، فدخلوها من البحر أيضاً. فعششت في مواضع منها مثل البحرين، وقطر، وهجر، وبعض جزر الخليج. وكانت غالبية نصارى هذه الأرضين على مذهب نسطور آخذين هذا المذهب من نصارى الحيرة الذين كانوا على اتصال وثيق بهم، كما كان رجال دينهم يسافرون إلى هذه المنطقة للتبشير بها، فزرعوا فيها بذور مذهبهم، ونشروه بين من أقبل على النصرانية من العرب.

---

[1] النصرانية (٧٠).
[2] البلاذري (٨٤).
[3] ديوان الأعشى (٨٦)، جواد علي «تأريخ العرب قبل الإسلام» (٥/ ٢١١).

ومن رجال البحرين النصارى (الجارود بن عمرو بن حنش المعلى)[١]، قدم على النبي بالمدينة، فأسلم وأسلم معه أصحابه. وكان حسن الإسلام صلباً حتى هلك، وقد لام قومه ممن انضم إلى (المنذر بن النعمان بن المنذر) الغرور، فارتد عن الإسلام وعاد إلى دينه الأول[٢]. وقد بقي إلى أيام (عمر) في أغلب الروايات والى خلافة عثمان في رواية. واشترك في حروب فارس، فقتل بها بـ (عقبة الطين)، التي عرفت باسمه، فقيل لها عقبة الجارود، وذلك سنة احدى وعشرين في خلافة عمر، وقيل قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن. وقد رووا له شعراً. وكان ولده (المنذر بن الجارود) من رؤساء (عبد القيس) بالبصرة. وحفيده (الحكم بن المنذر) الذي مدحه (الأعشى الحرمازي) بشعر حسده الحجاج عليه[٣].

---

[1] ويُقال ابن عمرو بن المعلى، وقيل الجارود بن العلاء، وورد الجارود بن عمرو بن حنش، «والجارود لقب بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى من بني عبد القيس العبدي الصحابي، رضي الله عنه. كنيته أبو المنذر، وقيل أبو غياث، وهو أصح»، تاج العروس (٢/ ٣١٨) (جرد).

[2] الطبري (٣/ ١٣٦ وما بعدها)، «قدوم الجارود في وفد عبد القيس».

[3] الإصابة (١/ ٢١٧)، (رقم ١٠٤٢).

الفصل الثمانون

المذاهب النصرانيّة

لقد أصيبت النصرانية بما أصيبت به أكثر الأديان من تشقق وتصدع وانفصام، فظهر فيها شيع وفرق، تخاصمت فيما بينها وتجادلت. وكان أكثر جدالها في موضوع طبيعة المسيح وعلاقة الأم بالابن، وفي موضوع النفس، وقد عقدت لذلك جملة مجامع كنسية للنظر في هذه الآراء والحكم على صحتها أو فسادها، وفي أمر أصحابها، اجتمع فيها مندوبون من مختلف الأماكن وبينهم بعض الأساقفة العرب. غير أنها لم تتمكن من القضاء على النزعات المختلفة، فظهرت فيها جملة مذاهب، حرمت المجامع أصحابها، وحكمت ببدعتهم وبخروجهم على التعاليم الصحيحة، وطلبت من بعضهم الرجوع إلى الدين الصحيح، غير أن منهم من أصر على رأيه، وتحزب له، وبشّر به، فوجد أنصاراً وأعواناً انتموا اليه وتسموّا به.

والواقع أنه لم يكن من السهل على الداخلين في النصرانية فهم قضية معقدة كهذه القضية، وهي قضية فلسفية جدلية أكثر منها عقيدة دينيه. ولذلك كان من الطبيعي وقوع الاختلاف فيها، وتشتت آراء النصرانية بالقياس إليها، خاصة وهي حديثة عهد، وأكثر الداخلين فيها هم ممن دخلوا حديثاً في هذا الدين، وليس لهم الإدراك العميق والخيال الواسع لفهم موضوع كهذا الموضوع. ثم إن النصرانية ديانة عالمية، لم توجه لأمة خاصة من الأمم، وقد جاءت ككل الأديان بأحكام لا بد وأنْ يختلف الناس في فهمها، لاختلاف المدارك والثقافات، وهذا

الاختلاف في الفهم، يؤدي إلى ظهور المذاهب والشيع، والى تناحر هذه المــذاهب، وإدعــاء كــل واحد منها أنه وحده على الحق، وأن ما دونه على الباطل والهرطقة والكفر.

لقد فتح (بولس الرسول) وأتباع المسيح الآخرون ميداناً واسعاً من الجدل فــي موضــوع المسيح: هل المسيح إنسان، أو هو ربّ، أو هو من خلق الرب؟ وهل هو والربّ ســواء، أو هــو منفصل عن الربّ؟ هذه الأسئلة وأمثالها مما يتصل بطبيعة المسيح شغلت رجال الكنيسة، وكتّلــتهم كتلاً: كل كتلة ترى أن رأيها في الطبيعة هو الرأي الصواب، وأنه هو الدين الحق القويم، وأن مــا دونه ضلال وباطل. فظهرت المذاهب: شرقية وغربية، وانقسمت الكنيسة على نفســها، فظهــرت من الكنيسة الواحدة كنائس. ولا تزال تنشق، ويزيد عددها وتظهر أسماء جديدة لمذاهب لــم تكــن معروفة في النصرانية القديمة.

لقد كان الناصريون الأولون، وهي التسمية القديمة التي عُرف بها النصارى، في فوضــى فكرية. فلم تكن تعاليم المسيح مفهومة عندهم ولا مهضومة، وكانت تفاسير تلاميذه غير منسقة ولا مركزة تركيزاً يكفي لتوجيه الناصريين وجهة معينة واحــدة. ثــم إن تعقــب اليهــود والرومــان للنصارى وتنكيلهم بهم، وخوف الناصري على حياته وعلى ماله إذا تظاهر بدينه: كل هذه كان لها أثر خطير في المجتمع النصراني الأول. ولولا جلد بعض التلاميذ وتفانيهم في الدعوة، وتركيزهم لتعاليمها وتبويبها وصقلها، لما كان للنصرانية ذكر باقٍ حتى الآن.

وليس في استطاعة أحد الزعمُ بأن هذه النصرانية التي تركّزت وتثبتت على هذه الصــورة التي نشهدها، هي النصرانية التي جاء بها المسيح وكان عليها الناصريون، أي أقدم أتباع عيســى. فالنصرانية هي سلسلة تطورات وأفكار وآراء وضعها البارزون من الآباء، ثم إنها كأكثر الأديــان تأثرت بمؤثرات عديدة لم يكن من الممكن على الداخلين فيها التخلص منها. فدخلت فيها وصــارت جزءاً منها، مع أن بعضها مناهض ومناقض لمبادئ هذا الدين.

وتولد عن هذا الجدل ظهور (الآريوسية) أتباع (آريوس)، و(السبيلية) Sabellians وأتباع (الثالوث) Trinitarians ومذاهب أخرى نبعت من تلك البلبلة الفكرية التي أظهرها الاختلاف فــي طبيعة المسيح. ونظراً إلى ما أحدثته هذه الآراء

اللاهوتية من انقسام وتفرق في صفوف النصارى، وما تركته من أثر خطير في الأحوال الداخليـة للإمبراطورية. عزم الإمبراطور (قسطنطين) باني القسطنطنية على عقد مؤتمر للتوفيق بين هـذه الآراء وتنسيقها، فعقد مجمع (نيقية) Nicaea حضره (آريوس) للدفاع عن نفسه وحضره جمع من الأساقفة المخالفين له لمحاكمته ولإثبات هرطقته وخروجه على الإيمان الصحيح. وكانت النتيجـة الوحيدة لهذا المؤتمر وضع بيان دقيق عن الثالوث، والحكم بفساد رأي آريوس وبخروجـه علـى عقيدة النصرانية الصحيحة، ووضع تعريف للإيمان الصحيح[١].

وعقب هذا المجمع الذي انعقد في سنة (٣٢٥) للميلاد وحدد معنى النصرانية وأصـولها، عدة مجامع عُقدت للنظر في أمثال هذه المشكلات الخطيرة التي جابهت الكنيسة، عقد بعضها فـي القسطنطنية فعرفت بها، وعقد بعض آخر في (أفسوس) (٤٣١م) وفـي (خلقـدونيا) Chalcedon (٤٥١م)، ولكنها لم تستطع أن تعيد الوحدة إلى الكنيسة، فانقسمت إلـى عـدة كنـائس، وحـدث الانفصال الأكبر في سنة (١٠٥٤م) حيث تجزأت الكنيسة الكبرى للإمبراطورية إلـى كنيسـتيْن: كنيسة غربية استعملت اللغة اللاتينية لغةً رسميةً لها، وكنيسة أرثوذكسية هي الكنيسـة الإغريقيـة الأصلية، وذلك بسبب خلافات بسيطة ليس لها أثر خطير في جوهر العقيدة. أما الشرق، أي آسـية وإفريقية، فقد سبق نصاراه نصارى الغرب في تحطيم وحدة الكنيسة، فظهـرت عنـدهم الكنيسـة النسطورية والكنيسة اليعقوبية، في زمان مبكر سبق إنفصال الكنيسة اللاتينية عن الإغريقية بزمان طويل.

وقد وصلت إلينا أسماء من حضر بعض تلك المجامع الكنيسـية، واشـترك فـي جـدالها ومناقشاتها ووقع على قراراتها ومحاضرها، وبينها أسماء أساقفة بشروا بـين العـرب، وأسـاقفة يظهر أنهم كانوا من أصل عربي بدليل أسمائهم العربيـة الخالصـة أو المنقولـة إلـى اليونانيـة والسريانية. وقد عرف بعضهم بأساقفة الخيام، لمرافقتهم للأعراب ومعيشتهم بيـنهم فـي الخيـام معيشة الأعراب[٢].

---

[1] مجلة المشرق، السنة الثالثة والعشرون (١٩٢٥)، العدد ٧، (٤٨١ وما بعدها)، خلاصة تأريخ الكنيسة، لـ«لومند»، ترجمة الخوري يوسف البستاني، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت ١٨٨١، في جزءيْن (١/ ١٧٤ وما بعدها، Ecny. Religi. snd Ethic., I, pp. 775, (Arianism).

[2] النصرانية (١/ ٣٣ وما بعدها).

ومن أساقفة الأعراب أسقف عُرف باسم (بطرس)، وقد وقع على أعمال مجمع (أفسوس) بصفة كونه (أسقف محلة العرب)، والأسقف (تاوتيموس أسقف العرب) الذي وقع على أعمال مجمع انطاكية الذي انعقد عام ٣٦٣ للميلاد[1].

وقد كان بين أساقفة القدس في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس للميلاد، أسقف من أصل عربي، اسمه الياس (٤٩٤ ــ ٥١٣م)[2].

فالأساقفة الذين كانوا يديرون أمور النصارى العرب ويبشرون بين القبائل الوثنية، أسهموا في الجدل الديني الذي قام أكثره على بحث موضوع طبيعة المسيح واشتركوا فيه، وبذلك نقلوا إلى العرب هذه الأبحاث اللاهوتية التي شغلت بال العالم المتمدن منذ القرن الأول للميلاد فما بعده، وكانت أهم مشكلات النصرانية يومئذ مشكلة شغلت بال المؤمنين، ثم بال الحكومة البيزنطية بعد تنصرها وبال أتباعها المؤمنين، وشغلت العالم الغربي حتى بعد عصر النهضة، مشكلة أطاحت برؤوس الآلاف من الناس باسم الكفر والإيمان، البدعة والحق. وكان في جملة ما أسهم فيه رؤساء أديرة أقليم العربية وضع رسالة مضمونها دستور الإيمان، كتبها أولئك الرؤساء، ووجهوها إلى يعقوب البرادعي، ردّوا فيها على رأي يحيى النحوي في تثليث الجوهر الفرد، وذلك بين السنتين ٥٧٠ و٥٧٨ للميلاد. وقد وقعها ١٣٧ رئيساً لـ ١٣٧ ديراً في أقليم العربية الممتد من شرقي بلاد الشأم إلى الفرات[3].

ومن المذاهب النصرانية التي تدخل في حدود موضوعنا: المذهب النسطوري والمذهب اليعقوبي، وهما من المذاهب الشرقية، أي من المذاهب النصرانية التي ظهرت وانتشرت في الشرق، ووجدت لها مجالاً وانتشاراً في العراق وفي بلاد الشأم ومصر والحبشة وجزيرة العرب.

أما المذهب النسطوري، فينسب إلى البطريق (نسطوريوس) (نسطور)Nestorius من (جرمانيقية) Germanicia، وهي (مرعش) المتوفى سنة (٤٥٠م)، وله رأي ومقالة في طبيعة المسيح، فجعل للمسيح طبيعتيْن

---

[1] المشرق، العدد ١٢، الجزء الخامس (٣٥٣)، النصرانية (١/ ٣٤).
[2] W. Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 84.
[3] النصرانية (١/ ١٠٥ وما بعدها).

(اقنومين): أقنوم الإنسان يسوع، وأقنوم الله الكلمة، وذكر أن مريم هي بشر ولــدت بشــراً هــو المسيح الذي هو إلَه من ناحيةَ الأب الإلَه فقط[1].

وتستند تعاليم نسطور وآراؤه إلى الجدل الذي أثاره من تقدمه من الأبــاء فــي موضــوع طبيعة المسيح، والانشقاق الذي حدث نتيجة لهذا الجدل. وأكثر من أثر فيه وكوّن لــه رأيــاً فــي المسيح هو (ديودورس) Diodorus أسقف (طرسوس) Tarsus و(ثيودور المصيصي) (٣٩٣ ـــ ٤٢٨م) تلميذ (ديودورس). وفي انطاكية وقف (نسطور) على آراء هذيْن العالميْن، وكان قد ترهب وسكن هذه المدينة في عام (٤٢٨م) وتحمس لها وّبشر بها بين الناس، فأثار غضب رجال الكنيسة المعارضين لتلك الآراء، فصاروا ينددون به. وبما يقوله ويبشر به، وعدّوه ملحداً خارجــاً علــى تعاليم الكنيسة الصحيحة وعلى مبادىء الدين القويم.

ولنشاط (نسطور) في بث هذه الأفكار وعدم تراجعه عنها، طلب إليه المثول أمام مجلــس اجتمع فيه كبار رجال الدين لمحاكمته عرف بـ (مجمع أفسوس) انعقد في عيد العنصرة مــن عــام (٤٣١م)، وبعد محاكمات ومناظرات قرر المجتمعون الحكــم بهرطقــة هــذه الآراء وبمخالفتهــا للمبادىء العامة التي تدين بها الكنيسة، وبذلك كان الحكم على نسطور وأتباعه بالضلال والإلحــاد وبعزله من أسقفية القسطنطنية حكماً رسمياً. ومعنى ذلك مقاومة القائلين بهذه الآراء واضــطهادهم والتضييق عليهم في حكومة لها كنيسة خاصة ترى أنها على الحق وأن ما دونهــا علــى عمــى وضلال.

و كانت (الرها) Edessa أهم مركز ثقافي للنساطرة، ومن أهم معاقــل الأدب الســرياني. أمَّها كثير من طلبة العلم السريان للتثقف بها، ولا سيما في عهد الأسقف (ايبــاس) Ibas (٤٣٦ ـــ ٤٥٧م) الذي انتخب أسقفاً لهذه المدينة بعد وفاة أسقفها (ربولا) Rabbula في عــام (٤٣٦م). ثــم نالت (نصيبين) Nisibis مكانة كبيرة في النسطورية، خاصة بعد وفاة ايباس، وانتخاب

[1] المشرق: السنة ١٩٣١ (٦١٥)، «لا يدعُ أحد مريم أم الله لأنها كانت امرأة، ومن المستحيل أنْ يولد الله من امرأة»، علوم اليونان وسبل انتقالها إلىالعرب، أوليري، تعريب الدكتور وهيب كامل (ص ٢٥٤)، شرح الأصول الخمسة لقاضي القضاة، عبد الجبار بن أحمد «تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان»، القاهرة ١٩٦٥، (ص ٢٩٢، ٣٨٥ وما بعدها).

(نونوس) Nounus أسقفاً للمدينة، وكان هذا متأثراً بالآراء البيزنطية كارهاً للنسطورية، لذلك رأى النساطرة الانتقال عن (الرها) إلى أماكن أخرى لا أثر لنفوذ هذا الأسقف عليها، فكانت (نصيبين) الموقع المختار من بين هذه الأماكن، ونالت الحظوة عند رجالهم، واحتلت مكانة (الرها) في العلم[1].

ولكن الأسقف (نونوس) كان أسقفاً واحداً من عدد عديد من رجال الدين الرسميين الذين يمثلون كنيسة الروم، الكنيسة التي حكمت حكماً رسمياً بهرطقة (نسطور)، لذلك كان على النسطورية مواجهة الاضطهاد والمقاومة في أي مكان من الأماكن الخاضعة للروم، أو التابعة لكنيستهم، وللكنائس المعارضة لآراء نسطور. لذلك فكر النساطرة في حمل آرائهم ومعتقداتهم إلى بلد أملوا أنْ يتمتعوا فيه بحريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية، لمعارضته للإمبراطورية البيزنطية وتشجيعه كل حركة مناوئة لها، ثم لأن له حكومة ذات دين آخر بعيد عن النصرانية، فهي إذن لا تتدخل في أمور المذاهب النصرانية إلاّ إذا كانت مشايعة للروم، وليست النسطورية من هذه المذاهب.

وقد أظهر (الشاهنشاه) ملك الملوك، استعداده لحماية، النساطرة ومنحهم الحرية الدينية وحرية التبشير بمذهبهم بين رعاياه، كما أظهر رغبته في الاستفادة من علمهم ودرايتهم، فاختارهم للأعمال التي لم يكن فيها متخصصون من أتباعه، وسمح لهم بالتدريس وبتهذيب الناس وبتعليمهم الفلسفة اليونانية، ولا سيما فلسفة أرسطو والطب، وغدت (سلوقية) Seleucia على نهر دجلة قبالة العاصمة (طيسفون) مركزاً ثقافياً خطيراً ينافس (الرها) و(نصيبين)، وصار هذا المركز من أهم معاقل النسطورية والتبشير في العراق وفي سائر أنحاء إمبراطورية الفرس.

ومن هؤلاء النساطرة تعلم عرب بلاد العراق وعلى رأسهم أهل الحيرة النسطورية، ومن أهل الحيرة انتقلت إلى جزيرة العرب. ولما كانت السريانية هي اللغة الرسمية لهذه الكنيسة، صارت هذه اللغة بهذه الصفة لغة نصارى العرب، بها يرتلون صلواتهم في الكنيسة وبها يكتبون، وإن كانت بعيدة عنهم غير مفهومة لدى

---

[1] أدي شير (٢/ ١٣٠)، المشرق، ١٩١٠م (ص ٣٩٠)، Socrates Scholasticus, Hist. Eccl., VII, 29-35, O'leary, p. 133, Ency. Relig. Ethi., p. 323.

الأكثرية منهم. لقد كانت على كل حال لغة رجال الدين. وجلهّم من رجال العلم في ذلــك الــزمن. فهي عندهم لغة للدين وللعلم، كما كانت اللاتينية لغة للدين والعلم عند الرومان، والإغريقيــة لغــة للدين والعلم عند اليونان، والعربية عند المسلمين.

وأنا حين أقول إن النسطورية كانت قد وجدت لها سبيلاً إلى أهل الحيرة، فــدخلت بيــنهم، فأنا لا أقصد بقولي هذا أن أهل الحيرةَ كانوا جميعاً على هذا المذهب، أو أنهم كانوا كلهم نصارى. فقد كان جلّ أهل الحيرة على دين أكثر ملوكهم، أي على الوثنية، أما الذين اعتنقوا النصرانية، فهم العباديون، وبينهم قوم كانوا على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة، أي مذهب اليعاقبة، وبينهم مــن كان على مذهب آخر.

وقد تسربت النسطورية إلى العربية الشرقية من العراق وإيران، فدخلت إلى (قطر) والــى جزر البحرين وعمان واليمامة ومواضع أخرى. وورد في أسماء من حضر المجامع النســطورية اسم أسقف يدعى (إسحاق) اشترك في مجمع النساطرة الذي عقد سنة ٥٧٦م، كما ذكر اسم أسقف آخر يدعى (قوسي) اشترك في مجمع سنة ٦٧٦م. وقد كانا أسقفيْن على (هجــر)[1]. كــذلك وردت أسماء أساقفة من النساطرة تولّوا رعاية شؤون أبناء طائفتهم في جزيرة (داريــن) وفــي جزيــرة (سماهيج) وفي مواضع أخرى من الخليج، تولى بعضهم أعماله قبيل الإسلام وعند ظهوره، وتولى بعضهم رعاية شؤون أتباعه في أوائل عهد الإسلام[2].

ومن الحيرة انتقلت النسطوربة إلى اليمامة فالأفلاج فوادي الدواسر إلى نجــران والــيمن، وصلت إليها بالتبشير وبواسطة القوافل التجاربة، فقد كانت بين اليمن والحيرة علاقــات تجاريــة وثيقة، وكانت القوافل التجارية تسلك جملة طرق في تنمية هذه العلاقات وتوثيقها. وقد قوي هــذا المذهب ولا شك بعد دخول الفرس إلى اليمن، لما عرف من موقف رجاله من كنيسة الروم، ولمــا كان لأصحابه من نفوذ في بلاط (الشاهنشاه) ومن صداقته لهم[3].

---

[1] النصرانية (٧١).
[2] النصرانية (٧١).
[3] النصرانية (١/ ٥٩ وما بعدها)، Assemani, Bibl. Orient., 3, 603, Philiby. Arabian Highlands, p. 261.

وتعزو التواريخ النسطورية انتشار النصرانية في نجران إلى رجل اسمه (حسّان) أو (حنّان) أو (حيّان) ذكرت أنه ذهب في أيام يزدجرد (٣٩٩ ــ ٤٢٠م) إلى القسطنطنية للاتجار. فلما أنجز ما ذهب اليه، عاد إلى وطنه سالكاً اليه طربق (الحيرة)، وهناك اتصل بنصاراها، ودخل في النصرانية التي استهوته. فلما بلغ نجران مدينته، نشط فيها بنشر الدعوة بين الناس حتى دخل فيها كثير منها ومن بقية حمير[1].

وقد ورد أنّ البطريق (تيموثيوس) Timotheos الأول (٧٨٠ ــ ٨٢٣م) كان قد نصّب أسقفاً نسطورياً على اليمن[2]. وقد سعى الفرس لنشر مذهب النساطرة بين أهل نجران، كما سعوا في تقوية الصلات بين الحيرة ونجران. واذا علمنا أن الفرس أنفسهم لم يكونوا على دين المسيح، عرفنا الأهداف السياسية البعيدة التي كانوا يبتغونها من هذا التقارب ومن نشر المذهب النسطوري في اليمن.

وقد بقيت النسطورية قائمة في اليمن في أيام الإسلام، ففي الأخبار الكنسية أن رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس)، نصّب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء، اسمه (مار بطرس). وأن أساقفة من النساطرة كانوا في مواضع متعددة من اليمن وفي عدن، وذلك في القرن الثالث عشر للميلاد[3].

أما اليعاقبة، فقد انتشر مذهبهم بين عرب بلاد الشأم والبادية، وقد اصطدم هذا المذهب بالكنيسة الرسمية للبيزنطيين، واعتبرته من المذاهب المنشقة الباطلة، لذلك حاربته الحكومة، وقاومت رجاله. كما عارضه النساطرة، لاختلافه معهم في القول بطبيعة المسيح، وفي أمور أخرى، وهذا ما حمل النساطرة على الحكم بهرطقة اليعاقبة، كما حمل هذا الاختلاف اليعاقبة على الحكم بهرطقة النساطرة، حتى صار اختلاف الرأي هذا سبباً في وقوع معارك كلامية وجدل طويل عريض بين رجال المذهبيْن[4].

واليعاقبة Jacobite church، ويدعون بـ (المنوفسيتيين) Monophysite = Monophystte أيضاً، أي القائلين بالطبيعة الواحدة، لقولهم إن للمسيح طبيعة

---

[1] E. Sachau, S. 68, Chro. Seert., I, II, p. 330, Nallino, Raccolta, III, p. 123.
[2] O'leary, p. 141, Sachau, S. 68. f.
[3] النصرانية (١/ ٦٧).
[4] شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد (ص ٢٩٢ وما بعدها).

واحدةً وأقنوماً واحداً، فقيل لهم من أجل ذلك (أصحاب الطبيعة الواحدة)، هم مذهب من مذاهب الكنيسة الشرقية، نسبوا إلى (يعقوب البرادعي)Jacabus Baradaeus ويسمى بـ (جيمس) James أيضاً، المولود في حوالى سنة (٥٠٠) للميلاد في مدينة (الأجمة) Tela = Tella من أعمال (نصيبين) في شرقي (الرها)Edessa والمتوفى سنة ٥٧٨ للميلاد. ولد في أسرة كهنوتية، وتتلمذ لـ (ساويرس) الذي صار رئيساً على بطريركية أنطاكية في عام ٥١٤ للميلاد. ثم اضطر إلى مغادرة انطاكية إلى مصر لاختلافه مع رجال الدين في هذه المدينة في طبيعة المسيح، إذ كان يقول بوجود طبيعة واحدة فيه، ومنه أخذ يعقوب رأيه هذا في المسيح.

وذهب (يعقوب) في حوالى سنة ٥٢٨ للميلاد إلى القسطنطنية، لحمل القيصرة (ثيودورة)Theodora علي التأثير في الكنيسة وحملها على الكف عن اضطهاد القائلين برأيه في طبيعة المسيح. وقد مكث في القسطنطنية خمسة عشر عاماً، وسعى سعياً حثيثاً في نشر مذهبه والتبشير به، وهذا ما أوقعه في نزاع مع بقية رجال الدين هناك لخروجه على تعاليم المجمع الخلقيدوني الذي عين التعاليم الثابتة في طبيعة المسيح.

وكان (يعقوب) أسقفاً على (الرها) Edessa في حوالى سنة (٥٤١م). وكان (الحارث بن جبلة) من المقدرين له، والمحبوبين عنده، لذلك كان ممن توسطوا لدى بلاط (القسطنطنية) للسماح له بالخروج منها، وللتوفيق بين آرائه وآراء الكنيسة البيزنطية، كما توسط (المنذر) لدى البيزنطيين للغرض نفسه[1].

وكان من جملة تلاميذ (يعقوب) والمبشرين بتعاليمه (أحودمة) (أحودمى) الذي اغتيل بأمر كسرى أنو شروان في ٢ آب من سنة ٥٧٥م. وكان من المبشرين النشيطين، ذهب إلى بني تغلب وبشّر بينهم، وقد عرف هؤلاء عند السريانيين بالأعراب سكنة الخيام، وأقام بينهم كهاناً ورهباناً، وبنى لهم ديراً عرف فى السريانية بـ (عين قنا) أي (عين الوكر) وديراً آخر بتكريت سمي (دير جلتاني). وكانت في أيامه أسقفيتان على العرب: أسقفية عرفت بأسقفية

---

[1] W. Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 328, Devreese, Patr. d'Antioche, 75, 88, 96, Bury, Later Roman Empire., II, 391.

العرب، وأسقفية التغلبيين أو (السن) وكرسيها بـ (عاقولا) (عاقول). وعاقولا هي موضع الكوفة. أما كرسي أسقفية العرب، فكان في الحيرة[١].

كذلك كان من تلاميذه (جيورجيوس) (جرجيس) و(غريغور)، وقد تمكنا بنشاطهما وتبشيرهما من نشر هذا المذهب في بلاد الشأم وبين الأقباط والأرمن[٢].

وقد بذل (شمعون الأرشامي) Shem‘on of Beth Arsham و(مراثا) Muratha جهداً كبيراً في نشر هذا المذهب بين أهل العراق، وصارت (تكريت) القاعدة الكبرى للمذهب اليعقوبي في العراق. بقيت محافظة على هذا المركز في الإسلام[٣].

وقد دخل أكثر الغساسنة في هذا المذهب، وتعصبوا له، وطالما توسطوا لدى الروم في سبيل حملهم على الكف عن اضطهادهم والتنكيل بهم. ظلوا مخلصين لهذا المذهب إلى ظهور الإسلام. وقد نعت بعض ملوكهم بنعوت تدل على تنصرهم وتدينهم، مثل: المحبين للمسيح والمؤمنين. وقد وردت في بعض المخطوطات إشارة إلى كاهن نعت بـ (كاهن ذي العزّة والمحب للمسيح البطريق المنذر بن الحارث)، كما أنعم القياصرة على بعض ملوك الغساسنة بألقاب لا تمنح في العادة إلاّ لمن كان على دين النصرانية[٤].

وتذكر تواريخ اليعاقبة قصصاً عن بعض هؤلاء الملوك يشير إلى ذكائهم وتمسكهم في قواعد هذا المذهب وتعلقهم به، ودفاعهم عنه، وإفحامهم بذكائهم وبعلمهم أيضاً لخصوم هذا المذهب من أصحاب المذاهب الأخرى ممن أرادوا اقناعهم بالخروج

---

[1] ذخيرة الأذهان (١/ ٣٠٣).

[2] وللقائلين بالطبيعة الواحدة جملة أسماء، منها المنوفيستيون والأوطاخيون، نسبةً إلى أوطاخي من القائلين بالطبيعة الواحدة، والديوسقوريين. راجع: أدي شير: تأريخ كلدو وآشور (٢/ ١٣٢)، ذخيرة الأذهان (١/ ٢٠٨)، النصرانية (١/ ٣٨ وما بعدها)، المشرق، السنة الأولى، الجزء السادس (٢٤٩)، خلاصة تأريخ الكنيسة (١/ ٢٨٨ وما بعدها).
Ency. Relig. and Ethics, XII, p. 172, Ency. Brita., 12, p. 860, Burkitt, early Eastern Christianity, 1904.

[3] Araber, I, S. 10.

[4] ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، تأليف القس بطرس نصري الكلداني (١/ ١٣٢)، النصرانية (١/ ٣٦)، O’leary, p. 192.

من المذهب اليعقوبي ونبذه، مع ميلهم إلى التوفيق بين المذاهب ومنع الفرقة بين النصارى، كالذي ذكروه مع مناظرة وقعت بين البطريرك (البطريق) افرام (٥٢٦ ــ ٥٤٥م)، وهو من بطاركة الملكيين والحارث بن جبلة ملك الغساسنة وهو على اليعقوبية، وقد أفحم فيها الملك الحارث خصمه على ما يدعيه اليعاقبة بذكائه وبقوة بديهته وحجته، وكالذي رووه عن تعنيف المنذر بن الحارث للبطريرك (دوميان) في أثناء زيارته للقسطنطنية، لتهجمه على اليعاقبة وإثارته بهذا الهجوم الفرقة بين النصارى، وطلبه منه الاتفاق مع (فولا) بطريرك اليعاقبة على التآخي وتوحيد المساعي، وكالذي ذكروه عن هذا المنذر أيضاً من كتابته إلى القيصر (طيباريوس) للتدخل في حمل البطريرك والأساقفة على ايقاف حملاتهم على اليعاقبة، ولكي يسعى في إطلاق الحرية لجميع النصارى، وأن يصلي كل واحد منهم أينما شاء وحيثما شاء[١].

وكان لليعاقبة مشهد مقدس يحجون اليه للتبرك به والنذر له، هو مشهد القديس (سرجيوس) (سرجيس) في مدينة (سرجيوبوليس) Sergiopolis، وهي الرصافة. وكان عرب بلاد الشأم اليعاقبة يتيمنون به، ويضعون صورته مع الصليب على راياتهم أملاً في الفوز في المعارك. والى هذا القديس أشار الشاعر الأخطل بقوله:

لما رأونا والصليب طالعاً   ومار سرجيس وموتاً ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعاً   خلوّا لنا راذان والمزارعا[٢]

مما يدل على أن شهرة هذا القديس ظلت بين النصارى حتى في أيام الإسلام. وطالما قصد الأعراب كنيسة هذا القديس لتعميد أبنائهم هناك. وقد كانوا يعقدرن العقود عند قبره، ويقسمون الإيمان عنده، دلالة على التشديد فيها وصدقهم في الوفاء. وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به، ويقصدونه للتبرك به، على عكس نصارى الحيرة الذين امتهنوا القبر في حروبهم مع الغساسنة، واعتدوا على المدينة. وقد كان نصارى الحيرة على مذهب (نسطور) في الأغلب،

---

[1] المشرق، السنة الرابعة والثلاثون (١٩٣٦) (٦١ وما بعدها).
[2] ديوان الأخطل (٣٠٩)، المشرق، السنة الرابعة والثلاثون، (١٩٣٦)، كانون الثاني، ٢ (٢٤٧)، النصرانية (١/ ٩٩).

كما كانوا من الوثنيين، ولذلك لم تكن لسرجيوس في نفوسهم منزلة ومكانة.

وقد أشار المؤرخ (يوسبيوس القيصري) (أويسبيوس)، إلى رأي كان عند بعض نصارى العرب، خالفوا به مذهب الكنيسة إذ قال: «ونحو هذا الوقت قام آخرون في بلاد العرب منادين بتعليم غريب عن الحق. إذ قالوا إن النفس البشرية في الوقت الحاضر تموت وتبيد مع الجسد. ولكنهما يتجددان معاً يوم وقت القيامة»[1]. وليس في هذا الكلام كما نرى، أية اشارة إلى أولئك النصارى العرب، ولا إلى مواضع سكنهم. وكل ما يفهم منه أن خلافهم وقع في زمن قريب من زمنه، وأنه كان في موضوع الروح.

وقد جودل القائلون بهذا الرأي، ونوقشوا في مجمع انعقد سنة (٢٤٦م)، عرف بـ (مجمع العربية) Council of Arabia[2].

وقد كان لـ (بولس السميساطي) Paul of Samosata، رأي في المسيح، حتى قيل إنه رأى نفسه في منزلة المسيح، وقد حكمت الكنيسة عليه بالهرطقة، وحرمته، وأعلنت خلعه عن أسقفية (أنطاكية)، وكان من المقربين إلى الملكة (الزبّاء)، لهذا لم تنفذ ما جاء في حكم الكنيسة عليه[3].

وذكر أهل الأخبار أن من بين فرق النصرانية، أو الفرق التي هي بين بين: بين النصرانية والصابئة دين يقال له (الركوسية)، وذكروا أن الرسول قال لحاتم الطائي: إنك من أهل دين يقال لهم الركوسية[4]. ولكني أشك في صحة هذا الحديث، إذ كانت وفاة حاتم قبل مبعث الرسول، ولم يثبت أنه التقى به.

وهناك شيع عقائدها مزيج من اليهودية والنصرانية. وجدت سبيلها في جزيرة العرب، مثل (الابيونيين) Ebionites و(الناصريين) Nazarenes و(الكسائيين) Elkesaites[5].

---

[1] تأريخ الكنيسة، ليوسابيوس القيصري، ترجمة القس مرقس داوود (ص ٢٩٢ وما بعدها)، Eusebius, 6, 37.
[2] A Religious Encyclopaedia, Vol., I, p. 122.
[3] Runciman, The Mediaeval Maniche, 19. ff.
[4] أسد الغابة (٣/ ٣٩٢)، المشرق، السنة ١٩٠٣ (ص ٥٧٤، ٧٧٧، ٩٢٨)، ١٩٠٥، (ص ٥٠٤)، ١٩٠٧م، (ص ١١٢٠)، ١٩٠٨م، (ص ٤٨٠)، ١٩٣٧، (ص ٧٣ وما بعدها)، اللسان (٧/ ٤٠٥)، تاج العروس (٤/ ١٦٣)، (ركس).
[5] النصرانية (١/ ١١١ ما بعدها).

أما (الأبيونيون) Ebionites، فجماعة من قدماء اليهود المتنصرين عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي تعني (الفقراء)، لا يعرف عن كيفية ظهورهم ونشوء عقيدتهم على وجه صحيح أكيد، وكل ما يمكن أن يقال عن معتقداتها إنها مزيج من اليهودية والنصرانية، وإنها نصرانية بنيت على أسس ودعائم يهودية، فهي نصرانية يهودية في وقت واحد.

وقد ذهب بعض قدماء المؤرخين إلى أنهم إنما دعوا بهذه التسمية نسبة إلى مؤسس هذا المذهب المسمى (ابيون) Ebion. غير أن من الصعب إثبات صحة هذا الرأي. وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون، وينكرون رأي (بولس) الرسول في المسيح، ويحافظون على حرمة يوم السبت Sabbath وحرمة يوم الرب. وقد ذهب بعض قدماء من تحدث عنهم إلى أنهم فرقتان بالقياس إلى مولد الابن المسيح من الأم العذراء[1]. ويُعتقد أكثرهم أن المسيح بشر مثلنا، امتاز على غيره بالنبوة، وبأنه رسول الله، أرسله إلى الناس أجمعين. فهو رسوله ولسانه الناطق برسالته للعالمين. وهو نبي كبقية من سبقه من الأنبياء المرسلين. وقد آمن بعض منهم بعقيدة (العذراء) وولادتها للمسيح من غير اتصال ببشر، غير أن بعضاً آخر منهم، آمن بأن المسيح ابن مريم من (يوسف) فهو بشر تماماً، وأنكر الصلب المعروف، وذهب إلى أن من صلب، كان غير المسيح، وقد شبه على من صلبه، فظن أنه المسيح حقاً. ورجعوا إلى إنجيل متى بالعبرانية (The Gospel of Mathew) وأنكروا رسالة (باولس) Paul على النحو المعروف عند بقية النصارى[2].

وأما (الناصريين) (Nazarenes)، فهم فرقة معارفنا عن أصلها وعن كيفية ظهورها قليلة كذلك. وأكثر ما نعرفه عنها مستمد مما كتبه عنها (أفيفانيوس) (Epiphanius) و(جيروم) (Jerome). وقد أدخلهم (أفيفانيوس) في جملة (الهراطقة) (Heratics)، وذكر أنهم كانوا يقرأون النسخة العبرانية لإنجيل متى، The Gospel of Mathew وأنهم ظهروا في غور الأردن.

وقدا اعترفوا بألوهية المسيح (ابن الله)، قائلين إنه ولد من العذراء مريم،

---

[1] Ency. Brita., Vol., 7, p. 881, (Ebionites), Hastings, Ency. Reli. Ethic., 3, p. 574.
[2] Kenneth Scott Latourette, A History of Christianity, p. 122.

واعترفوا برسالة القديس (بولس) كما حافظوا على نـــاموس موســـى (Mosaic Law) (شـــريعة موسى)، وهم يرون أن ميلاد المسيح شيء خارق للعادة، وأنه (المولود الأول من الروح القدس)[١]، وأن تعاليمه، هي متممة للرسالات السابقة ومكملة لها. وقد راعوا حرمة الســـبت، ومـــا يخـــتص بالأكل وبالختان[٢].

وأما (الكسائيون) (Elkesaites)، ففرقة يظهر أنها ظهرت في أواخر القرن الأول وأوائـــل القرن الثاني للميلاد في وادي الأردن، ومعناها اللغوي (القـــوى الخفيـــة)، فـــي لغـــة بنـــي إرم، و(المتخفون)، أو المتسترون تحت الكساء في لغتنا. وقد نبعت من اليهودية. وهي تنسب إلى رجـــل اسمه (Elkesai) (الكسائي) صاحب كتاب نسب اليه، ويحافظ الكسائيون على الختان وعلى حرمة السبت وعلى سائر أحكام الشريعة الموسوية، وينسب اليه أنه كان يـــرى تحـــريم أكـــل اللحـــوم. والظاهر أن ذلك من وضع المستخفين بتعاليمه. وإنما كان يحرم أكل ذبائح الـــوثنيين ومـــا أهـــل للأوثان. وقد حتم على أتباعه التوجه إلى بيت المقدس في صلواتهم، ومنع التوجه إلـــى الشـــرق. وهو يعتقد بوجود إلَه واحد، وباليوم الآخر، وبملائكته. ويرى أن الشياطين هي النجوم الكائنة فـــي المناطق الشمالية من السماء[٣].

ومن أهم تعاليم (الكسائيين) الإغتسال، أو مـــا يقـــال لـــه (التعميـــد) (Babtism) وذلـــك بالاغتسال في النهر أو في البئر لغسل الأدران من الأجسام وتطهيرها. ويسمي المغتسلُ (باسم الله العلي العظيم) (بسم الله الرحمن الرحيم)، ويستعمل الغسل في الشفاء من الآفات كذلك، مثل عـــض الكلب المكلوب أو الحيوانات المؤذية وإخراج الأرواح الشريرة من الجسم. ولذلك يمكن تسمية هذه الفرقة بالمغتسلة، لجعلها الغسل من أهم أركان الدين.

وللخبز والملح اهمية خاصه لدى أصحاب هذا المذهب، فهما بمثابة العهد عندهم. وهم في ذلك على شاكلة يهود، حيث يتمثل العهد (Convenant) عندهم بالملح والخبز[٤]. ويقســـمون بهمـــا الإيمان. وللإيمان عندهم قدسية كبيرة، فلا يجوز لأي

---

[1] Hastings, Ency. Relig. Eathi., 5, p. 141, Ency. Brit., 16, p. 178.
[2] History of the Christianity, by Latoure, p. 121.
[3] Hastings, 5, p. 263.
[4] اللاويون، الإصحاح الثاني، الآية ١٣، العدد، الإصحاح الثامن عشر، الآية ١٢، أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ١٣، الآية ٦.

إنسان كان أن يحنث بيمينه، وأن يخالف ما أقسم عليه، وإلاّ كان عقابه عند الله عظمياً.

والعرب من الذين يقيمون للقسم بالخبز والملح وزناً عظيماً عندهم. فكانوا يحلفون بهما كما يحلفون بالله وبأصنامهم. ولا يجوز الحلف كذباً بهما. ولا زال الناس يقسمون بالخبز والملح قسمهم بالمقدسات.

وقريب من مذهب (الكسائيين) في الاغتسال ما يذهب اليه الصابئون فيه. فللغسل لتطهير الجسم من الآثام الظاهرة والباطنة ومن الأرواح الشريرة مقام كبيرعند الصابئة، ولهذا نراهم يختارون السكنى عند الآبار والأنهار.

ووجدت فرقة عرفت بـ (الفطائريين) (Collyridiens) بالغ أصحابها في عبادة مريم وفي تأليهها، وكانوا يقدمون لها نوعاً من القرابين أخصها أقراص العجين والفطائر، لذلك عرفوا بالفطائريين. وقد ذكرهم (أفيفانيوس) في كتاب الهرطقات[١].

وعلى عكس هؤلاء كان من دعوا بـ (Antidicomariantes)، وهم الذين أنكروا على مريم دوامها في التبتل، فسموا لذلك بالمعادين لمريم[٢].

وذكر أن فرعاً من الأريوسية، أي من أتباع (أريوس)، كان معروفاً بين العرب أطلق عليهم القديس (ايلاريوس) اسم (أقاقيين) نسبةً إلى (أقاقيوس). كانوا يقولون إن المسيح ليس هو ابن الله، لأن من قال ذلك جعل لله زوجة[٣].

وقد تحدث أهل الأخبار عن قوم قالوا لهم (الأريسيون). ذكروا أنهم «فلاحو السواد الذين لا كتاب لهم. وقيل الاريسيون: قوم من المجوس، لا يعبدون النار، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم... وقيل إنهم أتباع عبد الله بن أريس رجل كان فِي الزمان الأول قتلوا نبياً بعثه الله إليهم»، «وقال بعضهم في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية»[٤].

---

1 النصرانية (١/ ١١٣).
2 النصرانية (١/ ١١٣).
3 النصرانية (١/ ١١٣).
4 تاج العروس (٤/ ٩٦)، (ارس).

الفصل الحادي والثمانون

التنظيم الديني

وكان لنصارى العرب تنظيمهم الخاص بدور العبادة وبالتعليم والإرشاد، وهو تنظيم أخذ من تنظيم الكنيسة العام، ومن التقاليد التي سار عليها آباء الكنيسة منذ أوائل أيام النصرانية حتى صارت قوانين عامة. فللكنيسة درجات ورتب، وللمشرفين عليها منازل وسلالم، وقد اقتبست هذه التنظيمات من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي عاشت فيها النصرانية منذ يوم ولادتها، والتي وضعها رؤساؤها لنشر الديانة ولتنظيم شؤون الرعية، حتى صارت الكنيسة وكأنها حكومة من الحكومات الزمنية، لها رئيس أعلى، وتحته جماعة من الموظفين، لها ملابس خاصة تتناسب مع درجاتهم ومنازلهم في مراتب الحكومة، ولهم معابد وبيوت وأوقاف وسيطرة على أتباعهم، جاوزت أحياناً سيطرة الحكومات.

ومن الألفاظ التي لها علاقة بالدرجات والرتب الدينية عند النصارى لفظة (البَطْرك) و(البطريق). وقد وردت لفظة (البطريق) في شعر ينسب إلى (أمية بن أبي الصلت)[1].

[1] من كلّ بطريق لبطريق نقي الوجه واضح ـ تاج العروس (٦/ ٢٩٦)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٩١)، تاج العروس (٧/ ١١١) (الطبعة الأولى بمصر، مطبعة مصر)، اللسان (١٠/ ٢١٢، ٤٠١)، (دار صادر) «بيروت ١٩٥٦»، البستان (١١/ ١٥٧)، «بيروت ١٩٢٧»، محيط المحيط (١/١٠٢) «بيروت ١٨٦٧م»، مروج (٢/ ١٩٩)، صبح الأعشى (٥/ ٤٧٢)، (القاهرة ١٩١٥)، «المطبعة الأميرية».

وقد ذهب علماء اللغة إلى أن (البطرك)، هو مقدم النصارى، وهو في معنى (البطريق) أيضاً. وقالوا أيضاً إن البطريق مقدم جيش الروم. و(البطرك) من أصل يوناني هو «Patriakhis»، (بثريارخيس)، ومعناه (أبو الآباء)، وذلك لأنه الأب الأول والأعلى للرعية، فهو أب الآباء ورئيس رجال الدين. اما لفظة البطريق، فإنها من أصل لاتيني، هو Patrikios، وهو يعني وظيفة حكومية وتعني درجة (قائد) في المملكة البيزنطية[١]. فلا علاقة لها إذن بالتنظيم الديني للنصرانية.

وبين البطريق (البطرك) والأسقف منزلة يُقال لشاغلها (المطران)، وقد عرف بأنه دون البطرك وفوق الأسقف. وقد وسمه (القلقشندي)، بأنه القاضي الذي يفصل الخصومات بين النصارى[٢]. واللفظة من الألفاظ المعربة عن اليونانية، أخذت من (متروبوليتيس)، «Mtropolitis»، أي مختص بالعاصمة، أو المدينة[٣]. وقد ذكر علماء اللغة أن لفظة (المطران)، ليست بعربية محضة[٤].

والأسقف من الألفاظ التي تدل على منزلة دينية عند النصارى، وقد وردت في كتب الحديث. وقد ذكر بعض علماء اللغة أنه إنما سمي أسقف النصارى أسقفاً لأنه يتخاشع[٥]. واللفظة من الألفاظ المعربة المأخوذة عن اليونانية، فهي (ابسكوبوس) «Episkopos»، في الإغريقية، وقد نقلت منها إلى السريانية، ثم نقلت منها إلى العربية[٦]. وقد وردت في كتب التواريخ والسير، حيث ورد في شروط الصلح التي عقدما الرسول مع أهل نجران، شرط هو: «لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته».

---

[1] النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٩٠ وما بعدها)، غرائب اللغة (ص ٢٥٥).
[2] صبح الأعشى (٥/ ٤٧٢).
[3] محيط المحيط (٢/ ١٩٨٧)، غرائب اللغة (ص ٢٦٩).
[4] تاج العروس (٣/ ٥٤٦)، «مطر»، النصرانية (١٩١)، البلدان (٤/ ١٢٢)، «ديارات الأساقفة».
[5] اللسان (١١/ ٥٦)، البلدان (٤/ ١٢٢)، تاج العروس (٦/ ١٤١)، صبح الأعشى (٥/ ٤٧٢)، مقدمة ابن خلدون (٢٣٤)، تأريخ ابن خلدون (٢٧، القسم الأول ص ٢٩٧)، اللسان (١٥٦/٩) «صادر».
[6] النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٩١)، غرائب اللغة (ص ٢٥٢)، محيط المحيط (١/ ٩٧٠)، البستان (١/ ١١١)، النهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٣٧).

والقس من الألفاظ الشائعة بين النصارى، ولا تزال مستعملة حتى الآن. ويُقال لها (قسيس) في الوقت الحاضر أيضاً. وهي من أصل آرامي هو «Gachicho»، ومعناه، كاهن وشيخ[١]. وقد جمعها (أمية بن أبي الصلت) على (قساقسة)[٢]. وذكر بعض علماء اللغة أن «القس والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى» وأن «أصل القس تتبع الشيء وطلبه بالليل. يقال تقسست أصواتهم بالليل، أي تتبعتها»[٣]. وقد وردت لفظة (قسيسين) في القرآن الكريم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى. ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٤]. ويدل ذلك على أن موقف النصارى تجاه الإسلام كان أكثر مودة من موقف يهود. وقد نسب ذلك إلى القسيسين والرهبان.

وترد لفظة (شماس) في جملة الألفاظ التي لها معان دينية عند نصارى الجاهلية. وهي من الألفاظ الحية التي لا تزال تستعمل في هذا اليوم أيضاً. وتعد من الألفاظ المعربة عن السريانية. وهي «Chamocho»، في الأصل، وتعني خادم، ومنها البيعة. فهي إذن ليست من الوظائف الدينية الكبيرة، وإنما هي من المراتب الثانوية في الكنيسة[٥]. وقد ذكر بعض العلماء بأن الشماس يحلق وسط رأسه ويجعل شعره من جوانب رأسه على شكل دائرة، وهو الذي يكون مسؤولاً عن الكنيسة، ويكون مساعداً للقسيس في أداء واجباته الدينية، وفي تقديس القداس أيام الآحاد والأعياد. يعمل كل ذلك للتعبد، وليس لأخذ المال والتكسب[٦].

---

[1] غرائب اللغة (ص ٢٠١)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (١٩٢).

[2] لو كان منفلت كانت قساقسة يحييهم الله في أيديهم الزبر
تاج (٤/ ٢٠٧).

[3] تاج العروس (٤/ ٢١٦)، محيط المحيط (١/ ١٢٢١)، تأريخ ابن خلدون (ج ٢ قسم ١ ص ٢٩٧). المفردات للأصفهاني (ص ٤١٢)، اللسان (٦/ ١٧٤) «صادر»، صبح الأعشى (٤٧٢/٥)، مقدمة ابن خلدون (ص ٢٣٣).

[4] المائدة، الآية ٨٥، أسباب النزول (١٥٢)، تفسير الطبري (٢/٧).

[5] النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٩٣)، غرائب اللغة (ص ١٩١).

[6] اللسان (١١٤/٦) «صادر» محيط المحيط (١/ ١٢٢١)، صبح الأعشى (٥/ ٤٧٢)، ابن خلدون (٢٩، القسم الأول، ص ٢٩٧)، البستاني (١/ ١٢٥٩).

وورد في كتاب رسول الله إلى سادة نجران: «لا يغير أسقف عن سقيفاه، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته»[1]. ويظهر من هذا الكتاب أن للواقف منزلة من المنازل الدينية التي كانت في مدينة نجران. والظاهر أنها تعني الواقف على أمور الكنيسة، أي الأمور الإدارية والمالية والمشرف على أوقافها وأملاكها. فهو في الواقع مسؤول إداري، اختصاصه الاشراف على الأمور المتعلقة بأمور الكنيسة وأموالها اذ لا يعقل أن يكون الواقف بمعنى خادم البيعة الذي يقوم بالخدمة بمعنى التنظيف والأعمال البسيطة الأخرى اذْ لا يعقل النص على مثل هذه الدرجة في كتاب صلح الرسول مع سادة نجران. وقد ذكر بعض علماء اللغة: «الواقف خادم البيعة، لأنه وقف نفسه على خدمتها»[2]. ولا يعني هذا التفسير بالضرورة الخدمة على النحو المفهوم من الخدمة في الإصطلاح المتعارف. فقد كان الملوك والسادات يلقبون أنفسهم بـ (خادم الكنيسة) و(خادم المعبد)، أي بالمعنى المجازي. ولا يكون خادماً صارفاً وقته كله في تنظيف الكنيسة وفي القيام بالأعمال التي يقوم بها الخادم الاعتيادي.

وهناك لفظة أخرى لها علاقة بالكنيسة وبالبيعة وبالنواحي الإدارية منها، هي لفظة (الوافه) و(الواقه). وقد عرفوا صاحبها بـ (قيم البيعة التي فيها صليب النصارى)، وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (الواهف) حيث قالوا: «الواهف سادن البيعة التي فيها صليبهم وقيمها كالوافه وعملها الوهافة»، والوهفية والهُفيّة. والظاهر أنها كلها في الأصل شيء واحد، وإنما اختلف علماء اللغة في ضبط الكلمة، فوقع من ثم هذا الاختلاف بينهم[3]. فالوظيفة إذن هي بمنزلة الخازن القيم على شؤون الصليب، يحفظه من السرقة، ويضعه في خزانة أمينة، فإذا حانت أوقات العبادة وضعه في موضعه. فالصليب ثمين، فيه ذهب

---

[1] ابن سعد، الطبقات (١/ ٣٥٨)، «طبعة صادر»، «لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، لا وافه من وفاهيته»، النهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٣٧)، «واقه من وقاهيته»، البلاذري، فتوح (٧٣)، (صلح نجران)، اللسان (١٧/ ٤٥٩)، تاج العروس (٩/ ٤٢١)، الفائق (٢/ ٣١٧)، النهاية (٤/ ٢٤٠).

[2] تاج (٦/ ٢٦٩)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأوّل (ص ١٩٣) اللسان (٩/ ٣٠٦)، «صادر».

[3] تاج (٦/ ٣٧٣)، (٩/ ٤٢١)، المخصص (١٣/٦٠٠)، اللسان (١٣/ ٥٦١) «صادر».

في الغالب، لذلك يكون هدفاً للسراق[1].

ويلاحظ أن علماء الحديث والتأريخ والسير، ليسوا على اتفاق فيما بينهم في تدوين نص كتاب الصلح الذي أعطاه الرسول لأهل نجران، إذ تراهم يختلفون في ضبط نصه: وفي جملة ما اختلفوا فيه جملة: «ولا واقه من وقاهيته»، فقد كتبوها بصور شتى كما رأيت، كما كتبوا النص بأشكال متباينة، مما يدل على أن الرواة قد اعتمدوا على نسخ متعددة للكتاب، وعلى أن أهل نجران كانوا قد نسخوا منه نسخاً، تحرفت نصوصها بالاستنساخ، لعدم تمكن الناسخ من ضبط العبارات ضبطاً صحيحاً. فلمّا دوَّن العلماء صورة النص تباينوا في تدوينه، وأوجدوا لهم تفاسير للفظة (واقف) و(وافه) و(واقه)، وهي لفظة واحدة في الأصل، قرأها النساخ ثلاث قراءات، فظهرت وكأنها ألفاظ مختلفة. وحاروا في تعليل المعنى، فقال بعضهم الوافه: قيم البيعة بلغة أهل الجزيرة، وقال بعض آخر بلغة أهل الحيرة، وقال بعض: كلها في معنى واحد[2].

وهناك مصطلحات دينية أخرى استعملها النصارى للدلالة على درجات رجال دينهم، مثل (بابا)، وهي كلمة (رومية) وهو أعلى مرجع في نظر النصارى (الكاثوليك)[3]، و(الجاثليق)، وهو رئيس أساقفة بلد ما، والأعلى مقاماً بينهم، وقد أطلقت اللفظة على رئيس نصارى بغداد في العهد العباسي[4] وهي من أصل يوناني هو (كاثوليكوس)، Katholikos ومعناه عام[5].

والساعي من الألفاظ التي تتناول المنازل والدرجات عند النصارى، وتشمل اليهود أيضاً. ويقصد بها الرئيس المتولي لشؤون اليهود أو النصارى، فلا يصدرون رأياً إلاّ بعد استشارته، ولا يقضون أمراً دونه. وقد ورد في حديث حذيفة في الأمانة: «إنْ كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه على ساعيه»[6].

---

[1] النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ١٩٤).
[2] اللسان (١٧/ ٤٥٩)، تاج العروس (٩/ ٤٢١)، النهاية (٤/ ٢٤٠).
[3] صبح الأعشى (٥/ ٤٧٢)، تأريخ ابن خلدون (ج ٢ القسم الأول، ص ٢٩٧)، مقدمة ابن خلدون (ص ٢٣٤)، غرائب اللغة (ص ٢٧٧).
[4] تاج العروس (٦/ ٣٠٥)، صبح الأعشى (٥/ ٤٧٢)، محيط المحيط (١/ ٢١٤)، البستان (١/ ٣٠٩).
[5] غرائب اللغة (ص ٢٥٦).
[6] تاج العروس (١٠/ ١٧٨) «سعى»، اللسان (١٤/ ٣٨٧)، محيط المحيط (١/ ٩٦٠)، النصرانية (١٩٢).

ولفظة (بابا) وما بعدها، هي من الألفاظ التي شاع استعمالها في العربيـــة فـــي الإســـلام، وليس لدينا ما يفيد استعمالها بين الجاهليين.

وذكر علماء اللغة أن من الألفاظ المعروفة بين النصارى لفظة (العسطوس)، ويـــراد بهـــا القائم بأمور الدين، وهو رئيس النصارى[1].

أما (الراهب)، فهو المتبتل المنقطع إلى العبادة. وعمله هو الرهبانية. وقـــد ذكـــر بعـــض علماء اللغة أن الرهبانية غلوٌ في تحمّل التعبد من فرط الرهبنة[2]. وقد ذُكرت الرهبانية في القـــرآن الكريم[3]، وذكرت في الحديث. وقد نهى عنها الإسلام: «لا رهبانية في الإسلام». وقد ندد القـــرآن الكريم في كثير من الأحبار والرهبان، فورد: ﴿إِنّ كَثِيراً مّنَ الأَحْبَارِ وَالرّهْبَـــانِ لَيَـــأْكُلُونَ أَمْـــوَالَ النّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[4]. ويظهر من ذلك أن جماعة منهم كانت تتصرف بأموال الناس التي تقـــدم إلـــى الأديرة والبيع، فيعيشون منها عيشة مترفة، لا تتفق مع ما ينادون به من التقشف والزهد والعبادة. كما أن منهم من عاش عيشة رفيهة وبطر، فتكبر عن الناس وترفّع، حتى جعلوا أتباعهم يحيطونهم بهالة من التقديس والتعظيم، إلى درجة صيرتهم أرباباً على هذه الأرض. فتقربوا اليهم وقدّســـوهم قدسية لا تليق إلاّ للخالق. ﴿اتّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مّن دُونِ اللهِ﴾[5]. ذلك إنهم كانوا يحلّون لهم ما حرم اللّه فيستحلونه ويحرّمون ما أحلّ الله لهم فيحرمونه. «أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه واذا حرموا عليهم شيئاً أحلـــه الله لهـــم حرموه، فتلك

---

[1] تاج العروس (٤/ ١٩٢)، اللسان (٦/ ١٤١)، محيط المحيط (١/ ١٣٩٦).

[2] المفردات للأصفهاني، (ص ٢٠٣)، اللسان، (ج ١/ ٤٣٧)، «صادر» القاموس (١/ ٧٦)، تاج العروس (١/ ٢٨١)، الصحاح، للجوهري (١/ ١٤٠).

[3] المائدة، الآية ٨٢، التوبة، الآية ٣١، ٣٤، سورة الحديد، الرقم ٥٧، الآية ٢٧، مجمع البيان (٧/ ١٥٨)، تفسير الفخر الرازي (١٢/ ٦٦ وما بعدها)، روح المعاني (٦/ ٨ وما بعدها)، النهاية لابن الأثير (٢/ ١٢٠).

[4] التوبة، الرقم ٩، الآية ٣٤، مجمع البيان (١٠/ ٤٨)، تفسير الطبري (٧/ ٨ وما بعدها)، تفسير الخازن (٧/ ٢٣٣ وما بعدها)، تفسير أبي السعود (٤/ ١٤١ وما بعدها)، المقريزي، السلوك من معرفة سير الملوك (١/ ١٨٢)، (دار الكتب المصرية ١٩٣٦)، السيوطي، الدر المنثور (١٠/ ٧٥).

[5] التوبة، الرقم ٩، الآية ٣١، جامع البيان (١٠/ ٨٠)، الكشاف (٢/ ٣١)، روح المعاني (١٠/ ٧٥)، تفسير الخازن (٢/ ٢١٦).

كانت ربوبيتهم»[1]. وكانوا يطيعونهم طاعة عمياء، ويأخذون عنهم، ويقدسونهم، ويقبّلون أيديهم ولا يعصون أمراً لهم. وذكر أنّ (عدي بن حاتم) الطائي، قال لرسول الله لما سمعه يقرأ: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾، «يا رسول الله! إنّا لسنا نعبدهم. فقال: أليسو يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلوّن ما حرّم الله، فتحلونه! قال: قلت بلى. قال فتلك عبادتهم»[2].

ويظهر من روايات أهل الأخبار، أن من الرهبان من بالغ في الترهب وفي الزهد، فخصى نفسه ووضع السلاسل في عنقه أو في يديه أو رجليه ليحبس نفسه، وامتنع عن المأكل والأطايب، مكتفياً بقليل من الماء وبشيء من الخز الخشن، وأن منهم من امتنع عن الكلام وصام معظم أوقاته، وابتعد عن الناس متخذاً من الكهوف والجبال والمواضع النائية الخالية أماكن للتأمل والتعبد. وذلك كما يظهر من نهي الرسول عن الرهبنة والرهبانية، وحمل الإسلام عليها. لأنها تبعد الناس عما أحل اللّه وقد عوض الإسلام عنها بالجهاد في سبيل الله[3].

ومن عادات الرهبان وتقاليدهم التي وقف عليها أهل الجاهلية، الامتناع عن أكل اللحوم والودك، أبداً أو أمداً، وحبس النفس في الأديرة والصوامع، والكهوف، والاقتصاد على أكل الصعب من الطعام والخشن من الملبس، ولبس السواد والمسوح. وهي عادة انتقلت إلى الأحناف أيضاً وإلى الزهّاد من الجاهليين الذين نظروا نظرة زهد وتقشف إلى هذه الحياة[4]. كما كانوا لا يهتمون بشعورهم فكانوا يطلقونها ولا يعتنون بها ولذلك كانت شعورهم شعثاً. وعبّر عن الراهب

---

[1] تفسير الطبري (١٠/ ٨٠ وما بعدها)، تفسير أبي السعود (٥/ ١٤٢)، تفسير الطبرسي (٥/ ٢٢).
[2] تفسير الطبري (١٠/ ٨٠ وما بعدها)، «بولاق».
[3] النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (ص ١٦٣) (٢/ ١٢٠) «المطبعة الخيرية»، اللسان (١/ ٤٣٧ وما بعدها)، تاج العروس (١/ ٢٨٠ وما بعدها)، القاموس المحيط (١/ ٧٦)، محيط المحيط (١/ ٨٠٦)، مجمع البيان (٧/ ١٥٨)، (٦/ ١٧٦)، جامع البيان (٢٧/ ٢٣٨)، (١٠/ ١١٤، ١١٧)، الكشاف، للزمخشري (٤/ ٦٩)، (٢/ ٣١)، (١/ ٤٣)، روح المعاني (٢٧/ ١٦٥)، (١٠/ ٧٥)، (٧/ ٣)، الدرر المنثور (١٠/ ٧٥)، صحيح مسلم (٨/ ٢٢٩)، «كتاب الزهد»، اللسان (١/ ٤٣٧)، «صادر».
[4] تفسير الطبري (٧/ ٨)، «الطبعة الثانية ١٩٥٦م»، تفسير أبي السعود (٤/ ١٤١ وما بعدها)، تفسير الرازي (١٢/ ٦٧ وما بعدها).

بالأشعث، لأنه كان يطلق شعر رأسه ولا يحلقه ولا يعتني به[١].

ومن الرهبان من ساح في الأرض، فطاف بلاد العرب وأماكن أخرى، وهام على وجهه في البوادي وبين القبائل، لا يهمه ما سيلاقيه من أخطار ومكاره، ومنهم من ابتنى له بناءً في الفيافي وفي الأماكن النائية، واحتفر الآبار وحرث البقول، وعاش عيشة جماعية، حيث يعاون بعضهم بعضاً في تمشية أمور الدير الذي يعيشون فيه[٢]. ومنهم من عاش في قلل الجبال، بعيداً عن المارة والناس.

قال الشاعر:

لو عاينت رهبان دير في القلل   لانحدر الرهبان يمشي وينزل[٣]

وقد وقف بعض أهل الجاهلية على أخبار هؤلاء الرهبان وعرفوا بعض الشيء عنهم، وبهم تأثر بعض الحنفاء على ما يظهر فأخذوا عنهم عادة التحنث والتعبد والانزواء والانطواء في الكهوف والمغاور والأماكن النائية البعيدة للتنسك والتعبد مبتعدين بذلك عن الناس منصرفين إلى التأمل والتفهم في خلق هذا الكون دون أن يدخلوا النصرانية.

وقد نهى الرسول بعض الصحابة مثل (عثمان بن مظعون)، وهو من النصارى في الأصل من تقليد الرهبان في الإخصاء وفي الامتناع عن الزواج ومن التشدد في أمور أحلها الله للناس.[٤] ويظهر أن هذا التشدد إنما جاء به وإلى أمثاله من وقوفهم على حياة الرهبان وعلى رأيهم وفلسفتهم بالنسبة لهذه الحياة. وفي حق هؤلاء نزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ.

---

[1] تاج العروس (١/ ٦٣٨).

[2] تفسير الطبري (٢٧/ ١٢٤)، روح المعاني (٦/ ٨ وما بعدها)، تفسير الطبري (٧/ ٨ وما بعدها)، تفسير الخازن (٧/ ٢٣٣ وما بعدها)، تفسير أبي السعد (٤/ ١٤١ وما بعدها).

[3] تفسير الطبري (٧/ ٤).
لو أبصرت رهبان دير في الجبل   لانحدر الرهبان يسعى ويصل
تفسير القرطبي، الجامع (٦/ ٢٥٨).

[4] الدرر المنثور (٢/ ٣٠٧)، مجمع البيان في تفسير القرآن (٧/ ٦ وما بعدها)، تفسير القرطبي (٦/ ٢٦٠ وما بعدها)، مجمع البيان (٢٧/ ١٥٨)، (طبعة دار الفكر، بيروت)، الدرر المنثور، للسيوطي (٢/ ٣٠٧)، روح المعاني (٧/ ٣)، (٢٧/ ١٦٥).

وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1]. وذكر أن الرسول لما سمع بابتعاد (عثمان) من أهله، دعاه، فنهاه عن ذلك. ثم قال: «ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء، فمن رغب عن سنتي، فليس مني. فنزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ﴾. يقول لعثمان لا تجب نفسك، فإن هذا هو الاعتداء»[2].

وورد في الحديث: «لا صرورة في الإسلام»، والصرورة التبتل وترك النكاح، أي ليس ينبغي لأحد أن يقول لا أتزوج، لأن هذا ليس من أخلاق المسلمين، بل هو من فعل الرهبان. وهو معروف في كلام العرب. ومنه قول النابغة:

لو أنها عرضت لأشمط راهب　　عبد الإلـه صرورة متعبد

يعني الراهب الذي ترك النساء[3].

وقد أشير إلى الرهبان في شعر امرىء القيس، اذ أشار فيه إلى منارة الراهب الذيّ يمسي بها يتبتل فيها إلى الله، وعنده مصباح يستنير بنوره[4]. كما أشار فيه اليه وهو في صومعته يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا[5]، دلالة على تهجده وتعبده في وقت يكون الناس فيه نياماً. كما أشير إليهم في شعر شعراء جاهليين آخرين مثل (النابغة الذبياني)، الذي أشار إلى ركوع الراهب يدعو ربه فيه ويتوسل إليه[6]. كما أشار إلى موقف الراهب من رؤية امرأة جمِيلة، وكيف سيرنو إليها

---

1 المائدة، الآية ٨٧.
2 تفسير الطبري (٧/ ٦)، روح المعاني (٧/ ٧).
3 تاج العروس (٣/ ٣٣١)، (صرر).
4 تضيء الظلام بالعشاء كأنها　　منارة ممس راهب متتبل
النصرانية (الجزء الثاني، القسم الأول، ص ١٧٥).
5 كأنه راهب في رأس صومعة　　يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا
النصرانية (ج ٢، قسم ٢، ص ٣٩٢).
6 سيبلغ عذراً أو نجاحاً من امرئ　　إلى ربه رب البرية راكع
دائرة المعارف الإسلامية «الترجمة العربية» (١٠/ ٩)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الثاني (ص ٣٩٤).

حتى وإنْ كان راهباً أشمط[١]. وقد أشار إلى (ثوبي راهب الدير) والى الحلف بثوبيه[٢].

وورد في الشعر ما يفيد بانقطاع الرهبان في الأماكن الصعبة القصيّة مثل قلل الجبال وذراها، حيث لا يأتيهم الناس، فيعيشون في خلوة وانقطاع عن البشر[٣]. ومن الأماكن التي اشتهرت بوجود الرهبان فيها أرض مدين[٤]. ووادي القرى ومنازل تنوخ وصوران وزبد[٥].

وقد سبّح الرهبان ورجال الدبن، اللهَ، في الكنائس وفي الأديرة بألحان عذبة جميلة، ورتلوا الزبور والأسفار المقدسة الأخرى. وقد عرف الجاهليون ذلك عنهم، وأشاروا إلى ذلك في شعرهم، وربما كان بعضهم يحضر تلك التراتيل ويستأنس بها على الرغم من وثنيته وعدم اعتقاده بالنصرانية.

ويقال للراهب الزاهد، الذي ربط نفسه عن الدنيا: الربيط. وقيل له: الحبيس. وذكر أن الربيط، هو المتقشف الحكيم[٦]، وأن الحبيس هو الذي حبس نفسه في سبيل الله، فقبعوا في الأديرة وابتعدوا عن الناس. فصاروا كالحبساء[٧].

---

[1] تفسير القرطبي (٦/ ٢٥٨).
لو أنّها عرضت لأشمط راهب   عبد الإلــه صرورة متعبد
كرنا لرؤيتهــا وحسن حديثهــا   ولخاله رشداً وإنْ لم يرشد

[2] تاج العروس (١/ ٢٨١).

[3] لو كلمت رهبان دير في القلل   لانحدر الراهب يسعى فنزل
اللسان (١/ ٤٣٧) «صادر»، تاج العروس (١/ ٢٨١)، المقريزي، السلوك في معرفة الملوك (١/ ١٨٢)، تفسير الطبري (٢٧/ ١٥٨)، «البابي»، الكشاف (٢/ ٣١)، الدرر المنثور (٦/ ١٧٧)، تفسير الخازن (٢/ ٢١٦)، (٤/ ٢٣٢).
لو أنها عرضت لأشمط راهب   في رأس مشرفة الذرى متتبل
الأغاني (١٩/ ٩٢) «دار الثقافة بيروت». وقد نُسب هذا الشعر إلى ربيعة بن مقروم الصيفي. وقد مرّ النصف الأول من هذا البيت من شعر نُسب إلى النابغة الذبياني في تفسير القرطبي (٦/ ٢٥٨).

[4] قال جرير:
رهبان مدين، لو رأوك تنزلوا   والعصم من سعف العقول، الغادر
اللسان (١/ ٤٣٧) «صادر»، تفسير الطبري (٧/ ٤).

[5] النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (١٩٦ وما بعدها).

[6] تاج العروس (٥/ ١٤٣)، القاموس المحيط (٣/ ٣٦١)، المقريزي، سير (١/ ١٨٢)، البلدان (٢/ ٢١٣) «صادر».

[7] النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (١٩٧)، البلدان (٢/ ٢١٣).

ويُقال للراهب: المقدسي. والمقدس الراهب. وصبيان النصارى يتبركون به، ويتمسحون بملابسه تبركاً[1]. كما قيل له: المتعبد، والأعابد[2] ونسب إلى (امرئ القيس) هذا البيت:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا   كما شبرق الولدان ثوب المقدسي

ويُروى المقدس، وهو الراهب ينزل من صومعته إلى بيت المقدس، فيمزق الصبيان ثيابه تبركا به[3].

وأما (النهامي)، فهو صاحب الدير، أو الراهب في الدير[4].

ومن الألفاظ التي شاعت بين النصارى ووصل خبرها إلى الجاهليين، لفظة: (الأبيل)، وقد اتخذوها للدلالة على رئيس النصارى. وذكر بعض أهل الأخبار أنها تعني أيضاً (المسيح)، وقد كانوا يعظمون الأبيل فيحلفون به كما يحلفون بالله. وهي من الألفاظ المعربة عن السريانية (أبيلو) Abilo، ومعناها في السريانية الزاهد والناسك والراهب. وكانوا يتخذون عادة رؤساءهم من الرهبان المتبتلين[5]. وقد وردت لفظة (الأبيل) في الشعر الجاهلي، في شعر: الأعشى وفي شعر عدي بن زيد. وورد (أبيل الأبيلين)، وأريد بذلك المسيح[6]. وذكر أن (الأبيل) هو صاحب الناقوس، والراهب أيضاً[7]. وأن (الأيبلي)، هو صاحب الناقوس. و(الأيبل)، العصا التي يدق بها الناقوس[8]. قال الأعشى:

---

1 اللسان (٦/ ١٦٩) «صادر».
2 اللسان (٣/ ٢٧٢).
3 تاج العروس (٦/ ٣٩٠)، (شبرق).
4 تاج العروس (٩/ ٨٨)، (نهم)، المخصص (١٣/ ١٠٠).
5 النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (١٩٠)، غرائب اللغة (١٧٢).
6 قال ابن عبد الجن، وقيل عمرو بن عبد الحق:
أمـا ودمـاء مائرات تخـالها   على قنة العزى أو النسر عندما
وما قدس الرهبان في كل هيكل   أبيل الأبيلين، المسيح بن مريما
لقد ذاق منـا عـامر يوم لعلع   حساماً، إذا ما هزّ بالكف صمما
اللسان (١١/ ٦ وما بعدها)، (أبل)، (صادر).
7 اللسان (١١/ ٦ وما بعدها)، تاج العروس (٧/ ١٩٩)، الأب مرمرجي، معجميات عربية سامية (١٣١ وما بعدها)، شعراء النصرانية، لشيخو (٤٥٣)، المخصص (١٣/ ١٠٠).
8 ديوان الأعشى (٥٣)، «المطبعة النموذجية، ١٩٥٠».

وما أيبلي على هيكل بناه وصلب فيه وصارا
يراوح من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

يعني بالجؤار الصياح. إما بالدعاء وإما بالقراءة[١].

والساعور من أسماء المسيح وهو من أصل (سوعورو) So'ouro، بمعنى زائر. وتطلق اللفظة على من يزور القرى ويطلع على أحوالها وذلك بأمر من الأسقف[٢]. وذكر علماء اللغة أنّ اللفظة من الألفاظ المعربة عن السريانية، وأنّ الأصل (ساعورا)، ومعناه متفقد المرضى، وتطلق اللفظة على مقدم النصارى في معرفة علم الطب[٣].

ويقال لخادم البيعة: الجلاذي[٤]. وذكر أن (الجلذي) الراهب والصانع والخادم في الكنيسة. قال ابن مقبل:

صوت النواقيس فيه ما يفرطه أيدي الجلاذيّ جون ما يغضينا[٥]

و(الكنيس) و(الكنيسة) موضع عبادة اليهود والنصارى، فهما في مقابل (المسجد والجامع) عند المسلمين. والكلمة من الألفاظ المعربة عن الآرامية، وتعني لفظة، «Knouchto» (كنشتو) (كنشت) في السريانية، اجتماع، ومجمع وأطلقت بصورة خاصة على كنيس اليهود[٦]. ولهذا نجد العرب يطلقونها على معبد اليهود كذلك. ويُقال في العبرانية للكنيس (كنيستا)، بمعنى محل الصلاة. ونجد الكتب العربية تفرق بين موضع عبادة اليهود وموضع عبادة النصارى، فتطلق (الكنيس) على موضع عبادة اليهود و(الكنيسة) على موضع عبادة النصارى. وقد ذهب بعض علماء اللغة، إلى أن الكنيسة، هي متعبد اليهود، وأما (البيعة)،

---

1 تفسير الطبري (١٤/ ٨٢).
2 غرائب اللغة (١٨٧).
3 تاج العروس (٣/ ٤٦٨) «الخيرية»، النصرانية، القسم الأول (١٩٤)، القاموس (٢/ ٤٨).
4 اللسان (٥/ ١٤) «المطبعة الأميرية»، (٣/ ٤٨٢) «صادر»، تاج العروس (٢/ ٥٥٧).
5 تاج العروس (٢/ ٥٥٧)، (ما يعفينا)، اللسان (٣/ ٤٨٢)، (صادر).
6 غرائب اللغة (ص ٢٠٤)، النصرانية وآدابها، شيخو (٢/ ٢٠١ وما بعدها)، «الطبعة الثانية، بيروت ١٩٣٣».

فهي متعبد النصارى[1]. وقد عرف علماء اللغة العرب، أنّها من الألفاظ المعربة فقالوا: وهي معربة، أصلها كنست[2].

وقد زوّق النصارى كنائسهم، وجملوها، وزينّوها بالصور وبالتماثيل ووضعوا الصلبان على أبوابها وفي داخلها. ووضعوا بها المصابيح لإنارتها في الليل وكانوا يسرجون فيها السرج، وجعلوا بها النواقيس، لتقرع، فترشد المؤمن بأوقات الصلوات، ولتشير إليهم بوجود مناسبات دينية، كوفاة، أو ميلاد مولود، أو عرس وأمثال ذلك. ومن الكنائس التي اكتسبت حرمة كبيرة عند النصارى العرب: كنيسة القيامة، وكنيسة نجران، وكنيسة الرصافة. وقد أشير في شعر للنابغة إلى (صليب على الزوراء منصوب)، أي على كنيسة.

والتمثال الشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق اللّه، أي من إنسان أو حيوان أو جماد[3]. وأدخل العلماء الصور في التماثيل. وقد كانت الكنائس مزينةً بالتماثيل والصور، تمثل حوادث الكتاب المقدس وحياة المسيح. ونظراً إلى محاربة الإسلام للأصنام، وإلى كل ما يعيد إلى ذاكرة الإنسان عبادة الأصنام والصور، والنهي عنها في الإسلام. جاء في الحديث: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورون»[4].

وقد كان الروم يمدون الكنائس والمبشرين بالمال وبالفعلة وبالمساعدات المادية لبناء الكنائس والأديرة. والكنائس والأديرة وإن كانت بيوت تقوى وعبادة، كانت بيوت سياسة ودعوة وتوجيه. ونشر النصرانية مهما كان مذهبها ولونها مفيد للروم، فالنصراني مهما كان مذهبه لا بدّ أن يميل إلى إخوانه في العقيدة والدين، ففي انتشار النصرانية فائدة من هذه الناحية كبيرة للبيزنطيين.

وفي العربية لفظة أخرى للكنيسة، إلاّ أنها لفظة خصصت بكنيسة معينة، والكنيسة التي بناها أبرهة بمدينة صنعاء، واللفظة هي: (القُلّيس). وللأخباريين آراء في معناها وفي أصلها، بنيت على طريقتهم الخاصة في إيجاد التفاسير للكلمات القديمة من عربية ومن معربة، التي لا يعرفون من أمرها شيئاً. وهي لذلك

---

1 تاج العروس (٤/ ٢٣٥).
2 اللسان (٦/ ١٩٩)، تاج العروس (٤/ ٢٣٥).
3 تاج العروس (٨/ ١١١)، (مثل).
4 تفسير الطبري (٢٢/ ٤٩)، تفسير القرطبي (٤/ ٢٧٣ وما بعدها).

لا تفيدنا شيئاً. والكلمة أعجمية الأصل، عربت، وشاع استعمالها، حتى ظن أنها اسم تلك الكنيسة. أخذت هذه اللفظة من أصل يوناني هو (أكليسيا) «Ekklesia»، ومعناه في اليونانية المجمع، أي الكنيسة. والظاهر أن أهل صنعاء سمعوا اللفظة من الحبش حينما كانوا يذهبون إلى الكنيسة، فصيروها اسم علم على هذه الكنيسة ولم يدروا أنها تعني الكنيسة، أي موضع عبادة[١].

والصوامع والبيع هما من الألفاظ الي استعملها الجاهليون للدلالة على مواضع العبادة عند النصارى. وقد ذهب العلماء إلى أن البيعة من الألفاظ المعربة[٢] أخذت من السريانية. وأصل اللفظة في السريانية، هو (بعتو) بمعنى بيعة، وقبة، لأنها كانت قبة في كثير من الكنائس القديمة[٣]. وقد استعملت في الحبشية كذلك ولذلك ذهب بعضهم إلى أنها من الحبشية[٤]. وقال علماء اللغة العرب: الصومعة كل بناء متصمع الرأس، أي متلاصقه، والأصمع اللاصقة أذنه برأسه[٥]. وقد أشير إلى (البيع) في القرآن: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾[٦]. وقد ذهب بعض علماء اللغة، إلى أن البيعة متعبد اليهود[٧]. ولكن أغلبهم على أنها متعبد النصارى.

وقد وردت لفظة (بيعة). في نص (أبرهة) الشهير الذي دوّنه على سد مأرب. ففي هذا النص جملة: (وقدس بعَين)، أي (وقدس البيعة)[٨].

وذكر أن لفظة (البيعة) قد وردت في شعر ينسب إلى ورقة بن نوفل، حيث زعم أنه قال:

أقــول إذا صليت في كل بيعة   تباركت قد أكثرتَ باسمك داعياً[٩]

---

[1] (القليس)، (القليسة)، اللسان (٤/ ١٨٠)، (قلس)، Ency., II, p. 144, Raccolta, III, p. 127.
[2] المعرب (٨١).
[3] معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢١٣)، غرائب اللغة (١٧٥).
[4] النصرانية (الثاني)، القسم الأول (٢١٣)، «طبعة ثانية».
[5] المفردات (٢٨٨)، اللسان (٨/ ٢٠٨)، تاج العروس (٧/ ٤١١).
[6] الحج، الآية ٤٠.
[7] تفسير الطبري (١٥/ ١٧٥) «البابي»، اللسان (٨/ ٢٦) «صادر».
[8] راجع النص في مجلة المجمع العلمي العراقي (٤/ ٢١٥).
[9] الأغاني (٣/ ١٦).

كما ذكر أنها وردت في كلام أناس من الجاهليين والمخضرمين[1].

وقد أشير إلى ورودها في الشعر الجاهلي وفي بعض الأخبار المنسوبة إلى الجاهليين. وردت في شعر منسوب إلى (عبد المسيح بن بقيلة)، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى[2]. ووردت في بيت منسوب إلى لقيط بن معبد[3]، وفي شعر ينسب إلى الزبرقان بن بدر التميمي[4]. ولا بد أن تكون هذه الكلمة من الكلمات المألوفة عند الجاهليين المتنصرين، وعند غيرهم ممن كانوا على الوثنية، غير أنهم كانوا على اتصال بالنصارى، ذلك لأنها من الألفاظ الشائعة المعروفة عند النصارى وقد كانت البيع منتشرة في المدن وفي القرى والبوادي، وطالما قصدها الأعراب للاحتماء بها من الحر والبرد وللاستعانة برجالها لتزويدهم بما عندهم من ماء أو زاد أو للتنزه بها واحتساء الشراب.

والصومعة من أصل حبشي هو (صومعت) على رأي بعض المستشرقين وقد خصصت بـ (قلاية) الراهب[5]. أي مسكن الرهبان. وبهذا المعنى وردت في القرآن. ويقول علماء اللغة، أنها على وزن فوعلة، سُميت صومعة، لأنها دقيقة الرأس. وهي صومعة النصارى[6]. وذكر بعض منهم أن الصومعة كل بناء متصمع الرأس، أي متلاصقة[7]. وقد سميت صومعة لتلطيف أعلاها[8]. ويدل ورود هذه اللفظة بصورة الجمع في القرآن الكريم، على وقوف الجاهليين على

---

[1] ابن هشام (٩٣٥) «طبعة ليدن»، تاج العروس (٥/ ٢٨٥)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢٠١ وما بعدها).

[2] كم تجرعت بدير الجرعة غصصا كبدي بها منصدعة
من بدور فوق أغصان على كثب زرن احتساباً بيعه
البلدان (٤/ ١٢٠) «دير الجرعة»، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني (٢٠٢ وما بعدها).

[3] تامت فؤادي بذات الخال خرعبة مرت تريد بذات العذبة البيعا
تاج العروس (٥/ ٢٨٥)، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني (٢٠٢).

[4] نحن الكرام، فلاحي يعادلنا منا الكرام، وفينا تنصب البيع
ابن هشام (١/ ٩٣٥)، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني (٢٠١).

[5] معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها)، Raccolta, III, p. 127.

[6] اللسان (١٠/ ٧٦)، معجميات (ص ١٥٣)، تاج العروس (٧/ ٤١١)، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني (١٧٤، ٢١٣).

[7] مفردات الأصفهاني (ص ٢٨٨).

[8] اللسان (٨/ ٢٠٨) «صادر».

الصوامع ووجودها بينهم[1]. وقد كان الرهبان قد ابتنوا الصوامع وأقاموا بها للعبادة بعيدين في مختلف أنحاء جزيرة العرب، ومنها الحجاز. وقد وقف الجاهليون عليها، ودخلوا فيها. أما تجارهم ممن قصد بلاد الشأم والعراق، فقد رأوا في طريقهم إلى تلك الأرضين، وفي تلك الأرضين بالذات، حيث انتشرت فيها النصرانية صوامع كثيرة. وتجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة تشير إلى دخول تجار مكة الصوامع في بلاد الشأم وفي وادي القرى، للحصول على ملجأ أو عون.

والقلاّية، وهي كالصومعة، يتعبد فيها الرهبان، وهي من الألفاظ المعربة، عربت من أصل يوناني هو «Kelliyon» ؛ ومعناه غرفة راهب أو ناسك[2]. ومن هذا الأصل انتقلت اللفظة إلى السريانية فصارت (قلّيتا)، فانتشرت بين نصارى بلاد الشأم بصورة خاصة ثم بقية النصارى، منها دخلت العربية. وقد عرف علماء العربية أنها من الألفاظ المعربة، فقالوا: هي تعريب كلاذة، وهي من بيوت عباداتهم، أي عبادات النصارى. وقد وردت في الحديث، كما ورد ذكرها في صلح عمر مع نصارى الشأم، حيث كتبوا له كتاباً: إنّا لا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا قلية[3]. والظاهر أن النصارى توسعوا في المعنى، فأطلقوها على المنازل التي يسكنها الرهبان، ثم توسعوا فيها فأطلقوها على دور المطارنة والبطارقة، وأصلها بمعنى الأكواخ[4].

ولفظة (الدير) هي من الألفاظ النصرانية الشهيرة المعروفة بين العرب. وهي أكثر اشتهاراً من الألفاظ الأخرى التي لها علاقة بمواضع العبادة أو السكن عند النصارى، وذلك لانتشارها ووجودها في مواضع كثيرة من العراق وبلاد الشأم وجزيرة العرب. ولمرور التجار وأصحاب القوافل والمارة بها، واضطرارهم إلى الاستعانة بأصحابها وباللجوء إليها في بعض الأحيان. كما كانت محلاً ممتازاً للشعراء ولأصحاب الذوق والكيف، حيث كانوا يجدون فيها لذة ومتعة تسر العين والقلب، من خضرة ومن ماء بارد عذب ومن خمر يبعث فيهم الطرب والخيال، ولذلك

---

1 سورة الحج، الرقم ٢٢، الآية ٤٠، النهاية، لابن الأثير (٢/ ١٢٠)، تفسير الطبري (١٥/ ١٧٥).
2 غرائب اللغة (ص ٢٦٥)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢١٣).
3 النهاية (٣/ ٣٠٩)، البكري، معجم (٢/ ٥٨٣)، اللسان (٢٠/ ٦٣)، تاج العروس (٨/ ٨٦)، (قلل).
4 معجميات (ص ١٨٠ وما بعدها).

أكثر الشعراء في الجاهلية والإسلام من ذكر الأديرة في شعرهم. حتى الشعراء النصارى مثل (عدي بن زيد العبادي)، يترنّم في شعره بذكر الدير، لأنه نادم فيه (بني علقما)، وعاطاهم الخمر ممزوجة بماء السماء[1].

ولفظة (الدير) هي مثل أكثر الألفاظ النصرانية من الألفاظ المعربة. عربت من أصل سرياني، هو (دير) Dayr، بمعنى دار، أي بيت الراهب[2]. ومسكنه، ولا سيما المحصن، ثم خصوا بها مسكن الرهبان[3]. وقد عرف علماء العربية أن الدير هو مسكن النصارى، يتعبد فيه الرهبان ويسكنون به، وقد ذكر (ياقوت الحموي) أن الدير بيت يتعبد فيه الرهبان، ولا يكاد يكون في المصر الأعظم، وإنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال، فإن كان في المصر الأعظم فإنه كنيسة أو بيعة[4] غير أن الأديرة تكون في كل مكان، تكون في القرى وتكون في المدن كما تكون في البوادي وفي رؤوس الجبال[5].

و(الديراني)، صاحب الدير، وقد ذكر بعض العلماء أن الديراني صاحب الدير الذي يسكنه ويعمره. نسب على غير قياس. ويُقال للرجل إذا رأس أصحابه هو رأس الدير[6].

ولا تقتصر الأديرة على الرجال، فللراهبات أديرة أيضاً. ويقضي أصحاب الأديرة وقتهم في الزهد والتقشف والعبادة. والقيام بالأعمال اليدوية التي يوكلها رئيس الدير اليهم[7]. وقد عرف الراهب المعتكف بالدير بـ (الديراني) و(الديرانية)، هي الراهبة[8]. وقد عرفت أديرة الراهبات بـ (أديرة العذارى) كذلك.

---

1 نادمت في الدير بني علقما عاطيتهم مشمولة عندما
كان ريح المسك من كأسها إذا مزجناها بماء السماء
البلدان (٢/ ٦٣٩، ٦٨٠)، (٢/ ٤٤٩) «بيروت»، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢١٢)، المخصص (١٣/ ١٠٠ وما بعدها).

2 غرائب اللغة (ص ١٨٢).

3 النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأوّل (ص ٢١٢).

4 معجم البلدان (٢/ ٦٣٩)، (٦/ ٦٣٩).

5 اللسان (٥/ ٢٨٧)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢١٢).

6 اللسان (٥/ ٣٨٧)، تاج العروس (٣/ ٢٣١).

7 البلدان (٢/ ٦٣٩)، (٤/ ٤٥١).

8 النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢١٢)، الشعر، لابن قتيبة (٢٢٩).

واذ كان لهذه الأديرة حرمة في نفوسهم، فقد كانوا يعقدون فيها عقودهم ويحلفون بها على نحو ما كان يفعله الوثنيون في معابدهم حيث كانوا يقسمون الإيمان ويتعاقدون أمام الأوثان، فكان للنصارى في الحرة دير السوا، وفي هذا الدير كانوا يتناصفون ويحلفون بعضهم لبعض على الحقوق[١].

وفي الآرامية لفظة هي (عمرو) Oumro، وقد صارت (العمر) في العربية. ويراد بها البيعة والكنيسة والدير ودار[٢]. وقد وردت في شعر (المتلمس)، حيث جاء:

ألك السديرُ وبارق ومبايض ولك الخورنق
والعمر ذو الأحساء واللذات من صاع وديسق[٣]

وعرفت العربية لفظة (الكرح)، و(الأكيراح)، وقد عرفها علماء العربية بقولهم: «الأكيراح: بيوت ومواضع تخرج إليها النصارى في بعض أعيادهم»[٤]. واللفظة من أصل سرياني هو (كرحو) «Kourho»، بمعنى كوخ، ومسكن حبيس، وبيت ناسك وراهب[٥]. وذكر ياقوت الحموي: إن «الأكيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم»[٦]. هناك دير اسمه (الأكيراح)، ورد في شعر لأبي نؤاس، ويقع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياحين، وبالقرب منه ديران، يُقال لأحدهما دير عبد، وللآخر دير هند[٧].

والمحراب من الألفاظ التي استعملها النصارى في أمور دينهم كذلك، إذ أطلقوها على صدر كنائسهم. وقد استعملت في الإسلام أيضاً، حيث يشير إلى القبلة، ويؤم الإمام فيه المصلّين. وقد ذكر بعض علماء اللغة، أن محاريب

---

[1] البلاذري، فتوح (٢٩٢).
[2] غرائب اللغة (ص ١٩٦).
[3] البكري، معجم (٦٩٦)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢١٣)، تاج العروس (٣/ ٣٢٠).
[4] يا دير حنة من ذات الأكيراح   من يصح عنك فإني لست بالصاح
اللسان (٣/ ٤٠٥)، البكري، معجم (٤/ ٥٧٥)، المخصص (١٣/ ١٠٢).
[5] غرائب اللغة (ص ٢٠٣)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢١٢، ٢١٤).
[6] البلدان (١/ ٣٤٥).
[7] البلدان (١/ ٣٤٥).

بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يصلون فيها[١]. وقد وردت لفظة المحراب في أشعار بعض الجاهليين[٢]. كما وردت في القرآن الكريم[٣]، وفي الشعر الجاهلي[٤].

وذكر علماء التفسير أن المحراب كل موضع مرتفع. وقيل الذي يصلي فيه: محراب، وذكروا أن المحاريب دون القصور، وأشرف بيوت الدار. قال عدي بن زيد العبادي:

كدمى العاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير[٥]

وذكر علماء العربية لفظة (التامور) (التأمور)، في جملة الألفاظ المتعلقة بالرهبان والرهبنة. وقد عرفها بعضهم بأنها صومعة الراهب وناموسه[٦].

وذكر أن (القوس)، بمعنى الدير والصومعة أو موضع الراهب[٧]. أو معبد الراهب. وذكر أن أصل الكلمة من الفارسية[٨].

وذكر أن (الغربال)، هو مكان أيضاً من أمكنة الرهبان، وأنه كهيئة الصومعة في هندسة بنائه وارتفاعه. وأنه كل بناء مرتفع. ويظهر أنها من الألفاظ المعربة[٩].

والاسطوانة، وهي السارية من الألفاظ النصرانية التي وقف عليها الجاهليون. وقد اتخذها العرب بمعنى العمود الذي كان يتعبد فوقه بعض الرهبان المعروفين بالعموديين Stylites. قد أشير إلى (اسطوان) في شعر نسبوه إلى (ذي الجدن). وفسرت لفظة (الاسطوان)، و(الاسطوانة)، بأنها موضع الراهب المرتفع[١٠].

---

1 النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (١٧٤).
2 اللسان (١/ ٣٠٥)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (١٧٤)، اللسان (٧/ ١٧).
3 آل عمران، الآية ٣٧، ٣٩، مريم، الآية ١١، ص، الآية ٢١.
4 النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول(١٧٤).
5 تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨)، تفسير القرطبي (١٤/ ٢٧١).
6 النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص ٢١٢)، تاج العروس (٣/ ٢٠)، (مر).
7 اللسان (٨/ ٦٩)، معجم البلدان (٤/ ٢٠٠).
8 النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول، (ص ٢١٤).
9 تاج العروس (٧/ ٤١٦)، البلدان (٣/ ٥٢٥)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (٢١٣).
10 النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (٢١١)، البلدان (١/ ٣٤٥)، المخصص (١٣/ ١٠٠ وما بعدها).

و(المنهمة) مسكن النّهام، والنهامي، هو الراهب. وأما المنهمة فموضع الراهب[١].

ووردت في شعر للأعشى لفظة (الهيكل). إذ قال:

وما أيبلى على هيكل بناه وصلّب فيه وصارا[٢]

ويذكر علماء اللغة، أن الهيكل: بيت النصارى فيه صورة مريم وعيسى، وربما سُميّ به ديرهم. وأن الهيكل: العظيم واستعمل للبناء العظيم، ولكل كبير، ومنه سمي بيت النصارى الهيكل[٣]. واللفظة من الألفاظ المعربة، وهي ترد في العبرانية (هيكل) وفي الآرامية (هيكلو). وتعني في اللغتيْن المعبد الكبير ومعبد الوثنيين[٤].

وقد كان الرهبان وبقية رجال الدين وكذلك الأديرة والكنائس يستعملون المصابيح. والقناديل للاستضاءة بهما. ويعبر عن المصباح بالسراج كذلك[٥]. وقد تركت مصابيحهم وقناديلهم أثراً ملحوظاً في مخيلة الشعراء فأشير إليها في شعر (مزرد بن ضرار الذبياني) حيث قيل إنه قال:

كأن شعاع الشمس في حجراتها مصابيح رهبان زهتها القنادل[٦]

وذكر علماء اللغة أن الزيت الذي له دخان صالح ويوقد في الكنائس، هو (السليط)[٧].

ولفظة: قنديل من الألفاظ المعربة، أصلها يوناني هو «Candela»، أي شمعة[٨]. وقد دخلت إلى العربية قبل الإسلام، عن طريق الاتصال التجاري بين جزيرة العرب وبلاد الشأم.

---

1 النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (٢١٤).
2 اللسان (٦/ ١٤٤)، الأضداد (٢٤)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (٢٠٣).
3 المخصص (١٣/ ١٠٠ وما بعدها)، اللسان (١٤/ ٢٢٥)، العقد الثمين (١٨)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (٢٠٢).
4 النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (٢٠٢)، غرائب اللغة (٢٠٩).
5 المفردات، للأصفهاني (ص ٦٧٤).
6 المفضليات (٣٦) «طبعة السندوبي».
7 تاج العروس (٥/ ١٥٨)، اللسان (٧/ ٣٢٠)، (سلط).
8 غرائب اللغة (٢٧٩).

وكان النصارى العرب يتقربون إلى رجال دينهم ويتبركون بهم ويحترمونهم حتى قيل إن الصبيان منهم كانوا إذا رأوا الراهب ينزل ليذهب إلى بيت المقدس أو غيره خرجوا له فتمسحوا به ولثموا ثيابه، حتى يمزقوا ثيابه. والى ذلك أشير كما يقول أهل الأخبار في شعر امرىء القيس:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا   كما شبرق الولدان ثوب المقدس[١]

ولبس رجال الدين ملابس خاصة لتميزهم عن غيرهم، غلب عليها السواد. وقد اختصت لفظة (المسح) و(المسوح) بالملابس التي كان يلبسها الزهّاد والرهبان.

ومن أهم العلامات الفارقة التي ميزت معابد النصارى عن معابد اليهود والوثنيين: (الناقوس)، الذي ينصب فوق سطوح الكنائس وفي منائرها، للإعلان عن أوقات العبادات ولأداء الفروض الدينية، وهو عند الجاهليين خشبة طويلة يقرع عليها بخشبة أخرى قصيرة يطلقون عليها لفظة (الوبيلة) و(الوبيل). وهو في مقابل البوق عند يهود يثرب، أذا أرادوا الإعلان عن موعد العبادة. وقد عرف هذا البوق بين عرب يثرب بـ (القنع) أيضاً[٢]، وبـ (الشبور)[٣]. وقد ذكر علماء اللغة أن الشبور «شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقربون به». وقال بعضهم: هو القربان بعينه، وذكروا أن الشبور شيء ينفح فيه، فهو البوق عند اليهود، وهو معرّب وأصله عبراني[٤].

وقد وردت كلمة (الناقوس) في الشعر الجاهلي: وردت في بيت للشاعر المتلمس[٥]،

---

1 المعاني الكبير (٢/ ٧٦٤).

2 القنع، وورد القبع والقتع والقثع، اللسان (١٠/ ١٣١).

3 عمدة القارئ (٥/ ١٠٢ وما بعدها)، اللسان (٨/ ١٢٦).

4 اللسان (٦/ ٥٩)، تاج العروس (٣/ ٢٨٩)، (شبر)، «وقد نقس بالوبيل الناقوس»، تاج العروس (٤/ ٢٦٢ وما بعدها).

5 حنت قلوصي بها والليل مطرق   بعد الهدو وشاقتها النواقيس
ديوان المتلمس (١٧٨)، (طبعة فولرس)، (لايبزك ١٩٠٣).

وفي شعر للمرقش الأكبر[١]، وللأعشى[٢]، وللأسود بن يعفر[٣]. وقد أشير في هذه الأبيات إلى قرع النواقيس بعد الهدوء إيذاناً بدنو الفجر وحلول وقت الصلاة. وقد كانت هذه النواقيس في القرى وفي الأديرة، يقرعها الرهبان والراهبات والقسيسون[٤]. وقد أدخل بعض علماء اللغة هذه الكلمة في جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية من أصول أعجمية[٥]. واللفظة من أصل (سرياني) هو (ناقوشا)[٦].

أعياد النصارى:

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء أعياد نصرانية ترجع أصول تسميتها في الأكثر إلى لغة بني إرم، ويظهر أن أولئك الأخباريين تعرفوا عليها في الإسلام باختلاطهم وباتصالهم بالنصارى، إذ لم يشيروا إلى ورود أكثرها في الشعر الجاهلي، ومن عادتهم أنهم إذا عرفوا شيئاً كان معروفاً عند الجاهليين جاءوا ببيت أو أبيات يستشهدون بها على ورودها عند الجاهليين.

ومن الأعياد التي ورد فيها شاهد في الشعر الجاهلي، (السباسب)، وهو (يوم السعانين) و(الشعانين). وقد وردت كلمة السباسب في بيت للنابغة قاله في عيد السعانين عند بني غسّان، هو:

---

1 وتسمع تزقاء من البوم حولنا   كما ضربت بعد الهدوء النواقس
المفضليات (٤٦٥)، النصرانية (٢٠٧).

2 وكأس كعين الديك باكرت وحدها   بفتيان صدق والنواقيس تضرب
تاج العروس (٢/ ٣٣١)، (حد)، ويروى لعنترة، العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين (١٧٩)، (طبعة الوردت)، (Ahlwardt)، (باريس ١٩١٣)، النصرانية (٢٠٧).

3 وقد سبأت لفتيان ذوي كرم   قبل الصباح ولما تقرع النقس
اللسان (٨/ ١٢٦)، (نقس)، تاج العروس (٤/ ٢٦٣).

4 النصرانية (٢٠٧)

5 عمدة القارئ (٥/ ١٠٣)، المعرب (٢٣٩).

6 Shorter Ency., p. 437.

رقاق النعال طيب حجزاتهم   يحيون بالريحان يوم السباسب[1]

و(السعانين) و(الشعانين) من أصل عبراني (هوشعنا). وقد وردت هذه الكلمة في صحيفة صلح (عمر) مع نصارى الشأم، وردت معها لفظة أخرى من الألفاظ النصرانية كذلك هي (الباعوث)[2]، وهي رتبة تقام في اليوم الثاني من عيدَ الفصح[3]، وصلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف[4]. وقد ذكرها علماء اللغة في جملة الألفاظ المعربة، والآرمية الأصل، وجعلها بعضهم (الباعوث). وذكروا أنها (استسقاء النصارى)، وأن (عمر) لما صالح نصارى الشأم، كتبوا له أن لا نحدث كنيسة ولا قلية ولا نخرج سعانين ولا باعوثاً[5].

و (خميس الفصح) من أعياد النصارى كذلك. وهو بعد السعانين بثلاثة أيام، وكانوا يتقربون فيه بالذهاب إلى الكنائس والبيع[6].

وقد أشير إلى عيد (الفصح) في بيت للأعشى يمدح فيه (هوذة بن علي) لتوسطه لدى الفرس بالإفراج عن مئة أسير من أسرى بني تميم همّ الفرس بقتلهم، وذلك لمناسبة يوم الفصح. وقد كان نصارى الجاهلية يحتفلون به، فيوقدون المشاعل، ويعمرون القناديل، ويضيئون الكنائس بالمسارج ويقصدونها للإحتفال بها، حتى قيل للقنديل الذي يعمر لهذا اليوم (قنديل الفصح)[7].

---

1 «والسباسب أيام السعانين. وفي الحديث أن الله تعالى أبدلكم بيوم السباسب يوم العيد. يوم السباسب عيد للنصارى، ويُسمونه يوم السعانين»، تاج العروس (١/ ٢٩٣)، النصرانية (٢١٥)، غرائب اللغة (٢١٢)، عن «أحد الشعانين»، راجع المشرق: السنة الثامنة، الجزء ٨، السنة ١٩٠٥م، (ص ٣٢٧ وما بعدها).

2 «أنْ لا يحدثوا كنيسة ولا قلية، لا يخرجوا سعانين ولا باعوثا»، «ويوم السعانين عيد للنصارى. وفي حديث: شرط النصارى ولا يخرجوا سعانين. قال ابن الأثير: هو عيد لهم معروف. قبل عيدهم الكبير بأسبوع. وهو سرياني معرب. وقيل هو جمع واحده سعنون»، اللسان (١٧/ ٧١)، (سعن)، (١٣/ ٢٠٩)، (صادر).

3 النصرانية (٢١٧).

4 غرائب اللغة (١٧٣).

5 اللسان (١٣/ ٢٠٩)، تاج العروس (١/ ٩٠٣)، (بعث)، اللسان (٢/ ١١٨)، (بعث).

6 الأغاني (٣/ ٣٢)، النصرانية (٢١٦).

7 قال عدي بن زيد العبادي:

بكروا علي بسحرة فصحبتهم   بأناة ذي كرم كعقب الحالب
بزجاجة ملء اليدين كأنها   قنديل فصح في كنيسة راهب

الأغاني (٩/ ٥٣)، اللسان (٣/ ٣٧٨)، النصرانية (٢١٦). وورد في شعر لأوس بن حجر:

عليه كمصباح العزيز يشبه   لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

شعراء النصرانية (٤٩٤)، النصرانية (٢١٦).

وقيل لاجتماع النصارى واحتفالهم (الهنزمن)، وذكر أن هذه اللفظة من أصل فارسي هـو (هنجمن) أو (أنجمن)، ومنها دخلت إلى السريانية فأطلقت علـى اجتمـاع النصـارى واحتفـالهم وتعييدهم[١].

وقد أشار امرؤ القيس في بعض شعره إلى عيد النصارى، ولبس الرهبـان فيـه ملابـس طويلة ذات أذيال[٢].

وكانت الكنائس والأديرة والأضرحة والمقابر الأماكن التي يقصدها النصارى في أعيادهم. فتكون موضع تجمع ولقاء. كانوا يقصدونها للتقرب إلى الرب وللصلوات له. وللتوسل اليـه بـأن يمن عليهم ويبارك فيهم. وكانوا يقصدون المقابر إظهاراً لشعورهم بـأن موتـاهم وإنْ فـارقوهم وابتعدوا عنهم، غير أنهم لا زالوا في قلوبهم. وأيام الأعياد من أعزّ الأيام على الإنسان، لذلك فهي أجدر الأيام بأن تخصص لزيارة بيوت الأرباب وبيوت الموتى: القبور.

---

[1] قال الأعشى:
إذا كان هنزمـن ورحت مخشـما
اللسان (١٧/ ٣٢٩)، تاج العروس (٩/ ٣٦٨)، النصرانية (٢١٧).

[2] فآنست سربا من بعيد كأنه رواهب عيد في ملاء مهذب
النصرانية (١٧٣).

الفصل الثاني والثمانون

أَثر النصرانيةً في الجاهليين

وإذا كنا قد حُرمنا من الموارد الأصلية التي يجب أن نستعين بها في معرفة أثر النصرانية عند نصارى الجاهلية والجاهليين، فإن في الشعر المنسوب إلى بعض نصارى الجاهلية مثل عدي بن زيد العبادي وإلى بعض الشعراء ممن كان لهم اتصال بالنصارى مثل الأعشى، فائدة في تكوين صورة يتوقف صفاؤها ووضوحها وقربها أو بعدها من الواقع والحق على مقدار قرب ذلك الشاعر من الصدق والصواب والواقع والافتعال.

وعدي بن زيد هو أشهر من وصل الينا خبره من شعراء النصارى الجاهليين. هو من العباديين، أي من نصارى الحيرة، ولذلك عرف بالعبادي وكان من أسرة اكتسبت نفوذاً واسعاً ونالت حظاً كبيراً عند الفرس وعند ملوك الحيرة، فكان لها أثر خطير في سياسة عرب العراق في ذلك الزمن. ولما كانت السياسة ارتفاعاً وهبوطاً، سعادة وشقاء، لاقى عدي منها الاثنين: ارتفع حتى بلغ أعلى المنازل، ثم انخفض حتى تلقاه قابض الأرواح وهو في سجنه فقضى عليه بعد أن ترك أثراً خطيراً في سياسة الحيرة وفي تقرير مصير الملك فيها. وعدي، على ما يذكر أهل الأخبار، من أهل اليمامة في الأصل: هاجر أحد أجداده من اليمامة إلى الحيرة بسبب دم اهرقه هناك، فخاف على نفسه من الثأر، ولم يجد محلاً أصلح له وآمن مقاماً من الحيرة، لوجود (أوس بن قلام) أحد رؤساء بني الحارث بن الكعب فيها وهو من أصحاب الجاه والنفوذ وبينه وبين أوس

نسب من النساء، وهو نسب يضمن له الحماية والعيش بسلام، فجاء إلى الحيرة وأقام بها حيث أكرمه أوس وقربه إلى آل لخم، واكتسب منزلة عالية عند ملوك الحيرة، انتقلت من بعده إلى أبنائه الذين كوّنوا لهم صلات وثيقة مع آل لخم ومع ملوك الفرس، بما كان لهم من علم وذكاء ومن سياسة. ويذكر الأخباريون أن جدّ عدي قد تعلم الكتابة في الحيرة، فصار من أكتب الناس فيها، وأنه لذلك انتخب كاتباً لملك الحيرة، واتصل بحكم وظيفته المهمة هذه بدهاقين الفرس، وأنه لما توفي أوصى بابنه زيد والد عدي إلى واحد منهم يعرف بـ (فروخ ماهان) فأخذه هذا إلى بيته، ورباه مع ولده. فتعلم عندهم الفارسية، وحذقها وكتب بها وبرّز، وكان قد، حذق الكتابة بالعربية كذلك، فأوصله الدهقان إلى كسرى، لعلمه هذا باللغتيْن ولذكائه، فعينه في وظيفة مهمة لم يكن الفرس يعينون لها أحداً من غيرهم هي وظيفة البريد. وقد مكث في هذه الوظيفة زماناً جعلته يكتسب منزلة محترمة عند عرب الحيرة والفرس.

وعُني زيد بتربية ولده عدياً: أرسله إلى الكتّاب ليتعلم به العربية. فلما برع فيها، أرسله إلى كتاب الفارسيه حيث تعلم مع أبناء المرازبة فنون القول والكتابة، ثم تعلم الرماية ولعب الفرس حتى صار من المبرزين فيها. وقد قربه علمه وعقله من آل لخم ومن الفرس، حتى وصل إلى مناصب عالية جعلت لقوله أهمية كبيرة حتى في تثبيت ملك ملوك الحيرة.

وقد أرسله (هرمز بن أنو شروان) في سفارة مهمة إلى القيصر (طيباريوس) فأدّاها على خير وجه. وعاد فأقام أمداً بالشأم، ووقف على ما كان فيها من علم، ومعالم. وقد زادت هذه الأسفار بالطبع في سعة أفقه وفي ثقافته. ثم عاد إلى الحيرة، فوجد والده قد توفي بعد أن صار المهيمن الحقيقي على البلاد. وزار كسرى ليقدم اليه هدايا قيصر. وارتفع نجمه في البلاطين. وتزوج هنداً بنت الملك النعمان. غير أن تقدمه هذا أوجد له خصومة شديدة من منافسيه (بني مرينا) وهم نصارى مثله ومن أهل الجاه والحسب، فأغرى خصمه ومنافسه العنيد (عدي بن مرينا) قلب النعمان عليه. وكان عدي بن زيد صاحب الفضل في حصول النعمان على التاج. وظل ابن مرينا يعمل في الخفاء للقضاء على عدي،

حتى تمكن من ذلك، إذ سجنه النعمان، ثم أمر فاُغتيل وهو في السجن[١].

و ذكر أن (كسرى) جعله كاتباً على ما يجتبى من الغور، وكان هو سبب ملك النعمان بن المنذر[٢].

والذي يهمنا في هذا الموضع من أمر عدي هو مدى وقوف عدي على النصرانية ومبلغ تسربها في نفسه وفي نفوس أهل الحيرة. أما النواحي الأخرى من حياته، فليس لها محل في هذا المكان. وشعر عدي وأضرابه من العباديين هو سندنا الوحيد الذي نستخرج منه رأينا في النصرانية عند عدي وعند إخوانه العباديين.

والشعر المنسوب إلى عدي أقرب إلى نفوسنا وأسهل علينا فهماً من الشعر المنسوب إلى بقية الجاهليين، معانيه وألفاظه حضرية متحررة من الأساليب البدوية التي تميل إلى استعمال الجزل من الكلمات، وهو يخالف مذاهب أولئك الشعراء في كثير من الأمور. ولهذا «كانت الرّواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد لمخالفتهما مذاهب الشعراء»[٣]، و«لأن ألفاظه ليست بنجدية»[٤]. وقد ورد في شعره بعض المعربات مما يدل على أثر الفارسية والآرمية فيه[٥]. وكثير من شعره هو في الزهد، وفي التذمر من هذه الدنيا التي لا تدوم حالها على حال، وفي تذكير الأحياء بنهاية الأموات بالرغم مما أقاموه وشيّدوه من أبنية ضخمة وقصور شاهقة. وهذا الشعر يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار عن حياة هذا الشاعر، وتألق نجمه وبلوغه أعلى المراتب ثم سقوطه فجأة ودخوله السجن واغتياله فيه. وفي شعره قصائد في القيان وفي الخمر تتحدث عن الحياة التي قضاها قائلها، وهي حياة لذيذة ولكنها لا تدوم بالطبع إلى الأبد، ولا بد لها أن تزول ثم تنتهي بما

---

[1] المشرق، الجزء الأول، كانون الأول ١٩٤٤، (ص ٢٦ وما بعدها)، شعراء النصرانية (٤٢٦ وما بعدها)، راكلوتا نالينو، تأرخ الآداب العربية في الجاهلية حتى عصر بني أمية (ص ٧١)، (القاهرة ١٩٥٤).
Ency., I, p. 137, Brockelmann, I, S. 29, Rothstein, S. 109, Nöldeke, Geschichte der Perser und Araber Zu Zeit der Sassaniden, S. 512, Islamic Culture, IV, p. 31, ff.

[2] نوادر المخطوطات، أسماء المغتالين (١٤٠).

[3] الأغاني (١٥/ ٩٣)، (مطبعة التقدم)، (ذكر أخبار أبي دؤاد الأيادي ونسبه)، نالينو (٧٤).

[4] ابن قتيبة، الشعر (١١٥).

[5] نالينو (٧٤).

يوجب الأسف عليها والألم والتوجع من فنائها ومن ذهاب تلك الأيام.

أما صميم الديانة والآراء النصرانية الخاصة، وهي ضالتنا في هذا الفصل وهدفنا الذي نقصده، فلا تجد منها في شعره الموثوق بصحته شيئاً كثيراً. ونحن لا نستطيع بالطبع أن نلوم عديّاً على ذلك، فعدي كما نعلم رجل شعر وسياسة، وليس برجل دين ولا كهانة فيتعمق في شعره بإيراد تواريخ الأنبياء والأوامر والنواهي الإلهية الواردة في التوراة والإنجيل. ولم يذكر أحد من الأخباريين عنه أنه كان كاهناً أو قسيساً فنأمل منه التطرق في شعره إلى موضوعات اللاّهوت والكهنوت. فما نجده في شعره عن النصرانية هو من حاصل المناسبات والظروف، وليس من حاصل بحث متعمد قصد به البحث في الدين من أجل الدين.

ولو كان عديّ قد تعرض للنصرانية عنده وبين قومه لأفادنا ولا شك كثيراً. وما زلنا في الواقع فقراء في ناحية علمنا بمبلغ فهم أهل الحيرة وغير أهل الحيرة من نصارى العرب في الجاهلية لأحكام النصرانية وقواعدها، ومقدار رسوخها في نفوس أولئك النصارى ولا سيما الأعراب منهم. ولكن عذره كما قلت بينَ واضح، وليس لنا أن نلومه. وما جاء به عن النصرانية في شعره على كل حال مفيد، أفادنا ولا شك. فلنكن قنوعين غير طامعين، مكتفين مما أورده عدي عنها في شعره، ولننظر إلى المستقبل، فهو أملنا الوحيد، فنجده يكشف عن مصادر كتابية مطمورة، يبعثها من قبورها المغمورة بالأتربة المتراكمة، وعندئذ تكون أمام المؤرخ ثروة تغنيه، يستطيع أن يظهرها العشاق للمولعين بمعرفة أحوال الماضين.

وقد ورد في قصيدة قيل إنّه نظمها في معاتبة النعمان على حبسه بيت فيه قسم برب مكة والصليب:

سعى الأعداء لا يألون شراً   عليك ورب مكة والصليب[1]

وهذا البيت يدعو إلى التأمل والتفكير، فرجل نصراني يؤمن بعيسى وبالصليب، لا يمكن أن يقسم برب مكة. فمكة كما نعلم مجمع الأصنام والأوثان وكعبة الوثنية في الجاهلية، فكيف يقسم بربها رجل نصراني يرى الأوثان والوثنية رجساً من عمل الشيطان وكفراً. بل لو فرضنا أنه أقسم بمكة وبرب مكة على سبيل مجاراة

[1] شيخو، شعراء النصرانية (٤٥١).

العرب الوثنين وتقرباً إلى الملك النعمان، فليس لدينا دليل مقنع يفيد أن وثنيي الحيرة كانوا يؤمنون برب مكة. ولم يذكر أحد من أهل الأخبار أن أصنام أولئك الوثنيين كانت بمكة، وأن أهل الحيرة كانوا يزورون مكة ويحجون إلى (رب البيت) في جملة من كان يحج إليه من العرب. ولم يرد في روايات أهل الأخبار أن الملك (النعمان) كان وثنياً مؤمناً بقدسية مكة وأنه حج إليها حتى نذهب إلى الفرض بأن عدياً، إنما أقسم بمكة، مجاراة لهذا الملك، بل الوارد فيها أنه كان على دين النصرانية، وإنه كان مؤمناً بهذا الدين، يزور الأديرة ويحضر الصلوات ورجل على هذا النحو من التدين لا يمكن بالطبع أن يحفل بقسم ببيت من بيوت الأصنام. ثم أن مصطلح (رب مكة)، هو مصطلح إسلامي، أخذ من عقيدة التوحيد في الإسلام، فقيل: (رب البيت) و(رب هذا البيت)[١].

لقد اتخذ الأب (شيخو) هذا البيت دليلاً على انتشار النصرانية في مكة وعلى تنصر أحياء منها، وعلى أن النصرانية قديمة فيها، بل يكاد يفهم من قوله أن البيت هو في الأصل كنيسة بنيت بعد المسيح بعهد قليل: بناها النصارى الذين جاءوا إلى هذه المدينة وسكنوها، وأن صور الأنبياء وصورة عيسى وأمه مريم التي ذكر الأخباريون أنها كانت مرسومة على جدار الكعبة والتي أمر الرسول بطمسها ومحو معالمها هي دليل على أثر النصرانية في مكة، ولهذا كان النصارى الجاهليون يحجون إليها ويقدسونها، ولهذا السبب أقسم[٢] عدي بها، وأقسم الأعشى بها كذلك حيث قال:

حلفت بثوبي راهب الدير والتي   بناها قصيّ والمضاض بن جرهم

وذكر أن من شعر (عدي) هذا البيت:

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت   فيكم وقابل قبر الماجد الزارا[٣]

وقد اختلف العلماء في مراده بـ (ذات الودع)، فذهب بعضٌ منهم إلى

---

[1] ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، سورة قريش، الآية ٣.

[2] النصرانية (ص ١١٨)، وفي الديوان:

فإني وثوبي راهبٍ النج والتي   بناها قصي وحده وابن جرهم

ديوان الأعشى (ص ٧٥).

[3] تاج العروس (٥/ ٥١٤)، (ودع).

أن (ذات الودع) الأوثان، أو وثن بعينه، وقيل سفينة نوح، وكان يحلف بها، وكانت العرب تقسم بها، وتقول: بذات الودع. وقيل الكعبة، لأنه كان يعلق الودع في ستورها[١].

ولم يرد في شعر عدي شيء ما يتحدث عن عقيدة التثليث، أي الإيمان بالثالوث. وكل ما ورد فيه هو الإشارة إلى عقيدة بوجود رب واحد هو (الله). وهو رب مستجيب مسبّح خلاق[٢]. وهذا الرأي إسلامي كما هو معلوم، وقريب من عقيدة الحنفاء.

ووردت في بيت شعر وجهه إلى النعمان كلمة (أبيل)[٣]، وأبيل اسم للمسيح، ويطلق على حبر النصارى أيضاً، ومعناها الناسك والزاهد. وهي من أصل سرياني، من فعل (ابل) بمعنى ناح وبكى على خطاياه، ولذلك قصد بها الناسك والراهب[٤]. وقد دعا الأعشى ضارب الناقوس: الأبيل[٥].

ونسب لعدي هذا البيت:

وأهبط الله إبليساً وأوعده   ناراً تلهب بالأسعار والشرر[٦]

---

[1] المصدر نفسه.

[2] فإني قد وكلت اليوم أمري   إلى ربٍ قريب مستجيب

...

أجل أن الله قد فضلكم   فوق من أحكأ صلبا بازار

...

واذهبي يا أميم أن يشأ اللـ   ـه بنفسي من أزم هذه الخناق
أو تكن وجهه فتلك سبيل النـ   لا تمنع الحتوف الرواقي

...

ليس شيء على المنون بباق   غير وجه المسيح الخلاق

شعراء النصرانية (٤٥٢، ٤٥٤)، النصرانية (١٦٢).

[3] إنني ولله فاقبل حلفي   لأبيل كما صلى جار

وروي:

إنني والله فاقبل حلفتي   بأبيل كلما صلى جار

شعراء النصراينة (٤٥٣)، النصرانية (١٩٤).

[4] تاج العروس (٧/ ١٩٩)، (ايل)، اللسان (١٣/ ٦)، مرمرجي، معجميات عربية سامية (١٣١ وما بعدها).

[5] فإني ورب الساجدين عشية   وما صك ناقوس الصلاة أبيها

النصرانية (٢٠٨).

[6] النصرانية (١٦٨).

ولم ترد كلمة (إبليس) في شعر منسوب لشاعر جاهلي آخر، إنما وردت كلمـــة (شــيطان) في شعر منسوب إلى أميّة بن أبي الصلت.

ونسب إلى عدي هذا البيت:

ناشدتنا بكتــاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله تقتنع[1]

ويظهر من دراسة الشعر المنسوب لعديّ أنه كان على مذهب القائلين بالقضــاء والقــدر. فكل كائن خاضع لحكم القدر، يفعل به ما يشاء، ليس في إمكانه ردّ شيء مقدر كائن عليــه. وقــد رسخت هذه العقيدة في نفس عدي ولا شك بعد أن زجّ به في السجن، وأصبح وحيداً لا يدري مــا الذي سيصنع به. وهي عقيدة يسلم بها أكثر من يقع في مثل هذه الظروف، لأنها تفرج عن النفس، وتخفف بعض التخفيف عما ينتاب المرء وهو في هذه الحالة من هموم وأحزان. والإيمان بالقــدر وبأن الإنسان مسير مجبر، عقيدة لها صلة كبيرة بالظروف الاجتماعية وبــالأحوال التــي تحــيط بالانسان، وهي ليست من الآراء الدينية الخالصة.

ونسبت لعدي أبيات فيها حكايات من العهد العتيق، مثل هذه الأبيات وهي في مبدأ الخلق:

اسمع ديثــاً لكي يوماً تجاوبه   عن ظهر غيب إذا ما ســائل سألا
أن كيف أبدى إلــه الخلق نعمته   فينــا وعرفنــا آيــاتــه الأولا
كانت رياحــاً ومــاءً ذا عُراثيه   وظلمــة لم يــدع فتقاً ولا خلــلا
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت   وعزّل الماء عمــا كان قــد شغلا
وبسط الأرض بسطاً ثم قدرهــا   تحت السماء سواء مثــل ما فعــلا
وجعل الشمس مصراً لا خفاء به   بين النهــار وبين الليل قــد فصلا
قضى لســتة أيــام خلائقــه   وكان آخــر شيء صوّر الــرجلا[2]
دعاه آدم صوتاً فاســتجاب لـــه   بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا[3]

---

[1] شعراء النصرانية (٤٧٢).
[2] قضى لستة أيــام خليقتــه   وكان آخــرها أن صور الرجــلا
الحيوان (٤/ ١٩٨)، (عبد السلام محمد هارون).
[3] البدء التأريخ (١/ ١٥٠ وما بعدها)، النصرانية (٢٥٤)، وتجد في النص بعض الاختلاف عن النص الذي تجد في كتاب النصرانية، وفي المراجع الأخرى.

وطابع هذا النظم وأسلوبه يفصحان أنه نظم من النوع التعليمي الديني، لا أدرى أكان شاعرنا يعترف به وينسب إلى نفسه؟ أمّا أنا، فلا أرى أنه لشاعر عربي عاش قبل الإسلام.

ونجد فيِ شعر (عدي) نزعة من نزعات التصوف والتأمل، جاءت اليه من الأوضاع التي أحاطت به، من وشايات، ومن غضب الملك عليه ومن سجن، بعد أنْ كان السيد المهيمن. حتى صار الدهر عنده حالاً بعد حال. لا يدوم صفاؤه لأحد، فلا يركن أحد اليه، ولا يغتر إن وجد نفسه في أعلى عليين، فقد يسقط غداً إلى أسفل سافلين[١].

وهناك شاعر آخر اسمه (الملمس بن عبد المسيح) يدل اسم أبيه على أنه كان نصرانياً، غير أنّ هناك رواية أخرى تذكر ان اسم والده (عبد العُزى)[٢]. وعبد العُزى من أسماء الوثنين كما هو معروف. ثم إننا لا نجد في شعره ما يشير إلى آراء وعقائد نصرانية يمكن أن يستنبط منها أنه كان نصرانياً. ورجل يحلف في شعره باللات والأنصاب لا يعقل أن يكون نصرانياً[٣].

أما الأعشى، فهو شاعر عاش في الجاهلية، وأدرك أيام الرسول. ومدحه بقصيدة جميلة مشهورة، جعلت أبا سفيان يحرض قومه على ارضائه خوفاً من ان يسلم ومن أن ينظم شعراً آخر في مدح الرسول وفي ذم قريش، فجعل له مائة من الإبل جمعها من قومه على أن يرجع ويؤجل أمر إسلامه عاماً. فرجع إلى بلدته (منفوحة) باليمامة، وكان قد ولد بها، فمات بها بعد حين وعرف قبره بين الناس أمداً.

وكان الأعشى كما يروي أهل الأخبار جواباً في الآفاق، عرف الحيرة ونادم ملوكها، وزار النجاشي في أرضه، وتجول في أرض النبيط وأرض العجم. وتنقل في أرجاء اليمن وفي حضرموت وعمان وبلاد العراق وبلاد الشأم ومتع نظره

---

[1] العمدة (١/ ٢٢٣).

[2] Vollers, Die Gedichte des Mutalammis, Leipzig, 1903, S. 149.

[3] اطردتني حذر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تئل
ديوان المتلمس (١٧١)، (طبعة فولرس)، النصرانية (٤٠٤).

بالآثار القديمة واتخذها عبرة للمعتبرين[١]. وقد وسعت هذه الأسفار آفاق نظره وعرفته على شعوب متعددة وعلى آراء ومعتقدات متنوعة. ومنها هذه النصرانية التي نبحث فيها.

وقد حمله اختلاطه بالنصارى العرب على الإشارة إلى بعض طقوسهم وأحوال عباداتهم في شعره. وإلى أن يشير إلى قصص معروفة بين أهل الكتاب، واردة بينهم، فذكره في شعره. فتراه يتحدث عن حمامة نوح وعن أخبار سليمان وعن جنّ سليمان وعن المباني القديمة العادية المنسوبة إليه، كما تراه يشير إلى عادة النصارى في الطواف حول الصليب أو تمثال المسيح[٢]. ثم تراه يشير إلى الصليب نصبه الراهب في الهيكل بعد أنْ زيّنه بالصور[٣].

وفي الشعر المنسوب اليه إقرار بإلَه واحد كريم[٤]، ونهي عن عبادة الأوثان ومن التقرب منها[٥]، وفيه إن الرب يكفي الإنسان ويرعاه ويساعده في حله وفي ترحاله[٦]،

---

[1] وقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فأوري شلم
أتيت النجاشي في أرضه وأرض النبيط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك إلى حضرموت فأوفيت همي وحينا أهم
ألم ترى الحضر إلاّ أهله بنعمى، وهل خالد من نعم؟
أقام به سابور الجنود حولين بضرب فيه القدم
فما زاده ربه قوة مثل مجاوره لم يقم
ديوان العشى «طبعة رودولف كاير»، (ص ٣٣ وما بعدها).
قد طفت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في العجم ترحالي وتسياري
ديوان الأعشى (١٢٦),

[2] قال في مدحه «قيس بن معديكرب الكندي»:
تطوف العفاة بأبوابه كطوف النصارى ببيت الوثن
ديوان الأعشى (١٩)، اللسان (١٧/ ٣٣٤)، (وثن).

[3] وما أيبلى على هيكل بناه وصلب فيه وصارا
ديوان الأعشى (٤٠)، النصرانية (٢٠٤)، بروكلمان، تأريخ الأدب العربي (١/ ١٤٧ وما بعدها).

[4] ربي كريم لا يكدر نعمه فإذا تنوشد في المهارق أنشدا
النصرانية (١٦٢).

[5] وذا النصب المنصوب لا تسكننه لا تعبد الأوثان، والله فاعبدا
النصرانية (١٥٩).

[6] ولكن ربي كفى غربتي بحمد الإله فقد بلغن
ديوان الأعشى (١٧).

وإن الإنسان عبده[١]. وإن الفناء واقع على كل امرىء، وليس أحد في هذه الدنيا بخالد، ولـو كـان الخلود لأحد لكان لسليمان[٢]. وفيه حديث عن البعث والحساب يوم الدين.

ونجد في شعره معرفة بنوح وبسفينته، أشار إلى نوحٍ في مدحه إياسا حيث خاطبه بقوله:

جزى الإله إياسـاً خير نعمته   كما جزى المرء نوحاً بدما شابا
في فلكه اذ تبداها ليصنعهـا   وظـل يجمـع ألواحـاً وأبوابـا[٣]

فهل أخذ الأعشى رأيه هذا عن نوح من أهل الجزيرة؟ وهل كان في ذلك قاصداْ متحـدثاً مخاطباً رجلاً نصرانياً يعرف الحكاية والموضوع؟ أو كان متحدثاً عن نوح حديث من يـدين بـه ويعتقد، فهو رأيه ودينه. الواقع أن البت في ذلك أمر لا أراه ممكناً ما لم تتجمع لنا موارد تأريخية كثيرة، ليتمكن المرء من استنتاج رأي واضح في أمثال هذه الموضوعات المعقدة، التي لم تـدرس مظانها المدوّنة، ولم تنتقد حتى الآن.

وقد ذهب (كاسكل) «Caskel» إلى ان (الأعشى) كان نصرانياً. وذهب الأب (شيخو) هـذا المذهب أيضاً، وجوّز (بروكلمن) تنصره، لكن ذهب إلى أنه لم يكن متعمقا في النصرانية[٤]. وقـد استدل (كاسكل) على نصرانيته من بيتيْن في ديوانه، ومن بيت آخر ورد في قصـيدة أخـرى، لا يمكن في الواقع أن يكون دليلاً على نصرانية قائله[٥].

وذكر أنه كان قدرياً، روى روايته (يحيى بن متى) وهو من عباد الحيرة،

---

[1] فأقسم بالـذي أنـا أعبـده   لتصطفقن يوماً عليك المآتم
ديوان الأعشى (٥٨).

[2] ولو كان شيء خالداً ومعمرا   لكنا سليمان البرئ من الدهر
رأه إلهي فأصطفـاه عبـادة   وملكه ما بين ثريا إلى مصر
وسخر من جن الملائكة تسعة   قياماً لـديه يعملون بلا أجر
ديوان الأعشى (٢٤٣).

[3] شعراء النصرانية (٣٨٩)، النصرانية (٢٦١).

[4] تأريخ الأدب العربي لبروكلمن (١/ ١٤٧ وما بعدها).

[5] انظر البيتيْن ١٢ ــ ١٣ من القصيدة رقم ٣٤ بديوانه، والبيت ٩ من القصيدة ١٣ بالديوان، بروكلمن، تأريخ الأدب العربي (١/ ١٤٧)، (الترجمة العربية).

انه أخذ مذهبه هذا في القدر من العباديين نصارى الحيرة، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر، فلقنوه ذلك. وقد استشهدوا على قوله هذا في القدر بهذا البيت:

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامة الرجلا[1]

وقد راجعت شعر (الأعشى)، فلم أتمكن من استنباط رأي منه يدل على مقدار علمه بالنصرانية وعلى مدى تعمقه أو تعمق غيره من النصارى بدينهم. فما ذكره مما له علاقة بالنصرانية، هو شيء عام، يأتي بخاطر كل شاعر ذكي جوّاب في الآفاق، له احتكاك واتصال بالنصارى أو بغيرهم، وهو لا يصلح أن يكون دليلاً على عقيدة ودين وفهم لذلك الدين.

وفي شعر (الجعدي) كلام عن سفينة نوح، ذكر أنه قال:

يَرْ فعُ، بالقار والحديد من الـ جوز، طوالاً جذوعها، عُمما[2]

والنابغة الجعدي، مخضرم، يُقال إنه كان مثل الحنفاء، أنكر الخمر والميسر، وهجر الأزلام والأوثان. وكان ممن فكر في الجاهلية، وأنكر الخمر والسكر، وهجر الأزلام واجتنب الأوثان، وذكر دين إبراهيم. وقد لقي الرسول، وأسلم وأنشده من شعره. وذكر أنه هو القائل القصيدة التي فيها:

الحمد للهِ ربي لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

على نحو شعر أمية بن أبي الصلت، وقد قيل إنها لأمية، لكن صححها حماد الراوية[3].

ونجد في شعر آخرين من غير من ذكرت ألفاظاً وكلمات كانت معروفة عند النصارى وإشارات إلى عباداتهم وعاداتهم، وردت في شعر (النابغة الذبياني) ولبيد، وامريء القيس، وأوس بن حجر وآخرين غيرهم ممن طافوا في الأرضين وارتحلوا فوقفوا على بعض أحوال النصارى فأشاروا إليها في شعرهم.

---

[1] الأغاني (٨/ ٧٩)، نالينو (١٧).
[2] اللسان (١٢/ ٤٢٥)، (عمم).
[3] الإصابة (٣/ ٥٠٨)، (رقم ٨٦٤١)، أمالي المرتضى (١/ ٢٦٣ وما بعدها)، المرزباني (٣٢١).

ونجد في شعر (الأفوه الأودي) وهو صلاءة بن عمرو، تسجيلاً لأبناء نوح. سجلهم مع مَن سجل أسماءهم من ملوك التبابعة ممن دانت لهم الأنام، فنجده يقول:

ولما يعصها سام وحام ويافث حيثما حلت ولام[١]

ولا أدري إذا كان هذا البيت من نظم شاعر جاهلي، هو الأودي، أو من نظم شخص آخر نظمه على لسانه في الإسلام. ولكني لا أستبعد بالطبع أن يكون خبر أولاد نوح الثلاثة. وهم: سام ويافث وحام، قد عُرف عند العرب النصارى وعند من كان على احتكاك واتصال بهم.

ونجد في بيت شعر ينسب لأفنون التغلبي ذكراً لولد آدم[٢]. وورود آدم في هذا البيت، إنْ صح إنه من شعر ذلك الشاعر الجاهلي، دليل على وقوف هذا الشاعر على قصة آدم وانحدار البشر من نسله. ولا يستبعد أن يكون إذن قد وقف عليها باختلاطه ببني قومه تغلب، وقد كان قسم كبير منهم قد دخلوا في النصرانية. ولا يستبعد أيضاً أن يكون بعض الوثنيين قد وقفوا أيضاً على قصة الخلق كما وردت في الديانتيْن من اختلاطهم بأهل الكتاب واتصال بهم.

وقد وردت، في بيت آخر من قصيدة يُقال إنه قالها في رثاء نفسه، لفظة (الله) في شكل يفهم منه أنه كان يدين بالتوحيد، وأن الآجال كلها بيد الله[٣]، وأشار في بيت أخر إلى عاد وإرم ولقْمان وجدن[٤].

وأشير في أشعار بعض الجاهلين إلى تعبد النصارى وصلواتهم سجداً وقياماَ، وهؤلاء الذين أشير اليهم من الرهبان والناسكين الذين كانوا قد اعتكفوا في الِصوامع وفي

---

[1] النصرانية (٢٦٦)، عن الأفوه الأودي راجع الأغاني (١١/ ٤١ وما بعدها)، ابن قتيبة، الشعر (١١٠)، ديوان الأفوه، (القاهرة ١٩٣٧)، (تحقيق عبد العزيز الميمني).

[2] قد كنت أسبق من جاروا على مهل من ولد آدم ما يخلعوا رسني
المفضليات (٥٢٤)، النصرانية (٢٦١)، شعراء النصرانية (١٩٣).

[3] لعمرك ما يدري امرء كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا
شعراء النصرانية (١٩٣).

[4] لو أنني كنت من عادٍ ومن إرم ربيت فيهم ومن لقمان أو جدن
شعراء النصرانية (١٩٣).

البيع والأديرة النائية يعبدون الله، ويدعون إلى الرب تقرباً وخشية[١]، ومنهم من ترك السجود أثـراً في جباههم. وقد اطلقوا على صلواتهم هذه اسم (الصلاة). وهي من الألفاظ التـي أخـذها أولئـك النصارى من (بني إرم). وعرفت المواضع التي كانوا يسجدون فيها بالمسـاجد، والمسـجد هـو الموضع الذي يتعبد فيه[٢].

وقد كان الركوع من العادات المعروفة عند الأحناف والنصارى[٣]، و«كانت العـرب فـي الجاهلية تسمى الحنيف راكعاً إذا لم يعبد الأوثان، ويقولون: ركع إلى الله»[٤]. وأما إحناء الـرؤوس، فكان للتعظيم، ولذلك حنوا رؤوسهم في الكنائس ولرؤسائهم على سبيل الاحترام والتعظيم[٥]. وقـد كانوا يبجلون رؤوسهم وسادتهم كثيراً، ولذلك نزل الوحي بتـأنيبهم وتقـريعهم، إذ جعلهـم هـذا الاحترام في مصاف الآلهة والأرباب.

وتلحق بالصلاة التسابيح، أي ذكر الله وتقديس اسمه، وقد كان من عادة الرهبان التسـبيح بعد الصلاة، ولا سيما في الضحى والعشي[٦].

---

[1] قال منظور الأسدي:
كأن مهواه على الكلكـل   موقـع كفي راحب يصلي
في غبش الصبح أو التتلي
الألفاظ، لابن السكيت (٤١٢)، النصرانية (١٧٧).
وقال البعيث:
على ظهر عادي كأن أرومه   رجال يتلون الصلاة قيام
تاج العروس (١٠/ ٥٣)، اللسان (١٨/ ١١١)، وقال الأعشى:
لها حارس لا يبرح الدهر بيتها   وإنْ ذبحت صلى عليها وزمزما
ببابل لم تعصر فسالت سـلافة   تخالـط قنديداً ومسكـاً مختمـا
وقال مضرس الأسدي:
وسخال ساجية العيون خواذل   بجماد لينة كالنصارى السجد
النصرانية (١٧٧).

[2] اللسان (٥/ ١٨٧)، (سجد).

[3] النصرانية (١٧٨).

[4] تاج العروس (٥/ ٣٦٣).

[5] قال النابغة الذبياني:
سيبلغ عذراً أو نجاحاً من امرئ   إلى ربـه ربّ البـرية راكع
النصرانية (١٧٨).

[6] قال أمية بن أبي الصلت:
سبحانه ثم سبحانا يعـود لـه   وقبلنـا سبح الجودي والجسد
وقال الأعشى:
وسبح على حين العشيات والضحى   لا تعبد الشيطان والله فاعبـدا
تاج العروس (٢/ ١٥٧)، (سبح)، اللسان (٣/ ٢١٠)، النصرانية (١٧٨).

وقد كان رجال الدين، ولا سيما الرهبان منهم، يقومون بالفروض الدينية فرادى وجماعة، فيرتلون المزامير والأدعية بنغمات وألحان شجية. وقد عرف ترتيل القسيسين (الهينم)، وذلك في حالة النغم بخفوت الصوت[1]. وإذا طرب القس في صوته خفياً قيل لذلك (الزمزمة)[2]. أما إذا تغنى، فيقال لذلك الشمعلة. وقد قيل للمتغنين في تلادة الزبور (المتشمعل). وورد: «شمعلة اليهود: قراءتهم، إذا اجتمعوا في فهرهم»[3]. وأما إذا أطلق صوته بالدعاء فيقال لذلك الجأر[4]. واللحون من الكلمات التي أطلقت على ترتيل أهل الكتاب لكتبهم المقدسة. فقد كانوا يقرؤون التوراة والإنجيل في المحافل باللحن. وقد أشير إلى ذلك في بعض الأحاديث[5]. أما إذا ردد الشخص نغمات الإنجيل في حلقه، فكانوا يقولون له الترجيع، ومنه قولهم: رجع الإنجيل[6].

و(التصبيغ) من الألفاظ التي كانت تدل على معنى خاص عند النصارى، هو التعميد. وقد عرفه الجاهليون. وذكر علماء اللغة أن الصبغة الدين والملة والشريعة والفطرة والختانة. «اختتن إبراهيم، صلوات الله عليه، فهي الصبغة.

---

1 «الهينمة: الصوت. وهو شبه قراءة غير بينة». وأنشد لرؤبة:
لم يسمع الركب بها رجع الكلم   إلاّ وساويس هيانيم الهنم
وفي حديث إسلام عمر رضى الله عنه. قال: «ما هذه الهينمة؟ قال أبو عبيدة: الهينمة: الكلام الخفي لا يُفهم... وفي حديث الطفيل بن عمرو: هينم في المقام. أي قرأ فيه قراءة خفية. وقال الليث:
ألا يا قيل ويحك قم فهينم
أيْ فأدعُ الله». اللسان (١٦/ ١٠٨)، تاج العروس (٩/ ١١١).

2 «قال الجوهري: الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم. وفي حديث عمر، رضي الله عنه، كتب إلى أحد عماله في أمر المجوس: وإنههم عن الزمزمة. قال: هو كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي. وفي حديث قباث بن أشيم: والذي بعثك بالحق ما تحرك به لساني لا تزمزمت به شفتاي. الزمزمة: صوت خفي لا يكاد يُفهم»، اللسان (١٥/ ١٦٥).

3 تاج العروس (٧/ ٣٩٩)، (اشمعل).

4 «جأر يجأر جأرا وجؤارا: رفع صوته مع تضرع واستغاثة... وقال ثعلب: هو رفع الصوت إليه بالدعاء. وجأر الرجلُ إلى الله عزّ وجل إذا تضرع بالدعاء. وفي الحديث: كأني أنظر إلى موسى له جؤار إلى ربه بالتلبية. ومنه الحديث الآخر: لخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»، اللسان (٥/ ١٨١).

5 النهاية في غريب الحديث (٤/ ٥٧)، معجميات (٤٢ وما بعدها)، تاج العروس (٩/ ٣٣٠)، اللسان (٧/ ٢٦٣).

6 اللسان (٩/ ١٧٢)، النصرانية (٣٥٦).

فجرت الصبغة على الختانة. وصبغ الذمي ولده في اليهودية أو النصرانية صبغة قبيحة، أدخله فيها»[1]. و«كانت النصارى تغمس أبناءها في، ماء المعمودية ينصرونهم»[2]. وقد صالح عمرُ بني تغلبَ بعدما قطعوا الفرات قاصدين اللحاق بأرض الروم، على ألا يصبغوا صبياً ولا يكرهوه على دينهم، وعلى أن عليهم الصدقة مضعفة[3]. وعرفوا (المعمودية) بقولهم: «لفظ معمودية معرب معموذيت بالذال المعجمة، ومعناها الطهارة. وهو ماء أصفر للنصارى يقدس بما يتلى عليه من الإنجيل، يغمسون فيه ولدهم معتقدين أنه تطهير له كالختان لغيرهم»[4].

وقد كان نصارى الجاهلية يعمدون أولادهم، يأخذونهم أطفالاً إلى الكنائس لتعميدهم على نحو ما يفعل سائر النصارى. وقد قيل له: التغميس والتصبيغ[5].

والصوم من الأحكام الدينية المعروفة عند اليهود والنصارى، وقد أشير إليه في شعر لأمية بن أبي الصلت وفي بيت ينسب إلى النمر بن تولب[6]. وقد عرف أهل الجاهلية أن اليهود كانوا يصومون، وقد أشير إلى صومهم في عاشوراء في أثناء الكلام على فرض الصوم على المسلمين بصيامهم شهر رمضان، ولابد أن يكون للجاهليين علم بصوم النصارى كذلك، وذلك نتيجة لاتصالهم بهم واختلاطهم معهم.

ومن المصطلحات النصرانية (الحواريون)، وقصد بها رسل المسيح. وقد وردت اللفظة في مواضع من القرآن الكريم[7]. ووردت لفظة (الحواري) في بيت ينسب إلى (ضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي)[8]. وقد رجعَ بعض الباحثين

---

1 تاج العروس (٦/ ١٩)، (صبغ).

2 المصدر المذكور.

3 «قال الأزهري: وسمعت النصارى غمسهم أولادهم في الماء صبغاً، لغمسهم إياهم فيه»، اللسان (١٠/ ٣١٩)، فتوح البلدان (١٩٠).

4 تاج العروس (٢/ ٤٣٢)، (عمد).

5 السنن الكبرى (٩/ ٢١٦)، «ومنه صبغ النصارى أولادهم في ماءٍ لهم. قال الفراء: إنما قيل صبغة لأن بعض النصارى كانوا إذا ولد المولود جعلوه في ماءٍ لهم كالتطهر، فيقولون هذا تطهير له كالختانة»، اللسان (١٠/ ٣٢٠).

6 صدت كما صد عمّا لا يحل له ساقي نصاري قبيل الصبح صوام
النصرانية (١٧٩).

7 آل عمران، الآية ٥٢، المائدة الآية ١١٤ وما بعدها، الصف، الآية ١٤.

8 وكر كما كر الحواري يبتغي إلى الله زلفى أن يكر فيقتلا
المشرق، المجلد ١٩٢٩ (ص ٥٧٥ وما بعدها)، النصرانية (١٨٩).

أصل هذه اللفظة إلى لغة بني إرم ورجعها اللغويون إلى أصل عربي هو (حور)، وذهب آخــرون إلى أنها من أصل حبشي[1].

والصليب، من أهم المصطلحات المعروفة عند النصارى، لاعتقادهم بصلب المسيح عليه، حتى صار رمزاً للنصرانية. وصاروا يعلقونه على أعناقهم تبركاً وتيمناً به، وينصبونه فوق منائر كنائسهم وقبابها، ليكون علامة على متعبّد النصارى. وقد أقسموا به. وقد عرف المسلمون تمســك النّصارى به، واتخاذهم له شعاراً، حتى كان بعضهم يرســمه علــى جبهتــه، وكــانوا يلثمونــه ويتمسحون به تبركاً، ويزينون صدورهم به[2].

وذكر علماء اللغة (الشبر) على أنه من المصطلحات الشائعة بين النصارى. وهو على حدّ تعريفهم له: «شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان، يتقربون به، أو القربــان بعينــه»، وذكروا أيضاً أن (الشبر) الإنجيل والعطية والخير. ومن ذلك قول عديّ:

لم أخنه والذي أعطى الشبر[3]

ويظهر من كتب الحديث أن أهل الكتاب كانوا يخالفون المشركين فــي بعــض عــاداتهم: كالذي ورد عن عبد الله بن عباس من «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسدل شــعره، وكــان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم. وكان النبي، صــلى الله عليــه وسلم، يحب موافقة أهل الكتاب

---

[1] المشرق، السنة السابعة ١٩٠٤ (٦٢٠)، النصرانية (١٨٩)، معجميات (١٣٩).

[2] قال الأخطل:

لما رأنــا والصليب طالعــا   خلوا لنــا راذان والمزارعــا

ديوان الأخطل (٣٠٩). وقال حجار بن أبجر:

هددني عجــل وما خلت أنني   خلاة لعجــل والصليب لها بعل

الأغاني (١٣/ ٤٧). وقال الأقيشر:

في فتية جعلــوا الصليب إلههم   حاشــاي أنني مســلم معذور

النصرانية (٢٠٤).

ونُسب إلى عبد المطلب بن هاشم قوله:

لا يغلبــــن صليبهــم   ومحالهم، عــدوا، محــالك

اللسان (١١/ ٦١٩)، (محل).

[3] تاج العروس (٣/ ٢٨٩)، (شبر).

فيما لم يُؤمر فيه بشيء. ثم فرق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه»[1]. وكالذي ورد من أن أهل الكتاب كانوا يخالفون الجاهليين في كيفية التحية عند ملاقاة أحدهم الآخر، وأن الرسول أقر المصافحة.

وقد أُطلقت لفظة (المصاحف) في شعر ينسب إلى امرىء القيس على أسفار النصارى، وهو قوله: «كخطّ زبور في مصاحف رهبان»[2]. والكلمة على رأي بعض علماء الساميات والنصرانيات من أصل حبشي، ومفردها (مصحف)[3]. وصحف بمعنى كتب. وقد وردت لفظة (صحيفة) في بيت ينسب إلى (لقيط الإيادي)[4].

والمجلة من الألفاظ المعروفة بين الجاهلين. وقد اشتهرت في العربية باقترانها باسم (لقمان)، فقيل: «مجلة لقمان»[5]. وأطلقت عند العبرانيين على أسفار الكتاب المقدس على سبيل التخصيص أحياناً وعلى باب التعميم في بعض الأحيان[6]. وقد وردت في شعر للنابغة، هو:

مجلتهم ذات الإلــه ودينهــم قويم فما يرجون غيرَ العواقب[7]

وقصد بها كتاب النصارى، فقد مدح به الغساسنة، وهم على دين المسيح.

وقصد بالسِفر وبالأسفار الكتاب والكتب من التوراة والإنجيل، وكلمة (سفر) بمعنى كتاب[8]. وكانت النصارى تقرأ كتبها. من الصحف[9]، وتفسر للمستمعين ما جاء فيها من مشكل.

ولفظة (جهنم) من الألفاظ المعروفة عند اليهود والنصارى. وهي تعني

---

1 عمدة القارئ (١٧/ ٧١).
2 أتت حجج بعدي عليه فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان
العقد الثمين (١٦١).
3 النصرانية (١٨١).
4 كتاب في الصحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من أياد
الأغاني (٢٠/ ٣٤)، النصرانية (١٨١).
5 النصرانية (١٨١).
6 معجميات (١٦٧ وما بعدها).
7 «محلتهم» في بعض الروايات، ديوان النابغة (٨).
8 اللسان (٦/ ٣٥)، الاشتقاق (١٠٣)، النصرانية (١٨).
9 النهاية (٤/ ١٣٦).

الموضع الذي يكون فيه العذاب بعد الحشر، فيخلد فيه أصحاب الآثام والمعصية. واللفظة من أصل عبراني على رأي المستشرقين وعلماء الساميات هو (جحينوم) (جهينوم) «Gehinnom»، أي (وادي حينوم)، «Hinnom»[1]. وهو وادٍ يدور حول القدس نحو أربعة كيلومترات، ويُعرف اليوم باسم (وادي الربابي)، وقد كان اليهود الوثنيون يقربون في موضع منه يسمى (توفيث) «Topheth»، الصبيان قرابين للإِلهَ (ملوخ)، «Molech» = «Moloch»، يقدمونها ذبائح محروقة إكراماً له، ثم صار هذا الموضع محلاً ترمى فيه أقذار المدينة وجثث الحيوانات، وتحرق هناك لئلا تنتشر منها الأوبئةَ، وصار الموضع رمزاً للجحيم، ومنه أخذت لفظة (جهنه) «Gehenna»، التي هي جهنم[2]، الموضع الذي يعاقب فيه المجرمون بعد الموت. وهو موضع يقع تحت الأرض، واسع جداً، وأكبر حجماً من الأرض. يلقى فيه الآثمون جزاء إثمهم في الدنيا ومخالفتهم شريعة الرب. فيبقون فيه يعذبون. وقد اختلف في موضوع أبدية التعذيب وبقاء وجهنم، فمنهم من رأى أن جهنم خالدة، وأن العذاب أبدي، ومنهم من ذهب إلى أنها ترفع بعد انتهاء التعذيب[3].

وقد وردت لفظة جهنم في مواضع متعددة من شعر أمية بن أبي الصلت، كما ورد فيه وصفها وكيفية التعذيب فيها[4]. ولمعرفة أصل هذا الشعر: هل هو

---

[1] Ency., I, p. 998, Shorter Ency., p. 81.
[2] Hastings, p. 285.
[3] متى، الأصحاح الخامس، الآية ٢٩، الإصحاح العاشر، الآية ٢٨، Hastings, p. 285.
[4] «ورد في تأريخ دمشق لان عساكر (٣/ ١٢٤): قال عبد الله بن مسلم الدينوري: سُئلت هل وجدتم لجنهم ذكراً في الشعر القديم، فقلت: هذا يحتاج إلى تتبع وطلب. وقد أتذكر فلم أذكر إلاّ شيئاً وجدته في شعر أمية بن أبي الصلت، فإنه قال:

فلا تدنو جهنم من برئ ولا عدن يطالعها أثيم
إذا شبت جهنم ثم وارت وأعرض عن قوانسها الجحيم

وروي البيت في المخصص (٩/ ٦):

جهنم لا تبقي بغيا وعدن لا يطالعها رجيم

وذكر للعديل بن الفرخ (ياقوت ٤/ ١١٧) قوله في نار جهنم وجنة الخلد:

أما ترهبان الدار في ابني أبيكما ولا ترجوان الله في جنة الخلد

وقد ورد اسم جهنام في شعر الأعشى. قال (التاج ٧/ ٣٧٢):

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له جهنما جدعا للهجين المذمم»

النصرانية (٤٦٢ وما بعدها).

من شعر امية حقاً، أو من شعر آخرين وضعوه على لسانه، لا بد من دراسته ومقارنته بمـــا جـــاء في الإسلام عن وصف جهنم وكيفية التعذيب فيها. وهناك رواية تنفي ورود لفظة جهـــنم فـــي أي شعر جاهلي خلا هذا الشعر المنسوب إلى أمية بن أبي الصلت، ويلاحظ أنه ذكر (عدن) مع جهنم.

ولم أجد في أشعار الجاهليين ذكراً للإنجيل، إلاّ في الشعر المنسوب إلى (عدي بـــن زيـــد العبادي)[١]. وربما في شعر عدد قليل آخر من الجاهليين، لم أقف عليه. غير أن عدم ورود اللفظـــة كثيراً في هذا الشعر، لا يدل على عدم معرفة الجاهلين لها، ودليلنا على ذلك ورودها في مواضـــع من القرآن الكريم. وورودها فيه دليل على وقوف الجاهلين عليها واستعمالهم اياها، وأصلها مـــن اليونانية، وقد وقف العرب عليها من السريانية أو من الحبشية[٢]. وقد ذكرت فيما سبق أن نفراً من أهل الكتاب كانوا قد أقاموا بمكة وكانوا يقرأون التوراة والإنجيل بألسنتهم، فلا يستبعد إذن وقـــوف بعض الجاهليين، ولا سيما المثقفين منهم وأصحاب التجارات الذين كانوا يقصدون الحيـــرة وبـــلاد الشأم ونجران للتجارة وكان لهم اتصال وثيق بنصارى هذه الأرضين على الإنجيل وعلى الكتـــب الأخرى التي كان يستعملها رجال الكنيسة لافهام الناس أمور الدين.

ويظهر من بعض روايات الأخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد اطلعوا على التوراة والإنجيل، وأنهم وقفوا على ترجمات عربية للكتابيْن. أو أن هذا الفريق كـــان قـــد عـــرب بنفســـه الكتابين كلاّ أو بعضاً، ووقف على ما كان عند أهل الكتاب من كتب في الدين. فـــذكروا مـــثلاً أن (ورقة بن نوفل) «كان يكتب الكتاب العبراني، ويكتب من الإنجيـــل بالعبرانيـــة مـــا شـــاء الله أن يكتب»، وقالوا: «وكان امرؤ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيـــل بالعربية ما شاء الله أن يكتب»[٣]. وذكروا مثل ذلك عن (أمية بن أبي الصلت)، فقالوا إنه كـــان قـــد قرأ الكتب المقدسة[٤]، وقالوا مثل ذلك عن عدد من الأحناف.

---

[1] وأوتينا الملك والإنجيل نقرؤه   نشفي بحكمته أحلامنـــا عللا
الحيوان (٤/ ٦٤)، النصرانية (١٨٥).
[2] اللسان (١٣/ ١٧١)، النصرانية (١٨٥)، Shorter Ency., p. 168.
[3] راجع ما كتبته عنه في فصل الأحناف، Sprenger, Leben, I, S. 128.
[4] ابن قتيبة، الشعر والشعراء (١٧٦).

وإذا كانت هذه الروايات صحيحة، فإنّها تدل على أنّ الجاهليين كانوا قد وقفوا على ترجمة العهديْن. ويرى بعض المستشرقين احتمال ترجمة العرب للكتاب المقدس قبل الإسلام وعند ظهوره، ترجمة من اليونانية على الأرجح. وقد استندوا في ذلك إلى خبر ذكره (ابن العبري) «Barkebraeus»، يفيد أن البطريق (المنوفيزيتي) المدعو (يوحنا) «Monophysite Patriarch Johannes» كان قد ترجم الكتاب المقدس إلى أمير عربي اسمه (عمرو بن سعد) وذلك بين سنتيْ (٦٣١) و(٦٤٠) للميلاد، والى أخبار أخرى تفيد أن بعض رجال الدين في العراق كانوا قد ترجموه إلى العربية وذلك قبيل الإسلام وعند ظهوره[١].

لا يستبعد وجود ترجمات للكتاب المقدس في الحيرة، لما عرف عنها من تقدم في الثقافة وفي التعليم، ولوجود النصارى المتعلمين فيها بكثرة. وقد وجد المسلمون فيها حينما دخلوها عدداً من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة وتدوين الأناجيل، وقد برز نفر منهم، وظهروا في علوم اللاّهوت، وتولوا مناصب عالية في سلك الكهنوت في مواضع أخرى من العراق، فلا غرابة اذا ما قام هؤلاء بتفسير الأناجبل وشرحها للناس للوقوف عليها. وقد لا يستبعد تدوينهم لتفاسيرها أو لترجمتها، لتكون في متناول الأيدي، ولا سيما بالنسبة إلى طلاب العلم المبتدئين. وقد لا يستبعد أيضاً توزيع بعض هذه الترجمات والتفاسير إلى مواضع أخرى لقراءتها على الوثنيين وعلى النصارى للتبشير[٢].

ونجد في كتب الأخباريين وفي كتب قصص الأنبياء وفي القصص المدونة عن الماضين قصصاً وأمثلة وكلاماً يرجع أصله إلى بعض أسفار التوراة أو إلى الأناجيل، غير أننا لا نستطيع أن نؤكد أن هذا المدون قد نقل عن الجاهليين، وأن أهل الجاهلية كانوا يعرفونه، وأنه ليس مما قصه أهل الكتاب أو مسلمة أهل الكتاب مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه على المسلمين، فدخل بينهم. ثم إن القصص أكثره من (التلمود) و(المشنا) والكتب غير القانونية، روي بشكل فيه بُعْدٌ في بعض الأحيان عن هذا المدون المعروف، وهو يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في الحكم على مدى معرفة العرب بعلم أهل الكتاب.

---

1 Sprenger, I, S. 131.
2 Ency., II,p 504.

وللأسماء أهمية كبيرة في تعيين مبلغ أثر لليهودية والنصرانية في الجاهليين. وإذا كانت أسماء الوثنيين قد ساعدت (ولهوزن) في الكشف عن أسماء أصنام وأوثان لم ترد في كتاب الأصنام لابن الكلبي ولا في كتب الأخباريين الأخرى، وساعدت في الكشف عن مدى تغلغل الوثنية في نفوس أهل الجاهلية، فإن للأسماء اليهودية أو الأسماء النصرانية التي تسمى بها أهل الجاهلية والتي وصل خبرها إلينا أهمية كبيرة في الإفصاح عن مدى تأثر الجاهليين بالديانتيْن. وليس من اللازم أن تكون هذه الأسماء أسماء أناس كانوا على دين يهود، أو على دين النصرانية، فالأسماء وإنْ كان لها ارتباط في الغالب بأديان حامليها غير أنها لا تكون دائماً دليلاً على دين أصحابها، فلبيئة ولبعض العادات والاعتقادات دخل في اختيار الأسماء. وعلى ذلك فإن ما سنذكره من أسماء لا نذكرها على أن أصحابها كانوا يهوداً أو نصارى حتماً، وإنما نذكرها على سبيل الإشارة إلى أن بعض الجاهليين كانوا يحملون أسماء هي في الغالب من أسماء اليهود والنصارى.

وفي طليعة هذه الأسماء التي يجب أن نذكرها، الأسماء الواردة في التوراة والإنجيل، فهي أسماء عبرانية ونصرانية معروفة، وبها تسمّى كثير من اليهود والنصارى. ودخولها بين الجاهليين العرب دليل على وجود بعض تلك المسميات بينهم، وتسمى أهل الجاهلية بتلك الأسماء.

ومن جملة تلك الأسماء: آدم وقد دعي به آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. قُتل في الجاهلية، وهو الذي وضع النبي دمه يوم فتح مكة. وقد جاء (ابن دريد) بتفسير لهذه التسمية فذكر أنها من الأدمة أو بمعنى الطويل القامة ذي العنق الناصع، ولم يشر إلى وجود علاقة لها باسم آدم أبي البشر[1]. غير أني لا أستبعد احتمال أخذها من التسميات التي كانت بين اليهود أو النصارى عند الجاهلين. غير أننا لا نعرف من أمثال هذه التسميات غير عدد قليل محدود بحيث لا يمكن أنْ نتّخذها قاعدة لبناء حكم عليها في ورود هذه التسمية عند الجاهلين.

وأكثر من هذه التسمية شيوعاً اسم (إبراهيم)، ومن جملة من تسمى بها: إبراهيم جد عدي بن زيد بن حمّان بن زيد بن أيوب من بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم. فولد أيوب إبراهيم وسلم وثعلبة وزيد. منهم عدي بن زيد

---

[1] الاشتقاق (٤٤)، النصرانية (٢٢٨).

ابن حمان بن زيد بن أيوب بن مجروف الشاعر. ومنهم مقاتل بن حسان بن ثعلبة بـــن أوس بـــن إبراهيم بن أيوب، الذي نُسب إليه قصر مقاتل. وقال ابن الكلبي: لا أعرف في الجاهلية من العرب أيوب وإبراهيم غير هذيْن، وإنما سميّا بهذيْن الاسمين للنصرانية[١].

وممن سمُي بإبراهيم: إبراهيم بن كُتيف النبهاني، وهو شاعر قديم، وإبـــراهيم الأشـــهلي، وإبراهيم بن الحارث بن خالد التيمي القرشي، وأبو رافع إبراهيم القبطي، وهو من موالي الرسول، وإبراهيم بن عبّاد الأوسي، وإبراهيم بن قيس بن حجر بن معديكرب الكندي، وإبراهيم النجّار وهو الذي صنع المنبر لرسول الله. وأكثر هؤلاء هم من الذين عاصروا الرسول وكانوا من صـــحابته[٢]. ويجب ألاّ ننسى أنّ الرسول سمّى ابنه الذي توفي صغيراً في حياته إبراهيم[٣].

وعُرف من الصحابة رجل اسمه (إِسحاق الغنَوَي)[٤]، وعُـــرف ثلاثـــة صـــحابيين باســـم (إسماعيل)[٥]. وأما (أيوب)، فقد عُرف به (أيوب بن مجروف) جدّ عدي بن زيد العبادي، وأيـــوب بن مكرز، كما تكّنى به أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري من الصحابة، وهو الـــذي نـــزل عليـــه الرسول يوم مقدمه إلى يثرب مهاجراً من مكة[٦].

واسم (داوود) من الأسماء التي وردت في جملة أسماء ملوك بني ســـليح، فـــذكر مـــنهم (داوود اللثق)[٧]. وأظن أن لفظة (دؤاد) التي كُنّي بها الشاعر الجاهلي أبو دؤاد الإيادي هـــي مـــن داوود[٨]، وإنْ ذهب المفسرون فيها مذهباً آخر فقالوا إنها من الدُود والدوادة والدودة وأمثال ذلـــك[٩]. وعرف شاعر آخر باسم

---

1 تاج العروس (١/ ١٥١)، (أوب)، النصرانية (٢٢٩).
2 أسد الغابة (١/ ٤٠ وما بعدها)، الإصابة (١/ ٢٥ وما بعدها)، النصرانية (٣٢٩).
3 ابن هشام (١/ ٢٠٦).
4 أسد الغابة (١/ ٦٨)، الإصابة (١/ ٤٧)، (رقم ٩٤)، النصرانية (٢٢٩).
5 أسد الغابة (١/ ٧٩)، الإصابة (١/ ٥٥ وما بعدها)، النصرانية (٢٣٠).
6 ابن هشام (٢/ ٦٦، ١٢٥، ١٤٤، ١٥٠، ٣٠٥)، (٣/ ٣٤٧، ٣٩٢)، الاشتقاق (٢٦٦).
7 الاشتقاق (٣١٩)، النصرانية (٥٣٢).
8 النصرانية (٢٣٢).
9 الاشتقاق (١٠٤).

داوود بن حمل الهمداني[١]، ومن الأنصار رجل اسمه داوود بن بلال[٢] وصحابي اسمه داوود بن سلمة الأنصاري[٣].

وقد عرف داوود في الشعر الجاهلي بنسجه الدروع حتى ضُربت بدروعه عندهم المثل. وهي في نظرهم دروع قوية ممتازة، صنعها كل من الحديد الذي كان يلين بين يديه[٤]. وقد تكرر ورود ذلك في أشعار جملة شعراء، مما يدل على أنها كانت معروفة بين الجاهليين مشهورة. هذا ولا بد أنْ يكون لذلك أصل بعيد ظهر من قصص بني إسرائيل عن داوود وعن ملكه وحروبه وتغلبه على خصومه، هذا القصص الذي جعل من داوود رجلاً لا يستطاع التغلب عليه بفضل الحديد الذي لان بين يديه، فصار دروعاً لا تمضي فيه سيوف المقاتلين.

---

1 النصرانية (٢٣٢).
2 أسد الغابة (٢/ ١٢٩)، الإصابة (١/ ٤٦٣)، (رقم ٢٢٧٨ و٢٢٨٨)، الإصابة (٤/ ١٦٩)، (٩٨٨).
3 الإصابة (١/ ٤٦٣).
4 قال طرفة:

وهم ما هم إذا ما لبسوا نسج داوود لباس محتضر

النصرانية (٢٧٢)، شعراء النصرانية (٣٠٩)، ديوان طرفة (٥٨).

وقال حصين بن الحمام المري:

صفائح بصرى أخلصتها قيونها ومطرداً من نسج داوود بهما

الحماسة لأبي تمام (١٨٩)، النصرانية (٢٧٣).

وقال حسيل بن سجيع الضبي:

وبيضاء من نسج ابن داوود نثرة تخيرتها يوم اللقاء ملابسا

الحماسة لأبي تمام (٢٨٤)، النصرانية (٢٧٣).

وللبيد:

ونزعن من داوود أحسن صنعه ولقد يكون بقوة ونعيم
صنع الحديد لحفظه أسراده لينال العيش غير سروم

ديوان لبيد (٨٣)، (طبعة الخالدي)، النصرانية (٢٧٣).

وللأعشى:

ومن نسج داوود يجدي بها على أثر العيس عير فعيرا

النصرانية (٢٧٣)، شعراء النصرانية (٣٨٨).

ولسلامة بن جندل:

مداخلة من نسج داوود شكلها كحب الجنا من أبلم متفرق

وله أيضا:

من نسج داوود وآل محرق غال غرائبهن في الآفاق

النصرانية (٢٧٣).

ولم يخلُ شعر الأعشى من اسم داوود، فورد في مناسبة التحدث عن حوادث الزمان واعتداء الدهر على الإنسان، وتبدل الأيام، كما في موضع آخر في كلامه على الدروع[1]. أمّا عبيد الأبرص، فقد ذكره في أثناء كلامه على طول العمر[2].

وعرف (سليمان) في أبيات للنابغة قالها في مدح النعمان ملك الحيرة بتسخيره الجنّ لبناء تدمر[3]. وعرف بمثل ذلك وببنائه الأبنية الفخمة وبسعة ملكه في شعر لشعراء آخرين[4]. واذا كان ما نسب إلى أولئك الشعراء صحيحاً، كان رأيهم هذا في سليمان بتأثير ما كان يقصه أهل الكتاب على الجاهلين من قصص وارد في العهد القديم، في سفر الملوك الثالث وأخبار الأيام الثاني عن ملكه وعجيب أبنيته[5].

وقد ورد اسم سليمان علماً لجملة رجال، عاشوا في الجاهلية وفي أيام الرسول، فهناك حاكم من حكام العرب المعروفين في الجاهلية اسمه (سليمان بن نوفل)[6].

---

[1] ومر الليالي كل وقت وساعة يزعزعن ملكا أو يباعدن دانيا
وردن داؤد حتى أبدنه وكان يغادي العيش أخضر صافيا
الحماسة، للبحتري (٩٠)، النصرانية (٢٧٢).

[2] وطلبت ذا القرنين حتى فاتني ركضاً وكدت أرى داؤودا
خزانة الأدب (١/ ٣٢٣)، النصرانية (٢٧٢).

[3] ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلاّ سليمان، إذا قال الإله له: قمْ في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن أني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن أطاعك فاخضعه بطاعته كما أطاعك وأدلِله على الرشد
من عصاك فعاقبه معاقبة تنهي الظلوم لا تعقد على أحد
العقد الثمين (٧)، شعراء النصراينة (٦٦٣)، النصرانية (٢٧٤).

[4] قال الأعشى:
فلو كان حياً خالداً ومعمراً لكان سليمان البري من الدهر
يراه إلهي واصطفاه عبادة وملكه ما بين سرفي إلى مصر
وسخر من جن الملائك شيعة قياماً لديه يعملون بلا أجر
البدء والتأريخ (٣/ ١٠٨)، النصرانية (٢٧٤)، وله أيضاً:
فذاك سليمان الذين سخرت له مع الإنس والجن والرياح والمراخيا
الحماسة، للبحتري (٨٦ وما بعدها)، النصرانية (٢٧٥).

[5] النصرانية (٢٧٣).

[6] اليعقوبي (١/ ٢٩٩)، النصرانية (٢٣٢).

وهناك جملة من الصحابة عُرفوا بسليمان[1]. ومن هذه اللفظة نشأت الأسماء: سليمان وسلام، وسُليم، كما يتبين ذلك من أبيات للأسود بن يعفر[2] والحطيئة[3] والنابغة[4]. وعُرف بسلمان رجل من نصارى بني عجل اسمه سلمان العجلي.

وهناك طائفة لأسماء نصرانية خالصة تسمى بها نفر من الجاهلين قبل الإسلام، مثل: عبد المسيح، وعبد ياسوع، وعبد يسوع، وعبد يشوع، وايشوع، وأبجر. وقد عُرف بأبجر عدد من ملوك الرها، كما عرف بها أبجر بن جابر سيد بني عجل، وأفريم، وبولس، وجرجس، وجريج، ورومان، وورومانوس، وسرجس، وسمعان، وشمعون، ونسطاس، وحنين، و(حنيناء) و(يحنة)[5]. ومن أسماء النساء: مارية، ومريم، وحنة[6]، ومن بين هذه الأسماء ما كانت خاصة بطبقة الموالي الذين جلبوا من الخارج، وبيعوا في أسواق النخاسة، فحافظوا على أسمائهم القديمة التي تشير إلى أصولهم في النصرانية.

ونرى ورود (عبد المسيح) بين أسماء أهل الحيرة بصورة خاصة، ورد علماً لأناس معروفين جداً بينهم، وكانوا عليهم زعماء، مثل عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيّان بن بقيلة، وكان في جملة من خرج لملاقاة خالد بن الوليد

---

[1] مثل سليمان بن الحارث، الاشتقاق (٢/ ٣١٨)، وسليمان الليثي بن أكيمة، وسليمان بن أبي حتمة القرشي، وسليمان بن صرد الخزاعي، وسليمان بن عمرو بن حديدة، وسليمان بن مسهر، وسليمان بن هاشم بن عتبة القرشي، أسد الغابة (٢/ ٣٥٠ وما بعدها)، الإصابة (٢/ ١٢٨ وما بعدها)، النصرانية (٢٣٢)، تاج العروس (٨/ ٣٤٤).

[2] ودعا بمحكمة أمين سكها   من نسج داوود أبي سلام
تاج العروس (٨/ ٣٤٤).

[3] فيه الرماح وفيه كل سابغة   جدلاء محكمة من نسج سلام
النصرانية (٢٣٢).

[4] وكل صموت نثلة تبعية   ونسج سليم كل قضاء ذائل
ديوان النابغة (٩٩)، النصرانية (٢٣٣)، «أراد نسج داوود، فجعله سليمان ثم غيّر الاسم، فقال سلام وسليم. ومثل ذلك في أشعارهم كثير. قال ابن بري: وقالوا في سليمان اسم النبي، صلى الله عليه وسلم، سليم وسلام فغيره ضرورةً»، اللسان (١٥/ ١٩٢ وما بعدها)، تاج العروس (٨/ ٣٤٤).

[5] البكري، معجم (٤/ ٥٨٠)، تاج العروس (٩/ ١٨٦).

[6] النصرانية (٢٣٩)، وقد أورد قائمة بالأسماء النصرانية، وأورد أمثلة لمن تسمّى بها قبل الإسلام من الجاهليين، البكري، معجم (٤/ ٥٧٨)، «دير حنة».

للاتفاق معه على شروط الصلح[1]. وعادة جعل المرء نفسه عبداً لإلَه أو لشخص مقدس، كما في هذه التسمية، لم تكن من العادات الخاصة بالنصارى، فقد رأينا أن أكثر الجاهلين كانوا يجعلون أنفسهم عبداً لإلهَ من الآلهة، ثم يتخذون ذلك تسمية لهم، مثل عبد العزى، وعبد يغوث، وعبد ودّ، وأمثال ذلك. فلما كانت النصرانية، تبرأ من تنصر من اسم الآلهة الوثنية، وأحلوا محلها اسم المسيح.

وكان اسم والد حنظلة صاحب دير حنظة الذي بأرض بني علقمة بالحيرة (عبد المسيح)، ويذكر الأخباريون أنهم وجدوا على صدر الدير كتابة مكتوبة بالرصاص على ساج محفور: «بني هذا الهيكل المقدس، محبة لولاية الحق والأمانة، حنظلة بن عبد المسيح، يكون مع بقاء الدنيا تقديسه، وكما يذكر أولياؤه بالعصمة، يكون ذكر الخاطىء حنظلة»[2].

غير أن هذه الأسماء اليهودية الأصل أو النصرانية قليلة الاستعمال، فلم تكن مستعملة بنطاق واسع. وأكثر من تسمى بها، هم من الموالي والأرقاء، أو من العرب الذين كانوا على أطراف العراق وبلاد الشأم، وممن تأثر بالمؤثرات الثقافية الأعجمية، أو ممن كان على يهودية أو نصرانية، فتسمى بأسماء محببة أو مباركة في هاتيْن الديانتيْن.

وأهل نجران، هم الذين كانوا يجادلون الرسول في طبيعة المسيح، فلم يكن بمكة أو بيثرب قوم منهم يستطيعون مجادلته في أمور الدين. وقد ذكر بعض المفسرين أن أهل نجران كانوا أعظم قوم من النصارى جادلوا الرسول في عيسى. جاؤوا إلى الرسول، فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله. فقال: أجل إنه عبد الله. قالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أُنبئت به، ثم خرجوا من عنده غاضبين. وقالوا إنْ كنت صادقاً، فأرنا عبداً يحيي الموتى ويبرىء الأكمه، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، فلما عادوا قال رسول الله: مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون[3].

---

[1] البلاذري، فتوح (٢٥٢)، المعمرون، للسجستاني (٣٨)، «طبعة كولدتزيهر»، المشرق، السنة السابعة عشرة، (١٩١٤)، (ص ١٣٢)، البلدان (٢/ ٦٧٧).
[2] البكري، معجم (٢/ ٥٧٢)، (دير حنظلة).
[3] تفسير الطبري (٣/ ٢٠٧ وما بعدها).

وقد جادل بعض النصارى رسول الله في أمور الدين، ثم أسلموا. ونظـراً لقلـة عـددهم بيثرب، لم يقاوموه هنا كما قاومه اليهود.

وطبيعي أن يتأثر نصارى الجاهلية بلغة بني إرم، فيستعملوا المصـطلحات الدينيـة التـي كانت شائعة في الكنيسة، وهي مصطلحات آرمية الأصل في الغالب: فقد كانت لغة بني إرم لغـة العلم والدين عند النصارى الشرقيين. بها يقيمون طقوسهم الدينية. ومنها يترجمون الأناجيل إلـى أتباعهم النصارى العرب، فدخلت بذلك إلى العربية ألفاظ آرمية ذات معان خاصة. ومنها الألفـاظ التي تكلمنا عنها وألفاظ أخرى عديدة لم نتطرق إليها، لعدم وجود صلة لها بهذا الموضوع، وخشية الإطالة والخروج على صلب الموضوع. وهناك مصطلحات يونانية ولاتينية وحبشية، لهـا صـلة بالدين وبالمجتمع دخلت العربية أيضاً عن طريق النصرانية، ظهر أثرها في نصارى بلاد الشـأم والعربية الغربية خاصة، بتأثير الاحتكاك المباشر والتبشير.

وقد عني بعض الباحثين بجمع المصطلحات الدينية المعروفة عند أهل الكتاب في الجاهلية والتي أقرها الإسلام على نحو ما كانت تعرف به، أو أعطاها معنى خاصاً، ومن بينها عدد كبيـر ورد في القرآن الكريم[1]. ولما كانت غالبية العرب على الوثنية، وهي ديانة بسيطة قليلـة الشـعائر بالنسبة إلى اليهودية والنصرانية، لذلك كانت هذه المصطلحات شائعة معروفة بين أهل الكتاب من الجاهليين، وقد نقلوها من اللغات الدينية التي كتب بها علماء أهل الكتاب، فهي فـي الغالـب مـن أصل سرياني أو عبراني أو يوناني أو حبشي.

وقد جمع الأب (شيخو) في كتابه: (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) الألفاظ الخاصة بأهل الكتاب من الأبيات الواردة في دواوين شعراء الجاهلية وفي كتب الأدب، وهي أبيات منها ما أجمع الرواة وأهل الأخبار على نسبتها إلى أولئك الشعراء، ومنها مـا ورد عنـد بعـض الـرواة والأخباريين ولم يرد في دواوين أولئك الشعراء، ليجعل من تلك الألفاظ دليلاً على أثر النصـرانية في الجاهليين، وعلى مدى تغلغلها بينهم. وهو حكم لا يمكن أن يكون سليماً، إلاّ بعد ثبوت صـحة نسبة تلك الأبيات إلى الجاهليين.

---

[1] Nöldeke, Neue Beiträge zur Semit. Sparad., S. 1, ff., J. Horovitz, Jewish Proper Names and derivatives in Koran, 145, R. Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

وقد كان للنصرانية أثر مهم في نشر الكتابة العربية، المأخوذة عن الآرمية، بين الجاهليين، الكتابة التي تولد منها قلمنا الذي نكتب به في الوقت الحاضر. وقد وجد المسلمون في فتحهم للعراق مدارس عديدة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة، كما أن تجار مكة ويثرب الذين كانوا يقصدون الشأم والعراق وجدوا الضرورة تحتم عليهم تعلم هذا الخط، فتعلّموه. ولما نزل الوحي كتب كتابه به، فصار قلم المسلمين. كما سأتحدث عن ذلك في موضوع الخط عند الجاهليين.

ولم يترك رجال الدين من النصارى العرب لنا أثراً كتابياً ينبيء عن مدى اشتغالهم في علم اللاهوت وفي العلوم الأخرى، غير أن هذا لا يعني أن النصارى العرب لم يزجوا علماء دين منهم، ولم يعطوا النصرانية رجلاً منهم يخدمها ويقف حياته الروحية عليها، ففي قوائم أسماء من حضروا المجامع الدينية التي عقدت للنظر في الأمور الجدلية وفي القضايا التي تخص مبادئ الدين أسماء رجال تنبئ أنهم كانوا عرباً، وقد دونت في محاضر تلك المجالس أسماء المواضع التي مثلوها من بلاد العرب، كما أن بين رجال الدين الكبار الذين نبغوا في العراق من كان أصله من الحيرة، وإذ كانت غالبية سكان هذه المدينة من العرب، فلا يستبعد أن يكون من بين هؤلاء العلماء النصارى الحيريين من كان من أصل عربي.

لقد كانت النصرانية عاملاً مهماً بالطبع في إدخال الآراء الإغريقية والسريانية إلى نصارى العرب، فقد كانت الكنيسة مضطرة إلى دراسة الإغريقية ولغة بني إرم، لما للغتيْن من قدسية خاصة نشأت من صلتهما بالأناجيل. وقد كان أثر الآرمية أهم في الكنيسة الشرقية من الإغريقية، لكونها لغة الثقافة في الهلال الخصيب في ذلك العهد. ولهذا وجدنا معظم التعابير والمصطلحات الدينية عند نصارى الشرق هي من هذه اللغة، ومنها أخذها النصارى العرب، فصارت عربية، وقد كان السريان قد نقلوا بعض مؤلفات اليونان واللاتين إلى لغتهم، ولا أستبعد نقلهم بعض تلك المؤلفات، ولا سيما الدينية منها، من هذه اللغة إلى اللغة العربية، وذلك قبل الإسلام، أو ترجمتها ترجمة شفوية لطلاب العلم من العرب ممن كانوا لا يفقهون لغة بني إرم، أو لا يلمّون بها إلماماً صحيحاً. وإذ كانت هذه اللغة لغة مقدسة ولغة الكنيسة الرسمية، وكان أكثر رجال الدين من بني إرم، فقد كانت هذه اللغة اللغة المقررة في الكنيسة، بها يدرس ويتباحث رجال الدين وإنْ كانوا عرباً، على نحو ما يفعله رجال الدين الأعاجم الذين يدرسون العربية بعلومها المختلفة

ليتفقهوا بذلك في الدين، والعربية هي لغة الدين الإسلامي، وكما يفعل رجال الدين الكاثوليك أيضـــاً في دراستهم اللاتينية وتبحرهم بها لأن اللاتينية هي لغة النصرانية عند الكاثوليك.

وكان للنصرانية أثر آخر في نصارى عرب الجاهلية، هو أثرها فيهم من ناحية الفــن، إذ أدخلت النصرانية بين العرب فناً جديداً في البناء، هو بناء الكنائس والأديرة والمذابح والمحاريــب والزخرفة، كما أدخلت النحت والتصوير المتأثرين بالنزعة النصرانية. ولدخول أكثر هذه الأشــياء لأول مرة بين الجاهليين، استعملت مسمياتها الأصلية اليونانية أو الآرمية في اللغة العربية، بعد أن صقلت وهُذّبت، حتى اكتسبت ثوباً يلائم الذوق العربي في النطــق. وستكشــف الحفريــات فــي المستقبل عن مدى تأثر النصارى العرب الجاهليين بالفن النصراني المقتبس عن الروم أو عن بني إرم والأحباش.

الفصل الثالث والثمانون

المجوس والصابئة

يقصد الأخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة: الخير والشر، فيزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة[1]، وهم يعلمون أن المجوس من الفرس وأنهم عبدة النيران.

وفي القرآن الكريم ذكر للمجوس. وقد ورد ذكرهم في موضع واحد منه: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس، والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيء شهيد﴾[2]. وفي ذكرهم في القرآن الكريم دليل كاف على معرفة أهل الحجاز بهم، ووقوفهم عليهم. وكيف لا يكون لهم علم بهم ووقوف عليهم، وقد كان لأهل مكة اتصال وثيق بالحيرة كما كان لأهل الحجاز اتصال باليمن؟ وقد كان المهيمن على اليمن الفرس عند ظهور الإسلام، حيث طردوا الأحباش وأخذوا محلهم، وقد كان هؤلاء الفرس على المجوسية، ثم إنه كان في حضرموت وفي العربية الشرقية أناس منهم أقاموا هناك. وقد كان وكلاء الأكاسرة على هذه الأماكن منهم، وهم على دين

---

[1] النهاية (٤/ ٨٥)، اللسان (٨/ ٩٨) (مجس)، تاج العروس (٤/ ٣٤٥) (مجس)، الملل والنحل (٢/ ٥٧)، الحيوان (١/ ١٩٠)، (٤/ ٩٥، ٤٧٩، ٤٨١)، المسعودي، مروج (١/ ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٧٣)، (بيروت)، عمدة القارئ (١٥/ ٧٨).

[2] الحج، الآية ١٧، عمدة القارئ (١٥/ ٧٨ وما بعدها)، الطبرسي، مجمع البيان (١٣/ ٨٨ وما بعدها)، تفسير أبي السعود (٤/ ٨)، تفسير الطبري (٦/ ٢٠١)، روح المعاني (٦/ ١٧٩)، تاج العروس (٤/ ٢٤٥) (مجس).

المجوسية. وقد أشير إلى وجودهم في أخبار الفتوح، حيث دفع الجزية من أبى منهم الدخول في الإسلام. والظاهر أن هؤلاء كانوا مقيمين فيها من أمد طويل بدليل ورود جملة في أخبار الفتوح تفيد ذلك، وهي: «وأسلم معهما جميع العرب وبعض العجم. فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى، فإنهم صالحوا العلاء»[١].

ويروي أهل الحديث حديثين يذكرون أن الرسول قالهما هما: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يمجسانه»، أي يعلمانه دين المجوسية. وحديث «القدرية مجوس هذه الأمة»[٢]. وفي هذين الحديثين ذكر للمجوس. ولعلماء الحديث كلام عليهما. ولا سيما على الحديث الثاني، وفيه تعريض بالقدرية، أسلاف المعتزلة.

وكلمة (مجوس) من الكلمات المعربة، عربت عن لفظة (مغوس) «Maghos»، الفارسية التي تعني (عابد النار)[٣] وهي من الألفاظ التي دخلت إلى اليونانية كذلك، حيث وردت لفظة «Magi»، فيها، وهي جمع (مجوس) «Magus» [٤]. وقد دخلت إلى لغة (بني إرم). أيضاً. ولا ندري اليوم على وجه صحيح من أي طريق دخلت لفظة (مجوسي) و(مجوس) إلى العربية، عن الفرس أنفسهم، أو عن اليونانية أو عن طريق لغة (بني إرم)[٥]!

وقد عرف علماء اللغة بأن لفظة (مجوس) من الألفاظ المعربة. وقد ذهبوا إلى أنها معربة عن الفارسية القديمة. ولكنهم اختلفوا فيما بينهم في أصل اللفظة وفي بيان معناها، وذهبوا في ذلك مذاهب[٦]، وبعض هذه التفسيرات والتأويلات مفتعل يدل على عدم وقوف أصحابها على جلية الموضوع.

---

1 البلدان (٢/ ٧٤)، «ومن أبى فعليه الجزية. فصالحهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أن على المجوس الجزية»، «وأخذ الجزية من المجوس»، الطبري (٣/ ٢٩).

2 اللسان (٦/ ٢١٣ وما بعدها)، تاج العروس (٤/ ٣٤٥)، اللسان (٨/ ٩٨)، «مجس» «طبعة بولاق».

3 غرائب اللغة (ص ٢٦٩).

4 Hastings, p. 565.

5 Shorter Ency. of Islam, p. 98, Ency., III, p. 97.

6 اللسان (٨/ ٩٨)، «طبعة بولاق»، محيط المحيط (٢/ ٢٥٠)، تاج العروس (٤/ ٣٤٥)، «مجس»، الحيوان، للجاحظ (٥/ ٦٩)، «عبد السلام هارون»، المعرب، للجواليقي (٣٢٠).

ويريد الأخباريون بالمجوسية عبادة النار. واذا صح ما ورد في شطر بيت منسوب إلى الشاعر الجاهلي (التوأم اليشكري) المعاصر لامرىء القيس، هو: (كنار مجوس تستعر استعاراً)[1]، فإن فيه دلالةً على أن هذا الشاعر هو وامرأ القيس كانا على علم بنار المجوس، وأنها كانت تستعر دائماً، وربما كانا على علم ببعض تعاليمها أيضاً.

وفي أخبار أهل الأخبار ما يفيد بتمجس بعض العرب، فورد أن «المزدكية والمجوسية في تميم»[2]. وورد أن (زرارة بن عدس) وابنه (حاجب بن زرارة)، وهما من سادات تميم كانا قد اعتنقا المجوسية، واعتنقها أيضاً (الأقرع بن حابس) و(أبو الأسود)، جدّ (وكيع بن حسان)[3]. وقيل إن أشتاتاً من العرب عبدت النار، سرى إليها ذلك من الفرس والمجوس[4].

وكان مجوس اليمن، من الفرس الذين أرسلهم كسرى لطرد الحبش من اليمن، فهم وأبناؤهم كانوا على هذا الدين، دين الامبراطورية الفارسية. ولما ظهر الإسلام، نبذ هؤلاء المجوسية واعتنقوا الإسلام[5].

وأما مجوس عُمان وبقية أنحاء العربية الجنوبية، فقد كانوا من الفرس كذلك: من تجار ومن مقيمين من بقية الفرس الذين كانوا قد استولوا على هذه الأرضين. وعند ظهور الإسلام لم يكن لهم نفوذ سياسي فقد كان سادات القبائل قد كوّنوا مشيخات فيها، واستقلت في إدارة شؤونها، غير أن المجوس بقوا فيها، وعند دخول أهلها في الإسلام، ودخول البلاد في دين الله، دفع بعض أولئك المجوس الجزية، ودخل الباقون في الإسلام. شأنهم في ذلك شأن اليهود والنصارى المقيمين في هذه الأرضين.

وأما مجوس البحرين، فقد كانوا أكثر عدداً وأكثر نفوذاً من إخوانهم في عُمان، لقرب هذه الأرضين من إمبراطورية الساسانيين، ولهجة الفرس من السواحل المقابلة ومن طريق الأبلة الساحلي. وقد عثر المنقبون على قبور عديدة

---

[1] اللسان (٦/ ٢١٣ وما بعدها)، تاج العروس (٤/ ٢٤٥)، (مجس).
[2] البدء والتأريخ (٤/ ٣١).
[3] المعارف (٢٦٦)، «الصاوي»، البدء والتأريخ (٤/ ٣١)، الأعلاق النفيسة (٢١٧).
[4] بلوغ الأرب (٢/ ٢٣٣).
[5] Ency., Vol., III, p. 99.

تعود إليهم؛ وعلى آثار لمعابدهم في العربية الشرقية. وكان على (هجر)، حين أبلغ الرسول دعوته إليها، رجل من الفرس اسمه (سيبخت مرزبان)، وقد أسلم وأسلم معه قوم من قومه، ودفع الجزية من فضّل البقاء منهم على دينه، شأنهم في ذلك شأن أهل الكتاب[1]. وذكر أن الرسول كتب إلى (مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا أخذت منهم الجزية، وبأن لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم)[2].

وكان باليمامة قوم من المجوس، عاشوا في قراها ومواضعها، اشتغلوا بالزراعة وبالتعدين. وأرض اليمامة أرض غنية، وهي (ريف) أهل مكة، وعليها اعتمادهم في الحصول على الحبوب. كما عرفت بوجود المعادن بها، فسهّل أهلها دخول المجوس إليها، للاستفادة منهم في استغلال الأرض وفي للتعدين.

هذا ولم نسمع بدخول أحد من ملوك الحيرة، أو الأمراء الذين عينهم الفرس على العرب في المجوسية مع علاقتهم بالفرس واتصالهم الوثيق بهم، ووجود الفرس في أرضهم وفي عاصمتهم، بينما نجد بعضاً منهم وقد دخل في النصرانية. ولعل ذلك بسبب عدم ميل الفرس إلى إدخال أحد من الغرباء عنهم في دينهم والى عدّهم المجوسية ديانة قومية خاصة بهم، فلا يهمهم دخول أحد من غيرهم فيها.

هذا ولا أجد صلة بين (الأسبذية) التي زُعم أنها ديانة قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين، عرفوا بـ (الأسبذيين)، وبين (بني دارم)، وكونهم كانوا على هذا الدين. فقد كان أحدهم وهو (المنذر بن ساوى) أسبذياً، ولم يكونوا كلهم. قيل إنه نسب إلى قرية بهجر يقالَ لها (الأسبذ)، وقيل إلى الأسبذيين[3]. ولا صلة لهذه الأسبذية بالمجوسية، أو إلى ديانة دخلت من فارس إلى البحرين. وقد تحدثت في مكان آخر عن وجود قوم من العرب قدسوا (الحصان). ورأيي أن المراد من (الأسبذية) الفرسان. وأن (المنذر بن ساوى) كان (أسبذاً) أي بدرجة فارس، وهي من درجة الشرف والرفعة في الجيش الساساني.

---

[1] البلاذري (٨٥ وما بعدها)، البلدان (٢/ ٧٣ وما بعدها).
[2] ابن سعد، طبقات (١/ ٢٦٣)، (صادر).
[3] فتوح البلدان (٩٨)، (٨٩)، (طبعة المكتبة التجارية)، محاضرات للدكتور صالح أحمد العلي (١٧١).

ويذكر علماء اللغة في معرض كلامهم على معنى لفظة (الزمزمة) أن من عادة المجوس الزمزمة عند الابتداء بالأكل، أي قراءة شيء من كتبهم الدينية قراءة خافتة على المأكول تقديساً وشكراً له. وقد نهى الخليفة عمر عن الزمزمة، لأنها من علائم المجوس[١].

وقد عرف عالم المجوس ورئيسهم الروحي عند العرب بـ (الموبذ) و(الموبذان)، وعرف كبيرهم بـ (موبذان موبذ)؛ وجعل بعض العلماء (الموبذان) بمنزلة قاضي القضاة للمسلمين، والموبذ بمنزلة القاضي[٢]. وتعني (موبذان موبذ) الموبذ الأعظم. وقد اكتفي أحياناً بلفظة (موبذان) للتعبير عن (موبذان موبذ). وقد فسر المسعودي لفظة (الموبذ) بمعنى حافظ الدين. ورجع أصلها إلى (مو) بمعنى (دين) في رأيه، و(بذ) يمعنى (حافظ)[٣]. ورأى (اليعقوبي) أن (الموبذان) بمعنى عالم العلماء[٤]. والموبذ هي من الألفاظ المعربة عن الفهلوية، فهي من أصل فهلوي هو Magupat، بمعنى عظيم المجوس، ويتمتع هذا الرئيس الديني الأعظم بسلطات دينية واسعة[٥]. وقد أطلق السريان على الموبذ جملة (ريش مكوشي) (Resh Magushi) و(Resh dam'gushi) , أيْ (رئيس المجوس)[٦].

وترد في العربية لفظة أخرى، لها صلة بالمجوسية، هي (الهربذ)، و(الهرابذة). ذكر علماء اللغة أن «الهرابذية: المجوس، وهم قومة بيت النار التي للهند... وقيل عظماء الهند أو علماؤهم». وذكروا أن «الهربذي مشية فيها اختيال، كمشي الهرابذة، وهم حكام المجوس. قال امرؤ القيس:

مشى الهربذي في دفه ثم فرفرا»[٧]

---

[1] اللسان (١٥/ ١٦٥)، تاج العروس (٨/ ١٦٥)، تاج العروس (٨/ ١٦٥)، تاج العروس (٨/ ٣٢٨).
[2] اللسان (٣/ ٥١١)، (موبن)، النهاية في غريب الحديث (٤/ ١١٩)، تاج العروس (٢/ ٥١٣).
[3] مروج الذهب (١/ ٢٦٨)، (ذكر ملوك الساسانية).
[4] تأريخ اليعقوبي (١/ ٢٠٧)، .Ency., III, p. 543
[5] Ency., III, p. 543.
[6] اللسان (٣/ ٥١٧ وما بعدها)، (هربن).
[7] Ency., III, p. 543.

واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية. من أصل (هور) و(بت)، بمعنى رئيس خدام النار. والموكل على خدمة النار في المعبد[1].

وقد ذكر (الألوسي)، أن صنفاً من العرب عبد النار، وقال عنهم: «وهم أشتات من العرب، وكأن ذلك سرى إليهم من الفرس والمجوس»[2]. ولم يذكر أسماء هؤلاء الأشتات. ولم يتحدث عن طريقة تعبدهم للنار. ولكننا نستطيع أن نجد في (نار الاستمطار) وفي (نار التحالف) وفي النيران الأخرى التي يذكر أسماءها أهل الأخبار دلالة على وجود فكرة تقديس بعض العرب للنار. وقد خبب الإسلام هذه النيران.

فقد ذكر أهل الأخبار أن العرب كانت في الجاهلية الأولى، اذا احتبس عنهم المطر، ويئسوا من نزوله، يجمعون البقر ويعقدون في أذنابها وعراقيبها السلعَ والعشرَ ويصعدون بها في الجبل الوعر، ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر، قال الشاعر (الورل) الطائي:

أجــاعلٌ أنتَ بيقوراً مسلّعة   وسيلة منك بين الله والمطر[3]

وقد أشير إلى هذه النار في شعر ينسب الى أمية بن أبى الصلت[4]. ويسمونها بنار الاستسقاء وبنار الاستمطار[5].

وذكروا ناراً أخرى قالوا لها: (نار التحالف) و(نار المهول). وقالوا إن العرب كانوا لا يعقدون حلفاً إلاّ عليها، وكانوا اذا اختصموا في شيء، واتفقوا على اليمين، حلفوا على النار. ولهذا قيل لها (نار التحالف). وطريقتهم في ذلك أن المتحالفين أو المتخاصمين يحفرون أمام نار يوقدونها، ثم يلقون عليها

---

1 غرائب اللغة (٢٤٨).

2 بلوغ الأرب (٢/ ٢٣٣).

3 (الوديل الطائي)، صبح الأعشى (١/ ٤٠٩)، بلوغ الأرب (٢/ ١٦٤)، خزانة الأدب (٣/ ٢١٢)، الحيوان (٤/ ٤٦٨).

لا در در رجال خاب سعيهم   يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجــاعل أنت بيقــورا مسلمة   ذريعة لــك بيــن الله والمطــر

اللسان (٤/ ٧٣)، (بقر).

4 نهاية الأرب، للنويري (١/ ١٠٩ وما بعدها)، الحيوان (٤/ ٤٦٦ وما بعدها).

5 نزهة الجليس (٢/ ٤٠٦).

ملحاً وكبريتاً. وعندئذ يذكرون منافع هذه النار ويدعون بالحرمان من خيرها على من ينقض العهد ومحل العقد. وفي حالة الحلف واليمن يقول صاحب النار للحالف: «هذه النار قد تهددتك»، فإن كان مبطلاً نكل، وإن بريئاً حلف، ولذلك قيل لها «نار المهول»[1]. وذكروا أيضاً أن هذه النار كانت معروفة في اليمن، مستعرة دائماً، ولها سادة سدنة وقيّمون يطرحون الملح والكبريت في النار، أما السدنة فيقومون بأخذ اليمين. وكان سادنها إذا أتى برجل ليحلف، هيبوه من الحلف بها، وخوّفوه من الكذب. وقد عُرفت هذه النار بـ (نار التحاليف) كذلك. وقد أشار إليها الكميت بقوله:

همُ خوّفوني بالعمى هوّة الردى كما شب نار الحالفين المهوّل

كما أشار إليها شاعر آخر هو أوس، إذ قال:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صدّ عن نار المهوّل حالف[2]

وذكر (الجاحظ) أن العرب «يقولون في الحلف: الدّم، الدّم، والهدم الهدم، لا يزيده طلوع الشمس إلاّ شداً، وطول الليالي إلاّ مداً، ما بل البحر صوفة، ومما أقام رضوى في مكانه، إن كان جبلهم رضوى.

«وكل قوم يذكرون جبلهم، والمشهور من جبالهم. وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم»[3].

بل زعم بعض أهل الأخبار أن حمير كانت تحتكم إلى نار كانت باليمن تحكم بينهم فيما كانوا يختلفون به. تأكل الظالم ولا تضر المظلوم. فلما اعتنق التبع (تبان أسعد)، ديانة يهود، وطلب من قومه الدخول فيها، أبوا عليه ذلك، وطلبوا منه الاحتكام إلى تلك النار في قصة يذكرونها في سبب تهود بعض حمير[4].

وللعرب نار السعالى والجن والغيلان[5]. ذكروا أن الغيلان توقد بالليل النيران

---

[1] اللسان (٥/ ٢٤٣)، (نور)، نزهة الجليس (٢/ ٤٠٦).
[2] اللسان (٧/ ١٠٢)، صبح الأعشى (١/ ٤٠٩)، خزانة الأدب (٣/ ٢١٢)، (خوفونا)، نهاية الأرب (١/١٠٩ وما بعدها)، بلوغ الأرب (٢/ ١٦١ وما بعدها)، الحيوان (٤/ ٤٧٠).
[3] الحيوان (٤/٤٧٠ وما بعدها).
[4] سيرة ابن هشام (١/ ٢٧).
[5] الحيوان (٤/ ٤٨١).

للعبث والتخييل واضلال السابلة. وأنها ترفع للمثقفر فيتبعها فتهوى به الغول. وأورد أهل الأخبار شعراً في ذلك منه شعر لـ(عبيد بن أيوب)، المعروف بـ (أبي مطراب)، وكان يزعم أنه يؤاكل الظباء والوحش ويرافق الغول والسعلاة، ويبايت الذئاب والأفاعي[1].

وذكر أهل الأخبار قصة عن (خالد بن سنان العبسي) النبي العربي الذي منحه بعضهم في الإسلام جملة (عليه السلام) باعتبار أنه من أنبياء الله، قد يكون لها صلة بعقيدة عبادة النار عند العرب. إذ ذكروا ان ناراً ظهرت «بالبادية بين مكة والمدينة في الفترة، فسمّتها العرب بداً، وكادت طائفة منهم أن تعبدها مضاهاة للمجوس. فقام خالد هذا، فأخذ عصاه، واقتحم النار يضربها بعصاه، حتى أطفأها الله تعالى، ثم قال: إني ميت، فإذا أنا مت، وحال الحول، فارصدوا قبري. فإذا رأيتم حماراً عند قبري، فارموه واقتلوه، وانبشوا قبري، فإني محدثكم بكل ما هو كائن. فمات. فلما حال الحول، رأوا الحمار فقتلوه، وأرادوا نبشه، فمنعهم أولاده، وقالوا: لا نسمى بني المنبوش»[2]. وقد عرفت تلك النار بـ (نار الحرتيْن)[3]. وذكر أنها كانت ببلاد عبس، فإذا كان الليل تضيء نار تسطع وفي النهار دخان مرتفع. وربما بدر منها عنق فأحرق من مرّ بها. فحضر خالد بن سنان. النبي، فدفنها، فكانت معجزة له[4]. ويظهر ان حرة، كانت في تلك المنطقة، ثم خمدت فنسب الناس خمودها إلى (خالد بن سنان).

وللجاهليين استعمالات أخرى للنار، فكانوا إذا خافوا شرّ رجل، وتحوّل عنهم أوقدوا خلفه ناراً، ليتحول شرهم معه[5]. ويقولون: «أبعده الله واسحقه وأوقد ناراً في أثره»، يقولون ذلك لكراهيتهم له، ويتمنوّن الموت له.

وتعرف هذه النار بـ (نار الطرد)[6]. وذكر أن العرب تدعو على العدو فتقول:

---

[1] الحيوان (٤/ ٤٨١ وما بعدها)، معجم الشعراء (١٨٢)، مروج الذهب (١/ ٣٢٨)، الحيوان (٥/ ١٢٣)، صبح الأعشى (١/ ٤١٠).
[2] محاضرات الأبرار (١/ ٧٧)، نهاية الأرب (١/ ١٠٩ وما بعدها)، نزهة الجليس (٤٠٦/٢).
[3] الحيوان (٤/ ٤٧٦ وما بعدها).
[4] صبح الأعشى (١/ ٤٠٩ وما بعدها).
[5] اللسان (٧/ ١٠٢)، نهاية الأرب (١/ ١٠٩ وما بعدها).
[6] خزانة الأدب (٣/ ٢١٢)، الحيوان (٤/ ٤٧٤)، صبح الأعشى (١/ ٤٠٩).

أبعد الله داره وأوقد ناراً أثره[1].

ولا بد أن يكون للنار الموقدة على المزدلفة صلة ما بعقائد الجاهليين القديمة في النار. وينسب الأخباريون هذه النار إلى (قُصي بن كلاب)، يقولون إنه أوقدها على المزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة في أيام الحج. وقد بقي الناس يوقدونها إلى الإسلام[2].

ومن نيران العرب، نار الغدر، وتوقد بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين، جبليْ مكة: أبي قبيس وقُعَيْقعان، أو أبو قبيس والأحمر. فإذا استعرت، صاح موقدها: هذه غدرة فلان، ليحذره الناس، وليعلموا أن فلاناً قد غدر بجاره[3].

وأما (نار السلامة)، فهي التي توقد للقادم من سفر سالماً غانماً، وقد عرفت لذلك بـ (نار المسافر) أيضاً[4]. و(نار السليم)، هي النار التي توقد للملدوغ وللمجروح ولمن ضرب بالسياط ولمن عضه الكلب الكَلِبُ، ويقولون إنها إنما توقد لكي لا يناموا، فيشتد بهم الأمر ويؤدي إلى الهلاك[5].

وأما (نار الحرب)، فهي النار التي كانوا اذا أرادوا حرباً، وتوقعوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم ناراً، ليبلغ الخبر أصحابهم. واذا جدوا في جمع عشائرهم إليهم أوقدوا نارين[6].

ونار الصيد، هي نار توقد للظباء وللحيوانات الأخرى، فتغشاها اذا نظرت إليها.[7]

---

[1] قال الشاعر:
وجمة أقــوام حملت، ولم أكــن كموقــد نــار أثرهم للتــندم
اللسان (٥/ ٢٤٣)، (نور).
[2] صبح الأعشى (١/ ٤٠٩)، نهاية الأرب (١/ ١٠٩ وما بعدها)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (٤٦٢)، الكامل، لابن الأثير (٢/ ١٧)، نزهة الجليس (٢/ ٤٠٦).
[3] بلوغ الأرب (٢/ ١٦٢)، نهاية الأرب (١/ ١٠٩ وما بعدها)، نزهة الجليس ٠٢/ ٤٠٦).
[4] الحيوان (٤/ ٤٧٣)، نزهة الجليس (٢/ ٤٠٦).
[5] بلوغ الأرب (٢/ ١٦١ وما بعدها)، صبح الأعشى (١/ ٤١٠).
[6] الحيوان (٤/ ٤٧٤ وما بعدها)، (٥/ ١٣٣)، صبح الأعشى (١/ ٤٠٩)، نزهة الجليس (٢/ ٤٠٦).
[7] صبح الأعشى (١/ ٤١٠)، نزهة الجليس (٢/ ٤٠٦).

ونار الأسد، وهي نار توقد إذا خافوا الأسد، لينفر عنهم، فإن من شأنه النفار عن النار، يقال إنه اذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده، ويشغله عن السابلة. ويقولون إن الضفدع اذا رأى النار تحير وترك النقيق[1].

ونار الفداء، وكان الملوك منهم، إذا أسروا نساء قبيلة، خرجت إليهم السادة منهم للفداء أو الاستيهاب، فيكرهون أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن أو في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصفي، فيوقدون النار لعرضهن[2].

ونار القرى، هي من أعظم مفاخر العرب، وهي النار التي ترفع للسفر، ولمن يلتمس القرى، فكلما كان موضعها أرفع كان أفخر. وهي نار مذكورة على الحقيقة لا على المثل[3]. وعُرفت عندهم بـ (نار الضيافة) وبـ (نار الأضياف) أيضاً. وقد ذكر أهل الأخبار أنهم ربما يوقدونها بـ (المندلى)، ليهتدي إليها العميان. فالمندلى خشب ذو رائحة طيبة، تفوح منه اذا أحرق، فتشم من مسافة بعيدة[4]. وذكر أنهم كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء، خاصة لحاجة الناس إلى القرى في ذلك الوقت. وكلما كانت النار مرتفعة ضخمة، كانت أفخر لصاحبها. وقد أشير إليها في الشعر[5].

ويطلق العرب على كل نار تراها العين لا حقيقة لها عند التماسها، نار الحباحب، ونار أبي الحباحب. وقد ذكر (الجاحظ) أنه لم يسمع في أبي حباحب شيئاً[6]. ولهم قصص عن شخص زعموا أنه كان يعرف بـ (أبي حباحب)، وكان رجلاً في سالف الدهر بخيلاً لا توقد له نار بليل، مخافة أن يقتبس منها نار، أو يراها الضيفان فيفدون إليه، فإن أوقدها ثم أبصرها مستضيئ أطفأها، فضربت العرب به المثل في البخل، فقالت: «أخلف من نار أبي حباحب». وذكر

---

1 صبح الأعشى (١/ ٤١٠)، بلوغ الأرب (٢/ ١٦١ وما بعدها)، خزانة الأدب (٣/ ٢١٢)، نزهة الجليس (٢/ ٤٠٦).

2 صبح الأعشى (١/ ٤١٠)، بلوغ الأرب (١/ ١٦١ وما بعدها)، خزانة الأدب (٣/ ٢١٢)، نزجة الجليس (٢/ ٤٠٦).

3 الحيوان (٥/ ١٣٤)، خزانة الأدب (٣/ ٢١٢)، نزهة الجليس (٢/ ٤٠٦).

4 بلوغ الأرب (٢/ ١٦١ وما بعدها)، نهاية الأرب (١/ ١٠٩ وما بعدها).

5 بلوغ الأرب (٢/ ١٦١)، صبح الأعشى (١/ ٤١٠).

6 الحيوان (٤/ ٤٨٦ وما بعدها)، المخصص (١/ ٢٨)، بلوغ الأرب (٢/ ١٦١ وما بعدها).

أن (أبا الحباحب) رجل كان لا ينتفع بماله لبخله فنسبوا إليه كل نار لا ينتفع بها[١].

ومن النيران الأخرى: نار البرق، ونار اليراعة، ونار الخلعاء والهراب، ونار الوسم، وهي النار يسم بها الرجل منهم أبله. فيقال له: ما سمة إبلك؟ فيقول كذا[٢].

وقد ذكر علماء اللغة أن العرب استعملوا النار في معنيين: معنى حقيقي، ومعنى مجازي. وقصدوا بالنيران الحقيقة، النيران التي كان يوقدها العرب حقاً، وحصروها في أربعة عشر ناراً أو أكثر من ذلك، أو أقل[٣]. وقصدوا بالنيران المجازية، استعمال الكلمة في معان مجازية، مثل قولهم نار الحب ونار المعدة، ونار الحُمى، ونار الشوق[٤].

الصابئة:

ونجد في القرآن الكريم اشارة إلى الصابئين، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى في موضع من سورة البقرة[٥]، وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى في موضع من سورة المائدة وفي سورة الحج[٦]. ويظهر أن معارف أهل الأخبار عنهم نزرة، فليس لديهم شيء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم.

وقد ربط أهل الأخبار بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القرآن وبين صابئة حرّان وصابئة العراق، وجعلوهم طائفتين في الأصل: طائفة هم صابئة حنفاء

[1] بلوغ الأرب (٢/ ١٦١ وما بعدها).
[2] الحيوان (٤/ ٤٨٦ وما بعدها)، صبح الأعشى (١/ ٤١٠)، نهاية الأرب (١/ ١٠٩ وما بعدها).
[3] بلوغ الأرب (٢/ ١٦١ وما بعدها)، خزانة الأدب، للبغدادي (٣/ ٢١٢)، (بولاق)، نهاية الأرب (١/ ١٠٩ وما بعدها)، الحيوان (٥/ ١٠٧ وما بعدها)، نزهة الجليس).
[4] نهاية الأرب (١/ ١٠٩ وما بعدها).
[5] البقرة، الآية ٦٢.
[6] المائدة، الآية ٦٩، الحج، الآية ١٧، تفسير الطبري (٢/ ١٤٤)، «دار المعارف»، مجمع البيان، للطبرسي (١/ ٢٧٨)، الملل والنحل، للشهرستاني (٢/ ٩٨)، نخة الدهر في عجائب البر والبحر، للدمشقي (١/ ٤٤)، «بطرسبورغ»، ابن خلدون (٢/ ٣٢)، «دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩م»، المسعودي، مروج (٢/ ٢٤٧)، الفهرست (٣٣٢)، رسوم دار الخلافة.

وهم في نظرهم أصحاب إبراهيم ممن كان بحرّان وممن كان على دعوته، وصابئة مشركون وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب[١].

ولكن الذي يفهم من القرآن الكريم أن الصابئة جماعة كانت على دين خاص، وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى، أي إن الكلمة مصطلح ولها مدلول معين مفهوم. فما ذهب إليه المفسرون من هذا التعريف للصابئة ومن هذا التقسيم، انما تكوّن عندهم في الإسلام، بعد وقوفهم على أحوال الصابئة واتصالهم بهم. ويفهم من المواضع التي ورد فيها ذكرهم في القرآن الكريم، ومن ورود اسمهم مع اليهود والنصارى فيه، أنهم كانوا يعبدون إلهاً، ويتوجهون في دينهم إليه[٢].

ولا استبعد أن يكون من بين سكان مكة أناس كانوا من الصابئة، جاءوا إليها تجاراً من العراق، أو جاء بهم الحظ إليها، حيث أوقعهم في سوق النخاسة، فاشتراهم تجار مكَة وجاءوا معهم إلى مدينتهم، وعرفوا منهم أنهم صابئة.

ونحن إذا ما تتبعنا ما ورَد عن لفظة صبأ وصابئ في الموارد الإسلامية نرى أن هذه الموارد تفسر لفظة صبأ بمعنى خرج من شيء إلى شيء، وخرج من دين إلى دين غيره. وتذكر أن قريشاً كانت تسمي النبي صابئاً، والصحابة الصباة[٣]. أي الخارجين على دين قومهم. وهي تستعمل لفظة الصابئة في كثير من الأحوال في معنى حنفاء، كالذي نراه في ربطهم إبراهيم بهاتين الديانتين، وعدّهم قدماء الصابئة في جملة الحنفاء، فإن هذا يدل على أن المراد من الصابئة بين العرب عند ظهور الإسلام هم المنشقون الخارجون على ديانة قومهم، أي على عبادة الأوثان والمنادين بالتوحيد. وأما ما نراه من إطلاق الصابئة على الصابئة المعروفين في الإسلام، فإنما حدث في الإسلام.

واطلاق قريش لفظة الصابئ والصباة على المسلمين بدلاً من تسميتهم بمسلمين قضية مهمة جداً، يجب الاهتمام بها، وفي الأخبار أمثلة كثيرة على ذلك. فقد

---

[1] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون (١/ ٨٨٧)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٢٣ وما بعدها).

[2] Dictionary of Islam, p. 551.

[3] النهاية (٢/ ٣٦٩)، اللسان (١/ ١٠٢)، «وكانت العرب تسمى النبي صلى الله عليه وسلم الصابئ، لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ويسمون من يدخل في دين الإسلام مصبوا.. ويسمون المسلمين الصباة»، تاج العروس (١/ ٣٠٦)، «طبعة الكويت»، القاموس المحيط (١/ ٢٠).

ذكرت كتب الحديث والسير واللغة أن قريشاً دعت النبي صابئاً، وفي جملة من دعاه بذلك عمر قبل اسلامه، ثم رمي عُمر بها بعد إسلامه أيضاً. ولما أسلم أبو ذر الغفاري، انهال عليه أهل مكة بالضرب، لأنه صبأ وفتن وخرج عن دينهم. ولما أرادت زوج مطعم بن عديّ خطبة ابنة أبي بكر إلى ابنها، ذكرت له أنها تخشى أن يؤثر على ولدها، فيكون من الصباة. وقد كانت لفظة الصباة والصُبّاء بمعنى مسلمين عند المشركين، ففي معركة حنين نجد (دريد بن الصمّة) يخاطب أحد رؤوس القوم ويقول له في جملة ما قاله: «ثم ألق الصُبّاء على متون الخيل»[1]. ولما أرسل بنو عامر لبيداً إلى النبي ليرى خبره وعلمه، أسلم، وأصابه وجع هناك شديد من حمّى، فرجع إلى قومه بسبب تلك الحمّى، وجاءهم بذكر البعث والجنّة والنار، فقال صرافة بن عوف بن الأحوص:

لَعمَرُ لبيد إنه لابن أمه	ولكن أبوه مسه قدم العهد
دفعناك في أرض الحجاز كأنما	دفعناك فحلاً فوقه قرع اللبد
فعالجت حماه وداء ضلوعه	وترنيق عيش مسه طرف الجهد
وجئت بدين الصابئين تشوبه	بألواح نجد بعد عهدك من عهد
وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً	وثم إياب القارضين وذي البرد

فكان عمر يقول: «وايم الله إياب القارضين وذي البرد»[2]. فقصد الشاعر بجملة «دين الصابئين» الإسلام، فالصابئون في نظر المشركين هم المسلمون.

ولما ذهب سعد بن معاذ إلى مكة، أنبه أبو جهل على قدومه إليها بعد أن دخل في دين الصابئين. ولما قدم خالد بن الوليد على بني جذيمة، نادوه بأنهم صبأوا، أي دخلوا في الإسلام[3]. ويلاحظ أن الوثنيين أطلقوا هذه التسمية على كل من أسلم، وعلى كل من شكّوا فيه ورأوا أنه ميال إليهم، فكانوا يرمونه بهذه التهمة. أما المسلمون، فلم يرتاحوا إليها. والظاهر أنها كانت سبّة بالنسبة إليهم في ذلك العهد، بدليل أنهم كانوا يكذبون من كان يطلقها من المشركين عليهم ويردّ عليهم رداً شديداً، فلما نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش:

---

[1] الطبري (١/ ١٢٦)، «معركة حنين».

[2] الأغاني (١٣١/١٥ وما بعدها)، «خبر لبيد في مرثية أخيه».

[3] لقد جمع «ولهوزن» أكثر المواضع التي أطلق الوثنيون فيها هذه اللفظة على المسلمين، راجع كتابه: Reste, S. 236.

ألا، إن ابن الخطاب قد صبأ، وذلك حين دخل في الإسلام، وشهد بذلك أمام النبي، نادى عمر من خلفه: كذب، ولكني أسلمت، وقالت قريش: صبأ عمر[١]. ولا بد أن يكون لتكذيب عمر وغيره الوثنيين لتسميتهم المسلمين بهذه التسمية من سبب. وهو سبب يشعر أن أهل مكة انما أطلقوها عليهم إهانة لهم وازدراء لشأنهم وعلى سبيل السبّة، لأنها كانت سبّة عندهم وذلك قبل الإسلام. وإلاّ لما انزعج المسلمون منها، وردّوا على قريش بسببها رداً قبيحاً. وقد رأيت أن المسلمين كانوا يفتخرون باطلاق الحنيفية عليهم، وأنهم كانوا يرون أن الحنفاء هم سلف المسلمين، وأن إبراهيم كَان حنيفاً وكان أول المسلمين.

فالصابئون إذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفون لهم في ديانتهم شأنهم في ذلك في نظر قريش شأن من يسميهم المسلمون في أيامنا بالملحدين أو الهدامين، أو أي مصطلح آخر يراد به الرمي بالخروج على مثل المجتمع القائم وتقاليده، وذلك ازدراء بهم، وتنفيراً للناس عنهم.

---

[1] ابن الأثير (٢/ ٣٤ وما بعدها)، «ذكر إسلام عمر بن الخطاب».

الفصل الرابع والثمانون

تسخير عالم الأرواح

للعالم الخفي، وأقصد به عالم الأرواح وكل ما لا تراه العين ويدركه الحس من قوى طيبة أو خبيثة، أثر خطير في عقائد أهل الجاهلية، وفي عقائد الشعوب القديمة، وفي أنفس كثير من الناس حتى اليوم، إذ يشغل ذلك العالم في الواقع جزءاً خطيراً من الدين ومن حياة الناس عامة. فهناك صلوات وشعائر وأدعية مكتوبة وغير مكتوبة تتلى وتقال وتقرأ للسيطرة على ذلك العالم، وللانتفاع منه، ولتسخيره في سبيل خير الإنسان ومصلحته، ولتجنب أذى النوع الخبيث منه. واذا تتبعنا هذه الاعتقادات، عند الجاهليين، وجدنا أنها قد كونت الجزء الأكبر من عقيدتهم وديانتهم، وأنها والذبائح من الأصول التي ارتكزت عليها ديانات العرب قبل الإسلام.

والواقع أن الاعتقاد بالأرواح يشغل جزّءاً كبيراً من فناء الدين عند الجاهليين، وإن بدا لنا أنه شيء لا علاقة له بالدين. فنحن حين البحث في موضوع العقيدة والدين عند أهل الجاهلية، لا نتحدث بالطبع عن العقيدة والدين بالنسبة إلى معتقداتنا وبالنسبة الى تفكير الإنسان في القرن العشرين، وإنما نتحدث عن رأي أناس عاشوا قبل الإسلام، وعن جماعة أدركت الإسلام، كانت الأرواح في نظرها أكثر أثراً في حياة الفرد من أثر الآلهة فيه. فتقرب وتوسل إليها أكثر من تقربه وتوسله إلى آلهته التي كان يرى أن بيدها مفتاح سعادته وشقائه. وآية ذلك كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بها، وما ورد في القرآن الكريم وفي

الحديث النبوي والأخبار من أثر الجن في نفوس القوم، حتى تصوروهم آلهة وشركاء للأرباب في إدارة دفة هذا الكون.

هذا، ونحن إن ذكرنا الأرواح، فإننا لا نقصد المعنى المفهوم منها في رأينا، بل نقصد هذا المعنى وشيئاً آخر أعم وأوسع منه، معنى يشمل أيضاً بعض الأحجار والأشجار والآبار والكهوف وأمثال ذلك من أشياء تصور أهل الجاهلية أنها تكمن فيها قوة خارقة تستطيع التأثير في حياة الناس، فتقربوا إليها بالزيارات والقرابين وبالتضرع والتوسل والأدعية لقدسيتها ولتلك القدرة العجيبة التي فيها، فهي من حيث النفع أو الضرر كالأرواح: لوجود قوى خارقة غير منظورة فيها، هي من الأرواح، فتقرب إليها الإنسان لذلك، لغرض الاستفادة منها أو دفع أذاها.

وطبيعة الأرواح، طبيعة غير مرئية ولا منظورة، هي لطيفة خفيفة مستورة. إنما يجوز لبعضها الظهور في صورة أشباح، والتجسم على هيأة الأجساد. ثم إنها على طبيعتين: شريرة وخيرة، خبيثة وصالحة. من الطبيعة الأولى الشياطين وبعض أنواع الجن، ومن الطبيعة الثانية الملائكة والشطر الثاني من الجن. وأثر الخبيث من الأرواح أوضح وأكثر في عقلية أهل الجاهلية من أثر الفريق الصالح. وهو شيء منطقي مفهوم، فالإنسان إلى الشر أقرب منه إلى الخير، ذلك أن من طبع الخير عدم إلحاق الأذى بالغير، فلا يخشى منه. أما الشرير، ففي طبعه إلحاق الضرر والأذى بكل واحد، وفي كل لحظة يراها، لذلك التفتت إليه الأنظار حذراً منه، وخشية من مكره، وتقرّبت وتوددت إليه، لا حباً، ولا تقرباً إليه لأنه جدير به، بل إنما تملّقاً وتزلفاً لإبعاد شره، وأمن جانبه على نمط ما يفعله الناس تجاه الأقوياء من الأشرار حيث يتقربون إليهم أو يبتعدون عنهم طمعاً ورهبة تمشية لأمور معاشهم، لا حباً لهم وإخلاصاً لاستحقاقهم ذلك الحب والإخلاص.

وقد ذكر (الجاحظ) أن الأعراب تجعل الخوافي والمستجنّات جنسيْن. يقولون جن وحن[1]. وقصد بـ (الخوافي) الأرواح، لأنها لا ترى. وذكر غيره أن (الحن)، حي من الجن، كانوا قبل آدم، يقال منهم الكلاب السود البهم، يُقال كلب حني أو سفلة الجن وضعفاؤهم أو كلابهم، «ومنه حديث

[1] الحيوان (٦/ ١٩٣).

ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، الكلاب من الحن، وهي ضعيفة الجن، فإن كان عندكم طعام فالقوا لهن، فإن لهن أنفساً، أي تصيب بأعينها»[١]. وذكر ان (الحن) خلق بين الجن والانس[٢].

وذكر (الجاحظ) أيضاً أن بعض الناس يضم الجنّ على قسميْن، فيقول: هم جنّ و(حن). ويجعل (الجن) أضعفها[٣]. وقد ذهب بعض أهل الأخبار إلى أن (الحن)، هم كلاب الجن وسفلتهم، وشر أنواع الجن[٤]. ويجعلون الجن فوق الحن[٥].

ويقال للجنّ الجان، و(الجنة) كذلك. و(الجان) اسم جمع للجن على رأي بعض علماء اللغة[٦]. وقد ورد في مقابل (الإنس) في القرآن الكريم، ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾[٧]، وصيره اسم أبي الجن بعض العلماء، أي في مقابل أدم أبي البشر[٨]. وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن كلمة (الجن) من الكلمات المعربة، وذهب بعض آخر الى أنها عربية[٩]. وأرى أنها من الكلمات السامية القديمة، لأن الايمان بالجن من العقائد القديمة المعروفة عند قدماء الساميين وعند غير الساميين كذلك. والجن قوم مستترون، وكلمة (جنون) من هذا الأصل، ومن معاني أصل الكلمة الاستتار.

ولم يتوصل الباحثون حتى الآن إلى رأي ثابت في أصل كلمة (الجن). فمنهم من رأى أنهم اسم صنم من أصنام العرب القديمة، ومنهم من رأى أنها من أصل

---

1 تاج العروس (٩/ ١٨٥)، (حنن).
2 المصدر نفسه.
3 الحيوان (٧/ ١٧٧)، (هارون)، (٦/ ١٩٣).
4 بلوغ الأرب (٢/ ٣٥١).
5 قال أعشى سليم:
فمـــا أنا من جن إذا كنت خائفـــاً ولست من النسناس في عنصر البشر
وقال آخر:
أبيت أهـــوى في شـــياطن ترن مختـــلف نجواهـــم حـــن وجـــن
6 تاج العروس (٩/ ١٦٥)، (جن)، روح المعاني (١٤/ ٣٤ وما بعدها).
7 الرحمن، الآية ٧٤.
8 تاج العروس (٩/ ١٦٥)، (جن)، (والجان: أبو الجن.. كما أن آدم أبو البشر)، اللسان (١٣/ ٩٥ وما بعدها)، (جنن)، Reste, S. 148.
9 Ency., I, p. 1045, Smith, p. 121, Lane, Lexicon, p. 492.

أعجمي، ومنهم من وجد لها صلة بالحبشية[1]. أما علماء العربية، فرأوا أن معنى الكلمة الأصلي هو الاستتار، وأنها من الاجتنان، ولعدم إمكان رؤية ذلك أطلقت عليه كلمة (الجن)[2]. وتقابل لفظة (الجن) و(جن)، لفظة (Demons) في الإنكليزية.

ويرى (نولدكه) أن فكرة (الجن) فكرة استوردها العرب من الخارج، بدليل قولهم إن الجنة من عمل الجن، ومن تلبس الجن بالإنسان، وهي نظره عقيدة قديمة دخلت العرب من جيرانهم الشماليين، فقد كان الإيرانيون يطلقون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana)، أي الذي به (ديو) (dev) من الأصل (ديوه) (Daiva)، ومعناها (Demon)، أي جان. ومن هذه الفكرة دخلت العهد الجديد من الكتاب المقدس. ويأتي (نولدكه) بدليل آخر على إثبات نظريته في أن فكرة الجن فكرة مستوردة من الخارج شيوع قصص بناء جنّ سليمان مدينة (تدمر) بين الجاهليين، وهو قصص ورد من قصة بناء (سليمان) لـ(تامار) في العهد القديم، وتفسير (تامار) بتدمر عند المفسرين العبرانيين[3].

ورأى (روبرتسن سمث) وجوه شبه كبير بين فكرة العرب عن الجن وبين فكرة بعض القبائل البدائية عن الحيوانات. إن رأي الجاهليين في الجن في رأيه يشبه رأي المتوحشين الطوطميين في الحيوانات الوحشية. وفي القصص الذي يرويه البدائيون عن الحيوانات الوحشية وعن أرواحها وإمكان إحداثها الأمراض والأذى بالإنسان شبّه بهذا القصص المروي عن الحيوانات الوحشية، مما جعله يتصوّر أن فكرة الجن عند الجاهليين هي تطور لهذه النظرية القديمة التي تكون عند الطوطميين انتقلت إليهم من عقيدة سابقة تطورت من عهد عبادة الطوطم. وأن الجن (طوطمية) دون أن يكون لها قوم يشعرون بوجود صلة نسب وقربى بها[4].

ولكن من الصعب تصور ظهور فكرة الجن عند عرب الجاهلية برمتها من

---

[1] Ency. Religi., I, p. 669, Nöldeke, Moallakat, I, 69, 78, Shorter, Ency., p. 91, Ency., I, p. 1045.

[2] تاج العروس (٩/ ١٦٥)، (جن)، اللسان (١٣/ ٩٥ وما بعدها)، (جنن).

[3] Ency. Religi., I, p. 670.

[4] Robertson Smith, Marriage, p. 128.

الطوطمية. لأن هناك أموراً عديدة لا يمكن تفسيرها على وفق هذه النظرية. ولكننا نستطيع أن نقول إنها نوع من أنواع الـ (Animism)[1]. وقد وجدت عن العبرانيين في عهودهم القديمة، كما كانت عند البابليين وغيره.

وإذا سكن الجن مع الناس، قالوا: عامر، والجمع عمّار، وإنْ كان ممن يعرض للصبيان، فهم أرواح، فإن خبث أحدهم وتعرّم، فهو شيطان. فإن زاد على ذلك، فهو مارد. فإن زاد على ذلك في القوة، فهو عفريت. فإن طهر الجنى ونظف ونقي وصار خيراً كله فهو ملك وهم في الجملة جن وخوافي[2].

لقد لعب الإيمان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة في مخيلتهم، فنسبوا إليها أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب، وتقربوا إليها لاسترضائها أكثر من تقربهم إلى الآلهة. إنها عناصر مخيفة راعبة. تؤذي من يؤذيها ويلحق بها الأذى والأمراض، وذلك كان استرضاؤها لازماً لأمن تلك الآفات. وهذه العقيدة جعلت الجن في الواقع آلهة، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها، وصيّرت عمل الآلهة سهلاً يسيراً تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن. ولا زال أثر هذه العقيدة باقياً في نفوس الناس حتى الأيام، مع تقليل أهمية عمل الجن على الإنسان في الإسلام.

وليست هذه العقيدة عقيدة أهل الجاهلية حسب، بل هي عقيدة أكثر من اعتقد بأثر الأرواح في العالم وفي عمل الإنسان، إذ صيرتها آلهة مقرّها الأرض، أو آلهة من الدرجة الثانية. والغريب أننا نرى بعض الشعوب تخصص أعمال الآلهة الكبيرة بناحية معينة، وتعتبرها آلهة رئيسية كبرى، بينما تجعل عمل الجن عملاً واسعاً يشمل كل الأرض والإنسان، أي أن عملها أوسع جداً من عمل تلك الآلهة وأهم.

وفي القرآن إن قريشاً جعلت بين الله وبين الجنة نسباً: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[3]، وإنها جعلت الجن شركاءً له: ﴿وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4]. أي جعلوا لله الجن شركاءً في عبادتهم

---

[1] المصدر نفسه.
[2] الحيوان (٦/ ١٩٠ وما بعدها).
[3] الصافات، الآية ١٥٨.
[4] الأنعام، الآية ١٠٠.

إياه، وخرقوا له بين وبنات، وتخرصوا لله كذباً، فافتعلوا له بنين وبنات جهلا وكذباً[1]. وورد أن الله تزوج الجن، وأن الملائكة هم بناته من هذا الزواج. «قال كبار قريش: الملائكة بنات الله. فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن»[2].

ويفهم من القرآن الكريم أيضاً أن من العرب من كان يعبد الجن: «قالوا: سبحانك، أنت ولينا من دونهم، بل. كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مؤمنون»[3]. وذكر (ابن الكلبي) أن (بني مليح) من خزاعة رهط طلحة الطلحات، كانوا ممن تعبد الجن من الجاهليين[4]. ويزعمون أن الجن تتراءى لهم[5]. وفيهم نزلت: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾[6]. وذكر أن قبائل من العرب عبدت الجن، أو صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن. ويقولون هم بنات الله[7]، فأنزل الله: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة. أيهم اقرب. ويرجون رحمته ويخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذوراً﴾[8].

وليس لدى المفسرين أو أهل الأخبار علم واضح عن كيفية اعتقاد بعض العرب بألوهية الجن وبمصاهرتها للآلهة أو الإلَه. وما ورد عن ذلك في القرآن، مجمل. والظاهر أن ذاكرة الأخباريين لم تتمكن من حفظ تفاصيل هذه العقيدة والعقائد المماثلة الأخرى، ولا بد وأن تكون لها أسطورة قديمة، يظهر أنها ماتت قبل الإسلام، أو أن المسلمين تركوا روايتها لمعارضتها للإسلام ولأنها كانت في نظرهم خرافة تتعلق بأصنام، فلم يروا الاهتمام بها، وتركوها، ولولا ورود ذكرها مقتضباً في القرآن، فلربما صرنا في جهل تام بأمر تلك العبادة.

ويرى (نولدكه) أن الجاهليين لم يتعبدوا للجن، ولم يتخذوها آلهة على نحو

---

1 تفسير الطبري (٧/ ١٩٧).
2 لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي (٢/ ٨١ وما بعدها)، حاشية على تفسير الجلالين.
3 سبأ، الآية٤١.
4 الأصنام (٣٤)، الاشتقاق (٢٧٦).
5 تفسير القرطبي (١٤/ ٣٠٩).
6 الأعراف، الآية ١٩٣.
7 تفسير الطبري (١٥/ ٧٢).
8 الإسراء، الرقم ١٧، الآية ٥٧.

ما نفهم من معنى الآلهة، وأن (عبد الجن)، وإن دل على التعبد للجن إلاّ ان هذه التسمية لا تدل حتماً على عبادة للجن[1]

وتتألف الجن من عشائر وقبائل، تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم. وهي كعشائر وقبائل جزيرة العرب، تتقاتل فيما بينها، ويغزو بعضها بعضاً. ولها أسماء ذكر بعضاً منها أهل الأخبار، كما أن لها ملوكاً وحكاماً وسادات قبائل. فهي في حياتها تحيا على شكل نظام حياة الجاهليين. واذا اعتدى معتدٍ على جان انتقمت قبيلته كلها من المعتدي أو المعتدين. وبين قبائل الجن عصبية شديدة، كعصبية القبيلة عند الجاهليين، وهي تراعي حرمة الجوار، وتحفظ الذمم والعقود وتعقد الأحلاف. فنحن إذن أمام حياة جاهلية مستترة غير منظورة، هي حياة جن جاهلبين، ومن الجن (بنو غزوان)[2]، (بنو عزوان)[3].

وقد تتقاتل طوائف من الجن، فيثير قتالها عواصف الغبار، ولذلك فسر الجاهليون حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن. ونجد هذه الفكرة فكرة إحداث الجن للرياح والعواصف في المزامير من أسفار التوراة[4].

وهم مثل البشر، فيهم الحضر، أهل القرار، وفيهم المتنقلة وهم أعراب الجن، وفيهم من يسير بالنهار، وفيهم من يسير بالليل، وهم (سراة الجن)، و(السراةّ). قال الشاعر:

أتوا ناري فقلت منون قالــوا: سراة الجن، قلت: عموا ظلاما[5]

وللجن كما للأنس سادة ورؤساء وعظماء، نذكر منهم: الشنقناق والشيصبان. وقد ذكر الأول في شعر (بشار بن برد) وفي شعر لأبي النجم، وفي شعر حسان بن ثابت[6]. و(دحرش) أبو قبيلة من الجن[7].

وعقد الجاهليون أحلافاً مع الجن على التعاون والتعاضد، فقد ذكر أن قوماً

---

[1] Ency. Religi., I, p. 670.

[2] اللسان (٥/ ٨٩)، (وبنو غزوان، حي م ن الجن)، (فرر).

[3] تاج العروس (١٠/ ٢٤١)، (عزا).

[4] المزمور ١٠٤، الآية الرابعة، Reste, s. 151.

[5] تاج العروس (١٠/ ١٧٤)، (سرى).

[6] الحيوان (١/ ٣٠٨)، (٦/ ٢٢٨، ٢٣١)، ثمار القلوب (٥٥).

[7] تاج العروس (٤/ ٣١٠)، (دحرش).

من العرب، كانوا قد تحالفوا مع قوم من الجن من (بني مالك بن أقيش)[١].

ويذكر الرواة قصصاً عن الجن مع الإنسان. يذكرون أن (تأبط شراً) رفع كبشاً تحت إبطه، وأخذه معه إلى الحي، فصار يبول عليه في الطريق، حتى إذا قرب من مكانه، ثقل عليه، فرمى به، فإذا هو الغول[٢]. ويذكرون أن ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية، فخافت عليه أمه من سفهاء قريش، ولكنه ألحّ عليها بأن تسمح له بالذهاب. فلما أكمل الطواف، وصار ببعض دور بني سهم، عرض له شاب منهم فقتله، فثارت غبرة شديدة بمكة، ومات من بني سهم خلق كثير قتلهم الجنّ انتقاماً منهم لمقتل الجان، فنهضت بنو سهم وحلفاؤها ومواليها وعبيدها، فتركوا الجبال والشعاب بالثنيّة، فما تركوا حيّة ولا عقرباً ولا عظاية ولا خنفساء ولا شيئاً من الهوام يدب على وجه الأرض إلاّ قتلوه، حتى ضجت الجن، فصاح صائحهم من على أبي قبيس يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضعاف ما قتله الجن من بني سهم، فتوسطت قريش، وأُنهي النزاع، وتغلب بنو سهم على الجن[٣].

والجن مثل البشر، يعتدون كذلك، ولا يردعهم من اعتدائهم إلاّ القوة. هذا رجل من (بني سهم) يقص علينا في الإسلام أنه كان بـ (تبالة) يراجع نخلاً له، وبين يديه جارية له، فصرعت، فأدرك أن الجن هم الذين صرعوها، فوقف عليها قائلاً: يا معشر الجن! أنا رجل من بني سهم، وقد علمتم ما كان بيننا وبينكم في الجاهلية من الحرب وما صرنا إليه من الصلح والعهد والميثاق أن لا يغدر بعضنا ببعض، ولا يعود إلى مكروه صاحبه، فإن وفيتم وفينا، وإن غدرتم عدنا إلى ما تعرفون. فخافت الجن من هذا التهديد، وأفاقت الجارية، ولم يصبها بعد ذلك مكروه[٤].

وذهب الجاهليون إلى جواز قتل الجن للإنسان. وقد بقي هذا الاعتقاد

---

1 الطبري (٢/ ٣٤٩)، (دار المعارف).
2 الأغاني (١٨/ ٢١٠ وما بعدها).
3 الأزرقي (٢/ ١١ وما بعدها)، «المطبعة الماجدية بمكة».
4 الأزرقي (٢/ ١٢ وما بعدها).

في الإسلام. فلما قتل (سعد بن عبادة بن دليم)، زعم أن الجن قتلته[1]. ولما قتل المغني المعروف (الغريض)، وهو من الموالي، وكان نشأ خياطاً ثم أخذ الغناء بمكة عن (ابن سريج)، زعم أن الجن نهته أن يغني لحنه الذي يقول فيه:

تشرب لـــون الرازقي بياضه   أو الزعفران خالط المسك رادعه

فلما لم ينته قتلته الجن في ذلك خنقاً[2].

وزعم أن الجن خنقت (حرب بن أمية)، وقالت الجن في ذلك شعراً[3]. وقتلت (مِرْداس بن أبي عامر)، أبا (عباس بن مرداس)، واستهوت (سنان بن حارثة)، ليستفحلوه، فمات فيهم. واستهووا (طالب بن أبي طالب)، فلم يعثر أهله له على أثر، واستهووا (عمرو بن عدي) اللَّخمي الملك، ثم ردّوه على خاله (جذيمة بن الأبرش)، بعد سنين وسنين. واستهووا (عمارة بن الوليد بن المغيرة)، ونفخوا في أحليله، فصار مع الوحش[4].

ويروي أهل الأخبار أن الجن تتصادق مع الإنسان وتتّباغض معه، وقد تقتله، ورووا في ذلك قصصاً، وذكروا أنها قد تتألم لوفاة رجل طيب أو شهير محبوب. وقد تعطف على المحتاجين والمعوزين. وفي جملة ما قالوه عن الجن إن (أبا هالة) كان قد خرج في الجاهلية في عير لقريش يريد الشأم، فنزل وادياً يقال له: (عز)، وانتبه آخر الليل فإذا شيخ قائم على صخرة، وهو ينشد شعراً في رثاء عبد الله بن جُدعان، وكان ذلك الشيخ جان من الجن. وقد ذكر أهل الأخبار محاورة من الشعر قالوا إنها جرت بين (أبي هالة)، وبين ذلك الشيخ

---

[1] كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/ ٣٧٣)، المعارف (١١٢)، الحيوان (٦/ ٢٠٩)، الاشتقاق (٤٥٦)، وسمعوا الهاتف يقول:
قد قتلنـــا سيد الخـــزر   ج ســـعد بن عبـــادة
ورمينـــاه بســـهميْن   فلـــم نخـــط فـــؤاده
الحيوان (٦/ ٢٠٩)، (هارون)، (١/ ٣٠٨).

[2] كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/ ٣٧٣)، الأغاني (٢/ ١٣٦، ١٤٣)، الحيوان (٦/ ٢٠٨)، (هارون)، الحيوان (١/ ٣٠٧).

[3] الحيوان (١/ ٣٠٢)، (هارون)، وقالت الجن:
وقبـــر حرب بمكان قفـــر   وليس قـــرب قبر حرب قبر
الحيوان (٦/ ٢٠٧)، (هارون).

[4] الحيوان (٦/ ٢٠٩ وما بعدها)، (هارون).

الجني الذي عين وقت وفاة (عبد الله بن جدعان)، وثبته بالضبط فكان كما قال[١].

وقد يقع الحب بين الجن والإنس. فقد ذكر أن الجنية قد تتيع الرجل تحبه، ويقال لها: تابعة. ومن ذلك قولهم معه تابعة، أي من الجن. والتابعة جنية تتبع الإنسان كما يكون للمرأة تابع من الجن، يتبع المرأة يحبها[٢]. وقد يعشق الجني امرأة ويتصادق معها. هذا (منظور) الجني، عشق امرأة اسمها (حبّة)، وتصادق معها، فكانت (حبة) تتطبب بما يعلمها منظور[٣].

وقد يسرق الجن الأطفال والرجال والنساء، وللأخباربين قصص يروونه في ذلك. وينسب فقدان الأشخاص في البوادي إلى الجن في الغالب. غير أنها قد تنفع الناس أيضاً، لأن من الجن من هو طيب النفس، مفيد نافع، ولاسيما اذا تقرب إليها الإنسان وأحسن إليها. رأى الشاعر عبيد بن الأبرص حية، فسقاها. فلما ضل جمل له وتاه، نادى هاتف بصوت مسموع سمعه عبيد بن الأبرص مشيراً إلى الموضع الذي ذهب الجمل إليه. فذهب عبيد إلى المكان، وجاء بجمله[٤]. وكان هذا الهاتف هو صوت الحية التي هي جان من الجن.

وقد يتصاهر الإنسان مع الجن، فقد كان لعمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي زوج من الجن: ولكنها لم تبق معه، بل اختفت بعد ذلك عند ظهور البرق[٥]. ونسبت بعض الأسر والقبائل مثل (بني مالك)، و(بني شيصبان)، و(بني يربوع بن حنظلة) وعرفوا ببني السعلاة إلى الجن[٦]. ونسب بعض الأخباريين نسب بلقيس وذي القرنين إلى الجن[٧]. وذكر أيضاً أن زوج (عمرو بن يربوع التميمي) كانت سعلاة، أقامت مع زوجها في (بني تميم): فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى، حنت وطارت إليهم، فقال شاعرهم:

---

1 الاشتقاق (ص ٨٨ وما بعدها).
2 اللسان (٨/ ٢٩)، (تبع).
3 تاج العروس (١/ ١٩٨)، (حب).
4 الأساطير العربية (٧٩)، Reste, 154, ff.
5 الحماسة (١/٥٦١)، (طبعة فرايتاغ)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٤٠)، الحيوان (١/ ١٨٥ وما بعدها، ١٨٨)، (هارون)، Reste, S. 154.
6 الأساطير العربية (٧٥).
7 بلوغ الأرب (٢/ ٣٤٩)، الحيوان (١/ ١٨٧ وما بعدها).

رأى برقـــاً فأوضع فوق بكر فلا بك ما أسأل وما أغامت[1]

وفي ذلك قال (علباء بن أرقم):

يا قـــاتل الله بني الســـعلاة عمرو بن يربوع شرار الناتِ[2]

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع زواج الإنس بالجن وبالعكس، أي زواج الجن بالانس. وتعرض لقول من قال إن (بلقيس) كانت من امرأة جنيّة. وذكر آراء الناس في هذا الزواج المختلط، الذي شك في امكان إنجاب نسل منه. وقال: «وقد يكون هذا الذي نسمعه من اليمانية والقحطانية، ونقرؤه في كتب السيرة، قص به القصاص، وسمروا به عند الملوك»[3]. وقد كان لأهل اليمن قصص وأساطير، بدليل ما نلاحظه من أن معظم رواة القصص القديم كانوا من أهل اليمن في صدر الإسلام. ويظهر أنهم حذقوا به وتفوقوا به على بقية العرب الذين نسميهم العدنانيين بسبب دخول كثير منهم في اليهودية وفي النصرانية وشرائهم الكتب، وفيها قصص من قصص أهل الكتاب والأساطير القديمة، فمزجوه مع ما كان لهم من قصص وثني قديم.

وقد أطلق (الجاحظ) على قول الناس بزواج الإنس بالجن وبالعكس (الزواج المركب)، وأشار إلى قول الشاعر علباء بن أرقم:

يا قاتَلَ اللهُ بني الســـعلاة عمراً وقابوسا شرار النات

إنه الدليل على أن السعلاة تلد الناس. هذا سوى ما قالوا في الشق وواق واق ودوُال باي وفي الناس والنسناس[4].

وذكر أيضاً أن أعراب بني مرة تزعم أن الجن استهوت سناناً بن أبي حارثة المري، وهو والد هرم بن سنان، لتستفحله إذ كان منجباً، وكان سنان قد

---

[1] الحيوان (١/ ١٨٦)، (هارون)، (٦/ ١٩٧).
[2] الحيوان (٦/ ١٦١)، اللسان (٢/٤٠٧)، نوادر أبي زيد (١٠٤، ١٤٧)، المخصص (٣/ ٢٦)، (١٣/ ٢٨٣)، الأمالي، للقالي (٢/ ٦٨)، محاضرات الراغب (٢/ ٢٨١)، الخصائص (٤٥١)، الفصول والغايات (٢١٠).
[3] كتاب البغال من رسائل الحاحظ (٢/ ٣١٧).
[4] كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/ ٣٧٤)، الحيوان (١/ ١٨٩)، (هارون).

هام على وجهه[1].

وقد وجه الإنسان جميع مواهبه منذ أقدم أيامه لتسخير عالم الأرواح، وجعله في خدمته وتحت تصرفه، أو لتحويله بحسب رغباته، وتجنب ضرره وأذاه. قام بذلك رجال الدين خاصة، ورجال الدين بحكم اتصالهم بالآلهة وبالعالم غير المنظور، هم خلفاء الآلهة على وجه الأرض، وألسنة الأرواح الناطقة بين الناس. فكانوا حكاماً ورجال دين وسحرة وأطباء وعلماء، كما قام بذلك المنجمون والسحرة والكهّان وغيرهم ممن تكهن وتحدث عن الغيب، وأظهر أن في قدرته التأثير على حياة الإنسان ونفعه وضره بالاستعانة بعالم الأرواح وبما عنده من قدرات خارقة في إمكانها اختراق حجب الأسرار والتحكم في العالم الخفي لتحويله إلى صالح إنسان أو الى الاضرار به.

وليس الجاهليون بدعاً في هذه الأمور، بل كان غيرهم من الشعوب كالعبرانيين والبابليين والإغريق والرومان والمصريين والهنود وكل الشعوب الأخرى تعتقد بذلك. ولها رجال ادعوا العلم.

وقد كان الجاهليون يعلقون الحلي والجلاجل على (اللديغ)، يفعلون ذلك لاعتقادهم أنه يفيق بذلك، فلا ينام. ولو نام، سرى السم في جسمه، فمات. وذهب بعضهم إلى أن تعليق الحلي على اللديغ يبرئه من ألمه. أما إذا علق الرصاص عليه، أو حلي به، فإنه يموت[2].

وتقوم الجن بأعمالها بشكل غير منظور في الغالب، لانها أرواح. وهي قد تحذر الإنسان أو ترشد إلى شيء يريده بصوت جهوري مسموع، يقال له: الهاتف، دون أن يرى الشخص أو الأشخاص صاحب ذلك الصوت. وهي تنبىء عن المستقبل كما تتحدث عن الماضي[3]. وقد ذكر (الجاحظ) أن الأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف، بل يتعجبون ممن ردّ ذلك. ثم قال: «قالوا: ولنقل الجن الأخبار علمَ الناس بوفاة الملوك، والأمور المهمة، كما تسامعوا بموت المنصور بالبصرة وفي اليوم الذي توفي فيه بقرب مكة. وهذا الباب أيضاً كثير»[4].

---

1 المصدر نفسه (ص ٣٧٥)، الحيوان (٧/ ٢٤)، الميداني (١/ ٢٠٢).
2 بلوغ الأرب (٣/ ٣٠٤).
3 الحيوان (٦/ ٢٠٢).
4 الحيوان (٦/ ٢٠٢ وما بعدها).

والجن وإن كانت من الأرواح، أي أنها غير منظورة، إلاّ أن في استطاعتها أن تتجسم متى شاءت. فتظهر على هيئة جسم من الأجسام. إذ إن للجن قدرة على التشكل بالشكل الذي تريده، تظهر في صورة حيوان أو في صورة إنسان أو غير ذلك. ومن هنا نجد قصص مصاهرة الإنسان للجن، وظهور نسل وأسر من هذا الزواج. وفي استطاعتها أيضاً تغيير الشكل الذي ظهرت به بشكل آخر حيث تشاء[1]. كما ورد ذلك في قصة الشاعر (تأبط شراً) والكبش الذي حمله، بينما هو جني. ومن هنا تختلف طبيعتها عن طبيعة البشر والحيوان.

وقد تمثل الجن في صور حيوانات مشعرة، أي ذات شعر كثيف. فالجن عند الشعوب السامية ذات شعر كثيف، لذلك قيل لها (سعريم) (Sa'irim) في العبرانية. وهي تختار الأماكن الموحشة المقفرة في الظلام، مثل رهبان الليل (ليليت) (Lilith)، وتذهب مع الحيوانات التي تنفر من الإنسان مثل النعامة[2].

وفي الأساطير الجاهلية إن البقر اذا أوردت «فلم ترد، ضربوا الثور ليقتحم الماء، فتقتحم البقر بعده، ويقولون إن الجن تصدّ البقر عن الماء، وإن الشيطان يركب قرني الثور»[3]. وقد ذكرت هذه الأسطورة في أشعار جاهلية، يظهر من نقدها ودراستها أنها من آثار العقائد الجاهلية في الجن. وقد اتخذت مثلاً لمن ينزل عليه مكروه في سبيل إخافة غيره، فيكون بذلك كبش الفداء. واعتقادهم أن الشيطان يركب قرني الثور، هو الذي جعلهم يتصورون أن الثور يتقدم البقر في شرب الماء ذلك لأن الشيطان ركب قرنيه، فلا يخشى الثور إذن من الجن، والشيطان أخبث أنواع الجن وأذكاها. فتخافه الجن، وتفسح المجال للبقر في ورود الماء. أما ضرب الثور لتوجيهه إلى الماء، فلأجل أن الشيطان ركب قرنية، فبضربه وبتقدمه يتقدم الشيطان نحو الماء فتخافه الجن وتفزع منه، وتسمح للبقر بورود الماء، ولهذا ضرب، ليستفيد بذلك غيره[4].

---

[1] Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semite, p. 120.
[2] Robertson, p. 120, B.C. Thompson, Semitic Magic, London, 1908, p. 57.
[3] قال الأعشى:
لكالثــور والجنى يضرب وجهه   وما ذنبه إن عافت المــاء باقر
ولغيره:
إني وقتلى سـليكا حين أعقــله   كالثور يضرب لما عــافت البقر
[4] بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٣ وما بعدها).

وأهم مواطن الجن في نظر الجاهليين، هي المواضع الموحشة، والأماكن المقفرة التي لا تطرق إلاّ نادراً والمحلات التي لا تلائم الصحة، والمقابر والاماكن المظلمة والمهجورة. ففي مثل هذه المواطن تنزل الجن، وتفضل الإقامة بها، وسبب ذلك، هو أن الإنسان يخشى هذه المواضع، ويحس بشيء من الخوف والوحشة من الدخول إليها، فقد يتعرض فيها إلى التهلكة، فأوحى هذا الاحساس اليه أنها (مسكونة)، وأن سكانها هم الجن. وأنهم قد يتعرضون له بسوء إن لم يعرف كيف يسلك سلوكاً طيباً معها، ولذلك صار يتحاشى ولوج هذه المواضع، لا سيما في الليالي المظلمة، واذا دخلها مضطراً، تخيل الأشباح والأرواح وهي تلعب به كيف تشاء، وتحوم حوله. ومن هنا ظهر عنصر القصص المروي عن مواطن الجن.

وسكنت الجن المواضع المظلمة والفجوات العميقة فيها وباطن الأرض، ولذلك قيل لها: ساكنو الأرض. كما سكنت المقابر[١]. والمقابر هي من المواضع الرئيسية المهمة المأهولة بالجن، ولذلك يخشى كثير من الناس ارتيادها ليلاً. وهي لا بد أن تكون على هذه الصفة، فهي مواطن الموتى، وأرواح الموتى تطوف على القبور، والموت نفسه شيء مخيف، والجن أنفسها أرواح مخيفة، فهل يوجد موضع أنسب من هذا الوضع لسكن الجن؟

وتزعم الأعراب أن الجن سكنت (وبار). وحمتها من كل من أرادها؛ وهي بلاد من أخصب بلاد العرب، وأكثرها شجراً، وأطيبها ثمراً واكثرها حباً وعنباً. فإن دنا إنسان من تلك البلاد متعمداً أو غالطاً، حثوا في وجهه التراب. فإن أبى الرجوع خبلوه، وربما قتلوه. فليس في تلك البلاد إلاّ الجن، والإبل الحوشية[٢].

وقد زعم أن (يبرين) من مواطن الجن. وكانت في الأصل مواضع عاد. فلما هلكت، سكنتها قبائل الجن. وقد روى أهل الأخبار قصصاً عنها وعن اتصالها بالانسان. وزعم بعض منهم أن (النسناس)، هم قوم من الجن[٣].

---

[1] Reste, S. 151.

[2] الحيوان (٦/ ٢١٥ وما بعدها).

[3] تاج العروس (٤/ ٢٥٧)، (نسن).

وقد ورد مثل هذه الاقوال عن مواضع أخرى كانت عامرة آهلة، ثم أقفرت، مثل الحجر موضع ديار ثمود[1]، مما يدل على أن من اعتقادات العرب قبل الإسلام هو أن المواضع التي تصيبها الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن للجن. وفي مثل هذه الأساطير عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب[2].

وأشير في شعر (لبيد) إلى (جن البدي). قيل: «والبدي: البادية، أو موضع بعينه» وقيل واد لبني عامر[3]. وأشار (النابغة) إلى (جنة البقار). وذكر أن البقار واد، أو رملة، أو جبل، سكنته الجن، فنسبت إليه[4]. وأشير إلى (جنة عبقر) في شعر (زهير) و(لبيد) و(حاتم)[5]. وعبقر أرض بالبادية كثيرة الجن، وذكر بعضعهم أنها باليمن[6]، قال لبيد:

ومن فاد من إخوانهم وبنيهم كهول وشــبان كجنة عبقر

وقال بعض العلماء: عبقر قرية يسكنها الجن فيما زعموا، فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله ويدق أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه إليها. ولهذا قالوا: للعبقري للسيد الكامل من كل شيء، وللذكي الممتاز[7].

والمواضع المذكورة هي المواضع المفضلة المختارة لسكنى الجن. غير أن مواطن الجن غير محدودة ولا معينة، إنها تسكن كل موضع ومكان، حتى بيوت الناس لا تخلو منها، بل حتى البحار والسماء لا تخلو منها كذلك، فدولتها إذن على هذا الوصف أوسع من دولة الإنسان. وعلى من سكنت الجن بيته ألاّ يمسها بأذى ولا يلحقها أي سوء، وأن يقوم بترضيتها بالبخور وبما شاكل ذلك مما تحبه الجن، وإلا أساءت اليه، وجعلت بيته مؤذياً شؤماً، لا يرى من يسكن فيه أي خير.

---

1 Reste, S. 150
2 Robertson, p. 120.

3 الحيوان (٦/ ١٨٩)، (هارون).
4 الحيوان (٦/ ١٨٩)، اللسان (٦/ ٤٧)، (١٢/ ٣٣٠).
5 الحيوان (٦/ ١٨٩)، اللسان (٦/ ٢٠٩)، البلدان (٦/ ٢٠٩)، البلدان (٦/ ١١٣)، ثمار القلوب (١٨٨).
6 تاج العروس (٣/٣٧٩)، (عبقر)، اللسان ٠٤/ ٥٣٤).
7 تاج العروس (٣/٣٧٩)، (عبقر).

وكان الرجل في الجاهلية إذا اطَّرف داراً ذبح فيها ذبيحة، يتقي بها أذى الجن، لاعتقادهم أن في كل دار جنّاً يقيمون بها فلترضيتهم وللتقرب إليهم، يذبحون ذبيحة عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن)[١]. ولا تزال عادة الناس ذبح ذبيحة عند الابتداء ببناء دار، وعند الانتقال إليها. وكانوا أيضاً يذبحون ذبيحة عند استخراجهم عيناً، أو شرائهم داراً، أو بنيانهم بنياناً، مخافة أن تصيبهم الجن، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك. وقد نهى النبي عن ذبائح الجن[٢].

وكان في اعتقادهم أن الأماكن المذكورة مليئة بالجن، لذلك كانوا يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم، اذا نزلوا منازلهم، يقولون: نعوذ بأعز أهل هذا المكان، أو إني أعوذ بكبير هذا الوادي. والى ذلك أشير في القرآن الكريم: ﴿وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾[٣]. روي، عن (حجاج بن علاط السلمي)، «إنه قدم مكة في ركب فأجنهم الليل بواد مخوف موحش، فقال له الركب: قم خذ لنفسك أماناً ولأصحابك، فجعل يطوف بالركب ويقول:

أعيذ نفسي وأعيذ صحبي من كل جني بهذا النقب
حتى أأوب سالماً وركبي»[٤]

فوصل وركبه سالماً إلى مكة دون أن يمسه أو أن يمس من كان معه من الركب أحد بسوء[٥].

وروي أن الرجل منهم كان إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد الى واد ذي شجر فأناخ راحلته في قرارته وهي القاع المستديرة وعقلها وخطّ عليها خطاً ثم قال: «أعوذ بصاحب هذا الوادي»[٦]. وربما قال بعظيم هذا الوادي. قال أحدهم:

---

1 اللسان (١٣/ ٢١٣)، (سكن).
2 اللسان (٢/ ٤٣٧)، (ذبح).
3 سورة الجن، رقم ٧٢، الآية ٦، تفسير الطبري (٢٩/ ٦٧ وما بعدها).
4 الروض الأنف (١/١٣٦).
5 الروض الأنف (١/ ١٣٦)، الإصابة (١/ ٣١٢)، (١٦٢).
6 بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٥).

قد بتُ ضيفاً لعظيم الوادي   المانعي من سطورة الأعادي
راحلتي في جاره وزادي[1]

وقالوا إنهم كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً يقولون: نعوذ بأعزّ أهل هذا المكان. يقولون ذلك عند نزولهم وادياً في الغالب، إذ نجد الرواة يكررون عبارة: «كانوا إذ نزلوا الوادي، قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي»، أو «بعزيز هذا الوادي»[٢]. ويظهر أنهم تخوفوا من الوديان خاصة، لما قد يقع فيها من مهالك، فنسبوا ذلك إلى فعل الجن.

وقال آخر يستجير بجن (عالج) ويتوسل إليهم ألاّ يرهقوه بغويّ هائج، إذ يقول:

يا جن أجزاء اللوى من عالج   عاذ بكم ساري الظلام الدالج
لا ترهقوه بغويّ هائج

وقال آخر:

أعــوذ من شر البلاد البيد   بسيّد معظــم مجــيد
أصبح يأوي بلوى زرده   ذي عزة وكاهــل شديد

وقد استعاذ رجل منهم ومعه ولد، فأكله الأسد فقال:

قد استعذنا بعظيم الوادي   من شر ما فيه من الأعادي
فلم يجرنا من هزبر عادي[٣]

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يرون أن الجن تعزف في المفاوز بالليل. والعزف والعزيف صوت الجن، وهو جرس يسمع بالمفاوز. وهو صوت يسمع بالليل كالطبل. ورُوي عن (ابن عباس) قوله: «كانت الجن تعزف بالليل كله بين الصفا والمروة»[٤]. وقد اشتهر موضع (العزاف)، وقيل (ابرق)

---

[1] بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٦).
[2] تفسير الطبري (٢٩/ ٦٨ وما بعدها).
[3] بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٦).
[4] تاج العروس (٦/ ١٩٧)، (عزف).

العزاف بأنه موضع يسمع به عزيف الجن[1].

وقد موّن القصص الاسرائيلي أهل الجاهلية بشيء مما كان ينقصهم من أساطير الجن، وتوسع وزاد هذا القصص في الإسلام، حتى تولد منه هذا الذي نجده مدوناً عن أخبار الجن في المؤلفات الإسلامية.

وتخبر الجن الإنسانَ بحوادث تقع في مواضع بعيدة، وهو لا يعلم عنها شيئاً. فلما هبط (نباش بن زرارة بن وقدان)، زوج (خديجة بنت خويلد) قبل النبي، وادياً يُقال له (عز)، انتبه في آخر الليل، فاذا شيخ قائم على صخرة، وهو يقول:

ألا هلك السيّال غيث بني فهر   وذو العز والباع القديم وذو الفخر

فقال له نباش:

ألا أيها الناعي أخا الجود والفخر   من المرء تنعاه لنا من بني فهر

وبقيا يقولان الأبيات، حتى أخبره الشيخ بوفاة (عبد الله بن جدعان) في وقت حدده وضبطه له. فلما وصل مكة، علم بوفاته على نحو ما أخبره به ذلك الشيخ. وهو جني من الجن، ينظم الشعر، وقد رثى (ابن جدعان)[2].

ونجد في شعر الشعراء الجاهليين أمثال (أمية بن أبي الصلت) و(الأعشى) إشارات إلى الجن. وهم من أقل الجاهلية الذين كان لهم اتصال بأهل الكتاب وبكتبهم، وقد زعم أن بعضاً منهم كان قد قرأ تلك الكتب ووقف على العبرانية أو السريانية. ولهذا ورد في شعرهم شيء من قصص أهل الكتاب. وفي جملته ما ذكرته من إشاراتهم الى الجن. وتراهم يربطون بينها وبين (سليمان). أخذوا ذلك ولا شك من الأساطير العبرانية، التي صيّرت الجن في خدمة (سليمان). فنجد الأعشى يقول:

وسخّر من جن الملائك تسعة   قياماً لديه يعملون محاربا

---

[1] تاج العروس (٦/ ١٩٧، ٢٨٧)، (برق).
[2] الاشتقاق (٨٨ وما بعدها).

قصد بذلك (سليمان)[1] ونجد أن في جملة ما نسب عمله إلى جن سليمان بعض المواضع مثل تدمر وقصر غمدان.

وقال النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قـال الإلـه لـه   قم في البرية فاحددها عن الفند
وخَيِّس الجن إني قـد أذنت لهم   يبنون تدمـر بالصفـاح والعمد
فمن عصاك فعـاقبه معـاقبة   تَنْهي الظلوم ولا تقعد على ضمد[2]

وفي هذا الشعر إن صح أنه من نظم النابغة حقاً، دلالة على تأثر الشاعر بالأسطورة اليهودية عن (تامار)، وعن جن سليمان.

ونسبوا السيوف المأثورة إلى جن وشياطن (سليمان). ونسبوا اليه واليهم أشياء عديدة أخرى[3].

وقد ادعى أناس من الجاهليين أنهم كانوا يرون الغيلان والجن، ويسمعون عزيف الجان، أي صوت الجن. وقد بالغ الأعراب في ذلك، وأغربوا في قصص الجان، لما كانوا يتوهمونه من ظهور الأشباح لهم في تجوالهم بالفيافي المقفرة الخالية، فتصوروه جناً وغولاً وسعالى، وبالغوا في ذلك أيضاً، لما وجدوه في أهل الحضر ولا سيما في الإسلام من ميل إلى سماع قصص الجان والسعالى والغول[4]. وقالوا إنهم ربما نزلوا بجمع كثير، ورأوا خياماً، وقباباً، وناساً، ثم إذا بهم يفقدونهم من ساعتهم، وذلك لأنهم من الجن[5].

ونسبوا إلى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية، مثل الأمراض والأوبئة والصرع والاستهواء والجنون خاصة. فالجنون هو تلبس الجن بالإنسان ودخولهم جسمه. لذلك ربطوا بين الجن والجنون. ويرى (نولدكه) أن فكرة أن الجنون من عمل الجن، عقيدة قديمة وجدت عند غير العرب كذلك. فقد كان الايرانيون

---

[1] تاج العروس (٩/ ١٦٥)، (جن).
وسخر من جن الملائك تسعة   قياماً لديه يعملون بلا أجر
اللسان (١٣/ ٩٧)، (جنن).
[2] الحيوان (٦/ ٢٢٣).
[3] الحيوان (٦/ ١٨٧).
[4] الحيوان (٦/ ١٧٢ وما بعدها، ١٨٢).
[5] الحيوان (٦/ ٢٠٠)، (هارون).

يطلقون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana)، أي الذي به (ديو) (Dev) من الأصل (ديوه) (Daiva)، ومعناها (Demon) أي جان. ومن هذه الفكرة دخلت في العهد الجديد من الكتاب المقدس. ومن الفارسية دخلت (ديوان) (Daiwan) في الإرمية بينما دخلت إلى الفارسية كلمة (شدها) (Shedha) من أصل (شدهان) (Shedhan) الإرمي واستعملت في مقابل (Deo) أي جان. و(شيده) (Shedh) في الإرمية الجان[1].

وهم يزعمون أن الجن اذا عشقت إنساناً صرعته، ويكون ذلك على طريق العشق والهوى، وشهوة النكاح. وأن الشيطان يعشق المرأة، وأن نظرته إليها من طريق العجب بها أشد عليها من حُمى أيام، وأن عين الجان أشد من عين الانسان[2].

والعرب تزعم أن الطاعون من الجن، ويسمون الطاعون رماح الجن. قال الأسدي للحارث الملك الغساني:

لعمرك ما خشيت على أُبيٍّ رماح بني مقيـّدة الحمـــار
ولكنـــي خشـــيت على أبيٍّ رماح الجن أو إياك حـــار[3]

وللجنّ حوار مع الإنس وكلام تجده منثوراً كما نجده منظوماً فى شعر ينسب إلى الشعراء الجاهليين. ويروي الأخباريون شعراً ينسب إلى (جذع بن سنان) ورد فيه وصف ملاقاته الجن ومحاورته معها ودعوته إياها إلى الطعام وامتناعها عن الأكل، كما رووا شعراً لغيره يصف ملاقاة بين الجن وبين أصحاب هذا الشعر[4]. وهو قصص لم يبخل على الجن فأعطاها شعراً من هذا الشعر الجاهلي الفصيح! وقد سخر (الخيتعور) أحد (بني الشيصبان) من الجن من الأشعار التي جمعها (المرزباني) (المتوفى سنة ٣٨٤هـ)، من شعر الشعراء الجن، فما هذا الذي جمعه إلا قطعة من شعرهم، وهل يعرف البشر من النظم كما يعرف الجن.

---

[1] Ency. Religi., I, p. 670.

[2] الحيوان (٦/ ٢١٧ وما بعدها).

[3] الحيوان (٦/ ٢١٩).

[4] بلوغ الأرب (٢/ ٣٥٠ وما بعدها).

وانما للبشر خمسة عشر جنساً من الموزون، قل ما يعدوها القائلون، وإن للجن آلاف الأوزان ما سمع بها الإنس[1].

طعام الجن:

وطعام الجن مثل طعام الإنسان، وهم يشاركونه أكله، في بعض الأحيان. «رووا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه سأل المفقود الذي استهوته الجن: ما كان طعامهم؟ قال: الفول. قال: فما كان شرابهم؟ قال: الجدف. ورووا أن طعامهم الرمة وما لم يذكر اسم الله عليه»[2]. وقد جاء قوم من الجن إلى نار (شمر بن الحارث الضبّي)، فدعاهم إلى الطعام بقوله:

أتوا ناري فقلت منون قالوا   سراة الجن قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم   زعيم نحسد الإنس الطعاما[3]

والحوشي من الإبل هي التي قد ضربت فيها فحول إبل الجن. فالحوشية من نسل إبل الجن[4]. ويقال إنها منسوبة إلى (الحوش) بلاد الجن من وراء رمل يبرين، لا يمر بها أحد من الناس، وقيل هم من بلاد الجن. وقيل الحوشية إبل الجن، أو منسوبة إلى الحوش وهي فحول جن، تزعم العرب أنها ضربت في نعم (بني مهرة بن حيدان) فنتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الوحشية، فنسبت إليها، فهي لا يكاد يدركها التعب[5].

الحية:

والحية من أكثر الحيوانات وروداً في القصص الذي يرويه الأخباريون عن الجن. وقد جعلوها فصيلة مهمة من فصائلها، ونوعاً بارزاً من أنواعها. قال

---

[1] رسالة الغفران (٢٩١)، (بنت الشاطئ).
[2] الحيوان (٦/ ٢١٠ وما بعدها).
[3] الحيوان (٦/ ١٩٧).
[4] الحيوان (٦/٢١٦).
[5] الحيوان (٤/ ٣٠٢)، (حاش).

بعض العلماء: الجان، حيّة بيضاء، وقال بعض آخر: الجان حيّة، أو ضرب من الحيّات[1]. ولما قام (حرب بن أمية) جد معاوية بن أبي سفيان مع (مرداس بن أبي عمرو) بإصلاح (القرية)، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام، فأضرما النار في الغيضة، فلما استطارت وعلا لهيبها سمع من الغيضة أنين وضجيج كبير، ثم ظهرت منها حيات بيض تطير حتى قطعتها وخرجت منها، فما لبث أن مات الرجلان، أماتهما الجن على ما يزعمه رواة هذا الخبر[2]. ولعلهما ماتا بعضة حية من تلك الحيات التي كانت ساكنة بين تلك الأعشاب وقد هاجتها تلك النيران. ومثل هذه المواضع تكون موئلاً للحيات والحشرات، فابتدعت مخيلة القصاصين هذه القصة عن فزع الجن وطيرانها في صورة ثعابين بيض. ويعلل (نولدكه) وفاتهما بفعل الاختناق من الغاز الذي تصاعد من الاحتراق[3].

وذكروا أن الحيّة لا تموت حتف أنفها، وإنما تموت بعرض يعرض لها. وأنها تصبر على الجوع حتى ضرب بها المثل في ذلك. وأنها اذا هرمت صغرت في بدنها. ولم تشته الطعام[4]. وأنها تنطق وتسمع. وقد أورد أهل الأخبار شعراً في ذلك، ذكروا أنه للنابغة. ومذهب النابغة في الحيات مذهب أمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد وغيرهما من الشعراء[5]، الذين تأثروا برأي أهل الكتاب فيما جاء عن الحية في العهدين وفي كتب الشروح والتفاسير والقصص الاسرائيلي القديم.

ولم تنفرد مخيلة الجاهليين وحدها باختراع أسطورة أن الحيات هي من الجن، وأنها جنس منها، فإن غير العرب من الساميين مثل العبرانيين كانوا يقولون أيضاً بهذا القول. وكذلك قال بهذه الأسطورة غير السامين، مما يدل على أنه من الأساطير القديمة جداً التي انتشرت عند البشر، بسبب ما قاسوه في أيام بداوتهم من هذا الحيوان[6]. ونجد قصة الحية في سفر التكوين. وهي في هذا السفر أشد

---

1 تاج العروس (٩/ ١٦٥)، (جن).

2 الحيوان (٢/ ١٤٣)، (حاشية)، .Robertson, p. 233

3 Ency. Religi., I, p. 670.

4 الحيوان (٤/ ١١٨ وما بعدها)، (موت الحية).

5 الحيوان (٢٠٣/٤ وما بعدها).

6 Ency. Religi., I, p. 669.

الحيوانات حيلة، فهي التي خدعت حواء خدعتها الشهيرة، وسببت طردها وطرد زوجها آدم من الجنة إلى الأرض[1].

ولعقيدتهم هذه في (الحية)، كانوا اذا وجدوا حية. ميتة كفنوها ودفنوها، فعلوا ذلك في الإسلام أيضاً جاء أنه بينما كان (عمر بن عبد العزيز) بمشي في أرض فلاة، فاذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها. وورد أنه كان جمع من أصحاب رسول الله «يمشون فوقع لهم إعصار، ثم جاء إعصار أعظم منه، ثم انقشع، فاذا حية قتيل، فعمد رجل منا إلى ردائه وكفّن الحية ببعضه ودفنها. فلما جنّ الليل اذا امرأتان تساءلان أيكم دفن عمرو بن جابر فقلنا ما ندري ما عمرو بن جابر! فقالتا إن كنتم ابتغيتم الأجر، فقد وجدتموه. إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين منهم. فقتل عمرو، وهو الحية التي رأيتم»[2].

«وفي الحديث: أنه نهى عن قتل الجنان. هي الحيات التي تكون في البيوت، واحدها جان، وهو الدقيق الخفيف»[3]. والجان الشيطان أيضاً، وورد فيَ الحديث: ذكر الحيات، فقال: من خشي خبثهن وشرهن واربهن، فليس منا. أي من توقى قتلهن خشية شرّهن فليس ذلك من سنتنا. وكانت الجاهلية تقول إنها تؤذي قاتلها أو تصيبه بخبل[4].

وذكر العلماء أن (اللاهة) الحية، أو الحية العظيمة. وأن (اللات)، الصنم المعروف أصله (لاهة) كأنه سمي بها. وأن اسم الجلالة منها[5]. وفي الأساطير إلجاهلية ما يفيد تعبد الجاهليين للحية، وفي هذا التفسير ما يؤيد هذا الرأي.

ويقال للحية: (بنت طبق). و(بنات طبق) الحيات، والحية (أم طبق) وبنت طبق. وهي (الدواهي) ومن أساطيرهم أن بنت طبق سلحفاته تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف، وتبيض بيضة تنقف عن حية[6].

والحيات شياطين، وللعرب شجر يطلقون عليه (الصوم)، كريه المنظر

---

[1] السفر الثالث من التكوين، الآية ١ وما بعدها.
[2] الروض الأنف (١/ ١٣٦).
[3] اللسان (١٣/ ٩٥)، (جنن).
[4] تاج العروس (١/ ١٤٥)، (أدب).
[5] تاج العروس (٩/ ٤١٠)، (لاه).
[6] تاج العروس (٦/ ٤١٥)، (طبق).

جداً، يقال لثمره (رؤوس الشياطين) أي الحيات، وليس له ورق[١].

الغول:

وقصص الغول هي من أشهر القصص الجاهلي المذكور عن الجن، ومع خطر الغول وشراسته في رأي الجاهلين، ورد في قصصهم تزوج رجال من الإنس منهم. وورد أن الشاعر (تأبط شراً) تعرض بغيلة. فلما امتنعت عليه، جللها بالسيف فقتلها. وهم يروون أن من الممكن قتل الغول بضربة سيف. أما اذا ضربت مرة ثانية، فإنها تعيش ولو من ألف ضربة. وهكذا ترى قصصهم يروي تغلب الإنسان على الغيلة في بعض الأحيان. وأكثر قصصم عن الغول منسوب الى (تأبط شراً)[٢]. وللقب الذي يحمله هذا الشاعر أو حمل عليه دخل، ولا شك، في ظهور هذا القصص.

ويرى علماء اللغة أن من معاني (الغول) التلون، والظهور بصور مختلفة، والاغتيال. ويرون أن الغول أنثى وأما ذكرها فسمى. (قطرباً)[٣]. ولصفة التلون والظهور بصور مختلفة سموا الغول (حيتموراً)، وهو كل شيء لا يدوم على حالة واحدة، ويضمحل كالسراب[٤]. وذكر في وصف غدرها بالإنسان أنها اذا أرادت أن تضل إنساناً وقدت له ناراً، فيقصدها، فتدنوا منه، وتتمثل له في صور مختلفة، فتهلكه روعاً، وأن خلقتها خلقة إنسان، ورجلاها رجلا حمار[٥].

وذكروا أن الغول هو اسم لكل شيء من الجن يعرض للسُفّار، ويتلون في ضروب الصور والثياب، ذكراً كان أو أنثى، وقد قال (كعب بن زهير) الشاعر الصحابي، الذي مدح الرسول، في وصف تلون الغول:

---

[1] تاج العروس (٨/ ٣٧٢)، (صام).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٣٤١ وما بعدها)، الأغاني (١٨/ ٢٠٩ وما بعدها)، الحيوان (٦/ ٢٣٣، ٢٣٥).
[3] بلوغ الأرب (٢/ ٣٤٦ وما بعدها)، الحيوان (٦/ ٤٨)، تاج العروس (٨/ ٥١)، (غال).
[4] بلوغ الأرب (٢/ ٣٤٧).
[5] بلوغ الأرب (٢/ ٣٤٨)، الحيوان (٦/ ٢١٤).

فما تدوم على حالٍ تكون بها   كما تلوّن في أثوابها الغول[1]

وفي تلوّن الغول يقول (عباس بن مرداس السلمي):

أصابت العامَ رعلاً غول قومهم   وسط البيوت ولون الغول ألوان[2]

فالغول تتحول في أي صورة شاءت، وتتمثل في صور مختلفة، إلا رجليها، فلا بد من أن تكونا رجلي حمار[3].

وذكر أن (الغول) (السعلاة)، وهما مترادفان، وذكر أن الغيلان جنس من الجن والشياطن، والعرب تسمي الحية الغول. وقيل إن (أنياب أغوال) الواردة في شعر لأمرىء القيس، الحيات، وقيل الشياطين[4].

وإلى الشاعر (عبيد بن أبوب) شاعر (بني العنبر)، يعود قسط كبير من القصص الوارد عن (الغول) و(السعلاة). فقد كان يخبر في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة، ويبايت الذئاب والأفاعي، ويؤاكل الظباء والوحش. وقد أورد أهل الأخبار شيئاً من شعره في هذا الباب[5]. وذكر بعض علماء اللغة، أن الغول الذكر من الجن، والسعلاة الأنثى. والغول ساحرة الجن، وتقول إن الغول يتراءى في الفلاة للناس فتضلهم عن الطريق[6].

واما (السعالي)، وواحدتها السعلاة، فذكر أنها سَحَرة الجن، وقيل: إن الغيلان جنس منها، وإن الغيلان هي إناث الشياطين، وإنها ــ أي السعالي ــ أخبث الغيلان، وأكثر وجودها في الغياض، وإنها إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر، وإن الذئب يأكل السعلاة[7]. وذكر أن (السعلاة) اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغول لتفتن السفّار. وهم إذا رأوا المرأة

---

[1] الحيوان (٦/ ١٥٨ وما بعدها).
[2] الحيوان (٦١/ ١٦١).
[3] الحيوان (٦/ ٢٢٠).
[4] تاج العروس (٨/ ٥١)، (غال).
[5] الحيوان (٤/ ٤٨٢)، (هارون)، (٥/ ١٢٣، ١٣٨، ٢٤١)، (٦/ ١٢٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٥، ٢٣٥، ٢٥١، ٣٩٥).
[6] تاج العروس (٨/ ٥١)، (غال).
[7] بلوغ الأرب (٢/ ٣٤٦ وما بعدها).

حديدة الطرف والذهن، سريعة الحركة مممشوقة ممحصة، قالوا: سعلاة. وقال الأعشى:

ورجال قتلى بجنبي أريك   ونساءٍ كأنهن السعالى[1]

وذكر أن في الجن سحرة كسحرة الإنس لهم تلبيس وتخييل، وهم السعالى. وهم أقدر من الغيلان في هذا الباب[2].

الشيطان:

والشيطان هو (Satan) في الإنكليزية، و(Diabolos) في الإغريقية. ويرجع علماء اللغة كلمة (الشيطان) إلى أصل (شطن)، ويقولون إن من معاني هذه الكلمة الخبث، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له (شيطان) ومعنى ذلك أن فكرة خبث الشيطان كانت معروفة لصاحبها قبل التسمية[3]. فلما بحث عن لفظة مناسبة لها، اختاروا هذه الكلمة التي تدل على الخبث. وهو تعليل من تلك التعليلات المعروفة المألوفة التي كان يرجع إليها علماء اللغة كلما أعياهم الوصول إلى أصول الأشياء.

و(الشيطان) (ساطان) (سطن) في العبرانية، ومعناه: عدو ومشتك. في هذه اللغة[4]. ومن هذه اللغة جاءت لفظة (Satan) في الإنكليزية.

وذكر (الطبري): «والشيطان في كلام العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء»[5]. ثم قال: «وانما سمي المتمرد من كل شيء شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله وبعده من الخير». وقد قيل إنه أخذ من قول القائل شطنت داري من دارك، يريد بذلك بعدت. ومن ذلك قول نابغة بني ذبيان:

نأت بسعادٍ عنك نوى شطون   فبانت والفؤاد بهـــا رهين

---

[1] الحيوان (٦/ ١٥٨ وما بعدها).
[2] تاج العروس (٧/ ٣٧٥ وما بعدها)، (سعل).
[3] اللسان (١٧/ ١٠٤)، (شطن)، الحيوان (١/ ١٥٣، ٢٩١).
[4] غرائب اللغة (٢١٢).
[5] تفسير الطبري (١/ ٣٧ وما بعدها).

والنوى الوجه الذي نوته وقصدته، والشطون البعيد. فكأن الشيطان على هذا التأويل شطن. وما يدل على ذلك كذلك، قول أمية بن أبي الصلت:

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأكبال

ولم ترد لفظة (الشيطان) في شعر الشعراء الجاهليين، خلا شعر (أمية بن أبي الصلت) و(عدي بن زيد العبادي). والأول شاعر وقف، على ما يظهر من شعره، على شيء من اليهودية والنصرانية. وأما الثاني، فهو نصراني، لذلك يجوز لنا أن نرجع علمهما بالشيطان إلى ما جاء في اليهودية والنصرانية عنه، ولذلك نستطيع أن نقول إن هذه اللفظة جاءت العرب عن طريق أهل الكتاب.

وذكر علماء اللغة، أن (الأزب) اسم من أسماء الشياطين، وذكروا أن (الأزب) شيطان اسمه أزب العقبة، وقيل هو حية[١]. وأن من أسماء الشيطان: (الحُباب). ويقع على الحية أيضاً، لأن الحية يقال لها شيطان، وفي حديث: «الحباب شيطان».[٢] وذكروا أن من أسماء الشيطان (الطاغوت)[٣].

ومن الشياطين، شيطان اسمه (زوبعة)، وقيل هو رئيس للجن. ومنه سمي الإعصار زوبعة، ويقال أم زوبعة وأبو زوبعة وهو الذي يثير الأعصار، حين يدور على نفسه، ثم يرتفع في السماء ساطعاً كأنه عمود[٤].

وأما ما ورد في القصص عن الشياطين عند الجاهليين، فهو يختلف عما جاء عن الشيطان في الكتب اليهودية والنصرانية، مما يدل على أن منبعه منبع آخر، وأن (الشيطان) عند الجاهليين، هو غير الشيطان المعروف عند اليهود والنصارى، الذي دخل إلى العرب قبيل الإسلام وفي الإسلام.

ومن القصص المذكورة، استمد بعض الجاهليين قصصهم عن ذكاء الشيطان وعن حيله. ومن هذا القصص ولا شك استعمل الناس مصطلح (تشيطن) و(الشيطنة) بمعنى الذكاء والحيلة، لما رسخ في ذهنهم من ذلك القصص عن ذكاء الشيطان وسعة حيله وتلاعبه بأذكى البشر. وهو في التوراة ذو طبع شرير،

---

[1] تاج العروس (١/ ١٤٧)، (أزب)، (١/ ٢٨٤)، (زبب).
[2] اللسان (١/ ٢٩٥)، (حبب).
[3] تفسير الطبري (١٤/ ٧١)، (١٣١/٢٣ وما بعدها).
[4] تاج العروس (٥/ ٣٦٧)، (تزبع).

وزعيم العصاة لأوامر الله يضل الناس ويسلك بهم سبيل الخطيئة، ولذلك تعوذوا منه[١].

ومن القصص المذكور استمد أيضاً حكماء اللغة ما ذكروه من أن كلمة، الشطن تعني الحية[٢]، فقي ذلك القصص ظهور الشيطان على صورة حية خدعت أبوينا آدم وحواء في الجنة. وتمثّل هذا القصص في الأدبين العبراني والنصراني. وسبب ذلك هو ما علق بأذهان العبرانيين من مكر الحيات ودهائها وخبثها وميلها إلى الشر، وما علق بذهنهم عن هذه الصورة في الشيطان. والحية هي عند أكثر الشرقيين رمز يشير إلى الثورة والعصيان والشر. وهذه الفكرة هي من أسطورة شرقية قديمة على سقوط البشرية في الشر، وتتمثل في سقوط آدم وحواء وطردهما لذلك من الجنة، وفي تعاليم زرادشت من أن الشرير ظهر في هيأة حية، وأخذ يعلم الناس الشر[٣].

وزعم ان (شيطان الحماطة) الحية[٤]. وورد (شيطان حماط). ولعل ذلك بسبب لجوء الحيات إلى الحماط، والحماطة شجرة شبيهة بالتين، وهي أحب الشجر إلى الحيات، إذ تألفها كثيراً[٥]. وفي هذا المعنى ورد في قول الشاعر:

تلاعِبُ مثنى حضرمي كأنه تعمج شيطان بذي خروع قفر[٦]

والتعمج التلوي. والمراد هنا تلوي شيطان بمكان قفر نبت فيه الخروع. وقصد بالشيطان الحية.

وقد وصف الشيطان بالقبح، فإذا أريد تعنيف شخص وتقبيحه، قيل له: «يا وجه الشيطان» وما هو إلاّ شيطان، يريدون بذلك القبح، وذلك على سبيل تمثيل قبحه بقبح الشيطان. وقيل: الشيطان حية ذو عرف قبيح الخلقة[٧].

---

1 قاموس الكتاب المقدس (١/ ٦٥١).
2 اللسان (١٧/ ١٠٤)، تاج العروس (٩/ ٢٥٣)، (شطن)، (والعرب تسمى كل حية شيطاناً)، الحيوان (١/ ٣٠٠).
3 قاموس الكتاب المقدس (١/ ٤٠٠)، Hastings, p. 829.
4 الحيوان (٦/ ١٩٢).
5 تاج العروس (٥/ ١٢١)، (حمط).
6 الحيوان (١/ ١٥٣)، (٦/ ١٩٢).
7 الفاخر (ص ٢٣٨)، الحيوان (١/ ٣٠٠)، تاج العروس (٩/ ٢٥٣)، (شطن).

وقيل إنه كان حية زعم أنها تأتي حول البيت، فلا يطوف أحد. ولما شرعوا ببناء الكعبة في أيام شباب الرسول، جاء طير فالتقط الحية[1]. ولقبح وجه الشيطان، قالوا للذي به لقوة أو شتر، إذا سبّ: يا لطيم الشيطان. وقالوا للمتكبر الضخم: ظل الشيطان[2]. وكانوا إذا أرادوا ضرب مثل بقبح إنسان قالوا: لهو أقبح من الشيطان[3]. وقالوا لشجرة تكون ببلاد اليمن، لها مظهر كريه (رؤوس الشياطين)[4]. وبهذا المعنى فسرت (رؤوس الشياطن) في الآية: ﴿إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم: طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾[5]. «يقول تعالى ذكره كأن طلع هذه الشجرة، يعني شجرة الزقوم في قبحه وسماجته رؤوس الشياطين في قبحها»، وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء، قال: كأنه شيطان، فذلك أحد الأقوال. والثاني أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطاناً. وهي حية له عرف فيما ذكر، قبيح الوجه والمنظر، وإياه عنى الراجز، يقوله:

عنجرد تحلف حين أحلف   كمثل شيطان الحماط أعرف

ويروي عجيز: «والثالث أن يكون مثل نبت معروف برؤوس الشياطين، ذكر انه قبيح الرأس»[6]. ويظهر أن العرب في الجاهلية، كانوا يطلقون (رؤوس الشياطين) على شجر كريه المنظر جداً، قال علماء اللغة: «والصوم: شجر على شكل شخص الإنسان كريه المنظر جداً، يقال لثمره رؤوس الشياطين، يعني بالشياطين الحيات، وليس له ورق»[7]. وقد جمع هذا التفسير بين الشياطن والقبح. وبمثل الصورة التي رسمها الناس في مخيلتهم للشياطين.

وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر، وتلقنها إياه

---

[1] الفاخر (ص ٢٣٨).
[2] الحيوان (٦/ ١٧٨).
[3] الحيوان (٦/ ٢١٣).
[4] الحيوان (٦/ ٢١١)، (٤/ ٣٩ وما بعدها).
[5] الصافات، ٣٧، الآية ٦٣ وما بعدها.
[6] تفسير الطبري (٢٣/ ٤٠ وما بعدها).
[7] اللسان (١٢/ ٣٥١ وما بعدها)، (صوم).

وتعينها عليه، وتدعي أن لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود. وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا أن ذكروا لهم أسماء شياطينهم، فقالوا: إن اسم شيطان الأعشى مسحل، وللأعشى أشعار فيه، يمدحه ويثني عليه، لأنه يعاونه ويساعده في نظم الشعر فيلقيه عليه إلقاءً. وقد زعم (حسان بن ثابت) أن شيطانه الذي يلهمه الشعر هو من (بني شيصبان) من فصائل الجن. وقد انتقلت هذه العقيدة في إلهام الشعر للشعراء إلى المسلمين كذلك. وقد دعا (جرير) شيطانه الذي يلقي عليه الشعر (ابليس الأباليس)[١].

ويكنى عن الشيطان بالشيخ النجدي[٢]. وقد أشير اليه مراراً في كتب السير والأخبار. أشير إليه في بنيان الكعبة، حين حكّموا رسول الله في أمر الركن من يرفعه، فحضر في زي شيخ نجدي بين الحاضرين، وصاح: يا معشر قريش أرضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أسنانكم، وحضر اجتماع (دار الندوة). وأيد قرارهم في قتله. وذكَر علماء الأخبار، أنه عرف بالشيخ النجدي، لأنه تمثل نجدياً، وقيل لأن نجداً يطلع منها (قرن الشيطان) ورووا أحاديث تذكر ذلك، وتذكر أن الفتن تخرج من المشرق، والمشرق نجد بالنسبة لأهل الحجاز[٣].

و(قرن الشيطان)، ناحية رأسه، ومنه الحديث: تطلع الشمس بين قرني الشيطان، فإذا طلعت قارنها، وإذا ارتفعت فارقها[٤]. وفي الأساطير أن للشيطان قرنين.

وكان الكهان يستعينون بالشياطين في الإخبار عن المغيبات، يذكرون أن الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيخبرونهم عن أنباء الأرض. وكان للكاهن (صاف

---

[1] الثعالبي، ثمار القلوب (٦٩ وما بعدها)، قال الأعشى:
دعوت خليلي مسحلا ودعوا له   جهنام جدعا للهجين المذمم
وقال:
حباني أخي الجني نفسي فداؤه   بأقبح جياش العشيات مرجم
الحيوان (٢٢٥/٦ وما بعدها).
[2] تاج العروس (٢/ ٥١٢)، (نجد).
[3] الروض الأنف (١/ ٢٩١).
[4] تاج العروس (٩/ ٣٠٦)، (قرن).

ابن صياد) شيطان يلقي إليه بما خفي من أخبار الأرض، وذكر أن النجوم تقذف الشياطين، وأن الجاهليين كانوا يرون ذلك، وهو موجود في أشعار القدماء من الجاهلية، منهم عوف بن الجزع، وأوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم وكلهم جاهلي، وقد وصفو الرمي بالنجوم[١].

و(إبليس) من هذه الأفكار التي نفذت إلى العرب عن طريق أهل الكتاب، والعلماء على أن الكلمة معربة، وهي كذلك[٢]. فأصلها (ديابولس) «Diabolos»، وهي كلمة يونانية استعملت في مقابل لفظة (شيطان)[٣]. وقد أطلقت لفظة (أباليس) في مقابل (شياطين). وقد ورد أن من أسماء ابليس (قترة)، وأن اللفظة علم للشيطان. ومن المجاز أبو قترة: إبليس. وفي الحدبث نعوذ بالله من الأعميين ومن قترة وما ولد. الأعميين الحريق والسيل، قترة من أسماء إبليس، وكنيته: أبو قترة. وقترة حية صغيرة، لا ينجو سميمها[٤]، ولعل بين التسميتين صلة.

شق:

ومن الجن جنس صورة الواحد منهم على نصف صورة الإنسان، واسمه (شق)، وإنه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر اذا كان وحده، فربما هلك فزعاً، وربما أهلكه ضرباً وقتلاً. ورووا في ذلك قصصاً. منه ما زعموه من أن (علقمة بن صفوان بن أمية بن محرث الكناني) جدى (مروان بن الحكم)، خرج في الجاهلية، وهو يريد مالاً له بمكة، وهو على حمار، وعليه إزار ورداء، ومعه مقِرعة، في ليلة اضحيانة، حتى انتهى إلى موضع يقال له (حائط حزمان)، فاذا هو بشقّ له يد ورجل، وعين، ومعه سيف، وهو يقول:

---

1 الروض الأنف (١/ ١٣٥)، (فضل في الكهانة).
2 المعرب للجواليقي (٢٣)، تاج العروس (٤/ ١١١)، (البلس).
3 Ency., Reiligi., 4, p. 600, Geiger, Was hat Mohammad aus der Judenthume Aufgenomen, Leipzig, 1902, S. 107, Weil, Biblische Legenden der Muselmanner, S. 12, Shorter Ency., p. 146, Grünbaum, Beiträge zur Sem. Sagen, S. 60.
4 اللسان (٥/ ٧٣)، (إبليس)، تاج العروس (٣/ ٤٨٠)، (قتر)، (٤/ ١١١)، (البلس).

علقـــم إني مقتـــول   وإن لحمي مأكـــول
أضربهم بالهذلـــول   ضرب غلام شملول
رحب الذراع بهلول

فقال علقمة:

يا شقها ما لي ولكْ   اغمد عني مُنصلك
تقتل من لا يقتلك

فقال شق:

عبيت لك عبيت لك   كمـــا أتيـــح مقتلك
فاصبر لما قد حمّ لك

فضر بكل واحد منهما صاحبه، فخرّا ميتين[١].

الهاتف والرئي:

ويؤمن الأعراب بالهاتف، ويتعجبون ممن يرد ذلك. وهم يزعمون أنهم يسمعون الهاتف يخبرهم ببعض الخبر، فيكون صحيحاً. ومن ذلك حديث (الأعشى بن نبّاش بن زرارة الأسدي)، أنه سمع هاتفاً يقول:

لقد هلك الفياض غيثُ بني فهر   وذو الباع والمجد الرفيع وذو الفخر

فقال مجيباً له:

ألا أيها الناعي أخا الجود والندى   من المرء ننعاه لنا من بني فهر

فقال:

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا الندى   وذا الحسب القدموس والحسب القهر[٢]

---

[1] الحيوان (٦/ ٢٠٦)، (هارون).
[2] الحيوان (٦/ ٢٠٢).

وزعموا أن لنقل الجن الأخبار، علم بوفاة الملوك وأصحاب النباهة والجاه، وأمثال ذلك من الأمور الخطيرة[١].

وتتردد في الأخبار كلمة (هاتف) و(الهاتف)، بمعنى صوت صادر من مصدر غير مرئي، وردت في مواضع عديدة من القصص الجاهلي، ووردت بعدها الجمل التي قالها الهاتف لمن وجه خطابه إليه. وهي تكهن وأخبار، عن أمر وقع وحدث، أو لتحذير من القيام بعمل ما، أو بإرشاد إلى عمل أو جهة أو ما شابه ذلك من الأمور. وقد تستعمل بمعنى (الرئي) الذي يهتف للكاهن، أو الصوت الذي يزعم أنه يخرج من جوف الصنم[٢].

الرئي:

وكانوا يقولون، إذا ألف الجني إنساناً وتعطف عليه، وخبّره بعض الأخبار وجد حسّه ورأى خياله، فاذا كان عندهم كذلك قالوا: مع فلان رئي من الجن، يخبره بما وقع ويقع وعن الأسرار. وممن يقولون ذلك فيه: عمرو بن لحي بن قمعة، والمأمور الحارثي، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وهم من الرؤساء السادة، وقد كان لكل كاهن وعرّاف رئي يخبر صاحبه بما يسأل عنه. وذكر أنه قد كان مسيلمة يدعي أن معه رئي في أول زمانه، ولذلك قال الشاعر حين وصفه:

ببَيْضة قارورٍ وراية شادنٍ   وخلة جني وتوصيل طائر[٣]

الملائكة:

والملائكة هم روحانيون، أي من أرواح في نظر أهل الجاهلية. ويدل ورود الملائكة في مواضع عديدة من القرآن الكريم ومن الآيات التي تشير الى مجادلة المشركين ومحادثتهم للرسول في الملائكة، أن فكرة الملائكة كانت معروفة شائعة

---

[1] المصدر نفسه (ص ٢٠٣).
[2] تاج العروس (٦/ ٢٧٣)، (هتف).
[3] الحيوان (٦/ ٢٠٥ وما بعدها)، (هارون).

بينهم، وأن بعض العرب كانوا يعبدونها، كما يظهر ذلك من الآية: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا: سبحانك أنت وليّنا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن، اكثرهم بهم مؤمنون﴾[1].

غير أن المفسرين، لم يشيروا إلى أولئك الذين تعبدوا للملائكة، ولم يذكروا أسماءهم، مع أنهم ذكروا اسم من تعبد للجن[2]، بل يظهر من تفسيرهم للآية المذكورة، أنها وردت على سبيل الاستفهام «كقوله عز وجلّ لعيسى: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال النحاس: فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم اذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت لهم، فهو استفهام توبيخ للعابدين»[3]. ولكنهم أشاروا في مواضع أخرى إلى أن مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونها. ويقولون إن أمهاتهن بنات سروات الجن، يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس[4].

وقد أشير في القرآن الكريم، إلى أن من الجاهليين من زعم أن الملائكة بنات الله[5]. وتحدث المفسرون في تفسير ذلك، غير أنهم خلطوا في الغالب بين الملائكة والجن. ولم يأتوا بشيء يذكر عن رأي أهل الجاهلية في الملائكة. وما ذكروه هم عن الملائكة، هو اسلامي، يرجع في سنده الى أهل الكتاب، ولا سيما القصص الإسرائيلي، ولهذا فهو مما لا يمكن أن يقال عنه إنه يعبر عن رأي الجاهليين. ويظهر أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية ثم النصرانية، وهم لا يعرفون الكتاب، إلاّ من كان منهم على دين اليهودية أو النصرانية، أو كان من الحنفاء أو على اتصال بأهل الكتاب، كأمية بن أبي الصلت وأمثاله.

وقد أشير الى الملائك، أي (الملائكة) في شعر ينسب إلى (أمية بن أبي الصلت)، هو:

---

1 سبأ، الآية ٤٠ وما بعدها.
2 راجع تفسير الطبري (٢٢/ ٦٩)، روح المعاني (٢٢/ ١٣٩)، القرطبي، الجامع (١٤/ ٣٠٩).
3 القرطبي، الجامع (١٤/ ٣٠٨ وما بعدها).
4 تفسير الطبري (٢٣/ ٦٧ وما بعدها).
5 الصافات، الآية ١٤٩ وما بعدها، الإسراء، الآية ٤٠، الزخرف، الآية ١٥ وما بعدها، تفسير الطبري (١٤/ ٨٣).

وكأن برقعَ، والملائك حوله   سدرٌ تواكله القوائم أجرد[1]

وورد (ملأك) في شعر رجل من عبد القيس جاهلي يمدح بعض الملوك، قيل هو النعمان. وقيل هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير:

فلست لإنسيّ، ولكنِ لِملأك   تنزل من جو السماء يصوب [2]

وقد زعم أن الملائكة تصافح الناس وتناجيهم. زعم ذلك حتى في الإسلام. ذكر (ابن دريد) أن (عمران بن الحُصين بن عُبيد بن خلف)، وهو من الصحابة، وعرف بـ (أبي نجيد)، «كانت تصافحه الملائكة وتناجيه لداء كان به، فاكتوى، فذهب عنه ذلك. وذهب ما كان يسمع ويرى»[3].

السحر:

والسحر من أهم الوسائل التي لجأ إليها البشر وأقدمها منذ أعتق أيامه فى التأثير على الأرواح، وقد جعله جزءاً من الدين، لذلك كان من اختصاص رجال الدين، يقومون به في المعابد قيامهم بالشعائر.

واذ كان معظم الناس في الزمن الحاضر يفرقون بين الدين والسحر، ويعدّون السحر شيئاً بعيداً عن الدين، بل هو ضد الدين، فإن قدماء البشر لم يكونوا ينظرون إليه هذه النظرة، كانوا ينظرون اليه كما قلت على أنه جزء مهم من الدين، بل هو أهم جزء فيه وأعظمه، بل ما زلنا نجد ديانات القبائل البدائية تعدّ السحر جزءاً من الدين[4]. وهو كذلك في كل دين بدائي.

وعمل الساحر هو السحر، والسحر في عرف بعض علماء اللغة الإسلاميين هو

---

[1] اللسان (١٠/ ٤٩٦).
[2] اللسان (١٠/ ٤٩٦).
[3] الاشتقاق (٢/ ٢٧٨)، (طبعة أوربة)، (إنه كان يرى الحفظة، وكانت تكلمه حتى اكتوى)، الإصابة (٢٧/٣)، (الرقم ٦٠١٢).
[4] R. Campell Thompson, Semitic Magic its Origins and Development, London, 1908, p. XVII, Smith, p. 90.

«عمل يقرب فيه إلى الشيطان»[1]. وقد فسّر بعض العلماء كلمة (الجِبْت) في القرآن الكريم بمعنى السحر، كما ذكر أنها تعني الساحر والكاهن والصنم وكل ما عبد من دون الله. وفسر (الطاغوت) بمعنى الشيطان[2].

وقد وردت كلمة (السحر) و(سحر) و(الساحر) و(الساحرون) و(السحرة) و(مسحوراً) و(مسحورون) في مواضع عديدة من القرآن الكريم، ويدل ورودها فيه بهذه الكثرة على مبلغ أثر السحر في عقلية الجاهليين. وقد اتهم أهل مكة الرسول أنه ساحر، حينما أخبرهم بنزول الوحى عليه. وقالوا إنه يستمد وحيه من الشياطين.

وقد جمع البخاري بين الكهانة والسحر بأن قدّم الكهانة على السحر، لأن مرجع الاثنين شيء واحد هو الشياطين[3].

وقد حملت تلك المواضع من القرآن الكريم المفسربن على جمع ما علق بأذهان الناس عن السحر. أما كتب الحديث ففيها مادة مفيدة وردت ضمناً عن عقيدة أهل الجاهلية به. كما وردت في أخبار أهل الأخبار إشارات إليه، تجمل جميعها أن الاعتقاد بالسحر بين الجاهليين كان شائعاً معروفاً، وأن ممارسيه في جزيرة العرب كانوا عرباً ويهوداً، وأنهم كانوا يرون أن أصوله في بابل وعند يهود.

وقد كان أكثر السحرة في الجاهلية من يهود[4]. يقصدهم الجاهليون من أنحاء بعيدة، لاعتقادهم بسعة علمهم وباختصاصهم فيه. وكان اليهود، يسندون علمهم إلى بابل، ولهذا نجد الأحاديث والأخبار العربية ترجع علم السحر إلى بابل واليهود.

والفرق بين الكهانة والسحر إن الكهانة تنبؤ، فسند الكاهن هو كلامه الذي يذكره للناس. أما السحر، فإنه عمل في الأكثر، للتأثير في الأرواح، كي تقوم بأداء ما يطلب منها. ولا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل. ويصحب هذا

---

[1] تاج العروس (٣/ ٢٥٨)، (سحر)، اللسان (٤/ ٣٤٨)، (سحر).
[2] النساء، الآية ٥٠، «وسُمّي الساحر والكاهن جبتاً»، المفردات (٨٣)، تاج العروس (١/ ٥٣٥)، شمس العلوم (جـ١، ق٢، ص ٢٤٤).
[3] عمدة القارئ (٢١/ ٢٧٣، ٢٨٢)، «باب السحر»، إرشاد الساري (٨/ ٤٠١)، الطبري (٢/ ٤٢١، ٤٤٥)، الطبرسي (١ ــ ٢)، (٣٨٤).
[4] عمدة القارئ (٢١/ ٢١٣)، الطبري (٢/ ٤٣٩)، العقد الفريد (٦/ ٢٧٦)، تفسير الرازي (١٧ ــ ١٨)، (ص ٩)، سنن ابن ماجة (٢/ ١١٧٣، روح المعاني (٣٠/ ٢٨٢).

العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم، وإشارات، يدعي الساحر أنه انما يقوم به وبالاشارات لتسخير الأرواح، وإن ما يفعله مفهوم عند جنوده، وهم الجن والشياطين.

وفن مثل هذا مغر جداً، فمن من الناس من لا يريد تسخير القوى الخفية لخيره ولصالحه، وإلحاق الأذية بأعدائه ومبغضيه. ولذلك كان للسحر والسحرة أثر خطير في التأريخ، بالرغم من مقاومة بعض الأديان له. فما يقوم به السحرة من أعمال وخفة، وما لشخصيات بعض السحرة من تأثير نفسي كبير، تجعل من الصعب على بعض الناس أن يكذّبوا أقوالهم وأفعالهم، ولذلك يتأثرون بهم، ويأخذون بما يقولونه لهم، حتى تكون للساحر مكانة كبيرة في نفس ذلك الشخص.

وللسحر أغراض عديدة، وقد استخدم في معالجة أمور كثيرة، حتى إدارة الملك والقضاء على الأعداء، للسحر وللسحرة فيها صولات وجولات. ومن الطبيعي أن يكون للحب المكانة البارزة فيه، حتى ليكاد يتخصص بهذا الجانب من حياة الإنسان. ولما كانت العادة أن يتزوج الرجل من جملة نساء صار السحر من أهم الوسائل التي استعانت بها الزوجات للتأثير في قلب الرجل، ولكسب المكانة الأولى عنده، وللتفريق بين الرجل وبين بقية أزواجه. ومصداق ذلك ما ورد في القرآن الكريم عن السحرة في هذه الآية: ﴿ولكن الشياطين كفروا، يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة، فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾[1]. فالتفريق بين المرء وزوجه، كان ولا يزال من أهم أعمال السحرة. ونجد في الحديث تقريعاً ولوماً للسحرة لاستخدامهم السحر في هذا الغرض الفاسد.

والساحر في معالجة الحب على طريقيْن: إشعال جذوة نار الحب في قلب من يقصد إثارته عنده، أو اطفاء نارها وإخمادها واماتتها في قلب المسحور. ولكل من الطريقين قواعد وأحكام وأصول يجب تطبيقها بعناية، وإلا بطل فعل السحر.

أما إشعال نيران الحب، فيكون بطرق متعددة يتبعها الساحر، فقد يستعين بالنباتات. والأعشاب، يستخرج أدوية منها يقدمها إلى المرأة لتُوجر الرجل إياها سراً. وقد يستعين بالجمر يقرأ عليه، ثم يرمى في الممرات التي يمر الرجل،

---

[1] البقرة: الآية ١٠٢، عمدة القارئ (٢٠/ ٢٧٨ وما بعدها).

أو الشخص المراد سحره منها. وقد يدفن السحر في موضع كمقبرة أو محل آخر ليؤثر من ذلك الموضع على المسحور. وقد يستعين بالخرز يسحر عليها، فتحبب المرأة إلى زوجها، وتسمى (التوِلْة)[١].

وكما يستعمل السحر لإشعال نيران الحب في القلب، كذلك يستعمل لايقاد البغض والكراهية في النفوس. فقي استطاعة الساحر بما عنده من جنود مجندة أن يلقي البغضاء والكراهية والحقد في نفس أي شخص يود انساناً آخر، فينقلب مبغضاً حاقداً كارهاً لمن كان يحبه ويعشقه. ومجال هذا الباب واسع جداً للنساء خاصة.

وفي استطاعة الساحر مداواة العاشق وإماتة عشقه بوصفة يعطيها إليه تقضي على حبه الجامح قضاءً تاماً يسمونها (السلوانة) و(السلوان). وما هذه الوصفة إلاّ مادة ذات سحر عجيب يغتسل بها الإنسان أو يشربها، فتطفيء في الحال أو بعد أمد كل نيران الحب مؤججة في قلب العاشق. والسلوانة هي شيء من تراب قبر، أو خرزة تسحق ويشرب ماؤها؛ فيورث شاربها سلوة. وتكون الخرزة شفافة، تدفن في الرمل فتسود، ثم تستخرج لسحقها وشربها، وقد يكتفى بصب ماء المطر على تلك الخرزة لسقي العاشق ذلك الماء الذي يسمونه (السلوان)، ليشفى من العشق[٢]. ولا بد أن يكون لاختيار الماء وتراب القبر أو مسحوق الخرزة في معالجة العشق، سبب يمكن تفسيره بأنه لغسل قلب المحب، وإماتة الحب فيه.

ومن أهم الأعمال التي يعالجها السحرة، إخراج الجن من المجانين فالجنون هو من عمل الجن. تحل الجنة بالإنسان فتأخذ عقله. ومن هنا قيل لهذا المرض (جنة) و(جنون)[٣]. ومن واجب الساحر إخراج الجن من هؤلاء المرضى، وهو عمل يقوم به الساحر حتى اليوم، ويكون ذلك بضرب المريض بالعصا لإخراج

---

[1] بالكسر وبالضم، «وقيل هي معاذة تعلق على الإنسان»، اللسان (١٣/ ٨٥).

[2] يا ليـــت أن لقلبي من يعلـــله   أو ساقياً فسقاني عنـــك ســـلوانا

وورد:

شربت على سلوانة ماء مزنة   فلا وجديد العيش يا مي ما أسلو

وجاء:

جعلت لعراف اليمـــامة حكمة   وعراف نجد إن همـــا شـــفياني

فما تركا من رقيـــة يعلمانهـــا   ولا ســـلوة إلاّ بهـــا ســـقياني

اللسان (١٩/ ١١٨ وما بعدها).

[3] تاج العروس (٩/ ١٦٤ وما بعدها)، «جنن».

الجنة منه. أو بسقيه بعض الأشربة السحرية، أو بتدليك جسمه وغسله، وبإدخاله محلاً مظلماً هادئاً يحرق فيه البخور، وبتعليق بعض العزائم والحجب وما شاكل ذلك لإبعاد الجن عن المجنون وإعادة عقله اليه.

ويداوي الساحر أمراضاً عديدة أخرى، بل كل أنواع الأمراض، وما المرض في نظر القدماء إلاّ أرواح شريرة حلت في الأجساد أو بجزء منها، فألحقت بها الأمراض. ولن يشفى الجسد أو الجزء المصاب منه إلاّ بطرد تلك الأرواح. وطرد الأرواح من أعمال السحر. والساحر هو سلف من أسلاف الأطباء. وكلمة (طبيب) العربية هي من هذا الأصل. فالطب في اللغة السحر، و(المطبوب) هو المسحور، والطابّ هو الساحر يستخدم طبه في الشفاء[1]. وقد أدخلت كتب الحديث السحر في (كتاب الطب)[2]. فالساحر هو طبيب يعالج أشياء عديدة، ثم تخصص الأطباء بالطب، غير أن الأطباء ظلوا يمارسون حتى في أوروبة السحر في معالجة مرضاهم مدة طويلة، إلى أن تطور العلم، وظهر البحث الحديث.

ويقوم أكثر مداواة المرضى بواسطة السحر بالنفث على المريض أو في فمه وبإمساك الرأس أو الجزء المريض، لقراءة شيء عليه يضمن شفاءه، أو بتدليك ذلك الجزء منه. وقد يعطى حجباً وتمائم تشفي المريض من مرضه. والنفث في الفم من العادات الجاهلية القديمة، يقوم به الكاهن والساحر والأب في بعض الأحيان، لاعتقادهم أن ذلك سيلهم الطفل فيعلمه العلم والحكمة والذكاء ويمنحه الصحة الجيدة.

ومن طرق السحر عند الجاهليين، النفثُ في العُقد، وقد دلتّ عليه هذه الآية الكريمة: ﴿ومن شر النفّاثات في العقد﴾[3]. ويكون ذلك بعقد عقد والنفث عليها[4]. ويذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن (لبيد بن أعصم

---

[1] صحيح مسلم (٧/ ١٤)، اللسان (٢/ ٤٢)، تاج العروس (١/ ٣٥١)، عمدة القارئ (٢١/ ٢٢٩).
[2] راجع كتب الحديث: (كتاب الطب)، إرشاد الساري (٨/ ٣٦٠ وما بعدها)، عمدة القارئ (٢١/ ٢٧٧ وما بعدها).
[3] الفلق: الآية ٤.
[4] الكشاف (٤/ ٢٤٤)، تاج العروس (١/ ٦٥٠)، «نفث»، صحيح مسلم (٧/ ١٤)، «باب السحر»، عمدة القارئ (٢١/ ٢٨٠ وما بعدها)، أسباب النزول (٣٤٦ وما بعدها).

اليهودي) سحر الرسول، ودس ذلك السحر في بئر (لبني زريق) تسمى (بئر ذروان) (بئر ذي أروان)، وأنه وضع ذلك السحر في جف طلعة تحت راعوفة، أي في قشر الطلع وتحت حجر في أسفل البئر. فلما استخرج السحر، وجدوه مشاطة رأس وأسنان مشطه، وإذا فيه معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر[1]. ويقوم بهذا السحر الرجال والنساء. غير أن المفسربن وأهل الأخبار واللغة حينما يذكرون هذا النوع من السحر يذكرون أن النساء النفاثات هن اللواتي كنّ يقمن بذلك، أخذوا رأيهم هذا من الآية المذكورة التي تشير الى بنات لبيد وكنّ ساحرات، والإشارة في هذه الآية عن حادث معين، ولم يقصد بها الاطلاق.

والنفث في العقد، وعقد سبع عقد توضع فيها مادة السحر، من طرق السحر القديمة المعروفة عند العبرانيين والآشوريين وغيرهم. وقد عثر في الكتابات المسمارية على تعليمات في كيفية اتقاء شر الأرواح الخبيثة وأرواح الأموات الشريرة التي تسحر الناس، فكان مما جاء فيها عقد سبع عقد ووضع مادة سحرية فصلت في تلك التعليمات لاتقاء شر سحر تلك الأرواح[2].

ويذكر المفسرون وأهل الحديث أن الرسول لما سحره (لبيد بن الأعصم) من (بني زريق)، كان «يخيل إليه أنه كان يفعل شيئاً وما فعله»[3]، حتى علم بسحر (لبيد)، فلما استخلصه من البئر، ذهب أثر ذلك السحر عنه.

وقد كان السحرة اليهود يقرأون شيئاً ويهمهمون عند عقدهم كل عقدة من هذه العقد، ويقال لذلك Ghabar [4]. ومن هؤلاء اقتبس السحرة العرب طريقهم في النفث على العقد.

والمواد التي يستعين بها الساحر لعمل السحر عديدة. أوراق بعض النباتات والملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات يدفنها أو يحرقها أو يذيبها في الماء. وفي كل سحر لا بد أن يشفع الساحر سحره بطقوس أو بحركات خاصة، وبتمتمة تلقي في الروع أن الساحر يقول شيئاً ويخاطب أشخاصاً هم الجن. والتمتمة

---

[1] الطبرسي، الجزء التاسع، المجلد الخامس (٥٦٨)، إرشاد الساري (٨/ ٤٠٣ وما بعدها، ٤٠٧).

[2] Semitic Magic, p. 33.

[3] إرشاد الساري (٨/ ٤٠٣ وما بعدها)، شرح صحيح مسلم، للنووي (٩/ ١٥) «حاشية على إرشاد الساري»، الطبري (٢/ ٤٢٩)، سنن ابن ماجه (٢/ ١١٧٣).

[4] Hastings, p. 569.

هي في الغالب كلام غير مفهوم عند الناس، ولكنه عند الساحر وجنوده الجن والشياطين كلام واضح بليغ.

ويعمد السحرة إلى الصور والرموز في سحرهم، ومنهم من كانوا لا يعرفون الكتابة ولا القراءة فيرمزون إلى من يريدون سحره، أو إلحاق الأذى به، أو يصورونه. وقد يشيرون بالصور والرموز إلى الجن والشياطن. وهم في الغالب يدفنون تلك الصور والرموز في المقابر، لأنها من أنسب الأماكن للسحر. وقد عثر على عدد من هذه الاشارات والصور السحرية. ومنها ما هو مكتوب بكتابات لها صور بالسحر[١].

إبطال أثر القوى الخفية:

وقد حمل اعتقاد الجاهليين بوجود قوى خفية تؤثر في الإنسان، أهل الجاهلية على العمل على التغلب على تلك القوى أو الحد منها وايقاف فعلها وذلك بابتداعه طرقاً عديدة لذلك، مثل استعماله (النفرات) أو السحر، أو (الرقي)، أو التمائم، والتعاويذ وما شابه ذلك من أمور.

و(النفرة) شيء يعلق على الصبى لخوف النظرة[٢]. و(التنفير) الطرق التي يستعملها الإنسان لتنفير القوى الخفية وإبعادها عنه. وطريقتهم في ذلك شبيهة بطرقهم في تنفير الثقلاء وغير المرغوب فيهم من الناس وإبعادهم، وذلك باتخاذ كل ما ينفر ويقزز، لتعاف تلك الأرواح المواضع التي اختارتها والأشخاص الذين نزلت بساحتهم وحلت في أجسامهم، ومنها طريقة (التنجيس). وطريقتهم في ذلك تعليق الأقذار من خرق المحيض وعظام الموتى وأمثال ذلك على الصبي ومن يُخاف عليه عيون الجن، لاعتقادهم أن الجن سوف تبتعد عن هؤلاء وتهرب منهم. ويقال للمعوذ (المُنجِّس)، وللشخص الذي عوّذ له (المُنجَّس). والتنجيس يشفي إلاّ من العشق[٣].

---

[1] Hastings, p. 569.

[2] تاج العروس (٣/ ٥٧٩)، (نفر).

[3] ورد: «وعلق أنجاساً على المنجس»، اللسان (٨/ ١١١)، (نجس)، بلوغ الأرب (٢/ ٣١٩).

واتخذ الجاهليون طرقاً عدة للتخلص من الجن، ولا سيما من الخطفة والنظرة، أي من خطف الجن للأطفال ومن حسدها لهم. فهداهم تفكيرهم إلى تعليق بعض الأشياء على الصبي[1]، مثل سنّ ثعلب، أو سن هرة، وتقطير شيء من السوائل في عينيه عند الولادة لتنفير الجن منه. وتسمى هذه الأمور المنفرة للجن النفرات[2].

ومن النفرات التحايل على الجن بتغيير الأسماء، بتغريبها، كأن يسمى الصبي بأسماء بعض الحيوانات الصغيرة أو الأشياء التافهة الحقيرة، وبذلك تنفر الجن منه، فلا تقترب منه، ولا تمسه بسوء[3]. «قال أعرابي لما ولدت قيل لأبي نفر عنه، فسماني قنفذاً وكناني أبا العدّاء»[4].

التحصن من الجن:

والاستعاذة بالجن تفيد أيضاً في نظر الجاهليين في حماية الشخص من أذاهم. فإذا استعيذ بعظيم الجن، استجاب العظيم نداء المستعيذ. فكان المسافرون إذا خافوا من طوارق الليل، عمدوا إلى وادٍ ذي شجر، فأناخوا رواحلهم، وعقلوها وخطوّا عليها خطاً ثم نادوا: نعوذ بعظيم هذا الوادي، أو نعوذ بصاحب هذا الوادي. فيستجيب عندئذ عظيم الوادي لنداء المستعيذ، فلا يسمح لأحد أن يلحق به أذى.. وقد أشير إلى ذلك في القرآن: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن، فزادوهم رهقاً﴾[5]. وذكر أن العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض، وتوسطوا بلاد الحوش، خافوا عبث الجنان والسعالي والغيلان والشباطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته: إنا عائذون بسيد هذا الوادي فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك خفارة[6].

---

1 بلوغ الأرب (٢/ ٣١٩).
2 بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٥)، (التاج).
3 بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٥).
4 اللسان (٧/ ٨٥)، التاج (٣/ ٥٧٩)، (نفر).
5 سورة الجن، الآية ٦.
6 الحيوان (٦/ ٢١٧).

ذبائح الجن:

ولارضاء الجن وإسكانها، وتجنب أذاها، قام الجاهليون بتقديم الذبائح لها. فاذا أراد إنسان السكن في بيت جديد، أو استخراج الماء من بئر احتفرها أو من عين ماء، أو ما شاكل ذلك وخاف من وجود الجن فيها ذبح ذبيحة، يرضى بها الجن، فلا تتحرش عندئذ به ولا تصيبه بأذى، لأنه قد تقرب بالذبيحة إليها وبيّن لها أنه صديق لها، فيعيش عندئذ قرير العين في بيته الجديد، لا يمس عماره بسوء. ويقال لهذه الذبائح: (ذبائح الجن). وقد نهى الإسلام عن ذبائح الجن. ورد أنهم «كانوا اذا اشتروا داراً أو استخرجوا عيناً أو بنوا بنياناً، ذبحوا ذبيحة مخافة أن تصيبهم الجن، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك»[1].

و(النُّشرة) سلاح مفيد جداً لحل عقد الرجل عن مباشرة أهله. وقد كانت مشهورة في أيام الرسول. وقد أباح العلماء «النشرة العربية التي لا تضر إذا وطئت، وهي أن يخرج الإنسان في موضع عضاه، فيأخذ عن يمينه وشماله من كل، ثم يذيبه ويقرأ فيه، ثم يغتسل به»[2]. ويدل نعت هذه النشرة بالنشرة العربية على وجود نشرات غير عربية، وهي النشرات التي كان يعملها اليهود. وقد كانوا يستعملون الأدعية العبرانية، لذلك نهى الإسلام عن استعمال تلك النشرات.

و(النُشرة) في تعريف علماء اللغة: رقية يعالج بها المجنون والمريض ومن كان يظن أن به مساً من الجن. وإذا نشر المسفوع كان كأنما أنشط من عقال، أي يذهب عنه سريعاً. وفي الحديث أنه سئل عن النشرة، فقال هي من عمل الشيطان. وقد أدخلها بعضهم في السحر[3].

و(العوذة) ويقال لها (المعاذة) و(المعاذات)، تستعمل في التعويذ

---

1 اللسان (٣/ ٢٦٢)، تاج العروس (٢/ ١٣٨)، (ذبح)، اللسان (٢/ ٤٣٧)، (ذبح)، (صادر).
2 عمدة القارئ (٢١/ ٢٨٤)، تاج العروس (٣/ ٥٦٦)، سنن أبي داوود (٤/ ٦).
3 تاج العروس (٣/ ٥٦٦)، (نشر)، الحيوان (٤/ ١٨٥)، اللسان (٥/ ٢٠٩)، (نشر)، (صادر).

من الفزع والجنون[1]. وتبعث تسميتها على الظن بأنها من المصطلحات الإسلامية، وأنها أخذت تسميتها من المعوذتين. غير أن ورودها في مواضع عديدة من الحديث، واستعمالها في القرآن الكريم للتعبير عن فكرة معينة معلومة، يدلان على أنها من المصطلحات التي كانت معروفة بين أهل (يثرب) حتى إن بعض الصحابة ذكروا أنها نزلت للتعويذ. ومعنى (أعوذ) أعتصم والتجىء، فلا يستبعد أن يكون أهل يثرب على الأقل قد تعلموا ذلك من اليهود الذين كانوا يقرأون بعض التعاويذ من التوراة لحماية أنفسهم من شر الأمراض.

وتستعمل (الرقية) في مداواة الآفات، مثل الحمى والصرع والنظرة ولدغات العقارب والحيات وأمثال ذلك، وتكون بقراءة شيء على المريض أو على موضع المرض ثم النفث عليه، أو بحمل شيء مكتوب. وقد جاء في بعض الأحاديث جوازها في الإسلام، وفي بعضه النهي عنها. وقد ذكر الحديث أن الإسلام نهى عن الرقية التي تكون بلسان غير عربي، ويدل هذا على أن الجاهليين كانوا يذهبون إلى أهل الكتاب ولا سيما اليهود منهم، فيرقونهم بالعبرانية أو السريانية، ولذلك نهوا عنه. وقد عرضت بعض أنواع الرقية التي كان يستعملها أهل الجاهلية على الرسول لأخذ رأيه فيها، فأباحها لهم، وأباح لهم كل رقية ليس فيها شيء من ألفاظ الجاهلية[2].

وقد حفظت الكتب لنا أنموذجات من بعض الرقى منها هذه الرقية التي استعملت في اشعال نيران الحب: «هوا به هوا به، البرق والسحابة، أخذته بمركن. فحبه تمكن. أخذته بإبره، فلا يزل في عبره، جلبته بإشفى، فقلبه لا يهدأ. جلبته بمبرد، فقلبه لا يبرد»[3]. فهذه الرقية تلهب قلب الرجل وتهيجه، وتجعله كأنه في إجانة غسل الثياب. يعمل على وفق ارادة المرأة التي استعملت تلك الرقية.

---

[1] اللسان (٥/ ٣٤)، سنن ابن ماجة (٢/ ١١٦٣)، اللسان (٣/ ٤٩٩)، العقد الفريد (٦/ ٢٧٤).

[2] شرح الإمام النووي على متن مسلم (٩/ ٣٩)، إرشاد الساري (٨/ ٣٩١)، سنن أبي داود (٤/ ١٠ وما بعدها)، اللسان (١٤/ ٣٣٢)، (صادر)، (١٩/ ٤٩)، تاج العروس (١٠/ ١٥٤)، اللسان (٣/ ٤٩٩)، (٤/ ٣٣٢)، صحيح مسلم (٧/ ١٨)، سنن ابن ماجة (٢/ ١١٦٦)، (كتاب الطب ٣٨).

[3] بلوغ الأرب (٣/ ٧).

أما إذا سئمت المرأة زوجها، وأرادت الابتعاد عنه، وطرده عنها، فسبيلها في ذلك رقية تبعد الرجل، وتنفره منهما، وذلك بأن تقول: «بأفول القمر، وظل الشجر، شمال تشمله، ودبور تدبره، ونكباء تنكبه، شيك فلا انتقش». فاذا أتمت ذلك، رمت في أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة. ثم تقول: «حصاة حصت أثره، ونواة نأت داره، وروثة راثت خبره، لفعته ببعرة»[١].

و(العزائم) الرقيّ، أو ضروب منها. يقال عزم الراقي، كأنه أقسم على الداء، وعزم الحوّاء، إذا استخرج الحية. كأنه يقسم عليها. والعزيمة من الرقي التي يعزم بها على الجن والأرواح[٢]. ومن اعتقادات الأعراب أن الجن لا تجيب صاحب العزيمة، حتى يكون المعزّم مشاكلاً لها في الطباع[٣]. وأن للمعزمين جنوداً من الشياطين والجن تتبع أوامرهم وتطيعهم وتخدمهم وتتصرف بين أمرهم ونهيهم[٤].

ومن ضروب الرقية، ما يدعيه الحوّاء من إخراج الحية من جحرها، بعزيمة يقوم بها، تجبرها على الخروج منه. وقد قالت بذلك الشعراء في الجاهلية والإسلام. وكانوا يؤمنون بذلك ويصدقون به. وقد أشير في شعر لأمية بن أبي الصلت، إلى اخراج الحية من جحرها. وقد تحدث (الجاحظ) عن ذلك، وعلل سبب خروجها وجاء بأبيات شعر في ذلك، وتحدث عن تمويه الحواء والراقي[٥].

و(التمائم) ومفردها (التميمة)، هي عوذة على هيأة قلادة من سيور تضم خرزاً، وقد تكون من خرزة واحدة تستعمل للصبيان والنساء في الغالب اتقاء النفس والعين. فاذا كبر الطفل، انتزعت التميمة منه. وقيل: التمائم «خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين بزعمهم، فأبطله الإسلام». وذكر أن التميمة خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق. وكانوا يعتقدون أنها تمام الدواء والشفاء[٦]. وقد أشير إليها في الشعر الجاهلي.

---

[1] بلوغ الأرب (٣/ ٧).
[2] اللسان (١٢/ ٤٠٠)، (عزم)، الحيوان (٤/ ١٨٤).
[3] الحيوان (٤/ ١٨٥ وما بعدها).
[4] الحيوان (٤/ ١٨٤ وما بعدها)، الفهرست، (الفن الثاني من المقامة الثامنة).
[5] الحيوان (٤/ ١٨٤ وما بعدها).
[6] اللسان (١٢/ ٦٩ وما بعدها)، (تمم).

وكانوا يستعملونها بكثرة، يتعوذون بها، لذلك عدها بعض الصحابة من الشرك، لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموت وأرادوا دفع ذلك بها، وطلبوا دفع الأذى من غير الله[1].

وللخرز عند الجاهلين وعند الأعراب حتى اليوم، أهمية كبيرة في السحر، وفي دفع أذى الأرواح والعين، وفي النفع والحب، وأمثال ذلك. ولما كانت الخرز فصائل وأنواعاً، فقد خصوا كل فصيلة باسم معين، وجعلوا لكل قسم وصنف أثراً خاصاً يمتاز به عن بقية الأصناف الأخرى. فالتولة مثلاً الخرزة التي تحبب المرأة إلى زوجها[2]، و(العُقرة) (خرزة العقر) خرزة تشدها المراة على حقويها لئلا تلد. يزعم الأعراب أنها إذا علقت على حقو المرأة لم تحمل إذا وطئت. وقيل العكس: العقرة خرزة تعلق على العاقر لتلد[3]. و(الينجلب) خرزة للتأخيذ، تفيد في رجوع الرجل بعد الفرار وفي اكتساب عطفه بعد وقوع بغضه[4]. وكانوا يقولون أقوالاً في ذلك مثل: «أخذته بالينجلب، فلا يرم ولا يغب، ولا يزل عند الطنب»، و«وأعيذه بالينجلب، أن يقم وأن يغب». فهم يربطون الرجل بهذه الخرزة. فيجعلونه لا يفارق بيته وأهله.

و(الخَصُمة)، وهي خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت الخاتم أو في زر القميص أو في حمائل السيف[5]. و(العطفة) هي خرزة تجلب العطف لصاحبها[6]. و(السلوانة) خرزة تسحق ويشرب ماؤها، فيورث شاربه سلوة. وقيل: خرزة للتأخيذ، يؤخذ بها النساء الرجال، وقيل خرزة للبغض بعد المحبة، وقيل خرزة شفافة تدفن في الرمل، فتسود فيبحث عنها ويسقاها الإنسان فتسليه، أو يسقاه العاشق فيسليه عن المرأة. وقيل خرزة كانوا يقولون: اذا صب عليها ماء المطر، فشربه العاشق سلا. أو هو أن يؤخذ تراب قبر ميت: فيجعل في ماء فيسقى العاشق، فيموت حبه، أو هو دواء يسقاه الحزين

---

[1] اللسان (١٢/ ٧٠)، (تمم)، سنن أبي داود (٩/٤)، النهاية (١/ ١٤٣)، تاج العروس (٧/ ٢٤٢)، شحن العلوم (جـ١ ق١ ص ٢١٥).

[2] تاج العروس (٧/ ٢٤٢).

[3] تاج العروس (٣/٤١٤)، (عقر)، بلوغ الأرب (٣/ ٧).

[4] تاج العروس (٨/ ٣٧٩)، بلوغ الأرب (٣/ ٧).

[5] تاج العروس (٨/ ٣٧٩)، (خصم).

[6] تاج العروس (٦/٢٠٠)، بلوغ الأرب (٣/ ٧).

فيفرحه[1]. و(القرزحلة)، وهي خرزة من خرز الضرائر[2].

وكانوا يرقون بالخرز. فلخرزة (الهنمة)، رقية خاصة، هي: «أخذته بالهنمة، بالليل زوج وبالنهار أمة»[3]. وللقبلة و(الدردبيس)، وهي خرزة مؤثرة ذات قوة فعالة، يتحبب بها النساء إلى أزواجهن، تؤخذ من القبور العادية، أي القبور الجاهلية القديمة، رقية خاصة، هي: «أخذته بالدردبيس تدرّ العرق اليبيس، وتذر الجديد كالدريش». وقيل الدردبيس خرزة سوداء، كأن سوادها لون الكبد، إذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف مثل العنبة الحمراء للحب، تتحبب بها المرأة إلى زوجها، توجد في قبور عاد[4].

ومن خرزهم: (كرار)، خرزة تؤخذ بها نساء الأعراب. وقيل خرزة تؤخذ بها النساء والرجال. ورقيتها: «يا كرار كرّيه، يا همرة اهمريه، إن أقبل فسريه، وإن أدبر فضريه، من فرجه الى فيه»[5]. ومنها (الهمرة)، خرزة للتأخيذ. وهي خرزة الحب، يستعطف بها الرجال، ورقيتها: «يا همرة اهمريه، ويا غمرة اغمريه، إن أقبل فسرّيه، وإن أدبر فضريه، من استه إلى فيه، وماله وبنيه»[6]، ومثلها (الهصرة)، خرزة للتأخيذ[7].

ومن الخرز المعروفة: (الكحلة)، خرزة من خرزات العرب للتأخيذ، تؤخذ بها النساء الرجال. أو هي خرزة سوداء تجعل على الصببان للعين والنفس من الجن والإنس، فيها لونان بياض وسواد[8].

إصابة العين:

كان للجاهلين رأي وعقيدة في العين وفي أثرها في الحياة، فهم يعتقدون بأثر

---

[1] تاج العروس (١٠/ ١٨١)، (سلا).
[2] بلوغ الأرب (٣/ ٦ وما بعدها).
[3] اللسان (١٦/ ١٠٧)، تاج العروس (٩/ ١١١)، (الهينمة).
[4] تاج العروس (٤/ ١٤٩)، (الدربيس).
[5] تاج العروس (٣/ ٥١٩ وما بعدها)، (كرر)، بلوغ الأرب (٣/ ٧).
[6] تاج العروس (٣/ ٦٢٣)، (همر)، بلوغ الأرب (٣/ ٧).
[7] تاج العروس (٣/ ٦٢١)، (هصر).
[8] تاج العروس (٨/ ٩٥)، (كحل)، اللسان (١١/ ٥٨٥)، (كحل).

العين وإصابتها. ولخطر هذه الإصابة وأهميتها، تفننوا في ابتداع وسائل الوقاية منها، وحماية أنفسهم من أثرها. وقد زعموا أن عيون بعض الناس تصيب، وأنها إن أصابت شيئاً أهلكته، فان (العين) لا تنتج الاّ شراً، وهي لا تكاد تكون في خير مطلقاً. ولذلك تجنببوا (العائن) وابتعدوا عنه. و(العائن) و(المعيان) و(العيون) هو من تصيب عيونه. فكان أحدهم اذا ما اتصل بإنسان، وصادف أن نظر ذلك الإنسان إلى شيء أعجبه، أو رأى شيئاً لفت نظره، ثم صادف أن وقع مكروه لمن نظر إليه، أو إلى ما كان قد رآه (العائن)، نسب ذلك المكروه إليه، ورميِ بإصابة العين، وقد يحدث من ذلك الرجل مثل ما حدث له مع من وقع المكروه عليه، فيرمى عندئذ بإصابة معين، وينبذه الناس خوفاً من إصابتهم بعينه. فيقال إن فلاناً لعيون: اذا كان يستشرف للناس ليصيبهم بعين. ويقال لعيون إنه لنفوس، وما أنفسه وقد أصابته نفس أو عين[1].

ولا تقتصر الإصابة بالعين على إصابة عيون الإنسان، فقد تصيب عيون الحيوان كذلك. وهناك حيوانات عديدة لها قدرة على الإصابة بعينيها مثل الحيات والثعلب والطاووس. وأكثر الحيوانات التي تكون لعيونها بريق أو لمعان خاص، هي من هذا القبيل. وقد حمل هذا الاعتقاد بعض الناس على التخوف من تلك الحيوانات والابتعاد عنها، بل بلغ الخوف ببعضهم أن امتنعوا من ذكر اسم أمثال تلك الحيوأنات أو تهجّي حروف أسمائها خشية العين[2]. والكلاب من الحيوانات التي تصيب بعيونها. ورد عن (ابن عباس) قوله: «الكلاب من الجن، فإن غشيتكم عند طعام، فالقوا لهن، فإن لهن أنفساً أي أعيناً»[3]. ولخوفهم من إصابة عيون الحيوان كرهوا الأكل بين يديها. فكانوا إما أن يشغلوها عن النظر إليهم بشيء يرمونه لها لتأكله، ولو بعظم وإما ان يطردوها، فيتخلصوا من إصابتهم بعيونها[4].

---

[1] الحيوان (٢/ ١٤٢ وما بعدها).
[2] روح المعاني (٣٠/ ٢٨٤)، Ency. Religi., 610.
[3] اللسان (٦/ ٢٣٦)، (نفس)، «إن الكلاب من الحن، وإن الحن من ضعفة الجن، فإذا غشيتم منها شيء، فالقوا إليها شيئاً واطردوها، فإن لها أنفس سوء»، الحيوان (٢/ ١٣١).
[4] الحيوان (٢/ ١٣٢).

ويعبر عن العين التي تصيب (المعين) بـ (النفس). يقال نفسته بنفس، أي أصبته بعين، وأصابت فلاناً نفس، أي عين. وفي الحديث «إنه نهى عن الرقية إلاّ في النَّملة والحُمَة والنفس، أي العين»[١]. و(النافس) العائن، والمنفوس المعيون. و«النّفوس: العيون الحسود المتعين لأموال الناس ليصيبها، وما أنفسه، أي ما أشد عينه»[٢].

و(السفعة) العين. ورجل مسفوع، أي معيون أصابته سفعة، أي عين. ويقال به سفعة من الشيطان، أي مس، كأنه أخذ بناصيته. ويعبر عنها بـ (النظرة) كذلك. وقيل: النظرة الإصابة بالعين والسفعة العين[٣]. و(النظرة) الغشية أو الطائف من الجن، وقد نظر، فهو منظور، أصابته غشية أو عين. وفي الحديث أن النبى، صلى الله عليه وسلم، رأى جارية، فقال: إن بها نظرة، فاسترقوا لها. قيل معناه: إن بها إصابة عين من نظر الجن إليها وكذلك بها سفعة[٤]. وقد يخصصون (النظرة) بإصابة عين الجن[٥].

وللحاسد نفس على المحسود. وقد يصل نفس الحاسد إلى حد الإهلاك. والعائن ربما لا يتعمد الأذى، انما عينه هي التي تصيب بمجرد المقابلة أو وقوع النظرة على الشيء، ولذلك كان أذاه عند المقابلة ووقوع عين العائن على المعيون. أما الحاسد، فإنه يصيب في النية وفي الحضور، لأن عينه تنفذ وتصل إلى المحسود، وإن كان غائباً عن الحاسد[٦]. ولخطر الحسد وشدة أذاه، اتخذت الوسائل الخاصة بمقاومة عيون الحسود.

ولحماية النفس من العين، استعملت الخرز والتعاويذ والرقي. ومن الخرز التي استخدمت في حماية الأطفال من إصابة العين، (الكحلة)، وهي خرزة سوداء

---

[1] تاج العروس (٤/ ٢٥٩)، (نفس).
[2] اللسان (٦/ ٢٣٦)، (نفس).
[3] تاج العروس (٥/ ٣٨١)، (سفع).
[4] تاج العروس (٣/ ٥٧٤)، (نظر).
[5] عمدة القارئ (٢١/ ٢٦٤ وما بعدها)، اللسان (١٧/ ١٧٦).
[6] روح المعاني (٣٠/ ٢٨٤).

تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم. و(القبلة)، وهي خرزة بيضاء تجعل في عنق الفرس من العين[١].

و(الودعة)، تفيد في دفع أذى العين عن الإنسان. وذكر أنها مما يقذفه البحر، وهي تتفاوت في الصغر والكبر، وهي خرزة تثقب وتتخذ منها القلائد، وللحماية من العين[٢].

---

1 تاج العروس (٨/ ٧١)، بلوغ الأرب (٣/ ٧).
2 تاج العروس (٥/ ٥٣٤)، (ودع).

الفصل الخامس والثمانون

في أوابد العرب

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية بعضها يجري مجرى الديانات، وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات والعادات، وبعضها يجري مجرى الخرافات، وقد كانت قد هيمنت وسيطرت على عقليتهم، ولا سيما تلك الأمور التي كانت تتصل بحياتهم، كالكهانة والحداسة والرقية والتنجيس والتنجيم، وغير ذلك مما له علاقة بحياة الإنسان حتى قيل إنهم كانوا (بين متكهن وحدّاس وراق ومنجس ومتنجم)[١].

الكهانة:

وفي طليعة بعض الناس الموهوبين بما لهم من قدرة خفية خارقة وإلهام، الاتصال بالآلهة وبالأرواح، والاستئناس بها والأخذ منها، والحصول على علم غزير منها يتعلق بالمستقبل عامة ومستقبل كل إنسان خاصة، أو التأثر عليها بصرف الخير إلى شخص ودفع الأذى عنه، وبتوجيه الشر إلى شخص يراد توجيهه إليه وإيذاؤه. ويُقال للاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ عما سيحدث:

[1] إرشاد الساري (٨/ ٤٠٠)، صحيح مسلم (٧/ ٣٥ وما بعدها)، عمدة القارئ (٢١/ ٢٧٥)، اللسان (١٧/ ٢٤٤)، الروض الأنف (١/ ١٣٦)، مروج الذهب (٢/ ٨٢)، (محمد محيي الدين عبد الحميد).

(الكهانة) «Divination»، ويُقال لمن يقوم بذلك الكاهن. أما الذي يزعم أن في امكانه التحكم في الأرواح وتوجيهها الوجهة التي يريدها، فيقال له (ساحر) ويقال لعمله (السحر). وتقابل كلمة (السحر) في العربية، كلمتا «Magic» و«Sorcery»، في الإنكليزية.

والكهانة في اللغة العربية تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ومعرفه المغيبّات والأسرار، وتقابل بهذا التعريف في العربية كلمة «Soothsayer»، في الإنكليزية. وتقابل كلمة (كاهن) لفظة (كوهين) «Kohen»، في العبرانية و(كهنا)، «Kehna»، في لغة بني إرم، وكلها من الأصل السامي القديم[١].

ومن مرادفات الكاهن: (الطاغوت). وبهذا التفسير فسر العلماء قوله تعالى: ﴿فمن يكفر بالله ويؤمن بالطاغوت﴾[٢]. قالوا: الطاغوت: الكاهن. وهم كهان تنزل عليهم شياطين يلقون على ألسنتهم وقلوبهم. والطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، كان في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد وهم كهان تنزل عليهم الشياطين[٣]. وذكر بعض علماء التفسير ان الطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه. وقد وردت اللفظة في موضع آخر من القرآن الكريم بعد لفظة (الجبت)، اذ جاء في التنزيل: ﴿ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾[٤]. وقد ذكروا أن الجبت السحر والساحر، بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن[٥]. وأن الجبت والطاغوت صنمان، أو أن الجبت الأصنام والطاغوت تراجمة الأصنام، والذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس، أو أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضع له، كائناً ما كان ذلك المعبود من حجر أو إنسان أو شيطان. وإذ كان ذلك كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها كانت معظمة بالعبادة من دون الله، فقد كانت جبوتاً وطواغيت،

---

1 إرشاد الساري (٨/ ٣٩٨)، اللسان (١٣/ ٣٦٢ وما بعدها)، (كهن)، مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده (١/ ٢٩٣ وما بعدها)، Nöldeke, Neue Beiträge Semitischen Sprachwissenschaft, S. 36.

2 البقرة، الرقم ٢، الآية ٢٥٦.

3 تفسير الطبري (٣/ ١٣ وما بعدها).

4 النساء، الآية ٥١.

5 تفسير الطبري (٥/ ٨٤).

وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كانا مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله، وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف لأنهما كانا مطاعان في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله، فكانا جبتين وطاغوتين[١].

وذكر علماء التفسير في قوله تعالى: ﴿ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك، وما أنزل من قبلك يريدرن أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به. ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[٢]، أن (الطاغوت) الكاهن الذي كان يحكم بين الناس، ويتحاكمون له. وأنها نزلت في حق يهودي اختصم مع مسلم، فكان المسلم أو المنافق يريد الاحتكام الى الكاهن، وكان اليهودي يدعو إلى النبي أو المسلمين، لأنهم لا يقبلون الرشوة، فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة، أو إلى كاهن بالمدينة، أو إلى كعب بن الأشرف، فنزل الوحي بتوبيخ ذلك المسلم أو المنافق[٣].

والتكهن عن المستقبل والتحدث عن الماضي، موضوع له فروع عديدة. وقد عدّ علماً من العلوم عند كثير من الأمم. وألفوا فيه. وتنبؤ الأصنام هو نوع من هذه الأنواع. ويدخل في التكهن التنبؤ بواسطة وسيط: مكالمة صنم، أو (تابع) أي (رئي)، وقراءة كبد الشاة وقراءة أعضائها كما كان عند البابليين وعند المصريين. والتكهن بحركات الطيور، وتفسير الأحلام. وتفسير بعض الظواهر الطبيعية وما شابه ذلك وكل هذه كانت معروفة عند الجاهلين.

وليس من الضروري أن يكون التكهن بتكليم الصنم حتماً وفي المعبد بالضرورة، فقد كان من الكهان من يقيم في بيته ويتكهن مع ذلك للناس، ينطق بما يوحى إليه ومما يشعر به. وقاصدوه يرون أن فيه قوة خارقة وقابلية لتلقي الوحي من تلك القوة التي يتصورونها على هيأة شخص غير منظور يلقي إلى الكاهن الوحي، فينطق بما يناسب المقام وبما يكون جواباً، على الأسئلة التي توجه اليه. ويطلقون على ذلك الشخص الخفي اسم (تابع) أو (صاحب) أو (مولى) و(ولي) و(رئي)، لأنه يكون تابعاً وصاحباً للكاهن، يتبعه ويصاحبه ويلقي إليه

---

[1] تفسير الطبري (٥/ ٨٣ وما بعدها).
[2] سورة النساء، الآية ٦٠.
[3] تفسير الطبري (٥/ ٩٦ وما بعدها).

(الرئي). يكشف له الحجب ويأتيه بالأسرار. فهو (حاز) و(حزّاء) و(حازية) و(الرائي) في العهد القديم[١].

وكان من رأي الجاهليين أن هناك وحياً يوحى إلى الكاهن بما يقوله، وقد قالوا لذلك المصدر الذي يوحي اليه: (شيطان الكاهن)، كما قالوا للمصدر الذي يوحي إلى الشاعر بوحي شعره: (شيطان الشاعر)، ذلك لأن شيطان الكاهن يسترق السمع ويلقي به إلى الكهنة[٢]. يسترقه من السماء، فيأتي به إلى الكاهن ويلقي ما استرقه إليه، فيلقي الكاهن ما ألقى عليه شيطانه إلى الناس، وبذلك يتنبأ لهم[٣]. «سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ناسٌ عن الكهان، فقال: ليسوا بشيء، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحياناً بشيء، فيكون حقاً، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: تلك الكلمة من الحق، يخطفها من الجني فيقرها في أذن وليه، فيخلطون معها مئة كذبة»[٤].

وقد وردت كامة (كاهن) في القرآن الكريم في معرض الرد على قريش الذين اتهموا الرسول بأنه (كاهن)، وبأنه يقول القرآن على نمط سجع الكهان. فجاء فيه: ﴿فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾[٥]، و﴿إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهن، قليلاً ما تذكرون﴾[٦]. فرد عليهم بقوله: «ما هذا القرآن بقول شاعر، لأن محمداً لا يحسن قيل الشعر، فتقولوا هو شعر، قليلاً ما تؤمنون. يقول تصدقون قليلاً به أنتم، وذلك خطاب من الله لمشركي قريش. ولا يقول كاهن، قليلاً ما تذكرون. يقول ولا هو بقول كاهن، لأن محمداً ليس بكاهن، فقولوا هو

---

[1] Reste, S. 134, Shorter Ency., p. 207.

[2] تاج العروس (٩/ ٣٢٦ وما بعدها)، اللسان (١٧/ ٢٤٤)، الطبرسي (٥/ ٣٤٩، ٣٦٧)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٦٩)، مروج الذهب (٢/ ١٧٢ وما بعدها)، مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده (١/ ١١٣ وما بعدها)، إرشاد الساري (٨/ ٣٩٨)، مقدمة ابن خلدون (١/ ١٠١ وما بعدها).

[3] صبح الأعشى (١/ ٣٩٨).

[4] إرشاد الساري (٨/ ٤٠٠)، صحيح مسلم (٧/ ٣٥ وما بعدها)، عمدة القارئ (٢١/ ٢٧٥)، اللسان (١٧/ ٢٤٤)، الروض الأنف (١٧/ ٢٤٤)، الروض الأنف (١/ ١٣٦)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٨)، (في أخبار الكهان).

[5] سورة الطور، الآية ٢٩، تفسير الطبري (٢٧/ ١٨).

[6] الحاقة، الآية ٤٢.

ممن سجع الكهان»[1]. فكان للكهان أسلوب خاص في كلامهم عند التنبؤ والتكهن هو أسلوب للسجع. ولذلك عرف بـ (سجع الكهان). وقد امتاز سجعهم هذا باستعمال الكلام الغامض، والتعابير العامة الغامضة التي يمكن تفسيرها تفاسير متناقضة ومختلفة. وهو أسلوب تقتضيه طبيعة التكهن، لكي لا يلزم الكاهن على ما يقوله من قول ربما لا يقع، أو قد يقع العكس. ففي مثل هذه الحالة، يمكن أن يكون للكاهن مخرج باستعماله هذا النوع من الكلام.

وقد ورد أن الرسول نهى عن محاكاة الكهان في سجعهم، فذكر عنه قوله: «أسجعٌ كسجع الجاهلية»[2].

ويذكر أهل الأخبار أن (تابع) الكاهن، وهو شيطانه وجنية، كان يسترق في الجاهلية الأخبار من السماء، فيلقي بها إلى الكاهن المختص به. فيخبر الكاهن من يأتي إليه للكهانة. بقوا على ذلك إلى ظهور النبوة، فلما نزل الوحي انقطعت الكهانة، إذ وجد الشياطن الذين كانوا يسترقون السمع لهم شهاباً رصداً. وقالوا إن قوله تعالى: ﴿وانّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً، وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾[3]، إنما عنى به هذا الحادث، حادث منع الشياطن من استراق السمع[4].

ويذكر أهل الأخبار أيضاً أن «القذف بالنجوم قد كان قديماً، وذلك موجود في أشعار القدماء من الجاهلية. منهم: عوف بن الجزع، وأوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم، وكلهم جاهلي. وقد وصفوا الرمي بالنجوم»[5]. وأن من عقائد أهل الجاهلية في تساقط النجوم والشهب دليل على موت عظيم أو ميلاد مولود عظيم[6]. وذكر أن الرسول كان جالساً مع قوم من الأنصار إذ رمي بنجم فظهر نوره، فقال لهم: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في

---

[1] تفسير الطبري (٢٩/ ٤٢).
[2] البيان والتبيين (١/ ٢٨٧).
[3] سورة الجن، رقم ٧٢، الآية ٨ وما بعدها.
[4] تفسير الطبري (٢٩/ ٦٩ وما بعدها)، الكامل، لابن الأثير (٢/ ١٠)، (المنيرية)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٤ وما بعدها)، مفتاح السعادة (١/ ٢٩٣ وما بعدها)، تاج العروس (٩/ ٣٢٦ وما بعدها)، (كهن)، مروج الذهب (٢/ ١٥٢ وما بعدها).
[5] الروض الأنف (١/ ١٣٥).
[6] الروض الأنف (١/ ١٣٦ وما بعدها).

الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كنا نقول حين نراه يرمى به مات ملك، ولد مولود[1].

وقد جعل (المسعودي) حدة الأذهان مع نقصان الأجسام وتشويه الخلق، من جملة العوامل التي دفعت على التكهن والإخبار عن الغيب. وضرب مثلاً على ذلك: شق، وسطيح، وسملقة، وزوبعة، سديف بن هوماس، وطريفة الكاهنة، وعمران أخي مزيقياء، وحارثة، وجهينة وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان[2].

وقد يلحق التابع من الجن أشخاصاً لم يشتهروا بالكهانة وإنما عرفوا بشدّة ذكائهم ومعرفتهم بعواقب الأمور، مثل (أحيحة بن الجُلاح) وكان من أشراف المدينة، وقد اشتهر عندهم بكثرة صوابه وسرعة ادراكه للعواقب. فعللوا ذلك بوجود تابع له من الجن كان يعلمه المغيبات[3].

قال (الجاحظ): «وكانوا يقولون، إذا ألف الجني إنساناً وتعطف عليه، وخبره ببعض الأخبار، ووجد حسه ورأى خياله، فإذا كان عندهم كذلك قالوا: مع فلان رئي من الجن. ومن يقولون ذلك فيه عمرو بن لحي بن قمعة، والمأمور الحارثي، وعتبة بن الحارث بن شهاب».

فأما الكهان، فمثل حارثة جهينة، وكاهنة باهلة، وغُزى سلمة، ومثل شق وسطيح وأشباههم[4].

والكهان يرون تابعهم، وقد يتجلى لهم في صورة إنسان. ويظهر على صورة رجل للكواهن كذلك. فقد كان للغيطلة، وهي على ما يزعمه أهل الأخبار كاهنة أبوها مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرّة، وشنوق أخو مدلج، تابع يفد إليها، ويدخل غرفتها، ويجلس، تحتها. كما كان لفاطمة بنت النعمان النجارية، وهي كاهنة كذلك، تابع من الجن «كان إذا جاءها، اقتحم عليها في بيتها. فلما كان في أول البعث، أتاها، فقعد على حائط الدار ولم يدخل، فقالت له: لَمَ لا تدخل؟ فقال: قد بعث نبي بتحريم الزنى»[5].

---

[1] السيرة الحلبية (١/ ١٤٠).
[2] مروج (٢/ ١٥٤).
[3] الأغاني (١٣/ ١١٥)، «ذكر أحيحة بن الجلاح».
[4] الحيوان (٦/ ٢٠٣ وما بعدها).
[5] الروض الأنف (١/ ١٣٧).

فالكاهن إذن، هو الذي يتنبأ بواسطة تابع، ولا يستطيع غير الكاهن رؤية التابع. وتكون الكهانة كلاما يلقيه الكاهن لنفسه، أو تابعه، جواباً عن أسئلة الكاهن. ولما كان التابع روحاً، كان من الطبيعي تصور صدور ذلك الكلام من روح لا يمكن لمسها ولا رؤيتها، ترى وتسمع وتعقل، وتجيب ما يطلب منها الإجابة عنه.

ويكون الكاهن في أثناء تكهنه في غيبوبة أو في شبه غيبوبة في الغالب، ذلك بأنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهد صعب لا يتحمله كل انسان، ولاتصال الروح فيه، واتصال الروح بجسم الكاهن شيء جد عسير، يتصبب العرق منه. خاصة اذا كان المتكلم الكاهن نفسه.

ويكون التكهن، في الغالب، في مكان هادىء تكتنفه ظلمة أو عتمة، لأن للهدوء والظلام أثراً عظيماً في النفوس، ويسبقه حرق بخور في الأكثر يستمر إلى ما بعد انتهاء التنبؤ، لأن البخور من الروائح الطيبة التي تؤثر في الأرواح، فتجلبها إلى المكان بسرعة. ثم إن له تأثيراً خاصاً في الأعصاب، وهو بذلك مادة صالحة في الإيحاء لمن يقصد استشارة الكهان.

ويروي الأخباريون أن الناس كانوا اذا قدموا على الكهان امتحنوهم ليتأكدوا من صدق تكهنهم ومقدار علمهم. وذلك بإخفاء شيء إخفاءً لا يمكن الاهتداء إليه، أو بوضع لغز، أو ما شابه ذلك، فيبدؤون، الكاهن بالسؤال عنه. فاذا أجاب جواباً دل على معرفة وسعة علم، سألوه عن الأمر الذي عندهم والذي من أجله قصدوه. ويكون لهؤلاء الكهان أجر يدفع اليهم. والعرف الغالب أن الكهانة لا تكَون ولا تصح إلا بتقديم شيء للكاهن، لأن التابع لا يرضى بالتنبؤ إلاّ اذا رأى حلاوة للتنبؤ.

ومن قبيل الامتحانات التي امتحن بها الكهان، امتحان (عتبة بن ربيعة) إلى بعض كهان اليمن ليتأكد من صدق تكهنه قبل النظر في أمر اختلاف ابنته (هند) مع زوجها (الفاكه بن المغيرة) في فرية رماها (الفاكه) زوجته بها[١]. وامتحان (عبد المطلب) للكاهن (ربيعة بن حذار الأسدي) حين اختصم مع (بني كلاب وبني رباب)[٢]، وامتحان (الكاهن الخزاعي)[٣] وغير ذلك.

---

[1] نهاية الأرب (٣/ ١٣١)، صبح الأعشى (١/ ٣٩٨ وما بعدها).
[2] نهاية الأرب (٣/ ١٣٣).
[3] نهاية الأرب (٣/ ١٣٢).

وما يعطاه الكاهن ويجعل له على كهانته، يقال له (الحُلوان) و(حلوان الكاهن)، وهو شيء غير معين ولا ثابت، إنما يتفق عليه، والرأي الشائع بين العامة حتى الآن أن الكهانة لا تصدق إذا لم يعط الكاهن أو الساحر (حلوانه) لآن ما يقدم إلى الكاهن لا يخصه ولا يكون له إنما هو للرئي، والرئي لا يقوم بعمله ولا يحسن أداءه إلاّ بحلوان، يقبله مهما كان، وعلى الكاهن استشارة (التابع) ومراجعته فيه حتى يقنع، ويوافق على الأجر. ولما كان الإسلام قد منع الكهانة، كان من الطبيعي نهيه عن دفع الحلوان[١].

والكهّان إنما صاروا كهاناً، أي متنبئين بالغيب، لأن «الكهنة قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه»[٢]. وهذا هو تعليل إسلامي بالطبع لمصدر تنبؤ الكهان، أما رأي الجاهلين عنه، فلا علم لدينا عنه، لعدم ورود شيء منهم إلينا.

وتقدم الكهانة على القدرة الشخصية وعلى ذكاء الكاهن، لذلك لم تكن كالسدانة مثلاً إرثاً ينتقل من الآباء إلى الأبناء، بل كان في إمكان كل شخص يرى في نفسه القدرة على التنبؤ بالغيب والتحدث عما سيحدث للسائلين أن يدعي الكهانة وأن يعد نفسه كاهناً يتكلم باسم الأرباب، وينطق بالقوة الخفية التي توحي إليه بالتنبؤات، فيتخذ له مكاناً في معبد أو في موضع آخر أو في بيته ليقصده من يريد استشارته في عظائم الأمور مهما اختلفت وتنوعت عن المستقبل وعن الأخبار وعن الأسرار والمغيّبات وعن القيام بعمل من الأعمال.

وفي الأقوال المنسوبة إلى الكهان، قسم بالكواكب كالشمس والقمر وبالنجوم وبالليل وبالنهار وبالأشجار وبالرياح والكلمات وبالجبال والأنهار وبالطيور ومما شابه ذلك أمور طبيعية الغرض منها التأثير في نفوس السامعين والأغراب في الكلام، ليكون بعيداً عن الأسلوب المألوف. وقد روى الأخباريون نماذج من هذا الكلام،

---

[1] «أعطيت الكاهن حلوانه، أي كراء كهانته»، الاشتقاق (٢/ ٣١٤)، «نهى النبي صلى الله عليه وسلم، عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن»، إرشاد الساري (٨/ ٤٠٠)، اللسان (١٨/ ٢١١)، تاج العروس (١٠/ ٩٦)، اللسان (١٤/ ١٩٤)، (صادر) «حلو»، النهاية (٣/ ٢٥٦ وما بعدها)، مفتاح السعادة (١/ ٢٩٣ وما بعدها).

[2] عمدة القارئ (٢١/ ٢٧٥)، إرشاد الساري (٨/ ٣٩٨ وما بعدها).

من هذا السجع المعروف بـ (سجع الكهان)، نسبوه إلى أصحابه من كهان الجاهلية. وهي نسبة مهما حاولوا إثبات صحتها وصدق روايتها، فإنهم عاجزون في رأيي عن اقناعنا بصحة ما يقولون. كيف حفظوا ذلك الكلام وتناقلوه بالحرف الواحد بوزنه وبأسلوبه وبنصه وبفصه إلى أن أوصلوه إلى أيدي العلماء والمدونين فثبتوه بالتدوين؟ وكيف لم يخطئوا في ذلك ولم ينسوا منه حرفاً، حتى لكأنه كلام مقدس وارد عن وحي سماوي، فلا بدّ من المحافظة على نصه وروايته على نحو ما ورد وحفظ؟ واذا كان العلماء قد تساهلوا في رواية متن حديث رسول الله فسمحوا بالتصرف فيه بشرط المحافظة على المعنى محافظة تامة، لصعوبة التمسك برواية النص على نحو ما ورد عن الرسول. فكيف يعقل محافظة الرواة على حرفية كلام الكهان على نحو ما نُسب اليهم. وكلام الكهان ليس بشيء بالقياس إلى كلام الرسول، ثم إنه أقدم منه، ولم يكن مدوناً ولا مكتوباً في كتاب على ما يفهم من روايات الأخباربين.

وقد كان للكهان على ما يتبين من قصص الأخباريين أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام. فقد كان الناس يستشيرونهم في إبرام مهمات الأمور، كإعلان حرب أو كشف عن جريمة أو بحث عن شيء مفقود وما شاكل ذلك. لقد كانوا يستشيرونهم في الحروب، يتنبؤون للناس يقرب حدوث غزو أو نزول كارثة أو خير سيقع قريباً، لقد كان هجوم بني أسد على (حجر) بمشورة الكاهن وبرأيه، وكان تركهم تميماً وافتراقهم عنهم في يوم جبلة بتحذير من الكاهن كذلك[1]. وقد استعان النعمان أو يزيد بن عمرو الغساني بالكاهن (الخمس التغلبي)، لإخباره عمن تجاسر على ناقته فقتلها، كما استعان (عتبة بن ربيعة) في إثبات نسب ابنته (هند) منه[2].

وقد اشترك الكهان أنفسهم في الغزوات وفي الحروب. وكانوا يشجعون قومهم ويحثونهم على القتال، وكان بعضهم من مشاهير الفرسان، مثل (زهير بن جناب)، و(جذيمة) العبهي، وقلطف الكاهن، والمأمور كاهن مذحج.

---

[1] الأغاني (١٠/ ٣٦)، مروج الذهب (٢/ ١٧٣ وما بعدها)، نهاية الأرب، للنويري (٣/١٢٤)، صبح الأعشى (١/ ٣٩٨)، Reste, S. 136.

[2] الأغاني (١٠/ ٢٧)، «ذكر مقتل خالد بن كلاب»، صبح الأعشى (١/ ٣٣٨ وما بعدها)، Reste, S. 136.

ولم يكن الكهان من الطبقات الدنيا عند عرب الجاهلية، ولا من سواد الناس. لقد كان منهم من هو من سادة القبيلة ومن الأشراف. ولا بد أن يكونوا من هذه الطبقة، ليكون حكمهم نافذاً بين الناس بما لهم من عز ومنزل وجاه. وقد عد الأخباريون (زهير بن جناب) رئيس كلب في جملة الكهان[1]. وقد كان للقبائل (كهان) تلتجىء إليهم في الملمات، لتستشيرهم وتعمل برأيهم في الغزو والحرب. يسيرون معها، وقد يقودونها في المعارك.

وقد كان لكل قبيلة كاهن منها أو عدة كهان، تلتجىء القبيلة إليهم لاستشارتهم في كل أمر عظيم يحدث لهم. ولا يشترط أن يكون كاهن القبيلة رجلاً، إذ يجوز ان يكون امرأة. وكان كاهن ثقيف (قريش) عند ظهور الإسلام رجلٌ يقال له (خطر)، وكان لجنب كاهنهم كذلك، وكان لقريش حين ظهور الإسلام كاهنة تدعى (سوداء بنت زهرة بن كلاب)، وهكذا كان شأن بقية القبائل. فلما ظهر الإسلام، ودّع أولئك الكهان رئيهم وتابعهم، وكهانهم، إذ نهى الإسلام عنها. وقد كان لبعضهم أثر مهم في إعداد قبائلهم للدخول في الإسلام[2].

وقد أشار بعض الكتبة الكلاسيكيين إلى وجود كهان عند العرب، كما أنه ورد في كتابات طور سيناء ما يدل على وجودهم عند القبائل[3].

ولم يكن الكاهن، كاهناً، بمعنى المخبر عن المغيبات فقط، بل كان حاكماً يحكم بين الناس فيما يقع بينها من خلاف. فالكاهن حاكم يفصل في الخصومات. وقد كان أكثر حكام العرب كهاناً، يقصدهم المتخاصمون من مواضع بعيدة لما عرفوا، به من أصالة الرأي، وصحة الحكم.

وقد ذكر أن الكاهن كان لا يلبس المصبغ أما العراف فإنه لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه[4]، ويدل ذلك على أنهما كانا يميزان أنفسهما بمميزات وعلامات وأنهما كانا يتجنبان بعض الأمور.

---

1 الأغاني (٨/ ٦٦)، (١٥/ ٧٣)، (٢١/ ٩٩).

2 الروض الأنف (١/ ١٣٧ وما بعدها)، مفتاح السعادة (١/ ١١٣ وما بعدها)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٤)، صبح الأعشى (١/ ٣٩٨).

3 Ency. Religi., I, p. 667.

4 تفسير الطبري (١٨/ ٥٧)، ثمار القلوب (١٩٣)، بلوغ الأرب (٣/ ٤٠٧).

وقد اشتهر في الجاهلية عدة كهان ذكر الأخباريون أسماءهم، منهم: شقّ، وسَطيح، وأوس بن ربيعة، والخمس التغلبي، وعُزى سلمة الكاهن، ونفيل بن عبد العزي، وخنافر بن التوأم الحميري، وسواد بن قارب الدوسي، وعمرو بن الجعيد، وابن الصياد، والأبلق الأزدي، والأجلح الدهري، وعروة بن زيد الأزدي، ورباح (رياح) بن عجلة، وهو المعروف بعراف اليمامة، والكاهن الخزاعي، وهو جدّ (عمرو بن الحمق)، وكان منزله بعسفان، وإليه احتكم هاشم وأمية[١]، و(كهال)، أحد الكهنة الجاهليين[٢].

وأشهر الكهان وأعرفهم: شق وسطيح، وللأخباريين عنهما قصص أخرجهما من عالم الواقع، وجعلهما في جملة الأشخاص الخرافيين. فشق في زعمهم إنسان له يدٌ واحدة وعين واحدة، وجعلوه من المتشيطنة صورته صورة نصف آدمي. وذكروا أنه كان معاصراً لمالك بن نصر اللخمي، وأنه استدعاه واستدعى سطيحاً معه لتفسير رؤيا رآها أفزعته، وأنهما أخبراه بوقوع غزو الحبشة لليمن وبظهور سيف بن ذي يزن. وقالوا: إنه من بني جليخة، وأنه عمر ثلاثمائة سنة[٣]. وقالوا إن سطيحاً كان كتلة من لحم يدرج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلاّ الجمجمة، وأن وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق، وكان في عصره من أشهر الكهّان، وإن كسرى بعث إليه عبد المسيح في بن بقيلة الغساني ليسأله في تأويل رؤيا رآها، فأخبره بظهور أمر رسول الله وبقرب زوال ملك العجم، فأخبر (عبد المسيح) كسرى بذلك[٤].

وزعم أن سطيحاً جسد ملقى لا جوارح له، ولا يقدر على الجلوس، إلاّ اذا غضب انتفخ فجلس. وكان شق شق إنسان، له يد واحدة، ورجل واحدة وعين واحدة. وولد سطيح وشق في اليوم الذي ماتت فيه طريفة الكاهنة،

---

[1] تاج العروس (٩/ ٣٢٦)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٦٩ وما بعدها)، مروج الذهب (٢/ ١٧٥ وما بعدها)، الكامل، لابن الأثير (٢/ ١٠)، البيان والتبيين (١/ ٢٨٩)، نهاية الأرب (٣/ ١٣٢)، الثعالبي، ثمار (١٠٥ وما بعدها)، Reste, S. 136, f.

[2] تاج العروس (٨/ ١٠٦)، (كهل).

[3] الاشتقاق (٣٠٣)، المستطرف (٢/ ٨٠ وما بعدها)، (ربيعة بن نصر اللخمي)، الأزمنة والأمكنة (٢/ ١٩٣)، الاشتقاق (٢٨٦).

[4] القزويني: عجائب المخلوقات (١/ ٣٧١)، «طبعة وستنفلد»، الطبري (٢/ ٩٩)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٨ وما بعدها)، (في أخبار الكهان)، Ency., Vol., p. 370.

امرأة (عمرو بن عامر)، وهي بنت الخير الحميرية، ودعت بسطيح قبل أن تموت، فأتيت به، فتفلت في فيه، وأخبرت أنه سيخلفها في علمها وكهانتها. وكان وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق، ودعت بشق ففعلت به ما فعلت لسطيح، ثم ماتت وقبرها بالجحفة[١].

وقد ذكر (المسعودي)، نسب الكاهن (شق) على هذا النحو: (شق بن مصعب بن شكران بن أترك بن قيس بن عنقر بن أنمار بن ربيعة بن نزار). وذكر نسب (سطيح) على هذه الصورة: (هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان)[٢] ودعاه بـ (سطيح الغساني) في موضع آخر، وأورد سجعاً من سجعه، كما أورد أخباراً لشق المعاصر له[٣]. وقد دعاه (الجاحظ) بـ (سطيح الذئبي)، كما دعاه (ابن اسحاق) بذلك، لأنه ينسب إلى جد اسمه (ذئب)[٤].

واذا كانت رواية أهل الأخبار عن وجود الكاهن (سطيح) صحيحة، فيجب أن يكون قد عاش في القرن السادس للميلاد، اذ هم يذكرون أنه كان معاصراً لكسرى أنو شروان، وللنعمان بن المنذر، ويروون أنه أخبر (عبد المسيح بن حسان)، الذي جاء إليه ليستفسر منه عن رؤيا رآها كسرى في منامه فأزعجته، فأخبره بمولد الرسول. وذكروا أيضاً أن كسرى كان يستعين في حكمه بالكهان، فيستشيرهم، وأنه كان لديه ثلثمائة وستون كاهناً وسحرة ومنجمين، وكان، من بينهم كهنة من العرب وأشهرهم: السائب[٥].

وذكر بعض، أهل الأخبار «أن خالد بن عبد الله القسري كان من ولد شق هذا. فهو خالد بن عبد الله بن أسد بن كرز. وذكر أن كرزاً كان دعياً، وأنه كان من اليهود فجنى جناية، فهرب إلى بجيلة، فانتسب فيهم. ويُقال كان عبداً لعبد القيس وهو ابن عامر ذي الرقعة. وسمي بذي للرقعة، لأنه

---

1 الروض الأنف (١/ ١٨ وما بعدها).
2 مروج الذهب (٢/ ١٦٠)، «دار الأندلس»، سيرة ابن إسحاق (٤٧)، (طبعة أوربة)، عجائب المخلوقات (٣١٠)، الحيوان (٣/ ٢١٠)، (٦/ ٢٠٤، ٢٠٦ وما بعدها).
3 مروج الذهب (٢/ ١٧٥ وما بعدها)، الحيوان (٣/ ٢٠٤)، (٦/ ٢٠٤).
4 الحيوان (٣/ ٢١٠)، البيان والتبيين (١/ ٢٨١)، ابن إسحاق (٤٧)، (كوتتكن).
5 تأريخ الخميس (١/ ٣٢٢)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٨ وما بعدها).

كان أعور يغطي عينه برقعة ابن عبد شمس بن جون بن شق الكاهن بن صعب»[١]. ويظهر أن أعداء (القسري)، قد أوجدوا له هذه للقصة للحط منه، كما أوجدوا قصصاً شبيهاً بهذه القصة، حكوها عن ثقيف، نكاية بالحجاج المكروه.

والى هؤلاء تجب إضافة (الأفعى الجرهمي)، وكان منزله بنجران، وإليه احتكم ولد نزار في إرث والدهم[٢].

ورووا أن الكاهن (الخزاعي) كان من الكهان المعروفين وإليه تحاكم (أمية بن عبد شمس) و(هاشم بن عبد مناف) في أمر مفاخرتهما، فحكم لهاشم على أمية، فخرج الى الشأم وأقام بها عشر سنين. وإنه قال في حكمه كلاماً مسجعاً ختمه يقوله: «ولأمية أواخر»، فكانت أول عداوة بين بني هاشم وبني أمية[٣]. وهكذا جعلوه يتنبأ بظهور ملك بني أمية. وربما كان هذا الملك هو الذي أوحى إلى مفتعل القصة بإبداع موضوع اختيار (أمية) الشأم لتكون داراً له أقام بها مدة نزاعه مع هاشم، فحكم أن الملك عليها كان مكتوباً لبني أمية منذ عهد الجاهلية.

وتشبه هذه القصة، قصة شك (الفاكه بن المغيرة)، في سيرة زوجه (هند بنت عتبة بن ربيعة)، وتكلم الناس فيها، وذهاب والدها وزوجها بها إلى كاهن من كهان اليمن، فلما امتحنه عتبة، وتبين له أن الكاهن حاذق لايخطيء قال له: «قد جئناك في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها، ويقول لها: انهضي حتى بلغ هنداً. فقال: انهضي غير رسحاء ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه، فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده، وقالت اليك عني، فوالله لأحرص أن يكون ذلك من غيرك فتزوجها أبو سفيان، فولدت له أمير المؤمنن معاوية»[٤]. وهي قصة تتحدث عن نفسها، ولا حاجة لي إلى ابداء أي تعليق عليها.

وكان (صاف بن صيّاد) يتكهن ويدعي النبوة. وخبأ له النبي خبيئاً فعلمه.

---

[1] الروض الأنف (١/ ١٩).
[2] مجمع الأمثال (١/ ١٧ وما بعدها).
[3] المستطرف (٢/ ٨١)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٣ وما بعدها).
[4] المستطرف (٢/ ٨٢)، نهاية الأرب (٣/ ١٣١ وما بعدها)، (الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الثاني، في أخبار الكهنة).

وكان يدعي أن شيطانه كان يأتيه بما خفي من أخبار الأرض[1]. ويذكر أن الرسول سأله: كيف يأتيك هذا الأمر؟ قال: يأتيني صادقاً وكاذباً[2]. وأن رسول الله ذهب اليه ليرى أمره وكان (ابن صياد) في نخل، فكلمه رسول الله. وذكَر أنه انطلق مرة مع (عمر بن الخطاب) في رهط قبل ابن صياد، فوجده عند (أطم بني مغالة)[3].

وكان في بني لهب كاهن لهم يقال له خطر بن مالك. وكان في أيام الرسول. وكان اذ ذاك شيخاً كبيراً[4]. وكان (أبو برزة) الأسلمي من الكهان المعروفين في المدينة أيام الرسول: قد تحاكم إليه بنو قريظة وبنو النضير في أمر الديات التي كانت بينهما[5].

وذكر أن (خطر بن مالك) كان من أعلم كهان (بني لهب)، وأنهم كانوا يأتونة في الملمات، أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة، وقد تنبأ لقومه بانقطاع الكهانة وظهور الرسول بمكة حين سألوه عن سبب تساقط النجوم في السماء[6].

وكان في دوس كاهن اسمه سواد بن قارب الدوسي أو السدوسي. وقد وفد مع وفد من قومه على الرسول وأسلم معه أمامه. وكان له رئي يأتي إليه[7]. وذكر أهل الأخبار أنه كان حاذقاً في الكهانة، مصيباً بها، خرج خمسة نفر من طيء من دور الحمى، منهم: برج بن مسهر، أحد المعمرين، وأنيف بن حارثة، ولأم عبد الله بن سعد والد حاتم وعارف الشاعر، ومرة بن عبد رضا، يريدون سواد بن قارب ليمتحنوا علمه، فقالوا: ليخبىء كل منا خبياً ولا يخبر أصحابه، فإن أصاب عرفنا علمه، وإن أخطأ ارتحلنا عنه. ثم وصلوا إليه فأهدوا إليه إبلاً وطرفاً، فضرب عليهم قبة ونحر لهم، فما مضت ثلاثة أيام دعاهم، فتكلم برج، وكان أسنهم فذكر القصة بجميع ما خبأوه ثم بمعرفته بأعيانهم وأنسابهم فقال فيه عارف الشاعر:

---

1 الروض الأنف (١/ ١٣٧).
2 مقدمة ابن خلدون (١/ ٩٥ وما بعدها).
3 زاد المسلم (٢/ ١٠٤ وما بعدها).
4 الروض الأنف (١/ ١٣٨ وما بعدها).
5 تفسير الطبري (٥/ ٩٧ وما بعدها).
6 السيرة الحلبية (١/ ١٣٩).
7 الروض الأنف (١/ ١٣٩ وما بعدها)، نزهة الجليس (١/ ٢٧٧).

الله أعلم لا يجـــارى إلى القالات في حصني سوادٍ
كأن خبيئنا لمـــا انتخبنا بعينه يصــــرح أو ينادي[1]

ومن الكهان المعروفين (الحصين بن نضلة) وقد عرف بـ (الكاهن)، وقيل: إنه سيد أهل تهامة في أيامه[2]. و(عمرو بن الحمق)، وقد أسلم وصحب النبي، وشهد المشاهد مع علي[3].

وكان (ربيعة بن حُذار الأسدي) من الكهان المعروفين، وإليه تحاكم (بنو كلاب) و(بنو رباب) لما خاصموا (عبد المطلب) في مال قريب من الطائف. فحكم لـ(عبد المطلب)[4].

وذكر (المسعودي) اسم كاهنين، دعاهما به (سملقة) و(زوبعة)[5]. وقد أشار (الجاحظ) إليهما في معرض كلامه على الخرافات.[6]

وأشار (الجاحظ) إلى كاهن ظهر في (بني جهينة)، عرف بـ (حارثة جهينة)[7]، والى (عزى سلمة). وقد قال (الجاحظ) عن (عزى)، إنه كان من أكهن العرب وأسجعهم. ودعاه بـ (سلمة بن أبي حية)[8].

وكان (خُنافر بن التوأم الحميري) كاهناً، وكان قد أوتي بسطة في الجسم، وسعة في المال، وكان عاتياً، فلما وفدت وفود اليمن على النبي، وظهر الإسلام أغار على إبل لمراد فاكتسحها وخرج بأهله وماله ولحق بالشحر، فحالف (جودان بن يحيى الفرِضمي)، وكان سيداً منيعاً، ونزل بواد من أودية الشحر، ثم جاءه (شصار) رئيه، فنصحه بالعودة إلى اليمن، والدخول في الإسلام. فأسلم على يد معاذ بن جبل بصنعاء، فترك الكهانة وتعلم سوراً من القرآن[9].

---

1 الإصابة (٢/ ٩٥)، (رقم ٣٥٨٢).
2 الاشتقاق (ص ٢٧٩).
3 الاشتقاق (٢٧٩)، الإصابة (٢/ ٥٢٦)، (رقم ٥٨٢٠).
4 نهاية الأرب (٣/ ١٣٣).
5 مروج الذهب (٢/ ١٦٠، ١٧٦).
6 الحيوان (١/ ٣٠٩).
7 الحيوان (٦/ ٢٠٤)، مروج الذهب (١/ ٣٣٧)، ثمار القلوب (٨١).
8 الحيوان (٦/ ٢٠٤)، البيان والتبيين (١/ ١٩٥)، رسائل الجاحظ (١٣٠).
9 الأمالي، للقالي (١/ ١٣٤ وما بعدها)، الإصابة (١/ ٤٥٦)، (رقم ٢٣٤٢)، تاج العروس (٣/ ١٩٢)، (خنافر).

ومن الكهان (المأمور)، وهو (الحارث بن معاوية) الكاهن وكانت مذحج في أمره تتقدم وتتأخر[1]. و(قلطف) الكاهن، وهو من طيء[2].

وكان (زهير بن جناب الكلبي)، و(جذيمة) العبسي، كهاناً[3]. وزهير من الفرسان، فكان من فرسان كلب، وكان شاعراً[4].

ويعدّ (الأفكل) من الكهان الفرسان، وله فرس اسمه هبود[5].

ولم تحرم النساء الكهانة، فكان لهن فيها حصة ونصيب. وقد حفظ الأخباريون أسماء عدد من الكاهنات اشتهرت كهانتهن في الجاهلية، منهن طريفة الكاهنة، وزبراء، وسلمى الهمدانية، وعفيراء الحميرية، وفاطمة بنت مرّ الخثعمية، وسجاح، وغيرهن. وقد نسبوا إلى طريفة إخبارها عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه وبخراب سد مأرب، وذكروا أنها سارت مع القبائل حين خافت سيل العرم[6]. ونسبوا إلى بقية الكاهنات أمثال هذا القصص عن أمورستقع قالوا إنها وقعت كما تنبأن به.

وذكر (المسعودي)، أن (طريفة) كانت كاهنة لعمرو بن عامر، وقد نعتها بـ (طريفة الخير). وقد تنبأت له بقرب تهدم السد، وظهور سيل العرم. كما تنبأ بذلك أخ للملك اسمه (عمران)، وكان عقيماً كاهناً، فوقع ما تنبآ به[7].

وكان من شهيرات الكاهنات أيضاً (الغيطلة)، وهي (أم الغياطل)، وهي من (بني مُرة بن عبد مناة بن كنانة)[8]. وقيل: «الغيطلة بنت مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرة. وشنوق أخو مدلج». وقد عرف ولدها بالغياطل وهم من بني سهم بن عمرو بن هصيص[9].

---

1 الاشتقاق (٢/ ٢٣٩).
2 الاشتقاق (٢/ ٢٣٧).
3 المشرق، السنة ١٩٣٨م، (الجزء الأول)، (ص ٧).
4 معجم الشعراء (١٣٠)، الشعر والشعراء (٢٢٣).
5 المشرق، السنة ١٩٣٨م، (الجزء الأول)، (ص ٩).
6 بلوغ الأرب (٢/ ٢٨٣ وما بعدها)، الأغاني (١٣/ ١٠٥) «ذكر خبر مضاض بن عمرو»، الطبري (٢/ ٢٤٤)، مروج الذهب (٢/ ١٧٥)، .Reste, S. 137
7 مروج الذهب (٢/ ١٦٧ وما بعدها).
8 الروض الأنف (١/ ١٣٨ وما بعدها).
9 الروض الأنف (١/ ١٣٧ وما بعدها).

ويقال أيضاً أن (سُعدى بنت كريز بن ربيعة) كانت قد تكهنت، وهي خالة عثمان بن عفان[١].

وكان لفاطمة بنت النعمان النجارية تابع من الجن، وكان اذا جاءها اقتحم عليها في بيتها، وقد أدركت مبعث الرسول[٢].

وكانت سوداء بنت زهرة بن كلاب، كاهنة قريش. ويذكر أن والدها أعطاها لحافر قبور ليحفر لها قبراً في الحجون، فيدفنها حيّة فيه. أي يئدها، لأنها ولدت زرقاء شيماء، وكانوا يئدون من البنات من كان على هذه الصفة، غير أن حافر القبر عاد بها إلى والدها، لأنه لم يشأ دفنها في خبر يرويه أهل الأخبار[٣].

وكان في (خثعم) كاهنة عرفت بفاطمة[٤].

ولاستشارة الناس هؤلاء الكهان في الأمور وطلبهم منهم الفصل فيها صارت كلمة (حكم) مرادفة لكلمة (كاهن) في بعض الأحايين. وقد روي الأخباريون أمثلة عديدة من حكم هؤلاء الكهان بين الناس وطريقة فصلهم في الأمور، فهم في هذه الحالة حكام يفصلون في القضايا التي يتفق الجانبان المتخاصمان فيها على احالتها عليهم. ولم تكن لنفوذ أحكامهم مناطق وحدود، لقد كان حدود أحكامهم المدى الذي وصلت شهرة الكاهن إليه، لذلك كان الناس يقصدون الكاهن من مناطق بعيدة في بعض الأحيان لشهرته الواسعة التي يتمتع بها بين الناس. وتتوقف هذه الشهرة بالطبع على مبلغ ذكاء ذلك الكاهن وقدرته في فهم طبيعة المتخاصمين أو السائلين، ليتمكن من إصدار حكم معقول مقبول. وتكون أحكامهم قطعية، على الطرفيْن إطاعتها والامتثال لها، وليس لأحد أن يعترض عليها. ولذلك يأخذ الكاهن من الطرفين المتخاصمين قبل سماعه الشكوى عهداً بوجوب الامتثال لحكمه وعدم ردّه مهما كان نوع الحكم.

---

[1] نهاية الأرب (٣/ ١٢٦)، (٣/ ١٣٠)، (طبعة وزراة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة).
[2] الروض الأنف (١/ ١٣٧).
[3] الروض الأنف (١/ ١٤١).
[4] أنساب الأشراف (١/ ٧٩).

العرّاف:

ويطلق بعض علماء اللغة على الكاهن (العرّاف)، فهو عندهم مرادف للكاهن. غير أن من العلماء من يفرق بين الكلمتين، ويرى بينهما فرقاً، فالكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار، والعراف هو الذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما، أو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله[١]. ومنهم من يذهب الى أن العراف من اختص بالإنباء عن الأحوال المستقبلة. أما الكاهن فهو الذي اختص بالإخبار عن الأحوال الماضية[٢]. وقد فرّق بين الكاهن والعراف في حديث: «من أتى عرّافاً أو كاهناً...»[٣]. وأطلق بعضهم العراف على من يدعي الغيب مطلقاً وفي ضمنهم المنجم والحازي[٤].

وذكر أن (العراف) الكاهن أو الطبيب أو المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب[٥]. فللكلمة معانٍ عديدة، ولا تختص بمعنى واحد. وقد ذهب (المسعودي) إلى أن العراف دون الكاهن[٦]. ونجد هذه النظرة عند غيره أيضاً.

وخلاصة ما يفهم عن الكهانة والعرافة في روايات الأخباريين أن الكهانة هي التنبأ بواسطة تابع. وأن العرافة تكون بالملاحظات وبالاستنتاجات وبمراقبة الأشياء لاستنتاج أمور منها، يخبر بها السائلون على سببل التنبؤ. وهي على ما يظهر من تلك الروايات، دون الكهانة في المنزلة، ولم يكن للعرافين اتصال ببيوت العبادة والأصنام[٧]، ولم يكن لهم (رئي) أي (تابع)، وإنما كانوا يستنبطون ما يقولونه بذكائهم وعلى القياس. فيأخذون بالمشابهة وبالارتباط بين الحوادث، ويحكمون بما سيحدث بموجب ذلك[٨].

وقد عدّ العبرانيون العرافة من الحيل الشيطانية كالسحر والتفاؤل، لأنها من

---

[1] النهاية (٤/ ٤٣).
[2] تاج العروس (٦/ ١٩٣).
[3] النهاية (٣/ ٩٨).
[4] تاج العروس (٦/ ١٩٣).
[5] تاج العروس (٦/ ١٩٣).
[6] مروج (٢/ ١٥٤).
[7] (وأما العراف، وهو دون الكاهن)، الحيوان (٦/ ٢٠٤).
[8] مفتاح السعادة (١١٣١ وما بعدها).

رجس المشركين. وتشمل عندهم التنجيم والقرعة والزجر وما شاكل ذلك[١]. وقد نهي عنها في الإسلام.

وقد اعتمد العرّاف على الخط. فكان يخط خطوطاً، ثم ينظر إليها، ليستنبط شيئاً منها، يتنبأ به للناس. ومن مشاهيرهم (حليس الخطاط الأسدي). وقد ذكر أنهم كانوا يخطون خطوطاً، ثم ينظر العراف ويقول: «ابنا عيان، اسرعا البيان، ثم يخبر بما يرى»[٢].

وتعتمد العرافة ــ كما تعتمد الكهانة ــ على الذكاء والتفرس في الأمور والتجارب. وقد خصصها أكثر الناس في الإسلام بالتوصل إلى معرفة الأشياء المفقودة. والعراف بما عنده من الملكات والمواهب المذكورة، يقضي ويتنبأ للناس فيما يراه، ومن أشهر العرافين في الجاهلية: عرّاف اليمامة، وهو (رباح بن كحلة) (رباج بن عجلة) (رياح بن كحلة) المذكور في الشعر، وعرّاف نجد وهو الأبلق الأسدي[٣]. والأجلح الزهري، وعروة بن زيد الأسدي[٤].

وفي عرّاف اليمامة ورد قول الشاعر:

فقلتُ لعرّاف اليمامه داوني　　　فإنك إن داويتني لطبيب

والأبلق الأسدي، هو عراف نجد، وفيه يقول عروة بن حزام:

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه　　　وعرّاف نجد إن هما شفياني[٥]

وقد كان أهل الجاهلية يعرضون صبيانهم على (العرافين) لإخبارهم عن

---

[1] قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٩٣).
[2] فأنتم عضاريط الخميس إذا غزوا　　　غناؤكم تلك الأخاطيط في الترب
الحيوان (١/ ٦٣).
[3] بلوغ الأرب (٣/ ٣٠٦ وما بعدها)، قال عمرو بن حزام العذري:
وقلت لعراف اليمـــامة داوني　　　فإنـــك إن أبرأتني لطبـــيب
فما بي من سقم ولا طيف جنة　　　ولكن عمى الحميري كذوب
تاج العروس (٦/ ١٩٣)، (فقلت)، الحيوان (٦/ ٢٠٥)، مروج الذهب (٢/ ١٥٤)، ثمار القلوب (٨١).
[4] الحيوان (٦/ ٢٠٤)، (الأزدي)، مروج (٢/ ١٥٤)، (دار الأندلس).
[5] مروج الذهب (٢/ ١٥٤)، (العرافة وبعض العرافين)، رسائل الجاحظ (١٣٠)، مقدمة ابن خلدون (٩٤ وما بعدها)، الحيوان (٦/ ٢٠٤)، (١/ ٦٣).

مستقبلهم. وكانت الأسواق مثل سوق عكاظ موئلاً لهم. فكان العراف فيها يربه الناس صبيانهم، ويقول عنهم ما يجول بخاطره، وذلك بالتفرس في وجه الصبي، ومقارنة ذلك بما حصل عليه من تجارب في هذا الباب[١].

وفي اللغة العربية كلمة قديمة أخرى لها صلة بموضوعنا هذا، هي (القيافة). ويقصد بها التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه[٢]، وتدخل في ذلك قيافة آثار الأقدام والأخفاف والحوافر للاستدلال منها على أصحابها، وتعيين النسب في حالة الشك فيه. وما زالت القيافة معروفة عند العرب حتى الآن. وقد اشتهرت بها (بنو مُدلج) خاصة، حتى قيل للقائف (مدلجيّ) بسبب هذا الاختصاص[٣]، وبنو لهب[٤]، وأحياء مضر[٥].

ويرى (المسعودي) أن القيافة من الأمور التي برع بها العرب واختصوا بها، وصار لهم مران وخبرة بها، وذكر أن ممن عرف واشتهر بها (محرز المدلجي)، وقد تعجب الرسول من قيافته وصدقه[٦].

وذكر أهل الأخبار أن (الحازر)، هو من يحزر الأشياء، وأن (الحزارة) في معنى القيافة.

وأما (الفراسة)، فتكون بالاستدلال بهيأة الإنسان وأشكاله وأقواله على صفاته وطبائعه. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أنها من الكلمات المعربة التي أخذت من (بني إرم)، وأنها أحدث عهداً من لفظة (القيافة) التي هي من الكلمات العربية الجاهلية[٧]، وقد توسع في معناها وألف فيها الكتب في الإسلام وتبحر فيها بعض أئمة الفقهاء مثل الشافعي[٨].

وأما (العيافة) فهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها،

---

1 السيرة الحلبية (١/ ١١٤).
2 اللسان (١١/ ٢٠١ وما بعدها)، مروج الذهب (٢/ ١٤٤).
3 المستطرف (٢/ ٨٢)، Ency., II, p. 1048, Muh. Stud., I, S. 184.
4 بلوغ الأرب (٣/ ٢٦٢).
5 مروج الذهب (٢/ ١٤٩).
6 مروج الذهب (٢/ ١٥٠).
7 Ency., II, p. 108.
8 النهاية (٣/ ٢٠٧ وما بعدها)، بلوغ الأرب (٣/٢٦٣ وما بعدها)، نهاية الأرب (١٤٩/٣).

وقراءة بعض أحشائها، ولذلك قيل في العبرانية للعائف (الشاق)، لشقه الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخير مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف يرى أن في أوضاعها معاني يذكرها للسائل على شكل نبوءة[١]. وكانت معروفة خاصة عند الكلدانيين.

وقد اشتهرت (بنو أسد) بالعيافة، فقصدها الناس للأخذ منها، حتى الجن سمعت بعيافتها، وعجبت منها، فجاءت إليها تمتحنها في هذا العلم[٢].

واشتهرت (بنو لهب) بالعيافة كذلك، ولهبٌ حي من الأزد. ومن هؤلاء (العائف اللهبي)، (لهبَ بن أحجن بن كعب)، وهو الذي تكهن بموت عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام[٣].

والزجر العيافة. وهو يزجر الطير يعافها، وأصله أن يرمى الطير بحصاة ويصيح، فإن ولاه في طيرانه ميامنه تفاءل به أو مياسره تطير. وهو ضرب من التكهن. وإنما سُمّي الكاهن زاجراً، لأنه اذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة[٤].

وتطلق لفظة (الحازي) على من يحزر الأشياء ويقدرها بظنه، فهي من الكلمات المستعملة في الكهانة، ويطلق على من يشتغل بالنجوم اسم (حزّاء)، لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه وتقديره[٥]. وأطلقت أيضاً على من يزجر الطير، ولا سيما الغراب[٦].

---

1 تاج العروس (١/ ٢٠٧)، قاموس الكتاب المقدس (٢/ ١٢٩).

2 «وبنو أسد يذكرون بالعيافة ويوصفون بها، قيل عنهم إن قوماً من الجن تذكروا عيافتهم، فأتوهم، فقالوا: ضلت لنا ناقة، فلو أرسلتم معنا من يعيف. فقالوا: لغليم منهم: انطلق معهم، فاستردفه أحدهم، ثم سارو، فلقيهم عقاب كاسرة إحدى جناحيها، فأقشعر الغلام وبكى، فقالوا: مالك؟ فقال: كسرت جناحاً ورفعت جناحاً،وحلفت بالله صراحاً، ما أنت بأنسي ولا تبغي لقاحاً»، تاج العروس (٦/٣٠٧)، اللسان (١١/١٦٧ وما بعدها).

3 الروض الأنف (١/١١٨ وما بعدها)، قال عبد الرحمن الخزاعي:

تيممت لهبـاً أبتغي العـلم عندهم   وقـد رد علم العـائفين إلى لهـب

تاج العروس (١/٤٧٥)، (لهب).

4 تاج العروس (٣/٢٣٤)، (زجر).

5 الروض الأنف (١/ ١١٨ وما بعدها).

6 النهاية (١/ ٢٥٧).

وقد أشير في كتب أهل الأخبار إلى (حازي) عُرف وأشتهر بين الجاهليين بـ (حازي جهينة)[١].

الراقي:

ويُقال لمن يعمل الرقي ويرقي: (الراقي). والرقية العوذة التي يرقي بها صاحب الآفة كالحمّى والصرع. قال عروة:

فما تركا من عوذة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقياني[٢]

ويقال لأجرة الراقي: (البسلة) و(بسلة الراقي). و(البسل) الحلال، والبسل أيضاً الحرام، فهو من الأضداد. وبسل الدعاء بمعنى آمين، أي الاستجابة. وكان الرجل اذا دعا على صاحبه، يقول: قطع الله مطاك. فيقول الآخر: بسلا بسلاً، أي آمين آمين[٣].

الاستقسام بالأزلام:

ومن طرق التنبؤ الاستقسام بالأزلام ويقابل ذلك ما يقال له (كسيم) (كسم) «Gasam» في العبرانية. وهي طريقة معروفة عند البابليين كذلك[٤]. وعند غيرهم من الشعوب. وقد أشير في التوراة إلى أن (نبو ختنصر) (بختنصر) (نبخد نصر) «Nebuchadnezzar» أجال السهام حين عزم على فتح (أورشليم) (القدس). «فإن ملك بابل قد وقف عند أم الطريق في رأس الطريقين ليباشر عرافة. فأجال السهام وسأل الترافيم ونظر في الكبد»[٥]. وقد خرج السهم الذي كتب عليه (أورشليم)، فعمل به وهاجم القدس وفتحها[٦].

---

[1] البيان والتبيين (١/ ٢٨٩).
[2] تاج العروس (١٠/ ١٥٤)، (رقى).
[3] تاج العروس (٧/ ٢٢٧)، (بسل)، الروض الأنف (١/ ٧٥).
[4] Hastings, p. 567.
[5] حزقيال، الإصحاح الحادي والعشرون، الآية ٢١.
[6] Hastings, p. 567.

وتعني لفظة (كوسيم) «Gosem» و«Gesem»، «Kosem» العرافة في العبرانية[1]. من أصل (كسم) (كيسم) (قيسم) وهو التكهن. وهو أصل (سامي). وإليه تعود كلمة (الاستقسام)، لا إلى (قسم) بمعنى تقسيم الشيء وتجزئته. وهو المعنى الذي ذهب إليه أكثر علماء اللغة. وقريب من معنى (قيسم) (كيسم) ما ذكره علماء اللغة من أن القِسْمَ هو الحظ والنصيب. فإن للحظ والنصيب علاقة وثيقة بالتكهن، لما فيه من معرفة المستقبل والوقوف عليه.

وقد عرّف أهل الأخبار (الأزلام): إنها السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها. وعرّفوا (الزلم)، إنه السهم، وإنه القدح المزلم[٢]، وعرفوا القدح: إنه السهم قبل ان ينصل ويراش. وإن القدح: قدح السهم، وجمعه قداح، وصانعه قدّاح[٣]. وقد فسر بعض العلماء الأزلام بأحجار بيض تشبه أحَجار الشطرنج، كما جعل بعض آخر تلك السهام في مقابل (الكعاب) التي يستعملها الروم والفرس في الاستخارة[٤]. وذكر بعض آخر أن «الأزلام: سهام كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها: أمرني ربي، وعلى بعضها: نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً، ضرب تلك القداح، فإن خرج السهم الذي عليه أمرني ربي مضى لحاجته، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي لم يمض في أمره»[٥]. وذكر أن الأزلام التي كانوا يستقسمون بها غير قداح الميسر[٦]، وأنها قداح الأمر والنهي لا قداح الميسر. وذكر أن أهل الجاهلية، كانوا اذا أرادوا أن يخرجوا في سفر، جعلوا قداحاً للجلوس والخروج، فإن وقع الخروج خرجوا، وإن وقع الجلوس جلسوا[٧].

وطريقة الضرب بالقداح، إن الرجل منهم اذا أراد أن يخرج مسافراً، كتب في قدح هذا يأمرني بالمكث، وهذا يأمرني بالخروج، وجعل معهما أزلاماً مسحة،

---

[1] العدد، الإصحاح الثالث والعشرون، الآية ٢٣، صموئيل الأول، الإصحاح السادس، الآية ٢، إشعياء، الإصحاح الرابع والأربعون، الآية ٢٥.
[2] اللسان (١٢/ ٢٧٠).
[3] اللسان (٢/ ٥٥٦)، (قدح)، تاج العروس (٢/ ٢٠٢)، (قدح).
[4] تفسير الطبري (٦/ ٤٢ وما بعدها)، روح المعاني (٦/ ٥٩ وما بعدها).
[5] اللسان (١٢/ ٤٧٨ وما بعدها)، (قسم)، (صادر).
[6] اللسان (١٢/ ٤٧٩)، (قسم)، تاج العروس (٦/ ٤١٧)، (قسم).
[7] تفسير الطبري (٦/ ٤٢ وما بعدها).

أي لم يكتب فيها شيئاً، ثم استقسم بها حين يريد الخروج، فإن خرج الذي يأمرِ بالمكث، مكث، وإن خرج الذي يأمر بالخروج خرج، وإن خرج الآخر أي المسح، أجالها ثانية حتى يخرج أحد القدحين[1]. وهكذا يفعلون في سائر أمور الاستقسام.

وقد جمع المفسرون ما تمكنوا من جمعه عما علق في أذهان الناس من الأزلام، لورود الإشارة إليها في موضعين من سورة (المائدة)[2]، وأورد علماء الحديث والأخبار ما وصل إلى علمهم أيضاً عن (الاستقسام بالأزلام). ويظهر مما ذكروه أن أهل الجاهلية كانوا يقيمون في أيامهم وزناً كبيراً للاستقسام بالأزلام لاعتقادهم أنه يحكي إرادة الأرباب ويتحدث عن مشيئتها. لذلك كانوا لا يفعلون فعلاً ولا يعملون عملاً إلاَّ بعد أخذ رأيها بالاستقسام. فإن جاء أمر فعلوا، وإن جاء نهي امتنعوا.

وجاء في سورة المائدة: ﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق لكم﴾[3]، وذلك مع أمور نهى عنها الإسلام. منها تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذُكي، وما ذبح على النصب. وجاء ذكر الأزلام في موضع آخر مع ذكر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، حيث جعلت رجساً من عمل الشيطان، لذلك، على المسلم اجتنابها والابتعاد عنها[4]. فالاستقسام بالأزلام من الأمور التي نزل الأمر بالنهي عنها في الإسلام. وقد جاء الأمر بالنهي عنها في شريعة يهود كذلك إذ اعتبرت (رجساً)، ومن أعمال الوثنيين[5].

ويكون الاستقسام عند الأصنام في الغالب لاعتقادهم أن النتيجة تمثل ارادة الصنم ومشيئته، غير أن ذلك ليس بشرط، فقد كان أصحاب الأزلام يحملون أزلامهم معهم، ويستقسمون حيث يطلب ذلك منهم. فهم في ذلك مثل أصحاب

---

[1] تفسير الطبري (٦/ ٤٢ وما بعدها).
[2] سورة المائدة، الآية ٣، ٩٠، تفسير الطبري (٦/ ٤٩)، روح المعاني (٦/ ٥٩ وما بعدها)، الطبري (٢/ ٢٤٠).
[3] الآية ٤، تفسير البيضاوي (١/ ١١٨)، تفسير الطبرسي (٣/ ٢٣٨ وما بعدها)، (٣/ ١٥٦ وما بعدها)، (٣/١٥٦ وما بعدها).
[4] المائدة، الآية ٩٣، تفسير البيضاوي (١/ ١٣٢).
[5] Hastings, p. 567.

(الفأل) والقارئون للرمل والسحرة في الوقت الحاضر، يتنقلون بين الناس عارضين فنهم عليهم في مقابل حلوان يقدم اليهم. وهذا النوع، من أصحاب الأزلام، هم من الطبقة المرتزقة على شاكلة هذه الجماعة المذكورة في هذه الأيام. وقد كان منهم من يستقسم لنفسه بنفسه، وذلك بأن يمستقسم بالأزلام التي عنده في بيته، والتي قد يحملها معه، تماماً كما يفعل أهل (الاستخارة) في الاستخارة بالمسبحة (السبحة) أو بوسائل الاستخارة الأخرى في الوقت الحاضر.

قال أهل الأخبار: «والأزلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعَلْ ولا تفعلْ، قد زُلمت وسويت ووضعت في الكعبة، يقوم بها سدنة البيت، فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى السادن فقال: اخرج لي زلماً، فيخرجه وينظر إليه، فاذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه، وإن خرج قدح للنهي قعد عما أراده، وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه، فاذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما»[1].

و«قالوا: كانوا اذا كانت مداراة أو نكاح أو أمر يريدونه، ولا يدرون ما الأمر فيه ولم يصح لهم أخذوا قداحاً لهم فيها: أفعل ولا أفعل لا يفعل، نعم لا خير، شر بطيء سريع، فأما المداراة فإن قداحاً لهم فيها بيضاً ليس لهم فيها شيء، فكانوا يجيلونها فمن خرج سهمه فالحق له، وللحضر والسفر سهمان، فيأتون السادن من سدنة الأوثان، فيقول السادن: اللهم أيهما كان خيراً فاخرجه لفلان، فيرضى بما يخرج له، فإذا شكوا في نسب الرجل أجالوا له القداح وفيها: صريح، وملصق، فإن خرج الصريح ألحقوه بهم، وإن خرج الملصق نفوه، وإن كان صريحاً، فهذه قداح الاستقسام»[2]، «وإن كان بين اثنين اختلاف في حق، سمي كل منهما له سهماً وأجالوا القداح، فمن خرج سهمه فالحق له»[3].

وذكر أن اقداح (هُبل) سبعة، وضعت قدامه. فان أراد آحدهم سفراً أو عملاً أو تجارة أو زواجاً أو بتّاً في نسب مشكوك فيه أو دفع دية أو أن

---

[1] اللسان (١٢/ ٢٧٠ وما بعدها).
[2] نهاية الأرب (٣/ ١١٧ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (٢/ ٦)، الدر المنثور (١/ ٣١٩).
[3] صبح الأعشى (١/ ٤٠٢).

يخرجوا ماءً، أتوا هُبَلَ، ومعهم مائة درهم وبجزور فأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم، وكانت أزلامهم سبعة قدّاح محفوظة عند سادن الكعبة وخادمها، وهي مستوية في المقدار عليها أعلام وكتابة قد كتب على واحد منها (أمرني ربي) وعلى واحد منها (نهاني ربي) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد (ملصق) وعلى واحد (العقل) وواحد غفل ليس عليه شيء، فاذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدوا له استقسم لهم صاحب القداح بقدحي الأمر والنهي، فإن نجح قدح الأمر ائتمروا وباشروا فيما تصدوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك مما يتفق لهم، وإن خرج قدح النهي أخروا ذلك العمل إلى سنة فاذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى.

ويروى أن السؤال إن كان يخص أقداماً أو أحجاماً، استعمل صاحب القداح قدحي (نعم) أو (لا) فاذا ظهر للمجيل قدح (نعم) عمل به، ومضى إلى ما قصد، وإن جاء (لا) أي النهي توقفوا سنة. أما اذا كان نزاعاً في نسب أحد منهم، استقسم بالأزلام الموسومة به (منكم) و(من غيركم) و(ملصق)، فإن ظهر (منكم)، اعتبر المتنازع على نسبه منهم، وإن خرج (من غيركم) اجتنبوه ونفروا منه، وإن ظهر (ملصق)، بقي أمره على ما كان عليه قبل الإستقسام، وأما اذا كان السؤال نزاعاً في (العقل): أي دية القتيل، بأن اشتبه عليهم القاتل، أحضروا من اتهم بالقتل بالقدحين الموسومين بـ (العقل) وبـ (الغفل)، واستقسم بهما فمن خرج عليه العقل تحمل الدية، وإن خرج (الغفل) أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه[١].

ولما أراد (أبو سفيان) الخروج إلى (أُحد)، استخار هبل. بأن كتب على سهم نعم، وعلى آخر لا، وأجالهما عند هبل، فخرج سهم نعم، فخرج بقومه إلى (أحد). وقال يقول: أعلُ هبل. وقال عمر: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان: أنعمت فعال عنها، أي اترك ذكرها، فقد صدقت في فتواها، وأنعمت، أي أجابت بنعم[٢].

---

[1] بلوغ الأرب (٣/ ٦٦ وما بعدها)، الأصنام (ص ٢٨)، النهاية (٣/ ٢٦٨)، تاج العروس (٨/ ٣٢٦)، تفسير الطبري (٦/ ٤٢ وما بعدها).

[2] اللسان (١٢/ ٥٨٩).

ولصاحب الأزلام وخازنها حق يتقاضاه سن الطالبين في مقابل عمله. فكان سادن (هبُل) يتقاضى مئة درهم أجراً عن الاستقسام، كما سبق ان ذكرت، فإن تكرر ذلك زيد أجره على ما يذكره الرواة. وقد كان غير العرب يدفعون حلواناً إلى صاحب الأزلام ليتنبأ لهم. فلما انطلق (شيوخ مديان) (مدين) و(مؤآب) إلى (بلعام) ليستقسم لهم، حملوا حلوانهم معه، فقدموه إليه مقابل ما قام به من عرافة إليهم[1].

وقيل للذين يضربون بالقداح (الضرباء)[2]. والواحد الضريب والضارب. وهو الموكل بالقداح، وقيل الذي يضرب بالقداح. يقال هو ضريب قداحٍ[3].

وقد أشير إلى الاستقسام في شعر الشعراء الجاهليين، وقد ذكرت في قصة الشاعر (امرىء القيس) الكندي حينما جاء إلى الصنم (ذي الخلصة)، ليستقسم عنده بشأن الأخذ بثأر أبيه. فلما خرج النهي عنه ثلاث مرات، غضب على صنمه، وكسر الأزلام ورماها في وجهه، كما يقول الرواة قائلاً: «لو كان أبوك المقتول لما نهيتني»، وأنشد:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   لم تنه عن قتـــل العداة زورا

وأشار الحطيئة إلى ذلك بقوله:

لم يزجر الطير، إن مرت به سنحاً   ولا يفيض على قسمٍ بأزلام[4]

وقال طرفة:
أخـــذ الأزلام مقتسماً   فأتى أغواهما زلمـــه[5]

وهناك طرق عدة عرفت عند الشعوب القديمة في التكهن بالسهام، ومنها رمي السهام في الهواء لمراقبة حركاتها وكيفية سقوطها، ومنها رمي حزمة من السهام أمام الصنم، فالسهم الأول الذي يقع قبل بقية الأزلام، يكون هو السهم الذي

---

[1] العدد، الإصحاح الثاني والعشرو (الآية ٧ وما بعدها)، Hastings, p. 567.
[2] الاشتقاق (٢٨٧).
[3] اللسان (١/ ٥٤٧ وما بعدها).
[4] اللسان (١٢/ ٢٧٠)، الأصنام (٤٧)، نهاية الأرب (٣/ ٦٧).
[5] اللسان (٢/ ٢٧٠).

أمر به الصنم في زعمهم، فيعمل بموجب ما كتب عليه[1].

ولخص (الألوسي) الأزلام التي كانت عند العرب على ثلاثة أنحاء: أحدها: قداح الميسر العشرة، وثانيها: لكل أحد، وهي ثلاثة على أحدها مكتوب (افعل)، أي أمر، وعلى الثاني (لا تفعل) وعلى الثالث (غفل)، فاذا أراد أحدهم الأمر جعلها في خريطة، وهي (الربابة) وأدخل يده فيها وأخرج واحداً، فإن طلع الآمر فعل أو الناهي ترك أو الغفل أعاد. وثالثها: للأحكام وهي التي عند الكعبة. وكانوا يتحاكمون عند (هبل) في جوف الكعبة. وكان عند كل كاهن وحاكم للعرب مثل ذلك. وكانت سبعة مكتوب عليها ما سبق.[2]

و(القرُعة) أي (السهمة)، نوع من أنواع التنبؤ بالغيب التابعة للاستقسام بالأزلام. و(السهمة) هي رضاء بحكم (السهم)، أي بحكم وقوع السهام على الأشياء. وهي جواب فصل يمثل إرادة الآلهة للسائل أو للمختصمين في أمر من الأمور. وقد قيل للسهم: الحظ والنصيب[3]، لأنه يتكلم عن حظ الإنسان ونصيبه.

والتنبؤ بالتفرس في الأشباح التي تظهر على الماء، أو الزيت المصبوب في الأقداح، أو الحركات التي تظهر على سطح السائل بعد رمي شيء فيه، لمعرفة الأسرار والمغيبات والاجرام كالسرقات والقتل، والزنى، ودراسة سطح المرآة: هذه وأمثالها كانت معروفة عند البابليين والعبرانيين، وعند غيرهم من الشعوب. وعقيدتهم أن الأرواح هي التي ترشد إلى إظهار المخفيات، وإن هناك مأمورين من بينهم واجبهم إخبار العراف والعائف والكاهن بما يطلب منهم معرفته ليقوله للسائل[4].

ومن ضروب التنبؤ (الطرقُ)، وهو الضرب بالحصى للكشف عن المستقبل، يقوم بذلك الرجال والنساء. ويقال للقائمين بذلك الطُرّاق والطوارق[5]. وورد أن الطرق: الضرب بالحصى والخط في التراب، وهما ضربان من التكهن. وقيل أيضاً: الطوق: أن يخط الرجل في الأرض بإصبعين ثم باصبع، ويقول:

---

[1] Hastings, p. 567.

[2] بلوغ الأرب (٣/٦٧ وما بعدها).

[3] تاج العروس (٨/ ٣٥٢)، «سهم».

[4] Ency. Religi., 4,p. 807.

[5] النهاية (٣/ ٤٠).

ابني عيان اسرعا البيان، وزعم بعضهم أن الطرق أن يخلط الكاهن القطن بالصوف فيتكهن. وقد نهى عنه في الإسلام. ورد في الحديث إنه قال: الطرق والعيافة من الجبت[١].

ويدخل في ضروب التنبؤ (الخط) «وهو الذي يخطه الحازي. يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي فيعطيه حلواناً، فيقول له: اقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل، ثم يأتى إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين، وغلامه يقول للتفاؤل: «ابني عيان، أسرعا البيان»، فان بقي خطان فهما علامة النجح، وإن بقي خط واحد فهو علامة الخيبة... وقيل: الخط هو أن يخط ثلاثة خطوط، ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى، ويقول: يكون كذا وكذا. وهو ضرب من الكهانة»[٢]. وكانت العرب تسمي ذلك الخط الذي يبقى من خطوط الحازي الأسحم. وكان هذا الخط عندهم مشؤوماً، وقد كان الخط من علوم العرب القديمة[٣].

وعلم الخط هو علم الرمل. وينسب إلى (ابن عباس) قوله: علم قديم تركه الناس. وخط الزاجر في الأرض، رسم خطاً بإصبعه، ثم زجر. وذكر أن (الخطيطة) الرملة التي يخط عليها الزاجر، وأن الأسحم اسم خط من خطوط الزاجر، وهو علامة الخيبة عندهم. وذلك أن يأتي إلى أرض رخوة وله غلام معه ميل، فيخط الأستاذ خطوطاً كثيرة على عجل لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو منها خطين خطين، فإن بقي من الخطوط خطان، فهما علامة النجح وقضاء الحاجة، ويمحو وغلامه يقول للتفاؤل: ابني عيان أسرعا البيان، واذا محا الخطوط، فبقي منها خط، فهي علامة الخيبة[٤].

---

[1] اللسان (١٠/ ٢١٥)، (طرق)، تاج العروس (٦/ ٤١٧)، (طرق)،
لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى   ولا زاجرات الطير ما الله صانع
النهاية (٣/ ٤٠)، اللسان (٨٤/١٧)، سنن أبي داوود (٤/ ١٦).

[2] النهاية (١/ ٣٠٣، ٣٣٨)، «خطط»، (٣ ٤٠) «طرق»، تاج العروس (٦/ ٤١٧)، اللسان (١٧/ ٨٥).

[3] اللسان (٧/ ٢٨٧ وما بعدها)، (خطط).

[4] تاج العروس (٥/ ١٣١)، (خطط).

الأحلام:

والأحلام (Dreams) و(الرؤيا) (Visions) باب من أبواب الكهانة كذلك، فهي تفسير لما سيقع في المستقبل من حوادث. وقد تخصص بذلك أناس تعاطوا تعبير الرؤيا والأحلام. وإذ كان اعتقاد الشعوب القديمة أن الأحلام حقيقة، لا كما نتصورها نحن، كان الاهتمام بها كبيراً، والاعتناء بها شديداً ولا يزال يخصها كثير من الناس بالعناية.

وقد فسرت بعض الشعوب القديمة الأحلام بأنها الآلهة أو الأرواح تتجلى في الإنسان في أثناء منامه، فتطلعه على أشياء كثيرة تتعلق بحياته وبمصيره، وتساعده بذلك على حلّ مشكلات عديدة عويصة لديه، أو تهديه إلى أمور لم يكن يعرف عنها شيئاً، أو تحذره بقرب حلول كارثة أو خطر به أو بغيره، أو بحصول خير له أو لغيره. وقد ترجع به إلى أيام ماضية وحوادث قديمة سالفة كان قد نسيها وذهبت من ذاكرته. ونجد في المؤلفات اليونانية واللاتينية والسريانية وفي الكتابات الهيروغليفية والمسمارية أشياء عديدة من القصص المتعلق بالأحلام. وفيها أن كثيراً من الملوك والخاصة كانوا يقيمون وزناً عظيماً لما يرونه، أو يراه الناس من أحلام. وقد نجح كثير منهم كما خسر كثير منهم أيضاً بسبب تأثير الأحلام فيهم، حتى إن بعضهم أتخذ له مفسراً للأحلام أو جملة مفسرين، ليكونوا في خدمته حتى اذا ما رأى حلماً فسروه له.

ولما كانت بعض الأحلام مزعجة، رجع الكهان المتخصصون بالأحلام أسبابها إلى فعل الأرواح الشريرة. أما الأحلام المريحة الطيبة، فقد جعلوها من إلهام الآلهة في الإنسان. ولأهمية الاعتقاد بالأحلام، وضعت قواعد وتعاليم للأشخاص الذين يريدون معرفة مستقبلهم بالرؤيا والأحلام. وقد نصح في بعضها باجتناب الأكل الثقيل، وبشرب بعض الأشربة المعينة وبالنوم في المعابد، للحصول على الرؤيا الصادقة، والابتعاد عن أضغاث الأحلام. وضع تلك القواعد أناس تخصصوا بهذا الفن، يلجأ إليهم من يرى حلماً ليجد تفسيره عندهم. فلكل شيء في الرؤيا والحلم معنى خاص، لا يمكن أن يعرفه إلا ذوو الخبرة والعلم[١].

وقد عثر على كتابة لحيانية في موضع (الخريبة)، تبين منها وجود صنم في معبد هذا الموضع تخصص بتفسير الأحلام[٢].

---

[1] مقدمة ابن خلدون (١/ ١٠٣).

[2] Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 417, Euting 825, Arabien, S. 89.

وفي كتب التفسير والسير والأخبار والأدب أمثلة عديدة من الرؤيا، تشير إلى أن الاعتقاد بالأحلام كان معروفاً عند الجاهليين، وأن أثره كان عميقاً في حياتهم. وقد يكون لأهل الكتاب أثر عليهم في كيفية تفسير الأحلام وتوجيه تعبير الرؤيا، غير أن الاعتقاد بالأحلام هو اعتقاد عام، وكان يقوم به متخصصون بتفسير الأحلام. وقد عرف في الإسلام واشتهر به (ابن سيرين)[١].

وقد عرف بعض العلماء الإسلاميين الحلم بأنه عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء المزعجة، وخصصوا للرؤيا بما يراه الإنسان في منامه من الخير والشيء الحسن[٢]. وهم بذلك على طريقة القدماء في جعل الأحلام نوعين: أحلام من فعل الشيطان والأرواح الخبيثة، وأحلام من إلهام الآلهة في الإنسان، وهي التي تتكشف من رؤية أشياء جميلة وعن أشياء يرغب صاحب الحلم في الحصول عليها وتحقيقها.

ويرجع العلماء الرؤيا إلى النفس، تطلع على الواقعات فتتذكرها، وتوحي بها إلى صاحبها. وهم يعتقدون بها، وجعلوها جزءاً من النبوة[٣].

---

1 (كتاب التعبير)، عمدة القارئ (٢٤/ ١٢٦)، الفهرست (٤٣٩)، (الكتب المؤلفة في تعبير الرؤيا).
2 النهاية (١/ ٢٨٩ وما بعدها)، تاج العروس (٨/ ٢٥٥)، (حلم).
3 مقدمة ابن خلدون (١/ ١٠٢ وما بعدها).

الفصل السادس والثمانون

الطيرة

وقد كان للطيرة شأن كبير في حياة الجاهليين. وهي معروفة عند جميع الشعوب، ويُقال لها في العبرانية: طيّر «Tayyar»، فهي من نفس الأصل الذي أخذ العرب منه التسمية[1]. ويقال لها في الإنكليزية «Augury»، ويرى بعض الباحثين أن الطيرة انتقلت إلى العبرانيين من العرب[2]. وهناك نوع آخر من التطير يقال «Haruspicy» في الإنكليزية، ويقصد به الطيرة من الحيوانات الميتة، أو مراقبة الحيوان في أثناء ذبحه لمعرفة المستقبل من حركاته وهو يرتجف رجفة الموت[3].

ويقول علماء الأخبار، إن الطيرة من زجر الطيور ومراقبة حركاتها، فإن تيامنت دل تيامنها على فأل، وان تياسرت دل على شؤم[4]. فهي إذن تشمل التيمن والتشاؤم، إلاّ أنها خصصت بالتشاؤم فيما بعد. فصارت تعني هذا المعنى عند الاستعمال. قال (الجاحظ): «وأصل التطير إنما كان من الطّير ومن جهة الطّير، إذا مرّ بارحاً أو سانحاً، أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا

---

[1] Ency. Religi., 4, p. 807.
[2] Ency. Religi., 4, p. 778, 807, Hastings, p, 568.
[3] Ency. Religi., 4,p. 778.
[4] اللسان (٤/ ٥١٢ وما بعدها)، مفردات، للأصفهاني (٣١٢)، صبح الأعشى (١/ ٣٩٩).

اذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم، أو الأعضب أو الآبنر، زجروا عند ذلك وتطيروا، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال. فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير ثم استعملوا ذلك في كل شيء»[١].

قال أحدهم:

عوى الذئب فاستأنستُ للذئب إذ عوى وصوت إنسـان فكـدت أطيـر

كأن الذي يرى ما يكره أو يسمع يطير.

وقد عد العلماء الطيرة والزجر في معنى واحد، لأن أصلهما أنهم كانوا اذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير، ثم يحكمون من حركاته على ما سيحدث ويقع، فالزجر والطيرة من ثم شيء واحد[٢]. وقد قيل لمن يزجر الطير (زاجر) «لأنه اذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضى في تلك الحاجة برفع صوت وشدة»[٣].

والطيور هي مادة التطير، وذلك بمراقبة حركاتها وسكناتها. وهو ما يقال له في العبرانية: (نيحوش) (نحوش)، «Nihush»، من أصل (نيحيش) (نحش). وتقابل لفظة (نحش) كلمة (حنش) في العربية وتعنى (الثعبان). وقد ذهب بعض علماء التوراة. أن لكلمة (نحش)، صلة بالثعبان، ذلك لأن الثعبان كان من الآلهة القديمة، بينما يرى بعض آخر عدم وجود صلة ما للثعبان بهذا الموضوع، لأن العبرانيين لم يتعبدوا البتة للثعابين، فلا صلة للثعبان به[٤].

ويدخل في باب الزجر، زجر الطير والوحش. ويذكر بعض العلماء أن الأصل في الطيرة، هو زجر الطير، ثم صار في الوحش، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويرادان جميعاً[٥].

وقد يراد بالطيرة (التشاؤم) الذي هو خلاف التيامن، غير أن (التشاؤم)

---

[1] الحيوان (١/ ٤٣٨)، (هارون)، العمدة (٢/ ٢٥٩ وما بعدها).

[2] صبح الأعشى (١/ ٣٩٩).

[3] تاج العروس (٣/ ٣٦٤)، اللسان (٥/ ٤٠٧)، (طير).

[4] Ency. Religi., 4, p. 807, Hastings, p. 568.

[5] العمدة (٢/ ٢٦٠).

هو في الواقع أوسع مجالاً وأكثر ساحةً من الطيرة، لأن التشاؤم طيرة وزيادة، وأعني بالزيادة تشاؤم المتشائمين من أمور أخرى كثيرة مثل التشاؤم من ذوي العاهات أو القبح من البشر، والتشاؤم من سماع الكلام السيء أو الأخبار السيئة عند الصباح أو من رؤية ميت أو سماع نياحة أو مشاهدة مخلوق مشوه أو سماع اسم موضع يدعو التشاؤم أو اسم شخص فيه معنى التشاؤم وأمثال ذلك، فتكون كل هذه الأمور مدعاة للتشاؤم عند المتشائمين. «حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر، زجروا عند ذلك وتطيروا عندها كما تطيروا من الطير اذا رأوها على تلك الحال»[١].

ويقول علماء اللغة: الشؤم: خلاف اليمن. ورجل مشؤوم على قومه[٢]. وأصل ذلك هو أن العرب تتفائل بالجهة اليمنى، وتتشاءم من الجهة اليسرى، ولذلك كانت اذا أرادت أن تعمل عملاً عمدت إلى (الزجر) وهو رمي الطير بحصاة، ثم يصيح الرامي، ليفزعها ويزجرها، وعندئذ يراقب حركة طيرانها، فإن تيامنت أي جرت يمنة تفاءل به، وإن تشاءمت أي تياسرت، تشاءم به. فالتيمن هو بالتيامن والتشاؤم هو بالتياسر. ولذلك قيل للكاهن (زاجر) أيضاً «لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي فى تلك الحاجة برفع صوت وشدة»[٣]. ولاعتماد الزاجر على الطيور في الغالب في هذا النوع من التكهن قيل له: (الطيرة). قال علماء اللغة: «وقيل للشؤم طائر وطير وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها والتطير ببارحها ونعيب غرابها وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسمّوا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها»[٤].

ولا بدّ أن يكون للتطير صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيوراً بعد مفارقتها الأجساد، قد كان من المتعارف عليه عند كثير من الشعوب القديمة أن بعض فصائل الطيور هي أرواح الموتى بعد مفارقتها الأجساد، وأنها لذلك تعي وتفهم، وأن في استطاعة بعض الناس فهم منطقها وتكليمها، ومن هنا ظهرت فكرة

[1] الحيوان، للحاحظ (٣/ ٤٣٨) «تحقيق محمد عبد السلام هارون».
[2] اللسان (١٢/ ٣١٤).
[3] تاج العروس (٣/ ٣٦٤)، اللسان (٥/ ٤٠٧)، (١٢/ ٣١٤)، «شأم».
[4] تاج العروس (٣/٣٦٤)، (طير).

(منطق الطير). وقد كان (سليمان) يحادث الطير[1]. فاذا كانت الطير على هذه الصفة، ففي حركاتها وسكناتها منطق لمن لا يحسن منطقها، يشير إلى ما يجب على الإنسان أن يفعله أو يتركه من أعمال.

وقد كان للتطير والتفاؤل شأن كبير في حياة الجاهليين. كما كان لهما مثله في حياة شعوب أخرى عديدة: ومن بينهم اليونان والرومان والفرس والتطير هو نظير التشاؤم في المعنى كما قلت. أما نظير التفاؤل، فهو التيامن. وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة الطيرة وقعت لبعض القبائل عند إقدامها على الحرب، فخسرت لتطيرها. ويحدث من التطير النحس، وأما من التفاؤل فيكون السعد.

وفي الأخبار: «كانت العرب اذا خرج أحدهم من بيته غادياً في بعض الحاجة، نظر: هل يرى طائراً يطير، فيزجر سنوحه أو بروحه، فاذا لم يرَ ذلك، عمد الى الطير الواقع على الشجر، فحرّكه ليطير، ثم نظر إلى أي جهة يأخذ، فزجره. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: اقروا الطير على مكناتها: لا تطيروها ولا تزجروها»[2]. وذكر «أنهم كانوا في الجاهلية اذا خرج أحدهم لحاجة، فإن رأي الطير طار عن يمينه تيمن به واستمر، وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع، وربما كانوا يهيجون الطير، ليطير فيعيدون ذلك»[3].

وقد أبطل الرسول الطيرة. «وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يتفاءل ولا يتطير. وأصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليل، فيتأول منها ما يدل على برئه، كأن سمع منادياً نادى رجلاً اسمه سالم، وهو عليل، فأوهمه سلامته من علته، وكذلك المضل يسمع رجلاً يقول يا واجد، فيجد ضالته. والطيرة مضادة للفأل. وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد. فأثبت النبي الفأل واستحسنه وأبطل الطيرة ونهى عنها»[4].

وروي أن أهل الجاهلية كانوا يقولون: «إن الطيرة في المرأة والدار والدابة»[5].

---

[1] Ency. Religi., 4, p. 808.

[2] جامع الأصول (٨/ ٤٥٨).

[3] إرشاد الساري (٨/ ٣٩٦).

[4] تاج العروس (٣/ ٣٦٤ وما بعدها).

[5] أمالي المرتضى (٢/ ٢٠٢).

و(الكدس) التطير، و(الكدسة) عطسة البهائم، وقد تستعمل للإنسان: ومنه الحديث: اذا بصق أحدكم في الصلاة، فليبصق عن يساره أو تحت رجله، فإن غلبته كدسة أو سعلة ففي ثوبه. والكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما. ومنه قيل للظبيّ وغيره إذا نزل من الجبل وغيره كادس[1].

ومن الألفاظ المستعملة في (الزجر) (سنح) و(برح). وللفظة (برح) معان عديدة، وهي من الكلمات السامية الواردة والباقية في عدد من لهجاتها. ومنها لفظة (البارح) وهي ضد (السانح). و«السانح ما مرّ من الطير والوحش بين يديِك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به، لأنه أمكن للرمي والصيد. والبارح ما مرّ من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به، لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تتحرف»[2].

وقد ذكر بعض اللغويين عكس المعنى، كما ذكر أن أهل نجد كانوا يتشائمون بالبوارح ويتيمنون بالسانح. أما غيرهم من العرب، فقد كانت تتيمن بالبارح، وأن بعضاً منهم لم يكن له رأى في شيء من هذا[3]. وذكر أن أهل (العالية) يتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح[4].

قال ذو الرمة وهو من نجد:

خليلي، لا لاقيتما ما حييتما   من الطير إلا الســانحات وأسوأ

وقال النابغة، وهو نجدي أيضاً، يتشاءم بالبارح:

زعم لالاقيتما البوارح ان رحلتنا غداً   وبذاك تَنعاب الغراب الأسود

وقد عبر (كثير) عن رأي أهل الحجاز بقوله:

أقول إذا ما الطير مرت مخيفة   سوانحها تجري ولا استثيرها[5]

وذكر أن هذيلاً كانت تتشاءم بالسنيح. أما غيرها، فكانت تتشاءم بالبارح[6].

---

[1] تاج العروس (٤/ ٢٣٠)، (كدس).
[2] النهاية (١/ ٨٥)، المعاني الكبير (٣/ ١١٨٧).
[3] الأغاني (٩/ ١٥٧) «أخبار النابغة ونسبه»، Reste, S. 202.
[4] العمدة (٢/ ٢٦٣).
[5] البرقوقي (ص ١٩ وما بعدها).
[6] المعاني (٣/ ١١٨٦).

ويقال للمتطيرين من الرجال (الخثارم)[1].

وذكر أن (بني لهب)، «هم أعيف العرب وأزجرهم للطير»[2]. وهم بطن من العرب يعرفون بالعيافة. ولأهل الأخبار قصص عن عيافتهم وعن زجرهم للطير[3].

ومن الطيور التي تطير منها أهل الجاهلية: الغراب وطيور الليل، وهي البومة، والصدى، والهامة، والضّوع، والوطواط، والخفاش، وغراب الليل[4].

وقاعدتهم في الطيرة، أنهم يشتقون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون. من ذلك قول سوّار بن المضرب:

تغنىّ الطــائران ببين ليلى   على غصنين من غَرْب وبان
فكان البان أن بانت سليمى   وفي الغرب اغتراب غيرُ دانِ

فاشتق الاغتراب من الغرب، والبينونة من البان.

وقال عنترة:

ظعن الــذين فراقهم أتوقــع   وجرى بينهم الغــراب الأبقــع
حَرِق الجناح كأن لحْيَيْ رأسه   جلمان بالأخبــار هُش مولَــع
فزجــرته ألا يفــرخ بيضه   أبــداً ويصبح خائفــاً يتفجــع
إن الذين نَعْبتَ لي بفراقهــم   هم اسهروا ليلى التمام فأوجعوا

فقال: وجرى بينهم الغراب، لأنه غريب، ولأنه غراب البين، ولأنه أبقع. ثم قال: حرق الجناح تطيراً أيضاً من ذلك. ثم جعل لحيي رأسه جلمين، والجلم يقطع. وجعله بالأخبار هشاً مولعاً، وجعل نعيبه وشحيجه كالخبر المفهوم[5].

وأشأم الطيور عند الجاهليين، (الغراب): «ليس في الأرض شيء يتشاءم

---

[1] المعاني (٣/ ١١٨٧).
[2] الاشتقاق (ص ٢٨٨)، صبح الأعشى (١/ ٣٣٩ وما بعدها).
[3] صبح الأعشى (١/ ٣٩٩ وما بعدها).
[4] الحيوان (٢/ ٢٩٨)، (هارون).
[5] الحيوان (٢/ ٤٤٢ وما بعدها)، (هارون).

به إلا والغراب أشأم منه»[١]، ولذلك قالوا إذا نعب: خيراً خيراً، وذلك من باب التفاؤل بالأضداد[٢]. «والعامة تتطير من الغراب، إذا صاح صيحة واحدة، فإذا ثنىء تفاءلت به»، «واذا صاح الغراب مرتين، فهو شرّ، واذا صاح ثلاث مرات، فهو خير»[٣]. وورد (غراب البين) و(الغراب الأبقع) و(الغراب الأسود)[٤]. ويراد بذلك التشاؤم بفراق الأحبة، ويقال للغراب الأسود (حاتم)، والحتمة السواد، وهو مشؤوم، لأنه يحتم بالفراق[٥]. «والعرب تتشاءم من الغراب، ولذا اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب»[٦]. «فالغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم، ألا تراهم كلما ذكروا ما يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه؟ وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره، ثم إذا ذكروا كل واحد من هذا الباب لم يمكنهم أن يتطيروا منه إلاّ من وجه واحد، والغراب كثير المعاني في هذا الباب، فهو المقدم في الشؤم»[٧]. وروي أن (ابن عباس) كان إذا صاح الغراب، قال: اللهم لا طير إلاّ طيرك، ولا خير إلاّ خيرك، ولا إلهَ غيرك. قال الجاحظ: «وليس في الأرض بارح ولا نطيح، ولا قعيد، ولا أعضب ولا شيء مما يتشاءمون به إلاّ والغراب عندهم أنكد منه، يرون أن صياحه أكثر أخباراً، وأن الزجر فيه أعم قال عنترة:

---

1 تاج العروس (١/ ٤٠٧)، «عزب»، قال رؤبة:
فأزجر من الطير الغراب الغاربا
اللسان (٢/ ٤٢٨)، الحيوان للجاحظ (٢/ ٣١٦).

2 الحيوان، للجاحظ (٣/٤٥٧، ٤٥٨) «طبعة عبد السلام محمد هارون».

3 الحيوان، للحاحظ (٣/ ٤٥٧ وما بعدها)، حياة الحيوان، للدميري (٢/ ٢٥٥).

4 قال عنترة:
ظعن الــذين فراقهم أتوقــع   وجرى بينهم الغــراب الأبقع
خرق الجناح كأن لجى رأسه   جلمان بالأخبار هش مولــع
اللسان (١٦/ ٢١٠)، القاموس (٤/ ٢٠٤)، «غراب البين»، الحيوان للجاحظ (٣/ ٤٣١)، البيان والتبيين (١/ ٨٣)، «لجنة»، قال النابغة:
زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبرنا الغراب الأسود
الحيوان، للجاحظ (٣/ ٤٤٢).

5 إذا ما رأت عبس من الطير جاثما   شديد سواد الزف ظلت تفزع
الاشتقاق (٢/ ١٦٦)، اللسان (١٥/ ٣)، الحيوان للحاحظ (٣/ ٤٣٦)، (هارون)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٣٨ وما بعدها).

6 الحيوان للجاحظ (٢/ ٣١٦)، حياة الحيوان، للدميري (٢/ ١٩٠).

7 الحيوان للجاحظ (٢/ ٣١٦)، حياة الحيوان (٢/ ٢٤٤).

حَرق الجنـــاح كأنّ لحيي رأسه   جلمان، بالأخبـــار هش مولع[١]

وفي الغراب وشؤمه يقول الأعشى:

ما تعيف اليوم في الطير الروح   من غراب البين أو تيس برح[٢]

وقد كنّوا عنه بكنى عديدة، دلالة على مقدار اهتمامهم به. فقالوا له: أبو حاتم، وأبو جحادف، وأبو الجراح، وأبو المرقال، وأبو حذر، وأبو زيدان، وأبو زاجر، وأبو الشؤم، وأبو غياث. ووضعوا الأمثلة على لسانه وعنه. وقصوا عنه الحكايات. من ذلك، انه أراد ان يقلد القطاة في مشيها، فحاكاها لكنه لم يفلح في المشي مشيها، فلما أراد العود إلى مشيته الأولى، أضل مشيته، إذ نسيها، فنسي المشيتين: فلذلك سمّوه: أبا المرقال[٣]. وضربوا المثل بالغراب الأعصم، فقالوا: أعز من الغراب الأعصم، للشيء القليل الوجود[٤]. وأوردوا له قصصاً مع الديك ومع حيوانات أخرى. ورموه بالفسق والفجور[٥].

وفي الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين إشارات إلى شؤم الغراب. جاء في شعر(حسان بن ثابت):

وبيَّن في صوت الغراب اغترابهم   عشية أو فى غصن بان فطربا

فصوت الغراب، يشير إلى الغربة والاغتراب، لذلك كره[٦].

وهو من ألأم الطير وأخبثها، وهو من عبيد الطير، وليس من أحرارها، فهو دنيء النفس، إذا صادفته جيفة، نال منها، وهو لا يتعاطى الصيد. فهو حيوان خبيث الفعل وخبيث المطعم، لذلك عدّ العرب أكله عاراً يعير من يقدم

---

[1] الحيوان (٢/ ٣١٦)، (هارون).
[2] العمدة (٢/ ٢٦٠)، تاج العروس (٦/ ٢٠٧)، (عاف)، اللسان (٩/ ٢٦١)، (عيف).
[3] الحيوان، للجاحظ (٣/ ١٢٩)، حياة الحيوان للدميري (٢/ ١٧٢).
[4] حياة الحيوان (٢/ ١٧٢).
[5] الحيوان (٣/١٣١)، حياة الحيوان (٢/ ٢٧٣ وما بعدها)، (٣/ ٣١٧)، (هارون)، (فسق الغراب وتأويل رؤياه).
[6] البرقوقي (ص ١٩)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٤ وما بعدها).

عليه، وكانوا يتعايرون بأكل لحمه[1]. وليس ذلك «لأنه يأكل اللحوم ولأنه سبع»، لو كان ذلك منهم «لكانت الضواري والجوارح أحق بذلك عندهم»[2] إنما امتنعوا عن أكله، لأنه يأكل الجيف والقاذورات، ولذلك عدّه العبرانيون من الحيوانات النجسة، والحيوانات النجسة، هي في الغالب الحيوانات التي لا يجيز أكل لحومها، والظاهر أنه كان على هذه النظرة عند أغلب الساميين.

ونعت الغراب بـ (الأعور)، قيل إنه نعت بذلك لحدة نظره[3]، وقيل إنما سموه (الأعور) تفاؤلاً بالسلامة[4]. ووصف بالحذر، فقيل: أحذر من غراب، وقيل إنه نعت بذلك على التشاؤم به، لأن الأعور عندهم مشؤوم، وقيل لخلاف حاله، لأنهم يقولون: أبصر من غراب، ويقال سمي الغراب أعور، لأنه إذا أراد أن يصيح يغمض عينيه[5].

ويذكر أهل الأخبار أن غراب البين نوعان: أحدهما صغار معروفة بالضعف واللؤم. أما الآخر، فإنه ينزل في دور الناس، ويقع على مواضع إقامتهم اذا ارتحلوا عنها وبانوا منها، ولذلك سمي بغراب البين[6].

وللعرب عادات بالنسبة إلى الغراب، ترى أنه اذا علق منقار الغراب على إنسان، حفظ من العين. أما اذا علق طحاله على إنسان، هيج الشبق. وأن دمه اذا جفف وحشي به البواسير، أبرأها. واذا أكل مشوياً، نفع القولنج. واذا غمس الغراب الأسود بريشه في الخل، وطُلي به الشعر، سوّده. واذا طلي بها إنسان مسحور، بطل عنه السحر. واذا جفف لسان الغراب (الزاغ)، ثم أكله إنسان عطشان، ذهب عطشه[7].

---

[1] فما بالعـــار ما عيرتمونـــا   شواء الناهضات مع الخبيص
فمـــا لحم الغراب لنا بزاد   ولا ســـرطان أنهـــار البريص
الحيوان، للحاحظ (٢/ ٣١٤ وما بعدها)، (٢/ ٣١٣)، (هارون)، (لؤم الغراب وضعفه).
[2] الحيوان للحاحظ (٢/ ٣١٧)، (التعاير بأكل لحم الغراب).
[3] المفردات، للراغب الأصفهاني (ص ٢٥٨).
[4] الحيوان، للحاحظ (٢/ ٣١٤ وما بعدها).
[5] تاج العروس (٣/ ٤٢٨)، (عور).
[6] الحيوان، للجاحظ (٢/ ٣١٥)، حياة الحيوان، للدميري (٢/ ٢٤٦).
[7] حياة الحيوان، للدميري (٢/ ٢٤٥، ٢٥٥).

ونُسب إلى المرقش السّدوسي، ذكر الغراب في شعره، إذ قيل إنه قال:

ولقد غـدوت وكنت لا أغدو على واق وحـاتم
واذا الأشـائم كالأيـا مِنِ، والآيـامنُ كالأشائم[1]

ويبين هذان البيتان رأي هذا الشاعر في التيامن والتشاؤم.

وكان العرب اذا أرادوا ان يصفوا أرضاً بالخصب والسواد، قالوا: وقعوا في أرض لا يطير غرابها، فهذا يعني أن الأرض كلها خصبة مزروعة سوداء، لا ترى فيها قطعة بيضاء، ولا ترى إلاّ الزرع والخيرات والثمر. واذا أرادوا التعبير عن انتقال مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيخوخة، وعن التهام الشيب لسواد الرأس: قيل: طار غراب البين[2].

وقد يكون في جملة أسباب تشاؤم العرب من الغراب، أنه كَان يضر بإبلهم. فهم يذكرون أنه اذا وجد دبرة في ظهر البعير، أو قرحة في عنقه، سقط عليها ونقره وعقره. ولذلك كانوا اذا رأوا دبرة بظهر البعير، غرزوا في سنامه إما قوادم ريش أسود، وإما خرقاً سوداً، لتفزع الغربان فلا تتقرب منه ولا تسقط عليه. وقد يضعون الريش في اسنمتها وتغرز فيها[3]. والعرب تسمي الغراب لذلك (ابن دأية)، لأنه ينقر دبرة البعير أو قرحة عنقه، حتى يبلغ إلى دايات العنق وما اتصل بها من خرزات الصلب، وفقار الظهر[4].

والغراب من الطيور التي ورد ذكرها في التوراة. والعبرانيون مثل العرب اعتقدوا بالطيرة منه، أي بتأثير حركاته وسكناته في احداث الفأل والشؤم[5].

وقد ذكر (الجاحظ) جريدة بأسماء الجهات التي يقف عليها (الغراب) فينعب، وما سيقع من وقفته تلك ومن نعيبه، وما يجب أن يفعله أو يتجنبه

---

[1] المعاني (١١٨٧/٣).
[2] تاج العروس (١/ ٤٠٧).
[3] الحيوان، للجاحظ (٣/ ٤١٦ وما بعدها)، (هارون).
[4] الحيوان (٣/ ٤١٥، ٤٣٩)، (هارون).
[5] الملوك الأول، الإصحاح السابع عشر، الآية ٦، التكوين، الإصحاح الثامن، الآية ٧، Ency. Religi., 4, p. 808.

الإنسان في هذه الحالات. كما ذكر أموراً أخرى تخص التطير أو التفاؤل من أصوات الحيوانات أو من رويتها[١].

وكان (أمية بن أبي الصلت) ممن يتطير من الغراب، ويذكر أهل الأخبار أنه بينا كان يشرب مع إخوان له في قصر (عيلان) بالطائف، إذ سقط غراب على شرفة القصر، فنعب نعبةً، فقال أمية: «بفيك الكثكث»، أي التراب وتشاءم منه، وقد مات فعلاً في مكانه بعد نعيبه للمرة الثالثة[٢].

وفي شعر أمية قوله:

بآية قـــام ينطق كل شيء   وخـــان أمانة الديك الغرابُ

وذلك أن من أحاديث العرب، أن الديك كان نديماً للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئاً، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك، فخاس به، فبقي محبوساً، وأن نوحاً حين بقي في اللجة أياماً بعث الغراب، فوقع على جيفة ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأً، واستعجلت على نوح الطوق الذي في عقنها، فرشاها بذلك. وفي جميع ذلك وغيره قال (أمية) ذلك البيت وأبياتاً أخرى، تطرق فيها إلى قصص إسرائيلي آخر، أخذ علمه به من أهل الكتاب. «فقد كان داهية من دواهي ثقيفٍ، وثقيف من دهاة العرب، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه قد كان همّ بادعاء النبوة، وهو يعلم كيف الخصال التي يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له، نعم وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات، ودرس الكتب، وقد بان عند العرب علاّمة، ومعروفاً بالجولان في البلاد، روابة»[٣].

ومن رأي العرب أن الغراب لا يشيب، وضربوا به المثل في ذلك، فقالوا: «حتى يشيب الغراب ويبيّض القار»، ضربوا به مثلاً في الاستمرار على العمل

---

[1] نهاية الأرب (٣/ ١٣٤ وما بعدها).
[2] نهاية الأرب (٣/ ١٣٩)، حياة الحيوان (٢/ ١٧٣)، الحيوان (٣/ ١٣١).
[3] الحيوان (٢/ ٣٢٠).

وعدم الملل من شيء[1]. ويقولون: ذهب الغراب يتعلم مشي العصفور أو القطاة، فلم يتعلمها، ونسي مشيته. فلذلك صار يحجل ولا يقفز قفزان العصفور، أو مشية القطاة[2].

والبوم من الطيور التي يتشاءم منها بعض الناس، ولعل ذلك بسبب منظرها الكئيب ولصوتها الحزين وظهورها في الليل، والليل هو رمز الشر. ويدل وصفها. (أم الخراب) و(أم الصبيان) على النظرة السيئة التي كان يراها إلعرب لها[3]. ويقال إن من أنواعها الصدى والهامة. ولعل اعتقادهم أن الصدى والهامة أو ذكر البوم منها، هي روح الميت المرفرفة على القبر هو التي حمل أولئك المتشائمين على التشاؤم منها.

والعاطوس، وهي سمكة في البحر أو دابة من الحيوانات التي كان العرب يتشاءمون منها[4]. وكذلك (الأخيل) وهو (الشقراق)، «تطيرون منه، ويسمونه مقطع الظهور: يقال اذا وقع على بعير، وان كان سالماً يئسوا منه، واذا لقي المسافر الأخيل تطير وأيقن بالعقر إن لم يكن موت في الظهر»[5]. وهم يتشاءمون من الثور الأعضب أي المكسور القرن[6]. ويتشاءمون من (العراقيب)، الشقراق. وتقول العرب: اذا وقع الأخيل على البعير ليكشفن عرقوباه. وقيل: كل طائر يتطير منه للإبل، فهو طير عرقوب لأنه يعرقبها[7].

ويتطيرون بالصرد، ومن أسمائه الأخطب، ويقال (الأخيل) كذلك. و(الواق) أيضاً الصرد[8]. ويتشاءمون من (الأفكل)، وهو الشقران، فإذا عرض لهم كرهوه وفزعوا منه وارتعدوا[9].

---

[1] اللسان (١١/ ٦٢٩)، الحيوان (٣/ ١٣١)، حياة الحيوان (٢/ ١٧٧).
[2] الحيوان (٤/ ٣٢٥).
[3] حياة الحيوان (١/ ١٨١ وما بعدها).
[4] قال طرفة بن العبد:
لعمــري لقد مرت عواطيس جمة ومر قبيل الصــبح ظبي مصمع
تاج العروس (٤/ ١٩٢)، حياة الحيوان، للدميري (٢/ ١٢١، ٢٢١)، العمدة (٢/ ٢٦٠)، اللسان (٦/ ١٤٢).
[5] بلوغ الأرب (٢/ ٣٣٧)، البرقوقي (٣٤٨)، ديوان حسان (ص ٢٢)، «هرشفلد».
[6] تاج العروس (٢/ ٣٣٨)، العمدة (٢/ ٢٦٢).
[7] تاج العروس (١/ ٣٧٨)، (عرقب).
[8] العمدة (٢/ ٢٦١).
[9] تاج العروس (٨/ ٦٥)، (افتكل).

والثعلب والأرنب من الحيوانات التي استعان بها الزاجر، في الزجر[1]. والواقع أن أهل الزجر قد توسعوا في علمهم حتى شمل كل المخلوقات، فحركات الإبل والخيل وسكناتها كلها ذات معان ومفاهيم يعرفها المشتغلون بالطيرة، وكانوا يستعينون بغيرها من الحيوانات.

وقد ذكر بعض الأخباريين أن العرب تتشاءم من الأفراس بالأشقر[2]. وذكروا أيضاً أنها تطيرت من: «المرأة، والدار، والفرس». وفي الحديث: «إن كان الشؤم، ففي الدار والمرأة والفرس»[3]. وورد: «إنما للشؤم في ثلاثة: في الفرس والمرأة والدار». وذكر أن (عائشةَ)، قالت: «وإنما قال: إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك»، أي إن الرسول إنما قال ذلك حكاية عن أهل الجاهلية فقط[4].

وكما يتغلب الإنسان على الأمراض بالأدوية والعلاج، كذلك يمكن التغلب على النحس وشؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح في بعض الاحيان، ولهذا جرت العادة بذبح ذبيحة أو عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى بعلها ووصولها عتبة بيته طرداً للأرواح الشريرة وإرضاءً لها، كما جرت العادة بذبح الذبائح حين الانتقال إلى دار جديدة، أو حين الشعور بوجود أرواح فيها، ويقال لهذه الذبائح (ذبائح الجان)[5].

وقد ابتدع الجاهليون طرقاً لإبعاد الطيرة من تفكيرهم، من ذلك أنهم تجاهلوا بقدر إمكانهم، المسمّيات التي تبعث على التشاؤم بتسميتها بضدها من الكلمات التي لا يتشاءم منها، فسمّوا اللديغ بالسليم، والبرية بالمفازةِ، وكنّوا الأعمى بالبصير والأعور ممتعاً، والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، وذلك لتشاؤمهم من الغراب[6]. والتسميه بالأضداد لدفع الطيرة عن الأذهان، ليست عادة جاهلية حسب، إنما هي معروفة في الإسلام كذلك. كما أنها معروفة عند غير العرب من الأمم قديماً وحديثا.

---

[1] Reste, S. 202.

[2] مجمع الأمثال (٢/ ٨٦).

[3] «لا عدوى ولا طيرة، إنما الشؤم في ثلاث في الفرس والمرأة والدار»، جامع الأصول (٨/ ٣٩٦)، عمدة القارئ (٢١/ ٢٨٩).

[4] القسطلاني، إرشاد (٥/ ٧٣ وما بعدها).

[5] تاج العروس (٢/ ١٣٨).

[6] الحيوان (٣/ ٤٣٩)، «عبد السلام هارون»، بلوغ الأرب (٢/ ٣٣٨ وما بعدها).

التثاؤب والعطاس:

ويدخل في الطيرة بعض ما يصدر من الإنسان والحيوان من حركات، مثل التثاؤب والعطاس، والتثاؤب عمل من أعمال الشيطان. وأما العطاس، فقد كان أثره في إيجاد الشؤم شديداً، وهو من العادات الجاهلية المذكورة في الشعر المنسوب إلى الجاهليين. ذكر أن امرأ القيس قال:

وقد اغتدي قبل العطاس بهيكل شديد منبع الجنَب نعم المنطّق

وإنه أراد بذلك أنه كان يتنبه للصيد قبل أن ينتبه الناس من نومهم، لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم بعطاسه[١].

وقبل إن العرب كانت تتطير منه، فإذا عطس العاطس، قالوا: قد ألجمه، كأنها قد تلجمه عن حاجته[٢].

ويقال الكدسة لعطسة البهائم. وقد تقال لعطسة الإنسان. والكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما. وقيل الكادس: القعيد من الظباء، وهو الذي يجيء من خلفك، ويتشاءم به، كما يتشاءم بالبارح[٣].

والعطاس فضلاً عن ذلك دواء في نظر أهل الجاهلية، لذلك كانوا يتجنبونه بقدر إمكانهم، ويحاولون جهدهم حبسه وكتمه. فإذا عطس أحدهم وكان وضيعاً مغموراً أسمعوه كلاماً مراً فيه رد للشؤم على صاحب العطاس، كأن يقولوا له: «ورياً وقحاباً». والوري هو داء يصيب الكبد فيفسدها، والقحاب هو السعال، أو: «بك لا بي: أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي». أما إذا كان العاطس معروفاً محبوباً شريفاً، قالوا له: «عمراً وشباباً». وكلما كانت العطسة شديدة كان التشاؤم منها أشد[٤]. ويقال للدعاء على العاطس (التشميت) و(التسميت)[٥].

---

1 العمدة (٢/ ٢٦٠)، إرشاد الساري (٩/ ١٢٥ وما بعدها).
2 المعاني الكبير (٣/ ١١٨٥).
3 تاج العروس (٤/ ٢٣٠)، (كدس).
4 المعاني الكبير (٢/ ١٠١٥)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٣٢).
5 اللسان (٢/ ٣٥٧)، تاج العروس (١/ ٥٥٩)، «شمت».

وقد نهى الإسلام عن التشاؤم بالعطاس، وعكسه، فجعله محبوباً، بحديث: «إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب»[1].

واذا مات رجل قالوا: عطس الرجل، و(عطست به اللُجم)، واللجمة ما تطيرت منه، ويقال للموت: لجم عطوس[2].

بعض من أنكر الطيرة:

وكان بين الجاهليين أناس أنكروا الطيرة، ولم يحفلوا بها. منهم المرقش من بني سدوس، حيث قال:

إني غـدوت وكنت لا ... أغدو على واقٍ وحـاتم
فـإذا الأشـائم كالأيـا ... من والأيـامن كالأشائم
فكـذاك لا خيـر ولا ... شـرّ على أحـد بدائم[3]

وممن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك، سلامة بن جندل، والحارث بن حلزة. ونجد الشاعر (الخُثيم بن عدي) يمدح (مسعود بن بحر الزهري)، بقوله:

وليس بهيّـاب اذا شـد رحله ... يقول عـداني اليومَ واق وحاتم
ولكنه يمضي على ذاك مقدماً ... إذا صدّ عن تلك الهنات الخثارم

فهو يمدحه، ويقول إن ممدوحه لم يكن من الخثارم، أي المتطيرين، بل كان إذا أراد أن يمضي أمراً، صد عن تلك الهنات، فلا يحفل بواق وحاتم[4].

وكان النابغة من المتطيرين، خرج مع (زبّان بن سيار) يريدان الغزو، فبينما هما يريدان الرحلة، إذ نظر النابغة وإذا على ثوبه جرادة تجرد ذات ألوان، فتطير وقال: غيري الذي خرج في هذا الوجه! فلما رجع زبّان من تلك الغزوة سالماً. أنشأ يذكر شأن النابغة، فقال:

---

[1] جامع الأصول (٧/ ٣٩٦ وما بعدها).
[2] اللسان (٦/ ١٤٢).
[3] الحيوان (٣/ ٤٣٦، ٤٤٩)، (هارون).
[4] الحيوان (٣/٤٣٧)، (هارون).

تخبّــر طيــره فيهــا زيــادٌ　　لتخبره وما فيهــا خبــير
أقــام كأن لقمــان بن عــاد　　أشــار لــه بحكمته مُشير
تعــلم أنــه لا طيـــر إلاّ　　على متطيّر وهــو الثــبور
بلى شيء يوافق بعض شيء　　أحــايينا وباطــله كثــير[1]

واسم النابغة زياد[2].

وهناك نوع آخر من التنبؤ يقال له في الإنكليزية «Hepatscopy»، ويُراد به استخراج الغيب من دراسة كبد الأضاحي التي تقدم إلى الآلهة. وقد اشتهر به الكلدانيون على الأخص، وتوسعوا فيه فشمل أيضاً قراءة الرئة أو بقية الأحشاء. وكان معروفاً أيضاً عند العبرانيين واليونان والرومان والمصريين وغيرهم[3]. وللكبد أهمية خاصة عند العرب، وهو في نظرهم معدن العداوة ومقر الحقد، لذلك يقال للأعداء: سود الأكباد، لأن الحقد قد أحرق أكبادهم حتى اسودت[4].

وقد تشاءموا من بعض الأيام، مثل (الأيام النحسات). وهي كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر، مثل أربع خلون، وأربع وعشرين، وأربع بقين. كما تشاءموا من بعض الشهور، مثل شهر شوّال، ولذلك كرهت التزوج فيه[5]. وورد يوم نحس و(أيام نحسات)، وهي المشؤومات. والعرب تسمي الريح الباردة إذا دَبِرت نحساً. والنحس: الجهد والضر، وخلاف السعد من النجوم وغيرها[6]. وقد كان أهل نجد يتيمنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح، ويخالفهم أهل العالية، فيتشاءمون بالسانح، ويتيمنون بالبارح[7].

ويدخل في هذه الأيام تشاؤم بعض الجاهليين من يوم معين وتفاؤلهم من يوم آخر. فيكون يوم التشاؤم يوم بؤس، يغضب فيه من يتشاءم منه على كل من يراه أول مرة أو في ذلك النهار، وقد يلحق به سوءاً كالذي روي من قصة

---

[1] الحيوان (٣/ ٤٤٧)، (هارون).
[2] الحيوان (٥/ ٥٥٥)، (هارون).
[3] Ency. Religi., 4, p. 808, Hastings, p. 568, Diodorius Sici., II. p. 29.
[4] اللسان (٣٧٨/٤).
[5] مروج الذهب (٤/ ٣٧٨).
[6] اللسان (٢٢٧/٦).
[7] العمدة (٢/ ٢٦٣).

(يومي البؤس والنعيم) عند (المنذر بن ماء السماء) أو (النعمان بن المنذر)[١]. ويكون يوم التفاؤل (يوم نعيم) يفرح فيه صاحبه ويهش لكل من يراه ولا سيما لأول قادم عليه. وعبر عنهما بـ (يوم بؤس) و(يوم نُعم)[٢].

وكانت العرب تتشاءم من كلبة يقال لها (براقش)[٣].

الفأل:

والفال ضد التشاؤم والطيرة. ويكون برؤية شيء أو سماع أمر أو قول أو غير ذلك يُتفاءلُ منه، كأن يسمع مريض رجلاً يقول يا سالم فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه، أو يسمع طالب حاجة رجلاً يقول يا واجد فيخال أنه يجد ضالته، فيتوقع صحة هذه البشرى، ويقال لذلك في الإنكليزية Omen وهو معروف عند العبرانين وقد ذكر في التوراة[٤].

وأصل كلمة (الفأل) على ما يظهر للتشاؤم والتفاؤل، أي أنها كالطيرة أريد بها الحالتان، ثم تخصصت بالحسن، كما تخصصت الطيرة بالشؤم[٥]. وقد نهي في الحديث عن الطيرة. أما الفأل، فقد ورد أن الرسول كان يتفاءل ولا يتطير لما في التفاؤل من أثر طيب في أعمال الإنسان[٦].

وضد (الشؤم) (اليمن)، ومن معاني اليمن (البركة)، و(الميامين) على نقيض (المشائيم)، و(الميمون) ضد (المشؤوم)[٧]. وورد (ميمون النقيبة)[٨] و(ميمون الناصية). ويلاحظ ان للناصية علاقةً متينة بالشؤم والتيمن، فكما يقال (ميمون الناصية) قيل (شؤم الناصية) كذلك، وهى كناية عن الإنسان، فقد كان في رأيهم أن من الناس من هم شؤم، ويجلبون الشؤم على من يراهم،

---

1 البلدان (٦/ ٢٨٣ وما بعدها)، الأغاني (٥/ ٢١٣)، ابن قتيبة: الشعر (١٤٤)، القالي، الأمالي (٣/ ١٩٥).
2 اللسان (١٢/ ٥٧٩).
3 الحيوان (٥/ ٤٥٤)، (هارون).
4 جامع الأصول (٨/ ٤٦٧، «كتاب الطيرة»، اللسان (١٤/ ٢٧)، إرشاد الساري (٨/ ٣٩٧)، Ency., II, p. 46, Reste, S. 203, ff.
5 في الحديث «أصدق الطيرة الفأل»، النهاية (٣/ ١٩٥).
6 النهاية (٣/ ١٩٥)، جامع الأصول (٨/ ٤٦٧).
7 تاج العروس (٩/ ٣٧١).
8 تاج العروس (١٠/ ٤٩١).

وأن منهم من تجلب رؤيته الخير لمن يراه. ويكون للحسن وللقبح ولسيماء الوجه والجسم دخل كبير في تكوين رأي عن الشخص الذي يُتشاءم أو يُتفاءل منه. وقد قلت إن بعض العاهات التي تكون في بعض الناس، تجعل غيرهم يتشاءمون منهم عند وقوع نظرهم عليهم في الصباح.

وهناك كلمات عديدة في التشاؤم و(الشؤم)، مثل (شائم) و(شؤم) و(مشؤوم) و(مشوم) و(مشائيم) و(تشاءموا)، و(الأشأم) وأمثال ذلك[١].

ولا يقتصر استعمال هذه الألفاظ على جنسٍ معين، بل تقال لكل ما يجلب الشؤم على الإنسان. فمن البشر ــ كما قلت ــ من هم شؤم على غيرهم، يجلبون الشرّ لمن يتشاءم منهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال. ولما كان التشاؤم قضية اعتبارية تتعلق بالنفس والمزاج، كان بعض الأشخاص أو الحيوانات أو الأشياء شؤماً عند ناس، بينما هم ليسوا كذلك عند جماعة آخرين. ولكن الغالب أن التشاؤم من الأشياء القبيحة أو الناقصة أو الراعبة وما شابه ذلك، فهذه المزعجات تؤثر على النفس، فتجعلها تتشاءم منها، وتتوقع حدوث النحس من رؤيتها، ولا سيما في الصباح، وعند الهمّ بالشروع في عمل مهم.

وكانوا يحبون أن يأتوا أعداءهم من شق اليمين[٢]. يتفاءلون بذلك. لأن في اليمين اليمن، وفي اليسار العسر.

وللاسماء والكلمات أثرها في الفأل وفي الطيرة، فالأسماء الحسنة الجميلة تبعث على التفاؤل، أما الأسماء الخبيثة والرديئة فإنها تولّد التشاؤم. وقد عرف هذا النوع من التفاؤل في الإسلام، ولم ينه عنه. بل قيل إن الرسول كان يتأثر من الأسماء، وكان يقول إذا أعجبته كلمة: «أخذنا فألك من فيك»، وإنه يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع: يا راشد، يا نجيح، وأنه قال: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل»[٣].

وللطيرة سمت العربُ المنهوش السليم، والبرّية المفازة، وكنوّا الأعمى أبا بصير،

---

[1] تاج العروس (٨/ ٣٥٤).
[2] الحيوان (٥/ ٥١٦)، (هارون).
[3] جامع الأصول (٨/ ٣٩٤).

والأسود أبا البيضاء، وسمّوا الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور[1].

وورد أن العرب اذا تطيروا من الإنسان وغيره قالوا: صباح الله لا صباحك[2].

ولإيمان العرب بباب الطيرة والفأل عقدوا الرتائم، وعشروا اذا دخلوا القرى تعشير الحمار، واستعملوا في القداح الآمر، والناهي، والمتربص، وهن غير قداح الأيسار[3].

ومن أبواب الفراسة النظر إلى خطوط الكف للاستدلال بها على طبيعة صاحب الكف وعلى ما سيحدث له من أحداث. وقد أشار إلى الكف والى أسرارها الأعشى في قوله:

أنظــر إلى كفٍ وأســرارها   هل أنت، إن أوعدتني، ضائري[4]؟

ولمراقبة الكلف الذي يظهر على وجه القمر ودراسة النجوم والظواهر الطبيعية التي تحدث للأجرام السماوية كالكسوف والخسوف، أهمية كبيرة في التكهن. وقد كان الجاهليون يعتقدون أن للكسوف والخسوف أثراً في حياة الإنسان، فاذا وقعا دلا على موت إنسان عظيم أو حياته، أو ولادة مولود صاحب حظ كبير[5]. وكذلك كان رأيهم في تساقط النجوم. وقد أشير إليه في أشعار القدماء من الجاهلية، منهم عوف بن الجزع وأوس بن حجر وبشر بن أبي خازم[6].

وقد كان في زعم الكهان من صنف المنجمين أن في استطاعتهم التأثير في الأجرام السماوية وفي احداث الضباب والأمطار والعواصف والرياح، وقد نهي عن التصديق بها في الإسلام، لتعارضها مع الايمان بسيطرة الله وهيمنته وحده على الكون.

وكان للجاهليين اعتقاد بأثر فعل النجوم في الإنسان، ولهذا كانوا يراقبون السماء لتفسير ما يرون فيه من تساقط نجوم، ومن أخبار الشياطين عما يستمعون إليه من وحي السماء. وذكر أنهم كانوا يفزعون إذا تساقطت الشهب بكثرة غير

---

1 الحيوان (٢/ ٤٢٩)، (هارون)، (٤/ ٢٥٣).
2 اللسان (٥٠٢/٢).
3 الحيوان (٤٤٠/٣)، (هارون).
4 المعاني الكبير (٣/ ١١٨٥).
5 اللسان (١١/ ٢٠٨)، الروض الأنف (١/ ١٣٥).
6 الروض الأنف (١/ ١٣٥).

معهودة. وقد حدث أن تساقطت النجوم بكثرة ففزعوا وجزعوا وقالوا: «هلك من في السماء. فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً، وصاحب البقر يذبح كل يوم بقرة، وصاحب الغنم كل يوم شاة حتى أسرعوا في اتلاف أموالهم. فقالت ثقيف بعد سؤال كاهنهم.. امسكوا عن أموالكم، فإنه لم يمت من في السماء. ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هي. والشمس والقمر كذلك»[1]. فكأنهم تصوروا أن تساقط النجوم بكثرة معناه اختلال نظام السماء وموت من فيه، واحتمال فناء العالم تبعاً لذلك.

وكانوا إذا خافوا من شيء وأرادوا الاستعاذة، كأن يكون الإنسان مسافراً فرأى من يخافه قال: حجراً محجوراً، أي حرام عليك التعرض بي. وقد ترك هذا الاستعمال في الإسلام[2].

وقد ورد الحديث في النهي عن التطير. جاء: «الطيرة شرك. ولكن الله يذهبه بالتوكل»[3].

---

[1] السيرة الحلبية (١/ ١٤١ وما بعدها).

[2] الصاحبي (٩٣).

[3] جامع الأصول (٨/ ٤٦٧)، «كتاب الطيرة»، سنن أبي داوود (٤/ ١٧ وما بعدها)، «باب في الطيرة»، عمدة القارئ (٢١/ ٢٧٣)، «باب الطيرة»، اللسان (١٠/ ٤٥٠)، (شرك).

الفصل السابع والثمانون

من عادات وأَساطير الجاهليين

ولأهل الجاهلية عادات وأساطير كثيرة، وقد اختص العرب بقسم منها، أما القسم الثاني فهو عام معروف، عرف عند الساميين والعجم، وهي مما يُقال له (الشعبيات) أو (الفولكلوريات) في مصطلح الافرنج لهذا العهد.

فمن ذلك ما كانوا يفعلونه في أسفارهم إذ كان أحدهم اذا خرج إلى سفر عمد إلى شجرة من (الرتم)، فعقد غصناً منها، فاذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ، قال: قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حاله قال لم تخني[١]. ويقال لذلك العقد (الرتم) و(الرتمة). وذكر إن الرجل منهم كان اذا سافر عمد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها، فاذا عاد نظر إلى ذلك الخيط، فإن وجده بحاله علم أن زوجته لم تخنه، وإن لم يجده أو وجده محلولاً قال: قد خانتني. ويقال: بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر[٢].

وتستعمل (الرتمة) لتذكير الإنسان بشيء، يستعملها من يكثر نسيانه. وهي خيط يعقد في الأصبع للتذكير. وقد يعقد على الخاتم[٣].

ومن اعتقادهم في السفر أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره.

---

[1] المستطرف (٢/ ٧٨).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٣١٦ و ما بعدها)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٥)، اللسان (١٥/ ١١٦)، صبح الأعشى (١/ ٤٠٨).
[3] تاج العروس (٨/ ٣٠٣)، (رتم).

فان التفت تطير، وفسره بالعودة. فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذي يريد العود[1]، ومنها التصفيق: كانوا اذا ضل الرجل منهم في الفلاة، قلب ثيابه، وحبس ناقته، وصاح في أذنها كأنه يومىء إلى إنسان، وصفق بيديه: الوحا الوحا، النجا النجا، هيكل، الساعة الساعة، إليّ إليّ، عجّل، ثم يحرك الناقة فيهتدي. قال الشاعر:

وأذن بالتصفيق من ساء ظنه فلم يدرِ من أي اليدين جوابها[2]

وذكر أنه كان يقلب قميصه ويصفق بيديه كأنه يومىء بهما إلى إنسان فيهتدي[3].

وكان أحدهم اذا أراد دخول قرية، فخاف وباءها أو جنّها، وقف على بابها قبل أن يدخلها، فنهق نهيق الحمار، ثم علق عليه كعب أرنب، كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن. ويسمون هذا النهيق التعشير.

وروي أن (عروة بن الورد) خرج إلى (خيبر) ليمتار، فلما قربوا منها، عَشَّرَ من معه، وعاف (عروة) أن يفعل فعلهم فيقال: إن رفقته مرضوا، وماتَ بعضهم، ونجا (عروة) من الموت والمرض[4].

وكان مسافرهم إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل، عمد إلى واد ذي شجر، فأناخ راحلته في قرارته، وهي القاع المستديرة، وعقلها، وخطّ عليها خطاً، ثم قال: أعوذ بصاحب هذا الوادي[5]. والى ذلك أشار القرآن ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾[6]. وذكر أنهم كانوا إذا نزلوا الوادي، قالوا: نعوذ بسيّد هذا الوادي من شر ما فيه، فتقول الجن ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً[7].

---

[1] المستطرف (٢/ ٨٠)، بلوغ الأرب (٣٢٨/٢).
[2] نهاية الأرب (٣/ ١٢٢)، صبح الأعشى (١/ ٤٠٥).
[3] المستطرف (٢/ ٨٠)، بلوغ الأرب (٢/ ٣١٦).
[4] بلوغ الأرب (٢/ ٣١٥ وما بعدها).
[5] بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٥).
[6] الجن، الآية٦.
[7] تفسير الطبري (٢٩/ ٦٨).

ومن عادات بعض العرب أنهم إذا خافوا شر إنسان وأرادوا عدم عودته إليهم، أوقدوا خلفه ناراً، إذا تحول عنهم، ليتحول ضبعه معه، أي شره. وكانوا يقولون: أبعد الله دار فلان وأوقد ناراً أثره، والمعنى لا رجعه الله ولا رده[١].

---

[1] اللسان (٣/ ٤٦٦)، (وقد).

وإذا غاب إنسان، فلم يقفوا على أثره، ففي الوسع الاهتداء إليه، وذلك بأن يذهبوا إلى بئر قديمة أو حفر قديم، ثم ينادوا في البئر أو الحفر اسم الغائب ثلاث مرات، فإن سمعوا صوتاً علموا أنه حي معافى، وإن لم يسمعوا شيئاً علموا أنه قد مات[١].

وإذا أرادوا ضمان عدم رجوع الثقلاء ومن لا يرغب في عودتهم، فإن الثقيل اذا غادر المحل، عمد صاحب البيت والمكان الى كسر شيء من الأواني أو رمى حجراً خلفه، وفي ذلك ظن بألا يعود[٢].

ومن خرافاتهم أن أحدهم كان إذا اشترى داراً أو استخرج ماء عين أو بنى بنياناً وما أشبهه، ذبح ذبيحة للطيرة. وقد عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن). وكانوا يفعلون ذلك مخافة أن تصيبهم الجن وتؤذيهم. وقد نهي في الإسلام عن ذبائح الجن[٣].

وأوجدوا لدوام الحب علاجاً، هو شق الرداء والبرقع. زعموا أن المرأة إذا أحبت رجلاً أو أحبها ثم لم تشق عليه رداءه، ويشق عليها برقعها، فسد حبهما، فإذا فُعل ذلك دام حبهما[٤].

وإذا صعب على المرأة العثور على خاطب لها، فإن في الإمكان تيسير ذلك بنشر جانب من شعرها، وتكحيل إحدى عينيها، وتحجيل احدى رجليها، ويكون ذلك ليلاَ، ثم تقول: «يا لكاح، أبغي النكاح، قبل الصباح»، فيسهل أمرها، وتتزوج عن قريب[٥].

ومن آرائهم أن الرجل منهم إذا عشق ولم يسلَ وأفرط عليه العشق، حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي، وقام آخر فأحمى حدَيدة أو ميلاً وكوى به بين إليتيه فيذهب عشقه[٦].

ولدوام الحب بين الرجل والمرأة، يشق الرجل برقع من يحبّها وتشق المرأة رداءه، فيصلح حبهما ويدوم، فإن لم يفعلا ذلك فسد حبهما[٧].

---

[1] بلوغ الأرب (٣/ ٣ وما بعدهما).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٣٣٠).
[3] اللسان (٢/ ٤٣٧)، (ذبح)، ثمار القلوب (٦٩).
[4] نهاية الأرب (٣/ ١٢٦).
[5] بلوغ الأرب (٢/ ٣٣٠).
[6] بلوغ الأرب (٢/ ٣٢١).
[7] بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٢).

واذا غاب عن النساء من يحببنه أخذن تراباً من موضع قدمه وموضع رجله، ليرجع سريعاً[1].

واذا أرادت المقلاة أن يعيش ولدها، ففي امكانها ذلك اذا تخطت القتيل الشريف سبع مرات، وعندئذ يعيش ولدها. وانما كانوا يفعلون ذلك بالشريف يقتل غدراً. وقد ذكر ذلك في شعر لبشر بن أبي خازم[2].

ومن عقائدهم أن صاحب الفرس المهقوع إذا ركبه فعرق تحته اغتلمت امرأته، وطمحت إلى غيره. والهقعة: دائرة تكون بالفرس، وربما كانت على الكتف في الأكثر[3].

وكان الصبي اذا بترت شفته، حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحي: «الحلاء الحلاء، الطعام الطعام» فتلقي له النساء كسر الخبز والتمر واللحم في المنخل، ثم يلقى ذلك للكلاب، فتأكله فيبرأ من المرض فإن أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمرة أو لقمة، بترت شفته[4].

وتعالج (الخطفة) و(النظرة) عند الصبيان بتعليق سن ثعلب، أو سن هرة على الصبي، فإن تلك الأسنان تهرّب الجن. ويهربها كذلك تنقيط شيء من صمغ (السمرة) (حيض السمرة)، وهي شجرة من شجر الطلع، بين عيني النُّفَساء، وخط شيء منه على وجه الصبي خطاً، فلا تجرؤ الجنية على التقرب من الصبي، ويقال لذلك (النفرات). فإذا قال لها صواحباتها في ذلك، قالت:

كانت عليه نفـــرهْ   ثعــالب وهـــررهْ
والحيض حيض السمره[5]

ومن عاداتهم في إبعاد الجن عن الصبيان، تنفير المولود، وذلك أن يسميه باسم غريب منفر، فينفر الجن منه، ولا يتقربون منه[6].

---

[1] بلوغ الأرب (٢/ ٣٣٩ وما بعدها).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٣١٧ وما بعدها).
[3] بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٣).
[4] بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٨).
[5] نهاية الأرب (٣/ ١٢٤)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٥)، تاج العروس (٣/ ٥٧٨ وما بعدها).
[6] بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٥).

وعادة أخذ الغلام اذا ثغر، السن الساقط ووضعه إياه بين السبابة والإبهام، واستقبال الشمس، وقذف السن في عينها، لا تزال معروفة حتى الآن، وهم يقولون في ذلك: «ابدليني بسن أحسن منها، ولتجرِ في ظلمها إياتك»[1]، أو «أبدليني أحسن منها، أمن على أسنانه العوج، والفلجَ، والثَّعَل»، قال طرفة:

بدلته الشمس من منِبته   برداً أبيضَ مصقولَ الأشَرِ[2]

واعتقد قوم منهم أن من ولد في القمراء، تقلصت غرلته، فكان كالمختون[3]. واعتقدوا أن طول الغرلة من تمام الخلقة وأقرب ما يكون إلى السؤدد[4].

ومن عقائدهم، أن المولود إذا ولد يتناً، كان ذلك علامة سوءٍ، ودليلاً على الفساد. واليتن خروج رجل المولود قبلَ رأسه[5].

ومن عقائدهم أن الرجل كان اذا ظهرت فيه القوباء عالجها بالريق، واذا أصيب أو أصيبت دابته بالنملة، وخط عليها اين المجوسي اذا كان من أخته تبرأ وتتصلح وترأب[6].

وزعموا أن من أصيب بـ (الهُدَبِد)، وهو (العَشَا) يكون في العين، عمد إلى سنام فقطع منه قطعة، ومن الكبد قطعة، وقلاهما، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته:

فيا سـناماً وكَبِـدْ   ألا اذْهَبـا بالهُدَبَدْ
ليس شـفاء الهدبد   إلا السـنام والكبدَ

ويزعمون أن ذلك يذهب بالعشا بذلك[7].

وقد زعم الجاهليون أن الطاعون الذي كان يقع كثيراً في الجاهلية فيحصد الناس

---

1 بلوغ الأرب (٢/ ٣١٨).
2 نهاية الألإرب (٣/ ١٢٣).
3 بلوغ الأرب (٢/ ٣٣١).
4 تاج العروس (٨/ ٤١)، (غرل)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٣١).
5 الحيوان (١/ ٢٨٦)، (هارون).
6 بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٩)، وتعرف (القوباء) بـ (كوباية) بلغة العامة لهذا العهد.
7 إنه لا يبـرئ داء الهـديد   مثل القـلايا من سـنام وكبد
تاج العروس (٥٤٥/٢)، (الهدبد)، بلوغ الأرب (٣٤٠/٢).

حصداً، هو من وخز الجنّ، وأنه من فعلهم في الإنسان ودعوه (رماح الجن)، وذكر ذلك في الشعر فقال أحد الشعراء:

لعمرك ما خشيت على عديّ   رماح بني مقيدة الحمـــار
ولكني خشيت على (عـــديّ)   رماح الجن أو إياك جـــار[١]

وكانوا يرون أن أكل لحوم السباع يزيد في الشجاعة والقوة[٢].

وفي حركات الإنسان دليل ومعان تنبىء عن أشياء. فإذا اختلجت العين دل ذلك على توقع قدوم شخص غائب محبوب، ولا تزال هذه العادة باقية عند الناس اليوم[٣].

ومن عاداتهم أن أحدهم اذا خدرت رجله، ذكر أحب الناس إليه، فتنبسط[٤].

وكانوا يعقدون الرتم للحمى، ويرون أن من حلها انتقلت الحمى إليه. قال أحد الشعراء:

حللت رتيمة فمكثت شهراً   أكابد كل مكروه الـــدواء[٥]

وقد زعموا أن في البطن حية، اذا جاع الإنسان، عضت على شرسوفه وكبده. وقيل: هو الجوع بعينه، ليس أنها تعض بعد حصول الجوع[٦].

وكان من عادة الجاهليين حمل ملوكهم على الأعناق إذا اشتد بهم المرض. وهم يعتقدرن أنهم بذلك سيتغليون على المرض، ويعللون ذلك بأنه أسهل على المريض، وأكثر راحة له من وضعه على الأرض[٧].

واعتقدت العرب أن دمَ الملوك والرؤساء يشفي من عضة الكلب[٨]، وزعموا أن الكَلَب جنون الكلاب المعتري من أكل لحم الإنسان. وأجمعت العرب أن

---

1 ثمار القلوب (٦٨).
2 بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٣).
3 بلوغ الأرب (٢/ ٣٢١ وما بعدها).
4 تاج العروس (٣/ ١٧٠)، (خدر).
5 بلوغ الأرب (٢/ ٣١٧).
6 بلوغ الأرب (٢/ ٣١٣ وما بعدها).
7 بلوغ الأرب (٣/ ٢٠ وما بعدها).
8 بلوغ الأرب (٢/ ٣١٩).

دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه، وقيل إن الرجلَ الكلَب يعض انساناً فيأتون رجلاً شريفاً، فيقطر لهم من دم إصبعه، فيسقون الكلبَ فيبرأ[1].

ومن عقائدهم أنهم كانوا اذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره، فيأخذون روثة، ويفتونها على رأسه، ويقولون: روثة راث ثائرك. وقد يذر على الحية المقتولة يسير رمادٍ، ويقال لها: قتلك العين فلا ثاثر لك. وفي أمثالهم لمن ذهب العين دمه هدر: هو قتيل العين[2].

واعتقد الجاهليون بـ (السفعة)، و(السفعة) العين تصيب الإنسان: عين إنسية وعين جنية، و(السفعة) النظرة من الجن[3].

واذا طالت علة الواحد منهم، وظنوا أن به مساً من الجن، لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً، عملوا جمالاً من طين، وجعلوا عليها جوالق وملؤوها حنطة وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر الى جهة المغرب وقت غروب الشمس، وباتوا ليلتهم تلك، فاذا أصبحوا، نظروا إلى تلك الجمال الطين، فاذا رأوا أنها بحالها، قالوا: لم تقبل الهدية، فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية، واستدلوا على شفاء المريض، وفرحوا، وضربوا بالدف[4].

ومن أوابدهم تعليق الحلي والجلاجل على اللديغ، يرون أنه يفيق بذلك، ويقال إنه إنما يعلق عليه، لأنهم يرون أنه إن نام يسري السم فيه فيهلك، فشغلوه بالحلي والجلاجل وأصواتها عن النوم. وذهب بعضهم إلى أنه اذا علق عليه حلي الذهب برأ، وإن علق الرصاص أو حلي الرصاص مات[5].

ومن آرائهم في إطفاء نار الحرب أنهم كانوا ربما أخرجوا النساء فبلن بين الصفين، يرون أن ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم إلى السلم[6].

---

[1] تاج العروس (١/ ٤٦٠)، (كلب).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٣٥٨).
[3] بلوغ الأرب (٢/ ٣٦٥).
[4] بلوغ الأرب (٢/ ٣٥٩).
[5] وإلى هذه العقيدة أشار النابغة الذبياني بقوله:
فبت كأني ســـاورتني ضئيلة ‌‌ ‌ ‌ من الرقش في أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمـــام سليمها ‌ ‌ ‌ بحلي النســـاء في يديه قعـــاقع
بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٤).
[6] بلوغ الأرب (٢/ ٤).

ومن وسائل إبعاد الجن عن الناس، وإبعاد عيونهم عنهم، تعليق كعب الأرنب. يقولون إن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سحر، وذلك لأن الجن تهرب من الأرنب، لأنها ليست من مطايا الجن، لأنها تحيض. وذكر أيضاً أن من علق على نفسه كعب أرنب، لم يقربه (عمار الحي) (جنّان الحي) و(جنّان الدار)، و(عمّار الدار) ولا (شيطان الحماطة) وجانّ العشرة (جار العشيرة) وغول العقر (غول القفر)، وكل الخرافي وإن الله يطفىء نار السعالي[١]. و(الحماطة) شجرة شبيهة بالتين تأوي إليها الحيات[٢].

وكانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له، نجسوه بتعليق الأقذار عليه، كخرقة الحيض وعظام الموتى. وذكروا أن أنفع من ذلك أن تعلق طامث عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك. ويشفي التنجيس من كل شيء، إلا من العشق[٣].

ومن مذاهبهم قولهم في الدعاء: «لا عشت إلا عيش القُراد». يضربونه مثلاً في الشدة والصبر على المشقة يزعمون أن القُراد يعيش ببطنه عاماً وبظهره عاماً[٤].

وكانوا يتبركون بأشياء، منها المدمى من السهام، الذي ترمي به عدوك ثم يرميك به. وكان الرجل إذا رمى العدو بسهم فأصاب، ثم رماه به العدو وعليه دم، جعله في كنانته تبركاً به. ذكر أن (سعداً) قال: «رميت يوم أُحد رجلاً بسهم فقتلته، ثم رميت بذلك السهم أعرفه، حتى فعلت ذلك وفعلوه ثلاث مرات، فقلت:هذا سهم مبارك مدمى فجعلته في كنانتي، فكان عنده حتى مات»[٥].

كان أحدهم يلقى الرجل يخافه في الشهر الحرام، فيقول: حجراً محجوراً، أي حرام محرم عليك هذا الشهر، فلا يبدؤه بشر[٦]. وكانوا يقولون ذلك اذا نزلوا مكاناً وخافوا فيه من الجن.

وكان من عاداتهم أنهم كانوا إذا أرادوا أن تورد البقر الماء، فعافته قدموا ثوراً، فضربوه، فورد، فاذا فعلوا ذلك، وردت البقر. وفي ذلك قال الأعشى:

---

1 نهاية الأرب (٣/ ١٢٣ وما بعدها).
2 عنجرد تحلف حين أحلف   كمثل شيطان الحماط أعرف
بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٤)، اللسان (٩/ ١٤٦).
3 بلوغ الأرب (٢/ ٣١٩).
4 بلوغ الأرب (٢/ ٣٣٩).
5 اللسان (١٤/ ٢٧٠)، (دمى).
6 تاج العروس (٣/ ١٢٣)، (حجر).

وما ذنبه إن عافت الماء باقر   وما أن تعاف الماء إلا لتضربا[١]

ويقولون إن الجن تصد البقر عن الماء، وإن الشيطان يركب قرني الثور[٢].

ويظهر أن هذا الاعتقاد من الاعتقادات التي كانت شائعة بين الجاهليين، بدليل وروده في أشعار عدد من الشعراء. وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصدّ الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الماء حتى تهلك[٣].

ومن عاداتهم أيضاً أنهم كانوا اذا وقع العُرُّ في إبلهم، اعترضوا بعيراً صحيحاً لم يقع ذلك فيه، فكووا مشفره وعضده وفخذه. يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العر عن إبلهم[٤].

وذكر أن العرّ قروح مثل القوباء، تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها يسيل منها مثل الماء الأصفر، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المِراض، تقول منه: عرت الإبل، فهي معرورة. قال النابغة الذبياني:

فحملتنى ذنب امرىء وتركته   كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع[٥]

وفي المعنى المذكور قول الشاعر:

فألزمتني ذنباً وغيريّ جرّه   حنانيَكْ لا تكوِ الصحيح بأجربا

وقول آخر:

كمن يكوي الصحيح يروم برءاً   به من كل جرباء الإهاب[٦]

وذكر أن الفصيل كان اذا أصابه العر، عمدوا إلى أمه فكووها، فيبرأ فصيلها[١].

---

1 كتاب المعاني الكبير (٢/ ٩٢٨ وما بعدها).

2 بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٣).

3 وفي ذلك قال أنس بن مدركة في قتله سليك بن سلكة:
إني وقتلى سليكا ثم أعقله   كالثور يضرب لما عفت البقر
الدميري، حياة الحيوان (١/ ١٨٢)، الحيوان (١/ ١٨ وما بعدها)، (هارون).

4 كتاب المعاني الكبير (٢/ ٩٢٨)، اللسان (٦/ ٢٣٠ وما بعدها)، صبح الأعشى (١/ ٣٩٨ وما بعدها)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٥ وما بعدها)، الحيوان (١/ ١٧)، (هارون).

5 تاج العروس (٣/ ٣٩٠)، (العر)، اللسان (٤/ ٥٥٥)، (عرر).
وكلفتني ذنب امرئ وتركته   كذي العر يكوي غيره وهو راقع
بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٥).

6 بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٥ وما بعدها).

[1] بلوغ الأرب (٢/٣٠٦).

ومن ذلك أنهم كانوا يفقأون عين فحل الإبل، لئلا تصيبها العين. وكانوا اذا كثرت إبلهم فبلغت الألف، فقأوا عين الفحل، فإن زادت الإبل على الألف فقأوا العين الأخرى. وذلك المقفأ والمعمى[1].

وكانت العرب اذا أجدبت، وأمسكت الماء عنهم، وتضايقوا من انحباس المطر، وأرادوا أن يستمطروا، عمدوا إلى السلع والعُشَر، فحزموهما، وعقدوهما في أذناب البقر، وأضرموا فيها النيران، وأصعدوها في موضع وعر، واتبعوها، يدعون الله ويستسقون، وانما يضرمون النار في أذناب البقر تفاؤلاً للبرق بالنار. وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات[2]. ويقال لهذا الفعل (التسليع). وذكر أن التسليع فى الجاهلية أنهم كانوا اذا أسنتوا، أي أجدبوا، علقوا السلع مع العشر بأذناب البقر وحدروها من الجبال وأشعلوا في ذلك السلع والعشر النار يستمطرون بذلك. ونجد من الرواة من يقول: حدروها من الجبال وأشعلوا في ذلك السلع والعشر النار، ومنهم من يقول: ثم يضرمون فيها النار، وهم يصعدونها في الجبل، فيمطرون[3].

وقد أشير إلى هذا الفعل في الشعر، قال أمية بن أبي الصلت:

سلعٌ ما، ومثلهُ عشرٌ ما   عائلٌ ما، وعالت البيقورا

وقال الورك الطائي (وداك الطائي):

لا درّ درّ رجال خاب سعيهم   يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجـــاعل أنت بيقـــوراً مسلعة   ذريعـــةً لـــك بين الله والمطـــر[4]

ومن السلع «المُسَلّعةُ، كانت العرب في جاهليتها تأخذ حطب السلع والعشر في المجاعات وقحوط القطر، فتوقر ظهر البقر منها، وقيل: يعلقون ذلك في أذنابها، ثم تلعج النار فيها يستمطرون بلهب النار المشبه بسنى اليرق. وقيل:

---

[1] بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٦)، (وذلك المقفأ والمعمى)، الحيوان (١/ ١٧)، (هارون).
[2] بلوغ الأرب (٢/ ٣٠١ وما بعدها).
[3] اللسان (٨/ ١٦١)، (سلع)، تاج العروس (٥/ ٣٨٤)، (سلع).
[4] اللسان (٨/ ١٦١)، (سلع)، تاج العروس (٥/ ٣٨٥)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٢)،«الورك الطائي»، اللسان (٨/ ١٦١)، «وداك الطائي»، تاج العروس (٥/ ٣٨٥)، (سلع)، ابن فارس، رسالة النيروز (١٨)، (الورك الطائي)، (١٨)، (الورك الطائي)، اللسان (٤/ ٧٣).

«يضرمون فيها النار، وهم يصعدونها في الجبل، فيمطرون»[١].

وقد تعرّض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع (البيقور)، فقال: «كانت العرب اذا أمسكت السماء قطرها، استمطروا، فعمدوا إلى شجرتيْن يقال لهما السلع والعشر، فعقدوهما في أذناب البقر فأضرموا فيها النار، وأصعدوها في جبلٍ وعر وتبعوا آثارها، يدعون الله عز وجلّ ويستسقونه. قال ابن الكلبي: وانما يضرمون النار تفاؤلاً للبرق». «كانوا اذا فعلوا ذلك توجهوا نحو المغرب من بين الجهات كلها قصداً إلى العين، والعين قبلة العراق. قال العجاج:

سارٍ سَرى من قبل العين فجر   غُرَّ السحاب والمرابيع البكر»[٢]

عقيدتهم في الحيوان:

وللجاهليين عقائد في الحيوان. فمنهم من كان يعتقد أن للجن بهذه الحبوانات تعلقاً، ومنهم من يرى أنها نوع من الجن، ومنهم من كان يرى أن لبعضها، مثل الورل والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والنعام، صلة بالجن، وأنها مراكب لها، يمتطونها كما يمتطي الإنسان الخيل والبغال والابل والحمير[٣].

ومن مراكب الجن، (العضرفوط)، قال الشاعر:

وكل المطــايا قد ركِبنا فلم نجد   ألــذّ وأشهى من وخيد الثعالب
ومن فــارة مزمــومة شــمرية   وخود بردفيها أمــام الركائب
ومن عضرفوط حطَّ بي من ثنية   يبادر سرباً من عظاء قوارب[٤]

والعضرفرط دويبة من دواب الجن[٥]، ويقال: العضرفوط ذكر العِظاء، وقيل: دويبة تسمى العِسودة، بيضاء، ناعمة[٦].

واعتقدوا أن السموم لما فرقت على الحيوانات، احتبست العظاية (العظاءة)

---

1 اللسان (٨/ ١٦١)، (سلع).
2 ابن فارس، رسالة النيروز (١٨ وما بعدها).
3 بلوغ الأرب (٢/ ٣٦٠).
4 تاج العروس (٥/ ١٨٣)، (العضرفوط).
5 وكل المطــايا قد ركبنا فلم نجد   ألذ وأشهى من ركوب الأرانب
ومن عضرفوط عنّ لي فركبته   أبادر ســربا من عظاء قوارب
6 اللسان (٧/ ٣٥١)، (عضرفوط).

عند التفرقة حتى نفذ السم، وأخذ كل حيوان قسطاً منه على قدر السبق إليه، فلم تنل العظاية نصيباً منه، فخسرته. لذلك صارت تمشي مشياً سريعاً ثم تقف، لما يعرض لها من التذكر والأسف على ما فاتها من السم[1].

و(الظباء) ماشية الجن، في زعم بعضهم وهي تسمع وتكلم، ولهم قصص عنها[2].

وتزعم العرب أن (الهديل)، فرخ على عهد (نوح) مات عطشاً، وضبعه أو صاده جارح من جوارح الطير، فما من حمامة إلاَّ وهي تبكي عليه[3].

وللخرز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم، شأن كبير في السحر وفي دفع أذى الأرواح والعين، وفي النفع والحب، وأمثال ذلك. وسأتحدث عنها في المكان المخصص بالسحر.

وضرب المثل ببخل (أبي حباحب). من محارب خصفة، وكان بخيلاً، فكان لا يوقد ناره إلاَّ بالحطب الشخت لئلا ترى، وقيل: اسمه (حباحب)، فضرب بناره المثل، لأنه كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة، مخافة الضيفان، فقالوا: نار الحباحب[4].

وأم حباحب: دويبة، مثل الجندب، تطير، صفراء خضراء، رقطاء برقط صفرة وخضرة، ويقولون إذا رأوها: أخرجي بُردى أبي حباحب، فتنشر جناحيها، وهما مزينان بأحمر وأصفر[5].

وللعرب أساطير عن الكواكب، من ذلك ما ذكروه من أن (الدَّبران) خطب (الثريا) وأراد القمر أن يزوجه منها، فامتنعت وأعرضت، وقالت للقمر: ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له؟ فجمع الدبران قلاصه، ووضعها قدامه، وأخذ يتبعها يريد إقناعها بالزواج منه. ومن ذلك قولهم في (المرزم)، وهو (الشِعْرى)، يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر. تقول العرب: إذا

---

1 بلوغ الأرب (٢/ ٣٦٠ وما بعدها)، الدميري، حياة الحيوان (٢/ ١٢٢)، (العظاءة).
2 بلوغ الأرب (٢/ ٣٦١ وما بعدها)، حياة الحيوان، للدميري (٢/ ١٠٢ وما بعدها)، (الظباء).
3 الدميري، حياة الحيوان (٢/ ٣٨٢)، تاج العروس (٨/ ١٦٤)، (هدل)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٦٤).
4 اللسان (١/ ٢٩٧)، (حبحب).
5 اللسان (١/ ٢٩٨)، (حجب).

طلعت الشعرى جعل صاحب النحل يرى، وهما الشعريان: (العبور) التي في (الجوزاء) و(الشعرى الغميصاء) التي في الذراع. تزعم العرب أنهما أخت (سهيل). وقد عبدت طائفة من العرب (الشعرى العبور). قالوا: إنها عبرت السماء عرضاً، ولم يعبرها عرضاً غيرها، فأنزل اللَه: ﴿وانه هو رب الشعرى﴾، وسميت الأخرى (الغميصاء)، لأن العرب قالت في حديثها إنها بكت على أثر العبور حتى غمصت[1].

وزعموا أن (سهيلاً) كان عشّاراً على طريق اليمن ظلوماً فمسخه الله كوكباً. وعرف بأنه نجم يماني عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ[2].

و(الشمس) إلهة عند كَثير من الجاهليين، فتعبدوا لها، وعدّت صنماً عندهم[3].

من أساطيرهم ما تحدثوا به عن (برد العجوز)، حدثوا أن عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في أواخر الشتاء وأوائل الربيع فيسوء أثره على المواشي، فلم يكترثوا يقولها، وجزوا أغنامهم: واثقين بإقبال الربيع، فلم يلبثوا إلاّ مديدة حتى وقع برد شديد، أهلك الزرع والضرع، فقالوا هذا برد العجوز. يعنون العجوز التي كانت تنُذر به.

وحدثوا: أن عجوزاً كانت بالجاهلية، ولها ثمانية بنين، فسألتهم أن يزوجوها وألحت عليهم، فتآمروا بينهم، وقالوا: إن قتلناها لم نأمن عشيرتها، ولكن نكلفها البروز للهواء ثماني ليال، لكل واحد منا ليلة. فقالوا لها: إن كنت تزعمين أنك شابة، فابرزي للهواء ثماني ليال، فإننا نزوّجك بعدها، فوعدت بذلك، وتعرت تلك الليلة والزمان شتاء كلب، وبرزت للهواء. وفعلت مثل ذلك في اللبل الآخر، فلما كانت الليلة السابعة، ماتت.

ونسب العرب إليها برد الأيام الثمانية، وأسماؤها: الصنّ، والصنبر، والوبر، وآمر، ومؤتمر، ومعلل، ومطفئ الجمر، ومكفىء الظعن[4].

ومن الأمرر التي تداولوها قولهم في (زمن الفطحل). وضربهم المثل به، قالوا: أيام كانت الحجارة رطبة، وإذ كل شيء ينطق[5]. وهو دهر لم يخلق

---

[1] تاج العروس (٣/ ٣٠٥)، (شعر).
[2] تاج العروس (٧/ ٣٨٤)، (سهل).
[3] تاج العروس (٤/ ١٧٢)، (شمس).
[4] الثعالبي، ثمار (١/ ٣١٣ وما بعدها).
[5] الثعالبي، ثمار (٦٤٢ وما بعدها).

فيه الناس بعد[١].

وكانوا يعتقدون بالمسخ. وهو تحويل صورة إلى أخرى أقبح منها، وتحويل إنسان الى حيوان أو حجر. ولهم اعتقادات في مسخ الأطفال، وتبديل (الجن) لهم بأولادهم من ذوي العاهات. وقد زعموا أن (اللات) صنم ثقيف، كان في الأصل يهودياً يلتّ السويق في (الطائف) فمسخ حجراً، عبد فصار (اللات).

وللعرب قصص وضعوه على ألسنة الحيوانات نجده في كتب الأدب. ولهم أمثلة وراءها قصص في سبب ضربها. ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك. وقد صوروا بعض الحيوانات ناطقة عاقلة، ونسبوا لها الحكمة والقول الحسن. وصوروا بعضها بليدة غبيّة. ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك[٢].

واتخذوا من بعض الناس مثلاً على أمر من أمور الحياة. وضربوا بهم الأمثال. فضربوا المثل ببلاغة (سحبان وائل) وبقدرته على الخطابة[٣]. وبفصاحة (قس بن ساعدة الإيادي)[٤]. وجعلوهما المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة عند العرب.

ووضعوا (باقل) مثلاً للعي والبلادة[٥]. فمما رووه عنه، أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فمرّ، بقوم فقالوا: بكم أخذت الظبي فمدّ يديه، وأخرج لسانه، يريد بأصابعه عشرة دراهم وبلسانه درهماً فشرد الظبي حين مدّ يديه، وكان الظبي تحت إبطه، فجرى المثل بعيه، وقيل: أشد عياً من باقل، وأعيا من باقل، كما قبل أبلغ من سحبان وائل[٦]. وذكر أنه كان من ربيعة[٧].

واتخذوا (بيهس) الفزَاري، الملقب بنعامة، مثلاً للحمق، فقالوا: أحمق من بيهس. وهو أحد الإخوة السبعة الذين قتلوا، وترك هو لحمقه[٨]. زعموا أنه هو القائل:

ألبس لكل حالة لبوسها   إما نعيمها وإما بوسها

---

[1] تاج العروس (٨/ ٦٣)، (الفطحل).
[2] راجع كتاب الحيوان للجاحظ، وكتاب كليلة ودمنة وكتب الأدب الأخرى.
[3] الثعالبي، ثمار (١٠٢ وما بعدها)، الدينوري، المعارف (٦١١).
[4] الثعالبي، ثمار (٦٠، ٩٨، ٢٢٢، ١٢٤ وما بعدها، ١٤٢).
[5] الميداني، الأمثال (٢/ ٤٣)، الثعالبي، ثمار (١٠٢).
[6] الثعالبي، ثمار (١٢٧).
[7] تاج العروس (٧/ ٢٣٤)، (بقل).
[8] تاج العروس (٤/ ١١٣)، (بهس).

وإنما لقب بيهس بنعامة لأنه كان شديد الصمم، وإذا دعا الرجل من العرب

على صاحبه بالصمم، قال: اللهم اصنجه صنجاً كصنج النعامة. والصنج أشد الصمم[١].

وضرب المثل بحمق (هبنقة)، واسمه (يزيد بن ثروان) أحد بني قيس بن ثعلبة، الملقب بـ(ذي الودعات). لقب به لأنه جعل من عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف مع طول لحيته. فسئل عن ذلك، فقال: لئلا أضل، أعرف بها نفسي، فسرقها أخوه في ليلة وتقلدها، فأصبح هبنقة ورآها في عنقه، فقال: أخي أنت أنا، فمن أنا؟ فضرب بحمقه المثل. فقيل أحمق من هبنقة[٢].

وضربوا المثل بحمق دُغة. وهي بنت منعج، زوّجت وهي صغيرة في بني العنير، فحملت، فلما ضربها المخاض ظنت أنها تحتاج إلى الخلاء، فبرزت إلى بعض الغيطان ووضعت ذا بطنها، فاستهل الولبد، فجاءت منصرفة وهي لا تظن إلا إنها أحدثت. فقالت لأمها: يا أماه، هل يفتح الجعُر فاه؟ قالت: نعم ويدعو أباه، فسبّ بها بنو العَنْير، فسموا بني الجعراء[٣].

وقيل هي امرأة من بني عجل بن لجيم. وقيل هي: دغة بنت معيج بن إياد ين نزار. ولدت لعمرو بن جندب بن العنبر[٤]. وذكر أن اسمها: مارية بنت ربيعة، من عجل، وكانت عند (جندب بن العنبر) فولدت له (عدي بن جندب)، وكانت حمقاء حسناء[٥].

وضربوا المثل بـ (جوف حمار). وقالوا: هو أكفر من حمار، وأخلى من جوف حمار. وهو رجل من عاد، يقال له حمار بن مويلع، وجوفه واد له طويل عريض. لم يكن ببلاد العرب أخصب منه، وفيه من كل الثمرات، فخرج بنوه يتصيدون: فأصابتهم صاعقة فهلكوا، فكفر. وقال: لا أعبد من فعل هذا ببني، ودعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله، فأهلكه الله تعالى وأخرب واديه، فضرب العرب به المثل في الخراب والخلاء. قال الأفوه الأودي:

وبشؤم البغي والغشم قديماً   قد خلا جوف ولم يبق حمار[٦]

---

[1] الثعالبي، ثمار (٤٤٥).

[2] قال الفرزدق:

فلو كان ذا الودع بن ثروان لالتوت   بــه كفــه أعنى يزيد الهبقا

تاج العروس (٥/٥٣٤)، (ودع).

[3] الثعالبي، ثمار (٣٠٩).

[4] تاج العروس (١٠/ ١٢٨)، (الدغية).

[5] الدينوري، المعارف (٦٢٠).

[6] الثعالي، ثمار (٨٤)، الميداني (١/ ٢٥٧).

وذكر أنّ الجوف واد بأرض عاد، فيه ماء وشجر، حماه رجل اسمه حمار كان له بنون فأصابتهم صاعقة فماتوا، فكفر كفراً عظيماً وقتل كل من مر به من الناس. فأقبلت نار من أسفل الجوف فأحرقته ومن فيه وغاض ماؤه فضربت العرب به المثل. فقالوا: أكفر من حمار، وواد كجوف الحمار وكجوف العبر وأخرب من جوف حمار[1].

وورد أنه (حمار بن مالك)، وهو رجل من عاد وقيل من العمالقة. كان مسلماً أربعين سنة في كرم وجود، فخرج بنوه عشرة للصيد، فأصابتهم صاعقة فهلكوا. فكفر كفراً عظيماً. وقال لا أعبد من فعل ببنيّ هذا. وكان لا يمر بأرضه أحد إلاّ دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلاّ قتله. فأهلكه الله وخرب واديه[2].

واذا وعد إنسان وعداً، فعليه الوفاء به، لأن من شمائل الكريم الوفاء بالوعود والعهود. قالت العرب: «خلاف الوعد من أخلاق الوغد». وكانت العرب تستعيبه وتستقبحه. وقد ضربوا المثل برجل من العرب في مخالفته المواعيد[3]، فقالوا: «مواعيد عرقوب». وعرقوب صاحب المواعيد، قيل: إنه من الأوس، كان أكذب أهل زمانه. فضربت به العرب المثل في الخلف، فقالوا: مواعيد عرقوب. وذلك إنه أتاه سائل، وهو أخ له، يسأله شيئاً. فقال له عرقوب: اذا أطلع نخلي، «وفي رواية: اذا أطلعت هذه النخلة»، فلما أطلع، أتاه على العِدَة، قال: اذا أبلح، فلما أبلح أتاه؛ قال: اذا أزهى، فلما أزهى أتاه، قال: اذا أرطب، فلما أرطب أتاه؛ قال: اذا أتمر. فلما أتمر، عمد إليه عرقوب وجدَّهُ ليلاً، ولم يعطه منه شيئاً. فصارت مثلاً في إخلاف الوعد. وورد:

وأكذب من عرقوب (يثربَ) لهجة   وأبين شؤماً في الحوائج من زحل

وورد «مواعيد عرقوب أخاه بيترب» بالتاء وهي باليمامة. ويروى بالمثلثة، وهي مدينة الرسول نفسها. ويقال: هو أرض بني سعد. والأول أصح، وبه فسر قول كعب بن زهير:

كانت مواعيد (عرقوب) لها مثلاً   وما مواعيدها إلاّ الأباطيل

---

[1] تاج العروس (٣/ ١٥٦)، (حمر)، (٦/ ٦٣)، (الجوف).

[2] فبشؤم الجور والبغي قديماً   ما خلا جوف ولم يبقَ حمار

تاج العروس (١٥٦/٣)، (حمر).

[3] تاج العروس (٢/ ٥٣٦ وما بعدها)، (وعد).

وورد: «هو أكذب من عرقوب يثرب»، وتقول: «فلان إذا مطل تعقرب وإذا وعد تعقرب». ومن أمثالهم: «الشرّ ألجأه الى مخ عرقوب» «وشر ما أجأك إلى مخة عرقوب»، أي: عرقوب الرجل لأنه لا مخَّ له. يضرب هذا عند طلبك من اللئيم أعطاك أو منعك، وهو لغة بني تميم. ومن المستعار: ما أكثر عراقيب هذا الجبل. العراقيب خياشيم الجبال وأطرافها وهي أبعد الطرق، لأنك تتبع أسهله أين كان. والعراقيب من الأمور كالعراقيل عظامها وصعابها[١].

وضَربوا المثل في الإقامة على الذل برجل من ضبّة، زعموا أنه عرف عندهم بـ (قضَيب) فقالوا: أصبر من قضيب. و(قضيب) رجل آخر تمار بالبحرين، كان يأتي تاجراً فيشتري منه التمر، ولم يكن يعامل غيره[٢].

وضربوا المثل بـ (حديث خرافة). زعموا أنه كان رجلاً من (بني عذرة) أو من (بني جهينة) سبته الجن، فكان يكون معهم، فاذا استرقوا السمع أخبروه فيخبر أهل الأرض. فيجدونه كما قال. وقبل: «استهوته الجن واختطفته ثم رجع إلى قومه، فكان يحدث بما رأى، يعجب منها الناس، فكذبوه، فجرى على ألسن الناس وقالوا: هذة خرافة. ويقال أيضاً للخرافات الموضوعة من حديث الليل: حديث خرافة. وذكر أن (عائشة) قالت: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثيني: قلت ما أحدثك حديث خرافة. قال: اما إنه قد كان»[٣]. وذكَر أيضاً أنه قال لها: «إن أصدق الأحاديث حديث خرافة»[٤].

---

[1] تاج العروس (١/ ٣٧٨)، (عرقب).
[2] ومنه قولهم:
أقيمي عنــد عنــمٍ لا تــراعي   من القتــل التي تلــوى الكثيب
لأنتــم حين جــاء القوم سيراً   على المخزاة أصبر من قضيب
أي لم تطلبوا بقتلاكم، فأنتم في الذل كهذا الرجل، تاج العروس (١/ ٤٣٣)، (قضب).
لأنتم، يوم جــاء القوم ســيراً   على المخزاة أصبر من قضيب
اللسان (١/ ٦٨٠)، (قضيب).
[3] تاج العروس (٦/ ٨٣)، (خرف).
[4] ابن قتيبة، المعارف (٦١٠ وما بعدها)، (حديث خرافة).

الفهرس

٦١. أديان العرب ٥
٦٢. التوحيد والشرك ٣٤
٦٣. أنبياء جاهليون ٨٣
٦٤. الله ومصير الإنسان ١٠٢
٦٥. الروح والنفس والقول بالدهر ١٣٦
٦٦. الآلهة والتقرب إليها ١٦٣
٦٧. التقرب إلى الآلهة ١٨٤
٦٨. رجال الدين ٢١٢
٦٩. الأصنام ٢٢٧
٧٠. أصنام الكتابات ٢٩٠
٧١. شعائر الدين ٣٣٦
٧٢. الحج والعمرة ٣٤٧
٧٣. بيوت العبادة ٣٩٨
٧٤. الكعبة ٤٢٩
٧٥. الحنفاء ٤٤٩
٧٦. اليهودية بين العرب ٥١١
٧٧. اليهود والإسلام ٥٤٣
٧٨. شعر اليهود ٥٦٩
٧٩. النصرانية بين الجاهليين ٥٨٢
٨٠. المذاهب النصرانية ٦٢٣

٨١. التنظيم الديني ٦٣٨
٨٢. أثر النصرانية في الجاهلية ٦٦٢
٨٣. المجوس والصابئة ٦٩١
٨٤. تسخير عالم الأرواح ٧٠٥
٨٥. في أوابد العرب ٧٥٥
٨٦. الطيرة ٧٨٦
٨٧. من عادات وأساطير الجاهليين ٨٠٦
الفهرس ٨٢٣